وليم شايرر

قيام وسقوط الرايخ الثالث

« نهاية دكتاتور »

الجزء الأول

نقله إلى العربية

جرجيس فتح الله

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر – حي œ«e½Uš – اربيل– كُردستان العراق
ص.ب رقم: ١

وليم شايرر

قيام و سقوط الرايخ الثالث

«نهاية دكتاتور»

الجزء الأول

نقله إلى العربية
جرجيس فتح الله

اسم الكتاب: قيام وسقوط الرايخ الثالث «نهاية دكتاتور» - الجزء الأول
تأليف: وليم شايرر
نقله الى العربية: جرجيس فتح الله
من منشورات ئاراس رقم: ١٧٠
التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي
الغلاف: شكار عفان النقشبندي
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
تنضيد: دار ئاراس
تصحيح: شاخوان كركوكي
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
الطبعة الأولى: مطبعة وزارة التربية - أربيل ٢٠٠٢
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في أربيل: ٤٩٦ / ٢٠٠٢

تاريخ التأليف ١٩٥٩

الطبعة الأولى ١٩٦٠

الطبعة الرابعة عشرة: آب ١٩٦١

"طبع في الولايات المتحدة الأمريكية"

الترجمة تمت بين ١٩٦٦/٤/٩ و ١٩٦٦/٩/٤

في سجن بغداد المركزي

ملاحظة الناشرين

يعرض هذا الكتاب لأول مرة قصة إمبراطورية هتلر بكل تفاصيلها ودقائقها. وهي واحدة من أهم قصص التاريخ تفرغ لكتابتها واحد من أعظم المثقفين المختصين.

لم يسبق لإمبراطورية جبارة أن خلّفت كما خلّف الرايخ الثالث أكداساً من الوثائق والمستندات للمؤرخين والمتتبعين، حول قيامها وإنهيارها. وحسبنا أن نذكر أن قيام الحلفاء بطلب الإستسلام دون قيد أو شرط، بعد طيّ آخر صفحة من صفحات القتال المرير وقبل تمكن النازيين من إتلاف وثائقهم وإحراق أضابيرهم - قد زودنا بمستمسكات يمكن إحتساب تفاصيلها بالساعات عن الكابوس الرهيب الذي نشرته إمبراطورية هتلر.

كان (ويليام شايرر) الذي ظل يرصد النازيين ويكتب عنهم منذ العام ١٩٢٥، قد تفرغ لخمس سنوات وستة أشهر يغربل هذه الوثائق وينخلها نخلاً ليستخلص منها ومن التقارير الصحفية عن الأحداث وقت وقوعها في ألمانيا وأوروبا معلومات مستفيضة طريفة عن فترة أربعين عاماً أو تزيد- ليصنّف منها هذا التأريخ الوثاقي الدقيق. لفصلٍ من أشدّ فصول تاريخ البشرية هولاً وإرهاباً.

في هذا الكتاب نجد قصة هتلر في حبّه وسجنه وتعلقه بفنون الحرب وعنفه الجنوني الإنتحاري الذي أدّى به الى تخريب بلاد طالما إدّعى بأنه أحبها حب العبادة.

وفي هذا الكتاب تجد أيضاً وثائق هيئة أركان الحرب الألمانية العليا وأهوال معسكرات الإعتقال والإرهاب البربري اللاساميّ وتدهور قيم الشعب الألماني. والمقاومة الداخلية المتمثلة في المؤامرات التي حيكت للإطاحة بالنازية ولم يكن يُعرف عنها من قبل إلا القليل.

ونجد فيه أيضاً تفاصيل مدهشة مثيرة عن الميثاق السوفياتي-النازي للعام ١٩٣٩، والمكائد التي دُبِّرت لإسقاط الجنرالات الألمان الكبار والمجهودات المضحكة المخجلة التي بُذلت لإسكات هتلر بإشباع أطماعه الأشعبية وفشل ألمانيا في غزو إنكلترا. وخطط هتلر لإختطاف الدوق وندسور وزوجته. الى مئات من الوقائع السرية المتعلقة بالحرب.

مقدمة المؤلف

عشت وعملت في بلاد الرايخ الثالث طوال النصف الأول من حياتها القصيرة أرقب عن كثب (أدولف هتلر) وهو يفرض دكتاتوريته على هذا الشعب الذي حارت فيه العقول، ثم يقوده الى الحرب والفتوح. على إن تجاربي الشخصية هذه لم تدفعني الى تأليف هذا الكتاب لو لم تزودني نهاية الحرب العظمى الثانية بحافز فريد من نوعه في التاريخ.

هذا الحافز هو وضع اليد على أغلب الوثائق والمخابرات السرية للحكومة الألمانية ولكل أقسامها، ومن ذلك وثائق وزارة الخارجية، والجيش والأسطول وسجلات الحزب النازي ووثائق الگشتاپو (شرطة هاينريخ هملر السرية)، والحق أنه لم يحدث أن وقع كنز عظيم مثل هذا في أيدي أي مؤرخ معاصر. فإلى هذا الزمن كانت أرشيفات الدول المعظمة تظل في حرز حريز ولايكشف عن سرها عندما تهزم في حرب أو يطوّح بنظام حكمها كما حصل في ألمانيا السنة ١٩١٨ وروسيا في ١٩١٧. فلم تنشر الحكومات الجديدة منها إلا ما يخدم مصالح النظام الذي جاء على أنقاضها.

إن الإنهيار السريع الذي حاق ببناء الرايخ الثالث في ربيع ١٩٤٥ أدى الى تسليم أكداس هائلة من الوثائق السرية فضلاً عن مواد أخرى لاتُقيّم بثمن كاليوميات الخاصة والخاطرات الشخصية ونصوص الخطب السرية جداً ومحاضر المؤتمرات السرية والمراسلات الملحقة بها. بل هنالك ملخصات المكالمات التلفونية بين زعماء النازي وأقطابهم كانت تلتقطها دائرة خاصة في وزارة الطيران إستحدثها (هرمان گورنگ).

كان الجنرال (فرانز هالدر Franz Halder) يحفظ يومياته القيّمة جداً بطريقة الإختزال المسماة Ga-belsberger ولم يكن يكتفي بتدوينها يوماً فيوماً بل ساعة فساعة خلال نهاره. وهي والحق يقال مصدر فريد للمعلومات في الفترة الواقعة ما بين ١٤ آب ١٩٣٩ وحتى ٢٤ أيلول ١٩٤٢، ويمثل الزمن الذي قضاه رئيساً لهيئة الأركان العامة للجيش الألماني، بإتصال مباشر يومي بهتلر وغيره من أقطاب النازي. وهي أفصح يوميات وأصرحها وأحفلها بالحقائق.

على أن ثم مذكرات لاتقل عنها قيمة كيوميات الدكتور جوزف گوبلز Dr. Joseph Gobbels وزير الدعاية والصديق الحزبي الحميم لهتلر. ومذكرات الجنرال ألفريد يودل Alfred Yodl مدير دائرة الحركات في القيادة العليا للقوات المسلحة O.K.W. وهنالك أيضاً سجل الوقوعات اليومية للقيادة نفسها، ويوميات قيادة الأسطول العليا. والحق يقال أن الأضابير الستين ألفاً – وهي مجموعة سجلات الأسطول الألماني التي وقعت غنيمة حرب في شلوس تامباخ Schloss Tambach قرب كوبورگ Coburg تحوي فعلاً كل الجفرات والرموز والمذكرات ورسائل مختلف قطع الأسطول ويومياتها من نيسان ١٩٤٥ وقت وضع اليد عليها، فنازلاً حتى ١٨٦٨ وهو تاريخ إنشاء أسطول ألمانيا الحديث.

أما وثائق وزارة الخارجية الألمانية التي تزن (٤٨٥) طناً فقد غنمها الجيش الأمريكي الأول : بجمعها من مختلف القلاع والمناجم في جبال (الهارز Harz) قبل إحراقها بوقت وجيز تنفيذاً للأوامر الصادرة من برلين. هذه الوثائق تتعدى فترة حكم الرايخ الثالث الى فترة النظام الجمهوري (جمهورية ڤايمر Weimer) وتصل الى مبدأ الرايخ الثاني أيام بسمارك Bismark. بقيت أطنان الوثائق النازية مختومة مخزونة في مستودع جيش الولايات المتحدة الكبير في مدينة ألكساندريا - بڤيرجينيا. ولم يبد من حكومتنا ما يدل على إهتمامها بفتح الصناديق المحكمة الختم للبحث عن معلومات تاريخية فيها. وبعد مرور عشر سنوات على وقوعها فُضت أختامها ١٩٥٥ والفضل في هذا يعود الى (جمعية التاريخ الأمريكية) وسخاء مؤسستين علميتين خاصتين. وهنا بدأت مجموعة صغيرة جداً من الباحثين تساعدها زمرة أصغر منها من الكتبة والموظفين وبقليل من المعدات والأدوات تتولى فحصها وتصويرها قبل أن تقوم الحكومة بإعادتها الى ألمانيا، إذ كانت في عجلة شديدة من أمرها. ولقد كانت تلكم الأوراق ذات قيمة عظيمة.

قيّمةٌ والحق يقال! فهنالك "المحضر الأمني" المكتوب بطريقة الإختزال لمؤتمرات هتلر الواحدة والخمسين حول الموقف الحربي اليومي كما كان يبسط وتتم المداولة فيه من مقر قيادة هتلر. وهناك أيضاً النص الكامل لمداولات أمير الحزب النازي مع قادة ومستشاري الحزب أثناء الحرب. إنتشل الأول منهما ضابط إستخبارات أمريكي تابع للفرقة المظلية المائة والواحدة - من بين بقايا أوراق هتلر الخاصة التي أحرقت ببرختسگادن Berchtesgaden. أما الثاني فقد تم العثور عليه بين أوراق (مارتن بورمان Martin Bormann).

وجُمعت مئات الألوف من الوثائق النازية المستولى عليها بغاية من السرعة في نورمبرگ Nu-remberg لتقديمها كوسائل إثبات في محاكمات مجرمي الحرب النازيين الكبار. وقد جمعت أثناء تعقيب الجزء الأول من وقائع تلك المرافعات - أكداساً من النسخ المنقولة حرفياً على أصولها، ثم حصلت على المجلدات الإثنين والأربعين من محاضرات الشهادات والمستمسكات مع ملحق لها يتألف من عشرة مجلدات الى جانب ترجمات لكثير من الوثائق المهمة. أما الوثائق الباقية فقد نشرت في مسلسل يتألف من خمسة عشر مجلداً آخر لمحاكمات نورمبرگ الإثنتي عشرة التالية، وهي ذات قيمة ولو أغفلت الطبعة أكثر الشهادات والوثائق.

وبالإضافة الى هذه الأكداس غير المسبوقة من الوثائق، هناك أيضاً محاضر إستجوابات مسهبة لضباط الحرب الألمان وموظفي الحزب والحكومة وشهاداتهم المعززة بالقَسَم في مختلف محاكمات ما بعد الحرب، وقد زودني هذا بمواد ما كنت أحلم بها بعد حرب مثل هذه.

إني بالطبع - لم أقرأ كل هذا المقدار الهائل من الوثائق، فهذا ما لا طاقة به لأي فردٍ، على إني شققت طريقي خلال جانب كبير منها وكان عملي يتسم بالبطء كأي فلاح في بستان الكرم الغنية هذه، لإفتقاري الى الفهارست والقوائم المنظمة.

يعجب المرء حقاً من قلة ما كنا نعرف نحن الذين عشنا في ألمانيا أيام الحكم النازي دبلوماسيين

وصحفيين. ما أتفه ذلك الذي توصلنا إليه مما جرى خلف واجهة الرايخ الثالث! وتلك هي طبيعة الحكم الدكتاتوري المطلق فمن صفاته العمل بكتمان والحرص على الأسرار لئلا تنتهبها أعين الأجانب المستطلعة. قد يسهل علينا أن نصف ونؤرخ حوادث النازيين المثيرة والشنعاء أحياناً - مما جرى إبان الرايخ الثالث كوصول هتلر الى الحكم، وحرق الرايخشتاغ Reichtag ومؤامرة روهم Roahm الدموية وضم النمسا وإستسلام چمبرلين وإحتلال چيكوسلوڤاكيا وغزو پولندا وسكندينافيا والهجوم على الغرب والبلقان وروسيا وفظائع الإحتلال النازي ومعسكرات الإعتقال وتصفية اليهود. أما القرارات الحاسمة التي كانت تتخذ سراً، والمكائد والخيانات والأسباب والدوافع ولوثات الجنون التي كانت تدفعها الى حيز التنفيذ والأدوار التي مثّلها الممثلون الرئيسون وراء الستار ومدى الخوف الذي كانوا يشيعونه في النفوس، وأساليبهم في تنظيم ذلك، فكل هذا وكثير غيره قد بقي معظمه مغطّى الى أن رأت الوثائق الألمانية ضوء النهار.

قد يرى بعض الناس أن كتابة تاريخ للرايخ الثالث إنما هو عمل سابق لأوانه. وأن عملاً كهذا العمل يجب أن يُترك للجيل القادم من الكتاب الذين سيعجم الزمن عودهم ويتيح لهم مجالاً أرحب وقد وجدت هذا الرأي يسود جمهرة الباحثين في فرنسا، وخاصة عندما ذهبت إليها متصيداً مواد كتابي هذا، فقيل لي لايجمل بالمؤرخ أن يتصدى لتاريخ حقبة من التاريخ أقرب من حقبة ناپوليون.

في هذه الفكرة وجاهة وبعد نظر. فقد إنتظر معظم المؤرخين خمسين سنة بل قرناً كاملاً بل أكثر من قرن قبل أن يحاولوا كتابة جزء محدود من تاريخ بلاد أو إمبراطورية أو عصر. أوَليس السبب الأول في تلكؤهم هذا هو حتمية إنتظارهم وقتاً طويلاً ليتم الكشف عن الوثائق التي يحتاجونها كي يتزوّدوا منها بالمادة والمراجع والمصادر الموثوقة؟ وقد يتوفر هذا الزمن الطويل لكن بمروره يفقد المؤرخون شيئاً مهماً وهو المعرفة الشخصية بالحياة والزمن والشخصيات التاريخية وغير ذلك مما سيكتبون عنه.

إن قضية تاريخ الرايخ الثالث تقف حدثاً فريداً من نوعه. فكل الوثائق المتعلقة به تكاد تكون ميسورة بعد أن تم إنهياره، الى جانب إعترافات الأحياء من قادته عسكريين ومدنيين. وهي إعترافات قيّمة أخذ بعضها في آخر لحظات حياتهم. أو قبل إعدامهم الحياة. بهذه المصادر التي لايمكن مضاهاتها، وبهذا المقدار المتوفر بنهاية السرعة إضافة الى ذكرياتي عن حياة ألمانيا النازية وتصرفات الرجال الذين حكموها وفي مقدمتهم أدولف هتلر وهي مازالت في مخيلتي وعظامي- قررت القيام بمحاولة كتابة مؤلَفي "قيام وسقوط الرايخ الثالث".

قال "ثوكيديدس Thocydides" وهو من أعاظم كتاّب التاريخ - في كتابه تأريخ حرب (الپلوپونيز):

"عشت هذه الحرب. وكنت في سنٍ تؤهلني الى فهم الأحداث وإعطاء رأيٍ فيها بحيث إستطعت الوصول الى كبد الحقيقة منها". على إني وجدت من الصعوبة القريبة من المستحيل أحياناً، معرفة الحقيقة عن ألمانيا الهتلرية. إن جبال المواد الوثائقية تُعين المرء على تلمس السبيل الى الحقيقة أكثر مما بدا ذلك ممكناً قبل عشرين عاماً. لكن كميتها الهائلة كثيراً مما توقع المرء في حيرة. وكل المدونات

البشرية لاتخلو من هذه التناقضات المحيّرة.

وكان مقدراً لأحكامي وميولي الخاصة النابعة عن تجاربي ومعاناتي أن تتسلل وتزحف الى صحائف هذا الكتاب بين الفينة والفينة بطبيعة الحال. فأنا مثلاً مبغض للدكتاتورية المطلقة كمبدأ أساسي ولطالما إشمأزت نفسي من هذه الدكتاتورية نفسها وسأبقى كارهاً لها طول حياتي بعد أن عشت ردحاً من الزمن في ظلها أرقب صولتها القبيحة على النفس البشرية. على أني حاولت في هذا الكتاب أن أكون موضوعياً متمسكاً بأدق المقاييس، تاركاً الحقائق تفصح عن نفسها، مثبتاً مصادر تلكم الحقائق بالترتيب. ولم أذكر حادثة أو مشهداً أو مقتبساً من وحي مخيلتي. إلا وهو مستند الى وثائق وإعترافات شهود عيان أو على ملحوظاتي الخاصة. وفي الحالات الخمس أو الست التي يلاحظ فيها بعض غموض أو إختلافات في وجهات النظر بسبب فقدان الحقائق لم أغفل عن التنبيه اليها في مواضعها.

ولست أشك في أن إيضاحاتي وتفاسيري قد توضع موضع الأخذ والردّ. وهو ما لا مفرّ لي منه مادام هناك آراء قد تبلغ حداً من الحصافة وشأواً من الكمال. وما أدرجته هنا من آراء إستهدفت منه توضيح الأحداث والغوص في أعماقها إنما هو خير ما توصلت اليه من إستنتاج، وعصارة ما كسبته من خبرة وتجارب ومعرفة.

ربما كان "أدولف هتلر" خاتمة الفاتحين المغامرين الكبار من طراز (الاسكندر) و(يوليوس قيصر) و(ناپوليون) وربما كان الرايخ الثالث آخر الإمبراطوريات التي أقيمت على غرار ما أُقيم في مقدونيا وروما وفرنسا. ومهما يكن من أمر فقد أُسدل الستار على تلك الحقبة من التاريخ، تاريخ إنشاء الامبراطوريات بإختراع القنبلة الذرية والهيدروجينية المفاجيء وبالصواريخ الموجهّة والمركبات التي يمكن تسديدها وإيصالها الى القمر. وفي عصرنا الجديد هذا عصر المخترعات المهولة الفاتكة التي حلّت محل الأسلحة العتيقة بسرعة خاطفة، ستكون أول حرب عدوانية عظيمة -إن قُدِّر لها أن تأتي- من عمل مجنون صغير ذي نزعة قتالة يبدأها بالضغط على زرٍّ إلكتروني. وحرب كهذه لاتدوم طويلاً ولايتمكن أحد من متابعتها ولكن لن يكون فيها غالب أو مغلوب. وستتجلى آثارها في عظام متفحمة مبعثرة فوق سطح كوكب سيار ميت فقد كل أثر للحياة.

الكتاب الأوّل

ظهور « أدولف هتلر »

الفصل الأول

ميلاد الرايخ الثالث

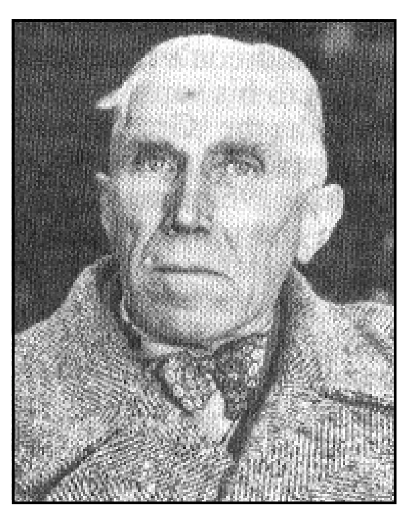
-١-

ساد برلين توتر محموم في أول ساعة ولادة الرايخ الثالث. وبدا لكلّ أمريء تقريباً أن جمهورية (ڤايمر) على وشك السقوط. فهذه أكثر من سنة وهي تتداعى بسرعة مطردة. فالجنرال كرت ڤون شلايخر Kurt Von Schleicher الذي كان قليل الإكتراث بالجمهورية، وأقل إكتراثاً بالديمقراطية كسلفه فرانس ڤون پاپن Franz Von Papen والذي حكم مثله مستشاراً بموجب مرسوم جمهوري دون أن يحوز ثقة البرلمان- إنتهى حكمه بعد سبعة وخمسين يوماً فقط من تسلّمه.

في نهار السبت الموافق ٢٥ كانون الثاني ١٩٣٣ أصدر الفيلد مارشال الهَرِم ڤون هندنبرگ Von Hindenberg رئيس الجمهورية مرسوماً بتنحيته عن منصب المستشارية دون سابق إنذار. وراح أدولف هتلر زعيم الإشتراكيين القوميين وهو أكبر الأحزاب السياسية في ألمانيا، يطلب لنفسه المستشارية في تلك الجمهورية التي حلف على تدميرها.

وفي يوم الأحد القرّ الحاسم هذا، إنتشرت أغرب الشائعات عما يتوقع حدوثه. وأبعث تلك الشائعات على القلق لم تكن تخلو من أساس. كانت ثم أنباء تشير الى أن (شلايخر) يتهيأ بالإتفاق مع الجنرال "كرت ڤون هامرشتاين Kurt Von Hammerstein قائد الجيش العام للقيام بإنقلاب عسكري عن طريق إستخدام حامية پوتسدام Potsdam وإعتقال رئيس الجمهورية وإقامة دكتاتورية عسكرية. وتطايرت إشاعات عن إنقلاب نازي تقوم به فرقة الصاعقة في برلين بمساندة أشياع النازي في الشرطة فتحتلّ "شارع ڤلهلم Wilhelmstrasse" حيث يوجد قصر رآسة الجمهورية ومعظم الوزارات. وأشيع عن إعلان الإضراب العام. وفي نهار الأحد الموافق للتاسع والعشرين من كانون الثاني إحتشد مائة ألف عامل نقابي في لوستگارتن Lustgarten بقلب برلين إحتجاجاً على تعيين هتلر لمنصب المستشارية. وحاول زعيم نقابي الإتصال بالجنرال (هامرشتاين) مقترحاً عملاً مشتركاً بين الجيش والمنظمات النقابية إذا ما استدعي هتلر لرآسة الحكومة[١]. فقد سبق لإضراب عام مماثل أن أنقذ رئيس الجمهورية في محاولة إنقلاب كاپ Kapp الفاشلة العام ١٩٢٠ بعد فرار الحكومة من العاصمة.

١- مذكرات هامرشتاين إقتباس "هويلر بينيت" من كتابه The Nemesis of Power ص٢٨٥، كتب المذكرات إبنه "الدكتوركونراد ڤون هامرشتاين" عن ملحوظات أبيه ويومياته نشرت بعنوان "شلايخر، هامرشتاين والإستيلاء على الحكم".


پاپن

ظل هتلر معظم ليلة الإثنين يقطع أرض غرفته في فندق كـايزرهوف Kaiserhof في رايشسكانسلرپلاتز Re-icheskancylerplatz المجاور لدار المستشارية[٢] غدوة ورواحاً. وكان واثقاً رغم هياجه العصبي أن ساعته قد حانت. فقد مضى عليه زهاء شهر وهو يفاوض في السر (پاپن) وغيره من زعماء اليمين المحافظين. وكان مضطراً الى هذه المساومة فهو لايستطيع تأليف حكومة نازية خالصة. إلا أنه يمكن أن يترأس وزارة إئتلافية: ثمانية من أصل أعضائها الأحد عشر غير نازيين متفقون معه على إلغاء حكومة (ڤايمر) ذات الطابع الديمقراطي. ولم يكن يعترض سبيله في ذلك غير الرئيس العنيد الهرم. فقبل يومين فقط من هذا التاريخ أي في ٢٦ كانون الثاني كان الفيلد مارشال الشائب قد قال للجنرال ڤون هامرشتاين، إنه لاينوي مطلقاً "أن يجعل نائب العريف النمساوي هذا وزيراً للدفاع ولا مستشاراً للرايخ"[٣].

ومع هذا فقد ضعف الرئيس الخرف تحت ضغط إبنه الرائد أوسكار ڤون هندنبرگ، وأوتو ڤون مايسنر Otto Von Meissner سكرتير الرئاسة لشؤون الدولة. وڤون پاپن وغيرهم من موظفي القصر. كان هندنبرگ قد أناف على السادسة والثمانين وهو يغذ الخطى الى الخَرَف وفي عصر يوم الأحد العصيب كان هتلر يتناول القهوة والكعك مع گوبلز ومساعديه الآخرين حين فوجئوا بهرمان گورنگ Hermnn Georing رئيس مجلس الرايخشتاغ، والتالي لهتلر في قيادة الحزب يدخل الغرفة ويعلن بلهجة جازمة أن هتلر سيُعين مستشاراً نهار الغد[٤].

وقُبيل ظهر يوم الإثنين الموافق للثلاثين من كانون الثاني ١٩٣٣ إنطلق هتلر الى قصر المستشارية لمقابلة (هندنبرگ) الحاسمة له ولألمانيا وللعالم أجمع. وكان (گوبلز) و(روهم) وغيرهما من أقطاب النازيين يشرئبون بأعناقهم من إحدى نوافذ كايزرهوف متطلعين بقلق الى باب المستشارية يرقبون موعد قدوم هتلر. وقال (گوبلز): سنقرأ على وجهه علائم النجاح أو الفشل . فهم لم يكونوا واثقين حتى تلك الساعة. وقد كتب گوبلز في يومياته: "كانت قلوبنا نهباً موزعاً بين الشك والأمل، والخيبة والفرح. لقد ذقنا مرارة الفشل عدة مرات حتى إننا لم نعد واثقين تماماً بوقوع المعجزة الكبرى"[٥].

وبعد دقائق قليلة شاهدوا المعجزة: هذا الرجل ذو الشارب الشبيه بشارب (شارلي شاپلن)، الذي قضى أيام شبابه في ڤيينا يعيش عيشة المتشردين، ثم أصبح جندياً خاملاً من جنود الحرب العظمى

٢- جوزف گوبلز: (من كايزرهوف - الى المستشارية) ص٢٥١.
٣- مذكرات هامرشتاين إقتباس هويلر بينيت Wheeler Bennet ص٢٨٠.
٤- گوبلز المرجع السالف - Von Kaiserhof Zur Reichskonzler ص٢٥٠.
٥- المرجع نفسه ص٢٥٢.

الأولى، وأحد المنبوذين في الأيام الأولى العصيبة لما بعد الحرب في مونيخ والزعيم المضحك لإنقلاب مشرب البيرة، هذا المشعوذ الذي لم يكن ألمانياً بل نمساوياً والبالغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً، قد خرج بعد أن أدى اليمين القانونية بوصفه مستشاراً للرايخ الألماني.

وسرعان ما وجد نفسه بين رفاقه في كايزرهوف بعد أن قطع الياردات المائة. وحفّ به گوبلز وگورنگ وروهم وغيرهم من ذوي القمصان الرمادية الذين ساعدوه في طريقه الشاقة القاسية الى السلطة. وكتب گوبلز عن ذلك: "لم يقل (هتلر) شيئاً ولم يتلفظ أحدنا بكلمة، لكن عينيه كانتا مخضلتين بالدموع"(٦).

وفي مساء هذا اليوم قامت فرق الصاعقة النازية المتحمسة بإستعراض جبار بالمشاعل من الغسق الى ما بعد نصف الليل إحتفالاً بالفوز. خرجوا في أرتال منتظمة بعشرات الألوف من قلب "تيرگارتن Teirgarten" ومروا من تحت باب براندبرگ وقوسه. واخترقوا (شارع ڤلهلم) وأجواقهم تصدح بالمارشات العسكرية العتيقة على إيقاع الطبول الهادرة وكانت أصواتهم تزعق بنشيد "هورست ڤيسل Horst Wessel" الجديد وما إليه من الأناشيد العتيقة عتق ألمانيا. وأحذيتهم ذات الكعوب المعدنية تدق دقاً هائلاً على بلاط الشارع، ومشاعلهم مرفوعة الى فوق بهيئة تؤلف نارها شريطاً ملتهباً بدّد غيهب الليل وإنتزع هتاف الإعجاب من المتفرجين الآخذين بعضهم بحُجُز بعض على الأرصفة. وكان (هندنبرگ) يتأمل من نافذة قصره تلكم الكتل المتراصة السائرة ويدق الأرض بعصاه لحون المارشات العسكرية الصادحة وهو ظاهر الجذل والحبور لأنه إختار مستشاراً في وسعه أن يرفع معنويات الشعب على الأسلوب الألماني التقليدي. ومن المشكوك فيه أن يكون هذا الشيخ الهرم قد أدرك بخَرَفه مغزى القوى التي أطلق لها العنان في ذلك اليوم المشهود، فعلى كل حال إنتشرت قصة في برلين ربما كانت ملفقة ومؤداها أن المارشال الشيخ إلتفت الى جنرال قريب منه أثناء مشاهدته العرض وقال له:

- لم أكن أدري أننا أسرنا هذا العدد الكبير من الروس!

كان أدولف هتلر واقفاً أمام نافذة مفتوحة في المستشارية على مسافة مرمى حجر من (ڤلهلمشتراسّه) والدنيا لاتكاد تسعه فرحاً وتأثراً وهو يدور في أرجاء الغرفة راقصاً نطاطاً رافعاً يده بالتحية النازية بإستمرار ضاحكاً مستبشراً وقد إمتلأت عيناه بالدموع.

هنالك مراقب أجنبي كان يتابع ما يجري في تلك الأمسية بمشاعر نفسية مختلفة وهو "أندريه فرانسوا پونسيه Andre` Francois Pocet" السفير الفرنسي الذي كتب خاطرته التالية: "إن نهر اللهيب قد مر بالسفارة الفرنسية وأنا أرقب إضطرامه المتوهج بقلب مثقل بالإشمئزاز"(٧).

وآب گوبلز الى بيته في الساعة الثالثة صباحاً منهوك القوى ولكنه سعيد وكتب قبل أن يستسلم الى الكرى ما يلي: "إنه لأشبه بحلم... بل أسطورة!... الرايخ الجديد وُلد الآن. أربعة عشر عاماً تُتوج

٦- المرجع نفسه ص٢٥٢.
٧- "السنوات الحاسمة" ص٤٨. كان السفير الفرنسي في برلين من ١٩٣٠ - ١٩٣٨.

بالنصر، لقد بدأت الثورة الألمانية"[٨].

إن الرايخ الثالث الذي ولد في الثلاثين من كانون الثاني عام **١٩٣٣**، و"سيبقى ألف سنة كاملة"[٩] على ما فخر به هتلر متخذاً له تعبير "الرايخ الألفي"، لم يدم غير إثنتي عشرة سنة وأربعة أشهر، إلا أنه في هذه الفترة القصيرة جداً من عمر التاريخ، أحدث إنفجاراً على الكرة الأرضية أشد عنفاً من أي إنفجار عرفته من قبل. لقد رفع الشعب الألماني الى أعلى عليين مما لم يره منذ ألف سنة أو أكثر وجعله سيد أوروپا من ساحل الأطلسي حتى ضفاف (الڤولگا) ومن القطب الشمالي حتى البحر الأبيض المتوسط، ثم هبط به الى أسفل سافلين وقذف به الى لجة من الخراب والدمار في أعقاب حرب عالمية أثارها ذلك الشعب ببرودة دم، ومارس خلالها حكماً من الرعب والإرهاب على الشعوب المغلوبة فاق كل ما عرفته الأجيال السابقة من إضطهاد وحشي جرى وفق مجازر مخططة محسوبة لمعشر بني البشر.

لاشك في أن هذا الرجل الذي أوجد الرايخ الثالث وحَكَمَه بصرامة، وبذكاء غير عادي أحياناً، ثم إرتقى به الى هذا الإرتفاع المخيف الذي يقطع الأنفاس ثم هوى به من حالق الى تلك الهوة المريعة، كان من العباقرة، إلا أنها عبقرية شريرة. إنه والحق يقال وجد في الشعب الألماني طبيعة منقادة ساعدته على تحويلها الى قوة ملائمة لأغراضه المشؤومة كما إصطلحت على صياغة ذلك الشعب بهذا الشكل قرون من التجارب وأقدار غامضة. لكن الثابت إنه ما كان ليظهر الرايخ الثالث الى الوجود لولا شخصية "أدولف هتلر" التي إجتمع فيها الشر الشيطاني والإرادة الصخرية والقسوة الباردة والذكاء الباهر والخيال المفرط والغرائز التي لاتعرف حدوداً والأهلية الكفوءة للحكم على الأشخاص والظروف حكماً صائباً، تلك الأهلية التي لم تفارقه حتى النهاية عندما أثملته خمرة النصر والنجاح.

قال عنه فريدريك ماينكه Friedrich Meinecke وهو مؤرخ ألماني مشهور: "إنه مَثَلٌ من الأمثلة العظيمة لشخصية فريدة ذات قوى لايمكن قياسها في حياة التاريخ"[١٠]. وكان الأمر لبعض الألمان ولمعظم الأجانب يبدو وكأن دجالاً قد وثب الى الحكم في برلين. أما بالنسبة الى أغلب الألمان فقد كان هتلر -أو سيكون فيما بعد- الزعيم الملهم الحقيقي. ولقد قُدّر لهؤلاء أن يتبعوه معصوبي الأعين -كأنما سحرهم بسلطان إلهي- خلال تلك الأعوام الإثني عشر الملأى بالزوابع والأعاصير.

-٢-

مجيء أدولف هتلر

لو حكمنا على هتلر من أصله ومنبته وحياته الأولى لصعب علينا أن نتصور أهليته في إرتداء جبة

٨- گوبلز: المرجع السالف، الص٢٥١-٢٥٤.
٩- بيان الخامس من أيلول في نورمبرگ عام ١٩٣٤.
١٠- فريدريك ماينكه: الكارثة الألمانية ص٩٦.

(بسمارك) وأباطرة (هوهنزلرن Hohenzollerrn) والرئيس هندنبرگ. ذلك النمساوي الأجنبي المنحدر من أسرة فلاحية ولد في الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين من مساء يوم ٢٠ نيسان ١٨٨٩ في گاستهوف زُم پومر Gasthof Zum Pommer وهي حانة متواضعة في بلدة "براوناو آم إن Braounou am Inn على حدود (باڤاريا).

كان لمحل الميلاد على الحدود الألمانية النمساوية أهمية ودلالة خاصة لهتلر الشاب فقد جعله يفكر وهو في مقتبل العمر بعدم ضرورة وجود حدود بين هذين القطرين اللذين ينتميان الى رايخ واحد ويتكلمان الألمانية وكان شعوره بدرجة من الشدة، حتى إنه بدأ سطور كتابه الأولى وهو جالس في أحد السجون الألمانية وعمره خمسة وثلاثون عاماً بمعالجة قضية محل ولادته بأسلوب رمزي، وبهذه السطور بدأ كتاب كفاحي الذي أصبح خريطة تصميم بناء الرايخ الثالث قال: "اليوم يبدو لي وكأن العناية الإلهية إختارت محل ميلادي في مدينة (براناو آم إن) فهي تقع على الحدود التي تفصل ما بين دولتين ألمانيتين أوقفنا حياتنا نحن أبناء الجيل الجديد على توحيدهما بكل طريقة تعنُّ لنا... تلك المدينة الصغيرة على الحدود بدت لي رمزاً لرسالة عظيمة"[١١].

وهو الإبن الثالث لزيجةٍ ثالثة أقدم عليها موظف گمرك نمساوي صغير الشأن، ولد سفاحاً وظل يحمل لقب أسرة أمه شيكلگروبر Schicklgruber تسعة وثلاثين عاماً. ويظهر إسم هتلر في خط سلالة الأم كما يظهر في خط سلالة، الأب "فهتلر هو جده من ناحية أمه كهتلر هي جده من ناحية أبيه، أو هي بالأحرى أسماء متقاربة الجرس والكتابة مثل: هيدلر Hiedler، هوتلرHuetler، هتّلرHuettler، هتلرHitler. وأم هتلر هي إبنة عم أبيه، وقد وجب على الأب أن يحصل على (تفسيح) كنسي لإتمام عَقد الزواج. وكان أسلاف زعيم ألمانيا المقبل صلباً ورحماً يعيشون في (ڤالدڤيرتل Waldviertel) أجيالاً متعاقبة. وهي إقليم في النمسا السفلى يقع بين الدانوب وبين تخوم (بوهيميا) و(موراڤيا). وفي أثناء وجودي هناك مررت بهذا الإقليم وأنا في طريقي الى پراغ أو الى ألمانيا فوجدتها منطقة غابات تنتشر على رقعتها قرى ريفية وحقول صغيرة. ومع أنها لاتبعد عن ڤيينا أكثر من خمسين ميلاً، فجوّها الذي تعيش فيه يوحي ببعدها عن المدينة وبالفقر الشديد. حتى لكأن مسارب الحياة النمساوية الرئيسية لم تمر بها. ويميل السكان الى خشونة الطباع والعزلة كالفلاحين الچيكيين عن شمالهم. والتزاوج فيما بينهم إعتيادي كأبوي هتلر. وأولاد الحرام فيهم كثيرون.

في خط سلالة الأم تجد بعض إستقرار. فقد ظلت أسرة (كلارا پولزل Klara Poelzl) تقطن الملك الفلاحي رقم (٣٧) في قرية شپيتال Spital أربعة أجيال متعاقبة[١٢]. أما حياة أسلاف هتلر الصُلبيين فمختلفة تماماً. ولقد رأينا كيف تفاوتت تهجئة لقب الأسرة وكذلك محل السكنى. فهناك ميل جامح الى التنقل عند آل هتلر ورغبة في التحوّل من قرية الى أخرى ومن عمل الى عمل. وثم نفرة من

١١- كفاحي Mein Komph الطبعة الأمريكية، بوسطن ١٩٣٤، ص٣. في مقتبساتي الكثيرة حاولت أن أغير من الترجمة الإنگليزية لأجعلها قريبة من النص الألماني.

١٢- كونراد هايدن (الزعيم) ص٣٦. كل من كتب عن الرايخ لاشك مدين لهذا المؤلف بالمواد الخاصة بحياة هتلر الأولى.

العلاقات البشرية الثابتة وحب في بوهيمية العلاقة مع الناس.

كان (يوهان جورج هايدلر) جدُّ أدولف طحاناً جوالاً يزاول حرفته في قرية بعد أخرى من قرى النمسا السفلى. ولد له عام ١٨٢٤ إبن بعد زواجه الأول بخمسة أشهر لكن الإبن وأمه ماتا. وعقد بعد ثماني عشرة سنة زواجه الثاني من فلاحة تدعى "ماريا آنا شيكلگروبر" أثناء مزاولته العمل في دورنتال Duerenthal بقرية سترونز Strones وكان لها من العمر (٤٧) عاماً عند ذلك. وقبلها بخمس سنين (أي في ٧ حزيران ١٨٣٧) كانت قد وضعت إبناً غير شرعي سمته (ألواز) وهو على أغلب الإحتمال إبن (يوهان هيدلر) وإن لم يقم دليل كاف على البنوة. ومهما يكن فقد تزوج (يوهان) المرأة أخيراً إلا أنه لم يكلف نفسه مؤونة تبني الطفل الحرام خلافاً للعادة المتبعة ونشأ الولد يحمل لقب أمه "ألواز Alois شيكلگروبر".

توفيت آنا عام ١٨٤٧ وغاب يوهان هيدلر تماماً ثلاثين عاماً ثم ظهر ثانية في بلدة ڤايترا Weitra في ڤالدڤيرل وهو في الرابعة والثمانين وقد تغيرت تهجئة إسمه الى "هتلر"، أثناء مثوله أمام كاتب عدل وبمحضر من ثلاثة شهود للإقرار بأنه والد (ألواز شيكلگروبر!) لماذا إنتظر هذا الشيخ تلك المدة الطويلة لإتخاذ هذه الخطوة، وما الذي دفعه الى إتخاذها أخيراً؟ أمر لاتكشف عن أسبابه المدونات المتيسرة. على إن "هايدن Heiden" يذكر أن (ألواز) قد أسرّ فيما بعد الى صديق، أن الإعتراف ببنوّته لم يجر إلا لتيسير حصوله على جزءٍ من ميراث عمه أخ الطحان الذي كان قد قام على تربية الشاب في بيته[١٣].

لقد تم الإعتراف المتأخر في السادس من حزيران عام ١٨٩٧. وفي ٢٣ تشرين الثاني من العام نفسه قام راعي كنيسة دوللرشهايم Doellersheim بشطب إسم ألواز شيكلگروبر من سجل العماد وكتابة إسم (ألواز هتلر) بدلاً عنه بناءً على وثيقة البنوة التي دُفعت إليه. فصار أب (أدولف) يعرف منذ ذلك الحين فصاعداً بإسم ألواز هتلر. وإنتقل اللقب بطبيعة الحال الى إبنه. ولم تظهر هذه الحقائق للملأ إلا في عام ١٩٣٠ عندما قام صحفيون مغامرون من ڤيينا بتقليب سجلات الأبرشية حتى إكتشفوا الوقائع الخاصة بأسلاف هتلر واطّرحوا جانباً محاولة (يوهان جورج هيدلر) المتأخرة لإنصاف إبنه النغل محاولين شدّ لقب "أدولف شيكلگروبر" الى الزعيم النازي!

هنالك غرائب من تقلبات الحظ في حياة هتلر العجيبة، وليس ثَم أغرب مما حصل قبل ثلاثة عشر عاماً من ميلاده. فلو لم يعد الطحان العجوز ذو الأربعة والثمانين عاماً ليظهر ظهوراً غير متوقع فيعترف بأبوته لإبنه البالغ تسعة وثلاثين عاماً (أي بعد ثلاثين عاماً من وفاة أمه) لظل أدولف هتلر معروفاً بلقبه الأصلي "أدولف شيكلگروبر". وربما لا أهمية في هذا التغيير، بيد أني سمعتُ الألمان يتساءلون هل كان سيقدّر لهتلر أن يتزعم ألمانيا لو ظل معروفاً بلقب شيكلگروبر؟ إن في الإسم جرساً مضحكاً عندما يخرج من شفتي ألمان الجنوب. والمرء لايتمالك نفسه من أن يتخيل كتل الجماهير الألمانية المتحمسة وهي تهتف بالإسم مقروناً بلفظة التحية هايل! هايل شيكلگروبر!

١٣- المرجع السالف، ص٤١.

إن جملة "هايل هتـــلر! Heil Hitler" لم تعد قـاصـرة على ترنيـمها تشبيهاً بالأناشـيد الڤاگنرية Wagenerian التي تطلقها رَبَوات من الحناجر في مشاهد الدروشة المسرحية للكتل النازية المنتظمة صفوفاً متراصة. بل إنها أصبحت التحية المفروضة على الألمان في عصر الرايخ الثالث. وفي التلفون قامت مقام لفظة إفتتاح المكالمة المعروفة "هالو". فمن الصعوبة بمكان والحالة هذه أن نتصور إمكانية التحية بـ"هايل شيكلگروبر"(١٤).

ويبدو إن أبوي ألواز لم يعيشا تحت سقف واحد، حتى بعد تمام زيجتهما لذلك نشأ والد (أدولف هتلر) في كنف عمّه الذي كان يكتب لقبه بشكل لايتفق مع كتابة أخيه يوهان. فقد عرف هكذا "يوهان ڤون نيپومك هوتلر Johan Von Nepomuk Huetler. وللبغض الخالد الذي أنماه الزعيم النازي في شبابه للچيك مما دفع به الى تدمير أوطانهم، فإن إسم عمه الأوسط يستأهل شرحاً: إن (يوهان ڤون نيپومك) هو إسم القديس الوطني وشفيع الشعب الچيكي. ويجد بعض المؤرخين أن ظهور هذا الإسم في أسرة هتلر دليل على وجود دم چيكي فيها.

في مبدأ الأمر تعلم (ألواز شيكلگروبر) صنع الأحذية في قرية (شپيتال). ولما كان حب التجوال مختلطاً بدمائه كأبيه، فقد سافر الى ڤيينا ليجرب حظه. وإنخرط وهو في سن الثامنة عشرة في سلك شرطة الحدود المرتبطة بمصلحة الگمارك النمساوية قرب (سالزبرگ)، وبعد أن رفع الى درجة موظف في الگمارك بإكماله تسع سنوات، تزوج "آنا گلازلهوير Anna Glasl-Hoerer وهي بنت متبناة لأحد موظفي الگمرك، فجاءته بمهر صغير ورفعت من مركزه الإجتماعي على عادة البيروقراطية الصغيرة النمساوية-الهنگارية. لكن الزواج لم يكن سعيداً لأن الزوجة تكبره بأربعة عشر عاماً، وهي عليلة الجسم، ظلت تشكو من العقم حتى إفترقا بعد ستة عشر عاماً. وبعد ذلك بثلاثة أعوام وافاها الأجل في ١٨٨٣.

قبل أن تحصل بين الزوجين الفرقة بدأ ألواز (وكان يُعرف قانوناً بلقب هتلر) يعاشر طاهيةً في فندق إسمها فرانتسكا ماتزلزبرگر Franziska Matzelsberger فولدت له سنة ١٨٨٢ طفلاً سفاحاً سماه (ألواز) وبعد شهر من وفاة زوجته، بنى بهذه الطاهية الشابة فولدت له بعد ثلاثة أشهر من العقد إبنته (آنجلا) ولم يدم الزواج طويلاً فقد توفيت (فرانتسكا) بداء الصدر. وبعد موتها بستة أشهر تزوج (ألواز هتلر) للمرة الثالثة والأخيرة.

كانت العروس الجديدة (كلارا پولزل) التي أصبحت بعد فترة أماً (لأدولف هتلر) تصغر زوجها بثلاثة وعشرين عاماً. وهو في الثامنة والأربعين وقد عرفا بعضهما بعضاً منذ أمد بعيد. فكلارا جاءت من قرية (شپيتال) مسقط رأس آل هتلر وأسلافهم. وجدُّها هو (يوهان ڤون نيپومك هوتلر) الذي ربى إبن أخيه (ألواز شيكلگروبر هلتر) لذلك فهما إبنا عمومة من الدرجة الثانية وكان من

١٤- يبدو إن ذلك لم يخفَ على هتلر نفسه، ففي عهد صباه أسرّ الى صديق حداثته الوحيد قائلاً إنه لم يفرح بشيء في حياته قدر ما فرح بقيام أبيه بتغيير لقب الأسرة. وقال لأوگست كوتبشيك إن إسم "شيكلگروبر" يبدو له غليظاً خشناً فضلاً عن كونه مضحكاً وغير عملي يجافي النطق. وقال إنه يرى لقب (هيدلر) رقيق اللفظ جداً. إلا أن لفظة (هتلر) جميلة سهلة الإستذكار.

الضروري أن يُستحصل (تفسيح) كنسي لإتمام الزواج.

ظلت فكرة هذا الزواج تساور موظف الگمرك عدة سنين بعد أن ضم (كلارا) الى بيته المقفر من الأطفال كإبنةٍ متبناة أثناء قيام زواجه الأول. وهذه الصبية كانت قد قضت ردحاً من الوقت مع آل شيكلگروبر في (براناو) وعندما ظهرت العلة على الزوجة الأولى بدا (ألواز) وكأنه إتخذ قراره في البناء بكلارا بعد وفاة زوجته. لقد تم الإعتراف ببنوته وفوزه بميراث عمه جد كلارا عندما كانت كلارا في السادسة عشرة من عمرها وهي أول سن الزواج لكن علة الزوجة طالت بها بعد الفرقة كما رأينا ولعل إنشغال (ألواز) بعشرة الطاهية فرانتسكا حمل كلارا وهي في العشرين على الرحيل الى ڤيينا والعمل خادمة في أحد المنازل. لكنها عادت بعد أربع سنوات للإشراف على شؤون بيت إبن عمها لأن الزوجة الثانية (فرانتسكا) قضت الأشهر الأخيرة من حياتها بعيدة عن دار الزوجية. وتم قران (ألواز هتلر) بكلارا في ٧ كانون الثاني ١٨٨٥ وبعد أربعة أشهر وعشرة أيام ولد بكرها گوستاف Gustav وتوفي في مرحلة الصبا ولحقت به إبنتهما آيدا Aida المولودة في ١٨٨٦، وكان أدولف الولد الثالث لهذا الزواج الثالث. وولد إبنهما الرابع إدموند Edmund في سنة ١٨٩٤ ولم يعش غير ست سنوات، أما الطفل الخامس والأخير پاولا Paula التي ولدت في ١٨٩٦ فقد ظلت حية وأنافت على أخيها الشهير.

أما (ألواز) أخ أدولف وأخته آنجيلا لأبيه وهما ولدا (فرانتسكا) فقد عاشا وأدركا سن النضوج وتزوجت (آنجيلا) الجميلة بموظف مالي يدعى (راوبال Raubal). وبعد أن توفي عنها عملت في ڤيينا كمدبرة شؤون بيت وإن كانت معلومات (هايدن) صحيحة فإنها إشتغلت فترة من الزمن طاهية في مطبخ خيري يهودي[١٥]. وفي ١٩٢٨ أرسل هتلر بطلبها لتكون مدبرة شؤون بيته في (برختسگادن) ومنذ ذلك التاريخ وإسمها يجري على أفواه أقطاب النازيين في إطراء المعجنات والحلويات العجيبة الفنية التي تصنعها لأخيها وكان مغرماً بهذه الأكلات. ثم ما لبثت أن تركته في ١٩٣٦ لتتزوج پروفسوراً في الهندسة المعمارية يدعى (درسدن Dresden) وغضب عليها هتلر لتركها بيته - وكان آنذاك مستشاراً ودكتاتوراً وأبى أن يرسل لها هدية عرس. وكانت الشخص الوحيد القريب منه من دون أعضاء أسرته -كما يبدو- في سنواته الأخيرة، بإستثناء واحدٍ. فقد كان لآنجيلا بنت شقراء باهرة الجمال إسمها گيلي راوبال Geli Raubal. وهي حب هتلر الحقيقي العميق الوحيد في حياته كما سنرى.

لم يكن "أدولف هتلر" يرغب أن يُذكر أمامه أخوه لأبيه (ألواز ماتزلزبرگر) الذي كانت بنوته قد صُححت فأصبح (ألواز هتلر). إشتغل هذا خادماً في مطعم وظل عدة سنين من حياته طريد العدالة. وذكر هايدن أنه حُكم بعقوبة وهو في سن العشرين وقضى حكماً آخر بالسجن لمدة ثمانية أشهر لسرقة ثانية. ثم إنتقل من النمسا الى ألمانيا ليقع في ورطات أخرى. وفي ١٩٢٤ عندما كان هتلر يعاني غصص السجن لتنظيمه الثورة السياسية في (مونيخ)، أصدرت محكمة (هامبورگ) حكمها بالسجن ستة أشهر على (ألواز هتلر) بتهمة تعدد الزوجات. وبعدها يذكر (هايدن) أنه رحل الى

١٥- المرجع نفسه، ص٤٣.

إنگلترا وهناك أسرع بتكوين أسرة ثم تركها ورحل[١٦].

وبوصول النازيين الى السلطة تحسنت أحوال (ألواز هتلر) ففتح مشرب بيرة صغير Bierstube في ضاحية من ضواحي برلين. وإنتقل منها قبيل الحرب االى حي ڤيتنبرگپلاتز Wittenbergplatz الراقي وهو حي (وست إند) برلين. وكان يغشاه موظفو النازي الكبار. وكان يبدو أثناء سنوات الحرب الأولى عندما عزّت المأكولات، حسن التجهيز بمختلف الأطعمة وفي ذلك الزمن إعتدتُ غشيانه بين آن وآخر. وكان ألواز يناهز الستين، رجلاً طيب القلب فيه بساطة وبدانة وبعض شبه بأخيه لأبيه الشهير وأنت في الواقع لاتستطيع تمييزه بشيء عن عشرات أصحاب المشارب الصغيرة التي يكثر وجودها في ألمانيا والنمسا. إن الأعمال جيدة، ومهما كان ماضيه فهو الآن حسبما يبدو يستمتع بحياة هانئة وكان أخوف ما يخاف أن يخطر ببال أخيه مصادرة إجازته في ساعة غضب أو قرف منه. ويشاع في هذا المشرب أحياناً بأن مستشار الرايخ وزعيمه يتألم كثيراً لوجود هذا الذي يذكره بأصل أسرة (هتلر) الوضيع. وأذكر أن ألواز نفسه كان يأبى أن يجره أحدٌ الى الحديث عن أخيه إباءً تاماً وهذا بعد نظر منه وحكمة، إلا أنها حكمة تزعجنا نحن الذين كنا نحاول أن نعلم كل ما يتسنى لنا صيده عن ماضي هذا الرجل الذي راح يستعد لفتح أوروپا.

وإذا ضربنا صفحاً عن أخبار الأسرة المثبتة في (كفاحي) وهي أخبار متفرقة ومضللة في أغلب الأحيان، مبتورة بتراً شديداً، فنادراً ما كان هتلر يخوض أو يسمح بالخوض في أحوال أسرته وحياته الأولى في المجلس الذي يضمه. ولقد رأينا كيف كانت أحوال أسرته ومطلع حياته.

-٣-

حياة أدولف هتلر الأولى

تقاعد والد "هتلر" من وظيفته في الگمرك وهو في الثامنة والخميسن في ١٨٦٥، وفي تلك السنة دخل الإبن مدرسة قرية فيشلهام Fischlham. وله من العمر ست سنوات. والمدرسة تقع على مسافة قليلة من مدينة لينز Linz. وواصل المتقاعد المغرم بالتنقل تجواله من قرية الى أخرى في ضواحي (لينز) طوال الأعوام الأربعة أو الخمسة. وكان بإمكان الإبن أن يذكر عند بلوغه الخامسة عشرة سبعة تغييرات في محلات الإقامة وخمسة إنتقالات بين مختلف المدارس، وقد داوم خلال سنتين في دير لامباخ Lambach للرهبان البندكتيين حيث كان والده قد إبتاع حقلاً بالقرب منه. وكان في الدير يرتل مع جوقة المرتلين ويتلقى دروساً في الإنشاد ويحلم بمجيء اليوم الذي يُرسم فيه قساً كما ذكَر[١٧]. أخيراً إستقر الأب المتقاعد في قرية (ليوندنگ Leonding) وهي الأخرى من قرى لينز الجنوبية. وسكنت الأسرة منزلاً متواضعاً ذا حديقة.

١٦-المرجع السالف، ص٤٣.
١٧- كفاحي، ص٦.

وأُرسل (أدولف) وهو في الحادية عشر الى ثانوية لينز، وكان ذلك من الأب تضحية مالية، ودليلاً على طموحه الى جعل إبنه موظفاً مدنياً مثله، وهو آخر ما كان يخطر ببال الفتى.

قال "هتلر" فيما بعد[١٨]:

"ما بلغت الحادية عشرة حتى وجدتني أعارض أبي لأول مرة... إني لم أرغب أن أكون موظفاً".

إن قصة كفاح هذا الطفل لإرادة أبيه وهو لم يدخل بعد عقده الثاني ووقوفه وقفة عنيدة أمام صلابته وسيطرته حسب وصفه، هي من إحدى القصص القليلة التي أفاض هتلر في وصفها بأمانة ظاهرة ولهجة صادقة في (كفاحي). وقد نجم عن هذا الصدام أول مظهر لتلك الإرادة العنيفة الهوجاء التي لايفلّ غرابها شيء. تلك الإرادة التي أركبته أخشن المراكب وإنطلقت به بعيداً رغم العوائق التي بدت وكأنها لاتُقتحم، والمواقف الصعبة التي أدت به الى سحق كل من إعترض سبيله فقُدّر لها بالأخير أن تخيم بكابوس لايطاق على ألمانيا وأوروبا.

"لم أرغب قط في أن أدخل سلك الوظيفة... وقد حاول والدي بقصصه عن حياته الخاصة إذكاء حب هذه المهنة في نفسي والإلتذاذ بها فكان لقصصه أثر معكوس تماماً. حتى ضقت ذرعاً وكنت أرتعد فرقاً من فكرة جلوسي في دائرة حكومية مجرداً من حريتي محظوراً عليّ أن أكون سيد وقتي مجبراً على حرف كل محتوى حياتي الى ملء إستمارات وأوراق ليس إلا..."

"وظهر لي يوماً أني سأكون رساماً فناناً... فعقلت الدهشة لسان أبي وصرخ: رسام فنان؟ وشكّ في أني مصاب بلوثة من الجنون أو لعله كذّب أذنيه أو ربما خُيّل له أنه أساء الفهم. وعندما أوضحت له غرضي وبخاصة عندما إقتنع أني جادٌ، راح يعارض رغبتي بكل ما في طبعه من إصرار... فنان؟ كلا لن يحدث هذا ما دمت حياً. ولم ينصرف عن رأيه. ولم يتخل عن كلمة "كلا أبداً" وبقيت مصراً على كلمتي "مهما يكن من أمر"[١٩].

وكانت نتيجة هذا الخلاف (كما ذكر هتلر فيما بعد) أنه إنصرف عن الدراسة "... فكرت أن والدي سيتركني أوقف نفسي على تحقيق حلمي عندما يجد قلة التقدم الذي أحرزه في الدراسة الثانوية. طوعاً أو كرهاً[٢٠]".

هذا ما دوّنه بعد أربعة وثلاثين عاماً، ولعله أراد أن يتخذه عذراً لفشله في الدراسة. وكانت درجاته في الإبتدائية جيدة عموماً إلا أنها ساءت جداً في ثانوية لينز حتى أدت الى حرمانه الشهادة التقليدية. وإضطر أن ينقل تحصيله الدراسي الى ثانوية (شتيير Steyr) الحكومية التي تبعد قليلاً عن لينز وظل فيها حتى تركها قبل التخرج بوقت قصير.

ألهب فشل هتلر المدرسي في جوانب نفسه حقداً عارماً ظل يلاحقه حتى أواخر حياته. فكان يصب جام سخريته على أولئك السادة الأكاديميين ودرجاتهم العلمية وشهاداتهم العالية وأساليبهم التعليمية في معاملة الناس الآخرين. ولم يتحرج عن ذلك حتى في السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة من

١٨- المرجع السالف، ص٨.
١٩- المرجع السالف، ص٨-١٠.
٢٠- المرجع السالف، ص١٠.

حياته. ففي مقر القيادة العسكرية العليا حيث سمح هتلر لنفسه أن يُتخم بتفاصيل الستراتيجية العسكرية والفنون السوقية قضى مرةً أمسية كاملة مع رفاق الحزب القدماء يستذكر غباوة معلميه في عهد فتوته وصباه. وحفظت لنا المدونات طرفاً من هراء هذا العبقري الملتاث. في الوقت الذي كان سيد الحرب الأعلى الذي يقود جيوشه الجرارة من حوض الڤولگا الى القنال الإنگليزي. فمن قوله:

"كلما فكرت بالرجال الذين تلقيت عنهم علومي الأولى، وجدت معظمهم مصابين بلوثات خفيفة من الجنون. إن المعلمين الذين يمكن أن يوصفوا بالجودة هم قلّة. ومما يحزّ في النفس أن يفكر المرء في مدى السلطان الذي منح لهؤلاء للوقوف في سبيل طموح الشباب (٣ آذار ١٩٤٢)[٢١]."

"في نفسي أسوأ الذكريات وأقبحها عن أولئك المعلمين الذين درست عليهم. فمظهرهم الخارجي يدل على قذارتهم، وياقاتهم مدعوكة... إنهم ثمرة الپروليتاريا العارية المجردة عن الإستقلال الذاتي في الفكر والمشهورة بالجهل، لايوازيه جهل تلك الپروليتاريا التي تريد أن تنتظم لتصير عماداً لنظام عقيم من أنظمة الحكم. وقد أصبح الآن والحمد لله أثراً من آثار الماضي: (١٢ نيسان ١٩٤٢[٢٢]).

"كلما أحضرت في ذهني أساتذة المدرسة. أدركت أن نصفهم مخلوقات شاذة غير طبيعية... نحن تلاميذ النمسا ربينا ودرجنا تحت أقدام النساء وكبار السن. ولم تداخلنا بأساتذتنا رحمة فهم أعداؤنا الطبيعيون ومعظمهم مضطربٌ عقلياً. والحق إن قسماً لايُستهان بهم كانوا ينتهون الى البيمارستان... كنت قرفاً من المعلمين بنوع خاص ولم أكن أظهر أقل ميل الى اللغات الأجنبية. وربما إختلف الأمر لو لم يكن معلمي ملتاثاً بالولادة. إني ماكنت أطيق حتى رؤيته. ٢٩ آب ١٩٤٢[٢٣]".

"كان معلمونا مثال الطغاة، لايشفقون على الشباب. وكل همّهم ينحصر في حشو أدمغتنا، وجعلنا قردةً لبقين مثلهم. وإن أظهر تلميذ أقل ميل للإبداع والألمعية إضطهدوه إضطهاداً قاسياً. إن التلاميذ المثاليين الذين عرفتهم كانوا كلهم فاشلين في حياتهم العملية تماماً: ١٧ أيلول ١٩٤٢[٢٤]".

ويظهر أن هتلر لم يغتفر لمعلميه الدرجات السيئة التي أعطوه إياها. وهو لم ينس لهم ذلك حتى يوم موته. إلا أنه كان قادراً على تشويه الحقيقة الى درجة إكسائها ثوب السخر والدعابة.

بعد أن أصبح شخصية عالمية دُوّن بعض الإنطباعات التي خلفها في معلميه بإختصار. ومن الأساتذة القلائل الذين حفظ لهم هتلر بعض الود، الأستاذ ثيودور گيسنگر Theodor Gissinger الذي حاول تلقينه العلوم. لقد ذكر هذا فيما بعد: "بقدر ما يتعلق الأمر بي أقول إن هتلر لم يخلف إنطباعاً سيئاً أو حسناً في (لينز) ولم يكن مقدّم الصف. وأذكره فتىً ضامراً مشدود القامة شاحب الوجه معروقه كالمبتلى بداء السل. نظراته صريحة بشكل غير إعتيادي وعيناه براقتان[٢٥] ذكيتان".

أما الپروفيسور إدوارد هومر Eduard Huemer فالأرجح أنه المعلم الملتاث العقل من ولادته الذي نوّه

٢١- أحاديث هتلر السرية (١٩٤١-١٩٤٢) ص٢٨٧.
٢٢- المرجع نفسه، ص٣٤٦.
٢٣- المرجع نفسه، ص٥٤٧.
٢٤- المرجع نفسه، ص٥٦٦-٥٦٧.
٢٥- أوگست كوبيتشيك (هتلر الفتى الذي عرفته) ص٥٠.

به هتلر، لأنه كان مدرس اللغة الفرنسية. جاء الى مونيخ عام ١٩٢٣ ليؤدي شهادة في صالح تلميذه السابق إبان محاكمته بتهمة الخيانة على إثر المحاولة الإنقلابية المعروفة بـ(مؤامرة مشرب البيرة). ومع ثنائه على أهداف هتلر، وتمنيه من صميم قلبه أن يراه وقد حقق مثله العليا، إلا أنه رسم صورة علمية دقيقة لتلميذ الثانوية الشاب حين قال:

"لاشك إن هتلر موهوب. ومواهبه قاصرة على مواضيع معينة. على أنه يفتقر الى ضبط النفس وأقل ما يمكن القول فيه، إنه كثير الجدل أوتوقراطي، معتزّ برأيه، حاد المزاج، لايستطيع أن يُخضع نفسه للنظام المدرسي. ولم يكن مثابراً مجداً. ولو فعل لحقق نتائج أكبر بكثير لأنه من صنف الموهوبين[٢٦].

هنالك معلم آخر في ثانوية لينز كان ذا تأثير قوي، بل تأثير مصيري على الفتى كما ظهر فيما بعد. وهو مدرس التاريخ الدكتور (ليوپولد پويتش)، جاء من منطقة الحدود في جنوبي ألمانيا التي تنطق بالألمانية وتجاور السلاڤ الجنوبيين جعلته تجاربه في الكفاح العنصري هناك، قومياً متعصباً. وكان قبل قدومه الى لينز قد علّم في ماربورگ Marburg التي سميت ماريبور Maribor بعد ضمها الى يوغوسلاڤيا عقب الحرب العالمية الأولى. ومع إن الدكتور لم يمنح تلميذه غير متوسط الدرجات في مادة التاريخ فهو الوحيد بين المعلمين الذي أثنى عليه هتلر في (كفاحي) ثناءً حاراً ولم يتردد في الإقرار بدينه لهذا الرجل.

"كان عاملاً حاسماً في مستقبل حياتي أن وهبني حسن الحظ مدرساً فَهِمَ كما فَهِمَت القلة النادرة. هذا المبدأ... مبدأ الإحتفاظ بالجوهر وإطّراح القشور... وجدت مطلبي الأسمى متحققاً بالتمام والكمال في شخص معلمي الدكتور ليوپولد پويتش Leopold Poesch في ثانوية لينز. كان إنساناً مهذباً رقيقاً كبير السن لكنه شديد صارم في الوقت نفسه، قادر على جلب إنتباهنا إليه بذلاقة لسانه. فيستحوذ على عقولنا ويسحرنا سحراً وأنا أذكر الى الآن بخالص من عاطفتي هذا الرجل الشائب الذي كان يجعلنا أحياناً ننسى الحاضر في لظى كلماته فينقلنا بسحر بيانه الى الماضي ويقلب ضباب أحداث تاريخ ما قبل ألف سنة الى حقائق تاريخية تنبض بالحياة والثبات. وكنا نجلس مرهفي الآذان ونار الحماسة تضطرم في جوانحنا معظم الأحيان. وقد تتساقط الدموع من أعيننا أحياناً... كان يستخدم براعم تعصبنا القومي كوسيلة لتثقيفنا ولطالما إستصرخ فينا مشاعرنا القومية.

هذا المعلم جعل التاريخ أحب الدروس الى نفسي. في الواقع إني إنقلبت منذ ذلك الوقت، شخصاً ثورياً دون قصد منه أو تعمد[٢٧]."

وفي عام ١٩٣٨، بعد زهاء خمسة وثلاثين عاماً. عرج هتلر مستشار الرايخ لزيارة معلمه الهرم المتقاعد في (كلاگنفورت Klagenfurt) أثناء ما كان يجوب أنحاء النمسا كالفاتحين بعد ضمها الى الرايخ. وقد سُرّ حين وجد أستاذه الشيخ عضواً في فرقة الصاعقة النازية السرية التي كانت محظورة

٢٦- المرجع نفسه، ص٤٩.
٢٧- كفاحي، ص١٤-١٥.

في النمسا أيام الإستقلال. وبادله الحديث على إنفراد زهاء ساعة وقال لبعض أعضاء الحزب بعدها: "إنكم لاتدرون كم أنا مدين لهذا الشيخ[٢٨]".

قضى (ألواز هتلر) نحبه على إثر نزف رئوي في ٣ كانون الثاني ١٩٠٣ وقد بلغ الخامسة والستين. أصابته النوبة وهو يمارس جولته الصباحية المعتادة ولفظ آخر أنفاسه بعد دقائق في حانٍ مجاور بين ذراعي أحد الجيران. وعندما وقعت عليه أنظار إبنه البالغ ثلاثة عشر عاماً إنهار وطفق يبكي[٢٩].

وإنتقلت أمه التي كانت قد بلغت الثانية والأربعين الى شقة متواضعة في أروفاهر Urfahr في ضواحي لينز. وحاولت العيش مع ولديها أدولف وپاولا عيشة الكفاف على المدخرات القليلة وراتب التقاعد. وذكر هتلر في (كفاحي) أنها كانت تشعر بواجبها في تعليمه، تحقيقاً لرغبة أبيه الراحل وعلّق بقوله: "وبكلمة أخرى أن تجعلني أتلقى دراسة تؤهلني الى الوظيفة". ومع إن الأرملة الشابة كانت مخلصة لإبنها ومع أنه كان يحبها غاية الحب. فقد ظل -على حد قوله- "أصح عزماً وأشد إصراراً على أن لايتخذ الوظيفة مسلكاً". وبقي الخلاف قائماً بين الأم والإبن رغم حبهما المتبادل العميق وواصل أدولف إهمال الدراسة.

"ثم أقبل المرض لإنقاذي من حيث لم يكن متوقعاً فقرر مستقبلي ووضع حداً للخلاف العائلي"[٣٠].

إن مرض الرئة الذي أبتلي به هتلر وهو في السادسة عشرة ألجأه الى ترك الدراسة سنة واحدة على أقل تقدير. وقضى هذه الفترة في قرية الأسرة "شپيتال" وحل في منزل خالته تريزا شميدت القروية. وبعد شفائه داوم في الثانوية الرسمية فترة الشتاء القصيرة. ويظهر من آخر التقارير المدرسية عنه المؤرخ ١٦ أيلول ١٩٠٥ أن درجاته في اللغة الألمانية والكيمياء والفيزياء والهندسة والرسم الهندسي متوسطة وفي التاريخ والجغرافية كانت "مُرضية". وفي الرسم "ممتازة". وغلبه شعور من الفرح لقرب تركه المدرسة الى غير رجعة حتى إنه إحتفل بهذه المناسبة بشربه الخمر الى حد السكر. وذكر في أواخر أيامه أن بائعة حليب عثرت عليه وقت الفجر مطروحاً في قارعة الطريق خارج قرية (شتيير) فأعانته على العودة وعندها حلف يميناً أن لايفعلها ثانية[٣١].

وحافظ على يمينه وصار كارهاً كل شراب مسكر، لايدخن التبغ، نباتياً من قمة رأسه الى أخمص قدميه. أولاً بدافع الحاجة لأنه كان متشرداً عاطلاً في ڤيينا ومونيخ لايملك شروى نقير، وأخيراً بدافع من العقيدة.

ووصف السنتين أو الثلاث التالية "بأسعد أيام حياته".[٣٢] حيث أن أمه وأحد أقربائه إقترحا أن

٢٨- كويبتشيك المرجع السالف، ص٥٢. ومذكرات هتلر السرية، ص٥٦٧.

٢٩- كويبتشيك المرجع السالف، ص٢٤.

٣٠- كفاحي، ص١٨.

٣١- قص حكايته هذه عن نفسه. في مناسبة من مناسبات إستعادة ذكرياته. في مساء يوم ٩/٨ كانون الثاني سنة ١٩٤٢. في مقر القيادة العليا (أحاديث هتلر السرية)، ص١٦٠.

٣٢- "تلك هي أسعد أيامي، وتبدو لي وكأنها حلم..." كفاحي، ص١٨. وذكر في رسالة له الى صديق الصبا كويبتشيك مؤرخة في ٤ آب ١٩٣٣ بعد صيرورته مستشاراً بستة أشهر "إني لفي غاية السرور... لإحياء تلك الذكريات =

يخرج الى الدنيا ويتعلم صناعة بينما كان هو يمنّي نفسه بصيرورته فناناً ويتطلع الى قضاء أيام تعطل وتسكع طيب على ضفاف الدانوب. ولم ينسَ قط تلك الأيام "الرخية الناعمة" عندما كان يستمتع بطيب الحياة وهو "عزيز أمه"[٣٣] مابين السادسة عشرة والتاسعة عشرة.

ومع إن الأرملة العليلة كانت تلقى صعوبة في سد حاجات الأسرة من الدخل المتواضع، فإن أدولف لم يساهم بشيء في إعانتها عن طريق مزاولة صنعةٍ، لأن فكرة الإرتزاق من عمل منظم كانت تعافها نفسه وبقي كذلك طوال حياته.

وكان تحرره من العمل هو الذي جعل تلك السنوات الأخيرة من عهد صباه سعيدة هانئة. ذلك التحرر الذي منحه حرية التأمل ونسج الأحلام وقضاء أيام بطولها يتجول في شوارع المدينة وفي الريف، ملقياً خطبه على رفيقه في مساويء الدنيا والحلول التي تؤدي الى إصلاحها. وكان يقضي لياليه يقرأ كتاباً أو واقفاً في آخر صفوف مقاعد قاعة من قاعات الأوپرا في لينز وڤيينا مصغياً بكل جوارحه الى موسيقى (ريچارد ڤاگنر) الصوفية الوثنية.


ڤاگنر

ووصفه صديق من أصدقاء الصبا فيما بعد بأنه "فتى شاحب هزيل ضامر حياؤه غير إعتيادي. إنطوائي يحب العزلة. كان ينفجر إنفجارات مفاجئة وبغضب من أولئك الذين لايوافقونه رأيه غضباً هستيرياً! وتوهم طوال أربع سنوات بأنه مدلّه بحب شقراء فاتنة تدعى "ستيفاني" وكثيراً ما كان يبحلق فيها بشغف وهي تسير غادية رائحة في شارع لاند Landstrasse في لينز مع أمها، إلا أنه لم يحاول الكلام معها مفضلاً إبقاءها ككثير من الأشياء - في زوايا العالم المظلم لخيالاته المتضخمة. وظهرت فيما لايحصى من قصائد الغزل والتشبب التي كتبها ولم يرسلها قط (كانت واحدة من غزلياته بعنوان "ترنيمة الى المحبوب") وكان يصر على إنشادها لصديقه الفتى الصبور أوگست كويبتشك[٣٤]. وقد ظهرت فيها محبوبته ترتدي ثوباً فضفاضاً من

= معك، ذكريات أجمل سنيّ حياتي". كويبتشيك (هتلر الفتى الذي عرفته) ص٢٧٣.

٣٣- المرجع السالف، ص٢١.

٣٤- إن كويبتشيك الذي يبدو الصديق الوحيد لصبا هتلر، قدم في كتابه (هتلر الفتى الذي عرفته) صورة هامة لرفيقه في السنوات الأربع التي سبقت بلوغه التاسعة عشرة. وقد بلغ به المدى أن تناول بالوصف حياة تشرده في ڤيينا. وهي صورة ملأت ثغرة في سيرة حياة الزعيم الألماني- بل صححت كثيراً من الإنطباعات التي سادت قبلئذ عن تصرفاته الأولى. وشخصية كويبتشيك لاتشبه شخصية هتلر في شيء. فقد كان سعيداً في منزله في لينز وورث صناعة التنجيد عن أبيه كما تابع بجد دراسة الموسيقى وتخرج بدرجة شرف من معهد كونسرڤاتوار ڤيينا وبدأ مستقبلاً يبشر بالخير كمؤلف موسيقي وقائد أوركسترا لكن الحرب العظمى الأولى قضت على آماله.

القطيفة الزرقاء الغامقة وتمتطي صهوة جواد أبيض تجري به فوق المروج المزهرة(٣٥).

ومع إصراره على أن يصير فناناً، إن لم يكن في الرسم ففي الهندسة المعمارية، فقد مال بكليته الى السياسة وهو في السادسة عشرة. في ذلك كان حقده على آل هابسبورگ عنيفاً. وأبغض سائر الشعوب غير الجرمانية في الإمبراطورية النمساوية-الهنگارية متعددة الأجناس التي خضعت لهذا العرش. وقابل هذا البغض الشديد حب جنوني لكل ما هو جرماني. وهكذا إستقر رأيه في السادسة عشرة ليبقى غير متحول عنه الى آخر لحظة من حياته. ألماني متعصب جداً لقوميته.

ويظهر أن شخصيته لم يكن فيها من نزق الشباب وروحه اللاأبالية رغم بطالته. وكان ينوء بحمل مشكلات الدنيا كلها "كان دائماً ضد شيء من الأشياء، وعلى خلاف تام مع الدنيا... لم أجده مرة يأخذ الأمور مأخذاً هيناً" كما عبّر عنه كويبتشك فيما بعد(٣٦).

في تلك الفترة أصبح الفتى الذي ضاق ذرعاً بالمدرسة، قارئاً نهماً مولعاً بالمطالعة. وإنتمى الى (جمعية مكتبة الثقافة للبالغين) في لينز وفاز بعضوية (جمعية المتحف) ليستعير كتبها بأعداد ضخمة ولايذكره صديقه إلا وهو محاط بالكتب. وكان أحبها لديه كتب التاريخ الجرماني وأساطير الجرمان(٣٧).

وكانت لينز مدينة إقليمية. لذلك أخذت ڤيينا العاصمة الوضاءة، حاضرة الإمبراطورية تجتذبه وتومىء بإصبعها الى طموحه الفني وخياله. ولم يمر به عيد ميلاده السابع عشر حتى كانت قدماه تغذان السير به الى ڤيينا وفي جيبه دريهمات جمعتها له أمه وأقاربه لقضاء شهرين فيها. لقد أذهلته المدينة عند زيارته الأولى. وإن أصبحت فيما بعد مرسحاً لأقسى سنيّ حياته حيث كان يعيش فعلاً عيشة المتشرد على قارعة الطريق. راح يتجول في شوارعها أياماً كوامل دون هدف، وهو مشدوه بمناظر البنايات الفخمة التي تحيط بـ(الدائرة)، وقد طغى على أحاسيسه حال من الوحدة مستمرة لما رآه من المتاحف ودور الأوپرا والمسارح.

وراجع حول الدخول في أكاديمية ڤيينا للفنون الجميلة بعد قدومه الأول بسنة واحدة. إذ عاد إليها في تشرين الأول ١٩٠٧ ليدخل إمتحان القبول، وهو أولى الخطوات العملية لتحقيق أحلامه في فن الرسم وكان في الثامنة عشرة، مفعماً بالآمال العراض. لكنها سُحقت وتطايرت هباء، وتروي القصة نتائج إمتحان القبول كما هي مدونة:

"التالية أسماؤهم شاركوا في الإمتحان، وكانت نتائجهم غير مرضية أو لم يُقبلوا... أدولف هتلر - براناو آم إن- مولود في ٢٠ نيسان ١٨٨٩- ألماني- كاثوليكي- الأب موظف- تحصيله الدراسي: أربعة صفوف في الثانوية. الدرجات قليلة. إختبار الرسم: غير مرضٍ"(٣٨).

وعاود الكرة وكانت رسومه تافهة الى حد لم تؤهله الى المشاركة في الإمتحانات هذه المرة. فكانت

٣٥- كويبتشك المرجع نفسه، ص٥٩.
٣٦- المرجع السالف، ص٦٧.
٣٧- المرجع السالف، ص٥٤-٥٥.
٣٨- كونراد هايدن "الفوهرر"، ص٥٢.

ضربة قاصمة لطموح فني كطموحه- كما ذكر فيما بعد. لأنه مقتنع تماماً كما نوّه في (كفاحي)، ولذلك طلب إيضاحاً من مسجل الكلية:

"أكد لي هذا السيد إن الرسوم التي عرضتها برهنت بما لايقبل الشك أني لاأصلح لمزاولة فن الرسم. وإن كفاءتي كما أوضحت له الرسوم تكمن في الهندسة المعمارية، وقال لي لا شأن لك قط في أكاديمية الرسم وميدانك هو مدرسة الهندسة المعمارية[٣٩]".

وإضطر الفتى الى الرضوخ لحكم القدر. لكن ما عتم أن أدرك وهو حزين أن فشله في نيل شهادة التخرج الثانوية سيحول بينه وبين دخوله مدرسة الهندسة المعمارية.

كانت أمه في ذلك الزمن تعاني سكرات الموت بداء سرطان الثدي فعاد الى لينز ليكون بقربها. ظلت كلارا وأقاربها يساعدون الفتى ثلاث سنوات بعد تركه المدرسة، ولم يروا فائدة منها. وفي ٣١ كانون الثاني ١٩٠٨ والمدينة ترفل في حلة أعياد الميلاد دخلت أم أدولف في النزع الأخير. ودفنت بعد يومين في (ليوندنگ) قرب زوجها. وكانت وفاتها للشاب ذي التسعة عشر عاماً "ضربة هائلة... لقد إحترمت أبي وقدّسته إلا أنني أحببت أمي... وموتها وضع نهاية مفاجئة لكل خططي الواسعة الأرجاء... وألجأني الفقر والحقيقة القاسية الى إتخاذ قرار سريع... وجدت نفسي أواجه مشكلة تحصيل رزقي بوسيلة من الوسائل"[٤٠].

وسيلة من الوسائل! لم يكن يتقن صناعة. فضلاً عن إحتقاره العمل اليدوي. لم يحاول قط أن يتكسب فلساً واحداً. إلا أن عزيمته لم تثبط فما كان منه إلا أن ودع أقرباءه قائلاً إنه لن يعود إليهم إلا وهو ناجح.

"سارت بي قدماي الى ڤيينا وليس معي غير حقيبة فيها ثيابي وقمصاني الداخلية وفي عزم لايلين. كنت أريد أن أنتزع من يد القدر ما إنتزعه أبي قبل خمسين عاماً. كنت آمل أن أصبح (شيئاً مذكوراً) لكن ليس كموظف مدني أبداً"[٤١].

-٤-

"أكأب فترة في حياتي"

كانت السنوات الأربع التالية من ١٩٠٩-١٩١٣، من أحفل فترات حياة هذا الشاب النازح من لينز - بالشقاء والفاقة. في هذه السنين الأخيرة العابرة وقبل سقوط بيت هاپسبورگ Hapsburg ونهاية دور ڤيينا كعاصمة لإمبراطورية قلب أوروپا التي تضم إثنين وخمسين مليوناً من البشر. كانت هذه المدينة الفيحاء ترفل في حلل البهجة والرفعة لاتدانيه فيهما أية عاصمة من عواصم الدنيا. فهي

٣٩- كفاحي، ص٢٠.
٤٠- المرجع السالف، ص١٨.
٤١- المرجع السالف، ص١٨.

لاتسمو على الأخريات بثمرات الهندسة المعمارية المختارة ولا بتماثيلها فقط، بل بحبها للأنس واللهو، وبخفة روحها وروح سكانها المهذبين الرقيقين. إنها لتشيع جواً من طيب الحياة لاتعرفه أية مدينة أخرى من مدن الغرب.

تقع ڤيينا على ضفاف الدانوب الأزرق وتحتضنها تلال ڤينرڤالد Wienerwald المكسوة بالغابات المزدانة بالكروم الخضراء الصفراء. إنه لموقع جمال نادر من الطبيعة يسحر الزائر ويحمل أهالي المدينة على الإيمان بمحاباة العناية الإلهية في إختيار هذا الموضع لمدينتهم. الموسيقى تملأ الفضاء، موسيقى أبنائها الموهوبين العباقرة، أعظم من عرفت أوروپا منهم أمثال هايدن Hyden وموزار Mozart وبيتهوڤن Beethoven وشوبرت Schubert وتأتي في ختام "الصيف الهندي" هذا أنغام ڤالس إبن ڤيينا المعبود "يوهان شتراوس Johann Strauss" بألحانها العذبة الساحرة لتمتع أناساً أنعم عليهم بهذه الحياة البهيجة فطبعتهم بطابعها فكانت عيشتهم نفسها أشبه شيء بحلم متعاقب جميل. يقضي أهل المدينة المرحون أيامهم ولياليهم برقصات الڤالس والغزل وتبادل الأحاديث الطلية الرقيقة في المشارب والمقاهي الهادئة وينصتون الى الموسيقى ويشاهدون التمثيليات في المسارح ودور الأوپرات والأوپريتات ويتناجون ويتعاطون أفانين الحب منفقين الجانب الأكبر من حياتهم في اللهو والأحلام.

ومما لا مفر منه أن تُساس هذه الإمبراطورية المترامية، ولهذا وُجد جيش وأسطول وخطوط مواصلات حسنة وأعمال تجارية رائجة وحرف وصناعات لكن قلّ من عَمِل ساعاتٍ إضافيةً من أهالي ڤيينا. أو حتى من قضى دواماً كاملاً في عمله.

وثم بالطبع الجانب المظلم القبيح من الصورة. فللمدينة فقراؤها الذين يعيشون في أحقر البيوت ويرتدون الأسمال ولايسدّون رمقهم كسائر المدن الأخرى. على إنها كانت مدينة بَطِرة مرفّهة وأعظم مركز صناعي في أواسط أوروپا فضلاً عن كونها عاصمة إمبراطورية. كان ثراؤها يهطل كالمطر على الناس مدراراً ثم يرشح منه القليل الى الأسفل. فكتلة الطبقة الوسطى العظيمة كانت مسيطرة على المدينة سيطرة سياسية تامة. وكان ميدان العمل ينتظم في نقابات وفي حزب سياسي خاص به. هو "الحزب الإشتراكي الديمقراطي". هنالك خميرة تعمل في حياة المدينة التي تعد من السكان مليونين. فقد إنطلقت الديمقراطية لتدفع أوتوقراطية آل هاپسبورگ العتيقة الى الخلف وفتحت الثقافة والتعليم أبوابهما للجماهير حتى كان متاحاً لأي فتى خالي الوفاض أن ينال تعليماً عالياً أو يظفر بمورد رزق حسن ويعيش كما يعيش مليون من العمال الأجراء في الظل الوارف الحضاري الذي أسبغته العاصمة على سكانها. تلك هي الحالة في ڤيينا عندما دخلها هتلر في العام ١٩٠٩، ودونك صديقه الأوحد (كوبيتشك) الذي يساويه فقراً وضعّة أما تراه كيف يكوّن نفسه تكويناً حسناً في أكاديمية الموسيقى؟ ولم يخفف هتلر الشاب من غلوائه في محاولته دخول مدرسة الهندسة المعمارية وهي ما برحت مفتوحة الأبواب أمامه رغم إفتقاره الى شهادة البكلوريا. فالذين يظهرون مواهب خاصة يُقبلون بصرف النظر عن الشهادة. إلا أنه لم يتقدم بطلب على قدر ما علمنا ولم يكن مهتماً بمزاولة حرفة خاصة أو مباشرة أي عمل منتظم، وفضّل التنقل من عمل الى آخر لايتسم بطابع الإستمرار، كجرف أكداس الثلج

ونفض السجاد وحمل حقائب المسافرين من محطة سكة الحديد الغربية، وزاول عمل البناء بضعة أيام. وفي تشرين الثاني ١٩٠٩، بعد أقل من عام على وصوله ڤيينا "لتجربة حظوظه" - أجبر على ترك غرفته المفروشة في حي سيمون دنك گاسه Simon Denk Gasse. وبقي يعيش طوال السنين الأربع التالية في بيوت تدفع أجور غرفها يومياً أو منازل توازيها وضاعة من الأحياء الدنيا في "منطقة -٢٧ ملدمانشتراسه Meldmannstrasse العشرين" من ڤيينا بالقرب من الدانوب. يحتال على سد رمقه بتناول الشورباء المجانية من مطابخ البلدية الخيرية.

ولا عجب أن وجدناه يكتب بعد عشرين سنة ما يلي: "يرى كثير من الخلق أن ڤيينا هي موطن اللهو البريء ومصدره، وساحة عيد لطلاب اللهو والقصف. إلا أنها تمثل لي ذكرى حية لأكأب فترة من حياتي". والى هذا اليوم لاتشيع المدينة في نفسي غير ذكريات حزينة، فإسم هذه العاصمة الروائي Phaeacial يعني عندي خمس سنوات من الضنى والشقاء. خمس سنوات إضطررت فيها الى كسب رزقي كعامل بأجر يومي ثم نقاش أصباغ صغير. وما كنت أحصل عليه لايكفي لتهدئة جوعي اليومي"[٤٢].

"في تلك الأيام كان الجوع زميلي الدائم... كان الجوع في ذلك الزمن حارسي الأمين الخاص. لايتركني لحظة واحدة. يشاركني كل ما لديّ. كانت حياتي كفاحاً مستمراً مع هذا العشير غليظ القلب"[٤٣].

ومع ذلك كله فلم يلجئه هذا الضيق الى بذل جهد كبير لإيجاد عمل منتظم وقد أوضح السبب لتقاعسه في كفاحي بقوله أنه كان يشعر بخوف البرجوازي الصغير من الإنحدار الى وهدة البروليتاريا والتسفّل الى طبقة الشغيلة الكادحين وهو خوف كان ينهش قلبه وقد إستغله فيما بعد لبناء حزبه الإشتراكي القومي على أسس واسعة من هذه الطبقة التي لايقودها أحد، الطبقة المهملة ذات الياقة البيضاء والرزق القليل التي كانت ملايينها تتلذذ بالوهم المضحك في أنها أسمى إجتماعياً من طبقة العمال على الأقل!

ومع ذكره أنه إعتمد في رزقه مدة من الزمن على عمله "نقاشاً صغيراً" إلا أنه لايزودنا في سيرته بأية تفاصيل، خلا قوله أن حالته المالية تحسنت بين سنتي ١٩٠٩-١٩١٠ ولم يعد مضطراً لمزاولة الأعمال اليدوية البسيطة. قال: "في ذلك الزمن كنت أزاول عملاً مستقلاً، كنت رساماً صغيراً ونقاشاً بالألوان المائية"[٤٤].

في هذا القول بعض التضليل كغيره مما ورد كثيراً في (كفاحي) عن سيرته الخاصة. ومع أن الأدلة التي عرضها من عرفه في ذلك الزمن لاتبدو أكثر صدقاً مما ذكره هو. فما جُمع من هذه المسائل إن يُلصق بعضه ببعض- يكفي ليقدم صورة قد تكون أدق، هي بالتأكيد أكمل[٤٥].

٤٢- المرجع السالف، ص٢١.
٤٣- المرجع السالف، ص٢١-٢٢.
٤٤- المرجع السالف، ص٣٤.
٤٥- أنظر: "نهاية خرافة هتلر" لمؤلفه جوزيف گراينر Josef Gereiner الذي كان يعرف هتلر معرفة شخصية لفترة من =

لم يكن أدولف هتلر نقاش بيوت كما عاب عليه خصومه. وهو من الأعمال شبه الثابتة أو بكلمة أخرى ليس هناك دليل على مزاولته تلك الصنعة، وكل ما عمله هو رسم لوحات ساذجة صغيرة لمناظر ڤيينا تلوح فيها البنايات المشهورة مثل "كاتدرائية القديس إستڤان" و"دار الأوپرا" وقصر شوينبورن Schoenburn" والخرائب الرومانية في حديقة شوينبورن. وعلى ما يقوله أصدقاؤه أنه كان يستنسخها عن صور ورسوم أخرى ويظهر أنه كان عاجزاً عن النقل رأساً من الطبيعة. وصوره تميل الى الجمود مستطيلة مثل تصاميم مهندس معماري، مضطربة، غير متقنة بل تقريبية تتسم بطابع الإهمال أما أشكال الناس التي يحشرها فيها أحياناً فهي سيئة الرسم الى الحد الذي تذكّر المرء بصور الكاريكاتور الصحفية. وقد وجدت ملحوظة كنت قد دونتها مرة على إثر تقليبي محفظة فيها رسوم هتلر الأصلية "وجوه قليلة فجة. وجه واحد يشبه الغول". ويصف "هايدن" أشكال الأشخاص بقوله "إنها تقف مثل غرارات محشوة خارج قصور فخمة شامخة"[٤٦].

وربما كان هتلر يبيع هذه اللوحات التافهة من صغار التجار، لتزيين الجدران، أو من أولئك الباعة الذين يضعونها في إطارات خالية معدة للبيع أو من صناع الأرائك الخشبية والمقاعد لتثبيتها وراء معروضاتهم الرخيصة من الكراسي والأرائك السائدة آنذاك. وأمكن هتلر أن يوسع نطاق تجارته برسم صور إعلانات للبقالين عن بضائعهم مثل المنتجات والمستحضرات: مسحوق تيدي Teddy المعرِّق. وثم إعلان واحد أكسبه قليلاً من المال في عيد الميلاد كان قد رسمه وهو يمثل (سانتاكلوز) يبيع شموعاً ملونة بألوان زاهية وثمّ إعلان آخر يمثل برج كنيسة "سان إستيفان" الغوطي الذي لم يكل هتلر عن إستنساخه - خارجاً من كومة من قوالب الصابون. ذلك هو مدى إنجازات هتلر الفنية. ومع ذلك فقد ظل يعتبر نفسه فناناً الى آخر حياته.

كان يبدو بلاشك مثل (الكاولّي) في سنوات التشرد بڤيينا. والذين عرفوه يومذاك لابد يذكرونه بمعطفه الأسود الطويل الرث المنسدل حتى كاحليه، الشبيه بالقفطان. وكان قد تكرم عليه بائع ثياب مستعملة يهودي هنگاري من أولئك البائسين زملائه الذين يسكنون تلك الفنادق الحقيرة فأصبح له صديقاً بحكم الجيرة وهم أيضاً يتذكرون بنطلونه الأسود كثير البقع الذي كان لاينزعه على مدار السنة وكان يسرح شعره الوبريّ اللون الى أسفل ليغطي بعض جبينه وظل مقيماً على ذلك فيما بعد. وكان يدفع بقسم منه الى الخلف مشعثاً فوق ياقته القذرة. ونادراً ما بدا حليق الشعر أوالذقن. وكانت وجنتاه وذقنه يكسوها الشعر الأسود النابت كأنه بداية لحية. وإن نحن صدقنا "هانش" الذي أصبح فيما بعد فناناً متوسط الشهرة. فإن هتلر كان يشبه طيفاً ندر مثيله بين عالم النصارى[٤٧].

= حياته في ڤيينا. وأنظر أيضاً "هتلر البيدق" لمؤلفه رودولف أولدن Rudolf Olden. ويتضمن هذا الكتاب أقوالاً عن راينهولد هانش Reinhold Hanisch. وهو متشرد من بلاد السوديت كان زميلاً لهتلر في إحدى غرف منازل الإيجار اليومية للرجال. وكان يبيع صور هتلر عن طريق الدلالة. ومنه أيضاً إقتبس كونراد هايدن في كتابه (الزعيم) وقائع المحكمة الخاصة بالدعوى التي رفعها هتلر على المتشرد لغشه في سهمه من ثمن بيع اللوحات التي زعم هانش أنه كان يبيعها لحساب هتلر.

٤٦- هايدن "الزعيم" ص٥٤.

٤٧- المرجع السالف، ص٦٨.

وخالف سلوك بعض الشباب المحطمين الذين كان يعايشهم في أنه إبتعد عن رذائل الشباب المعروفة. فلم يكن يدخن. ولايقرب النساء لا لشذوذ جنسي فيه، بل لحياء طبيعي على قدر ما علمنا. وذكر في (كفاحي) بلمحة نادرة من لمحات النكتة: "أعتقد أن من عرفني في تلك الأيام توهمني شخصاً شاذاً"(٤٨).

تذكّر هؤلاء كما تذكّر معلموه تلك العينين الواسعتين النفاذتين الحادتين اللتين تبرزان على كل قسمات الوجه وتعبران عن شيء كامن في شخصيته تناقض الهيئة الزرية لمتشرد قذر رث الثياب. كما تذكروا أن الشاب على كسله في العمل الجسدي، قاريء نهم يقضي جلّ أيامه ولياليه في إلتهام الكتب.

"في ذلك الزمن كنت كثير المطالعة بشوق وإستغراق وقد أوقفت على دراساتي كل وقت فراغي المتخلف لي من العمل وبهذه الوسيلة بنيت في سنين قليلة أسس المعرفة التي مازلت أمتحُ من معينها حتى اليوم"(٤٩). وهو يشرح في (كفاحي) فن القراءة فيقول:

"وبالقراءة أعني ولاشك، قارئاً يختلف عن الرجل العادي المعروف لدينا بإسم المثقف (الإنتلجنسيا). لقد عرفت أناساً يقرأون كثيراً جداً... ومع هذا فهم في رأيي ليسوا بالقارئين الجيدين. صحيح أنهم يختزنون مقداراً هائلاً من المعارف. إلا أن أدمغتهم عجزت عن تنظيم المواد التي إختزنوها وعن هضمها. ومن ناحية أخرى فمن ملك ناصية فن القراءة الصحيح سوف يدرك بالغريزة وبأسرع ما يمكن، كل ما يستأهل الحفظ دائماً. إمّا لأنه يتفق وأغراضه، وإمّا لأنه يستحق المعرفة بصورة عامة... إن فن القراءة مثل فن التعلم – وهو هذا: الإحتفاظ بكل ما هو جوهري ونسيان ما هو غير جوهري... وهذا النوع من القراءة هو وحده ذو غاية وذو معنى... وبنظري الى فترة إقامتي في ڤيينا من هذه الزاوية فإني أجدها خصبة قيّمة"(٥٠).

قيّمة لأي غرض؟ كان جواب هتلر على هذا أنه تعلم من القراءة ومن حياته مع الفقراء المعدمين في ڤيينا كلّ ما إحتاج الى معرفته لحياته القادمة.

"كانت ڤيينا ومازالت أقسى مدرسة في حياتي وأوسعها أفقاً. وضعت قدمي في المدينة وأنا شبه فتى وغادرتها وأنا رجل هاديء رزين. في تلك الفترة بدأ يتجسم في مخيلتي رسمٌ للعالم وفلسفة أصبحت فيما بعد الأساس الصواني لكل تصرفاتي. وكان عليّ أن أتعلم قليلاً بالإضافة الى ما خلقت. ولم أغيّر شيئاً"(٥١).

ماذا علّمته مدرسة الحياة القاسية التي وضعتها ڤيينا أمامه بكل سخاء؟ ما هي الآراء التي إكتسبها هناك من المطالعة، ومن تجاربه التي ستبقى على حد قوله – ثابتة بجوهرها الى الأخير؟ أما وأن معظمها كان ضحلاً مهلهلاً، شاذاً في كثير من الأحيان لايقبله العقل، مسموماً بنقيع التحامل

٤٨- كفاحي، ص٣٤.
٤٩- المرجع السالف ص٢٢
٥٠- المرجع السالف، ص٣٥-٣٧.
٥١- المرجع السالف، ص٢٢ و ١٢٥.

المستهجن. فهذا ما قدر أن يكون واضح المعالم لأي إختبار سطحي بسيط جداً. على أنها هامة لتاريخي هذا كما هي هامّة للعالم لأنها الجانب الشكلي للأسس التي بنى عليها الرايخ الثالث ذلك الصرح الذي لن يعتم أن يبدأ هذا المتشرد كثير القراءة بإشادته.

-٥-

براعم آراء أدولف هتلر

بإستثناء واحد منها، لايمكن أن تعتبر أصيلة، وانما التقطت مادةً أوليةً من مخيض لبن السياسة النمساوية. وحياة السنوات الأولى من القرن العشرين. كان النظام الملكي على ضفاف الدانوب يلفظ أنفاسه الأخيرة بعلّة سوء الهضم، فقد ظلت أقلية من الألمان النمساويين أجيالاً بطولها تحكم إمبراطورية متعددة اللغات والشعوب. وفرضت على هذه الشعوب لغتها وثقافتها. إلا أن قبضتها بدأت تتراخى منذ العام ١٨٤٨ ولم يعد في الإمكان هضم الأقليات. لأن النمسا لم تكن قدراً صالحاً للإذابة. وفي عام ١٨٦٠ شق الطليان عصا الطاعة. وفي عام ١٨٦٧ نال المجريون المساواة السياسية بالألمان تحت ما يسمى بالعرش الثنائي. ولم تطلع شمس القرن العشرين إلا وتململت الشعوب السلاڤية المختلفة كالچيك والسلوڤاك والصرب والكروات وغيرها وراحت تنادي بالمساواة أو بالحكم الذاتي القومي على أقل تقدير. وأصبحت الحياة النمساوية تسودها شحناء عنيفة بين القوميات.

ولم يكن هذا كل شيء. فالعالم في ثورة إجتماعية ألثورة التي كثيراً ما فاقت النضال القومي عنفاً. فأخذت الطبقات الدنيا المحرومة من حق الإقتراع تطالب بحقها هذا. وراح العمال يطالبون بحق التنظيم النقابي وحق الإضراب للحصول على زيادة في الأجور وشروط عمل أفضل بل طالبوا بحقوقهم السياسية والديمقراطية. وحقق إضراب عام نتائجه المرجوة فمُنح حق الإقتراع للذكور وبهذا إنتهت السيادة السياسية للألمان النمساويين الذين لم يكن مجموعهم يزيد على ثلث المجموع العام في الجزء النمساوي من الإمبراطورية.

كان الشاب القومي النازح من لينز يعارض هذه التطورات معارضة شديدة، ويرى أن الإمبراطورية تغرق في "حمأة مستنقع قذر" ولايمكن إنتشالها إلا إذا استعاد الشعب الألماني المختار السيّد سلطته المطلقة أما الشعوب غير الألمانية ولاسيما السلاڤ- وبخاصة الچيك، فهي شعوب منحطة ومن واجب الألمان أن يحكموها بيد من حديد. ومن الضروري إلغاء البرلمان ووضع حد نهائي لكل هذا الهراء الديمقراطي. ومع أنه لم يساهم قط في شؤون السياسة، إلاّ أنه كان يتابع نشاط الأحزاب السياسية الثلاثة الكبرى في النمسا وهي: الحزب الديمقراطي الإشتراكي، والحزب الإشتراكي المسيحي، وحزب كل ألمانيا القومي. وبدأت تتكون في رأس هذا الأشعث الأغبر كثير الترداد على مطابخ البلدية الخيرية حدة ذهن سياسية ساعدته على أن يرى بوضوح مدهش مواطن الضعف والقوة في الحركات السياسية المعاصرة وأهّلته عند نضوجها الى تبوّء مركز أشد سياسيي ألمانيا دراية وحنكة.

إحتك أولاً بالديمقراطي الإشتراكي فنشأ فيه بغض عميق لهذا الحزب وقال: "ومما زادني إشمئزازاً منه موقفه العدائي من العمل للمحافظة على الروح الألمانية ومداراته المشينة للرفاق السلاف. لقد حصلت في أشهر قلائل على ما يحتاج تحصيله الى عشرات السنين: قحبة(٥٢) ذات داء وبيل تتجلبب بثوب الفضيلة الإشتراكية والمحبة الأخوية"(٥٣).

ومع هذا كله فقد كان بدرجة من الذكاء بحيث قنع شعوره بالسخط على حزب الطبقة العاملة هذا، كيما يفحص بدقة أسباب نجاحه الجماهيري. ثم إستنتج عدة أسباب لذلك، وقد تذكرها في السنوات التالية وإستفاد منها في بناء الحزب القومي الإشتراكي الألماني.

وذكر في (كفاحي) أنه شاهد يوماً مظاهرة عمالية في ڤيينا: "بقيت ساعتين كاملتين أحدق بعين لاتريم وبأنفاس مبهورة في ذلك التنين البشري الجبار يمر ببطء. وأخيراً تركت موقفي وفي نفسي هياج عنيف وجررت قدمي جراً الى المنزل"(٥٤).

وفي منزله راح يقرأ أدبيات الديمقراطيين الإشتراكيين وينعم النظر في خطب زعمائهم وتدارس أساليب تنظيمهم ويطيل التفكير في تكتيكهم السياسي والسايكولوجي. ويتأمل في النتائج ليخرج منها بثلاثٍ فسّرت له سر نجاحهم: الأولى؛ أنهم عرفوا كيف يخلقون حركة جماهيرية لولاها لايسوى الحزب السياسي شروى نقير. والثانية؛ أنهم أتقنوا فن الدعاية بين الجماهير. والثالثة؛ أنهم عرفوا قيمة إستخدام ما أطلق عليه عبارة "الإرهاب الروحي والجسدي".

هذا الإستنتاج الثالث المبني بالتأكيد على سوء فهم وخطأ في الملاحظة مختلطاً بتعامله الكبير. إستهوى هتلر الشاب وأوقعه في إساره. وقدر له بعد عشر سنوات أن يضعه موضع التنفيذ النافع ليصل به الى غاياته. "لقد تفهمت الإرهاب الروحي الدنيء الذي تمارسه هذه الحركة ولاسيما على الطبقة البرجوازية التي لم تكن كفوءة عقلياً أو أدبياً للتصدي لأمثال هذه الهجمات. فهي بإشارة واحدة تطلق أساطيل من الأكاذيب والتهم والإفتراءات على أي خصم ذي خطورة، حتى تتحطم أعصاب الأشخاص الذين إستهدفتهم الحملة... ذلكم هو التكتيك المبني على حساب دقيق لكل موطن من مواطن الضعف البشري في الإنسان. وهو يؤدي حتماً الى النجاح... بالدقة التي تعرضها المسائل الحسابية...

وتوصلت الى إدراك مماثل لأهمية الإرهاب الجسدي الواقع على الفرد والجماهير... ففي الوقت الذي يُجعل من النصر الناجز أمام أشياعهم نصراً لعدالة قضيتهم. تجد خصمهم المغلوب في معظم الأحوال يائساً من النجاح مقتنعاً بعبث أي مقاومة"(٥٥). لم يُكتب قط تحليل دقيق مثل هذا التحليل عن التاكتيك النازي – كما طوره هتلر أخيراً.

٥٢- هذه اللفظة حُذفت من الطبعة الثانية (لكفاحي) وما تلاها ووضع بدلها "وبيئة".
٥٣- المرجع السالف، ص٣٨-٣٩.
٥٤- المرجع السالف، ص٤١.
٥٥- المرجع السالف، ص٤٣-٤٤.

هناك حزبان سياسيان كانا يجتذبان هتلر المستجد إجتذاباً قوياً. وإليهما عزا تنامي قوى ذكائه وتحليله الهادىء الصلب، فقال: "كان أول ولائي لحزب (كل القوميين الألمان) الذي أسسه "جورج ريتر ڤون شوينرر George Ritter Von Schoenerer" الذي نزح من إقليمه نفسه قرب شپيتال من النمسا السفلى كأسرة هتلر. في ذلك الحين كان يخوض غمار معركة خندقية للسيطرة الألمانية في الإمبراطورية المتعددة القوميات. ومع إن هتلر وجد (شوينرر) مفكراً عميقاً وإعتنق مبادىء منهاجه بحماسة وهو المنهاج المتعصب للقومية والعدو اللدود للإشتراكية والسامية والمنادي بالوحدة مع ألمانيا. والمعارض لآل هاپسبورگ، إلا أن هتلر إستطاع بسرعة أن يقدر أسباب فشل الحزب.

"إن عجز هذه الحركة عن تقدير أهمية المشاكل الإجتماعية، أدى بها الى خسارة الكتل الجماهيرية المناضلة. وإن دخولها البرلمان جردها من قوتها الدافعة الجبارة وحمّلها أعباء كل مواطن الضعف الغريبة عن روحها الأصيلة. وإن إعلانها الحرب على الكنيسة الكاثوليكية... سلب منها ما يفوق حصره من العناصر التي يدعيها القومي لنفسه"(٥٦).

ومن الدروس التي تلقاها في سني إقامته ثمة، ونسيها عندما تولى زمام السلطة في ألمانيا، ما شدد عليه في كفاحي وفصّله بإسهاب وهو: "عقم المحاولة التي يقوم بها الحزب السياسي لمحاربة الكنائس المسيحية" بصرف النظر عن ميدان الإنتقاد الفسيح في أي طائفة من الطوائف الدينية. وقال إثباتاً لخطأ خطة (شوينرر) المعروفة بـ"بعداً عن روما Los -Von-Rom":

"يجب أن لايغيب عن بال الحزب لحظة واحدة أن الفشل سيكون حليفه إذا تقدم بمنهاج للإصلاح الديني"(٥٧).

إلا أن غلطة هذا الحزب العظمى في نظره، هو فشله في إثارة حماسة الجماهير وعجزه التام عن فهم نفسية مجموع الشعب. ومن إجماله للآراء التي بدأت تتخذ شكلها التام في ذهنه حين لم تكن سنّه تزيد عن الحادية والعشرين يظهر أنه كان الخطأ الأساسي. ولهذا لم يكرره بل تحاماه عندما أسس حزبه السياسي.

هنالك غلطة أخرى لم يرتكبها هتلر، وهي فشل الحزب في كسب عطف مؤسسة قوية واحدة على الأقل من مؤسسات البلاد، فإن لم تكن الكنيسة فالجيش، أو الحكومة، أو فليكن رأس الدولة. إن لم تكسب الحركة السياسية دعماً كهذا، يصعب عليها بل يتعذر أن تقبض على زمام السلطة وهذا ما تبيَّنَهُ آنذاك، وكان الشيء الذي أمّنه لحزبه بالضبط بسعة حيلة وتفكير ثاقب في أيام شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٣ العصيبة في برلين وهو الذي مكّنه ومكّن حزبه من السيطرة على شعب عظيم.

كان يوجد في أيام هتلر بڤيينا زعيم سياسي واحد فقط يدرك هذا الأمر، فضلاً عن إدراكه ضرورة بناء الحزب على دعامة جماهيرية. ألا وهو الدكتور كارل لوگر Karl Lueger عمدة ڤيينا، وزعيم الحزب الإشتراكي المسيحي الذي أصبح معلّم هتلر الأعظم وإن لم يلتقيا. ظل يرى فيه: "أعظم رئيس بلدية

٥٦- المرجع السالف، ص١١٦-١١٧.
٥٧- المرجع السالف، ص١١٨.

ألماني في كل زمان. رجل سياسة بذّ كل من يسمى "بالدبلوماسيين" في عصرنا الحالي... لو عاش الدكتور كارل لوگر في ألمانيا لوضع في مصاف أعظم الأدمغة التي أنجبتها أمتنا"(٥٨).

ومما لاشك فيه أنه يوجد بعض شبه بين هتلر المستقبل وبين معبود طبقة ڤيينا الأدنى من الوسطى ذلك الرجل المرح الماكر البدين. حقاً إن (لوگر) أصبح من أقوى ساسة النمسا بوصفه رئيس حزب يستمد قوته من الطبقة البرجوازية الصغيرة الساخطة جمع رأس ماله السياسي -كما فعل هتلر فيما بعد- من شنشنة المعاداة للسامية. على أن (لوگر) الذي نشأ نشأة متواضعة وشق طريقه في الجامعة شقاً، كان واسع الثقافة يقرّ خصومه ومنهم اليهود أنه رجل طاهر النفس شهم كريم متسامح. (وشهد ستيڤان سڤايگ Stefan Zweig) الكاتب النمساوي اليهودي الطائر الصيت الذي بدأ إسمه يلمع آنذاك في ڤيينا بأن (لوگر) لم يكن يسمح بعدائه الرسمي لليهود أن يحول بينه وبين صداقته لهم ومساعدتهم. وذكر سڤايگ أن "إدارته لمرافق المدينة كانت إدارة أمينة عادلة تماماً، لا بل كانت تتسم بطابع ديمقراطي مثالي... واليهود الذين إهتزوا فرقاً لفوز حزبه المعادي لهم ظلوا يعيشون كما كانوا محتفظين بحقوقهم ومكانتهم كما عاشوا دائماً"(٥٩).

وهذا ما كان يكرهه فيه هتلر، فقد وجد (لوگر) متسامحاً أكثر مما ينبغي لايقدر مشكلة اليهود العنصرية تقديراً صائباً. ونعى عليه فشله في تبني وإعتناق فكرة الوحدة الألمانية القومية وكان يشك في أنه يميل الى رجال الدين الكاثوليك الپاپويين، كذلك خالجه الشك في إخلاصه لآل هاپسبورگ. ألم يرفض الإمبراطور الشيخ (فرانز جوزيف) مرتين متتاليتين المصادقة على تعيين لوگر عمدة للمدينة؟

على إن هتلر لم يسعه إلا الإقرار بعبقرية هذا الرجل الذي عرف كيف ينال عطف الجماهير الشعبية. ويتفهم المشاكل الإجتماعية لعصره. ويدرك أهمية الدعاية والخطابة في إلهاب مشاعر الجمهور، ولم يكتم إعجابه بطريقة تعامله مع الكنيسة القوية الشكيمة: "لقد رسم سياسته بحذق لا مزيد عليه" وكان "سريع الإفادة من كل الوسائل المتيسرة لكسب ود الهيئات والمؤسسات ذات التاريخ المديد. حتى يستمّد من هذه المصادر ذات السلطان العريق أعظم ما يمكن من العون لحزبه(٦٠)". هاهنا... في قمع جوزة تجتمع كل الآراء والتاكتيك التي إستخدمها هتلر فيما بعد لبناء صرح حزبه السياسي وقيادته الى الظفر بالسلطة في ألمانيا. وأصالته تكمن في أنه السياسي اليميني الوحيد الذي طبقها في الميدان الألماني السياسي. فقد كان الحزب النازي الوحيد بين الأحزاب اليمينية والقومية الذي نجح في الإستئثار بأتباعٍ من سواد الشعب. وبعد تحقيقه هذا المطلب راح يكسب ثقة الجيش، ثم ثقة رئيس الجمهورية، وأخيراً ثقة المؤسسات التجارية الضخمة "المؤسسات ذات الجذور التاريخية العريقة" التي مارست سلطاناً عظيماً. وهذا الذي أوصله الى منصب مستشار ألمانيا. إن الدروس التي تلقاها في ڤيينا كانت مفيدة حقاً.

كان الدكتور (كارل لوگر) خطيباً مفوّهاً لَسِناً. وحزب كل ألمانيا القومي كان يعوزه خطباء شعبيون

٥٨- المرجع السالف، ص٥٥، ٦٩، ١٢٢.
٥٩- إستيفان سڤايگ "عالم الأمس" ص٦٣.
٦٠- كفاحي، ص١٠٠.

ذوو تأثير. وقد لاحظ هتلر هذا النقص وأكد في (كفاحي) أهمية الخطابة في ميدان السياسة تأكيداً شديداً. "القوة التي كانت تدفع بأعظم الموجات الدينية والسياسية في التاريخ هي دائماً قوة النطق السحرية بالكلمة..." و"لايمكن تحريك أوسع الجماهير إلا بقوة الكلمة، والحركات العظيمة كلها كانت حركات جماهيرية، إنفجارات بركانية لعواطف البشر وأحاسيسهم ونوازعهم يؤججها ويزيد سعارها أحد عاملين: إما آلهة العذاب القاسية أو نار الكلمة المضطرمة التي تقذف بها الجماهير. إن الكلمة ليست شربة ليمون يصبّها صبّاً هيّناً أولئك المتأدبون من المتحررين فكرياً أبطال قاعات الإستقبال الميامين"[٦١]. ومع إبائه المساهمة فعلياً في سياسة الأحزاب، إلا أنه شرع يدرّب نفسه على الخطابة أمام كل من وجد في دور إيجار ڤيينا، والمطاعم المجانية ومنعطفات الأزقة. وتسنى له أن يصقل موهبته هذه ويبلغ بها حدّ الإبداع والسحر المبين، وهو ما يشهد له به المؤلف الذي إتفق له وسمع عشرات من أهم خطبه. سحرٌ لايدانيه فيه خطيب مماثل في ألمانيا ما بين الحربين، يمكن أن يعزى إليه فضل كبير لنجاحه المدهش.

ويأتي اليهود في آخر قائمة تجاربه في ڤيينا. "في لينز يوجد من اليهود قلة. وفي بلدي لاأذكر أني سمعت هذه الكلمة طول ما كان أبي في قيد الحياة" وفي الثانوية كان يوجد فتى يهودي "إلا أننا لم نكن نعلّق أي أهمية على الأمر... حتى إني كنت أتوهمهم (أي اليهود) ألماناً"[٦٢].

ونحن لانراه صادقاً في هذا إذا قورن كلامه بما كتبه صديقه (أوگست كوبيتشيك) مستعيداً ذكرى أيامهما معاً في لينز: "عندما إلتقيت بأدولف هتلر لأول مرة كان عداؤه لليهود واضحاً. ووجدته خصماً عنيداً للساميين عندما نزحنا الى ڤيينا. وربما كانت تجاربه في هذه المدينة سبباً في تعميق هذا العداء على أنها لم تكن عامل خلقها فيه"[٦٣].

يقول هتلر: "ثم حللت في ڤيينا... وأنا مشغول الفكر بالكثير من إنطباعاتي الأولى... يزهق شظف العيش أنفاسي ويمسك بخناقي، فلم أستطع النفوذ بفكري الى أغوار مشاعر الناس في هذه المدنية الضخمة. ومع أن مائتي ألف يهودي كان بين سكانها الذين يناهزون المليونين إلا أنني لم أتبيّنهم... إن اليهود لايمثلون لي أشخاصاً إلا بديانتهم. لذلك رفضت الحملات الدينية عليهم على أسس من التسامح الإنساني. فهي كغيرها من الحملات الدينية الأخرى لا قيمة لها. وبدت لي لهجة صحافة ڤيينا المعادية لهم تافهة لاتسمو الى التقاليد الثقافية لأمة عظيمة"[٦٤].

وذكر هتلر إنه كان يتجول يوماً ما في قلب المدينة: "... وإذا بي وجهاً لوجه أمام شبح يرتدي قفطاناً أسود تتدلى من قمة رأسه ظفيرة شعر سوداء. وكان أول ما تبادر الى ذهني أن تساءلت أهذا هو يهودي؟ إذ لا أكتمك أنهم لايظهرون في لينز بهذا الزي. أخذت أنعم النظر بتأنٍّ وحذر وكلما طال تحديقي في هذا الوجه الأجنبي مقارناً سيماءً بسيماءٍ وقسماتٍ بقسماتٍ وجدت تساؤلي الأول يتخذ

٦١- المرجع السالف، ص١٠٧.
٦٢- المرجع السالف، ص٥٢.
٦٣- كوبيتشيك المرجع نفسه، ص٧٩.
٦٤- كفاحي، ص٥٢.

قالباً مختلفاً حتى رأيتني أقول: أهذا هو ألماني؟"(٦٥)

لايصعب على المرء أن يحزر جواب هتلر. غير أنه إدعى قبل الجواب أنه قام "بمحاولة تبديد شكوكي بمراجعة الكتب" وسرعان ما دفن نفسه في الأدبيات المعادية لليهود والساميّة التي كانت تباع في ڤيينا على أوسع نطاق. ثم إنطلق يتجوّل في الطرقات لملاحظة هذه الظاهرة "بدقة أكثر". يقول: "إني صرت أرى يهوداً أنّى سرت وكلما كثرت مشاهداتي كلما ازدادوا وضوحاً في عينيّ وإختلافاً عن سائر البشر... وأخيراً صرت أصاب بغثيان وبميل الى القيء بمجرد وصول رائحة أصحاب القفاطين هؤلاء الى خياشيمي(٦٦). وقال بعدئذ أنه إكتشف "لطخة العار الخلقية في هذا الشعب المختار... أهناك أي شكل من أشكال الدعارة والفجور ولاسيما في الحياة المثقفة خلت من يهودي واحد على الأقل؟ وإن أنت حززت في هذا الدمّل بمبضعك حزاً دقيقاً لما وجدت إلا كيكه مثل دودة في جسم متفسخ كثيراً ما يبهرها النور الفجائي!". وهم على حد قوله أول المسؤولين عن الدعارة وسوق النخاسة الأبيض. "لما وجدت لأول مرة في حياتي أن اليهودي يدير هذه التجارة الفاسقة المخزية بقسوة وغلاظة قلب وبدون إحساس بالعار وبحساب دقيق في أرجاء هذه المدينة العظيمة شاعت في فقرات ظهري قشعريرة باردة"(٦٧).

في كثير من هذيان هتلر عن اللاسامية، تجد قدراً من مرض الإنحراف الجنسي، وهو الطابع العام الذي كان يدمغ صحافة ڤيينا آنذاك. كما أصبحت فيما بعد الطابع الداعر المفحش لجريدة نورمبرگ الأسبوعية المسماة در شتورمر Der Sturmer التي يصدرها واحد من أخلص أصدقاء هتلر هو يوليوس شترايخر Juluis Streicher زعيم الحزب في منطقة فرانكونيا Franconia وهو شخص عرف بالإنحراف الجنسي، وبأنه من أقذر شخصيات الرايخ الثالث. وزخر (كفاحي) بأضاليل تافهة عن الساميين البرابرة الذين يغدرون بالفتيات المسيحيات البريئات، فيزنون بدمائهن. وإستطاع هتلر أن يكتب عن "كابوس مريع يتمثل بإغراء مئات الألوف من الفتيات من قبل أولئك اليهود النغولة ذوي الأرجل المقوسة والسحن القبيحة" ويعلل (رودولف أولدن) جذور عداء هتلر للسامية الى حسده الجنسي المعذب، وكان وهو في مقتبل العقد الثالث لم يعرف عنه أنه إتصل إتصالاً جنسياً بأي صنف من النساء خلال إقامته في ڤيينا.

يقول: "وبدأت أبغضهم شيئاً فشيئاً... كان هذا الزمن قد تمخض لي بأعظم ثورة روحية عانيتها. فلم أعد حضرياً واهي الركبتين وأصبحت لاسامياً"(٦٨).

وقُدر له أن يبقى على تعصبه الأعمى الى النهاية المريرة. فآخر وصية له كتبها قبل أن يلاقي حتفه ببضعة ساعات تضمنت آخر إنفجاراته ضد اليهود حين حمّلهم مسؤولية الحرب التي بدأها هو وختمت على مصيره وأنهت حكم الرايخ الثالث. كُره جائح سرت عدواه الى كثير من الألمان في تلك

٦٥- المرجع السالف، ص٥٦.
٦٦- المرجع السالف، ص٥٦-٥٧.
٦٧- المرجع السالف، ص٥٩.
٦٨- المرجع السالف، الص٦٣-٦٤.

الإمبراطورية وأدى بالأخير الى مجزرة بلغت فظاعتها وسعة رقعتها الى الحد الذي تركت ندبة قبيحة شنعاء في وجه الحضارة البشرية ستظل باقية ما بقي البشر على وجه الأرض.

في ربيع عام ١٩١٣ ترك هتلر ڤيينا نهائياً وأقام في ألمانيا "حيث يقيم قلبه" دائماً على حد تعبيره. وكان في الرابعة والعشرين يبدو فاشلاً في الحياة لكلّ إنسان خلا نفسه. فهو لم يَغدُ رساماً ولا مهندساً معمارياً. لم يكن شيئاً كما هو جلي وظل متشرداً غريب الأطوار كثير المطالعة عديم الأصدقاء والأسرة لا علم له ولا بيت ولا يملك شيئاً سوى ثقة في نفسه لاتتزعزع. وشعور عميق محرق برسالته.

ربما كان تركه ڤيينا للتملص من الخدمة العسكرية فيها[٦٩] ليس لجبن فيه، بل لأنه كان يكره الخدمة في صفوف جيش يضم أشتاتاً من اليهود والسلاڤ وغيرهم من الأقليات القومية في الإمبراطورية. وذكر في (كفاحي) أن نزوحه الى مونيخ كان في ربيع ١٩١٢ وهو في ذلك مخطيء لأن سجل الشرطة يشير الى أنه كان مقيماً في ڤيينا حتى شهر أيار ١٩١٣. وتلوح نغمة العظمة والغرور عند ذكر الأسباب التي دعته الى ترك النمسا "إن كرهي الداخلي لدولة هاپسبورگ كان يتعاظم بإطّراد و... ونما فيّ صدود لكتلٍ من القوميات التي عرضتها عليّ العاصمة. عافت نفسي كل هذا الخليط من الچيك والپولنديين والهنگار والرويثيين والصرب والكروات. في كل مكان أجد هذا النبات الفطري الطفيلي على البشرية... يهود ومزيد من اليهود. وبدت لي تلك المدينة الجبارة بؤرة للدنس العنصري... وكلما طال مكثي فيها كلما زاد حقدي على هذا الخليط من الشعوب الذي بدأ ينخر في هذا المعقل العتيق من معاقل الحضارة الألمانية... لكل هذه الأسباب بدأ شوقي يزداد ويبث فيّ قوة ويدفعني الى ما كنت أصبو إليه منذ طفولتي... حب غامض وأشواق مستسرّة[٧٠].

وفي تلك الأرض التي أحبّها كثيراً - قُدِّر له أن يصبح شخصية لم يحلم قط أن يكونها في أوسع دائرة وصلها خياله ورؤاه.

لقد كان وسيظل حتى قبيل وصوله الى منصب المستشار أجنبياً عن الرايخ الألماني، نمساوي الرعوية

٦٩- خضع الى القرعة العسكرية منذ ١٩١٠ عندما بلغ الحادية والعشرين. ويقول "هايدن" أن السلطات النمساوية لم تكن تستطيع وضع اليد عليه أثناء إقامته في ڤيينا. وأخيراً تمكنوا من العثور عليه في مونيخ وأمر بالحضور لإجراء الفحص في (لينز) ونشر (جوزيف گراينر) في كتابه "نهاية أسطورة هتلر" طائفة من الرسائل المتبادلة بين هتلر وسلطات التجنيد العسكرية النمساوية. أنكر هتلر نزوحه الى ألمانيا تملصاً من الخدمة العسكرية. وطلب معتذراً بضيق ذات اليد أن يحوّلوا دائرة فحصه الى سالزبرگ لقربها من مونيخ. وتم فحصه هناك في الخامس من شباط ١٩١٤ فوجد غير صالح للخدمة العسكرية، بل غير صالح لوضعه في صنف الإحتياط - لأسباب صحية ويظهر أنه مازال يشكو من علة صدره. لاشك أن عدم تلبية طلب الخدمة العسكرية - حتى عثور السلطات عليه وقد بلغ الرابعة والعشرين، كان من الأمور التي ضايقته وأقضّت عليه مضجعه عندما صعد نجمه وإستطارت شهرته في ألمانيا. وأيّد (گراينر) حكاية إنتشرت في الأوساط المعادية للنازية عندما كان المؤلف في برلين. وخلاصتها أن هتلر أمر الگشتاپو بعد دخول الجيش الألماني الى النمسا عام ١٩٣٨، بالبحث عن الأوراق الرسمية المتعلقة بخدمته العسكرية. فلم يعثروا على أية أوراق في لينز رغم الجهود مما أثار غضب هتلر. إذ كان قد إنتزعها موظف حكومي وأخفاها ثم أطلع عليها (گراينر) بعد نهاية الحرب.

٧٠- المرجع السالف، ص١٢٣-١٢٤.

بالمفهوم القانوني. وكان النمساوي الوحيد البالغ الذي فشل في السنوات العشر السابقة لإنهيار إمبراطورية هاپسبورگ في مد جذوره بتربة عاصمتها المتحضرة. والوحيد الذي إجتمع فيه كل البغض والتحامل غير المقبول عقلاً، السائد في دوائر متطرفيها الناطقين بالألمانية. والوحيد الذي أخفق في فهم كل ما هو نقيّ طاهر نبيل ونحوها من الفضائل التي تدمغ أغلبية المواطنين الساحقة سواء هم چيك، أو هنگار، أو يهود، أو ألمان. فقراء أم أغنياء، حرفيون أم فنانون. وبهذا وحده يمكن أن يُفهم هتلر. ومما يشك فيه كثيراً أن يشارك هتلر في رأيه هذا أي ألماني آخر من الشمال أو من الراين أو من الغرب أو من پروسيا الشرقية أو حتى من باڤاريا أو أن يكون في عقله أو دمه ما كان في هتلر من العوامل المختلطة التي دفعت به الى تنمية الأفكار حتى بلغ فيها الذروة. ولنضف الى ذلك كله سمة العبقرية التي صعب التنبّؤ بها في حينه.

هذه العبقرية لم يبدر منها شيء في ربيع ١٩١٣. وظل هتلر في مونيخ مفلساً كما كان في ڤيينا لا صديق له ولا عمل منتظم. ثم إندلعت نيران الحرب في صيف العام ١٩١٤ وأنشبت فيه مخالبها القاسية كما أنشبت في الملايين. وفي ٣ آب ١٩١٤ تقدم بطلب التطوع في الجيش الباڤاري الى لودڤيك الثالث Ludwig III ملك باڤاريا، فقُبل طلبه وكانت هبةً سماوية هبطت عليه. فأصبح في وسع الأفاق الشاب أن يشبع شوقه الى خدمة بلاده المحبوبة الجديدة عن طريق ما رآه ووصفه بالكفاح في سبيل الحياة "قد يكون كذلك وقد لايكون!" فضلاً عن فرصة أتيحت له بالتخلص من خيباته وإخفاقاته في حياته الخاصة، وكتب في (كفاحي): "جاءتني تلك الساعات بالخلاص من الهم الذي أناخ عليّ بكلكله في أيام شبابي. ولست أخجل من القول أن حماسة تلك الساعة غلبت على مشاعري فما رأيتني إلا وأنا أجثو على ركبتيّ شاكراً للسماء حسن حظي الذي أبقاني حياً حتى هذه اللحظة... فبالنسبة لي ولكل ألماني بدأت الآن أخطر فترة في حياتي وعاد الماضي نسياً منسياً بمقارنته بأحداث هذا الصراع المارد الجبار[٧١].

والماضي بالنسبة الى هتلر كان سيظل جاثماً في الظلال القاتمة بكل وضاعته وعزلته وخيبته. وإن عمد فيما بعد الى بناء عقليته وأخلاقه بناءً جديداً. لقد منحته هذه الحرب التي صبَّت حمم الموت على رؤوس الملايين نقطة إنطلاق جديدة في الحياة وهو لم يَعْدُ الخامسة والعشرين.

٧١- المرجع السالف، ص١٦١و١٦٣.

الفصل الثاني

ميلاد الحزب النازي

-١-

في يوم أحد من أيام الخريف المكفهرة. وبالضبط في ١٠ تشرين الثاني ١٩١٨ عانى أدولف هتلر ما دفعته أعمق مشاعر خيبته وحقده، الى تسميته بأكبر دناءة إقتُرفت في هذا القرن[١]. فقد قدم قسّ يحمل الأنباء التي يصعب تصديقها للجنود الجرحى الراقدين في مستشفى پاسڤالك Pasewalk العسكري. وهي مدينة (پوميرانيّة) صغيرة تقع شمال شرق برلين حيث كان هتلر يُعالج من عمى وقتي أصيب به في هجوم بريطاني بالغازات السامة قبل شهر بالقرب من (إيپر Ypres)، أبلغهم هذا القس في صبيحة يوم الأحد ذاك، أن القيصر تنازل عن العرش وفرّ الى هولندا. وأن الجمهورية أُعلنت في برلين قبل فراره بيوم واحد. وأن الهدنة وُقّعت في ١١ تشرين الثاني في غابة كومپين Compiegne بفرنسا. وبهذا خسرت ألمانيا الحرب ووقعت تحت رحمة الحلفاء الظافرين. قال القس هذا وأنشأ يبكي.

وصوّر هتلر المشهد نفسه بقوله: "لم أعد أحتمل أكثر من هذا وإسودَّ كل شيء أمام عينيّ مرة أخرى، ورحت أتعثر في سيري وأنا أتلمس سبيلي الى الردهة وقذفت بنفسي الى الفراش ودفنت رأسي المشتعل في طيات المطرح واللحاف... إذن فقد ضاع كل شيء. عبث في عبث كل هذه التضحيات والحرمان. عبث كل الساعات التي قضيناها متمسكين بقلوبنا في خوف مميت ونحن نؤدي واجبنا. عبث موت مليونين من الرجال... لاقوا حتفهم لأجل هذه النهاية؟ حدث هذا كله لتستولي عصابة من المجرمين السفلة على أرض الجدود[٢].

قال إنه طفق يبكي بأعصاب منهارة لأول مرةٍ بعد وقوفه على قبر أمه. "لم أستطع السيطرة على نفسي" ولم يستطع إقتبال الحقيقة الصارخة القاصمة كغيره من ملايين الألمان لا في تلك الساعة ولا بعدها... أبداً، حقيقة أن ألمانيا هُزمت في المعركة وخسرت الحرب. كان هتلر مثل ملايين الرجال الآخرين أيضاً، جندياً باسلاً مقداماً. لقد إتهمه خصومه السياسيون فيما بعد بالجبن في سوح القتال. ولكن الإنصاف يقتضي منا القول أنه لايوجد في كنيته أقل دليل يثبت التهمة. فقد سيق الى الجبهة بوظيفة جندي مخابرة وساعياً بين الخطوط منسوباً الى السرية الأولى من اللواء السادس عشر للمشاة الإحتياط الباڤاريّ. وذلك في نهاية تشرين الأول ١٩١٤، بعد أن أكمل ثلاثة أشهر في مستودع تدريب، وأبيدت وحدته أو كادت بعد قتال مرير دام أربعة أيام في معركة (إيپر) الأولى حيث قام

١- هذه الكلمة وردت في أول طبعة ألمانية لـ(كفاحي) على أنها إستبدلت بـ(الثورة) في جميع الطبعات التالية.
٢- كفاحي، ص٢٠٤-٢٠٥.

الإنگليز بصد إندفاع الألمان نحو القنال. وجاء في رسالة كتبها هتلر لزميل السكن الخياط (پوپ): أن اللواء الذي كان يبلغ تعداده قبل المعركة (٣٥٠٠) أصبح ستمائة فقط ليس فيه غير ثلاثين ضابطاً وشُطبت من ملاكه أربعة أفواج.

وجُرح أثناء الحرب مرتين: الأولى في ٧ تشرين الأول سنة ١٩١٦ إبان معارك السوم Somme إذ أصيب بساقه. وبعد علاجه في ألمانيا أعيد الى لواء "ليست List" الذي سُمي بإسم قائده الأصلي- في أواخر العام ١٩٧١ ورُفّع الى نائب عريف، وشارك في معركة أرّاس Arras وفي معركة (إيپر) الثالثة أثناء ذلك الصيف وكان لواؤه في قلب المعركة أثناء الهجوم الألماني الكاسح خارج الخنادق في ربيع وصيف العام ١٩١٨. وفي ليلة ١٣ تشرين كان أحد ضحايا غارة إنگليزية عنيفة بالغاز السام، على تل يقع الى الجنوب من ڤيرڤيك Werwick فيما يدعى بمعركة (إيپر) الأخيرة، "فإنكفأت على عقبي وعيناي تلتهبان ناراً وأنا أحمل آخر تقرير حربي عن الموقف. وأصبحت عيناي جمرتين متقدتين بعد بضع ساعات وإظلمّ العالم من حولي[٣].

ومُنح وسام الشجاعة مرتين. ففي كانون الأول ١٩١٤ قُلّد وسام الصليب الحديدي من الدرجة الثانية. وفي آب ١٩١٨ قُلّد وسام الصليب الحديدي من الدرجة الأولى. وهو لايُمنح الى جندي عادي في الجيش الإمبراطوري القديم إلا في القليل النادر. لقد شهد أحد زملائه في الوحدة أنه فاز بهذا الوسام الذي يصبو إليه الكل لأنه أسر خمسة عشر جندياً إنگليزياً بمفرده، وزعم آخر أن الأسرى فرنسيون أما الوقائع الرسمية للواء "ليست" فلاتتضمن كلمة واحدة عن هذه المأثرة. وهي تسكت عن الشجاعة الفردية لعدة أبطال قُلّدوا أوسمة. ومهما كان السبب فالثابت أن نائب العريف هتلر فاز بوسام الصليب الحديدي من الدرجة الأولى وظلّ يتقلده بإعتزاز وفخر حتى آخر حياته.

ومع ذلك كله كان في مفهوم المسلك العسكري السائد بين الجنود شخصاً غريب الأطوار كما لاحظ أكثر من واحد من زملائه. فلم تكن تصله رسائل من الأهل أو طرود كما تصل الآخرين ولم يطلب إجازة واحدة وكان عزوفاً عن النساء خلافاً لعادة الجنود في سوح القتال ولم يكن يتشكى أو يتذمر كما يفعل أشجع الناس - من القذارة والحشرات والوحول والجيفة في خطوط القتال. كان مقاتلاً خالياً من المشاعر كثير الجد حول أهداف الحرب ومصير ألمانيا المقدّر. وذكر أحد أفراد سريته فيما بعد: "كنا نلعنه جميعاً ونجده لايُطاق. هذا الغراب الأبيض بيننا، لايسايرنا وينضم إلينا عندما نلعن الحرب ونهتف[٤] بسقوطها. ووصفه آخر: وهو جالس في ركن الى مائدة الطعام واضعاً رأسه بين يديه مستغرقاً في تأمل عميق. وعلى حين غرة يستوي قائماً ويسير بهياج وسرعة ويقول بالرغم من مدفعيتنا الضخمة فالنصر سيكون بعيد المنال لأن خصوم الشعب الألماني المستورين هم أعظم مدفعية لدى العدو[٥].

٣- المرجع السالف، ص٢٠٢.
٤- هايدن "الزعيم" ص٨٤.
٥- رودولف أولدن "هتلر البيدق" ص٧٠.

ثم يروح يشن هجوماً على أولئك الخصوم المستورين... اليهود والماركسيين. ألم يتعلم في ڤيينا أنهما مصدر الشر كله؟

ثم ألم يرَ ذلك كله بأم عينه على أرض ألمانيا نفسها عندما كان يقضي دور النقاهة من جرح ساقه في منتصف الحرب؟ بعد خروجه من مستشفى بيليتز Beelitz قرب برلين. زار تلك العاصمة ثم غادرها الى مونيخ وكان أينما حل يجد "أنذالاً يلعنون الحرب ويرغبون في إنتهائها بسرعة والإندحاريون كثيرون يفوقون الحصر. من يكونون غير أولئك اليهود؟". ووجد الدوائر مكتظة باليهود، يكاد كل الموظفين يكونون يهوداً، وكل يهودي موظفاً... في ١٩١٦-١٩١٧ كان "كل الإنتاج الإقتصادي تقريباً تحت سيطرة رأس المال اليهودي... واليهود نهبوا الوطن كله وإحتلبوه وإعتصروه إعتصاراً... لقد رأيت دنو الكارثة بفزع شديد"[٦]. لم يطق هتلر تحمل ما رأى وسرّه أن يعود الى الجبهة على حد قوله. ولم يتحمل أكثر منها تلك الكارثة التي حلت بأرض آبائه في تشرين الثاني ١٩١٨ فهي بالنسبة له ولكل الألمان تقريباً "كارثة شنعاء" لاتستحقها ألمانيا. إن الجيش الألماني لم يُقهر في ميادين القتال وإنما طعنه الخونة في الداخل طعنة في الظهر.

وهكذا تكوّن لهتلر كما تكوّن لكثير من الألمان عقيدة ثابتة، نبعت من خرافة (طعنة في الظهر) تلك العقيدة قوضت أركان جمهورية (ڤايمر) بالدرجة الأولى ومهّدت الطريق لفوز هتلر المحجّل. هذه الخرافة لاتعدو كذبة مصنّعة. فالجنرال لودندورف Ludendorff القائد العام الفعلي لهيئة الأركان العليا أصرّ في ٢٨ أيلول ١٩١٨ على عقد الهدنة حالاً وأيّد رأيه رئيسه الرسمي فيلد مارشال ڤون هندنبرگ. وفي إجتماع مجلس العرش الذي تم في برلين في الثاني من تشرين الأول برئاسة القيصر ڤلهلم الثاني، كرر (هندنبرگ) طلب القيادة العليا عقد هدنة فورية وقال: "إن الجيش لايستطيع أن يصمد أكثر من ٤٨ ساعة" وذكر في رسالة كتبها في اليوم ذاته: إن الموقف العسكري يحتم "إيقاف القتال". ولم يرد أي ذكر لـ(طعنة الظهر) تلك. ولم يساهم بطل الحرب الألماني العظيم في ترويج هذه الخرافة إلا فيما بعد. فقد صرّح في إفادة أداها أمام لجنة تحقيق في الجمعية الوطنية في ١٨ تشرين الثاني ١٩١٩ بعد الحرب بسنة واحدة ما يلي: "... وكما قال جنرال إنگليزي بحق، إن الجيش الألماني قد طُعن في الظهر"[٧].

٦- كفاحي، ص١٩٣.

٧- إن إسناد هذه الخرافة الى جنرال إنگليزي لا ظلّ له من الحقيقة. فقد بيّن هويلر بينيت في كتابه "هندنبرگ: الطيطان الخشبي" أنه من مفارقات الصدف وغرائبها أن يساهم جنرالان إنگليزيان عن غير قصد في طبخ هذه الأسطورة المخرفة. وأول الجنرالين هو "ميجر جنرال سر فردريك موريس Fredrick Maurice" الذي أُسيء تفسير كتابه "الأشهر الأربعة الأخيرة" إساءة بالغة من قبل الصحفيين الناقدين الألمان. فقد زعموا إفتئاثاً أنه برهن على "أن الجيش الألماني قد هُزم في الجبهة لخيانة الإشتراكيين من الداخل" فأنكر الجنرال صحة هذه الترجمة في الصحف الألمانية. ولم يفد عمله هذا فقد إستفاد لودندورف من التلفيقات الصحفية لإقناع هندنبرگ بتلك الخرافة. أما الضابط الثاني فهو ميجر جنرال مالكولم Malcolm رئيس البعثة العسكرية في برلين. كان الجنرال لودندورف يتناول العشاء معه وطفق بذلاقة لسانه المعهودة وطنطنته يطنب في وصف إفتقار القيادة العليا الدائم الى الإسناد الحكومي وكيف إن الثورة خانت الجيش وحاول الجنرال تلخيص شرح محدثه في جملة واحدة فسأله: أتعني أيها الجنرال أنكم طُعنتم في =



هندنبرگ

وحقيقة المسألة أن الحكومة المدنية التي كان يرأسها الأمير ماكس بادن Max of Baden لم تخبرها القيادة العليا بتردي الموقف الحربي حتى نهاية شهر أيلول، فبقيت عدة أسابيع تعارض طلب (لودندورف) بعقد الهدنة.

ومن عاش في ألمانيا فترة ما بين الحربين يدرك كم كانت هذه الخرافة منتشرة ومقبولة عند الشعب الألماني. في حين كنت تجد الحقائق التي تكشف زيفها كثيرة أينما توجهت. إلا أن اليمين الألماني لايريد أن يواجهها بشجاعة وصراحة. ولم يكف عن الزعيق أن الآثمين هم (مجرمو نوڤمبر) وهي العبارة التي ظل هتلر يدقها دقاً لا هوادة فيه في ضمير الشعب الألماني. وليس مهماً قط أن الجيش الألماني إستطاع وبحيلة منه وجبنٍ أن يقوم بمناورة قاد بها حكومة الجمهورية الى توقيع إتفاقية الهدنة التي أصرّ عليها قواد العسكر. وإن قيادة الجيش الألماني نفسها هي التي نصحت بقبول شروط معاهدة ڤرساي. كما لم يبدُ مهماً أيضاً أن الحزب الديمقراطي الإشتراكي إمتنع عن قبول مسؤولية الحكم في ١٩١٨. ولم يقبل إلا بعد تردد طويل ولخشيته أن تقع البلاد في حالة من الفوضى الشاملة رأى الجيش أنها قد تؤدي بالوطن الى البلشفية. وإن هذا الحزب لم يكن مسؤولاً عن إنهيار ألمانيا، واللوم كله يقع على عاتق النظام القيصري(٨) الزائل الذي كان يقبض على زمام السلطة. لكن ملايين الألمان رفضوا أن يفهموا ذلك أو يقتنعوا به. وكان عليهم أن يجدوا كباش فداء يقدمونها أضاحي للهزيمة ولشقائهم وذلتهم. وسهل عليهم أن يقنعوا أنفسهم بأنهم وجدوا تلك الكباش في (مجرمي نوڤمبر) الذين وقّعوا وثيقة الإستسلام وأسسوا حكومة ديمقراطية لتخلف الأوتوقراطية الزائلة.

كانت هذه الخدعة للألمان وتراً طالما ضرب عليه هتلر في (كفاحي) وما عتم أن جنى منه أعظم الفوائد. "عندما غادر القس مستشفى (پاسڤالك) مساء ذلك اليوم الموافق ١٠ تشرين الثاني ١٩١٨

= الظهر؟ فبرقت عينا لودندورف وإلتقط الجملة كما ينط كلب الى عظم وردد قوله: "طعنة في الظهر؟ أجل تلك هي بالضبط، لقد طُعنا في الظهر".

٨- ندر أن وجد الجنرالات الشجاعة ليؤيدوا هذا الكلام. ففي ٢٣ آب ١٩٢٤ نشر الجنرال فرايهر ڤون شوينياخ Freiherr Von Schoenaich مقالاً في صحيفة (فرانكفورتر تزايتونگ) يحلل فيه أسباب هزيمة ألمانيا وتوصل الى النتيجة "التي لايمكن إغفالها أبداً. وهي [إن سبب خرابنا الأساسي هو طغيان سلطتنا العسكرية على السلطة المدنية... في الواقع أن العسكرية الألمانية إنتحرت بيدها لا غير] إقتبسها تلفورد تايلر Telford Taylor في كتابه "السيف والصليب المعقوف" ص١٦.

و"جاءت أيام فظيعة ومرت بي ليالٍ أشد هولاً... لقد أدركت أن كلّ شيء ضاع. وأن الأغبياء والكذابين هم وحدهم يطلبون الرحمة من العدو. أخذ الحقد في تلكم الليالي يتنامى في نفسي، الحقد على أولئك المسؤولين عن هذا العمل... مجرمون متفسخون أنذال! كلما حاولت إستيضاح خفايا هذا الحدث الجلل في تلك الساعة كلما إزدادت حرقة جبيني بنار الخجل والسخط والعار. ما أهون آلام عينيّ إذا ما قورنت بهذا الشقاء" ثم "أصبح مصيري واضحاً أمامي فقررت إحتراف السياسة"[٩]. وقد تبين أنه قرار حاسم بالنسبة لهتلر والعالم.

-٢-

مبدء الحزب النازي

إن فرصاً لمستقبل سياسي في ألمانيا كانت أقل من المواتية بالنسبة لهذا النمساوي البالغ من العمر ٣٥ عاماً المعدوم الصديق والمال والعمل. العاطل عن أي مهنة أو حرفة أو خبرة سابقة في عمل منتظم أو تجربة في ميدان السياسة. وقد أدرك ذلك من البدء وكتب بعد فترة وجيزة: "بقيت أياماً أفكر فيما يمكن عمله. وكان تفكيري يصل بي دائماً الى الحقيقة الواقعة وهي أني ذلك الخامل الإسم، ليس لديَّ ما أرتكز عليه للشروع بأي عمل نافع"[١٠]. وقفل راجعاً الى مونيخ في نهاية تشرين الثاني ١٩١٨ ليجد مسقط رأسه الجديد متغيراً تماماً. فقد إندلع لهيب الثورة هنا أيضاً وتنازل ملك أسرة "ڤيتلسباخ Wittelsbach" عن عرشه ووقعت مملكة باڤاريا بأيدي الديمقراطيين الإشتراكيين الذين أقاموا "حكومة شعبية" برئاسة "كرت إيزنر Kurt Esner" وهو كاتب يهودي شهير ولد في برلين. ظهر (إيزنر) المعروف في مونيخ بلحيته البيضاء الفارهة وعويناته ذات الخيط وقبعته السوداء الواسعة وجرمه الصغير يمشي في الشارع على رأس بضع مئات من الناس في ٧ تشرين الثاني. وإحتل مقر الپرلمان والحكومة دون أن تُطلَق رصاصةٌ واحدة وأعلن قيام الجمهورية. وبعد ثلاثة أشهر إغتاله كونت أنطون آركوڤالي Anton Arco-Valley وهو ضابط يميني شاب. وعندها هب العمال وأقاموا جمهورية سوڤيتية إلا أنها لم تعش طويلاً. ففي الأول من أيار أرسلت برلين وحدات عسكرية نظامية إلتحق بها متطوعون باڤاريون عرفوا بإسم (المحاربون الأحرار Freikorps) ودخلوا مونيخ وأزالوا النظام الشيوعي بالقوة وذبحوا عدة مئات فيهم عدد من غير الشيوعيين إنتقاماً لقيام السوڤييت الباڤاري بإعدام عشرة من الرهائن. ومع قيام حكومة ديمقراطية إشتراكية معتدلة برئاسة يوهانس هوفمان Johannes Hoffmann في ذلك الحين فإن السلطة الحقيقية إنتقلت الى اليمين.

ما هي حقيقة اليمين في باڤاريا في تلك الفترة المضطربة؟ إنها الجيش النظامي، جيش الرايخ Reichswehr. إنها الملكيون الذين يرغبون في إعادة أسرة ڤيتلسباخ الى الحكم. إنها كتلة من

٩- المرجع السالف، ص٢٠٥-٢٠٦.
١٠- المرجع السالف، ص٢٠٧.

المحافظين الذين يكرهون حكومة الجمهورية في برلين، راحت تجمع إليها بمرور الزمن أشتاتاً عظيمة من الغوغاء والصعاليك من أولئك الجنود المسرحين الذين قذفت بهم من حالق دنيا حرب ١٩١٨. رجال أجتُثوا من جذورهم الإجتماعية إجتثاثاً، لايجيدون عملاً ولايتبينون طريقهم الى مجتمع مستقر آمن كانوا قد تركوه عام ١٩١٤. رجال إخشوشنوا وقست قلوبهم مما ذاقوا في الحرب، لايستطيعون أن ينزعوا ذاتهم من حكم العادة التي أشربتهم إياها الحرب. قال عنهم هتلر الذي كان واحداً منهم: "لم يصبحوا ثوريين إلا أنهم لايريدون الثورة لذاتها. يرغبون في الثورة كحالة دائمة ثابتة".

وإنبثقت وحدات (المحاربين الأحرار) في طول ألمانيا وعرضها تمدهم قيادة الجيش الألماني بالسلاح. وكانوا في مبدأ الأمر يُدفعون لقتال اليولنديين ودول البلطيق على الحدود الشرقية المتنازع عليها. لكنهم سرعان ما راحوا يساندون المؤامرات التي بدأت تحاك للإطاحة بالنظام الجمهوري. وفي آذار من السنة ١٩٢٠ تمكنت إحدى هذه الوحدات، وهي لواء إيرهارد Ehrhardt السيء الصيت الذي يقوده هذا الكابتن المغامر - من إحتلال برلين ومعاونة الدكتور ولفگانگ كاپ[١١] Wolfgang Kapp وهو أحد الساسة الخاملين من أقصى اليمين على إعلان نفسه مستشاراً ووقف الجيش النظامي - وكان بقيادة الجنرال ڤون سيكت Von Seeckt الى جانبٍ وقفة المتفرج بينما فرّ رئيس الجمهورية وأعضاء الحكومة وسط الفوضى الضاربة أطنابها - الى غرب ألمانيا. ولم يقم بإنقاذ الجمهورية وإعادة الحكومة إلا إعلان نقابات العمال إضرابها العام. وفي الوقت نفسه نجح نمط آخر من أنماط الإنقلابات العسكرية. ففي ١٤ آذار ١٩٢٠ أسقط الجيش الألماني حكومة هوفمان "الديمقراطية الإشتراكية" وأقام نظاماً يمينياً برئاسة "گوستاف ڤون كاهر Gustav Von Kahr وبذلك أصبحت العاصمة الباڤارية قبلة ومغنطيساً تجذب كل القوى الألمانية التي حلفت يميناً غموساً على إسقاط النظام الجمهوري وإقامة حكم مطلق وتعديل معاهدة ڤرساي التي أُمليت شروطها قسراً (Diktat) ووجد فيها زعماء المحاربين الأحراء ومن بينهم لواء إيرهارد ملجأ ودار ضيافة. وفيها أيضاً إستقر رجال لواء إيرهارد من ضباط الجيش الناقمين[١٢] المسرّحين. وفيها راحت تحاك مؤامرات القتل السياسي. وكان بين من أغتيل ماتياس إيرزبيرگر Matthias Erzberger وهو من الساسة الكاثوليك المعتدلين وجد في نفسه الجرأة والشجاعة لوضع توقيعه على الهدنة عندما نكص الجنرالات على أعقابهم. وعقبه في المصير "ڤالتر راثناو Walter Rathnaw" وهو وزير خارجية لامع جمّ الثقافة كان متطرفو اليمين يكرهونه لأنه يهودي، ولأنه كان يسيّر سياسة الحكومة الوطنية محاولاً الوفاء ببعض شروط معاهدة ڤرساي على الأقل.

١١- ولد كاپ في الرابع والعشرين من تموز ١٨٦٨ بمدينة نيويورك.

١٢- في نهاية الحرب فرّ الجنرال لودندورف الى السويد متنكراً بلحية وشارب مستعارين وعوينات زرقاء ثم عاد الى ألمانيا في شباط ١٩١٩. وكتب الى زوجته رسالة جاء فيها: "أعظم حماقة إرتكبها الثوريون هي الإبقاء علينا. ويقيناً لو أني تسلمت زمام السلطة ثانية فلن يكون ثم عفو أو رحمة. عندئذ سأقوم بضمير مرتاح بشنق شايدمان Scheidemann وإيبرت Ebert وباقي أعضاء شركتهما. وسأظل أرقبهم وهم يتأرجحون في الهواء... (مارگريت لودندورف في: Alsich Ludendorff Frau War. ص٢٢٩. كان إيبرت أول رئيس لجمهورية ڤايمر وشايدمان أول مستشار لها. كان لودندورف دكتاتور ألمانيا الفعلي لسنتي الحرب الأخيرتين مع إنه يلي هندنبرگ في القيادة.

في هذا الحقل الخصب بدأ عمل هتلر.

عند رجوع هتلر الى مونيخ في نهاية تشرين الثاني ١٩١٨ وجد لواءه في أيدي "اللجان العسكرية" المؤلفة من الجنود فإشمأز من ذلك حتى إنه قرر "أن يترك المدينة حالاً وبأسرع ما يمكن" على حد قوله. وقضى شتاءه قائماً بواجب حراسة معسكر أسرى الحرب تراونشتاين Traunstein قرب الحدود النمساوية ثم كرّ راجعاً الى مونيخ في الربيع. وذكر في كفاحي أنه إستهدف سخط حكومة اليسار، وزعم أنه لم ينجُ من الإعتقال إلا بعمل جريء، وذلك بتسديد فوهة بندقيته الى ثلاثة من الأوغاد الذين جاؤوا للقبض عليه. وبعد إسقاط النظام الشيوعي بدأ هتلر ما وصفه "بأوّل نشاط سياسي ضيق النطاق... هذا النشاط المحدود هو عبارة عن تقديم معلومات الى لجان التحقيق التي شُكّلت في لواء المشاة الثاني لإستجواب أولئك الذين ساهموا في إقامة النظام السوڤياتي في مونيخ. ويظهر أن خدمات هتلر في هذه المناسبة أعتبرت قيمة. مما حدا بالجيش الى إستخدامه في أعمال أخرى. فأسند له مهمة في مكتب الصحافة والأنباء التابع للدائرة السياسية لآمرية الجيش المنطقيّة.

أصبح الجيش الألماني يتدخل في السياسة تدخلاً كبيراً وخاصة في باڤاريا حيث تمكن من إقامة حكومة حسب ذوقه. ولتوسيع وجهات نظره اليمينية راح ينظم الجنود في حلقات دراسية تلقى فيها دروس سياسية. وكان "هتلر" أحد التلاميذ النابهين وذكر أنه قاطع مرة أحد المتكلمين لأنه ذكر اليهود بكلمة خير. ويظهر أن ضباطه الآمرين سُرّوا بخطبته تلك المعادية للسامية فما لبثوا أن عيّنوه ضابط تثقيف Bildungsoffizier في حامية مونيخ تنحصر وظيفته الأساسية في مكافحة الآراء الهدّامة والمباديء الإشتراكية والديمقراطية، والتهادن، تلك كانت مفاهيم الجيش لواجباته ودوره في جمهورية ديمقراطية أقسم على أن يخدمها.

كان المنصب الجديد فاتحة مهمة له، وأول تقدير لخدماته في الحقل السياسي الذي يحاول إقتحامه الآن. وأهم من كل ذلك أنه أتاح له الفرصة لوضع قابليته الخطابية في التجربة. والخطابة أولى مستلزمات السياسي الناجح في رأيه. ويقول في هذا: "فجأة سُمح لي بفرصة الكلام أمام محفل كبير وما كنت أفترضه دائماً من محض شعور فيّ دون أن أمحّصه، تأكد لي الآن... إني أستطيع الخطابة". هذا الكشف سرّه كثيراً وإن لم يكن مفاجأة كبيرة له. لقد كان يخشى أن يشوب صوته ضعف دائمي من جراء إستنشاقه الغاز السام في الجبهة فوجده سالماً واضح النبرات مسموعاً "على الأقل في كل ركن من أركان قاعة الفصيل الصغيرة"(١٣). وكانت فاتحة موهبة رفعته بيسرٍ وسهولة الى مصاف أبرع الخطباء في ألمانيا وأشدهم سحراً وأذا يُسمع من الراديو فهو كفيل بهزّ الملايين هزاً.

في يوم من أيام أيلول ١٩١٩ أبلغته دائرة الإستخبارات السياسية في الجيش بإستطلاع أمر مجموعة سياسية صغيرة في مونيخ تطلق على نفسها إسم "حزب العمال الألمان". وكان الجيش كثير الشك في أحزاب العمال لأن معظمها يتراوح بين الإشتراكية والشيوعية. أما هذا الحزب بالذات فالمعتقد أنه يختلف عن الباقي. يقول هتلر أنه كان يجهل وجوده بالمرة، إلا أنه كان على صلةٍ برجل

١٣- المرجع السالف، الص٢١٥-٢١٦.

سيقوم بإلقاء خطاب في إجتماع لذلك الحزب ضُرب له موعدٌ.

قبل هذا ببضعة أسابيع كان قد أصغى الى محاضرة في إحدى ندوات الجيش الثقافية ألقاها گوتفريد فيدر Gotfried Feder وهو مهندس بناء ذو آراء إقتصادية غريبة إستولت عليه فكرة مؤداها أن الرأسمال المضارب بإعتباره منافساً لرأس المال "الخلاق" أو المستثمَر هو العلة لمعظم مصائب الدنيا الإقتصادية، وكان يدعو الى إزالة الأخير منهما. وألف في ١٩١٧ جمعية ترمي الى تحقيق هذه الغاية سماها العصبة الألمانية المناضلة لإلغاء رقّ الفائض.

ولجهل هتلر المطبق في أمور الإقتصاد، أثرت فيه خطبة (فيدر) تأثيراً بليغاً ووجد في دعوة الخطيب الى القضاء على عبودية الفائض واحدة "من الأركان الرئيسية لبناء حزب جديد"، وقال عنها: "لقد شممت فيها رائحة شعار قوي للكفاح المقبل"(١٤).

على أنه لم يجد في حزب العمال الألمان ما يسترعي الإهتمام باديء ذي بدءٍ. ولم يحضر إجتماعه إلا أنه أُمر بذلك وبعد أن ظل جالساً طوال جلسة مملة لحوالي خمسة وعشرين شخصاً في غرفة مظلمة في مشرب البيرة المسمى شتيرنكربراو Sterneckerbrau لم يجتذب إهتمامه شيء ووجدها "منظمة جديدة مثل كثير غيرها. في زمن يقوم كل شخص غير راضٍ عن سير الأمور... بتأليف حزب جديد، فتجد هذه المنظمات تنبع من الأرض في كل مكان لتتلاشى بصمت وسكون بعد فترة من الزمن. وحكم على حزب العمال الألمان: أنه لايختلف بشيء عن الأحزاب الأخرى(١٥).

وبعد أن فرغ (فيدر) من كلامه وهمَّ هتلر بالإنصراف نهض (أستاذ) وراح يناقش في صحة آراء الخطيب وإفتراضاته. ثم إقترح إنفصال باڤاريا عن پروسيا وتأليف دولة ألمانيا الجنوبية من إتحاد النمسا وباڤاريا، وقد كان هذا الميل السائد في مونيخ يومذاك. وأغضب الإقتراح هتلر الى حد الهياج العصبي فنهض ليتحف "السيد المتعالم" بشيء مما يجول في ذهنه على حد ما عبّر عنه فيما بعد. وكان هذا "الشيء" قاسياً شديد الوقع ألجأ الأستاذ الى مغادرة الغرفة "كالجرو المبتل بالماء" بينما أرسل المجتمعون أنظارهم الى المتعلم الشاب وعلى "وجوههم دهشة". وذكر هتلر أن واحداً فيهم نهض وأسرع إليه ودس كتيباً في يده.

هذا الرجل هو أنطون دركسلر Anton Drexler ومهنته صنع الأقفال. ويمكن القول أنه المؤسس الفعلي للقومية الإشتراكية، وهو رجل سقيم الصحة ذو نظارات يفتقر الى أوليات الثقافة والمعارف ذو عقلية فردية ضيقة مشوشة. كاتب فج وخطيب أكثر فجاجةً. كان في ذلك الحين يزاول صنعته في معامل سكة حديد (مونيخ). ألّف في ٧ آذار ١٩١٨ ما سماه "لجنة العمال المستقلين" لمحاربة ماركسية نقابات العمال الحرة ودعا الى سلم عادل لألمانيا. ولجنته في واقع الأمر فرع من حركة واسعة نشأت في شمال ألمانيا وإتخذت عنوان "جمعية تحقيق السلم على مباديء الطبقة العاملة". (منذ تلك الفترة

١٤- المرجع السالف، الص ٢١٠-٢١٣.
١٥- المرجع السالف، الص٢١٨-٢١٩.

حتى ١٩٣٣ كانت ألمانيا متخمة بالجمعيات السياسية الصخّابة ذات العناوين البراقة الجذابة).

ولم يستطع (دركسلر) أن يجمع حوله أكثر من أربعين عضواً. وفي كانون الثاني ١٩١٩ إندغمت في لجنة مشابهة كانت تعرف "بحلقة العمال السياسية" يتزعمها مراسل صحفي يدعى كارل هارّير Karl Harrer. وعُرفت المنظمة الجديدة التي كانت تضم أقل من مائة عضو (بحزب العمال الألماني). وكان (هارّير) أول رئيس لها. وهتلر الذي لم تكن من عادته في (كفاحي) الحديث الكثير في رفاقه القدامى الذين ضاعت أسماؤهم في زوايا النسيان. لم يبخل على (هارّير) بالمديح. فنعته "بالمخلص المثقف الواسع الثقافة". إلا أنه أبدى أسفه لإفتقاره الى موهبة الخطابة ولعل السبب الأعظم لزوال هارّير وأفول نجمه إصراره العنيد على رأيه في أن هتلر لايصلح للخطابة. وهو حكم أثار ثائرة الزعيم وجعله يثابر بعزم متواصل كما أوضح ذلك في سيرة حياته. ومهما يكن من أمر فقد بدا أن (دركسلر) كان القوة المحركة الكبرى لهذا الحزب الصغير المجهول، حزب العمال الألماني.

بدأ هتلر في صبيحة اليوم التالي يتفقد محتوى الكتيب الذي دسه (دركسلر) في يده. وهو يصف المنظر وصفاً دقيقاً مسهباً في (كفاحي). كان الوقت الخامسة فجراً وهتلر متكيء على فراشه في ثكنات لواء المشاة الثاني يرقب فأرة تقضم كِسراً من الخبز كان قد نثرها على الأرض ليلة أمس، قال: "لقد عرفت عن الفقر الكثير. وأصبحت أتصور تماماً وطأة الجوع، ومن ثم الفرح الذي يستولي على هذه المخلوقات الصغيرة" في تلك اللحظة تذكر الكتيب وراح يقرأ فيه وكان عنوانه "يقظتي السياسية" ووجد لدهشته أنه يعكس عدداً من الآراء التي تكونت في رأسه عبر السنين الماضية. لقد كان هدف (دركسلر) إقامة صرح حزب سياسي على قواعد جماهير الطبقة العاملة يختلف عن الحزب الإشتراكي في ميله القومي ميلاً شديداً. وكان (دركسلر) عضواً في "جبهة تربة الوطن" القومية لكنه إكتشف بسرعة عقلية الطبقة الوسطى التي تسيطر عليها ولم تكن على أية صلة بالجماهير. وقد رأينا كيف أن هتلر تعلم في ڤيينا إزدراء البرجوازية لهذا السبب عينه، أعني إفتقارها التام الى الإهتمام بأمور الطبقة العاملة ومشاكلهم الروحية والإجتماعية، ولهذا أثارت آراء (دركسلر) إهتمامه بنوع خاص.

وفي ساعة متأخرة من ذلك اليوم تلقى لدهشته بطاقة بريدية جاء فيها أنه قُبل عضواً في حزب العمال الألمان وتذكر فيما بعد أنه "ما كنت أدري هل أغضب أم أضحك إذ لم تكن عندي نية في الإنضمام الى حزب كامل التشكيل. وإنما إنصرفت نيتي الى تأسيس حزب خاص؛ كان في طلبهم هذا جرأة، وكان إنضوائي شيئاً مستحيلاً"[١٦].

وهمَّ بالإفصاح عن رأيه هذا في رد خطي إلا أن "حب الإستطلاع غلب عليه". فقرر أن يذهب الى

١٦- المرجع السالف، ص٢٢٠.

إجتماع اللجنة الذي دعي إليه، ليشرح شخصياً الأسباب التي تدفعه الى عدم الإنضمام "الى هذا الحزب الصغير". "كان الإجتماع في آلته روزنباد Alte Rosenbad وهو مشرب حقير في شارع هرّن Hrrenstrasse... إجتزت غرفة طعام معتمة خالية وفتحت الباب المفضي للغرفة الخلفية فوجدت نفسي أمام اللجنة. وفي ضوء متهافت ينشره مصباح نفطي كئيب وقع نظري على شبان أربعة قد تحلقوا مائدة. وتبينت منهم مؤلف الكتيب الذي نهض فوراً لتحيتي مرحّباً مستبشراً بوصفي عضواً في حزب العمال الألمان".

"والحق يقال أني فوجئت وبوغتُّ. وقُرئت وقائع الجلسة الأخيرة ومنح السكرتير الثقة بعد تصويت. ثم تُلي التقرير المالي وتبين أن مالية الحزب لاتعدو (٧) ماركات وخمسين فينيك. وصوّت على تقرير أمين الصندوق بالثقة ودوّن ذلك في المحضر ثم قرأ الرئيس الأول للحزب ردوداً على رسائله من (كبيل) وأخرى من (دوسلدورف) وثالثة من (برلين) وأعلن الجميع موافقتهم. وبعدها تُلي تقرير عن البريد الوارد... فظيع! فظيع! إنها أسوأ من حياة النوادي. هل قُدّر لي الإنضمام الى هذه الجمعية؟"(١٧)

مع هذا كله فقد إجتذبه شيء ما في أولئك الرجال ذوي الثياب الرثة المجتمعين في غرفة خلفية سيئة الإنارة. هو "شوق الى حركة جديدة تكون أكثر من حزب العمال بالمعنى المألوف للحزب". وعاد الى ثكنته مساء ذلك اليوم "ليواجه أشقّ سؤال في حياته:"هل أنضّم؟" وأقرّ معترفاً أن عقله أشار عليه ألاّ يفعل... مع ذلك فإن خمول شأن المنظمة قد يمنح الشاب النشيط المملوء أفكاراً فرصته في (نشاط شخصي حقيقي). وذكر ما يمكنه أن يحقق في هذا المجال: "بدا لي أن فقري وقلة مواردي هو أسهل الجوانب التي يمكن التغاضي عنها في هذا المجال. لكن الجانب الصعب هو الإسم. فأنا معدود بين أولئك الذين لا إسم لهم. أنا واحد من ملايين البشر الذي عاشوا بالصدف ويزولون من الوجود دون أن يدري أقرب جيرانهم بأمرهم أو يلاحظوا وجودهم من عدمه. زد على ذلك الصعوبة المتأتية من إفتقاري الى التحصيل العلمي.

وبعد يومين من عذاب التفكير والتأمل وصلت أخيراً الى وجوب إتخاذي هذه الخطوة. وكان أعظم قرار حاسم إتخذته في حياتي ولم يعد لي أي مجال للنكوص الى الوراء"(١٨). وهكذا إنضم أدولف هتلر الى لجنة حزب العمال الألمان عضواً سابعاً.

في هذا الحزب الخامل يوجد عضوان يستحقان الذكر، كلاهما ذو أثر مهم في إرتفاع نجم هتلر. أولهما الكابتن آرنست روهم Ernest Roehm وهو ضابط ركن في القيادة المنطقية السابعة في الجيش المعسكر في مونيخ، إنضم الى الحزب قبل هتلر. وكان متين البناء غليظاً خشناً ذا عينين ضيقتين في وجهه ندوب تشهد على أنه جندي محترف- أطارت رصاصة الجزء الأعلى من أنفه في ١٩١٤- مغرم بالسياسة ذو ملكة وقابلية في التنظيم. كان مثل هتلر قد حقد على الجمهورية الديمقراطية حقداً

١٧- المرجع السالف، الص٢٢١-٢٢٢.
١٨- المرجع السالف، ص٢٢٤.

مسعوراً وأبغض (مجرمي تشرين) وعدّهم مسؤولين عن إقامتها. وهو يؤمن ويعمل على إعادة خلق ألمانيا قومية قوية. ويرى كهتلر أن تحقيق هذا الهدف لايمكن أن يقوم به حزب تستند قواعده على الطبقات السفلى التي إنحدر هو منها خلافاً لمعظم ضباط الجيش. رجل قاسٍ مندفع، منحرف جنسياً مثل كثير من النازيين الأولين. ساعد في تنظيم أولى فصائل الصدام النازية التي عرفت فيما بعد برمز (S.A) وهو جيش فرق الصاعقة الذي ظل يقوده حتى فتك به هتلر في ١٩٣٤. أدخل (روهم) الى هذا الحزب الناشيء عدداً كبيراً من المحاربين القدماء وأفراد "المحاربين الأحرار" الذين صاروا عمود الحركة الفقري في أولى أيامها. ولم يكتف بهذا فقد أمّن الحماية لهتلر ولحركته لكونه أحد ضباط الجيش المسيطر على باڤاريا. وأمّن أحياناً المساعدة من السلطة، وبدون هذا العون كان يُستبعد أن ينجح هتلر في البدء بمعركة حقّة لتعبئة الجماهير، وإسقاط الجمهورية. ومن المؤكد أنه ما كان يستطيع النجاة بجلده لأساليبه الإرهابية وإشاعة الرعب- دون تسامح الحكومة الباڤارية وجهاز شرطتها.

وثاني الشخصين "ديتريش إيكارت Dietrich Eckart" وهو رجل يكبر هتلر بواحد وعشرين عاماً. وكثيراً ما لُقب بـ"المؤسس الروحي" أو الزعيم النظري للقومية الإشتراكية. صحفي بارع النكتة، وشاعر دون الوسط وكاتب مسرحيات. كان قد ترجم مسرحية پير گنت Peer Gynt للمسرحي إبسن Ibsen وكتب عدداً من المسرحيات لم تُمثل. وعاش في برلين مثل عيشة هتلر في ڤيينا حياة تشرد وتعطل. وأدمن الخمر والمورفين. وذكر (هايدن) أنه أدخل مستشفى الأمراض العقلية، وفيه تسنى له إخراج مسرحياته موزعاً أدوارها على النزلاء المرضى.

وبنهاية الحرب عاد الى باڤاريا موطنه. وكان يعقد ندوات تضم حلقات من المعجبين في مشرب خمر برنسّل Bernnessel الواقع في شڤالبنگ Swalbing وهو منتجع الفنانين في مونيخ، فيخطب في التفوق الآري ويدعو الى إستئصال شأفة اليهود وسقوط "الخنزير" في برلين. وذكر (هايدن) الذي كان يعمل في صحافة مونيخ عن (إيكارت) أنه كان يخطب بحماسة وإنفعال في مرتادي مشرب برنسّل في ١٩١٩ قائلاً: "نحن بحاجة الى رجل في المقدمة. يستطيع أن يحمل المدفع الرشاش. إن الرعاع بحاجة الى خوف يدب في سراويلهم. نحن لانستطيع إستخدام ضابط فالناس ما عادوا يحترمون هؤلاء. والخير كل الخير في عامل متمكن من ناصية الكلام... إنه لايحتاج الى عقل كثير... كما يجب أن يكون أعزب. وإذ ذاك ستفوز بالمرأة!"[١٩] أي مادة أولية "كان هذا الشاعر السكير يجد خيراً من شخصية هتلر[٢٠]:

إنه الشخص الذي يبحث عنه بالضبط. وبهذا أصبح إيكارت الناصح الأمين للشاب البازغ في سماء حزب العمال الألمان فأعاره كتباً وعاونه في صقل لغته كتابةً وتكلماً. وقدمه الى حلقة أصدقائه الواسعة التي كانت تضم بعض الأثرياء، مدّوا الحزب بالمال، وأمّنوا لهتلر عيشاً فضلاً عن تزويده

١٩- المرجع الأول، ص٦٨٧.
٢٠- توفي إيكارت سنة ١٩٢٣ بسبب سكرة مفرطة.

بأعوان المستقبل، مثل رودولف هسّ Rudolf Hess وألفريد روزنبرگ Alfed Rosenberg. ولم يتحول هتلر عن إعجابه بـ(إيكارت) قط. وآخر عبارة في (كفاحي) هي تعبير عن إمتنانه من هذا المعلم الضالّ، قال: "كان واحداً من أفضل الناس. وقف حياته على إيقاظ شعبنا بكتاباته وأفكاره ثم بأعماله"(٢١).

ذلكم هو الخليط المتناقض العجيب الذي خلق النازية. أولئك الذين بدأوا دون أن يشعروا بصوغ حركة قُدر لها أن تكتسح أقوى البلاد في أوروبا خلال ثلاثة عشر عاماً وتقدم لألمانيا رايخها الثالث. فـ(دركسلر) منحها تراثها و(إيكارت) الشاعر السكير ساهم بوضع بعض أسسها الروحية، والدجال الإقتصادي (فيدر) زودها بآيديولوجيتها المزعومة. وأمدها (روهم) المنحرف جنسياً بمساندة الجيش وتعضيد المحاربين القدماء. أما أدولف هتلر المتشرد السابق المجهول الإسم الذي لم يتعد الحادية والثلاثين فقد مسك زمام القيادة في بناء ما لم يكن يعدو جمعية نقاشٍ صغيرة في غرفة خلفية. ليجعل منها في وقت قصير حزباً سياسياً واسعاً. ووجدت تلك الأفكار التي كانت تقعقع في قحف رأسه منذ أيام العزلة والجوع في ڤيينا مجال إنطلاقها الآن. وإندفعت من أعماقه قوة كامنة لم تكن ظاهرة في شخصه من قبل ودفع لجنته الصغيرة المترددة الى تنظيم إجتماعات أوسع وكان يطبع بنفسه رقاع الدعوة على الآلة الكاتبة ويوزعها بيده. وتذكر مرة كيف انه بعد توزيعه ثمانين بطاقة "جلسنا ننتظر المدعوين المتوقع حضورهم. وإضطر عريف الحفل بعد مرور ساعة على الموعد الى أن يفتح الإجتماع". كنا سبعة، سبعتنا القديمة لا أكثر(٢٢). ولم يخب أمله وزاد من عدد البطاقات بإستنساخها بالكاربون وجمع بضعة ماركات دفعها أجراً لإعلان عن إجتماع في إحدى الصحف المحلية. وقال: "كان النجاح مذهلاً في الحقيقة. مائة وأحد عشر شخصاً حضروا". وكان من المقرر أن يلقي هتلر أولى خطبه العلنية بعد خطبة الإفتتاح التي سيلقيها أحد "أساتذة مونيخ" فأصبح (هارير) رئيس الحزب الإسمي على هذا التدبير. وعقّب هتلر على المسألة بقوله: "هذا السيد كان مخلص النية في أمور أخرى. لاأدري كيف وثق بأني قادر على أمور معينة ليس الكلام من بينها. لقد تكلمت ثلاثين دقيقة وما كنت أحس به مجرد إحساس في أعماقي دون إدراك وتفهّم. ثبت لي الآن بالدليل القاطع. إني قادر على الكلام!"(٢٣)

وإدعى هتلر أن الحاضرين كُهربوا بخطابه، والحماسة التي أظهروا في إكتتابهم بمبلغ ثلاثمائة مارك حلّت مشاكل الحزب المالية حلاً مؤقتاً. وفي مبدأ العام ١٩٢٠ أنيط به جهاز دعاية الحزب فأوقف عليه جلّ تفكيره منذ أن لاحظ أهميته في نشاط الحزبين الإشتراكي والمسيحي في ڤيينا وتفرغ حالاً الى تنظيم أعظم إجتماع حلم به هذا الحزب البائس الصغير. وقرر له الرابع والعشرين من شباط ١٩٢٠، وعُقد في قاعة الحفلات Festvaal المشهورة في هوفبراوهاوس Hofbrauhaus التي يزيد عدد مقاعدها على الألفين. وحكم عليه زملاؤه بالجنون. وإستقال (هارير) إحتجاجاً وإستخلفه (دركسلر)

٢١- المرجع نفسه، ص٦٨٧.
٢٢- المرجع السالف، ص٣٥٤.
٢٣- المرجع السالف، ص٣٥٥.

الذي ظل شاكاً متردداً[٢٤].

ويوضح هتلر أنه كان ينهض شخصياً بالإستعدادات اللازمة. والواقع أن الحادث كان يحتل حيزاً كبيراً في تفكيره حتى أنه ختم الجزء الأول من (كفاحي) بوصفه، لأنه كما أوضح - كان الفرصة المتاحة للحزب "لخرق قيود المنتدى الصغير التي كانت تكبله. ولأول مرة نجده يمارس نفوذاً حقيقياً على الرأي العام الذي هو أعظم عامل سياسي في أيامنا هذه".

ولم يكن هتلر الخطيب الرئيس. لأن ذلك أسند لشخص يدعى "يوهانس دينگفيلدر Johannes Dingfelder" وهو طبيب هوميوپاثي* homeopathic وكاتب دعيّ يزود الصحف بمقالات إقتصادية يوقعها بالإسم المستعار "جرمانوس أگريكولا Germanus Agricola ما لبث أن خبا ذكره وطواه النسيان. وقوبل خطابه بالصمت. ثم بدأ هتلر يخطب. ودونك إياه يصف المشهد:

"بدأت الهتافات تنثال كوابل من المطر. وكان ثمة صدامات عنيفة داخل القاعة قبضة من أخلص رفاق الحرب القدامى وغيرهم من الصِّداميين كانوا يعتركون مع مثيري الشغب من شيوعيين وإشتراكيين وأفلحوا بالتدريج في إعادة النظام وصرت قادراً على مواصلة خطابي، وبعد نصف ساعة بدأ هتاف الإستحسان يعلو على صراخ الإستهجان... وبعد حوالي أربع ساعات بدأت القاعة تخلو وعلمت أن المبادىء التي شرعتها وهي حركة لم يعد تجاهلها ممكناً بعد الآن - أصبحت تتفاعل وتترسب في أفكار الشعب الألماني"[٢٥]. أعلن هتلر في خطابه هذا ولأول مرة النقاط الخمس والعشرين التي يتضمنها منهج "حزب العمال الألمان". وكان قد صاغها دركسلر وفيدر وهتلر بأقصى سرعة. وإنصب معظم الإستنكار على هتلر لفقرات قرأها من المنهج. ومع هذا فقد إعتبرها مقبولة من الجمهور برمتها وآضت المنهج الرسمي للحزب النازي بعد أن تم تبديل إسمه في الأول من نيسان ١٩٢٠ الى "الحزب القومي الإشتراكي للعمال الألمان". والحق يقال أن هتلر لم يصرح في ١٩٢٦ بأن المنهج غير قابل للتعديل إلا لأسباب تاكتيكية ومما لا مراء فيه أن مواده مزيج دجليّ وجمع إعتباطي لإستمالة كل من العمال والطبقة دون الوسطى والفلاحين. وتنُوسي هؤلاء كلهم عندما تسلم الحزب مقاليد السلطة. وسخر بمواد المنهاج عدد كبير من كتاب ألمانيا. حتى "الزعيم" نفسه فقد أدركه خجل منها فيما بعد عندما ذُكّر ببعضها. ومع ذلك كله فقد تم تحقيق معظمها بقيام الرايخ الثالث. كما حقق أهم المبادىء التي جاءت في (كفاحي) وكان من نتائجها أن إنصبت البلايا على رؤوس ملايين البشر داخل ألمانيا وخارجها.

كانت أولى مواد المنهج تدعو الى وحدة كل الألمان في "ألمانيا الكبرى". أليس هذا ما كان يصر عليه بالضبط (هتلر المستشار) عندما ضم النمسا بملايينها الستة من الألمان وأرض السوديت بملايينها

٢٤- كان (هارير) يعارض أيضاً في عنف هتلر بمعاداته للسامية. وكان يعتقد أنه ينفّر جماهير الطبقة العاملة، وهنا يكمن السبب الحقيقي لإستقالته.

* طبيب يتبع أسلوباً في المعالجة بإعطاء المريض جرعات صغيرة من دواء معيّن لو أعطي لشخص سليم لأحدث فيه أعراضاً شبيهة بالمرض المعالج.

٢٥- المرجع السالف، الص٣٦٩-٣٧٠.

الثلاثة؟ وألم يكن طلبه إعادة الدانزگ Danzig الألمانية وغيرها من المناطق الألمانية في پولندا التي تسكنها غالبية من الألمان هو الذي أدى الى هجومه على پولندا ونشوب الحرب العالمية الثانية؟ ألا يمكننا الإضافة الى هذا قولنا أن من أنكد حظوظ هذه الدنيا أن ظل الناس يتجاهلون أو يستخفون بأهداف النازية التي سطرها كتابةً في فترة ما بين الحربين؟ لاشك أن المواد الأولية لمعاداة الشعوب السامية المنصوص عليها في ذلك المنهاج الذي دوّن في مشرب بيرة مونيخ مساء يوم ٢٤ شباط ١٩٢٤ كانت إنذاراً هائلاً مريعاً. فقد نصت على تحريم الوظائف وحق المواطنة على اليهود في ألمانيا ومنعهم من العمل في الصحافة وطرد كل الذين دخلوا الرايخ بعد الثاني من آب ١٩١٤.

هناك عدة مواد في منهاج الحزب تضليلية وضعت لإجتذاب مشاعر الطبقات الدنيا. في زمن كانوا يرزحون تحت أوضاع سيئة في الوقت الذي تحاشى الشعارات المتطرفة حتى الشعارات الإشتراكية منها. فالفقرة الحادية عشرة مثلاً تدعو الى إلغاء الدخول التي لاتأتي من العمل. والمادة الثانية عشرة تقضي بتأميم الإحتكارات والمادة الثالثة عشرة تدعو الى مساهمة الدولة في أرباح الصناعات الكبرى. والمادة الرابعة عشرة قضت بإلغاء بدلات إيجار الأرض وتحريم المضاربة بها بيعاً وشراءً. والمادة الثامنة عشرة فرضت عقوبة الموت على الخونة والمرابين والمتلاعبين بالأسعار والمادة السادسة عشرة دعت الى بناء طبقة متوسطة قوية وشددت على تأميم المخازن الكبرى وتأجيرها بإيجارات رخيصة للتجار الصغار، هذه المسائل أدرجت بإلحاح من (دركسلر) و(فيدر) اللذين كانا على ما يبدو يؤمنان بـ(إشتراكية) القومية الإشتراكية. وهي الآراء التي وجدها هتلر فيما بعد محرجة له عندما بدأ رجال الصناعة الكبار والإقطاعيون يصبون المال صباً في خزانة الحزب. وهو بالطبع لم يفعل شيئاً بخصوصها.

أخيراً هناك فقرتان في المنهاج أسرع بوضعهما في حيز التنفيذ حالاً عندما أصبح مستشاراً. وهما الفقرة الثانية التي دعت الى إلغاء معاهدتي ڤرساي وسان جيرمان. والفقرة الأخيرة الخامسة والعشرون التي شددت على خلق حزب مركزيّ للدولة وهي كالمادة الأولى والثانية تطالب بوحدة كل الألمان في رايخ واحد وإلغاء معاهدات السلم كلها وقد أدرجت بإصرار هتلر. وهي توضح أن الحزب كان حتى ذلك الزمن يمد أبصاره الى آفاق بعيدة رغم أنه غير معروف خارج مونيخ غير مبالٍ بخطر فقدانه المعونة الجماهيرية في معقله الخاص.

كانت الدعوة الى الإنفصال قوية جداً في باڤاريا آنذاك. والباڤاريون مختلفون دائماً مع الحكومة المركزية في برلين حول طلبهم مزيداً من اللامركزية ليتسنى لباڤاريا حكم نفسها وهو ما كانت تفعل في ذلك الحين. فقرارات برلين وأوامرها لاتحترمها الحكومة الإقليمية كثيراً. وكان هتلر يطمح الى السلطة لا في باڤاريا كلها بل في الرايخ فيما بعد. وأراد أن يقيم ويمارس نظاماً دكتاتورياً يتصور أنه ضروري ليكوّن به سلطة مركزية قوية. ويريد إلغاء الحكم شبه الذاتي للأقاليم الذي تبنته جمهورية ڤايمر كما كان في عهد إمبراطورية هوهنزلرن. حيث كان كل إقليم يتمتع ببرلمانه وحكومته. ومن أول أعماله بعد ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ أنه حقق فوراً هذه الفقرة الأخيرة من منهاج الحزب التي لم

يلحظها أحد ولم تؤخذ مأخذ الجدّ إلا عند القلة. لا أحد يستطيع الإدعاء إنه لم يُعطَ إنذاراً سابقاً عن طريق الكتابة، من البداية.

لم تكن الخطب الحماسية والمنهاج الخدّاع الموضوع إعتباطاً بالتي تكفي لجلب الإهتمام والحصول على التأييد الشعبي، مع أنها ضرورية لحزب ما يزال وليداً. فلذلك إنصرف هتلر الى إيجاد المزيد من وسائل الدعم، والمزيد جداً. وبدأت تباشير عبقريته الغريبة تظهر للعيان وتُلمس لمساً. فكّر أن ما تحتاجه الجماهير ليست أفكاراً وحسب -أفكار قليلة بسيطة يمكن دقها دقاً في رؤوسها- بل هي في حاجة الى رموز تكسبها إخلاصها والى مهرجانات وبيارق ترفع من حماستها والى أعمال إرهابية عنيفة تزيد من أشياعه ومريديه في حالة نجاحها (أليس من طبع الألمان محبة الطاغية القوي؟) وتمنحهم شعوراً بسلطانهم على الضعفاء الحائرين.

وقد وجدنا كيف إستنكر في ڤيينا ما سماه "أساليب الإرهاب الروحي والجسدي الشنيع" الذي زعم إن الديمقراطيين الإشتراكيين كانوا يمارسونه ضد خصومهم السياسيين[٢٦].

ها هو الآن يستخدم تلكم الأساليب لغرض مفيد داخل حزبه المعادي للإشتراكية. فبالأول كلّف الجنود القدماء بإسكات مثيري الشغب في أثناء الإجتماعات. وفي صيف العام ١٩٢٠ وبعد أن أضاف الى عنوان الحزب لفظتي (القومية الإشتراكية) فأصبح "الحزب القومي الإشتراكي للعمال الألمان" وهو الإسم الذي عرف بعدئذ، نظم زمراً من "المحاربين القدماء" الغلاظ في فصائل صدامية سماها (حرس النظام Ordenrtuppe) وأناط قيادتها بأميل موريس Emil Mourice وهو مجرم من أرباب السوابق ومصلح ساعات". وفي ٥ تشرين الأول ١٩٢١، وبعد أن تنكر هؤلاء تحت عنوان "عصبة الجمناستيك والألعاب الرياضية" فترة قصيرة من الزمن للتخلص من تعقيب حكومة برلين، بادروا بتبديل إسمهم رسمياً الى "فرق العاصفة Sturmabteilung" الذي إشتق منه إسم (إس.أي) وهو إختصار لكلمة "جندي العاصفة". وإرتدى جنود العاصفة هؤلاء لباساً رسمياً بنياً وجُنّد معظمهم من مسرّحي أفراد (المحاربين الأحرار) ثم جعلوا تحت قيادة (يوهان أولريخ كلينتزيخ Johann Ulrich Klintzich) وهو أحد مساعدي الكابتن (إيرهارد) السيء الصيت، الذي كان قد أُطلق سراحه من السجن مؤخراً لعلاقته بمقتل (إيرزبرگر). هؤلاء الأوباش ذوو البزات الموحدة لم يقنعوا بواجب حفظ النظام في إجتماعات النازيين وإنما راحوا يشيعون الفوضى في إجتماعات الأحزاب الأخرى. ومرة في ١٩٢١ قاد هتلر بنفسه هجوماً على إجتماع للفيدراليين الباڤاريين وكان يخطب فيه باللرشتيد Ballerstedt. فأعتدي على الخطيب بالضرب وحُكم على هتلر بالحبس ثلاثة أشهر لذلك السبب فقضاها كلها وكانت أولى تجاربه في السجن خرج منها أشبه بالشهيد وهو أكثر شعبية وعقّب هتلر بقوله للشرطة متباهياً "لا بأس في هذا فقد نلنا ما أردناه ولم ندع باللرشتيد يخطب". كان هتلر قد خطب في مستمعيه قبل ذلك بشهر قائلاً: "إن حركة القوميين الإشتراكيين ستمنع في المستقبل بالقوة إن لزم الأمر - ستمنع كل الإجتماعات والخطب التي من شأنها حرف عقول أبناء وطننا"[٢٧].

٢٦- أنظر ما سبق.

٢٧- كونراد هايدن "تاريخ القومية الإشتراكية" ص٣٦. معاهدة ڤرساي وقّعها الحلفاء مع ألمانيا في ٢٨ حزيران =

وفي صيف ١٩٢٣ خرج هتلر الفنان الشاب الخائب الذي أصبح الآن أستاذاً في فن الدعاية - بفكرة ملهمة لايمكن وصفها إلا بأنها إحدى ومضات العبقرية. وجد أن ما يفتقر إليه الحزب هو علم وشعار ورمز. تعبّر كلها عن أهداف الحركة وتأسر خيال الجماهير التي وجدها هتلر بحاجة الى علم جذاب تسير خلفه وتحارب تحته. وبعد كثير من التأمل والتجارب في مختلف النماذج قرّ رأيه على علم أحمر في وسطه دارة بيضاء رُسم داخلها سواستيكا سوداء. إن هذا الصليب المعقوف Hakenkreuz المستعار من الآثار القديمة الموغلة سيغدو رمزاً جباراً مخيفاً للحزب النازي ثم لألمانيا النازية. ولم يتحدث هتلر في (كفاحي) عن المصدر الذي إستقى منه فكرة إستخدامه علماً وشعاراً للحزب في كل حديثه الطويل عنه. إن الصليب المعقوف هو قديم قدم الإنسان في هذا الكوكب تقريباً. وقد وجد في خرائب (طرواده) وفي مصر والصين القديمتين. ووجدته أنا نفسي في مآثر الهنود والبوذيين. وظهر أيضاً في أزمان متأخرة كشعار رسمي لدى دول البلطيق كإستونيا وفنلندا حيث رآه "المحاربون الأحرار" أثناء حروب ١٩١٨-١٩١٩. ونقشت كتيبة إيرهارد على خوذ رجالها الفولاذية هذا الرمز عند دخولها برلين في إنقلاب كابّ العسكري ١٩٢٠ ولاشك أن هتلر شاهده في النمسا في شعارات أحد الأحزاب اللاسامية. أو ربما إنتبه إليه عند مجيء كتيبة إيرهارد الى مونيخ. وهو يقول في هذا أن كثيراً من النماذج أقترحت عليه وعرضها أعضاء الحزب ومن بينها الصليب المعقوف، وإن مركّب أسنان من شتيرنبرگ Sternberg تقدم بتصميم لعلمٍ "لم يكن شيئاً أبداً بل هو قريب جداً من تقويمه الخاص". أما بخصوص الألوان فقد إحتوى الأسود والأحمر والذهبي وهي ألوان علم جمهورية ڤايمر المكروهة. وأبى إتخاذ العلم الإمبراطوري القديم المولف من الأحمر والأبيض والأسود. على أنه كان معجباً بتلك الألوان ليس لأنها "أجمل تناسق لوني في الوجود" على حد قوله. بل لأنها ألوان ألمانيا التي تحارب لأجلها. لكن يجب أن يتم التأليف بينها في هيئة جديدة. فأُضيف إليها الصليب المعقوف. وأشاد هتلر بإختراعه الفريد في (كفاحي) فهتف يقول: إنه لرمز حقاً. في الأحمر نرى فكرة الإشتراكية بحركتنا. وفي الأبيض تتجلى الفكرة القومية. وفي السواستيكا رسالة الكفاح لإنتصار الرجل الآري(٢٨).

وإستحدثت عصابة كتفٍ بالصليب المعقوف لبزة جنود العاصفة وأعضاء الحزب. وبعدها بسنتين صمم هتلر العلم النازي الذي يرفع في الإستعراضات الكبيرة ويزين منصات الإجتماعات العامة. وهو مأخوذ من المآثر الرومانية. ويتألف من السواستيكا الأسود المعدني في رأس العلم يحيط به أكليل فضي ويجثم فوقهما نسر وتحته الأحرف الأولى من إسم الحزب (N.S.D.A.P) في مستطيل معدني وتتدلى منه خيوط تنتهي بأهداب وبعذبات يخرج منها شعار العلم وهو مربع فيه السواستيكا وقد نقشت عليه عبارة Deutschland Erwach! أي "يا ألمانيا إستيقظي!".

ربما لايفصح كل هذا عن شيء من الفن. إلا أنه دعاية من أعلى درجة. لقد أصبح للنازي الآن شعار

= ١٩١٩، ومعاهدة سان جرمان وقّعها الحلفاء مع النمسا في ١٠ أيلول ١٩١٩.

٢٨- (كفاحي) الص٤٩٦-٤٩٧.

لايضاهيه شعار أي حزب آخر. ويبدو أن الصليب المعقوف يتضمن قوة غامضة ذاتية. مشيراً الى عمل ذي إتجاه جديد تنهض بأعبائه الطبقة دون الوسطى التي كانت تنتابها الحيرة والتردد لأولى سنوات ما بعد الحرب الحافلة بالفوضى. لقد بدأ أعضاء هذه الطبقة يتقاطرون ويتجمعون تحت علمه هذا.

-٣-

مجيء الزعيم (الفوهرر)

في صيف عام ١٩٢١ لم يعتم هذا الشاب الكثير الشغب الصاعد النجم الذي أظهر موهبة خطابية عجيبة، ومقدرة في الدعاية والتنظيم - أن تسلم قيادة الحزب دون منازع. وبعمله هذا أذاق رفاقه العمال أول طعم من قسوته ومكره وتاكتيكه الماهر الذي قدر له أن يحقق به كثيراً من النجاح في الأزمات الكبرى.

ورحل الى برلين في أوائل الصيف للإتصال بالعناصر القومية في ألمانيا الشمالية وإلقاء خطاب في المنتدى القومي الذي كان مقرّهم الفكري. أراد تقدير إحتمالات مدّ حركته الى ما وراء الحدود الباڤارية وشمولها باقي ألمانيا. فلعله مستطيع عقد تحالف نافع لهذا الغرض وفيمَ هو بعيد عن مونيخ قرر أعضاء لجنة الحزب أن الوقت مناسبٌ لتحدّي زعامته فقد أصبح أشد دكتاتورية مما يطيقون وإقترحوا إقامة تحالف بينهم وبين ندوات تشابههم فكرياً في ألمانيا الجنوبية وبخاصة الحزب الإشتراكي الألماني الذي يبنيه (يوليوس شترايخر) عدوّ هتلر اللدود وخصمه المنافس ومعذّب يهودي سيّء الصيت في نورمبرگ، وكان أعضاء اللجنة واثقين أن إندماج هذا الحزب مع زعمائه الطموحين سيقلل من نفوذ هتلر ويحدّ دكتاتوريته.

ولمّا أحسّ بما يتهدد مركزه أسرع بالعودة الى مونيخ لسحق تآمر هؤلاء (المجانين الأغبياء) كما وصفهم في (كفاحي) وقدّم إستقالته من الحزب ولم يكن بالحزب طاقة على هذا كما أدرك أعضاء اللجنة بسرعة. فهتلر أقوى خطبائهم وأبرع منظميهم ودعاتهم. زد على ذلك أنه كان يجمع بمجهوده معظم مالية الحزب من الإكتتابات والإجتماعات العلنية التي يخطب فيها ومن مصادر أخرى بضمنها الجيش. فلو أنه إستقال فسوف يتحطّم الحزب الوليد. رفضت اللجنة إستقالته وبذلك تقوّى مركزه. وفرض على الزعماء الآخرين الإستسلام المطلق له. وطلب لنفسه سلطات دكتاتورية بوصفه زعيماً أوحد. وطالب بحلّ اللجنة ووضع حدٍّ لحبك الدسائس والمؤامرات مع أحزاب أخرى مثل حزب (شترايخر) وكان هذا فوق طاقة أعضاء اللجنة الآخرين. فقاموا بزعامة مؤسس الحزب (أنطون دركسلر) بتوجيه لائحة إتهام لدكتاتور الحزب المقبل ووزعوها بكراسة وكانت أقسى تهم موجهة اليه من صفوف حزبه نفسه، من أولئك الذين هم أعرف الناس بخلقه وكيفية عمله بحكم قربهم منه:

"إن الشهوة الى السيطرة، والطموح الشخصي دفعا هر أدولف هتلر الى العودة بعد ستة أسابيع من مكوثه في برلين لغرض لم يُكشف عنه بعد. إنه يرى الوقت مواتياً لشقّ وحدة صفوفنا وبذر الشقاق.

مدعماً بأناس ذوي نيّات مشبوهة وراءه، وهو بهذا يدعم مصالح اليهود وأشياعهم. وبدأ يتضح شيئاً فشيئاً إستخدامه حزبنا القومي الإشتراكي لوح قفز الى غاياته اللاأخلاقية والى القبض على زمام الزعامة ليدفع الحزب الى مسلك آخر في اللحظة السايكولوجية المناسبة. وهذا جليٌّ من الإنذار الذي قدّمه الى أقطاب الحزب قبل أيام قليلة يطلب فيه (بين طلبات أخرى) منحه دكتاتورية مطلقة فردية على الحزب وأن تُنحّى اللجنة وبضمنها صانع الأقفال (أنطون دركسلر) مؤسس الحزب وقائده...

كيف تراه يخوض معركته هذه؟ مثل يهوديّ تماماً يحوّر كل حقيقة ووصف هايدن هذه الواقعة بقوله أنها تشبه إنتصار "فرسان" الحزب. على "ذوي الرؤوس المستديرة*" منه، لكنه كان أكبر من هذا إذ ما جاء تموز ١٩٢١ حتى أنشأ هتلر "مبدأ الزعامة" الذي قدر له ان يكون دستوراً للحزب النازيّ أولاً ثم دستوراً للرايخ الثالث. لقد ظهر الزعيم (الفوهرر) على المرسح الألماني راح هذا الزعيم يعيد الآن تنظيم الحزب. فترك غرفة المغسل في الجناح الخلفي من حانة (شتيرنگربراو) التي وصفها (بعربة نقل الموتى أكثر منها دائرة) وانتقل الى مقرّ جديد في مشرب آخر في شارع كورنيليوس Corneliusstrasse أكثر ضياءً ورحابة. وإبتاع آلة كاتبة من ماركة (أدلر) بالتقسيط وخزانة حديدية ودولاباً لحفظ الأوراق وآثاثاً ونصب تلفوناً واستخدم سكرتيراً بأجرة كاملة، كل ذلك حقّقه بالتدريج. وبدأ المال ينصبّ. كان قبل سنة تقريباً قد إبتاع (في كانون الأول ١٩٢٠) جريدة خاملة الذكر مثقلة بالديون اسمها (فولكشر بيوباختر Voelkischer Beobachter وهي جريدة إشاعات وحكايات معادية للساميين تصدر مرتين في الأسبوع. من اين جاءت الستون ألفاً من الماركات وهو ثمن شرائها؟ انه لسرٌّ نجح هتلر في كتمانه. لكن من المعروف أن (إيكارت) و(روهم) أقنعا الميجر جنرال ريتر ڤون إيپ Ritter Von Epp وهو قائد (روهم) وعضوٌ في الحزب أن يزودهم بالمبلغ وأرجح الظنّ أنه صرفه من إعتمادات الجيش السريّة. وفي بداية ١٩٢٣ أصبحت الجريدة يومية ومنحت هتلر الأداة اللازمة لأي حزب سياسيّ ألماني. جريدة يومية يبشر فيها بانجيل الحزب. هذا ولاشك ان اصدار جريدة يومية سياسية يتطلب نفقات إضافية. وقد جاءت الآن من مصادر بدت غريبة مشبوهة لبعض الأعضاء الأكثر بروليتارية وتعصباً في الحزب. كانت السيدة هيلينه بخشتاين Helene Bechstein (زوج صاحب مصنع للپيانو ثريّ) أحد تلك المصادر. فقد اعجبت بهتلر في أول مقابلة ودعته ليحل ضيفاً في منزل بخشتاين في برلين كلما زارها. ونظمت حفلات لجمع مبالغ كبيرة بشكل إكتتابات للحركة. وجاء قسم من مالية الجريدة من السيدة گرترود ڤون سايدليدز Gertrud Von Seidlitz وهي بلطيقية النشأة تملك اسهماً في مصانع ورق فنلندية شهيرة.

وفي آذار ١٩٢٣ تقدم المدعوّ "أرنست (بوتزي) هانفشتانگل Ernst (Putzi) Hanfstoengl" وهو خريج جامعة هارفرد، وأمّه أمريكية أسرته المثقفة الفنية تملك دار طباعة فنية في مونيخ، ومنح قرضاً للحزب بمبلغ ألف دولار موثقاً برهنٍ على جريدة (فولكشر بيوباختر[٣١]). وكان مبلغاً ضخماً خيالياً

* في الحرب الأهلية الإنكليزية التي نشبت بين الملك چارلس الأول وبين البرلمان إنتهت بإعدامه في ١٦٤٨ عرفت القوات الملكية بفرسان الملك، وقوات البرلمان بذوي الرؤوس المستديرة.

٣١- يقول هانفشتانگل في مذكراته الموسومة (الشاهد الذي لم يدل بأقواله) أنه تعرف بهتلر لأول مرة عن طريق معاون =

إذا حوّل الى ماركات في أيام التضخم النقدي وبذلك قدم خدمة هائلة للحزب ولجريدته. إلاّ ان صداقة آل هانفشتانگل تعدت المساعدة المالية. لقد كانت واحدة من أولى الأسر المحترمة الغنية في مونيخ فتحت أبواب منزلها لهذا السياسيّ الشاب الجريء. وأصبح (بوتزي) صديقاً حميماً لهتلر الذي ما لبث أن عينه رئيساً لقسم الصحافة الخارجية في الحزب وهانفشتانگل هذا رجل غريب الأطوار سهل الإنقياد تعوض دعابته ونكتته التهكمية بعض التعويض عن ضحولة فكره. وهو عازف هاوٍ على البيانو. كان بعد وصول صديقه الحميم الى برلين يستأذن منّا ويتركنا معتذراً لمن هم معه بلزوم إستجابته دعوة عاجلة من (الفوهرر). وقيل أن عزفه على البيانو العنيف الشديد وقيامه بدور المضحك كان يريح اعصاب هتلر بل ينعشه بعد يومٍ مضنٍ شاق. هذا الرجل الغريب الاطوار الميال الى الدعابة، خريج هارفرد، اضطرّ فيما بعد – مثل بعض زملاء هتلر القدماء الى الفرار من البلاد ناجياً بجلده[٣٢].

ومعظم من قدر لهم أن يصبحوا أقرب مرؤوسيه. كانوا الآن أعضاءً في الحزب. أو أنهم إنضمّوا إليه بعد قليل من هذا التاريخ. فقد انضوى (رودلف هيسّ) سنة ١٩٢٠. وهو ابن تاجر جملة ألماني سكن مصر. وقد قضى هيسّ سنواته الأولى الأربع عشرة في تلك البلاد ثم عاد الى (الراين) لتلقي

= الملحق العسكري في السفارة الأمريكية ببرلين يومذاك. وهو الكابتن ترومان سميث. كانت السفارة قد أرسلته الى مونيخ في تشرين الثاني ١٩٢٢ ليستطلع أمر داعية سياسي خامل الذكر يحوطه الغموض يدعى أدولف هتلر وان يجمع معلومات عن حزبه الجديد. وكان هذا الضابط ذا تتبعات في علم التحليل السياسي. وافلح في أثناء بقائه أسبوعاً (من ١٥–٢٢ تشرين الثاني) في مقابلة لودندورف وولي العهد الأمير روپرخت Rupprecht وأكثر من عشرة من الزعماء السياسيين في باڤاريا. وأكد له معظمهم ان هتلر هو الشهاب الصاعد. وحركته قوة سياسية سريعة النمو. ولم يضع سميث دقيقة واحدة بل أسرع لحضور مهرجان نازي علني خطب فيه هتلر فكتب في يومياته "لم أر منظراً مثله في حياتي. قابلت هتلر ووعدني أن يتحدث معي يوم الإثنين ويشرح لي أهدافه" وقصد سميث مسكن هتلر "... غرفة صغيرة للنوم في الطابق الثاني في بيت متواضع. قليلة الأثاث" وقد جرى له حديث طويل مع الدكتاتور المقبل الذي لايُعرف عنه شيء خارج مونيخ "ديماكوكي عجيب!" بهذه العبارة بدأ سميث الشاب يومياته مساء ذلك اليوم "لم أصغِ في حياتي الى رجل مثل هذا الرجل المتعصب المنطيق". وكان تاريخ المدونة في ٢٢ تشرين الثاني. وقبل مغادرته مونيخ ذلك اليوم سعى لمقابلة هانفشتانگل. وأعلمه بما جرى بينه وبين هتلر ونصحه أن يتعرف به. وكان مقرراً ان يلقي هتلر خطاباً في إجتماع يتم مساء اليوم فدفع الكابتن لهانفشتانگل ببطاقة الدعوة الصحفية. وسحر الشاب مثل كثيرين ببيان هتلر وتعرف به بعد الإجتماع. وما لبث ان إهتدى الى النازية. وعلى اثر عودة سميث الى برلين التي كانت تجهل هتلر إلاّ بالقليل، عمد الى كتابة تقرير أسطوري عنه أرسل بالحقيبة الدبلوماسية الى واشنطن في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٢٢. تقرير يدهش له المرء إن أُخذ زمن كتابته بنظر الإعتبار. "إن انشط القوى السياسية في باڤاريا الآن هي الحزب القومي الإشتراكي للعمال الألمان، انه حركة جماهيرية أكثر منه حزباً، ويمكن إعتباره صنواً للفاشية الإيطالية... لقد نال نفوذاً سياسياً كبيراً لايناسب قط قوته العددية الحقيقية... كان هتلر من اللحظة الأولى القوة المهيمنة على الحركة ولاشك ان شخصيته كانت واحدة من أهم عوامل نجاحها... ان مقدرته في التأثير على الجماهير لاتبارى. وفي مقابلة خاصة لي معه وجدته محدثاً بارعاً يمازج التعصب المخلص فيخلّف إنطباعاً جد عميق في السامع المحايد. كان كولونيل سميث الذي ظل ملحقاً عسكرياً في برلين أثناء حكم النازي الأول، قد تلطف فوضع تحت تصرف المؤلف مذكراته عن رحلته الى مونيخ. وكانت قيمة جداً في اعداد هذا الفصل.

٣٢– قضى هانفشتانگل جانباً من سني الحرب العالمية الثانية في واشنطن. ظاهرياً بوصفه أجنبياً من الاعداء معتقلاً. لكنه كان في الحقيقة (مستشاراً) للحكومة الأمريكية في أحوال ألمانيا النازية هذا الدور الأخير من حياته الذي بدا هزلياً للغاية لكل من عرفه وعرف ألمانيا النازية من الأمريكان – لابد وانه استمتع به جداً.

العلم وفي زمن الحرب خدم مدّة في (لواء ليست) وهو وحدة هتلر لكنهما لم يلتقيا فيه وجرح مرتين ثم أصبح طياراً. وبعد الحرب سجل طالباً في القسم الإقتصادي من جامعة مونيخ. ويظهر أنه قضى جلّ وقته يوزع نشرات لاساميّة. ووُجِد في زخم النار أثناء معركة ثلّ النظام السوفياتي في مونيخ في ١ أيار ١٩١٩ واصيب بجرحٍ في ساقه. وبعد سنةٍ قادته قدماه في إحدى الأمسيات لسماع إحدى خطب هتلر فسحره بيانه فانضم الى الحزب وسرعان ما أصبح صديقاً مقرباً وتابعاً أميناً وسكرتيراً خاصاً للزعيم واليه يعزى الفضل في تعريف هتلر بآراء الجنرال كارل هاوسهوفر Karl Haushofer السياسية. وكان هذا أستاذاً لعلم السياسة الطبيعية Geopolitical في الجامعة.


روزنبرگ

جلب هيس إنتباه هتلر بأطروحةٍ نالت جائزة الجامعة وعنوانها "مما يتكون المرء الذي سيقود ألمانيا الى مجدها السالف". وقد جاء فيها:

"عندما تزول السلطة كلّها، لايستطيع إعادتها إلاّ رجل من عامة الشعب... كلما كانت جذور الدكتاتور مغروسة في تربة اوسع الجماهير كلما سهل عليه إدراك كيفية معاملتهم سايكولوجياً. وكلما قلت ثقة العمال به وتصديقهم له كلما زاد كسبه أشياعاً ومعاضدين من الناس الأكثر نشاطاً وحيوية. وهو نفسه لايربطه بالجماهير شيء لأنه شخصيّة قائمة بذاتها كأي رجل من العظماء... واذا حكمته الضرورة لايتعفف عن سفك الدماء ولايحجم دونها. مشاكل عظيمة لايقررّها ويفلح في تسويتها إلا الدم والحديد... وليكن مستعداً لوطء أقرب المقربين اليه عندما يمضي لبلوغ هدفه... يجب على هذا مانح القانون ومصدره ان يبدأ بعنف رهيب... وإن ادركته الحاجة فعليه أن يطأ الجماهير بحذاء المدفعيّ الثقيل..."(٣٣)

فلا عجب أن ضمّ هتلر هذا الشاب وقرّبه منه فتلك التي رسمها صورة ربما لاتطابق صورة الزعيم يومذاك. إلا انها كانت الصورة التي تفرغ الى تحقيقها من شخصه. ولقد بقي هيسّ رغم جدّه ووقاره محدود الذكاء يتقبل دائماً أجوف الآراء ويتمتع بقابلية تبنّيها والتشيع لها بتعصب شديد وظلّ تقريباً الى النهاية واحداً من أخلص وأوثق أتباع هتلر وفرداً من القلّة التي لم تصبهم شهوة الطموح الشخصي، وكان (ألفريد روزنبرگ Alfred Rosenberg) ذا ذكاءٍ دون الوسط هو الآخر وإن كثيراً ما وصف بكونه "الزعيم الفكري" للحزب النازي، وهو عملاً "فيلسوفه" ويمكن إعتباره روسيّاً، فهو ككثير من المثقفين الروس إنحدر من أسرة ألمانية بلطيقية. أبوه صانع أحذية وقد ولد له في ١٢ كانون

٣٣- هايدن: "الزعيم" ص٩٨-٩٩.

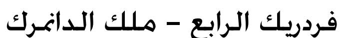
الثاني ١٨٩٣ في مدينة ريڤال (آلان تالين) بأستونيا التي كانت جزءً من روسيا القيصرية منذ ١٧١٢ واختار ان يتلقى علومه في روسيا لا في ألمانيا فنال دبلوم الهندسة المعمارية من جامعة موسكو في ١٩١٧ وعاش قي هذه المدينة أيام الثورة البلشفية. وربّما داعبته فكرة صيرورته ثورياً بلشفياً على زعم بعض خصومه في الحزب النازي. وعاد الى (ريڤال) في ١٩١٨ وتطوع في الجيش الألماني عندما بدت طلائعه في مشارف المدينة، لكنه رُفض لكونه روسيّ الجنسية. وأخيراً نزح الى مونيخ في أواخر العام ١٩١٨ ونشط هناك أولاً في حلقات المهاجرين من الروس البيض.

وهنا التقى بـ(دتيريش إيكارت) وعن طريقه تعرّف بهتلر وانخرط في صفوف الحزب في أواخر العام ١٩١٩ ولم يكن ثم مندوحة من ان يصبح مصدر إهتمام من ذلك الذي فشل حتى في دخول مدرسة الهندسة المعمارية لانه حائز على دبلومها. كذلك اعجب هتلر (بثقافته) وأحبّ في الفتى البلطيقي بغضه اليهود والبلشفيك. وقبيل موت (إيكارت) في آخرال عام ١٩٢٣ أسند اليه رآسة تحرير جريدة الحزب وظلّ سنيناً عديدةً يدعم ويسند هذا الرجل المشوش العقل تماماً، هذا الفيلسوف الضحل الملتاث، ويرى فيه المُعلّم الفكري للحركة النازية، وواحداً من المراجع الرئيسة في السياسة الخارجية. وكـ(رودلف هيسّ) نزح (هرمان گورنگ) الى مونيخ بعيد الحرب بقصد دراسة الإقتصاد في جامعتها كما يبدو، ووقع هو الآخر تحت سحر شخصية هتلر. كان (گورنگ) أحد أبطال الشعب الألمانيّ الأسطوريين. فهو آخر قائد لسرب مقاتلات (ريشتهوفن Richthofen) الشهير. وحامل وسام "الإستحقاق Pour le Merite وهو أرفع اوسمة الحرب في ألمانيا. وجد أكبر صعوبة في العودة الى الحياة المدنية الهادئة الخالية من الضجة وخدم طياراً في طائرات نقلٍ بالدانمرك مدة من الزمن ثم تحول الى (السويد). وفي ذات يومٍ طار بالكونت ايريك ڤون روزن Eric Von Rosen إلى مزرعته التي تبعد مسافة عن (ستوكهلم) وفي أثناء نزوله ضيفاً على الأسرة علق بحبّ أخت الكونتس روزن. وهي كارين ڤون كانتزوڤ Carin Von Kontzow ولقبها العائلي الاصلي البارونة (فوك Fock) كانت إحدى جميلات السويد المعدودات. وظهرت عوائق أمام هذا الحبّ فـ(كارين) مصابة بداء الصرع، متزوجة وأم لصبيّ في الثامنة. على انها تمكنت من إلغاء عقد زواجها والإقتران بالطيار البطل الشاب. وكانت غنيّة فرحلت مع زوجها الجديد الى مونيخ حيث راحا يعيشان عيشةً مترفة وانشغل هو بدراساته في الجامعة.

ولم يطل به الوقت حتى إلتقى بهتلر وانضم في ١٩٢١ الى الحزب وساهم بسخاء في تمويله ومد هتلر بالمال لنفقاته الخاصة واوقف نشاطه المثابر على تنظيم فرق العاصفة. وبعد سنة نصب قائداً لفصائل الـ(إس.أي). عام ١٩٢٢.

هنالك رهط كبير أقل شهرة ومعظمهم أناس لا ميزة بارزة فيهم انتظموا حلقة حول دكتاتور الحزب. فهنالك مثلاً (ماكس أمّان Aamann) عريف هتلر المباشر في (لواء ليست) وهو شخص فظّ غليظ إلاّ انه منظم قدير. عين مديراً لشؤون الحزب المالية ولجريدته. وسرعان ما شاع الاستقرار والثبات في ماليتهما. واختار هتلر (أولريخ گراف Ulrich Graf) حارساً شخصياً. وهو مصارع هاوٍ ومساعد قصاب

محبّ للعراك. واختص بمصورٍ واحد ظلّ عدة سنين يسمح له فقط بتصويره وهو هاينريخ هوفمان الأعرج Heinrich Hoffmann الذي كان إخلاصه له شبيهاً بإخلاص الكلاب وقد انتفع من هذا الامتياز فصار ميلونيراً. هنالك (صعلوك) آخر اسمه كريستيان ويبر Cristian Weber وهو تاجر خيول ومحتال سابق وقوّاد في إحدى موأخير مونيخ وشريب بيرة لايشق له غبار كان من مقربي هتلر في تلك الأيام. و(هرمان إيسّر Hermann Esser) وهو ذو مقدرة خطابية تضاهي مقدرة زعيمه كانت مقالاته اللاسلامية في جريدة الحزب من الافتتاحيات الهامّة. لم يتورع عن الفخر بأنه كان يعيش على حساب بعض عشيقاته. وهو مبتزّ سيء الصيت اختص بتهديد ضحاياه بالكشف عن أسرارهم ولم يسلم منه أحد، حتى رفاقه الحزبيين الذين يخاصمونه. وكرهه القدامى الأقل تفسخاً وطالبوا بطرده فاجاب هتلر علناً "انا اعرف أن (إيسّر) نذل ساقط لكني سأبقي عليه ما دام مفيداً لي[٣٤]" وهذا هو موقفه المعتاد ازاء كل الأعوان المقربين. لايهمه مبلغ سواد ماضيهم أو حاضرهم. فالقتلة والقوادون والمنحرفون جنسياً والأوباش ومدمنو المخدرات، هم سواسية لا غبار عليهم إن خدموا غاياته وحققوا مآربه.


فردريك الرابع - ملك الدانمرك

وعلى سبيل المثال وقف الى النهاية يدعم يوليوس شترايخر، هذا الساديّ الحقير الشديد الوضاعة الذي بدأ معلم إبتدائية. وكان من أسوأ الناس الذين إلتفوا حول هتلر سمعة وبقي كذلك من العام ١٩٢٢ حتى ١٩٣٣ عندما أفل نجمه. انه لفاسق يشار اليه بالبنان. يفخر بابتزازه المال من أزواج النساء اللاتي يعاشرهن. بنى شهرته وثراءه من تعصبه اللاساميّ الأعمى وجريدته الأسبوعية (دير شتورمر) السيئة النقيبة كانت حافلة بالقصص الشنعاء عن جرائم اليهود الجنسيّة وقتلهم الناس لأغراض دينية. كان فحشها وبذاءتها يصيبان المرء بالقيء والغثيان حتى لدى كثير من النازيين واشتهر بمزاولته تجارة الادبيات الخلاعية الفاجرة وعرف بلقب (ملك فرانكونيا) غير المتوّج وكان معقله نورمبرگ حيث كلمته هي القانون والويل لمن يتعرض له أو يقف بوجهه فلن ينجو من السجن والتعذيب. ما رأيته مرة إلا والكرباج في يده أو في حزامه، يفخر ضاحكاً بما لايمكن احصاؤه من عمليات الجلد التي قام بتنفيذها شخصياً. لم أره مرة واحدة متجرداً من سلاحه هذا إلاّ عندما وجدته في قفص المتهمين في محكمة نورمبرگ لمجرمي الحرب.

٣٤- هايدن "تاريخ القومية الإشتراكية" ص٥٢.

أولئك هم الرجال الذين جمعهم هتلر حوله في أولى سنيّ إندفاعه الى هدفه. يصبح دكتاتوراً على أمّة منحت العالم رجالا كلوثر Luther وكانت Kant وگوته Gothe وشللر Schiller وماركس Marx وباخ Bach وبتهوفن Beathoven وبراهم Brahms.

ترك هتلر الجيش في ١ نيسان ١٩٢٠ وهو اليوم الذي جرى فيه تبديل اسم حزب العمال الألمان بالحزب القومي الإشتراكي للعمال الألمان ومنه اشتق مختصر (نازي) وكرّس كل وقته للحزب وأبى أن يخصصّ له أيّ راتب.

ولا يتمالك المرء نفسه من السؤال إذن كيف كان يعيش وما هو مصدر رزقه؟ وقد سأل ذلك أعضاء الحزب من العُمال. ووضع بشكل صريح في لائحة الاتهام التي نظمها أعضاء لجنة الحزب الثائرين في تموز ١٩٢١، هكذا: "إن سأله أيّ عضو كيف يعيش وماذا كانت صنعته في الماضي، انتابه الغضب وثارت ثائرته دائماً. حتى في هذه اللحظة ليس هناك أيّ جواب عن هذه التساؤلات، ولا يمكن والحالة هذه ان يكون نقيّ الضمير ولاسيّما اتصالاته الدائمة الملفتة للنظر بالسيدات. ووصفه لنفسه أمامهن بأنه "ملك مونيخ" هذه الصلات الخارجة عن الحد المتعارف تكلّف مالا كثيراً".

اجاب هتلر على السؤال في جلسة محاكمة دعوى القذف التي رفعها على مؤلفي الكراسة "عندما سأله القاضي عن موارد عيشه بالضبط فأجاب: "عندما أخطب في إجتماع للحزب القومي الإشتراكي لا أتقاضى أجرة لنفسي. إلاّ اني اقبل اجوراً عندما أخطب لمنظمات أخرى... اما وجبة الغداء فأنا اتناولها مع مختلف رفاق الحزب كلٌ بدوره. وأخيراً فأنا أتلقّى مساعدات قليلة من بعض رفاق الحزب[٣٥].

وربما كان هذا أقرب الامور الى الحقيقة فأصدقاء اثرياء مثل ديتريش إيكارت وگورنگ وهانفشتانگل يقرضونه مالا بلاشك ليدفع منه ايجار مسكنه وثمن ملابسه وطعامه ولاشك في أن حاجاته كان متواضعة قليلة فقد ظلّ حتى ١٩٢٩ يسكن شقة تتألف من غرفتين في أحد أحياء الطبقة دون الوسطى بشارع ثيرش Thierschstrasse قرب نهر إسار Isar. وكان يرتدي معطفاً مطرياً عسكرياً في الشتاء عُرف به لكلّ شخص في ألمانيا من عدة صور فوتوغرافية. وكان يبدو في كثير من الأحيان بسروال قصّير في موسم القيظ وهو زيّ معظم الباڤاريين المعروف باسم ليدرهوسن Lederhosen. وفي عام ١٩٢٣ وقع (إيكارت) و(إيسّر) على حانة بلاترهوف Platterhof قرب (برختسگادن) فكانت مصيفاً لهتلر وأعوانه. واحبّ هذه البقعة الجبلية الجميلة وفيها بنى الفيلاّ الفخمة التي عرفت باسم بركهوف Berghof لتكون مسكناً له يقضي فيها جُلّ أيامه حتى نشوب الحرب.

على كل حال فلم يكن عنده وقت يخصصه للراحة والاستجمام في تلك الأيام المشحونة بالقلق ما بين العامين ١٩٢١ و١٩٢٣. فالحزب يجب ان يكمل بناءً وقبضته يجب ان تبقى محكمة عليه بعيداً عن متناول خصومه الجسورين المندفعين مثله. وهو لم يكن إلاّ واحداً من عدة احزاب يمينية في (باڤاريا) تعمل جاهدةً لاثارة إهتمام الرأي العام بها وجّره الى معونتها. دعك من الاحزاب الأخرى

٣٥- هايدن "هتلر..." الص ٩٠-٩١.

العديدة في ألمانيا.

كانت الحوادث تتوالى بشكل مذهل والتحولات سريعة مستمرة تتطلب من السياسي ان يرقبها ويحللها ليستفيد منها ففي نيسان ١٩٢١ قدم الحلفاء لألمانيا قائمة التعويضات المتضمنة مبلغاً لايصدق: ١٣٢ بليون مارك ذهبيّ أي ما يعادل ٣٣ بليون دولار وراح الألمان يصرخون محتجين بأنهم لايستطيعون الدفع وبدأ المارك (وقيمته الإسمية رُبع دولار) يهبط بإطّراد. وأصبح الدولار الواحد يسوى (٧٥) ماركاً في صيف عام ١٩٢١. ثم أصبحت قيمته بعد عام واحدٍ (٤٠٠) مارك للدولار الواحد. وجرى إغتيال (ارزبرگر) في آب ١٩٢١ وفي حزيران عام ١٩٢٢ جرت محاولة إغتيال (فيليب شايدمان) الإشتراكي الذي أعلن قيام النظام الجمهوري. وفي الرابع والعشرين من الشهر نفسه أردي وزير الخارجية (راثناو) في الشارع برصاصة غادر. وفي قضايا الإغتيال الثلاث هذه كان القتلة من أقصى اليمين وردت الحكومة الوطنية المتضعضعة في برلين على هذا التحدي أخيراً بسنّ قانون خاص عُرف بـ"قانون حماية الجمهورية" يتضمن عقوبات قاسية على الارهاب السياسيّ العصاباتيّ. لقد وجدت الحكومة الباڤارية برآسة المعتدل الكونت (لرخنفلد Lerchenfeld) الذي خلف اليساري المتطرف (كاهر) سنة ١٩٢١، من الصعب عليها مماشاة الحكم الوطنيّ في برلين. وعند محاولتها تطبيق القانون الجديد ضدّ الارهاب نظم اليمينيّون الباڤاريون (وقد أصبح هتلر يُعدّ من زعمائهم الشباب المعترف بهم) مؤامرة للإطاحة بحكم (لرخنفلد) والزحف على برلين لاسقاط الجمهورية.

كانت جمهورية (ڤايمر) الديمقراطية الوليدة غارقة في المتاعب الى أذنيها. ووجودها مهدد بلا انقطاع. لا بطغيان اليمين المتطرف وحده بل باليسار المتطرف ايضاً.

الفصل الثالث

ڤرساي، ڤايمر، مؤامرة مشرب البيرة

-١-

إن إعلان النظام الجمهوري في التاسع من تشرين الثاني ١٩١٨ بدا لمعظم الناس في بلاد الحلفاء المنتصرين دليلاً لفجر يوم جديد طلع على الشعب الألماني وعلى بلاده. ففي الرسائل المتبادلة التي ختمت بإعلان الهدنة، شدّد ودرو ولسن Woodrow Wilson بلزوم تصفية أوتوقراطية هوهنزلرن العسكرية. والظاهر أن إستجابة الألمان له كان يشوبها تردد. فقد أجبر القيصر على التنازل وترك البلاد. وألغي نظام الملكية وختم على مصائر كُلّ الأسر المالكة في ألمانيا بسرعة وأعلنت حكومة الجمهورية. على انها أعلنت بمحض الصدفة! ففي عصر اليوم التاسع من تشرين الثاني. اجتمع في الرايخشتاغ Reichtag ما دُعي بأغلبية النواب الإشتراكيين الديمقراطيين بزعامة (فردريك إيبرت) و(فيليب شايدمان) على أثر استقالة المستشار (الأمير ماكس بادن). وقد علتهم الحيرة، لايدرون ما يفعلون. وبعد أن أعلن الأمير ماكس نبأ تنازل القيصر فكرّ (إيبرت) وهو سُروجي المهنة. بتنصيب أحد أبناء ڤلهلم: أي إبناً خلاف وليّ العهد الفاسق. لأنه كان يفضل النظام الملكي الدستوريّ وفقاً للنمط الانكليزي. كان (إيبرت) رغم زعامته للإشتراكيين يكره الثوة الإشتراكية حتى انه صرّح مرة بقوله "اني اكرهها (اي الثورة) كراهة تحريم".

إلاّ أن الثورة كان يتطاير شواظها في جوّ برلين التي شُلّت حركتها بالاضراب العام وفي شارع اونتر دن ليندن Unter den Linden العريض على مسافة قصيرة من الرايخشتاغ كان السپارطاكيون Spar-tacists بقيادة الإشتراكيين اليساريين "روزا لوكسمبرگ Rosa Luxemberg وكارل ليبنخت Liebnecht" يتهيأون من معقلهم في قصر القيصر لإعلان جمهورية سوڤياتية وبوصول هذه الأنباء الى النواب الإشتراكيين في الرايخشتاغ إنتابهم الذعر ووجدوا من الضروري القيام بعمل يكبح فيه جماح الاسپارطاكيين. وفكّر (شايدمان) بأمرٍ وحزَم رأيه دون ان يستشير رفاقه واندفع الى نافذة مطلّة على كوينكزبلاتس Koenigsplatz حيث تجمعت حشود كبيرة فأطلّ برأسه وأعلنها جمهوريةً كأنها فكرة خاطفة قفزت الى رأسه! وعصف الغضب بالسروجيّ (إيبرت) فقد كان يأمل بحيلةٍ ما انقاذ عرش هوهنزلرن. وهكذا ولدت الجمهورية الألمانية كأنما ولدت بالصدفة. إن كان الإشتراكيّون أنفسهم غير جمهوريين ولايعتمد عليهم في ذلك، فكيف ينتظر أن يكون اليمينيّون؟ على ان هؤلاء نزلوا عن مسؤولياتهم واودعوا السلطة السياسية بالتضامن مع قائدي الجيش لودندورف وهندنبرگ – أيدي الديمقراطيين الإشتراكيين المترددين. ونجحوا بعملهم هذا في أن يضعوا على عواتق زعماء الطبقة

العاملة الديمقراطيين هؤلاء مسؤولية التوقيع على معاهدة الإستسلام ثم معاهدة الصلح. وبهذا ازاحوا عن كواهلهم عبء اللوم في هزيمة ألمانيا وكل ما نجم من بلايا وشقاء عن الحرب الفاشلة وشروط الصلح، وما ستجرّه من ويلات على رؤوس الشعب الألماني. كانت حيلة مفضوحة يفهمها إبن يومين لكنها نجحت في ألمانيا وقرر نجاحها مصير الجمهورية منذ البداية.



إيبيرت

ولعلها ما كانت تقوى على تقرير ذلك، فقد كان الديمقراطيون الإشتراكيون في تشرين الثاني ١٩١٨ أصحاب السلطة المطلقة، وبوسعهم الإسراع في بناء أسس جمهورية ديمقراطية راسخة دائمة لكن عملهم هذا كان يتطلب منهم تفتيت كل القوى التي تدعم إمبراطورية هوهنزلرن ولاتريد أن تتقبل بإخلاص ألمانيا ديمقراطية، كانت تستطيع ضرب هذه القوى ضربة لاتقوم لها قائمة بعدها أو على الأقل أن تكبح جماحها وتحدّ من سلطانها حدّاً أبدياً. هذه القوى هي مُلاك الأرض من اليونكرز Junkers الإقطاعيين وأفراد الطبقة العليا وكبار رجال الصناعة الذين يهيمنون على الكارتلات الصناعية الاحتكارية الجبّارة وقادة المحاربين الأحرار المتجولين والموظفين الكبار في حكومة القيصر ولاسيّما الطغمة العسكرية وأعضاء هيئة القيادة العليا. كان ينبغي للإشتراكيين أن يحطّموا عدداً كبيراً من الإقطاعيات غير النافعة إقتصادياً ويسحقوا الاحتكارات الصناعية والكارتلات ويطهروا جهاز الحكم من البيروقراطية، ويصلحوا اجهزة القضاء والشرطة والجامعات والجيش ويطهروها من العناصر التي تكيد للنظام الجمهوري ولاتخلص له الولاء. وهذا ما عجز عنه أولئك الديمقراطيون الإشتراكيون ولم يحملوا أنفسهم على اجرائه لأن معظمهم كانوا نقابيين في رغد من العيش تعوّدوا الإنحناء إحتراماً للسلطة القديمة الطاغية، التي تشربت بها نفوس الألمان من مختلف الطبقات. وبدلاً من هذا راحوا ينزلون عن سلطتهم الى القوة التي كانت هي المسيطرة دائماً في تاريخ ألمانيا الحديث وأعني بها الجيش. ومع أن هذا الجيش مني بالهزائم في سوح القتال، فقد كان يحاول لمّ شعثه في الداخل ليهزم الثورة. وللوصول الى هذين الغرضين عجَلّ بالحركة دون خجل أو حياء.

في ليلة ٩ تشرين الثاني ١٩١٨ بعد إعلان الجمهورية ببضع ساعات رنّ جرس التلفون في مكتب (إيبرت) في مستشارية الرايخ ببرلين وهو تلفون خاصّ جداً لأنه متصل اتصالا مباشراً بمقر القيادة العليا في شبا Spa بخط سرّي واحد. وكان (إيبرت) بمفرده فإلتقط السماعة وسمع عبارة: "المتكلم گروينر Groener!" فما سمع السروجيّ السابق الذي ما زال مشدوهاً بحوادث يومه والذي رفع الى يديه المترددتين بكلّ ما تبقى من السلطات السياسية في ألمانيا الكابية حتى ركبته الخيلاء. كان الجنرال

(ڤلهلم فون گروينر) قد خلف لودندورف في منصب الرآسة الأولى لهيئة الأركان العامّة. وهو الذي تجرأ في ساعة مبكرة من ذلك اليوم في (شپا) على ان يقدم على أمرٍ نكص عنه رئيسه الأعلى الفيلد مارشال فون هندنبرگ فقد ابلغ بنفسه القيصر انه لم يعد حائزاً ولاء جنوده ومن الضروري ان يتنازل. وهو لاشك عملٌ يتسم بالجرأة لم تغفره له الطغمة العسكرية أبداً. وقد نشأت بينه وبين إيبرت علاقة إحترام متبادل منذ العام ١٩١٦ لما كان الجنرال يقوم بالاشراف على الانتاج الحربي ويعمل بالقرب من الزعيم الإشتراكي. وكانا قبيل هذه الاحداث قد اجتمعاً في أوائل تشرين في برلين وبحثا فيما بينهما الوسائل الكفيلة بإنقاذ النظام الملكي لأرض الأجداد.

وفي هذه اللحظة بالذات في أحرج ساعة تمرّ بها أرض الأجداد يتصلان مرة أخرى بتلفون سرّي. ولم يطل الأمر بالزعيم الإشتراكي ونائب القائد العام للجيش حتى عقدا صفقة لم يظهر مكنونها للملأ إلاّ بعد عدة سنوات. هذه الصفقة قدّر لها أن تقرر مصير البلاد. لقد إتفقا على قمع (الفوضى) ومكافحة البولشفية والمحافظة على الجيش بكلّ تراثه وتقاليده. وتعهد (گروينر) مقابل ذلك أن يقوم الجيش بعضد الحكومة الجديدة ومعاونتها على تثبيت نفسها وتحقيق أهدافها. وسأل (إيبرت):

– هل سيعود الفيلد مارشال هندنبرگ لتسلّم القيادة؟ فأجابه (گروينر) انه سيفعل؛ فقال إيبرت:

– اذن بلّغ الفيلد مارشال شكر الحكومة[١]

وبهذا كتبت النجاة للجيش الألماني. إلاّ ان الجمهورية هوت في أول يوم من ميلادها. ولم يخدمها أحد من الجنرالات بإخلاص عدا (گروينر) وقلّة تافهة. ثم انهم خانوها أخيراً بزعامة (هندنبرگ) نفسه وسلموها للنازيين لقمة سائغة.

في تلك اللحظة كان ما حصل في روسيا يشغل بال إيبرت وغيره من الإشتراكيين. انهم لم يكونوا يريدون ان يؤولوا الى ما آل اليه (كرنسكي Kerensky). ولا يريدون أن يكنسهم البولشفيك. ففي كل بقعة من ألمانيا كانت سوڤياتات الجنود والعمال تبرز الى عالم الوجود وتتسلم السلطة طبق ما حفلت في روسيا. هذه السوڤياتات نفسها هي التي اختارت في العاشر من تشرين الثاني مجلساً لمفوضي الشعب وجعلت على رأسه (إيبرت) ليحكم ألمانيا بصورة مؤقتة. وفي كانون الأول إجتمع أول (كونفراس) سوڤياتي ألماني في برلين من مندوبين عن مجالس العمال والجنود من كل أرجاء ألمانيا. وطالب بتنحية (هندنبرگ) وتسريح الجيش النظامي وإستبداله بحرسٍ وطنيّ (ميلشيا) ينتخب هو ضباطه ويكون تحت سلطة مجلس مفوضي الشعب مباشرة وكان هذا ما لا قبل لـ(گروينر) وهندنبرگ به. فرفضا الاعتراف بسلطة (الكونفرانس) السوڤياتي ولم يحاول إيبرت شيئاً لتنفيذ هذه المقررات. إلاّ ان الجيش الذي كان يناضل نضال المستميت في سبيل البقاء، طلب من الحكومة ان تقوم بعملٍ ايجابي وتعهد باسنادها. وقبل حلول عيد الميلاد بيومين قامت فرقة البحارة الشعبية التي يسيطر عليها الاسپارطاكيون الشيوعيون بإحتلال (ڤلهلمشتراسّه) وإقتحام قصر المستشارية وقطع خطوط تلفوناتها إلاّ ان الخط السري الموصول بمقر قيادة الجيش العامة بقي سليماً. ومنه طلب (إيبرت) النجدة

١– هويلر بينيت: الطيطان الخشبي هندنبرگ، الص ٢٠٧–٢٠٨

وتعهدت القيادة بتحريك حامية (بوتسدام) إلاّ أن البحارة المعتصمين تقهقروا قبل وصولها الى مقراتهم في اصطبلات القصر الإمبراطوري الذي كان بيد الاسپارطاكيين ايضاً. وبقي هؤلاء وعلى رأسهم (كارل ليبنخت وروزا لوكسمبرگ) أشهر خطيبين جماهيريين في ألمانيا واقواهم بياناً يدفعون العمّال دفعاً لإقامة جمهورية سوڤياتية. وكانت قواتهم المسلحة في برلين تتعاظم وتشتدّ. وفي صبيحة عيد الميلاد استطاعت فرقة البحارة الشيوعية أن تصدّ بكلّ سهولة هجوماً قام به الجيش النظامي الزاحف من بوتسدام مستهدفاً زحزحتها عن الاصطبلات الإمبراطورية وشدّ (گروينر وهندنبرگ) النكير على (إيبرت) لتنفيذ اتفاقهما من طرفه، حول سحق البولشفيك وكان هذا أمنية الزعيم الإشتراكي الكبرى، فبادر بعد مرور يومين من العيد الى تعيين گوستاڤ نوسكه Gustav Noska وزيراً للدفاع الوطنيّ. وبعد هذا التعيين راحت الحوادث تترى بمنطقٍ وتسلسلٍ يتوقعه كل من عرف هذا الوزير الجديد.

كان (نوسكه) جزّاراً ماهراً في الجزارة، شق طريقه في الحركة النقابية والحزب الديمقراطي الإشتراكي ووصل الى عضوية الرايخشتاغ في ١٩٠٦ وعرف منذ ذلك الحين بأنه خبير الحزب في الشؤون العسكرية كما عرف بقوميته المتعصّبة وشدّة مراسه. واختاره (الأمير ماكس بادن) لقمع حركة عصيان بحرية في (كيل) في الأيام الأولى من تشرين الثاني ١٩١٨ فنجح في مهمته. وهو رجل مربع الذقن ذو قوة جسمانية خارقة وحيوية لاينضب معينها وذكاء محدود. وهو الطابع العام الذي يميز أرباب مهنة القصابة كما قال عنه خصومه. وأعلن عند تعيينه وزيراً للدفاع بأن "أحدهم يجب أن يكون الكلب السلاقيّ!"

وفي أوائل شهر كانون الثاني ١٩١٩ شرع بضرب ضربته. وبين يومي ١٠-١٧ منه (أطلق عليه البرلينيون اسم الأسبوع الدموي فترة من الزمن) انزل الجيش النظامي ونزلت وحدات المحاربين الأحرار، وهي مزودة بأوامر من (نوسكه). يقودها الجنرال فون لوتڤيتز[٢]. فسحقت الاسپارطاكيين الشيوعيين وقبضت على روزا لوكسمبرگ وكارل ليبنخت فرقة حرس الفرسان وقام ضباط الفرقة بإعدامهما.

وبإنتهاء حرب الشوارع في برلين جرت الإنتخابات العامة للجمعية الوطنيّة. لوضع دستورٍ جديدٍ. وكشف التصويت الذي تمّ في ١٩ كانون الثاني ١٩١٩ أن الطبقتين المتوسطة والعليا قد استعادتا بعض شجاعتهما في فترة لاتزيد عن الشهرين إلاّ بقليل، تلك الشجاعة التي زالت بقيام الثورة. وكانت النتيجةأن الديمقراطيين الإشتراكيين (الأغلبية) مع الإشتراكيين المستقلين، الذين تولوا السلطة

٢- بعد ذلك بسنة واحدة. أظهر الجنرال فرايهر ڤالترڤون لوتفيتز Freiherr Walter Von Luettwitz الضابط الرجعي من المدرسة القديمة، كم هو مخلص للجمهورية بصورة عامة ولنوسكه بصورة خاصة عندما قاد وحدات المحاربين الأحرار لإحتلال برلين مساندة لإنقلاب كاپ. واضطر إيبرت ونوسكه وغيرهما من أعضاء الحكومة في الساعة الخامسة من فجر يوم ١٣ آذار ١٩٢٠ الى الفرار منها. أما الجنرال ڤون سيكث رئيس أركان الجيش وأحد مرؤوسي (نوسكه) بحكم الوظيفة، فقد أبى أن يسمح للجيش بالدفاع عن الجمهورية ضد (لوتفيتز وكاپ). وقد هتف نوسكه على اثر ذلك: "لقد اظهرت هذه الليلة إفلاس كل سياسيّ. إن ثقتي بالضباط العسكريين قد تزعزعت. لقد تركتموني جميعاً". اقتبسها هويلر بينيت في كتابه The Nemesis of Power- ص ٧٧.

لعدم رغبة فريق آخر بمشاركتهم في حمل العبء – حصلوا على ١٣,٨ مليون صوت من أصل ٣٠ مليوناً وهو المجموع الكليّ للناخبين فربحوا (١٨٥) مقعداً من أصل (٤٢١) في الجمعية. وهذه النتيجة بعيدة جداً عن الأغلبية. مما دلّ على أن ألمانيا الجديدة لن تبنى بطبقة العمال وحدها. ونالت الاحزاب الباقية وهي حزبا الطبقة المتوسطة (الوسط) ويتمثل في الحركة السياسية للكنيسة الكاثوليكة وفي الحزب الديمقراطي (الذي ولد من إندماج الحزب التقدمي القديم والجناح اليساري للوطنيين الأحرار في كانون الأول) حصل هذان على ١١,٥ مليون صوت ففازا بـ١٦٦ مقعداً في الجمعية وكلاهما يجاهران باسنادهما لجمهورية ديمقراطية وان وجد لديهم ميل كبير الى إعادة الملكية.

اما المحافظون اليمينيون فرغم تناقص عددهم لم يتلاشوا من المسرح السياسيّ. كان بعض زعمائهم قد اختفى عن الانظار في تشرين الثاني وطلب بعضهم كالكونت فون ڤيستارپ Von Westarp الحماية من (إيبرت). والآن عمدوا الى تغيير اسم حزبهم فجعلوه "حزب الشعب الألماني الوطنيّ" ودخلوا الإنتخابات ليحصلوا على ٣ ملايين صوت ودفعوا الى الجمعية الوطنيّة بأربعة وأربعين نائباً. وحصل حلفاؤهم اليمينيون "الأحرار الوطنيون" الذين غيروا اسمهم الى "حزب الشعب الألماني " على ١,٥ مليون صوت تقريباً وأحرزوا تسعة عشر مقعداً. ومع أن هذين الحزبين اليمينييّن كانا اقلية ظاهرة. إلاّ أن المقاعد التي احروزها كانت تكفيهم لجعل صوتهم بارزاً في الجمعية. فما أن إلتأمت الجمعية الوطنية في (ڤايمر) في ٦ شباط ١٩١٩، حتى انبرى زعماؤهما للدفاع عن اسم القيصر ڤلهلم الثاني. وتزكية الأسلوب الذي وجّه به الحزب هو وجنرالاته. ويبدو أن "گوستاڤ شتريزمان Stressemann" رئيس حزب الشعب لم يعانِ ما لاح لكثيرين فيما بعد – إنقلاباً في العقل والقلب فبقي معروفاً حتى ١٩١٩ بالرجل المتكلم باسم القيادة العليا للجيش في الرايخشتاغ أو "فتى لودندورف" كما اطلقوا عليه والمساند العنيف لسياسة الضمّ والمتعصب الشديد لشنّ حرب غواصات حُرّة.

إن الدستور الذي سنّته الجمعية بعد ستة أشهر من المناقشات (صوّت عليه في ٣١ تموز ١٩١٩ وصدّقه رئيس الجمهورية في ٣١ آب) كان على الورق أعلى وثيقة من نوعها رآها ضياء القرن العشرين في الحرية والديمقراطيّة. فقد قارب الكمال من ناحية الاجهزة وتوزيع والسلطات وكان مملوءً بالمبتدعات العجيبة الألمعية الضامنة جهازاً ديمقراطياً خالصاً. فأخذت فكرة حكومة الوزراء من انكلترا وفرنسا. وفكرة رئيس جمهورية ينتخبه الشعب بالاقتراع المباشر من الولايات المتحدة، وطريقة إجراء الإنتخابات من سويسرا ووضع الدستور نظاماً محكماً معقداً للتمثيل النيابي النسبيّ على أساس التصويت بالقائمة حتى يحول دون أيّ تبديد لأصواتِ الناخبين ويعطي الاقليات الصغيرة حق التمثيل في البرلمان[٣].

٣– كان ثم بعض الثغرات والحق يقال ظهر في النهاية أن بعضها كان قتّالا. قد يحول التمثيل النيابي النسبي والتصويت بالقائمة دون تبديد الأصوات حقّاً لكنه يتمخض بتعدد الاحزاب الصغيرة المنشقة المتطايرة التي قد تؤدي بالأخير الى ان يكون وجود أغلبيّة ثابتة في الرايخشتاغ أمراً مستحيلاً. ويؤدي الى تغيير متعدد في الحكومة [في إنتخابات ١٩٣٠ سُجل دخول زهاء ثمانية وعشرين حزباً سياسياً في الاقتراع العام].
كانت الجمهورية ستنعم بكثير من الاستقرار والثبات لو لم تنبذ بعض آراء الأستاذ هوگو پريوس Hugo Preuss =

إن فقرات دستور ڤايمر كانت جميلة الوقع ساحرة الجرس في كل أذن ديمقراطية الإتجاه فقد اثبتت السيادة للشعب "الشعب مصدر السلطات السياسيّة"، ومنح الرجال والنساء حق تصويت مساوٍ في سن العشرين، و"كل الألمان متساوون أمام القانون... الحرية الشخصية مصونة... لكل ألماني الحق في التعبير عن رأيه بحرية... لكلّ الألمان الحق في تأسيس منظمات وجمعيات... جميع سكان الرايخ يتمتعون بحرية المعتقد والضمير كاملةً..." ليس في الدنيا من هو أكثر حرية من الألماني، وليس ثم حكومة أعلى ديمقراطية وحرية من هذه الحكومة... على الورق فقط...

-٢-

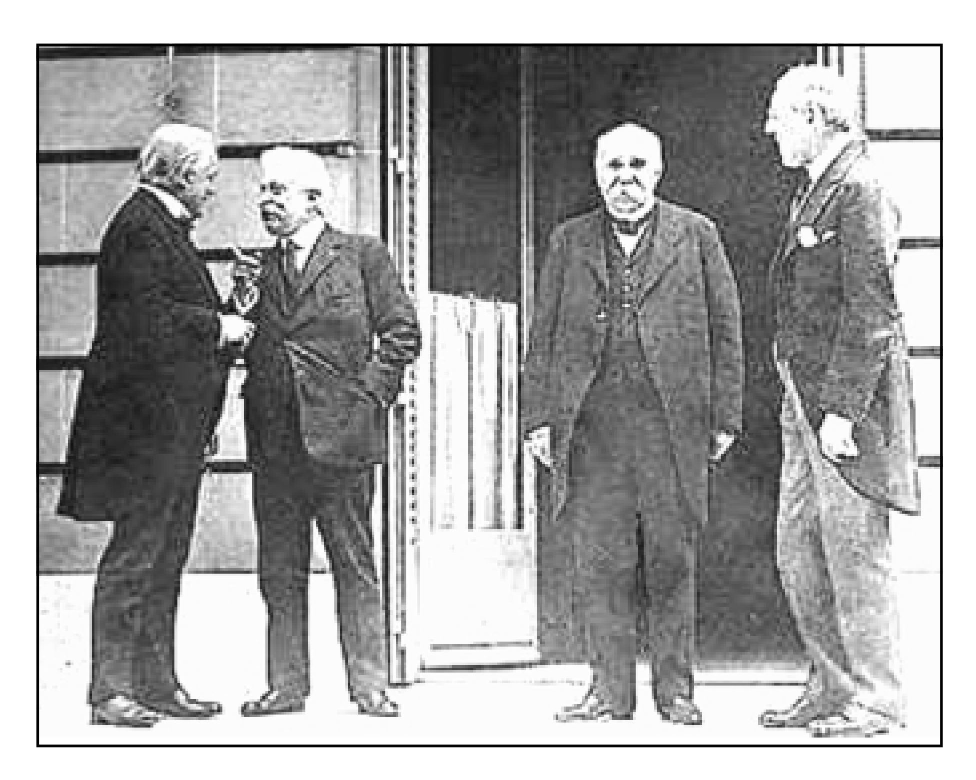
شبح ڤرساي

قبل الفراغ من سنّ دستور(ڤايمر) برز حادث ليس منه بُدّ وكان فيه القضاء بلعنة الموت على الدستور وعلى الجمهورية التي انبثقت منه. هذا الحادث هو إبرام معاهدة (ڤرساي). كان الشعب الألماني يبدو غير مكترث بما سيتمخض به إندحارهم في الأيام الأولى التي حفلت بالفوضى والفتن، وكذلك ظلّ بعد مناقشات الجمعية الوطنية في مدينة (ڤايمر). وحتى لو اهتموا بالمسألة فانهم كانوا واثقين من حقهم بصلح عادلٍ مبنيّ لا على أساس خسارتهم الحرب، بل على أساس نقاط (ولسن) الأربع عشرة المشهورة بعد ان نفذوا ما ألحّ الحلفاء بطلبه وهو التخلص من آل هوهنزلرن وسحق البولشفيك وقيامهم ببناء حكومة ديمقراطية ذات نظام جمهوري. ويظهر ان ذاكرة الألمان الضعيفة لم تمتد الى أبعد من سنة واحدة مضت، الى يوم الثالث من آذار ١٩١٨، عندما فرضت القيادة الألمانية العليا معاهدة صلح برست ليتوفسك Bresk Litovsk على روسيا المهزومة، المعاهدة التي وصفها مؤرخ بريطاني بعد عشرين عاماً من إبرامها وبعد هدوء العواطف وزوال الحقد بأنها "مذلّة الى أقصى حدٍ وبشكل غير مسبوقٍ من تاريخ العصور الحديثة[٤]."

لقد جردت روسيا من أرض تناهز مساحتها مساحة إمبراطورية النمسا والمجر وبلاد تركيا مجتمعة ويزيد عدد سكانها عن ستة وخمسين مليوناً. أعني ٣٢ بالمائة من المجموع العام لنفوسها. وحرمتها من ثلث مجموع أطوال سككها الحديدية العام. و٧٣ بالمائة مما تملكه من مناجم الحديد، و٨٩ بالمائة من مجموع الانتاج الكليّ لفحمها الحجريّ وسلبتها خمسة آلاف معمل ومصنع. وكان مسك الختام

= واضع لائحة الدستور الرئيس. فاقترح في (ڤايمر) أن تجعل ألمانيا دولة مركزية وأن يتم حَلّ پروسيا وغيرها من الدول المنفردة ويغير وضعها السياسي من دولة الى اقليم. لكن الجمعية رفضت هذه المقترحات.
وأخيراً هناك المادة الثامنة والأربعون من الدستور التي تمنح رئيس الجمهورية سلطات دكتاتورية في الأحوال الاستثنائية. إن استعمال هذه المادة من جانب المستشارين برونِنگ Bruening وڤون پابن وڤون شلايخر في عهد الرئيس هندنبرگ ساعدهم على الحكم دون موافقة الرايخشتاغ وعليه فقد تم القضاء على الحكم الديمقراطي البرلماني في ألمانيا قبل مجيء هتلر.

٤- المرجع السالف (هويلر بينيت) ص١٣١



الأربعة الكبار في ڤرساي (من اليمين): ولسن - كليمانصو - أورلاندو - لويد جورج

غرامة حربية قدرها ستمائة مليون مارك.

واقبل يوم الحساب على ألمانيا في أواخر ربيع عام ١٩١٩ ووضع الحلفاء شروط معاهدة ڤرساي دون مشاورة مع ألمانيا، وتمّ نشرها في برلين في السابع من أيار فكان لها وقع الصاعقة على شعب أصرّ على ان يُعلل نفسه بالآمال الى آخر لحظة. وعقدت إجتماعات عامة ساخطة، احتجاجاً على المعاهدة وارتفعت الأصوات تطالب برفض التوقيع عليها وصرخ (شايدمان) المستشار أثناء انعقاد الجمعية الوطنية في ڤايمر "ألا فلتشلّ تلك اليد التي توقع المعاهدة". وفي الثامن من أيار قال إيبرت رئيس الجمهورية المؤقت أن شروط المعاهدة "غير معقولة ولاتطاق" وكذلك صرحت الحكومة. وفي اليوم التالي كتب الوفد الألماني الى ڤرساي مذكرة الى كليمنصو Clemenceau الصلب العنيد جاء فيها "إن معاهدة كهذه لايمكن أن تحتملها أمة من الامم". ما الذي كان فيها غير محتمل ليت شعري؟ انها قضت بإعادة مقاطعتي الألزاس واللورين الى فرنسا وقطعة أرض صغيرة الى بلچيكا. وقطعة صغيرة أخرى من مقاطعة شلزڤيك Schleswig الى الدانمرك بعد إجراء إستفتاء فيها. وهي مقاطعة سلخها بسمارك من بلاد الدانمرك في القرن الماضي بعد ان هزمها في الحرب. واعادت الى اليولنديين الأراضي

التي اغتصبها الألمان من جسم پولندا بعد تقسيمها. (لم يُعد جزء من تلك البقاع إلاّ بعد إستفتاء!) وأحد الشروط التي اثارت هياج الألمان وحقدهم هو (ممر الدانزگ) أنهم لم يسخطوا على فصل پروسيا الشرقية عن ارض الجدود بممرّ لپولندة الى البحر، بل لأنهم كانوا يحتقرون الپولنديين ويعتبرونهم أمّة منحطة. ولم يكونوا بأقلّ سخطاً حين اجبرتهم المعاهدة على تحملّ وزر الحرب ومسؤولية اثارتها بطلب تسليم القيصر ڤلهلم للسلطات الحليفة مع ثمانمائة آخرين لمحاكمتهم كمجرمي حرب.

اما التعويضات فقد قُرر أن يتمّ تسويتها فيما بعد. على أن المعاهدة اوجبت دفع خمسمائة بليون دولار بالماركات الذهبية خلال ١٩١٩-١٩٢١ كدفعة أولى. وأن تقدم بعض المواد والبضائع كالفحم والسفن والاخشاب والماشية الخ... عوضاً عن النقد. إلاّ أن الغصّة الذباحة التي خلفتها جرعة ڤرساي في حلق ألمانيا هي تجريدها من السلاح[٥] وبهذا حالت بين ألمانيا وبين سيطرتها على أوروپا لفترة من الزمن على الاقل وبصرف النظر عما سبق فانها- لم تكن كالمعاهدة التي فرضتها ألمانيا على روسيا لأنها تركت الرايخ سليماً من الناحية الجغرافية والإقتصادية تقريباً وحفظت لألمانيا وحدتها السياسية وقوتها الإندفاعية كأمّة عظيمة الشأن.

عارضت الحكومة المؤقتة (ڤايمر) في قبول شروط معاهدة ڤرساي المجحفة معارضة شديدة. بإستثناء (إرزبرگر) الذي ألحّ في توقيعها متعللاً بامكان التخلص من شروطها فيما بعد باسهل ما يمكن. وخلف الحكومة وقفت أغلبية الألمان الساحقة من أقصى اليمين الى أقصى اليسار.

والجيش؟ إن رفضت الحكومة التوقيع على المعاهدة هل بامكان الجيش الوقوف ضدّ هجوم حليف من الغرب سيشنّ لا محالة؟ وضع (إيبرت) هذا السؤال أمام القيادة العليا التي كانت قد نقلت مقرها الى (كولبرگ Kolberg) في پوميرانيا Pomerania. فأجاب الفيلد مارشال فون هندنبرگ في ١٧ حزيران، (بإيحاءٍ وإلحاح ناخس من الجنرال گروينر الذي وجد المقاومة العسكرية غير مجدية قال:

"في حالة استئناف العمليات الحربية أرى في الامكان إعادة الاستيلاء على اقليم پوزن Posen [في پولندا] والدفاع عن حدودنا من جهة الشرق. أما في الجبهة الغربية فلا يمكننا الإعتماد على الصمود في وجه أيّ هجوم كبير يقوم به العدو، نظراً الى تفوق الحلفاء العددي واستطاعتهم تطويقنا من الجناحين.

لذلك كان نجاحنا في العمليات مشكوكاً فيه. لكني كجنديّ لايسعني إلاّ أن افضل الموت بشرف على قبول صلح مشين".

إن العبارة الختامية للقائد العام الشهير جاءت منسجمة لأبدع التقاليد العسكرية الألمانية إلا أن مبلغ صدقها يمكن الحكم عليه بحقيقة أُخفيت عن الشعب الألماني في حينه وهي أن هندنبرگ كان متفقاً مع (گروينر) بأن مقاومة الحلفاء لاتتمخض بهزيمة ساحقة فقط بل قد ينجم عنها القضاء على هيئة أركان الجيش ومن ثم على ألمانيا نفسها.

٥- حددت المعاهدة عدد القوات المسلحة بمائة ألف متطوع بعقود طويلة الأجل ومنعت تسليحه بالطائرات والدبابات. وحلت هيئة الأركان العامة واعتبرتها غير قانونية. وقلص الأسطول تقليصاً شديداً بحيث أصبح قوة رمزية. وحظر عليه بناء غواصات أو بوارج تزيد حمولتها على عشرة آلاف طن.

اراد الحلفاء جواباً قاطعاً من ألمانيا. وفي ١٦ حزيران أي قبل يوم واحد فقط من ادلاء هندنبرگ برأيه التحريريّ لـ(إيبرت) وجهوا إنذاراً نهائياً: إمّا أن تقبل المعاهدة في أجل أمده ٢٤ حزيران. أو تلغى الهدنة وتقوم قوات الحلفاء (باتخاذ الخطوات التي تراها ضرورية لفرض الشروط).

وعاد (إيبرت) ثانيةً يستنجد بـ(گروينر) قائلاً لو وجدت القيادة أضعف احتمال بنجاح المقاومة العسكرية لهجوم الحلفاء. فأنه يتعهد برفض المعاهدة عند وضعها في التصويت أمام الجمعية، على انه يريد جواباً فوريّاً. واقبل اليوم الأخير من أجل الانذار واجتمع أعضاء الوزارة في السابعة والدقيقة الثلاثين لاتخاذ القرار الحاسم. وفوتح (هندنبرگ وگروينر) فعاد الفيلد مارشال الهرم المُجهد يجيب: "تعلمون مثلما أعلم إن المقاومة المسلحة لاتجدي نفعاً" على أنه ألقى بعبء الجواب السيء النقيبة على (گروينر) كما فعل في التاسع من تشرين الأول ١٩١٨ في (شپا) حين ثقلت على نفسه مصارحة القيصر بالحقيقة الختامية. وجبن اليوم عن قولها أيضاً لرئيس الجمهورية المؤقتة فقال لگروينر: "يمكنك أن تقدم جوابك للرئيس وهو جوابي ايضاً[٦]"، فحمل الجنرال الباسل المسؤولية على عاتقه، وهي من صميم واجب الفيلد مارشال، وهو يعرف جيداً أنها ستجعله كبش فداء لهيئة الأركان العليا، وابلغ رئيس الجمهورية بوجهة نظر القيادة تلفونياً. وسرى الارتياح في نفوس أعضاء الجمعية الوطنية وتنفسوا الصعداء لأن قادة الجيش أخذوا المسؤولية على عواتقهم. وصوّتوا على إبرام المعاهدة بأغلبية كبيرة وابلغ القرار الى(كليمنصو) قبل انتهاء الأجل المضروب بتسع عشرة دقيقة فقط ووقعت معاهدة الصلح في قاعة المرايا بقصر ڤرساي.

-٣-

بيت منقسم على نفسه

ومنذ ذلك اليوم فصاعداً آضت ألمانيا بيتاً منقسماً على نفسه. اليمينييون لايرضون لا بالمعاهدة ولا بالجمهورية التي ابرمتها. كذلك الجيش فقد أعلن إستنكاره بعد ردحٍ من الزمن (بإستثناء الجنرال گروينر) في حين انه كان قد أقسم يمين الولاء للنظام الجمهوريّ، كما كان صاحب القول الفصل في قرار التوقيع على المعاهدة. وظلّ المحافظون ممسكين بدفة الإقتصاد رغم ثورة تشرين الثاني، لأنهم بقوا يملكون صناعاتهم وأراضيهم الزراعية الشاسعة ومعظم رأسمال البلاد. وكان بأمكانهم إستخدام ثرواتهم وقد استخدموها فعلاً لتمويل الاحزاب والصحافة السياسية التي شرعت منذ ذلك الحين تنخر في جسم الجمهورية.

وراح الجيش يراوغ في تنفيذ القيود التي كبلته بها معاهدة الصلح ويحتال عليها قبل جفاف حبر موادها. وليشكروا غباوة وقصر نظر زعماء الإشتراكيين. لم يكن نجاح القيادة العليا قاصراً على ابقاء تقاليد الجيش وقوانين فروسيته الموروثة بل نجحت في جعله المحور الحقيقي للسيطرة السياسية

٦- هويلر بينيت "...Nemesis" ص٥٨.

في ألمانيا الجديدة. لقد ظلّ الجيش الى آخر لحظة من عمر الجمهورية القصير غير مرتبط بأي حركة سياسية لكنه أصبح بقيادة الجنرال (هانتر فون سيكت) مبدع (جيش الرايخ) العبقري الذي يعد مائة ألف، دولةً ضمن دولة رغم قلّة عدده. وراح يمارس نفوذاً متعاظماً عل سياسة البلاد الداخلية والخارجية حتى وصل الأمر الى أن بقاء الجمهورية بات مرهوناً بإرادة أعضاء القيادة العليا لا غير. ولأنه "دولة داخل دولة" فقد حرص على إستقلاله عن الحكومة الوطنية. كان دستور جمهورية (ڤايمر) ينصّ على خضوع الجيش للحكومة والبرلمان ومثله في ذلك مثل سائر الجيوش القوات المسلحة في الديمقراطيات الغربية إلا انه لم يكن كذلك فقد تعذر على هيئة القيادة العليا التخلي عن حب الملكية وكره الجمهورية. ولقد طالبت قلة من الزعماء الإشتراكيين أمثال شايدمان وگرزسنسكي Grzesinski "بديمقراطية" القوات المسلحة ودعت الى درء الخطر الكامن في إستئمان الجيش بيد ضباط نشأوا على نظام الحكم القديم وتقاليده الإمبراطورية. لكن دعوتهم هذه هزمت وحاق الفشل بآرائهم عندما جاءتهم الاعتراضات تترى ليس من قادة الجيش وحدهم بل من رفاقهم الإشتراكيين. وفي طليعتهم وزير الدفاع (نوسكه). هذا الوزير الجمهوري... البروليتاري كان يفخر علناً بأنه يريد إحياء "ذكريات الجنديّ الفخور عن الحرب العظمى". لقد فشلت الحكومة المنتخبة إنتخاباً شرعياً في بناء جيشٍ جديدٍ مخلصٍ لمفاهيمها الديمقراطية يخضع للوزارة والرايخشتاغ. وكان فشلها غلطة قتلتها كما ستثبت لها الأيام. وفشلها في تطهير جهاز القضاء كان الآخر غلطة مميتة. فهيئة القضاة الذين كانت وظيفتهم تطبيق نصوص القانون. جعلوا محاكمهم مراكز للعمل ضدّ الثورة. فصاروا يحيدون عن جادة العدل ليخدموا أغراضاً سياسية رجعية. ولقد قال المؤرخ فرانز. ي. نيومان Franz L. Neumann: "يستحيل علينا أن نخطأ في الإستنتاج بأن العدالة السياسية كانت من أسود الصفحات في حياة الجمهورية الألمانية[٧].

قامت الحكومة بعد مؤامرة كاپ الفاشلة بتوجيه تهمة الخيانة لسبعمائة وخمسة متهمين ولم يحكم من كل هذا العدد غير شخصٍ واحد هو مدير شرطة برلين. وحددت عقوبته بالحبس المشرِّف خمس سنوات. وعندما حجزت دولة پروسيا على راتبه التقاعدي قررت المحكمة العليا فكّ الحجز واعادته اليه.

وفي كانون الأول ١٩٢٦ قضت محكمة ألمانية للجنرال لوتفيتز وهو قائد إنقلاب (كاپ) العسكريّ بتسليمه المتراكم من تقاعده طول المدة التي كان فيها ثائراً على الحكومة فضلاً عن متراكم السنين الخمس التي قضاها في المجر هارباً من وجه القضاء.

يقابل ذلك حبس مئات من أحرار الفكر الألمان آماداً طويلة بتهم الخيانة. لأنهم كشفوا على صفحات الجرائد أو بالخطب العلنية قيام الجيش بخرق متواصل لشروط معاهدة ڤرساي. وطبقت أحكام قوانين الخيانة العظمى بقسوةٍ متناهية على مساندي الجمهورية أما اليمينيون الذين كانوا يعملون على إسقاطها (ولم يطل الأمر بهتلر حتى علم هذه الحقيقة) فإما يُخلى سبيلهم أو تفرض عليهم أخف

٧- فرانز نيومان F.L.Neumann "بهموث Behmoth" ص٢٣.

العقوبات. حتى القتلة والسفاكين، إن كانوا من اليمين وضحاياهم من الديمقراطيين والجمهوريين عاملتهم المحاكم برأفة وشملتهم برعايتها أو أعانتهم على الهرب وهم في التوقيف انتظاراً للمحاكمة بإستخدام ضباط الجيش ومتطرفي اليمين لتنظيم خطط التهريب، كما حصل فعلاً. وهكذا ترك للإشتراكيين الطيبين وأعوانهم من الديمقراطيين وجناح الوسط الكاثوليكي حمل أعباء الجمهورية التي كانت تترنح آيلة للسقوط منذ ولادتها واحتملوا الكره المنصب عليهم والشتائم المقذعة وأحياناً رصاص خصومهم الذين كانوا يتكاثرون ويشتدّ ساعدهم. وهتف أُسڤالد شبنگلر Oswald Spengler الذي طبق صيته الآفاق بكتابه "إنحلال الغرب":

– ختم على مصير دستور ڤايمر بالفناء في قلوب الشعب. وفي (باڤاريا) امسك الشاب المتحمس هتلر، المدّ القومي الجديد اللاديمقراطي اللاجمهوري بقبضة شديدة وبدأ يعلو ظهره.

وكانت الاحداث المتعاقبة تمدّه بأكبر العون. وفي مقدمتها إثنان: أولهما هبوط قيمة المارك وثانيها إحتلال الفرنسيين حوض (الروهر). رأينا في ما سبق أن المارك بدأ يهبط في عام ١٩٢١ حتى وصلت قيمة الدولار الواحد ٧٥ ماركاً. وفي السنة التالية ارتفعت النسبة الى ٤٠٠ مارك للدولار الواحد وفي مطلع عام ١٩٢٣ أصبح الدولار يعدل ٧٠٠٠ مارك. طلبت الحكومة الألمانية من الحلفاء في نهاية عام ١٩٢٢ منحها تصريحاً بتأجيل الديون (موارتوريوم) الناشئة من التعويضات فرفضت حكومة (بوانكاريه Poincare) ذلك رفضاً باتاً وعندها توقفت ألمانيا عن شحن الخشب فأمر الرئيس الفرنسي العنيد الذي كان رئيس الجمهورية الفرنسية زمن الحرب أن تزحف الجيوش الفرنسية على ألمانيا وتحتلّ الروهر وهو قلب ألمانيا الصناعيّ الذي كان بعد سلخ سيلزيا العليا وضمها الى پولندا – يمدّ الرايخ بأربعة أخماس فحمه وفولاذه، وبهذا تمّ فصله عن باقي جسم ألمانيا.

هذه الضربة القاصمة على الإقتصاد الألماني وحدت الشعب بصورة مؤقتة وكتلته بشكل لم يحدث له مثيل منذ سنة ١٩١٤ وأعلن عمال الروهر اضراباً عاماً وبذلت لهم حكومة برلين مساعدات مالية ودعت الى خوض معركة مقاومة سلبية، ونظمت حرب عصابات وتخريب بمساعدة الجيش. فقابل الفرنسيون تلك الإجراءات بأوامر الاعتقالات والابعاد وحتى بعقوبات الموت ومع كل ذلك فلم تدر عجلة واحدة في الروهر.

وعجّل خنق الإقتصاد الألماني بسقوط المارك النهائي الفاجع. ففي يوم إحتلال الروهر (كانون الثاني ١٩٢٣) هبط فجأة الى ثمانية عشر ألفاً للدولار الواحد. وفي الأول من تموز وصلت قيمة الدولار الواحد الى ١٦٠ ألف مارك، والى مليون في الأول من شباط – وبحلول شهر تشرين الثاني عندما فكر هتلر بأن ساعة العمل قد دقّت – كان يلزم أربعمائة مليون مارك لشراء دولار واحد. وبعدها أخذت الارقام ترتفع بآلاف الملايين. ولم تعد العملة الألمانية تسوى شيئاً. وهبطت القوة الشرائية للرواتب والاجور الى الصفر وانمحت مدخرات أفراد الطبقة الوسطى والعمالية محواً. على أن التدمير لحق شيئاً آخر يفوق العملة أهمية، ألا وهو إيمان الشعب ببناء المجتمع الإقتصادي الألماني. وفقدانه الثقة به. فايّ صلاح يرجى لأخلاق وقيم مجتمع كهذا، يشجع الادخار والاستثمار ويقطع عهد شرفٍ

بإعادة تلكم المدخرات الى المستثمرين، ثم يحنث بكلمة الشرف ويعجز عن الدفع؟ أليس هذا نصباً وإحتيالا على مجموع الشعب؟ والجمهورية الديمقراطية، أليست هي الملومة عن الكارثة. ألم تستسلم للعدو وتقبل بتحمل عبء التعويضات؟ ويشاء سوء حظ الجمهورية أن تتحمل فعلاً مسؤولية إستمرار هذا الوضع. فالتضخم النقدي يمكن معالجته وايقافه بمجرد موازنة الدخل وهو عمل صعب لكنه ممكن. والضرائب السديدة الحكيمة قد تحقق هذه الغاية إلاّ ان الحكومة الجديدة لم تتجاسر على جباية ضرائب عادلة. ومهما يكن من امرٍ فقد كانت تكاليف الحرب البالغة ١٦٤٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ مارك يدفع بعضها من حصيلة الضرائب المباشرة. إلا ان القسم الأعظم وهو (٩٣٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) كان بشكل قروض و(٢٩٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) يدفع من الخزينة نقداً والباقي تتم موازنته بطرح أوراق مالية جديدة في التداول. وبدلاً من قيام الحكومة بزيادة الضرائب زيادة كبيرة على أولئك الذين يتمكنون من دفعها، خفضتها فعلاً في ١٩٢١؛ واخذت الحكومة منذ ذلك الحين فصاعداً - بتحريض وايعاز من الصناعيين الكبار واصحاب الإقطاعيات الذين وجهوا همهم الى الربح وإن كانت جماهير الشعب قد دمرت مالياً - تترك المارك يتدحرج الى اسفل عامدةً حتى تتحرر الدولة من ديونها العامة وتتخلص من دفع التعويضات، وتشجع عمليات التخريب ضدّ الفرنسيين في الروهر Ruhr. أضف الى هذا أن سقوط العملة ساعد الصناعة الألمانية الثقيلة على التخلص من ديونها وتسديد كل ما وجب عليها تسديده من تبعاتٍ بالمارك الساقط الذي لايسوى شيئاً. أما هيئة الأركان العامة للجيش الألماني التي تنكرت تحت اسم "دائرة الجيش Truppenomt للتخلص من قيود معاهدة الصلح التي هددت كيانها القانوني فقد ادركت ان سقوط المارك قد محا ديون الحرب وترك ألمانيا حُرّةً من الناحية المالية للتهيؤ لحرب جديدة.

وعلى اية حالٍ فقد ظلّ سواد الشعب لايدرك كم كانت فائدة اقطاب رجال الصناعة والجيش والحكومة من سقوط العملة. كل ما كانوا يعلمون هو انك لاتستطيع ان تشتري بكلّ رصيدك المحترم في المصرف باقة صغيرة من الجزر ونصف اوقية من البطاطا وبضعة اونسات من السكر ونصف كيلو من الدقيق. وادركوا انهم كأفرادٍ قد أصبحوا مفلسين لايملكون من حطام الدنيا شيئاً. وذاقوا مرارة الجوع عندما كان يعضهّم بنابه يومياً. وفي وسط شقائهم ويأسهم جعلوا من الجمهورية كبش فداء وصبّوا على رأسها كُلّ ما وقع عليهم من مآسي.

زمن كهذا كان لهتلر هبة سماوية.

-٤-

الثورة في باڤاريا

صاح يقول: "تمضي الحكومة قدماً وبكلّ برودٍ وتعمّد في طبع هذه الأوراق التافهة لأن اجلها سينتهي وتزول إن هي توقفت... لأنها إن اوقفت مكائن الاصدار وهو التمهيد الذي لا مفرّ له لتثبيت

المارك، فستنكشف للملأ عملية النصب والإحتيال عارية مجردة... ألا ثقوا ان بؤسنا سيتعاظم ويزداد... وسيبقى النذل الساقط حُرّاً طليقاً... السبب هو أن الدولة نفسها أصبحت أكبر النصابين والمحتالين! دولة لصوص وقطاع طرق! لو استطاعت الجماهير المرتاعة أن تلاحظ أنها تجوع على البلايين من العملة الساقطة فلابدّ وستصل الى النتيجة الصائبة. اننا لن نطيع بعد الآن دولة بنيت على فكرة النصب والاحتيال بحق الأغلبية. نحن نريد دكتاتورية[٨]."

لاشكّ ان العُسر والحيرة اللذين تخمض بهما التضخم النقدي المستمرّ كانا يدفعان الملايين من الألمان الى ذلك الاستنتاج، وهتلر كان مستعداً لقيادتهم وقد بدأ في الواقع يعتقد أن أحوال الفوضى التي سادت عام ١٩٢٣ خلقت فرصة لإزالة الجمهورية قد لاتخطر ببال. إلاّ ان عقبات معينة كانت تقف في طريقه إن كان مقدراً له أن يقود ثورة الردّة هذه. ولم يكن إهتمامه شديداً إلاّ لأنه هو القائد.

من أولى العقبات أن الحزب النازي لم يكن أعظم حركة سياسية في باڤاريا وان راح ينمو عددياً. أما خارج باڤاريا فهو غير معروف. فكيف يمكن لحزب صغير مثله إسقاط الجمهورية؟

خيل لهتلر الذي لم تكن العقبات والمثبطات تثنيه عن عزمه، أنه وجد سبيلاً. ربّما امكنه توحيد العناصر المعادية للجمهورية من القوى القومية في باڤاريا، تحت زعامته. ثم تقوم الوحدات المسلحة الحزبية بالتعاون مع الجيش النظامي المرابط في باڤاريا وباسناد من الحكومة، بالزحف على برلين كما زحف موسوليني على روما قبل عام - واسقاط جمهورية ڤايمر. الظاهر ان نجاح موسوليني السهل قد غذى افكاره بطعام دسم.

ومع ان إحتلال الفرنسيين للروهر، جدّد كره الألمان لعدوهم التقليدي وأحيا بهذا الروح القومية، إلاّ انه عقّد الأمور على هتلر من جهة اخرى. فهذا الإحتلال راح يوحّد الشعب الألماني خلف حكومة الجمهورية في برلين، حين اختارت لها سياسة تحدّي فرنسا وهذا آخر ما كان يرغب فيه هتلر. لأن هدفه إزالة الجمهورية. وبعدها يمكنه تسوية الأمور مع فرنسا اثر بلوغ ألمانيا ثورتها القومية وإقامة الدكتاتورية. وبلغت الجراءة بهتلر أن يسلك خطاً لا جماهيرياً يتعارض والرأي العام السائد. "كلاّ لاتهتفوا فلتسقط فرنسا، لكن فليسقط خونة أرض الوطن ليسقط مجرمو تشرين! كذا يجب أن يكون شعارنا[٩]".

وانصرف بكلّيته طوال الأشهر الأولى من ١٩٢٣ الى ترويج هذا الشعار وترسيخه وتم في شباط بفضل جهود (روهم) ومواهبه التنظيمية ضمّ ثلاث زمرٍ قومية مسلحة في باڤاريا الى النازيين لتشكيل ما عرف بـ(إتحاد العمل لوحدات الوطن المحاربة Arbeitsgeneinschaft der Vaterloendischen Kampfvebaende). تحت قيادة هتلر السياسية. وفي أيلول تمّ تشكيل مجموعة أمضى قوة باسم "عصبة الألمان المحاربين Deutscher Kampfbund" كان هتلر أحد أقطابها. انبثقت هذه المنظمة من إجتماعٍ جماهيريّ ضخم عقد في نورمبرگ في (٢٠) أيلول بمناسبة الاحتفال بذكرى إنتصار الألمان

٨- هايدن: الفوهرر (الزعيم) الص ١٣١-١٣٣.
٩- المرجع السالف ص١٦٤

على فرنسا في معركة (سيدان). مثل في هذه العصبة كلّ الجماعات ذات العقلية الفاشيّة في جنوب ألمانيا وقوبل هتلر بالتهليل والهتاف بعد فراغه من خطبة عنيفة ضدّ الحكومة المركزية. واذيعت أهداف هذه العصبة علناً. ويمكن اجمالها باسقاط الجمهورية والغاء معاهدة ڤرساي.

في احتفال نورمبرگ هذا وقف هتلر على منصّة التحية الى جانب الجنرال لودندورف أثناء استعراض المجتمعين ولم يتمّ هذا بمحض الصدفة فمنذ زمنٍ طويل والزعيم النازي الشاب يثقف بطل الحرب الذي وضع اسمه الشهير تحت تصرف منظمي مؤامرة كاپ في برلين وبمواصلته تشجيع اليمين على ثورة الردة حَسب هتلر أن استمالته ضرورية لعل بالامكان اسناد جزءٍ من العمل اليه، كان هذا قد بدأ يختمر في ذهنَ هتلر. ولم يكن للجنرال ذهنية سياسية مدركة، وهو الآن يعيش خارج مونيخ ولا يكتم إحتقاره للباڤاريين وللمطالب بالعرش الباڤاري الأمير (روبرخت) وللكنيسة الكاثوليكية في دولة اشدّ كاثوليكية من أي دولة في ألمانيا. كان هتلر يعرف كل هذا وهو يلائمه ويتفق مع غاياته إذ لم يكن يريد في شخصية (لودندورف) زعيماً سياسياً للقوميين المناهضين للثورة. وهو دور كان يطمح اليه بطل الحرب كما لايخفى. واصرّ هتلر ان يكون الدور له. لكن اسم (لودندورف) وشهرته في هيئة الأركان ودوائر المحافظين في ألمانيا قد يكون دعماً لسياسيّ اقليميّ غير معروف خارج باڤاريا. وعلى هذا الأساس بدأ هتلر يدخل (لودندورف) في خططه.

وفي نهاية العام ١٩٢٣ بلغت العلاقات بين جمهورية ألمانيا ودولة باڤاريا الى حَدّ التأزم ففي ٢٩ أيلول أعلن المستشار (گوستاڤ شتريزمان) انتهاء المقاومة السلبية في (الروهر) وإستمرار ألمانيا في دفع التعويضات. ان هذا الناطق السابق بلسان هندنبرگ ولودندورف، واليمينيّ الأمين والملكيّ في الصميم قد توصل الى نتيجة نهائية وهي لا سبيل الى انقاذ ألمانيا وضمان وحدتها وقوتها –في الوقت الحاضر على الأقل– إلاّ بالإبقاء على النظام الجمهوريّ. لذلك توصل الى اتفاق مع الحلفاء وحصل على فترة من التأجيل والهدوء لتستعيد به قوتها الإقتصادية. وكلّ إندفاع أكثر من هذا لايكون مصيره إلاّ الحرب الأهلية وربما القضاء النهائي على الأمة الألمانية.

إن التخليّ عن مقاومة الفرنسيين في(الروهر) والعودة الى تحمل عبء التعويضات فجّر بركاناً من السخط والهستيريا بين القوميين الألمان. وراح الشيوعيون الذين بدأوا يستعيدون قوتهم يهاجمون الحكومة هجوماً مريراً وجوبه (شتريزمان) بضجّة هائجة من اقصى اليمين الى اقصى اليسار واستعجل بحمل الرئيس (إيبرت) على إعلان حالة الطوارىء في اليوم الذي أعلن عن تغيير سياسته في الروهر والتعويضات. ومنذ ٢٦ أيلول ١٩٣٣ حتى شباط ١٩٢٤، وضعت السلطة التنفيذية والاجرائية في ألمانيا بموجب قانون الطوارىء في يد وزيرالدفاع أوتوّ گيسلر Otto Gessler وقائد الجيش الجنرال (فون سيكت) ولكن القانون جعل الجنرال وجيشه دكتاتوري الرايخ المطلقين.

لم تكن باڤاريا بالتي تقبل حلاً كهذا. وأعلنت حكومتها برآسة يوجين فون نِبلنگ Eugen Von Knill-ing) حالة الطوارىء ايضاً في ٢٦ أيلول. ونصبت اليمينيّ الملكيّ رئيس الوزراء الأسبق (گوستاڤ فون كار) حاكماً عسكرياً عاماً مزوداً بصلاحيات دكتاتورية وخيف في برلين ان تعلن باڤاريا

انفصالها عن الرايخ وإعادة الملكية بشخص أسرة (ڤيتلسباخ) أو ربما تشكيل إتحاد ألماني جنوبيّ مع النمسا. فعقدت الحكومة إجتماعاً عاجلاً بحضور الرئيس (إيبرت) واستدعي الجنرال (فون سيكت) الى الإجتماع. وطلب أيبرت أن يعرف اين يقف الجيش؟ فأجابه (سيكت) بكل صفاقة "ايها السيد الرئيس، ان الجيش يقف خلفي[١٠]"، هذه الكلمات القاسية التي نطق بها القائد العام البروسي ذو المونوكل والوجه المربع لم ترعب المستشار الألماني ولم تفزعه كما كان متوقعاً فقد سبق للجميع واعترفوا بمركز الجيش الواقعي "انه دولة داخل دولة" لايخضع إلاّ لنفسه ورأينا موقفه من قبل عندما احتلت قوات (كاپ) برلين قبل ثلاث سنوات وتوجهت الحكومة الى (سيكت) بضراعتها هذه. وجدنا كيف أن الجيش لم يقف خلف الجمهورية وانما وقف خلف الجنرال. والمسألة الآن (في ١٩٢٣) هي اين يقف(سيكت)؟

ولحسن حظّ الجمهورية اختار الوقوف الى جانبها لا لأنه يؤمن بالمباديء الجمهورية والديمقراطية بل لأنه وجد في تلك اللحظة بالذات ان اسناد النظام القائم هو ضروري للحفاظ على كيان الجيش المهدد هو نفسه بالثورة اليمينية في باڤاريا وفي شمال ألمانيا. ولانقاذ الشعب الألماني من حرب اهلية طاحنة. ادرك (سيكت) ان عدداً من الضباط في جيش مونيخ قد انحازوا الى الانفصاليين الباڤارين. وأُخطر بمؤامرة يحبكها (جيش الرايخ الأسود) بقيادة الميجر بوخروگر Buchrucker وهو ضابط ركن سابق في القيادة العامة. لإحتلال برلين وطرد حكومة الجمهورية. فراح الجنرال يتحرك بهدوءٍ بارد دقيق وعزم ثابت لدعم حق الجيش وانهاء التهديد بالحرب الأهلية.

وفي ليلة ٣٠ أيلول سنة ١٩٢٣ احتلت وحدات من جيش الرايخ الأسود بقيادة (بوخروكر) ثلاث قلاع في شرقي برلين. فأمر (سيكت) القوات النظامية بتطويقها. وبعد يومين استسلم (بوخروكر) وحوكم بتهمة الخيانة العظمى. وحكم بعشر سنوات اعتقال ثكنة. ان جيش الرايخ الأسود الذي ألفه (سيكت) نفسه بالإسم التنكريّ [العمال الفدائيون Arbeitskommandos] ليكون مستودعاً سريّاً واحتياطياً يستمد منه الجيش الألماني ذو المائة ألف مقاتل، قام هو نفسه بحلّه[١١].

ثم وجه (سيكت) إهتمامه الى الثورة الشيوعية في (ساكسونيا) و(ثورنجيا Thuringia) وهامبورگ والروهر. إن ولاء الجيش في قمع اليسار شيء مضمون. ففي سكسونيا قبض قائد الموقع العسكري

١٠- اللفتننت جنرال فريدريك ڤون رابناو F. Von Rabenau كتابه "سيرة حياة سيكت: Seeckt, aus seinem Leben ج٢ ص٣٤٢.

١١- كان هذا (الجيش الأسود) الذي يبلغ تعداده عشرين ألفاً تقريباً، يرابط في الجبهة الشرقية ليساعد في حراستها أمام البولنديين في الأيام الحافلة بالاضطراب ١٩٢٠-١٩٢٣. هذه المنظمة اللاقانونية أصبحت سيئة السمعة لاحيائها أعمال التعذيب والفظائع الوسيطة التي كانت ترتكبها المحاكم السرية المعروفة في القرون الوسطى باسم فيمرگريخته Femergerichte - فكانت توقع عقوبة الاعدام الفوري على الألمان الذين يكشفون عن نشاط (الجيش الأسود) لهيئة المراقبة الحليفة. ووصل عدد من هذه القتول الوحشية الى سوح المحاكم. وفي احدى المحاكمات انكر وزير الدفاع الألماني (أوتو كيسلر) الذي خلف (نوسكه) أيّ علم له بهذه المنظمة. واصرّ على انها غير موجودة أصلاً. لكن عندما احتجّ أحد المستنطقين على هذه (البراءة) وعدم المعرفة صاح كيسلر: "من يتكلم عن الجيش الأسود يرتكب عملاً من أعمال الخيانة العظمى!"

التابع لجيش الرايخ على أعضاء الحكومة الشيوعية- الإشتراكية. ونصب مفوض أعلى من الرايخ لتولي الحكم. وفي هامبورگ وغيرها من الأقاليم تم خضد شوكة الشيوعيين بسرعة وقسوة متناهية. وبدا لبرلين أن قمعاً سهلاً للشيوعيين كهذا لابدّ سيجرد متآمري باڤاريا من حجتهم في انهم يعملون لانقاذ الجمهورية من الشيوعيين! فهم سيعترفون الآن بسلطة الحكومة المركزية. إلاّ أن الأمور لم تجر كما حسبوا.

فقد ظلت باڤاريا تتحدى برلين وهي الآن تدار بحكم دكتاتوريّ ثلاثي يتألف من (كاهر) مفوض الدولة. والجنرال أوتو فون لوسّوف Otto Von Lossow قائد جيش الرايخ في باڤاريا. والكولونيل هانس فون سايسر Hans Von Seisser مدير الشرطة العام. ورفض (كاهر) تطبيق إعلان حالة الطواريء في باڤاريا، وأبى اطاعة أي أمر صادر من برلين ولما طلبت الحكومة المركزية ايقاف جريدة هتلر عن الصدور بسبب هجومها العنيف على الجمهورية عموماً وعلى (سيكت) و(شتريزمان) و(كيسلر) بنوع خاصّ. رفض (كاهر) تنفيذ الأمر باستهانة واستخفاف. وتجاهل ايضاً أمراً ثانياً من برلين يقضي بإلقاء القبض على ثلاثة زعماء لعصابات مسلحة في باڤاريا سيّئي السمعة وهم الكابتن هايس Heiss والكابتن إيرهارد (بطل) إنقلاب كاپ. والملازم روسباخ Rossbach (صديق روهم). ونفد صبر الجنرال (سيكت) فأمر الجنرال فون لوسّوف بايقاف جريدة النازيين عن الصدور واعتقال الضباط الثلاثة المذكورين. وكان (لوسّوف) باڤاريّاً ضعيف الإرادة موزّع الفكر أثرت فيه فصاحة هتلر ووسائل اقناع (كاهر) فتردد في تنفيذ أوامر رئيسه الذي اصدر في ٢٤ تشرين أمراً بعزله من القيادة ونصب الجنرال كريس فون كريسّنشتاين Kress Von Kressenstein في محلّه. ولم يكن (كاهر) بمن يقبل بهذا الضابط القادم من برلين وأعلن أن (لوسّوف) سيبقى على رأس جيش الرايخ في باڤاريا وبهذا لم يتحد (سيكت) وحده، بل الدستور نفسه حين أجبر ضباط الجيش وجنوده على حلف يمين الولاء للحكومة الباڤارية. ووجدت برلين في ذلك تمرداً عسكرياً أكثر منه عصياناً سياسياً. وعزم الجنرال فون سيكت على قمع الإثنين بضربة واحدة[١٢].

واصدر امراً انذارياً للثلاثي الباڤاري وهتلر والعصابات المسلحة. جاء فيه: "ان كل ثورة يقومون بها ستقمع بالقوة" ولم يعد للزعيم النازي مجال للتراجع بعد إندفاعه. وكان أتباعه المسعورون يطالبون بالعمل السريع والحّ عليه الملازم بروكنر Bruckner وهو من قواد جنود العاصفة أن يقوم بتوجيه ضربته حالا وانذره بقوله: سيأتي يوم قريب لاأستطيع فيه كبح جماح رجالي. وان لم تتحرك فسوف يتركونا".

وادرك هتلر ايضاً أن (شتريزمان) لو كسب وقتاً وبدأت طلائع جهوده الناجحة في إعادة الاستقرار والهدوء فإنّ فرصته ستضيع منه. وراح يتوسل (بكاهر) و(لوسّوف) ليزحفا على برلين قبل ان تزحف برلين على مونيخ. وبلغ به الشكّ في موقفهما مبلغاً عظيماً: إما أن الثلاثي قد اقعده الجبن وشاع فيه الخوف. وإما انه يختط إنقلاباً انفصالياً لايكون فيه شريكاً، الهدف منه فصل باڤاريا عن الرايخ.

١٢- المرجع السالف ص٣٧١.

وهذه الأخيرة أكثر مما يطيق هتلر احتماله نظراً الى آرائه المتعصبة بخصوص رايخ موحدٍ قومي قويّ.

شاع التردد في (كاهر) و(لوسّوڤ) و(سايسّر) بعد ان تلقوا انذار (سيكت) ولم يكونوا مهتمين بحركة ظاهرة العُقم كفيلة بالقضاء المبرم عليهم. ولهذا قاموا في ٦ تشرين الثاني بابلاغ (عصبة الألمان المحاربين) التي كان هتلر يتزعمها سياسياً بألاّ يقدموا على عمل طائش وان الثلاثيّ هو الذي سيقرر بمفرده متى يعملون وكيف. وكان هذا إشارة لهتلر للمبادرة بالقبض على زمام الأمور بيده. فهو بمفرده لايملك اسناداً للقيام بإنقلاب ما يلزمه في الحقيقة مساندة الدولة الباڤارية وجيشها وشرطتها وهو ذلك الدرس الذي تعلمه أيام تشرده في ڤيينا. عليه استنباط وسيلة تمكنه من وضع (كاهر ولوسّوڤ وسايسّر) في موضع العمل معه بحيث لايستطيعون النكوص الى الوراء. الجرأة وحتى التهورّ هما أسلوبه الوحيد وقد اثبت بالدليل انه لايفتقر اليهما الآن. لذلك قرر خطف هذا (الثلاثي) واجباره على إستخدام سلطاته الاجرائية لتنفيذ غايته. اقترح عليه الفكرة مبدئياً اللاجئان الروسيان (روزنبرگ وشويبنر-ريختر) وهذا الأخير جعل نفسه في مصاف النبلاء عن طريق اسم زوجته فاطلق على نفسه "ماكس ايرڤن فون شويبنر-ريختر Max Erwin Von Scheubner-Richter وكان شخصيّة غامضة مثل روزنبرگ قضى معظم حياته في اقاليم روسيا بالبلطيق وبعد الحرب غادر الإتحاد السوڤياتي مع غيره من اللاجئين واستقر في مونيخ وانضم الى الحزب النازي وأصبح من أقرب مقربي هتلر.

كان يوم ذكرى ٤ تشرين Totengedenktag وهو يوم ألمانيا الوطنيّ. سيُحيا باستعراض عسكريّ في قلب مونيخ وأعلن في الصحف أن الامير الملكي روبرخت سيكون على منصّة التحية مع (كاهر ولوسّوڤ وسايسّر) وإن هذه المنصة ستقام في شارع ضيق يؤدي الى فيلدهرنهاله Feldherrnhalle واقترح (شويبنر-ريختر) و(روزنبرگ) على هتلر أن يؤتى ببضع مئات من جنود العاصفة في لوريّات وتحشد في الشارع الصغير قبل وصول الجنود المستعرضة واقفال الشارع بمدفع رشاشٍ ثم يرتقي هتلر المنصة ويعلن الثورة ويطلب تحت التهديد بالمسدس- من رجال السلطة الكبار الانضمام اليه ومساعدته على قيادتها. وهفت نفسه الى هذه الخطة ووافق عليها متحمساً. لكن روزنبرگ لخيبته وجد أن الطريق الضيق محميّ من الفتحتين حماية دقيقة بوحدات كبيرة من الشرطة الشاكية السلاح عندما وصل قبل الوقت بزمنٍ للتثبت من صلاح الخطّة. فكان من المحتم أن يصرف النظر عن المؤامرة... والأصوب عن الثورة.

الواقع انها تأجلت ليس إلاّ. ورسمت خطة أخرى لايعرقلها وجود وحدة من الشرطة تحتلّ موضعاً سوقياً. وتقضي أن يحشد في ليلة ١٠-١١ تشرين الثاني جنود العاصفة وغيرهم من العصابات المسلحة مثل (عصبة المحاربين الألمان) في مروج (فرويتشمانگر Froettsmaninger) في ضواحي مونيخ الشمالية. وفي صبيحة الحادي عشر الموافق ذكرى الهدنة المشؤومة المخجلة تزحف هذه القوة على المدينة وتحتل النقاط السوقية وتعلن الثورة القومية متحدية بالأمر الواقع (كاهر ولوسّوڤ وسايسّر) المترددين.

وعند هذه النقطة أوقف هتلر خطته. ألجأه الى ذلك إعلان في الصحف ظاهره غير مهم فقد جاء فيه أن (كاهر) سيقوم بتوجيه كلمة بناءً على رجاء بعض البيوت التجارية والمؤسسات الصناعية في مونيخ – في إجتماع بقاعة بيرة كبيرة في ظاهر المدينة الجنوبي الشرقي اسمها Buergerbraukeller وكان موعد الإجتماع في مساء ٨ تشرين الثاني وموضوع الخطاب كما ذكر في الإعلان "منهاج الحكومة الباڤارية" وجاء ايضاً أن الجنرال فون لوسّوف والكولونيل فون سايسّر وبعض كبار القوم سيكونون من الحاضرين.

هناك إعتباران حملا هتلر على قراره المتهوّر. الأول انه كان يشك في ان (كاهر) يريد ان يستخدم الإجتماع لإعلان انفصال (باڤاريا) وإعادة أسرة (فيتلسباخ) الى عرش باڤاريا. وحاول هتلر طول يوم ٨ تشرين مقابلة (كاهر) عبثاً. فقد ارجأ الموعد الى التاسع منه وهذا مما زاد من شك الزعيم النازي، وحبذ له ضرورة سبقه بالعمل. اما الإعتبار الثاني فالإجتماع المضروب سيتيح له الفرصة التي ضاعت في ٤ تشرين، فرصة القبض على (الثلاثي) واجبارهم تحت التهديد بالمسدس على الانضمام الى النازيين لتحقيق ثورة الردة. ولهذا قرر العمل حالا. وألغيت خطة تعبئة العاشر من تشرين الثاني، واستعيض عنها باستنفار جنود العاصفة استنفاراً عاجلاً وتحشيدهم في قاعة البيرة الكبيرة.

–٥–

مؤامرة قاعة البيرة

في حوالي التاسعة إلاّ ربعاً من مساء الثامن من تشرين الثاني ١٩٢٣، وبعد أن تكلم (كاهر) قرابة نصف ساعة أمام جمهرة من رجال الصناعة العطاش يناهز عددهم ثلاثة آلاف وقد جلسوا الى مناضد خشبية خشنة الصنع يجرعون بيرتهم من اقداحٍ حجرية على الطريقة الباڤارية، احاط جنود العاصفة بالقاعة واندفع هتلر الى الداخل بينما راح فريق من أعوانه يركزون مدفعاً رشاشاً أمام المدخل الرئيس وقفز هتلر وإعتلى إحدى المناضد واطلق رصاصة من مسدسه نحو السقف لجلب الانتباه اليه. فتوقف (كاهر) عن الكلام وإلتفت المجتمعون ليتثبتوا من أسباب الاضطراب. فخفّ هتلر مع مساعديه (هيسّ) و(اولريخ كراف) القصاب السابق والمصارع الهاوي رجل العصابات وحارس الزعيم الشخصي الى المنصة، وحاول ضابط شرطة برتبة (ميجر) التصدي لهم لكن هتلر سددّ اليه مسدسه وواصل سيره. اما (كاهر) فقد بدا –على حدّ ما وصفه شاهد عيان– شاحب الوجه مضطرباً. وانسحب من المنبر ليأخذ هتلر محله، صاح هتلر بأعلى صوته "لقد بدأت الثورة القومية. وهذه البناية يحتلها الآن ستمائة رجل مسلحون تسليحاً تاماً. وليس لأحد منكم مغادرة القاعة. وان لم تركنوا الى الهدوء حالا فسأنصب مدفعاً رشاشاً فوق المنصّة. إن حكومتي باڤاريا والرايخ قد نحيتا عن الحكم. وقامت حكومة قومية مؤقتة. لقد تمّ إحتلال ثكنات جيش الرايخ. وانّ الشرطة والجيش يزحفان على المد تحت علم الصليب المعقوف".

ان الفقرة الأخيرة كانت أكذوبة، خدعة لا غير، لكن من يستطيع التأكد في وسط هذه الفوضى؟ هناك مسدس. وهو شيء حقيقي منظور. وهنا جنود العاصفة ببندقياتهم ومدافعهم الرشاشة وهو ايضاً شيء حقيقي ملموس. الآن أمر هتلر كلاً من (كاهر ولوسّوڤ وسايسّر) أن يتبعوه الى غرفة صغيرة ملحقة بالمسرح. فامتثل أكبر ثلاثة موظفين في باڤاريا لأمره تحت تهديد جنود العاصفة. اما الجمهور فكان يرقب ما يجري بذهول تام.

على ان غضبهم كان يزداد مقروناً بالدهشة. فكثير من رجال الصناعة مازال يجد هتلر سياسياً مستجداً. وصاح احدهم بالشرطة "لا تكونوا جبناء مثلما أثبتّم في ١٩١٨، أطلقوا النار!" لكن الشرطة لم تتحرك من مكانها وهي ترى رؤوس الحكومة تسير ذليلة طيّعة وجنود العاصفة يسيطرون على القاعة. كان هتلر قد اتفق مع جاسوس نازي في الشرطة هو ڤلهلم فريك Wilhelm Frick أن يتلفن الى شرطة القاعة مشيراً بعدم التدخل والاكتفاء بمجرد تقرير. واشتد الغضب بالمدعويّن وزادت أصوات الاحتجاج والإستنكار وتعالت الضجة حتى اضطر (گورنگ) الى اعتلاء المنصّة لتهدئة روعهم بقوله: "ليس ثم ما يخشى منه، فنيّاتنا طيبة جداً. وعليه فلا داعي للسخط، وها هي (جعتكم) أمامكم!" ثم اعلمهم ان حكومة جديدة يتمّ تأليفها الآن في الغرفة المجاورة.

تلك هي الحقيقة وبفضل مسدس هتلر المصوّب. اذ ما ان استاق أسراه الى الغرفة الخلفية حتى بادرهم بقوله: "لن يخرج أحد من هذه الغرفة حيّاً دون ارادتي." وقال انهم سيتولون مناصب رئيسة إما في حكومة باڤاريا أو حكومة الرايخ التي يقوم بتشكيلها الآن مع (لودندورف). مع لودندورف؟ في أولى ساعات العصر كان هتلر قد أرسل (شويبنر-ريختر) الى لودڤيكشويهه Ludwigshoehe للاتصال بالجنرال الشهير الذي كان أجهل الناس بمؤامرة النازي. وليطلب منه المجيء الى قاعة البيرة حالا.

رفض الأسرى الثلاثة حتى الكلام مع هتلر باديء ذي بدءٍ واستمر يخطب فيهم، الواجب يحتم على كل منهم أن ينضم اليه في إعلان الثورة وتأليف الحكومتين الجديدتين. وعلى كل واحد منهم ان يقبل المنصب الذي اسنده اليه هتلر وإلاّ "فلا حقّ له في الحياة". وعلى (كاهر) ان يقبل الوصاية على (باڤاريا) وعلى (لوسّوڤ) ان يرضى، بمنصب وزير الجيش القوميّ وأن يقبل (سايسّر) بمنصب وزير شرطة الرايخ- لكن لم يكترث أحد بعروض هذه المناصب الرفيعة ولم يردّ أحد بكلمة وفتّ سكوتهم المطبق في عضد هتلر وهدّ اعصابه فصوّب مسدسه اليهم وقال: "لديّ هنا في مسدسيّ أربع اطلاقات ثلاثة منها للمتعاونين معي ان هم تركوني والرابعة لي!" ثم صوب فوهة المسدس الى جبهته وصاح: "إن لم أكن من الظافرين غداً بعد الظهر فسأقتل نفسي!"

لم يكن (كاهر) يمتاز بسرعة الخاطر أو حدة الذكاء إلاّ انه شجاع جميع القلب. فانثنى يقول لهتلر: "هر هتلر! يمكنك اطلاق الرصاص عليَّ أو على نفسك فلا يهمني إن متُّ".

وعقبه (سايسّر) وطفق يلوم هتلر لأنه حنث بكلمة الشرف التي قطعها على نفسه بألاّ يقوم بمحاولة إنقلابية ضدّ الشرطة فأجابه "نعم، اني قطعت عهداً فعفواً. إلاّ اني اضطررت الى ذلك بدافعٍ وطنيّ".

ولازم الجنرال (لوسّوڤ) الصمت المطبق استخفافاً بالوضع واحتقاراً. لكن ما ان طفق (كاهر) يهمس


مارشال الرايخ گورنگ

في اذنه شيئاً حتى صرخ هتلر "قف! لا كلام إلاّ باذني!" لم يصل بكلامه الى نتيجة ولم يوافق واحد من الثلاثي القابض على مقاليد الحكم في دولة باڤاريا على التعاون معه حتى بتهديد المسدس، وبدا الإنقلاب لايسير وفق الخطة المرسومة ثم اندفع هتلر الى القاعة كأنه يطيع حافزاً مفاجئاً وصعد المنصّة مواجهاً الحاضرين معلناً أن أعضاء الحكومة الثلاثي في الغرفة المجاورة قد انضمّوا اليه لتشكيل حكومة قومية جديدة. وصرخ "ان الوزارة الباڤارية قد نُحيت... وأعلن إسقاط حكومة مجرمي تشرين وعزل رئيس جمهورية الرايخ. وستعلن اسماء أعضاء حكومة قومية جديدة في مونيخ قبل نهاية اليوم. سيشكل جيش ألماني قومي فوراً... وانا اقترح تصفية الحساب النهائي مع مجرمي تشرين وان تكون الإدارة السياسية في الحكومة القومية بيدي وسيتولى (لودندورف) قيادة الجيش القوميّ الألماني... ان مهمة الحكومة الألمانية المؤقتة ذات الطابع القوميّ هي أن تنظم زحفاً عسكرياً على(بابل الآثمة) برلين لانقاذ الشعب الألماني. سيشهد يوم الغد أحد أمرين: إما حكومة قومية لألمانيا. وإما نكون نحن في عداد الموتى!"

لم تكن هذه المرّة الأولى والأخيرة التي يقذف فيها هتلر بأكذوبة محكمة. والحق يقال انها احدثت أثرها المرجوّ. اذ ما ان سمع الحاضرون أن (كاهر ولوسّوڤ وسايسّر) قد انضموا الى هتلر حتى تغيرّت مشاعرهم وبدأوا يطلقون الهتافات العالية، مما أحدث أثراً في الرجال الثلاثة المعتقلين في الغرفة.

وتقدم (شويبنر-ريختر) كما يتقدم (الحاوي) مخرجاً من قبعته الجنرال (لودندورف). كان بطل الحرب في اشد حالات الغيظ من هتلر بسبب هذه المفاجأة التي دبرها دون علم منه. وبدخوله الغرفة الصغيرة وعلمه أن نائب العريف السابق سيكون دكتاتور ألمانيا لا هو، زاد غيظه اضعافاً مضاعفة ولم يوجه حرفاً واحداً الى الشاب المعجب بنفسه إلاّ ان هتلر لم يكترث بعد ان قبل (لودندورف) وضع اسمه في هذا المشروع اليائس ونجح شخصياً في اقناع زعماء باڤاريا الحانقين إثر فشله في ذلك رغم تهديده ونصحه... وبدأ لودندورف يتجاوب فالقضية هي الآن القضية الوطنية الكبرى كما قال وهو ينصح السادة الأجلاء بالتعاون. وبإهتمام الجنرال الأكبر بالموضوع خُيل ان الثلاثي قد لان جانبه واستسلم. وإن انكر (لوسّوڤ) فيما بعد موافقته على وضع نفسه تحت تصرف (لودندورف). وظلّ (كاهر) يثرثر بضع دقائق حول إعادة (ڤتلسباخ) وهي امنيته العزيزة جداً. وأخيراً صرح بأنه سيتعاون

بوصفه (نائباً للملك).

إن مَقدم (لودندورف) المؤقت توقيتاً أنقذ هتلر. فاستبد به الفرح لإقبال الحظّ عليه واقتاد الثلاثة الى المنصّة ليلقي كل واحد منهم كلمة، وليقسم بعضهم لبعض على الإخلاص والولاء للعهد الجديد ونطّ الحاضرون فوق الكراسي والمناضد وقد اصابتهم لوثة من الجنون وترنحت اعطاف هتلر طرباً وقال مؤرخ شهير كان حاضراً الواقعة. "ارتسم تعبير واضح من السعادة على وجهه هو اشبه بسعادة الأطفال لا أنساه قط"(١٣).

وعاد مرة أخرى الى المنبر ونطق بآخر كلماته أمام المجتمعين: "اني اريد الآن تحقيق النذر الذي قطعته على نفسي قبل خمس سنوات عندما كنت أعمى مقعداً في المستشفى العسكريّ: وهو أن لا اعرف راحة أو هدوء بال حتى ازاحة مجرمي تشرين لتقوم على أنقاض ألمانيا اليوم المتقوضة، ألمانيا قوية عظيمة حُرّة ساطعة مرة ثانيةً".

وبدأ عقد الحضور ينفرط. وشرع (هيسّ) بمعاونة جنود العاصفة يوقف عدداً من أعضاء الوزارة الباڤارية وآخرين من الاعيان الذين حاولوا التسلل من بين الجمع الحاشد. ولم يدع هتلر (كاهر ولوسّوف وسايسّر) يغيبون عن أبصاره. ثم وردت اخبار عن وقوع مصادمة بين جنود العاصفة. بمساندة من عصبة المحاربين لألمان وبين الجيش النظاميّ في ثكنات سلاح الهندسة فقرر هتلر أن يذهب بنفسه الى الموقع ليحسم الأمر تاركاً حانة البيرة في يد (لودندورف).

فكانت الغلطة القاضية. إذ تسلل (لوسّوف) مع أول نفرٍ الى الخارج متعللاً بقوله للودندورف: أن ذهابه الى مقرّ الجيش لابد منه لاصدار الأوامر الضرورية. ولما اعترض (شويبنر-ريختر) على ذلك قاطعه (لودندورف) بحدة: "اني أمنعك من الشك في كلام ضابط ألماني" وغاب (كاهر) و(سايسّر) عن القاعة ايضاً.

عاد هتلر والدنيا لاتسعه فرحاً الى قاعة البيرة ليجد العصافير قد طارت من القفص وكانت أول ضربة ترنّح لها في تلك الامسية، اذ كان واثقاً بأنه سيجد (وزراءه) مكبين على مهمامهم الجديدة، في حين ينهمك لودندورف ولوسّوف في وضع خطط الزحف على برلين لكنه لم يرَ شيئاً من هذا. حتى مونيخ نفسها، فان قوات الثورة لم تكمل إحتلالها. قام (روهم) على رأس وحدة من جنود العاصفة تنتمي الى عصبة مقاتلة أخرى تعرف باسم رايخشكريكفلاكه Reichskriegsflagge بإحتلال مقرّ إدارة الجيش في وزارة الحرب بشارع شونفيلد Schoenfeldstrasse على انه لم يتم إحتلال اية مراكز ستراتيجية أخرى حتى ولا دائرة البرق التي خرج من أسلاكها نبأ الإنقلاب ليبلغ برلين. ووردت أوامر من الجنرال فون سيكت الى جيش باڤاريا بوجوب قمع العصيان مع حصول ردود فعل بين صغار الضباط في بعض الوحدات التي كانت تعطف على هتلر وروهم، إلاّ ان كبار الضباط بقيادة الجنرال (فون دانر Von Danner) قائد حامية مونيخ كانوا على استعداد لتنفيذ أوامر (سيكت) وزادهم رغبة، حقدهم المرير للمعاملة التي لقيها الجنرال فون لوسّوف. ففي قانون الجيش الألماني أن المدني الذي يصوّب

١٣- كارل الكساندر ڤون موللر. اقتباس هايدن في "الزعيم" ص١٩٠.

مسدساً الى جنرال يستحق الصفع بيد ضابط. وخرجت الأوامر من مقر ثكنات كتيبة المشاة التاسعة عشرة الى سائر الحاميات في الضواحي لاستقدام نجدات عسكرية الى المدينة، على أثر إجتماع الجنرالين (لوسّوف ودانّر).

وبانبلاج الفجر كانت وحدات الجيش النظامي قد اكملت تطويق قوات (روهم) في وزارة الحرب. وكان لودندورف وهتلر قد إلتحقا بـ(روهم) قبل ذلك بفترة لاستطلاع الموقف. وصدم (روهم) عندما تبين له انه الوحيد الذي قام بعمل عسكريّ واحتل نقطة حيوية. وحاول هتلر جاهداً الاتصال (بالثلاثي) وأرسلت بعوث الى ثكنات كتيبة المشاة التاسعة عشرة باسم (لودندورف) إلاّ انهم لم يعودوا وأرسل (پوينر Poehner) مدير شرطة مدينة مونيخ السابق واحد أشياع هتلر مع الرائد (هوهنلاين Huehenlein) وجماعة من جنود العاصفة لإحتلال مقر الشرطة العام فاعتقلوا هناك فوراً.

وماذا عن گوستاڤ فون كاهر رئيس الحكومة الباڤارية؟ بعد مغادرته قاعة البيرة ثاب اليه رشده بسرعة، ولمّ اطراف شجاعته. ولكُرهه أن يكون تحت خطر الوقوع اسيراً بيد هتلر وصحبه الغلاظ، نقل حكومته الى ريگنزبرغ Regensburg. ولم ينسَ قبل مغادرته المدينة أن يأمر بلصق إعلانات كبيرة في كل انحاء مونيخ فيها البيان التالي:

بيان

إن خداع وغرور بعض الرفاق الطموحين. حَوّل تظاهرةً اقيمت لمصلحة الانعاش القوميّ الى مشهد من مشاهد العنف التي تشمئز منها النفس. إن التصريح الذي انتزع منيّ ومن الجنرال لوسّوف والعقيد سايسّر بتهديد المسدس انما هو باطل لا قيمة له. اني آمر بهذا، بحلّ الحزب القومي الإشتراكي للعمال الألمان وبحلّ عصبتي اوبر لاند Oberland ورايخشكريكزفلاكه المحاربتين.

توقيع فون كاهر مفوض الدولة السامي

إن الفوز الذي بدا لهتلر سهل المنال في أولى ساعات المساء. صار يبدو له بعيداً بقدوم الليل. واخذ يرقب القواعد الأساسية التي اختطّها لإنجاح الثورة السياسية وتشدد في تطبيقها (مساندة المؤسسات القائمة كالجيش والشرطة وزمرة الحاكمين) وهي تتهاوى وتتحطم أمام عينيه كما تجليّ واضحاً ان اسم (لودندورف) السحريّ لم يحدث أي أثر في موقف القوات المسلحة واقترح هتلر انقاذ الموقف بانسحابه هو والجنرال الى الريف قرب روزنهايم Rosenheim لتنظيم صفوف الفلاحين لتكون ظهيراً للعصابات المسلحة ثم الهجوم بها على مونيخ، إلاّ ان (لودندورف) رفض الفكرة في الحال.

أو لعّل هناك وسيلة أخرى لاجتناب الكارثة على الأقل؟ ما أن سمع الأمير الملكي بالمؤامرة – وكان عدواً شخصياً لدوداً للودندورف – حتى اصدر تصريحاً مقتضباً دعا فيه الى قمعها حالا. إلا ان هتلر قرر توجيه نداء الى الأمير بالتدخل واقناع (لوسّوف) و(كاهر) بتسوية سلميّة شريفة وحمل الرسالة

الملازم نيـونزرت Neunzert وهو صـديق لكلّ من هتلر والأمـيـر وكلّف بالذهاب فـجـراً الى قلعـة (ڤيتلسباخ) قرب (برخستگادن) لقضاء المهمة الخطيرة لكنه اضطر الى انتظار القطار لأنه لم يحصل على سيارة فلم يبلغ هدفه إلاّ ظهراً بعد أن طرأ تحول في مجرى الأمور لم يكن في حسبان هتلر. ولم يحلم به لودندورف. كان هتلر قد وضع خطة مؤامرة، لا خطّة حرب اهلية ومع حالة الهياج المحموم التي ركبته فقد كان في اعصابه بقية كافية للسيطرة على نفسه الجامحة وليدرك ان القوة تعوزه للتغلّب على الشرطة والجيش. اراد احداث ثورة بالقوات المسلحّة لا ضدّها. ومهما أظهر في خطبه الأخيرة من شهوة الى سفك الدماء فانه أحجم، حتى في الساعات التي كان يصوب مسدسه الى الثلاثي الباڤاريّ. عن فكرة اقتتال الرجال الذين اتحدوا في كرههم الجمهورية وسفك بعضهم دماء بعض.

وكذلك كانت فكرة لودندورف. انه ليسعده وضع الحبل في عنق الرئيس (إيبرت) وشركائه والاستمتاع برؤيتهم يتأرجحون في الهواء كما كتب لزوجته. لكنه ما رغب قط في قتل الشرطة والجنود الذين يؤمنون كما يؤمن -على الاقل في مونيخ- بثورة ردةٍ قومية الطابع.

واقترح لودندورف على الزعيم النازي الشاب المتردد خطته التي قد تنيلهما النصر دون اراقة دماء. إن الجنود الألمان والشرطة -ومعظمهم جنود سابقون- لايتجاسرون على اطلاق رصاصهم على صدر القائد الأسطوري الذي قادهم الى إنتصارات عظيمة في الجبهتين الشرقية والغربية. وهو واثق من ذلك تمام الثقة وليس عليه إلاّ ان يزحف هو وهتلر وأعوانهما الى مركز المدينة. ليستوليا عليها ولن تجرأ الشرطة أو الجيش على اعتراض سبيله بل سينضمون اليه ويحاربون تحت لوائه. فوافق هتلر بشيء من التردد بعد ان وجد الأبواب الاخرى موصدة في وجهه وعقب يقول أن الأمير الملكيّ لم يجب حتى الآن على طلب الوساطة. وفي حدود الساعة الحادية عشرة من صبيحة ٩ تشرين الموافق ذكرى إعلان الجمهورية الألمانية قاد (لودندورف وهتلر) قوةً من جنود العاصفة تبلغ ثلاثة آلاف من حدائق مشرب البيرة العتيد، وبها زحفا على قلب مونيخ وكان الى جانبهما المقدّم (گورنگ) قائد الـ(إس-أي) وشويبنر-ريختر وروزنبرگ. واولريخ كراف حارس هتلر الشخصي ونصف دستةٍ من اقطاب النازيين وزعماء "عصبة الكفاح." ورفع علم الصليب المعقوف على رأس الرتل الى جانب بيرق عصبة (البوند اوبرلاند) وعلى مسافة قصيرة من الصف الأمامي كان ثم لوريّ يعقب المسيرة مُزوّد بعدد من المدافع الرشاشة مع رجالها؛ أما جنود العاصفة فكانوا يحملون بندقياتهم معلقةً على اكتافهم وبعضهم عمد الى تركيب حرابه. وكان بيد هتلر مسدس. إن القوة لم تكن كبيرة إلاّ أن لودندورف الذي قاد الملايين من خيرة الجنود الألمان كان يجدها كافية لانجاح خطته. وجوبه الثوار بالعائق الأول بعد سيرهم بضع مئات من الياردات شمال مشرب البيرة متمثلاً بجسر (لودفيك) على نهر (الإيسر Isar) المؤدي الى قلب المدينة. كانت تحرسه ثلة من الشرطة وقد سدت الطريق اليه فخرج (گورنگ) الى الأمام وخاطب آمرهم مهدداً باعدام عدد من الرهائن زعم انهم قد وضعوا في مؤخرة الرتل، إن اطلق شرطته الرصاص على رجاله. في ساعات الليلة السابقة كان (هيسّ) وأعوانه قد اعتقلوا عدداً من الرهائن

منهم وزيران احتياطاً للطواريء ليس إلاّ. وسواء أقصد (گورنگ) الخداع أو قال الحقيقة فالظاهر أن ضابط الشرطة صدقه وترك الرتل يعبر الجسر دون تعرض.

وفي "مارينپلاتز Marienplatz التقى الرتل النازي الزاحف بجمع غفير من الناس ينصتون الى خطبة حماسية يلقيها (يوليوس شترايخر) عدوّ اليهود الذي خفّ من (نورمبرگ) مسرعاً الى مونيخ عند سماعه بأول انباء الإنقلاب فكره أن يبقى بعيداً عن الثورة وقطع خطبته والتحق بالركب قافزاً الى موضع يبعد عن هتلر بخطوة واحدة. وقبل الظهيرة بقليل اقترب الرتل الزاحف من هدفه المنشود وزارة الحرب حيث كان (روهم) وأعوانه من جنود العاصفة قد طوقتهم قطعات جيش الرايخ لكن لم يصدر لا من المحصورين ولا زمر من المحاصِرين طلقة نارية واحدة. كان (روهم) ورجاله من المحاربين القدماء ولديهم رفاق سلاح كثيرون في الجهة المقابلة من وراء الاسلاك الشائكة. ولم يوجد لدى الطرفين أية رغبة في القتل.

وفي سبيل الوصول الى وزارة الحرب وتحرير (روهم) قاد لودندورف وهتلر رتلهما في شارع (ريزدنسز Residenzstrasse) الضيق الذي يقع خلف (فيلدهرنهاله) مباشرةً. والمفضي الى ميدان اديون پلاتز Odeonsplatz الواسع وعلى رأس الشارع الشبيه بـgully كانت وحدة من الشرطة يناهز عددها المائة مسلحة بالبندقيات ترابط فيه وتسدّ الطريق، في نقطة استراتيجية لاتسمح للمتقدمين بمجال.

وحاول النازيون المرور بتأثير الكلام المقنع كما فعلوا عند العائق الأول فبرز الحارس الخاص الأمين (اولريخ گراف)ونادى ضابط الشرطة القائم على رأس السريّة "لا تطلقوا النار! فإن صاحب العظمة لودندورف قادم" في هذه اللحظة الدقيقة الحرجة لم ينسَ ثائر ألماني ومصارعٌ هاوٍ وشقيٌ محترف الشقاوة أن يشير الى سيّد باللقب المناسب! وأردفه هتلر بصرخة ثانية "استسلموا! استسلموا!" لكن ضابط الشرطة المجهول لم يستسلم إذ بدا أن اسم لودندورف لم يكن فيه ذلك التأثير السحري عليه. انها الشرطة لا الجيش.

لا يعلم حتى الآن من كان البادىء باطلاق النار فكلّ جهة تضع المسؤولية على عاتق الأخرى. وشهد أحد المتفرجين فيما بعد ان هتلر كان أول من اطلق مسدسه. وخيل لآخر أن المطلق الأول (شترايخر). وأسرّ أكثر من واحدٍ من النازيين للمؤلف بأن هذه المأثرة هي التي أدنت مكانته من هتلر أكثر من أيّ شيء آخر (١٤).

على كل حال فقد ثارت. وما هي لحظة حتى إنهمر وابل من الرصاص وبهما لفظ حكم القضاء المبرم على آمال هتلر. سقط شويبنر-ريختر مصاباً بجرحٍ مميت. وبرك (گورنگ) على الارض وقد جرح في فخذه جرحاً بليغاً. وبعد ستين ثانية توقف الجانبان عن اطلاق النار وانتشرت الاجساد الساقطة في طول الشارع. صرع ستة عشر نازياً. ومات ثلاثة من أفراد الشرطة أو كانوا في ساعة النزع الأخير

١٤- بعد مرور سنوات قال هتلر عند مصادقته على تعيين شترايخر الحاكم النازي لمحافظة فرانكونيا رغم وقوف عدد كبير من رفاق الحزب موقف المعارضة: "ربما يوجد واحدٌ أو اثنان لايعجبهما شكل الرفيق شترايخر. لكنه عندما القى بنفسه على الرصيف الى جانبي في ذلك اليوم قرب (فلدهرنهاله) حلفت في نفسي أن لا اتركه أو اتخلّى عنه طالما هو لايتخلّ عني"، هايدن: "هتلر: سيرة حياة" ص١٥٧

وجرح أكثر من ذلك بكثير. أما الناجون ومنهم هتلر فقد القوا بأنفسهم على بلاط الشارع اتقاء الرصاص.

كان ثم مستثنىً واحد لو سار الآخرون على نهجه لإنتهى اليوم بغير ما انتهى اليه. لم يلقِ لوندندورف بنفسه على الارض بل ظلّ منتصباً كالطود متحدياً بحسب ارفع التقاليد العسكرية. ووقف الى جانبه الرائد (شتريك Streck) ثم سار بهدوء وقدم ثابتة بين فوهات بندقيات الشرطة حتى بلغ (ديون پلاتز). لاشك وأن الناظر كان يجد شخصية فريدة غريبة. اذ لم يتبعه نازيّ واحدٌ، لم يتبعه حتى زعيم الحزب الأعلى أدولف هتلر.

وكان مستشار الرايخ الثالث المقبل، أوّل الزاحفين الى منطقة الأمان. في أولّ الزحف عمد الى شبك ذراعه اليسرى بذراع (شويبنر-ريختر) اليمنى (اشارة غريبة لكنها ذات دلائل) ولما دنا الرتل من الشرطة وسقط الأخير جرّ معه هتلر الى بلاط الشارع. وربما حسب هتلر أنه أصيب، فقد شعر بألمٍ حادٍ تبين له فيما بعد أنه متأتٍ من خلعٍ في ذراعه لكن الحقيقة ظلّت مطابقة لشهادة الطبيب ڤالتر شولز Walther Schulz الذي كان واحداً من أفراد الرتل النازيّ، وتأيدت شهادته بشهادات عدة: يقول "ان هتلر كان أول من نهض وتقهقر منسحباً" تاركاً رفاقه القتلى والجرحى على ارض الشارع. وقد جُرّ جراً الى سيارة كانت بالانتظار ونقل حالا الى منزل آل هانفشتانگل الريفيّ في أوفّنك Uffing حيث أشرفت على معالجته زوجة "پوتزي" واخته. وفي المنزل نفسه تم إلقاء القبض عليه بعد يومين.

وألقي القبض على (لودندورف) في محلّ الحادث. وكان قد امتلأ قلبه بالاحتقار للثوار الذين لم يجدوا في انفسهم الشجاعة للسير الى الأمام معه وحقد أيضاً على الجيش لأنه لم ينحز الى جانبه. حتى صرخ أنه لن يحترم بعد الآن ضابطاً ألمانياً واحداً ولن يرتدي بزة عسكرية مهما كانت الظروف. وقام باسعاف الجريح (گورنگ) يهودي صاحب بنك مجاور ثم هربته زوجه عبر الحدود الى النمسا وادخلته مستشفى انزبروك Innsbruck وفَرّ (هيسّ) الى النمسا أيضاً. وفي وزارة الحرب استسلم (روهم) بعد ساعتين من القضاء على الحركة أمام (فلدهررنهاله). ولم تمرّ أيام قلائل حتى تمّ إلقاء القبض على كل اقطاب الحزب واودعوا التوقيف بإستثناء (گورنگ وهيسّ). وهكذا ختم على مصير المؤامرة النازية بالفشل التام، وحُلّ الحزب وبدا وكأن القومية الإشتراكية لن تقوم لها قائمة. وبدا وكأن زعيمها الدكتاتوري النزعة الذي اطلق ساقيه للريح عند أول رشقة من الرصاص قد قضي على سمعته قضاءً مبرماً، وانتهى مستقبله السياسيّ الصاروخي.

-٦-

المحاكمة بتهمة الخيانة

ظهر فيما بعد أن مستقبله السياسيّ لم يصب إلاّ بكبوةٍ لم تدم طويلاً. كان هتلر من بعد النظر بحيث وجد ان محاكمته لن تنهي شأنه وتختم على مصيره بل ستكون بمثابة منبر للتنديد بالسلطات

الانتهازية المساومة التي قبضت عليه، بل (وهذا في غاية من الأهمية) ليجعل اسمه للمرة الأولى شهيراً خارج حدود باڤاريا ومن ثم خارج حدود ألمانيا وكان يعلم جيداً أن مراسلي الصحافة العالمية فضلاً عن مراسلي صحف ألمانيا الكبرى سيتقاطرون الى مونيخ لمتابعة وقائع محاكمته التي بدأت في ٢٦ شباط ١٩٢٤ أمام محكمة خاصة عقدت جلساتها في مدرسة تدريب المشاة القديمة في بلوتنبرگ شتراسه Blutenburgstrasse وفي ختام الأيام الأربعة والعشرين التي استغرقتها المحاكمة، حوّل هتلر هزيمته الى إنتصار، وجعل (كاهر) و(لوسّوڤ) و(سايسّر) شركاء له في الجريمة أمام الرأي العام. وهيّأهم لتلقي الضربة القاضية. كما استطاع أن يدهش الشعب الألماني بفصاحته ولهيب شعوره القومي. ورفع اسمه الى صدور الصحائف الأولى من امهات الجرائد العالميّة.

ومع ان (لودندورف) كان اهم وأبعد شهرة وصيتاً من سائر المتهمين العشرة بلا جدال إلاّ ان هتلر سارع باحتكار كُلّ الأنوار لنفسه وبقي مسيطراً بشخصيته على قاعة المحاكمة من البداية حتى النهاية. كان (فرانز گورتنر Franz Geurtner) وزير العدل الباڤاري صديقاً حميماً وحامياً للزعيم النازي فدبّر ان تكون هيئة القضاء متساهلة ليّنة وتُرك هتلر يقاطع الشهود على هواه دون اعتراض ويستجوبهم ويدافع عن نفسه أيّ وقت رغب ومهما امتد به الزمن. وقد استغرق دفاعه الأول أربع ساعات. وكان لايختلف عن خطبة من خطبه الطويلة العديدة.

لم يكن في نيته ارتكاب الخطأ الذي وقع فيه المتهمون في تدبير مؤامرة (كاپ) عند محاكمتهم فقد ادعوا على ما قيل: "انهم لايعرفون شيئاً ولم يقصدوا امراً، ولم يعملوا لغرضٍ" ذلك هو الموقف الذي دمّر العالم البرجوازي! انهم لم يقفوا موقف المصرّ على عمله... لم يقفوا بمواجهة القاضي ليقولوا: "أجل هذا هو ما اردناه... أردنا القضاء على نظام الحكم".

وأعلن هتلر أمام القاضي وممثلي الصحافة العالمية في مدينة مونيخ بكل فخر واعتزاز "أنا وحدي أتحمل المسؤولية. لكني لست مجرماً لهذا السبب. وان وقفت اليوم بوصفي ثائراً، فأنا ثائر ضدّ الثورة... ليس ثم شيء يصح نعته بالخيانة العظمى ضدّ خونة ١٩١٨". وان وجد فالمثلث الذي يرأس الحكومة والجيش والشرطة في باڤاريا هو ايضاً مجرم لأنه تآمر على الحكومة المركزية ويجب ان يوضعوا معه في قفص الاتهام لا ان يقفوا موقف الشهادة ويصبحوا مدعين رئيسيين عليه. وهكذا قلب ظهر المجن ببراعة وحذق على وجه المثلث القلق المثقل بوزر الجريمة: "شيء واحدٌ هو مؤكد ثابت... (لوسّوڤ وكاهر وسايسّر) ارادوا ما اردنا- ارادوا التخلص من حكومة الرايخ... فإن وسم عملنا بميسم الخيانة العظمى فلوسّوڤ وكاهر وسايسّر شركاؤنا في جريمة الخيانة العظى هذه. لأننا لم نتداول ولم نبحث طوال الاسابيع الأخيرة إلا في الأهداف والغايات التي نقف اليوم متهمين بها..."

لم يكن في مقدور "المثلث" انكار ذلك لأنه حقيقي. ولم يكن كاهر وسايسّر ندّين قريعين لهتلر ووخزاته. على ان (لوسّوڤ) دفع تهم هتلر عن نفسه بقوةٍ وتحد. وقال للمحكمة "أنا لم أكن ضابطاً متقاعداً komitadji بل أشغل في الدولة منصباً كبيراً" وأهال على رأس هتلر من الزراية والاحتقار ما يشعر به ضابط قديم عريق ازاء نائب عريف سابق فاشيّ عاطل حديث نعمة قاده طموحه الغلاّب الى

حَدّ محاولة املاء أوامره على الجيش والدولة. ثم تساءل الى أيّ مدى من الاستهتار قد وصل هذا الديماگوگي المتهور منذ الأيام التي كان يرغب أن يصبح مجرّد "قارع طبل" في الحركة الوطنية وهي مسافة ليست بعيدة.

مجرد قارع طبل؟ عرف هتلر كيف يجيب على هذا قال: "ما أصغر افكار صغار الرجال! ثقوا اني لا أعتبر التكليف بمنصب الوزارة شيئاً يسوى المجاهدة في سبيله. وليس يليق برجل عظيم أن يدخل سفر التاريخ عن طريق صيرورته وزيراً. إن المرء ليخشى على نفسه من ان يدفن قرب الوزارة. فلقد اردت أن اكون القضاء المبرم على الماركسية وسأقوم بإنجاز هذه المهمّة وإن انا اجاهد في سبيل هذا المرام فلقب وزير سيكون شيئاً تافهاً حقيراً بالنسبة لي.

وضرب بـ(ڤاگنر) مثلاً: " عندما وقفت على ضريح (ڤاگنر) لأول مرة. أفعم قلبي فخراً بذلك الرجل الذي أبى أن ينقش على قبره مثل هذه العبارة (هنا يرقد عضو مجلس المدينة، قائد الاوركسترا، سعادة البارون ريشارد فون ڤاگنر) كنت فخوراً لأن هذا الرجل ككثير غيره في تاريخ ألمانيا قنعوا بمنح اسمائهم للتاريخ دون ألقابٍ. وليس تواضعاً منيّ رغبتي في ان أصبح (طبالا) في تلك الأيام. كانت تلك أسمى أمنية، اما غيرها فليس شيئاً مذكوراً."

واتُهم بأنه اراد القفز من وظيفة (طبّال) الى مقام الدكتاتور فلم ينكر ذلك. فهذا حكم القدر.

"ان الذي خلق ليكون دكتاتوراً ليس مضطراً له. إنه سيكونه. ولن يدفعه الآخرون الى الأمام بل سيدفع نفسه وليس في هذا خيلاء أو عدم تواضع. ايكون من الخيلاء أن يدفع العامل نفسه الى العمل الشاق؟ أهو من قبيل الإدعاء الفارغ أن يقضي رجل مفكّر كبير الدماغ، لياليه ليقدم اختراعاً للعالم؟ لا حق للرجل الذي يُدعى لحكم شعبٍ من الشعوب أن يقول: ان اردتموني أو استقدمتموني فسأتعاون معكم. كلاّ وحاشا! إن واجبه يحتم عليه التقدم الى الأمام."

كان إيمانه بنفسه وبحتمية دعوته الى حكم الأمّة لم ينقص حَتىّ عند وقوفه في قفص الاتهام مواجهاً حكماً طويلاً بالسجن لجريمة الخيانة ضدّ بلاده. ولقد قام وهو في السّجن بانتظار المحاكمة بتحليل أسباب فشله في الإنقلاب وأقسم أن لايرتكب الاخطاء نفسها في المستقبل. وتذكر ما كان يجول في رأسه من افكار آنذاك بعد ثلاثة عشر عاماً من بلوغه هدفه فقال لأعوانه القدماء المجتمعين في حانة البيرة احتفالا بذكرى الإنقلاب: "اقول بكل هدوء انه كان اعجل قرار واشده تهوراً في حياتي. وكلما عدت بذاكرتي اليه طاش عقلي... لو رايتم اليوم واحدةً من فصائلنا للعام ١٩٢٣ وهي تمر أمامكم لما تمالكتم أنفسكم من السؤال: (من أيّ سجن انطلق هؤلاء؟) لكن القدر إستجاب وانحاز الينا. فلم يسمح بنجاح عملٍ كان سيؤدي بالنتيجة الى فاجعة حتمية بسبب عدم نضوج الحركة من الداخل في تلك الأيام ولضعف الاسس التنظيمية والفكرية... لقد ادركنا أن القضاء على النظام السياسي القديم ليس بكافٍ لكن يجب علينا أن نسبق هذا ببناء الدولة الجديدة حتى تكون مهيأة وتحت اليد... في العام ١٩٣٣ لم تعد المسألة مسألة اسقاط دولة بعملٍ من أعمال القوة، كنا وقتذاك قد اتممنا بناء الدولة الجديدة وكل ما وجب علينا عمله هو تحطيم آخر بقايا الدولة القديمة- ولم

يقتضينا ذلك إلاّ ساعات قليلة".

وكانت مشكلة بناء الدولة النازية الجديدة تحتل فكره عندما راح يناظر القضاة ووكلاء الادعاء العام أثناء المحاكمة. ينبغي له في المقام الأول- أن يكسب الجيش الألماني الى صفّه، لا أن يجعله ضدّه في الجولة التالية. وفي دفاعه الختامي ظلّ يضرب على وتر التصافي مع القوات المسلّحة. ولم يوجه كلمة لوم واحدة الى الجيش: "...وفي اعتقادي ان الساعة ستحين عندما تتحدّ كتل الجماهير التي تقف الآن في الشارع تحت علم الصليب المعقوف مع أولئك الذين اطلقوا النار عليهم... عندما علمتُ أن الشرطة (الخضراء) هي التي اطلقت الرصاص. فرحتُ لأن الجيش الألماني لم يلطخ صفحته النقية. انه الجيش يقف طاهراً من أيّ وصمة كما وقف في الماضي. وفي يوم ما ستأتي الساعة التي يقف بها الجيش الألماني الى صفّنا ضباطاً وجنوداً.

كانت نبوءة صائبة. لكن قاضي المرافعة قاطعه هنا قائلاً:

- هر هتلر، انت تقول الشرطة (الخضراء) قد لطخت بالعار. وهذا ما لا اسمح به.

ولكن المتهم لم يعر أيّ إهتمام بتأنيب الحاكم. وختم دفاعه بكلمات أخيرة تركت المتفرجين في قاعة المحكمة مصروعين دهشة:

"إن الجيش الذي ننساه ينمو يوماً بعد يومٍ... وأني لأنتعش إنتعاشاً بالامل الفخور حين ادرك ان الساعة ستأتي في يومٍ من الأيام عندما تتقلب هذه السرايا المستجدة الى افواج والافواج الى ألوية والألوية الى فرق. وأن ترفع شارة الخوذة من الوحل. وأن ترفرف الأعلام ثانيةً وان يكون التصافي في آخر يوم دينونةٍ إلهيّ عظيم تهيأنا لمواجهته."

ثم حَوّل عينيه المتقدتين شواظاً الى القضاة مباشرةً:

"لستم ايها السادة، بالذين تلفظون الحكم علينا. فقد نطقت بالحكم محكمة التاريخ الأزلية. إن الحكم الذي ستفرضونه أعرفه وتملك المحكمة أن تسألنا: (هل انتم مجرمون بجريمة الخيانة العظمى أم لا؟) تلك المحكمة ستحكم علينا على رئيس هيئة الأركان العام للجيش القديم [لودندورف]، وضباطه، وجنوده، وستجدنا ألماناً لم يريدوا إلاّ الخير لشعبهم ولأرض وطنهم. يريدون القتال والموت، لكم ان تعتبرونا مذنبين ألف مرّة. لكن آلهة محكمة التاريخ الأزلية ستضحك وتمزق لائحة الادعاء العام وقرار هذه المحكمة مزقاً وقصاصات. لأنها برّأتنا[١٥]."

كانت العقوبات، إن لم نقل الاحكام، التي اصدرها القضاة المتصدّرون لاتبعد كثيراً عن حكم التاريخ كما كتب (كونراد هايدن). فقد برّيء (لودندورف) وثبت الجرم على هتلر وباقي المتهمين. ولكن هتلر حكم عليه بالسجن خمسة أعوام في قلعة لاندسبرگ Landsberg العتيقة في حين كان نصّ المادة (٨١) من قانون العقوبات الألماني يورد الحكم كالآتي: "كُلّ من يحاول بالقوة، تغيير دستور الرايخ الألماني أو دستور أيّ دولة ألمانية يعاقب بالحبس المؤبد". ومع ذلك احتجّ جمهرة المحلفين في وقتها على قسوة الحكم لكن رئيس المحكمة أكد لهم أن السجين سيكون أهلاً للعفو بعد أن يقضي

١٥- وقائع المحكمة مثبتة في كتاب (محاكمة هتلر Der Hitler Prozess).

ستة أشهر من عقوبته. ولم تثمر جهود الشرطة في ابعاد هتلر عن البلاد بوصفه نمساويّ الجنسية. وصدر الحكم في (١) نيسان ١٩٢٤ ولم تنقضِ تسعة أشهر عليه حتى اطلق سراحه في ٢٠ كانون الثاني ومنح الحرية لمواصلة كفاحه للقضاء على الدولة الديموقراطية. إن التبعة التي تتحملها بإرتكابك جرم الخيانة العظمي ليست عسيرة إن كنت رجلاً من أقصى اليمين رغم أنف القانون. وهذا أمر ليس بالمجهول عند عدد كبير من الجمهوريين.

وعملت المؤامرة الإنقلابية من هتلر -رغم فشلها- شخصية وطنية وجعلته في أعين الكثير مجاهداً قومياً وبطلاً. وسرعان ما حولتها الدعاية النازية الى أسطورة من أعظم أساطير الحركة. وظلّ هتلر حتى بعد وصوله دست الحكم وبعد اندلاع الحرب العظمى الثانية يحيي ذكرى الوقعة كل سنة فيعود في مساء الثامن من تشرين الثاني الى قاعة البيرة في مونيخ ليخطب في رفاقه من الحرس القديم alte kaempfer (كما يطلق عليهم) الذين ساروا خلف الزعيم إلى ما بدا آنذاك، كارثة مضحكة. وفي عام ١٩٣٥ أمر المستشار هتلر بنبش قبور النازيين الستة عشر الذين سقطوا في المعركة القصيرة وان تستخرج رفاتهم وتوضع في توابيت وأضرحة في (فلدهرنهاله) التي أصبحت مزاراً وطنياً. وقال عنهم هتلر عندما أزاح الستار عن النصب التذكاريّ "أنهم الآن أصبحوا في عداد الألمان الخالدين يثوون هنا لأجل ألمانيا ويحرسون شعبها. هنا يرقدون شاهداً صادقاً على حركتنا". ولم يضف الى هذا، ولم يتذكر أحد من الألمان إنهم أولئك الرجال الذين تخلى عنهم هتلر وتركهم يقضون آجالهم بينما تحامل على نفسه من سقطته على الرصيف وفر هارباً.

في واحد من أيام ذلك الصيف ١٩٢٤، وفي قلعة لاندسبرگ العتيقة التي تقوم متشامخة فوق مجرى نهر "ليخ Lech" حيث كان أدولف هتلر يعامل معاملة الضيف الكريم، وقد افردت له غرفة خاصة تطل على منظر طبيعي رائع. أخرج الزوار الذين تقاطروا لتقديم الولاء له وجلب الهدايا. ثم استدعي التابع الأمين (رودولف هيسّ) الذي عاد الى مونيخ فيما بعد ليتلقى حكمه بالسجن. وبدأ يملي عليه فصلاً بعد فصلٍ من كتابٍ[١٦] يؤلفه.

١٦- قبل وصول (هيسّ) كان (اميل موريس) قد قام بتدوين بعض الفصول التمهيدية وهو مجرم من ارباب السوابق. ومصلح ساعات وأول قائد للحرس النازي المسلّح.

الفصل الرابع

عقلية هتلر وجذور الرايخ الثالث

-١-

اراد هتلر تسمية كتابه "أربع سنوات ونصف سنة من النضال ضدّ الأكاذيب والغباء والجبن" لكن (ماكس أمّان) مدير مطبوعات النازيّ الصلب الرأس الذي اضطلع بمهمة طبعه ونشره ثار على ثقل عنوانه الطويل الذي يعرقل بيعه واختصره الى (كفاحي Mein Kampf) وكان (أمّان) شديد الخيبة لمحتواه فقد توقع أولاً قصة عنصرية شخصية يروي فيها هتلر حكاية نهوضه من عامل خامل الإسم في ڤيينا، الى شخصيّة عالمية ذائعة الصيت. فلم يكن فيه كما رأينا- غير القليل من السيرة. ومنيّ مدير الأمور المالية النازي نفسه ايضاً بقصّة حقيقية لإنقلاب مشرب البيرة مع الدّراما والمخاتلات التي صحبتها مما يجعلها تجتذب القراء وتزيد من مبيعات الكتاب كما كان واثقاً. لكن هتلر كان أمضى ذكاءً من هذا في تلك المسألة وفي وقت كانت خطوط الحزب قد هوت إلى حضيض لايدع له مجالا لنبش الجمر القديم[١]. لذلك تكاد لاتجد كلمة واحدة عن الإنقلاب الفاشل في (كفاحي).

طبع الجزء الأوّل في خريف ١٩٢٥. ويضمّ زهاء أربعمائة صحيفة. وجعل ثمنه إثنا عشر ماركاً (ثلاثة دولارات). وهو تقريباً ضعف ثمن أغلب الكتب التي تصدر في ألمانيا حينذاك. ولم يصبح أوسع الكتب انتشاراً حال صدوره. لقد فخر (أمّان) أن ما بيع منه في السنة الأولى ثلاثاً وعشرين ألف نسخة وأن كمية البيع استمرت في الأرتفاع - وهو زعم كانت الدوائر المعادية للنازيين تشك في صحته.

وكان لضبط الحلفاء في ١٩٤٥ سجلات حسابات (إير ڤرلاگ Eher Verlag) دار النشر النازية، الفضل في ظهور الحقائق عن المبيعات الفعلية لـ(كفاحي). بيع من الكتاب في ١٩٢٥ (٩٤٧٣) نسخة. وتناقص عدد المبيعات في السنوات التالية الثلاث بإطّراد. فوصلت الى ٦٩١٣ نسخة في عام ١٩٢٦ وهبطت الى ٥٦٠٧ في ١٩٢٧ ولم يبع منه غير ٣٠١٥ في ١٩٢٨، على أساس مجلدين. وارتفع الرقم في ١٩٢٩ الى ٧٦٦٤ نسخة. وتصاعد بصعود نجم الحزب النازي في ١٩٣٠

١-كتب في ختام المجلد الثاني يقول: "من العبث أن تفتح جراح كادت تندمل... من العبث التنديد برجال هم في اعماق قلوبهم - مخلصون لأوطانهم لايقلون حباً بها عن الآخرين. من العبث التحدث عن جريمة رجال اساؤا الفهم أو فشلوا في إدراك السبيل المشترك" ويبدو هذا تسامحاً غير متوقع من شخص حقود كهتلر، تجاه أولئك الذين سحقوا ثورته وأرسلوه الى السجن. وبالنظر الى ما حصل فما بعد لـ(كاهر) والآخرين الذين خذلوه، كان ذلك أكثر من مظهر لقوة الإرادة وضبط النفس مؤقت لأسباب تاكتيكية. وعلى اية حال، فقد أبى أن يتهاتر ويتراشق التهم.

عندما ظهرت طبعة رخيصة منه بمجلدٍ واحدٍ ثمنه ثمانية ماركات. فبلغ ما بيع منه ٥٤٠٨٦ نسخة، وانخفض الرقم في السنة التالية الى ٥٠٨٠٨ نسخة. ثم قفز البيع في ١٩٣٢ قفزة واسعة الى ٩٠٣٥١ نسخة.

وباتت حقوق امتياز هتلر فيه- وهي مصدر دخله الأساسي منذ ١٩٢٥ فصاعداً - تدر عليه دخلاً كبيراً اذا ما قيست بالسنوات السبع السالفة. على ان هذا لايعد شيئاً مذكوراً اذا قورن بدخله منه، ابتداءً من العام ١٩٣٣ عند صيرورته مستشاراً. ففي أول سنة بيع من (كفاحي) ميلون نسخة وحصل هتلر على نسبة من الارباح بلغت أكثر من مليون مارك (بعد ان زيدت من ١٠٪ الى ١٥٪ في الأول من كانون الثاني ١٩٣٣) مما جعله أكبر المؤلفين دخلاً في ألمانيا ومليونيراً لأول مرة[٢].

وبإستثناء الكتاب المقدس، لم ينتشر كتاب خلال الحكم النازي كما انتشر (كفاحي). تشتريه ربات البيوت ليشعرن بالأمان حين يوجد بين اثاث الدار. ويهدى نسخة منه للعريسين بمناسبة زواجهما بصورة تكاد تكون إلزامية إن لم تكن سياسية ايضاً، ويكاد كل فتى يتسلم نسخة منه عند التخرج في أيّ مدرسة. ووصل عدد ما بيع منه في ١٩٤٠ أيّ بعد مرور سنة واحدة على نشوب الحرب العالمية الثانية ما يربو على ستة ملايين في ألمانيا وحدها[٣] وقراءته ليس شرطاً أو فرضاً على كل شارٍ ألمانيّ. فقد سمعت عدة نازيين جريئين يشكون صعوبة مطالعته ويقرّ عدد ليس بالقليل، سرّاً، انهم لم يستطيعوا ارغام انفسهم على انهاء صفحاته الإثنين والثمانين والسبعمائة الخاوية الجوفاء. لكن من المسلّم به ان كثيراً من الألمان غير النازيين كانوا قد قرأوا محتواه قبل ١٩٣٣. وان الساسة الأجانب في سائر انحاء العالم تتبعوا ما جاء فيه بدقةٍ عندما كان في الزمن، بقية. فربما انتبهوا وأنقذوا العالم وألمانيا من الكارثة. يمكنك أن توجه الى هتلر ما تشاء من تهم لكنك لاتستطيع ان توجه اليه تهمة واحدة، تهمة استغفالك أو مفاجأتك. إذ لا وجه لاتهامه بعدم ايضاحه (كتابةً)، الشكل الذي يريده لألمانيا إن قدر له تسلم مقاليد الحكم وهيئة العالم الذي يريد أن يصورها بعد الفتح الألماني. ان خارطة تصميم الرايخ الثالث، وأكثر منها النظام البربري الذي طبقه في أوروپا المحتلة أيام النصر قد خطط في دفتي هذا الكتاب، بتفصيل واسهاب وقسوة تقشعر منها الابدان.

رأينا ان آراء هتلر الأساسية تكونت في السنوات الأولى من عقده الثالث في ڤيينا. وهو يعترف بأنه لم يغير كثيراً منها[٤] فيما بعد وبتركه النمسا الى ألمانيا في ١٩١٣ وهو في الثالثة والعشرين كان الشعور القوميّ الألماني يلهب كيانه ويملك عليه مذاهبه وفي نفسه كره عميق للديمقراطية والماركسيّين واليهود مع إيمان ثابت لايتزعزع بأن العناية الالهية اختارت الآريين -ولا سّيما الألمان- ليكونوا أسياد العالم.

وبسط في كفاحي وجهات نظره. واتخذها حلولاً نهائية لمشكلة إعادة ألمانيا المغلوبة المضطربة الحال

٢- كان لهتلر كأي كاتب آخر متاعبه مع محصل ضريبة الدخل. على الاقل قبل صيرورته دكتاتوراً كما سنرى.

٣- الارقام مقتبسة من دراسة عن مؤسسة ايرواخ للنشر وأحوالها المالية بقلم الأستاذ اورون هيل Oronjomes Hale نشرت في المجلة التاريخية الأمريكية في عدد تموز ١٩٥٥ بعنوان "أدولف هتلر دافع الضريبة".

٤- انظر ما سبق.

الى مكان تحت الشمس أعظم بكثير مما كانت تحتله في السابق، ليس هذا وحده بل إقامة نوع جديد من الدولة، تبنى على القوميّة والعنصر وتحتضن كُلّ الألمان الذين يعيشون خارج الرايخ وتقيم دعائم دكتاتورية الزعيم المطلقة (أي نفسه) مع زمرة من الزعماء والقادة يتلقون أوامرهم من الأعلى وينقلونها الى قادتهم. على ذلك فان الكتاب يتضمن أولاً تخطيطاً لدولة ألمانيا المقبلة. والوسائل التي تتوسل بها لتصبح يوماً ما "سيدّة العالم" كما اثبته في آخر صفحة منه ويحوي ثانياً وجهة نظر أو مفهومٍ للحياة، أو Neltanschauang بإستخدامنا كلمة هتلر الألمانية المفضلة. هذه النظرة في الحياة تبدو لعقل إنسان القرن العشرين السوي هذياناً عجيباً اخترعه مجنون فج لم يصب من الثقافة شيئاً. وما جعلها على جانب من الأهمية اعتناق هذه الملايين من الألمان لها الى حد التعصب. وإن كانت قد أدت فعلاً إلى دمارهم التام فهي كذلك أدت الى دمار ملايين عديدة من الابرياء الأطهار من أبناء البشرية داخل ألمانيا، وخارجها على الأخص.

والآن كيف يتسنى لدولة الرايخ الجديد استعادة مركزها بين القوى الكبيرة في العالم ثم كيف تمضي في سبيلها لسيادة العالم؟ أطال هتلر الفكر في هذا السؤال. في الجزء الأول الذي كتب معظمه أثناء فترة سجنه سنة ١٩٢٤ ثم عاد اليه بكثير من الإسهاب والاطالة في الجزء الثاني الذي فرغ منه في ١٩٢٦.

بالدرجة الأولى بجب أن يصفى الحساب مع فرنسا "عدو الشعب الألماني القتال الذي لايرحم" قال أن هدف فرنسا كان دوماً ابقاء "ألمانيا ممزقة مقطعة الاوصال... نثاراً من الدول الصغيرة" وإضاف يقول: "وهذا منطقي ولو كنت فرنسياً... فلن أعمل ولايمكنني أن أعمل خلاف ما عمله كليمنصو" لذلك يجب أن تحصل تصفية حساب فعّالة مع فرنسا... كفاح حاسم ختامي... وعندئذ فقط سنكون قادرين على إنهاء الخصام الأبدي غير المثمر ابداً، بيننا وبين فرنسا: مقترحين مسبقاً بالطبع أن ألمانيا ترى في الواقع أن سحق فرنسا هو الوسيلة الوحيدة التي ستعينها أخيراً على فسح مجال التوسع في أماكن أخرى أمام الشعب الألماني(٥)".

التوسع في اماكن أخرى؟ أين؟ بهذا الأسلوب يصل هتلر الى نواة آرائه في سياسة الألمان الخارجية التي حاول انتهاجها بكل امانة عند أصبح حاكماً للرايخ. فقال بكل صراحة أن على ألمانيا أن تتوسع في الشرق – في الغالب حساب على روسيا.

وافاض هتلر في شرح هذه المسألة مسألة المجال الحيوي (ليبنزراوم Lebensraum) في الجزء الأول من كفاحي. وهو موضوع ظل يراود ذهنه الى آخر نسمة من حياته. قال أن إمبراطورية هوهنزلرن اخطأت في الحصول على مستعمرات في افريقيا "إن سياسة توسيع التخوم باضافة الارض لاتتم في (الكاميرون) بل في أوروپا لا غيرها في هذا الزمن" لكن تربة أوروپا قد شغلت بالبشر منذ وقت طويل. وهذا مايسلم به هتلر "لكن تربة أوروپا هذه لم تحتجزها الطبيعة لتملكيها لأي شعب معين أو أمة في المستقبل من الزمن. بالعكس، فهذه التربة هي للأمة التي تملك القوة على حيازتها" ماذا

٥- المقتبسات ما بين قوسين من كفاحي الص ٦١٩، ٦٧٢، ٦٧٤

سيكون الموقف لو اعترض واضعو اليد الحاليون على ذلك؟ "عندئذ يسري مفعول قانون حفظ النوع؛ وما لايمكن أن يعطى بالأساليب الودية. ينزع عنوة واقتداراً بقبضة اليد[٦] واغتنام اراض جديدة – "ليس ممكناً إلاّ من ناحية الشرق... فان نُشدت أرض في أوروبا فمن الممكن الحصول عليها واسعةً متراميةً على حساب روسيا فحسب وهذا يعني أن الرايخ الجديد سوف يلجأ للمرة الثانية الى سلوك سبيل (الفرسان التيوتون) القدماء للحصول بحدّ السيف الألماني على حقول للمحراث الألماني والخبز الأمّة اليومي[٧] وعاد هتلر الى الموضوع في الجزء الثاني كأنما كان شرحه في الجزء الأول يشوبه غموض: إن مجالاً واسعاً كافياً على هذه الأرض يضمن للأمة حرية الوجود... وبدون أيّ إعتبار للتقاليد والأغراض يجب {على الحركة القومية الإشتراكية} أن تجد في نفسها الجرأة لتجمع شعبنا وتعبيء قوته للتقدم في الطريق الذي يؤدي بهذه الأمة الى الخروج من مجال عيشها الضيق الحالي الى أرض جديدة وتربة جديدة... إن الحركة القومية الإشتراكية يجب أن تناضل لمحو عدم التكافؤ بين كثافة نفوسنا ومساحة أراضينا. إذا ما نظر الى الأخيرة بوصفها مصدر طعام فضلاً عن كونها قاعدة أساسية للقوة السياسية... علينا أن نظل متمسكين بأهدافنا بشدة... حتى نحصل للشعب الألماني على الأرض والتربة التي يستحقونها[٨].

كم يحتاج ويستحق الشعب الألماني من الأرض؟ يقول هتلر مزدرياً أن البرجوازية "التي لاتملك فكرة سياسية خلاقة بخصوص المستقبل القومي" كانت وما فتئت تنادي بإعادة حدودألمانيا للعام ١٩١٤.

"إن طلب إعادة حدود العام ١٩١٤ هو سخف سياسي، دعوته وآثاره يجعلانه يبدو أشبه بالجريمة، وبغض النظر عن أن حدود الرايخ في ١٩١٤ لم تكن منطقية أبداً. فهي في الواقع ليست كاملة من ناحية إستيعابها كل الشعب الألماني وليست معقولة من ناحية الوضع الجغرافي العسكري. ولم تكن نتيجة لعمل سياسي مدروس لكنها حدود مؤقتة مائعة في خضم الكفاح السياسي الذي لم ينته بعد. بهذا الحق نفسه وبأعظم الحق في مسائل كثيرة تجابهنا– علينا أن نلتقط (سنةً نموزجيةً) أخرى للتاريخ الألماني. وان نعلن أن إعادة الحال على ماكان عليه في تلك الأزمان هو الغاية في السياسة الخارجية[٩].

و(سنة هتلر النموذجيّة) قد تعود بنا الى ما قبل ستمائة سنة تقريباً عندما كان الألمان يدفعون السلاف الى الشرق. يجب أن يستأنف الإندفاع نحو الشرق "نحن اليوم نعدّ ثمانين مليون ألماني في أوروبا؛ وهذه السياسة الخارجية لايمكن ان تعد صائبة. إلا ّبوجود مائتين وخمسين مليون ألماني في هذه القارة بعد قرن من الزمن"[١٠]. كلهم ضمن حدود الرايخ الجديد الموسع.

شعوب أخرى يجب أن تفسح المجال لهذا العدد الكبير من الألمان– فمن هي هذه الشعوب الأخرى؟

٦- المرجع السالف الص ١٣٨-١٣٩.
٧- المرجع السالف ص١٤٠.
٨- المرجع السالف الص ٦٤٣، ٦٤٦، ٦٥٢
٩- المرجع السالف ص ٦٤٩
١٠- المرجع السالف ٦٧٥.

"ولهذا سنقوم نحن القوميين الإشتراكيين... بوصل ما انقطع قبل ستمائة عام. نوقف الحركة الألمانية الدائمة الى الجنوب والغرب ونلفت أنظارنا الى أرض الشرق."

"وإن تكلمنا عن أرضٍ في أوروبا اليوم. فبإمكاننا أن نضع روسيا ودويلات حدودها التابعة في اذهاننا بصورة رئيسة[١١]".

ويرى هتلر ان القدر كان يمالىء ألمانيا بهذا الخصوص. فقد سلم روسيا للشيوعيين الذين- كما يقول- يقومون في الواقع بتسليمها الى اليهود. وهو يهتف قائلاً "ان الإمبراطورية الجبّارة في الشرق قد تمّ نضجها للإنهيار ونهاية حكم اليهود لروسيا هو ايضاً نهاية روسيا كدولة". ويستطرد هتلر بأن سهوب الشرق العظمى يمكن الاستيلاء عليها بسرعة وسهولة عند إنهيار روسيا دون الاضطرار الى تضحية دم ألماني كثير.

أبوسع أحد ان يحتجّ بأن المخطط الهندسي المبسوط هنا بإعتباره غير دقيق أو واضح؟ سيقضى على فرنسا. لكن هذا أمرٌ ثانويّ بالنسبة الى إندفاع الألمان نحو الشرق. فبالأول يستولى على الأراضي المجاورة من ناحية الشرق، التي يسكنها الألمان منذ القديم. فما هي؟ لاشك انها النمسا وارض السوديت في چيكوسلوڤاكيا والجزء الغربيّ من پولندا بضمنه الدانزگ. وبعدها يأتي دور روسيا نفسها. فلماذا اذن اصيب العالم بدهشةٍ عندما شرع المستشار هتلر بعد سنوات قليلة في تحقيق هذه الغايات؟

وعن طبيعة شكل الدولة النازية المقبلة. كانت آراء هتلر في (كفاحي) أقلّ وضوحاً. على انه أعلن بجلاء انه لن يأخذ "بالسخافات الديمقراطية" وأن الرايخ الثالث سيحكم بمبدأ الزعامة Fuehrer prinzip واعنى أنه سيكون حكماً دكتاتورياً. وليس ثم شيء عن المسائل الإقتصادية في الكتاب تقريباً لأن موضوع الإقتصاد يضجر هتلر وهو لم يهتمّ بمحاولة تعلم شيء منه أكثر من التلهيّ بآراء (گوتفريد فيدر) الجوفاء، ذلك الدّجال الذي يعارض في "رقّ الفائض". إن ما كان يهتم به هتلر هو السلطان السياسيّ. أمّا الإقتصاد فيمكن أن يدبرّ أمره تدبيراً تلقائياً.

"الدّولة لاتلتزم أبداً بمفهوم محددّ إقتصادي. ولا بتطور إقتصادي... الدولة هي جهاز قوميّ. وليست منظمة إقتصادية... إن قوة الدولة الكامنة لاتتلائم مع الرفاه الإقتصادي المزعوم إلاّ في أندر الحالات. ويبدو في ما لايحصى من الحالات أن الرفاه دليل على اقتراب الدولة من الإنهيار... وتبرهن پروسيا بدقة عجيبة على أن ما يبني الدولة ليست الميزات المادّية وحدها بل الفضائل الروحية أيضاً وبحماية من هذين فقط تزدهر الحياة الإقتصادية. عندما يكون في ألمانيا إندفاع شديد للقوى السياسية تبدأ الأحوال الإقتصاديّة بالتحسن، كقاعدةٍ ثابتة دائمة. وعندما يصبح الإقتصاد مدار حياة شعبنا وغايته، فيخنق الفضائل الرفيعة، تنهار الدولة وتجرّ معها الحياة الإقتصاديّة الى الهاوية... لم تنشأ قطّ دولة بوسائل إقتصادية سلميّة[١٢]..."

١١- المرجع السالف ص٦٥٤.
١٢- المرجع السالف الص: ١٥٠-١٥٣.

لذلك "لا يمكن تطبيق سياسة إقتصادية إلاّ بوجود السيف ولا يوجد تصنيع بدون القوة..." كما جاء في خطبة له في مونيخ ١٩٢٣. وأكثر من هذه الفلسفة الغامضة السخيفة وملاحظة عابرة في (كفاحي) عن "الغرف الإقتصادية" و"غرف المزارع الكبيرة" و"البرلمان الإقتصادي المركزيّ" التي "تبقي الإقتصاد القوميّ في حالة العمل"، لايدلي هتلر برأي واحد عن الاسس الإقتصادية للرايخ الثالث.

ومع ان اسم الحزب النازي نفسه يعلنه حزباً "إشتراكياً" فقد كان هتلر أكثر غموضاً في نوع "الإشتراكية" التي يدخرها لألمانيا الجديدة. وليس ذلك بالمستغرب نظراً الى تعريفه "الإشتراكية" في خطبة له يوم ٢٨ تموز ١٩٢٢ قال:

"على كل من جعل القضية القومية قضيته ان يصل بها الى الحدّ الذي يدرك انه لايوجد مثل أعلى أرفع وأجلّ من سؤدد أمته. ومن منّا تفهم نشيدنا الوطني العظيم (ألمانيا فوق الجميع: Deutsch-landaeber Alles، لن يجد في عينه شيئاً أسمى من ألمانيا – شعباً وتربةً– ذلكم هو الإشتراكي الحقّ!"[١٣]

رغم كل الارشادات الفنية والادبية التي بذلت لهتلر في تأليفه، ومع قيام ثلاثة من المساعدين على الاقل بتشذيب وتعديل فصوله، فقد ظلّ هتلر يقفز قفزاً تائهاً من موضوع الى آخر ولا ينكر ان (هيس) الذي قام بتدوين معظم فصول الكتاب في (لاندسبرگ) أولاً وفي منزل (ڤاخنفلد) قرب برختسگادن أخيراً، بذل أقصى ما في وسعه لسبك جمل المخطوطة إلاّ أنّه لم يرض الزعيم. وكان أكثر مَن بذل مجهوداً في هذا الصدد القسّ (برنهارد شتمفله Bernhard Stempfle) العضو السابق في الاخوية الرهبانية الهيرونيمية Hieronymite والصحافي اللاسامي ذو الصيت السيء في باڤاريا. هذا القسّ الغريب الذي سنسمع عنه في الصحائف التالية من تاريخنا، تولّى تصحيح نحو هتلر وصرفه السيء وقوّم من لغته وأسلوبه على قدر ما تمكنّ، ورمج فقرات قليلة منه، أفلح في اقناع مؤلفه بأنها خسارة من الناحية السياسيّة. أما مشاوره الثالث فكان (جوزيف چيرني Josef Czerny) الچيكي الأصل الذي عمل في صحيفة النازي (فولكشر بيوباختر) وقد جذبه الى هتلر شعره المعادي لليهود. كان (چيرني) المصحح المشرف للجزء الأول بطبعته الثانية، فتولى حذف كلمات وعبارات نابية منه أو أجرى فيها التعديل، كذلك قام بتنقيح وتصحيح اخطاء الطباعة في المجلد الثاني بدقة وعناية.

مع هذا كلّه فلم ينج (كفاحي) من المتاهات والشوارد والنقلات الفجائية. لقد أصرّ هتلر على حشر آرائه كيفما اتفق في أيّ موضوع يخطر بالبال: فمن الحضارة الى الثقافة الى المرسح الى السينما الى الفن الى الكاريكاتور والأدب والتاريخ والجنس والزواج والفجور والسفلس. وفي موضوع السفلس تجده يخصص عشر صفحات تارزة ويعلن "أن أول واجبات الامة– ولا أحد الواجبات" أن يتم القضاء على هذا المرض الوبيل" وطلب ان تعبأ له كل وسائل الدعاية في الوطن ويقول "كل شيء يتوقف على حل هذه المعضلة"، ويجب ان تحل آفة الدعارة بتسهيل الزواج المبكر. وقدّم قاعدة لتحسين نسل الرايخ الثالث بتشديده على ان الزواج لايكون غاية بحد ذاته لكن يجب ان يكون وسيلة للهدف الأسمى وهو

١٣– "خطب أدولف هتلر Adolf Hitlers Reden ص٣٢ اقتباس بوللوك: المرجع السالف (٦٨ص).

تكثير النوع وزيادة النسل الآري ذلك هو معنى الزواج وغايته[١٤].

وهكذا فبهذا التنويه يحفظ النوع، ونقاوة العنصر تأتي الى وجهة النظر الرئيسة الثانية: نظرة هتلر الى الحياة (ڤالتنشوونگ). يرى بعض المؤرخين ولاسيّما في انكلترا انها شكل مشوّه للداروينية على انها في الحقيقة كما سنرى- تمتد بجذورها العميقة الى التاريخ الألماني الموغل واتجاهاته الفكرية. رأى هتلر (كداروين) وعدد كبيرٍ من الفلاسفة الألمان والمؤرخين والملوك والقادة والساسة، ان الحياة هي كفاحٌ أبديّ والعالم هو مثل الغابة يعيش منها الأصلح ويحكمها الأقوى- "حياة فيها يعيش مخلوق على مخلوق وحيث يفرض موت الأضعف حياة الأقوى فرضاً لازماً".

وقد طرز (كفاحي) بمثل هذه العبارات: "في النهاية لاتتغلب إلاّ الرغبة في حفظ النوع... لقد شيدت عظمة النوع البشري في الكفاح الأبدي، وفي السلم الابدي يتمّ فناؤه... الطبيعة... تضع المخلوقات الحيّة على هذه الكرة الأرضية وترقب تطاحن القوى الحرّ. ثم تمنح حق السيادة والتفوّق لإبنها المفضلّ، الأقوى شجاعةً ومثابرة... الأقوى يجب ان يسود ولا يستوي مع الاضعف فيضحي بعظمته. والضعيف الخائر منذ ولادته هو وحده الذي يجد ذلك قسوةً" وحفظ التراث الثقافي عند هتلر "مرتبط بالقانون الثابت الجامد قانون الضرورة وحق الغلبة للأحسن والأقوى في العالم. وأولئك الذين يريدون العيش عليهم أن يحاربوا ومن لايريد القتال في هذه الدنيا دنيا الكفاح الأبدي، لايستحق الحياة. حتى لو كان هذا الأمر قاسياً فهذا حكمه ولا تبديل له[١٥]!

من هو "إبن الطبيعة المفضّل، الأقوى شجاعة ومثابرة" هذا الذي حبته العناية الإلهية "بحقّ التفوق"؟ هو الآريّ. ها هنا في (كفاحي) نأتي الى نواة الفكرة النازية في التفوق العنصريّ، الى مفهوم العنصر السيّد الذي بني عليه الرايخ الثالث ونظام هتلر الجديد في أوروپا.

"كُلّ الحضارة البشرية. كُلّ ثمرات الفنّ والعلم والتكنولوجيا التي نراها أمامنا اليوم تكاد تكون المنتوج الخلاق للجنس الأري. وهذه الحقيقة بالذات تقرّر الاستنتاج الذي له ما يبرره وهو أنه (اي الجنس الآري) هو وحده مؤسس البشريّة العالية. ولذلك فهو يمثل كل المفاهيم والمدلولات التي تعكسها لنا كلمة "رجل. فالآري هو برميثيوس Prometheus البشرية الذي انبثقت من جبهته الوضاءة شرارة العبقرية الإلهيّة في كل الأزمان، وستبقى متقدة متجددة بتلك النار، نار المعرفة التي تضيء ليل الأسرار الصامت وبهذا تدفع الرجل الى ارتقاء طريق السيادة على الكائنات الأخرى في هذه الأرض... انه هو الذي وضع الأسس وأقام جدران كلّ بناء عظيم في الحضارة البشرية[١٦].

وكيف يحقق الآري كُلّ هذا ويصبح متفوقاً؟ دونك جواب هتلر: "بأن يطأ الآخرين". ان هتلر ككثير من المفكرين الألمان من القرن التاسع عشر يظهر شيئاً من الساديّة ومن مناقضتها الماسوشية، والمتدارسون الأجانب للروحية الألمانية، يصعب عليهم فهم علة وجودهما.

١٤- كفاحي: الص ٢٤٧-٢٥٣.
١٥- المرجع السالف الص ١٣٤-١٣٥، ٢٨٥، ٢٨٩.
١٦- المرجع السالف ص٢٩٠.

"وعلى هذا ولأجل إقامة حضارة أسمى كان وجود أنواع منحطة من البشر أمراً حيوياً كتمهيد سابق... ومن المؤكد أن أول حضارة بشرية اعتمدت على إستخدام المخلوقات البشرية المنحطة أكثر من إعتمادها على الحيوانات المدجنة. ولم تلق الحيوانات المصير نفسه إلاّ بعد استرقاق الأجناس البشرية السفلى. ففي مبدأ الأمر جَرَّ المحارب المغلوب المحراث – وبعده مباشرة جاء الحصان. وبناء عليه فلم يكن بمحض الصدفة أن تقوم أولى الحضارات في بقاع أخضع الآريّ تلك المخلوقات لإرادته... أثناء اصطدامه مع الشعوب الأحط منه– وطالما يبقى محافظاً بقسوةٍ على تفوقه الرفيع سيظلّ هو السيّد فضلاً عن بقائه حارساً للحضارة ومضيفاً اليها(١٧)". ثم حدث شيء رأى فيه هتلر إنذاراً للألمان:

"ما ان يبدأ الشعب الخاضع المسود يرفع نفسه الى الأعلى ليقترب من مستوى سيّده الغالب (ومن سماته أنه يبتدي مثلاً باستعمال لغة السيد) حتى تتكسر السدود بين السيد وبين الخادم."

هناك شيء آخر أدهى وأخطر من مشاطرته لغة السيّد: "ينزل الآري عن نقاوة دمه، وبذلك يفقد مسكنه في الفردوس الذي صنعه لنفسه. ويغرق في الامتزاج العنصريّ ويفقد بالتدريج حضارته الخلاّقة".

يرى الزعيم النازي الشاب في هذا خطأً جوهرياً حاسماً.

"شائبة الدم واختلاطهُ، وما ينجم عنه من تدنٍ في المستوى العنصريّ هو السبب الوحيد لاضمحلال الحضارات القديمة لأن الرجال لايلحق بهم الفناء كنتيجةٍ لهزائم الحروب. لكن بضياع قوة المقاومة التي لايضمن إستمراريتها إلاّ الدم النقي. وكل من ليس هو من عنصر طيب في هذا العالم، انما هو حثالةٌ(١٨).

واليهود والسلاف حثالات. وبصيرورته دكتاتوراً وفاتحاً، عمد الى منع زواج الألماني بأي شخصٍ من هذه الاجناس مع أن تلميذاً في الصف الرابع الابتدائي كان يستطيع أن يخبره بوجود كمية كبيرة من الدم السلافي في الألمان وبخاصّة أولئك الذين يسكنون الاقاليم الشرقية. وعلينا الاقرار أن هتلر كان عند وعده في تحقيق آرائه العنصريّة. ففي نظامه الجديد الذي بدأ بفرضه على السلاف في الشرق، وعلى الچيك والپولنديين والروس. كان على هؤلاء أن يصبحوا لأسيادهم الألمان قاطعي اخشاب وماتحي مياه– وان يبقوا كذلك إن قدر البقاء للنظام الجديد الشاذ. كانت خطوة سهلة لرجل كهتلر جاهل في التاريخ والانثروپولوجيا (علم الإنسان) أن يجعل الألمان آريي العصر– وبالتالي العنصر السيد فالألمان بنظر هتلر "أسمى عنصر بشريّ على وجه البسيطة" وسيبقى كذلك إن ظلّ "منصرفاً ليس الى مجرّد تربية أنواع من الكلاب والخيل والقطط بل أيضاً الى المحافظة بكلّ عناية على نقاوة دمه(١٩)".

إن انشغال فكر هتلر بالعنصريّة يؤدي به الى الدفاع عن فكرة "الدولة القوميّة"، ترى ما هي الدولة

١٧- المرجع السالف الص ٢٩٥-٢٩٦

١٨- المرجع السالف ص٢٩٦ لهذه الفقرة والفقرتين اللتين سبقتاهما.

١٩- المرجع السالف ص٤٦٤.

القومية بالضبط؟ وكيف كان يريد أن تكون؟ اقولها بكلّ صراحة، أني لم أفهمهما فهماً واضحاً رغم تكرار قراءاتي في (كفاحي) وسماعي عشرات الخطب التي ألقاها (الزعيم) نفسه حول الموضوع مع اني سمعت أكثر من مرة أن الدكتاتور يصرح بأنها البؤرة التي يحوم حولها كل تفكيره. لايمكن ترجمة لفظة Volk الألمانية ترجمة دقيقة. وتترجم عادة بـ(قوم) أو(شعب) لكن فيها باللغة الألمانية معنى أعمق، مختلفاً بعض الشيء يتضمن اشارةً الى مجتمع بدائي قبليّ يقوم على رابطة الدم والتراب. وقد عانى هتلر في (كفاحي) مشقةً كبيرة في محاولته تعريف الدولة القوميّة Folkish State وأعلن مثلاً في الصحيفة (٣٧٩) أنه سيوضح المفهوم القومي، لكي ينكص في الحال عن أيّ توضيح ويمضي تائهاً في دروب من المواضيع ليعود أخيراً بعد عدة صفحات ويدخل في صلب القضية:

"وخلافاً [للعالم البرجوازي، والعالم الماركسي-اليهودي] تجد الفلسفة القوميّة أهمية الجنس البشريّ في العناصر القوميّة الأوليّة. وتجد في الدولة لا أكثر من وسيلة لغايةٍ وتتأول غايتها في حفظ الوجود العنصريّ للمرء. لذلك فهي لاتؤمن قطّ بالمساواة بين الأقوام. لكنها تعترف -لوجود هذا الاختلاف- بقيمتها العليا أو الدنيا وتشعر بواجبها في تحقيق إنتصار الأصلح والأقوى. وتتطلب خضوع الأحّط والأضعف بالنظر الى الإرادة الأبدية التي تحكم هذا الكون. ولهذا فهي من حيث المبدأ تخدم الفكرة الأساسية الارستقراطية للطبيعة وتؤمن بثبات هذا القانون وتحكمه بآخر فرد، وأنها لاترى القيمة المتفاوتة للأقوام وحدها بل ترى أيضاً القيمة المتفاوتة للأفراد انفسهم. من الكتلة الشعبية تستخلص أهميّة شخصية الفرد. وبناءً عليه... تكون ذات أثر تنظيميّ. انها تعتقد بضرورة المثل الأعلى للبشرية الذي ترى فيه وحدهُ مقدمةً لوجود الجنس البشريّ إلاّ انها لاتستطيع أن تمنح حق الوجود حتى لفكرة أخلاقية إن مثلت خطراً على الحياة القومية لحملة الأخلاق العليا. ففي عالم مولّد نغلٍ، يشوبه العنصر الزنجيّ ستضيع الى أبد الآبدين كل مفاهيم الإنسانية في الجمال والجلال فضلاً كُلّ الأفكار الخاصة بمستقبل جنسنا البشري الرفيع.

ولذلك تتصل الفلسفة القومية للحياة، باعمق إرادة الطبيعة وما دامت تحافظ على التطاحن الحرّ فلا بُدّ ان يؤدي الى تناسل متبادل مستمرّ أعلى درجة فأعلى حتى نصل أخيراً إلى اصلح البشرية معدناً. وبعد الحصول على هذه الأرض سيكون المجال حُرّاً للقيام بالنشاط في املاكٍ يقع جزء منها فوقه، وجزء منها خارجه.

ونشعر جميعاً بأن البشرية ستواجه في المستقبل البعيد مشاكل لايستوي على حلّها إلاّ أرفع عنصر بشري هو "الجنس السيد" مدعماً بوسائل وامكانات الكرة الأرضية بأسرها[٢٠]".

ويعلن هتلر بعد هذه الفقرة بقليل: "لذلك كان أسمى ما تهتم به الدولة القوميّة من الغايات: هو حفظ العناصر الاصليّة العرقيّة التي تهب الحضارة وتخلق الجمال. وتعززّ مكانة جنس بشريّ رفيع[٢١]".

٢٠- المرجع السالف الص ٣٨٣-٣٨٤.
٢١- المرجع السالف ص٣٩٤.

ويعود به هذا الى موضوع تحسين النسل ثانيةً: "الدولة القومية... يجب أن تضع العرق في مركز كل الحياة... يجب أن تهتم بحفظه نقياً... يجب ألاّ تغفل عن انجاب الأطفال من اناس أصحّاء فقط. وأن هناك معرةً واحدة: أن ينجب المرء نسلاً رغم سقمه وعيوبه الخلقية. وهناك أرفع شرفٍ وهو ان لايفعل ذلك وبعكس ذلك يجب ان يعتبر الضنّ بالاطفال على الأمة عملاً يستوجب التعنيف واللوم. وهنا يجب أن تعمل الدولة [القومية] عمل الوصيّ على المستقبل الألفي الأسعد. حيث لاتعتبر انانية الفرد ولا رغباته الشخصية شيئاً، ويجب أن يتم اخضاعها... وعلى الدولة القومية والحالة هذه أن تبدأ برفع الزواج عن مستوى التدنيس المستمرّ للعرق، وان تمنحه مستوى قدسيّة عملٍ يتطلّب منه إنجاب نسخ من صورة اللّه، لا غرائب من المخلوقات تقف بين الإنسان والقرد(٢٢).

إن مفاهيم هتلر العجيبة عن الدولة القوميّة تؤدي الى عددٍ كبيرٍ من التأويلات اللفظيّة التي لو أتبعت (كما يقول) لجعلت الألمان سادة المعمورة – لقد أصبحت مسألة السيادة الألمانية شغله الشاغل. وفي نقطةٍ أخرى رأى أن فشل العرق الألماني في الحفاظ على "نقاء النطفة"، "جعلنا نحرم من السيطرة على العالم. لو ملك الشعب الألماني وحدة القطيع تلك التي تمتع بها غيرهم من الامم لكان الرايخ الألماني اليوم سيد الكرة الارضية(٢٣).

بلاشك. وما دامت الدولة القومية يجب أن تبنى على العرق "فمن الضروري أن يحتضن الرايخ الألماني كلّ الألمان." وتلك هي حجر الزاوية في منطقه. وهي الفكرة التي لم ينسها ولم يتلكأ في العمل لها عندما جاء الى الحكم.

وما دامت الدولة القومية يجب أن تبنى على "فكرة عالم الطبيعة الارستوقراطية" فهذا يقتضي استبعاد الديمقراطية من الموضوع. وإستبدالها (بمبدأ الزعامة). إن مبدأ زعامة الجيش البروسيّ يجب ان يتبنّاه الرايخ الثالث "سلطة كُلّ قائد على المادون، والمسؤولية للأعلى(٢٤).

"يجب ألاّ يكون ثم قرارات بالأغلبية... وانما اشخاص مسؤولون فحسب... مما لاشكّ فيه أن سيكون لكلّ شخص مشاورون الى جانبه، لكن القرار يتخذه شخصٌ واحد(٢٥)...

هو وحده فقط يملك السلطة والحق في أن يأمر وقد لايكون بالامكان الاستغناء عن البرلمان. لكن مشاوريه سيقدمون آنذاك مشوراتهم فعلاً... لن يحصل أي تصويت في أي مجلس. إنها مؤسسات عاملة وليست مكائن للتصويت. هذا المبدأ مبدأ المسؤولية المطلقة المرتبطة دون قيد أو شرط بالسلطة المطلقة – ستخرّج وتربّي تدريجاً صفوة من الزعماء لايوجد قط مثلهم في عصرنا هذا عصر البرلمانية غيرالمسؤولة(٢٦).

تلك هي آراء أدولف هتلر. صاغها بكلّ غلاظتها المفزعة وهو جالس في سجن لاندسبرگ يرسل

٢٢- المرجع السالف ص٣٩٤.
٢٣- المرجع السالف الص ٤٠٢-٤٠٤.
٢٤- المرجع السالف ص٣٩٦.
٢٥- الخطّ تحت العبارة هو لهتلر بالأصل.
٢٦- المرجع السالف الص ٤٤٩-٤٥٠.

أنظاره الى البستان المزهرة الذي يعلو ضفة نهر ليخ[٢٧]. أو في زمنٍ تالٍ ما بين عامي ١٩٢٥-١٩٢٦، متكئاً على قدمة شرفة حانة مريحة في برختسگادن متطلعاً الى قمم الألب الشمّ في وطنه النمسا. وهو يملي سيلاً من الكلمات على تابعه المخلص (رودولف هيس) ويحلم بالرايخ الثالث الذي سيبنيه على الأسس الضحلة التي رأيناها وسيحكمه بقبضة من حديد. أما انه سيبنيه ويحكمه يوماً ما فهذا ما لم يكن يداخله فيه أيّ شك. ذلك لأن نفسه كانت في إسار شعور محرق برسالةٍ غريبة نجدها في كثير من العباقرة الذين لايبدو وكأنهم نبتوا من بقعةٍ ولم يتكونوا من شيءٍ، عبر العصور والاحقاب. كان سيوحدّ شعباً مختاراً غير موحّدٍ سياسياً. كان سينقّي عرقهم، ويجعلهم أقوياء، وسادة الأرض، أهي داروني‍ية مشوهّة؟ أم خيالات ساديّة؟ أم انانيّة مستهترة؟ أم مَسّ من جنون العظمة؟ megalomania إنها كلها مجتمعة بل هي أكثر من هذا، لأن لعقل هتلر وهواه وكل الضلالات والخبال التي شغلت دماغه المحموم- جذوراً امتدت الى عمقٍ سحيق في تجارب الشعب الألماني وفكره. والواقع أن النازية والرايخ الثالث إنما هما الإستمرار المنطقيّ للتاريخ الألماني.

-٢-

الأصول التاريخيّة للرايخ الثالث

كان من عادتي القدوم في أيام إستعراضات الحزب النازي السنويّة الصاخبة- الى نورمبرگ في مبدأ أيلول، وهناك اجد كثيراً من الباعة الجوالين يبيعون من الناس صورة (پوست كارت) تظهر فيها وجوه (فردريك الأكبر وبسمارك وهندنبرگ وهتلر). وقد كتب في اسفلها هذه العبارة "ما فتحه الملك، صاغه الأمير، ودافع عنه الفيلدمارشال. وأنقذه ووحّده الجنديّ". وهكذا صور هتلر الجندي لا كمنقذ وموحّد لألمانيا فقط، بل كخليفةٍ لهؤلاء الاشخاص المشهورين الذين جعلوا البلاد تصل مراقي العظمة. إن اقحام مسألة إستمرار التاريخ الألماني الذي ختم بحكم هتلر، لم يفقد تأثيره عند الجماهير وتعبير "الرايخ الثالث" نفسه كان يساعد هذا المفهوم ويقويّه. كان الرايخ الأول هو الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي ازدهرت في القرون الوسطى، والرايخ الثاني هو ألمانيا التي وحّدها بسمارك سنة ١٨٧١ بعد أن هزمت پروسيا فرنسا. وكلاهما أضافا مجداً الى الإسم الألماني. اما جمهورية (ڤايمر) على رأي الدعاية النازية فقد مرغت ذلك الاسم الجميل في الوحل فانتشله الرايخ الثالث كما وعد به هتلر تماماً. ولهذا صورت ألمانيا هتلر بأنها التطور المنطقي لكلّ ما مضى قبلها. أو على الاقل لكل ما كان مجيداً.

٢٧- قال هتلر بعد مرور زمن طويل: "لولا سجني لما كتبت كفاحي. فالفترة التي قضيتها سجيناً منحتني فرصة لزيادة التأمل في مختلف الخواطر التي كانت حتى ذلك الوقت مجرد مشاعر باطنيّة... ومنذ ذلك الحين ايضاً اعتقدت بأننا لن نستطيع الوصول الى الحكم بالقوة- وهو شيء لم يفهمه معظم أعواني فقد توفر للدولة الوقت الكافي لتثبيت نفسها وكان بيدها السلاح". (احاديث هتلر السرية ص٢٣٥). هذه الملاحظة أدلى بها أمام عدد من أعوانه في قصر قيادة الجبهة الروسية في ليلة ٣/٤ شباط ١٩٤٢.

لكن المتشرد (الڤيينـي) السابق على خواء رأسه وجهله قد وقف على ما يكفي من وقائع التاريخ ليدرك به أن ألمانيا منيت باخفاقاتٍ في الماضي. اخفاقات يجب ان تقارن بنجاحات في فرنسا وانكلترا ولم ينسَ ان ألمانيا بقيت مجتمعاً مضطرباً مرقعاً يتكون من حوالي ثلاثمائة دويلة مستقلة في نهاية عهد القرون الوسطى تلك القرون التي رأت فرنسا وانكلترا تبرزان في التاريخ دولتين تامّتي الوحدة. هذا النقص في التطور القوميّ قرر بصورة رئيسة سبيل التاريخ الألماني من نهاية القرون الوسطى الى منتصف الطريق في القرن التاسع عشر وجعلها تختلف تمام اختلافٍ عن أيّ شعب كبير من شعوب غربي أوروپا.

ويضاف الى نقص الوحدة السياسيّة ووحدة التاج كارثة النزاع الديني الذي عقب حركة الاصلاح في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ليس في هذا الكتاب مجال لبحث تفصيليّ دقيق عن التأثير العظيم الذي خلفه (مارتن لوثر) الفلاح السكسونيّ الذي أصبح راهباً اوغسطينياً وأضرم نار حركة الاصلاح الديني الألماني واستحدث الطابع الذي دمغ الألمان وتاريخهم. ولنا ان نذكر بصورة عابرة، ان هذا العبقري الشامخ خلف علامته في حياة الألمان. هذا الخصم اللدود الوحشيّ للسامية ومبغض كنيسة روما الذي اجتمع في خلقه العاتي، الكثير الكثير من اطيب الفضائل وأخسّ الرذائل الألمانية. ففيه تجد الفظاظة والتعصب وعدم التسامح والهياج والعنف الى جانب الصدق والسذاجة وحبّ النقد الذاتي والتعلق الشديد بالعلم والموسيقى والشعر والتمسك بالعدل والاستقامة أمام عين الله. كل ذلك خلف آثاره العميقة الحسنة منها والسيئة– مما لم يخلّفه شخص واحدُ آخر سابق له أو لاحق. لقد خلق (لوثر) بمواعظه الدينية وترجمته الرائعة للكتاب المقدس، اللغة الألمانية الحديثة. ولم يكتف أن يخلق في نفوس الألمان وجهة نظر بروتستانتية جديدة في الدين المسيحي بل خلق أيضاً غيرة ألمانية قوميّة، وعلمهم– على الأقل في حدود الدين– تفوق الضمير الفردي الحُرّ. لكن شاء سوء حظّهم ان يتخذ لوثر جانب الأمراء في ثورة الفلاحين تلك الثورة التي كانت له اليد الطولى في بعثها وتأجيجها روحياً. وسبّب تعلقه بالأوتوقراطية السياسيّة– تثبيت دعائم سلطانها المطلق الأقليميّ اللا أباليّ الذي قذف بأغلبية الشعب الألماني الساحقة الى احضان الجوع والفاقة والخمول الفظيع والذلّة. والانكى من هذا كله انه ساعد على ادامة وزيادة حدة الانقسام لا بين الطبقات وحدها بل بين الأسر الحاكمة ومختلف الندوات السياسية للشعب الألماني فأخرت من احتمال توحيد ألمانيا عدة قرون.

وخاتمة الكوارث اناخت على ألمانيا بسبب حروب السنين الثلاثين وصلح وستفاليا Westphalia الذي ختم بها العام ١٦٤٨. لقد كانت ضربة مدّمرة لم تشف منها البلاد شفاءً تاماً أبداً. تلك هي آخر الحروب الدينية الكبرى التي خاضتها أوروپا لكنها تحولت بتفسخها وقبل ان تدنو نهايتها، من صدام بروتستانتي–كاثوليكي الى نزاعات سياسية حادة معقدة بين آل هابسبرگ الكاثوليك النمساويين من جهة، وبين الكاثوليك الفرنسيين البوربون والاسوجيين البروتستانت الملكيين من جهة اخرى. وفي القتال الوحشيّ بينهما، أضحت ألمانيا ساحة المعركة بلقعاً يباباً فقد دمرت المدن ولحق بالريف الخراب الماحق وابيد السكان بحدّ السيف. وقدر أن هذه الحرب الهمجية اهلكت ثلثي مجموع الشعب الألماني.

وكان (صلح وستفاليا) كارثة أخرى لايقل أثرها عن كارثة الحرب بالنسبة الى مستقبل ألمانيا فالأمراء الألمان الذين انحازوا الى جانب السويد وفرنسا، ثبتوا حكاماً بسلطان مطلق على اماراتهم الصغيرة حتى ناهز عددها الثلاثمائة وخمسين امارة وبقي الإمبراطور مجرد حاكم شكليّ بمقدار ما يتعلق بارض ألمانيا. وخنقت روح الاصلاح والعلم التي كانت قد عمت ألمانيا وطغت في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر. في تلك الفترة كانت المدن الكبيرة الحُرّة تتمتع بإستقلال حقيقيّ تام. ولم يعد للإقطاع وجود فيها وازدهرت التجارة والفنون. حتى في الريف، كان الفلاحون الألمان قد ضمنوا لأنفسهم حريات أوسع كثيراً مما لأمثالهم في انكلترا وفرنسا ويمكن القول بلا مماراة أن ألمانيا في مطلع القرن السادس عشر كانت ينبوعاً من ينابيع الحضارة الأوروپية.

وبعد إبرام صلح (وستفاليا) باتت ألمانيا غارقة في حمأة بربرية قياصرة المسقوف (قياصرة موسكو). فأعيد نظام القنانة حتى انه طبق في بقاع لم يكن معروفاً فيها من قبل. وفقدت المدن إستقلالها الذاتي. وبدأ الأمراء في اعتصار واستغلال الفلاحين والشغيلة، بل حتى الطبقة الوسطى البرجاسية Burghers فهؤلاء وضعوا في مرتبة العبودية. وبطل التتبع العلميّ والفنيّ. وكان الحكام الطمّاعون لايحسوّن بأيّ شعور ألماني وطنيّ أو قوميّ ولا يترددون في قمع أيّ مظهر لهما يذرّ قرنه بين رعاياهم. وتوقفت المدنية في ألمانيا توقفاً تاماً وكان الرايخ كما وصفه أحد المؤرخين "مستقراً استقراراً غير طبيعي وعلى مستوى العصر الوسيط من الاضطراب والضعف"[٢٨].

لم تنهض ألمانيا من كبوتها قطّ. وأصبح الرضى بالأوتوقراطية والخضوع الأعمى للطغاة الصغار الذين حكموا بمثابة أمراء فكرة متأصلة في الذهنية الألمانية ولم تفرّخ في ألمانيا فكرة الديمقراطية والحكم بواسطة البرلمان التي تطورت تطوراً سريعاً في انكلترا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وفجرت تفجيراً في فرنسا ١٧٨٩. هذا التأخر السياسي في شعب ألمانيا المنقسم الى عدد كبير من الامارات الصغيرة والمنعزل تمام انعزال عن تيارات الفكر والتقدم الأوروپي الصاعد جعل البلاد الألمانية مفصولةً عن سائر بلاد الغرب وبعيدة عنها بمسافة كبيرة. ولم يوجد نموّ طبيعيّ للشعب. وعلى المرء أن يحفظ ذلك في فكره إن شاء أن يفهم الطريق المهلك الذي اتخذته هذه الأمة فيما بعد ذلك، والانحراف العقلي الذي استقرت عليه وبالأخير صُهر الشعب الألماني وسبك بمحض القوة. وحافظ على وحدته بالعدوان المحض.

تقع پروسيا فيما وراء ضفاف نهر الألبه الشرقية. وفيم بدأت شمس القرن التاسع عشر بالأفول، بعد ان شهد هذا القرن الفشل المؤسف الذي حاق بمحاولة أولئك الأحرار الضعفاء في فرانكفورت ١٨٤٨-١٨٤٩ لخلق ألمانيا ذات مسحة ديمقراطية. تسلمت پروسيا مصائر الشعب الألماني. ظلت هذه الدولة الجرمانية قروناً بعيدة عن المجرى الرئيس للتطور الألماني التاريخي والثقافي. وكادت تبدو وكأنها فلتةٌ من فلتات التاريخ. لقد بدأت پروسيا كدولة حدود قصيّة تعرف باسم (براندنبرگ) في الأراضي الرملية القاحلة الممتدة شرق نهر ألبه التي انتزعت في القرن الحادي عشر بالتدريج من ايدي

٢٨- "مسرى التاريخ الألماني" ص٢٤ بقلم اي. جي. بي. تايلر.

السلاف وقام آل هوهنزلرن بيت الإمارة الحاكم في دولة براندنبرگ وهم أكثر قليلاً من مغامرين عسكريين بدفع السلاف (وأغلبهم پولنديون) الى الشرق نحو البلطيق. ومن لجأ منهم الى المقاومة إما ذبحوا بحد السيف أو جعلوا اقناناً لايملكون أرضاً. لقد منع القانون الإمبراطوريّ للإمبراطورية الألمانية، الأمراء من اتخاذ ألقاب الملوكية. ولكن منح لقب إمبراطور للمنتخب فردريك الثالث. الذي تم تتويجه ملكاً على پروسيا في كوينكسبرگ Koenigsberg ١٧٠١.

ولكن پروسيا في هذه المرّة رفعت نفسها الى فوق بركابها نفسها لتكون إحدى القوى العسكرية المعدودة في أوروپا دون ان يكون لديها امكانات القوى الأخرى. فأرضها جرداء قاحلة خالية من المعادن وسكانها قلّة. وليس فيها مدن كبيرة ولا صناعة وليست متقدمة حضارياً. حتى نبلاؤها فقد كانوا فقراء، والفلاحون الأجراء يعيشون عيشة السائمة، إلاّ أن آل هوهنزلرن تمكنوا بعمل خارق اراديّ ومقدرة عبقرية في التنظيم من خلق دولة عسكرية سپارطية فاز جيشها بالإنتصار تلو الإنتصار. واستطاعت دبلوماسيتها الميكاڤيلية بطريق التحالف الوقتيّ مع أيّ بلاد تبدو أقوى من غيرها، من ضمّ مستمرٍ لأراضي جديدة الى حدودها.

وهكذا ولدت دولة غير طبيعية بالمرة. لم تنشأ عن قوة دفعٍ شعبية أو فكرة خلا فكرة التوسع والفتح. تجمعها كتلةً واحدةً متماسكةً يدُ الحاكم المطلقة والبوروقراطية الضيقةُ التفكير التي تلبيّ أمره، وجيش يخضع لنظام ضبط بالغ بالقسوة، يُنفق عليه من موارد الدولة ثلثاها بل خمسة أسداسها أحياناً. أصبح هذا الجيش بقيادة الملك دولة بذاته. وقال ميرابو* Mirabeaw "ليست پروسيا دولة ذات جيش، لكنها جيش ذو دولة" وقد أصبحت الدولة فهي الكل في الكل تدار بكفاية المعمل وتجرّده عن كلّ عاطفةٍ، ولايزيد مركز الشعب فيها عن أسنانٍ في آلةٍ من الآلات، وقد لُقن الأفراد من قبل ملوكهم وعرفاء تدريبهم بل ومن فلاسفتهم ايضاً بأن ادوارهم في الحياة قاصرة على الطاعة والعمل والتضحية والواجب حتى (كانت** Kant) نفسه فقد بشر بأن الواجب يتطلب قمع الشعور الإنسانيّ. ومجد الشاعر الپروسي "ڤيلبالد الكسيس Willibald Alexis" عبودية الشعب لآل هوهنزلرن. اما (لسّنك*** Lessing) الذي كان يمجّ ذلك فقد وصف پروسيا بأنها أكثر البلاد عبوديّة في أوروپا.

واليونكرز Juneirs الذين قدر لهم دور رئيس حيوي في ألمانيا الحديثة هو ايضاً منتوج پروسي فريد من نوعه فهم كما يعتبرون أنفسهم معدن السيادة. وهم الذين اغتصبوا بالقوة أراضي السلاف واستغلوها زراعياً بمثابة مزارع ضخمة عمل فيها السلاف الذين أصبحوا اقنان ارض أو أجراء يختلفون تمام الاختلاف عن أمثالهم في الغرب. هناك اختلاف جوهري بين النظام الزراعي في پروسيا

* هونوريه گابرييل دي ميرابو (١٧٤٩-١٧٩١) قائد ثوري فرنسي وخطيب قوى المعارضة، عمل سراً على إقامة ملكية دستورية إلاّ أنه لم يكن موضع ثقة لا من الثوريين ولا من الملكيين. أنتخب رئيساً للجمعية الوطنية إلاّ أنه توفي بعد أشهر قلائل.

** أمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤) واحد من مشاهير الفلاسفة الألمان وأعاظم الفلاسفة في كل مكان. أشتهر بكتابيه نقد العقل المجرد ونقد العقل التجريبي. وغيرها.

*** كوتهولد أفرام لسّنك (١٧٢٩-١٧٨١) مرسحيّ وناقد وفيلسوف ألماني مؤسس الأدب القومي الحديث.

وبين صنوه في ألمانيا الغربية وأوروبا الغربية. ففي الأخيرتين يقوم النبلاء الذين يملكون معظم الأرض بايجار الأرض، واستحصال ضرائب اقطاعية من الفلاحين الذين كثيراً ما كانوا يرزحون تحت حالةٍ ما من العبودية غير أنهم يتمتعون ببعض الحقوق والامتيازات وبامكانهم أن يحصلوا على أراضٍ زراعية لأنفسهم بالتدريج وينالوا الحرّية المدنيّة. ويؤلف الفلاحون في الغرب جزءاً راسخ القاعدة من المجتمع. وعلى كل عيوبٍ سادة الأرض فقد طوّروا- في حياة الكسل والخمول التي كانوا يعيشونها- أساليب الزراعة التي أدت مما ادت، الى نمط من الحياة يتسم بطابع الحضارة ويمكن توضّح معالمه في رقيّ الأخلاق والعادات والأفكار والفنون.

لم يكن البروسي (اليونكر) أخا كسل وخمول فقد عمل دؤوباً في إدارة مزرعته المترامية الأطراف مثلما يفعل اليوم مدير إدارة المصنع تقريباً فكان يعامل الفلاحين الأجراء الذين لايملكون أرضاً معاملة عبيدٍ ارقاء وكان السيد المطلق في املاكه الواسعة ولم يوجد ثمّ مدن كبيرة أو طبقة وسطى ثريّة -كما يوجد في الغرب- تناصبه العداء وتضايقه بنفوذها الحضريّ. فهو خلافاً للسيد العظيم grand seigneur المهذب في الغرب. رجل غليظ متغطرس، متعجرف، جاهل، غير مهذب، اعتدائي، قاسٍ مغرور ضيّق الافق مغرم بجني الربح التافه كما لحظ ذلك بعض المؤرخين الألمان في الحياة الخاصّة لـ(أوتو ڤون بسمارك) أنجح فردٍ من طبقة (اليونكرز) ولهذه العبقرية السياسية اصول مذهب "الدم والحديد" يعود الفضل في انهاء عهد الانقسام في ألمانيا الذي دام حوالي ألف سنة وضمها بالقوة الى بروسيا العظمى فيما بين ١٨٦٦-١٨٧١ أو ما قد يُدعى "بألمانيا البروسية". إن ألمانيا التي عرفها جيلنا وهي مخلوق بسمارك الخريد الفريد، ظلت طوال مائة عام معضلة أوروبا والعالم وطفلهما الجانح المعقد. انها وطن يسكنه شعب موهوب عظيم القابليات شديد القوى، نجح كل من ذلك الرجل العظيم ومن بعده القيصر ڤلهلم الثاني وأخيراً هتلر، بمساندة الطبقة العسكرية ودعم الكثير من أغرب المفكرين- في تلقينه الشهوة الى التسلط والتحكم، والعسكرية الجموحة، واحتقار الديمقراطية وخنق حرية الفرد وشوق الى السلطة والحكم المطلق. تحت تأثير هذا السحر ارتفع هذا الشعب الى أعلى عليين ثم هوى ثم ارتفع. حتى كانت سقطته العظمى بنهاية هتلر في ١٩٤٥ حيث خيل للناس أنه دُمرّ- وخير لنا ألاّ نستعجل الكلام في هذا بثقةٍ وجزم.

صرح بسمارك عند توليه رآسة الوزارة البروسية في ١٨٦٢: "إن قضايا اليوم الكبرى لن تحلّ بالقرارات وأغلبية الأصوات - كانت تلك غلطة رجال العامين ١٨٤٨ و١٨٤٩- وانما تحلّ بالدم والحديد" وهذا بالضبط الأسلوب الذي اتبعه في تسويتها، على أنه يجب الاقرار باضافته اليها لمسات من الحنكة الدبلوماسية والدهاء السياسيّ تتميز في كثير من الأحيان بالخديعة. كان هدف بسمارك تحطيم الليبرالية، والاستناد الى القوى المحافظة- أعني اليونكرز والجيش والتاج -وجعل بروسيا- بمواجهة النمسا القوة المسيطرة ليس على الألمان وحدهم، بل على أوروبا ايضاً إن امكن. فقد قال لنواب البرلمان البروسيّ "لا تنظر ألمانيا الى الليبرالية البروسية بل الى قوتها".

شرع بسمارك أولاً في بناء الجيش البروسيّ، وعندما رفض البرلمان رصد إعتمادات إضافية، صرفها

هو من تلقاء نفسه وأخيراً حلّ المجلس. وضرب بجيشه المتقويّ ضربات حاسمة في ثلاث حروب متتالية. أولاها ضدّ الدانمرك في ١٨٦٤ فاقتطع منها دوقيتي شلزڤيك وهولشتاين Holstein وضمهما الى ألمانيا وثانيتهما ضدّ النمسا في ١٨٦٦- وكانت أعظم من الأولى نتائج بما لايقاس، فبعد ان ظلت النمسا قروناً متعاقبة الأولى بين الدول الألمانية. طردت أخيراً من أسرة الدول الألمانية ومنعت من التدخل في شؤونها كذلك لم يسمح لها بالدخول في الإتحاد الألماني الشماليّ الذي شرع بسمارك في انشائه.

مرةً، كتب العالم السياسي الألماني الشهير رويبكه Roepke "لم يعد لألمانيا وجودٌ بعد العام ١٨٦٦". فقد ضمت پروسيا كُلّ الدول الألمانية الواقعة شمال نهر الماين Main التي حاربتها بإستثناء سكسونيا. وهي: هانوڤر، وهسّ، وناسّاو Nassau وفرانكفورت، ودوقية (إلبه) كُلها اجبرت على الدخول في الإتحاد الألماني الشمالي. وسيطرت عليه پروسيا التي أصبحت تمتّد الآن من (الراين) الى كوينكرسبرغ. وبعد خمس سنوات، على اثر هزيمة نابليون الثالث الفرنسيّ. ضمّت الدول الألمانية الجنوبية الى ألمانيا الپروسيّة. وفي مقدمتها مملكة باڤاريا الكبيرة[٢٩].

وكانت خاتمة إنجازات بسمارك خلق الرايخ الثاني الذي رأى النور في الثامن عشر من كانون الثاني ١٨٧١ حين توّج الملك ڤلهلم الأول الپروسي إمبراطوراً لألمانيا في قاعة المرايا في ڤرساي. وهكذا تم توحيد ألمانيا بفضل القوات المسلحة الپروسية فاذا بها الآن أعظم قوة في أوروپا القارة ومنافسها الوحيد هو انكلترا.

إلاّ انه كان يوجد عيبٌ لايرجى صلاحه. فالإمبراطورية الألمانية كما قال ترايتشكه Treitschke إن هي إلاّ انفتاح لپروسيا. وأوضح ذلك بقوله "پروسيا هي العامل المسيطر... فإرادة الإمبراطورية هي ليست إلاّ إرادة الدولة الپروسية"، وهو قول صائب. وكان تأثير هذا الواقع مدّمراً بالنسبة الى الألمان انفسهم فمنذ ١٨٧١ حتى ١٩٣٣ وبالاحرى حتى نهاية هتلر ١٩٤٥ كان مسرى التاريخ الألماني، نتيجة لما سلف أي مواصلة السير على خط مستقيم وبمنطقٍ تام بإستثناء فترة جمهورية ڤايمر.

كانت الإمبراطورية الألمانية في الحقيقة أوتوقراطية عسكرية يحكمها ملك پروسيا الذي هو إمبراطور أيضاً. رغم الواجهة الديمقراطية التي وضعت باستحداث مجلس الرايخشتاغ ويتم إنتخاب أعضائه بالاقتراع العام للذكور فقط. وسلطات الرايخشتاغ قليلة. وهو لايزيد كثيراً عن جمعية للمداولات حيث يطلق ممثلو الشعب بُخارهم الحبيس ويساومون لقاء منافع تافهة للطبقات التي يمثلونها. والعرش وحده صاحب السلطان والجبروت بموجب الحق الإلهي ولم يتحرّج ڤلهلم الثاني من التصريح وفي مثل هذا التاريخ القريب سنة ١٩١٠؛ بأن التاج الملكيّ اعطي له "بنعمة من الله وحده وليس بفضل البرلمان أو الجمعيات الشعبية أو القرارات العامة..." واضاف الى ذلك قوله "... ولما كنت اعتبر نفسي من إرادة الله... فلي أن اختار سبيلي".

والبرلمان لايقوم عائقاً في سبيله. فهو يعين المستشار الذي يكون مسؤولاً أمامه لا أمام الرايخشتاغ

٢٩- "حَلّ المسألة الألمانية" ص١٥٣ بقلم "ڤلهلم رويبكه".

وليس بامكان الجمعية طرد المستشار أو إبقاؤه في وظيفته فهذا من صلاحية الملك ولذلك فان فكرة الديمقراطيّة ومبدأ السيادة الشعبية وسلطة البرلمان العليا لم تجد لها موطيء قدم في ألمانيا حتى بعد فاتحة القرن العشرين. خلافاً للتطورات التي حصلت في دول الغرب الأخرى. الحق يقال إن الإشتراكيين الديمقراطيين بعد سنوات من الاضطهاد على يد بسمارك والإمبراطور أصبحوا بمجيء العام ١٩١٢ أكبر حزب سياسي في الرايخشتاغ. وطالبوا بأصوات عالية إحلال الديمقراطية البرلمانية. إلاّ أنهم كانوا عديمي التأثير. ومع انهم أوسع حزب فقد ظلوا أقلية. والطبقات الوسطى التي أنعشها التطور المتأخر الهائل للثورة الصناعية بهرها نجاح سياسة بسمارك في القوة والحرب نزلت لقاء الكسب الماديّ عن كلّ طموح للحرية السياسية قد تصل اليها[٣٠] ورضيت بأوتوقراطية هوهنزلرن واذعنت بكلّ سرور لبوروقراطية اليونكرز واعتنقت العسكرية البروسية بحرارة. لقد صعد نجم ألمانيا والشعب كل الشعب تقريباً متحمس للقيام بكل ما يطلبه منهم سادتهم، لابقاء البلاد في فلكها الرفيع دائرةً.

وظل هتلر النمساوي واحداً من هذا الشعب حتى النهاية. فعنده ان رايخ بسمارك (الرايخ الثاني) رغم اخطائه "وقوى تفسخه الهائلة" انما هو عمل مجيد رائع فيه أصبح الألمان سادة انفسهم.

"لم تكن ألمانيا خلافاً لغيرها من البلاد- مثالاً عجيباً لإمبراطورية نهضت على أساس من سياسة القوة المحضة؟ ان پروسيا وهي نطفة الإمبراطورية لم تتكون إلاّ بفضل أعمال البطولة الباهرة، وليس بفضل العمليات المالية والصفقات التجارية. والرايخ بدوره، انما هو المكافأة المجيدة للزعامة السياسيّة العسكرية والبسالة التي تتحدى الموت بجنودها لا غير..."

"هذا الطفل الرضيع، الرايخ [الثاني] بدا مطليّاً بسحر حادث جليل نهض بالأمة قاطبةً بعد سلسلة من إنتصارات لاتبارى ولد رايخٌ للأبناء والأحفاد- مكافأة للبطولة الخالدة... هذا الرايخ الذي لايدين بوجوده الى ألاعيب الاحزاب البرلمانية، تراه يشمخ بأنفه على معايير الدول الأخرى، بمحض كيفية نشوئه الطريفة الرائعة. هذه المهمة لم تنجزها قأقأة الخطب البرلمانية بل ضجيج المعركة وقعقعة السلاح وجيوش الميدان تلك التي طوقت (پاريس). ذلكم إعلان لارادتنا يصرخ ان الألمان: أمراءً وعامةً قد عزموا في المستقبل على إقامة رايخ جديد ورفع التاج الأمبراطوري الى أعلى عليين مرة أخرى... إن دولة بسمارك لم يقمها دعاة الهزيمة أو المتخاذلون، بل اقامتها ألوية الجيش المظفرة في الجبهة...

هذا الميلاد الفريد في بابه، والعماد بالنار يحيطان الرايخ بهالةٍ من المجد التاريخي لاتفخر بمثلها

٣٠- ويشبه هذا نوعاً ما الصفقة التي عقدتها الطبقة العاملة الألمانية. فلأجل مكافحة العقيدة الإشتراكية قام بسمارك ما بين ١٨٨٣-١٨٨٩ بوضع برنامج للضمان الإجتماعي لايضاهيه أيّ برنامج في أيّ بلادٍ أخرى، يتضمن التأمين الاجباري عن عجز العامل بسبب التقدم في السن والمرض وعوارض العمل وفقدان القابلية ومع ان الدولة كانت تدير المشروع وتشرف عليه إلاّ ان ماليته مصدرها ارباب العمل والعمال انفسهم. ولا يمكن القول ان هذا البرنامج شلّ نشاط الإشتراكيين الديمقراطيين ونقابات العمال، على ان أثره على الطبقة العاملة كان شديداً من ناحية أخرى. اذ جعلهم يضعون الضمان الإجتماعي فوق التحرر السياسيّ، وجعلتهم ينظرون الى الدولة مهما غرقت في اليمينية نظرتهم الى حامٍ ومحسن اليهم. وقد إستفاد هتلر كما سنرى من تلك الحالة الفكرية إستفادة تامة. فكان في هذا تلميذاً لبسمارك كما في غيره وتعلم منه الكثير "درست تشريعات بسمارك الإجتماعية وتأملت أغراضها ومدى ما حققته من نجاح في ميدان التطبيق" (كفاحي ص١٥٥).

إلاّ اقدم الدول وتلك ايضاً قلة نادرة.

اي ارتفاع بدأ الآن؟

الحرية من الخارج تؤمن الخبز اليومي للداخل. أصبح الوطن غنياً في العدد وفي خيرات الأرض. وشرف الدولة ومعه شرف الشعب، حماه وصانه جيش كان بإمكانه الاشارة بوضوح الى موطن الاختلاف مع الإتحاد الألماني الغابر[٣١] تلك هي ألمانيا التي عزم هتلر على إصلاح أمرها. لقد فصّل باسهاب عظيم في (كفاحي) الأسباب التي يعتقد انها أدت الى سقوطها وهي: تسامحها مع اليهود والماركسيين، الماديّة الكزّة والأنانية التي تحلّت بها الطبقة الوسطى، النفوذ المقيت الذي مارسه "المتبصبصون لاعقو البصاق" حول عرش هوهنزلرن، "سياسة التحالف الألمانية، جلاّبة الكوارث" تلك التي ربطت ألمانيا بنظام هابسبرگ المهتريء، وبالإيطاليين الحقراء، بدلاً من ارتباطها بانكلترا، الافتقار الى سياسة إجتماعية عنصرية أساسية؛ تلك هي الأخطار التي وعد ان تتلافاها القوميّة الإشتراكية وتتحاشاها.

-٣-

الأصول الفكرية للرايخ الثالث

والسؤال -بعد تركنا التاريخ جانباً- من أين جاء هتلر بآرائه؟ كان خصومه خارج ألمانيا وداخلها: إمّا منشغلين بأمور أخرى، أو انهم بدرجة كبيرة من الغباء حتى انهم لم يهتموا بها إهتماماً كبيراً الى ان فرط الأمر من ايديهم... لقد هضم هتلر ككثير من الألمان خليطاً غريباً من أفكار شاذة مخبولة نبطت في رؤوس مفكري القرن التاسع عشر الألمان وتلقّاها على الأغلب مشوّهة، محورة عن طريق احد ادعياء الفلسفة، كالملتاث (الفريد روزنبرگ) أو من صديقه السكّير الشاعر (ديتريش إيكارت) بكل ذلك الإيمان المطلق المتحمس الذي يبديه التلميذ الجاهل المبتدي، والبليّة في الأمر أنه قررّ وضعها موضع التطبيق حين سنوح الفرصة!

ولقد رأيناها وخبرنا حقيقتها، اذ هي تقعقع وتطنّ في رأس هتلر؛ تمجيد الحرب والفتح، السلطان اللامحدود للدولة المطلقة، الإيمان بتفوق العرق الآري أو الألماني على الشعوب الأخرى. بغض اليهود والسلاڤ، احتقار الديمقراطية والمذاهب الإنسانية؛ هذه كلها ليست من مبتدعات هتلر. وإن ثبت أن الوسائل التي اتبعها لتحقيقها كانت من بُنات افكاره. هذه الآراء بشرت بها طائفة شاذة من الفلاسفة اللوذعيين غير المتزنين ومن مؤرخين واساتذة اسروا الفكر الألماني خلال ذلك القرن -قبل مجيء هتلر- وكان من نتيجة هذه التعاليم كما تبين- نكبة عظيمة ليس للألمان وحدهم بل لجزء كبير من أبناء البشر.

٣١-(كفاحي) الص ١٥٤، ٢٢٥-٢٢٦.

لا يشك أحد في أن ألمانيا تفخر بعددٍ من أعظم جهابذة العقل البشري في عالم الغرب مثل لايبنتز Leibnitz، وكانت، وهردر Herder وهمبولت Humboldt ولسِّنك، وغوته، وشللر، وباخ وبيتهوڤن وكلهم قدموا للحضارة خدمات فريدة. على ان الثقافة الألمانية التي استظهرت في القرن التاسع عشر ووافق ظهورها بروز ألمانيا اليروسية منذ بسمارك حتى هتلر، كانت مبنية بالدرجة الأولى على فلاسفة معينين مثل فيخته Fichte وهيگل Hegel في المبدأ ثم جاء بعدهما (ترايشكه ونيتشه Nietzsche) وريشارد ڤاگنر، وجماعة كبيرة أقلّ شهرة وليس أثراً. ومن الغريب أن يكون بينهم فرنسيّ غريب الاطوار وانكليزيّ شاذٌ. ولقد نجح هؤلاء في فتح ثغرة روحية رجعية في فكر الغرب. هذه الثلمة لم تلتئم حتى يومنا هذا.

في العام ١٨٠٧، بعد الهزيمة الساحقة الذليلة التي منيت بها پروسيا على يد ناپوليون في (ينا Jena) بدأ يوهان كوتليب فيخته Johann Gottlieb Fichte يوجه "خطاباته الشهيرة الى الشعب الألماني" من مدرّج جامعة برلين حيث كان يحتلّ كرسيّ أستاذ الفلسفة. فاثارت ونظّمت الشعب المغلوب المنقسم. وما زال صدى تلك الخطب تراه يرنّ في اجواء الرايخ الثالث. كانت تعاليم (فيخته) خمرةً مسكرةً للشعب المخذول. فهو يرى أن الشعوب اللاتينية ولاسيّما الفرنسيّين، وشعب اليهود اقوام منحطّة تسير الى الفناء. وليس ثم شعب فيه قابلية التجدد غير الشعب الألماني. فلغته أنقى اللغات وأكثرها أصالة. وسيزدهر بهم عصر جديد من عصور التاريخ. وسينعكس فيهم نظام الكون. وستقودهم صفوة منتخبة قليلة العدو متحررة من أيّ رادع أخلاقي "للطبيعة" الخصوصيّة. تلك هي جملة من الآراء التي رأينا هتلر يقتبسها ويدوّنها في (كفاحي).

بموت فيخته في ١٨١٤ خلّفه (جورج ڤلهلم فردريك هيگل) في جامعة برلين. كان هذا الدماغ الحاذق النافذ الذي ألهمت جدليته (دايلكتيكه) كُلاً من (ماركس ولينين) ولذلك يُعدّ ذا فضل في قيام المذهب الشيوعي. إلا أن تمجيده الرنّان بالدولة وسموّها المطلق في الحياة البشرية مهد الطريق للرايخ الثاني والثالث فالدولة عند هيگل هي الكلّ في الكلّ. ومن بين ما قال عنها أنها أسمى وحيٍ "لروح العالم" وانها "الكون الخُلقي" و"فاعليّة الفكرة الأخلاقية"، وللدولة "الحق الأعلى تجاه الفرد، الذي كان واجبه الأعلى أن يصير عضواً في الدولة... لأن حق الروح العالميّ هو أعلى من كل الامتيازات الخاصة..."

وماذا عن سعادة الفرد في الدنيا؟ يجيب (هيگل) أن "تأريخ العالم ليست إمبراطورية السعادة" وقال "أن فترات السعادة انما هي صحائف خالية من ايّ تاريخ لأنها فترات اتفاقٍ، ليس فيها صدام" والحرب انما هي المطهر الأعظم في نظر (هيگل) لأنها تعمل "لصحة الشعوب الأخلاقية التي افسدها السلم الطويل، كالريح الشديدة فهي تحفظ البحر من الأسن الذي هو نتيجة الهدوء الطويل".

إن المفاهيم التقليدية للآداب العامة وقواعد الأخلاق يجب أن لاتعترض سبيل "الدولة العليا" ولا "أبطالها" الذين يقودونها "يحتلّ تاريخ العالم نشزاً أعلى... إن القوى الأخلاقية التي لا محلّ لها هنا، يجب ألاّ تتصادم مع وقائع تاريخ العالم وإنجازاتها. إن أوراد (ابتهالات) الفضائل الخاصّة-

كالتواضع، ومحبة الخير، والوداعة، الصبر- يجب ان لاتُرفع ضدّ تلك الوقائع... [فالدولة] وهي بهذا الشكل من القوّة يجب ان تدعس الكثير من الأزهار البريئة - وتستحق سحقاً الكثير من الاشياء التي تعترض سبيلها".

وتنبأ (هيگل) بقيام مثل هذه الدولة في ألمانيا. عندما تستعيد البلاد عبقريتها التي هي هبة اللّه. وتكهنّ بأن "ساعة ألمانيا" ستحين وان رسالتها ستكون تجديد العالم. ومن يقرأ (هيگل) يدرك كم ألهمت آراؤه هتلر وكم استمدّ منها، وان جاءته مشوهة ممسوخة. ويبدو ان أعظم كل ما اوصى به هيگل لهتلر كما سنرى في نهاية هذا الفصل. هو ما جاء في نظريته عن الأبطال إنهم "فاعلون" عظماء، أرصدتهم العناية الإلهية المستدقة على الفهم للتعبير عن "إرادة روح العالم". وهذا ما لاءم حاسة هتلر الخلاّبة برسالته القدرية.

وجاء بعده الى جامعة برلين (هنريخ ڤون ترايتشكه). وظل منذ ١٨٧٤ حتى وفاته في ١٨٩٦ أستاذ التاريخ فيها. كان أستاذاً محبوباً من الجمهور. تحضر دروسه جموع غفيرة متحمسة فتجد فيها عدا التلاميذ، ضباطاً من هيئة الأركان العامة وموظفين من اليونكرز البوروقراطيين؛ وكان تأثيره على الفكر الألماني في الربع الأخير من القرن، عظيماً جداً، وظلّ هذا التأثير الى أيام ڤلهلم الثاني وهتلر بلاشك. مع ان ترايتشكه كان سكسونياً فقد أصبح پروسيّ النزعة، پروسياً أكثر من الپروسيين ومجّد الدولة كما مجّدها (هيگل) واعتبرها السلطة العليا. إلاّ ان موقفه كان يفوق الأول وحشية: الشعب (الرعايا) يجب ألاّ يكونوا في الوطن أكثر من عبيد وقال: "ليس مُهمّاً ما تفكر به ما دمت تطيع".

وفاق (هيگل) في انه اعتبر الحرب اسمى تعبير لفاعلية الرجل فالمجد العسكريّ عنده "هو قاعدة لكلّ الفضائل السياسية، في كنز أمجاد ألمانيا الغنيّ. كان مجد پروسيا العسكريّ جوهرة تضاهي قيمتها روائع شعرائنا ومفكرينا" ويرى ان "اللعب الأعمى بالسلم... أصبح عاراً على فكر الجيل وأخلاقه".

"بصرف النظر عن كون الحرب ضرورة عمليةً، فهي أيضاً ضرورة نظرية وضرورة منطقية. إنه مفهوم (الدولة) يتضمن مفهوم الحرب لأن جوهر الدولة هو القوة... واستبعاد الحرب من العالم، إنما هو أمل، على سخافته، لا أخلاقي بالمرة. إنه يؤدي الى ضمور عددٍ كبير من القوى الجوهرية الجليلة للروح البشرية... والشعب الذي يصبح متعلقاً بالأمل الوهميّ، أملِ السلم الدائم ينتهي بالتفسخ والانحلال الذي لايرجى شفاؤه -وهو في عزلته المتعالية".

لم تكن فكرة ترايتشكه عن الشعب الألماني عالية ومثله في هذا مثل گوتيه[٣٢] هذا العبقري الملتاث في نواحٍ أخرى تختلف عن شوڤينية غيره من مفكري القرن التاسع عشر الألمان. فهو في الواقع يعتبر معظم فلاسفة الألمان ومنهم (فخته وهيگل) "نصابين دون أن يشعروا". واستخدم الدُعابة

٣٢- قال (گوتيه) مرة: "كثيراً ما شعرت بحزنٍ مريرٍ عندما اتأمل في حال الشعب الألماني. فهو جليل القدر كفردٍ، وتعس بائس كمجموعٍ. إن مقارنة بين الأمة الألمانية وبين الشعوب الأخرى تثير أحاسيس مؤلمة، احاول التغلب عليها باي طريق مستطاعة." (أحاديث مع هـ. لودن H. Luden في ١٣ كانون الثاني عام ١٨١٣. في أحاديث گوته Goethes Gaspraeche، أوسڤال بيدرمان Auswahl Biedermann، اقتبسها ڤلهلم روبكه في "حل المسألة الألمانية ص١٣١.

اللاذعة في كتابه "طرطوفيّة الشيخ كانت" وقال في كتابه "هو ذا الرجل Ecce Homo: لايدرك الألمان كم هم سفلة" واستخلص النتيجة التالية "أنّى دخلت ألمانيا، قضت على الحضارة" ووجد النصارى كاليهود مسؤولين على "أخلاق العبيد" التي تدمغ سكان العالم، ولم يكن خصماً للساميّة. وابدى أحياناً تخوفه من مستقبل پروسيا. وراح في سنواته الأخيرة – قبل ان يقفل الجنون عقله، يتلاعب بفكرة الوحدة الأوروپية والحكومة العالمية.

وأرى انه لايوجد مواطن واحد في الرايخ الثالث لم يتبين بنفسه تأثير (نيتشه) العميق في بناء صرحه. وقد تكون كتبه مملوءة "بالحماقات المضحكة" و"التخريف الصبياني" كما قال عنها (سانتيانا Santayana). ومع ذلك فادعياء الكتاب النازيون لايملّون من تعظيمه. وكان هتلر لايفتأ يزور متحفه في (ڤايمر) ويذيع تكريمه للفيلسوف بصورٍ يأخذها له المصورون وهو يحدق تحديقة وجدٍ عميق بالتمثال النصفي لهذا النابغة.

هنالك وجاهة لتقدير (نيتشه) بوصفه أحد مبدعي "مفهوم الحياة" النازي. ألم يندد الفيلسوف هادراً – بالديمقراطية والمجالس النيابية ألم يعظ بإرادة القوة، ويمدح الحرب ويبشر بمقدم الشعب المختار والإنسان الكامل (السوپرمان). بأسلوب حِكميّ سافر جداً. وللنازيّ أن يتمثل بكل اعتزاز وفخر بأقواله ومآثره في أيّ موضوع وهو لايتردد في ذلك. يقول (نيتشه) في النصرانية "انها اللعنة العظمى، الضِلّة الكبرى نفسها... اني ادعوها وصمة عارٍ خالدة في جبين البشرية. هذه النصرانية، إن هي الا تعاليمَ الإشتراكيين أنفسهم". وعن الدولة، والقوة، وعالم الغابة لدنيا الإنسان يقول "لم ير المجتمع في ايّ فضيلة إلاّ وسيلة للقوة والمقدرة الى الحرب، الى الفتح والانتقام... المجتمع لايفترض وجوده لذات نفسه بل ليكون هيكلاً داخلياً وصقّالة... يرتفع بواسطتها عِرقٌ مختار من البشر الى الاضطلاع بواجبات سامية... ليس هناك ما يدعى بحق العيش، بحق العملِ، بحق السعادة: فالإنسان في هذا المجال لايختلف عن أحقر دودة[٣٣].

ومجّد السوپرمان (الإنسان الكامل) بوصفه الوحش المفترس "الوحش الأشقر العظيم. الذي يثب بشراهة الى النصر والفريسة".

والحرب؟ هنا لايختلف رأي نيتشه عن آراء معظم مفكري القرن التاسع عشر الألمان. ففي كتابه "هكذا تكلم زرادشت" الذي صاغه بلغة الانجيل وأسلوبه. يزعق هذا الفيلسوف قائلاً "فلتحبوا السّلام كوسيلة لحرب جديدة. ولتحبوا السلم القصير أكثر من الطويل. اني انصحكم بأن لاتعملوا بل تقاتلوا. لكم أنصح بالنصر لا بالسلام... أتقولون أنه الغرض الصالح الذي يبارك حتى الحرب نفسها؟ أما أنا فأقول لكم: إن الحرب الصالحة هي التي تبارك كل غرض، الحرب والشجاعة صنعتا من جلائل الأعمال

٣٣- أوكل نيتشه للمرأة -التي لم يعرف صلة بها طول حياته- مكانة احط لمكانة الرجل كما فعل النازيون، وصرح ان محلهن هو المطبخ ودورهن الرئيس في الحياة هو انجاب الأولاد المحاربين الألمان ووضع نيتشه رأيه بالشكل التالي: "على الرجل أن يدرّب على الحرب وعلى النساء أن يكن وسيلة لخلق المحاربين وما عدا ذلك هباء وحماقة" وزاد يقول في (هكذا تكلم زرادشت): أأنت ذاهب الى المرأة؟ لاتنسى ان تأخذ معك السوط!" مما ادى بـ(برتراند رسل) الى الردّ الفوري "تسع من اصل عشر نساء سينتزعن السوط من يده عنوةً. وهو يعلم ذلك حق العلم، ولذلك ابتعد عنهنّ!..."

ما يفوق كثيراً، الذي صنعه البرّ".

وأخيراً هناك نبوءة نيتشه عن مجيء الصفوة المنتخبة التي تحكم العالم التي يخرج منها (السوبرمان). ليهتف قائلاً في "الإرادة الى القوة":

"إن عنصراً جسوراً حاكماً يبني نفسه... والهدف هو أن يهيّء امكانية تقدير القيم لنوع من الإنسان قويّ جداً موهوب بدرجة لاتقاس في عقله وفي ارادته. هذا الإنسان والنخبة الممتازة الملتفّة حوله سيصبحون "سادة الأرض".

هذه الثرثرة التي اطلقها واحد من أنبغ عقليات الألمان لابد وأنها مسّت في رأس هتلر الأجوف وتراً حساساً. وعلى كل حالٍ فقد إستحلاها لنفسه- ليست الافكار وحدها بل الصيغ الشاذة الطنانة التي اودعها فيها. وكثيراً ما تجد عبارته بالذات "سادة الارض" التعبير المألوف في (كفاحي). ولا يتطرق أي شكّ في النفس أن هتلر عدّ نفسه (السوبرمان) الذي بشرت به نبوءة (نيتشه).

كان هتلر لايفتأ يقول: "من يريد ان يفهم ألمانيا القومية الإشتراكية فعليه أن يعرف ڤاگنر[٣٤]"، وربّما استند في قوله هذا على إساءة فهم مغرضٍ للموسيقار العظيم. إذ مع أن (ريشارد ڤاگنر) كان شديد التعصب كهتلر في كرهه اليهود، واقتناعه بأنهم يحاولون السيطرة على العالم بالمال. ومع انه ازدرى المجالس النيابية والديمقراطية والماديّة، وغباوة البرجوازيين فقد ظلّ يأمل من اعماق نفسه أن "يصبح الألمان بملكاتهم الخاصّة وعبقريتهم، لا حكاماً للعالم بل رافعي مكانته". ولم تكن كتاباته السياسيّة بالتي اوحت أساطير ومآثر ألمانيا الحديثة واعطتها "معنى الحياة" التي ادعاها النازيون لأنفسهم ليس بلا مبررّ، بل بأوپراته الشامخة. التي تمثل بكل دقة دنيا الألمان الأوائل باساطير بطولاتها، وآلهتها الوثنية المقاتلة وابطالها ومردتها وأبالستها وثأراتها الدمويّة وعنعناتها القبلية الساذجة، وإيمانها بالقضاء والقدر وجلال الحبّ والحياة ونبل الموت.

أحب (هتلر) ڤاگنر حبّ عبادة من البداية. وفي ملجأ مقرّ القيادة العسكرية الرطب الكئيب على الجبهة الشرقية الروسيّة، حيث لم يعد إلاّ القليل من حياته، وهو يرى مبدأ تحطم أحلامه وتبددها، تجده مغرماً باستعادة ذكرياته عن كلّ المناسبات التي سمع بها الآثار (الڤاگنرية) العظيمة، وماذا كانت تعني عنده، وما اوحت له مهرجانات (بيروث Bayreuth) الموسيقية. وزياراته التي لاتعدّ لمنزل الموسيقار(هاوس ڤنفريد Haus Wahnfried) حيث ما زال يعيش ابنه سيگفريد ڤاگنر "Siegfried" مع زوجته الانكليزية بالولادة (وينيفريد Winifred) التي كانت واحدةً من أعزّ اصدقائه ردحاً من الزمن.

هتف هتلر في ليلة ٢٤/٢٥ كانون الثاني ١٩٤٢. بعد وقت قليل من وصول نبأ أول الهزائم الساحقة الألمانية في روسيا: "أي متعة كانت تمنحني كل قطعة من قطع ڤاگنر!". قالها وهو يحادث جنرالاته واقطاب حزبه ومن بينهم هملر في اعماق الملجأ المحفور تحت الأرض المعروف بـ(ڤولڤكانزه Wolfsschanze) وجار الذئب في راستنبرگ Rastenburg بپروسيا الشرقية. وكان الثلج في الخارج يتساقط والبرد القطبي يشيع في الجوّ تلك الظواهر الطبيعية التي يكرهها كرهاً قتّالاً ويخشاها خشية

٣٤- ذكرياتي الخاصّة يؤيدها أوتو توليشوس Otto Tolischus في كتابه "ارادوا الحرب" ص١١.

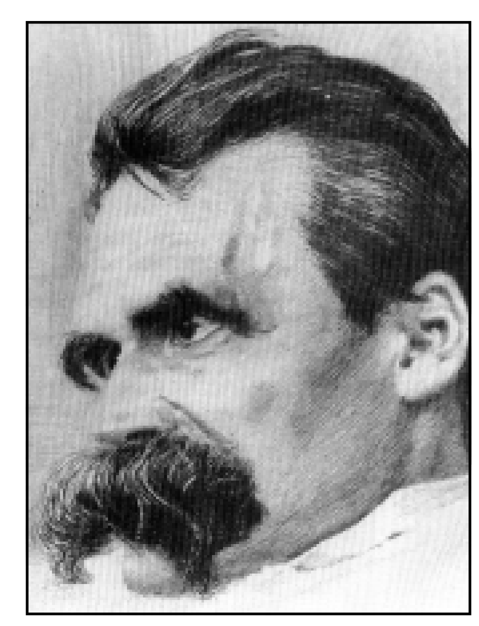
الموت. تلك التي عزا اليـها أولى الاندحارات العسكرية الألمانية في الحرب. لكن أفكاره في تلك الليلة كانت في دفء الملجأ منصرفة على الاقل الى استذكار واحد من اهم مصادر الهام حياته قال: "أذكر احاسيسي التي زخرت بها نفسي عند دخولي (ڤانفريد) لأول مرة. أقول ان العاطفة عقلت لساني! في أسوأ لحظات حياتي لاتفتأ موسيقاه تشيع فيّ العزم والانتعاش. حتى (سيگفريد ڤاگنر) نفسه. إن صداقتي لهما وصلت الى حدّ المخاطبة بالاسم المجرد ولقد احببتهم جميعاً. كذلك انا أُحب (ڤانفريد)... مابرحت الأيام العشرة لموسم (بيروث) من اجمل مواسم وجودي. وأنه لتتملكني الغبطة عندما افكرّ بأني سأكون قادراً يوماً ما على استئناف الحجّ!"

"وفي اليوم التالي لنهاية مهرجان بيروث... تستولي عليّ حالة عظيمة من الغمّ حتى لكأنما يجرد احدهم شجرة عيد الميلاد من زينتها[٣٥]."

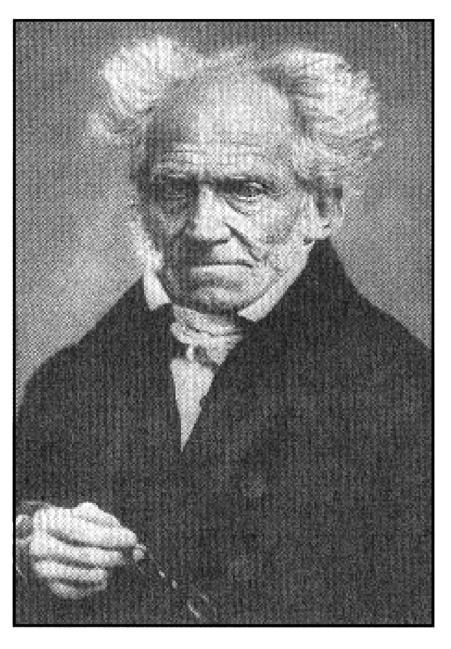
ومع ان هتلر ردد في حديثه ذلك الشتاء انه يعتبر أوپرا (تريستان وإيسولده Tristan und Isolde درّة آثار (ڤاگنر) فان أوپرا خاتم (نيبلونگن) وهي سلسلة تتألف من أربعة أوپرات كاملة - استوحيت من الملحمة الأسطورية الألمانية العظيمة "نيبلونگن ليد Nibelungenlied" وسلبت المؤلف معظم خمس وعشرين سنة من حياته، هي التي قدمت لألمانيا وبخاصة للرايخ الثالث الكثير من أسطورية ألمانيا البدويّة. كثيراً ما تكون أساطير شعب من الشعوب أعلى تعبير وأصدقه لروحها ومآثرها الحضارية ولا يصدق هذا على أمة قدر ما يصدق على ألمانيا. حتى لقد جادل (شيللنگ Schelling) في أن "الشعب يأتي الى الوجود بمآثره الأسطورية (ميثولوجيا)... إن وحدة تفكيره التي تعني فلسفة جماعية، تتمثل في مجموعة أساطيره، لذلك فأساطير الأمة تتضمن مصيرها ومستقبلها". وصرّح (ماكس ملّ Max Mell) وهو شاعر معاصر نظم صيغة جديدة "لنشيد النيبلونگز": "في أيامنا هذه لم يبق من آلهة الأغريق إلاّ القليل، حتى ان النزعة الإنسانية ارادت أن تمدّ جذورها عميقاً في ثقافتنا... إلاّ أن (سيگفريد) و(كريمهيلد Kriemhild) ستظلّ أبداً في روح الشعب!"

(سيگفريد وكريمهيلد)، (برونهلد Brunhild وهاگن Hagen) أولئك هم الأبطال والبطلات القدامى الذين يريد أن يتشبه بهم كثير من ألمان اليوم والى جانبهم عالم النيبلونگن الوثني البربريّ - عالم بطوليّ لا معقول حافل بالأسرار، يكتنفه الغدر ويسوده العنف ويغرق في النجيع، يبلغ ذروته "بغسق الآلهة Goetterdaemmerung عندما يعمد (ڤوطان Wotan) الى اضرام النار بـ(ڤالهالا Valhala) بعد كل الاهوال ومصائب الدهر التي عاناها، فتلتهمه ألسنة اللهيب وهو في سكرة من إهلاك متعمدٍ للنفس. كل ذلك كان يفتن العقل الألماني ويخلب لبّه ويلقى صدى حنين مريع في الروح الألمانيـة. هؤلاء الأبطال، وهذا العالم البدائي الشيطاني كانوا دائماً "في روح الشعب" على حَدّ قول (ملّ) بالحرف الواحد. إنه ليلمُس في تلك الروح الألمانية لمساً؛ الكفاح بين روح المدنية وروح الـ(نيبلونگن). وفي الزمن الذي يهتمّ به تاريخنا هذا بدأت الروح الأخيرة هي الغالبة. ولم يكن بعجيب أن راح هتلر يحذو حذو (ڤوطان) عندما شاء تدمير ألمانيا في ١٩٤٥. حتى تهوي معه وألسنة النيران تلتهمها.

٣٥- "احاديث هتلر السرية" ص١٩٨.



نيتشه



شوبنهاور

وڤاگنر العبقري الشامخ الفنان الذي لم يبلغ أحد شأوه، يعني لهم ما يزيد كثيراً عما ذكرنا آنفاً. إن الصراع في "أوپرات الخاتم" كثيراً ما يدور حول الشهوة الى الذهب التي جعلها الموسيقار معادلة لمأساة "الرأسمالية الحديثة" التي يراها والفزع يتملكه- كأنما تريد القضاء على كلّ الفضائل المنحدرة من الأيام الخالية. ورغم حشده كل هؤلاء الأبطال الوثنيين، لم ييأس تماماً من النصرانية كما يئس (نيتشه*)، ولم تأخذه رأفة أو حنان بالعنصر البشري الكثير الأخطاء المغرم بالقتال. على ان هتلر لم يكن مخطئاً بالمرة حين قال: على المرء ان يفهم ڤاگنر حتى يفهم النازية.

عرف ڤاگنر (شوبنهاور** Schopenhauer) ومن بعده نيتشه وتأثر بهما وإن خاصمه ثانيهما لأنه رأى أوپراته ولاسيّما أوپرا "پرسيڤال Parsifal" تفصح عن انكارٍ للنصرانية فاق كل الحدود. وفي مسرى حياته الطويلة العاصفة إتصل ڤاگنر برجلين آخرين أحدهما فرنسي وثانيهما انكليزي، وكلاهما على جانبٍ من الأهمية لتاريخنا هذا. لا بسبب التأثير الذي خلّفاه في الموسيقار [وان كان عميقاً في مناسبةٍ واحدة] بل لأثرهما على العقل الألماني مما ساعده على التوجه الى ناحية البشارة بمقدم الرايخ الثالث.

* فريدريك نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) فيلسوف ألماني ناقد للمسيحية. أشتهر بكتابه "هكذا تكلم زرادشت" وخرج للعالم بنظرية السوپرمان (الإنسان الكامل) الذي تسيره إرادة القوة. أسيء تقديم آرائه كثيراً ولاسيّما من قبل النازيين، وأتخذت آراؤه لتبرير مفاهيمهم بخصوص تفوّق الإنسان الآريّ.

** آرثر شوبنهاور (١٧٨٨-١٨٦٠) فيلسوف ألماني أشتهر بنظريته في "مبدأ الإدارة" والتشاؤم المنظم. أثرت أفكاره في نيتشه.

هذان الشخصان هما الكونت جوزف آرثر دي كوبينو De Gobineau وهو دبلوماسي وأديب فرنسي، وهيوستن ستبورات چمبرلين Houston Steuart Chamberlain أغرب انكليزي عاش في هذه الدنيا.

لم يكن أيّ من الرجلين دعيّاً أجوف فكلاهما لوذعيان واسعا الاطلاع عميقا الثقافة، بتجارب كثيرة من معاناة الأسفار والحلّ والترحال. ومع هذا فقد صنفا قوانين عنصرية فيها من الزيف والافتراء ما لم يدع أحداً في العالم حتى مواطنيهم ياخذ أقوالهما مأخذ الجدّ بإستثناء الأمة الألمانية وحدها. لقد باتت نظرياتهما الكثيرة المطاعن انجيلاً للنازيين ولعلنا لا نبالغ ان قلنا -كما سمعته من أكثر من تابع لهتلر- أن چمبرلين هو المؤسس الرّوحي للرايخ الثالث. هذا الانكليزي العجيب الذي وجد في الألمان الشعب المختار وأمل المستقبل البشري، أحبّ (ڤاگنر) حبّ عبادة وتزوج احدى بناته فيما بعد. وأكبَرَ شخصية ڤلهلم الثاني أولاً ثم هتلر أخيراً وكان معلم الإثنين. وتمكن في أواخر حياته العجيبة من تحية نائب العريف النمساويّ قبل وصوله الى دست الحكم، وقبل أن يتوقع له أحدٌ تقدماً أو يتوسم فيه أملاً سياسياً بوقت طويل. حيّاه بوصفه رسول الله لقيادة الشعب الألماني واخراجه من التيه. فكان طبيعياً ان يرى هتلر في چمبرلين نبيّاً. كما اثبت بالدليل.

ماذا في تعاليم هذين الرجلين من آراء لقحت الألمان بلوثة من الجنون في مسألة العرق ومصير ألمانيا؟

كان أثر (گوبينو) الأعظم كتاباً بأربعة مجلدات نُشر في پاريس ما بين السنوات ١٨٥٣ و١٨٥٥ بعنوان "رسالة في عدم التساوي بين الاجناس البشرية Essai sur l`Inegalite des Races Humaines" ومن سخرية القدر أن هذا الارستقراطي الفرنسي بعد ان خدم ضابطاً في الحرس الملكي، بدأ حياته العامة بوظيفة رئيس سكرتيري Chef de Cabinet لألكسيس دي توكڤيل Alexis de Tocqueville عندما قضى هذا الكاتب الأشهر مؤلف كتاب "الديمقراطية في أمريكا" فترة قصيرة في الوزارة في ١٨٤٨. وبعدها سافر الى هانوڤر وفرانكفورت بوظيفة (دبلوماسية). ومن مخالطته الألمان لا من عمله مع (توكڤيل) استمدّ نظرياته في التفاوت العرقيّ، على انه اعترف مرة أن من أسباب تأليف كتابه هو البرهان على تفوق أسلافه الارستوقراط.

يرى (گوبينو)- كما ذكر في تقديمه الكتاب الى ملك هانوڤر، ان مفتاح التاريخ والحضارة هو العرق. "مسألة العرق تسود كُلّ مشاكل التاريخ الأخرى... إن التفاوت العرقي كافٍ لتفسير كُلّ مظاهر مصائر الشعوب". وهنالك ثلاثة عروق رئيسة: الأبيض والأصفر والأسود. والأبيض هو الأعلى وزعم "أن التاريخ يبرهن على ان العرق الأبيض هو مصدر المدنيّة ولم تقم حضارة ولن تقوم بدون تعاون هذا العرق". ودرّة العرق الأبيض هو الجنس الآري "تلك الأسرة البشرية الممتازة، الأشرف بين العرق الأبيض التي نبعت أصولها من أواسط آسيا". ثم يقول: لسوء الحظّ يعاني الآري المعاصر من الاختلاط العرقيّ مع اجناس أحطّ منه كما يجد المرء في جنوب أوروپا في أيامّه. على ان الآريين ما زالوا يعيشون عرقاً ممتازاً وإن كانوا بعيدين عن النقاوة - في الشمال الغربي من أوروپا فوق الخطّ الممتد تقريباً على طول نهر السين وشرقي سويسرا. ويشمل هذا بعض الفرنسيين، والانكليز كلهم

والايرلنديين، وسكان الأراضي المنخفضة والراين وهانوڤر والاسكندناڤيين. ويبدو من هذا أن (گوبينو) أخرج الجزء الكبير من الألمان الذين يعيشون شرق هذا الخط وجنوبه الشرقي وهو ما تغاضى عنه النازيون وتجاهلوه عندما اعتنقوا تعاليمه.

ورغم ذلك يرى (گوبينو) أن الألمان – أو على الأقل الألمان الغربيين هم خير الآريين. وهذا الاكتشاف لم يُغضِ النازيون عنه الطرف. ولقد وجد ان التقدم كان يسير في ركاب الألمان أنّى حلّوا. وهذا يصدق حتى في الإمبراطورية الرومانية فهؤلاء الذين أطلق عليهم قبائل الجرمان البرابرة الذين تغلبوا على الرومان وقوضوا إمبراطوريتهم أدّوا بعملهم هذا خدمة جليلة للحضارة لأنّ الرومان في القرن الرابع الميلادي باتوا لا أكثر من هجناء متفسخين في حين كان الجرمان آريين خلصاً نسبياً. واستطرد يقول "إن الآريين الألمان هم مخلوقات شديدة القوة... وكل ما يفكرون ويقولون ويعملون، ذو أهمية كبيرة".

وراجت آراء گوبينو في ألمانيا بسرعة. واعتنقها (ڤاگنر) وتحمس لها وكان قد التقى بالفرنسيّ في العام ١٨٧٦ وهو في أراذل عمره (توفي في ١٨٨٢). وما لبث أن خرجت (جمعيات گوبينو) الى الوجود في كل بقعة من ألمانيا ولم تقم واحدة في فرنسا.

–٤–

حياة "چمبرلين" العجيبة وكتاباته الغريبة

من بين الأعضاء المتحمسين لجمعية (گوبينو) بألمانيا، (هيوستن ستيورات چمبرلين). الذي مثّلت حياته وكتاباته واحدة من اروع النكات المضحكة في مجرى التاريخ القاسي الذي أدى الى قيام وسقوط الرايخ الثالث.

هذا الإبن، سليل أحد أمراء البحر الانكليز وإبن أخ الفيلد مارشال الانكليزي السر نڤيل چمبرلين Sir Neville Chamberlain، وجنرالين انكليزيين آخرين، ثم صهر (ريشارد ڤاگنر)، ولد في ١٨٥٥ في پورتسموث. وكان مقرراً دخوله في سلك الجيش أو البحرية البريطانية لكنّ سقم بدنه حال دون تحقيق تلك النية ونال تعليمه في فرنسا وجنيڤ حيث أصبحت الفرنسيّة لغته الأولى. وتعرّف صدفة فيما بين الخامسة عشرة والتاسعة عشرة من عمره على صديقين ألمانيين ومنذ ذلك الحين فصاعداً راح ينجذب الى ألمانيا بدافعٍ لايقاوم. حتى أصبح أخيراً مواطناً ألمانياً وواحداً من مشاهير مفكريها، كتب بلغتها كلّ كتبه العديدة وكان لطائفة كبيرة منها تأثير أعمى على ڤلهلم الثاني وأدولف هتلر وما لايحصى من الألمان الأقل مركزاً وشأناً.

في ١٨٧٠ وجد چمبرلين نفسه وهو في الخامسة عشرة بين يدي مربٍ شهير اسمه (أوتو كونتزه Otto Kantze) وهو پروسي شديد التعصب للپروسية ظلّ هذا طوال أربع سنين يطبع في دماغ الفتى المستوفز المستوعب وفي نفسه الحسّاسة أمجادَ پروسيا المحاربة الفاتحة وأيضاً –دون اكتراث للتناقض– دروساً

عن الفنانين والشعراء أمثال بيتهوفن وگوته (وشيللّر وڤاگنر) وفي التاسعة عشرة تولّه چمبرلين بحبّ (آنا هورست Anna Horst) وهي پروسية تكبره بعشر سنوات وتشكو مثله علة عصبية شديدة. ونزح الى (بيروث) في ١٨٨٢ من (جنيڤ) وله من العمر سبعة وعشرون، بعد ان غرق ثلاث سنين في دراسات الفلسفة والتاريخ الطبيعي والفيزياء والكيمياء والطبّ. وفي (بيروث) التقى (بڤاگنر) الذي الذي أصبح شمس حياته على حدّ قوله. وكذلك عرف (كوزيما Cosima) زوج الموسيقار التي ظلّت موضع إخلاصه وحبّه العظيم بقية أيام حياته. وأصبح ألمانياً فكراً ولساناً عندما ذهب هو (وآنا هورست) زوجه ليسكن (درسدن) في ١٨٨٥. وليقضي فيها أربعة أعوام. ثم نزح الى ڤيينا في ١٨٨٩ وبقي فيها عشر سنوات. وأخيراً عاد الى (بيروث) في ١٩٠٩ حيث توفي في ١٩٢٧. طلق زوجته المعبودة الپروسية في ١٩٠٥ عندما كان يبلغ الستين وقد زادت علتها البدنية والعقلية وطأة (كان الطلاق مؤلماً له حتى كاد يقضي عليه- كما قال) وبعد ثلاث سنوات تزوج (إيڤا ڤاگنر) واستقر بالقرب من (ڤانفريد) ليكون لصيقاً بأم زوجته. لقد كان عظيم الإحترام لـ(كوزيما) القوية الإرادة.

كان چمبرلين المريض بالأعصاب والشديد الحساسيّة يتعرض لكثيرٍ من نوبات الإنهيار العصبيّ، "يرى شياطين وجناً تدفعه بلا هوادة الى البحث عن ميادين جديدة للدراسة، والمضيّ قدماً في كتاباته الضخمة" على حدّ قوله. وكانت الرؤى بعد الرؤى تدفعه دفعاً من التحول عن البيولوجي الى علم النبات الى الفنون الجميلة الى الموسيقى، الى الفلسفة، الى علم السيرة الى التاريخ، ومرة في ١٨٩٦ بينما كان عائداً من إيطاليا ركبه شيطان فريد وظلّ يشد عليه شداً عنيفاً حتى اضطره الى ترك القطار في محطة گاردوني Gardone واغلق عليه باب غرفته في الفندق ثمانية أيام بطولها تاركاً عملاً موسيقياً كان يفكرّ فيه، وراح يكتب كالمحموم في رسالة حول علم السيرة حتى وصل الى جرثومة الموضوع الذي قدّر له أن يسيطر على كلّ كتاباته التالية ألا وهو "العرق والتاريخ".

مهما كانت عيوب چمبرلين، فان دماغه المتشعب الاطراف ضرب بسهم وافرٍ من الأدب والموسيقى والبيولوجيا وعلم النبات وعلوم الدين والتاريخ والسياسة. وكما قال "جان رايال Jean Real[٣٦]" هناك وحدة إلهام عميقة الغور في كلّ كتبه المطبوعة ويتجلى فيها تناسق ومطابقة فائقة. منذ أن شعر بملاحقة الشياطين وهو يدوّن كتبه عن (ڤاگنر وگوته، وكانت، والنصرانية والعِرق) في سعار من حمّى عنيفة وفي غيبوبة فعلية وحالة سُكر تفقده الوعي تماماً دون أن يبين لها أثر خَارجي حتى أنه لايكون قادراً في كثير من الأحيان (كما ذكر في سيرة حياته) Lebenswege. على تذكر كتابته إياها لأنها فاقت حدود تصوره إن عقولاً أكثر إتزاناً من عقله نقضت كل نظرياته في العرق وأغلب نظرياته التاريخية فيما بعد. ووجد الباحث الفرنسي في "الألمانيات" إدموند ڤرميّ Edmond Vermeil، أن آراء چمبرلين، في أساسها ضحلة "Shoddy"، في حين أن كاتب السيرة الهتلرية الألماني (كونراد هايدن) المعادي للنازية الذي كان شديد الأسف لتأثير تعاليمه العرقية، يرى چمبرلين "واحداً من أعجب الموهوبين في تاريخ الفكر الألماني... منجم للمعرفة، والآراء العميقة".

٣٦- انظر دراسته عن چمبرلين في كتابه "الرايخ الثالث" طبعه Baumant, Fried and Yermeil.

إن الكتــاب الذي اثر في هذا الاتجـاه من العــقل الألماني اعـمق تأثيـر، وهللّ له (ڤلهلم الثاني) وكبّر، وزوّد النازيين بضـلالاتهم العـرقـيــة هو "أسس القـرن التـــاسع عـــشـــر Grundlagen des Neuzehnten Jahrhunderts" ويقع في زهاء ألف ومائتي صفحة. كتبه چمـبـرلين في إحدى زورات واحـد من "شـيــاطينه" وركوبها بين كتفيه طوال تسعة عشر شهراً تقع بين (١) نيسان ١٨٩٧ و(٣١) تشرين الثاني ١٨٩٨ في ڤيينا. وقد طبعه في ١٨٩٩.



القيصر ڤلهلم الثاني

وجد (چمبرلين) مثل (گوبينو) الذي اعجب به – أن مفتاح التاريخ، أو بالأحرى أسس المدنيّة تكمن في العرق. ولشرح اوضـاعِ القـرن التـاسع عـشـر، أعني الدنيـا التي يعـيش فـيـهـا – على المرء أن يتـأمل أولاً فيما خلفته له القرون الخالية. قال چمبرلين انها ثلاثة: فلسـفـة الاغـريـق وفنونهم، والشـريعـة الرومـانيــة، وشخصيـة المسيح. وهنالك ايضاً ثلاثة ورثة: اليهود والألمان "وهما الجنسان النقيان" والجنس المولّد: وهم لاتين البحر الابيض المتوسط الذين هم "فوضى من الشعوب" كما اطلق عليهم. والألمان وحدهم المستحقون هذا التراث العظيم، الحق يقال أنهم دخلوا التاريخ متأخرين (ليس قبل القرن الثالث عشر) لكنهم حتى بتقويضهم الإمبراطورية الرومانية قبل ذلك، قدموا الدليل على قيمتهم، وهو يقول: "ليس صواباً القول أن البربرية التيوتونية آذنت بقدوم ما يطلق عليه (ليل العصور الوسطى)؛ فهذا الدليل كان نتيجة حتمية للإفلاس الخلقي والثقافي الذي آلت اليه الإنسانية السابحة في فوضى اللاعرقية، مما غذته الإمبراطورية الرومانية المحتضرة. ولولا التيوتون لخيّم على العالم ليل بهيم أبديّ". ووجد وقت كتابته هذا. أن التيوتون هم الأمل الوحيد للعالم. وأدخل چمبرلين الى أسرة (التيوتون) الكلتيين Celts والسلاڤ، إلاّ أن (التيوتون) هم اهم عنصر. على أنه كان كثير الغموض في تعاريفه. وصرح في إحدى المواقف "كُلّ من يتصرف تصرف التيوتون، فهو تيوتوني مهما كان أصله العرقيّ" ولعله كان يفكر هنا بأصله اللاألماني. ومهما كان التيوتوني "فهو روح مدنيّتنا. ان أهمية كل قومية بوصفها قوة عاملة في يومنا هذا، تعتمد على نسبة الدم التيوتوني الخالص الموجود في ابنائها... الحق يقال أن التاريخ يبدأ في اللحظة التي يضع التيوتوني قبضته الحاذقة فوق تراث العصور الغابرة."

وماذا عن اليهود؟ خصّهم المؤلف بأطول فصلٍ من كتابه "الأسس" فچمبرلين كما رأينا –يدّعي أن اليهود والتيوتون هما العرقان النقيان الوحيدان الباقيان في الغرب. وهو يدين في فصله هذا "فكرة

معاداة السامية الحمقاء البغيضة." ويقول ان اليهود ليسوا شعباً "منحطاً" بالنسبة الى التيوتون بل هم مختلفون عنه ليس إلاّ. فلديهم أمجادهم الخاصّة، وهم يدركون "الواجب المقدس" واجب الإنسان في المحافظة على نقاوة الدم. ومع هذا ففي أثناء قيامه على تحليل اليهود لم يشعر إلاّ وهو ينزلق في معاداة الساميّة بالفظاظة المعهودة ناسياً أنه أدانها في الآخرين. مما ادى في النهاية الى بذاءات (يوليوس شترايخر) الكاريكاتورية عن اليهود في جريدته "دير شتورمر" أيام هتلر. والواقع أن كثيراً من القواعد "الفلسفية" المعادية للسامية تنبع من هذا الفصل.

سرعان وضحت آراء چمبرلين التي لايقبلها العقل وبدت للملأ عارية. لقد صرح أن شخصية المسيح هي إحدى ثلاث تركات خلفها الأقدمون للحضارة الحديثة ومن ثم راح "يبرهن" على ان المسيح ليس يهودياً. فأصله الجليلي وعجزه عن النطق السليم بالعامية الآرامية، هي أدلة (چمبرلين) "الواضحة" أن دم المسيح فيه نسبة كبيرة من الدم اللاساميّ". وبعد ذلك استخلص النتيجة القاطعة النموذجية: "من يزعم أن يسوع يهوديّ لايعدو أن يكون إمّا غبياً أو كاذباً. فيسوع ما كان يهودياً".

فماذا كان اذن؟ يجيب چمبرلين على ذلك: لعلّه آريّ! إن لم يكن كذلك بالدم الخالص، فبسبب تعاليمه الأخلاقية والدينية بلاشكّ ولمعارضته الشديدة للمادية والصورية الذهنية abstract formalism" للدين اليهوديّ. فكان من الطبيعي -لچمبرلين على الأقل- أن يقوّم المسيح" إلهاً للشعوب الهندوروپية الفتيّة التي تتدفق بالحياة" وبخاصة إله التيوتون "إذ لايوجد شعب آخر مثل الشعب التيوتوني حسن التهيئة لسماع صوته الآلهي".

ثم تلا ذلك ما زعم أنه تاريخ مفصل للقومية اليهودية منذ أيام امتزاج الساميين أو بدو الصحراء بالحثيين ذوي الرؤوس المستديرة الذين لهم "انف يهوديّ" وأخيراً مع العموريين الذين هم آريون. ولسوء الحظ إن الهجين (يقول أن العموريين كانوا طوال القامة شقراً ضخام البنية) جاء متأخراً جداً لتحسين العرق العبراني المتحلل تحسيناً حقيقياً. ومن هنا فصاعداً يروح الانكليزي ينقض نظريته كلها عن نقاوة الأمة اليهودية فيرى أنهم أصبحوا عرقاً "سالباً" "نغلاً". لذلك كان الآريون محقين في "إنكار" إسرائيل. وهو في الواقع يدين الآريين لإكسائهم "هالة من المجد الزائف" ثم يجد اليهود "يفتقرون الى الدين الحق افتقاراً اليماً".

وطريق الخلاص في اعتقاد چمبرلين هي بالتيوتون وبثقافتهم ومن التيوتون كان الألمان أسماهم وارفعهم شأناً لأنهم ورثوا خير فضائل الاغريق والهندوروپيين. وهذا ما يمنحهم حق السيادة على العالم "أن اللّه يبني صرح اليوم على الألمان وحدهم... هذه هي المعرفة، الاكيدة والحقيقة التي أفعمت بها روحي عدة سنين".

خلق نشر "أسس القرن التاسع عشر" شيئاً يشبه الضجّة. وأصعد الانكليزي الغريب الى عالم الشهرة فجأة في ألمانيا. ومع غلبة الفصاحة عليه، وأسلوبه المحكم- لأن چمبرلين كان أديباً فناناً مطبوعاً- فقراءته ليست سهلة. لكن سرعان ما تخاطفته ايدي الطبقة العليا التي بدت وكأنها وجدت فيه ما نشدت الأيمان به وبلغت طبعاته ثمانياً خلال عشر سنوات وبيع منه ستون ألف نسخة وفي أيام

نشوب الحرب العظمى الأولى ١٩١٤. كان ما بيع منه مائة ألف. وراج ثانية في عهد النازية واتذكر إعلاناً عن الطبعة الرابعة والعشرين منه في ١٩٣٨. في هذا التاريخ وصل ما بيع منه أكثر من ربع مليون نسخة.

ومن أول قرائه وأكثرهم تحمساً، القيصر ڤلهلم الثاني. فقد دعا (چمبرلين) الى قصره في (پوتسدام) وتوثقت من أول مقابلة بينهما عرى صداقة استمرت حتى نهاية حياة المؤلف ١٩٢٧. وتواصلا بمراسلات طويلة فيما بعد. وكان بعض الرسائل الثلاث والأربعين التي وجهها چمبرلين للقيصر (أجاب ڤلهلم على ثلاث وعشرين منها) مقالات أو مواضيع مسهبة استخدمها الإمبراطور في عددٍ من خطبه الرنانة وتصريحاته الطنانة. وكتب القيصر في احدى رسائله اليه "إن الله هو الذي أرسل كتابك الى الشعب الألماني وأرسلك اليّ شخصياً". كان تذلل (چمبرلين) ومبالغته في المداهنة والملق مما يصيب المرء بالقيء. كتب يقول "إنك يا صاحب الجلالة وشعبك قد ولدتما في هيكل مقدس"، وأخبر ڤلهلم بأنه وضع صورته في مكتبه مقابل صورة المسيح للرسام (ليوناردو) حتى اذا ما قام يتمشى كما اعتاد أن يفعل أثناء العمل، فانه يروح ويغدو بين صورتي مخلّصه وملكه.

ولم تمنعه عبوديته من عرض النصائح بإستمرارٍ على الملك الصلب الرأس الشديد الغرور. وفي ١٩٠٨ بلغت المعارضة العامة لڤلهلم ذروتها مما ألجأ الرايخشتاغ الى منعه من التدخل السيء النتائج في الشؤون الخارجية. إلا أن چمبرلين نصح الإمبراطور بأن الرأي العام يكوّنه البُلْه والخونة وعليه ألا يكترث به، فما كان من ڤلهلم إلاّ أن اجاب أن كليهما سيقفان معاً "انت تشرع قلمك، وأنا لساني [و] سيفي العريض".

وظلّ الانكليزيّ يذكّر الإمبراطور برسالة ألمانيا ومصيرها فكتب له بعد نشوب الحرب العالمية الأولى "ما ان تجمع ألمانيا السلطان في يدها -ولنا ان نتوقع ذلك بكلّ ثقة- حتى يتحتمّ عليها البدء في تطبيق السياسة العلمية للعبقرية. لقد اضطلع (اغسطس) بمهمة تغيير العالم بقواعد تنظيمية، وعلى ألمانيا ان تفعل المثل... مجهزة بأسلحة دفاعية وهجومية، منظمة تنظيم الجيش الدقيق المتراص البنيان. متفوقة على الجميع في الفن والعلم والتكنولوجيا والصناعة والتجارة والمال، في كل حقل، وبالاختصار، معلمة وقائدة دفة، ورائدة للعالم، كلّ رجلٍ في مجال عمله، كل رجل يقدم اقصى ما يمكن بذله للقضية المقدسة- وهكذا... ستفتح ألمانيا العالم بتفوقها الذاتي".

ولتبشيره بهذه الرسالة المجيدة لوطنه المتبنّى (أصبح متجنساً بالجنسية الألمانية ١٩١٦) في متنصف فترة الحرب. قلّده القيصر وسام الصليب الحديديّ.

لكن أثر هذا الرجل الانكليزي على الرايخ الثالث كان الأكبر والأعمق مع انه لم يكتحل بمرآه. فقد مات قبل قيامه بست سنوات على انه تبنأ به، واخذ عنه النازيون نظرياته العرقية واحساسه الملتهب برسالة الألمان وألمانيا وعظموه كنبيّ من انبيائهم. وانصبّت الكتب والكراريس والمقالات أيام حكم النازيين من المطابع تمجّد "المؤسس الروحيّ" لألمانيا القومية الإشتراكية. وحاول (روزنبرگ) كثيراً بوصفه أحد مثقّفي هتلر، إظهار اعجابه وتحمسه للفيلسوف الانكليزي أمام (الفوهرر). ومن المحتمل

أن أول معرفة هتلر بكتابات چمبرلين كان قبل نزوحه الى ڤيينا، لأنها كانت منتشرة بين الألمان الوحدويين Pan Germanis والجماعات المعادية للسامية التي انكب يلتهم أدبياتها بشراهة في أيامه الأولى تلك، ومن المحتمل أيضاً أنه قرأ بعض مقالاته الشوڤينية أثناء الحرب. واظهر في (كفاحي) أسفه لأن آراء چمبرلين لم تعط ما تستحق من الإهتمام أثناء قيام الرايخ الثاني.

كان چمبرلين واحداً من أوائل المثقفين في ألمانيا الذين توقعوا مستقبلاً عظيماً لهتلر وفرصاً جديدة للألمان إن تبعوه. لقد إلتقى هتلر به في (بيروث) ١٩٢٣ ومع انه كان مريضاً نصف مشلول تشيع في نفسه الخيبة من جراء هزيمة ألمانيا وسقوط إمبراطورية آل هوهنزلرن وفيها إنهيار كل آماله وبطلان كلّ نبوآته!- ما كان منه إلاّ ان استوى قائماً على رجليه بتأثير بلاغة النمساوي الشاب. وأسرع يكتب اليه في اليوم التالي: "ستقوم بأعمالٍ خارقة... لم يهتز إيماني بالجرمانية لحظة واحدة وان كان أملي - وانا أقرّ بهذا- قد تدنى الى الحضيض... بضربة واحدة أحدثت تغييراً تاماً في حالتي الروحية. ان ألمانيا برهنت على حيويتها الدفاقة بولادتها هتلراً في اشد وقت من اوقات الضيق. كما تفعل المؤثرات التي تنبثق منه، ان هاتين الشعبتين (الشخصية والتأثير) تعودان إحداهما الى الأخرى... وانيّ لأرجو من الله ان يرعاك!"

جرى هذا في وقت كان أدولف هتلر، بشارب شارلي شابلن، وطباعه العربيدة وتطرفه العنيف المستهجن، يعتبر مسخرةً ودعابة عند معظم الألمان. لايلتف حوله إلاّ قليل من الأعوان. إلاّ ان مغنطيسيّة شخصيته الجاذبة عملت عمل السحر في الفيلسوف الشيخ وجددت إيمانه في الأمة التي اختارها واشاد بها. وأصبح چمبرلين عضواً في حزب النازي الوليد وبدأ يكتب بقدر ما سمحت له حالته الصحية- لمنشوراته الخاملة. وفي إحدى مقالاته المنشورة في ١٩٢٤ حيّا هتلر الذي كان آنذاك سجيناً ووصفه بقَدَر الله الذي أرسله لقيادة الشعب الألماني. القدر اختار ڤلهلم الثاني لكنه اخفق، والآن ها هنا أدولف هتلر. احتفل بالميلاد السبعين لهذا الانكليزي الشهير في ٥ أيلول ١٩٢٥ بافتتاحية تتألف من خمسة اعمدة في جريدة (فولكشر بيوباختر) النازية ووصفت كتابه "الأسس" بأنه "انجيل الحركة النازية" وبعد ستة عشر شهراً أسجي في قبره (١١ كانون الثاني ١٩٢٧) مفعماً بأعرض الأمال في أن ما بشّر به وتنبأ، سيكتب له التحقيق بالهدي الإلهي لهذا المسيح الألماني الجديد.

كان هتلر الشخصية الشهيرة الوحيدة التي حضرت جنازة چمبرلين الى جانب أحد الأمراء ممثلاً عن القيصر ڤلهلم الثاني الذي لم يكن يستطيع العودة الى الارض الألمانية. وذكرت (فولكشر بيوباختر) في خبر نعي الانكليزي أن الشعب الألماني فقد "واحداً من أعظم صانعي السلاح. لم تستخدم بعد أسلحته إستخداماً كاملاً حتى يومنا هذا" وما كان ليتسنىّ قط لا للشيخ نصف المشلول الذي يعاني سكرات الموت ولا حتى لهتلر نفسه ولا لأي شخص آخر في ألمانيا أن يتكهن في ذلك الشهر الغائم كانون الثاني ١٩٢٧ عندما كانت أحوال الحزب النازي قد تردّت وسفّت الى الحضيض[٣٧]، كم سيكون

٣٧- إن البحث ابتداءً من چمبرلين حتى فخته وهيگل مبنيّ على آثار المؤلفين وعلى بعض التفاسير والمقتبسات من =

سريعاً وسريعاً جداً إستخدام تلك الاسلحة التي زيفها هذا الانكليزي الذي نما في تربة غير تربة اجداده. وكم سيبلغ إستخدامها من اتقان وكمال، بل اية نتائج مريعة كان سيسفر عنه استخدمها.

على ان هتلر كان يحسّ احساساً دفيناً برسالته في العالم، ذلك الحين أو قبله. فكتب يقول "من ملايين الرجال... رجلٌ واحد يجب ان يبرز الى أمام، رجل يبني بالقوة الغاشمة apodictie مبادىء في صلابة الصخر الصواني من مُثُل العالم المتخاذلة لأوسع الجماهير ويضطلع بأمر الكفاح في سبيل تصحيحها ليخرج من الموج السريع للفكر العالمي الحر جرف صخري اشم للوحدة المكنية في الإرادة والإيمان(٣٨).

ولم يترك شكاً في عقول قرائه بأنه يعتبر نفسه ذلك "الرجل الواحد". و(كفاحي) مطرز بمقالات صغيرة عن دور العبقري الذي اناطت به العناية الإلهية قيادة شعب عظيم وانتشاله من متاعبه والوصول به الى المجد المؤثل. وان لم يفهمه ذلك الشعب في مبدأ الأمر أو يقدّر قيمته. ويدرك القارىء بهذه العبارة الأخيرة أن هتلر انما يشير الى حالته الزرية آنذاك فالعالم لم يعرفه بعد على حقيقته. لا بأس، فهذا هو حظّ العباقرة في مبدأ حياتهم دائماً. ومن الضروري أن يوجد مؤثر من المؤثرات لدفع العبقري الى المرسح وعندئذ تبدأ مقاومة العالم ويأبى أن يؤمن بأن النوع الذي يلائمه في الظاهر انما هو كائن مختلف جداً حتى يجد ذلك فجأة. وتلك هي الحكاية نفسها تتكرر عند كل عظيم من بني الإنسان... إن شرارة العبقرية هي في دماغه الخلاق الحقيقي منذ ساعة ميلاده، والعبقري الأصيل هو عبقري بالفطرة ولا يكسب عبقريته بالتثقيف والعلم(٣٩).

أما من ناحية الكيف والنوع فيرى أن الرجل العظيم صانع التاريخ هو "مزيج من السياسي الواقعي والمفكر" يتفق في فترات طويلة من تاريخ البشرية ان يحصل إندماج في شخصية السياسيّ والنظري. وكلما ازداد إندماجهما عمقاً كلما كثرت العوائق التي تعترض سبيل السياسي وهو لايعود يعمل للحاجات التي يفهمها أول (بقّال) جيدّ لكنه يعمل لأهداف لايفهمها إلاّ النزر اليسير من الناس. لذلك توزعت حياته بين الحبّ والبغض. إن معارضة الحاضر الذي لايفهمه انما هو كفاحه في سبيل

= جمهرة من الكتاب مثل "الفلسفة الألمانية وسياستها" بقلم جون ديوي John Dewey، و"الكارثة الألمانية" بقلم فردريك وينگ و"حلّ المسألة الألمانية" بقلم ڤلهلم رويبكه، و"تاريخ الفلسفة الغربية" بقلم برتراند رسل وكتاب "هكذا تكلم زرادشت" طبعة" و. و. كول "W. W. Coole" و"م. ف. بوتر M. F. Potter ". والرايخ الثالث نشره باومنت فريد وڤريمي. و"القومية الألمانية: مأساة شعب" بقلم لويس شنايدر Snyder و"التاريخ الألماني: نظرات جديدة عامة" نشره هانس كون Hans Cohn. و"قيام وانحلال النازية الألمانية" بقلم "ت. ل. يارمان T. L. Jarman. و"الفوهرر" بقلم كونراد هايدن. و"مسرى التاريخ الألماني" لتايلور. و"ألمانيا المعاصرة" بقلم ادموند ڤريمي. و"تاريخ ألمانيا" بقلم هرمان بينوف. ودراسة "ي.ايك E. Eayck"، "بسمارك والإمبراطورية الألمانية"، قيمة جداً في هذا الصدد. إن ضيق المجال في كتاب مثل هذا حال دون بحث تأثير عدد من المفكرين الألمان في قيام الرايخ الثالث. وكانت كتاباتهم معروفة واسعة الانتشار مثل: شليگل Schlegel وج. كويرس J. Coerres ونوڤالس Novalis وارندت Arndt ويان Jahn ولاغارد La-garde وليست ودرويسن Droyson ورانكه ومومسن Mommsen وقسطنطين فرانتر وشتويكر Stoecker وبرنهاردت كلاوس ڤاگنر Bernhardt Klaus Wagner ولانكبين Langbehn ولانغ Lang وشبنگلر.

٣٨- كفاحي ص٣٨١.

٣٩- المرجع السالف ص٢٩٣.

اعتراف الجيل الآتي به وهو الهدف الذي يعمل له ذلك الرجل وهكذا كلما عظمت أعمال الرجل لأجل المستقبل كلما قل فهم الحاضر لتلك الأعمال فاشتد في قتاله صلابة وعنفاً[٤٠].

كتبت هذه الأسطر في العام ١٩٢٤ حين كانت قلة من الناس تعلم ما يجول في رأس الرجل وهو نزيل السجن يجرّ اذيال الخيبة، وخمول الصيت بعد اخفاقه في مؤامراته. تلك الأوپرا الهزلية! غير ان ثقته بنفسه لم تتزعزع وشكه في صدق رسالته لا مكان له. ونحن لاندري أقرأ لـ(هيگل) أم لا، لكن يتضح جداً من كتاباته وخطبه أنه كان واقفاً على شيء من آراء هذا الفيلسوف. هذا إن ظلّ قانعاً بما كسبه منها خلال احاديثه مع معلميه الأوائل (روزنبرگ وإيكارت وهيس) ولم يزد عليها. غير أن دروس (هيگل) الشهيرة في جامعة برلين لابدّ استرعت إهتمامه كما وأنه اقتبس ما لايحصى من أقوال (نيتشه) الفيلسوف الألماني.

كنا فيما سلف، قد اتينا باختصار على مصادر نظرية (هيگل) في الأبطال تلك النظرية التي سحرت العقل الألماني. كان قد شرح في أحد دروسه الجامعية ببرلين كيف ينجز "أفراد التاريخ العالميّ" إرادة روح العالم قال "قد يسوغ تسميتهم (بالأبطال) ما داموا يستمدون غاياتهم ودعاواهم لا من السبيل المنتظم الهادىء للأشياء التي اقرها النظام الحالي بل من الواجهة المخفية من الروح الدفينة التي ما تزال كامنة تحت السطح تطلع impisge على العالم الخارجي قشرة وتنفجر الى شظايا. كذا كان الاسكندر وقيصر ونابوليون رجالاً سياسيين عمليين. الا انهم كانوا في الوقت نفسه أناساً مفكرين ذوي بصيرة نافذة في متطلبات العصر الناضجة للتطور. تلك هي الحقيقة نفسها لعصرهم ولدنياهم... ومن شأنهم وحدهم أن يعرفوا هذا المبدأ الأولي، الضرورة، الخطوة المباشرة التالية في النجاح. انها دنياهم التي يأخذونها أخذاً وان يجعلوا ذلك هدفهم وأن يوقفوا نشاطهم على تطويرها. رجال التاريخ العالمي، أبطال عصر من العصور. يجب والحالة هذه أن ينظر اليهم بإعتبارهم رجالها الواضحي التفكير، وأعمالهم وكلماتهم هي خير ما في أزمانهم[٤١].

لاحظ المشابهة بين هذه الفقرة والمقتبس الذي سبقها من (كفاحي)، اندغام السياسي والمفكر الذي يولد بطلاً "شخصية التاريخ العالمي" الإسكندر، قيصر، نابوليون إن وجد فيه هذا الازدواج الذي كان فيهم وهو ما أصبح هتلر على اتم الثقة منه. فلماذا لايصبر الى أن يدخل في عدادهم؟

في أقوال هتلر توجد نغمة سائدة وهي ان الزعيم الأعلى وهو فوق أخلاق الإنسان العاديّ وهذا هو تفكير (هيگل) ونيتشه أيضاً وقد رأينا فكرة (هيگل) "ان الفضائل الخاصة" و"الحقوق الأخلاقية المزعومة" يجب ألاّ تقف في طريق الحكام العظام وان لاتغلب الصّفراء عليهم إن وطئوا الأبطال أو "سحقوا" كثيراً من الأزهار البريئة وهم في طريقهم الى مصائرهم. أما (نيتشه) فقد ذهب الى أبعد من هذا كثيراً في مبالغته الغريبة:

"يتخذ الرجل القويّ السيّد، ذلك الضمير النقيّ للوحش المفترس، الوحوش مملوءة فرحاً اذ تعود بعد

٤٠- المرجع السالف الص٢١٢-٢١٣.
٤١- (هيگل) دراسات في فلسفة التاريخ الص ٢١-٣٢. اقتباس بوللوك، المرجع نفسه ص٣٥١.

متواليات مخيفة من القتل والحرق والاغتصاب والتعذيب بالفرح نفسه في قلوبها، بالرضى نفسه في أنفسها كأنما هي منهمكة في مرح طالب مدرسة... عندما يكون المرء قادراً على إلقاء الأوامر، عندما يكون "سيّداً" بطبيعته، عندما يكون عنيفاً في قوله وعمله، فما هي أهمية العهود عنده؟... إن اردنا الحكم على الأخلاق حكماً صحيحاً، فعلينا أن نستبدلها بمفهومين مستعارين من علم الحيوان: تدجين الوحش وتوليد نسلٍ خاص"[٤٢].

هذه التعاليم التي بلغت غايتها القصوى بـ(نيتشه) ولهج بها عدد كبير من الألمان الأقل منه شهرة يبدو أنها استهوت هتلر[٤٣]:

عبقريّ ذو رسالة هو فوق الشرائع. لايمكن أن تشدّه قيود الأخلاق "البرجوازية" لذلك فعندما تحين ساعة العمل يستطيع هتلر تبرير أقسى الأعمال وأشدّها وحشية ودموية، من خنق حرية الفرد الى ممارسة عمل السخرة الوحشيّ الى فظائع معسكرات الاعتقال الى المذبحة التي دبرّها لأتباعه في حزيران ١٩٣٤ الى قتل اسرى الحرب، الى ذبح اليهود بالجملة.

عندما أطلق سراح هتلر من سجن لاندسبرگ قبيل عيد الميلاد بخمسة أيام (١٩٢٤) وجد وضعاً قد يضطر أي شخص آخر غيره الى الانسحاب من الحياة السياسية. فقد حُلّ الحزب ومنعت مطبوعاته والزعماء السابقون يتناحرون فيما بينهم ويبتعدون عن العمل، وحُظر عليه بالذات أن يخطب في الإجتماعات العامة والأنكى من هذا كله أنه كان يواجه مشكلة إبعاده الى وطنه النمسا. فقد اوصت الشرطة البارڤارية توصية قوية بذلك في تقرير رفعته الى وزارة الداخلية. حتى العدد الكبير من رفاقه القدامى كانوا متفقين في الفكرة العامة وهي أن هتلر انتهى وسيضيع في زوايا النسيان كما ضاع الكثير من ساسة الأقاليم الذين استمتعوا بشهرة قصيرة الأمد أثناء سنوات القحط العجاف عندما بدا وكان الجمهورية ستخرّ على ركبتيها[٤٤] متقوضة.

لكن الجمهورية صمدت للعواصف والأنواء، والآن بدأ يدبّ فيها الانتعاش. فأثناء ما كان هتلر في السجن استدعت الحكومة أحد السّحرة الماليين وهو (الدكتور يلمار هوراس كريلي شاخت Dr. Hjalmar Horace Greeley Schacht) لمعالجة استقرار العملة فنجح. وانتهى عهد التضخم المهلك. وخفف مشروع داوس Dawes عبء التعويضات عن البلاد، وبدأت رؤوس الأموال تتدفق من أمريكا. واخذ الإقتصاد الوطني يتماثل الى الشفاء بسرعة. وكان نجاح (شتريزمان) في سياسة التصافي مع الحلفاء مطرداً وشرع الفرنسيون يجلون عن الروهر ووضع في المداولة ميثاق ضمان قد يمهّد الطريق الى تسوية

٤٢- وردت في [الرايخ الثالث] طبعة باومنت الص٢٠٤-٢٠٥ من كتابي نيتشه "في الإرادة والقوة Der Wille Zur Macht" و"أسس الخلق Zur Genealoge der Morale".

٤٣- انظر ما سبق عن المقتبسات في كفاحي.

٤٤- في ١٩٢٩ كتب الأستاذ (م. ا. غيروثفول M. A. Gerothuole) ناشر يوميات اللورد دابرنون D`Abernon حاشية تعقيبية على مؤامرة مشرب البيرة. فبعد ذكره الحكم على هتلر بالسجن خمس سنوات اضاف يقول: "أخيراً أخلي سبيله بعد ستة أشهر. مع عفو مشروط عن البقية وبهذا ضاع في زوايا النسيان" كان اللورد دابرنون السفير البريطاني في برلين من ١٩٢٠ حتى ١٩٢٦ وعمل بحذق عظيم لتقوية جمهورية ڤايمر.

أوروبية عامة في (لوكارنو Locarno) ودخول ألمانيا الى عصبة الأمم. ولأول مرة بعد الهزيمة، بعد ستّ سنوات من التوتّر والفوضى والكساد بدأ الشعب الألماني يحيا حياة عادية هادئة. وقبل اخلاء سبيل هتلر بأسبوعين زادت أصوات الديمقراطيين الإشتراكيين –أو مجرمي تشرين كما يسميهم– بثلاثين بالمائة (ما يعادل ثمانية ملايين صوت تقريباً) في الإنتخابات العامة مما شد من أزر الجمهورية. أمّا النازيون الذين خاضوا الإنتخابات بقائمة موحدة مع جماعات قومية شمالية باسم "حركة القوميين الإشتراكيين للتحرر الألماني" فقد انخفضت أصواتهم من مليونين في ١٩٢٤ الى اقل من مليون في كانون الثاني. وبدت النازية كأنها تحتضر. كانت قد نمت نمواً طفيلياً على مصائب البلاد، والآن بدا مظهر البلاد وضاءً لامعاً على حين غرة فاذا بالحركة تضمحل بسرعة أو هذا ما اعتقده أغلب الألمان والمراقبين الأجانب.

أما هتلر فلا! فهو ليس ممن يسلمون بالاخفاق بسهولة وهو يعرف كيف يصبر. عاد يمسك بخيوط حياته في شقته ذات الغرفتين في الطابق الأعلى من رقم ١٤ تيير شتراسّه بمونيخ طول أشهر شتاء ١٩٢٥ وبمجيء الصيف انتقل الى مختلف المشارب في (أوبرسالزبرگ) شمال برختسگادن. وأفادته تأملاته في الكوارث وفي الماضي القريب وكسوف شمس الحاضر لتقوية عزماته ليس غير. ووفر له سجنه وقتاً كافياً لتحليل ماضيه وإنتصاراته واخطائه، فضلاً عن ماضي شعبه الألماني المصطخب وإنتصاراته واخطائه وأصبح الآن يراها بشكل اوضح. وولد فيه مجدداً شعور محرق برسالته –لنفسه ولألمانيا– استبعدت منه كُلّ الشكوك. وفي فورانه الروحي هذا، اكمل إملاء سيل من الالفاظ أصبحت الجزء الأول من (كفاحي) ثم اشفعها بالمجلد الثاني. مخطط لما دعاه اليه الله في هذا العالم المتلاطم ولفلسفة "الحياة" التي تحكمه وتحفظه، كل ذلك دُوّن في كتاب مطبوع لايصعب على المرء أن يتأمل محتوياته. تلك الفلسفة مهما بلغت من الخيال، فلها جذورها العميقة في الحياة الألمانية كما رأينا. ربما بدا المخطط محالاً لأغلب عقليات القرن العشرين حتى في ألمانيا. إلاّ انه يحوي ايضاً، منطقاً معيناً. أنه يعرض رؤيا ونبوءة. ويتقدّم بإستمراريّة التاريخ الألماني– وإن لم يتبين ذلك في حينه إلاّ للقلّة. انه يشير الى الطريق المؤدي الى المستقبل الألماني المجيد.

الكتاب الثاني

النصر واستثمار الفوز

الفصل الأوّل

الطريق الى السلطة ١٩٢٥-١٩٣١

-١-

كانت السنوات المبتدئة بالعام ١٩٢٥ حتى ظهور أزمة الكساد الإقتصادي في ١٩٢٩ سنوات عجافاً لأدولف هتلر والحركة النازية إلاّ أنها كانت إمتحاناً لصلابة الرجل المثابر الذي لم يفقد الأمل والثقة قطّ. فرغم طبيعته السريعة الإنفعال التي كثيراً ما ادت به الى انفجارات هستيرية، كان فيه الصبر الطويل على الأنتظار والبصيرة النافذة ليدرك أن مناخ الرفاه الماديّ والشعور بالطمأنينة الذي خيّم على ألمانيا في تلك الأيام لايلائم غاياته.

كان واثقاً أن الأيام الطيبة لن تدوم قدر ما يتعلق الأمر بألمانيا يقول انها لاتعتمد على قوتها بل على قوة الآخرين على أمريكا بالدرجة الأولى التي تنصبّ القروض من خزائنها المتخمة لتشيع الرخاء في ألمانيا وتبقيه. وقد بلغ مجموع ما إستدانه الألمان بين العامين ١٩٢٤ و١٩٣٠ سبعة بلايين دولار تقريباً ومعظمه جاء من المستثمرين الأمريكان الذين لم يفكروا كثيراً في كيفية إيفاء الألمان تلك الديون عند الحساب الأخير. وكان الألمان أقل تفكراً في ذلك.

إستدانت الجمهورية لتدفع تعويضاتها وتزيد من خدماتها الإجتماعية التي كانت نموذجاً يحتذى في العالم. واستدانت الدول الإتحادية والمدن والبلديات لا لتمويل مشاريع الإصلاح التي مست اليها الحاجة فقط بل لإنشاء المطارات، والمسارح وبناء الملاعب الرياضية واحواض السباحة العصرية. والصناعة التي مسحت ديونها مسحاً في فترة التضخم النقدي استدانت البلايين لتبديل آلاتها وتحسين أساليب إنتاجها. وما لبثت حصيلتها من الإنتاج الذي كان في ١٩٢٣ قد انخفض عن إنتاج ١٩١٣ بنسبة ٥٥٪، أن ارتفع الى ١٢٢٪ في ١٩٢٧ ولأول مرة من تاريخ الحرب هبطت نسبة البطالة الى ما تحت المليون. ثم إنخفضت الى ستمائة وخمسين ألفاً فقط في ١٩٢٨ وفي هذا العام إرتفع البيع بالمفرد بنسبة ٢٠٪ عمّا كان في ١٩٢٥ وفي السنة التالية وصلت الاجور الحقيقية رقماً يعلو بنسبة ١٠٪ عما كان قبل أربع سنوات. واما الطبقة البرجوازية الصغيرة، بكل ملايينها من أصحاب الحوانيت والموظفين ذوي الرواتب المنخفضة ممن استمد هتلر عونه الجماهيريّ، فقد نالوا سهمهم من الرخاء العام.

ومعرفتي الخاصة بألمانيا بدأت في تلك الأيام. كان مقري باريس وكنت اختلف الى لندن آنذاك.

ومع الفتنة التي كانت هاتان العاصمتان تخلفانها في فتى أمريكي سعد بفراره من فراغ وملالة عصر كلڤن كوليدج Calvin Coolidge الذي لايحتمل، فأثرهما كان ينكسف قليلاً عندما يأتي المرء الى برلين ومونيخ. كان ثم خميرة عجيبة تعمل عملها في ألمانيا. الحياة بدت فيها أكثر حريةً وتمدناً وإثارة من أيّ بلادٍ رأيتها. فليس ثم مكانٌ إزدهرت فيه الفنون والحياة الفكرية قدر ما إزدهرت هناك. وقد وجدت الكتابة المعاصرة والرسم والفنّ المعماري والموسيقى والدراما إتجاهات جديدة وأينع فيها نبوغ رائع وفي كل مكان كنت ترى مظهر الفتوة الناشطة. وقد يجلس المرء مع الشباب طول الليل في المقاهي الخلوية، والمشارب الهادئة ومخيّمات الصيف، أو على ظهر بواخر النزهة في نهر الراين أو في استديو فنان يعبق دخان التبغ في فضائه تصغي إليه وهو يسهب في الحديث عن الحياة وطيبها. كانوا اصحاء، خاليي البال، عباد الشمس والهواء الطلق، ممتلئين بشوق دفاق الى طيب الحياة ولذة العيش، ينعمون بحرية كاملة. وبدت الروح البروسية القديمة المزهقة للانفاس ميتة مقبورة. وتصيبك الدهشة حين تجد معظم من تلقاهم، من الساسة والكتاب والمحررين، والفنانين والاساتذة والطلاب ورجال الأعمال، ورؤساء النقابات العمالية ديمقراطيين، أحراراً بل حتى دعاة سلام.

من النادر أن يسمع المرء بهتلر أو النازيين إلاّ في مجال الدُّعابة والنكتة. (عادةً في معرض التعليق على إنقلاب مشرب البيرة كما عرف بهذا الاسم). في إنتخابات ١٩٢٨ (٢٠ أيار) حصل الحزب النازي على (٨١٠٠٠٠) صوت في أصل المجموع العام البالغ (٣١) مليون صوت ولم يكن لديه في الرايخشتاغ غير بضعة عشر مقعداً من مجموع (٤٩١). وخسر القوميون المحافظون خسارة جسيمة فقد هبط عدد أصواتهم من ستة ملايين في ١٩٢٤ الى أربعة ملايين وتقلصت مقاعدهم في البرلمان من (١٠٣) الى (٧٣) في حين كسب الديمقراطيون الإشتراكيون مليوناً وربع مليون صوت في ١٩٢٨ وضمن لهم فوزهم الكليّ البالغ أكثر من تسعة ملايين صوت مائة وثلاثة وخمسين مقعداً في البرلمان ليجعلهم بكلّ سهولةٍ أكبر حزبٍ سياسي في ألمانيا. وبدا أن الجمهورية الألمانية بعد نهاية الحرب بعشر سنوات قد أصبحت قادرة على الوقوف على قدميها.

بلغ عدد أعضاء الحزب القومي الإشتراكي في تلك السنة التذكارية ١٩٢٨، ما لايزيد عن (١٠٨٠٠٠) وبهذا العدد الضئيل كان ينمو ببطء. فبعد أسبوعين من مغادرة هتلر السجن في نهاية ١٩٢٤ هرع الى مقابلة الدكتور هاينريخ هلد Heinrich Held رئيس وزراء باڤاريا وزعيم حزب الشعب الباڤاري الكاثوليكي. وإعتماداً على وعده بحسن سلوكه (كان هتلر تحت طائلة العفو المشروط) رفع (هلد) الحظر عن الحزب النازي وصحيفته. وقال الرئيس لوزير عدله گورتنر Guertner "لقد كبح جماح الوِحش. وبامكاننا إرخاء السلسلة". كان رئيس الوزراء الباڤاريّ واحداً من أوائل السياسين الألمان وليس آخرهم ممن وقع في خطأ سوء التقدير الفاحش.

ظهرت (الڤولكشر بيوباختر) في ٢٦ شباط ١٩٢٥ بافتتاحية طويلة عنوانها "بداية جديدة" كتبها هتلر. وفي اليوم التالي خطب في أول إجتماع عام للحزب النازي الململوم الشعث في قاعة البيرة،

التي رآها هو وأعوانه المخلصين لآخر مرة في صبيحة يوم ٩ تشرين الثاني، قبل عامٍ ونصف عامٍ عندما بدأوا مسيرتهم الفاشلة. وكان كثير من المخلصين غائبين. (فإيكارت وشويبنر-ريختر) في عالم الأموات (وگورنگ) في المنفى و(لودندورف وروهم) قد تقطّعت الأسباب بينهما وبين هتلر، و(روزنبرگ) يحترب مع (شترايخر)، و(إيسّر) منكمش بعيد عن الحزب. كذلك الأمر بگريكور شتراسّر Gregor Strasser الذي قاد مع (لودندورف) "حركة القوميين الإشتراكيين للتحرر الألماني" عندما كان هتلر خلف القضبان والحزب النازي محظور. وعندما طلب هتلر من (انطون دركسلر) تصدّر الإجتماع أجابه صانع الاقفال القديم ومؤسس الحزب "أن يذهب الى جهنم" ومع ذلك فقد حضر حوالي أربعة آلاف من الأتباع في قاعة البيرة ليسمعوا هتلر ثانية ولم يخيب ظنهم فيه فبلاغته وفصاحته كما كانتا دوماً لم تفقدا سحرهما. وبعد ساعتين من الكلام الدفاق راح هدير أصوات الاستحسان يزلزل أركان القاعة. واوضح هتلر بصراحة- رغم فرار الكثير من صفوف الحزب ورغم المستقبل القاتم انه مازال يعتبر نفسه زعيم الحزب والدكتاتور قائلاً: "أنا وحدي أقود الحركة ولا أحد يمكن أن يفرض عليّ شروطاً ما دمت أتحمل المسؤولية شخصياً" واستطرد "للمرة الثانية اتحمل المسؤولية عن كلّ شيء يعنّ للحركة".

ذهب هتلر الى الإجتماع وقد صحّ عزمه على هدفين كان ينوي إتباعهما منذ تلك الساعة. أولهما تركيز كلّ السلطة في يديه وثانيهما إعادة تنظيم الحزب النازي على أساس حركة سياسية تعمل للوصول الى الحكم بطرق دستورية فحسب. كان قد شرح أسلوب العمل الجديد لأحد أعوانه المدعو (كارل لودكه) أثناء وجوده في السجن فقال: "عندما استأنف العمل الفعليّ فمن الضروري اتخاذ سياسة جديدة. فبدلاً من العمل على الوصول الى الحكم بإنقلاب مسلح ثانٍ، علينا ان نحافظ على أنوفنا وندخل الرايخشتاغ ضد الكاثوليك والماركسيين الأعضاء إن اقتضى منا الفوز عليهم في الإنتخابات وقتاً أطول من رميهم بالرصاص فعلى الأقل فان النتيجة سيضمنها لنا دستورهم. كُلّ أسلوب عملٍ قانوني يتسمّ بالبطء... وسنحرز الأغلبية عاجلاً أم آجلاً - وبعدها سنحرز ألمانيا[1]."

ولقد أكد لرئيس الحكومة الباڤاري بُعيد إخلاء سبيله من لاندسبرغ أن الحزب النازي سيعمل منذ الآن فصاعداً ضمن إطار الدستور.

لكنه سمح لنفسه ان ينطلق بلا ضابطٍ، بتأثير حماسة الجماهير عند عودته الى الظهور في إجتماع قاعة البيرة في ٢٧ شباط. وكانت تهديداته للدولة مكشوفة. وقال إن النظام الجمهوريّ، مع الماركسيين واليهود هم "العدوّ". وصرخ في موقف خطابيّ "في كفاحنا هذا هناك مخرجان محتملان لا ثالث لهما: إما أن يمرّ العدو على جثثنا أو أن نمرّ على جثثهم!"

يظهر أن "الوحش المفترس" لم يكبح جماحه قطّ. كما اتضح من أول ظهور عامٍ له بعد سجنه. فها

١- كارل لودكه "عرفت هتلر" الص٢١٧-٢١٨.

هو يعدو لتهديد الدولة بالعنف رغم وعده بحسن السلوك فسارعت الحكومة الباڤارية بمنعه من الكلام في أيّ إجتماع عامٍ –دام ذلك المنع سنتين– وحذت الدويلات الأخرى حذوها. فكانت ضربة هائلة لرجل يدين الى فصاحته الخطابية بمركزه الحالي. هتلر المقفل الفم، هو هتلر مغلوب، لا تأثير له مثل ملاكم مقيد اليدين في حلبة ملاكمة، أو هذا ما فكرّ معظم الناس.

لكنهم كانوا مخطئين أيضاً. لقد نسوا أن هتلر هو منظم كفء، مثلما هو ساحر اللسان. وسرعان ما كبح جماح غيظه لمنعه من الكلام في المحلات العامة. وراح يعمل بعزمٍ عنيف في إعادة بناء (الحزب القومي الإشتراكي للعمال الألمان) وليجعله منظمة لم ترَ ألمانيا مثلها قبلاً. وقصد ان يجعلها كالجيش– دولة داخل دولة. وكان عمله الأول اجتذاب أعضاء يدفعون إشتراكات بلغ تعدادهم في نهاية ١٩٢٥ (٢٧٠٠٠). وكان الارتفاع بطيئاً لكن الزيادة كانت ملحوظة بين سنة وأخرى (٤٩٠٠٠) عضو في ١٩٢٦ و(٧٢٠٠٠) في ١٩٢٧ و(١٠٨٠٠٠) في ١٩٢٨ و(١٧٨٠٠٠) في ١٩٢٩.

وأهم من ذلك إقامة هيكل بناء الحزب المعقّد الذي يطابق تنظيم الحكومة الألمانية الاداريّ والمجتمع الألماني في الواقع. كانت البلاد مقسمة الى مناطق أو "گاو Gaue" وهي تطابق تقريباً المناطق الثلاث والأربعين الإنتخابية لمجلس الرايخشتاغ. ويقوم على رأس كُلّ منطقة "گاولايتر Gauleiter" يعينه هتلر. وهناك سبع مناطق إضافية للنمسا ودانزگ والسار وأرض السوديت في چيكوسلوڤاكيا. و "الگاو" ينقسم الى "كرايسه kreise" أو دائرة. ويرأسها "كرايسلايتر kreisleiter"، وأصغر وحدة حزبية هي "اورتزكروپه Ortsgruppe– أو المجموعة المحلية. وفي المدينة تجزئة أخرى الى خلايا الشارع، والأحياء.

أما التنظيم السياسي للحزب فقد قسم الى قسمين: (پ. و. رقم واحد) كما دعي، وواجبه مهاجمة الحكومة والعمل على تقويضها. و(پ. و. رقم اثنان) ويستهدف إقامة دولة داخل دولة. ولهذا تجد في القسم الثاني دوائر للزراعة والقضاء، والإقتصاد الوطني، والداخلية، والعمل وبعين المستقبل: دائرتي الثقافة والعرق. والتخطيط. وفي المنظمة الأولى (P. O. 1) دوائر الشؤون الخارجية ونقابات العمال وصحافة الرايخ. أما قسم الدعاية فله دائرة خاصّة واسعة. وعندما إعترض بعض أعضاء الحزب الغلاظ وأوباش الشارع ومشاغبي مشارب البيرة على ادخال النساء والصبيان في الحزب. سارع هتلر في تأليف منظمات لهم أيضاً. فاختصت منظمة "شباب هتلر" بالفتيان الذين تتراوح اسنانهم بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة وألحقت بها دوائرهم الخاصة للثقافة والمدارس والصحافة والدعاية، "والرياضة الدفاعية" الخ... وأولئك الذين تتراوح أسنانهم بين العاشرة والخامسة عشرة ضموا الى منظمة "صبيان ألمانيا Deutscher Jungvolk". واستحدث للفتيات "عصبة فتيات ألمانيا Bund Deutscher Maedel" وللنساء "النساء القوميات الإشتراكيات N. S. Frauenschaften" وجعل لكلّ من الطلاب والمعلمين، والموظفين الحكوميين، والاطباء، والمحامين والقضاة، حلقاتهم المنفصلة. واستحدثت

عصبة الثقافة النازية Kulturbund، لاجتذاب المثقفين والفنانين.

وبعد مشاقٍ كبيرة، اعيد تنظيم الـ(إس. أي) الى عصابات تتألف من بضع مئات الالوف من الرجال لحماية الإجتماعات النازية، وايقاع الخلل في إجتماعات الآخرين، وبصورة عامة لإرهاب كلّ من يعارض هتلر. وكان أمل بعض قادته أن يروا الـ(إس. أي) يحلّ محل الجيش النظامي عندما يصل هتلر الى الحكم. ولتهيئة ذلك ألفت دائرة خاصّة برآسة الجنرال "فرانز ريترڤون إپ سميث" بمكتب سياسة الحرب Wehrpolitische Amt أقسامها الخمسة أوقفَت على مشاكل من أمثال سياسة الدفاع الخارجي والداخلي. وقوات الدفاع والمصادر العامة لشؤون الدفاع وما شاكلها. لكن الـ(إس. أي) ذوي القمصان الرمادية لم يغدُ غير عصابات من الرعاع الغوغائيين الصلفين. وكان كثير من قادتها الكبار ابتداءً من رئيسهم الأعلى (روهم) فجاراً منحرفين جنسياً سيّئي السمعة. ولم يكن الملازم ادموند هاينس Edmund Heines قائد فرقة الـ(إس. أي) في مونيخ، منحرفاً جنسياً فقط بل قاتلاً ومحكوماً سابقاً. هذان وعشرات غيرهم كانوا يتناحرون ويحتربون فيما بينهم بدافع تحاسدهم الغريب الذي ينبع عن سلوكهم الجنسيّ الشاذّ.

وخلق هتلر زمرة أكثر أهلاً للثقة وأقرب اليه: هي حرس S. S اختصاراً لـ(Schutzstaffel) وألبس أعضاءها ثياباً موحدة سوداء شبيهة بتلك التي اتخذها الفاشيست الإيطاليون زياً. وجعلهم يقسمون يميناً خاصة بالولاء له شخصياً وكان الـ(إس. إس) في مبدأ الأمر يزيد قليلاً عن حرسٍ خاص للزعيم. واول قائد له هو صحافيّ يدعي برختولد Berchtold. وهذا كان يفضل الهدوء النسبيّ لغرفة التحرير في (ڤولكشر بيوباختر) على تمثيل دور الشرطي والجندي فاستبدل بمن يدعى ايرهارد هايدن Erhard Heiden وهو شرطيٌ جاسوس ذو سمعة قذرة. ولم يجد هتلر رجله المثالي لقيادة الـ(إس. إس) إلاّ في ١٩٢٩. وجده بشخص مربيّ دجاجٍ ريفيّ في قرية (ڤالترودرنك Waldtrudering) قرب مونيخ. رجل هاديء الطبع يتوهم الناس به (كما توهم المؤلف عندما إلتقى به لأول مرة) فيحسبونه مدير مدرسة بلدة صغيرة. واسمه (هاينريخ هملر Heinrich Himmler). عندما تسلم هملر قيادة الـ(إس. إس) كان عدد أفراده يناهز المائتين. وفي الوقت الذي انهى عمله فيه، كان الـ(إس. إس) يهيمن على ألمانيا واسمه ينشر الرعب والهلع في كل ارجاء أوروبا المحتلة.

وفي قمة هرم التنظيم الحزبي المعقد، يستوي (هتلر) بعنوانه الفخم الطنان "Partei- und- Oberster- S. A. -Feuhrer, Vorsitzender du N.S.D.A.V" ويمكن ترجمته بما يلي: "الزعيم الأعلى للحزب ورئيس الـ(أس.أي) لمنظمة القوميين الإشتراكيين للعمال الألمان".

ويلحق بدائرته مباشرة "إدارة الرايخ Reichsleitung" التي تتألف من أقطاب الحزب وقادته وموظفين نافعين مثل "أمين خزانة الرايخ" و"ومدير أعمال تجارة الرايخ". والزائر البناية الرمادية Brown House الفخمة في مونيخ، وهي المقرّ القومي للحزب في أواخر سنيّ الجمهورية لايتمالك من الاقرار بأنه يجد أمامه دوائر دولة ضمن دولة. وهذا بدون شكّ الإنطباع الذي أراد هتلر ان يخلفه إذ يساعد على نسف

الثقة في الداخل والخارج- بالدولة الألمانية القائمة التي كان يحاول إسقاطها.

لكن هتلر كان عازماً على أمرٍ أهمّ من المظهر والإنطباع. فبعد ثلاث سنوات من وصوله الى الحكم وفي خطاب له موجه الى "المحاربين القدماء" في مساء التاسع من تشرين الثاني ١٩٣٦. قال شارحاً واحداً من أهدافه التي توخاها من بناء الحزب بهذا الشكل التنظيميّ الواسع الشامل التام الاستيعاب مستذكراً الأيام التي جرى فيها إعادة بناء الحزب بعد محاولة الإنقلاب "لقد أدركنا انه لايكفي اسقاط الدولة القديمة، بل يجب أن تبنى في وقت سابق لهذا، دولة جديدة لتكون مستعدة فعلاً وتحت متناول اليد... وفي ١٩٣٣ لم تعد المسألة مسألة اسقاط دولة بعملٍ عنيفٍ، في تلك الأثناء كانت الدولة الجديدة قد بنيت ولم يبق ما ينبغي عمله إلاّ تحطيم آخر بقايا الدولة القديمة- وهذا لم يقتضِ منا غير ساعات معدودات[٢]".

ومهما بلغت هذه المنظمة من الكفاءة ويسر الإدارة، فقد كانت متألفة من بشر معرض للخطأ. ففي تلك الأيام التي إنكفأ هتلر على صناعة حزبه وإعداده ليتسلم مصائر ألمانيا، ضاقت نفسه ذرعاً بالمتاعب التي خلقتها له تصرفات أعوانه الكبار. فهولاء لم يكتفوا بالتناحر والخصام فيما بينهم، بل خاصموه وراحوا ينحتون اثلته بلا انقطاع. هذا الرجل الذي جرى تشدده مجرى الأمثال، الصلب بطبيعته، كان - وهنا موطن الغرابة متسامحاً في مسألة بشرية واحدة هي أخلاق المرء. ولم يكن في ألمانيا حزب كحزب النازي اجتذبت صفوفه مثل هذا العدد الكبير من العناصر الوضيعة خلقياً. لقد رأينا ذلك العجيج الخليط من القوّادين والقتلة والمنحرفين جنسياً والسكيرين والنصابين والمبتزين، يجتمعون فيه ويتقاطرون اليه كأنما يلتجئون الى ملاذٍ طبيعيٍ. ولم يهتم هتلر بذلك ما داموا ذا نفع له. ولما خرج من السجن وجدهم يطبق الواحد على حنجرة الآخر. وجابهه القادة الأرفع من هؤلاء خلقاً والأكثر محافظة أمثال روزنبرگ ولودندورف بوجوب طرد كل المجرمين من الحركة ولاسيّما الفجرة والفساق، فرفض رفضاً باتاً وكتب في إفتتاحية عنوانها "بداية جديدة" نشرت في ٢٦ تشرين الأول ١٩٢٥ في جريدة الحزب "لا أجد من مهمات الزعيم السياسيّ محاولة تحسين أو تشذيب اجزاء المادة البشرية المتوفرة بين يديه".

وفي ١٩٢٦، بلغ الاتهام المتبادل والتراشق بالعيب ما بين اقطاب الحزب حداً مخجلاً فاضحاً فلم ير هتلر بداً من تأليف محكمة حزبية تكبح جماحهم وتمنعهم من التفاضخ وغسل ثيابهم القذرة أمام الناس. عرفت هذه المحكمة بالأوشلا USCHLA: اختصاراً من "لجنة التحقيق والتسويات -Utersuchung- und- Schlichtung- Ausschuss وكان أول رئيس لها جنرال سابق اسمه (هاينمان Heinemann) الا ان لم يدرك الغرض الحقيقي من المحكمة التي لم يكن واجبها إصدار حكم على أولئك الذين اتهموا بالجرائم الاعتيادية بل طمرها والعمل على عدم ايقاع الاضطراب في الضبط الحزبي أو الإخلال بسلطة الزعيم،

٢- "مجموعة خطب أدولف هتلر" طبعة باينس Baynes الص ١٥٥-١٥٦:ج١.

ولهذا استبدل بآخر أكثر تفهماً للموضوع هو الرائد (ڤالتر بوخ Walther Buch) يعاونه (اولريخ گراف) القصاب السابق حارس هتلر الخاص و(هانس فرانك Hans Frank) وهو محام نازي شاب سيسمع عنه الكثير فيما بعد عندما يحين الوقت للتحدث عن إيغاله في سفك الدماء لما عيّن حاكماً عاماً لپولندا المحتلة فدفع ثمن ذلك في نورمبرگ. وانجز هذا الثلاثي البديع عملاً إرتاح له هتلر ارتياحاً كبيراً: يُتهم قائد حزبي بتهمة شنعاء فيكون جواب (بوخ): "حسنا وأي بأس في هذا؟" فما كان يريد معرفته هو هل ان الأمر يخلّ بالضبط الحزبي، أو يضرّ بسمعة (الزعيم)؟

كان يلزم أكثر من هذه المحكمة الحزبية- التي اثبتت رغم ذلك جدواها في آلاف القضايا وسطوتها في ابقاء القادة النازيين الطموحين قاطعي الرقاب ضمن الخطّ. وكثيراً ما اضطر هتلر الى التدخل شخصياً ليس للمحافظة على نوع من التوافق والانسجام بل للمحافظة على رقبته من القَطّ.

وفيما كان يتجرع غصص سجنه في لاندسبرغ برز فجأة شابٌ اسمه (گريكور شتراسّر) في الحركة النازية. وكان صيدلانياً بالمهنة باڤارياً بالولادة أصغر من هتلر بثلاث سنين حصل قبله على وسام الصليب الحديدي من الدرجة الأولى وارتقى أثناء الحرب من جندي بسيط الى ملازم. وانتمى الى الحزب النازي في ١٩٢٠ وما لبث ان أصبح گاولايتر (قائد منطقة) في باڤاريا السفلى. وهو رجل ضخم البنية فارع الطول يهوى لذة العيش bon vivant ويتفجر حيوية. أصبح خطيباً جماهيرياً مؤثراً بفضل قوة شخصيته لا بفضل موهبة خطابية ملكها هتلر. زد على هذا إنه منظم بالفطرة. وبإستقلاله العنيد روحاً وعقلاً أبى أن يخضع لهتلر أو أن يأخذ مأخذ الجد الشديد مزاعم النمساوي في انه الدكتاتور المطلق للحركة النازية. وقد أدى هذا في الزمن الطويل الى ظهور عقبة كؤود أمامه لأن شتراسّر كان مخلصاً في حماسته للإشتراكية داخل الحركة القومية الإشتراكية.

وانضم شتراسّر الى لودندورف وروزنبرگ (فوق معارضته لهتلر السجين) بتنظيم حركة شعبية Voelkiech نازية لمناهضة الحكومة في الإنتخابات العامة ربيع العام ١٩٢٤. هذه الحركة فازت في باڤاريا بأصوات كافية لتجعلها الحزب الكبير الثاني، أما في ألمانيا كما رأينا فلم تحرز أكثر من مليوني صوت أمّنت لها اثنين وثلاثين مقعداً في الرايخشتاغ وكان أحدها من نصيب (شتراسّر) وقد خاضت الإنتخابات تحت إسم "حركة القوميين الإشتراكيين للتحررّ الألماني". وكانت نظرة هتلر لفعاليات هذا الشاب سوداء قاتمة، وزادت سواداً لنجاحه. أما بالنسبة الى شتراسّر فلم يكن مستعداً لقبول هتلر سيداً له. وتعمد الغياب عن الإجتماع الكبير بمونيخ في ٢٧ شباط ١٩٢٥ وهو بداية عودة الحزب النازي الى النزال.

أدرك هتلر أنه لا سبيل الى جعل حركته قوميةً حقاً إلاّ بتثبيت أقدامها في الشمال وفي پروسيا وبالأخصّ في برلين حصن العدوّ المنيع. في إنتخابات ١٩٢٤ خاض (شتراسّر) معركته الإنتخابية في الشمال ووحد جهوده مع جماعات شديدة التعصب للقومية يقودها كل من "البرخت ڤون غرايفه Al-brecht von Graefe" و "الكونت أرنست زور ريڤنتلوڤ Count Ernst Zur Reventlow." ولذلك كان يمتاز

بصلات شخصية وبعض الأشياع في تلك المنطقة وهو القائد النازي الوحيد الذي يملك ذلك. فبعد مرور أسبوعين على السابع والعشرين من شباط إبتلع هتلر شعوره الشخصي بالمضاضة والإستياء واستدعى (شتراسّر) واقنعه بالعودة الى احضان الحزب واقترح أن يقوم بتنظيم الحزب النازي في شمال ألمانيا فوافق. إذ كانت هناك فرصة لتجربة مواهبه الخاصة بمفرده، دون ان يكون هتلر الصلف الشديد الغيرة والحسد، في مركز الإشراف عليه.

وما مرت عليه أشهرٌ قلائل حتى اصدر جريدة في العاصمة وهي جريدة "برلينر أربايتر زايتُنگ Ber-liner Arbeiter zeitung وأناط بأخيه رآسة تحريرها. واصدر نشرة اخبارية نصف شهرية باسم "Briefe" وكانت تزود موظفي الحزب بخطوط سياسة الحزب دون انقطاع. ووضع اسس منظمة سياسية امتدت شبكاتها في پروسيا وسكسونيا وهانوفر ومنطقة الراين الصناعية. كان (شتراسّر) حركة دائبة لا تكلّ، جاب كل أقاليم الشمال وعقد إجتماعات، وألقى خطباً وعيّن قادة مناطق (گاولايتر) وبنى جهازاً إدارياً حزبياً. وكانت عضويته في مجلس الرايخشتاغ تميّزه عن هتلر بشيئين: بطاقة سفر مجانية لكل الخطوط الحديدية. فلم تكن أسفاره تكلفه أو تكلف الحزب نفقات ما، وتمتعه بالحصانة النيابية فلا سلطة تتمكن من حظر الخطابة عليه ولا محكمة تطاله بتهمة القذف أو التشهير بأي شيء أو شخصٍ. وكتب هايدن ساخراً "بمجانية السفرّ ومجانية القذف، سبق (شتراسّر) زعيمه بمسافة بعيدة". واتخذ له سكرتيراً خاصاً كان في الوقت نفسه رئيساً لتحرير مجلة الرسالة Briefe، وهو شاب من منطقة الراين يناهز الثامنة والعشرين ويدعى (پول جوزيف گوبلز Paul Josef Goebbels)

– ٢ –

صعود نجم پول جوزيف گوبلز

هذا الشاب الأسمر القميء الأعرج، الحاضر الذهن ذو الشخصية المعقدة المريضة عصبياً لم يكن جديداً على الحركة النازية. فقد إكتشفها في ١٩٢٢ عندما سمع هتلر يخطب في مونيخ لأول مرة فانضم الى الحزب. إلاّ أن الحزب لم يكتشفه إكتشافاً تاماً إلاّ بعد ثلاث سنوات. فقد قرر (گريگور شتراسّر) بعد سماعه يخطب أن يستخدم مواهبه المفيدة. لقد كان گوبلز وهو في الثامنة والعشرين خطيباً مفوّها وقومياً متعصباً. كما علم (شتراسّر) ايضاً أن له قلماً جارحاً لاذعاً نادر المثال بين قادة النازي وأنه نال دراسة جامعية كاملة. كان (هاينريخ هملر) قد إستقال من منصب سكرتير (شتراسّر) الخاص قبل فترة قصيرة ليتفرغ الى تربية الدجاج خلال الوقت المتوفر له فبادر بتعيين گوبلز بديلاً له. وقد نجم عن اختياره هذا عواقب وخيمة.

ولد پول جوزيف گوبلز في ريدت Rheydt في ٢٩ تشرين الأول ١٨٩٧. وهي مركز إنتاج

للمنسوجات على الراين يضم حوالي ثلاثين ألفاً من السكان. وكان ابوه (فريتز گوبلز Fritz Goebbels) رئيس عُمال في مصنع النسيج المحليّ وأمه (ماريا كاترينا أودنهاوزن Maria Katharina Odenhousen بنت حداد. وكلا الزوجين كاثوليكي تقيّ.

وبفضل الكاثوليك نال جوزيف گوبلز معظم دراسته، فقد داوم في مدرسة الابرشية الابتدائية الكاثوليكة. ثم "الجمنازيوم Gymnasium" في (ريدت) وساعدته زمالة من جمعية (ألبرت ماكنوس Albert Magnus) الكاثوليكية على دخول الجامعة – دخل في الواقع ثماني جامعات قبل أن يحصل على شهادة الدكتوراه Ph. D من جامعة هايدلبرغ Hei-delberg ١٩٢١ وهو في سن الرابعة والعشرين بعد أن أمّ جامعات بون، وفرايبورغ Freiburg وڤرتزبرغ Wuerz-burg وكولون وفرانكفورت وميونيخ وبرلين. في هذه الجامعات الشهيرة – زهرة الثقافة الألمانية العالية– ركز گوبلز دراسته في الفلسفة والتاريخ والادب والفن وواصل جهوده في اللاتينية واليونانية.

گـوبلـز

كان يريد أن يصير كاتباً. ففي السنة التي نال درجة الدكتوريّة. كتب قصة سيرة عنوانها "ميخائيل Michael" لم يقبلها ناشرٌ في حينه. وأنهى في العامين التاليين مسرحيتين شعريتين "التائه" وتدور (حول السيد المسيح) و"الضيف المستوحش" ولم يرضَ مخرج باظهارهما على المرسح[٣].

ولم يكن حظه في الصحافة خيراً من هذا. فقد رفضت الجريدة اليومية الحرة "برلينر تاگبلات Berlins Tagblatt" عشرات من مقالاته وطلباً قدمه لوظيفة مخبرٍ فيها.

وكانت حياته الخاصة مفعمة بالخيبة أيضاً في الأيام الأولى. فلم يخدم في الجيش لأنه أقزل فحرم من معاناة تجربة بدت له في أول الأمر على الأقل– حافلة بالمجد بالنسبة الى شباب جيله وكانت من مستلزمات القيادة في الحزب النازي. لم يولد گوبلز مشوه الساق كما توهم معظم الناس. ففي سن السابعة أصيب بمرض الكساح osteomyelitis وهو إلتهاب في نخاع العظم فأجريت عملية غير ناجحة لفخذه الأيسر كانت نتيجتها بقاء ساقه اليسرى أقصر من ساقه اليمنى، ضامرةً قليلاً. هذه العاهة

٣- طبع (ميخائيل) أخيراً سنة ١٩٢٩ بعد ان عرف گوبلز في أنحاء البلاد بوصفه زعيماً نازياً. ووصلت مسرحية "التائه" الى المرسح بعد وصوله الى منصب وزير الدعاية والمدير الأعلى للمسرح الألماني. ولم تعرض إلاّ وقتاً قصيراً لعدم الإقبال عليها.

اجبرته على السير بعرج واضح لازمه طول حياته وكان أحد الأسباب لنقمته الأولى. وفي وسط يأسه كثيراً ما إدعى أنه من جرحى الحرب، خلال أيام دراسته في الجامعة وفي الفترة القصيرة التي قضاها في أعمال التحريض ضدّ الفرنسيين في الروهر.

ولم يكن محظوظاً في الحُبّ كذلك، وإن ظلّ طول حياته يتوهم في غرامياته التي ذاع أمرها في أيام السلطان- وقائع حُبّ عظيمة. ويومياته للسنتين ١٩٢٥-١٩٢٦ عندما كان في الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين (بعد ان نزل الى معترك السياسة النازية بفضل شتراسّر) مملوءة بعبارات التغزل والحنين لمحبوباته. وهن كثار وهو لايقتصر على القليل منهنّ في وقتٍ واحدٍ[٤].

وهاك نماذج منها:

١٤ آب ١٩٢٥: كتبت لي (آلما Alma) بطاقة بريد من باد هارزبرگ Bad Harzberg. أول اشارة منها بعد تلك الليلة. هذه اللعوبة المشاكسة الساحرة آلما!

تسلمت أول رسالة من (إلسي Else) في سويسرا... لايكتب مثل هذا إلاّ (إلسي) العزيزة... سأذهب الى الراين قريباً لقضاء أسبوع وسأكون خالياً لنفسي تماماً. ثم ستأتي (إلسي)... ما أسعدني في فترة الإرتقاب!

١٥ آب: يحب عليّ في هذه الأيام أن أفكر كثيراً في (آنكي Anke) و... يا ما أجمل السفر معها. هذه الكاعب الساحرة!

إني لأحنّ الى (إلسي). متى سيحتويها ذراعاي ثانية؟

ايتها العزيزة (إلسي) متى سألقاك ثانية؟

(آلما)! ايتها العزيزة الرشيقة التي هي بخفة الريش!

(آنكي)! إني لا استطيع نسيانك أبداً!

٢٧ آب: ثلاثة أيام في الراين... ولا كلمة من (إلسي)... أهي غاضبة منيّ؟ لكم اذوب اليها شوقاً! إني اسكن في عين الغرفة التي شاطرتنيها في آخر ڤيتونتيده Whitauntide أية افكار! أية أحاسيس! لماذا لم تأتي؟

٣ أيلول: (إلسي) هنا! لقد عادت من سويسرا نهار الثلاثاء- عُبلةً، سمينة، مرحة، ممتلئة صحة. لكن السمرة قد لوحتها قليلاً. إنها جدّ سعيدة، وفي أطيب مزاجٍ. إنها برة بي، وتمنحني كثيراً من السعادة.

١٤ تشرين الثاني: لماذا تريد (آنكي) تركي؟ ينبغي لي ألاّ أفكر في مثل هذه الاشياء.

٢١ تشرين الثاني: هناك لعنة عليّ وعلى النساء. الويل لأولاء اللاتي يقعن في حُبّي!

٢٩ تشرين الثاني: الى كريفلد Krefeld بصحبة (هيسّ) حفلة عيد الميلاد. حسناء جذابة من

٤- هذه اليوميات التي اكتشفها وكلاء استخبارات الحلفاء بعد الحرب. هي مصدر هام غني بالمعلومات عن حياة گوبلز.

فرانكونيا. انها من صنفي. اخذتها الى مسكني خلال المطر والصحو. الى الملتقى! (اوندڤوار) (إلسي) وصلت!

٦ شباط ١٩٢٦: اني لأحنّ الى امرأة حلوة! آه منك إيها الألم المعذّب!

لم ينسَ گوبلز (آنكي)- آنكي هلهورن Helhorn حبّه الأول التي إلتقى بها في الفصل الثاني لدراسة جامعة (ڤرايبرغ). ويومياته مملوءة بهذيان محموم عن جمالها الأشقر الغامق، والخيبة المريرة التي تخلفت في نفسه عندما نبذته فيما بعد. وكاشف أصدقاءه عندما أصبح وزيراً للدعاية، بغرورٍ وتهكم نموذجي- بأسباب تركها له. "خانتني لأن الفتى الآخر كان أكثر مني مالاً، بوسعه أن يأخذها الى العشاء والسينما. ما كان أغباها!... كان يمكن أن تصبح اليوم زوجة وزير الدعاية! لا بُدّ وانها تشعر الآن بخيبة وندم مريرين!" تزوجت (آنكي) "الفتى الآخر" ثم طلقته. وفي ١٩٣٤ جاءت الى برلين، وأوجد لها (گوبلز) عملاً في إحدى المجلاّت(٥).

كان تطرف (شتراسّر) في إيمانه "بإشتراكية" القومية الإشتراكية هو الذي جذب اليه (گوبلز). فكلاهما رغبا في بناء حزبٍ مرتكز على الپروليتاريا. وامتلأت يوميات (گوبلز) بتعابير العطف على الشيوعية في تلك الفترة فكتب في ٢٣ تشرين ١٩٢٣ "عند التحليل الختامي نجد من الأحسن لنا أن ننهي كياننا تحت ظلّ البلشفية، من أن نعاني رقّ الرأسمالية"، وفي ٣١ كانون الثاني ١٩٢٦ كتب في يومياته محدثاً نفسه "أعتقد أنه من الفظاعة قيامنا نحن [النازيين] والشيوعيين بشج أحدنا رأس الآخر... ألا يمكن أن نتفق يوماً ما مع الزعماء الشيوعيين؟". وفي هذه الفترة بالذات، نشر رسالة مفتوحة الى زعيم شيوعي يؤكد له فيها أن النازية والشيوعية صنوان في الواقع! وقال "أنت وأنا يحارب أحدنا الآخر لكننا لسنا في الحقيقة أعداء".

كان هذا في منزلة الهرطقة والكفر عند هتلر. وراح يرقب بقلق متزايد نجاح الأخوين (شتراسّر) وگوبلز في بناء جناح يساريّ رصين پروليتاري في الحزب شمال ألمانيا. إن ترك لهؤلاء الحبل على الغارب فقد يستولون على الحزب ولأهدافٍ يعارضها هتلر بشدة. وجاءت خاتمة التمثيلية المحتومة في نهاية ١٩٢٥ وفي شهر شباط من السنة التالية.

اثارها (گريكور شتراسّر) (وگوبلز) بسبب مشروع ألهب كثيراً من المشاعر في ألمانيا في ذلك الحين. كان المشروع، اقتراح الديمقراطيين الإشتراكيين والشيوعيين أن تنزع ملكية الضياع والمزارع الواسعة، والثروات التي تعود للأسرة الملكية وأسَر الأفراد المخلوعين، وأن تصادر للجمهورية. وكان القرار في هذا سيتم عن طريق الإستفتاء الشعبي تطبيقاً لأحكام دستور ڤايمر. واقترح (شتراسّر وگوبلز) أن يبادر الحزب النازي للنزول الى الميدان بجانب الشيوعيين والإشتراكيين ويساند معركة نزع الملكية عن النبلاء.

٥- كرت ريس Curt Riess. "جوزيف گوبلز" ص٨.

فعصف الغضب بهتلر وهاج هائجه. فقد كان عددٌ من هؤلاء الملوك والأمراء داخلين في قائمة المتبرعين والمولين للحزب، زد على ذلك أن عدداً من كبار رجال الصناعة بدأوا يهتمون مالياً بحركة هتلر التي بعثت مجدداً، لأنها بالضبط قد وعدت أن تكون عنيفة في منازلتها الشيوعيين والإشتراكيين ونقابات العمال. فلو مضى (شتراسّر وگوبلز) في خططهما فسينضب المعين الذي هو مصدر دخل هتلر في الحال.

وعلى كُلّ وقبل ان يباشر هتلر عملاً دعا (شتراسّر) الى إجتماع لقادة مناطق الحزب الشمالية في هانوڤر – ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٥ ولم يكن غرضه قاصراً على حمل فرع الحزب الشمالي على دعم مشروع (نزع الملكية) بل وضع برنامج إقتصادي جديد ينسف "النقاط الخمس والعشرين" الرجعية التي اتخذها الحزب منهاجاً في ١٩٢٠. أراد الأخوان (شتراسّر) وگوبلز تأميم الصناعات الكبيرة والمزارع الواسعة والإستعاضة عن الرايخشتاغ بغرفة تعاونيات على غرار ما فعل الفاشيست في إيطاليا. فلم يحضر هتلر الإجتماع بل أرسل تابعه المخلص (كوتفريد فيدر) ممثلاً عنه، ليعمل على قمع الثورة فطلب (گوبلز) أن يقذف بفيدر الى الخارج وصاح "إننا لا نريد عيوناً وجواسيس!" وكان في الإجتماع عدد من القادة الذين قدر لهم أن يخلفوا آثاراً في الرايخ الثالث أمثال (برنهارد رست Bernhard Rust واريخ كوخ Erich Koch وهانس كرل Hans Kerrl وروبرت لاي Robert Ley) ولم يأخذ جانب هتلر إلاّ (لاي) الصيدلاني المدمن على الكحول الذي كان (گاولايتراً) لمنطقة كولون. وعندما بين (دكتور لاي) و (فيدر) بأن الإجتماع غير قانوني ولايمكن أن يتم شيء دون وجود الزعيم الأعلى هتلر، صرخ گوبلز كما ذكر أوتو شتراسّر الذي كان موجوداً "أطلب أن يطرد البرجوازي الصغير أدولف هتلر من الحزب النازي"!

لقد قطع الفتى اللاذع اللسان گوبلز، شوطاً واسعاً منذ ان وقع لأول مرة تحت سحر هتلر قبل ثلاث سنين – أو هكذا كان يخيل لـ(گريكور شتراسّر) فقد هتف في أثناء تدوينه إنطباعاته عن سماعه أول خطبة لهتلر في (سركس كروني Circus Krone –بمونيخ في حزيران ١٩٢٢: "في تلك اللحظة وجدتني أُبعَث من جديد– الآن صرت اعرف ايّ طريق أسلك... إنه لنذير وأمر!" وكان اشدّ حبوراً أثناء محاكمة إنقلابيي مونيخ وبعد صدور الأحكام كتب للفوهرر:

"بدوتَ كالنجم البازغ أمام أعيننا المشدوهة. لقد أتيت بالمعجز في تنقية عقولنا ومنحتنا الإيمان والثقة في عالم من الشك واليأس. لقد شمخت فوق الجماهير ممتلئاً إيماناً بالمستقبل الأكيد تمتلك الإرادة لتحرير تلكم الجماهير بحبك اللامتناهي لكلّ من يؤمنون بالرايخ الجديد. للمرة الأولى شاهدنا العينين البراقتين لرجل مزق القناع عن وجوه شوهها الطمع وجوه الصعاليك البرلمانيين الأغبياء..."

"في محكمة مونيخ ارتفعتَ أمامنا الى عظمة الزعيم. وما قلتَه هو أعظم كلمات نطق بها لسان في ألمانيا منذ (بسمارك). لقد عبرت عن أكثر آلامنا... سميت حاجة جيل كامل يبحث باضطراب وعلى غير هدىً وبلهفة عن رجالٍ وعن عملٍ. ما قلت انما هو تعاليم لعقيدة سياسية جديدة ابتعثها قنوط

دنيا متقوضة لا إله لها... ونحن لك شاكرون، وستشكرك ألمانيا يوماً ما."

ولكن، وبعد سنة ونصف سنة- سقط صنم (گوبلز) المعبود هذا وأصبح "برجوازياً صغيراً" يستحق الطرد من الحزب. تبنى الإجتماع منهاج الحزب الجديد باستنكاف (فيدر ولاي) فقط. ووافق على قرار الانضمام الى الماركسيين في معركة الإستفتاء على انتزاع املاك الملوك والأمراء السابقين ومصادرتها.

وتربص هتلر بالزمن. وفي ١٤ شباط ١٩٢٦ وجه ضربته المقابلة. فدعا الى إجتماع في بامبرغ Bamberg- جنوب ألمانيا مُتخيراً للموعد يوماً من الأسبوع يصعب على القادة في الشمال ترك أعمالهم فيه. وفي الواقع لم يتمكن أحد من الحضور غير (گريكور شتراسّر) و(گوبلز). وحقق قادة الجنوب الذين اختارهم هتلر بكل دقة، تفوقاً عددياً ساحقاً. وأجبرا بناء على إصرار الفوهرر على أن يستسلما ويتخليا عن برنامجهما. لقد ذكر مؤرخو ألمانيا النازية: كهايدن وأولدن وغير الألمان الذين ساروا على هديهم، أن (گوبلز) في إجتماع (بامبرغ) تخلى عن (شتراسّر) علناً وانحاز الى هتلر، لكن يوميات (گوبلز) المكتشفة بعد تأليف كتابي هايدن واولدن. اوضحت أنه لم يتخلّ عن (شتراسّر) فجأة. وتبين منها إنّ گوبلز- مع انضمامه الى شتراسّر في التسليم لهتلر- كان يعتقد أن هتلر على خطأ مبين. وانه في تلك اللحظة على الأقل - لم يكن ينوي الانحياز اليه. فقد دوّن في يومياته بعد انتهاء إجتماع بامبرغ بيومٍ واحد (١٥ شباط) ما يلي: "تكلم هتلر زهاء الساعتين. أشعر وكان أحدهم يضربني ضرباً موجعاً. من أيّ طينة خلق هتلر هذا؟ أ هو رجعي؟ أقصى ما يمكن من الارتباك والاضطراب، مخطيء تماماً في المسألة الروسيّة. أ إيطاليا وانكلترا هما حليفتانا الطبيعتان؟ يا للفظاعة!... علينا ان نسحق روسيا! قضية الملكية الخاصة لطبقة النبلاء يجب ألا تبحث أو تمسّ! فظيع! لايمكنني النطق بكلمة واحدة، أشعر كأني مضروب على رأسي..."

"حقّا أنها من أعظم خيبات حياتي. لم يعد لديّ كامل ثقة في هتلر. هذا هو الأمر المريع: لقد جُرّت دعائمي من تحتي".

ولإظهار اتجاه إخلاصه، رافق (شتراسّر) الى المحطة وحاول تهوين الأمر عليه. وبعد أسبوع (٢٣ شباط) كتب في يومياته: "حديث طويل مع (شتراسّر). النتيجة: علينا ألاّ نضطغن ولانبطن حقداً لجماعة مونيخ، بخصوص نصرهم "البيري* Pyrrhic" وعلينا ان نبدأ ثانية كفاحنا في سبيل الإشتراكية".

لكن هتلر درس الفتى الرايني الطموح ووزنه بدقة فاقت (شتراسّر) وفي ٢٩ آذار دوّن (گوبلز): "رسالة من هتلر صباح هذا اليوم. سألقي خطاباً في الثامن من نيسان في مونيخ". ووصل المدينة في

* پيروس (حوالى ٣١٩-٢٧٢ ق.م) ملك ايپروس في شمال غرب اليونان. نصره على الرومان الذي كلفه كثيراً في اسكولوم (٢٧٩ ق.م) جاء منه المثل التاريخي "نصر پيروس" الذي ما كان يعدّ نصراً للخسارة العظيمة في الرجال التي لحقت به.

٧ نيسان وكتب "سيارة هتلر كانت في انتظاري، استقبال ملوكي! سأخطب في مشرب البيرة التاريخي" وفعل ذلك في اليوم التالي، ألقى خطابه من المنبر الذي اعتاد الزعيم اعتلاءه، ودوّن كلّ ذلك في يومياته الخاصة بالثامن من نيسان:

"هتلر يتصل بي تلفونياً... عطفه علينا رغم حادثة بامبرغ أشعرنا بالخجل... في الساعة الثانية اقلتنا السيارة الى مشرب البيرة. وكان هتلر قد سبقنا اليها. كان قلبي يدقّ دقاً عنيفاً حتى ليكاد ينفجر. إني أدخل القاعة. هتاف راعد ترحيب حار... ثم اتكلم ساعتين ونصف الساعة... الناس يهتفون ويضجون. بالأخير يعانقني هتلر. اشعر بالسعادة... هتلر الى جانبي دائماً".

وبعد أيام قلائل استسلم (گوبلز) بكليته: "١٣ نيسان: تكلم هتلر ثلاث ساعات ببلاغةٍ. في امكانه أن يحملك على الشك في آرائك الخاصة. إيطاليا وانكلترا حليفتانا. روسيا تريد أن تمزقنا اشلاءً وتبلعنا... اني احبه. لقد فكر في كل شيّ من كل نواحيه: مُثله: جماعية عادلة وفردية عادلة. أما عن التربة - فكل شيء يعود للشعب. والإنتاج يجب ان يكون خلاقاً وفردي الطابع. الاحتكارات، وسائط النقل الخ... يجب ان تؤمم... إني الآن مرتاح بخصوصه... انحني إحتراماً للرجل الأعظم، لعبقري السياسة". بات گوبلز "رجل هتلر" عندما غادر مونيخ في ١٧ نيسان. وقدر له أن يبقى أخلص تابع له الى آخر نسمة من حياته. في ٢٠ نيسان كتب لهتلر رسالة تهنئة بعيد ميلاده: "العزيز المبجلّ أدولف هتلر! لقد تعلمت منك الكثير... جعلتني أرى النور أخيراً..." وكتب تلك الليلة في يومياته: "انه في السابعة والثلاثين من عمره. أدولف هتلر، أني لأحبك لكونك عظيماً وبسيطاً وتلك هي صفات العبقري".

وقضى (گوبلز) جانباً كبيراً من الصيف مع هتلر في (برختسگادن) ويومياته ممتلئة بملحوظات عن الزعيم. وفي آب إنفصل علناً عن شتراسّر بمقال كتبه في (ڤولكشر بيوباختر): "الآن فقط عرفتكم على حقيقتكم: ثوريين قولاً لا عملاً [يخاطب بهذا الأخوين شتراسّر وأتباعهما]... لاتتكلموا بهذه الكثرة عن المثل العليا ولا تخدعوا أنفسهم بالاعتقاد بأنكم مخترعو تلك المثل وحماتها... اننا لا نقدم كفارة بوقوفنا كتلة متراصة وراء الزعيم. نحن... ننحني له... بكرامة الرجال الصامدة، كرامة النورديين القدماء الذين يقفون منتصبي الهامة أمام سيدهم الإقطاعي الجرماني. نحن نشعر إنه أعظمنا جميعاً. أعظم مني ومنكم. انه آلة الإرادة الإلهية التي تغير التاريخ وتصوره بميول جديدة خلاقة."

وفي أواخر تشرين الأول ١٩٢٦ نصبه هتلر (گاولايتر) لمنطقة برلين. وأمره بالتخلص من الأوباش المحترين ذوي القمصان الرمادية الذين كانوا يعيقون نموّ الحركة هناك. وأن يفتح عاصمة ألمانيا للقوميين الإشتراكيين. كانت برلين "حمراء". وأغلبية الناخبين فيها إما شيوعيون أو إشتراكيون. فما كان من (گوبلز) المقدام الذي دخل السنة التاسعة والعشرين من عمره، والذي ارتفع خلال سنة وبعض سنة من لا شيء الى مركز القيادة في الحزب النازي إلاّ أن انطلق لإنجاز المهمة في المدينة البابلية العظيمة.

-٣-

فاصل راحة وغرامٍ لأدولف هتلر

إن السنين العجاف سياسياً لهتلر كانت خير سنيّ حياته الخصوصية كما ذكر فيما بعد. فبمنعه من الكلام حتى ١٩٢٧، وبنيته إكمال (كفاحي)، وبالتفكير الذي يملك عليه مذاهبه- في مستقبل حزب النازي ومستقبل نفسه، عمد الى قضاء معظم وقته في (أوبرسالزبرگ) فوق قرية (برختسگادن) في الألب الباڤارية. إنه خير منتجع للراحة والاستجمام. إن احاديث هتلر في مقره بالجبهة أثناء الحرب، عندما يرتخي توتر أعصابه في ساعة متأخرة من الليل ويندمج مع رفاق الحزب القدامى وسكرتيراته المخلصات، كانت تدور حول ذكريات الماضي فيشيع فيها الحنين والشوق الى مقره الجبليّ. حيث بنى البيت الوحيد الذي ملكه في حياته وماذا كانت منزلته في نفسه. وهتف في أثناء واحدة من هذه الفواصل في ليلة ١٧/١٦ كانون الثاني ١٩٤٢: "أجل. هنالك كثيرٌ من الصلات بيني وبين أوبرسالزبرگ. أشياء كثيرة ولدت هناك... لقد قضيت هناك اجمل ساعات حياتي... فهناك نَمَت ونضجت أشياء كثيرة. كان لديّ ساعات راحة في تلك الأيام وكثير من الأصدقاء الساحرين!"

تنقل هتلر خلال السنوات الثلاث الأولى التي عقبت اخلاء سبيله في مختلف الفنادق ومشارب البيرة في أوبرسالزبرگ. وفي احاديث الذكريات في شتاء ١٩٤٢ تكلم عن ذلك حوالي الساعة. وأخيراً استقر في "دويتش هاوس Deutsche Haus" وقضى فيه معظم السنتين اللتين أنهى خلالهما إملاء (كفاحي) وقال انه وأعوانه كانوا "مغرمين جداً بزيارة "درايمايدر هاوس Dreimaederlhuas" حيث كان يوجد حسناوات" واضاف "كان هذا أعظم علاج لي. كان يوجد واحدة فيهن بصورة خاصة هي آية في الجمال".

في تلك الليلة، في ملجأ القيادة على الجبهة الروسية أدلى هتلر بملاحظة لسامعيه، مفادها أنه يتذكر أمرين كانا يشغلانه أثناء السنوات السعيدة في (برختسگادن): في تلك الفترة [بأوبرسالزبرگ] عرفت كثيراً من النساء. تعلق بي عدد منهن. لماذا لم اتزوج اذن؟ أن اترك زوجة خلفي؟ لأقل هفوة أو عدم تبصر كنت معرضاً لخطر العودة الى السجن لستّ سنوات، فلم يكن ثم مجال لتفكيري بالزواج. لذلك كان عليّ أن اتخلى عن فرص كثيرة عرضت نفسها عليّ"[٦]. إن خوف هتلر في متنصف العشرينات من عودته الى السجن أو ابعاده خارج البلاد لم يكن بدون أساس. فهو ما زال تحت طائلة العفو المشروط فلو انه تجاهل علناً الحظر على خطبه في الإجتماعات العامة فمن المحتمل جداً أن تقوم الحكومة الباڤارية بايداعه السجن أو دفعه خارج الحدود الى موطنه النمسا. ومن

٦- هذه وسابقتها مأخوذة عن ذكريات هتلر لـ١٧/١٦ كانون الثاني ١٩٤٢. اما بخصوص أوبرسالزبرگ فهي عن "أحاديث هتلر السرية".

أسباب اختياره منطقة أوبرسالزبرگ (سالزبرگ العليا) مستقراً وملجأ، هو قربها من الحدود النمساوية. فبإشارة واحدة كان بإمكانه تخطي الحدود والتخلص من أمر قبض تصدره الشرطة الألمانية. ولكن العودة الى النمسا بمحض اختياره أو بمقتضى أمر الابعاد من شأنه إتلاف مشاريعه ومطامحه ولأجل تقليل احتمالات ابعاده لجأ الى التخلّي عن جنسيته النمساوية في السابع من نيسان ١٩٢٥- وهي خطوة وافقت عليها الحكومة النمساوية حالاً. وقد أدّى هذا الى بقائه بلا جنسية staatenlos تخلى عن رعويته النمساوية لكنه لم يصبح مواطناً ألمانيّاً. وهذا من شأنه أن يخلق مصاعب للمشتغل بالسياسة في الرايخ، ومن تلك أنه لايجوز له تسنم منصب حكومي. وأعلن للناس بانه لن يطلب من الحكومة الجمهورية الجنسية التي يراها من حقه بسبب خدماته للإمبراطورية الألمانية في الحرب إلاّ أنه ظلّ طوال النصف الثاني من العام ١٩٢٠ يطالب سراً بحق المواطنة الألمانية ولم تثمر مجهوداته مع الحكومة الباڤارية.

أما بالنسبة الى النساء والزواج فهناك أيضاً بعض الحقيقة في ما تحدث به في تلك الليلة من ١٩٤٢. فهو يحب صحبة النساء خلافاً للفكرة السائدة عنه ولاسيّما الحسناوات. وقد عاد الى الموضوع مراراً في أحاديث الطعام المتبادلة في مقر القيادة أثناء الحرب. قال لأعوانه في ليلة ٢٦/٢٥ من كانون الثاني ١٩٤٢ بلهجة تعجب: "كم من النسوة الجميلات في هذه الدنيا!" وراح يضرب عدة امثلةٍ من تجاربه الخاصة وزاد متباهياً "عرفت كثيراً من الحسناوات أيام شبابي في ڤيينا!". وذكر هايدن بعض وقائعه الغرامية في أولى أيامه: ذكر عن (جيني هاوغ Jenny Haug التي كان أخوها سائق هتلر في ١٩٢٣. والتي عرفت بأنها عشيقته، ونوه (بأيرنا هانفشتانكل) Erna H. الرائعة الطويلة القامة، و(ونفريد ڤاگنر) زوج ابن (ريشارد ڤاگنر). لكن واقعة الغرام العميقة الوحيدة في حياته كانت مع بنت أخته على ما هو متواتر معروف.

في صيف ١٩٢٨ استأجر هتلر ڤيلا ڤاخنفلد Wachenfeld في أوبرسالزبرگ شمال برختسگادن بمبلغ مائة مارك شهرياً من ارملة احد رجال الصناعة في هامبورگ واقنع اخته من ابيه (انجيلا راوبال) أن تأتي من ڤيينا وتدير له شؤون بيته في أول منزل امكنه أن يختصّ به[٧] فجاءت السيدة راوبال مع بنتيها (گيلي) و(فريدل) وكانت (گيلي) في العشرين ذات شعر أشقر متموجّ. وقسمات جميلة وصوت ساحر وشخصية آسرة جعلتها قبلة انظار الرجال[٨] فوقع هتلر في غرامها. وصحبها أينما ذهب الى الإجتماعات الى المناقشات الى مسيرات طويلة في الجبال الى مقاهي مونيخ ومسارحها. وعندما استأجر في ١٩٢٩ شقة فخمة ذات تسع غرفٍ في شارع برنزريجنت Prinzregentenstrasse وهو

٧- إبتاعه بعد ذلك، عندما أصبح مستشاراً. واعاد بناءه بشكل واسعٍ فخم وبدل اسمه الى قصر بيركوف Berkhof.

٨- إن (هايدن وبوللوك) وأضرابهما يشيرون الى قدوم أسرة راوبال واستقرارها في فاخنفلد في ١٩٢٥ عندما كانت (گيلي) في السابعة عشرة. لكن هتلر اوضح انه لم يسكن الفيلاً الا في ١٩٢٨. وزعم انه اتصل حينذاك "بأختي في ڤيينا تلفونياً وابلغتها بالنبأ ورجوتها أن تتكرم عليّ بالقيام بدور ربة البيت [أحاديث هتلر السرية ص١٧٧].

حيّ من أرقى احياء مونيخ، اعطيت (گيلي) غرفتها الخاصّة منها. ولم يكن مفرّ من تطاير الاشاعات حول زعيم الحزب وبنت أخته الشقراء الحسناء في مونيخ وفي دوائر الحزب كافة جنوب ألمانيا. واقترح بعض الاقطاب الحزبيين الأكثر حرصاً- أو حسداً أن يكفّ هتلر عن عرض حبيبته الشابة في المحلات العامة وأن يتزوجها. فثارت ثائرته لهذا الكلام وفي إحدى المشاحنات التي دارت حول القضية عزل (گاولايتر) وورتمبرغ Wuerttemberg. يحتمل أن هتلر كان ينوي الزواج ببنت اخته. ولقد علم المؤلف من رفاق الحزب القدماء الذين كانوا لاصقين به آنذاك ان الزواج كان يعتبر أمراً شبه محتوم. ولم يساورهم أيّ شك في أن هتلر مولّه بحبها. على ان مشاعرها الخاصة كانت مجهولة. والمعلوم أن إهتمام رجل علا صيته وارتفع نجمه كان يدير رأسها ويصيبها بالتيه، وسرورها بهذه الرعاية كان واضحاً، غير انه لايعلم هل بادلت خالها حبّاً بحب أم صدفت عنه؟ ربما لم تبادله العاطفة. ولقد ثبت في الأخير انها ما بادلته الحب قط فقد نشأ بينهما خلاف شديد لم يعرف أصله ولا طبيعته، والظاهر أن الغيرة المتبادلة لعبت دورها. هي حقدت عليه لإهتمامه بنساءٍ أخريات منهن (وينفريد ڤاگنر) وهو شك في انها على صلة جنسية (بأميل موريس) المجرم ذي السوابق حارسه الخاص. كما أنها ثارت على تحكم الخال في مقدراتها واشرافه على غدواتها وروحاتها فهو لم يوافق على خروجها بصحبة رجلٍ غيره كما منعها من العودة الى ڤيينا لإستئناف دروس غنائها، فقضى بذلك على طموحها في اعتلاء خشبة تمثيل الأوپرا، لأنه يريدها لنفسه فحسب.

هنالك اشارات سوداء، تعزو صدودها عنه الى ميوله (الماشوسية) وتعلل ذلك بان تحكمه وطغيانه في الميدان السياسي أنمى فيه الميل الى أن تسترقه النسوة اللاتي يحبهن. ولم يكن بالميل النادر الغريب عند أمثاله من الرجال كما يرى علماء النفس والجنس. وينوه (هايدن) بخبر رسالة كتبها هتلر لبنت اخته في ١٩٢٩، يبثها فيها لواعج حبّه ودفين عاطفته. هذه الرسالة وقعت في يد ابن صاحبة العمارة فكانت نتيجة ذلك مآسي مميتة لحقت بأكثر من حياة[٩]. ومهما كانت طبيعة ذلك الحبّ الأسود بين الخال وبنت اخته فان الخصام بينهما زاد عنفاً، وأعلنت (گيلي) في صيف ١٩٣١ إعتزامها العودة الى ڤيينا لإستئناف دروس الغناء فمنعها هتلر وثار شجار صاخب بينهما شهده الجيران لما ترك هتلر شقة مونيخ في ١٧ أيلول ١٩٣١ قاصداً هامبورگ اذ سمعت الفتاة تصيح من نافذة مفتوحة والخال يهم بركوب سيارته "اذن فأنت لاتدعني أرحل الى ڤيينا؟" وسُمع هو يردّ عليها: "كلاّ!" وفي صبيحة اليوم التالي وجدت (گيلي) في غرفتها قتيلة برصاصة وبعد قيام قاضي التحقيق، بتحرٍّ طويل مستفيض قرر أن الحادث انتحار. وورد في تقرير الطبيب العدلي أن الرصاصة نفذت الى صدرها من اسفل المنكب الأيسر واخترقت القلب وان اتجاهها لايدع شكاً في أن الطلقة انطلقت من يد المنتحرة.

٩- هايدن (الزعيم: الص ٣٨٤-٣٨٦)

ومع هذا بقيت الشائعات والأقاويل منتشرة في أرجاء مونيخ عدة سنين. وتدور كلها على أن (گيلي راوبال) ماتت قتيلة بيد خالها في ساعة غضب والقاتل (هملر) الذي أزال موقفاً أصبح موضع إحراجٍ للحزب. لكن لم يظهر دليل معتمد يؤيد صحة تلك الاشاعات.

اما هتلر فقد صعقه الأسى. وذكر (گريكور شتراسّر) فيما بعد بأنه اضطر الى ملازمته طوال اليومين التاليين بليلتيهما ليمنعه من قتل نفسه. وبعد أسبوع من دفن (گيلي) في ڤيينا استحصل هتلر إذناً خاصاً من الحكومة النمساوية للسفر اليها. وقضى ليلةً يبكي على قبرها. وظلّ أشهراً وهو حزين لايسلو.

بعد ثلاثة اسابيع من موت (گيلي) تمت أول مقابلة له مع هندنبرگ وكانت أول رميةٍ في قِداحه الكبير (مستشارية الرايخ) وعزا بعض الذين عرفوه الوجوم الذي ظهر عليه في تلك المناسبة النادرة الى الصدمة التي اصابته من فقده بنت اخته المحبوبة- فقد قال بعض اصدقائه انه لم يكن مسيطراً على حواسه سيطرة تامة أثناء المقابلة، الأمر الذي جعل الزعيم النازي يخفق في مسعاه.

وفي اعتقادي إنّ تركه اكل اللحم من ذلك الحين- وهو عمل تقشف وإماتة يمكن رده الى هذه النكبة الشخصية، أو هذا ما إرتآه بعض أعوانه المقربين جداً على الأقل. فقد صرح لهم فيما بعد بلهجة جازمة أن (گيلي راوبال) هي المرأة الوحيدة التي احبها حبّاً صادقاً. وظلّ يأتي الى ذكرها بأعمق الإحترام- وفي كثير من الأحيان يذرف الدموع. وقال الخدم أن غرفتها الخاصّة في ڤيلاّ أوبرسالزبرگ ظلتّ مثلما كانت عليه عندما تركتها- حتى بعد إعادة بناء الفيلاّ وتوسيعها. وقد علق صوراً لها[١٠] في حجراته هناك وفي دار المستشارية ببرلين وعندما كانت تحلّ ذكرى ميلادها وموتها كُلّ سنة كانت تلك الصّور تؤطّر بالأزهار.

شخص قاسٍ، جافي الطبع، لايبدو قادراً على حُبّ أي مخلوق بشريّ، مثل هتلر تقوم عاطفته تجاه الفتاة (گيلي راوبال) واحدة من الأسرار التي تحفل بها حياته الغريبة. وهي ككل الأسرار لايمكن تفسيرها تفسيراً معقولاً بل تُحكى فقط. وبات من شبه المؤكد أن أدولف هتلر لم يعد يفكر بعدها في الزواج تفكيراً جدياً حتى مجيء ذلك اليوم الذي قضى منتحراً بيده بعد أربع عشرة سنة.

أستعيدت الرسالة المريبة التي خطها هتلر لبنت أخته، من ابن صاحبة العمارة بجهود (الأب برنهارد شتمفله) القسّ الهيرونيمي الكاثوليكي والصحفي المعادي للسامية الذي أشرف على تهذيب وصقل (كفاحي) وإعداده للطبع. وقال هايدن إن المال الذي دفع لحائزها ثمناً جاء من (فرانز گزاڤيير شفارتز Franz Xavies Schwarz) امين صندوق الحزب. ولهذا كان القسّ (شتمفله) أحد الأشخاص القلائل الذين وقفوا على بعض أسرار حُبّ هتلر لـ(گيلي روابال). ويبدو انه لم يحفظ السر في قلبه تماماً وهذه الزلة أدت به الى أن يدفع حياته ثمناً لها عندما أصبح مؤلف (كفاحي) دكتاتور ألمانيا. وقام في يومٍ ما

١٠- رسمت صورة زيتية لها بعد وفاتها بريشة أدولف زيگلر Ziegler رسام هتلر المفضل.

بتصفية حسابه مع بعض اصدقائه القدامى.

ولم يتوصل أحد بصورة جازمة الى مصدر دخل هتلر في تلك السنوات المريحة حين كان يسكن ڤيلاً في أوبرسالزبرگ وشقة فخمة في مونيخ ويركب سيارة جديدة فارهة دفع عشرين ألف مارك ثمناً لها بسائق خاص. لكن ملفات ضريبة الدّخل التي دققت بعد الحرب ألقت بعض النور على الموضوع(11). لقد كان في نزاع مستمر مع سلطات الضريبة حتى أصبح مستشاراً وأعفى نفسه من الضرائب. وتخلف عن ذلك ملف ضخمٌ في دائرة المالية في مونيخ للفترة المنحصرة ما بين ١٩٢٥ و١٩٣٣. أبلغته هذه الدائرة في أيار ١٩٢٥ بأنه تأخر عن تقديم ثبت بدخله للسنة ١٩٢٤ والربع الأول من السنة التالية فأجاب هتلر "لم يدخلني شيء في ١٩٢٤ [عندما كان في السجن] وفي الربع الأول من سنة ١٩٢٥. وقد سددت نفقات عيشتي بالاقتراض من المصرف". فكيف اذن تفسر ملكيتك سيارة ثمنها عشرون ألف مارك؟ كان هذا سؤال مخمن الضريبة. أجاب هتلر أنه سدد ثمنها من قرض مصرفي أيضاً. كان هتلر يدوّن في الحقل الخاص بالمهنة في استمارة الاقرار بأنه "كاتب" وبهذا الزعم حاول تبرير خصم جزءٍ كبير من دخله على أساس كونه مشمولاً بالإعفاء القانوني- كان لاشك يعلم بأعمال الكتاب في كلّ مكان. وأدرج في أول إقرار بالضريبة للربع الثالث من ١٩٢٥ دخلاً ضخماً برقم ١١،٢٣١ ماركاً ألمانياً يطرح منه قانوناً مبلغ (٦٥٤٠) ماركاً كحدّ للإعفاء، ومبلغ (٢٢٤٥) ماركاً فوائد على القروض. مما يُبقي مبلغ (٢٤٤٦) ماركاً من اصل الدخل، خاضعاً للضريبة.

وفي ايضاح يتألف من ثلاث صفحات مطبوعة بالآلة الكاتبة نجد هتلر يدافع عن خصمه جزءً كبيراً من دخله لنفقات المهنة. متعللاً بالقول أنه وإن كان قد انفق جزءً كبيراً منها على نشاطه السياسيّ، فان عملاً كهذا يمده بالمواد الفكرية الضرورية له بوصفه كاتباً سياسياً. وكذلك يساعده على بيع كتابه.

"لن يكون اسمي معروفاً دون نشاطي السياسيّ. وسأبقى مفتقراً الى المواد لطبع كتابٍ سياسيّ... ولهذا وعلى اية حالٍ فان النفقات المتعلقة بنشاطي السياسي -بوصفي كاتباً- والتي هي الحالة الملازمة لإحترافي الكتابة فضلاً عن تثبيتها للنجاح المالي، لايمكن أن تعتبر خاضعةً للضريبة... إن دائرة المالية ستجد إني لم انفق على شخصي من كل دخلي عن كتابي إلاّ النزر اليسير: لست أملك في أيّ مكان من الأرض أيّ ملك أو رصيد أو مال استطيع ادعاءه لنفسي. إني آخذ نفسي بالإقتصاد على الضروريات وألزم الحاجات كما التزمت بحرمان نفسي من الخمر والتبغ. وتناول طعامي في أوطأ المطاعم درجة. وبصرف النظر عن إيجار شقتي القليل جداً ليس هناك مصروفات إلاّ وتتعلق بنفقاتي بوصفي كاتباً سياسياً... كذلك السيارة فهي لي وسيلة لغاية. فهي وحدها تمكنني من إنجاز عملي اليومي"(12).

١١- انظر التحليل المدهش لإقرارات ضريبة دخل هتلر، بقلم الأستاذ اورون جيمس هيل في المجلة التاريخية الأمريكية تموز ١٩٥٥.
١٢- المرجع السالف.

وتركت دائرة المالية نصف خصمه المقدر، معفواً من ضريبة الدخل فاستأنف هتلر القرار الى لجنة التدقيق فأيدت التقدير. ومن ذلك الحين فصاعداً صار يترك له نصف النفقات معفواً. وكان يحتجّ، لكنه يدفع.

وادرج الزعيم النازي دخلاً كبيراً في استمارات الإقرار تطابق بدقة تامة عوائده من (كفاحي) فاثبت (١٩٨٤٣) ماركاً للعام ١٩٢٥، و(١٥٩٠٣) للعام ١٩٢٦، و(١١٤٩٤) للعام ١٩٢٧ و(١١٨١٨) للعام ١٩٢٨ و(١٥٤٤٨) للعام ١٩٢٩. ولما كان ناشرو الكتب خاضعين لتفتيش دائرة الضريبة فليس في إمكان هتلر أن يدرج دخلاً يقلّ عن أرباحه وهو آمنٌ. لكن ماذا عن مصادر الدخل الأخرى؟ لم يذكر عنها شيئاً في إقراراته. كان معروفاً أنه يطلب ويتقاضى أجراً عالياً عن المقالات العديدة التي يكتبها آنذاك في الصحف النازية الفقيرة. وقد شاع تذمر شديد في أوساط الحزب حول ما يحمّله هتلر من الأعباء المالية. هذه الفقرات غير موجودة في إقرارات الضريبة. وبمشارفة العشرينات على الختام بدأ المال ينصبّ في خزانة الحزب النازي من بعض كبار الصناعيين الباڤاريين والراينيين الذين إجتذبتهم معارضة هتلر للماركسيين ونقابات العمال. وتبرّع كل من (فريتز تيسّن Fritz Thyssen) رئيس (إتحاد صناعات الفولاذ الألماني Vereinigte Stahlwerke) و(أميل كيردورف Emil Kirdorf) ملك الفحم الحجري في الروهر بمبالغ كبيرة. وفي الغالب كانت النقود تسلم الى هتلر مباشرة ولن يعلم أبداً كم كان يجتزيء منها لنفسه. لكن مستوى معيشته في السنوات الأخيرة القليلة التي سبقت وصوله الى كرسي المستشارية تشير الى ان المال الذي يتسلمه من معاضديه لايصل كله الى خزانة الحزب.

والحق يقال أنه كان طوال الفترة ١٩٢٥–١٩٢٨ يشكو من صعوبة تسديد ضريبة دخله المستحقة. فهو دائماً متأخر في أدائها دائم الطلب بالتأجيل. وفي أيلول ١٩٢٦ كتب الى دائرة المالية "في هذا الوقت لست قادراً على دفع ضرائب؛ فقد لجأت الى الإقتراض حتى أسدّ نفقات عيشي"، وعن هذه الفترة زعم فيما بعد "بقيت سنواتٍ أعيش على التفاح التيروليّ. لايتصور قطّ ضروب الإقتصاد التي نحاولها لتوفير كل مارك للحزب". وراح ما بين سنوات ١٩٢٥ و١٩٢٨ يزعم لمخمنّ الضريبة أنه يغرق في المزيد من الديون. وفي ١٩٢٦ أبلغ بأنه انفق ٣١٢٠٩ ماركاً ألمانيا في حين لم يتجاوز دخله ١٥٩٠٣ ماركاً. ويبين أن العجز قد غُطي "بقروض مصرفية" أخرى.

ثم وبمعجزة من المعجزات إختفت في ١٩٢٩ فقرة الفوائض على الديون التي إعتاد درجها في إقراره ولم تعد الى الظهور، وإن كان ثبته لدخل تلك السنة أقل بكثير من دخله للعام ١٩٢٥؛ وكما قال (البروفسور هيل) الذي اعتمدنا دراساته في كتابة الموضوع: "معجزة مالية صُنعت صنعاً، فصفّت كُلّ ديونه"[١٣].

١٣- المرجع السالف.

وإنصافاً لهتلر نقول أنه ما كان يقيم للمال وزناً- إن كان لديه ما يكفي للعيش برفاه وإن لم يكن لديه فهو لايتردد في أن يكدح للحصول عليه بشكل أجور أو راتب. وعلى أية حال ففي مطلع ١٩٣٠ انتهت جميع متاعبه المالية الى الأبد عندما ارتفعت مداخيله من كتابه الى ثلاثة اضعاف ما كانت عليه في السنة الماضية بصورة مفاجئة فناهزت ٤٨٠٠٠ ماركاً وبدأت الأموال تنصبّ من مؤسسات كبيرة. وأصبح في مقدوره أن يوقف طاقاته العنيفة وكل مواهبه على مهمة تحقيق غايته. لقد حان الوقت لإندفاعه الأخير نحو السلطة، نحو دكتاتورية على شعب عظيم.

-٤-

فُرص أزمة الكساد الإقتصادي

إن الأزمة الإقتصادية التي عمت الدنيا وسرت كالحريق الهائل في مشارف نهاية العام ١٩٢٩ أتاحت لأدولف هتلر فرصة العمر فإبتدرها ليجني خير ما يمكن منها. كان مثل سائر الثوريين العظام يحقق نجاحه في المحن والرزايا، بالأول عندما تجتاح الجماهير غائلة البطالة والجوع واليأس وبالأخير عندما يشملون بخمرة الحرب. غير أنه ينفرد عن سائر الثوريين في التاريخ بناحية واحدة: كان ينوي تحقيق ثورته بعد إستيلائه على السلطة السياسية. يجب ألاّ يتوسل بالثورة للسيطرة على الدولة. فهذا الهدف ينبغي أن يحقق له بأصوات الناخبين، أو ينزل له عنه حكام البلاد، بوسائل دستورية محضة. وللحصول على الأصوات لم يكن على هتلر إلاّ التربص والاستفادة من عامل الزمن والأحوال التي بدأت مرة أخرى في مطلع الثلاثينات تسوق الألمان الى وهدة من اليأس. ولأجل ان يحصل هتلر على دعم الحكام كان عليه إقناعهم بأنه الوحيد القادر على إنقاذ ألمانيا من ورطتها الشنعاء. وفي السنوات المتلاطمة من ١٩٣٠-١٩٣٣ انطلق الماكر الأريب يعمل بنشاط متجدد للوصول الى هذين الغرضين، وبرجوعنا الى الوراء قليلاً نرى أن الاحداث نفسها وضعف وإضطراب حفنة الرجال الذين ارتبطوا بعهد الولاء والدفاع عن الجمهورية الديمقراطية التي يحكمونها أصبحوا أوراقاً رابحةً في يد هتلر. إلاّ ان ذلك لم يكن مما يمكن التنبؤ به في بداية ١٩٣٠.

توفي (غوستاف شتريزمان) في ٣ تشرين الأول ١٩٢٩. وكان قد أضنى نفسه وارهقها في العمل الدؤوب الشاق. فقد إستطاع أيام كان وزيراً للخارجية في السنوات الست السابقة ان يعيد ألمانيا الى صفّ الدول العظمى ويقود الشعب الألماني الى الإستقرار السياسي والإقتصادي وكان نجاحه هائلاً. ادخل ألمانيا الى عصبة الأمم وابرم إتفاقي مشروع (داوس) ومشروع (يونغ Young) اللذين خفضا نسبة التعويضات الحربية بمقدار كبير مما سهل على ألمانيا دفعه. وفي ١٩٢٥ كان واحداً من رؤساء الحكومات الذين هندسوا (معاهدة لوكارنو) تلك المعاهدة التي منحت أوروبا أول هدوءٍ وراحةٍ

عرفتهما شعوب أرهقتها ويلات الحرب وأضناها التناحر جيلاً كاملاً.

بعد وفاة (شتريزمان) بثلاثة أسابيع وفي ٢٤ تشرين الأول، تحطّم سوق البورصة الأمريكية في وول ستريت Wall Street وسرعان ما لمست نتيجة ذلك في ألمانيا كانت نتيجة مدمرة بلاشك. كان حجرا زاوية رخاء ألمانيا هما القروض الخارجية (ولاسيّما الأمريكية) والتجارة الخارجية. فلما توقف مجرى القروض عن الإنصباب وحان موعد الايفاء بالقديم منها، لم يستطع البناء المالي الألماني تحمل الضغط. وعندما هبط ميزان التجارة العالمية الى الصفر نتيجةً للكساد العام عجزت ألمانيا عن تصدير ما يكفي من البضائع لسدّ ميزان استيراد الضروريات من المواد الأولية والاغذية التي تحتاجها. لم تكن الصناعة الألمانية تستطع الإستمرار في تشغيل مصانعها دون وجود تجارة خارجية، فهبط إنتاجها في ١٩٣٢ الى نصف ما كان عليه تقريباً في ١٩٢٩ وقذفت الملايين الى احضان البطالة. وحاق الافلاس بآلاف من المشاريع التجارية الصغيرة الخاصة. وفي أيار ١٩٣١ إنهار (الكريدت انشتالت Kreditanstalt) وهو أكبر المصارف النمساوية، وفي ١٣ تموز تبعه دارمشتيتر اوند ناسيونال بانك Darmstaedter und Nationalbank وهو واحد من بنوك ألمانيا الرئيسة. مما اضطر الحكومة في برلين الى غلق أبواب جميع البنوك بصورة مؤقتة. وضاعت عبثاً محاولات إيقاف الإنهيار، ولم تنفع حتى مبادرة الرئيس هوڤر Hoover في إعلان تأجيل كل ديون الحرب وبضمنها التعويضات الألمانية في ٦ تموز. لقد ضُرب العالم الغربي كُلّه بقوىً لم يفهمها زعماؤه وانما شعروا بأنها طاغية لا تقفها أية محاولة بشرية. كيف حصل هذا الفقر العظيم؟ هذا الشقاء البشري وفي وسط هذا الكثير من الخير والبركة؟

كان هتلر قد تنبأ بالكارثة لكنه لم يفهم أكثر من أيّ سياسي آخر سبب وقوعها، وربما كان تفهمه لها اقل بكثير من معظمهم لجهله ولعدم إهتمامه بالمسائل الإقتصادية. إلاّ أنه لم يكن غير مهتم أو جاهلاً بالفرص التي أعطته الأزمة فجأة ودون سابق إنذار. لم تُثَر عواطفه بشقاء الشعب الألماني وبؤسه وتلك حياته مازالت تعاني ندوب جراح التجربة المدمرة لهبوط المارك قبل ما يقل عن عشرات سنوات، بالعكس تماماً! ففي أحلك أيام تلك الفترة عندما كانت ضجة المصانع قد سكنت وعندما سجلت البطالة أكثر من ستة ملايين عاطلٍ وامتدت صفوف الناس أمام أبواب المخابز مئات من الأمتار في كل مدينة من مدن البلاد، رأيناه لايتورع عن الكتابة في الصحف النازية: "لم أشعر بثقة، وبسرور في داخلي مثلما أشعر به في هذه الأيام لأن الحقيقة المرّة قد فتحت أعين الملايين من الألمان على أفاعيل النصب غير المسبوقة، على أكاذيب وخيانات الماركسيين خادعي الشعب"[١٤] وكان التفكير في شقاء أبناء جلدته الألمان شيئاً لايستأهل ان يضيع فيه وقته، بل بالأحرى أنه استخدمه بقسوة وبسرعة خاطفة بل وحوّله الى سلاح سياسيّ يخدم به اطماعه الخاصة. وهذا ما شرع بعمله في صيف عام ١٩٣٠.

١٤- هايدن: الفوهرر ص٤١٩.



شـلايخـر

في آذار ١٩٣٠ إستقال المستشار الديمقراطي الإشتراكي هرمان موللر Hermann Mueller رئيس آخر حكومة إئتلافية من جبهة الأحزاب الديمقراطية التي حافظت على جمهورية (ڤايمر)، بسبب خلاف بين أحزاب الجبهة حول صندوق ضمان العاطلين. فاستُخلِف بهاينريخ بروننگ Heinrich Bruening الزعيم الپرلماني لحزب الوسط الكاثوليكي الذي حاز وسام الصليب الحديدي في الحرب بوصفه آمر سرية رشاشات برتبة (كابتن). وقد ركن اليه الجيش وأولته آراءه المحافظة الرصينة في الرايخشتاغ إهتماماً مشوباً بالعطف. ولاسيّما من جنرال يدعى (كرت ڤون شلايخر) لم يكن معروفاً قطّ من الرأي العام الألماني. كان (شلايخر) "ضابط مكتب" قديراً مغروراً طموحاً عرفته أوساط الجيش دساساً موهوباً مقداماً. هذا الجنرال اقترح اسم بروننگ للرئيس ڤون هندنبرگ. فكان المستشار الجديد مرشح الجيش دون ان يدرك ذلك تماماً. وهو رجل ذو خلق خالص من الشوائب، بعيد عن الأنانية، متواضع، محل ثقة، مخلص، في طبعه شيء من الصرامة. لقد كان يأمل تثبيت حكومة پرلمانية مكينة في ألمانيا وإنقاذ البلاد من الكساد المتفاقم والفوضى السياسية. إن المأساة التي حلت بهذا الرجل الحسن النيات ذي الفكر الديمقراطي هي أنه بمحاولته تحقيق أمله، حفر دون أن يدري قبر الديمقراطية الألمانية وبهذا وطأ الطريق غير عامدٍ لمجيء أدولف هتلر.

عجز (بروننگ) عن إقناع أغلبية الرايخشتاغ بالموافقة على إجراءات معينة تتعلق بمنهاجه الماليّ. وعندها طلب من (هندنبرگ) إستخدام الصلاحيات المنصوص عليها في المادة (٤٨) من الدستور والمصادقة على لائحته المالية بمرسوم جمهوري لا غير، بموجب السلطة التي تمنحها له حالة الطواريء المعلنة. فأجاب المجلس بالتصويت بطلب سحب المرسوم. بدأت الحكومة البرلمانية تتحطم في الساعة التي كانت الأزمة الإقتصادية تحتم وجود حكومة قوية. وبمحاولة من (بروننگ) إيجاد مخرج من هذا المأزق طلب من الرئيس في تموز ١٩٣٠، حلّ الرايخشتاغ فتم له ذلك واجريت إنتخابات جديدة في ١٤ أيلول. كيف كان يتوقع الحصول على أغلبية برلمانية ثابتة في الإنتخابات الجديدة؟ انه لسؤال لم يجب عليه قط. لكن هتلر أدرك أن فرصته حانت بأسرع مما توقع.

كانت الجماهير التي أضرّ بها تردّي الوضع تطالب بمخرجٍ من ضائقتها الخانقة. الملايين من العاطلين يريدون عملاً. أصحاب الحوانيت يريدون معونة. حوالي أربعة ملايين من الشباب الذين بلغوا سن

الإنتخاب يريدون مشاريع للمستقبل تؤمن معيشتهم على الأقل. لهؤلاء الملايين الساخطة تقدم هتلر في معركة خاطفة، بما بدا لها في وسط شقائها بارقة من بوارق الأمل. سيجعل ألمانيا قوية كما كانت ويرفض دفع التعويضات، ويلغي معاهدة ڤرساي. ويقضي على الفساد ويحني هامات البارونات (وبخاصة إن كانوا يهوداً) ويؤمّن الخبز والعمل لكلّ ألمانيّ. ولم تكن هذه النداءات بقليلة الأثر عند أولئك الجائعين القانطين الذين ينشدون إيماناً جديداً وآلهة جديدة فوق نشدانهم الخلاص.

ومع آماله العراض، فقد فوجيء في ليلة ١٤ أيلول ١٩٣٠ عندما أُعلنت نتائج الإنتخابات. فقبل سنتين نال حزبه (٨١٠٠٠٠) صوتاً ودفع بإثني عشر عضواً الى الرايخشتاغ وكان يأمل في هذه الدورة الحصول على أربعة أضعاف الأصوات تلك. فينال حوالي (٥٢) مقعداً في البرلمان لكن أصوات الحزب النازي في هذا اليوم إرتفعت الى (٦٤٠٩٦٠٠) وأمّنت له (١٠٧) مقاعد في الرايخشتاغ. فأصعدته من الدرجة التاسعة بين الأحزاب الصغرى في البرلمان الى مقام ثاني أكبر الأحزاب.

ومن أقصى الجانب الثاني إرتفعت نسبة أصوات الشيوعيين من (٣٢٦٥٠٠٠) صوت في عام ١٩٢٨ الى (٤٥٩٢٠٠٠) صوت فزاد عدد تمثيلهم في الرايخشتاغ من (٥٤) الى (٧٧) مقعداً وفقدت الأحزاب المعتدلة للطبقات المتوسطة، بإستثناء حزب الوسط الكاثوليكي، أكثر من مليون صوت مثلما حاق بالديمقراطيين الإشتراكيين رغم اضافة أربعة ملايين ناخب جديد الى قوائم الإقتراع لبلوغهم السن القانونية وهبطت أصوات (القوميين اليمينيين الهامبورگيين) من أربعة ملايين الى مليونين فقط. وكان واضحاً أن النازيين انتزعوا ملايين الأشياع من أحزاب الطبقة المتوسطة. وكذلك كان واضحاً أنه من الآن فصاعداً أخذت الصعوبة تزداد بالنسبة لبروننگ -أو لأي شخص آخر- في تزعم أغلبية ثابتة في الرايخشتاغ فكيف يتسنى للجمهورية الثبات والحياة بدون هذه الأغلبية؟ هذا السؤال بات في اليوم الذي تلا إنتخابات ١٩٣٠ ذا أهمية كبيرة لدعامتين من دعائم الوطن لم يقبل زعماؤهما بالجمهورية إلاّ كسوء حظّ عابرٍ في التاريخ الألماني: هما الجيش وعالم الصناعيين والماليين الكبار. وأسكر الفوز هتلر فإلتفت الآن ليولي إهتمامه موضوع كسب هاتين القوتين العظيمتين. لقد تعلم في ڤيينا قبل زمن طويل من تاكتيك العمدة (كارل لوگر) أهمية إجتذاب "المؤسسات القوية الحاضرة" الى صفّه.

قبل سنة واحدة ألقى هتلر في مونيخ ١٥ أيار ١٩٢٩ خطبة ناشد فيها الجيش أن يعيد النظر في موقفه ازاء القوميين الإشتراكيين، وان يتخلى عن مساندة الجمهورية. قال:

"المستقبل لن يكون للأحزاب التي تستهدف التدمير، بل لتلك الأحزاب التي تكمن فيها قوة الشعب، المستعدة والراغبة في ضمّ نفسها الى هذا الجيش حتى تُعين الجيش يوماً ما على الدفاع عن مصالح الشعب. ونحن بعكس ذلك مازلنا نرى ضباط جيشنا، يعذبون أنفسهم تعذيباً بطيئاً بتساؤلهم: إلى أيّ مدى يمكن للمرء أن يمضي في مسايرته للديمقراطية الإشتراكية. لكن هل تعتقدون حقاً يا سادتي الأعزاء أن ثم علاقة تربطكم بايدولوجية تشترط القضاء على كلّ ما هو أساسي لوجود

الجيش؟"

كان هذا عرضاً حاذقاً للحصول على مساندة ضباط الجيش الذين كان معظمهم يعتقدون -وكما ردد هتلر للمرة المائة- انهم طعنوا في الظهر، إن الجمهورية التي يساندونها الآن، خانتهم ولاتشعر بايّ ميل او حبّ للطغمة العسكرية وما تمثله. ثم أسرع ينذر الضباط بكلمات النبوءة لما كان سيعمله هو يوماً ما- بما سيكون مصيرهم اذا تغلب الماركسيون على النازيين. فاذا حدث هذا... "فعليكم ان تقرأوا السلام على الجيش الألماني وتكتبوا فوق قبره: [نهاية الجيش الألماني] عندئذ ايها السادة يجب ان تصبحوا ساسة بلا جدال... قد تكونون آنذاك جلادين للنظام وقوميسارين سياسيين وإن لم تخنعوا فزوجاتكم وأولادكم سيوضعون في أماكن مقفلة الأبواب فان لم تسكنوا فسيقذف بكم الى الخارج أو ربما اوقفتم أمام جدار...(١٥)". سمع هذا الخطاب القليل من الناس، ولتحقيق إذاعته بين أوساط الجيش نشرته جريدة (ڤولكشر بيوباختر) بالنص الكامل بطبعة خاصة للجيش نوقش باسهابٍ في أعمدة المجلة النازية الشهرية "دويتشر ڤيركايست Deutscher Wehrgeist" وهي مجلة موقوفة على معالجة الشؤون العسكرية صدرت مؤخراً.

كان الجيش في ١٩٢٧ قد منع تطوّع النازيين في الجيش الألماني المحدد عدده بمائة ألف، وزاد فمنع إستخدامهم بوظائف مدنية في مستودعات الذخيرة ومخازن التجهيزات. ولكن أصبح واضحاً في ١٩٣٠ أن الدعاية النازية تتغلغل فيه ولاسيّما بين صغار الضباط، الذين إجتذبهم باعداد كبيرة، لا تعصبّ هتلر القوميّ وحده بل الإقتراحات التي وضعها لإعادة الجيش الى سؤدده القديم وضخامته لتزيد من فرصهم في الترقية الى رتب رفيعة ما عادوا يفكرون فيها بسبب صغر حجمه.

أصبح تسرّب النازيين في الجيش وقواته المسلحة أمراً بالغ الخطورة بحيث أضطر الجنرال (گروينر) وزير الدفاع الآن. الى إصدار أمر يوميّ في ٢٢ كانون الثاني ١٩٣٠ يذكر المرء بإنذار مماثل وجهه الى الجيش (الجنرال ڤون سيكت) الى الجيش قبيل إنقلاب مشرب البيرة، منذ سبع سنوات مضت. قال: "ان النازيين يتلهفون للقبض على زمام الحكم ولذلك فهم يغازلون الجيش Wehrmacht ولكيما يستخدمونه لأهدافهم السياسية الحزبية، فهم يحاولون أن يبهروا عقولنا [لنصدق] بأن القوميين الإشتراكيين هم وحدهم يمثلون القوى القومية الحقيقية". وطلب من الجنود الابتعاد عن السياسة و"خدمة الدولة" بمنأى عن الميول والإتجاهات الحزبية، وتناحرها.

وقد ظهر للملأ أن بعض ضباط الجيش الصغار لم ينأوا عن السياسة أو على الأقل عن سياسة النازيين، فبعيد هذا بزمن وجيز حدث ما نجم عنه هيجان في ألمانيا وفتنة ما بين أعلى مراتب هيئة ضباط الجيش واشاع موجة من السرور في المعسكر النازي. في ربيع ١٩٣٠ اعتقل ثلاثة ملازمين

١٥- لم تظهر هذه الخطبة في مجموعة (باينز) أو مجموعة روسي دي سال Roussy de Saler لخطب هتلر (هتلر، نظامي الجديد) نشرت حرفياً في جريدة ڤولكشر بيوباختر (طبقة الجيش) في ٢٦ آذار ١٩٢٩. وقد اقتبس منها كثيراً في (خريطة سريان النازي) دراسات ابحاث كلية الدولة. واشنطن حزيران ١٩٤٥.

شبان هم لودين Ludin وشيرنگر Scheringer وڤندت Wendt من حامية أولم Ulm، بتهمة توزيع بيانات نازية في الجيش ومحاولة إقناع زملائهم الضباط أن يوافقوا في حالة قيام ثورة مسلحة نازية- على عدم إطلاق رصاصهم على الثائرين وهذه التهمة الثانية هي الخيانة العظمى الاّ ان الجنرال گروينر لم يرغب في إذاعة خبر وجود خيانة في الجيش فحاول إسدال الستار على القضية بتدبير أمر محاكمة المتهمين أمام محكمة عسكرية بتهمة خرق قوانين الضبط العسكري البسيطة. إلاّ ان تحدي الملازم (شيرينگر) الذي نجح في تهريب ونشر مقالٍ ناريّ في جريدة (ڤولكشر بيوباختر)، جعل ذلك مستحيلاً. وبعد نجاح النازيين في إنتخابات أيلول، بأسبوع واحدٍ احيل الملازمون الثلاثة الى المحكمة الكبرى في (لايبزك) بتهم الخيانة العظمى وكان من بين المدافعين عنهم إثنان من المحامين النازيين الصاعدين: هانس فرانك والدكتور كارك ساك Karl Sack(١٦) لم يستأثر لا المحامون ولا المتهمون بإهتمام الرأي العام أثناء المحاكمة ولم تسلط الاضواء فيها الاّ على (أدولف هتلر) فقد إستدعاه فرانك كشاهدٍ. وكان احضاره يتضمن خطوة خطيرة حُسب حسابها. قد يكون من المخجل التخلّي عن الملازمين الثلاثة الذين برهنوا بنشاطهم على نموّ المشاعر النازية في الجيش التي لايريد أن يثبطها. وكان من المحرج أن مجهودات النازي في لغم الجيش قد أفتضح أمرها. ولم يكن ليتمشى مع تاكتيكه الحالي أن يتهم الإدعاء العام الحزب النازي بأنه منظمة ثورية ترمي الى إسقاط الحكومة بالقوة. ولدحض التهمة الأخيرة اتفق هتلر وفرانك أن يطلبه شاهد دفاع. ولكن الفوهرر كان في الحقيقة يرمي الى غرض أهم من هذا بكثير. كان عليه بإعتباره قائد حركة حققت الآن نجاحاً شعبياً مذهلاً في الإنتخابات- أن يطمئن الجيش ولاسيّما ضباطه القادة بأن القوميين الإشتراكيين أبعد من أن يكونوا مصدر تهديد لجيش الرايخ، كما هو الحال في الملازمين النازيين المتهمين، وأن هدفه الحقيقي هو العمل على خلاصه وخلاص ألمانيا.

فمن هذا المنبر الوطني المتمثل في منصة الشهادة أظهر هتلر براعةً في إستخدام مواهبه اللامعة ودهائه في المناورة السياسية. وإن كان عرضه المحكم مليئاً بالخداع والمخاتلة فقليل في ألمانيا، حتى بين الجنرالات من يبدو أنه أدركه. أكد هتلر للمحكمة بكلّ صراحةٍ [ولضباط الجيش ايضاً] أنه لا الحزب ولا الـ(إس. أي) يحاربان الجيش وقال: "لقد كانت هذه وجهة نظري دائماً. وهي أن كل محاولة إستبدال الجيش عمل جنوني. لا فائدة لأيّ منا في إستبدال الجيش... وسنهتم عندما نصل الى الحكم في أن يخرج من جيش الرايخ الحالي جيش عظيمٌ للشعب الألماني".

وعاد يكرر للمحكمة [وللجنرالات] أن الحزب النازي لايتوسل للوصول الى الحكم بطرق غير الطرق الدستورية وأن الضباط الصغار مخطئون إن توهموا ان الغرض هو الثورة المسلحة.

"إن حركتنا لاتحتاج الى عنفٍ. فسيأتي اليوم الذي سيفهم الوطن الألماني آراءنا وعندئذ سيقف

١٦- قدر لكليهما ان تنتهي حياتهما على المشنقة: فقد حكم بذلك على (ساك) لمساهمته في المؤامرة ضد هتلر (٢٠ تموز ١٩٤٤). أما فرانك فجزاء أعماله في پولندا خدمة لهتلر.

ورائي خمسة وثلاثون مليوناً من الألمان... وعندما سنحرز الحقوق الدستورية سنبني الدولة بشكل نراه صواباً".
رئيس المحكمة: "أسيكون هذا بطرق دستورية أيضاً؟"
هتلر: "أجل".

لكن، مع أن هتلر كان يخاطب الجيش وغيره من العناصر المحافظة في ألمانيا، فقد كان عليه أن يأخذ بنظر الإعتبار إندفاع إخوان الحزب الثوري. وهو لايستطيع أن يتخلى عنهم كما تخلى عن المتهمين الثلاثة. ولذلك اهتبل فرصته عندما ذكّره رئيس المحكمة بتصريح له في ١٩٢٣، قبل قيامه بمؤامرته الفاشلة بشهر واحدٍ "رؤوس ستتدحرج فوق الرمل" هل يشجب الزعيم النازي عبارته الآن؟

"[اجاب هتلر] يمكنني التأكيد لك. عندما سينتهي كفاح الحركة القومية الإشتراكية بالنصر، فستقام محكمة قضاء قومية إشتراكية أيضاً. ثم ينتقم من ثورة تشرين الثاني ١٩١٨، وتتدحرج الرؤوس[١٧]" لايستطيع أحد القول أن هتلر لم ينذر بما سيفعل حين يستولي على السلطة لكن النظارة في المحكمة رحبوا به على ما يبدو لأنهم هتفوا للتهديد هتافاً عالياً طويلاً. ومع ان رئيس المحكمة كان غير راضٍ بهذه المقاطعة المخلة لكنه لم يحتج لا هو ولا الادعاء العام على هذه الملاحظة. ولقد كتبت بخط عريض في واجهات الصحف وأثارت ضجة عنيفة لا في ألمانيا وحدها بل في الخارج ايضاً. أما الضباط الصغار الثلاثة الذين أنكر عليهم هتلر تحمسهم للقومية الإشتراكية فقد وجدتهم المحكمة مذنبين في فعل تدبير مؤامرة لإقتراف الخيانة العظمى وحكمت عليهم بحكم بسيط أمده ثمانية عشر شهراً بإعتقال الثكنة- في ألمانيا الجمهورية أدخرت الأحكام القاسية من هذه التهمة لأولئك الذين يساندون الجمهورية[١٨]؛ إن شهر أيلول ١٩٣٠ يمثل نقطة تحول في الطريق الذي كان سيبلغ بالتعصب الألماني الى الرايخ الثالث. إن النجاح المفاجيء الذي حققه الحزب النازي في الإنتخابات العامة لم يقنع ملايين الناس العاديين وحدهم بل العديد من الزعماء الكبار في ميدان التجارة والجيش فتأكد لهم بأنه يوجد زخم مندفع لايمكن إيقافه. قد لايحبون ديماغوغية الحزب وإنحطاطه الخلقي، لكنه من الجهة الأخرى كان يذكي المشاعر القديمة للوطنية الجرمانية والقومية التي كُبحت وخنقت خلال السنوات العشر الأولى من الحكم الجمهوري هذه الحركة تعهدت بقيادة الشعب الألماني في طريق غير طريق الشيوعية والإشتراكية والنظام النقابيّ والديمقراطية العقيمة؛ زد على ذلك كله أنها أضرمت ناراً في سائر أرجاء ألمانيا. انها النجاح بعينه!

١٧- المقتبس في جريدة فرانكفورتر زايتُنگ ٢٦ أيلول ١٩٣٠.
١٨- حقد الملازم شوينگر لما عدّهُ خيانة من هتلر فترك الحزب النازي أثناء ما كان معتقلاً وأصبح شيوعياً متحمساً- وكان ممن ستشملهم التصفية بالقتل ككل أولئك الذين تحدّوا هتلر في حركة تطهير ٣٠ حزيران ١٩٣٤. لكنه استطاع النجاة بشكل ما وعاش ليشهد نهاية هتلر. أما الملازم لودن فقد ظل نازياً متعصباً وأختير للرايخشتاغ في ١٩٣٢ وأصبح ضابطاً كبيراً في الـ(إس. أي) والـ(إس. إس) ثم وزيراً ألمانياً في دولة سلوڤاكيا المحمية. حيث ألقي القبض عليه عند التحرير وأعدمه الچيكوسلوڤاك.

ولهذا السبب وللتأكيدات التي وجهها هتلر للجيش في محاكمة (لايبزك) Leibzig بدأ بعض الجنرالات الألمان يفكرون ملياً في هل ان القومية الإشتراكية هي ما يُحتاج اليه لتوحيد الشعب وإعادة ألمانيا القديمة وتقوية الجيش عدداً وعدة مرة أخرى ليساعد الوطن على التخلص من قيود معاهدة ڤرساي المخجلة لقد سرّتهم أجوبة هتلر التي أدلى بها أمام رئيس المحكمة الكبرى عندما سأله عما يقصد بترداده القول والكلام عن "الثورة القومية الألمانية؟". فكان جواب هتلر "هذا يعني بالضبط إنقاذ الشعب الألماني المستعبد في الوقت الحاضر. ألمانيا الآن مكبلة من رجليها ويديها بمعاهدات الصلح... إن القوميين الإشتراكيين لايعتبرون هذه المعاهدات قانوناً، بل شيئاً فرض على ألمانيا فرضاً بالقوة الغاشمة ونحن لا نرضى أن تلقى أعباؤها على الأجيال المقبلة التي هي براء منها. فان نحن لفظناها واحتججنا عليها بكل ما فينا من قوة، فسنكون والحالة هذه في طريقنا الى الثورة".

وتلك هي وجهة نظر هيئة الضباط أيضاً. لقد انتُقد أحد أعضائها الكبار (الجنرال گروينر) إنتقاداً مراً لأنه سمح بمحاكمة الضباط الملازمين الثلاثة أمام المحكمة الكبرى أما الجنرال (هانس ڤون سيكت) القائد العام الأسبق الذي أحيل الى التقاعد قبل فترة وجيزة والمعروف بأنه عبقري الجيش الألماني لما بعد الحرب، وأفضل خلف لشارنهورست Scharnhorst وغنيزناو Geinsenau، فقد احتج للجنرال (گروينر) على إضعافه الروح المعنوية والتماسك في هيئة الضباط. ونهج نهجه الكولونيل (لودڤيك بيك) الذي كان سيصبح بعد زمن قليل شخصية هامة في تاريخنا هذا في حين كان عام ١٩٣٠ قائداً للواء المدفعية الخامس في (أولم) وهو اللواء الذي ينتمي اليه الضباط المتهمون الثلاثة. ولم يكتف بالإحتجاج الشديد أمام رؤسائه بسبب توقيفهم، بل شهد في صالحهم أمام المحكمة.

انتهت المحاكمة وقد تكلم هتلر. وشعر الجنرالات بميل أكثر تجاه الحركة التي توهموها فيما مضى تهديداً للجيش. لقد شرح (الجنرال الفرد يودل) Alfred Jodl. رئيس العمليات في القيادة العليا للقوات المسلحة أثناء الحرب العالمية الثانية أمام المحكمة العسكرية في نورمبرگ، المعنى الذي استخلصته هيئة الضباط من شهادة الزعيم النازي في لايبزك. قال: "حتى ذلك الوقت كان الضباط الأقدمون يعتقدون أن هتلر يحاول نسف الجيش فأصبحوا الآن واثقين من العكس". ولم يتردد الجنرال ڤون سيكت نفسه عندما أنتخب نائباً للرايخشتاغ ١٩٣٠ أن يضم نفسه الى هتلر علناً مدة من الزمن. وفي ١٩٣٢ حث اخته على التصويت لهتلر في إنتخابات الرئاسة بدلاً من رئيسه الأسبق هندنبرگ.

إنه العمى السياسي الذي كان يمتاز به ضباط الجيش الألماني مبرهناً على انه قتّال لهم في نهاية

١٩- مؤامرة النازيين وعدوانهم [سيشار الى هذا فيما بعد بأحرف NCA الملحق ٨ص ١١٩٤] وثائق نورمبرگ [سيرمز اليها بـN. D] ٤٤٠ EC.

٢٠- أوتو ديتريش: "مع هتلر في السلطة Mit Hitler in dei Macht".

٢١- شهادة فونك [مؤامرة النازيين. ملحق A الص ١١٩٤-١٢٠٤، الوثائق ٤٤٠ EC] المرجع عينه ج٥ الص ٤٧٨-٤٩٥ وما بعدها (الوثائق ٢٣٢٨ تصريح تيسن "دفعت لهتلر" ص٧٩-١٠٨.

٢٢- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٧ الص ٥١٢-٥١٣ [الوثائق ٤٥٦ EC].

الشوط، ها أنه يبدأ ينمو ويظهر للعيان.

إن جهالة أقطاب الصناعة والمال السياسية لم تكن تقلّ عماءً عن جهالة الجنرالات وقد ادت الى الاعتقاد الخاطيء: أنهم لو نفحوا هتلر بهبات مالية كبيرة لشدّوه اليهم وإن نجح في الوصول الى الحكم لكان رهن اشارتهم وراح زعماء التجارة والصناعة يزدادون ثقة بأن هذا النمساوي الناشيء- كما يسميه كثير منهم في العشرينات- لن يلبث حتى يسيطر على ألمانيا. وخاصة بعد فوز النازيين المذهل في إنتخابات أيلول ١٩٣٠.

وشهد (ڤالتر فونك) في نورمبرگ قال: "بمجيء ١٩٣١ كنت أنا وأصدقائي رجال الصناعة واثقين أن الحزب النازي سيستولي على زمام الحكم في المستقبل غير البعيد كثيراً".

وفي صيف ذلك العام أعطي (فونك) عملاً مربحاً هو رآسة تحرير صحيفة ألمانية مالية واسعة الإنتشار والنفوذ تدعى برلينر بورزنزايتُنگ Berliner Boersenzeitung وانضم الى الحزب النازي وأصبح همزة وصل بين الحزب وبين زعماء الأعمال الكبار. كان فونك رجلاً قصير القامة بديناً ذا عينين ماكرتين جاحظتين، وجهه يذكّر كاتب هذه السطور دائماً بوجه الضفدعة. وقد اوضح في نورمبرگ أن عدداً من أصدقائه الصناعيين ولاسيّما المشهورين منهم في صناعات تعدين الراين الكبيرة ألحّوا عليه بأن ينضمّ الى الحركة النازية "لإقناع الحزب بإتخاذ جانب قطاع المشروع الخاصّ".

"في ذلك الحين كانت زعامة الحزب تعتنق آراء في السياسة الإقتصادية شديدة التناقض والإضطراب. فحاولت شخصياً إنجاز مهمتي بإقناع الزعيم والحزب بان يعتبر الدأب الشخصي والإعتماد الذاتي لرجل الأعمال والقوى الخلاقة للمشاريع الحرة الخ... تحمي أسس السياسة الإقتصادية للحزب وأكد (الفوهرر) شخصياً مرة بعد أخرى في أثناء أحاديثه معي ومع زعماء رجال الصناعة الذين قدمهم له بأنه عدوّ لإقتصاد الدولة وما يدعى "بالإقتصاد الموجّه" وأنه يعتبر المشروع الحرّ والمنافسة الحرة ضرورية بصورة مطلقة، للحصول على أعلى إنتاج ممكن[١٩]".

وشرع هتلر بعدها- كما روى محافظ بنك الرايخ المقبل ووزير الإقتصاد- يقابل الماليين الألمان الكبار ويهمس في آذانهم بما يحبون سماعه. وكان الحزب في حاجة الى مبالغ كبيرة لتمويل المعارك الإنتخابية ودفع فواتير حساب نفقات دعايته الواسعة المتنامية وتسديد رواتب مئات الموظفين الذين يستخدمهم باوقات دوام كاملة، والصرف على جيشيه الخصوصيين «الإس. أي والإس. إس» وقد أناف عددهم على المائة ألف في ١٩٣٠- أي أكثر عدداً من أفراد جيش الرايخ.

ولم يكن رجال الصناعة والمال مصادر التمويل الوحيدة فالحزب كان يجمع مبالغ كبيرة من مشاركات العضوية والتبرعات والهبات وبيع صحف الحزب وكتبه ونشراته الدورية. على ان عطايا رجال المال كانت أكبر المصادر طراً. وكلما زاد مقدار ما يدفعونه للحزب، كلما انقصوا مما كانوا يدفعون للأحزاب اليمينية الأخرى التي استمروا في مساعدتها الى ذلك الحين.

ويتحدث أوتو ديتريش Otto Dietrich رئيس دائرة صحافة هتلر للحزب أولاً، ثم للرايخ أخيراً قائلاً:

"قرر الفوهرر فجأة أن يركز جهوده بشكل منتظم في موضوع تثقيف أقطاب الصناعة من ذوي النفوذ الكبير[٢٠]. فمن كان هؤلاء الأقطاب؟

حفظت هوياتهم سراً عن الجميع خلا أضيق حلقة من المقربين لهتلر. كان على الحزب أن يلعب لعبتين في آن واحدٍ. فيترك (شتراسّر وگوبلز) والدعيّ (فيدر) يعللون الجماهير بصرخة: "إن القوميين الإشتراكيين" هم في الحقيقة "إشتراكيون" أعداء ملوك المال. ومن الجهة الأخرى كان من الضروري إعتصار المال من أرباب المال لتصريف شؤون الحزب. يقول (ديتريش) "ظلّ هتلر يجوب ألمانيا طولاً وعرضاً في النصف الأخير من ١٩٣١ ويعقد إجتماعات خصوصية مع شخصيات (صناعية ومالية) هامة، بعض تلك الإجتماعات في غاية السرية حتى كانت تعقد أحياناً في ممر منعزل. والكتمان لا مفر منه دفعاً لفضول الصحافة وضررها وكان النجاح اكيداً".

هكذا كان التلون السياسي الحربائي المضحك. ومن مفارقاته أن (شتراسّر وفيدر وفريك) قاموا في أواخر ١٩٣٠ نيابة عن الحزب النازي بتقديم مشروع قانون يقضي بجعل الحد الأعلى للفائدة المصرفية بنسبة ٤٪ على كل الديون وتأميم الأسهم التي تعود لتجار البورصة والمصرفيين وكل يهود ألمانيا الشرقية دون تعويض وتأميم المصارف الكبرى. فإنتاب هتلر فزعٌ شديد. ليست هذه شيوعية فحسب بل هي إنتحار ماليّ للحزب. وصدّر للحزب أمراً جازماً بسحب المشروع. وعندئذ تقدم به الشيوعيون. وعليك ألاّ تعجب إذ تعلم أن هتلر طلب من حزبه التصويت ضده.

ولقد علمنا من إفادات (فونك) في سجن نورمبرگ بعد الحرب من كان (على الأقل) بعض أولئك "أقطاب الصناعة المتنفذين" الذين إلتقاهم هتلر. فهناك (إميل كيردورف) بارون الفحم الشديد الكره للنقابات الذي رئِس صُندوق ضمان سياسيّ مشبوه عرف باسم "خزانة الروهر" ساهم برأسماله أصحاب المصالح في مناجم ألمانيا الغربية. إستماله هتلر في مؤتمر الحزب للعام ١٩٢٩. وهناك أيضاً (فريتز تيسن) رئيس إتحاد صناعة الفولاذ الذي عاش الى اليوم الذي شهد ندمه على غباوته وكتب عنه كتاباً أسماه "دفعتُ لهتلر"، فقد كان أسبق في المساهمة من غيره، إلتقى بهتلر في مونيخ ١٩٢٣ وسحر بذلاقة لسانه وبادر عن طريق لودندورف بتقديم اعانة أولية بمبلغ مائة ألف مارك ذهبي للحزب النازي الذي كان يلفه الخمول إذ ذاك، ولحق بـ(تيسن) (البرت ڤويگلر) Albert Voegler وهو أسطون من أساطين إتحاد صناعات الفولاذ أيضاً. وفي الواقع كانت صناعات الفولاذ والفحم المصادر الرئيسة للإعانات الممنوحة لهتلر من قبل رجال الصناعة في آخر مرحلة وثوب له الى الحكم بين ١٩٣٠ و١٩٣٣.

على ان (فونك) ذكر صناعيين آخرين وشركات لم يشأ مديروها أن يُتركوا بعيداً عن هذه الوليمة

اذا ما قدر لهتلر الفوز بها أخيراً. والقائمة طويلة، لكنها بعيدة عن الكمال لأن ذاكرة (فونك) أصابها ضعف شديد عندما جيء به الى نورمبرگ للمحاكمة. ومن أسماء القائمة جورج ڤون شنتزلر Georg von Schnitzler وهو أحد كبار مديري (آي. جي. فاربن I. G. Farben) الكارتل الجبار للمواد الكيماوية. و(أوغست روشترغ August Rosterg) و(أوغست ديهن August Diehn) من أرباب صناعة البوتاس (يتكلم فونك "عن موقف هذه الصناعة الثابت تجاه الفوهرر"). وكونو Cuno من خطّ سفن (هامبورگ- أمريكا)، وصناعة الفحم البني في أواسط ألمانيا. وشركات مطاط (كونتي Conti)، والقطب الصناعي الكولوني (أوتو ڤولف Otto Wolf) والبارون كرت ڤون شرويدر B. Kurt von Schroeder الصيرفي الكولوني الذي كان سينجز دوراً أساسياً في المناورة الأخيرة التي دفعت بالحكم الى هتلر، وثَمَّ عدد من المصارف الكبرى من بينها (الدويتش بانك) و(البنك التجاري الخاص Commerz und Privat B.) و(بنك درسدنر) ومصرف (دويتش كريديت كيزلشافت Drutsche Kredit Gesellschoft) و(الالبانز Albianz) أعظم دار تأمين في ألمانيا. وجلب ڤلهلم كپلر Keppler وهو أحد مستشاري هتلر الإقتصاديين عدداً من صناعيي جنوب ألمانيا. وشكّل أيضاً جمعية غريبة من رجال الأعمال متعلقة برئيس الـ(إس. إس) هملر، اطلق عليها اسم (حلقة الإقتصاديين الأصدقاء Freundeskreis der Wirtschaft) التي أصبحت تعرف فيما بعد (بحلقة أصدقاء زعيم الرايخ للـ«إس. إس») وهو هملر، وقد جمعت ملايين الماركات لهذا السفاح بالذات حتى يستعين بها على "أبحاثه" في أصول الآرية.

كان هتلر من مطلع عمله السياسي يتلقى المساعدة المالية والإجتماعية من (هوكو بروكمان Hugo Bruckman) الناشر المونيخي الثريّ. ومن (كارل بخشتاين) صاحب معمل البيانو. وقد أنمت زوجتاهما علاقة صداقة ووُدّ رقيق مع الزعيم النازي ذي النجم الصاعد. وفي قصر بخشتاين في برلين قابل للمرة الأولى عدداً كبيراً من زعماء المال وقادة الجيش وفيه اتخذ بعض القرارات والإجتماعات السرية الحاسمة التي ادت به أخيراً الى المستشارية.

ولم يقفز كل رجال الأعمال الألمان الى عربة جوق هتلر بعد حفلة إستعراض الإنتخابات النازية في ١٩٣٠. ويذكر (فونك) أن إتحاد شركات الكهرباء الكبير "زيمنس Siemens" و ا. ي. ج A.E.G" بقي مستنكفاً كما فعل ملك المصانع الحربية الشهيرة كروب ڤون بوهلن وهالباخ Krupp von Bohlen und Halbach وجاء في إعترافات (فريتز تيسن) أن (كروب) كان "خصماً عنيفاً" لهتلر وفي الأيام الأخيرة التي سبقت تكليف هندنبرگ له برآسة الحكومة قام كروب بإنذار الفيلد مارشال الشيخ ونصحه بألاّ يرتكب مثل هذه الحماقة. لكن لم يلبث كروب أن رأى النور وأصبح بسرعة خاطفة (نازياً مصفىّ!) على حد تعبير (تيسن) النادم[٢١].

اذن فواضح أن هتلر في آخر مرحلة إندفاع له الى الحكم كان مدعماً بسند ماليّ قوي من مجموعة كبيرة من رجال الأعمال الألمان. ولم يعرف بالضبط مقدار ما ساهم به الصيارفة ورجال الأعمال فعلاً

في ماليـة الحزب النازي في تلك السنوات الثلاث الأخيـرة السابقة لكانون الثـاني ١٩٣٣. على ان (فونك) يقدرها "بما لايزيد عن مليوني مارك". ويقدرها تيسّن بمبلغ مليوني مارك سنوياً ويقول أنه دفع بالذات مليون مارك، ولكن اذا حكمنا بالمبالغ الكبيرة التي كانت تحت تصرف الحزب في تلك الأيام فان المجموع الكليّ للهبات التي قدمها رجال الأعمال هي أكبر بعدة مرات من تلك التقديرات. وإن شكا گوبلز بأنها لم تكن كافية قط. إن الخير الذي فعله عالم الصناعة والمال، ذو العقلية السياسية الطفلة سيوضحه تاريخنا هذا فيما بعد. وكان أحد أعظم المتحمسين من هذا العالم في ذلك الحين (أصبح فيما بعد واحداً من أعظم الخائبين في آمالهم) الدكتور شاخت Schacht الذي إستقال من رآسته لبنك الرايخ في ١٩٣٠ لمعارضته (مشروع يونك) وقابل گورنگ في تلك السنة وتعرف بهتلر في ١٩٣١ واوقف كلّ قابلياته العظيمة خلال العامين التاليين على توثيق علاقات الصداقة بين (الفوهرر) وبين أصدقاء من رجال الصناعة والمال، وقربه أكثر الى الهدف العظيم... المستشارية. إن هذا الساحر الإقتصادي الذي كانت مسؤوليته أعظم من أن تحدّ في قيام الرايخ الثالث وفي مطالع نجاحه. أمسك قلمه في ١٩٣٢ وكتب لهتلر ما يأتي: "لست أشك في ان التطور الحالي للاحداث لايؤدي إلا الى وصولك الى المستشارية... إن حركتك تندفع في عملها في الداخل بقوةٍ من الحقيقة وبضرورةٍ ماسةٍ، بحيث لايمكن أن يخطئك الفوز وقتاً طويلاً... وأنّى رحل بي عملي في المستقبل القريب حتى لو رأيتني يوماً مسجوناً في قلعةٍ، فبإمكانك دائماً أن تعتمد عليّ كأني عون مخلص." وذيّل أحد الخطابين اللذين اقتبست منهما هذه الفقرة بعبارة "وتقبلوا مني هايل! قوية"(٢٢) هناك "حقيقة بارزة جداً" في الحركة النازية لم يجعل هتلر منها سراً وهي لو ان الحزب سيطر يوماً على ألمانيا فسيسحق بقدمه الحرية الشخصية. وبضمنها حرية الدكتور شاخت وأصدقائه من رجال المال. وكان سيمرّ بعض الوقت على رئيس بنك الرايخ البشوش (وهو المنصب الذي إحتله ثانية زمن هتلر) وزملائه في الصناعة والمال ليصحوا من نومهم على الحقيقة المجردة. ولما كان تاريخنا هذا مليئاً بالمفارقات العجيبة. فإن الزمن ما كان ليمتدّ بـ(الدكتور شاخت) ليدللّ على أنه نبيّ جيد ليس بخصوص مستشارية هتلر وحدها، بل بخصوص رؤية هتلر إيّاه سجيناً وإن لم يكن ذلك في قلعةٍ بل في معسكر إعتقال وهو أسوأ، وليس بوصفه "عوناً مخلصاً" بل كقوة معارضةٍ له، وهنا فقط كان مخطئاً في نبوءته.

الآن وفي مطلع العام ١٩٣١، كان هتلر قد جمع حوله في الحزب عصبة صغيرة من رجالٍ متعصبين قساة عتاة، اعانوه في إندفاعه الأخير الى الحكم. رجال كانوا سيظلون الى جانبه يساعدونه في المحافظة على ذلك الحكم خلال فترة الرايخ الثالث وإن قدر لطائفة منهم- كانوا أقرب اليه من الجميع، وربما كانوا أقدرهم وأشدهم وحشية- أن لايعيشوا السنة الثانية للحكم النازي. هناك خمسة ارتفعوا

عن الباقين في تلك الأيام: وهم گريگور شتراسّر، وروهم، وگورنگ وگوبلز وفريك.

عاد (گورنگ) الى ألمانيا في نهاية ١٩٢٧ على اثر صدور العفو العام السياسيّ الذي ساعد الشيوعيون الأحزاب اليمينية على إمراره في الرايخشتاغ. ففي السويد التي قضى معظم أيام نفيه حقق لنفسه الشفاء من داء الإدمان على المخدرات في مصحّ (لانكبرو Langbro) وعندما تماثل للشفاء اشتغل في شركة سويدية للطيران ليقيم أوده. أصبح بطل الحرب العالمية الوسيم الرشيق، بديناً الآن، إلاّ انه لم يفقد شيئاً من حيويته أو إهتمامه بالحياة واستقرّ في شقة عازبٍ فخمة صغيرة في "باديشتراسّه Badischestrasse" ببرلين (أصيبت زوجته المصروعة التي كان شديد الكلف بها، بداء السلّ وبقيت في السويد وقد أقعدها مرضها الوبيل) وكان يحصل على مواد عيشته كمستشارٍ لشركات طيران ولخطوط النقل الجوية الألمانية (لوفتهانزه) وأنمى علاقاته الإجتماعية. هذه العلاقات كانت واسعة تمتد من وليّ العهد والأمير فيلب هسّ الذي تزوج الأميرة مافالدا Mafalda إبنة ملك إيطاليا. الى فريتز تيسّن وغيره من ملوك المال في عالم الأعمال فضلاً عن عددٍ من كبار ضباط الجيش.

هؤلاء هم الأصدقاء الذين كان هتلر يفتقر الى أمثالهم ويحتاجهم وسرعان ما أصبح گورنگ ناشطاً في تقديم الزعيم النازي لأصدقائه وتبديد الرائحة الكريهة التي نشرها بعض السفلة من ذوي القمصان الرمادية في أوساط الطبقة العليا. وفي ١٩٢٨ اختار هتلر "گورنگ" عضواً للرايخشتاغ من الإثني عشر نائباً الذين يمثلون الحزب. وقد أصبح رئيساً للمجلس عندما صار الحزب النازي أكبر الأحزاب الممثلة في ١٩٣٢. وفي دائرة رئيس الرايخشتاغ الرسمية عقد كثير من الإجتماعات لحبك الدسائس التي أدت الى نصر الحزب النهائي. وفيه أيضاً- إن استعجلنا الزمن- وضعت الخطة التي أعانت هتلر على البقاء في الحكم بعد تعيينه مستشاراً ألا وهي خطة إحراق الرايخشتاغ.

تقطعت الأسباب بين هتلر وروهم في ١٩٢٥، وبعد ذلك بفترة نزح روهم الى پوليڤيا ليخدم في جيشها برتبة مقدم. وفي أواخر ١٩٣٠ استنجد به هتلر وناشده الرجوع لقيادة الـ(إس. أي) من جديد. بعد ان فقدت السيطرة على أعضائه وعلى قادته أيضاً. في الظاهر لإعتقاده بقيام الثورة النازية بالقوة - وشيكاً. وتزايدت حوادث شغبهم وتعرضهم للناس في الشوارع. وكثرت حوادث قتلهم لخصومهم السياسيين. حتى لم يعد يجري إقتراع عام أو اقليميّ أو بلديّ دون أن يحصل أثناءه معارك وحشية في الشوارع والأرصفة.

وهنا علينا أن نأتي الى ذكر حادثةٍ، لأنها أمدّت القومية الإشتراكية بشهيدها الأعظم. كان (هورست فيسّل) واحداً من قادة الـ(إس. أي) الصغار في برلين، وهو إبن قسّ بروتستانيّ، هجر اسرته ودراساته وراح يعيش في حيّ حقير مع قحبةٍ متقاعدة مخصصاً حياته للنضال في سبيل

النازية. ويؤكد كثيرون من خصوم النازية أن الشاب كل يرتزق من مهنة القِوادة، وربما كانت التهمة مبالغاً فيها. لكن الثابت أن عشراءه وأصدقائه كانوا كلهم قوادين وعواهر. قتله بعض الشيوعيين في شباط ١٩٣٠. وكان النسيان سيطويه كما طوى مئات من ضحايا قتال الشوارع من الطرفين لو لم يتفق أنه ترك نشيداً من نظمه وتلحينه. ذلك هو (نشيد الهورست ڤيسّل) الذي سرعان ما أصبح النشيد الرسمي للحزب النازيّ ثم النشيد القومي الرسميّ الذي يلي مباشرة "نشيد ألمانيا فوق الجميع" في عهد الرايخ الثالث. وأصبح (هورست ڤيسّل) بفضل دعاية (گوبلز) البارعة واحداً من أعظم البطولات الاسطورية في الحركة. وعُدّ مثلاً أعلى خالصاً ببذله حياته في سبيل القضية.

في الوقت الذي تسلّم (روهم) قيادة الـ(إس. أي) كان (گريگور شتراسّر) ثاني شخصية في الحزب النازي بلا منازع. خطيب بليغ ساحر ومنظر بارع ورئيس أهم دائرة من دوائر الحزب أي المنظمة السياسية، وهو منصب يمنحه نفوذاً عظيماً على القادة المحليين والمنطقيين لأنه يشرف على أعمالهم. وبطبيعته الباڤارية السمحاء كان أحبّ القادة الى أفراد الحزب بعد هتلر. وكان خلافاً لهتلر- يتمتع بثقة شخصية، بل حتى بمحبةٍ من معظم خصومه السياسيين. وكان يوجد عدد كبير من داخل الحزب وخارجه ممن آمنوا أن شتراسّر قد يخلف الزعيم النمساوي الجهم المتهور. هذه النظرة كانت سائدة بصورة خاصةٍ في أوساط الجيش وقصر الرئاسة. وقُذف أخوه (أوتو شتراسّر) الى زوايا الإهمال فقد كان من سوء حظه أنه نظر الى كلمة "إشتراكية" بجدٍ، ونظر الى كلمة "عمال" بجدّ أكثر في عنوان الحزب الرسميّ "الحزب القومي الإشتراكي للعمال الألمان". فساند اضرابات معينة قام بها أعضاء النقابات الإشتراكيون وطالب أن يدعم الحزب شعار تأميم المصانع. وهذا بالطبع من قبيل الكفر والإلحاد عند هتلر فاتهمه بأنه ارتكب الإثم الأعظم "الديمقراطية والليبرالية" وفي يومي ٢١ و٢٢ من أيار ١٩٣٠ جرى خصام حادٌ بينه وبين تابعه الثائر وطلب منه الخضوع التام. ولما رفض ذلك طرد من الحزب فحاول أن يقيم حركة (إشتراكية وطنية) حقيقية أصبحت تعرف باسم "إتحاد القوميين الإشتراكيين الثوريين" واشتهرت باسم "الجبهة السوداء" ولكنها في إنتخابات أيلول فشلت تماماً في الحصول على عددٍ كبير من أصوات النازيين.

بقي (گوبلز) العضو الرابع من الخمسة الكبار حول هتلر، خصماً ومنافساً (لگريگور شتراسّر) منذ إنفصالهما في ١٩٢٦. وبعد سنتين استخلف شتراسّر في رآسة المنظمة السياسية. وبقي (گاولايتراً) لمدينة برلين. وقد أرضت هتلر مجهوداته الناجحة في إعادة تنظيم الحزب وما حققته مواهبه في الدعاية له. وكان لسانه المعسول، اللاذع وحضور ذهنه السبب الذي باعد ما بينه وبين أعوان هتلر الكبار الآخرين ولم يثقوا به. لكن الزعيم النازي كان يسرّه وجود التناحر بين مرؤوسيه الأقطاب، لأن ذلك يحميه على الأقل من تآمرهم على زعامته مجتمعين. لم يكن يثق بشتراسّر ثقة تامة إلاّ أنه كان على أتمّ الثقة بولاء گوبلز. زد على هذا إن الرجل الأقزل المتعصب القميء كان يهذي بآراء مفيدة له. وأخيراً أصبح بمواهبه في الهجاء الصحفي واثارة الخواطر (في ذلك الزمن اختص بجريدة في برلين

تدعى "در انكريف Der Angriff") لايقدر بثمن للحزب.

كان ڤلهلم فريك الخامس والأخير من الحلقة، الشخصية الوحيدة التي لاتتميز بلونٍ أو طابعٍ، هو مثال للموظف الحكومي الألماني، كان ضابط شرطة صغير في مونيخ قبل ١٩٢٣. واستخدمه هتلر جاسوساً في مقر الشرطة وظلّ يشعر بالامتنان منه دائماً. وكثيراً ما كان يضطلع بأعمال لا شكر وراءها. وبإقتراح من هتلر أصبح أول نازي يتسنم منصبا بلدياً- في تورينكيا- ثم أصبح زعيم الحزب النازي البرلماني في الرايخشتاغ. كان ولاؤه أشبه بولاء الكلب، مجدٌ مثابر، وبسبب الواجهة التي تبدو لطبيعته الانطوائية ودماثة أخلاقه كان مفيداً للإتصال بالموظفين المترددين في حكومة الجمهورية وقدر لبعض رجال الحزب الأقل شهرة من هؤلاء في أوائل الثلاثينات أن يذيع صيتهم ويشتهر أمرهم وينالوا سلطاناً مخيفاً في الرايخ الثالث. فهاينريخ هملر مربي الدجاج الريفيّ الشبيه بمعلم مدرسة دمث خامل الذكر وهو لابس نظارته العاطلة عن الاطار والحائز على دبلوم في الزراعة من معهد "مونيخ تكنيش هكشولي Technisch Hochschule بدأ يبني تدريجياً حرس هتلر البريتوري: الـ(إس. إس) ذوي الستر السوداء إلاّ أنه عمل في ظلّ (روهم) قائد كل من الـ(إس. أي) والـ(إس. إس). وكان ذكره غير نابه خارج موطنه باڤاريا حتى في أوساط الحزب. وهناك (الدكتور روبرت لاي) الصيدلانيّ مدمن الخمر (گولايتر) مدينة (كولون) و(هانز فرانك) المحامي الشاب النابه وقائد الدائرة القضائية في الحزب و(ڤالتر دارّه Walther Darre المولود في الأرجنتين ١٨٩٥ وهو خبير زراعي قدير كسبه للحزب رودولف هسّ وأصبح كتابه "الفلاحون مصدر حياة العرق النورديكي" سبباً لإهتمام هتلر به وتقليده منصب رآسة الدائرة الزراعية للحزب. (ورودلف هسّ) نفسه؛ المخلص إخلاص الكلب للزعيم، غير الطموح بطبيعته لم يكن يحمل إلاّ لقب سكرتير هتلر الخاصّ. ويليه في امانة السرّ مارتن بورمان Martin Bormann وهو رجل أشبه بحيوان الخُلد، يفضّل أن يحفر في تجاويف حياة الحزب المظلمة لتوسيع دائرة دسائسه. وكان قد قضى في السجن عاماً واحداً لإشتراكه في حادث قتل سياسي. وكان زعيم شباب الرايخ بالدُر ڤون شيراخ Baldur Von Schirach شاباً ذا عقلية رومانية ومنظماً كثير الحيوية. أمّه أمريكية وجدّه الأعلى ضابط أمريكي فقد ساقه في معركة (بُل رن Bull Run) وكان يقول لحراسه الأميركان في نورمبرگ بأنه أصبح خصماً للسامية في سن السابعة عشرة بعد قراءته كتاباً عنوانه "اليهودي الأبدي Eternal Jew" لمؤلفه (هنري فورد Henry Ford).

بقي ايضاً (ألفريد روزنبرگ) الفيلسوف الدعيّ الشديد القطوب الضحل التفكير من البلطيق. كان كما رأينا واحداً من معلمي هتلر الأوائل الذي راح منذ إنقلاب ١٩٢٣ يفرّخ كتباً لا تُحصى ولا تعد في مواضيع مشوشة ملتاثة بأسلوب ركيك فجّ، توّجها بكتاب يقع في سبعمائة صحيفة أسماه "خرافة القرن العشرين" وهو مجموعة مضحكة من الآراء سخيفة في موضوع التفوق النورديكي. أشيع عنه في الأوساط النازية بأنه "ثمرة لما اعتبر سعة إطلاع وعبقرية". كتاب كثيراً ما قال هتلر عنه على سبيل الدعابة أنه حاول قراءته فلم ينجح. مما دفع شيراخ الذي كان يعدّ نفسه كاتباً الى القول مرة: إن روزنبرگ "رجل باع من كتاب لم يقرأه أحد عدداً من النسخ يفوق ما باع أيّ كاتب" ففي السنوات

العشر الأولى عقب نشره ١٩٣٠ بيع منه أكثر من نصف مليون نسخة. كان هتلر من البداية الى النهاية شديد العطف برّ الفؤاد بهذا الرجل الرقيع الغبيّ المتردّد. فخلع عليه مناصب عديدة في الحزب كرآسة تحرير الڤولكشر بيوباختر والاشراف على غيرها من نشرات الحزب. وعيّنه واحداً من النواب في الرايخشتاغ فمثّل الحزب في لجنة الشؤون الخارجية.

ومضت السنة ١٩٣١ في مسراها القلق. بخمسة ملايين عاطل من العمال الأجراء والخراب محدق بالطبقات الوسطى. والفلاحون عاجزون عن الوفاء باقساط الرهن والبرلمان مشلول والحكومة تزداد غرقاً في المشاكل والرئيس البالغ أربعاً وثمانين عاماً يتقدم بخطى حثيثة الى خرف الشيخوخة. وانتفخت صدور أقطاب النازيين ثقة بان الانتظار لن يطول كما صرح شتراسّر علناً "كل ما يصلح للاسهام بالكارثة... هو جيد جداً لنا ولثورتنا الجرمانية".

الفصل الثاني

آخر أيام الجمهورية

١٩٣١- ١٩٣٣

-١-

من الإضطراب والفوضى اللتين عمّتا الحياة في ألمانيا. برزت الآن شخصية عجيبة تائهة قدر لصاحبها أكثر من أيّ فردٍ واحدٍ آخر أن يحفر للجمهورية قبرها. شخصية تبوأت منصب المستشارية فترة قصيرة، وحاولت- وتلك من سخريات القدر، في واحدة من آخر إنحرافاتها العجيبة والمدهشة محاولة يائسة لإنقاذ الجمهورية عندما فرط الأمر ولم يعد ثم حيلة فيه. هذه الشخصية هي "كرت ڤون شلايخر" واسمه يعني باللغة الألمانية "الدسّاس" أو "النشال".

كان في عام ١٩٣١ لفتننت جنرال في الجيش[١]. ولد في ١٨٨٢ ودخل الجيش في الثامنة عشرة برتبة ملازم في لواء هندنبرگ القديم (حرس لواء المشاة الثالث) وفيها أصبح من أخلص أصدقاء (أوسكار ڤون هندنبرگ) إبن الرئيس الفيلد مارشال. وكانت صداقته الثانية لاتقل قيمة عن الأولى وهي مع (الجنرال گروينر) الذي انتبه الى ذكائه في الاكاديمية الحربية، فجاء به ضابطاً شاباً ليكون مرافقه عندما استخلف لودندورف في القيادة العليا ١٩١٨. ووظيفته الرئيسة "ضابط مكتب" - لم ير إلاّ القليل من الخدمة الفعلية وكان هذا في الجبهة الشرقية- وبقي بعدها قريباً من مراكز السلطة في الجيش وفي جمهورية (ڤايمر) حيث سحر بسرعة خاطره ولطف أخلاقه وفطانته في الشؤون السياسية كُلاً من الجنرالات والساسة. قام في زمن (الجنرال ڤون سيكت) بدورٍ عظيم الأهمية في المعاونة على تنظيم فرق (المحاربين الأحرار) غير القانوني ومثيله "جيش الرايخ الأسود" الذي حفظ سره في طيّات من الكتمان الشديد وكان حجر الزاوية في المفاوضات السرية مع موسكو التي أدّت الى التدريب المتخفّي لضباط سلاح الجو والدبابات الألمان في روسيا السوڤييتية وتأسيس مصانع ألمانية لإنتاج الأسلحة هناك. حَلاّل مشاكل موهوب يهيم حُباً بحَبك الدسائس، كان جيد العمل في الخفاء والظلام ولم يعرف الناس إسمه ولم يشتهر حتى بداية العقد الثالث من القرن. إلاّ انه كان يسترعي المزيد من الإهتمام قبلذاك في بندلرشتراسّه Bendlerstrasse حيث مقرّ وزارة الحرب. وفي ڤلهلمشتراسّه حيث تقع

١- تعدل رتبة ميجر جنرال في الجيش الأمريكي.

مـــــقـــــرات الوزارات الأخرى.

في كـــانـون الثـــاني ١٩٢٨ استـخدم نـفوذه المتـــزايد عند الرئيس هندنبـــرگ الذي حظي بصداقته عن طريق إبنه (أوسكار) لتـــعـــيين رئيسه الأسبق (الجنرال گروينر) وزيراً للدفاع. وهو أول عسكري يتقلد هذا المنصب في عـهـد الجمهورية. فما تردد في ان يجعل (شلايخر) يده



هتلر مع هندنبرگ

اليمنى في الوزارة. وجعله مسؤولاً عن الدائرة الجديدة (مكتب الوزارة Minister amt) حيث كان يصرف الشؤون السياسية للجيش والأسطول واطلق (الجنرال گروينر) عليه "عمدتي في السياسة" وأودع اليه تمشية علاقات الجيش بالوزارات الأخريات وأقطاب السياسة. ولم تكن سلطة شلايخر في مركزه هذا قوية في هيئة الضباط فحسب بل بدأ يظهر قوةً في السياسة. ففي الجيش كان قادراً على رفع ضباط كبار وخفض ضباط كبار وراح يقوم بذلك فتخلص من الجنرال ڤون بلومبرگ Von Blomberg نائب القائد العام للجيش في ١٩٣٠ بحيلة محبوكة الاطراف وأحل محله صديقاً قديماً من أيام لواء مشاة الحرس الثالث، هو الجنرال ڤون هامرشتاين Von Hammerstein. وفي ربيع السنة نفسها قام بأول محاولاته -كما رأينا- لإختيار مستشارٍ بنفسه، وبمساندة الجيش فكلّم هندنبرگ في أمر تعيين (هاينريخ بروننگ) للمنصب.

وبتحقيق هذا النصر السياسي، راح يعمل في ما كان يرى أنه الخطوة الأولى في مشروع عظيم يبدل به شكل الجمهورية. فكرة ظلت تساور رأسه وتتكامل بمرور الزمن. فقد رأى بوضوح تام- ومن كان أعمى عن ذلك؟- أسباب ضعف جمهورية ڤايمر. هناك كثير من الأحزاب السياسيّة (في سنة ١٩٣٠ حصلت عشرة أحزاب، على ما يزيد عن مليون صوتٍ لكلّ واحد منها). وهي كثيرة جداً لغايات العبور منصرفة تماماً الى تعقيب مصالحها الإقتصادية والإجتماعية الخاصّة التي تمثلها بحيث كانت أعجز عن دفن خلافاتها وتأليف أغلبية ثابتة في الرايخشتاغ تستطيع أن تستند حكومة مستقرة كفوءة لمواجهة الأزمات الكبيرة التي كانت تقصف بالبلاد في أوائل الثلاثينات. لقد أصبحت الحكومة

البرلمانية شيئاً أشبه بما يطلق عليه الألمان "تجارة البقر Kuhhandel" بالأحزاب تساوم على منافع خاصة للجماعات التي إنتخبتها. والى سقر وبئس المصير بالمصالح الوطنية ولا عجب أن بروننگ عندما تقلد منصب المستشارية في ٢٨ آذار ١٩٣٠، وجد نفسه عاجزاً عن الحصول على الأغلبية البرلمانية لرسم أيّ سياسة لحكومته- لا من اليسار ولا من الوسط ولا اليمين. وان عليه اللجوء الى المادة ٤٨ من الدستور إن أراد تمشية أمور الحكومة فحسب. وأن يعمل شيئاً حول الشلل الإقتصادي. فهي تسمح له بالحكم بمرسومٍ جمهوريّ إن وافق رئيس الجمهورية.

بهذا الشكل كان (شلايخر) يريد أن يحكم (برونـنگ) تماماً. فهو يبني حكومة قوية تحت ضبط يدٍ باطشة يد رئيس الجمهورية الذي يمثل إرادة الشعب لإنتخابه بالإقتراع العام، ويتمتع بثقة الجيش. على حدّ رأي شلايخر. إن لم يستطع الرايخشتاغ المنتخب بشكل ديمقراطي أن يقيم حكومة ثابتة. فعلى الرئيس المنتخب بشكل ديمقراطي أن يقيمها. وكان متأكداً أن ما تريده أغلبية الشعب الألماني هو حكومة ثابتة القدمين تأخذ بيدهم وتنتشلهم من محنتهم اليائسة وقد اظهرت الإنتخابات التي أجراها برونگ في أيلول أن أغلبية الألمان لاتريد ذلك في الواقع، أو على أقل تقدير انها لاتريد أن تخرج من التيه بمعونة ذلك الشكل من الحكومة التي اختارها شلايخر وأصدقاؤه في الجيش والقصر الجمهوري.

في الواقع ان (شلايخر) ارتكب خطأين شنيعين. فبوضعه برونگ على كرسي المستشارية وتشجيعه على الحكم بمرسوم جمهوريّ هدم أسس قوة الجيش في البلاد- فمركزه (فوق السياسة) الذي نبذه كان سيؤدي الى دماره ودمار ألمانيا معه. كما انه أساء الحساب بخصوص الأصوات. فبعد أن وجد أن ستة ملايين ونصف مليون منها قد صوّت للحزب النازي في ١٤ أيلول ١٩٣٠، بينما لم يصوّت له قبل سنتين غير (٨١٠٠٠٠)، أدرك السياسيّ الجنرال بان الواجب يقضي عليه إتخاذ خطة جديدة.

قبل ختام السنة كان قد حقق إتصاله (بروهم) الذي عاد وشيكاً من پوليفيا، وبگريگور شتراسّر. وكان هذا أوّل إتصال جدّي بين النازيين وبين أولئك الذين يستأثرون بالقوة السياسية في الجمهورية وبتطور هذه العلاقات في غضون سنتين أوصلت أدولف هتلر الى هدفه وأدت بالجنرال ڤون شلايخر الى سقوطه ثم مقتله.

بعد ثلاثة أسابيع من انتحار (گيلي راوبال) بنت اخت هتلر وحبيبته، وفي العاشر من تشرين الأول ١٩٣١ تم أول مقابلة للزعيم النازي بالرئيس هندنبرگ. وكان المسؤول عن ترتيب المقابلة شلايخر المنشغل آنذاك في حبك خيوط دسيسة جديدة. فقد سبق له في أوائل الخريف أن قابله ورتب له موعداً مع كل من المستشار والرئيس. كان يحتل قاع جمجمته مثل برونگ، سؤالٌ ملّح. ماذا يستوجب عمله عندما تنتهي فترة رآسة هندنبرگ في نهاية ربيع ١٩٣٢ أي بعد سبع سنوات؟ سيكون الفيلد مارشال في الخامسة والثمانين. والفترات التي يصفو فيها ذهنه أصبحت الآن تتناقص. زد على هذا إن لم يرشح نفسه للمرة الثانية فان هتلر الذي لم يصبح بعد مواطناً ألمانياً شرعاً سيجاهد لترشيح نفسه كما يدرك الكلّ، فيفوز في الإنتخابات ويصبح رئيساً. وفي أيام الصيف أطال المستشار العالم التأمل

ساعات اثر ساعات في محنة ألمانيا العظيمة. كان يدرك جلياً ان حكومته أمست أبغض حكومة قامت في الجمهورية على الإطلاق. فلأجل معالجة الكساد أصدر قانون تخفيض الأجور والرواتب، وأنزل أسعار البضائع وفرض قيوداً قاسية على الأعمال التجارية والمالية والخدمات الإجتماعية. واطلق عليه كُلّ من الشيوعيين والنازيين لقب "مستشار الجوع" مع ذلك ظنّ أنه وجد مخرجاً وانه بالآخر سيتمكن من إقامة ألمانيا مستقرة حرة يعمها الرخاء. سيحاول فتح باب المفاوضات مع الحلفاء لإلغاء التعويضات التي أرجيء تسديدها بقرار (هوڤر) بتأجيل الديون. وسيحاول في مؤتمر نزع السلاح المقرر عقده في السنة القادمة إما ان يحمل الحلفاء على الإيفاء بوعدهم في معاهدة ڤرساي بنزع سلاح ألمانيا الى الحد المنصوص عليه، وإمّا أن يتركوا ألمانيا تمضي قدماً وبصورة علنية في تنفيذ برنامج للتسلح معتدلٍ. وهو برنامج كان قد بوشر به فعلاً وبصورة سرية وبإغضاء منه. وبهذا يكسر آخر قيد من قيود معاهدة الصلح لتعود ألمانيا فتبرز قرينةً للدول العظمى القوية. وفكر أن ذلك سيهبط على ألمانيا كنعمة من النعم لا بل سيفتح صفحة جديدة من الثقة بها في العالم الغربي وسيقضي على الأزمة الإقتصادية التي حَثَت على رأس الشعب الألماني تراب هذا الشقاء. وهو بهذا سيجرد النازيين من حجتهم ويحوّل الريح عن أشرعتهم.

وصح عزم برويننگ على أن يندفع الى معالجة شؤون الداخل بجرأة أيضاً وأن يجري تعديلاً جوهرياً في نصوص الدستور بالإتفاق مع الأحزاب الكبرى كلها ما عدا الشيوعيين ويستهدف التعديل إعادة ملكية الهوهنزلرن. حتى لو أقنع هندنبرگ بإعادة ترشيح نفسه فليس من المتوقع وهو في هذه السن المتقدمة أن يكمل فترة السبع سنوات ولو توفي بعد سنةٍ أو إثنتين فسيبقى السبيل نفسه مفتوحاً أمام هتلر لينتخب رئيساً للجمهورية. وللحيلولة دون ذلك ولضمان ثبات وتفوق سلطة رئيس الدولة إختط الخطة التالية: تلغى إنتخابات رآسة الجمهورية للسنة ١٩٣٢ وتمدّ فترة حكم الرئيس الحالي بقرارٍ يصوّت عليه ثلثا أعضاء مجلس الرايخشتاغ والرايشسرات Reichsrat بمقتضى نصوص الدستور، وبعد ان يتم ذلك يقترح على مجلس البرلمان إعلان الملكية على ان يكون رئيس الجمهورية وصياً على العرش. وبموته يؤتى بأحد أنجال ولي العهد الى عرش هوهنزلرن. هذا العمل سيأخذ من النازيين زمام المبادرة أيضاً. وفي واقع الحال كان (برويننگ) واثقاً ان ذلك يعني نهايتهم كقوة سياسية.

لكن الرئيس الهرم بدا غير مكترث، فهو بوصفه قائد الجيش الإمبراطوري. الذي كان من واجبه أن يخبر القيصر في يوم السقوط الأسود- تشرين الثاني ١٩١٨ في (شپا) بأن نزوله عن العرش أمر لا مفرّ منه وان الملكية انتهت، لايستطيع الآن أن يفكر بإعتلاء أي فردٍ من هوهنزلرن ذلك العرش، إلاّ القيصر نفسه الذي كان يعيش آنذاك في دورن Doorn بهولندا، وعندما شرح له برويننگ أن الديمقراطيين الإشتراكيين ونقابات العمال الذين لم يشجعوا خطته إلاّ بعد تردد كبير، وللسبب الوحيد وهو ان الخطة هي آخر فرصة يائسة لإيقاف هتلر، لن يقبلوا أبداً بإعادة ڤلهلم الثاني أو إبنه الأكبر، وأكثر من هذا انه لو أعيدت الملكية فيجب أن تكون دستورية ديمقراطية على غرار النظام الملكي

البريطاني. بعد ان سمع المارشال الشيخ هذه الأقوال من مستشاره، بلغ به السخط حَدّاً أن صرفه من لدنه حالاً وبعد أسبوع استدعاه ليبلغه أنه لن يرشح نفسه للإنتخابات ثانية.

وفي الوقت نفسه تمت مقابلتا هتلر لبروننگ أولاً ولهندنبرگ ثانياً لأول مرة. وكلتاهما خلفتا أثراً سيئاً بالنسبة للزعيم النازي. إنه لم يشف بعد من ضربة انتحار (گيلي راوبال) وكان ساهم الفكر غير واثق من نفسه. فأجاب على إقتراح براوننگ بمساندة النازيين لإستمرارية هندنبرگ في الرآسة، بسيل دافق من الكلام الطويل ضدّ الجمهورية مما لم يبقِ شكاً في أنه لايعضد خطة المستشار. أما مع هندنبرگ فقد كان كثير القلق والعصبية وحاول أن يجلب اليه إهتمام السيّد الهرم بخطبة طويلة لكنه فشل فشلاً ذريعاً. لم يثر هذا "النائب العريف الغجري" على حَدّ قوله أيّ إهتمام فيه عند أول مقابلة له. وقال لشلايخر أن رجلاً كهذا قد يصير وزيراً للبريد- لكنه لايصلح قطّ للمستشارية- عبارة كان الفيلد مارشال سيبلعها بلعاً فيما بعد.

وبحافزٍ مفاجيء أسرع هتلر الى باد هارزبرگ Bad Harzburg حيث سيقام في اليوم التالي الموافق ١١ تشرين الأول مهرجان وتظاهرة ضخمة "للمعارضة القومية" ضدّ حكومتي ألمانيا وپروسيا. كان هذا إجتماعاً لا لليمين المتطرف الذي يمثله القوميون الإشتراكيون فحسب بل للقوى المحافظة القديمة الرجعية وهي حزب هوگنبرگ Hugenberg: الوطني الألماني. والمحاربون القدماء للجيش الخاص اليمينيون، وذوو الخوذ الفولاذية Stalhelm وما يدعى بشباب بسمارك، وعصبة الاقطاعيين الزراعيين اليونكرز ومجموعة عجيبة من الجنرالات القدماء. لكن الزعيم النازي لم يعجبه المهرجان. فقد احتقر الستر الرسمية السوداء والقبعات العالية ومخلفات النظام القديم الكثيرة الأوسمة مما كان يرى الإتصال الوثيق به خطراً على حركة (ثورية) كحركته. واستعجل في خطبته ببرودة وقلة اكتراث وترك محلّ الإجتماع قبل إستعراض (ذوي الخوذ الفولاذية) الذي اظهر عدداً يزيد عن عدد الـ(إس. أي) مما أمضّه. إن جبهة (هارزبرگ) التي اقيمت في ذلك اليوم والتي مثلت محاولة المحافظين ذوي الخطّ القديم- إدخال النازيين في جبهة متحدة للشروع في هجوم ختامي على الجمهورية (كانت تطالب بإستقالة براوننك فوراً)، هذه الجبهة كانت كالطفل الذي ولد ميتاً. فهتلر لم يكن ينوي أن يقوم بدور التابع لهؤلاء السادة الذين كان يرى عقولهم قد دفنت في الماضي الذي لا فرصة له في العودة. ربما استخدمهم بصورة مؤقتة إن بذلوا عوناً في نسف (نظام ڤايمر) وإن وجد فيهم مصدراً مالياً جديداً (وكانوا في هذا عند حسن ظنه) إلاّ أنه لن يكون بدوره ألعوبة في يدهم.

ما مرّ على جبهة هارزبرگ أيام قليلة حتى كانت تواجه إنهياراً. فقد عادت العناصر التي كوّنتها الى التناحر فيما بينهما مرة أخرى. بإستثناء حقيقةٍ واحدة. رفض حزب (هوگنبرگ) وهتلر أن يوافقا على إقتراح (برونگ) بتمديد فترة رآسة هندنبرگ. وفي مطلع ١٩٣٢ جدد المستشار جهوده لزحزحتهما عن موقفهما. وكان قد أفلح بعد صعوبات جمة في حمل الرئيس على قبول البقاء في المنصب إن مدّد البرلمان فترة الرآسة وبهذا لم يعد ضرورياً أن يحمل على منكبه عبء المعركة

الإنتخابية الطاحنة. فدعا (برونـنگ) هتلر الى برلين لإجراء مداولات جديدة. ووصلت البرقية عندما كان (الفوهرر) يتحدث مع هسّ وروزنبرگ في مسائل مكاتب تحرير (الڤولكشر بيوباختر) في برلين. فصاح وهو يقذف بالبرقية الى وجههما- الآن وضعتهم في جيبي. لقد اعترفوا بي شريكاً في مفاوضاتهم[٢].

وفي السابع من كانون الثاني قابل هتلر برونـنگ و شلايخر. وتمت مقابلة ثانية في العاشر منه. وكرر برونـنگ إقتراحه في ان يوافق النازيون على تمديد فترة رآسة (هندنبرگ) فان أتمّ ذلك، وبعد تسويته الوشيكة لمشكلة إلغاء التعويضات والمساواة في التسلح- فإنه سوف يستقيل من المستشارية. وتزعم مصادر أخرى -والأمر موضع نزاع- ان برونـنگ وضع طعماً ثانياً في مصيدته؛ فقد عرض على هتلر ان يقترح إسمه للرئيس ليخلفه في المستشارية[٣].

لم يعط هتلر جواباً قاطعاً فورياً ونزل فندق (كايزرهوف) فإستطلع آراء مستشاريه. وكان گريگور شتراسّر يحبذ قبول إقتراح برونـنگ متعللاً ان هندنبرگ سيفوز في الإنتخابات اذا أصرّ النازيون على إجرائها أمّا (گوبلز) و(روهم) فقد حبّذا رفض الإقتراح حالاً. وكتب گوبلز في يوميته المؤرخة ٧ كانون الثاني مايأتي: "ان جوهر القضية ليست رئاسة الجمهورية، (فبرونـنگ) يريد تقوية مركزه الى زمنٍ غير محدود لا غير... لقد بدأت لعبة الشطرنج على الحكم... الأمر الرئيسي هو ان نبقى أقوياء ولا نقوم بعمليات مساومة". وكان قد كتب قبلها بليلة واحدة "هناك رجل في الحزب لايثق به أحد... هو گريگور شتراسّر"[٤]. وهتلر نفسه لم يكن يرى داعياً لتقوية ساعد (برونـنگ) وبهذا يمدّ في عمر الجمهورية زمناً آخر. لكنه كان خلافاً لهوگنبرگ الثخين الدماغ الذي رفض الإقتراح حالاً في ١٢ كانون الثاني- أكثر مكراً ودهاءً. ولم يكن جوابه للمستشار بل لما فوقه أي الرئيس. قال أنه لايرى إقتراح برونـنگ عملاً دستورياً لكنه سيساند إعادة إنتخاب الفيلد مارشال اذا تخلى عن خطة برونـنگ.

وعرض هتلر في محادثة له سرية مع أوتو ڤون مايسنر Otto Von Meissner بفندق كايزرهوف- مساعدة هندنبرگ في إنتخابات الرآسة شريطة ان يتخلص أولاً من براونـنگ، ويؤلف حكومة قومية ويصدر مرسوماً بإجراء إنتخابات جديدة لكلّ من الرايخشتاغ والدايت البروسي. وڤون مايسنر هذا، هو سكرتير الدولة في مستشارية الرآسة، خدم في وظيفته هذه كلاً من (إيبرت) الإشتراكي ومن بعده (هندنبرگ) المحافظ بإخلاصٍ، وقد بدأ الآن يفكر في فترة خدمة ثالثة مع أيّ رئيس جمهورية وإن كان هتلر نفسه!

ولم يوافق هندنبرگ على هذا. وأحنقه أن يرفض النازيون والقوميون وخاصة هؤلاء الأخيرون الذين

٢- حسب رواية هايدن "الفوهرر" ص ٤٣٣.
٣- هايدن: "تاريخ القومية الإشتراكية" ص ١٦٦.
٤- گوبلز: كايزرهوف، الص ١٩-٢٠.

يعدهم أصدقاءه ومحل إعتماده تجنيبه متاعب المعركة الإنتخابية وقرر الترشيح ثانيةً. والى جانب حنقه هذا على الأحزاب القومية أضاف حقداً غريباً على (بروننگ) لأنه لم يتصرف في المسألة تصرف الحاذق، ولأنه يضطره الآن إلى الدخول في كفاح مرير ضد تلك القوى القومية التي أختارته رئيساً للجمهورية في ١٩٢٥ وحققت له الفوز على المرشحين الليبراليين-الماركسيين. فنجاحه الآن موقوف على مساندة الإشتراكيين ونقابات العمال الذين كان لايحاول كتم إحتقاره لهم. ونشأت برودة واضحة في علاقاته مع مستشاره الذي كان يقول عنه قبل فترة قصيرة "أنه خير مستشارٍ منذ بسمارك".

وامتدت البرودة أيضاً تجاه بروننگ من (الجنرال) الذي جاء به الى المستشارية. فقد خاب ظن (شلايخر) بالزعيم الكاثوليكي العبوس. وصار أبغض المستشارية في العهد الجمهوري. وفشل في الحصول على الأغلبية، وأخفق في خضد شوكة النازيين أو ضمهم الى جانبه. ولم يوفق في الإبقاء على هندنبرگ دون إنتخاب. لهذا يجب أن يذهب- ويذهب معه أيضاً الجنرال (گروينر) رئيس شلايخر المحترم معه، الذي يبدو أنه لم يتفهم الآراء التي إدخرها (شلايخر) للمستقبل. ولم يكن هذا الجنرال الدسّاس مستعجلاً بالضبط. (بروننگ وگروينر) أقوى رجلين في الحكومة، يجب ان يظلاً في الحكم حتى يعاد إنتخاب هندنبرگ، فقد لايستطيع الفيلد مارشال الشيخ أن ينجح بدونهما. وبعد الإنتخابات ستنتهي فائدتهما.

-٢-

هتلر ضدّ هندنبرگ

هناك بعض المناسبات في حياة (هتلر) العامة. يبدو فيها -عندما يواجه قراراً صعباً- غير قادر على إتخاذ رأي معين.

وهذه واحدة منها كانت المشكلة التي يواجهها في كانون الثاني ١٩٣٢ هي: هل يرشح نفسه لمنصب الرآسة أم لايرشح؟ لقد بدا هندنبرگ صعب التقحم. هذا البطل الأسطوريّ ستسانده لا عناصر اليمين المختلفة فقط، بل الأحزاب الديمقراطية التي وقفت ضده في ١٩٢٥. وهي الآن تجد بشخصه منقذ الجمهورية. واذا رشح ضد الفيلد مارشال وفشل -وهو أمر يكاد يكون محتوماً- أفلا يكون ذلك خطراً على سمعة "المناعة" التي راح النازيون يبنونها بإنتخاب اقليمي اثر إنتخاب اقليمي منذ تحقيقهم نصرهم العجيب في الإنتخابات العامة ١٩٣٠؟ وإن لم يرشّح- أفليس ذلك إعترافاً بالضعف. واظهاراً لإفتقارهم الى الثقة بأن القوميين الإشتراكيين ليسوا على عتبة الحكم؟ هناك إعتبار آخر. لم يكن هتلر حتى الآن أهلاً للترشيح. لأنه ليس مواطناً ألمانياً.

ألحّ عليه (جوزيف گوبلز) بإعلان ترشيحه. وفي ١٩ كانون الثاني سافرا معاً الى مونيخ وفي تلك

الليلة كتب (گوبلز) في يومياته: "بحثت مسألة الترشيح للرآسة مع (الفوهرر). لم يتوصل بعد الى قرار. ألححت بشدة على إعلان ترشيحه". وانعكس في دفتر يوميات گوبلز للشهر التالي إرتفاعات ذهن هتلر وإنخفاضاته. في ٣١ كانون الثاني "سيعلن الفوهرر قراره نهار الخميس. لايمكن البقاء في شك بعد الآن". وفي ٢ شباط يبدو أن القرار أتخذ فقد دوّن "لقد قرر أن يرشح نفسه"، لكنه يضيف الى قوله هذا ان القرار لن يعلن حتى تتضح نية الديمقراطيين الإشتراكيين. وفي اليوم التالي إجتمع قادة الحزب في مونيخ ليسمعوا قرار هتلر. قال گوبلز متأففاً "انهم انتظروا وطال انتظارهم عبثاً"، واضاف يقول "كل واحد منهم كان يظهر عليه الارهاق والتوتر العصبي". وراح رئيس الدعاية تلك الليلة ينشد التسرية فتسلل خفية ليرى فلماً سينميّاً لكريتا گاربو، وهزته وحركت عاطفته تلك "التي هي أعظم نجمة سينميّة بين الأحياء" وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة "جاءني عدد من رفاق الحزب القدماء، وهم مكتئبون لعدم التوصل الى قرار. يخشون أن الفوهرر يتلكأ وينتظر وقتاً طويلاً".

ربما انتظر وقتاً طويلاً لكن ثقته بالنجاح الختامي لم تضعف وسجلت يوميات مونيخ في إحدى الليالي أن الفوهرر قلّب وجوه الرأي وقتاً طويلاً مع گوبلز بخصوص الوظيفة التي سيتقلدها الثاني منهما في الرايخ الثالث. يقول (گوبلز) إن الفوهرر قد فكر في تقليده "وزارة التربية العامة المختصة بالأفلام والإذاعة اللاسلكية والفن والثقافة والدعاية". وفي ليلة أخرى جرى بين هتلر وبين مهندسه المعماري (الاستاذ تروست Troost) حديث طويل حول التغيير الفخم الذي سيجري في عمارة العاصمة القومية، ويضيف گوبلز "لقد أنهى الفوهرر كُلّ خططه، وهو يتكلم ويعمل يشعر وكأننا نحن الآن في دست الحكم".

لكنه لم يتكلم كما لو كان مشتاقاً للترشيح ضدّ هندنبرگ، وفي ٩ شباط كتب گوبلز "الفوهرر يعود الى برلين. مداولات أخرى في (كايزرهوف) حول إنتخابات الرآسة. الكلّ في شك وحدس". وبعدها بأيامٍ ثلاثة راح گوبلز يعيد النظر في حساب الأصوات التي ستكون الى جانب الفوهرر ليقول "انها مخاطرة. لكن يجب الإقدام عليها" ورحل هتلر الى مونيخ ليقلب في الأمر وجوه الرأي فترة أخرى. بالأخير كان هندنبرگ الشخص الذي جعله يعزم على قرارٍ. ففي ٥ شباط أعلن الرئيس الشيخ رسمياً ترشيحه. وطار گوبلز فرحاً "الآن أطلقت يدنا. الآن لم نعد بحاجة الى إخفاء قرارنا" لكن هتلر ظلّ يكتم القرار حتى ٢٢ شباط وفي إجتماع هذا اليوم بكايزرهوف كتب گوبلز: "الفوهرر يسمح لي بإعلان ترشيح نفسه للرآسة هذه الليلة في قصر الرياضة".

كانت معركة طاحنة مضطربة. في الرايخشتاغ قام (گوبلز) فوصف هندنبرگ "بمرشح حزب الهاربين من الخدمة العسكرية" فطرد من المجلس لشتمه الرئيس. وفي برلين أخذت الجريدة القومية (دويتش زايتُنگ) التي ناصرت هندنبرگ في إنتخابات ١٩٢٥- تقدح فيه بشدة وحماسة قائلة: "ان المسألة الآن هي: هل أن الخونة الأميين والخنازير أنصار السلم، بموافقة من هندنبرگ، سيقدر لهم أن يجلبوا لألمانيا الخراب النهائي".

وشاعت البلبلة في كُلّ الموالين التقليديين للأحزاب والطبقات في فوضى وحرارة معركة الإنتخاب. وانحاز الى جانب هندنبرگ البروتستانتي البروسي المحافظ، الموالي للملكية، جميع الإشتراكيين ونقابات العمال وكاثوليك براوننگ وحزبه الوسط وبقايا أحزاب الديمقراطيين والأحرار والطبقات الوسطى. ووقف الى جانب هتلر الكاثوليكي النمساويّ المتشرد السابق و(القومي الإشتراكي) زعيم جماهير الطبقة المتوسطة الدنيا، كل بروتستانت الشمال من الطبقة العليا واليونكرز المحافظون الاقطاعيون، وعدد من الملكيين بضمنهم ولي العهد السابق في آخر لحظة فضلاً عن أعضاء حزبه وأشياعهم. وزادت الفوضى والإضطراب بدخول مرشحَين جديدين لا أمل لأي واحدٍ منهما بالنجاح لكن على أساس أن قد يحرز كل منهما ما يكفي من الأصوات ليمنع كلاً من المرشحين المتقدمين المتنافسين من الحصول على الأغلبية المطلقة اللازمة للفوز. فقدم القوميون ثيودور دويشتربرغ Theoder Duesterberg نائب القائد العام لذوي الخوذ الفولاذية (وكان هندنبرگ قائد شرفٍ أعلى لها). وهو مقدم سابق لا لون له سرعان ما اكتشف النازيون وهم في أشد حالات الفرح أن والد جده يهوديّ! وتنادى الشيوعيون بأن الديمقراطيين الإشتراكيين، انما "يخونون العمّال" بمساندتهم هندنبرگ، وأسرعوا بدفع مرشحهم الخاص للمعركة الإنتخابية وهو أرنست تيلمان Ernst Thaelmann زعيم الحزب ولم تكن هذه المرة الأولى أو الأخيرة لمخاطرة الشيوعيين في تحدي النازيين والوقوف بوجههم بتشجيع من موسكو.

وقبل ان يحمى وطيس المعركة، قام هتلر بحل مشكلة الجنسية الألمانية. ففي ٢٥ شباط أعلن أن وزير داخلية دولة برونزويك Brunswick النازيّ عين (هر هتلر) ملحقاً في مفوضية برونزويك ببرلين. وبفضل هذه المناورة المضحكة أصبح الزعيم النازي مواطناً برونزويكياً بشكل تلقائي، ومن ثم مواطناً ألمانياً يسوغ له شرعاً الترشيح لرآسة جمهورية الرايخ الألماني. وبعد ان اجتاز هتلر هذه العقبة الصغيرة بسهولة. قذف نفسه الى قلب المعركة بحيوية دفاقة وراح يجوب أرجاء البلاد ويخطب في الجماهير الحاشدة ويعقد عشرات الإجتماعات العامة ويثيرها الى حَدّ الجنون، واتبع خطيبا الحزب المفوهَين الآخرَين شتراسّه وگوبلز برنامجاً مشابهاً. ولم يكن هذا كل شيء فقد نظّما حملة دعاية لم تشهد لها ألمانيا مثيلاً من قبل فلصقت على الجدران في المدن والبلدان ملايين الصور الملونة واللافتات الشبيهة بلافتات السينما ووزع ثمانية ملايين كراس وإثنا عشر مليون نسخة اضافية من جرائد الحزب. ونظم ثلاثة آلاف إجتماعٍ في اليوم الواحد ولأول مرة في تاريخ الإنتخابات العامة الألمانية استفيد استفادة كبيرة من الافلام واسطوانات الحاكي وكانت انغام الأخيرة تبث بمكبرات صوت مثبتة على السيارات الجوالة. ولم يدخر بروننگ جهداً هو الآخر فقد عمل بدون كلل لربح الإنتخابات للرئيس الهرم. وللمرة الوحيدة في حياة هذا الرجل الذي يؤمن بالعدالة. كان قاسياً الى الحدّ الذي جعله يحتكر أوقات الراديو لكلّ محطات البث التي تسيطر عليها الحكومة للطرف الذي رام إنجاحه. وهو تاكتيك ألهب هتلر حقداً. ولم يتكلم هندنبرگ إلاّ مرة واحدة، في إذاعة مسجلة بتاريخ ١٠ آذار عشية الإقتراع. خطبة مهيبة واحدة من أعظم الخطب القليلة التي ألقيت أثناء المعركة وقعاً. وكانت ذات

تأثير عظيم ومما جاء فيها:

"إنتخاب رجل حزبيّ، يمثل وجهة نظر متطرفة ذات جانب واحدٍ، يستتبع أن تكون أغلبية الشعب ضده. وهذا من شأنه تعريض الوطن الى قلاقل خطيرة قد ينجم عنها أشياء ليست في الحسبان... الواجب يتطلب مني الحيلولة دون ذلك... فان غُلبتُ على أمري فلن أكون على الأقل هدفاً للّوم والتأنيب لتركي طوعاً موضعي في ساعة الأزمة والضيق... إني لا أطلب أصواتاً من أولئك الذين لايرغبون في التصويت لي..."

أولئك الذين صوّتوا له دحروا بنسبة ٤٪ من الأغلبية المطلقة المطلوبة. وعندما اقفلت صناديق الإقتراع في ١٣ آذار ١٩٣٢ كانت النتائج كما يلي:

هندنبرگ:	**١٨,٦٥١,٤٩٧**	**٪٤٩,٦**
هتلر:	**١١,٣٣٩,٤٤٦**	**٪٣٠,١**
تيلمان:	**٤,٩٨٣,٣٤١**	**٪١٣,٢**
دويشتربرغ:	**٢,٥٥٧,٧٢٩**	**٪٦,٨**

كانت النتائج مخيّبة لآمال الطرفين. لقد تفوق الرئيس الشيخ على الديماگوگي النازي بأكثر من سبعة ملايين صوت لكنه فشل في الحصول على العدد المطلوب أي الأغلبية المطلقة. فلم يكن بُدّ من إعادة للإنتخاب يفوز فيه المرشح الحائز على أصوات أكثر من غيره، دون شرط النسبة. إستطاع هتلر أن يزيد من أصوات النازي التي ظفروا بها عام ١٩٣٠ بخمسة ملايين تقريباً أي حوالي ٨٦٪ إلاّ أنه كان جدّ بعيدٍ عن هندنبرگ. وفي ساعة متأخرة من ليلة تمام الإقتراع إنتاب گوبلز شعور عميق باليأس وهو في بيته في برلين حيث إجتمع عدد كبير من قادة الحزب لسماع النتائج المعلنة من الراديو وكتب في يومياته تلك الليلة: "لقد هزمنا، نتائج فظيعة. أوساط الحزب تشعر بوطأة الخيبة ومرارة الفشل، ليس بإمكاننا إنقاذ أنفسنا إلاّ بضربة بارعة".

لكن هتلر أعلن صبيحة اليوم التالي في الڤولكشر بيوباختر: "إن معركة الإنتخابات الأولى قد انتهت. واليوم ابتدأت المعركة الثانية وسأتولى قيادتها". والحق يقال أنه حارب فيها بالشدة التي حارب في الأولى. استأجر طائرة يونكرز للركاب وطار من أقصى ألمانيا الى أدناها- وكانت بدعة إنتخابية في حينه لم يسبقه اليها أحد. واستمر يخطب في ثلاثة أو أربعة مهرجانات ضخمة كل يومٍ في عدد كبير من المدن. وغيّر تاكتيكه بحذق منه ليحصل على أصوات أكثر ففي المعركة الأولى ظلّ يضرب على وتر شقاء الشعب وعقم الجمهورية. أما الآن فقد اختار نغمة المستقبل السعيد لكلّ الألمان إن تم إنتخابه. العمل للعمال، أسعار أعلى لغلة الفلاحين، رواج أكثر لرجال الأعمال، جيش عرمرم للعسكريين. ومرة وعد في خطبة ألقاها في لوتسگارتن ببرلين "في الرايخ الثالث كلّ فتاة ألمانية ستجد لها زوجاً!"

سحب القوميون مرشحهم دويشتربرغ من السباق. وناشدوا أتباعهم بالتصويت لهتلر حتى ولي

العهد السابق الفاسق فردريك ڤلهلم إنضم الى الصف وصرح "سأصوّت لهتلر".

كان العاشر من نيسان ١٩٣٢، يوم الإقتراع الثاني عبوساً قمطريراً ممطراً ولم يلق في صناديق الإقتراع من أصوات أكثر من مليون. وأعلنت النتائج في ساعة متأخرة من الليل:

هندنبرگ	**١٩,٣٥٩,٩٨٣**	**٥٣٪**
هتلر	**١٣,٤١٨,٥٤٧**	**٣٦,٨٪**
ثيلمان	**٣,٧٠٦,٧٥٩**	**١٠,٦٪**

ومع أن هتلر زاد مجموع أصواته بمليونين ولم يحصل هندنبرگ الاّ على مليون ونيف، فان الرئيس فاز بأغلبية مطلقة واضحة. وعبّر أكثر من نصف الشعب الألماني عن إيمانهم بالجمهورية الديمقراطية. ورفضوا بشكلٍ قاطع كلاً من اليمين المتطرف واليسار المتطرف. أو هكذا فكروا.

كان على هتلر أن يطيل التأمل. لقد ظهر ظهوراً مدهشاً وضاعف أصوات النازيين في غضون سنتين، ومع ذلك فلم يحصل على الأغلبية ومعها السلطة السياسية التي ينشدها. هل بلغ نهاية هذا الطريق بالذات؟ في الإجتماعات الحزبية التي عقبت إنتخابات العاشر من نيسان قال شتراسّر بصراحة أن هذا هو وضع هتلر بالضبط. غازل شتراسّر كثيراً أولئك الذين يقبضون على زمام الحكم: غازل الرئيس، وحكومة برونڼگ والجنرال گروينر، والجيش. ولم يكن هتلر يثق برئيس أعوانه إلاّ أنه لم يهمل رأيه. لم ينس واحداً من دروس أيامه في ڤيينا: من يريد الوصول الى الحكم فعليه أن ينال مساندة بعض "المؤسسات القوية" الحالية.

وقبل أن يقر رأيه على الخطوة التالية. أهوت على رأسه يد إحدى تلك "المؤسسات القوية" حكومة الجمهورية بضربة موجعة.

قبل أكثر من سنة كان يتجمع لدى حكومة الرايخ ومختلف الحكومات الاقليمية، وثائق تثبت أن عدداً من كبار قادة النازي وخصوصاً من الـ(إس. أي) يبيّتون الإستيلاء على ألمانيا بالقوة واشاعة عهد إرهاب. في مبدأ أول إقتراع على الرآسة، كان عدد الـ(إس. أي) قد بلغ أربعمائة ألف رجل كاملي التعبئة ضربوا نطاقاً حول برلين. ومع أن الكابتن روهم قائد الـ(إس. أي) أكد للجنرال (ڤون شلايخر) أن التدابيرالمتخذة إنما هي مجرد تدابير إحتياطية، فان الشرطة الپروسية كانت قد ضبطت وثائق في مقر قيادة الحزب النازي في برلين أظهرت بما لايقبل الشك أن هذا الحرس كان ينوي القيام بأنقلاب مسلح Coup d´etat في مساء اليوم التالي للإقتراع في حالة فوز هتلر بالرآسة- لكم كان روهم مستعجلاً. وأكدت ملحوظة لگوبلز في يومياته لليلة ١١ آذار أن شيئاً ما يتوقع حصوله "حديث مع قواد الـ(إس. أي) والـ(إس. إس) حول أوامر وتعليمات. كلمة إنقلاب تعبق في الجو".

واستبد القلق بالحكومة الوطنية وحكومات الأقاليم. وفي الخامس من نيسان طلب ممثلو عدد من الدول بقيادة باڤاريا، وپروسيا كُبراهن، أن تقضي الحكومة المركزية على الـ(إس. أي) وإلا قامت كل واحدة منهن بهذا العمل ضمن حدودها الاقليمية. وكان برونڼگ وقتئذ خارج برلين مشغولاً

بالإنتخاب. لذلك قابل (گروينر) تلك الوفود بمقتضى وظيفته كوزير للداخلية والدفاع ووعد بالعمل حال عودة المستشار (برونتگ) المقررة في العاشر من نيسان وهو يوم الإقتراع العام الثاني. كان برونتگ وگروينر يريان أن لديهما أسباباً وجيهة لسحق الـ(إس. أي). وبه ينتهي ذلك التهديد بحربٍ أهلية. وقد يكون مقدمة لنهاية هتلر كعاملٍ هامٍ في حياة السياسة الألمانية. وبوثوقهما من إعادة إنتخاب هندنبرگ بالأغلبية المطلقة، شعرا أن المقترعين قد وضعوا بين أيديهما تفويضاً لحماية الجمهورية من تهديدات النازيين بالقضاء عليها عن طريق القوة. لقد حان الوقت لإستعمال القوة ضد القوة. ثم إن لم يضربا بشدة فستفقد الحكومة عطف الديمقراطيين الإشتراكيين والإتحادات النقابية الذين أمدّوا هندنبرگ بمعظم الأصوات وكانوا السند الرئيس لإستمرار حكومة برونتگ. اجتمعت الوزارة في العاشر من نيسان في أثناء عملية الإقتراع وقررت القضاء في الحال على جيوش هتلر الخاصة. ووجدت بعض الصعوبة في حمل هندنبرگ على توقيع المرسوم- السبب هو شلايخر الذي استحسن الأمر أولاً، ثم بدأ يهمس بالمعارضة في أذن الرئيس- على أنه وافق أخيراً في ١٣ نيسان. ووقع الأمر في الرابع عشر منه.

كانت ضربة طاش لها عقل النازيين. وأصرّ (روهم) وبعض ذوي الرؤوس الحارة في الحزب على مقاومة المرسوم الجمهوري، ولكن هتلر الأبعد نظراً من أعوانه قررّ أن يطيع، فليس الوقت وقت عصيان مسلح. وفضلاً عن ذلك فهناك أنباء مهمة عن شلايخر. ودوّن گوبلز في ذلك اليوم بالذات ١٤ نيسان في يومياته: "لقد أُبلِغنا أن شلايخر لم يوافق على إجراءات (گروينر)" ثم كتب في آخر ذلك اليوم "نداء تلفونيّ من سيدة معروفة، هي صديقة مقربة للجنرال شلايخر. تقول أن الجنرال ينوي الإستقالة"[٥].

كان گوبلز بادي الإهتمام إلاّ انه شاكٌّ مرتاب. فاضاف "ربما لم تكن أكثر من مناورة". ولم يكن هو أو هتلر أو أي شخصٍ آخر، حتى برونتگ بالتأكيد، وبتأكيد أكثر: حتى (گروينر) الذي يدين له شلايخر برقيّه السريع في الجيش وفي مجالس الحكومة، لا أحد كان يستطيع ان يخمّن مقدرة الجنرال السياسي الكائد اللامحدودة في الغدر والوقيعة. لكن الزمن لم يطل بهم ليعلموا.

كان شلايخر قبل حَلّ الـ(إس. أي) بمرسوم جمهوريّ، قد أعلم قادة المناطق العسكرية السبعة للجيش، بثقةٍ منه أن الجيش يعارض في ذلك الحلّ. ولقد سبق له وسيطر على قائد جيش الرايخ الضعيف العقل (الجنرال ڤون هامرشتاين)، وبعدها أقنع هندنبرگ بأن يحرر إستفساراً Cantankerous لـ(گروينر) في ١٦ نيسان. يسأله فيه عن الأسباب التي حملته على ترك "الرايشبانّر Reichabanner وهو المنظمة شبه العسكرية للديمقراطيين الإشتراكيين ولم يحلها مع الـ(إس. أي). وخطا شلايخر خطوة أخرى لنسف مركز رئيسه. فأوصى وشجع إشاعات خبيثة مخلة بشرف الجنرال گروينر. بنشره حكايات

٥- المرجع نفسه الص ٨٠-٨١.

عن اشتداد مرضه وتعذر بقائه في الوظيفة وبأنه إعتنق الماركسية بل أصبح نصيراً للسلام وداعية له. معلناً أن وزير الدفاع قد ألحق العار بالجيش بميلاد طفلٍ له بعد مرور خمسة أشهر فقط من زواجه الأخير وقال لهندنبرگ أن الطفل لقب بـ(نورمي Nurmi) في أوساط الجيش على إسم عدّاء الأسطول الفنلندي ذي الشهرة الأولمبية. وفي الوقت ذاته جدد (شلايخر) إتصالاته بالـ(إس. أي) وعقد أحاديث مع كل من (روهم) قائد الـ(إس. أي) العام. والكونت ڤون هلدورف Von Heldorf قائد الـ(إس. أي) في برلين. ودوّن گوبلز في ٢٦ نيسان أن (شلايخر) أعلم هلدورف أنه "يزمع تغيير سبيله" وبعدها بيومين إلتقى بهتلر وذكر گوبلز "ان الحديث كان حسن النتائج".

حتى هذه المرحلة من اللعبة، لم يتضح إلاّ أمر واحد وهو أن (روهم) و(شلايخر) كانا يتآمران من وراء ظهر هتلر. فكلا الرجلين كان يريد دمج الـ(إس. أي) بالجيش، بصفة (مليشيا) وهي خطوة كان الفوهرر يعارض فيها بشكل جازمٍ. كما كانت سبباً لخصام كثيراً ما نشأ بين هتلر ورئيس أركان الـ(إس. أي) الذي رأى في جنود العاصفة قوة عسكرية ضخمة كفيلة بتقوية البلاد في حين يراها هتلر قوة سياسية صرفة وزمرة تثير الرعب في الشوارع وتزلزل كيان خصومه السياسيين وتحافظ على الحماسة السياسية في صفوف النازيين لا غير على أن شلايخر كان يضمر غاية أخرى في نفسه عند محادثاته مع زعماء النازي، فقد رغب في أن يربط الـ(إس. أي) بالجيش حتى تتسنى له السيطرة عليه؛ على انه كان يريد لهتلر ان يحكم من حيث يمكن ان يسيطر عليه هو أيضاً؛ فهو القومي اليميني الوحيد الذي يملك أتباعاً من الجماهير. إلا أن محذور (Verbot) الـ(إس. أي) عرقل التقدم لتحقيق هاتين الغايتين.

في نهاية الأسبوع الأول من أيار ١٩٣٢ بلغت أحابيل (شلايخر) إحدى ذُراها. وذكر گوبلز في ٤ أيار أن "ألغام هتلر بدأت تنفجر" "يجب أن يذهب (گروينر)، ثم يلحق به بروننگ" وفي ٨ أيار دوّن في يومياته "أن هتلر عقد جلسة حاسمة مع الجنرال شلايخر وسادة مقربين من الرئيس. كل شيء يسير على ما يرام. سيسقط بروننگ في الأيام القلائل القادمة سيسحب الرئيس ثقته منه". وبعدها عرض الخطة التي توصل اليها هتلر مع شلايخر وخاصة مع الرئيس. سيحل الرايخشتاغ وتؤلف حكومة من لدن رآسة الجمهورية. وترفع كل القيود عن الـ(إس. أي) والحزب النازي. وأضاف گوبلز... "ولاجتناب أيّ شك قد يساور بروننگ فيما يحصل، سيقوم هتلر بالرحيل عن برلين". وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة هرّب گوبلز زعيمه الى مكلنبرغ حيث إختفى إختفاءً تاماً.

واثبت گوبلز ثاني يومٍ في مذكراته أن الوزارة المعينة من قبل الرآسة يعتبرها النازيون "شيئاً مؤقتاً"، يقول ان وزارة انتقالية "عديمة اللون" كهذه "ستمهد الطريق لنا. كلما كانت ضعيفة كلما سهل علينا إسقاطها" هذا بالطبع لم يكن رأي (شلايخر) الذي كان يحلم بحكومة جديدة تستغني عن البرلمان حتى يمكن تعديل الدستور، ويمكنه السيطرة عليها. لقد أصبح من الواضح أنه وهتلر كانا يعتقدان بإمكانية إستخدام أحدهما الآخر في أغراضه. لكنه كان في تلك الساعة سيلعب لعبته

الكبرى، في إمكانه التأكيد للرئيس المتعب الشيخ بأنه يستطيع أن يقدم ما عجز عنه بروننگ. وهو حكومة تتمتع بمساندة هتلر. دون وجود هذا الديماگوگي المتعصب فيها.

وهكذا كان كلّ شيء معداً. وفي ١٠ أيار ضرب (شلايخر) ضربته بعد يومين من إجتماعه والرجال المحيطين بهندنبرگ، مع هتلر. وهوت الضربة في الرايخشتاغ. نهض الجنرال (گروينر) ليدافع عن إجراء حَلّ الـ(إس. أي) فهاجمه (گورنگ) بعنفٍ شديد. وكان الجنرال مريضاً بداء السكر طعين القلب بغدر (شلايخر) الذي إنكشف له قبل فترة. فحاول الدفاع عن نفسه بخير ما يستطيع لكنه غرق بوابل من الإتهامات التي اخذت تنهال عليه من مقاعد النازيين. فانتابه الاجهاد وشعر بالمهانة ونهض ليخرج من المجلس. فاذا به وجهاً لوجه مع الجنرال (ڤون شلايخر) فأعلمه هذا بكلّ برودٍ أنه لم يعد بعد أهلاً لثقة الجيش وعليه ان يستقيل". فاستنجد (گروينر) بالرئيس هندنبرگ الذي حماه بكل إخلاص، وحمل عنه الملامة عندما جاءت اللحظات الحاسمة أولاً في ١٩١٨- حيث تولى عنه مهمة إبلاغ القيصر بوجوب تنازله؛ وثانياً في ١٩١٩ عندما قام بدلاً من المارشال بنصح الحكومة الجمهورية بأن توقع معاهدة ڤرساي. لكن الفيلد مارشال الهرم الذي لم يبرح حانقاً على الفضل الذي يدين به لضابطه المرؤوس، أجابه أنه "يأسف" لعدم إستطاعته عمل شيء. وفي ١٣ أيار لم يسع الجنرال (گروينر) إلاّ تقديم إستقالته وهو متألم جريح الكرامة[٦].

وفي تلك الليلة دوّن گوبلز في يومياته "جاءتنا الأنباء من الجنرال شلايخر. كل شيء يسير وفق الخطة المرسومة وكان المخطط يطلب رأس بروننگ بعد (گروينر) ولم يمّر وقت طويل حتى تمكن الجنرال الدسّاس من وضعه فوق النطع. كان سقوط (گروينر) نكسة عظيمة للجمهورية المترنحّة. فهو الوحيد تقريباً بين القادة العسكريين الذي خدمها بإخلاص وكفاءة ولم يكن في الجيش غيره من عياره وبدرجة إخلاصه ليخلفه في المنصب. لكن بروننگ العنيد، الصلب مازال قوة يعتد بها ويخشى جانبها. لقد ضمن مساندة أغلبية الألمان في إنتخاب هندنبرگ، لإستمرار الجمهورية كما اعتقد. وبدا وكأنه على شفا نجاحٍ عظيم في السياسة الخارجيّة بخصوص إلغاء التعويضات والمساواة في التسلح بالنسبة للرايخ. لكن الرئيس الهرم كما شاهدنا كافأ مجهود المستشار الذي فاق طاقة البشر في الفوز له بفترة رآسة ثانية، ببرودٍ عجيب. وزاد بروداً وجفاءً عندما اقترح بروننگ أن تستولي الدولة على عددٍ من مزارع (اليونكرز) التى أصابها الإفلاس في پروسيا الشرقية لقاء تعويض ماليّ سخيّ. وتوزيعها مجاناً على الفلاحين الذين لايملكون أرضاً. وعندما ذهب هندنبرگ لقضاء عطلة العيد الكبير في متنصف أيار- وحَلّ في (نيودك Neudeck) وهي المزرعة الواقعة في پروسيا الشرقية التى قدمها له جماعة اليونكرز هدية في عيد ميلاده الثمانين، مع مالية من رجال الصناعة فتجمع عليه جيرانه

٦- بعد أشهر قلائل كتب گروينر لشلايخر (٢٩ تشرين الثاني) "الغيظ والاحتقار يعصفان بي، لأني إنخدعت بك. أنت الصديق القديم. والتلميذ والإبن المتبنّى لي"، انظر غوردن أ. كريك Gordon A.Graig "الجيش الألماني والنازية: سياسة ڤلهلم گرونر" مجلة العلوم السياسية Political Science Quarterly حزيران ١٩٤٨.

الأرستوقراط وملأوا أذنيه بإلحاحهم لتنحية المستشار الذي خلعوا عليه لقب "البولشفيكي المزارع".

ولاشكّ أن النازيين، عن طريق (شلايخر) علموا قبل برونتگ أنه في طريقه إلى الإقالة. وفي ١٨ أيار عاد گوبلز الى برلين من مونيخ. وذكر "أن روح عيد الفصح مازالت عالقة في الجوّ، ولايبدو أن الشتاء قد حَلّ إلا لبرونتگ. والمضحك في الأمر أنه لايدري. لايستطيع أن يجد رجالاً لوزارته. الجرذان تترك السفينة الغارقة" والأدق أن يقال أن الجرذ القائد الذي لم يخطر بباله ترك سفينة الحكم الغارقة يقوم بالإستعدادات لنصب قبطان جديد. وفي اليوم التالي دوّن گوبلز العبارة التالية "رفض الجنرال شلايخر أن يتسلم منصب وزير الدفاع".

وكان هذا الخبر صحيحاً ألاّ أنه غير دقيق أيضاً. في الواقع طلب منه (برونتگ) ذلك بعد أن اشتّد في لومه لتحطيمه (گروينر) فأجابه (شلايخر) "سأكون وزيراً لكن ليس في حكومتك"[٧].

وجاء في يومية (گوبلز) المؤرخة ١٩ أيار "رسالة من (شلايخر). قائمة أسماء الوزراء مهيأة وهي لفترة الانتقال ليست بذات أهمية" وهكذا عرف النازيون قبل (برونتگ) بأسبوع على الأقل أن أوزته قد طبخت. وفي يوم الأحد الموافق ٢٩ أيار استدعى (هندنبرگ) المستشار برونتگ وطلب منه بصورة مفاجئة تقديم إستقالته وفي اليوم التالي رفعت الإستقالة.

انتصر (شلايخر) لكن السقطة لم تكن قاصرة على (برونتگ)، فالجمهورية الديمقراطية هوت معه هي الأخرى، وإن كانت سكرات الموت ستمتد بها ثمانية أشهر أخرى قبل ان يُطلق عليها رصاصة الرحمة Coup de grace الأخيرة. ولم تكن مسؤولية (برونتگ) في موتها بالقليلة. فمع انه ديمقراطيّ قلباً وقالباً، فقد ترك نفسه يُستدرج بمناورةٍ الى موقف قهريّ ليحكم أغلب أيام مستشاريته بقوة مرسومٍ جمهوري دون موافقة البرلمان، كان الدافع الى إتخاذ هذه الخطوة عظيماً في الواقع، والسياسيون في وسط عمى بصيرتهم يجعلونها خطوة لا مفرّ منها. ومع ان برونتگ كان الى الثاني عشر من أيار قادراً على نيل الثقة البرلمانية في الرايخشتاغ عن طريق لائحته المالية إلا انه أعتمد على سلطة الرئيس في الحكم عندما لم يجد موافقة من البرلمان. ولقد سُحبت منه الآن هذه السلطة. ومن الآن فصاعداً، من حزيران ١٩٣٢ حتى كانون الثاني ١٩٣٣، أعطيت لرجلين أقل منه شأناً. لم يكونا يشعران بضرورة تثبيت الجمهورية الديمقراطية على الأقل بشكلها الدستوريّ الحالي، وإن لم يكونا من النازيين.

إن القوة السياسية في ألمانيا لم تعد مستقرة في الشعب كما كانت منذ ميلاد الجمهورية حتى الآن. ولا في الهيئة التي تمثل إرادة الشعب... الرايخشتاغ. انها الآن مجتمعة في يدي الرئيس الخرف البالغ من العمر خمسة وثمانين عاماً وفي أيدي قلة محيطة به من ذوي العقول الضحلة الطموحة الذين يصوغون له ذهنه المكدود التائه. وأدرك هتلر كُلّ ذلك. ووجده يتمشى مع غاياته. فمن المستبعد جداً

٧- هويلر بينيت "Nemesis" ص٢٤٣.

أن يُحرز الأغلبية في البرلمان مهما حاول، وسبيل هندنبرگ الجديد يتيح له الفرصة الوحيدة التي بقيت للوصول الى الحكم. لا في هذه اللحظة طبعاً. ولكن في الأمد العاجل. خفّ مسرعاً الى برلين من (أولدنبرغ Oldenberg) حيث فاز النازيون في ٢٩ أيار بالأغلبية المطلقة (للدايت) المحليّ. وفي اليوم التالي من وصوله مثل أمام هندنبرگ الذي أيد نقاط الإتفاق التي توصل اليها الزعيم النازي مع (شلايخر) من قبل (في ٨ أيار) وهي رفع الخطر عن الـ(أس. أي) وتشكيل وزارة رآسة ينتقي هندنبرگ أعضاءها. وحَلّ مجلس الرايخشتاغ. هل يساند هتلر الحكومة الجديدة؟ أجاب هتلر انه سيدعمها. وفي أمسية الثلاثين من أيار تلك أرّخت يوميات گوبلز تلك المقابلة "حديث هتلر مع الرئيس كان طيباً... يشاع أن ڤون پاپن سيعيّن مستشاراً. لكن هذا لايهّمنا كثيراً. فالأمر الأهم هو حَلّ الرايخشتاغ. الإنتخابات! الإنتخابات! الى الشعب رأساً! كُلّنا سعداء... جداً"[٨].

-٣-

خيبة فرانز ڤون پاپن

الآن ظهر في وسط المرسح ولفترة قصيرة شخصيّة لامعة غير متوقعة. إن الرجل الذي فرضه الجنرال ڤون شلايخر على الرئيس ابن الثمانين والذي عيّن في ١حزيران ١٩٣٢ مستشاراً لألمانيا هو (فرانز ڤون پاپن) البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً، عميد أسرة عضّها الفقر من طبقة نبلاء وستڤاليا. ضابط أركان سابق. وفارس لايشقّ له غبار، وسياسيّ هاوٍ غير ناجح من الحزب الوسط الكاثوليكيّ. ورجل صناعة إغتنى بفضل زوجته، إسمه غير معروف كثيراً عند الرأي العام خلا انه كان ملحقاً عسكرياً في واشنطن. أبعدته الولايات المتحدة أثناء الحرب لعلاقته بتنظيم مخططات تستهدف نسف الجسور وخطوط السكك الحديد أيام كانت الولايات المتحدة بلاداً محايدة.

كتب السفير الفرنسيّ في برلين "إن إختيار الرئيس قوبل بدهشة وعدم تصديق، ولم يبق أحد الا ابتسم أو ضحك أو قهقه لأن (پاپن) كان يتمتع بسمعة غريبة وهي أن كلامه لايؤخذ مأخذ الجدّ لا بين أصدقائه ولا بين خصومه... وعرف بسطحيّته، وتقلّبه، وتخبّطه، وطموحه، وخيلائه. وأُثر عنه المكر والوقيعة. وحبك الدسائس"[٩].

ولم يكن السيد فرنسوا پونسيه مبالغاً في وصف هذا الرجل الذي أوكل اليه هندنبرگ أمر الجمهورية المحتضرة بتدخلٍ من شلايخر.

لم يكن پاپن يتمتع بأي دعم سياسيّ. وهو ليس عضواً في الرايخشتاغ وأبعد ما وصلت به الحياة

٨- المقتبسات في المتن هي من گوبلز "كايزرهوف" الص ٨١-١٠٤.
٩- فرانسوا پونسيه: المرجع السالف ص٢٣.

السياسية هو مقعد في (اللاندتاغ البروسيّ Landtag). وبإختياره للمستشارية سخط عليه حزبه الوسط. واشمأز من غدره بقائد الحزب (برونگ) فطرده بالإجماع من العضوية. الاّ أن الرئيس طلب منه تأليف حكومة فوق الأحزاب وهذا ما إستطاعه حالاً لأن شلايخر كان قد هيّأ له قائمة كاملة بالوزراء. وقد ضمت ما أطلق عليه فيما بعد "وزارة البارونات". فخمسة من أعضائها نبلاء. وإثنان من كبار مديري الإتحادات الصناعية. وواحد (وهو فرانز گورتنر) عين وزيراً للعدل، كان حامي حمى هتلر في الحكومة الباڤارية في الاوقات العصيبة السابقة لمؤامرة مشرب البيرة والتالية لها. ورفع هندنبرگ (الجنرال ڤون شلايخر) من مركزه المفضل وراء الستار وجعله وزيراً للدفاع. وقابل معظم الشعب "وزارة البارونات" كما تقابل النكتة، وإن كان المعدن الخاص لعدد من أعضائها كالبارون ڤون نيوراث Von Neurath والبارون ڤون التز-روبيناخ Von Eltz-Rubenoch والكونت شڤيرين ڤون كروسيك Schwerin Von Krosigk والدكتور (گورتنر) قد مَدّ في فترة بقائهم وقتاً طويلاً حتى أدركوا عهد الرايخ الثالث.

وكان أول عملٍ لپاپن، المصادقة على ميثاق (شلايخر) مع هتلر. ففي ٤ حزيران حلّ الرايشاغ وجرت إنتخابات جديدة في ٣١ من تموز. ورفع الحظر عن الـ(أس. أي) في ١٥ حزيران بعد بعض إلحاح من النازيين المرتابين. فانفجر في هذا اليوم بالذات بركان من العنف السياسيّ واجتاحت البلاد موجة من القتل لم تر مثلها من قبل. ملأ جنود العاصفة الشوارع وراحوا يتحرشون باحثين عن المعارك والدماء. فجاءهم التحدي من الشيوعيين بالدرجة الأولى وفي پروسيا وحدها -ما بين ١ حزيران و ٢٠ منه- أحصي (٤٦١) معركة دمويّة في الشوارع قتل فيها (٨٢) شخصاً وأصيب (٤٠٠) بجراحٍ خطيرة. وفي تموز أحصي (٣٨) نازياً و(٣٠) شيوعياً بين القتلى الستة والثمانين في المعارك. وفي العاشر من تموز قتل في معارك الشوارع ثمانية عشر شخصاً. وفي نهار الأحد التالي نظم النازيون مسيرة حزبية بحراسة الشرطة داخل ضاحية من ضواحي هامبورگ تدعى ألتونا Oltona تشغلها مساكن طبقة العمال. فكان من نتيجة الإصطدام أن صُرع تسعة عشر شخصاً وجرح (٢٨٥). إن الحرب الأهلية التي نوشدت حكومة البارونات بان توقفها، راحت تزداد عنفاً بإطّراد. وطلب كل الأحزاب من الحكومة أن تتخذ التدابير لإحلال النظام بإستثناء الشيوعيين والنازيين. فأجاب (پاپن) عن ذلك بعملين: منع الإستعراضات والتظاهرات الحزبية للأربعة عشر يوماً السابقة لإنتخابات ٣١ تموز. ثم اتخذ خطوة لم يكن هدفها كبح جماح النازيين، بل تدمير واحدة من الدعائم القليلة الباقية للجمهورية الديمقراطية. ففي العشرين من تموز أقال الحكومة البروسية وعيّن نفسه مندوباً سامياً للرايخ في پروسيا. تلك كانت خطوة جريئة خطاها الى نوع الحكومة المركزية المطلقة السلطة التي يريدها لكلّ ألمانيا. وكان عذره أن حوادث الشغب في (ألتونا) دلت على عجز حكومة پروسيا عن حفظ النظام وسيادة القانون، كذلك اتهمها بناءً على "وثائق"- عجلّ شلايخر بتزويدها له- بأنها متواطئة مع الشيوعيين وعندما رفض الوزراء الإشتراكيون ترك مناصبهم إلاّ بالقوة، تكرّم عليهم پاپن

بإستخدامها. وأعلنت الاحكام العرفية في برلين وارسل الجنرال ڤون روندشدت Von Rundstedt قائد جيش الرايخ المرابط، ملازماً وبضعة عشر جندياً لإجراء الإعتقالات اللازمة. كان لهذا التطور مغزاه عند اليمين. ولم تفت هتلر ملاحظته. لم يعُد ثمّ داع للقلق بعد الآن في أن اليسار أو حتى أحزاب الوسط الديمقراطية ستبدي مقاومة خطيرة عند تقويض صرح النظام الديمقراطيّ. في العام ١٩٢٠ أنقذ الجمهورية من هلاك محتمّ إضرابُ عام عماليّ. والآن يدور البحث بين قادة نقابات العمال وزعماء الإشتراكيين حول إتخاذ إجراء مماثل، ثم يرفض الإقتراح بوصفه شديدة الخطورة. وهكذا، فبقيام پاپن باقالة الحكومة الپروسية الدستورية، دق مسماراً آخر في نعش جمهورية ڤايمر. ولم يقتضِ ذلك إلاّ فصيلة واحدة من الجند كما تفاخروا به.

أمّا هتلر وأعوانه فقد عقدوا الخناصر على تقويض الجمهورية ومعها ڤون پاپن وباروناته. وشرح گوبلز الهدف في يوميّته المؤرخة ٥ حزيران "علينا أن نقطع كل ما يصلنا بهذه الوزارة الانتقالية البرجوازية" وعندما قابل پاپن هتلر للمرة الأولى في ٩ حزيران. قال له الزعيم النازي. "إني أجد في وزارتك حَلاً وقتياً لا غير. وسأواصل جهودي لجعل حزبي الأقوى بين كل الأحزاب في البلاد. وعندئذ ستنتقل المستشاريّة إليّ"(١٠).

كانت إنتخابات الرايخشتاغ للحادي والثلاثين من تموز ثالث إنتخابات عامة جرت في ألمانيا خلال خمسة أشهر. ولكن ذلك لم يكلّف النازيين جهداً وقذفوا بأنفسهم الى قلب المعركة وهم أشد تعصباً وقوة من أيّ وقت مضى. وخلافاً لوعد هتلر. للرئيس هندنبرگ بمساندة حكومة پاپن، وشنّ (گوبلز) هجماتٍ قاسية على وزير الداخلية. وفي ٩ تموز سارع هتلر الى (شلايخر) وشكا بمرارة من سياسة الحكومة. وظهر واضحاً من الجماهير التي خرجت لرؤية هتلر أن النازيين يوالون نجاحهم. ففي يومٍ واحد (٢٧ تموز) خطب هتلر في ستين ألف متظاهر في (براندنبرگ) وبما يقرب من هذا العدد في (پوتسدام) وخطب تلك الليلة في حشد قوامه مائة وعشرون ألفاً احتلوا الملعب الرياضي الجبّار المعروف بگرونڤالد ستاديوم Grunewald Stadium في برلين بينما وقف مائة ألف آخرون يسمعون صوته من مكبرات الصوت.

وجاءت إنتخابات ٣١ تموز بنصر مؤزر للقوميين الإشتراكيين. نالوا (١٣ ٧٤٥ ٠٠٠) صوت فازت لهم بمائتين وواحد وثلاثين مقعداً في الرايخشتاغ. مما جعلهم حزب الأغلبية فيه بكل سهولة. وإن كانوا بعيدين عن الأغلبية في مجلس عدد أعضائه (٦٠٨) وخسر الديمقراطيون الإشتراكيون عشرة مقاعدٍ فأصبح عدد أعضائهم (١٣٣) وهذا يعزى بلاشك الى الجبن والانكماش الذي اظهره قادتهم في پروسيا. وترامت الطبقة العاملة في احضان الحزب الشيوعي وألقت بثقلها فحصلت على إثني عشر مقعداً آخر مما جعل عدد أعضائهم (٨٩) وقفز بحزبهم الى المرتبة الثالثة من الأحزاب الكبرى. وزاد

١٠- فرانز ڤون پاپن "مذكرات" ص١٦٢.

حزب الوسط الكاثوليكي من قوته بعض الشيء فاضاف خمسة مقاعد الى مقاعده الثمانية والستين الأولى. إلاّ أن الأحزاب الوسطى الأخرى هزمت، حتى حزب هوگنبرگ الوطني الألماني وهو الحزب الوحيد الذي ناصر (پاپن) في الإنتخابات. واذا أخرجنا الكاثوليك، فأننا نرى بكل وضوح أن الطبقات العليا والوسطى قد انحازت الى النازيين.

في الثاني من آب إستعرض هتلر إنتصاره في تگرينسي Tegernsee قرب مونيخ بمحادثات مع قادة حزبه. لقد فاز الحزب بسبعة ملايين صوت فوق أصواته التي حازها في آخر إنتخابات عامة قبل سنتين وزاد تمثيلهم البرلماني من (١٠٧) مقعداً الى (٢٣٠). حاز النازيون خلال أربع سنين منذ ١٩٢٨ على ثلاثة عشر مليون صوت جديد تقريباً. ومع ذلك فمازالت الأغلبية التي تدفع الحزب الى الحكم بعيدة المنال عن هتلر انه احرز فحسب ٣٧٪ من مجموع أصوات الناخبين العام. ومازالت أغلبية الشعب الألماني ضده.

وطالت مداولاته مع أعوانه الى آخر هزيع من الليل. ودوّن گوبلز النتائج التي اسفرت عنها في يوميّته المؤرخة ٢ أيلول. "الفوهرر يواجه قرارات صعبة. أشرعاً؟ أمع الوسط؟" بإمكان النازيين أن يؤلفوا أغلبية برلمانية. لكن هذا "ما لايمكن التفكير فيه" على حد قول گوبلز، ثم استطرد "لم يتوصل الفوهرر الى قرارٍ نهائي. الموقف يحتاج الى وقت قصير ليتمّ نضجه".

ولم يطل به الأمر. بدا هتلر الذي أسكره النصر - وإن كان أقل من نصر حاسم، نافذ الصبر، فأسرع في ٤ أيلول الى برلين لا لمقابلة المستشار ڤون پاپن، بل الجنرال (ڤون شلايخر) ولكي "يعرض مطاليبه" كما دوّن گوبلز "ولن تكون كثيرة الإعتدال". وفي الخامس من أيلول قابل هتلر ڤون شلايخر في ثكنات ڤورشتنبرغ Fuerstenberg بالقرب من برلين واجمل له شروطه وهي منصب المستشارية لنفسه، ورآسة الحكومة البروسية لحزبه الى جانب وزارتي داخلية الرايخ وبروسيا. ووزارات عدل وإقتصاد وطيران الرايخ. ووزارة جديدة للإرشاد العام والدعاية تستحدث خصيصاً لگوبلز. ووعد هتلر ڤون شلايخر بلطعة من الصحفة هي وزارة الدفاع. وبالإضافة الى هذا قال أنه يطالب بقانون تفويضي من الرايخشتاغ يخوله الحكم بمرسوم لفترة محددة فان رفض إصداره، فعلى أعضائه أن "يذهبوا الى منازلهم". وانصرف هتلر من الإجتماع وهو واثق أنه كسب موافقة شلايخر على برنامجه وأسرع طيب النفس الى مقرّه الجبليّ في أوبرسالزبرگ جنوباً. أما (گوبلز) الدائم الإستخفاف بالمعارضة، الدائم الشكّ في الجنرال السياسي، فلم يكن بهذه الدرجة من الثقة. ولجأ الى يومياته في ٦ آب بعد سماعه تقرير الزعيم المتفائل عن إجتماعه بشلايخر. فكتب ما يلي: "من الأوفق أن يكون المرء مرتاباً في التطورات المقبلة". إلاّ انه كان متأكداً من شيء واحدٍ هو "إن قبضنا على الحكم مرة. فلن نتخلى عنه قطّ وعليهم أن يقذفوا بجثثنا خارج الوزارات".

ولم تكن الأمور كما قدّر هتلر، وفي ٨ آب كتب گوبلز "نداء تلفوني من برلين. العاصمة تعجّ بالشائعات. الحزب كلّه متهيّء لتسلّم زمام السلطة. رجال الـ(إس. أي) يتركون محلات أعمالهم

ليكونوا مستعدين. قادة الحزب يتهيأون للساعة العظمى ان سارت الأمور على ما يرام... بديع إن ساءت الأمور فستكون نكسة شنعاء". وفي اليوم التالي جاء الى أوبرسالزبرگ كل من شتراسّر، وفريك وفونك بأنباء ليست مشجعة كثيراً. شلايخر يتلوّى ثانية كالدودة، انه الآن يُصرّ على ان يحكم هتلر بموافقة الرايخشتاغ إن نال منصب المستشارية وأفاد فونك أن أصدقاءه رجال الأعمال قلقون من نيات حكومة نازية واخبره الثلاثة أخيراً أن (ڤلهلمشتراسّه) قلقٌ بخصوص مؤامرة نازية.

ولم يكن هذا القلق بلا أساس ففي اليوم التالي الموافق ١٠ آب علم گوبلز أن الـ(إس. أي) في برلين "بحالة إستعداد مسلّح... إن الـ(إس. أي) يُحكم تطويق برلين بحلقةٍ قوية... ڤلهلمشتراسّه في توتر عصبيّ شديدّ بخصوصه. لكن هذه نقطة تعبئتنا". وفي اليوم التالي عيل صبر هتلر ولم يسعه الانتظار. فانطلق الى برلين بالسيارة ليجعل من نفسه "قارعةً" هناك كما يقول گوبلز. وليكون من الجهة الأخرى مستعداً حينما يُدعى. ولما لم تأته الدعوة بادر هو بطلب مقابلة الرئيس. لكن كان عليه الإلتقاء بشلايخر وپاپن أولاً.

وتمت هذه المقابلة في ظهر يوم ١٣ آب. وكانت عاصفةً، إنزلق (شلايخر) عن موقفه لما قبل أسبوع ودعم پاپن بإصراره على أن أكثر ما يمكن أن يأمله هتلر هو منصب نائب المستشار فجنّ جنون هتلر. إما مستشار أو لا شيء! وأنهى پاپن المقابلة بقوله انه سيترك "القرار الأخير" لهندنبرگ[١١].

وانسحب هتلر كالبرق الى فندق كايزرهوف المجاور. وورده هناك في الساعة الثالثة بعد الظهر، نداء تلفوني من مكتب الرئيس فسأل أحدُهم (من يوميات گوبلز يستفاد بأنه كان السائل) من المتكلم: "هل تم الوصول الى قرار؟ إن كان الأمر كذلك فلا وجه لقدوم هتلر" فقيل للنازي أن الرئيس "يودُّ أولاً أن يُكلم هتلر".

استقبل الفيلد مارشال الهرِم، الزعيم النازي واقفاً يتكيء على عكازه في مكتبه. وبهذا طبع المقابلة بجوّ من البرود. من غريب الصدف أن يكون هندنبرگ في تلك الساعة في حالة من الصفاء الذهنيّ المستوفز وهو إبن الخامسة والثمانين وان كان قبل عشرة أشهر قد أصيب بفقد ذاكرة دام أسبوعاً. أصغى بصبرٍ أثناء ما كان هتلر يكرر طلبه للمستشارية والسلطة الكاملة. وكان (أوتو ڤون مايسنر) رئيس مستشارية الرآسة، وگورنگ الذي صحب هتلر، الشاهدَين الوحيدَين للحديث. ومع ان مايسنر ليس من المصادر التي يمكن الإعتماد عليها إعتماداً كلياً فان افادته في نورمبرگ هي المصدر الوحيد الباقي لما جرى وفيها مسحة من الحقيقة: "اجاب هندنبرگ بالنظر الى الوضع المتوتر فانه لايستطيع أن يخاطر بضمير مرتاح بنقل سلطة الحكومة الى حزب جديد كالحزب القومي الإشتراكي لايتمتع بأغلبية متعصّب غير متسامح، كثير الصخب، تصعب السيطرة عليه".

واشار هندنبرگ عند هذه النقطة وبمظهر من اهتياجٍ، الى بضع حوادث أخيرة- إصطدامات بين

١١- لم يذكر پاپن في مذكراته وجود شلايخر في أثناء هذه المقابلة. لكن المصادر الأخرى لاتبقي شكاً في وجوده آنذاك. وهي نقطة مهمة بالنظر الى الحوادث اللاحقة.

النازيين والشرطة، أعمال عنف ارتكبها أتباع هتلر بحق من يخالفهم في الرأي. تطرف في معادة اليهود، وغير ذلك من الأعمال الخارجة على القانون. كل هذه الحوادث قوّت إيمانه بوجود عناصر كثيرة من الأوباش في الحزب لايمكن السيطرة عليها... واقترح هندنبرگ بعد حديث طويل أن يعلن هتلر إستعداده للتعاون مع الأحزاب الأخرى ولاسيّما أحزاب اليمين والوسط، وعليه ايضاً أن يتخلى عن فكرته الضيقة بطلبه السلطة الكاملة، وصرّح هندنبرگ أنه سيكون قادراً عند تعاون هتلر مع الأحزاب الأخرى- على إظهار ما يمكنه إنجازه وتحسينه فان اظهر نتائج ايجابية فسوف يحصل على نفوذ متنامٍ أو حتى على نفوذٍ مهيمن في حكومة إئتلافية وأوضح أن هذا سيكون أحسن سبيل للقضاء على الخوف السائد من أن حكومة نازية قد تسيء إستخدام سلطاتها، وقد تضطهد كل وجهات النظر التي تخالفها حتى تستأصلها بالتدريج. وأعلن إستعداده لقبول هتلر وممثلي حزبه في وزارة إئتلافية. وأن تأليفها أصلاً يجب أن تسبقه مفاوضات، إلاّ انه لايتحمل مسؤولية إيداع السلطة الكاملة الى هتلر وحده...

كان هتلر متصلباً في رفضه وضع نفسه موضع المساوم مع زعماء الأحزاب الأخرى وأن يؤلف حكومة إئتلافية على هذا الشكل"(١٢).

وبعدها انتهى الحديث دون الوصول الى إتفاق. لم ينته قبل أن يلقي هندنبرگ محاضرةً صارمة على الزعيم النازي. وهي كما جاءت بعبارات النشرة الرسمية الصادرة بعد المقابلة مباشرة: "ابدى هندنبرگ أسفه لأن الهر هتلر لم يجد نفسه في موقف مساندة حكومة وطنية حائزة ثقة رئيس الرايخ. كما وافق على ذلك قبل إنتخابات الرايخشتاغ". ويرى الرئيس الجليل أن هتلر قد رجع عن كلمته، ولكن عليه أن يكون حذراً من المستقبل. واستطردت النشرة "إن الرئيس نصح هر هتلر بشدة أن يسلك في معارضة حزبه النازي سلوكاً لائقاً يتسمّ بالفروسية وأن لاينسى مسؤوليته ازاء الوطن والشعب الألماني".

لقد اظهرت النشرة جانب هندنبرگ في الإجتماع وأكدت أن هتلر طلب "الهيمنة الكاملة على الدولة"، ونشرت بكل سرعة بحيث أنها أخذت دعاية گوبلز على حين غرة وفاجأتها وهي في غفلة من أمرها. وألحقت أفدح الضرر بقضية هتلر ليس أمام الرأي العام وحده بل بين النازيين أنفسهم. وعبثاً نفى هتلر طلبه "السلطة الكاملة" وانما اقتصر على طلب المستشارية ووزارات قليلة. لكن الرأي العام أخذ بقول هندنبرگ وصدقه.

وفي تلك الأثناء كان جنود العاصفة قد عبّئوا تعبئة تامة كالخيل المتوثبة الجامحة تكاد تقطع لجمها. وفي مساء ذلك اليوم استدعى هتلر قادتهم وتكلم معهم. وكتب گوبلز في يومياته عن ذلك: "إنها لمهمة شاقة! من يدري إن كان ممكناً ضبط تشكيلاتهم؟ لاشيء أصعب من أن تخبر الجنود النشوانين بخمرة النصر، أن النصر قد انتزع من يدهم". وفي ساعات متأخرة من تلك الليلة سرّى

١٢- مؤامرة النازيين وعدوانهم ملحق A ص٥٠٨ [الوثائق ٣٣٠٩ PS].

الدكتور القمىء عن نفسه بقراءة رسائل فردريك الأكبر. وفي صبيحة اليوم التالي أسرع ليقضي عطلة على ساحل البلطيق "يأس عظيم خيّم على رفاق الحزب". وكره الخروج من غرفته، وعاف حتى التحدث معهم واستطرد "لا اريد أن أسمع شيئاً حول السياسة أسبوعاً واحداً على الأقل. كلّ ما اريده الشمس، الضياء، الهواء، الهدوء."

وعاد هتلر الى أوبرسالزبرگ يمتص رحيق هذه العناصر الطبيعية نفسها ويتأمل في المستقبل القريب جداً. "إن أول فرصة كبيرة ضاعت" على حَدّ قول (گوبلز). ووجد هرمان راوشننگ Hermann Rauschning الزعيم النازي في دانزگ رئيسه كئيباً مغموماً في قمته الجبلية. وقال له "يجب أن نكون قساة غلاظاً" وانهال على پاپن سبّاً وتقريعاً إلاّ أنه لم يفقد الأمل. وكانت تمر به أوقات يتكلم فيها وكأنه أصبح مستشاراً فيقول "مهمتي أصعب من مهمة بسمارك. فعليّ أولاً أن أخلق شعباً قبل أن أبدأ بالتصدي للأعباء الوطنية التي تواجهنا". لكن، فلنفترض أن الدكتاتورية العسكرية بقيادة (پاپن وشلايخر) قامت بقمع الحركة النازية وتصفيتها؟ وفاجأ هتلر (راوشننگ) بالسؤال هل توجد إتفاقية تسليم قضائية بين ألمانيا وبين الدانزگ المدينة الحُرة التي كانت آنذاك تحت وصاية عصبة الأمم؟ فلم يفهم راوشننگ السؤال في أول الأمر. لكن تبيّن بالأخير أن هتلر كان يبحث عن مكان يصلح ليكون ملجأ[١٣].

وأثبت گوبلز في يومياته "شائعات عن إحتمال إعتقال الفوهرر"، على أنه ظلّ حتى بعد مقابلته الفاشلة مع رئيس الرايخ وحكومة پاپن وشلايخر ورغم خوفه من تحريم حزبه، مصمماً على التمسك بأسلوبه "الشرعية" وأخمد كل كلام حول قيام الـ(إس. أي) بإنقلاب. وبإستثناء نوبات من اليأس تصيبه فقد بقي واثقاً من بلوغه الهدف- لا بالقوة، ولا بالحصول على الأغلبية البرلمانية البعيدة المنال بل بالوسائل التي رفعت پاپن وشلايخر الى القمة: بدسائس السلالم الخلفية وهي لعبة يمكن أن يلعبها إثنان ولم يمرّ وقت طويل إلاّ وضرب مثلاً. في ٢٥ آب تحدث گوبلز مع هتلر في برختسگادن وذكر الأول على اثرها: "لقد اتصلنا مع حزب الوسط، يكفي ذلك ليؤتي بضغطٍ على خصومنا". وفي اليوم التالي عاد گوبلز الى برلين حيث وجد (شلايخر) قد اكتشف "تفاصيل جسّنا النبض مع الوسط". وفي اليوم التالي ذهب لزيارة الجنرال ليكون متأكداً فحسب. وظنّ أن شلايخر بدا قلقاً من محاولة تأليف جبهة من هتلر وحزب الوسط الكاثوليكي. فهما يحققان الأغلبية المنشودة في البرلمان. وكتب گوبلز عن شلايخر "لاأدري صدقه من كذبه". ومع أن الإتصالات مع حزب الوسط لم يكن يقصد منها- كما ذكر گوبلز أكثر من وسيلة للضغط على حكومة (پاپن) فقد اعطت ثمارها في حادثة هزلية حصلت الآن في الرايخشتاغ رسمت بداية نهاية الفارس الخيّال مستشار الرايخ. عندما افتتحت جلساته في ٣٠ آب ضم الوسط أصواته الى النازيين في إنتخاب (گورنگ) رئيساً للمجلس. وهكذا وجد القوميون الإشتراكيون واحداً منهم على كرسي الرآسة لأول مرة حين بوشر في جلسات الأعمال في ١٢

١٣- هرمان راوشننگ: "صوت الخراب".

أيلول وقام گورنگ بانتهاز فرصته حق قيام. كان (پاپن) قد استحصل مسبقاً على مرسوم من الرئيس بحلّ الرايخشتاغ- وتلك أوّل مرة يصدر على الرايخشتاغ حكم الموت قبل مزاولة أعماله. إلاّ أنه آثر ألاّ يأتي بها في أول جلسة أعمال. وكان في حقيبته عوضاً عنها خطبة ترسم منهاج حكومته بعد أن أكد له أن الأعضاء القوميين بالإتفاق مع معظم الأحزاب الأخرى سيعارضون أيّ تصويت بإسقاط الحكومة يتوقع أن يتقدم به الأعضاء الشيوعيون. ففي حالة تقديم إقتراح مثل هذا يكفي لتأجيل التصويت أي اعتراض عليه من أحد أعضاء المجلس الستمائة تقريباً.

وعندما قدم (أرنست تورغلر) Ernst Torgler زعيم الكتلة الشيوعية إقتراحه كتعديل على جدول الأعمال اليوميّ، لم ينهض أيّ نائب قوميّ أو آخر غيره للاعتراض، أخيراً طلب (فريك) عن الأعضاء النازيين تأجيل الإجتماع مدة نصف ساعة.

يقول (پاپن) في مذكراته "أصبح الموقف الآن حرجاً. لقد أخذت على حين غُرّة" وبادر بارسال ساعٍ على الفور الى المستشارية ليأتيه بأمر الحلّ. وفي تلك الأثناء كان هتلر يتباحث مع كتلة الحزب البرلمانية في قصر رئيس المجلس عبر الشارع. كان النازيون في مأزقٍ. وهم في حيرة من امرهم. فقد شعروا أن القوميين غدروا بهم لتقاعسهم عن معارضة الإقتراح وتأجيل التصويت. وأصبح الآن لزاماً على حزب هتلر، إن شاء إسقاط حكومة پاپن، أن يصوّت الى جانب الشيوعيين على إقتراح شيوعيّ أصيل! قرر هتلر إبتلاع هذه اللقمة الخبيثة. والتغاضي عن الصحبة التي تشمئز لها النفس. وأمر مندوبيه بالتصويت للشيوعيين على إقتراحهم بإسقاط حكومة (پاپن) قبل أن يتمكن المستشار من حلّ الرايخشتاغ- ولإنجاز المهمة كان على رئيس المجلس (گورنگ) تأدية بعض الألعاب السحرية والحيل السريعة التي لا تخلو منها الحياة البرلمانية فكان بطل الجوّ السابق ابن بجدتها وباري قوسها وهو الجريء المقدام المتعدد القابليات كما دلّ عليه في حوادث أخرى تالية أوسع نطاقاً. وعندما عادت الجلسة الى الانعقاد. دخل (پاپن) متأبطاً حقيبة الأوراق الحمراء المعهودة التي جرى التقليد ان تحتوي أمر حلّ الرايخشتاغ وكان قد تسلمها لتوّه من الساعي. وطلب الكلام لقراءتها، لكن رئيس المجلس تظاهر بعدم رؤيته وصعد الدم الى وجه پاپن واستوى على قدميه وأخذ يلوح بالوثيقة أمام اعين الأعضاء المجتمعين كلهم بإستثناء (گورنگ) الذي كان وجهه الباسم ملتفتاً الى جهة أخرى، وهو يدعو الى التصويت العاجل. في هذه اللحظة انقلب وجه (پاپن) -كما ذكر شاهد عيان- من الأحمر الى الأبيض وعلائم الغيظ ظاهرة عليه. وتقدم من منبر الرئيس وقذف بأمر الحلّ على منضدته. فلم يشأ گورنگ أن ينتبه اليه وأمر بأخذ الأصوات. ونهض پاپن متبوعاً بوزارته وليس بينهم عضو واحد في المجلس- وخرج. وكانت نتيجة التصويت ضد الحكومة بأغلبية من (٥١٣) صوتاً مقابل (٣٢). وهنا فقط انتبه (گورنگ) الى قطعة الكاغد التي وضعت فوق منضدته بغيظ شديد. فقرأها على المجلس وقرر بطلان مفعولها لأنها موقعة بتوقيع مستشارٍ صوّتت الآن على إسقاطه أغلبية برلمانية.

أي عناصر من ألمانيا ربحت وأيها خسرت بهذه الواقعة الهزلية. وكم كان الربح أو الخسار؟ لم يكن

ذلك واضحاً في الحال. أما وأن الغُرانق پاپن قد جُعل مصدر زراية ودعابة فهو مما لاشك فيه. إلاّ انه كان بشخصه موضع دعابة وسخرية دائماً حتى عند أصدقائه على حد قول السفير (فرنسوا پونسيه).

أما وأن الرايخشتاغ أظهر أنّ الأغلبية الساحقة للشعب الألماني تعارض قيام هندنبرگ بإلتقاط حكومة رآسة ممن هبّ ودبّ، فهو واضح وضوح الشمس. ولكن من جهة الوسيلة؟ ألم تستنزف المزيد من الثقة بالنظام البرلماني؟ أما من ناحية النازين، ألم يثبتوا مرة أُخرى أنهم إنتهازيون لا شعور لديهم بالمسؤولية ومستعدون للانحياز حتى الى أعدائهم الألداء الشيوعيين للوصول الى غاياتهم؟ زد على هذا ألم يسأم الشعب الإنتخابات وألا يواجه النازيون خسارة في الإنتخابات القادمة المحتومة، وهي الرابعة خلال سنة واحدة؟ كان (گريگور شتراسّر وفريك) يعتقدان أنهم سيخسرون وان هذه الخسارة قد تصيب الحزب بنكسة.

على أن هتلر كان "يكاد يطير فرحاً. عاد للمرة الثانية فاتخذ قراراً لايتطرق اليه الخطأ" على ما دوّن گوبلز في يومياته.

وأسرع الرايخشتاغ فأقر أمر حَلّه. وعين يوم ٦ تشرين الثاني لمباشرة الإنتخابات الجديدة. وتمثل للنازين صعوبات معينة منها على حدّ ملاحظات گوبلز- ملل الناس من الخطب السياسية والدعاية. وأقرّ في يوميّته المؤرخة ١٥ تشرين الثاني أن السأم تطرق حتى الى عمّال الحزب "الذين أصبحوا متوتري الأعصاب للغاية من جراء هذه الإنتخابات التي لاتنتهي. لقد أُجهدوا..." كذلك قامت المصاعب المالية فكثير من رجال الصناعة والمال أخذوا ينحازون الى جانب پاپن بعد ان منحهم عدة إمتيازات، وأصبحوا مرتابين الى أقصى درجة (كما حذر فونك)- من رفض هتلر التعاون مع هندنبرگ، وكذلك لما بدا لهم من تزايد تطرفه وميله الى العمل حتى مع الشيوعيين كما أبانت حادثة الرايخشتاغ. ولم تفت ملاحظة گوبلز فدّون في يومية ١٥ تشرين الأول: "يصعب جداً الحصول على مال. كل السادة الأثرياء والمثقفين يقفون الى جانب الحكومة".

وقبل الإنتخابات بأيام قليلة إنضم النازيون الى إضراب الشيوعيين لعمّال وسائط النقل في برلين. وهو إضراب تنصّل منه الديمقراطيون الإشتراكيون وإتحادات النقابات وهذا ما زاد من العجز المالي لحزب هتلر. بنضوب مصدره من رجال الأعمال الذين ساءهم هذا العمل في وقتٍ كان الحزب النازي بأمسّ الحاجة الى المال لدفع دولاب الإنتخابات بقوةٍ. ودوّن گوبلز في ١ تشرين الثاني بمضاضة: "قلة المال أصبح مرضنا المزمن. نحن نفتقر الى ما يكفي لشنّ معركة كبيرة، لقد انفضّ عنا كثير من أوساط البرجوازية فزعاً من مشاركتنا في الإضراب وسرى الشك حتى في عدد كبير من رفاق الحزب". وكتب في الخامس من تشرين عشية يوم الإنتخابات "الهجوم الأخير. إندفاع يائس للحزبٍ ضدّ الفشل. نجحنا في الحصول على عشرة آلاف مارك في آخر لحظة. وهذا المبلغ سيدفع به الى المعركة بعد ظهر نهار السبت. لقد عملنا كُلّ ما في وسعنا. ولندع للحظ القرار النهائي".

الحظّ والناخبون الألمان قررا أموراً كثيرة في السادس من تشرين الثاني. ولم يكن من بينها أمر

حاسم بخصوص مستقبل الجمهورية المتقوضة. فقد النازيون مليوني صوت و(٣٤) مقعداً في الرايخشتاغ وانزل عددهم الى (١٩٦) نائباً. وحصل الحزب الشيوعي على ثلاثة أرباع المليون زيادةً وفقد الديمقراطيون الإشتراكيون هذا القدر نفسه من الأصوات فأصبح عدد نواب الشيوعيين (١٠٠) بعد ان كانوا (٨٩) ونزل عدد مقاعد الإشتراكيين من (١٣٣) الى (١٢١). وحصل الحزب الوطني الألماني وهو الوحيد الذي دعم الحكومة، على ما يقارب المليون صوت اضافي -لها من النازيين على ما يظهر- وأصبح عدد نوابه (٥٢) بعد ان كان (٣٧). ومع ان الحزب النازي بقي أكبر حزب في البلاد إلاّ أن خسارته مليوني صوتٍ كانت نكسة شديدة. للمرّة الأولى بدأ المد النازيّ ينحسر ومن نقطة بعيدة جداً عن الأغلبية. وتبددت أسطورة المناعة وأصبح هتلر في وضع أضعف مما كان في تموز للمطالبة بالحكم.

أدرك پاپن ذلك فاطرح جانباً ما كان يدعوه "النفور الشخصي" من هتلر وكتب له رسالة في ١٣ تشرين الثاني يدعوه فيها الى "بحث الموقف" لكن هتلر ضمّن جوابه شروطاً عديدة حملت پاپن على أن يستبعد كل أمل بالوصول الى تفاهم معه. ولم يندهش المستشار التيّاه العاجز من صلابة هتلر، وانما اندهش من الوسيلة الجديدة التي اقترحها عليه الآن صديقه ومعلّمه شلايخر. لقد تأكد صانع الملوك المراوغ أن فائدة پاپن قد بلغت حَدها النهائي مثل سلفه (بروننگ). والآن تتفتق خطط جديدة في ذهنه الخصب. يجب ان يذهب صديقه العزيز پاپن. ويجب ان يترك الرئيس حُراً في التعامل مع الأحزاب السياسية ولاسيّما أكبرها. فألح بإستقالة پاپن ففعل ذلك في ١٧ تشرين هو وحكومته وبعث الرئيس بطلب هتلر حالاً.

كانت مقابلتهما في ١٩ تشرين الثاني أقل جفاء من مقابلة ١٣ آب. في هذه المقابلة تسامح الرئيس بالجلوس. وترك زائره يبقى أكثر من ساعة ووضع أمام هتلر حلّين يختار بينهما: ألمستشارية له اذا استطاع تأمين أغلبية فعالة في الرايخشتاغ وفق برنامج محدد. أو نيابة المستشارية في حكومة يرأسها (پاپن) تحكم بموجب قانون الطواريء. وقابل هتلر الرئيس مرة أخرى في الواحد والعشرين منه. كذلك تبادل عدداً من الرسائل مع (مايسنر) ولم يسفر الأمر عن إتفاق. لايستطيع هتلر الحصول على أغلبية برلمانية ثابتة. حتى بموافقة حزب الوسط على دعمه بشرط أن لاينحى منحى الدكتاتورية وأبى (هوگنبرگ) أن يتعاون معه بحزبه القومي. ولهذا واصل هتلر مطالبته بمستشارية حكومة غير برلمانية يعينها الرئيس. إلاّ ان الرئيس أبى عليه ذلك. لأنه يفضل صديقه (پاپن) إن لم يكن ثمّ مفرّ من حكومة غير برلمانية. وذكر في رسالة الى هتلر وجهها عنه (مايسنر) أنه لايستطيع ايداع هذا المنصب اليه "لأن وزارة كهذه ستنقلب حتماً الى دكتاتورية حزبية... وليس في إمكاني أن اتحمل هذه المسؤولية أمام ضميري ويميني الذي أقسمته[١٤].

١٤- في هذه المرة لم يباغت گوبلز كما بوغت في ١٣ آب. فسارع بدفع الرسائل المتبادلة الى الصحافة ونشرت صباح ٢٥ تشرين ويمكن الإطلاع عليها في م٢١، ١٩٣٣-١٩٤٠ من Jahrbuch der Oefenlichen Rechts.

كان الفيلد مارشال الهرم أصدق نبوءة في الأولى منه في الثانية. أما بالنسبة الى هتلر فإنه دق باب المستشارية مرة ثانية، فما ان فتح له شِقّ منه حتى أغلِق بوجهه.

وهذا ما توقعه (پاپن) بالضبط. كان واثقاً من إسناد المستشارية اليه ثانية عندما انطلق هو وشلايخر لزيارة هندنبرگ في مساء اليوم الأول من كانون الأول. لاتساوره الريبة فيما يحيك الجنرال الماكر من خطط. كان شلايخر قد اتصل بشتراسّر واقترح عليه أمراً: إن لم يشأ النازيون المشاركة في حكومة يرأسها (پاپن) فربما رغبوا أن يساهموا في تشكيل حكومة يقوم هو على رأسها. وطلب ان يستدعى هتلر الى برلين للمشاورة معه. وفي رواية راجت كثيراً في الصحف الألمانية وقبلها معظم المؤرخين فيما بعد، ورد ان هتلر ركب القطار الصاعد من مونيخ الى برلين فعلاً. وفي هدأة من الليل أدركه گورنگ في (يينا) واوقف سفره وحمله الى (ڤايمر) حالاً لحضور إجتماع قادة النازيين الكبار ومن العجيب أن تكون رواية النازيين لهذه الحادثة ادق من غيرها. يذكر گوبلز في يوميته المؤرخة ٣٠ تشرين الثاني أن برقية وصلت هتلر يطلب فيها منه الإسراع بالسفر الى برلين إلاّ انه قرر أن يدع (شلايخر) منتظراً. في أثناء ما كان يتداول مع رفاقه في (ڤايمر) حيث قد تقرر ان يفتتح معركة الإنتخابات في (ثورينجيا) وفي هذا الإجتماع الذي حضره القادة الخمسة الكبار (گورنگ وگوبلز وشتراسّه وفريك وهتلر) نجم خلاف كبير في الرأي. فقد ألحّ شتراسّر ومعه فريك أن يتسامح النازيون على الأقل في حكومة يشكلها (شلايخر) وان كان يفضل شخصياً المشاركة فيها. وعارض گورنگ وگوبلز هذا السبيل بشدةٍ. وانحاز هتلر الى صفهما. وفي اليوم التالي نصح هتلر شخصاً يدعى (الميجر أوتو) أرسله اليه الجنرال، بألاّ يقبل صاحبه منصب المستشار، لكن النصح جاء متأخراً.

كان (پاپن) يجهل تمام الجهل الدسيسة التي يحيكها شلايخر خلف ظهره. وفي بداية المقابلة مع الرئيس (١ كانون الأول) شرع يشرح خططه للمستقبل: سيبقى مستشاراً يحكم بمرسوم ويمتّع الرايخشتاغ بفترة إستجمام حتى يتسنّى له تعديل الدستور. والواقع أن پاپن كان يريد إجراء "التعديل" لإعادة البلاد الى أيام الإمبراطورية وتثبيت حكم الطبقات المحافظة وسلطانها. وأيّد في مذكراته وفي محاكمته بنورمبرگ كما أيّد للرئيس إن إقتراحاته تتضمن "خرق الرئيس لنصوص الدستور الحالي" إلاّ أنه أكّد له بأنه "معذور في وضع مصلحة الوطن موضعاً أرفع من قسمه يمين الولاء للدستور" مثلما فعل بسمارك قبله مرّة "لأجل مصلحة البلاد"(١٥).

وبوغت (پاپن) حين تدخل شلايخر محتجاً. منتهزاً فرصة تردد الرئيس الشيخ الواضح في حنثه بقسمه على الولاء للدستور، إن كان ذلك مما يمكن إجتنابه- وها هو الجنرال يرى أنه ممكن، فهو يعتقد بإمكان قيام حكومة تحوز ثقة أغلبية الرايخشتاغ لو رأسها بنفسه. إنه متأكد من مقدرته على شق (شتراسّر) مع ستين نائباً نازياً على أقل تقدير عن كتلة الحزب. وبوسعه اضافة نواب الطبقة الوسطى الى هذا الشق مع الديمقراطيين الإشتراكيين، بل لايستبعد إمكانية الحصول على مساندة إتحاد

١٥- پاپن المرجع السالف الص ٢١٦-٢١٧

النقابات. فظهرت علائم الاستنكار على هندنبرگ وإلتفت الى پاپن وطلب منه أن يمضي قدماً في تأليف حكومة جديدة. يقول پاپن "وبدا شلايخر مصعوقاً" وطال بينهما النقاش بعد إنصرافهما لكنهما لم يتوصلا الى نتيجة. وقبل ان يفترقا إلتفت شلايخر الى پاپن وردد العبارة التي قيلت (لمارتن لوثر) عندما انطلق في سبيله الى مجمع (ورمز Worms) الحاسم: "أيها الراهب الصغير لقد اخترت طريقاً صعبة". كم كانت الطريق صعبة؟ هذا ما علمه پاپن في صبيحة اليوم التالي في إجتماع الساعة التاسعة لمجلس الوزراء الذي دعا الى عقده. يقول پاپن "نهض شلايخر وأعلن أنه لايستطيع تحقيق التعليمات التي "أوصاني بها الرئيس. وكل محاولة مني قد توقع البلاد في فوضى. فالشرطة والجيش لايستطيعان ضمان إستمرار عمل وسائط النقل والخدمات البلدية في حالة وقوع إضراب عام، ولا يستطيعان أيضاً حفظ الأمن والنظام في حالة وقوع حربٍ أهلية. وأن الأركان العامة قد وضعت دراسة بهذا الخصوص وإنه قد رتبّ للميجر أوتو [واضع الدراسة] أن يكون تحت تصرف الوزارة ويقدم تقريراً"[١٦]. ثم استدعى الجنرال الرائد أوتو. ان كانت ملاحظات شلايخر قد هزت كيان پاپن، فان تقرير الرائد أوجين أوتو Eugen Otto (الذي كان سيتسنمّ منصب سفير هتلر في طوكيو) الموقوت توقيتاً بالغ الدقة قوّضه تقويضاً. لم يرد الميجر شيئاً آخر على قوله "أن الدفاع عن الحدود، وحفظ النظام في الداخل ضدّ النازيين والشيوعيين أمران لا طاقة بهما للقوات التي هي الآن تحت تصرف الحكومة المركزية وحكومات الأقاليم. لذلك فهو يوصى حكومة الرايخ بالامتناع عن إعلان حالة الطواريء[١٧].

ووجد پاپن بدهشة يخالطها الألم أن الجيش يصرفه كما صرف من قبله القيصر، وكما ركل قبل زمن قصير بوحي من شلايخر كُلاً من الجنرال (گروينر) والمستشار برونِنگ، فأسرع الى هندنبرگ بالأنباء مؤملاً أن يقوم بطرد (شلايخر) من وزارة الدفاع ويستبقيه- وقد طالب بذلك فعلاً. فأجابه الرئيس الضخم البنية "ايها العزيز پاپن، إنك لن تحفظ عليّ إن غيرتُ فكري. على أني رجل كبير السن وقد عانيت الكثير. ولم أعد في وضع استطيع تحمل مسؤولية حربٍ أهلية وأملنا الوحيد هو أن ندع (شلايخر) يجرب حظه". ويحلف پاپن يميناً أن "دمعتين كبيرتين" إنحدرتا على خدّي هندنبرگ. وبعد ساعات قلائل وفيم كان المستشار المعزول يخلي مكتبه من أوراقه وصلته صورة فوتوغرافية للرئيس مذيلة بالعبارة التالية "Ich hatt´einen Kameraden!: لقد كنا رفاقاً". وفي اليوم التالي كتب اليه الرئيس بخطّ يده عن "قلبه المثقل بالأسى" بسبب اضطراره الى اعفائه من منصبه. وأكد أن ثقته به باقية ابداً وكان ذلك قولاً صادقاً، وسيقام عليه الدليل بعد قليل.

في ٢ كانون الأول أصبح (كرت ڤون شلايخر) مستشاراً وهو أول جنرالٍ يتولى هذا المنصب منذ تولاه (الجنرال الكونت جورج ليو ڤون كاپريڤي دي كاپرارا دي مونتيكوكولي Leo Von Caprivi Co-

١٦- المرجع السالف ٢٢٠.
١٧- المرجع السالف ٢٢٢.

prara de Montecucoli) الذي خلف بسمارك في ١٨٩٠ وهكذا بلغت به دسائسه الملتوية أخيراً الى أرفع منصبٍ. في وقت بقيت الأزمة الإقتصادية التي لايفهم عنها شيئاً- في أقصى حدتها.

وفي حين بدأت جمهورية ڤايمر تنهار بعد ان عمل هو كثيراً على تهديمها. وعندما لم يعد هناك شخصٌ واحد يثق به حتى الرئيس الذي لعب به طويلاً. وكانت أيامه وهو في الأوج محدودة معدودة كما اتضح لكلّ امرءٍ خلا نفسه. وكان النازيون متأكدين من ذلك ويومية گوبلز المؤرخة ٢ كانون الأول تتضمن ما يلي: "عين شلايخر مستشاراً ولن يبقى طويلاً".

وكان هذا رأي (پاپن) أيضاً. لم يفارقه ألمه لكرامته الجريحة وهو الآن متعطش للانتقام من "صديقه وخلفه" كما دعاه في مذكراته. وعرض شلايخر على پاپن سفارة پاريس لكي يبعده عن طريقه فأبى. ويقول پاپن أن "الرئيس أراده أن يبقى في برلين على مقربة منه"، فبرلين هي أفضل موقع ستراتيجي لحبك دسائسه ضد زعيم الدسّاسين. وراح پاپن يعمل بجدّ العنكبوت وخفته. واذ كانت السنة ١٩٣٢ الحافلة بالتناحر تشارف على نهايتها، امتلأت برلين بالمؤامرات. مؤامرات ضمن مؤامرات. فالى جانب مؤامرات (پاپن) و(شلايخر) كان ثم واحدة في قصر الرئيس حيث امسك أوسكار ابن الرئيس وسكرتير مجلس الدولة مايسنر بمقاليد الأمور من خلف العرش. وكان ثم مؤامرة في فندق (كايزرهوف) حيث هتلر وأعوانه من حوله يتآمرون لا للإستيلاء على السلطة فقط، بل لتتآمر فئة على فئة وسرعان ما اشتبكت خيوط التآمر وتشعثت بحيث لم يحل عيد رأس سنة ١٩٣٣ حتى لم يعد متآمرٌ واحدٌ متأكداً ممن يغدر بمن، ومَنْ يخونُ مَنْ؟! لكن لم يطل الأمر بهم ليكتشفوا ذلك.

-٤-

شلايخر: آخر مستشارٍ للجمهورية

قال شلايخر مرّة. وكان على قيد سمع السفير الفرنسي المنتبه: "لم ابق في الحكم إلا سبعة وخمسين يوماً. وفي كل يوم منها أواجه بسبع وخمسين خيانة! ألا كفاكم حديثاً عن الإخلاص الألماني!"[١٨] إن حياته العامة وأفاعيله جعلته ولاشكّ مرجعاً في الموضوع.

بدأ مستشاريته بعرضه نيابة مستشارية الرايخ ورآسة وزارة پروسيا على (گريگور شتراسّر). فبعد فشله في حمل هتلر على المشاركة في حكومته راح يحاول شقّ الحزب النازي بالطعم الذي ألقاه لشتراسّر وكان هناك أسبابٌ للاعتقاد بأنه قد ينجح فشتراسّر كان الرجل الثاني في الحزب ومن عناصر الجناح اليساري فيه الذي يؤمن حقاً بإشتراكية قومية وهو محبوب أكثر من هتلر وكان بوصفه قائداً لمنظمة الحزب السياسي، على إتصال مباشر بكل قادة الحزب المنطقيين والأقليميين. وقد حاز ثقتهم

١٨- فرانسوا پونسيه المرجع السالف ص٤٣. ذكر "٧٠ يوماً" وكان واهماً.

على ما يبدو. كان الآن مؤمناً أن هتلر اوصل الحركة الى نهاية مقفلة. والحزب مفلس مالياً وفي تشرين الثاني أبلغهم (فريتز تيسّن) إنه لن يدفع بعد الآن إعانات للحزب. ولم يجد الحزب وفراً لدفع رواتب الألوف من موظفي الحزب أو للإنفاق على الـ(إس. أي) الذي يكلف وحده مليونين ونصف مليون أسبوعياً. وهدد أصحاب المطابع الذين يطبعون الصحف النازية بتوقيف الطبع حتى يتسلموا ما تأخر لهم من أجور مستحقة. وتصدى گوبلز للموضوع في يومية ١١ تشرين الثاني "الوضع المالي لمنظمة برلين يائس. لا شيء غير ديون وقوائم واجبة الدفع". وفي كانون الأول أبدى أسفه لوجوب تخفيض رواتب موظفي الحزب وأخيراً أظهر يوم الإنتخابات (الثورنيجية) الموافق للثالث من كانون الثاني وهو يوم مقابلة (شتراسّر لشلايخر)، خسارة ٤٠٪ من أصوات النازيين وأصبح واضحاً على الأقل (لشتراسّر) أن الحزب لن يفوز بالحكم بطريق الإقتراع. ولذلك ألحّ على هتلر بالتخلّي عن شعاره "كل شيء أو لا شيء" وأن يأخذ كل ما يعطى من سلطة بتأليفه حكومة إئتلاف مع شلايخر وإلاّ فإنه يخشى أن يتمزق الحزب. كان يلح في إتخاذ هذه الخطة أشهراً بطولها. وقد إمتلات يوميات گوبلز من متنصف الصيف حتى كانون الأول بتعليقات مرة حاقدة على "خيانة" شتراسّر لهتلر.

وجاء الفصل الختاميّ للرواية في الخامس من كانون الأول في إجتماع قادة الحزب بفندق كايزرهوف ببرلين. طلب (شتراسّر) أن "يتسامح" النازيون في حكومة شلايخر على الأقل، وعضده (فريك) زعيم كتلة نواب النازيين في الرايخشتاغ. وكثير منهم كان يخشى فقد مقعده ومخصصات النيابة المالية إن تسبب هتلر في إنتخابات أخرى. واشتد گورنگ وگوبلز في معارضة (شتراسّر) وفازا بهتلر. لن يتسامح هتلر في نظام شلايخر. لكن ظهر أنه لم يزل مستعداً "للتفاوض" معه. وعيّن گورنگ لإنجاز المهمة- فقد سمع على قول گوبلز- بأحاديث شتراسّر الخصوصية مع المستشار التي جرت قبل يومين. وفي السابع من ذلك الشهر جرت مناقشة في كايزرهوف بين هتلر و(شتراسّر) وانقلبت الى خصام عنيف فاتهم هتلر رئيس أعوانه ونائبه بمحاولته طعنه من الظهر وعزله من قيادة الحزب وتمزيق صفوفه فأنكر(شتراسّر) ذلك بشدة واقسم أنه مخلص لكنه اتهم هتلر بقيادة الحزب الى الدمّار، ويظهر أنه تغاضى عن قول أشياء كانت تقض مضجعه وتملأ جوفه منذ ١٩٢٥. فعاد الى فندقه الاكسلسيور Ex-celsior ودوّنها كلها في رسالةٍ لهتلر أنهاها بإستقالته من كل وظائفه في الحزب.

ذكر گوبلز أن الرسالة التي وصلت هتلر في الثامنة سقطت "كالقنبلة المنفجرة". وأصبح الجوّ الذي ساد كايزرهوف يشبه جوّ المقبرة "كلنا متألمون مكتئبون" لقد كانت اشد ضربة وقعت على هتلر منذ إعادة تنظيمه الحزب في ١٩٢٥. الآن هو يقف على اعتاب الحكم، ينبذه تابعه الأول ويهدد بتقويض كلّ ما بناه خلال سبع سنين.

"[كتب گوبلز] هتلر يأتي الى منزلنا ليلاً. من الصعب التظاهر بالبشاشة والانشراح. كلنا مكتئبون، وعلى الأخص لأن الخطر يتهدد كيان الحزب كله بالإنهيار التام وذهاب كل عملنا ومجهودنا أدراج الريح... نداء تلفوني من الدكتور (لاي). الموقف في الحزب يسوء ساعة بعد ساعة. يجب ان

يعود الفوهرر الى كايزرهوف في الحال". وطلب من گوبلز أن يرافقه الى الفندق في الساعة الثانية صباحاً. ودفع شتراسّر بقصته الى الصحف الصباحية التي كانت قد بدأت تظهر في الشوارع. ووصف گوبلز أثر ذلك في هتلر: "خيانة! خيانة! خيانة!"

"ظلّ الفوهرر ساعات بطولها يقطع أرضية الغرفة غدوة ورواحاً كان شديد الألم، غائر الجرح بسبب هذه الخيانة. أخيراً يقف ويقول: إن تمزق الحزب وذهبت ريحه سأنهي كل شيء في ثلاث دقائق بطلقة مسدس".

لم يتمزق الحزب. ولم يطلق هتلر الرصاص على نفسه ربما كان بإمكان شتراسّر أن يحقق هاتين النتيجتين معاً فيغير بذلك وجه التاريخ تغييراً تاماً معاكساً لكنه استسلم هو نفسه في اللحظة الفاصلة. راح (فريك) بإذن من هتلر يقلب عليه برلين عاليها سافلها. فقد تم الإتفاق أن يُرأب الخصام بشكل ما حرصاً على سلامة الحزب. إلاّ أن (شتراسّر) الذي أدركه القرف من كل هذا استقل القطار الى إيطاليا لقضاء فترة راحة في جوها المشمس. يبدو هتلر في أقوى حالاته دائماً عندما يتبيّن ضعفاً في خصمه ولهذا هوت ضربته سريعة قوية. فنزعت المنظمة السياسية التي بناها (شتراسّر) ورأسها هتلر نفسه ونصب الدكتور (لاي) (گاولايتر) كولون رئيس أركان له. وتمت تصفية أصدقاء (شتراسّر) واستدعي كل قادة الحزب الى برلين للتوقيع على تصريح جديد بالولاء لأدولف هتلر ففعلوا.

للمرة الأخرى خلّص الماكر النمساوي نفسه من مأزقٍ خطيرٍ كان سيؤدي الى كارثةٍ. وسحق بسرعةٍ (گريگور شتراسّر) ذلك الرجل الذي ظن الكثيرون انه أعظم من هتلر. وسماه گوبلز في يوميته المؤرخة ٩ كانون الأول "الرجل الميت". وقدر لهذه التسمية أن تصبح واقعية بالحرف بعد سنتين عندما قرر هتلر تصفية الحساب.

في العاشر من كانون الأول وبعد أسبوع من قيام الجنرال ڤون شلايخر بطرد فرانز ڤون پاپن. بدأ هذا يفتل احابيل دسائسه الخاصة. فبعد إلقائه في تلك الليلة خطاباً في نادي السادة Herren klub الذي انتقى من أعضائه الارستقراط الأثرياء رجال حكومته القصيرة العمر. انفرد في حديث خاص جداً مع البارون كرت ڤون شرويدر Kurt Von Schroeder الصيرفي الكولوني الذي كان يمنح الحزب النازي اعانات مالية. وابدى رغبته في أن يقوم هذا الماليّ الكبير بتدبير مقابلة سرية بينه وبين هتلر. وزعم پاپن في مذكراته أن (شرويدر) هو صاحب الإقتراح إلاّ أنه أقرّ بأنه وافق. وتشاء غرائب الصدف أن يقوم ڤلهلم كپلر Wilhelm Keppler مشاور هتلر الإقتصادي وواحد من حلقات إتصاله بأوساط رجال الصناعة، بعرض هذا الإقتراح نفسه على الزعيم النازي.

والتقى الرجلان اللذان كانا قبل أسابيع قليلة على خلاف مستحكمٍ، بمقابلةٍ كانا يأملان أن تكون في غاية من السرية والتكتم- وتم ذلك في منزل (شرويدر) بكولن صبيحة الرابع من كانون الثاني. ودهش پاپن عندما إلتقط مصور صورة له على مدخل الدار ولكنه لم يأبه بذلك كثيراً حتى اليوم التالي. وجاء هس وهملر وشرويدر برفقة هتلر. إلاّ انه ترك أعوانه هؤلاء في غرفة الاستقبال وانسحب

الى غرفة مطالعة (شرويدر) حيث بقي مع پاپن ومضيفهما داخل الغرفة المغلقة يتحدثون زهاء الساعتين. ومع أن الحديث كان سيئاً في المبدأ بشكوى هتلر المرة من الاساليب التي اتبعها (پاپن) في معاملته النازيين أيام كان مستشاراً وصلت المناقشة الى النقطة المصيرية لهما ولبلادهما. هذه لحظة حاسمة للزعيم النازي. لقد حافظت قوته الخارقة على وحدة الحزب بعد نكسة (شتراسّر) وانطلق يجوب البلاد طولاً وعرضاً ويخطب ثلاث مرات أو أربع يومياً في الإجتماعات حاثاً قادة الحزب على الوقوف خلفه كتلة متراصة. إلاّ أن روح الحزب كانت قد تدنت كثيراً. وركبه الإفلاس المالي. وقال كثيرون أن أمره انتهى وعكس (گوبلز) في يومياته لآخر أسبوع من السنة، الشعور العام السائد بقوله "جاءتنا السنة ١٩٣٢ بسوء حظّ أبديّ... الماضي كان عسيراً والمستقبل يبدو قاتماً كئيباً، كل الآمال قد تلاشت مع المال".

ولذلك لم يكن هتلر في موقف حسن للمساومة على السلطة كما كان موقفه في الصيف والخريف الماضي، لكن لم يكن موقف پاپن بأحسن منه فهو معزول بعيد عن الحكم. ولهذا إلتقى فكراهما مع وجود الخصومة بينهما.

ظلت شروط الإتفاق التي توصلا اليها موضع حدسٍ وتخمين. وذكر پاپن في نورمبرگ وفي مذكراته أنه بدافع من إخلاصه لشلايخر اقترح على هتلر المساهمة في حكومة الجنرال لا غير.

ولكن نظراً الى سجل أكاذيب پاپن الطويل. ولرغبته الطبيعية جداً في أن يظهر نفسه بمظهر حسن في نورمبرگ في كتاب مذكراته. وعلى ضوء الحوادث التالية، يبدو أن شهادة (شرويدر) المعطاة في نورمبرگ والمختلفة تماماً عن مزاعم پاپن، هي الأصح والأقرب الى الحقيقة. زعم رجل المال أن إقتراح پاپن كان إحلال حكومة پاپنية- هتلرية محل حكومة شلايخر، يكونان فيها متساويي السلطة. لكن:

"هتلر... قال لو أنه نصب مستشاراً فمن الضروري أن يكون هو رئيساً فعلياً للحكومة. وعندئذ يدخل مساندو پاپن في الحكومة كوزراء إن رغبوا في السير معه في سياسته التي ستتضمن إجراء عدة تغييرات. هذه التغييرات هي إستبعاد الديمقراطيين الإشتراكيين والشيوعيين واليهود من المراكز الحساسة في ألمانيا وإعادة الإستقرار الى الحياة العامة... وتوصل ڤون پاپن وهتلر الى إتفاق على الأسس... واتفقا أن التفاصيل يجب أن يتم بحثها وتحديدها وأن ذلك يمكن إنجازه في برلين أو أيّ محل مناسب آخر[١٩].

وبالطبع جرى ذلك بغاية التكتم. لكن ولذهول پاپن وهتلر- صدرت صحف برلين بعناوين مثيرة نارية في صبيحة الخامس من كانون الثاني لتفضح إجتماع (كولن) مصحوبة بمقالات حادة ضد پاپن لخيانته شلايخر. كان الجنرال الماكر قد بث جواسيسه بفطانته المعهودة وعلم پاپن فيما بعد أن أحدهم كان المصور الذي إلتقط صورته حين دخوله منزل (شرويدر).

والى جانب صفقة هتلر مع پاپن، فقد حصل الزعيم النازي على شيئين من وراء إجتماع (كولن)

١٩- NGA ج٢ الص٩٢٢-٩٢٤.

كـانا عظيـمي القيـمـة له. لقد علم من المستـشـار السـابق أن هندنبـرگ لم يمنح شـلايخر سلطة حَلّ الرايخشتـاغ وهذا يعني أن النازيين يستطيعون أن يطردوا الجنرال بمساندة الشيـوعـيين في أيّ وقتٍ شاؤوا. والشيء القيّم الثاني هو أن الإجتماع أسفر عن قيـام المصالح التجارية لغربي ألمانيا بإيفاء ديون الحزب النازي كلها. وبعد يومين من محادثات (كولن) دوّن (گوبلز) "تقدّم يسرّ الخاطر، في التطورات السياسية". وبعد عشرة أيام دوّن في ١٦ كانون الثاني أن الوضع المالي "قد تحسن بشكل أساسي في عشية وضحاها".

وفي تلك الأثناء كان المستشار شلايخر يمضي قدماً- بتفاؤل ينم عن قصر نظرٍ، وهو أقل ما يقال- في محاولة إقامة حكومة رصينة البنيان. وفي الخامس عشر من كانون الثاني ألقى خطبةً "عائلية" موجهة الى الشعب من دار الإذاعة، راجياً من مستمعيه أن ينسوا أنه كان عسكرياً ومؤكداً انه لايشايع الرأسمالية ولا الإشتراكية، وأن "مفاهيم أمثال الإقتصاد ذي القطاع الخاص، أو الإقتصاد المبرمج قد فقدت أثارها المفزعة" وقال ان مهمته الأساسية هي تأمين العمل للعاطلين. وانهاض البلاد على قدميها إقتصادياً. ولن يكون ثم زيادة في الضرائب ولا خصم من الأجور وانه في الواقع قد ألغى آخر خصمٍ جرى على الأجور ومنح الضمان، وهو مما عمد اليه پاپن. واضافةً الى ذلك فانه وضع حداً للمخصصات المالية التي منحها پاپن لمصلحة رجال الاقطاع الكبار، إنه يقوم بتطبيق مشروع إستملاك ما مساحته (٨٠٠٠٠٠) إيكر من المزارع المفلسة العائدة لليونكرز في الشرق وتوزيعها على خمسة وعشرين ألف أسرة فلاحية. كذلك سيجري تحديد أسعار البضائع الضرورية كالفحم واللحم ويراقب بيعها مراقبة دقيقة.

كان هذا طلباً للدعم الشعبي من شخصٍ ظلّ حتى تلك اللحظة يتجاهله ويعارض فيه وأتبعه حالاً بإجتماعات من زعماء إتحادات النقابات. مخلّفاً في أنفسهم إنطباعاً بأنه يتطلع الى مستقبل يكون فيه العمال النقابيون والجيش دعامتي الوطن التوأمين. لكن العمال لم يخدعهم رجل ليس لديهم به ذرة واحدة من الثقة ولهذا رفضوا التعاون ونهض رجال الصناعة والاقطاعيون الكبار من الجانب آخر وحملوا السلاح على منهاج المستشار الجديد، زاعقين بملء أفواههم أنه "الشيوعية" بذاتها. وصعق رجال الأعمال لصداقة شلايخر المفاجئة مع نقابات العمال. وحنق أصحاب المزارع الكبيرة على قطعه السلف الزراعية. واضطرموا بنار السخط لمشروعه في تجزئة المزارع الكبرى المفلسة في الشرق. وفي ١٢ كانون الثاني شرعت عصبة الأراضي Landbund وهي جمعية للمزارعين الكبار بهجوم عنيف على الحكومة وطلب زعماؤهما ومنهم إثنان نازيان مقابلة الرئيس وقدموا إحتجاجاً. وكان هندنبرگ من اليونكرز الأقطاعيين فاستدعى مستشاره لتوضيح الأمر. فكان جواب شلايخر أنه هددّ بنشر تقرير سري للرايخشتاغ عن قروض اوستهلفي Osthelfe (مشروع الإغاثة الشرقي). وهي فضيحة لايجهلها أحد، تشمل وصمتها مئات من أعرق أسر اليونكرز أتخمت وتنعمت في بحبوحة "قروض" حكومية لم تستردّ منهم، وتشمل بصورة غير مباشرة الرئيس هندنبرگ نفسه إذ أن المزرعة البروسية التي قدمت

هدية له سجلت بصورة غير قانونية باسم إبنه للتخلص من دفع ضريبة التركات.

وبقي شلايخر واثقاً ثقة عجيبة بأن كل شيء يسير على ما يرام. رغم صياح رجال الصناعة وزئير الاقطاعيين وجفاء الإتحادات النقابية. وفي يوم رأس السنة ١٩٣٣ ذهب هو وأعضاء وزارته لزيارة الرئيس الشيخ فراح هذا يعلن عن "شكره وإمتنانه" لأنه "تمّ التغلّب على أخطر المصاعب. وأن طريق الرفعة أصبح الآن مفتوحاً أمامنا".

في الرابع من كانون الثاني وهو اليوم الذي تم فيه إجتماع پاپن بهتلر في (كولن) دبّر شلايخر مقابلة (لشتراسّر) الذي عاد من إيطاليا مع الرئيس. وأبدى الرجل الثاني في الحزب النازي سابقاً رغبته في الإنضمام الى وزارة شلايخر أثناء الزيارة التي تمت بعد بضعة أيام. هذه المناورة اشاعت الذعر في المعسكر النازيّ الذي كان قد ركز جهوده ونقل أثقاله الى (دولة ليپّي Lippe) الصغيرة حيث هتلر ورؤساء الحزب يخوضون معركة عنيفة لتحقيق نجاح إنتخابي محلي من شأنه تقوية مركز هتلر في مساوماته مع پاپن. وقص گوبلز حادثة قدوم (گورنگ) في متنصف ليل ١٣ كانون الثاني بأنباء السوء عن شتراسّر. وكيف جلس زعماء النازي يناقشونها طول الليل. وصادقوا جميعاً على ان قبوله وزارة معناه نكسة خطيرة للحزب.

كذلك كان رأي (شلايخر). وفي ١٥ كانون الثاني عندما كان يزوره كرت ڤون شوشنگ Kurt Von Schushnigg وزير العدل النمساويّ حين أكد له؛ "ان هر هتلر لم يعد بعد مشكلةً. ولم يعد حزبه خطراً سياسياً ولقد حلت المسألة كلها وأصبحت أثراً من آثار الماضي[٢٠]".

لكن (شتراسّر) لم يدخل الوزارة، كذلك لم يدخلها زعيم الحزب القوميّ (هوگنبرگ) الذي كان قد أكّد لهندنبرگ في الرابع عشر من كانون الثاني (أي قبلها بيوم). أنه سيدخل حتماً. فكلا الرجلين إتجها الى هتلر. وخاب مسعى الأول منهما. وأصاب الثاني بعض نجاح. ففي الخامس عشر في اللحظة التي كان (شلايخر) يؤكد (لشوشنگ) نهاية هتلر، حقق النازيون نجاحاً محلياً في إنتخابات (ليپّي) الصغيرة. إلاّ أنه لم يكن نصراً ساحقاً. فمن المجموع الكليّ للأصوات البالغ تسعين ألفاً نال النازيون ثمانية وثلاثين ألفاً أو ٣٩٪ بزيادة ١٧٪ عن أصواتهم السابقة. لكن النازيين بقيادة گوبلز راحوا يقرعون طبول "الظفر" ومن الغريب أنها استرعت إهتمام عددٍ من المحافظين، منهم رجال يقفون خلف هندنبرگ مباشرة. وعلى رأسهم سكرتير الدولة لشؤون الرآسة وأوسكار إبن الرئيس.

في مساء الثاني والعشرين من كانون الثاني. تسلل هذان السيدان من قصر الرئاسة واختطفا تاكسيّاً على حَدّ قول مايسنر لكيلا تتناهبهما الانظار المستطلعة واتجها الى منزل عضو نازيّ لم يكن معروفاً حينذاك، يدعى (يواكيم ڤون ريبنتروب Joachim Von Ribbentrop) وكان هذا صديقاً لپاپن وقد خدما معاً في الجبهة التركية أثناء الحرب- وبحسب رواية (مايسنر)، اجتمعا هناك بپاپن وهتلر وگورنگ وفريك. في حين كان أوسكار يعارض أي إتفاق مع النازيين حتى تلك الليلة المصيرية. وربما

٢٠- كرت ڤون شوشنگ "وداعاً يا أوستريا" الص١٦٥-١٦٦.

علم هتلر بذلك، ومهما يكن فانه أصرّ على أن يتبادل الحديث معه "بمرأى من أربعة أعين". ودهش مايسنر حين ابدى هندنبرگ الصغير موافقته وانسحب مع هتلر الى غرفة ثانية حيث بقيا وحيدين زهاء الساعة. ماذا قال هتلر لإبن الرئيس الذي لم يكن مشهوداً له بالذكاء والرزانة والخلق الرصين؟ هذا ما لم يكشف عنه. والذي كان يسود أوساط النازيين أن هتلر توعده وقدم له عروضاً في الوقت نفسه. وكان الوعيد يتضمن تلميحاً الى دور أوسكار في فضيحة (اوستهلڤي) ونشرها للرأي العام وتنويهاً بتملصه من دفع ضريبة التركات على مزرعة هندنبرگ. والمرء لايصعب عليه أن يتكهن بالعروض المبذولة، بعد أن أضيف ما مساحته خمسة آلاف إيكر معفاة من الضريبة الى املاك هندنبرگ في (نيودك) بعد بضعة أشهر، ثم قفزة أوسكار في آب ١٩٣٤ من رتبة عقيد في الجيش الى رتبة (فريق).

وعلى اية حال، فلاشكّ أن هتلر خلّف إنطباعاً قوياً في نفس نجل الرئيس. ذكر مايسنر في افادته بنورمبرگ "كان أوسكار ڤون هندنبرگ في طريق العودة ساكتاً سكوتاً مطبقاً. والملاحظة الواحدة التي خرجت من فمه هي: لا مناص من الأمر، يجب أن يضمّ النازيون الى الحكومة. وكان إنطباعي هو أن هتلر نجح في ايقاع أوسكار تحت تأثيره"[٢١].

لم يعد باقياً لهتلر ممن يريد إخضاعهم لتأثيره غير الأب. وهو لا ريب أصعب. اذ أن الفيلد مارشال الهرم على ضعف عقله، لم يُلِن كبر السنّ أخلاقه الصخرية. أصعب حقاً الاّ انه ليس مستحيلاً. وكان پاپن كالقندس نشطاً في استمالة الشيخ يعمل عملاً دائباً فيه. وكان من السهل أن يرى المرء أن شلايخر يقترب من سقطته بخطى حثيثة رغم مكره وحيلته. لقد فشل في كسب النازيين أو شقهم. ولم ينل دعم القوميين أو مساندة الوسط والديمقراطيين الإشتراكيين.

وبناء على ذلك ذهب (شلايخر) لرؤية هندنبرگ في ٢٣ كانون الثاني وأقرّ أمامه بأنه لم يحُز الأغلبية في الرايخشتاغ وطلب إصدار مرسوم بحله مع صلاحيات وفق أحكام الطواريء بموجب المادة (٤٨) من الدستور ويزعم مايسنر أنه طلب أيضاً "إلغاء الرايخشتاغ المؤقت" وافهمه بصراحة بأن عليه أن يحول حكومته الى "دكتاتورية عسكرية"[٢٢].

وجد شلايخر نفسه يعود الى الموضع الذي كان فيه پاپن في أوائل كانون الأول رغم أحابيله ومؤامرته. لكن دوريهما أصبحا الآن متضادين. كان پاپن حينذاك قد طلب صلاحيات استثنائية فعارضه (شلايخر) واقترح أن يشكل هو حكومة أغلبية بدعمٍ من النازيين. وها ان الجنرال الآن يصرّ على الحكم بالدكتاتورية العسكرية والثعلب الماكر پاپن يؤكد للفيلد مارشال أن بوسعه إقناع هتلر بدخوله حكومة تحوز أغلبية برلمانية. تلك هي تقلبات الحياة من خفض ورفعة بين الأوغاد والدسّاسين!

وذكّر هندنبرگ (شلايخر) بالأسباب التي عرضها في ٢ كانون الأول لتنحية پاپن. وأبلغه انها

٢١- شهادة مايسنر [مؤامرة... الملحق الأول ص ٥١١] انظر ما بعده ايضاً.
٢٢- المرجع السالف (شهادة مايسنر).

مازالت قائمة. وأوعز اليه بالعودة الى مهمته في الحصول على أغلبية برلمانية. لقد انتهى (شلايخر) وانه ليدرك ذلك. كما يدركه كل مطلع على السّر. وگوبلز أحد هؤلاء القلائل الواقفين عليه، فبادر يعلق على ذلك غداة اليوم "سيسقط شلايخر في اية لحظة. ذلك الذي أسقط العدد الكبير".

أخيراً حلت نهايته وبصورة رسمية في ٢٨ كانون الثاني حيث قصد الرئيس وقدم إستقالة حكومته. فقال هندنبرگ للجنرال الذي وضحت له الحقيقة "لقد سبقت إحدى قدميّ الى القبر، ولست متأكداً بأني سوف لا أتأسّف فيما بعد على هذا العمل في السماء"، فأجابه شلايخر "بعد نزع الثقة منيّ يا سيدي، فأنا لست متأكداً من ذهابك الى السماء". ثم تلاشى بسرعة وغاب من خشبة مرسح تاريخ ألمانيا(٢٣).

وفي ظهر اليوم نفسه. كلف الرئيس پاپن باستطلاع إحتمالات تأليف حكومة برآسة هتلر "بحسب شروط الدستور". كان هذا الرجل المخادع الطموح طوال أسبوع يغازل فكرة الغدر بهتلر وعودته الى منصب المستشار لحكومة غير برلمانية بمساندة (هوگنبرگ). وفي ٢٧ كانون الثاني عاد گوبلز الى يومياته ليكتب "مازال إحتمال تكليف (پاپن) بالمستشارية قائماً". وقبلها بيومٍ واحدٍ أرسل (شلايخر) (الجنرال ڤون هامرشتاين) قائد الجيش العام الى الرئيس ليحذّره من إختيار پاپن وفي وسط هذا التيه من الدسائس التي امتلأت بها برلين كان شلايخر في آخر لحظة يوطّيء السبيل لهتلر حتى يخلفه. وأكدّ هندنبرگ لقائد الجيش أنه لاينوي أبداً تعيين "ذلك النائب العريف النمساويّ".

وكان اليوم التالي وهو الأحد الموافق لـ٢٩ كانون الثاني يوماً حاسماً والمتآمرون يلعبون آخر أوراقهم اليائسة ويملأون العاصمة بأشد الشائعات تناقضاً وفزعاً. ولم تكن بينها شائعة واحدة دون أساس. وعاد شلايخر يدفع بالمخلص الأمين (هامرشتاين) لتحريك الشورباء. قابل قائد الجيش هتلر ليحذره مرة أخرى بأن پاپن قد يتخلى عنه ويتركه صفر اليدين. وربما كان من الحكمة أن يتحالف الزعيم النازي مع المستشار الساقط ومع الجيش. فلم يبدُ على هتلر أيّ إهتمام. وعاد الى كايزرهوف ليتناول القهوة والكعك مع أعوانه. وفي أثناء تناوله تلك العصرونية جاء (گورنگ) بأنباء استدعاء الفوهرر نهار الغد وتنصيبه مستشاراً. في تلك الليلة كان قادة النازي يحتفلون بالأنباء الخطيرة في منزل گوبلز في الرايشكانزلربلاتز Reichskanzlerplatz عندما وصلت بعثة أخرى من (شلايخر) بأنباء مفزعة. كان الرسول (ڤيرنر ڤون الڤنسليبن Werner Von Alvensleben) وهو رجل مغرم بالمكائد بحيث إن لم توجد واحدة، إلاّ خلقها هو. أخبر الحزب الجذلان أن شلايخر وهامرشتاين قد وضعا حامية بوتسدام بحالة الإنذار وهما يتهيّئان لإرسال الرئيس الى (نودك) وإقامة دكتاتورية عسكرية. وكان هذا أضخم مبالغة. من المحتمل أن الجنرالين يقلبان هذه الفكرة في رأسيهما ولكن الأكثر تأكيداً أنهما لم يتخذا أي عملٍ. ومع هذا فقد اصيب النازيون بالهستيريا من فرط القلق وبأسرع مما يسمح لگورنگ جسمُه

٢٣- يوميات هامرشتاين (هويلر بينيت Nemisis) ص٢٨٠.

الضخم اندفع يعبر الميدان الكبير لينذر الرئيس وپاپن. أما ما فعله هتلر فقد وصفه هو نفسه فيما بعد:

"كان أول رد فعل لي على هذه المؤامرة [العسكرية] المحبوكة أن أرسلت بطلب قائد الـ(إس. أي) في برلين الكونت ڤون هلدورف. وانذرت عن طريقه كل الـ(إس. أي) في برلين. وفي الوقت نفسه أشرت على الميجر ڤيكي Wecke من الشرطة الذي أثق به، ليتهيأ الى إحتلال سريع لـ(ڤلهلمشتراسّه) بستة افواج من الشرطة... وأخيراً أبلغتُ الجنرال ڤون بلومبرگ Von Blomberg (الذي أختير ليكون وزير الحرب الألماني المقبل) بأن يذهب حال وصوله الى پرلين في الساعة الثامنة من صباح يوم ٣٠ كانون الثاني- الى السيد الهرم ليقسم اليمين الدستورية حتى يكون في مركز يستطيع منه كقائد عام للجيش أن يقمع أيّ محاولة محتملة لإنقلاب مسلحّ[٢٤]."

ومن وراء ظهري شلايخر والقائد العام (كل شيء في تلك الفترة المجنونة كان يعمل من وراء الظهر) أرسل بطلب الجنرال ڤرنر ڤون بلومبرگ من جنيڤ حيث كان يمثل ألمانيا في مؤتمر نزع السلاح. لم يرسل هتلر بطلبه لأنه لم يتسلم بعدُ السلطة. بل استقدمه الرئيس هندنبرگ وپاپن ليعين وزير دفاع جديد في حكومة هتلر-پاپن. وكان رجلاً يتمتع بثقة هتلر من السابق كما قال هو عنه. وكان قد وقع تحت تأثير الكولونيل ڤالتر ڤون رايخناو Walther Von Reichnau رئيس أركانه في پروسيا الشرقية وهو من أشياع النازيين المتحمسين. عندما وصل (بلومبرگ) برلين في الموعد المقرر وجد بانتظاره في المحطة ضابطين- يحملان له أمرين متناقضين. فالرائد ڤون كونتزن Von Kuntzen مرافق هامرشتاين أبلغه بمراجعة القائد العام رأساً والعقيد (أوسكار ڤون هندنبرگ) مرافق والده ابلغه بالمثول أمام رئيس الجمهورية في الحال. ولم تطل الحيرة بالجنرال وقصد الرئيس. وهناك أقسم اليمين كوزير للدفاع وبهذا اعطي السلطة لقمع أيّ محاولة إنقلاب بقوة الجيش فضلاً عن إتخاذه التدابير لدعم الحكومة الجديدة عسكرياً. ولم يبق لإذاعة أمرها غير ساعات قليلة. ظلّ هتلر ممتناً من الجيش لقبوله إيّاه في تلك اللحظة الحرجة. وقد أخبر أعوانه بعد ذلك بزمن وجيز "لو لم يقف الجيش الى جانبنا في أيام ثورتنا. لما رأيتمونا اليوم واقفين هنا" كانت تبعة شديدة الوطأة ستنوء تحت ثقلها هيئة ضباط الجيش العامة في الأيام التالية. وسيصيبها جرّاه أكثر من الندم بكثير.

في الصباح القرّ للثلاثين من كانون الثاني ١٩٣٣. أشرفت مأساة جمهورية ڤايمر على الختام. تلك المحاولة الخرقاء لأربع عشرة سنة خائبة من جانب الألمان لإقامة صرح ديمقراطي. ولكن لم تنته إلاّ بعد هزلية صغيرة حصلت في آخر لحظة وقبيل نزول الستار- بين مختلف مجموعات المتآمرين الذين اجتمعوا لدفن النظام الجمهوري. وقد وصفها پاپن فيما بعد. قال: "في حدود العاشرة والدقيقة الثلاثين إجتمع أعضاء الحكومة المزمع تشكيلها في منزلي وساروا جميعاً مخترقين الحديقة الى القصر الجمهوري حيث انتظرنا في مكتب مايسنر. وجدّد هتلر حالاً شكواه من أنه لم ينصب مندوباً سامياً

٢٤- أحاديث هتلر السرية ص٤٨٤.

لپروسيا وكان يشعر أن هذا يحدد كثيراً من صلاحياته... فاخبرته أن هذا التفويض اليروسي يمكن معالجته فيما بعد. فأجاب هتلر على ذلك: إن حددت سلطاته بهذا الشكل فعليه أن يصرّ بطلب إجراء إنتخابات جديدة للرايخشتاغ.

وخلق هذا موقفاً جديداً تماماً. وحميت المناقشة وانقلبت الى جدال حاد. واعترض هوگنبرگ بصورة خاصة على الفكرة وحاول هتلر تهدئته بقوله أنه لن يقوم بإجراء أيّ تغيير في الوزارة مهما كانت نتائج الإنتخابات... في هذا الحين تعدت الساعة الحادية عشرة بكثير وهو الموعد المقرر لمقابلة الرئيس. وطلب مني مايسنر أن نختم نقاشنا لأن هندنبرگ غير مستعد للانتظار أكثر من هذا.

"تصادمت آراؤنا تصادماً مفاجئاً بحيث أصبحت أخشى أن يتحطم ائتلافنا قبل أن تتم ولادته... أخيراً ادخلنا على الرئيس وقمت بالتعريف بالشكل الأصولي وألقى هندنبرگ كلمة مقتضبة حول ضرورة التعاون التام في مصالح الأمة وأقسمنا اليمين الدستورية. وهكذا تمّ تشكيل وزارة هتلر[٢٥]". بهذا الشكل، وعن طريق الباب الخلفيّ بالمساومات السياسية الدنيئة مع رجعية المدرسة القديمة التي كان يبغضها في الماضي. أصبح المتشرد السابق من ڤيينا وحطام الحرب العظمى الأولى والثوري العنيف رئيس حكومة شعب عظيم.

لا مشاحة في أن القوميين الإشتراكيين كانوا أقلية واضحة في الحكومة. فلديهم ثلاثة مناصب من أصل أحد عشر منصباً وزارياً. وبإستثناء المستشارية لم تكن وزاراتهم مهمة. ففريك عيّن وزيراً للداخلية إلاّ أنه لايسيطر على الشرطة كما هو الشأن في كل وزارات الداخلية بدول بأوروپا- فالشرطة في ألمانيا في أيدي الدول ذات الحكم الذاتي. والوزير النازي الثالث هو (گورنگ) لكن لم يعثر له على وزارة معينة ولذلك سمّي وزير دولة. مع وجود تفاهم مسبق بصيرورته وزيراً للطيران حالما تبني ألمانيا قوتها الجوية. ولم يعلق أهمية كبيرة على تعيين (گورنگ) وزيراً لداخلية دولة پروسيا وهو منصب يسيطر به صاحبه على شرطة پروسيا، لأن انظار الرأي العام كانت متجهة الى وزارة الرايخ ولم يظهر اسم گوبلز- لدهشة الكثير- في قائمة الوزراء فقد ترك مؤقتاً في العراء.

واودعت الوزارات المهمة للمحافظين الذين كانوا على يقين بأنهم لم يضعوا الوَهَق في رقبة النازي إلاّ ليخدموا أنفسهم. واستمر ڤون نيوراث وزيراً للخارجية وبلومبرگ عين وزيراً للدفاع وتولى (هوگنبرگ) وزارتي الإقتصاد والزراعة المندمجتين وجُعل (سلتي Seldte) زعيمُ الخوذ الفولاذية وزيراً للعمل وتركت الوزارات الأخرى في أيدي "اختصاصيين" لا حزبيين. كان پاپن قد عينهم في وزارته قبل ثمانية أشهر. وأصبح پاپن نائب المستشار، ورئيس وزارة پروسيا وقد وعده هندنبرگ أنه لن يقابل المستشار إلا برفقة نائب المستشار. وكان واثقاً إن هذه الوضعية الفريدة في بابها ستكبح جماح الزعيم النازي المتطرف. وأكثر من هذا كله، كانت الوزارة من بنات أفكار پاپن وخلقه وهو واثق بأنه

٢٥- پاپن: المرجع السالف الص ٢٤٣-٢٤٤.

سيبسط سلطانه عليها بمساندة الرئيس الشيخ الصلب الرأي صديقه وحاميه والمعجب به وبدعم رفاقه المحافظين الخبيرين الذين يتفوّقون على النازيين المستجدين بثمانية ضدّ ثلاثة.

لكن هذا السياسيّ السخيف المتآمر لم يكن على معرفة بهتلر- لا أحد عرف هتلر والحق يقال- ولم يدرك جسامة القوى التي تقيأته الى أعلى. ولم يدرك پاپن أو أي شخص غيره بإستثناء هتلر- الضعف الغامض المأتى الشبيه بالشلل الذي إنتاب المؤسسات القائمة كالجيش والمعاهد الدينية ونقابات العمال والأحزاب السياسية- أو الطبقة البرجوازية الهائلة اللانازية، والبروليتاريا المنظمة تنظيماً عالياً كلها "استسلمت دون أن تبدي أيّ مقاومة" كما تبين لپاپن بعدها بزمن طويل- وهو حسير حزين. ولم يعد هناك طبقة أو جماعة أو حزب في ألمانيا يستطيع إنكار سهمه في مسؤولية التخليّ عن الجمهورية الديمقراطية وسيطرة أدولف هتلر. إن الخطأ الأكبر الذي إرتكبه الألمان المعادون للنازية هو فشلهم في تكوين جبهة متحدة ضدها. لقد فاز القوميون الإشتراكيون في ذروة قوتهم الجماهيرية في تموز ١٩٣٢ على ما لايزيد عن ٣٧٪ من مجموع أصوات الناخبين العام لكن الثلاثة والستين بالمائة من الشعب الألماني الذين أظهروا معاداتهم لهتلر كانوا منقسمين إنقساماً شديداً، وقصيري النظر الى الحدّ الذي حال دون تجمعهم في وجه الخطر المشترك. وكان ينبغي لهم أن يعرفوا أنه سيحدق بهم ويستصفيهم إلاّ اذا اتحدوا في جبهة وان كانت مؤقتة للقضاء عليه. لقد ظلّ الشيوعيون حتى اللحظة الأخيرة مقيمين لايتحولون عن الرأي السخيف بأن عليهم القضاء أولاً على الديمقراطيين الإشتراكيين وإتحادات نقاباتهم وكل ما هو موجود من منظمات ديمقراطيي الطبقة البرجوازية تطبيقاً لمفهوم ملتبس ونظرية جامدة وهي مع ان كفاحهم هذا قد يؤدي الى نظام نازيّ، فانه سيكون مؤقتاً ونتيجته المحتومة إنهيار الرأسمالية وعندئذ يستظهر الشيوعيون ويقيمون دكتاتورية البرولتياريا. إن الفاشية عند الماركسيين البولشفيك هي أعلى مرحلة للرأسمالية المحتضرة ولا مفرّ من مجيء النظام الشيوعي بعدها.

أربع عشرة سنة من المساهمة في سياسة حكم الجمهورية وعقد كل المساومات التي كانت ضرورية لتأليف حكومات ائتلافية استنزفت قوة الديمقراطيين الإشتراكيين واطفأت جذوة حيويتهم حتى أصبحوا حزباً لايزيد كثيراً عن أي حزب انتهازيّ يستخدم للضغط السياسي. واستقر على خطة المساومة للحصول على بعض الإمتيازات لإتحادات النقابات التي تكمن فيها معظم قوتهم. قد يكون حقاً- على حد قول بعض الإشتراكيين، أن الحظ لم يبتسم في وجوههم: الشيوعيون المندفعون الذين لايؤمنون بديمقراطيتهم كانوا قد وضعوا يديهم على جزء من الطبقة العاملة، والأزمة الإقتصادية ألحقت أذى كبيراً بهم بأن اضعفت نقابات العمال وافقدت الحزب مساندة الملايين من العاطلين الذين دفعهم قنوطهم الى أن يصيروا شيوعيين أو ينضموا الى النازيين. إلاّ أن مأساة الديمقراطيين الإشتراكيين لايمكن ان تفسر تفسيراً كاملاً على ضوء سوء الحظ. فقد كانت فرصتهم الكبرى للسيطرة على ألمانيا في تشرين الثاني ١٩١٨ وتأسيس دولة تقوم على المباديء التي ظلوا يبشرون بها دوماً:

الديمقراطية الإشتراكية الاّ انهم كانوا يفتقرون الى مضاء العزيمة للأقدام على هذا. والآن وفي مستهل فجر العقد الثالث من القرن تجدهم متعبين مكدودين وترى حزبهم حزباً إنحدارياً يسيطر عليه رجال كبار السن الأغبياء على الأغلب وإن كانوا حسني النية. لقد بقوا مخلصين للجمهورية الى الأخير. لكنهم كانوا عند الخاتمة شديدي الارتباك، كثيري الخوف عاجزين عن القيام بمخاطرات عظيمة كانت وحدها كفيلة بالابقاء على الجمهورية. كما ظهر ذلك من فشلهم في القيام بأي عمل عندما بعث پاپن ببضعة عشر جندياً لتدمير حكومة پروسيا الدستورية. وبين اليسار واليمين، كانت ألمانيا تفتقر سياسياً الى طبقة وسطى قوية برهنت في بلاد أخرى -كفرنسا وانكلترا والولايات المتحدة- بأنها عمود الديمقراطية الفقريّ. في أول سنة من الجمهورية فازت أحزاب الطبقة الوسطى وهي الديمقراطيون وحزب الشعب وحزب الوسط بأصوات بلغ مجموعها إثني عشر مليوناً وهي تقل بمليونين فقط عن مجموع ما حصل عليه الحزبان الإشتراكيان معاً. ولكن منذ ذلك الوقت وقوّتهم تضمحل باطّراد بينما يتخلى عنهم أشياعهم الى هتلر والقوميين. انتخب الديمقراطيون فس ١٩١٩ أربعة وسبعين نائباً للرايخشتاغ وبمجيء ١٩٣٢ لم يكن لديهم غير مقعدين! وهبطت قوة حزب الشعب من إثنين وستين مقعداً في ١٩٢٠ الى أحد عشر، في ١٩٣٢. ولم يكن يثبت قوة أصواته إلاّ الوسط الكاثوليكي فقد ظلّ محافظاً عليها الى الأخير. حاز الوسط (٧١) مقعداً في أول إنتخابات جمهورية ١٩١٩ وفي ١٩٣٢ كان حائزاً (٧٠) على انه كان أكثر من الديمقراطيين الإشتراكيين انتهازيةً كان كذلك على الغالب منذ أيام بسمارك تراه يساند أية حكومة تعطي إمتيازات لمصالحه الخاصة. ومعه انه كان يدعي الإخلاص للجمهورية ويتظاهر بالمساهمة في ديمقراطيتها فان زعماءه كما رأينا- كانوا يفاوضون النازيين لمنح هتلر منصب المستشارية قبل أن يسبقهم پاپن والقوميون في عرضها عليه.

إن كانت جمهورية ألمانيا قد تخلصت من صنف ساسة (متنصف الطريق) فهي أيضاً افتقرت الى الثبات الذي يفرضه حزب محافظ صميم كسائر البلاد الديمقراطية الأخرى. لقد فاز القوميون الألمان في أوج قوتهم العام ١٩٢٤ بستة ملايين صوت ودفعوا الى البرلمان بمائة وأربعة نواب فكانوا ثاني أكبر الأحزاب. ولكنهم بقوا طوال عهد جمهورية (ڤايمر) تقريباً يرفضون أخذ مراكز المسؤولية لا في الحكومة ولا في المعارضة. والإستثناء الوحيد كان مساهمتهم في وزارتين قصيرتي العمر في العشرينات. وما كان يريده اليمين الألماني الذي ذهب معظم أصواته الى القوميين هو القضاء على الجمهورية وعودة ألمانيا الإمبراطورية حتى يرجع اليهم كل إمتيازاتهم ولاشك أن الجمهورية كانت في غاية الكرم والتسامح في تعاملها مع اليمين أفراداً وطبقةً. وبوضعنا هدف اليمين موضع إعتبار، لنا أن نقول إن معاملة التسامح كانت خارقة للعادة حقاً، فقد تركت الجيش ليغدو دولة ضمن دولة كما رأينا، وتركت رجال الأعمال والبنوك يجنون ارباحاً طائلة وتركت لليونكرز مزارعهم غير الإقتصادية بل ساعدتهم بقروض حكومية لم يدفعوها قطّ ونادراً ما استعملت لاستصلاح تلك الأراضي. ومع هذا فلم يكسب هذا التسامح الكريم عطفهم ولا ولاءهم للجمهورية. وظلوا- بتحاملهم وغبائهم وعماهم

الذي يبدو بالمقابل غير مفهومٍ لهذا المؤلف. باتوا يهوون بمعاولهم على أسس الجمهورية حتى استطاعوا تقويضها بالتحالف مع هتلر.

ظن المحافظون أنهم وجدوا في المتشرد النمساوي السابق رجلاً يساعدهم على الوصول الى غاياتهم طول بقائه سجيناً في أيديهم. وكان تحطيم الجمهورية أول خطوة. وبعدها اخذوا يطمحون الى ألمانيا مركزية مطلقة الحكم تضع في الداخل حداً "للعبث" الديمقراطي. وتقضي على نفوذ نقابات العمال المستشري. وفي الخارج، تلغي عقوبة ١٩١٨ وتمزق معاهدة ڤرساي وتقوم ببناء جيش عظيم يعيد البلاد الى سابق عزها ومكانتها تحت الشمس. وتلك كانت غايات هتلر ايضاً. ومع انه جاء بما كان يفتقر اليه اليمين، جاء بالجماهير من الاتباع فقد ظلّ اليمين واثقاً بأن هتلر باقٍ في جيبه، ألا يفوقونه في الوزارة بنسبة ثمانية الى ثلاثة؟ وضع مسيطر كهذا يتيح للمحافظين أيضاً [أو هذا ما كانوا يظنون] إنجاز مهمتهم وهم في مأمن من غائلة النازية التي لاريب فيها، فهم شخصياً وكما يرون أنفسهم أناس أطهار يخافون الله!

لقد بنيت إمبراطورية آل هوهنزلرن على إنتصارات پروسيا العسكرية. وأقيمت جمهورية ألمانيا على هزيمة ألمانيا العسكرية بيد الحلفاء بعد حرب عظيمة، لكن الرايخ الثالث لايدين بشيء للمغامرات العسكرية أو النفوذ السياسي. فقد بويع بالحكم زمن السلم، وجاء بطريق سلمية بفضل الألمان أنفسهم، بفضل قوتهم وضعفهم، لقد فرض الألمان الطغيان النازي على أنفسهم بأنفسهم. إن الكثير منهم وربما أغلبيتهم لم يدركوا ذلك تماماً في ظهر ذلك اليوم الثلاثين من كانون الثاني ١٩٣٣ عندما أودع الرئيس هندنبرگ- المستشارية بيد هتلر مطبقاً نصوص الدستور بكلّ دقة.

إلاّ أن الأمر لم يطل بهم ليدركوا مغبّة ما فعلوا.

الفصل الثالث

النازية تعمّ ألمانيا

١٩٣٣-١٩٣٤

قام هتلر بتطبيق النظرية التي رسخت في ذهنه ونضجت ولم ينسها منذ أيام تشرده في ڤيينا فنجحت عملياً كما قدّر لها تماماً. وهي ان سبيل الحركة الثورية الى تولّي الحكم هو تحالفها مع بعض المؤسسات المتنفذة في الدولة. فالرئيس الذي يدعمه الجيش والمحافظون هم الذين نصبوه مستشاراً. ومع ان سلطته السياسية كانت كبيرة إلاّ انها ليست كاملة. فهي مشتركة بين مصادر السلطة الثلاثة تلك التي وضعته على كرسي الحكم، وظلت خارجه، غير واثقة الى حد ما بالحركة القومية الإشتراكية.

فكان غرض هتلر الفوري ازاحتهم حالاً من مقعد السائق. وجعل حزبه سيّد الدولة الأوحد ثم القيام بالثورة النازية بسلطة حكومة مركزية مطلقة تدعمها شرطتها. ولم ينقضِ على وجوده في الحكم غير أربع وعشرين ساعة حتى شرع في تنفيذ أول صفحة حاسمة من خطته. بنصب فخ "لآسريه" المحافظين الخبثاء مطلقاً سلسلةً من الاحداث المفتعلة أو المسيطر عليها، قدر لها بعد ستة أشهر أن تصبغ كل ألمانيا بصبغة النازية وأن تجعل منه دكتاتوراً للرايخ الموحدّ، اللافيدراليّ لأول مرة في تاريخ ألمانيا.

بعد قسمه يمين الإخلاص للدستور بخمس ساعات أي في الخامسة بعد الظهر يوم ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ عقد أول إجتماع وزاري وكان جدول أعمال الجلسة كما ظهر في نورمبرگ بين مئات الأطنان من الوثائق السرية، يكشف عن السرعة والبراعة اللتين بدأ بهما هتلر بمعاونة گوبلز الماكر في طي زملائه المحافظين تحت عباءته[١]. كان (هندنبرگ) قد وضع هتلر لا على رأس حكومة معينة بمرسوم بل حكومة تعتمد على أغلبية الرايخشتاغ. ولم يكن لدى النازيين والقوميين وهما الحزبان الوحيدان

١- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٣ الص ٢٧٢-٢٧٥ [الوثائق ٣٥١ PY] كان إجتماع الوزارة خاصاً بالطبع، وقد تم بغاية السرية والتكتم كمعظم الإجتماعات الوزارية الأخرى التي يعقدها هتلر وغيرها من المؤتمرات مع أعوانه السياسيين والعسكريين في عهد الرايخ الثالث، لايطلع الرأي العام على وقائعها ولا نتائجها. فظلت خفية حتى كشف النقاب عن الوثائق الألمانية المضبوطة لأول مرة أثناء محاكمات نورمبرگ. كثير جداً من هذه المناقشات السرية جداً والقرارات التي نجمت عنها- كلها كانت تعتبر من أسرار الدولة- ستثبت هنا من الآن فصاعداً في هذا الكتاب. مما سيلجئنا ان نذيّله بكثير من الحواشي وستُذكر المصادر في مضانها. لم يقم تاريخ لشعب في فترة محددة من الزمن فيه هذا القدر من الوثائق كما وجد في تاريخ الرايخ الثالث. فترك المؤلف إثبات المراجع يضعف كثيراً من أيّ قيمةٍ قد تكون لكتابه بوصفه مدوّنة تاريخية وثائقية.

في الوزارة غير (٢٤٧) مقعداً من اصل (٥٨٣) مقعداً ولهذا إفتقرا الى الأغلبية. وللوصول اليها كان بحاجة الى ضم كتلة (الحزب الوسط) البرلمانية البالغ عدد نوابها (٧٠) ففي أولى ساعات حياة الحكومة الجديدة أرسل هتلر (گورنگ) لمفاوضة زعماء الوسط وها هو الآن يقف ليبلغ الحكومة أن (الوسط) يطلب "إمتيازات معينة" ثم اقترح گورنگ حل الرايخشتاغ وإجراء إنتخابات جديدة ووافق هتلر، إلا أن (هوگنبرگ) الخشبي الدماغ رغم كل نجاحه في عالم الأعمال والتجارة عارض في دخول (الوسط) الحكومة وعاد يعارض في إجراء إنتخابات جديدة لعلمه أن النازيين بكل مصادر القوة في الدولة خلفهم قد يفوزون وحدهم بالأغلبية المطلقة وبهذا يكونون قادرين على الإستغناء عن خدماته وخدمات أصدقائه المحافظين. واقترح بدل ذلك القضاء على الحزب الشيوعي، والتخلص من نوابه المائة. وبذلك سيحقق النازيون والقوميون الأغلبية المنشودة. لكن هتلر لم يشأ ان يذهب الى هذا المدى وقتذاك، وأخيراً استقر الرأي أن يقوم المستشار نفسه بمفاوضة زعماء الوسط في صباح اليوم التالي، فإن لم تأت المفاوضة بثمرة، تقوم الحكومة بإجراء إنتخابات جديدة.

ولم يكن أسهل على هتلر من جعلها غير مثمرة. طلب من زعيم الحزب "المونسنيور كاس Kaas" أن يضع- كأسسٍ للبحث مطاليبه في قائمة أسئلةٍ إضافة الى مطلبه تعهداً من هتلر بأن يحكم بموجب الدستور. لكن هتلر خادع كلا من (كاس) وأعضاء وزارته بان أبلغ الأخيرين أن (الوسط) قدم مطاليب لايمكن تحقيقها ولا أمل ثم للإتفاق. واقترح أن يطلب من الرئيس حل الرايخشتاغ وإجراء إنتخابات عامة جديدة. وسقط پاپن وهوگنبرگ في الفخ لكن وبعد تأكيد شديد من زعيم النازي ببقاء الوزارة على حالها مهما كانت نتيجة الإنتخابات الجديدة وافقا على المضي معه في الشوط. وحدد لها الخامس من آذار.

ولأول مرة- في آخر إنتخاب حُرّ نسبياً جرى في ألمانيا- أتيح للنازيين إستخدام كل قوى الحكومة الهائلة لنيل الأصوات. واستطار گوبلز فرحاً وكتب في يومية ٣ شباط "الآن سيكون القتال سهلاً علينا اذ صار بإمكاننا إستخدام كل قوى الدولة. الراديو والصحافة رهن اشارتنا سنعرض عملاً فريداً من أعمال الدعاية غير مسبوق. وفي هذه المرة لايوجد نضوب في معين المال طبعاً"[٢].

وطلب من الصناعيين أن يفتحوا خزائنهم وكانوا سعداء بالحكومة الجديدة التي وعدت بكبح جماح العمال النقابين وترك الإدارة تدبر أعمالها كما ترغب دون تدخلٍ ما. فوافقوا على الدفع في إجتماع العشرين من شباط الذي تم في قصر الرئيس گورنگ. حيث قام دكتور (شاخت) بدور المضيف وبسط هتلر وگورنگ برنامجهما أمام أكثر من عشرين من أكبر أقطاب الصناعة والمال الألمان ومنهم كروپ (ڤون بوهلن) الذي انقلب نازياً متحمساً في عشية وضحاها و(بوش) و(شنتزلر) عن مؤسسة (أ. ج. فاربن) و(ڤويگلر) رئيس إتحاد صناعات الفولاذ.

٢- گوبلز: كايزرهوف ص٢٥٦.

إن وقائع هذا الإجتماع جاءتنا سليمة بالنص: "بدأ هتلر بخطبة طويلة ثرد فيها ثريداً طيباً للصناعيين وقال لايمكن المحافظة على المشروع الخاص في النظام الديمقراطي، وليس بالإمكان فهمه فهماً جيداً إلاّ في حالة واحدة، عندما يكوّن الشعب رأياً صائباً في السلطة وفي الشخصية... كل ما في هذه الحياة من طيبات واشياء نملكها انما ندين بها الى كفاح الصفوة المختارة... وعلينا ألاّ ننسى ان ثمرات الثقافة كلها لاتقدم الا عن طريق القبضة الفولاذية على كل حال". ثم وعد رجال الصناعة "بالقضاء" على الماركسيين، وبناء جيش الرايخ. وكانت هذه العبارة بلسماً شافياً للصناعيين أمثال (كروپ) ورئيس إتحاد صناعة الفولاذ ومؤسسة فاربن لأنهم سيجنون أرباحاً طائلة من إعادة التسلح. وزاد يقول "نحن نواجه الآن آخر إنتخابات عامة!" ثم وعد مستمعيه بأنه "لن يكون ثم تراجع مهما حدث" وإن لم يفز في الإنتخابات فسيحكم بوسائل أخرى وبأسلحة أخرى"، وراح گورنگ يتكلم كثيراً عن النقطة الأدعى الى الإهتمام مشدداً على ضرورة بذل "التضحيات المالية التي يسهل جداً ان تتحملها الصناعة لو علمت ان إنتخابات ٥ آذار ستكون على وجه التأكيد آخر إنتخابات للسنوات العشر التالية وربما للسنوات المائة التالية".

ثم شرح كل ذلك للصناعيين. فاهتزت اعطافهم سعادة وطرباً الى وعده بوضع حد نهائي للإنتخابات الشيطانية وللديمقراطية ولنزع السلاح. ولم يجد (گروپ) نفسه (وهو ملك السلاح الذي كان قد ألحّ على هندنبرگ في ٢٩ كانون الثاني، بألاّ يعين هتلر مستشاراً) إلاّ ان هبّ على قدميه ليعبر عن "امتنان رجال الأعمال من المستشار فانه أعطانا صورة في غاية الوضوح".

ثم قام الدكتور شاخت يطوف على المتبرعين بقبعته مستجدياً الاعانات: "فجمعت في تلك الجلسة ثلاثة ملايين مارك" على حد ما ذكره في محاكمات نورمبرگ(٣).

وفي ١٩٣٣، بعد يومين من إسناد منصب المستشارية لهتلر كتب گوبلز في يومياته: "في إحدى المؤتمرات مع الزعيم وضعنا خطة حزبنا لمجابهة الخطر الأحمر، سنمتنع في الوقت الحاضر من إتخاذ تدابير قمعية. وفي المبدأ يجب أن تنفجر محاولة ثورة للشيوعيين وأن تتصاعد نارها. وفي اللحظة المناسبة سنضرب ضربتنا. لم يكن هناك أي علامة تشير الى ثورة شيوعية أو إشتراكية تتطاير شواظها حين كانت معركة الإنتخابات تمضي في سبيلها، رغم تحرشات سلطات النازي المتزايدة. وما جاء شباط حتى كانت حكومة هتلر قد منعت كل إجتماعات الشيوعيين واغلقت الصحافة الشيوعية. ومنعت تظاهرات الديمقراطيين الإشتراكيين أو كُسرت أو فُرقت بقوة من أوباش الـ(إس. أي). وكثرت أوامر إيقاف جرائدهم الكبرى عن الصدور. ولم يقف حزب الوسط الكاثوليكي بنجوة عن إرهاب النازي. وضُرب (شتيگرڤالد Stegerwald) زعيم إتحاد نقابات العمال الكاثوليك ضرباً مبرحاً بأيدي

٣- انظر شهادة جورج ڤون شنتزلر [مؤامرة النازيين... ج٧ ص٥٠١، الوثائق EC ٤٣٩] كذلك خطبتي هتلر وگورنگ [مؤامرة النازيين... ج٦ ص١٠٨٠، الوثائق D ٢٠٣] وشهادة شاخت [المرجع نفسه ج٦ ص٤٦٥] وشهادة ڤونك [المرجع نفسه ج٥ ص٤٩٥]

ذوي القمصان الرمادية عندما حاول إلقاء خطابٍ في أحد الإجتماعات واضطر المستشار السابق (برونِنگ) الى طلب حماية البوليس في إجتماع آخر بعد ان جرح جنود الـ(إس. أي) واحداً من اتباعه وسُجل ما مجموعه واحد وخمسون حادثة قتل من المعسكر المعادي للنازيين وأدعى النازيون أن ثمانية عشر منهم قتلوا.

واسترعى الانتباه الآن منصب (گورنگ) كوزير لداخلية پروسيا. فقد تجاهل يد (پاپن) التي تكبحه بوصفه رئيساً لوزراء پروسيا، والمفترض أن يكون فوقه. وعزل مئات من الموظفين الجمهوريين وأحل محلهم نازيين معظمهم ضباط من (الإس. أي) والـ(إس. إس) وأمر الشرطة أن يجتنبوا "مهما بلغ الثمن أيّ اشتباك مع الـ(إس. إس) والـ(إس. أي) وذوي الخوذ الفولاذية. ومن الناحية الثانية ألا تداخلهم أي رحمة بأولئك الذين "يعادون الدولة" وشدد على الشرطة" بإستعمال سلاحهم الناري. وانذر الذين لايفعلون ذلك بالعقاب الصارم. وكان هذا دعوة صريحة للرمي بالرصاص كل من يعارض هتلر توجه بها (گورنگ) الى شرطة دولة پروسيا التي تسيطر على ثلثي رقعة ألمانيا ولأجل ان يتأكد أن العمل ينفذ بالقسوة المتطلبة أنشأ في ٢٢ شباط قوة إحتياطية للشرطة، قوامها خمسون ألفاً. أربعون ألفاً منها أُختيرت من بين أفراد الـ(إس. أي) والـ(إس. إس) وعشرة آلاف من ذوي الخوذ الفولاذية وهكذا كنست الشرطة الپروسية كنساً بمجيء عيّاري النازيين وأوباشهم. إنه لألماني متهور ذلك الذي يستنجد بهذا الصنف من "الشرطة" للحماية من الإرهابيين النازيين.

ومع كل هذا الإرهاب فان "الثورة الشيوعية" التي كان گوبلز وهتلر وگورنگ يتلهفون لها ويتربصون بها الدوائر لم "تنفجر الى لهيب متطاير" فإن لم يفلحوا في إستفزازها وتفجيرها أفلا يجمل بهم أن يخترعوها إختراعاً؟

في الرابع والعشرين من شباط شنت شرطة گورنگ حملة على "دار كارل ليبنخت" وهو مقر قيادة الحزب الشيوعي في برلين. كان المقر قد أُخلي من زعماء الحزب قبل بضعة أسابيع حيث اختفى عدد منهم أو تسللوا بهدوء عبر الحدود الى روسيا. لكن أكداساً من ادبيات الحزب ونشراته كانت قد تركت في اقبية المقرّ وهذا كل ما أراده (گورنگ). فقد اتخذه حجة وأكذوبة وأعلن في بيان رسمي إن المستمسكات التي ضبطت اثبتت أن الشيوعيين كانوا يتهيأون لإشعال ثورة، أما ردّ فعل ذلك في الرأي العام وحتى في بعض أوساط المحافظين في الحكومة فهو الشك في صحة الأمر. ولذلك كان من الواجب أن يُختَرَع شيء أكثر إثارة للإهتمام لترهيب الشعب واخافته قبل المباشرة بالإقتراع في ٥ آذار.

-٢-

حرق الرايخشتاغ

في مساء ٢٧ شباط كان أربعة من أقوى الشخصيات في ألمانيا قد اجتمعوا على مائدتي عشاء في برلين. ففي نادي السادة (هرنكلوب) (بشارع ڤوس Vosstrasse) كان نائب المستشار پاپن قد دعا الرئيس هندنبرگ. وفي منزل (گوبلز) كان المستشار هتلر قد وصل ليتناول عشاءً عائلياً. ويصف گوبلز جلستهما بأنها للراحة والاسترخاء يتخللها بعض موسيقى من الحاكي مع حكايات... وفجأة... نداء تليفوني من الدكتور هانفشتانگل: الرايخشتاغ يحترق! كنت متأكداً أنه يقصّ رواية للدعابة والنكتة، لذلك لم أنوه بها أمام الفوهرر"[٤].

لكن المتعشّيَين في (الهررنكلوب) كانا على مقربة من الرايخشتاغ. "[كتب پاپن فيما بعد] وفجأة إنتبهنا الى لهيب أحمر يضيء من النافذة وسمعنا صيحات من الشارع. وأسرع إليّ أحد الخدم وهمس: الرايخشتاغ يحترق! فرددت العبارة للرئيس. فنهض وكان بوسعنا أن نشاهد من النافذة، قبة الرايخشتاغ تبدو وكأنها منارةً بأنوار كاشفة وكان يشب بين الفينة والفينة ألسنة من اللهيب وعاصفة من الدخان تحجب المنظر[٥]".

وأوصل پاپن نائب المستشار رئيس جمهوريته الشيخ الى داره في سيارته الخاصة وبعدها أسرع الى البناية المحترقة. وفي تلك الأثناء عاد گوبلز -كما قال- يقلب "رواية" (بوتزي هانفشتانگل) في رأسه وقام بعدد من الإتصالات التلفونية فعلم أن الرايخشتاغ يحترق. وما مرت دقائق إلا وكان هو والفوهرر ينهبان بسيارتهما "شارع شارلوتنبركر شاوسي Charlottenburger Chaussee بسرعة ستين ميلاً في الساعة الى محلّ الجريمة".

وأعلنا فور وصولهما الى النار أنها جريمة، وجريمة شيوعية وكان (گورنگ) قد سبقهما وهو يكاد يفقد شعوره إهتياجاً، يصيح والعرق ينضح منه وهو يلهث- انها "جريمة شيوعية ضد الحكومة الجديدة"- على حد ما روى پاپن- وإلتفت الى رئيس الگشتاپو Gestapo الجديد رودلف ديلس Rudolf Diels زاعقاً "تلك هي بداية الثورة الشيوعية! يجب علينا ألاّ ننتظر لحظة واحدة ولانبدي رحمة. يجب ان يُرمى بالرصاص كل موظف شيوعي حالما يقبض عليه. كل نائب شيوعي يجب أن يشنق في هذه الليلة بالذات[٦]".

إن الحقيقة كُلها عن حرق الرايخشتاغ قد لاتتضح. فكل من يعرفها تقريباً هو الآن في عداد الموتى

٤- گوبلز (كايزرهوف) الص ٢٦٩-٢٧٠.
٥- پاپن المرجع السالف ص ٢٦٨.
٦- رودلف ديلس "لوسيفر ضد بورتاس Lucifer ante Portas" ص١٩٤.

ومعظمهم ذبحهم هتلر في الأشهر التالية. ولم يزح الستار عن جوانب الغموض في الحادثة بشكل تامٍ حتى في محاكمات نورمبرگ وان توفرت أدلة كافية تثبت بما لايقبل الشك أو الإبهام أن النازيين هم الذين وضعوا خطة الحريق العمد ونفذوها في سبيل أغراضهم السياسية.

يوجد في قصر (گورنگ) لرئاسة الرايخشتاغ ممر تحت الأرض بُني لنقل التدفئة المركزية الى الرايخشتاغ ويصل ما بين البنايتين. ومن هذا النفق قاد كارل أرنست (خادم اوتيل سابق أصبح قائداً في "إس. أي" برلين) ثلة من جنود العاصفة في ليلة ٢٧ شباط الى الرايخشتاغ. وألقوا بكميات من الغازولين (البنزين) وبمواد كيميائية ذات قابلية للاحتراق الذاتي. ثم عادوا بسرعة عن طريق النفق الى القصر من حيث أتوا. وفي الوقت نفسه وجد (مارينوس ڤان درلوب Marinus Van der Lubbe) وهو شيوعيّ هولنديّ نصف معتوه، ذو ميل الى إضرام النار، سبيله الى البناية الضخمة المظلمة غير المألوفة عنده. وأشعل ناراً صغيرة لنفسه. كان هذا المعتوه الضعيف العقل هبة السماء للنازيين. فقد ألقى عليه الـ(إس. أي) القبض قبل بضعة أيام، بعد أن سمعوا أنه كان يتفاخر في أحد البارات بأنه حاول إشعال النار في عدد من البنايات العامة وانه سيحاول معالجة الرايخشتاغ في المرة القادمة.

إن صدفة عثور النازيين على شيوعي مصاب بلوثة جنون الإحراق العمدي ويريد أن يُقدم على ما يريدون الإقدام عليه بالضبط. انما تبدو صدفة يأبى أن يصدقها العقل. إلاّ أن الدولة اثبتت صحتها فعلاً. لقد نشأت فكرة الحريق بالتأكيد في رأسي گوبلز وگورنگ. وشهد (هانس گزيفيوس Hans Gisevius) وهو موظف في وزارة الداخلية الپروسية، في محاكمات نورمبرگ "أن گوبلز كان أول من فكر في إحراق الرايخشتاغ" وأضاف (رودلف ديلس) رئيس الگشتاپو في شهادة له "أن گورنگ كان يعرف بالضبط كيف سيتم إشعال النار" وقد امره "أن يهيء قبل الحريق قائمة بأسماء الأشخاص الذين سيتم إعتقالهم حالاً بعد شبوب النار". أما الجنرال (فرانز هالدر Franz Halder) رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية خلال الفترة الأولى من الحرب العالمية الثانية. فقد تذكر في محاكمات نورمبرگ كيف أن گورنگ فخر بهذه الفعلة في إحدى المناسبات، قال: "في حفلة غداء بمناسبة عيد ميلاد الفوهرر ١٩٤٢، دار الحديث عن موضوع بناية الرايخشتاغ وقيمتها الفنية. وسمعت بأذنيّ هاتين مقاطعة گورنگ للحديث وصيحته: "الرجل الوحيد الذي يعرف الرايخشتاغ حق المعرفة، هو أنا. لأني أضرمت فيه النار!" قال هذا وضرب فخذه براحة يده"[٧].

ويبدو جلياً أن (فان در لوب) كان أداةً بيد النازيين. فقد استغلوا خباله وشجعوه على إضرام نار في الرايخشتاغ. لكن الحريق الأكبر كان المهمة التي اوكلت الى جنود العاصفة، دون معرفته طبعاً. والواقع انه ثبت في المحاكمة التي تلت في لايبزك أن الهولندي المجنون لم يكن يملك الوسائل لإضرام نارٍ عظيمة في بناية ضخمة، بمثل هذه السرعة. فبعد دقيقتين ونصف دقيقة من دخوله بالضبط كانت

٧- ظل گورنگ في أثناء استجوابه ومحاكمته بنورمبرگ ينكر أن يكون له أيّ ضلع في حرق الرايخشتاغ.

القاعة الوسطى الكبرى قد شبت بها نارٌ عظيمة آكلة ولم يكن لديه وسيلة ايقاد غير قميصه بينما شهد الخبراء في المحاكمة أن النيران الرئيسة أضرمت بعامل توفر كميات كبيرة من الغازولين والمواد الكيميائية السريعة الالتهاب، وواضح أن مقداراً من المحروقات كهذا لايمكن أن ينقله شخصٌ واحد الى البناية، وليس في طاقته أبداً أن يشعل النار في هذا العدد الكبير من المواضع المتفرقة والمتباعدة خلال هذه الفترة القصيرة من الوقت.

أعتقل (ڤان در لوب) في محل الحادث، واراد گورنگ أن يشنقه حالاً- كما افاد في المحاكمة- وفي اليوم التالي. قام (ارنست تورغلر) زعيم الكتلة البرلمانية الشيوعية بتسليم نفسه للشرطة عندما سمع (گورنگ) يتهمه بالمشاركة في الجريمة. وبعدها ببضعة أيام ألقى رجال الشرطة القبض على جيورجي ديمتروف Georgi Dimitroff وهو الزعيم الشيوعي البلغاري الذي أصبح فيما بعد رئيساً لحكومة بلغاريا. وشيوعيين بلغاريَيْن آخرَيْن هما پوپوف Popov وتانيف Tanev. وانقلبت محاكمتهم التي جرت أمام المحكمة الكبرى في لايبزك الى مهزلةٍ وفشلٍ ذريع للنازي وبخاصة (لگورنگ) فقد استطاع ديمتروف الذي إستغنى عن المحامي وكان يدافع عن نفسه أن يثير (گورنگ) ويستفزه بكل سهولة ويظهره بمظهر الغبي ويجعل منه أضحوكة في سلسلة من الاستجوابات القضائية الدقيقة وفي إحدى نقاط المرافعة مدوّنة في المحضر القضائي: صرخ گورنگ بالبلغاري:

-أخرج من هنا ايها الوغد!

القاضي [الى ضابط الشرطة] خذه الى الخارج.

ديمتروف: [وهو يقاد الى الخارج بخفارة ضابط الشرطة] أأنت خائف من أسئلتي يا جناب الوزير الرئيس؟

گورنگ: صبراً حتى تخرج من قاعة المحكمة وسترى ايها الوغد!

وصدر الحكم ببراءة تورغلر والبلغار الثلاثة إلاّ ان الزعيم الشيوعي الألماني وضع حالاً تحت "الحجز التحفظي" وبقي معتقلاً حتى قضى نحبه أثناء الحرب العالمية الثانية ووجد (ڤان در لوب) مذنباً واجتث رأسه(٨).

والقت وقائع المحاكمة رغم خضوع المحكمة للتأثير النازي، قدراً عظيماً من الشك على گوبلز

٨- بخصوص المصادر المتعلقة بمسؤولية حرق الرايخشتاغ انظر: افادة هالدر الموثقة باليمين [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٦ ص٦٣٥- وثائق نورمبرگ ٣٧٤٠ PS] نسخة طبق الأصل من افادة گيزيفيوس في ٢٥ نيسان ١٩٤٦ [محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج١٢ الص ٢٥٢-٢٥٣، شهادة (ديهل) انكار (گورنگ) [محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج٩ الص ٤٣٢-٤٣٦: ومؤامرة النازيين وعداونهم ج٦ الص ٢٩٨-٢٩٩ (وثايق نورمبرگ- ٣٥٩٣ PS)] ويلي فزايشاور Willy Feisshauer: [بزوغ وأفول شمس هرمان گورنگ الص ٨٨-٩٥] و: دوغلاس ريد "حرق الرايخشتاغ"، جون غونتر "داخل أوروپا" [حضر غونتر المحاكمة في لايبزك وهناك تصريحات وشهادات عديدة لأولئك الذين ادعوا مشاركتهم في حرق الرايخشتاغ أو كان لهم علم حقيقي به. ولكن لم يثبت زعم واحد منهم على حد معلوماتي ومنها محضر لإرنست اوبرفوهرن) النائب القومي وكارل ارنست قائد العاصفة في برلين وكلا المحضرين مما يعوّل عليه وقد قتل هذان بعد الحرق بأشهر قلائل على أيدي النازيين.

والنازيين ولكن الفضيحة جاءت متأخرة جداً بحيث لم تخلف أثراً عملياً لأن هتلر لم يضع وقتاً في إستغلال حرق الرايخشتاغ الى أقصى حدّ.

في اليوم الذي تلا الحريق الموافق ٢٨ شباط تغلب هتلر على الرئيس هندنبرگ واقنعه بتوقيع مرسوم "لأجل حماية الشعب والدولة" معطلاً المواد السبع في الدستور التي تحمي الحريات الفردية والمدنية ووصف المرسوم بأنه "إجراءات دفاعٍ وقائية ضد أعمال العنف التي يرتكبها الشيوعيون ومن شأنها تهديد الدولة بالخطر" وجاء فيه: "إن القيود على الحرية الفردية، وعلى حق التعبير عن الرأي بحرية وبضمنه حرية الصحافة وعلى حقوق الإجتماع، والانتماء الى جمعيات، والرقابة على وسائل المخاطبات تلفونية وبرقية وبريدية وخرق حرمة سريتها، وأوامر التفتيش التي يزوّد بها متحرّو المنازل وبيوت السكن، والأوامر الخاصة بمصادرة الملكية، فضلاً عن الأوامر بتحديد التصرف بها، كل ما تقدم بيانه مسموح به ايضاً خروجاً عن حدود القانون العام حسبما يتطلبه الحال".

وزاد المرسوم على هذا بتخويله حكومة الرايخ سلطة مطلقة كاملة داخل الدول الفيدرالية عندما تقضي الضرورات بذلك. وايقاع عقوبة الموت في عددٍ من الجرائم وبضمنها "تهديد السلامة العامة الخطير" من قبل أشخاص مسلحين[٩].

وهكذا تمكن هتلر بضربة واحدة من خنق معارضيه وإعتقالهم كما يحلو له بطريقة قانونية. بل جعل من اكذوبة الخطر الشيوعي التي لفقها "شعاراً رسمياً" كيما يضع الملايين من أفراد الطبقة المتوسطة والفلاحين في حالة فزع دائمٍ من إستيلاء الشيوعيين على الحكم إن لم يدلوا بأصواتهم للنازيين في الإنتخابات التي لم يبق لموعدها غير أسبوع. وتم إلقاء القبض على حوالي أربعة آلاف موظفٍ شيوعي وعدد كبيرٍ من زعماء الديمقراطيين الإشتراكيين والأحرار ومن ضمنهم نواب الرايخشتاغ الذين ينصّ القانون على حصانتهم ومنع إعتقالهم. كانت هذه أول تجربة للإرهاب النازي المدعوم من الحكومة يعانيها الشعب الألماني. وراحت لوريات مملوءة بجنود العاصفة تزمجر في الشوارع في كل أنحاء ألمانيا فتقتحم البيوت عنوةً وتجمع الضحايا وتنقلهم زمراً زمراً الى ثكنات الـ(إس. أي) حيث تجرى عليهم عمليات الضرب المبرح وأفانين التعذيب. ومنعت الصحف الشيوعية من الصدور. وحرمت إجتماعاتهم السياسية بصورة باتة. وعُطلت عدة صحف حرة، وألغيت كل صحف الديمقراطيين الإشتراكيين. وحظرت إجتماعات الأحزاب الديمقراطية أو فضت بالقوة. ولم يسمح بممارسة معركة الإنتخابات إلا للنازيين ولحلفائهم القوميين فقد تركوا دونما تعرض.

بكل موارد حكومتي الرايخ وپروسيا تحت تصرف النازيين وبكل المبالغ الطائلة التي صبها رجال الأعمال الكبار في خزائنهم. شنوا حملة دعاية إنتخابية لم تشهد لها ألمانيا مثيلاً من قبل. وتجاوبت أرجاء ألمانيا لأول مرة أصوات هتلر وگورنگ وگوبلز من الراديو الحكومي ووصلت كل ركن من البلاد ورفعت في الشوارع بيارق الصليب المعقوف مجاوبة لوقع أقدام جنود العاصفة. ونظمت إستعراضات

٩- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٣ الص ٩٦٨-٩٧٠ [الوثائق ١٣٩٠ PS].

حزبية ضخمة بالمشاعل وإجتماعات جماهيرية وهدرت مكبرات الصوت في الساحات العامة. وغطيت لوحات عرض الشوارع بلافتات نازية جذابة زاهية الألوان واوقدت النيران ليلاً على قمم الجبال. واستميل الناخبون بوعود عن الفردوس الألماني المرتقب، وهددوا بإرهاب ذوي القمصان الرمادية في الشوارع. وأفزعوا "برؤى" مخيفة عن "ثورة" الشيوعيين. وفي اليوم الذي عقب حريق الرايخشتاغ اصدرت الحكومة البروسية بياناً طويلاً معلنة فيه عثورها على "وثائق" شيوعية تثبت: "ان بنايات الحكومة، والمتاحف، والقصور والمصانع الكبرى سيتم إشعال النار فيها... وان النساء والأطفال سيوضعون في مقدمة الزمر الإرهابية... إن حرق الرايخشتاغ كان مقدمة واشارة بدء لمذبحة دموية وحرب اهلية... ولقد أصبح مؤكداً للسلطة أن هذا اليوم كان سيشهد في كل ألمانيا أعمالاً إرهابية ضد الأفراد، ضد الملكية الخاصة، ضدّ (الزرع والضرع)، ضد حياة السكان الآمنين وكذلك بداية حرب أهلية عامة لاتبقي ولاتذر".

ووعدت الحكومة بنشر نصوص "المستمسكات والوثائق" المثبتة للمؤامرة الشيوعية لكنها لم تفعل قط. وعلى كل فواقع شهادة الحكومة البروسية وحدها على صحتها أدخلتها في روع عدد كبير من الألمان كحقيقة دون البحث عن أصولها وأدلتها وربما صدّق المترددون أيضاً تحذيرات گورنگ وتهديداته. ففي فرانكفورت (٣ آذار) قبيل الإنتخابات صاح بملء فيه: "ابناء الوطن الألماني... لن يشلّ إجراءاتي أيّ تفكير قضائي... فلست اهتم بالعدالة، ورسالتي هي أن أدمر وأستأصل لا أكثر!... وبطبيعة الحال اني ساستخدم قوة الدولة والشرطة بأقصى ما يمكن فيا أعزائي الشيوعيين لاتذهب بكم الأوهام مذاهب شتى، فهناك حرب حتى الموت فيها ستعصر قبضة يدي اعناقكم، سأكون قائداً لهؤلاء... هنا ذوي القمصان الرمادية[١٠]".

ولم يسمع صوت المستشار الأسبق براوننگ تقريباً، لقد تكلم هو ايضاً في ذلك اليوم معلناً أنّ حزبه الوسط سيقاوم كل انتهاك لحرمة الدستور ومطالباً بإجراء تحقيق عن حريق الرايخشتاغ الذي تحوم حوله الريب والظنون. مناشداً الرئيس هندنبرگ "حماية المضطَهَدين من المضطِهدين". وعبثاً كان استنجاده! فقد بقي الرئيس الشيخ سادراً في صمته. لقد حان الوقت ليقول الشعب كلمته وهو في محنته:

في ٥ آذار ١٩٣٣ يوم آخر إنتخابات ديمقراطية خلال حياة هتلر تكلم الشعب بأصوات إقتراعه. بالرغم من كل الإرهاب والتخويف عزّت الأغلبية على هتلر. لكن حاز النازيون أصواتاً أكثر من غيرهم فبلغت (١٧,٢٧٧,١٨٠) بزيادة خمسة ملايين ونصف مليون صوت تقريباً إلا انها لم تزد عن ٤٤٪ من مجموع الأصوات. وعصيت الأغلبية الواضحة على هتلر. ولم يمنع كل الإضطهاد وأعمال القمع والإرهاب حزب الوسط من زيادة في أصواته. فقد ظفر بـ(٤,٤٢٤,٩٠٠) صوت بعد ان كانت أصواته (٤,٢٣٠,٦٠٠) وحاز هو وحليفه الحزب الكاثوليكي الباڤاري الشعبي على ما بلغ

١٠- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٤ ص٤٩٦ [الوثائق PS ٢٩٦٢].

خمسة ملايين ونصف مليون صوت. حتى الحزب الديمقراطي الإشتراكي فقد ظلّ محتفظاً بمركزه كثاني أكبر الأحزاب بحيازته (٧,١٨١,٦٢٩) صوتاً. بنقص قدره سبعون ألفاً فقط. وفقد الحزب الشيوعي مليون صوت، إلا أنه فاز بـ(٤,٨٤٨,٠٥٨) صوتاً رغم كل شيء. أما القوميون بقيادة پاپن وهوگنبرگ فقد خابوا خيبة مرة لأنهم كانوا يتوقعون أن يضيفوا أصواتاً كثيرة فحصلوا على ما مجموعه (٣,١٣٦,٧٦٠) المعادلة لـ٨٪ من مجموع أصوات الإقتراع الكلي أيّ باضافة (٢٠٠) ألف صوت فقط.

مازالت مقاعد القوميين الاثنان والخمسون بالإضافة الى (٢٨٨) مقعداً نازياً تمنح الحكومة أغلبية (١٦) مقعداً في الرايخشتاغ. وربما كان هذا كافياً لتمشية الأعمال الروتينية اليومية في الحكومة إلاّ انها بعيدة جداً عن أغلبية الثلثين التي يحتاجها هتلر لتطبيق خطة جديدة جريئة، يحقق بها دكتاتوريته بموافقة البرلمان.

-٣-

"Gleichschaltung!"

تنسيق الرايخ (كلايخشالتونغ)

كانت الخطة بسيطة قدر ما هي مخادعة. وتمتاز بالإستئثار بالسلطة المطلقة بوسيلة شرعية. يطلب من الرايخشتاغ سن "قانون التمكين" وبموجبه يودع الى حكومة هتلر صلاحية تشريعية كاملة لأربع سنين. وبعبارة أوضح، يطلب من البرلمان الألماني أن ينزل عن سلطاته الدستورية لهتلر ويذهب في اجازة طويلة. ولكن، لما كان ذلك يستلزم تعديلاً في الدستور فالحاجة لاجرائه تتطلب تأمين أغلبية الثلثين. كان مدار إجتماع الوزارة في ٥ آذار ١٩٣٣ هو البحث في كيفية الحصول على تلك الأغلبية وقد عُرضت وقائع تلك الجلسة في نورمبرگ[١١].

كان جزء من المشكلة سيتم حله "بغياب!" واحدٍ وثمانين نائباً شيوعياً من مجلس الرايخشتاغ وأكد گورنگ أن الجزء الباقي منها يسهل حله "برفض إدخال عدد قليل من الديمقراطيين الإشتراكيين الى القاعة". وكان هتلر على ثقة تامة. فان مرسوم ٢٨ شباط الذي أغرى هندنبرگ بتوقيعه بعد يوم واحد من حرق الرايخشتاغ يمكّنه من إلقاء القبض على أيّ عددٍ يشاء من نواب المعارضة، حتى يحقق لنفسه أغلبية الثلثين. وكان ثم سؤال حول (الوسط الكاثوليكي) الذي ما برح يطلب ضمانات، إلاّ أن المستشار كان واثقاً أن هذا الحزب سينحاز الى جانبه. وطلب هوگنبرگ الذي ليست لديه رغبة في

١١- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٥ ص٦٦٩ الوثائق ١٨٥٦ PS].

وضع كل السلطة في يد هتلر- أن يخوّل الرئيس حق المساهمة في إعداد القوانين التي تستنها الحكومة بموجب قانون التمكين. فأجاب الدكتور مايسنر سكرتير الدولة لمستشارية الرآسة "بأن تعاون رئيس جمهورية الرايخ ليس ضرورياً" وكان هذا قد ربط مستقبله بمستقبل النازيين. وأدرك بسرعة أن هتلر لايرغب أن يربط بالرئيس العنيد كما كان المستشارون الجمهوريون من قبله. على ان هتلر كان يرغب في هذه المرحلة أن يبهر الفيلد مارشال الشيخ بمظهرٍ من مظاهر الأبهة والعظمة هو والجيش والقوميون المحافظون أيضاً، وبعمله هذا يكون قد ربط نظامه الثوريّ العنيف باسم هندنبرگ الجليل، وبكل المجد العسكري البروسي الغابر. ولتحقيق ذلك رسم هو وگوبلز الذي تولى وزارة الدعاية في ١٣ آذار، خطة في غاية البراعة. كان هتلر سيفتتح الرايخشتاغ الجديد الذي سيحطمه بعد فترة قليلة، في بيعة الحصن Garrison Church بپوتسدام، وهي مزار التراث البروسي العظيم، التي تثير في نفوس كثير من الألمان ذكريات التلاد الإمبراطوري وعظمته الغابرة ففيها تثوي عظام (فردريك الأكبر) وفيها قدّم لملوك هوهنزلرن فروض الولاء والعبادة. واليها جاء هندنبرگ حاجاً لأول مرة في ١٨٦٦ عندما عاد من الحرب النمساوية البروسية تلك الحرب التي وحّدت ألمانيا لأول مرة. وهو ضابط شاب في الحرس الإمبراطوري.

واختير يوم ٢١ آذار للإفتتاح الإحتفالي لأول مجلس رايخشتاغ في عهد الرايخ الثالث وكان إختياره مقصوداً ايضاً فهو يصادف ذكرى إفتتاح بسمارك أول مجلس رايخشتاغ في عهد الرايخ الثاني ١٨٧١ وفيم كان الفيلد مارشالات والجنرالات وامراء البحر الكبار السن من أيام عهد الإمبراطورية يتقاطرون ببزاتهم الحربية الباهرة الى بيعة (الكاريسون) وعلى رأسهم ولي العهد السابق والفيلد مارشال ڤون ماكنزن Von Mackensen في بزات تخطف الأبصار بخوذاتهم المعروفة بـ(رؤوس الموت) لكتائب خيالة (الهوسارHussar) كانت ظلال (فردريك الأكبر) و(المستشار الحديدي) تحوم في أجواء المجلس وكانت غلبة العاطفة على (هندنبرگ) ظاهرة للعيان. ولاحظ گوبلز في مرحلة من مراحل الحفلة أن عيني الفيلد مارشال الشيخ قد إخضلّتا بالدموع كما دوّن ذلك في يومياته. كان گوبلز يشرف على إخراج التمثيلية بنفسه ويدير شؤون إذاعتها على الشعب الألماني. وكان هتلر بادي الضيق ببذلته الرسمية ذات السترة الضيقة وهو جالس الى جنب الرئيس الذي إرتدى بزة قتالٍ (ميدان) رمادية متقلداً الوشاح الأكبر للنسر الأسود ويحمل بيد خوذة رمحية، ويمسك بالأخرى عصا المارشالية. نهض وسار ببطء فوق الصحن ووقف وحيّا مجلس القيصر ڤلهلم الثاني الخالي في المقصورة الإمبراطورية وقرأ أمام الهيكل خطبة قصيرة مانحاً بركته لحكومة هتلر الجديدة: "ألا فلتنفذ الروح القديمة الى هذا المعبد الشهير في نفوس جيل هذا اليوم، ألا فلتحررنا من الأنانية ومن التناحر الحزبي. وتجمعنا سوية في شعور وطني مدركٍ لإعلاء شأن ألمانيا حُرة فخورة موحدة بنفسها".

ورسم خطاب هتلر الجوابي بمكرٍ لإجتذاب مشاعر العطف واكتساب ثقة النظام القديم الذي مثُل في الإحتفال بأزهى وأروع ما يمكن. "لم يكن يريد الحرب أحد، لا القيصر ولا الحكومة ولا الشعب. ان

إنهيار الوطن هو الذي أضطر عنصراً بشرياً مستضعفاً، الى ان يحمل وزر هذه الحرب ازاء أقدس مبادئه ومعتقداته".

ثم إلتفت الى هندنبرگ الذي كان جالساً لايتحرك في مقعد على مسافة بضع أقدام أمامه: "بفورة فريدة من نوعها. عادت الحياة الى شرفنا القومي في الأسابيع القلائل الأخيرة. وبفضل تفهمك ايها السيد الجنرال- فيلد مارشال تمكننا من الإحتفال بالوحدة بين رمزي العظمة القديمة والقوة الجديدة اننا نقدم لك فروض الولاء. إن العناية الإلهية الحارسة هي التي تضعك فوق قوى وطننا الجديدة(١٢)".

وتقدم هتلر بمظهر تواضع عميق من الرئيس الذي كان ينوي ان يسرق منه سلطته السياسية قبل أن يمر به الأسبوع وانحنى إنحناءً عميقاً له وقبض على كفّه. فسجلت عدسات التصوير باشعتها الفوسفورية وآلات السينما التي لم تكف عن الوشوشة، مما حشده منها گوبلز ووزعه مع الميكروفونات في نقاط ستراتيجية. مسكة اليد المهيبة ومصافحة الفيلد مارشال الألماني ونائب العريف النمساوي وهما يوحدان عتيق ألمانيا بجديدها، وطارفها بتليدها. ونقلتها الى الشعب الألماني والى العالم أجمع ليشهدها بأم عينه. وكتب السفير الفرنسي الذي كان حاضراً المشهد: "بعد هذا العهد المقطوع المذهل كيف يمكن لرجال أمثال هندنبرگ وأصدقائه واليونكرز والبارونات الملكيين وهوگنبرگ وأتباعه القوميين الألمان وضباط جيش الرايخ- كيف يمكنهم ان لايطرحوا جانباً مخاوفهم التي بدأت تساورهم من حزبه نظراً لما قام به من أعمال الشغب وانتهاك الحرمات؟ أيمكنهم الآن ان يترددوا في منحه ثقتهم كاملةً، أن يحققوا كل مطالبه أو أن يمنحوه السلطة المطلقة التي يريدها؟(١٣)"

جاء الجواب بعد يومين. في الثالث والعشرين من آذار بدار أوپرا (كرول Kroll) في برلين حيث إلتأم الرايخشتاغ. كان أمام المجلس لائحة ما يدعى بقانون التمكين Gesetz zur Behebung der Not Von Volk und Reich كما أطلق عليه رسمياً. لقد نزعت فقراته المقتضبة الخمس صلاحية التشريع من البرلمان، وتدخل فيها الهيمنة على ميزانية الرايخ والمصادقة على المعاهدات المعقودة مع الدول الأجنبية وإجراء التعديلات في الدستور، وسلمتها الى الحكومة لفترة أمدها أربع سنوات. وبالاضافة الى هذا فقد اشترط القانون أن القوانين التي تستنها الوزارة يجب أن يقوم المستشارون بإعداد مسوّدتها ولا مانع من ان تكون "مخالفة لنصوص الدستور". وأقسى مزحة (نكتة) وردت فيه حقاً إشتراطه ألاّ يسن قانون "يؤثر على مركز الرايخشتاغ!" وان تبقى سلطات رئيس الجمهورية كما هي"(١٤).

وردد هتلر هاتين النقطتين الأخرتين في خطاب متحفظ بشكل غير متوقع. على النواب المجتمعين في دار الأوپرا البديعة الزخرف التي اختصت منذ زمن بعيد باخراج الأوپرات الخفيفة الهزلية وقد امتلأت أروقتها الآن بكراديس من جنود العاصفة ذوي القمصان الرمادية، التي كانت سيماؤهم

١٢- الوثائق السياسية الألمانية Dokumente der Deutschen Politik ج(١) ١٩٣٥ الص ٢٠-٢٤.
١٣- فرانسوا پونسيه المرجع السالف ص٦١.
١٤- نص القانون في [مؤامرة النازيين وعدوانهم: ج٤ الص ٦٣٨-٦٣٩، الوثائق PS ٢٠٠١].

الوحشية المشوهة بالندوب تفصح على أن السخافات الصادرة من ممثلي الشعب لن يتسامحوا بها ابداً.

"[وعد هتلر] أن الحكومة لن تمارس صلاحياتها هذه إلاّ بقدر ما هو ضروري لتحقيق الإجراءات الحيوية اللازمة جداً. ولن يتهدد شيء ما وجود وكيان الرايخشتاغ والرايشسرات. ان مركز الرئيس وصلاحياته باقية كما كانت... والكيان المنفصل لدول الإتحاد لن يقضى عليه ولن يطرأ أيّ نقصان أو تحديد لحقوق البيع والطوائف المذهبية ولن يجري تعديل على علاقاتها بالدولة. إن عدد القضايا التي تحتم (في الداخل) اللجوء الى هذا القانون هي بحد ذاتها محدودة جداً".

وبدا الزعيم النازي الجموح شديد الإعتدال، حتى كاد يكون قانعاً بأقل القليل. كان الوقت جد مبكر في حياة الرايخ الثالث ليدرك المرء -حتى نواب المعارضة- قيمة وعود هتلر ادراكاً حسناً. على ان واحداً منهم وهو أوتو ڤلز Otto Wells زعيم الديمقراطيين الإشتراكيين الذين "احتجز" رجال الشرطة أكثر من عشرة من نوابهم، نهض وسط صرخات جنود العاصفة في الخارج وهتافاتها الراعدة "صلاحيات كاملة أو صبراً فستَرَون!" نهض ليتحدى دكتاتور المستقبل. وانطلق يتكلم بهدوء وبوقارٍ عظيم وصرح بأن في وسع الحكومة تجريد الإشتراكيين من سلطتهم إلاّ انها لاتستطيع تجريدهم من شرفهم.

"نحن الديمقراطيين الإشتراكيين نقطع على أنفسنا عهداً مكيناً في هذه الساعة التاريخية بالتمسك بالمبادىء الإنسانية والعدالة، والحرية والإشتراكية. لا (قانون تمكين) يعطيكم سلطة، تعبر أفكار ومبادىء خالدة لايمكن القضاء عليها."

وشبّ هتلر على قائمتيه هائجاً. سيذوق المجلس الآن طعم هذا الرجل الحقيقي.

"لقد جئتم متأخرين، ومع ذلك فقد جئتم [ثم صاح]... لم يعد ثم حاجة اليكم... سيبزغ نجم ألمانيا وسيأفل نجمكم. لقد دق ناقوس جنازتكم... اني لست في حاجة الى أصواتكم، وستكون ألمانيا حرة لكن ليس بفضلكم [هتاف عام شديد]".

هؤلاء الديمقراطيون الإشتراكيون الذين يتحملون مسؤولية ثقيلة في إضعاف الجمهورية، ظلوا على الأقل مقيمين على مبادئهم وغاصوا في الأعماق بتحدٍّ- هذه المرة فقط. بخلاف حزب الوسط الذي تحدى مرةً وبنجاحٍ المستشار الحديديّ في Kultrukampf! طلب (المونسنيور كاس) وعداً خطياً من هتلر يتعهد فيه إحترام حق رئيس الجمهورية في (الڤيتو) وقد ُوعد بذلك قبل الإقتراع ولم يعط بعده. على كل حال فقد نهض زعيم الوسط معلناً ان حزبه سيصوّت للقانون وبقي برونـنگ صامتاً واخذت الأصوات حالاً وابرمت اللائحة بأكثرية ٤٤١ صوتاً ضد (٨٤) صوتاً معارضاً (كلهم ديمقراطيون إشتراكيون). وهبّ النواب النازيون قائمين هاتفين ضاربين الأرض بأقدامهم بهياج الفرح المحموم ثم انضم اليهم جنود العاصفة في نشيد "هورست فيسّل" الذي لم يعتم أن اتخذ مكانته الى جنب "ألمانيا فوق الجميع" كأحد النشيدين الوطنيين في ألمانيا.

إرفعوا الأعلام عالياً! قفوا معاً صفاً صفاً

يا جنود العاصفة، سيروا عنقاً وشداً، بخطى ثابتة هادئة.

هكذا قُبرت الديمقراطية البرلمانية في ألمانيا. وفيما عدا إلقاء القبض على جميع النواب الشيوعيين وبعض نواب الديمقراطيين الإشتراكيين، تم كل شيء بشكل قانونيّ لا غبار عليه وإن كان في جو بالإرهاب. ونزل البرلمان الى هتلر عن سلطته التشريعية المثبتة بأحكام الدستور وبهذا انتحر وإن ظل جسمه في حالة تحنيطٍ الى آخر لحظة من حياة الرايخ الثالث يستخدم في حالات قليلة كرجع صدىً لبعض خطابات هتلر الهادرة وأصبح أعضاؤه منذ ذلك الحين ينتقيهم الحزب النازي انتقاءً اذ لم يعد ثم إنتخابات حقيقية. إن (قانون التمكين) كان وحده الأساس الشرعي لدكتاتورية هتلر. فمنذ ٢٣ آذار ١٩٣٣ أصبح دكتاتوراً مطلقاً على الرايخ متحرراً من أيّ عقبة برلمانية. أو من الرئيس الشيخ المتعب في كل المسائل الاجرائية والعملية. ولاشك هنالك الكثير مما ينبغي عمله لإخضاع كل الشعب الألماني ومؤسساته ومعاهده تحت عقب القدم النازية بصورة تامة. وسنرى أن هذا على كثرته قد انجز بسرعة خاطفة تقطع الأنفاس وبفظاظة وخبث ووحشية. وبإستعارتنا كلمات آلان بولك Alan Bullock "لقد استولت عصابات الشارع على كل موارد دولة حديثة معظمة. لقد تسلم الزقاق السلطة". على أنه تسلّمه بصورة قانونية وبأغلبية ساحقة برلمانية، وهو القول الذي ما انفك هتلر يردده متباهياً. وليس للألمان من يلومون غير أنفسهم.

وراحت أقوى مؤسسات ألمانيا تستسلم لهتلر واحدة تلو الأخرى وتزول من عالم الوجود بهدوءٍ وبدون أن يخرج منها نأمة.

وأول من هوى رأسه تحت نطع الجلاد، حكومات الأقاليم التي ظلت تتشبث بحكمها الذاتي طوال التاريخ الألماني بحرص وعناد غريبين. ففي التاسع من آذار قبل سن (قانون التمكين) بأسبوعين قام الجنرال (ڤون إيپ) بإيعاز من هتلر وفريك ومساعدة عدد قليل من جنود العاصفة بطرد الحكومة الباڤارية وإقامة نظام نازيّ. وفي غضون أسبوع واحد ثم تعيين مفوضي الرايخ لتولي الحكم في الدول الفيدرالية الأخرى، بإستثناء پروسيا التي كان گورنگ قد حكم قبضته عليها. وفي ٣١ آذار قام (فريك) وهتلر باستصدار أول قانون (بموجب قانون التمكين) حلّت بموجبه مجالس (الدايت) وكل الدول الفيدرالية ما عدا پروسيا وأمرت بإعادة تنظيمها الدستوري على أساس مجموع الأصوات الناخبة في آخر إنتخاب للرايخشتاغ. وأن تبقى مقاعد الشيوعيين فارغة. إلاّ ان هذا الحل لم يكتب له الدوام أكثر من أسبوع. اذ أصدر المستشار الذي كان يعمل بسرعة جنونية قانوناً جديداً في ٧ نيسان يقضي بتعيين (حكام رايخ Reichsstaathaelter) في كل الدول الإتحادية وخوّلهم سلطة تعيين وعزل الحكومات المحلية وحل مجالسها (الدايت) وتعيين وفصل موظفي الدولة والقضاة وكان كل حاكم من هؤلاء نازياً وطلب منهم "تطبيق السياسة العامة التي رسمها مستشار الرايخ".

وبهذا وفي غضون أربعة عشر يوماً من حصوله على السلطات الكاملة من الرايخشتاغ، انجز ما لم يجرأ بسمارك وڤلهلم الثاني والجمهورية على عمله: قضى على سيادات الدول الفيدرالية التاريخية

وجعلها خاضعة للسلطة المركزية، سلطة حكومة الرايخ التي يمسك بأعنّتها. ووحد بهذا لأول مرة في تاريخ ألمانيا، بلاد الرايخ توحيداً حقيقياً بالقضاء على طابعه الفيدرالي الموغل في القدم. وفي ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤، بعد مرور سنة واحدة على صيرورته مستشاراً أكمل رسمياً تلك المهمة باستصدار قانون إعادة بناء الرايخ. فألغيت "المجالس الشعبية" للدول. وتحولت سياداتها الاقليمية الى الرايخ وضع كل حكوماتها المحلية تحت إدارة وزير داخلية الرايخ[١٥].

ووصف الوزير (فريك) المسألة بقوله "إن حكومات الدول هي الآن مجرد أجهزة إدارية للرايخ". إن ديباحة قانون ٣٠ كانون الثاني هذا تصرح بأنه "شُرّع بإجماع الآراء في الرايخشتاغ" وهذا صحيح ففي هذا الوقت كان كل الأحزاب السياسية الألمانية بإستثناء الحزب النازي. قد أبيد.

لا يمكن القول أن هذه الأحزاب سقطت صريعة والسيف في يدها. في التاسع عشر من أيار ١٩٣٣ صوّت نواب الديمقراطيين الإشتراكيين (أولئك الذين لم يودعوا السجن أو يلوذوا بالمنافي) بالموافقة التامة على سياسة هتلر الخارجية دون ان يتخلف منهم نائبٌ واحد، وقبلها بتسعة أيام كانت شرطة گورنگ قد وضعت يدها على بنايات الحزب وصحفه وصادرت ممتلكاته. مع ذلك كله حاول الإشتراكيون التطامن لهتلر وارضاءه فتبرأوا من رفاقهم المنفيين في الخارج الذين اخذوا يهاجمون الفوهرر. وانتخبوا في ١٩ حزيران هيئة إدارية جديدة للحزب. لكن (فريك) أنهى بعد ثلاثة أيام محاولات مساومتهم بإلغاء الحزب الديمقراطي الإشتراكي لأنه "يتهدد كيان الدولة ويقف منها موقفاً عدائياً". وألقي القبض على (پول لوبه Paul Lobe) زعيمه الباقي وعددٍ من أعضاء حزبه في الرايخشتاغ واودعوا السجن. أما الشيوعيون فكانوا بالطبع أول من أستؤصلت شافتهم.

بقيت أحزاب الطبقة الوسطى، إلاّ أن عمرها لم يدم طويلاً. فالحزب الكاثوليكي الباڤاري الشعبي الذي طرد إنقلابٌ نازي حكومته من دست الحكم في ٩ آذار أعلن عن حَلّ نفسه في ٤ تموز وحليفه حزب الوسط الذي تحدى (بسمارك) في عزه وظل يقض عليه مضجعه ثم كان سوراً حصيناً للجمهورية، اقتفى أثره في اليوم التالي تاركاً ألمانيا لأول مرة في عصرها الحديث بدون حزب كاثوليكي سياسيّ- عملٌ لم يثبط من عزم الفاتيكان على توقيع (كونكورداتو) مع حكومة هتلر بعد ذلك بأربعة عشر يوماً. اما حزب (شتريزمان) القديم، حزب الشعب فقد انتحر على طريقة (الهاراكيري) في الرابع من تموز. بعد ان سبقهم الى الانتحار الحزب الديمقراطي Staatspartei بأسبوعٍ واحد.

وماذا عن شريك هتلر في الحكومة، الحزب القومي الألماني الذي لم يكن نائب العريف النمساوي يستطيع تبوّء كرسي الحكم لولا معونته؟ لقد دهاه المصير الذي دهى غيره وسلك مسلك الأحزاب الأخرى وبالاستسلام الذليل نفسه رغم صلاته الوثقى بهندنبرگ والجيش واليونكرز ورجال الأعمال

١٥- قوانين آذار (٣١) ونيسان (٧) ١٩٣٣ و٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤ كلها في مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٤ الص ٦٤٠-٦٤٣.

الكبار والدِّين الذي يطوق به عنق هتلر ففي ٢١ حزيران احتلت قوة من الشرطة وجنود العاصفة مقراته في كل أنحاء البلاد وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه إستقال هوگنبرگ زعيم الحزب الغطريس من الوزارة. وهو نفسه الذي ساعد في دفع هتلر الى المستشارية قبل ستة أشهر فقط. ثم قام معاونوه بحلّ الحزب "إختياراً وطوعاً". وبقي الحزب النازي في الميدان وحيداً وفي ١٤ تموز صدر قانون أعلن فيه: "إن الحزب القومي الإشتراكي للعمال الألمان، هو الحزب السياسيّ الوحيد في ألمانيا".

"كل من يعمد الى الإبقاء على هيكل تنظيمي لحزب سياسيّ آخر أو تشكيل حزب سياسي جديد يعاقب بالاشغال الشاقة لمدة لاتزيد عن ثلاث سنين وإن لم يكن العمل نفسه خاضعاً لعقوبة أشد نظراً الى القوانين والانظمة الأخرى فعندئذ يحكم بالعقوبة الكبرى"[١٦].

تم بناء الدولة الفردية ذات الحكم المطلق والحزب الواحد، دون خفقة جناح أو حركة معارضة أو تحدٍ وفي غضون أربعة أشهر من تنازل الرايخشتاغ عن مسؤولياته الديمقراطية.

ونقابات العمال الحرة التي سحقت مرةً كما رأينا- مؤامرة (كاپ) الفاشية بالوسيلة البسيطة؛ إعلان الاضراب العام، تم القضاء عليها بالسهولة التي تم بها إبادة الأحزاب وتصفية الحكومات الفيدرالية، لكن لم يجرِ ذلك إلاّ بعد أن أحتيل عليهم بحيلة بارعة مبرقشة. كان الأوّل من أيار يوماً تقليدياً يحتفل به العمال الألمان طوال نصف قرن مثل سائر العمال الأوروپيين. فلأجل تهدئة خواطر العمال وزعمائهم قبل ان تنزل الحكومة النازية ضربتها بهم، أعلنت يوم أوّل أيار (في سنة ١٩٣٣) عيداً وطنياً وأطلقت عليه رسمياً أسم "يوم العمل القومي" واستعدت للإحتفال به بشكل لم يسبق له مثيل وخدع زعماء نقابات العمال بهذا المظهر المدهش من الصداقة والالتفات الى الطبقة العاملة وتعاونوا مع النازيين والحكام بحماسة لإنجاح ذلك اليوم الأغرّ ونقل زعماء العمال بالطائرات الى برلين من سائر أنحاء ألمانيا. ورفعت آلاف من اللافتات بعبارات تشيد بتضامن النظام النازي مع العامل وفي مطار تمپلهوف Tempelhof نظم گوبلز أعظم إجتماع جماهيري رأته ألمانيا. واستقبل هتلر نفسه أمام صفوف التظاهرة الكبرى وفود العمال وصرح قائلاً: "سترون كم يوجد من الكذب والبهتان والظلم في الزعم القائل أن الثورة موجهة ضد العمال الألمان. ان الأمر بالعكس". وبعدها نطق هتلر في خطابه بالمطار أمام أكثر من مائة ألف عامل بالشعار "كرموا العمل واحترموا العامل!" ووعد ان يحتفل بيوم أيار تكريماً للعمال الألمان "على مدى القرون". وفي ساعة متأخرة من ليلة ذلك اليوم. بعد ان وصف گوبلز بأسلوبه النثريّ القرمزيّ الحماسة الهائلة التي استولت على العمال بمناسبة إحتفال يوم أيار هذا الذي نظمه تنظيماً رائعاً ختم يوميته بالعبارة الغريبة التالية: "غداً سنحتل بنايات إتحادات النقابات. سيكون ثم مقاومة طفيفة"[١٧].

١٦- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٣ ص٩٦٢ [الوثائق ١٣٨٨ PS] .

١٧- گوبلز: كايزرهوف ص٣٠٧. ان الوثائق التي رأت النور في محاكمات نورمبرگ أظهرت أن النازيين كانوا يضعون =

واليك ما حصل: في الثاني من أيار تمّ الإستيلاء على جميع مقرات النقابات في كل ألمانيا. وصودرت أموالها وصناديق اعاناتها. وحُلت واعتقل القادة. وكثير منهم أعتدي عليهم بالضرب واودعوا معسكرات الإعتقال. وعرض ثيودور لايبارت Theodor Leipart وپيتر گراسمان Peter Grass-mann رئيسا الإتحاد العام لنقابات العمال تعاونهما التام مع النظام النازي وقطعا العهد بذلك فلم ينقذهما هذا من الإعتقال. وعلق (الدكتور روبرت لاي) زعيم الحزب في (كولن) والسكير الذي عينه هتلر للإستيلاء على النقابات وإقامة جبهة العمل الألمانية، قائلاً "فليعلن لايپارت وگراسمان إخلاصهما للفوهرر نفاقاً ورياء قدر ما يشاءان- لكن من الخير أن يودعا السجن" وهكذا كان.

ومع ان (هتلر) و(لاي) حاولا بالأول أن يؤكدا للعمال أنهما سيحميان حقوقهم وقال (لاي) في أول بيان له: "أيها العمال! إن مؤسساتكم مقدسة عندنا نحن القوميين الإشتراكيين. أنا نفسي ابن فلاحٍ فقير وأدرك جيداً معنى الفقر... واعرف إستغلال الرأسمالية الأنونيمية ايها العمال! أقسم لكم إننا لن نكتفي بالابقاء على كل ما هو موجود عندكم، بل سنوفر المزيد من الحماية والحقوق للعمال".

وفي غضون ثلاثة أسابيع، انكشفت الوعود الجوفاء التي بذلها نازي آخر لهم عندما أصدر قانوناً أنهى به حق المفاوضات العامة بين العمال ورب العمل وجعل "لوكلاء العمل Labor Trutees" الذين يعينون بأمر منه صلاحية "تنظيم عقود العمل" وتأمين "السلام في العمل"(١٨).

ولما كان قرار الوكلاء ملزماً قانوناً. فان القانون يكون بذلك قد ألغى حق الاضراب. وقد وعد (لاي) بأن "يعيد الزعامة المطلقة لرئيس المصنع- أعني صاحب العمل... ولصاحب العمل وحده ان يقرر ويأمر. لقد ظلّ عدد كبير من أصحاب العمل سنوات كثيرة ينادون بحقوقهم حقوق (ربّ البيت) وها هم أولاء يعودون ليكون كلّ واحد منهم ربّ بيته."

في هذه الفترة كانت الإدارة وأرباب المصانع على اتم الرضا وفي اطيب حال. انهم الآن يجنون ثمرات الإعانات السخية التي قدمها عدد كبير منهم الى "الحزب القومي الإشتراكي للعمال الألمان". على ان رواج أعمالهم وبضائعهم يقتضي إستقراراً معيناً في المجتمع في حين مَرّ الربيع كله ومعظم الصيف والنظام والأمن في ألمانيا يهتزان ويتقوضان تحت أقدام ذوي القمصان الرمادية المعربدين الذين يطوفون عصاباتٍ وزمراً في الشوارع فيعتقلون ويضربون وأحياناً يقتلون كل من يحلو لهم إعتقاله أو ضربه أو قتله. والشرطة تنظر عن كثب دون أن تجرأ حتى على رفع دُرّةٍ في أوجههم ولم يكن إرهاب الشارع نتيجة لإضطراب حبل الأمن وضعف سلطة الدولة كما حصل في أيام الثورة

= الخطط منذ مدةٍ للقضاء على نقابات العمال. هناك كتاب سري مؤرخ في ٢١ نيسان بتوقيع (الدكتور لاي) يتضمن تعليماتٍ مفصلة لعملية "تنظيف" النقابات في ٢ أيار. وقعت على الـ(إس. أي) والـ(إس. إس) مهمة أحتلال املاك إتحادات النقابات" وان يؤخذ الى (الحجز التحفظي) كل زعماء النقابات. ويوضع اليد على مالية النقابات (NCA الص ٣٨٠-٣٨٥ ج٣). ولم يتعرض للنقابات المسيحية (الكاثوليكية) في ٢ أيار وحلت نهايتها في ٢٤ حزيران.

١٨- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٣ ص٣٨٧ [الوثائق PS ٤٠٥]. قوانين ١٩ آذار ١٩٣٣.

الفرنسية. بل العكس هو الصحيح فهذه الأمور تجري بتشجيع من الدولة وأحياناً بايعازٍ منها. ولم تكن الدولة في ألمانيا بأقوى واشد تركيزاً مما هي الآن. لقد دبّ الرعب في قلوب القضاة وصاروا يشعرون بخوفٍ شديدٍ على حياتهم إن اصدروا حكماً على واحدٍ من جنود العاصفة حتى لو ارتكب جريمة قتلٍ عمدية فهتلر هو القانون- كما قال (گورنگ). وفي شهر أيار ۱۹۳۳ كنت تجد الفوهرر يخطب بحماسة وانفعال: "إن الثورة القومية الإشتراكية لم تبلغ بعد آخر الشوط" و"أنها لن تكمل بإنتصارها إلا حين يثقف الشعب الألماني"، وبالمفهوم النازي يعني "التثقيف"- "اشاعة الفزع" الى الحد الذي يقبل الجميع بكلّ خضوع دكتاتورية النازيين وبربريتهم. وعند هتلر- كما صرح علناً آلاف المرّات- أن اليهود ليسوا من الشعب الألماني. ومع أنه لم يستأصل شأفتهم في الحال (إلاّ عدداً ضئيلاً يناهز بضعة آلاف وأعني بهم أولئك الذين نُهبوا وضُربوا وقُتلوا في الأشهر الأولى) إلا انه اصدر قوانين باستبعادهم من الوظائف العامة ومنع دخولهم في الجامعات أو المعاهد الأخرى. وفي ۱ نيسان ۱۹۳۳ أعلن عن مقاطعة شعبية لحوانيت لليهود.

إن رجال الأعمال الذين كانوا مسرورين جداً من سحق نقابات العمال المزعجة لهم وجدوا الآن أن الجناح اليساري من الحزب الذي كان يؤمن حقاً بالإشتراكية حاول السيطرة على مؤسسات أرباب العمل الكبيرة وتحطيم المخازن الكبرى الى أجزاءٍ وفروعٍ، وتأميم الصناعات. وانحدر آلاف من أعضاء الحزب النازي الفقراء بأسمالهم البالية الى المؤسسات التجارية وبيوت الأعمال التي يملكها أناس لم يساعدوا هتلر، وراحوا يهددون بإعتقالهم بتهمٍ ملفقة. وفي محلات أخرى طالبوا بوظائف ذات أجور عالية في الإدارة. وأصر الدكتور (غوتفريد فيدر) الطبل الاجوف الإقتصادي على تطبيق برنامج الحزب- اعني تأميم الصناعات والمصالح الكبيرة والمشاركة في الارباح والقضاء على الدخل الذي لايأتي من العمل و"عبودية الفائدة". وكأن ذلك لم يكن كافياً لتخويف رجال الأعمال، فقام ڤالثر داريّه Walther Darre الذي عيّن وزيراً للزراعة مؤخراً بما أطار صواب البنوك وأسلمهم لهلع شديد، فقد وعد بإجراء خصمٍ كبير في الديون المالية على الفلاحين وإنقاص سعر الفائدة الى حدّ ۲٪ فقط.

ولم لا؟ أصبح هتلر في متنصف صيف ۱۹۳۳ سيّد ألمانيا وبإمكانه الآن أن يطبق منهاج حزبه. لقد ترك پاپن على مكره وسعة حيلته- مغلول اليد لايستطيع شيئاً وهو في منصبه الرفيع. وانفجرت كفقاعات من الصابون في وجهه كُل حساباته وتخطيطه في السيطرة على هتلر وإستخدامه آلة لتنفيذ سياسته المحافظة بالتعاون مع هوگنبرگ وغيرهما من المنافحين عن النظام القديم وبنسبة أعضائهم الثمانية الى وزراء النازيين الثلاثة في الحكومة. لقد طرد هو نفسه من منصب رئيس وزراء پروسيا وحلّ (گورنگ) محله. ليبقى فحسب نائب المستشار في حكومة الرايخ ولكن "هذا المنصب ظهر فيما بعد وكأنما لا ضرورة له" على حد قوله متحسراً كاظماً. وذهب ايضاً (هوگنبرگ) أسطون التجارة والمال وحُلّ حزبه. وجيء بـ(گوبلز) ثالث أهم شخصية في الحزب النازي الى الحكومة في ۱۳ آذار وزيراً للارشاد القومي والدعاية. وعين (داريه) الذي يعتبر "متطرفاً" كگوبلز، وزيراً للزراعة.

وأزيح الدكتـور (هانز لوثر) المحافظ رئيس بنك الرايخ من منصبه وهو عصب إنتظام الإقتصاد الألماني وسُفر الى واشنطن بمنصب سفير. وجيء بالدكتور شاخت رئيساً عوضاً عنه في ١٧ آذار ١٩٣٣. وكان يشغل المنصب نفسه في السابق وهو الآن تابع مخلص لهتلر رأى "حقيقة الضرورة" في النازية.

ليس ثم رجل فردٌ في كل ألمانيا أفاد هتلر في بناء القوة الإقتصادية للرايخ الثالث، وتسهيل تسليحه وتهيئته عسكرياً لخوض غمار الحرب العالمية الثانية كما افاده شاخت. وقد أصبح فيما بعد وزيراً للإقتصاد والمفوض العام المطلق الصلاحية لإقتصاد الحرب علاوة على وظيفته. الحق يقال أنه أنقلب ضد صنمه المعبود قبيل نشوب الحرب. فطرد أو أعفي من كل وظائفه، وتمادى في عدائه فانضم الى أولئك الذين كانوا يتآمرون على إغتيال هتلر، إلا أن الزمن تأخر به ليكون ذا نفع في عرقلة مسيرة الزعيم النازي الذي منحه إخلاصه وبذل له مواهبه الفذة وافاده من مكانته الكبيرة، مدة طويلة من الزمن.

-٤-

"لا ثورة ثانية!"

استولى هتلر على ألمانيا بغاية من السهولة. لكنه واجه عدداً من المشاكل بقدوم صيف ١٩٣٣ وكان عليه إيجاد الحلول لها. هناك خمس مشاكل كبيرة على الأقل وهي: الحيلولة دون قيام ثورة ثانية، وتسوية العلاقات غير المستقرة بين الـ(إس أي) والجيش، واخراج البلاد من ضائقتها الإقتصادية، وايجاد أعمال لستة ملايين عاطل وتحقيق المساواة في التسلح لألمانيا في مؤتمر جنيف لنزع السلاح مع التعجيل بإعادة تسليح الرايخ سراً. وكان قد شرع فيه خلال السنة الأخيرة من عمر الجمهورية، وأخيراً تقرير من سيخلف هندنبرگ العليل عندما يقضي نحبه.

وكان (روهم) قائد الـ(إس. أي) الذي صكّ عبارة "الثورة الثانية" والذي أصر على إستخدامها وانضم اليه (گوبلز) فكتب يقول: "كل فرد من الشعب يتكلم عن الثورة الثانية التي يجب أن تأتي. وهذا يعني أن الثورة الأولى لم تكن الختام. وعلينا الآن تصفية الحساب مع الرجعية Reaktion. يجب ألاّ يكون في الثورة وقفة"[١٩].

حطمّ النازيون اليسار لكن اليمين باقٍ. عالم المال والصناعة الكبيرة، الارستقراطية، اقطاعيو اليونكرز وجنرالات پروسيا الذين يحكمون قبضتهم على الجيش. اراد (روهم) و(گوبلز) وغيرهم من المتطرفين في الحركة أن يصفوا هؤلاء أيضاً. واطلق روهم في حزيران تحذيره تدعمه فرق جنود العاصفة

١٩- گوبلز المرجع السالف ص٣٠٠.

الذين يعدون الآن مليونين ونصف مليون أي عشرين ضعف عدد الجيش الألماني النظامي.

"نصر واحدٌ فقط حققناه في طريق الثورة الألمانية... إنّ الـ(إس أي) والـ(إس. إس) اللذين يحملان نفس المسؤولية في دفع الثورة الألمانية وابقائها لن يسمحوا بخذلانها وهي في نصف الطريق... إن ظنّ الفلسطانيون Philstinen أن الثورة القومية قد طال أمدها كثيراً... فان الوقت قد حان حقاً لإنهاء الثورة القومية وإنقلابها الى ثورة قومية إشتراكية... علينا أن نستمر في حربنا بوجودهم أو عدم وجودهم. واذا قضت الضرورة فضدهم... نحن الضامنين تحقيق الثورة الألمانية الذين لايتطرق الينا الفساد[٢٠]".

واضاف في آب بخطبة له: "هناك أناس في مناصب الدولة الآن مازالوا يجهلون فكرة جوهر الثورة سنتخلص منهم بلا رحمة إن تجاسروا على وضع أفكارهم الرجعية موضع التطبيق". لكن هتلر كان يفكر بشكل معاكس. فعنده أن الشعارات الإشتراكية في الحركة النازية انما هي مجرد دعاية ووسائل لكسب الجماهير وهو في طريقه الى الحكم. وهو الآن لايكترث بتلك الشعارات بعد بلوغه غايته. كان في حاجة الى وقتٍ لتثبيت وضعه ووضع البلاد والوضع الراهن يقتضي منه على الأقل تهدئة اليمين- عالم المال والصناعة والجيش ورئيس الجمهورية- فانه لم يكن ينوي جرّ ألمانيا الى الإفلاس ويخاطر بكيان نظامه بالذات. يجب ألاّ يكون ثم ثورة ثانية. أوضح ذلك لقادة الـ(إس. أي) والـ(إس. إس) أنفسهم في خطاب ألقاه عليهم في الأول من تموز قائلاً أن ما تحتاجه ألمانيا الآن هو النظام والإستقرار "وسأقمع كل محاولة رامية الى تعكير صفو الأمن الحالي بالقوة التي سأتصدى بها لما يطلق عليه الثورة الثانية، فهي لاتؤدي إلاّ الى الفوضى" وكرر الإنذار لحكام الدول الفيدرالية النازيين المجتمعين في دار المستشارية في السادس من تموز[٢١].

"إن الثورة ليست حالة ثابتة في الاشياء ويجب ألاّ تترك لتتطور الى هذه الحالة والسيل الذي تدفعه الثورة يجب أن يراقب ويقاد الى قنوات سليمة من التطور المتدرج... فعلينا اذن ألاّ نطرد رجل الأعمال ان كان رجل أعمال جيد حتى وان لم يصبح بعد قومياً إشتراكياً وبخاصة عندما لايعرف القومي الإشتراكي الذي سيحل محله شيئاً عن العمل. في الأعمال الحرة يجب ان تكون الكفاءة هي المقياس الوحيد..."

"إن التاريخ لن يحكم علينا بكثرة من إعتقلناه أو أبعدناه من الإقتصاديين والخبراء بل بمدى نجاحنا في توفير العمل للآخرين إن آراء التقدم والنجاح لن تلجئنا الى أعمال الاغبياء وايقاع الإضطراب في كل شيء، بل الى فهم إتجاهات أفكارنا والسير برويّة وحكمة في الزمن الطويل سيكون ثبات قوتنا السياسية متناسباً تناسباً طردياً مع كفاءتنا في تثبيتها إقتصادياً وعلى حكام دول (الأقاليم) أن يلزموا أنفسهم بضمان عدم قيام أي منظمة حزبية بممارسة أعمال الحكومة فتفصل الأفراد وتعينهم في الوظائف وأن لا تفعل ما هو من وظيفة حكومة الرايخ وما هو من اختصاص وزير إقتصاد الرايخ

٢٠- ن. س موناتشفته N. S. Monatschefte رقم٣٩٠ (حزيران سنة ١٩٣٣).
٢١- اقتباسات ١ و٦ تموز من (باينس) ج١ ص٢٨٧ والص٨٦٥-٨٦٦.

بالنسبة الى الأعمال الحرة..."

وبخلاف هذا لم يصدر بعد تصريح رسميّ بأن الثورة النازية هي ثورة سياسية لا إقتصادية. وعمد هتلر الى تسريح عدد من "المتطرفين" النازيين الذين حاولوا بسط سيطرتهم على مؤسسات أرباب العمل دعماً لكلامه السالف. واعاد كروب ڤون بوهلن وفريتز تيسن الى مركزيهما القياديين في مصانعهما وحلّ "إتحاد النضال لنقابات الطبقة الوسطى" الذي كان يزعج المخازن التجارية الكبرى وعين الدكتور كارل شميت Karl Schmitt وزيراً للإقتصاد بدلاً من هوگنبرگ. وكان شميت المدير العام (للاليانز) أعظم شركة تأمين ألمانية، مثال رجل الأعمال واشدهم استقامة في الرأي فلم يضع وقتاً في وضع حدٍ نهائي لخطط النازيين "الإشتراكيين" الذين كانوا بدرجة من السذاجة أن أخذوا منهاج حزبهم مأخذاً جدياً وكانت الخيبة عظيمة في سواد أعضاء الحزب وبخاصة بين جنود العاصفة وهم أوسع لُبابٍ في كتلة هتلر الجماهيرية ومعظمهم ينتمي الى الجيش المهلهل الشياب من الفقراء الناقمين. إنهم خصوم الرأسمالية بالتجربة ويعتقدون أن الثورة التي حاربوا معارك الشغب والإعتداءات في الشوارع لأجلها، ستأتيهم بالاسلاب والغنائم والأعمال المربحة، سواء في عالم الأعمال الحرة أو في الحكومة. والآن ها هي آمالهم تخيب بعد نجاحهم السريع في الربيع. إن العصابة القديمة- أكان أفرادها أعضاءً حزبيين أم لا، يجب أن تحافظ على العمل، وتؤمن الرقابة على العمل. لكن هذا التطور لم يكن السبب الوحيد لغليان الـ(إس. أي).

برز خلاف (هتلر وروهم) القديم حول مركز الـ(إس. أي) والغرض المتوخى منه، وثارت كوامنه مرة أخرى. كان هتلر منذ أيام الحركة الأولى يصرّ على أن يكون جنود العاصفة قوة سياسية لا عسكرية فهم مصدر العنف الجسديّ والرعب اللذين يشق بهما الحزب طريقه الساخن الى السلطة السياسية، في حين يجده (روهم) العمود الفقري للثورة النازية فضلاً عن نواة جيش الثورة المقبل لهتلر مثلما كانت جيوش فرنسا المجندة لـ(نابليون) بعد الثورة الفرنسية. لقد حان الوقت لكنس جنرالات پروسيا الرجعيين- وتشكيل قوة ثورية ضاربة جيش شعبي يقوم على رأسه بمساعدة أعوانه الاشداء الذين سيطروا على شوارع ألمانيا.

لم يكن روهم يستشعر بشيء من أفكار هتلر. الذي أدرك بوضوح أكثر منه أو أيّ نازيٍّ آخر أنه لم يكن قادراً على الوصول الى كرسي الحكم دون مساندة -أو على الأقل- دون تسامح جنرالات الجيش، وأن بقاءه في القمة الآن على الأقل يتوقف من جهة على إستمرارهم في دعمه لأنهم مازالوا يملكون القوة المادية لإزاحته إن خطر ذلك ببالهم. كذلك كان هتلر يدرك أن ولاء الجيش لشخصه سيُحتاج اليه في اللحظة الحرجة التي لن تكون بعيدة حينما يحين أجل هندنبرگ القائد العام البالغ من العمر ستاً وثمانين. فضلاً عن هذا كان الزعيم النازي واثقاً أن (هيئة الضباط) بكل تقاليدها العسكرية وكفاءتها هي وحدها قادرة على تحقيق هدفه في بناء قوة عسكرية منظمة حسنة الضبط. إن الـ(إس. أي) ما هو إلاّ جماعة من الصعاليك والغوغاء لايصلحون إلاّ لصدام الشوارع ولاينفعون شيئاً كجيش

عصري. زد على ذلك أن دورهم قد انتهى الآن ويجب أن يُخلى منهم المرسح بعملية حاذقةٍ دقيقة. ولم يكن بالإمكان ايجاد أيّ تقارب بين وجهتي نظر هتلر وروهم. ومن صيف عام ١٩٣٣ حتى حزيران ١٩٣٤ نشبت حرب موت أو حياة فعلية بين هذين العضوين القديمين في الحركة النازية اللذين كانا في الوقت نفسه من أعز الأصدقاء (كان ارنست روهم الوحيد الذي يخاطبه بضمير du الذي يدل على عدم الكلفة في اللغة).

كان روهم يعبر عن شعور السخط العميق في صفوف جنود العاصفة في خطابه أمام خمسة عشر ألف ضابط من الـ(إس. أي) في الشپورتپالاشت Sportpalast ببرلين في الخامس من تشرين الثاني ١٩٣٣. "كثيراً ما يسمع المرء... أن الـ(إس. أي) قد فقد كُلّ مقومات الوجود" ثم يضيف منذراً بأن الواقع ليس كذلك. إلاّ أن هتلر كان عنيداً فحذر في خطبة له في باد گودسبرغ Bad Godsberg في ١٩ آب "إن العلاقة التي تربط الـ(إس. أي) بالجيش، يجب أن تكون شبيهة بالقيادة السياسية". وتكلم بصراحة أكثر في نورمبرگ (٢٣ أيلول):

"في هذا اليوم يجب أن نتذكر بنوع خاص الدور الذي نهض به جيشنا. فكلنا يعلم جيداً لولا وقوف الجيش الى جانبنا في أيام ثورتنا، لم نكن اليوم واقفين هنا. وبإمكاننا أن نؤكد للجيش بأننا لن ننسى ذلك وأننا نرى في مراتبه حملة تقاليد جيشنا المجيد. وسنساند روح هذا الجيش بكل قلوبنا وطاقاتنا".

وقبل ذلك بفترة من الزمن قدّم هتلر سراً تأكيدات للقوات المسلحة ضمت الى صفه عدداً كبيراً من كبار ضباط الجيش. وفي ٢ شباط ١٩٣٣ بعد توليه الحكم بثلاثة أيام. تكلم زهاء ساعتين في جمع من القادة الكبار الجنرالات والأميرالات في منزل الجنرال (ڤون هاڤرشتاين) قائد الجيش العام. وكشف الأميرال اريخ رايدر Erich Raeder في نورمبرگ عن فحوى إجتماع المستشار النازي بهيئة الضباط[٢٢] لأول مرةٍ في حياته. قال ان هتلر حرر القادة العسكريين من كل قلق يساورهم في إستخدام القوات المسلحة للمساهمة في الحرب الأهلية. ووعد الجيش والأسطول بأنهما يستطيعان الآن أن يوقفا كل مجهودهما على المهمة الرئيسة وهي تسليح الجيش بسرعةٍ دون أيّ عائق. واقر الأميرال (رايدر) أنه كان في غاية السرور بفكرة بناء أسطول جديدٍ وراح الجنرال ڤون بلومبرگ الذي قمع تعيينه السريع وزيراً للدفاع في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ أيّ ميلٍ في الجيش للثورة ضد فكرة نصب هتلر مستشاراً، راح هذا يصرح فيما بعد في مذكراته غير المطبوعة، بأن الفوهرر فتح "ميداناً للنشاط والفعاليات يبشر بآمالٍ عظيمة للمستقبل".

ولكي يزيد هتلر في حماسة قادة الجيش إستحدث في ٤ نيسان "مجلس دفاع الرايخ" ليحثث برنامج التسلح السري الجديد. وبعدها بأشهر ثلاثة (٢٠ تموز) شرّع المستشار قانوناً جديداً للجيش ألغى فيه صلاحية نظر المحاكم المدنية في الشؤون العسكرية وأبطل التمثيل الإنتخابي للجان الجنود وبهذا أعاد لهيئة الضباط صلاحيتها العسكرية الماضية. وبدأ عدد كبير من الأميرالات والجنرالات

ينظرون الى الثورة النازية بمنظارٍ مختلفٍ مستحبّ.

وإرضاءً لروهم، عيّنه هتلر مع (رودلف هس) نائب زعيم الحزب، وجعله وزيراً في الأول من كانون الثاني. وبمناسبة رأس السنة ١٩٣٤ وجه رسالة حارة رقيقة الى رئيس الـ(إس. أي). ففي الوقت الذي كرر أن "من واجب الجيش ضمان حماية الوطن ضد العالم خارج حدودنا" أقر بأن "مهمة الـ(إس. أي) هي الحفاظ على نصر ثورة القوميين الإشتراكيين وكيان الدولة القومية الإشتراكية" وأن نجاح الـ(إس. أي) كان يعود "بالدرجة الأولى" الى روهم. وختم الرسالة بمايأتي:

"في نهاية سنة الثورة القومية الإشتراكية أجد لزاماً عليّ أن اشكرك يا عزيزي ارنست روهم، على الخدمات التي لاتُنسى أبداً التي قدمتها للحركة القومية الإشتراكية وللشعب الألماني. ومن الواجب عليّ ان أؤكد لك مبلغ إمتناني للقدر الذي مكنني من الإدعاء بصداقة أمثالك من الرجال وإعتبارهم رفاق نضال."

مع تقديم وافر التحية وأسمى مظاهر الصداقة

المخلص أدولف هتلر[٢٣]

واستخدم في الخطاب ضمير (du) لعدم الكلفة. ونشر في صحيفة النازي اليومية الأولى "ڤولكشر بيوباختر" في ٢ كانون الثاني ١٩٣٤ وكان تأثيره عظيماً في تهدئة مشاعر السخط في الـ(إس. أي) بصورة مؤقتة. وفي جوّ الشعور الطيب الذي خيمّ على عيدي الميلاد ورأس السنة. ران الهدوء على المنافسة بين الـ(إس. أي) والجيش، وخفتت نداءات المتطرفين النازيين "بالثورة الثانية".

-٥-

فاتحة سياسة النازي الخارجية

كتب (اوسڤالد شبنگلر) في تعليقه على السهولة التي تمكن بها هتلر من الإستيلاء على ألمانيا وصبغها بالنازية في ١٩٣٣ "لم يكن نصراً لأنه لم يكن يوجد أعداء". وكتب مؤلف "إنحلال الغرب" هذا في أوائل تلك السنة "اني اشاهد بارتيابٍ، الإحتفالات التي تقام لها يومياً بكثير من الضجيج. من الأوفق أن يدخر ذلك ليوم النجاح الجديد الأكيد. أعني به الميدان الخارجي فليس هناك نجاح آخر[٢٤] غيره".

هذا الفيلسوف المؤرخ الذي كان لفترة قصيرة معبود النازي ثم باعد ما بينهما جفاء متبادل- لم

٢٢- من دراسة عنوانها "علاقاتي بأدولف هتلر والحزب" كتبها (الأميرال رايدر) في موسكو بعد ان أسره الروس. تيسّرت في نورمبرگ [مؤامرة النازيين ج٧ ص٧٠٧].
٢٣- "باينس" ج١، ص٢٨٩.
٢٤- شبنگلر Jahre der Entseheidung ص٨.



بلسودسكي

يكن محقاً في نفاذ صبره. فقد وجب على هتلر أن يفتح ألمانيا قبل أن ينطلق الى فتح العالم لكن ما أن صفّى معارضيه- أو صفَّوا أنفسهم- لم يضع وقتاً في إلتفاته الى ما كان مهتماً به أكثر من أيّ شيء: الى الشؤون الخارجية.

لم يكن مركز ألمانيا العالمي في ١٩٣٣ إلاّ من أسوأ ما مرّ على تاريخها. فالرايخ الثالث معزول دبلوماسياً وعقيم عسكرياً. والعالم كله كان ثائراً على الأعمال الفظيعة التي ارتكبها النازيون وبخاصة إضطهادهم الساميين. وجيران ألمانيا ولاسيّما فرنسا وبولندا تقفان موقف المعادي الشاك. وفي شهر آذار ١٩٣٣، عقب المناورات العسكرية البولندية في الدانزگ اقترح المارشال بلسودسكي Pilsudski على فرنسا ترحيبه بحربٍ وقائية مشتركة ضد الألمان. حتى موسوليني رغم مظاهر الترحيب التي قابل بها ميلاد حكم فاشيّ ثانٍ لم يكن في الحقيقة متحمساً لإستيلاء هتلر على الحكم. إن زعيم بلادٍ أقوى من إيطاليا في كلّ شيء لابّد وأن يكسف شمس (الدوتشي) حالاً. وأنّ رايخاً مسعوراً هائجاً- يجمع كل الألمان، ستكون لديه خططه بخصوص النمسا والبلقان حيث سبق للدكتاتور الإيطالي أن جأر بإدعاءاته فيها. وعداء الإتحاد السوڤياتي لألمانيا واضح في حين كان من أعزّ أصدقاء الجمهورية منذ ١٩٢١. كان الرايخ الثالث بلداً معدوم الصديق في عالمٍ معادٍ وهو منزوع السلاح. أو هو قريب من ذلك نسبةً الى جاراته المسلحة تسليحاً حسناً.

كانت ستراتيجية هتلر وتاكتيكه الفوريّان في السياسة الخارجية تمليها عليه الحقيقة العارية، حقيقة كون ألمانيا ضعيفة ومعزولة. ولكن هذا الوضع وهنا وجه الطرافة- كان ايضاً يمدها بأهداف طبيعية تلائم أعمق رغباته الخاصة ورغبات الأغلبية الساحقة من الشعب الألماني التخلص من قيود ڤرساي دون أن يؤدي ذلك الى فرض العقوبات إعادة التسلح دون المخاطرة في حرب. ففي تحقيقه هذين الغرضين المؤقتين فقط. ستتوفر له الحرية والقوة العسكرية لإتباع سياسة طويلة الأمد كان قد رسم أهدافها ووسائلها بصراحة كبيرة وباسهابٍ في (كفاحي).

أول ما ينبغي عمله طبعاً هو أن يوقع البلبلة في خصومه في أوروبا بالدعوة الى نزع السلاح والسلم والمراقبة الدقيقة لمعرفة نقاط الضعف في تسليحهم الجماعي، وفي ١٧ أيار ١٩٣٣ ألقى هتلر أمام الرايخشتاغ "خطبة السلام" وهي واحدة من ألمع الخطب في حياته السياسية. قطعة من الدعاية المضللة لا نظير لها، هزت اعمق مشاعر الألمان ووحدتهم خلفه، وخلفت إنطباعاً طيباً عميقاً في العالم

الخارجي. وقبل ذلك بيوم واحدٍ أرسل الرئيس روزفلت رسالة بليغة مؤثرة الى رؤساء أربع وأربعين دولة رسم فيها الخطوط العامة لسياسته معبراً عن آمال الولايات المتحدة الأمريكية في نزع السلاح والسّلم والدعوة الى إتلاف الأسلحة الهجومية، كقاذفات القنابر والدبابات والمدفعية الثقيلة المتحركة. وكان هتلر سريعاً في قبول تحديّ الرئيس الأمريكيّ والاستفادة منه أكثر الفائدة:

"ان الإقتراح الذي عرضه الرئيس روزفلت – وقد جاءني نبأوه أمس – انما يستأهل أحرّ الشكر من الحكومة الألمانية انها مستعدة للموافقة على هذه الطريقة للتغلب على الأزمة الدولية... إن إقتراح الرئيس كان قبساً من نور أملٍ مريح لكلّ أولئك الذين يرغبون في التعاون على حفظ السلم... ان ألمانيا مستعدة تماماً لنبذ كل الأسلحة الهجومية إن أتلفت الدول المسلحة من جانبها أسلحتها الهجومية... وهي مستعدة أيضاً لحلّ وتصفية كُلّ مؤسساتها العسكرية وتدمير السلاح القليل المتبقي لديها إن فعلت الدول المجاورة الشيء نفسه... إن ألمانيا مستعدة للإنضمام الى أيّ ميثاقٍ عدم إعتداء رصين لأنها لا تفكر في هجوم بل تنشد السلامة لا غير".

وهناك الكثير جداً في الخطاب الذي أدهش إعتداله وحبه بالسلمّ عالماً قلقاً ونزل عليه برداً وسلاماً. ألمانيا لاتريد الحرب. الحرب "جنون لا حدود له" انها قد "تسبب إنهيار النظام الإجتماعي والسياسيّ المعاصر." وليس لألمانيا النازية رغبة في "جرمنة" شعوب أخرى. "إن عقلية القرن الماضي التي حملت الشعب على التفكير بأنهم يستطيعون أن يصنعوا من البولنديين والفرنسيين ألماناً هو تفكير غريب عن عقولنا... الفرنسيون والبولنديون وغيرهم هم جيراننا ونحن نعلم بأنه لايوجد حدث معقول تاريخياً يمكن تغيير هذه الحقيقة به".

كان هناك تحذير واحدٌ. طلبت ألمانيا معاملة متساوية لها بكلّ البلاد الأخرى ولاسيّما في ميدان التسلّح وإن لم تظفر ألمانيا بهذا فهي تفضل الإنسحاب من مؤتمر نزع السلاح ومن عضوية عصبة الأمم.

نُسي التحذير وسط الفرح العام في كل العالم الغربي والترحيب الكبير بحصافة هتلر وأقواله المعقولة. واتفقت جريدة التايمس اللندنية على ان طلب هتلر المساواة هو مما لايمكن "المحاجّة فيه"، أما "الديلي هرالد" اللندنية لسان حزب العمال فقد طلبت أن يؤخذ هتلر بلسانه. واستنتجت جريدة "الاسبكتيتر" الأسبوعية المحافظة أن هتلر قبض على يد الرئيس روزفلت. وان إلتفاتته يتمثل فيها أمل جديدٌ للعالم المعذب. وفي واشنطن نقل موظف لمكتب الأنباء الألمانية عن سكرتير الرئيس الأمريكي انه قال "كان الرئيس متحمساً لموافقة هتلر على إقتراحاته".

لم يخرج من الدكتاتور النازيّ الناريّ تهديدات عنيفة وحشية كما توقع الكثيرون، وانما ظهرت رقة وحلاوة وشعاع أمل. واهتز العالم طرباً. وفي الرايخشتاغ صوّت الجميع دون إستثناء بالموافقة على تصريحات هتلر في السياسة الخارجية حتى النواب الإشتراكيون، أولئك الذين لم يكونوا في السجن أو المنفى.

لكن تحذير هتلر لم يكن أجوف وعندما ظهر واضحاً في أوائل تشرين الأول أن الحلفاء سيصرّون

على فترة ثماني سنوات لينقصوا أسلحتهم الى مستوى ألمانيا، فأعلن فجأة في ١٤ تشرين الأول بأن ألمانيا تنسحب حالاً من مؤتمر نزع السلاح ومن عصبة الأمم لرفض حقها في المساواة مع الدول الأخرى. وفي الوقت نفسه اتخذ خطوات ثلاثة أخرى: حلّ الرايخشتاغ وأعلن أنه سيضع قراره هذا بالإنسحاب من (جنيڤ) في الإستفتاء الشعبي العام وأمر (الجنرال ڤون بلومبرگ) وزير الدفاع بإصدار أوامر سريّة للقوات المسلحة تقضي بمقاومة أيّ هجوم إن لجأت العصبة الى فرض العقوبات[٢٥].

هذا العمل المتهور كشف عن زيف خطاب هتلر التوفيقي في الربيع المنصرم. وكان أول مغامرة لهتلر صريحة في الشؤون الخارجية. ومعناها أن ألمانيا النازية تنوي من تلك اللحظة تسليح نفسها متحدية كل معاهدة نزع سلاح ومعاهدة ڤرساي بالذات. كانت مخاطرة حُسب حسابها وهي الأولى من عدة مخاطرات، وأوامر (بلومبرگ) السرية الى الجيش والأسطول التي كشف النقاب عنها في محاكمات نورمبرگ توضح أن هتلر لم يغامر بإحتمال فرض العقوبات وحدها، بل بوضع ألمانيا اليائس إن فرضت عليها فعلاً[٢٦].

ففي الغرب ازاء فرنسا وفي الشرق ازاء كل من پولندا وچيكوسلوڤاكيا نجم عن تلك الأوامر إقامة خطوط دفاعية واضحة، أُمرت القوات الألمانية "بالثبات فيها أطول مدة ممكنة" وكان واضحاً من أوامر (بلومبرگ) هذه أن الجنرالات الألمان على الأقل- لم يكونوا يشكون قط في أنّ وسائل الدفاع عن الرايخ لن تستطيع الصمود فترةً من الزمن مهما قلت. كانت هذه أولى الازمات العديدة في فترة من الزمن امتدت ثلاث سنين- حتى الى ما بعد عودة الألمان الى إحتلال الضفة اليسرى للراين المنزوعة من السلاح في ١٩٣٦- عندما كان الحلفاء قادرين على فرض العقوبات لا لترك هتلر مؤتمر نزع السلاح وعصبة الأمم، بل لخرقه شروط نزع السلاح في معاهدة ڤرساي وهو الخرق الذي ظلّ مستمراً في ألمانيا طوال سنتين على أقل تقدير بل حتى قبل مجيء هتلر. أما وان الحلفاء في ذلك الوقت كانوا قادرين بكل سهولة على إخضاع ألمانيا فهو شيء مؤكد قدر ما هو مؤكد أن عملاً كهذا كان سينهي حياة الرايخ الثالث في السنة التي ولد. ولكن اتفق لهذا المتشرد النمساوي السابق فكان من جوانب عبقريته أن أدرك منذ وقت طويل مدى عزم خصومه في الخارج بالخبرة والبصيرة اللتين وزن بهما خصومه في الداخل. ففي هذه الأزمة لم تتخذ الشعوب الحليفة الظافرة أي إجراء- كما كان موقفها في الأزمات الكبرى التي باتت تتعاقب بسرعة حتى ١٩٣٩ كانت أكثر إختلافاً وترهلاً وعماءً مما يمكن أن تتفهم طبيعة أو إتجاه ما يتم بناؤه عبر ضفة الراين الأخرى. وكانت تقديرات هتلر في هذا صحيحة الى آخر حَدّ كما كانت في الماضي وكما ستكون في المستقبل بالنسبة الى شعبه. كان يعرف

٢٥- أوامر بلومبرگ [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج٣٤ الص٤٨٧-٤٩١ الوثائق C ١٤٠].

٢٦- قبل ذلك بأشهر- في ١١ أيار- حذر اللورد هيلشام Hailsham وزير الحرب البريطاني بصورة رسمية ان أيّ محاولة من ألمانيا لإعادة تسليح نفسها سيعد نقضاً للمعاهدة وسيرد عليه بالعقوبات. حسب ما نصت عليه المعاهدة، وفي ألمانيا ظُن ان العقوبات المقصودة بالتصريح تعني الغزو العسكري.

حق المعرفة ماذا سيقول الشعب الألماني في الإستفتاء العام الذي عين له يوم ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٣ مع إجراء إنتخابات الرايخشتاغ الجديدة للحزب الوحيد في البلاد! وهو اليوم الذي يلي ذكرى إستسلام ألمانيا في ١٩١٨. يوم لا أبا لك أسود مازال عالقاً في اذهان الألمان!

قال مخاطباً إجتماعاً إنتخابياً في برسلاو Breslau في الرابع من تشرين الثاني "أصبروا، وسترون أن هذا اليوم سيكون فيما بعد خالداً في تاريخ أمتنا بوصفه يوم الخلاص العتيد- وسيشار اليه بالقول المأثور: في الحادي عشر من تشرين الثاني فقد الشعب الألماني شرفه رسمياً، وبعدها بخمسة عشر عاماً جاء الثاني عشر من تشرين الثاني وفيه استعاد الألمان شرفهم بأيديهم". وفي ليلة يوم الإنتخاب (١١ تشرين الثاني) أضاف هندنبرگ الجليل الشأن مساندته له بإذاعة على الشعب: "اظهروا غداً وحدتكم الوطنية المتماسكة ومعاضدتكم للحكومة ساندوا معي ومع مستشار الرايخ مبدأ الحق العادل، ومبدأ السلم الشريف. وأظهروا للعالم بأننا صحونا وبمعونة الله ستحقق الوحدة الألمانية"!

وكان جواب الشعب الألماني بعد خمس عشرة سنة من النقمة والحقد على ما انتجته الهزيمة العسكرية من آثار- جواباً جماعياً تقريباً. فقد صوّت زهاء ٩٦٪ من مجموع أصوات الناخبين الكليّ وصادق ٩٥٪ بالمائة منهم على إنسحاب ألمانيا من (جنيف) وصوّت لقائمة نواب الرايخشتاغ الوحيدة التي طرحها النازيون (وبضمنها هوگنبرگ وحوالي خمسة أو ستة أسماء غير نازية) ٩٢٪ من مجموع الأصوات العام. حتى في معسكر الإعتقال في (داخاو Dachau) صوّت الى جانب الحكومة (٢١٥٤) معتقلاً من أصل (٢٢٤٢) معتقلاً للحكومة التي اعتقلتهم!! الحق يقال أن تهديداً قد يحصل في بعض المناطق لكلّ من يستنكف عن المساهمة في الإقتراع أو لمن يصوّت الى الجانب الخطأ. وفي احوال كثيرة كان ثم خوف في أن يقبض على من يصوّت ضد النظام ويعاقب، مع كل هذه التحفظات والإستثناءات فان الإنتخابات التي جرى تعدادها على الأقل- بأمانة، كانت نصراً موزراً لأدولف هتلر. ولايهم أيّ شك بأنه فاز بدعم الأغلبية الساحقة للشعب الألماني في تحديه العالم الخارجي كما أسلفنا.

بعد الإستفتاء والإنتخاب بثلاثة أيام. استدعى هتلر السفير البولندي الجديد جوزيف ليپسكي Josef Lipski. على أثر حديثهما صدر بيان مشترك اذهل الشعب الألماني والعالم الخارجي معاً فيه اتفقت الحكومتان البولندية والألمانية "على حَلّ المشاكل التي تهم بلديهما بطريق المفاوضات المباشرة ونبذ كل إستخدام للقوة في علاقاتهما بعضهما ببعض، لتثبيت دعائم السلم الأوروبي".

كانت بولندا العدوّ المبغض المحتقر في أذهان الألمان أكثر من فرنسا نفسها، فهم يرون أن أبشع جريمة إرتكبها صانعو سلم ڤرساي هي فصل پروسيا الشرقية عن الرايخ بالممر البولنديّ واقتطاع الدانزگ وإعطاء البولنديين اقليم پوزن Posen وجزءً من سيليزيا اللتين كانتا من ضمن الأراضي الألمانية منذ أيام تقسيم پولندا، وإن كانا بالأصل پولنديين بحكم أغلبية السكان. ولم يكن سياسيّ ألماني واحدٌ في عهد الجمهورية يرغب في إعتبار هذه الهبة البولندية ذات صفة دائمة. حتى أن

(شتريزمان) رفض عقد إتفاق (لوكارنو) شرقيّ مع پولندا كملحقٍ لإتفاق (لوكارنو) في الجهة الغربية من أوروپا. كما وان (الجنرال ڤون سيكت) أبا جيش الرايخ والحكم من بين محكمي السياسة الخارجية في السنوات الأولى من العهد الجمهوري قد نصح الحكومة منذ ١٩٢٢ بأن "وجود پولندا أمرٌ لايحتمل ولايأتلف قط مع الظروف الجوهرية اللازمة لحياة ألمانيا"، وأصر بقوله "يجب أن تذهب، ولتذهبن!". واضاف إن إزالتها من الخارطة "يجب أن يكون واحداً من إتجاهات السياسة الألمانية الأساسية." فباختفاء پولندا من عالم الوجود سيسقط واحد من أقوى أركان صلح ڤرساي، وهو سيطرة فرنسا[٢٧] قبل ان يزيل هتلر پولندا وجد من الضروري أن يفصلها عن حليفتها فرنسا والسبيل الذي سار عليه الآن يصيبه بعدة منافع الى جانب الهدف النهائي. فبنبذه إستعمال القوة ضد پولندا يتمكن من تقوية دعايته للسلم وتبديد الشكوك التي ظهرت في كُلّ من شرق أوروپا وغربها على أثر إنسحابه من جنيف. وبإقناع الپولنديين بإجراء مفاوضات مباشرة، يتمكن من تخطّي عصبة الأمم وبذلك يضعف من سلطانها. ويستطيع أن يوجه ضربةً الى تفسير العصبة "للضمان الجماعيّ". كذلك ينسف التحالف الفرنسي في شرقي أوروپا وپولندا دعامته الكبرى. ربما صعب على الألمان ببغضهم التقليدي للپولنديين أن يفهموا ذلك، ولكن من ميزات الدكتاتورية على الديمقراطية -في نظر هتلر- أن السياسات غير المألوفة التي قد تأتي بنتائج باهرة في الأخير يمكن أن تتبع بصورة مؤقتة دون إحتجاجٍ صاخبٍ من الداخل.

في ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٤، قبل مواجهة هتلر للرايخشتاغ بأربعة أعوام، إحياءً للذكرى الأولى لتوليه السلطة أعلن عن توقيع معاهدة عدم اعتداء بين ألمانيا وپولندا أمدها عشر سنوات. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً بدأت پولندا تفصل نفسها عن فرنسا حاميتها منذ بعثها الى الحياة في ١٩١٩ وتدنو من ألمانيا النازية وتوثق علاقاتها بها، وكانت تلك البلاد نفسها، تحكم بدكتاتورية المارشال بلسودسكي التي قضت على آخر مظاهر الديمقراطية البرلمانية. انها اتخذت سبيلاً كان سيؤدي بها الى الدمار قبل ان ينتهي أجل معاهدة "الصداقة وعدم الإعتداء" وعندما خطب هتلر في الرايخشتاغ ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤. كان يستطيع أن يفخر بسنةٍ من الأعمال الباهرة لاتضاهيها سنة في تاريخ ألمانيا. ففي غضون إثني عشر شهراً قوّض صرح جمهورية ڤايمر واقام بديلاً عن ديمقراطيتها دكتاتوريته الخاصة. سحق كل الأحزاب السياسية بإستثناء حزبه. حطم الحكومات الفيدرالية ذات الإستقلال الذاتي وقضى على برلماناتها ووحد الرايخ وازال صفته الفيدرالية، ومحا نقابات العمال محواً. ووطيء المؤسسات الديمقراطية من كل الانواع وطرد الساميين من الحياة المهنية والعامة، وصادر حرية القول والصحافة. وخنق إستقلال المحاكم و"نسّق" تحت الحكم النازي الحياة السياسية والإقتصادية والثقافية والإجتماعية لشعب عريق متمدّن.

٢٧- اقتباس (تلفورد تايلر) في "السيف والصليب المعقوف". إن أوراق الجنرال ڤون سيكت هي الآن في دار الوثائق الوطنية بواشنطن.

لكل هذه الإنجازات ولعمله المبرمج في السياسة الخارجية الذي نزع ألمانيا من مجموعة دول جنيف وأعلن اصرار الألمان على أن يعاملوا معاملة مساوية للدول الكبرى، دعمته الأغلبية الساحقة من الشعب الألماني الى كما وضح في إنتخابات الخريف واستفتائه.

مع ذلك كله فقد اجتمعت سحبٌ في سماء النازي بدخول دكتاتوريته سنتها الثانية.

-٦-

التطهير الدمّوي في ٣٠ حزيران ١٩٣٤

إن إكفهرار الجوّ كان متسبباً عن ثلاث مشاكل لم تجر تسويتها وقد مرّ ذكرها: إستمرار مطالبة زعماء الحزب وقادة الـ(إس. أي) المتطرفين "بالثورة الثانية" والمنافسة بين الـ(إس. إس) والجيش، ومسألة استخلاف الرئيس هندنبرگ الذي بدأت أيامه في الحياة معدودة. وبمجيء الربيع كان (روهم) رئيس هيئة أركان الـ(إس. أي)، على رأس جيش قوامه مليونان ونصف المليون من جنود العاصفة، ولم تفل من غُرابه تلميحات هتلر في ضمه الى الحكومة، أو رسالته الرقيقة الشخصية في عيد رأس السنة. وفي شباط قدم لمجلس الوزراء مذكرة مسهبة مقترحاً فيها أن يُجعل الـ(إس. أي) أساساً للجيش القومي الجديد وأن يوضع الـ(إس. أي) والـ(إس. إس) وكل الوحدات الإحتياطية المحاربة مع القوات المسلحة تحت مسؤولية وزارة دفاع واحدة يكون هو على رأسها- (كان الاستنتاج سهلاً). لم يكن ثم فكرة اشنع من هذه الفكرة قد تتصورها هيئة الضباط، ولم يكتف الضباط الأقدمون برفض الإقتراح بالاجماع وانما ناشدوا (هندنبرگ) ليخفّ الى دعمهم. ستتحطم كلّ تقاليد الطبقة العسكرية إن سيطر (روهم) الفظّ الشقي وزمرته الأوباش من ذوي القمصان الرمادية على الجيش. ومما زاد ضغثاً على إبالة ارتياع الجنرالات من الحكايات التي بدأت الآن تنتشر انتشاراً واسعاً. عن فساد وتفسخ الطغمة المنحرفة جنسياً التي تحيط برئيس الـ(إس. أي) كما كان سيشهد بذلك فيما بعد الجنرال (ڤون براوختش Von Brauchtisch): "إن إعادة التسليح عمل هو على درجة من الخطورة والصعوبة لايمكن اشراك قوادين وسكيرين ومنحرفين جنسياً فيه".

في تلك الفترة لم يكن هتلر قادراً على إغضاب الجيش، فلم يدعم إقتراح روهم، والواقع أنه أخبر سراً السر انطوني ايدن الذي قدم برلين للتشاور في مشكلة نزع السلاح في ٢١ شباط أنه مستعد لانقاص الـ(إس. أي) الى الثلثين والموافقة على نظام تفتيش للتأكد بأن الباقي منه لايدرب تدريباً عسكرياً ولايحمل سلاحاً وهو عرضٌ ما لبث أن تسرب وألهب نار حنق روهم وجيشه واقترب صيف عام ١٩٣٤ وازدادت العلاقة بين رئيس الـ(إس. أي) وقيادة الجيش العليا شنآناً وعداءً. وكان في مجلس الوزراء مناقشات عاصفة بين (روهم) والجنرال ڤون بلومبرگ. وفي آذار إحتجّ وزير الدفاع



روهم

لدى هتلر على قيـام الـ(إس. أي) سراً بتسليح قوة كبيرة من الحرس الخاص بالأركان بالرشاشات الثقيلة. الأمر الذي ينطوي على تهديدٍ للجيش فضلاً عن كونه يتم بشكل علني فاضحٍ يهدد بإفتضاح التسليح السري الذي يشرف عليه جيش الرايخ.

من الواضح أن هتلر في هذه المرحلة وخلافاً لروهم العنيد وأعوانه كان يفكر بعيداً الى اليوم الذي سيلفظ الرئيس العليل آخر أنفاسه. يدري أن الرئيس الطاعن في السن، والجيش وغيرهما من القوى المحافظة في ألمانيا تحبذ إعادة ملكية هوهنزلرن الى البلاد حالما يقضي الرئيس نحبه. في حين كان لديه هو خطط أخرى وعندما بلغته والجنرال (ڤون بلومبرگ) أنباءٌ سرية محققة من (نودك) أن أيام الرئيس أصبحت معدودة، أدرك أن ضربة جريئة واحدة قد آن أوانها ولات حين مناص منها ولضمان نجاحها كان يحتاج الى دعم هيئة الضباط، وللحصول على هذا الدعم كان مهيئاً للوصول به الى أقصى حدّ.

وعرضت المناسبة في حديثٍ صريح مع الجيش حالاً. ففي ١١ نيسان ركب المستشار بصحبة الجنرال ڤون بلومبرگ وقائدي الجيش والأسطول العامين الجنرال فرايهر ڤون فريتش Freiherr Von Fritsch والأميرال رايدر على ظهر الطراد دويتشلاند Deutschland من (كيل) الى كوينكسبرغ لحضور المناورات السنوية في پروسيا الشرقية. فأبلغ قائد الجيش والأسطول بحالة هندنبرگ المتردية واقترح هتلر بجرأة وصراحة مدعماً من الجنرال الطيّع بلومبرگ أن يكون هو خلفاً للرئيس. وهو يتعهد للجيش مقابل ذلك أن يقضي على طموح روهم، ويُقلص الـ(إس. أي) الى عددٍ لايؤبه به ويضمن ان يكون الجيش والأسطول حملة السلاح الوحيدين في الرايخ الثالث ويعتقد ايضاً أن هتلر وعد (فريتش ورايدر) أيضاً بتوسيع الجيش والأسطول إن كانا مستعدين للسير الى جانبه. فوافق الأميرال رايدر المتزلّف على ذلك دون تردد. لكن فريتش وهو رجل صعبٌ أجاب بأنه سيشاور جنرالاته الأقدمين أولاً.

وتمت هذه المشاورة في (باد ناوهايم Bad Nauheim) في ١٦ أيار وبعد أن شرح للقادة الأعلين في الجيش الألماني "ميثاق الطراد دويتشلاند" لهم. وقّعوا لهتلر، بوصفه خليفة الرئيس هندنبرگ[٢٨].

٢٨- المصادر عن "ميثاق دويتشلاند" هي-(Weissbuch ueber die) (٣٠ حزيران)(Erschiessung) ١٩٣٤ (پاريس ١٩٣٥) الص ٥٢-٥٣. هربرت روزنسكي Herbert Rosinski في "الجيش الألماني" الص ٢٢٢-٢٢٣ يؤيد كذلك =

وهذا القرار السياسي الذي اتخذه الجيش كان سيظهر أثره التاريخي فيما بعد. فبوضع الجيش نفسه طوعاً بين يدي الدكتاتور المهووس بدون قيد أو شرط أو وازعٍ أو رقيب يكون قد ختم على مصيره الأبديّ. أما بالنسبة لهتلر فان الصفقة كانت ستجعل دكتاتوريته مطلقةً متفوقة على كل شيء، فذهاب الفيلد مارشال وبالقضاء التام على فكرة عودة آل هوهنزلرن وبصيرورته رأساً للدولة فضلاً عن رآسته الحكومة لن يعود ثَمَّ عائق في طريقه. والثمن الذي دفعه للإرتفاع الى قمة السلطان والحكم كان تافهاً زهيداً، هو التضحية بالـ(إس. أي) الذي لم يعد بحاجة اليه بعد أن اجتمعت كل السلطات في يده. إن الـ(إس. أي) غوغاء مشاكسة كثيرة الضجة تخجله وتحرجه ليس إلاّ. لاشك ان ازدراء هتلر بعقليات الجنرالات العتيقة قد تبدل في ذلك الربيع تبدلاً مفاجئاً. قد يكون فيهم شيء قليل من ضيق الأفق والمحافظة على القديم وهذا ما آمن به دون شك وظلّ مقيماً عليه ولم ينصرف عنه إلا في لحظة سيئة واحدة – في شهر حزيران ١٩٤٥ عند اقتراب النهاية، نهايته ونهايتهم.

ومع ذلك كله فقد اقبل الصيف ومتاعب هتلر غير منتهية. وبدأ توتر مشؤوم الطلائع يشد على أعصاب برلين وتضاعفت الصيحات بطلب "الثورة الثانية" وازدادت، ولم يعد الأمر قاصراً على (روهم) وضباط فرق العاصفة بل تعداه الى گوبلز نفسه وظهر ميله هذا في خطبه وفي الصحف التي يسيطر عليها، اذ اطلقها لتجأر بصيحة الثورة. وارتفعت إحتجاجات اليمين المحافظ واليونكرز والصناعيين الكبار وراحوا يلحون على (پاپن) وهندنبرگ مطالبين بإيقاف الثورة عند حدّ وانهاء الإعتقالات التعسفية وإضطهاد اليهود، ومهاجمة الكنائس والأديان، والسلوك الصلف الاعتدائي الذي يمارسه جنود العاصفة وان يوقف الإرهاب العام الذي نظمه النازيون.

وفي نطاق الحزب نفسه كان يوجد صراع عنيف جديد على السلطة فقد راح گورنگ وهملر أقوى عدوين لروهم- يوحدان جهودهما ضده، ففي (١) نيسان عيّن گورنگ زميله هملر مديراً لشرطة (الگشتاپو) البروسية. وهو بالأصل رئيس فرقة الحرس الأسود (إس. إس) التي لم تزل فرعاً للـ(إس. أي) وبقيادة روهم ايضاً فبادر هملر بإنشاء إمبراطورية خاصة به من الشرطة السرية. وگورنگ الذي جعله الرئيس (هندنبرگ) في آب الماضي جنرالاً من صنف المشاة General der Infanterie (مع انه وزير طيران) كان جد مغتبط بخلع لباسه الرمادي الحقير وارتداء بزة ازهى واوقع في النفس هي بزة الرتبة التي رقي اليها. وكان التغيير الداخلي يناسب التغيير الخارجي فكجنرال وفرد من أسرة تنتمي الى الطبقة العسكرية في البلاد ما عتم أن انحاز الى الجيش في حربه ضد (روهم) والـ(إس. أي) ولأجل ان يحمي نفسه في صراع الغابة الدموي الذي تدور رحاه الآن جند شرطته الخاصة المعروفة "بفرق بوليس البلاد الخاصة بالجنرال گورنگ Landespolizeigruppe" وبلغ عددهم عشرة آلاف من الصناديد أتم حشدهم في مدرسة (ليخترفلده Lichterfelde) العسكرية، وفيها كان أول دخوله الجيش. وهي ذات

= شروط الميثاق (بوللوك، وهويلر بينيت) وقد ضمناها كتابيهما في هذه الفترة. مصدر إجتماع ١٦ أيار للقادة هو (جاك بينواس–ميشان Jacque Benoist Michiue في كتابه "الجيش الألماني قبل الهدنة" ج١١ الص ٥٥٣–٥٥٤.

موقع ستراتيجي في ضواحي برلين.

وزاد من التوتر في العاصمة اشاعات إنتشرت حول مؤامرات ومؤامرات مضادة. كان الجنرال (ڤون شلايخر) قد استأنف تدخلاته السياسية، بعد ان ضاق ذرعاً بالبقاء في زوايا النسيان المستورة. وتذكر أنه بات فاقد الحول والطول لعدم تمتعه بثقة هندنبرگ والجنرالات وأحزاب المحافظين فبادر بالإتصال بـ(روهم وگريگور شتراسّر). ووصلت تقارير الى هتلر تفيد انه يحاول عقد صفقات يستهدف بها الى تسنم منصب نائب المستشار بدلاً من عدوه القديم (پاپن) وان يتبوّأ (روهم) منصب وزير الدفاع، ويندمج الـ(إس. أي) بالجيش ووزعت قوائم بأسماء الوزارات بالعشرات في برلين. تجد في بعضها (برويننگ) وزيراً للخارجية و(شتراسّر) وزيراً للإقتصاد، ولم يكن لتلك التقارير أساس كبير من الصحة، إلاّ أنها كانت تخرج من مصانع گورنگ وهملر لتقدم الى هتلر بعد زخرفتها وتنميقها، ولم يكن هتلر يحتاج الى تحريض كثير او وسواس طويل لتثار شكوكه. وكان كلا الرجلين يعمل للقضاء على (روهم) والـ(أس. أي) وتصفية حسابهما مع (شلايخر) في الوقت عينه، لأغراض خاصة يضمرها گورنگ ورئيس شرطته ليست قاصرة على تطهير الـ(إس. أي) وانما لتصفية معارضين آخرين من اليسار واليمين. بينهم بعض من وقف في طريق هتلر في الماضي، ثم اعتزل العمل السياسيّ. وفي أواخر أيار حُذر كل من شلايخر وبرويننگ بأن النية معقودة على إغتيالهما فانسلّ الثاني متنكراً خارج البلاد بأسرع ما أمكن. وسافر الآخر الى باڤاريا للراحة إلاّ انه عاد الى برلين في أواخر حزيران.

وفي بداية حزيران جرت مقابلة صاخبة عاصفة بين (روهم) وهتلر. قال عنها الأخير في حديثه للرايخشتاغ فيما بعد انها دامت خمس ساعات تقريباً و"استمرت حتى منتصف الليل"، ووصفها "بالمحاولة الأخيرة" للتفاهم مع اقرب الأصحاب في الحركة: "أبلغتُه ان فكرة تكونت لي من عدد لايحصى من الشائعات وما يفوق ذلك من تصريحات أعضاء الحزب القدامى وقادة الـ(إس. أي) المخلصين بأن بعض العناصر التي فقدت ضمائرها تتهيأ للقيام بعمل بلشفيّ! على نطاق الوطن كافة، عمل لايجلب للبلاد إلاّ ما لايمكن التكهن به من نكبات ومصائب... توسلت اليه لآخر مرة ان يتخلى طوعاً عن أفكاره الجنونية وان يقوم بدل هذا، بإستخدام سلطاته للحيلولة دون تطورات في الأمور لاتنتهي إلاّ بكارثة مهما تكن الظروف والنتائج".

ويذكر هتلر ان (روهم) تركه بعد ان أكّد له انه سيفعل كل ما بوسعه لتسوية الأمور ووضعها في نصابها". وزعم ايضاً فيما بعد أن روهم بدأ فعلاً "يستعد للقضاء عليّ شخصياً". يكاد هذا يكون غير صحيح بالمرة. ومع ان قصة التطهير، مثل حادثة حريق الرايخشتاغ ستبقى ببعض جوانبها غامضة، فكلّ الدلائل التي ظهرت الى الوجود أشارت الى ان رئيس الـ(إس. أي) لم يتآمر على ازاحة هتلر. ولا تلقي السجلات التي ضبطت -لسوء الحظ- أيّ ضوءٍ على التطهير أكثر مما ألقت على حرق الرايخشتاغ. ويحتمل جداً أن الوثائق في كلتا القضيتين قد اتلفت بناء على أوامر من (گورنگ).

ومهما تكن طبيعة المناقشة الطويلة التي جرت بين الزعيمين النازيين فقبلها بيومٍ أو يومين طلب

هتلر من فرق الـ(إس. أي) أن تقضي اجازة عامة طوال شهر تموز. وفي خلال ذلك منع جنود العاصفة من ارتداء بزاتهم الرسمية أو إقامة إستعراضات أو إجراء تدريبٍ. وفي ٧ تموز أعلن روهم بأنه سيقضي اجازة مرضية. إلاّ أنه اصدر في الوقت ذاته تحذيراً شديد اللهجة ينطوي على تحد "إن كان أعداء الـ(إس. أي) يأملون أن لايدعى رفاقنا الى الخدمة أو أن يدعى قسمٌ منهم لها بعد انتهاء الاجازة فقد نسمح لهم بالاستمتاع بهذا الأمل المؤقت. انهم سيتسلمون جوابهم في الوقت المناسب وبالصيغة اللائقة. إن الـ(إس. أي) هو مصير ألمانيا وسيبقى كذلك".

وقبل ان يغادر (روهم) برلين دعا هتلر للمداولة مع قادة الـ(إس. أي) في مصيف (ڤيسيّ Wiessee) بالقرب من مونيخ في ٣٠ حزيران فسارع هتلر بالموافقة وحافظ على الموعد فعلاً وإن لم يكن بالشكل الذي تصوره (روهم) وعلى أغلب الظن ليس بالشكل الذي كان هتلر في تلك الساعة يتحسسه. فقد أقر فيما بعد في بيانه للرايخشتاغ أنه كان متردداً "أقلّب وجوه الرأي مرة بعد أخرى قبل إتخاذ القرار النهائي. كنت متشبثاً بالأمل الخفيّ في أن اكون قادراً على تجنيب الحركة والـ(إس. أي) من عار هذا الخلاف فانجح في ازالة التناقض من دون اصطدام عنيف".

ثم زاد قائلاً: "ولأعترف أن الأيام الأخيرة من أيار كانت تكشف بإستمرارٍ عن حقائق مقلقة أكثر فأكثر." لكن أهذا حق؟ إدّعى هتلر فيما بعد ان (روهم) والمتآمرين الآخرين أتموا إستعدادهم لإحتلال برلين وإعتقاله. فان كان الأمر كذلك فلماذا غادر كل قادة الـ(إس. أي) العاصمة في أوائل حزيران – وأهم من هذا– لماذا ترك هتلر ألمانيا في تلك الفترة فاعطى فرصة للـ(إس. أي) للقبض على زمام الدولة في غيابه؟

ففي ١٤ حزيران طار الفوهرر الى مدينة (البندقية) لحضور أول إجتماع من عدة إجتماعات ستتلو مع زميله الدكتاتور الفاشي موسوليني. ولم تكن المقابلة كما شاءت الصدف ناجحة بالنسبة للزعيم الألماني الذي بدا بمعطفه المطريّ المجعد وقبعته اللينة شديد التضايق بمحضر من الدوتشي الأكثر تجربة والأبهى منظراً ببزته الفاشية السوداء الزاهية المحلاة بالأوسمة. والذي تعمد إظهار تنازله الى زائره. وعاد هتلر الى برلين في حالة بائسة من سوء المزاج والضيق. ودعا قادة الحزب الى إجتماعٍ في بليدة (گيره Gera) في (ثورينجيا) بتاريخ ١٧ حزيران ليقدم بياناً بمحادثاته مع موسوليني وايضاح الحالة المتردية في الداخل. وحكم القدر ان يجري إجتماعٌ آخر (نهار الأحد) في جامعة بلدة (ماربورگ) العتيقة، أثار في ألمانيا إهتماماً أكثر بكثير وتعداه الى العالم كله. مما ساعد على ايصال حراجة الموقف الى ذروته.

كان (پاپن) المهذب قد دُفع جانباً بكل فظاظة من قبل هتلر وگورنگ إلاّ انه مازال نائب المستشار ومازال يتمتع بثقة هندنبرگ، جمع ما يكفي من الشجاعة ليتكلم علناً ضد تجاوزات ذلك النظام الذي عمل الكثير لأجل فرضه على ألمانيا. وفي أيار قام بزيارة الرئيس العليل في (نودك) وكان آخر مرة يشاهد حاميه حياً. فقال له الفيلد مارشال الشيخ الذي هدّه الضعف. "الأمور تسير سيراً سيئاً

يا (پاپن) فحاول ما يمكنك لتقويمها".

وبهذا التشجيع قبل دعوة لإلقاء خطابٍ في جامعة (ماربورگ) في ١٧ حزيران. وكان معظم الخطبة من بنات أفكار واحدٍ من مشاوريه الخصوصيين "إدگار يونك Edgar Jung" وهو محامٍ لامع من مونيخ وأديب پروتستانتي المذهب على أن بعض الآراء فيها كانت من وضع هربرت ڤون بوسه Herbert Von Bose أحد كتمة سرّ نيابة المستشارية واريخ كلاوسنر Erich Klausener زعيم منظمة العمل الكاثوليكي- وهو تعاون كلفهم حياتهما بعد قليل. لقد كانت خطبة باسلة والفضل لـ(يونك) وأسلوبه البليغ المؤثر الوقور العبارة. لقد دعا الى انهاء الثورة ووضع حد ختامي للإرهاب النازي وإعادة الآداب الإجتماعية المتواضع عليها وردّ جانب من الحريات ولاسيّما حرية الصحافة. وقال (پاپن) مخاطباً الدكتور گوبلز وزير الدعاية:

"المناقشات المريحة الرجولية تخدم الشعب الألماني. وأكثر فائدة له مثلاً من الوضع الحالي للصحافة. [يجب أن] تكون الحكومة منتبهة الى المثل السائر "الضعفاء وحدهم لايتحملون انتقاداً"... لاتخلق الدعاية رجالاً عظاماً... إن رغب المرء في إتحاد وإتصال وثيق بالشعب فعليه ألا يقلل من شأن عقلية الشعب وفهمه. على المرء ألاّ يبقي الشعب الى الأبد مربوطاً بحبال المقود... لايمكن لمنظمةٍ أو دعاية بالغ ما بلغت من الانتظام والسموّ، أن تنال الثقة في الزمن البعيد. ولايمكن الفوز بثقة الشعب وإخلاصه بطريق الاستفزاز... ولا بالتهديد أو إرهاب الطائفة العديمة النصير والحيلة من الشعب بل بإقناع الشعب بالكلام والبرهان. إن الشعب الذي يعامل كالساعة morons ليس عنده ثقة يقدمها... لقد آن الوقت لنلتحم معاً في صداقة أخوية وإحترامٍ لكل أبناء وطننا وأن نجتنب اضاعة مجهودات الرجال الجادين وأن نسكت المتعصبين(٢٩).

عندما شاع أمر الخطبة قوبلت بحفاوة وثناء واسع في ألمانيا. إلا أنها سقطت على قادة النازيين القليلين الذين كانوا مجتمعين في (گيره) مثلما تسقط القنبلة. وتحرك گوبلز بسرعة لحصر انتشارها في اضيق دائرة ممكنة. فمنع إذاعة تسجيل لها من دار الإذاعة حيث كان ذلك مقرراً مساء اليوم كما منع أيّ تنويه بها في الصحف وأمر الشرطة بجمع نسخ جريدة (فرانكفورتر زايتُنگ) التي كانت تباع في الشوارع وهو العدد الذي نشر مقتطفات للخطبة. ولكن سيطرة وزير الدعاية المطلقة لم تكن كافية لمنع الشعب الألماني والعالم الخارجي من إطلاعه على محتويات الخطبة الجريئة. كان (پاپن) الماكر قد وزع نسخاً من خطبته قبل إلقائها، على المراسلين الأجانب والدبلوماسيين في برلين. وهربت عدة آلاف نسخةٍ من المطبعة التي تطبع جريدة پاپن الخاصة "جرمانيا" ووزعت سراً. وثارت كوامن الغيظ في هتلر عندما سمع بنبأ خطبة (ماربورگ) في (گيره) بعد الظهر وهاجم "القزم الذي يتصور أن بإمكانه الحيلولة دون عملية التجديد الجبارة التي تجرى في حياة الشعب ببضع عبارات وهاجت هائجة پاپن

٢٩- (Berlin, Geronania. Rede des Vizekanzlers Von Papen Vor dem Universitaitsbund, Marburg am 17 Juni, 1934 Verlag)


همـلـر

أيضاً لمنع إذاعة خطبته وملاحقتها وأسرع الى هتلر في العشرين من حزيران لإبلاغه بأنه لايتسامح في عملية احتجاز يقوم بها "وزير صغير الشأن مستجد" وشدّد القول على انه لم يتكلم إلاّ "نيابة عن الرئيس" وبادر حالاً الى تقديم إستقالته مضيفاً اليها إنذاراً "أنه سيبلغ الرئيس بكل هذا في الحال(٣٠)"

كان هذا تهديداً أقلق هتلر حقاً لأنه كان على علم بتقارير تشير الى ان الرئيس مستاءٌ جداً من الوضع وهو مزمع على إعلان الأحكام العرفية وتسليم السلطة للجيش. فلأجل أن يقدر خطورة هذا الخطر على إستمرارية النظام النازي، طار الى (نودك) في اليوم التالي (٢١ حزيران) لزيارة هندنبرگ. وزادت المقابلة في مخاوفه فقد لقي الجنرال ڤون بلومبرگ وأدرك حالاً أن أسلوب التذلل والخنوع الذي يقابله به عادةً، قد اختفى حالاً. بدا فون بلومبرگ الآن ذلك الجنرال البروسيّ الصارم. وابلغه بلهجة جافة أنه مخوّل من الرئيس الفيلد مارشال ليبلغه: إن لم تنته حالة التوتر الحاضرة في ألمانيا بسرعةٍ فسوف يعلن الرئيس الأحكام العرفية ويضع في ايدي الجيش زمام السلطة وتصريف شؤون الدولة. وأيد الرئيس نفسه هذا الإنذار لهتلر عندما سمح له بمقابلته عدة دقائق بمحضر من الجنرال بلومبرگ. كان هذا إنقلاباً خطيراً في الوضع يهدد بكارثة للمستشار النازي. ففضلاً عن تذبذب أمله في استخلاف الرئيس، كانت سيطرة الجيش نهايته ونهاية الحكومة النازية. فعاد بالطائرة الى برلين في ذلك اليوم ولا بد وأنه كان يفكر بأن بقاءه مرهون بأمرٍ لا خيار له فيه. عليه أن يقدم دليل الصدق على إتفاقه مع الجيش فيسحق الـ(إس. أي) ويحول دون مدّ الثورة التي كان يلح بها قادة جنود العاصفة. فقد وضح لديه أن الجيش ومن خلفه الرئيس لايرضيان بأقل من هذا.

مع ذلك ظلّ هتلر في الأسبوع الأخير الحرج من شهر حزيران – متردداً على الأقل في مدى العنف الذي سيرافق حملته على قادة الـ(إس. أي) وهو يدين لهم بالكثير. لكن (هملر وگورنگ) تقدما الآن ليساعداه على إتخاذ القرار. فقد سبق لهما أن رتبا قوائم الحساب التي يريدان تصفيتها. وهي قوائم طويلة بأسماء الأعداء القدماء منهم والجدد الذين ستشملهم التصفية. وكل ما كان يترتب عليهما عمله هو إقناع الفوهرر بان "المؤامرة" تستهدفه بالذات، وبضرورة القيام بعمل سريعٍ قاسٍ. وبحسب

٣٠- پاين المرجع السالف ص٣١٠.

إفادة (ڤلهلم فريك) وزير الداخلية [واحد من أخلص أصدقاء هتلر] في محاكمات نورمبرگ، أن هملر هو الذي أقنعه أخيراً بان "روهم أراد القيام بإنقلابٍ". واضاف (فريك) "فأمر الفوهرر هملر بسحق الإنقلاب" واوضح ان هملر بُلغ بأن يقمعها في باڤاريا، وأن يقمعها گورنگ في برلين[٣١].

واشتد إلحاح الجيش على هتلر ايضاً، وبهذا شارك في مسؤولية الأعمال البربرية التي وقعت. في الخامس والعشرين من حزيران قام الجنرال ڤون فريتش القائد العام للجيش بوضع قواته في حالة استنفارٍ وألغى كل الاجازات ومنع خروج الجنود من الثكنات. وفي ٢٨ حزيران طُرد روهم من عصبة الضباط الألمان- وكان إنذاراً واضحاً لرئيس الـ(إس. أي)- أن الخطر قد احدق به. ولكي لايبقى أيّ مجال للشك - وبخاصة لروهم في موقف الجيش والى ايّ جهة ينحاز. خطا (بلومبرگ) خطوة غير مسبوقة بنشره مقالاً بتوقيعه الصريح في الڤولكشر بيوباختر يوم ٢٩ حزيران جاء فيه أن "الجيش... يقف خلف أدولف هتلر... الذي بات واحداً منّا".

اذن فالجيش كان يلحّ في إجراء التطهير. الاّ أنه لم يكن يريد أن يلطخ يديه. ويجب أن يقوم به هتلر وگورنگ وهملر بمساعدة الحرس الأسود (S. S) وشرطة گورنگ الخاصة.

غادر هتلر برلين الى (إيسّن) نهار الخميس الموافق ٢٨ حزيران لحضور حفلة قران (الگاولايتر) المحلي جوزيف تربوڤن Terboven ان المرحلة ومناسبتها لاتوحيان بوجود أزمة خطيرة راهنةٍ. وفي اليوم ذاته أمر گوبلز وهملر وحدات خاصة من (الحرس الأسود)، وشرطة گورنگ بأن تكون في حالة الإستعداد. ويظهر أنهما شعرا بمزيد من حرية العمل بغياب هتلر. وفي اليوم التالي الموافق ٢٩ حزيران قام الفوهرر بجولة في مخيمات العمل في وستڤاليا. وعاد بعد الظهر الى (گودسبرگ) على الراين وحلّ في فندق على الضفة يديره المدعو (دريسّن Dressen) أحد رفاق الحزب القدامى وفي ذلك المساء وصل گوبلز الى (گودسبرگ) وبدت حيرته بين المعسكرين لايدري الى أيّهما ينضمّ. ثم صحّ عزمه وقدم تقريراً وصفه هتلر "بالاستخبارات الخطيرة" ومما جاء فيه التقرير أن كارل أرنست (خادم اوتيل سابق وشقيّ سابق في مقهى يتردد اليه المنحرفون جنسياً جعله روهم قائد كل الـ(إس. أي) في برلين، قد استنفر جنود العاصفة. كان ارنست [وهو شاب وسيم إلاّ أنه ثخين العقل] يعتقد خلال الأربع والعشرين ساعة أو نحوها الباقية من حياته. أنه يواجه مؤامرة من اليمين وكان سيموت وهو يهتف بفخر "هايل هتلر!" وادعى هتلر بعدئذ إنه حتى تلك الساعة من التاسع والعشرين كان عازماً على "تجريد رئيس الأركان [روهم] من وظائفه وإعتقاله لفترة مؤقتة وأن اوقف عدداً من قادة الـ(إس. أي)، لم يجر استجوابهم عن جرائم ارتكبوها... وأناشد الآخرين بإخلاص وسلامة نية بأن يتفرغوا الى واجباتهم". ولا أكثر من ذلك.

"[بيّن للرايخشتاغ في ١٣ تموز] قال "وعلى كلّ... في الساعة الواحدة بعد نصف الليل تسلمت رسالتين مستعجلتين من برلين ومونيخ تتعلق باستدعائي لأمرٍ ذي خطورة: فأولاً في برلين صدر الأمر

٣١- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٥ الص ٦٥٤-٦٥٥ الوثائق PS ٢٩٥٠).

بتحشيد إنذاري في الرابعة بعد الظهر... وفي الخامسة بعد الظهر كان مقرراً أن يبدأ في تنفيذ الخطة بهجوم مباغت، وان يتم إحتلال البنايات الحكومية... ثم يأتي دور مونيخ، لقد أعطي الأمر الاستنفاري للـ(إس. أي) بالتجمع في الساعة التاسعة مساءً... إنه عصيان وتمرّد!... في هذه الظروف لم اجد مفراً من تقرير أمرٍ واحد... بالتدخل القاسي الدموي فقط يمكن خنق التمرد في مهده والحيلولة دون اتساعه... وفي الثانية بعد نصف الليل طرتُ الى مونيخ."

لم يكشف هتلر عن مصدر "الرسالتين العاجلتين" ولكن الظن يروح الى گورنگ وهملر. وما هو مؤكد أنهما تضمنتا مبالغات ضخمة. ففي برلين كان أخطر ما قام به قائد الـ(إس. أي) (أرنست) لايزيد عن سفره بالسيارة الى (برلين) في يوم السبت هذا- بصحبة عروسه لقضاء شهر العسل على ظهر سفينة في ماديرا Madeira. وماذا في الجنوب حيث كان أكبر إحتشاد للـ(إس. أي) "المتآمرين"؟ عندما كانت الساعة تؤذن بالثانية بعد نصف الليل في ٣٠ حزيران وهتلر والى جانبه گوبلز يحلقان من مطار هانگلار Hangelar بالقرب من (بون)، في تلك اللحظة كان الكابتن روهم وضباطه الـ(إس. أي) يغطون في النوم كلّ على فراشه في فندق هانسلباور Hanslbauer في (ويسي) على ساحل بحيرة تگرينسي Tegernsee. أما (أدموند هاينس) زعيم فرق العاصفة Obergruppenfuehrer في سيليزيا وهو قاتل ومحكوم سابقاً ومنحرف جنسياً سيء الصيت بوجهٍ يشبه وجه صبيةٍ يعلو جسماً لدناً مفتولاً شبيهاً بجسم عتال بيانو فقد كان في فراشه يحتضن فتىً! لقد كان رؤساء الـ(إس. أي) بعيدين جداً عن تدبير ثورة حتى أن (روهم) ترك حرسه الخاص في (مونيخ). وبدا على قادة الـ(إس. أي) علائم الانشراح وانصرفوا الى القصف واللهو ولم تبدر أيّ بادرة منهم تدل على التآمر.

ونزل هتلر مونيخ في الرابعة صباحاً مع صحبه القليلين (إلتحق بهم كل من أوتو ديتريتش رئيس مكتبه الصحفي (وفكتور لوتزه Vicktor Lutze قائد (إس. أي) في هانوڤر الذي لا لون له، والمخلص جداً) فوجد بعض الإجراءات قد سبق إتخاذها. قام (الميجر ڤالتر بوخ) رئيس محكمة الحزب (أوشلا)، وأدولف ڤاگنر وزير داخلية باڤاريا يعاونهم رفاق الحزب القدامى المتعلقين بهتلر أمثال (إميل موريس) المجرم السابق، منافسه في حبّ (گيلي راوبال) و(كريستيان ويبر) تاجر الخيول وبلطجي الكباريهات الأسبق بتوقيف قادة الـ(إس. أي) في مونيخ وبضمنهم زعيم المنطقة شنايدهوبر Schneidhuber الذي كان أيضاً مدير شرطة مونيخ. وهتلر، الذي كان الآن قد اوصل نفسه الى حالة مناسبة من الهستيريا وجد الموقوفين في وزارة الداخلية فتوجه رأساً الى (شنايدهوبر) وهو عقيد سابقٌ في الجيش وإنتزع منه شارة الحزب وشتمه "لخيانته".

وبعد انبلاج الفجر بقليل أسرع هتلر ورهطه قاصدين (ڤيسي) برتلٍ طويل من السيارات فوجدوا (روهم) وأصدقاءه يغطون في نومهم العميق في فندق (هانسلباور) فايقظوهم بمنتهى الغلظة وجُرّ هاينس وضجيعه الذكر من فراشهما جراً الى الخارج ورميا بالرصاص حالاً بناءً على أمر هتلر. ودخل الفوهرر وحده- حسب رواية (أوتو ديترش)- غرفة (روهم) وراح يوبخه توبيخاً شديداً وأمر بأن يعاد

الى مونيخ ويوضع في سجن شتادلهايم Stadelheim حيث كان قد قضى مدة عقوبته لمساهمته مع هتلر في إنقلاب مشرب البيرة ١٩٢٣. بعد أربع عشرة سنة ملأى بالعواصف بلغ الصديقان مفترق الطرق. الصديقان اللذان كانا مسؤولين أكثر من غيرهما عن إقامة صرح الرايخ الثالث بكل فظائعه وفضائحه. ووقفا جنباً الى جنب في ساعات الضيق والأزمات والهزيمة والخيبة رغم خلافاتهما الكثيرة. ها هو المقاتل العربيد المنافح عن هتلر والنازية ذو الوجه المغطى بالندوب يأتي الى نهاية حياته العنيفة.

وأمر هتلر- بأن يوتى بمسدس ويترك على المنضدة في سجن رفيقه القديم، كآخر عملٍ إرتأى أنه يتمشى مع الكرامة. فرفض روهم إستخدامه واشيع انه قال معقباً "إن تقرر قتلي فلينفذ هتلر ذلك بنفسه" وعندئذ وبحسب رواية شاهد عيان دخل غرفة روهم ضابطان من الـ(إس. أي) وملازم في الشرطة [حكم عليه بالسجن ثلاثة وعشرين عاماً في ١٩٥٧ في محاكمات ما بعد الحرب في مونيخ] وأطلقا النار على (روهم) من مدى ذراع. قال الشاهد المذكور "أراد روهم أن يقول شيئاً، لكن ضابطي الـ(إس. أي) انتهراه وأمراه بالسكوت. ثم وقف روهم بهيئة الإستعداد -كان عاري الجسم حتى الخصر- ووجهه مفعم بالازدراء والاحتقار"[٣٢].

وهكذا لفظ أنفاسه الأخيرة، مات موتاً عنيفاً كما عاش عيشة عنيفة مزدرياً صديقاً طالما أعانه على بلوغ ما لم يبلغه ألماني من الرفعة والعظمة، مات وهو لايدري ماذا يجري ولم يكوّن له فكرة واضحة عما يحدث، وتلك حقيقة ترقى الى اليقين ومَثَلُه مَثَلُ مئات آخرين ذُبحوا في ذلك اليوم مثل (شنايدهوبر) الذي قيل انه صرخ "ايها السادة لست أدري شيئاً عما يحصل، لكن سددوا بإحكام". لم يدر سبب ذلك خلا أنه عمل من أعمال الغدر لم يتوقعه من أدولف هتلر وهو الذي عاش طويلاً حياة الغدر، وارتكب كثيراً من أعماله بنفسه! وفي برلين كان (هملر وگورنگ) منشغلين ايضاً. ألقي القبض على زهاء مائة وخمسين قائداً من الـ(إس. أي) ووضعوا صفاً واحداً أمام جدار في المدرسة العسكرية في (لخترفلده) لتحصدهم فصائل الاعدام بنارها وهي الفصائل التي تألفت من حرس هملر الأسود وشرطة گورنگ الخاصة ومن بين القتلى (كارل ارنست) الذي قطعت رحلته لشهر العسل زمرة من الحرس الأسود المسلحين عند اقتراب سيارته من (بريمن) وجرح سائقه وعروسه. أما هو فضرب

٣٢- كانت محاكمة مونيخ في أيار ١٩٥٧ أول فرصة يتكلم بها علناً شهود عيان فعليين مساهمون في حركة تطهير ٣٠ حزيران ١٩٣٤. الأمر الذي لم يكن ممكناً أثناء حياة الرايخ الثالث. كان (سپ ديتريش Sepp Dietrich) الذي يتذكره المؤلف بشخصه كواحدٍ من اشد الرجال وحشية في الرايخ الثالث. قد قاد حرس هتلر الخاص من الـ(إس. إس) في ١٩٣٤. واشرف على تنفيذ اعدامات سجن شتادلهايم. وارتفع الى رتبه (كولونيل جنرال) في "Waffen S. S" أثناء الحرب وحكم عليه بالسجن خمسة وعشرين سنة لمساهمته في قتل أسرى الحرب الأمريكان في اثناء معركة بولك Bulge ١٩٤٤ واطلق سراحه بعد عشر سنوات وجيء به الى مونيخ سنة ١٩٥٧. وحكم عليه في ١٤ أيار بالسجن ثمانية عشر شهراً لمساهمته في تطهير ٣٠ حزيران ١٩٣٤. وكان حكمه وحكم (ميخائيل ليپارت) الذي ثبت انه كان واحداً من ضابطي الحرس الأسود اللذين قتلا روهم فعلاً أول عقوبتين يحكم بهما جلادان نازيان ساهما في حركة التطهير.

حتى أفقد الوعي وحمل بالطائرة الى برلين ليلقى حتفه.

ولم يكن رجال العاصفة الوحيدين الذين سقطوا صرعى في يوم الأحد الدامي. ففي صبيحة الثلاثين من حزيران قرعت زمرة من الحرس الأسود ببزاتها الرسمية جرس باب منزل (الجنرال ڤون شلايخر) الريفي في ضواحي برلين وما ان فتح الجنرال الباب حتى سقط مضرجاً بدمائه ومات في الحال، وعندما تقدمت زوجته الى الأمام صرعت هي الأخرى في الحال [كان قد تزوج قبل ثمانية عشر شهراً، بعد عزوبة طويلة] ولقي المصير نفسه الجنرال كرت ڤون بريدوف Kurt Von Bredow صديق شلايخر الحميم في تلك الأمسية. وقبض على (گريگور شتراسّر) في منزله ببرلين بعد ظهر يوم السبت وقتل بعد ساعات قليلة في سجن (برنز البرخت شتراسّه) Prinz Albrechtstrasse، بناءً على أوامر شخصية من گورنگ.

وكان پاپن أسعد حظاً فقد نجا بحياته. إلا أن مكتبه اقتحمته زمرة من الحرس الأسود وعبثوا به وقلبوا عاليه سافله وقتلوا رئيس سكرتيريه (بوسه) وهو جالس وراء مكتبه. وقتل (إدگار يونك) موضع ثقته ومساعده في السجن، وكان الگشتاپو قد اعتقله قبل أيام. وصرع مساعده الآخر (اريخ كلاوسنير) رئيس منظمة العمل الكاثوليكي في مكتبه بوزارة المواصلات. أما موظفو مكتبه الباقون ومنهم البارونة (شتوتزنگن Stotzingen) فقد حملوا الى معسكر إعتقال وعندما ذهب پاپن الى گورنگ محتجاً. لم يكن لهذا مجال لفارغ الكلام في ذلك الوقت، ويذكر پاپن أنّ هتلر دفعه دفعاً الى الخارج واحتجزه في بيته وأحاطه بسياج من الحرس الأسود الشاكي السلاح وقطع تلفونه ومُنع من الإتصال بالعالم الخارجي باي صورة كانت- وهو اذلال وتحقير اضافي ابتلعه نائب المستشارية الألمانية بأحسن ما يمكن. ففي غضون أقل من شهر لطخ نفسه بعار قبوله من النازيين قتلة أصدقائه وظيفةَ وزير مفوض في النمسا حيث كان النازيون قد قتلوا المستشار دلفوس Dolfuss قبل فترة وجيزة.

لم يعرف قط عدد الذين راحوا ضحية التطهير الدموي. لقد أعلن هتلر في خطبته المؤرخة ١٣ تموز أن واحداً وستين شخصاً قتلوا رمياً بالرصاص منهم تسعة عشر "ضابطاً كبيراً من الـ(إس. أي)"، ومات ثلاثة عشر "وهم يقاومون أمر القبض" وأن ثلاثة "إنتحروا" مما يجعل المجموع الكلي سبعة وسبعين. أن "الكتاب الابيض عن التطهير" الذي اصدره المهاجرون في پاريس يقدر عدد القتلى بأربعمائة قتيل وقتيل واحد إلا أنه يذكر بالأسماء مائة وست عشرة ضحية فقط. وفي محاكمة مونيخ ١٩٥٧ أعطي رقم "أكثر من ألف".

قتل الكثير بدافع انتقام بحت. لأنهم وقفوا ضدّ هتلر في الماضي. وصرع آخرون كما يبدو لأنهم يعرفون الكثير مما لاينبغي معرفته. وقتل واحدٌ على أقل تقدير لوقوع إلتباس في هويته. ووجدت جثة (غوستاف ڤون كاهر) [الذي تحدثنا قبلاً عن كيفية قمعه لإنقلاب مشرب البيرة عام ١٩٢٣، وكان قد تقاعد واعتزل السياسة منذ وقتٍ طويل] في مستنقع قرب (داخاو) وقد ضرب حتى الموت بفأسٍ على ما يبدو لم ينسه هتلر ولم يغفر له. ووجدت جثة الأب (برنهارد شتمپفل) من الأخوية

الهيرونيمية- في غابة هارلاشنك Harlaching قرب مونيخ مكسورة الرقبة وقد استقرت في القلب ثلاث رصاصات ويذكر القارىء مما سبق أنه ساعد في تأليف (كفاحي) ثم راح بالأخير يتكلم كثيراً ربما عن معلوماته ومعرفته بالأسباب التي دفعت (گيلي راوبال، حبيبة هتلر) الى الانتحار. يقول هايدن إن عصابة الإغتيال التي قتلته كانت بقيادة (اميل موريس) المحكوم السابق الذي كانت له علاقة حبّ جنسية (بگيلي راوبال) ايضاً. ومن أولئك "الذين يعرفون الكثير" ثلاثة من رجال الـ(إس. أي) يعتقد أنهم شركاء أرنست في إشعال النار بالرايخشتاغ صرعوا مع ارنست أيضاً.

حادثة إغتيال أخرى جديرة بالذكر هنا. في الساعة السابعة والدقيقة العشرين من مساء ٣٠ حزيران كان الدكتور ڤيلي شميد Willi Schmid وهو ناقد موسيقي شهير لصحيفة "مونشنر نويشته ناخريشتن Muenchener Neueste Nachrichten" اليومية الواسعة الانتشار يعزف على آلة "الچيلو" في غرفة عمله في حين انشغلت زوجته في تهيئة العشاء واولادهما الثلاثة واعمارهم تسع سنين وثمان واثنتان يلعبون في غرفة الجلوس بشقة الأسرة في شاكشتراسّه Schackstrasse بمونيخ. فقرع جرس الباب ودخل أربعة من الحرس الأسود واخذوا الدكتور (شميد) بدون كلام وانصرفوا. وبعد أربعة أيام أعيدت جثته في تابوت بصحبة أوامر من الگشتاپو تمنع فتح التابوت مهما كانت الدواعي. لقد إلتبس الأمر على الحرس الأسود فظنوا الدكتور ويلي شميد الذي لا علاقة له بالسياسة أبداً، هو (ويلي شميت) القائد المحلي للـ(إس. أي) الذي اوقف في الوقت نفسه من قبل فصيلة أخرى من الحرس الأسود وقتل[٣٣].

أكان يوجد مؤامرة ما على هتلر؟ لم يكن ثم دليل غير زعمه وكلمته المتمثلة في البيان الرسميّ وخطبة الرايخشتاغ في الثالث عشر من تموز ولم يقدم خيطاً واحداً من الأدلة الثبوتية فيه. صحيح ان روهم لم يكتم نواياه في جعل الـ(إس. أي) نواة جيش جديد يقوم هو على رأسه. ولاشك في انه كان متصلاً بشلايخر لتنظيم خطة بدأ كلاهما ببحثها عندما كان الجنرال مستشاراً. ولعله أدخل (گريگور شتراسّر) شريكاً- حسبما ادعى هتلر. لكن أحاديث كهذه لاترقى الى مرتبة الخيانة. فقد كان هتلر نفسه على إتصال (بشتراسّر) وشقيقه (أوتو) يروي أن هتلر عرض عليه في أوائل حزيران منصب وزير الإقتصاد.

في مبدأ الأمر اتهم هتلر كلاً من روهم وشلايخر بأنهما طلبا عون "دولة أجنبية" ويقصد فرنسا بلاشك. واتهم الجنرال (ڤون بريدوڤ) بقيامه بدور الوسيط في "السياسة الخارجية" وهو أحد جوانب خيانتهما المزعومة. ومع انه كرر التهم في خطبة الرايخشتاغ وعرّض متهكماً "بدبلوماسيّ أجنبي" [ليس غير فرانسوا پونسيه سفير فرنسا] واوضح ان إجتماعه بشلايخر وروهم لم يكن "فيه ضررٌ ما"

٣٣- روت (كاتي ايفا هويرلن Kate Eva Hoerlin) زوجة (ڤيلي شميد) مأساة مقتل زوجها بافادة معززة بالقسم في ٧ تموز ١٩٤٥ في (بنكهامتون- نيويورك) قد إكتسبت الجنسية الأمريكية في ١٩٤٤. ولأجل إسكات هذا العمل البربري والحيلولة دون انتشاره زار رودلف هسّ الأرملة واعتذر لها عن "الخطأ" واجرى لها راتباً تقاعدياً من الحكومة الألمانية. نشرت الافادة في وثائق نورمبرگ: ل: ١٣٥ [مؤامرة النازيين... ج٧ الص ٨٨٣- ٨٩٠]

فقد عجز عن اثبات إتهاماته. وفي قوله "يرتكب أيّ ألماني مسؤول في الرايخ الثالث فعلاً إجرامياً بمجرد زيارته دبلوماسيين أجانب دون علم منيّ" يبدو كم كان ضعيف الحجة: "عندما يعقد ثلاثة من الخونة في ألمانيا... إجتماعاً بسياسي أجنبي... ويصدرون أمراً يحول دون ان تصلني عن إجتماعهم هذا كلمة واحدة. فإني سآمر بقتل أمثال هؤلاء الرجال وان ثبت بالدليل ان هذا الإجتماع المكتوم عني لم يجر فيه كلام أكثر من الحديث عن حالة الجوّ والمسكوكات القديمة وأمثال هذه المواضيع".

ولما احتج (فرانسوا پونسيه) إحتجاجاً شديداً على فرية مساهمته المزعومة في "مؤامرة روهم" ابلغت وزارة الخارجية الألمانية الحكومة الفرنسية أنّ الإتهام كله لا أساس له من الصحة وان الحكومة الألمانية ترغب أن يبقى السفير في منصبه والواقع -والمؤلف شاهدٌ- ان فرانسوا پونسيه بقي ذا علاقة شخصية طيبة بهتلر أكثر من أيّ سفير آخر لدولة ديمقراطية.

وفي أول بيان يجمد الدم في العروق أذاعه (أوتو ديتريش) رئيس المكتب الصحفي للزعيم، بل وفي خطبة هتلر نفسها أمام الرايخشتاغ. كان الحديث مستفيضاً عن التفسخ الخلقي في روهم وغيره من قادة جنود العاصفة القتلى. فأكد (ديتريش) أنه شهد إعتقال (هاينس) الذي كُبس مع ضجيع فتىً في (ويسيّ) انه لمنظر فظيع "يجلّ عن الوصف". وقال هتلر في خطبة ألقاها على بقية قادة الـ(إس. أي) في مونيخ ظهر يوم ٣٠ حزيران بعد عمليات القتل الأولى مباشرة "هؤلاء الرجال يستحقون الموت بسبب تفسخهم الخلقي وحده.

على أن هتلر كان يعلم بهذا التفسخ الخلقي من البداية، من أيام الحزب الأولى. كان يعلم أن عدداً كبيراً من أقرب أصدقائه وأهمّ اتباعه هم منحرفون جنسياً وقتلة محكومون. ومن شائع القول مثلاً أن (هاينس) إعتاد إرسال رجال الـ(إس. أي) يجوبون ألمانيا طولاً وعرضاً ليجدوا له معشوقين من الذكور يناسبون ذوقه. أمور لم يكتف هتلر بالإغضاء والتسامح فيها بل بالدفاع عنها. لقد حذر حزبه أكثر من مرة بألاّ يكون شديد التنطع في أخلاق الشخص الخاصة إن كان مقاتلاً متعصباً للحركة، والآن في ٣٠ حزيران ١٩٣٤ نجده يعترف باستنكاره وصدمته النفسية للتفسخ الخلقي في بعض أعوانه الأقدمين.

معظم القتول تم في عصر يوم الأحد الموافق ١ تموز، وطار هتلر الى برلين من مونيخ ليلة ذلك اليوم. وقام بدور المضيف في حفلة شاي اقيمت في حدائق قصر المستشارية. وفي يوم الإثنين شكره الرئيس هندنبرگ على "تصميمه الحازم وتدخله الشخصي البطولي، مما ادى الى استئصال الخيانة في مهدها وإنقاذ الشعب الألماني من خطر ماحق" وكذلك هنأ (گورنگ) على عمله "الناجح النشيط" في قمع "الخيانة العظمى" وفي يوم الثلاثاء قدم الجنرال ڤون بلومبرگ له تهنئة الحكومة التي شرعت حالاً في "تبرير" المذبحة وإعتبارها ضرورة وإجراءً حتمياً "للدفاع عن الدولة" واصدر بلومبرگ أيضاً أمراً يومياً للجيش يعبر فيه عن رضا القيادة العليا بالتغيير الذي طرأ على الوضع ويعد بإقامة "علاقات إحترام مع الـ(إس. أي) الجديد".

من الطبيعي ولاشك أن يرحب الجيش بالقضاء على منافسه الـ(إس. أي) ولكن ماذا عن الشعور بالكرامة، دعك من الشعور بالخلق الحسن حين لاتكتفي هيئة الضباط بالموافقة، بل تمتدح بشكل علني حكومة لقيامها بمذبحةٍ غير مسبوقة في تاريخ ألمانيا قتل خلالها عمداً وببرودة دم إثنان من كبار قادتها العسكريين هما الجنرال ڤون "شلايخر" والجنرال ڤون "بريدوڤ" ثم وصما بالخيانة؟ لم يرتفع بالإحتجاج على قتل الجنرالين بعد وصمهما بالخيانة العظمى غير صوتي الفيلد مارشال ڤون ماكنزن ذي الخمس والثمانين سنة، والجنرال ڤون "هامرشتاين" القائد العام السابق للجيش[٣٤] هذا السلوك الذي ابدته هيئة الضبّاط كان لطخة سوداء في شرف الجيش، كذلك كان دليلاً على غباء وقصر نظر لايمكن تصديقه.

عندما اعتبر الجنرالات، أعمال هتلر اللاقانونية الإباحية قضيتهم المشتركة، وضعوا أنفسهم في موضع تعذر عليهم معه الوقوف ضدّ أعمال النازي الإرهابية المقبلة ليس في داخل ألمانيا وحدها وإنما بعد عبورها الحدود وممارستها في البلاد الأخرى، بل حتى عندما وجهت الى أعضاء هيئتهم بالذات. ذلك لان الجيش أصبح يسند ادعاء هتلر بأنه أصبح القانون أو كما صاغ الأمر هو نفسه في خطبته أمام الرايخشتاغ في ١٣ تموز: "إن لامني أي شخص، أو سألني لماذا لم ألجأ الى المحاكم الاعتيادية القضائية؟ فكل ما يمكنني قوله هو هذا: في هذه الساعة أنا مسؤول عن مستقبل ألمانيا وشعبها ولهذا كنت القاضي الأعلى (Abesster Gerichtscher) للشعب الألماني" واضاف هتلر عن الإجراءات الحازمة: "على كل فردٍ أن يعلم لما يستقبل من الزمن أنه إن رفع يده لضرب الدولة فسيكون مصيره "الموت الزؤام" هذا التحذير كانت أذرعته ستمتد الى الجنرالات بعد عشر سنوات بالضبط والى حَدّ ذلك اليوم عندما حاولت فئة منهم أكثر جراءة، رفع ايديهم ليضربوا "قاضيهم الأعلى".

زد على ذلك ان هيئة الضباط كانت تخادع نفسها في ظنّها أن يوم ٣٠ حزيران خلّصها الى الأبد من تهديد الحركة النازية لسلطانها التقليدي وإمتيازاتها. إذ حَلَّ الحرس الأسود(S. S.) محلّ جنود العاصفة. وفي ٢٦ تموز فُصل الحرس الأسود عن الـ(إس. أي) وأصبح مستقلاً وجُعل هملر قائده بإسم "رايخ فوهرر"، مسؤولٌ أمام هتلر فقط. وتم ذلك كهدية لقيامه بتنفيذ الإغتيالات. ولم يطل الزمن بهذه القوة الحسنة التدريب المخلصة جداً حتى أصبحت منافسة للجيش ونجحت من حيث أخفق رجال روهم ذوو القمصان الرمادية الخلقو الثياب.

وظَلّ الجنرالات ساعتئذ على أتمّ ثقةٍ من الوضع. وبخاصة عندما كرّر هتلر في خطبة الرايخشتاغ بأن الجيش "سيبقى حامل السلاح الأوحد". لقد تخلص المستشار من الـ(إس. أي) بناءً على طلب

٣٤- واصل هذان القائدان الكبيران مجهودهما لتنقية اسمي شلايخر وبريدوڤ. ونجحا في حمل هتلر على الإقرار في إجتماع سري لقادة الحزب وقادة الجيش في ٣ كانون الثاني ١٩٣٥ ببرلين. ان مقتل الجنرالين كان "خطأ" وان يعلن أن أسميهما سيعادان الى سجل الشرف في لوائيهما. إن "ردّ الإعتبار" هذا، لم ينشر في ألمانيا. إلاّ ان هيئة الضباط اعتبرت المسألة منتهية (انظر هويلر بينيت E ص٣٣٧).

القيادة العليا، بعد أن تجاسر على تحدّي سلطانه التقليدي. وحان الوقت الآن ليفي الجيش بالجزء الذي تعهد به في "ميثاق الطراد دويتشلاند".

-٧-

وفاة هندنبرگ

ظل هندنبرگ الصلب العود على مايبدو يقترب من النهاية طوال فصل الصيف. وفي التاسعة من صباح اليوم الثاني لشهر آب حضرته الوفاة وهو في السابعة والثمانين. وبعد ثلاث ساعات أُعلن: بموجب قانون شرعته الوزارة في "اليوم السابق" أن وظيفتي المستشارية والرئاسة قد دمجتا وأن أدولف هتلر قد تسلم سلطان رآسة الدولة والقائد العام للقوات المسلحة. وألغي عنوان "رئيس الجمهورية". وان هتلر سيعرف من الآن فصاعداً باسم "الفوهرر ومستشار الرايخ". لقد أصبحت دكتاتوريته تامة. ولكي لايدع هتلر أي ثغرة فيها انتزع قَسَماً من ضباط الجيش وأفراد القوات المسلحة كلها بالولاء له، لا لألمانيا ولا للدستور الذي خرق أحكامه خرقاً صريحاً بعدم الإعلان عن إجراء إنتخاب خلفٍ لهندنبرگ، بل بتعيين نفسه واليك صيغة اليمين:

"أحلف هذا اليمين المقدس باللّه. أني سأكون مديناً لأدولف هتلر بالطاعة المطلقة غير المشروطة بوصفه زعيماً للرايخ الألماني وشعبه والقائد الأعلى للقوات المسلحة. وان أكون مستعداً -كجندي باسل- لبذل حياتي في سبيل هذا القسم وفي أي وقت".

ومنذ آب ١٩٣٤ فصاعداً، ارتبط الجنرالات الذين كانوا يستطيعون حتى هذا التاريخ القضاء على النظام النازيّ بسهولة لو شاؤوا، ارتبطوا بشخص أدولف هتلر واعترفوا به أعلى سلطة شرعيّة في البلاد وشدّوا أنفسهم بيمين الطاعة والإخلاص، الذي اعتبروه رباط شرف لايمكن الحنث به في كل الظروف مهما كان عاره عليهم وعلى وطنهم كبيراً. كان قسماً أقلق ضمائر عدد قليل جداً من كبار الضباط فيما بعد، عندما انطلق زعيمهم المعترف به في سلوك سبيل لايمكن أن يؤدي الى غير الدمار الوطني فعارضوا فيه. بل كان عهداً ساعد عدداً أكبر من الضباط على الاعتذار لأنفسهم عن أية مسؤولية شخصية في تلك الجرائم التي لايرقى اليها الوصف، مما ارتكبوه تنفيذاً لأوامر القائد الأعلى. بعد أن اتضح لهم معدنه الحقيقي في مذبحة ٣٠ حزيران. واحدة من ضلالات هيئة الضباط الألمان المذهلة بخصوص هذه المسألة، متأتيةٌ من التصادم بين الولاء و"الشرف" وهي كلمة (يمكن لهذا المؤلف أن يشهد من تجاربه الخاصّة) أنها لم تترك شفاههم، ولديها عندهم مفهوم عجيب. فآلت الى أن يلحقوا العار بأنفسهم في أكثر الأحيان بسبب محافظتهم على كلمة الشرف. ومرّغوا شرفهم في الوحل كأشخاصٍ من بني البشر ولطخوا قوانين هيئتهم الخلقية بوصمة شنعاء.

أعلن (الدكتور گوبلز) عند وفاة هندنبرگ بوصفه وزير الدعاية، أنه لم يعثر على وصية أخيرة أو عهد للفيلد مارشال وينبغي أن يفترض عدم وجود أيّ منهما. ولكن وصية هندنبرگ السياسية ظهرت فجأة في ١٥ آب قبل أربعة أيام من إجراء الإستفتاء العام للطلب من الشعب الألماني الموافقة على تولي هتلر وظائف رآسة الجمهورية. وسلّمت الى هتلر و... پاپن هو ولا غيره سلّمها له. وكانت كلمات المديح المزجاة لهتلر عتاداً قوياً لگوبلز في آخر أيام معركة الإستفتاء وعززت في آخر ليلة للتصويت بإذاعة خطاب للعقيد أوسكار ڤون هندنبرگ.

"رأى والدي بنفسه في أدولف هتلر خلفه المباشر في رآسة الدولة الألمانية واني أعمل بحسب نوايا الوالد الخاصّة عندما أطلب من كل الألمان رجالاً ونساءً التصويت بالموافقة على تسليم سلطات والدي الى الفوهرر، مستشار الرايخ[٣٥].

يكاد يكون من الثابت أن هذا كذب في كذبٍ. لأن هندنبرگ - بناءً على احسن ما تيسر من الادلة- قد اوصى كرغبة أخيرة له- بإعادة الملكية بعد وفاته. هذا الجزء من الوصية عمد هتلر الى اخفائه. لقد كشف بعد الحرب عن جانب إن لم نقل عن كل الغموض الذي كان يكتنف حقيقة وصية الرئيس الشيخ، حين استجوب پاپن في نورمبرگ وبعد ان نشر مذكراته. وفي الوقت الذي لم تكن أقوال پاپن منزهة، أو شهادته خالية من الطعون، أو لعله لم يخبر بكل ما يعرف على أن شهادته مما لايمكن تجاهله. فهو نفسه وضع النقاط الأولى لوصية هندنبرگ الأخيرة بناءً على تكليف الفيلد مارشال كما يزعم:

"[قال في مذكراته] كانت صيغتي توصي بإقامة ملكية دستورية بعد وفاته. ونوهت بصراحة ان الجمع بين المستشارية ومنصب رئاسة الجمهورية غير مستحبّ. ولأجل أن لا أغيظ هتلر فقد أدرجت عبارات تنمّ عن الرضا ببعض الإنجازات الايجابية التي تمت في ظلّ النظام النازي".

وقدم پاپن مشروع وصيته الى هندنبرگ في شهر نيسان ١٩٣٤. ويستطرد قائلاً "بعد بضعة أيام سألني القدوم اليه وابلغني انه قرر ألا يوافق على الصيغة بالشكل الذي اقترحته. لقد شعر... أن الوطن بأسره هو الذي يقررّ ما يريد بخصوص الدولة التي يفضلها. ولهذا ينوي أن يعتبر وقائع خدماته بمثابة وصية، وتوصياته المتعلقة بعودة الملكية، ستدون بشكل رغبات أخيرة برسالة خاصة موجهة الى هتلر. وهذا بالطبع يعني أن وجهة النظر التي ضمنتها مشروعي للوصية قد انتهى أمرها حيث أن التوصية بإعادة الملكية لن توجه الى الشعب، وهو أمرٌ جنى منه هتلر كلّ الفائدة فيما بعد".

لم يكن ثم ألماني مثل پاپن على وقوف تامٍ بكيفية انتفاع هتلر من ذلك.

"عندما عدتُ الى برلين بعد تشييع جثمان هندنبرگ في مدينة تاننبرغ Tannenberg. اتصل بي هتلر تلفونياً وسألني هل وجدت وصية سياسية لهندنبرگ وهل لدي علم بمكانها؟ فقلت سأسأل أوسكار

٣٥- مما يجلب الانتباه ومما له دلالته الخاصّة ان هتلر رقىّ (أوسكار) الى رتبة (ميجر جنرال) في ذلك الوقت (انظر ما سبق).

ڤون هندنبرگ. فأجاب هتلر سأكون جدّ ممتنّ إن ضمنت وصول هذه الوثيقة الى يدي بأسرع ما يمكن. وعندئذ طلبتُ من (كاجنيك Kageneck) سكرتيري الخاص أن يسافر الى (نودك) ويسأل نجل هندنبرگ عند وجود وصية وهل بإمكاني تسلمها لايصالها الى هتلر؟ ولما لم اكن قد رأيت هندنبرگ منذ تركه برلين في نهاية أيار فلا ادري هل أتلف أوسكار الوصية أم ظلّ محتفظاً بها."

وجد أوسكار، الوثيقة بصورة مفاجئة، في حين لم يعثر عليها بعد وفاة والده مباشرةً. ولم يتطلب ذلك مقدرة خارقة منه كما شهد بذلك الكونت ڤون شولنبرغ Von Schulenberg مرافق الرئيس هندنبرگ؛ في شهادته أثناء محاكمة پاپن في محكمة التطهير النازيّ. فقد كشف أن الرئيس هندنبرگ وقع في ١١ أيار وثيقتين: وصيته، وآخر رغباته. الأولى معنونة الى "الشعب الألماني" والثاني موجهة الى "مستشار الرايخ". وأخذ شولنبرغ الوثيقتين معه عندما ترك هندنبرگ برلين في آخر رحلة له الى (نودك). ويقول پاپن أنه لم يعلم بذلك في حينه. على أن سكرتيره ما لبث أن عاد من (نودك) بالوثيقتين في ظرفين مختومين وسلمهما أوسكار ڤون هندنبرگ له. وفي ١٥ آب سلمهما پاپن لهتلر في (برختسگادن).

"قرأ هتلر الوثيقتين بكلّ دقة وتباحثنا في مضامينهما. كان واضحاً أن توصيات هندنبرگ فيهما التي تعبرّ عن آخر رغباته، تخالف نوايا هتلر. ولهذا فقد استفاد من وجود عنوان "الى مستشار الرايخ أدولف هتلر" على الغلاف. قال "هذه التوصيات التي كتبها الرئيس الراحل تخصني بالذات. وسأقرر فيما بعد هل سأسمح بنشرها، ومتى سيكون ذلك". ورجوته عبثاً أن ينشر الوثيقتين معاً. ولم يسلم الى مدير مكتبه الصحفي للنشر غير سرد هندنبرگ لخدماته التي تضمنت مديحاً بهتلر ماذا كان مصير الوثيقة الثانية التي توصي بان يعود آل هوهنزلن الى رآسة الدولة لا هتلر؟ لايقول پاپن شيئاً، ولايعرف شيئاً؛ وبما انه لم يتم العثور عليها بين مئات من أطنان الوثائق السرية التي ضبطت بعد هزيمة النازي فعلى الارجح أن هتلر أتلفها حالاً.

وربما لن تخلف تأثيراً لو وجد هتلر في نفسه الشجاعة والأمانة لنشرها. فقبل موت (هندنبرگ) بيومٍ واحدٍ حمل هتلر الوزارة على سنّ قانون يمنحه كل صلاحيات الرئيس. واما ان هذا القانون غير شرعي فلا أهمية لذلك في ألمانيا حيث أصبح نائب العريف النمساوي الآن القانونَ نفسه وعدم دستوريته ومنافاته للشرعية واضح للعيان. في ١٧ كانون الثاني ١٩٣٢ على عهد حكومة شلايخر صادق الرايخشتاغ بأغلبية الثلثين اللازمة على تعديل للدستور يقضي بتنصيب رئيس محكمة النقض والإبرام بدلاً من المستشار- كرئيس مؤقت للجمهورية. حتى تجري إنتخابات جديدة للرئاسة. وفي حين يعطي (قانون التمكين) الذي هو الأساس الشرعي لدكتاتورية هتلر- الحق للمستشار في سن القوانين التي تخالف أحكام الدستور، فهو في الوقت نفسه يمنع بصراحة أيّ تصدٍ لصلاحيات الرآسة وسلطاتها.

ولكن أيّ أهمية للقانون الآن؟ پاپن لايأبه بالأمر، فقد قبل مسروراً ان يخدم هتلر وزيراً مفوضاً في

النمسا وأن يذلل المصاعب ويزيل الجفاء المتسبب عن مقتل المستشار دلفوس على ايدي النازيين. والجنرالات غير مهتمين ايضاً فقد راحوا يعملون بدأب وشوق لبناء جيش هتلر. ورجال الصناعة ايضاً لايهمهم الأمر فقد انشغلوا بحماسةٍ في صناعتهم الرائجة المربحة بقرار إعادة التسلح. اما المحافظون من رجال المدرسة القديمة رجال "انقياء اطهار" كالبارون ڤون نيوراث وزير الخارجية والدكتور شاخت محافظ بنك الرايخ المركزي فلم يستقيلوا. لم يستقل احد وفي الواقع لم يتحرج الدكتور شاخت من تولي منصب آخر هو وزارة الإقتصاد في ٢ آب وهو اليوم الذي استولى هتلر على سلطات الرئيس الراحل وسلطات الشعب الألماني في ١٩ آب خرج ٩٥٪ من أولئك المسجلين في قوائم الناخبين ليقترعوا. وصوّت ٩٥٪ منهم، ويبلغ عددهم ثمانية وثلاثين مليوناً بالموافقة على ايداع السلطة المطلقة لهتلر. أربعة ملايين وربع مليون ألماني وجدوا في أنفسهم الشجاعة- أو الرغبة في التصويت بـ(لا).

لا عجب أن كان هتلر يشعر شعور الواثق عندما إلتأم مؤتمر الحزب النازي في نورمبرگ في الرابع من أيلول. ولقد راقبتُه في صبيحة اليوم الثاني وهو يسير كالإمبراطور الظافر في الممر الأوسط لقاعة لويتبولد Luitpold العظمى المزدانة بالأعلام في حين كانت الفرقة الموسيقية تصدح بالنشيد العسكري بادنڤايلر Badenweiler وقد ارتفع ثلاثون ألف ذراع بالتحية النازية. وبعد دقائق قليلة استوى جالساً بفخر في وسط المرسح الكبير وقد كتف يديه وإلتمعت عيناه. وهو ينصت الى (الگاولايتر) أدولف ڤاگنر قائد الحزب في باڤاريا يقرأ بيان الفوهرر.

"لقد تقرر طرز الحياة الألمانية بشكل نهائي للسنوات الألف المقبلة. إن امتحان الأعصاب للقرن التاسع عشر قد وجد نهايته بنا ولن تكون ثورة أخرى في ألمانيا للسنوات الألف المقبلة!"

ولما كان بشراً من بني آدم فلن يعيش ألف سنة. إلاّ أنه سيحكم مادام حياً هذا الشعب العظيم حكماً أوتوقراطياً غشوماً مطلقاً لم يعرفوا مثله من قبل. ليس هنالك الرئيس الكلي التوقير هندنبرگ ليقف حائلاً دون سلطته. والجيش هو في يده مرتبط بيمين الولاء والطاعة لايسهل على جنديّ ألمانيّ الحنث به في الواقع. كلّ ألمانيا وكل الألمان كانوا ملك يديه الملطختين بالدماء لاسيّما بعد أن تمّ التخلص من آخر المعارضين وإختفاء كل المناوئين الى الأبد.

وهتف يقول للمراسلين الأجانب بعد نهاية أسبوع مرهق من الخطب والإستعراضات، والطقوس الوثنية وفروض العبادة الحماسية مما لم يرها المؤلف تقام لشخصية سياسية من قبل: انه رائع!

لقد قطع أدولف هتلر طريقاً طويلاً من أزقة (ڤيينا) وهو الآن في الخامسة والأربعين فقط. وتلك هي البداية وان عاد المرء الى ألمانيا بعد موت الجمهورية فلن يخطيء رؤية حقيقة واضحة، وهي ان هتلر مهما كانت جرائمه ضدّ البشرية- قد اطلق قوة ديناميكية ذات طاقة لاتحدُّ. كانت كامنة في الشعب الألماني مدة طويلة ووجهها الى غاية اوضحها في صحائف (كفاحي) وفي مئات الخطب، مرت دون أن يلاحظها أحد أو يعبأ بها وسخر منها العديد من الناس- بل كُلّ الناس تقريباً خارج الرايخ الثالث وداخله.

الفصل الرابع

الحياة في الرايخ الثالث

١٩٣٣-١٩٣٧

-١-

في حدود هذا الزمن ١٩٣٤- وكان آخر الصيف قدمت لأعيش وأعمل في الرايخ الثالث. وكان هنالك الكثير مما يدهش، ويحير ويقلق المراقب الأجنبيّ. كان يبدو أن الأغلبية الساحقة من الألمان غير مكترثة بمصادرة حرياتها الشخصية. بأنّ كثيراً من ثقافتهم قد حُطمت واستبدلت ببربرية رعناء وأن حياتهم وعملهم نظّما تنظيماً عسكرياً الى حد لم يبلغه شعب تعوّد أجيالاً متعاقبة على الكثير من التنظيم العسكري.

في الواقع كان الرعب الذي ينشره (الگشتاپو) والخوف من معسكرات الإعتقال يجثم في اعماق النفوس. فهي ابداً تنتظر أولئك الذين يخرجون عن الصف، أو من كان منهم شيوعياً أو إشتراكياً أو ليبيرالياً زائداً عن الحد أو نصير سلم. أو يهودياً. ما برحت عملية التطهير الدموية للثلاثين من حزيران تقوم إنذاراً على القسوة التي يمكن ان يبلغها الزعماء الجدد. ومع ذلك فان الرعب النازي في السنوات الاولى لم يكن يصيب كثيراً من الألمان نسبةً الى ما اصابهم في المستقبل. والمراقب القادم الى ألمانيا حديثاً يستغرب نوعاً ما حين يرى سكان هذه البلاد وكأنهم لايشعرون بالضغط والعبودية اللتين تمارسهما هذه الدكتاتورية الغاشمة المستهترة. بالعكس فقد كانوا يساندونها بحماسة لا زيف فيها ولا تصنع. لقد أشاعت فيهم -بشكل ما- أملاً جديداً وثقة جديدة وإيماناً عجيباً بمستقبل بلادهم.

كان هتلر يصفّي الماضي بكلّ خيباته وآلامه. كان يحرر ألمانيا خطوةً خطوةً وبسرعة (كما سنرى تفصيلاً) من كل قيود ڤرساي ويحيّر الحلفاء المنتصرين ويصيبهم بالخزي ويجعل ألمانيا دولة قوية عسكرياً وهذا ما كان يريده معظم الألمان وهم مستعدون لبذل التضحيات التي يريدها الزعيم منهم لتحقيق تلك الامنيات: التضحية بالحرية الشخصية، التقشف في الطعام ["المدافع قبل الزبدة"] والعمل الشاق الدائب. ما جاءت سنة ١٩٣٦ حتى حلت مشكلة البطالة حلاً كاد يكون كاملاً وعاد

كُلّ فرد تقريباً مكباً على عمله[١] والمرء يسمع العمال الذين حرموا من نقاباتهم وحرية التنظيم يمزحون وأمامهم صحاف العشاء مملوءة طعاماً؛ قائلين: في عهد هتلر على الاقل لم يعد هناك حرية الجوعّ! وكان شعار! Gemeinnutz vor Eigonnutz (المصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة!) هو شعار النازيين الشائع في تلك الأيام ومع ان عدداً كبيراً من زعماء الحزب وفي مقدمتهم گورنگ؛ كانوا يكدسون المال في خزائنهم ورجال الصناعة يزيدون في ارباحهم كثيراً فلم يكن ثم شك في ان الجماهير قد انطلت عليها لعبة "القومية الإشتراكية"التي وضعت في الظاهر مصلحة المجتمع فوق منافع الفرد. ان القوانين العنصرية التي طردت الساميين من المجتمع الألماني. بدت للمطلع الأجنبي ردّةً الى عهد البداوة تقزز منها النفس، لكن لما كانت نظريات النازي العرقية ترفع الألمان الى المرتبة العرقية العليا، وتجعلهم ملح الأرض. لم ير الألمان في تلك القوانين ما يؤاخذ عليه ولم يمجها ذوقهم. يلقى المرء عدداً ضئيلاً من الألمان- شيوعيين أو إشتراكيين أو أحراراً سابقين أو مسيحيين اتقياء من المدرسة المحافظة القديمة فيجدهم مشمئزين أو حتى ثائرين للإضطهاد الذي يلقاه اليهود، ومع انهم كانوا يساعدون في تخفيف هذه النوائب في عدد من القضايا الفردية، إلاّ انهم عجزوا عن القيام بأيّ عملٍ لإيقاف هذا المدّ، وماذا يعملون؟ كثيراً ما ينقلون اليك عبء السؤال نفسه وهو ليس من الاسئلة التي يسهل الجواب عنها.

كان الألمان يسمعون تنويهات غامضة عن طريق اذاعتهم وصحفهم الخاضعة للرقابة بجفاء العالم الخارجي لهم، إلاّ انهم لاحظوا ان ذلك لم يمنع الأجانب من التقاطر زرافات الى الرايخ الثالث، أو للتمتع بحسن ضيافته كما يبدو فقد كانت ألمانيا النازية مفتوحة ومعروضة للرؤية أكثر بكثيرٍ من الإتحاد السوڤياتي[٢].

وانتعشت مصالح السياحة وجلبت الى البلاد مبالغ طائلة من العملة الأجنبية التي كانت في أمس الحاجة اليها. يظهر أن زعماء النازي ليس لديهم ما يخفونه عن اعين الغرباء والأجنبي يستطيع أن يدخل ألمانيا مهما كان خصماً للنازية. وبإمكانه أن يرى ويتدارس كل ما يريد الإطلاع عليه بإستثناء معسكرات الإعتقال والمنشآت العسكرية [وهذا الحظر سارٍ في جميع البلاد الأخرى]. فيدخل اليها الكثير ويعود منها الكثير، إن لم يعودوا مهتدين، فعلى الأقل متسامحين بـ"ألمانيا الحديثة" معتقدين

١- هبط عدد العاطلين المسجلين للفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٣ و١٩٣٧، الى أقل من مليون واحد. بعد ان كان ستة ملايين عاطل.

٢- خلافاً للإتحاد السوڤياتي. سمحت ألمانيا النازية لكلّ مواطنيها بالسفر الى الخارج ما عدا آلاف قليلة. سجّلوا في كتاب الشرطة السرية الأسود، وإن كان هذا السماح مقيداً تقييداً شديداً بسبب قلة النقد الأجنبي. مع ذلك لم تعد قيود العملة بأكثر صعوبة مما كانت عند المواطنين الانكليز في ١٩٤٥. والمسألة هي أن الحكام النازيين لم يكونوا خائفين أن يتلوث الألماني العادي بأفكار العداء للنازية إن هو زار البلاد الديمقراطية.

أنهم رأوا على حَدّ قولهم: "إنجازات إيجابية". ولم يشذ عنهم حتى ذوو البصيرة والنظر البعيد، مثل (لويد جورج) الذي قاد إنكلترا الى النصر في حربها مع ألمانيا سنة ١٩١٨. والذي دخل تلك السنة معركة الإنتخابات بشعار "اشنقوا القيصر". فقد زار هتلر في أوبرسالزبرگ ١٩٣٦ وعاد مسروراً معجباً بالفوهرر ومدحه علناً ووصفه "بالرجل العظيم" الذي لايعوزه النظر الثاقب والإرادة القوية لحلّ مشاكل الشعب الإجتماعية العصرية وفي مقدمتها البطالة، وهي دملة مازالت تقذف بقيحها في إنكلترا وبخصوص عدم رؤيته ما يجتذب نظره في بلاده في هذا الأمر الخطير وهو قائد حزب الأحرار العظيم زمن الحرب وصاحب برنامج "نستطيع التغلب على البطالة".

ومنحت دورة الالعاب الأولمبية ببرلين في آب ١٩٣٦ فرصة النازين الذهبية ليدهشوا العالم بما حققوه من أعمال في الرايخ الثالث. فبلغوا في ذلك الغاية. أزيلت لافتات "اليهود غير مرغوب فيهم Juden unerwuenscht!" بكل هدوءٍ من الدكاكين والفنادق ومشارب البيرة ومحلات التسلية العامة وتوقف إضطهاد المسيحية واليهودية بصورة مؤقتة. وظهرت البلاد في أحسن سلوكٍ لها ولم تشهد دورة أولمبية سابقة تنظيماً رائعاً ولا مظهر إسراف وبذخ ومآدب حافلة كما حظيت به هذه الدورة. وأقام كل من گورنگ وريبنتروپ وگوبلز مآدب فخمة للزوار الأجانب- وكانت "الليالي الإيطالية" التي نظمها وزير الدعاية في ڤاوننسل Pfaueninsel قرب ڤانسي Wannsee تحتضن أكثر من ألف مدعوٍ الى العشاء في جوّ ومشاهد تذكر المرء "بألف ليلة وليلة " العربية. وانبهرت عقول الزوار وخصوصاً أولئك الذين جاؤوا من إنكلترا وأمريكا- بما شاهدوا؛ الظاهر إنه شعب سعيد، موفور الصحة، رقيق الشمائل موحد تحت لواء هتلر، صورة تختلف تماماً عما استخلصوه من الأنباء الصحفية المرسلة من برلين! مع ذلك، فتحت هذه المظاهر البراقة ما كان يختفي عن عين السائح عملية تحول وضيعة في الحياة الألمانية لاتخفيها عنه تلك الأيام الأولمبية الرائعة في أواخر الصيف في برلين في حين تخطئها أعين أغلب الألمان، أو يتقبلونها بإستسلامٍ عجيبٍ تجفل له النفس.

بالطبع ليس ثم شيء مستور من القوانين التي إستنها هتلر ضد اليهود، أو من الإضطهادات التي تسمح بها الحكومة ضد أولئك الأشقياء من البشر. إن ما أطلق عليه "قوانين نورمبرگ للخامس عشر من أيلول ١٩٣٥" جردت اليهود من الجنسية الألمانية وحقوق المواطنة وجعلتهم مجرد "عبيد" أو رعية. كذلك حظرت عليهم التزاوج مع الآريين فضلاً عن العلاقات الجنسية خارج نطاق الزوجية فيما بينهما. ومنعتهم من إستخدام خادم ألمانية يقل سنّها عن خمسة وثلاثين عاماً. وفي السنوات القلائل التالية صدر زهاء ثلاثة عشر نظاماً ومرسوماً ملحقاً بقوانين نورمبرگ تتضمن تجريد اليهودي من كل صفة البشرية. إلاّ أن اليهود كانوا في صيف العام ١٩٣٦. عندما كانت ألمانيا البلاد المضيفة للألعاب الأولمبية تبهر الزوار الغربيين، قد طردوا إما بقوة القانون أو بفضل الإرهاب [كثيراً ما يسبق آخرهما

أولهما] من الأعمال والوظائف الحكومية أو الخاصة حتى أصبح نصفهم على أقل تقدير لايجد له مورد رزقٍ. في أول سنة من عهد الرايخ الثالث (١٩٣٣) اخرجوا من الوظائف العامة والمدنية، والصحافة، والراديو، وأعمال الزراعة، والتعليم والمرسح والسينما. وفي ١٩٣٤ طردوا من اسواق البورصة ومع أن الحظر على مزاولتهم مهنة المحاماة والطب والأعمال التجارية لم يتم عن طريق التشريع حتى ١٩٣٨، فانهم أقصوا عملياً من هذه الميادين في نهاية فترة السنوات الأربع الأولى من حكم النازي.

وفضلاً عما تقدم، فقد حرم عليهم لا معظم مطاليب الحياة وحدها بل ضرورياتها في أحيان كثيرة. ووجد اليهود في عدة مدن صعوبة إن لم نقل استحالةً في شراء الغذاء. لقد علقت لافتات فوق حوانيت الأغذية واللحوم والمخابز ومخازن بيع منتجات الحليب فيها العبارة التالية "لايسمح لليهود بالدخول". وعز على اليهود في عدد كبير من المجتمعات الحصول على الحليب حتى لتغذية أطفالهم. وامتنعت الصيدليات من بيع الدواء لهم، وأبت الفنادق أن تأويهم ليلة واحدة إذ تطالعهم دائماً وأنىّ ذهبوا تلك اللافتات المخجلة من أمثال "اليهود ممنوعون منعاً باتاً من دخول هذه المدينة" أو "دخول اليهود هذا المحل يكون على مسؤوليتهم الخاصة" وفي عطفة طريق حادة قرب لودڤيكشاڤن Lud-wigshafen رفعت لافتة كتب عليها "سق بحذر! منحنى حاد! اليهود ٧٥ ميلاً في الساعة!"[٣] تلك كانت محنة اليهود عند حلول إحتفالات دورة الألعاب الأولمبية التي جرت في ألمانيا. وكانت بداية طريق ما لبثت أن أدت الى تصفيتهم بالمذابح الكبرى.

– ٢ –

إضطهاد المذاهب المسيحية

بدأت الحرب على المذاهب المسيحية أكثر إعتدالاً. ومع أن هتلر هو كاثوليكي إسمياً، فقد شن حملة قدحٍ عنيفة بالكاثوليكية السياسية في (كفاحي) وهاجم كلا المذهبين المسيحيين لعدم إعترافهما بنظرية العرق فقد حذر في كتابه كما رأينا "اي حزب سياسي عليه ان... يضع نصب عينه حقيقة أكيدة وهي: من التجارب التاريخية الماضية كافة، لم ينجح حزب سياسي محضٌ في استحداث أيّ اصلاحٍ دينيّ". وجاء في الفقرة (٢٤) من منهاج الحزب "الحرية لكل الطوائف الدينية في الدولة مكفولة شريطة ألاّ تكون خطراً على... الوجدان الخلقي للعنصر الألماني. الحزب يقف في صف المسيحية

٣– هاجمت الصحافة الألمانية المؤلف هجوماً عنيفاً في الراديو وهُدد بالطرد من البلاد لأنه كتب رسالة صحفية جاء فيها ان بعض اللافتات المعادية للسامية قد رفعت خلال فترة دورة الألعاب الأولمبية.

الايجابيـة". وفي خطبة أمام الرايخشتـاغ بتـاريخ ٢٣ آذار ١٩٣٣ عـندمـا تنازل المجلس التـشـريعي الألماني عن سلطة التـشريع للدكتاتور، اشاد هتلر بالمذاهب المسيـحيـة ووصفـها "بالعناصر الأسـاسيـة لحمايـة روح الشعب الألماني" ووعد بإحتـرام حقوقـها وأعلن أن حكومـتـه "تـطمح الى علاقـة سلامٍ بين الكنيسة والدولة". واضاف يقول- طامعاً بأصـوات حزب الوسط الكاثوليكي التي حصل عليها فعلاً- "اننا نأمل أن نحسن علاقاتنا الطيبة بالكرسي الرسولي".

ولم تكد تمر أربعـة أشهر على ذلك حتى ابرمت الحكومـة النازية في ٢٠ تموز ميـثاقاً (كـونكورداتو) مع الفـاتيكان ضمنت فـيه حرية الديـن الكاثوليكي وحق البيـعة الرسـولية "في تنظيم شؤونها الخـاصة" ووقع پاپن عن الجانب الألماني، وعن الجـانب الرسولي السكرتير الپـاپاوي للشؤون الخارجيـة المونسنيور باتشـيللي Pacelli الذي أصبح فـيمـا بعد البـابا پيـوس الثـاني عشـر. هذا الميـثـاق خُرق ولم يكد يجف حبره- من جـانب الحكومـة النازية. ولكن إبرامـه في الزمن الذي أثارت إعـتـداءات النـظام الجـديد في ألمانيا استنكاراً عالمياً واسعاً، لاشك عزز مكانة حكومة هتلر بسمعة كانت في أمسّ الحاجة اليها[٤].

في الخامس والعـشرين من تموز- أي بعد التـوقـيع على الكونكوردات بخـمـسة أيـام فقط. أصـدرت الحكومـة الألمانيـة قـانون (الإخصـاء) الذي اثار سخط البـيعـة الكاثوليكيـة بنـوع خاص وبعدها بخـمسة أيام اتخذت الخطوات لحل عصبة الشباب الكاثوليكي.

وفي غـضـون السنوات التـاليـة اعـتـقل آلاف من الكهنة الكاثولـيك والراهبات وقـادتهم العلمـانيين. اوقف عـدد كبـير منهم بتـهمٍ فاضـحـةٍ مخلة بالـشرف "أعـمال منـافيـة للآداب" و"تهـريب عمـلة أجنبيـة" وقُـتل (اريخ كلاوسينر) زعـيم مـنظمـة العـمل الكاثوليكي في ٣٠ حزيران ١٩٣٤ كـمـا ذكـرنا. حتى خرقت حرمة سرّ الإعتراف على يد وكلاء الگشتاپو. ولم يحل العام ١٩٣٧ حتى كانت طبقة الكهنوت الكاثولـيكيـة في ألمانيـا قـد صحت على الحقـيـقـة المرة. بعـد ان حـاولت - كـمـعظم رجـال الكهـنوت الپـروتسـتـانت التعـاون مع النـظام الجديد في المبدأ، وكـانت خـيـبتـها تامـة. وفي الرابع عـشر من آذار ١٩٣٧ اصدر البـاپا پيـوس الثـاني عشر منشوراً رسمياً عنوانه "بأسىً محرقٍ... Mit Brennender Sorge" مـتهـماً الحكومـة النازية "بخـرق" الكونكوردات والتـملّص منه. وأدانها ببـذر "زؤان* الشك والبـغضـاء، والفتن، والمثالب والعداء الأصلي، السري والعلني للسيد المسيـح وبيعته" ورأى البابا في "أفق ألمانيـا، غيوم العاصفة المهددة بالحروب الدينية المدمرة... التي لا هدف لها إلاّ... الخراب".

كـان القسّ مـارتن نـيـمـويللر Martin Niemoeller قـد رحب شـخـصـيـاً بمجيء النازي الى الحـكم في

٤- في خطبة ألقاها البابا پيوس الثاني عشر بتاريخ ٢ حزيران في الكلية المقدسة، دافع عن الكونكوردات التي كان قد وقّعها. الاّ انه وصف القومية الإشتراكية كما عرفها فيما بعد- "المروق المتعاظم من يسوع المسيح وانكار عقيدته وعمله في نبذ مبدأ العنف. وعبادة العنصر والدم الذي يؤدي الى القضاء على الحرية البشرية والكرامة."

* الزؤان هو حبوب سوداء في القمح، تشوب لون طحينه بالسواد إن لم تُنقَّ منه.

١٩٣٣. وفي تلك السنة اصدرت المطابع سيرته بقلمه "من الغواصة الى المنبر"، ان قصة صيرورة قائد الغواصة هذا في الحرب العظمى الأولى قساً پروتستانتياً ذائع الصيت قد خصتها الصحافة النازية بجزيل المدح والثناء حتى جعلتها أروج كتاب في ألمانيا. كانت السنوات الأربع عشرة التي عاشتها الجمهورية "سنوات ظلام"[٥] لدى القس نيمويللر كما وصفها، ولدى عدد كبير من رجال الكهنوت الپروتستانت. وفي ختام قصة حياته هذه أضاف ملاحظة معبرة عن إرتياحه لإنتصار الثورة النازية أخيراً، وتحقيقها "البعث القومي" الذي ناضل هو في سبيله زمناً طويلاً- ولفترةٍ منه في سلك المحاربين الأحرار الذين جاء منهم عدد لايحصى من قادة النازي.

ولم يطل به الأمر. ليذوق مرارة الخيبة وضيعة الأمل.

المذهب الپروتستانتي في ألمانيا- كشأنه في الولايات المتحدة - شيع شتى. ولاينتمي الى المذاهب الحرة المختلفة مثل المعمدانيين Baptists والميثوديين Methodists إلاّ عدد ضئيل جداً يقدر بمائة وخمسين ألفاً من أصل (٤٥) مليوناً من الألمان، فهؤلاء ينتمون الى ثمان وعشرين بيعة لوثرية وإصلاحية، أوسعها بيعة "الإتحاد الپروسي القديم" التي تضم ثمانية عشر مليون عضوٍ. وبظهور الحركة النازية برزت فرق دينية جديدة بين الپروتستانت. ونظم أكثر النازيين تعصباً فيهم "حركة الإيمان المسيحي الألماني" في ١٩٣٢ وكان أشدّ قادتها حماسة (لودڤيك موللر Ludwig Mueller) وهو قسّ عسكريّ في منطقة پروسيا الشرقية العسكرية وتابع شديد الإخلاص لهتلر سعى لتحقيق أول مقابلة بين الزعيم النازي وبين الجنرال ڤون بلومبرگ الذي كان آنذاك قائداً للمنطقة. وساند "المسيحيون الألمان" النازيين مساندةً قوية في عقيدتهم العنصرية وفي التشيّع لمبدء الزعامة وطلبوا منهم إقامة "بيعة الرايخ" لجمع كل الپروتستانت في كتلة واحدةٍ مذهبية. وفي ١٩٣٣ بلغ عدد الكهنة في حركة "المسيحيين الألمان" ثلاثة آلاف من مجموع سبعة عشر ألف كاهن وإن كان أتباعهم العلمانيون يمثلون نسبة أكبر من مرتادي البيع.

ويعارض "المسيحيين الألمان" كتلةٌ أقلية أخرى تطلق على نفسها إسم "البيعة المعَرَّفة" وعدد كهنتها يقارب عدد الكتلة الأخرى ويقودها (نيمويللر). وهي تعارض في صبغ البيع الپروتستانتة بالصبغة النازية وترفض نظريات النازي العرقية وتهاجم المباديء المعادية للمسيحية التي وضعها (روزنبرگ) وغيره من زعماء النازي. وفيما بين هاتين الكتلتين تقف أغلبية الپروتستانت. وكانت تبدو كثيرة الحذر والانكماش من انضوائها الى أحد المعسكرين المتناحرين ثم إعتلت السياج وإنكمشت حتى سقط معظمها أخيراً بين ذراعي هتلر مسلماً بسلطته في التدخل بشؤون المذاهب ومطيعاً أوامره دون إحتجاج علنيّ. من الصعب جداً ان يفهم سلوك معظم الپروتستانت الألمان في أولى سنوات النازيين

٥- ليوشتاين Leo Stein "كنت في جهنم مع نيمويللر" ص٨٠.

إلاّ اذا كان المرء على علمٍ بحقيقتين: تاريخهم وتأثير (مارتن لوثر)[٦].

كان مؤسس المذهب البروتستانتي الألمعي خصماً عنيداً للسامية ومؤمناً متحمساً بالطاعة المطلقة للسلطة السياسية. اراد أن تتخلص ألمانيا من اليهود وعندما كانوا يطردون راح ينصح طارديهم ان يجردوهم "من كل نقودهم وجواهرهم وذهبهم وفضتهم". وتمادى الى التوصية "بوجوب إشعال النار في كنيسهم ومدارسهم، وان تهدم بيوتهم وتدمر تدميراً... وان يوضعوا تحت سقف أو في أسطبل مثل الكاولية... في شقاء وعبودية يبكون ويشكون الى الله أعمالنا بهم- دون انقطاع".

نصيحة! إتبعها بالحرف الواحد هتلر وگورنگ وهملر، بعده بأربعة قرون! وفي الثورة التي كانت الثورة الشعبية الوحيدة في التاريخ الألماني، انتفاضة الفلاحين في ١٥٢٥ نصح (لوثر) الأمراء بإتخاذ أقسى الإجراءات القمعية ضدّ "الكلاب المسعورة" وهذه هي العبارة التي كان يطلقها على الفلاحين اليائسين المستغلين المحتقرين. وهنا استخدم لوثر في كلامه عن اليهود لغة فيها من الغلاظة والوحشية ما لايضاهيها أيّ لغة في تاريخ ألمانيا حتى مجيء النازيين. وامتد تأثير هذه الشخصية الشامخة عبر الاجيال الألمانية وبخاصة لدى البروتستانت. ومن النتائج الأخرى هي السهولة التي أصبحت بها البروتستانتية الألمانية آلة لحكم الملوك والأمراء المطلق منذ القرن السادس عشر حتى طرد الملوك والأمراء في ١٩١٨. لقد أصبح الملوك والأمراء المتوارثون أساقفة أعلين للمذهب البروتستانتي كل في دولته وأرضه. وعلى هذا كان ملك آل هوهنزلرن في پروسيا رأس البيعة. ليس هناك بلد بإستثناء روسيا القيصرية كان رجال كهنوتها بموجب التقاليد الموروثة عبيداً طائعين لسلطان الدولة السياسي ترى أعضاء تلك الطبقة -بإستثناءات قليلة- يقفون كتلة متراصة وراء الملك واليونكرز والجيش. وفي القرن التاسع عشر وقفوا صفاً واحداً ضد الحركات الديمقراطية والليبرالية. حتى جمهورية (ڤايمر) فقد كان الوعاظ البروتستانت يكرهونها كراهة تحريم ليس لأنها طردت الملوك والأمراء فحسب بل لأنها كانت تستمد قوتها وسنادها من الكاثوليك والإشتراكيين. ولم يكن ليسع المرء أثناء الإنتخابات أن يتغاضى عن ملاحظة رجال الدين البروتستانت- وخير مثال (نيمويللر) الذي عضد القوميين بل حتى النازيين أعداء الجمهورية. ورحبّ معظم الكهنوت البروتستانتي مثل (نيمويللر) بمجيء هتلر الى المستشارية.

ولم يلبثوا أن تعرفوا بالتاكتيك النازي الشديد القوى الذي رفع هتلر الى السلطة. في تموز ١٩٣٣ وضع ممثلو البيع البروتستانتية دستوراً (لبيعة الرايخ) الجديدة وصادق عليها الرايخشتاغ رسمياً في

٦- اجتناباً لكلّ سوء فهم يجمل بي أن أذكر أنني مؤلف هذا الكتاب پروتستانتي المذهب: (نيومان: بهموث ص.١٩٠: يقول ان المقتبسات المأخوذة هي من مشروع أبحاث "اللاسامية" لمعهد الدراسات الإجتماعية طبع في دراسات في الفلسفة والعلوم الإجتماعية سنة ١٩٤٠.

١٤ تموز فسارعوا فوراً الى إثارة معركة حامية في مسألة إنتخاب أول رئيس اساقفة للرايخ. واصرّ هتلر أن يعطى صديقه (موللر) - وهو القس الذي كان قد عينه مشاوراً خاصاً في شؤون البيع البروتستانتية - أعلى منصب كهنوتي. واقترح زعماء الإتحاد الكنسي. كاهناً شهيراً يدعى (الراعي فردريك ڤون بودلشڤنك Friedrich Von Bodelschwingh). إلاّ انهم كانوا في غاية السذاجة اذ تدخلت الحكومة النازية وحلت عدداً من المنظمات الدينية الاقليمية وابعدت عن الوظيفة عدداً من الكهنة الكبار في الكنائس البروتستانتية. وأطلقت جنود العاصفة والگشتابو لملاحقة رجال الدين المعارضين - وفي الواقع شنوا إرهاباً على كلّ مساند لـ(بودلشڤنك) وفي ليلة إلتئام المجمع الذي سيجري فيه إنتخاب رئيس اساقفة الرايخ. اذاع هتلر شخصياً نداءً من الراديو يحث فيه على التصويت الى جانب المسيحيين الألمان ومرشحهم (موللر). وكان الإرهاب ناجحاً للغاية، وفي الوقت نفسه أجبر (بودلشڤنك) على الإنسحاب من الترشيح واظهرت الإنتخابات الأغلبية الى جانب (المسيحيين الألمان) فقاموا بإنتخاب موللر رئيس اساقفة للرايخ في أيلول بمجمع ڤيتنبرگ Wittenberg وهو الموضع الذي تحدى (لوثر) فيه روما لأول مرة.

لكن رئيس المذهب الجديد ذا اليد الصارمة، عجز عن إنشاء بيعة موحدة، ولم يستطع طلاء الرعية البروتستانتية بالنازية طلاءً كاملاً وفي ١٣ تشرين الثاني (اليوم الذي تلا الإستفتاء الشعبي في ألمانيا لمساندة هتلر بأغلبية ساحقة) نظم (المسيحيون الألمان) إجتماعاً هائلاً في الملعب الرياضي ببرلين وقام شخص يدعى الدكتور راينهاردت كراوس Reinhardt Krause، قائد منطقة برلين للمنظمة مقترحاً نبذ التوراة: "بأقاصيصه عن تجار المواشي والقوادين" ودعا الى تنقيح الإنجيل بإستبقاء تعاليم المسيح "التي تتفق تماماً مع مطالب القومية الإشتراكية". وقدمت إقتراحات منها رفع شعار "شعبٌ واحد، رايخٌ واحد، دينٌ واحد". وإقتراح آخر يحتم على كل رجل دين ان يقسم يمين الولاء لهتلر. والتشديد على كل البيع بالتمسك بالتعاليم الآرية وطرد اليهود المهتدين. فكان هذا أكثر مما يتحمله البروتستانت الضعفاء الذين أبوا التدخل والمساهمة في أي تناحرٍ كنسيّ. واجبر الأسقف موللر أن يفصل الدكتور (كراوس) ثم يطرده من سلك الكهنوت.

والواقع أن النزاع بين الحكومة النازية وبين البيع هو نزاع قديم جداً بخصوص إعطاء "ما هو لقيصر لقيصر، وما هو لله لله*." بقدر ما يتعلق الأمر بالبروتستانت. وكان هتلر يلح في أن النازيين "المسيحيين الألمان" إن لم يستطيعوا جمع البيع الإنجيلية تحت لواء أسقف الرايخ (موللر)؛ فستقوم الحكومة نفسها بالإشراف على إدارة تلك البيع. فقد كان يحفظ في نفسه إحتقاراً دائماً للبروتستانت

* هذه عبارة نطق بها السيد المسيح عندما طلب منه تحديد موقف الشعب من الدولة، وهل يجب دفع الضريبة لها، بقصد إحراجه من جانب بعض اليهود المعادين.

الذين وان كانوا أقلية ضئيلة في بلاده النمسا الكاثوليكية إلاّ انهم يؤلفون ثلثي مجموع سكان ألمانيا. ومرة أسر الى أعوانه "بإمكانك ان تفعل بهم ما تشاء. فسيخضعون... انهم أناس صغار الشأن لايؤبه بهم خانعون خنوع الكلاب، ينضحون عرقاً من فرط الخجل عندما تحادثهم(٧)"، وكان على يقين أن معارضة اصطباغ البيع البروتستانتية مصدرها أقلية من رجال الدين، وأقل منهم من المصلين.

في مطلع ١٩٣٤ كان القس (نيمويللر) الخائب الأمل قد أصبح الروح التي تقود مقاومة الأقلية في كل من "البيع المعترفة" و"عصبة الكهنة للطواريء". وفي المجمع الكنسي العام المعقود في (بارمن Barmen) في شهر أيار ١٩٣٤، وفي جلسة فوق العادة جرت في "كنيسة يسوع المسيح" في داهلم Dahlem بضواحي برلين، في تشرين الثاني. أعلنت "البيعة المعترفة" برآسة (نيمويللر) أنها البيعة البروتستانتية الشرعية لألمانيا. وألفت مجلس حكم كنسيّ اقليمي. وبهذا نشأت كتلتان كلتاهما تدعي بشرعية الإشراف على المذهب، كتلة الأسقف (موللر). وكتلة القسّ (نيمويللر).

وكان واضحاً أن كاهن الجيش السابق رغم قربه من هتلر، فشل في توحيد البيع البروتستانتية. وفي نهاية ١٩٣٥ بعد أن قام الگشتاپو بإعتقال سبعمائة كاهن من "البيعة المعرّفة"، إستقال من منصب الأسقفية وغاب عن مرسح الحياة العامة. وكان هتلر قبلذاك قد نصب في تموز ١٩٣٥ محامياً نازياً صديقاً اسمه الدكتور هانز كرل Hans Kerrl، وزيراً للشؤون الكنسية. وزوده بتعليمات تقضي بإجراء محاولة أخرى لجمع شمل البروتستانت. وكان (كرل) نازياً معتدلاً، وشخصاً حذراً فحقق في مبدأ الأمر نجاحاً كبيراً. ولم يقتصر نجاحه على كسب رجال الدين المحافظين الذين يؤلفون الأغلبية، بل أفلح أيضاً في إنشاء لجنة كنسية رأسها القس الدكتور زويلنر Zoellner وهو شخصية يحترمها كل الفرق، لتقوم بإيجاد تسوية عامة. على ان كتلة (نيمويللر) التي تعاونت مع اللجنة، ظلت مقيمة على رأيها بأنها الكنيسة الشرعية الوحيدة وعندما وجهت في أيار ١٩٣٦ مذكرة رقيقة لكن شديدة- الى هتلر تحتج فيها على إتجاهات الحكم المعادية للمسيحية وتستنكر معاداة الدولة للسامية وتطالب بوضع حدّ لتدخل الدولة في الكنيسة، أجاب وزير الداخلية النازي (فريك) بعمل بربري. فاعتقل مئات من رجال الدين الذين ينتمون الى "البيعة المعرّفة" وقتل الدكتور وايسلر Weissler أحد الموقعين على المذكرة في معسكر إعتقال ساخسنهاوزن Sachsenhausen وصودرت أموال الطائفة ومنعت من جمع التبرعات.

وفي ١٢ شباط ١٩٣٧ إستقال الدكتور (زويلنر) من اللجنة الكنسية- منعه الگشتاپو من زيارة لوبيك Luebeck حيث كان قد اوقف تسعة من الكهنة البروتستانت- محتجاً أن عمله قد خُرِّب بمداخلة وزير الشؤون الدينية. فأجاب الدكتور (كرل) على ذلك في خطاب ألقاه في جمع من رجال الدين

٧- راوشننگ: صوت الخراب ص٥٤.

الطائعين، متهماً القس (زويلنر) بعدم إحترامه لمبدأي (العرق)، و(الدم وتربة الوطن) النازيين. وكشف بوضوح تامٍ عداء الحكومة للمذهبين البروتستانتي والكاثوليكي.

"(قال الدكتور كرل) الحزب يقف على قاعدة النصرانية الإيجابية. والنصرانية الإيجابية هي القومية الإشتراكية... القومية الإشتراكية هي من عمل الله وإرادته... ولقد تجلت إرادة الله في الدم الألماني... حاول الدكتور زويلنر والكونت گالن Galen [وهو أسقف مونستر Muenister الكاثوليكي] أن يبرهنا لي أن النصرانية تقوم على الإيمان بان المسيح ابن الله. وهو ما أضحكني... كلاّ وألف كلاّ، النصرانية لاتعتمد على العقيدة الرسولية... النصرانية الحقيقية يمثلها الحزب. والشعب الألماني مدعو الآن من الحزب، ومن الفوهرر خاصةً، الى النصرانية الحقة... والفوهرر هو المبشر بالرسالة الجديدة[٨].

في أول يوم من تموز ١٩٣٧ اعتقل الدكتور (نيمويللر) وأودع سجن موابيت Moabit في برلين. وكان في ٢٧ حزيران قد وعظ المصلين الذين يتزاحمون بشوق الى سماعه في كنيسته بـ(داهلم) موعظةً قدر ان تكون آخر ما يلقيه في عهد الرايخ الثالث. قال وكأن نذيراً أنبأه بما سيجيء به المستقبل "إننا ما عدنا نفكر في إستخدام قوتنا الخاصة للنجاة من ذراع السلطات كما عجز الرسل من قبلنا. كذلك لم نعد بعد على إستعداد لملازمة الصمت خوفاً من البشر عندما يأمرنا الله بالقول الواجب وهو الآن وسيبقى دائماً، اطاعة الله لا طاعة المخلوق".

بعد مكوثة في السجن ثمانية أشهر جرت محاكمته في ٢ آذار ١٩٣٨ أمام "محكمة أمن الدولة "Sondergericht" وهي محاكم خاصة أقامها النازيون لمحاكمة المتهمين عن أعمال ضدّ سلامة الدولة. ومع انه برِّيءَ من التهمة الرئيسة "نشاط سري ضد الدولة" فقد حكم عليه بغرامة قدرها (ألفا مارك) وبالحبس سبعة أشهر "للتفوه بعبارات مثيرة ضد الدولة من فوق المنبر" وجمعه التبرعات لكنيسته. ولما كان قد قضى أكثر من مدة حبسه موقوفاً، فقد أمرت المحكمة بإخلاء سبيله. الا ان شرطة الأمن (الگشتاپو) ألقت القبض عليه وهو يغادر القاعة ووضعته "تحت الحجز التحفظي" وأودعته معسكر إعتقال (ساخسنهاوزن) ثم معتقل (داخاو) حيث بقي فيه سبع سنوات الى أن حررته قوات الحلفاء.

وأوقف عام ١٩٣٧ زهاء (٨٠٧) كهنة وعلمانيين من وجهاء "البيعة المعرّفة"، كما أعتقلت مئات أخرى منهم في غضون السنتين التاليتين. ان لم تكسر مقاومة جناح (نيمويللر) من الكنيسة تماماً فقد لوته بالتأكيد. أما عن أغلبية رجال الدين البروتستانت فكانت حالهم حال كل الألمان الآخرين، خضعوا تماماً أمام الإرهاب النازي. وفي نهاية ١٩٣٧ اقنع الدكتورُ كرل الأسقفَ ماراهرنز Marahrens أسقف هانوفر الذي يتمتع بإحترام كبير جداً بنشر تصريح يبدو محقراً في أعين الأصلب عوداً من

٨- ستيورات. و. هرمان الأصغر Stewart W. Herman "ما نريده هو روحك" الص ١٥٧-١٥٨. كان هرمان راعي الكنيسة الأمريكية في برلين من ١٩٣٦ الى ١٩٤١.

رجال الدين أمثال (نيمويللر): "إن مفهوم القومية الإشتراكية للحياة، انما هو مبدأ قومي وسياسيّ يقرر ويميّز الرجولة الألمانية بميزات خاصة. ولهذا فهو فرض واجب ايضاً على الألماني المسيحيّ". وفي ربيع ١٩٣٨ اتخذ الأسقف (ماراهرنز) الخطوة النهائية بإصدار أمره لكل كهنة أبرشيته بحلف يمين الإخلاص للفوهرر. وفي فترة قصيرة أدت الأغلبية الساحقة من رجال الدين الپروتستانت هذه اليمين، وبذلك ربطوا أنفسهم قانونياً وأدبياً بواجب الطاعة لأوامر الدكتاتور.

من الضلال أن يتخلف إنطباع في ان إضطهادات الپروتستانت والكاثوليك التي أقدمت عليها الدولة النازية قسّمت الشعب الألماني الى شطرين أو حتى أثارت إستنكار الأغلبية الساحقة منهم لم يكن الأمر كذلك. إن الشعب الذي تنازل بهذه السهولة وعدم الإكتراث عن حرياته السياسية والثقافية والإقتصادية لن يخاطر بالموت أو حتى بالسجن للإحتفاظ بحرية العبادة -إلاّ ما ندر- فما أثار الألمان وحركهم حقاً في الثلاثينات هو نجاح هتلر اللامع في تأمين العمل. وخلق الرخاء، وإعادة قوة ألمانية العسكرية والإنتقال من نصر الى نصر في سياسته الخارجية، لم ينشغل بال الكثير من الألمان أو يقلقوا بسبب إعتقال بضعة آلاف قسٍ وراعي كنيسة أو على تنافر مختلف الطوائف الپروتستانتية. وأقل مِن هؤلاء مَن تكلف عناء التفكير في أن النظام النازي بقيادة روزنبرگ وبورمان وهملر بمساندة هتلر- كان عازماً على تدمير النصرانية بالأخير ومحوها من ألمانيا إن إستطاع والإستعاضة عنها بالوثينة القديمة التي تمثلها الآلهة القبلية للألمان الأوائل والوثنية الجديدة التي يمثلها متطرفو النازية كما قال (بورمان) أحد مقربي هتلر علناً في ١٩٤١ "القومية الإشتراكية والنصرانية ضدان لايجتمعان ولا يمكن التوفيق بينهما". وما كان هتلر قد إدّخره لمستقبل ألمانيا صيغ بوضوح في منهاج النقاط الثلاثين لـ"كنيسة الرايخ القومية" صاغها روزنبرگ الوثني المعروف أيام الحرب.[من بين المناصب التي تقلدها هذا الرجل وظيفة "مندوب الفوهرر لكل التثقيف العقلي والفلسفي وتعليمهما، للحزب القومي الإشتراكي"] وندرج فيما يلي شيئاً قليلاً من الفقرات الثلاثين لإيضاح جوهرها:

المادة الأولى: لكنيسة الرايخ القومية، الألمانية الحق المطلق، والسلطان المطلق في الإشراف على كل الكنائس التي تقع ضمن حدود الرايخ؛ وتعلن أنها كنائس قومية للرايخ الألماني.

المادة الخامسة: ان الكنيسة القومية مصممة على القضاء التام النهائي... على المذاهب النصرانية الغريبة الأجنبية المصدرة الى ألمانيا في سنة ٨٠٠م المشؤومة.

المادة السابعة: الكنيسة القومية ليس فيها شماسة، أو كهنة أو قس أو مطارنة. وإنما خطباء الرايخ القوميين وهم وحدهم يعظون فيها.

المادة الثالثة عشرة: الكنيسة القومية تطلب فوراً إيقاف طبع وتوزيع الكتاب المقدس في ألمانيا...

المادة الرابعة عشرة: الكنيسة القومية تقرّ: لنفسها بالتالي وللأمة الألمانية:

أن كتاب (كفاحي) للفوهرر هو أعظم كل الأسانيد المدوّنة... فهو لايقتصر على أعظم مبادىء الأخلاق للحاضر والمستقبل من حياة شعبنا، بل يتضمن أصدقها وأنقاها.

المادة الثامنة عشرة: الكنيسة القومية ستفرغ هياكلها من كل الصلبان والكتب المقدسة وصور القديسين.

المادة التاسعة عشر: لن يكون في المذبح غير كتاب كفاحي (هو للشعب الألماني وبالتالي لله أقدس الكتب طُراً) ويوضع سيف على يسار المذبح.

المادة الثلاثون: في يوم تأسيس الكنيسة القومية يجب ان يرفع الصليب المسيحيّ من كلّ البيع والكاتدرائيات والكنائس... وأن يحل محله الرمز الوحيد الذي لايغلب... الصليب المعقوف[٩].

-٣-

صبغ الثقافة بالنازية

في ليلة اليوم العاشر من أيار ١٩٣٣. بعد قرابة أربعة أشهر ونصف شهر من إثبات هتلر مستشاراً جرى في برلين مشهد لم يره العالم الغربي منذ القرون الوسطى. ففي حوالي نصف الليل إنتهى إستعراض مشاعل قام به آلاف من الطلاب في ساحةٍ تقع وسط (اونتر دن ليندن) مقابل جامعة برلين وقذفت المشاعل الى أكوام هائلة من الكتب كُدّست هناك. وفيم كانت ألسنة النيران تلتهمها إلتهاماً. كانت مقادير أخرى من الكتب تقذف الى النار وقوداً حتى تمّ إحراق عشرين ألف كتاب تقريباً. وتمت مشاهد مماثلة في عدة مدن أخرى... ها قد بدأت عملية إحراق الكتب. إن الكتب العديدة التي قذفت الى النيران ببرلين تلك الليلة. رماها التلاميذ الطروبون وبموافقة ورضا الدكتور گوبلز، كانت من تأليف كتاب عالميين خالدين فمن بين الكتاب الألمان الأخوان (توماس وهاينريخ مان Thamas & Hein-rich Mann) وليون فوختڤانكر Lion Feuchtwanger وياكوب ڤاسرمان Jakob Wassermann والأخوان ارنولد وستيڤان سڤايگ Arnold & Stefan Sweig واريخ ماريا ريمارك Erich Maria Remarque وڤالتر راثناو Walther Rathenau والبرت آينشتاين Albert Einstein وألفرد كير Alfred Kerr وهوگو پروس Hugo Preuss وهذا الأخير هو الذي صاغ دستور جمهورية (ڤايمر) وهنالك عدد كبير آخر من المؤلفين الأجانب أمثال جاك لندن Jack London وابتون سنكلير Upton Sinclair وهيلين كيلر Helen Keller وماركريت سانكر Margaret Sanger وأچ. جي. ويلز H. G. Wells وهاڤلوك ايليس Havelock Ellis وآرثر شنيتزلر

٩- النص مذكور في "هرمان: المرجع السالف الص ٢٩٧-٣٠٠. كذلك في جريدة النيويورك تايمس ٣ كانون الثاني ١٩٤٢.

Arthur Schnitzler وفرويد Freud وگيد Gide وزولا Zola وپروست Proust. وبحسب ما ورد في بيان الطلاب: كل كتاب يحكم عليه بالحرق "حين يعمل على تهديم مستقبلنا أو يضرب ضربات مخربة في جذور الفكر الألماني والبيت الألماني وقوى شعبنا الدافعة".

ان الدكتور گوبلز وزير الدعاية الجديد الذي كان سيضع الثقافة الألمانية من ذلك الحين فصاعداً في قماط المجانين، خاطب الطلاب أثناء ما كانت الكتب المحترقة تتحول الى رماد "إن روح الشعب الألماني تستطيع الآن التعبير عن نفسها مرة أخرى. هذه النيران لاتشعل النهاية الأخيرة لعصر قديم بل تضيء لنا الطريق الى عصر جديد".

هذا العصر الجديد النازي للثقافة الألمانية لم تقتصر إنارته بالمحرقات المقامة للكتب ولا بالإجراءات الأكثر فعالية من النار والأبسط مظهراً، المتخذة بوضع القيود على بيع مئات الكتب وحظر إستعارتها من المكتبات، وبطبع مئات عديدة من الكتب الجديدة، لم يقتصر الأمر على هذا، بل تعداه الى خضوع الثقافة الى ضبط عسكري وتنظيم كتائبي في نطاق لم يعانه بلد غربيّ عصريّ. ففي ٢٢ أيلول ١٩٣٣ انشئت (غرفة ثقافة الرايخ) بموجب قانون تحت إرشاد الدكتور گوبلز. وقد حدد القانون الغرض منها "من أجل إتباع سياسة ثقافية ألمانية، من الضروري أن يجمع معاً كل الفنانين الخلاقين الموهوبين من جميع فروع الفن في منظمة موحدة تحت قيادة الرايخ. ان الرايخ لن يقصر وظيفته على تحديد خطوط التقدم الروحي والعقلي وانما يقود وينظم تلك المهن والملكات".

وانشئت سبع (غرف) لقيادة كل ناحية من نواحي الحياة الثقافية والسيطرة عليها وهي: غرف الرايخ للفنون الجميلة، والموسيقى، والمرسح، والأدب، والصحافة، والراديو، والأفلام السينمائية. ووجب على كل من يعمل في أي فرع من هذه الفروع الإنضمام الى (غرفته) الخاصة بفنه. وقرارات تلك الغرف وأوامرها لها قوة القانون. ومن صلاحياتها انها تستطيع رفض الإنتماء، أو طرد أي عضوٍ بسبب "عدم أهليته السياسية" وهذا يعني أن فاتري الهمة إزاء القومية الإشتراكية يمكن ان يطردوا، [وهم يطردون عادة] ويمنعوا من مزاولة مهنتهم أو فنهم وبهذا يحرمون من مورد رزقهم.

ما عاش في ألمانيا أحد في الثلاثينات ممن يهتمون بهذه الأمور، وإستطاع أن ينسى الانحلال العظيم الذي طرأ على المقاييس والقيم الثقافية، في شعب كان يمتاز بأرفع المقاييس منذ أمدٍ طويلٍ. وكان ذلك أمراً محتوماً بالطبع في اللحظة التي قرر زعماء النازية أن تخدم الفنون والآداب والصحافة والراديو والأفلام أغراض الدعاية فقط للنظام الجديد ولفلسفته العجيبة. ولم ينشر لأي كاتب ألماني حيّ ذي شهرةٍ في السنوات الأولى من حكم النازي في ألمانيا بإستثناء الكاتبين أرنست أونيكر Ernst Juenger وارنست ڤيخيرت Ernst Wiechert. كلهم تقريباً نزحوا خارج ألمانيا وفي مقدمتهم (توماس مانّ). أمّا القليل الذي بقي فقد سكت أو أُسكت. ووجب أن يعرض كلّ مخطوطة كتاب أو مسرحية

على وزارة الدعاية قبل الموافقة على الطبع أو الإخراج.

إلا ان حظ الموسيقى كان أفضل جداً، ذلك لأنها أقل الفنون تعبيراً عن السياسة ولأن تراث الألمان فيها عظيمٌ لايقاس به أي تراث منها في بلاد أخرى، منذ (باخ) الى بيتهوفن وموتزار حتى (برامز) لكن مؤلفات مندلسون Mendelssohn منع عزفها لأنه كان يهودياً (كل الآثار التي خلفها الملحنون اليهود ممنوعة: verboten) كما منعت مؤلفات أعظم موسيقار ألماني معاصر هو پول هنديميث Paul Hindemith وطرد اليهود حالاً من الأجواق السمفونية والأوپرية الكبرى. وخلافاً للكتّاب، إختار مشاهير الموسيقى الألمان البقاء في ألمانيا النازية. ووضعوا أسماءهم وعبقرياتهم في خدمة النظام الجديد. فبقي ڤلهلم فرتڤنگلر Furtwaengler وهو واحد من أعاظم قادة الأوركسترا في هذا العصر. وكان مغضوباً عليه طوال ١٩٣٤ لدفاعه عن (هنديميث) إلاّ انه أعيد الى عمله وظلّ يزاوله الى آخر عهد هتلر. وبقي ريشارد شتراوس Richard Strauss الذي قد يعتبر أعظم المؤلفين الموسيقين الأحياء في العالم، بل أصبح لفترة من الزمن رئيساً لغرفة الرايخ الموسيقية مسخراً اسمه العظيم لفحش گوبلز الثقافي. وقضى (ڤالتر كيسكنك Walther Gieseking) عازف الپيانو الشهير جلّ أوقاته في جولات فنية في البلاد الأجنبية نظمتها له وزارة الدعاية أو وافقت عليها لإشاعة الثقافة الألمانية في الخارج ولأن الموسيقين لم يهجروا البلاد ولأن ألمانيا تنفرد بتراث عظيم من الموسيقى الكلاسية. والمرء يمكنه ان يسمع في عهد الرايخ الثالث موسيقى سيمفونية ممتازة، وإخراجاً رائعاً للأوپرات. وفي هذا تقدمت على سواها فرقة برلين الفيلهارمونية، وأوپرا الدولة في برلين. إن الحفلات الموسيقية الممتازة ساعدت كثيراً على ان ينسى الناس إنحطاطهم في فروع الفنون الأخرى وفي نسيانهم جانباً كبيراً من حياتهم تحت حكم النازين.

ولا مفرّ من القول أن المسرح إحتفظ بالكثير من مكانته الممتازة طالما ظلّ مقيماً على المسرحيات الكلاسية. وذهب (ماكس راينهاردت Max Reinhardt) مع من ذهب من المخرجين العظام ومشاهير المنتجين وكان كتّاب التمثيليات النازيون درجة من الركة والغثاثة ان الجمهور إبتعد عن كل ما قدموه في فترة قصيرة من إخراج آثارهم وكان رئيس غرفة تمثيل الرايخ المسرحيّ (هانس يوشت Hans Johst) مسرحياً فاشلاً، وأثر عنه أنه فخر مرةً بصورة علنية قائلاً "كلما ذكر أحد أمامي كلمة ثقافة شعرت بحافز يدفعني الى إشهار مسدسي" ولكن مع ان يوشت وگوبلز كانا يقرران ما ينبغي إخراجه على المسرح ومن يمثله ويخرجه، فانهما عجزا عن الحيلولة دون إخراج تمثيليات طيبة وفي أحيان كثيرة رائعة- لآثار غوته، وشللّر وشكسپير.

وأعظم وجهٍ للغرابة أنه سمح بإخراج بعض تمثيليات (برناردشو) هناك. ربما لأنه كان يصب نكاته ودعاباته على رأس الانكليز ويقدح بالديمقراطية. وربما ايضاً لأن آراءه السياسية اليسارية اللماحة

الدقيقة النكتة كانت تخفى عن العقل النازيّ واغرب من كل شيء قضية الكاتب المسرحي الألماني الشهير (گيرهارت هوبتمان Gerhart Hauptmann) فلكونه إشتراكياً صحيحاً منعت حكومة القيصر ڤلهلم الثاني إخراج مسرحياته في دور التمثيل الإمبراطورية. وفي عهد الجمهورية عُدّ أشهر مسرحيّ في كل ألمانيا. وبقي محافظاً على مركزه هذا في الرايخ الثالث. واستمر إخراج مسرحياته. ولن أنسى ما حييت مشهداً في ختام ليلة الإفتتاح لمسرحيته "إبنة الكاتدرائية" عندما خرج (هوبتمان) بقامته المهيبة وشعره الأبيض المتطاير النافر من تحت قبعته السوداء، من دار التمثيل متأبطاً ذراعي الدكتور (گوبلز ويوشت). لقد سالم هتلر كغيره من كبار الشخصيات الألمانية. واستفاد الأريب گوبلز من ذلك كثيراً في دعايته التي لم تكلّ ولم تقف لحظة عن تذكير الشعب الألماني والعالم الخارجي بأن أعظم كاتب مسرحي ألماني حيّ لم يكتف بالبقاء داخل ألمانيا الرايخ الثالث وإنما استمر في الكتابة وإخراج مسرحياته.

كم كان هذا الكاتب المسرحي الشيخ، مخلصاً، أو إنتهازياً أو مجرد متقلب؟ يمكن التوصل الى ذلك مما حصل له بعد الحرب. منعت السلطات الأمريكية تمثيلياته من الإخراج في منطقة إحتلالها غربي برلين، معتقده أنه خدم النازيين أكثر مما يجب. فما لبث الروس أن دعوه الى قطاعهم في برلين ورحبوا به بطلاً وسمحوا بتمثيل حلقة تامة لمسرحياته على سبيل التكريم في برلين الشرقية وفي ٦ تشرين ١٩٤٥ أرسل هوبتمان رسالة الى "جمعية الثقافة للبعث الديمقراطي في ألمانيا" وهي جمعية يشرف عليها الشيوعيون. يتمنى لهم فيها الخير ويعبر عن أمله بنجاحها في إعادة "البعث الروحي" للشعب الألماني.

إن ألمانيا التي أتحفت العالم بـ(دورر Duerer) و(كراناخ Cranach) لم تكن متفوقة في الفنون الجميلة للعصر الحديث وإن كانت (الإنطباعية) الألمانية والهندسة المعمارية لـ(باوهاس Bauhaus) في مونيخ مما يسترعي الإهتمام. وأن حركات أصيلة وفنانين أقحاح ألمان قد ساهموا في كل تطورات وإبداعات القرن العشرين ممثلين في المذاهب الإنطباعية والتكعيبية والدادية Dadaism.

كان هتلر الذي يعتبر نفسه فناناً أصيلاً رغم إخفاقه في ڤيينا- يرى كل الفن الحديث مجرد عبث وتفسخ. وقد دبج في (كفاحي) مقالات طويلة حول الموضوع. وأول ما قام به بعد وصوله الى السلطة هو "تخليص" ألمانيا- من فنها "المتدهور" ومحاولة الإستعاضة عنه بفن "مُجرمَن" وبهذا رفعت من المتاحف الألمانية ومعارض الرسوم حوالي (٦٥٠٠) صورة ولوحة حديثة. ليست من آثار الألمان وحدهم أمثال كوكوشكا Kokoschka وگروتس Grosz بل من أمثال چيزان Cezanne وڤان كوخ Van Cogh وگوگان Gauguin وماتيس Matisse وپيكاسو Picasso وغيرهم كثيرون.

وكان البديل لها ما عرض في صيف ١٩٣٧ عندما إفتتح هتلر رسمياً "دار الفن الألماني" بمونيخ وهي في بناية سمجة نصف كلاسية الهندسة ساعد هو في وضع تصميمها ووصفها بأنها "لاتضاهى

ولاتقلد" في جمال هندستها وعرض في أول معرض رسمٍ للنازيين زهاء تسعمائة لوحة أختيرت من أصل خمسة عشر ألف لوحة قدمت للجنة. لم يجد هذا الكاتب حثالة فنٍ في أي بلادٍ كما شاهد في هذه المعروضات. وكان هتلر نفسه هو الذي قام بالإختيار النهائي وكما روى أحد رفاق الحزب الذي كان معه آنذاك، ثارت ثائرته لبعض اللوحات التي قبلتها هيئة التحكيم النازية برآسة (أدولف زيگلر) Ziegler وهو رسام في مرتبة تقل عن المتوسط، تولى منصب رآسة غرفة الرايخ للفنون[١٠]، ولم يكتف بأن أمر بإخراجها بل أهوى عليها ركلاً بجزمته وأحدث في عدد منها خروقاً. وقال في خطبة الإفتتاح الطويلة "كنت قد قررت، لو أوصلتنا المقادير الى الحكم، ألاّ نتناقش ونتبادل الآراء في مثل هذه الأمور [ذات الآراء الفنية] بل أن نصدر فيها القرارات". وهذا ما فعله.

في خطبته التي ألقاها في ١٨ تموز ١٩٣٧. وضع أسس "الفن الألماني" على المباديء النازية بقوله: "أعمال الفن التي لايمكن فهمها إلا بعد شرح طويل دقيق للبرهنة على صحتها وموافقتها وصلاحها للبقاء لتجد طريقها الى المجانين الذين يستجيبون لهذه الترهات الغبية أو الوقحة لن تصل بعد الآن الى الشعب الألماني في وضح النهار. ألا فليُطرَح كل شك يساور الأذهان؛ لقد عزمت القومية الإشتراكية على تطهير الرايخ الألماني وشعبنا من كل هذه المؤثرات التي تهدد كيانهما وخلقهما... إفتتاح هذا المعرض هو نهاية الجنون الفني ومعه الفجور الفني لشعبنا..."

ومع ذلك فقد كان يفضل بعض الألمان أن يكونوا فاجرين فنياً، وبخاصة في مونيخ مركز الفن الألماني. ففي موضع آخر من المدينة وفي معرضٍ حقير البناء يصل المرء اليه بسبيل درج ضيق. نظم الدكتور گوبلز معرضاً "للفن المتفسخ" ليظهر للناس ممّ ينقذهم هتلر وكان فيه مختارات رائعة من الرسوم الحديثة أمثال كوكوشكا، وشاگال Chagall ورسوم "إنطباعية" و"تعبيرية". وفي اليوم الذي زرته بعد تمرّغي في نفايات "دار الفن الألماني" وجدته غاصاً بصف طويل من الناس متشبثين بدرجه الضيق المهشم متواصل حتى الشارع والواقع أخذ الناس يتكاثرون الى الحد الذي أهاج گوبلز وأحرجه فسارع الى غلقه.

-٤-

السيطرة على الصحافة والراديو والسينما

يتجمع يومياً صباحاً في وزارة الدعاية رؤساء تحرير كل الجرائد اليومية في برلين مع مراسلي الجرائد التي تطبع في المدن الأخرى في أنحاء الرايخ ليحدد لهم گوبلز أو أحد مساعديه، أية أنباء

١٠- يدين زيگلر بمنصبه الى الفرصة السعيدة التي اتيحت له برسم صورة (گيلي راوبال).

ينشرون وأية أنباء لاينشرون. كيف يصوغون الأخبار وكيف يعنونونها وأي حملة صحفية يختمونها وأيّ حملة يبدأون بها وأيّ إفتتاحية مستحسنة لذلك اليوم. وتعطى تعليمات مكتوبة يومياً لهؤلاء علاوة على التعليمات الشفوية لئلا يحصل سوء فهمٍ في تلكم التوجيهات. وبالنسبة الى الصحف المحلية الاقليمية والمجلات، ترسل اليها التوجيهات برقياً أو بريدياً.

والشروط التي يجب أن تتوفر في رئيس تحرير صحيفة في الرايخ الثالث، هي ان يكون في المحل الأول "نظيفاً" من الناحيتين السياسية والعنصرية. إن قانون مزاولة الصحافة في الرايخ الصادر في ٤ تشرين الأول ١٩٣٣ جعل الصحافة "خدمة عامة" ينظمها القانون. وألزم كل رئيس التحرير ان يكون ألماني الجنسية ومن سلالة آرية غير متزوج بيهودية. وتلزم المادة (١٤) من القانون ان يجتنب رئيس التحرير "نشر كل ما من شأنه أن يضلل الرأي العام بأي شكل كان وألاّ يمزج الأغراض الشخصية بالأغراض العامة أو ما من شأنه إضعاف قوة الرايخ الألماني من الداخل أو في الخارج أو يحدث الوهن في الإرادة العامة للشعب الألماني أو الإخلال بدفاع ألمانيا أو ثقافتها أو إقتصادها... أو إلحاق الإهانة بشرف ألمانيا. أو مكانتها". وهو قانون لو كان نافذاً قبل ١٩٣٣ لأدى الى القضاء على كل رئيس تحرير صحيفة نازي وكل مطبوع في البلاد. اما الآن فقد أدى الى تنحية كل أولئك الصحفيين والصحف عن عالم الصحافة– ممن ليسوا من النازيين وممن يرفضون ان يصبحوا كذلك – ومن أوائل الصحف التي اجبرت على ترك الميدان "ڤوسيشي زايتُنگ Vossische Zeitung" وهي صحيفة أنشئت في ١٧٠٤. وعَدّت من كتابها الأوائل أسماء لامعة (كفريدريك الأكبر وليسنگ وراثناو) وأعتبرت أول صحيفة في ألمانيا في منزلة (التايمس) بإنگلترا و(نيويورك تايمس) في أمريكا. إلا انها كانت جريدة حرة تملكها دار (أولشتاين Ullstein) وهي دار يهودية. سدت في ١ نيسان ١٩٣٤ بعد (٢٣٠) سنة من صدور غير منقطع. وتأخرت البرلينر تاگبلات Berliner Tageblatt وهي صحيفة ليبرالية أخرى ذات شهرة عالمية، ولم تلفظ أنفاسها حتى ١٩٣٧ وإن أرغم صاحبها اليهودي (هانس لاكمان–موسي Hans Lackmann-Mosse) على التنازل عن حقوقه فيها منذ ربيع ١٩٣٣. واستمرت (الفرانكفورتر زايتُنگ) ثالث صحيفة حرة كبيرة، على الصدور بعد تخلّصها من صاحبها اليهودي ورؤساء تحريرها. وجيء برودلف كيرخر Kircher مراسلها في لندن وهو ليبرالي متشيع للانكليز وجعل رئيساً لتحريرها، مثل (كارل سيلكس Karl Silex) رئيس تحرير الصحيفة المحافظة (دويتش ألكماينه زايتُنگ Deutsche Algemeine Zeitung البرلينية الذي كان أيضاً مراسلاً في لندن وهو باحث رودسي Rhodes ومعجب متحمس للانكليز وحر التفكير، خدم النازي أحسن خدمة بل وأصبح على حد قول رئيس مكتب صحافة الرايخ (أوتو ديتريش)، "پاپاوياً أكثر من الپاپا". عندما كان يتحدث مرة عن "صحف المعارضة". وكان الفضل لبقاء هذه الصحف الثلاث يعود بعض الشيء الى تأثير وزارة الخارجية

الألمانية التي كانت تريد أن تتخذ من هذه الصحف المعروفة عالمياً نوعاً من واجهة تخدع بها العالم الخارجي، فقد أضفت طابع إحترام على ألمانيا النازية وفي عين الوقت كانت تروّج لها دعايتها.

لما باتت كل الصحف الألمانية تتلقى الايعاز بما تنشر وكيف تكتب الأنباء والإفتتاحيات، لم يعد مندوحة من أن يختم على صحافة البلاد طابع موحد رتيب، ملّه وسئم منه حتى ذلك الشعب الذي اعتاد النظام الكتائبي في حياته ولم ير بأساً في خضوعه للحكم المطلق. ضاق الجمهور ذرعاً بالأنباء التي تنشرها الصحف اليومية فهبط البيع حتى في صحيفتي الحزب النازي الرئيستين (الڤولكشر بيوباختر) الصباحية و(دير انگريف) المسائية. وكان المجموع العام لتوزيع كل الصحف يهبط بإطّرادٍ وانحدار سريع كلما تعاقب دخول الصحف تباعاً تحت نفوذ الناشرين النازيين أو إمتلاكهم لها. ونزل عدد الصحف في السنين الأربع الأولى من عهد الرايخ الثالث الى (٢٦٧١) صحيفة بعد ان كان (٣٦٠٧).

إلاّ ان خسارة البلاد في الصحافة الحرة المتعددة الجوانب كان معناه ربح الحزب مالياً على الأقل. لقد أصبح (ماكس أمان) عريف هتلر في الحرب العالمية الأولى ورئيس (إهر فيرلاخ) دار نشر الحزب- الدكتاتور المالي للصحافة الألمانية. وبحكم منصبه (كزعيم رايخ) للصحافة ورئيس (غرفة الصحافة)، كان له الحق في منع إصدار أي مطبوع شاء ثم صلاحية شرائه بالنزر اليسير. وأصبحت دار (اهر ڤرلاخ) خلال مدة وجيزة إمبراطورية ضخمة للنشر، ربما أعظم دار للنشر في العالم وأكثرها ربحاً[١١].

وبالرغم من هبوط البيع في عدد كبير من الصحف النازية فان الصحف اليومية التي تملكها الدار، أو تسيطر عليها حزبياً، أو بواسطة أشخاص نازيين تؤلف ثلثي مجموع توزيع الصحف العام اليومي البالغ (٢٥) مليون نسخة في أوائل أيام الحرب الثانية. وقد شرح (أمان) طريقة إدارة أعماله في شهادته التي أدلى بها أمام محكمة نورمبرگ قال: "بعد أن وثب الحزب الى كرسي الحكم في ١٩٣٣... وجدت عدة دور نشر من أمثال (دار أولشتاين) التي كان يملكها ويديرها رجال أعمال يهود أو رجال ذوو مصالح سياسية أو دينية معادية للحزب النازي وجدت من الأفضل بيع صحفها وإمتيازاتها فيها من دارنا. ولم يكن هناك سوق حر لبيع هذه الملكية وكانت (إهر ڤيرلاخ) الشاري الوحيد بصورة عامة. وبهذا أصبحت(إهر ڤيرلاخ) مع الدور الأخرى التي تملكها أو تسيطر عليها إحتكاراً واسعاً لنشر الصحف في ألمانيا... إن إستثمارات الحزب المالية في هذه المشاريع النشرية أصابت غاية النجاح. ومن الصواب القول أن الغاية الأساسية للصحافة النازية هي إستئصال كل الصحف التي تعادي الحزب.[١٢]"

١١- صعد دخل (أمان) الخاص من (١٠٨٠٠٠) مارك في ١٩٣٤ الى المبلغ الخيالي (٣٨٠٠٠٠٠) مارك في ١٩٤٢ (رسالة الى الكاتب من الأستاذ اورون هيل الذي قام بدراسة في السجلات الباقية من دار النشر النازية.
١٢- شهادة (أمان) في ١٩ تشرين ١٩٤٥ [مؤامرة النازيين... ج٥ الص ٧٣٥-٧٣٦، الوثائق ٣٠١٦ PS].

وفي إحدى الفترات (١٩٣٤) ناشد كل من أمان وگوبلز رؤساء التحرير الخاضعين لهم، أن يعملوا على جعل صحفهم أقل رتابةً وملالةً. وقال أمان انه لم يرضَ عن "الوحدة التامة التي تجمع كل الصحف في قالب متماثل ولم تكن من عمل الحكومة وإجراءاتها، ولاتتفق وارادتها." وارتكب رئيس تحرير متهور يدعى (ايم ڤلكه Ehm Welke) غلطةً في أخذ كلام (أمان وگوبلز) مأخذاً جدياً. فانتقد في مجلته الأسبوعية (گرونه پوست Gruene Post) وزارة الدعاية لشريطها الأحمر ويدها الباطشة التي تمسك بها زمام الصحافة فتجعلها مملة جداً. فاوقفت مجلته عن الصدور حالاً لمدة ثلاثة أشهر وفصله گوبلز ثم ألقي عليه القبض وأودع أحد معسكرات الإعتقال.

ووضع اللجام في فم مصالح السينما والراديو لتخدم دعاية الدولة النازية. كان گوبلز يرى الراديو (لم يشع إستعمال التلفزة بعد) أداة رئيسة للدعاية في المجتمع العصري وقد بسط سيطرته التامة عن طريق مديرية الإذاعة و(غرفة راديو الرايخ) على الإذاعة اللاسلكية ووضعها في الإطار الذي يخدم أهدافه. ومما سهل عليه ذلك أن الراديو في ألمانيا (كما في غيرها من بلدان أوروپا) هو إحتكار للدولة وملك لها تديره كما تشاء. وفي ١٩٣٣ وجدت الحكومة النازية نفسها مالكة لهيئة إذاعة الرايخ بشكل تلقائي.

بقيت الأفلام في أيدي شركات خاصة إلاّ أن وزارة الدعاية (وغرفة سينما الرايخ) أشرفت على كل ركن في هذه الصناعة. وحددت مهمتها- بعبارة وردت عن لسان أحد الموظفين "إنتشال صناعة السينما من دائرة الأفكار الإقتصادية الليبرالية... وجعلها بهذا جديرة بالنهوض بالمهام التي وجب عليها إنجازها في الدولة القومية الإشتراكية".

وكانت نتيجة هذين الأمرين أن أبتلي الشعب الألماني بمناهج للراديو وبأفلام سينمائية، سمجة فارغة تبعث السأم والملالة قدر ما تبعثه محتويات الصحف اليومية والمجلات فيه. حتى هذا الجمهور الذي يخضع عادةً دون إحتجاج لما يقال بأنه جيد له، ثار ثائره وأعلن إستنكاره، فكنت ترى الرواد يبتعدون زرافات عن الأفلام النازية ويملأون دور السينما التي تعرض تلك الأفلام الأجنبية القليلة (وأغلبها أفلام أمريكية من الدرجة الثانية) التي يسمح گوبلز بعرضها على الجمهور الألماني. وفي فترة من أواسط الثلاثينات وصل التذمر من الأفلام الألمانية حداً اضطر معه وزير الداخلية (ڤلهلم فريك) الى إصدار بيان صارم ضدّ السلوك الخياني الذي يبديه مرتادو السينما". كذلك كانت تنتقد برامج الراديو على نطاق واسع حتى صرح (رئيس غرفة الراديو) هورست درسلر-اندريس Horst Dress-ler-Andress أن إنتقاداً كهذا "هو إهانة للثقافة الألمانية" ولن يتسامح فيه. في تلكم الأيام من الثلاثينات كان المستمع الألماني يستطيع إدارة عقرب الراديو الى عشرات من المحطات الأجنبية دون المخاطرة برأسه - كما حصل فيما بعد عند نشوب الحرب وربما كانت قلة منهم تفعل ذلك. وإن كان

الإنطباع الذي تكوّن للمؤلف بمرور السنين هو ان الدكتور گوبلز أصاب كبد الحقيقة بتكهنه أن الراديو بات أمضى وأقوى وسيلة دعائية مؤثرة هو لدعم النظام القائم. يعمل أكثر مما تعمله أية وسيلة أخرى من وسائل الإتصال الفكري لتهيئة الشعب الألماني بالشكل الذي يريده هتلر.

لقد جربت أنا نفسي السهولة التي تنطلي بها الكذبة وكيف ينخدع المرء بالصحافة المراقبة والراديو الموجّه في دولة ذات حكم مطلق. كنت أنفرد عن معظم الألمان بميزة الإطلاع اليومي على الصحف الأجنبية ولاسيّما صحف لندن وپاريس وزوريخ التي تصلني بعد صدورها بيومٍ واحدٍ ومع أني كنت أصغي بإنتظام الى هيئة الإذاعة البريطانية BBC وغيرها من الإذاعات الأجنبية فعملي يقتضي مني صرف ساعات كثيرة من اليوم في تدقيق الصحف الألمانية والإنصات الى الراديو الألماني والتحدث الى الموظفين النازيين وغشيان الحفلات الإجتماعية، والعجيب بل المفزع أحياناً أن أجدني – رغم فرصي الكثيرة في معرفة الحقائق، ورغم عدم الثقة المتأصل فيّ ازاء ما يستمد من مصادر نازية. فان غذاء مستمراً على كرور السنين من التزييف والتشويه والتزوير يخلّف والحق يقال إنطباعاً معيناً في عقل المرء كثيراً ما يضلله. لا أحد يستطيع أن يفهم كم هو صعب ان يتخلص المرء من الآثار المرعبة لدعاية نظام سياسي ذات طبيعة إستمرارية وحساب دقيق، إلا اذا عاش عدة سنين في بلادٍ يسيطر عليها حكم مطلق توتاليتاريّ. كثيراً ما وجدتني في منزل ألمانيّ أو في دائرة أو في حديث عابرٍ مع غريبٍ صادفته في مطعمٍ أو مشرب بيرة أو مقهى – أُواجَهُ بأغرب التأكيدات أو التحليلات من أناس مظهرهم يدل على الثقافة والذكاء. واضح انهم يرددون ترديداً ببغائياً قطعة من الهذر سمعوها من الراديو أو قرأوها في الصحف. ويرى المرء نفسه أحياناً أن يقول ما يجول في ذهنه مصححاً وفي هذه المناسبات يجد في إنتظاره نظرة إستغراب وعدم تصديق أو صمتاً عميقاً كأنما نطق بشتيمة أو كفر بالواحد القهار، فلا يلبث ان يدرك عبث محاولته في إيجاد صلةٍ مع ذهن أصبح ملتوياً باتت حقائق الحياة عنده كما صورها له هتلر وگوبلز بإزدرائهما الحقيقة وعدم الاكتراث بها.

–٥–

التعليم في الرايخ الثالث

في ٣٠ نيسان ١٩٣٤ عيّن برنهارد رشت Bernhard Rust وزيراً للرايخ لشؤون العلم والتربية والثقافة العامة. وهو قائد منطقي (أوبرگروبنفوهرر) في الـ(إس. أي) وگاولايتر هانوڤر سابقاً، وعضو نازي وصديق لهتلر منذ أوائل العشرينات. في عالم القومية الإشتراكية الشاذ المنقلب عاليه سافله كان (رشت) خير من يناسب هذا المنصب وتبعاته.وجدناه منذ ١٩٣٠ مدير مدرسة اقليمي

عاطلاً، طردته في تلك السنة السلطات الجمهورية المحلية في هانوڤر لظهور أعراض معينة فيه من الإضطراب العقلي والشذوذ في التصرفات وإن كان بعض هذا يُعزى الى تعصّبه للنازية. راح (رشت) يبشر بالنازية بحمية گوبلز وجنون روزنبرگ. وعين في شباط ١٩٣٣ وزير العلم والفنون والتربية في حكومة پروسيا وفخر بأنه حقق في عشية وضحاها "تصفية المدارس بوصفها معهداً للبهلوانيات العقلية".

الى هذا الرجل الأجوف الملتاث العقل أودع الإشراف الدكتاتوري المطلق على العلم الألماني والمدارس الحكومية ومعاهد الدراسات العليا ومنظمات الشباب. فالتعليم في الرايخ الثالث كما تخيّله هتلر لن يكون داخل جدران الصفوف التعليمية المحتشدة بل يتسع ليشمل التدريب الرياضي والسياسي والعسكري في منظمات فتوةٍ متعاقبة تبلغ ذروتها لا في الجامعات أو كليات الهندسة التي لاتمتص إلاّ أقلية ضئيلة منهم، بل في العمل الإجباري أولاً عند سن الثامنة عشرة ثم الإنخراط في القوات المسلحة.

كان تهكم هتلر وإحتقاره "للأساتذة" والحياة الفكرية الجامعية تفَلفِل صحائف (كفاحي) الذي اودع فيه بعض آرائه عن التربية فكتب يقول "كل التربية والتعليم تقوم به الحكومة القومية يجب أن يستهدف بالدرجة الأولى لا الى حشو الأذهان بمجرد المعرفة بل الى بناء الأجسام الصحيحة بدنياً والى الأعماق وأهم من هذا أنه شدد النكير على ضرورة السيطرة التامة على الشباب ثم تدريبهم لخدمة "دولة قومية جديدة" وهو موضوع عاد اليه كثيراً بعد ان أصبح دكتاتور ألمانيا "عندما يقول الخصم إني لاأنحاز الى جانبكم... أجيبه بهدوء إن طفلك قد إنحاز الينا... وانت من تكون؟ انك ستذهب. وأولادك الآن يقفون في المعسكر الجديد، ولن يمر بهم وقت طويل حتى لايعودون يدركون إلاّ هذا المجتمع الجديد" ذلك ما قاله هتلر في خطبة له في ٦ تشرين الثاني ١٩٣٣، وصرح في (١) أيار ١٩٣٧ "هذا الرايخ الجديد لن يعطي شبابه وفتيانه الى أحد لكنه سيأخذهم لنفسه، ويمنحهم تربيته وتهذيبه الخاصين" ولم يكن ذلك تباهياً أجوف فهذا بالضبط ما كان قد حصل. سرعان ما إصطبغت بالنازية كل المدارس الألمانية من الصف الأول الإبتدائي حتى صفوف الجامعات. واعيدت كتابة الكتب المدرسية بغاية الإستعجال وغيرت المناهج الدراسية curricula وأصبح "كفاحي" على ما تقول صحيفة (دير دويتشه إرزيهر Der Deutsche Erzieher) لسان حال المعلمين والمربين "نجمنا الهادي الذي لايخطأ في أصول التعليم"، ومن لايرى من المعلمين هذا النور الجديد، يطرد. وأغلب المعلمين ذوو ميول نازية إن لم يكونوا أعضاءً في الحزب. ولأجل تقوية ايدولوجيتهم كانوا يدخلون دورات تدريب ليتشربوا مباديء القومية الإشتراكية مع الإهتمام بصورة خاصة بمباديء هتلر العنصرية. وأجبر كل محترف التعليم، إبتداءً من حدائق الأطفال حتى الجامعات الى الإنضواء في سلك "جمعية المعلمين القومية

الإشتراكية" التي هي بحكم القانون "مسؤولة عن تحقيق التنسيق الايدولوجي والسياسي لكل المعلمين وفقاً لمبادىء القومية الإشتراكية" واشترط نظام "الخدمة المدنية" للعام ١٩٣٧ أن يكون المعلمون "منفذي إرادة الدولة التي يدعمها الحزب" وان يظلوا مستعدين "في أي وقت للدفاع عن الدولة القومية الإشتراكية دون تحفظ أو تلكؤ" وجعلهم مرسوم سابق "موظفين عموميين" وبالتالي خاضعين الى القوانين العنصرية. ومنع اليهود بطبيعة الحال من مزاولة التعليم. والزم كل المعلمين بتأدية قسم "الولاء والطاعة لأدولف هتلر" ثم رسم فيما بعد ألاّ يمارس التعليم إلاّ بعد أن يكون المرء قد خدم في الـ(إس. أي) أو معسكرات العمل، أو منظمة شبيبة هتلر. وعلى المرشحين للتدريس في الجامعات ان يقضوا ستة أسابيع في معسكر مراقبة، حيث يتولى خبراء نازيون مدارسة آرائهم وأخلاقهم ويقدم بذلك تقرير الى وزارة التربية التي تصدر إجازة مزاولة التعليم إستناداً الى "الثقة" بالمُجاز سياسياً.

قبل ١٩٣٣ كانت المدارس الحكومية الألمانية تخضع إدارياً الى السلطات الاقليمية المحلية. والجامعات تخضع للدول الفيدرالية أمّا الآن فقد أخضعت كلها الى الحكم الفولاذي لوزير الرايخ لشؤون التربية والتعليم. فهو الذي يعين العمداء ومدراء الكليات. وكانوا قبلاً يصلون الى مراكزهم عن طريق إنتخاب مجلس أساتذة المعهد كلهم. كذلك صار يجري تعيين رؤساء إتحادات طلبة الجامعات التي ينتمي اليها كل طلاب المعاهد العليا ويعين رؤساء إتحادات المحاضرين التي تشمل كل المعلمين. واعطيت "جمعية القوميين الإشتراكيين لمحاضري الجامعات" وهي تحت القيادة الحازمة لأيدٍ نازية قديمة. دوراً حاسماً في إختيار من يلقي الدروس ومن لايلقي وأن تراقب ما يُدرّسون وهل هو متفق مع نظريات النازي.

وكانت نتيجة هذه الصبغة النازية الغامقة جداً، أن حلت كارثة بالتعليم الألماني والفكر الألماني. الكتب المدرسية الجديدة ودروس المعلمين زورت التاريخ تزويراً فاضحاً حتى بات نكتة مضحكة. أما دروس "العلوم العنصرية" التي سمَت بالألمان الى مرتبة الشعب المختار وانحطت بالساميين الى جعلهم أصل كل الشرور في العالم فكانت مهزلة المهازل حقاً. وفي جامعة برلين وحدها حيث كانت منبراً ألقى منه كبار الباحثين والمفكرين دروسهم الشهيرة في الماضي عُيّن عميد جديد وهو من جنود العاصفة، يمتهن البيطرة. فأنشأ خمسة وعشرين موضوعاً دراسياً جديداً في العلوم العنصرية Rassenkunde، وفي الوقت الذي وصل به الأمر الى تفكيك الجامعة وتمزيقها كان قد أدخل ثمانين وستة مواضيع مرتبطة بمهنته الخاصة.

وأدرك الانحلال السريع العلوم الطبيعية التي كان تدريسها مفخرة ألمانيا لعدة أجيال. وطرد أو أحيل الى التقاعد معلمون عظام أمثال آينشتاين وفرانك Franck في الفيزياء. وهلبر Haber وڤيلشتايتر Willstaetter وڤاربورغ Warburg في الكيمياء. أما من بقي فمعظمهم أصيب بعدوى

ضلالات النازين وزيفهم وحاولوا تطبيقها في العلوم المحضة فبدأوا يدرسون ما أطلقوا عليه "الفيزياء الألمانية" و"الكيمياء الألمانية" و"الرياضيات الألمانية". وأعجب منها أنه صدر في ١٩٣٧ مجلة باسم "دويتش ماثماتيك: الرياضيات الألمانية Deutsche Mathematik" وأعلن مقالها الإفتتاحي بكل جدٍ "أن كل رأي يقول أن الرياضيات لايمكن الحكم عليها عنصرياً يحمل في ذاته جرثومة تدمير العلم الألماني".

باتت هلوسات هؤلاء العلماء النازين لايصدقها حتى الناس العاديون. وتساءل البروفسّر فيليب لينارد Prof. Philipp Lenard من جامعة هايدلبرگ وهو واحد من العلماء الكبار المحترمين دولياً في الرايخ الثالث "أفيزياء ألمانية؟ ولكن سيكون الرد على ذلك: العلمُ أُمَمي شعوبي وهو باق كذلك- هذا غير صحيح. والحقيقة ان العلم مثل أي منتوج بشري آخر هو عنصري، يكيفه الدم".

وراح البروفسر رودولف توماچيك Prof. Rudolphe Tomaschek أستاذ المعهد الفيزيائي في (درسدن) الى أبعد من زميله فكتب: "الفيزياء الحديثة هي أداة بيد اليهودية [العالمية] تستخدمها لتدمير العلوم النوردية... الفيزياء الحقيقية هي من خلق الروح الجرمانية... في الواقع كل العلوم الأوروپية هي ثمرة الآري... وبعبارة أدق ثمرة الفكر الجرماني". وكان (للأستاذ يوهانس شتارك) رئيس المعهد الألماني القومي للعلوم الفيزيائية رأي مشابه لهذا، حين قال: سيتبين حتماً أن "مؤسسي أبحاث الفيزياء وكبار المكتشفين إبتداءً من غاليليو Galilao حتى نيوتن Newton الى روّاد علوم الطبيعة في عصرنا كانوا آرين تقريباً. وبالأخص من العنصر النورديّ".

هنالك ايضاً (البروفسّر ڤلهلم موللر) أستاذ الكلية التكنولوجية في آخن Aachen. فقد ذكر في كتاب له عنوانه "اليهودية والعلم". أنه يرى مؤامرة "يهودية لتدنيس العلم، ومن ثم تدمير الحضارة البشرية. ويجد آينشتاين بنظريته في "النسبية" إماماً للسفلة والأنذال. ان نظرية آينشتاين التي بني عليها الكثير جداً من العلوم الطبيعية الحديثة هي في نظر هذا البروفسّر النازي العجيب "موجهة من بدايتها حتى نهايتها الى هدفٍ واحدٍ ألا وهو تغيير العالم الكائن [العالم اللاسامي] الى جوهرٍ كائن. عالم ولد من امه الأرض وارتبط برابطة الدم، يريد آينشتاين ان يمسخه الى تجريدٍ طيفي تتجلى فيه كل الفروق الفردية للأمم والشعوب. تجريد تضيع فيه كل الحدود العميقة التي تفصل ما بين الأجناس العرقية في متاه اللاحقيقة، حيث لايعيش فيه غير نقيض لا جوهري ولا مادي مكون من مجرد أبعادٍ هندسية هي وحدها التي تستخرج كل الأحداث من جبرية [حتمية] خضوعها اللارباني الى القوانين". وعن الحفاوة العالمية الهائلة التي أستقبلت بها نظرية آينشتاين في النسبية عند طبعها، يعلن الأستاذ موللر أنها حفاوةٌ "بإقتراب اليهود من حكم العالم الذي سيكون من نتائجه الحط من الرجولة الألمانية الأبدي المحتوم الى مستوى العبد الذي فقد روحه" أمّا الأستاذ لودڤيك بيبرباك Ludvig Bieberback من

جامعة برلين فهو يرى آينشتاين "دجّالاً غريباً Mountc Bonk" بل حتى للأستاذ لينارد "إن اليهودي يفتقر إفتقاراً بيّناً الى إدراك الحقيقة... وهو من هذه الناحية نقيض للعالِم الآري الباحث، بإرادته الى الحقيقة الدقيقة والجدية... ولهذا كانت العلوم الطبيعية اليهودية طيفاً ومظهراً للتحلل الفاسد لعلوم الطبيعة الألمانية الأساسية[١٣].

مع كل ذلك، فمن ١٩٠٥ حتى ١٩٣١ منح عشرة من الألمان اليهود جوائز نوبل لما قدموه للعلم. منح أستاذة الجامعات مساندتهم العمياء للحكومة المحافظة وأهدافها التوسعيّة في عهد الرايخ الثاني مثلما فعل رجال الدين البروتستانت وكانت قاعات المحاضرات حظائر تفريخ للقومية الحاقدة واللاساميّة. وأصرّت جمهورية (ڤايمر) على الحرية الأكاديميّة المطلقة، فكانت نتيجة ذلك أن الأساتذة وأغلبيتهم الساحقة ضد الأفكار الحُرة، وضد الديمقراطية وضدّ السامية. عاونوا كثيراً في نسف النظام الديمقراطيّ. كان معظم الأساتذة من القوميين المتعصبين الشوڤينين يرغبون عودةً لألمانيا الملكية المحافظة ومع أنهم كانوا يرون النازيين قبل ١٩٣٣ أكثر عنفاً وعربدة من أن يحالفوهم إلاّ أن دروسهم ساعدت على تهيئة الأرض لمجيء النازية. لم تجيء السنة ١٩٣٢ حتى كانت أغلبية الطُلاّب متحمسّة لهتلر. قد يدهش بعض النّاس لكثرة عدد أساتذة الجامعات والكليات الذين إنضووا تحت لواء صبغ العلوم العليا بالنازية بُعيد ١٩٣٣ ومع ان الأرقام الرسمية تُبلغ عدد الاساتذة والمدرسين المفصولين خلال السنوات الخمس الأولى من الحكم النازي الى(٢٨٠٠) وهو زهاء ربُع المجموع الكلّي. الاّ أن نسبة من فقد وظيفته بسبب تحديه القومية الإشتراكية كان "قليلا للغاية" كما ذكر البروفسّر ڤلهلم رويبكه Prof. W. Roebka الذي فُصل هو بالذات من جامعة ماربورگ في ١٩٣٣. ومع ضآلة النسبة فهناك أسماء أشتهرت في العالم الأكاديمي الألماني مثل (كارل ياسپارس Karl Jaspars) و(اي. آي. گومبل E. I. Gumbel) و(ثيودور لت Theodor Litt) و(كارل بارث Karl Barth) و(يوليوس ايبنگهاوس Julius Ebbinghaus) وعشرات غيرهم. ومعظمهم هاجر الى سويسرا وهولندا وإنگلترا ثُم الى أمريكا.

وعقبت العصابات النازية أحدهم وهو البروفسّر (ثيودور ليسنغ Theodor Lessing) الذي هرب الى چيكوسلوڤاكيا فصرعه رصاصهم في ٣١ آب ١٩٣٣. وعلى كل حال ظلّت أغلبية كبيرة من الأساتذة في كراسيها وفي مطلع خريف ١٩٣٣ تقدم زهاء تسعمائة وستين منهم وفي طليعتهم أسماء لامعة في سماء العلم أمثال الأستاذ الجراحيّ ساوربروخ Sauerbruch وهايدگر Heidegger الفيلسوف الوجودي وپندر Pinder مؤرخ الفنّ ليقسموا يمين الولاء علناً لهتلر وللنظام القومي الإشتراكي. عَلق البروفسر رويبكه على ذلك فيما بعد قال: "إنه مشهد من مشاهد تعاطي الفحش وصم بالعار تاريخ الفكر

١٣- كان معظم المراسلين الأجانب في برلين يحتفظون بمجموعات من هذه النوادر ولقد فقدتُ مجموعتي الخاصة. والنصوص المدرجة هي من (فليب لينارد) "الطبيعيات الألمانية! المقدمة" بقلم والاس دويل Wallace Deuel. "الناس تحت حكم هتلر" وليام ابنشتاين Welliam Ebenstein "الدولة النازية"

الألماني الشريف[١٤]"، مثلما قال البروفسر يوليوس اينگهاوس وهو ينظر المجارز والدمار المتخلّف في ١٩٤٥ "تقاعست الجامعات الألمانية حين كان يوجد فرصة وقبل فوات الأوان. تقاعست عن المعارضة العلنية وبكلّ ما لديها من قوى للحيلولة دون تدمير المعرفة وخراب الدولة الديمقراطية. تقاعست عن ابقاء مشعل الحرية والحق موقداً في غيهب الطغيان الأسحم[١٥]".

وكان ثمن هذا التقاعس باهظاً فبعد ستّ سنين من عملية الطلاء النازية هبط عدد طلاب الجامعة الى أكثر من النصف (من ١٢٧٩٢٠ الى ٥٨٣٢٥) وتناقص عدد الطلاب المسجلين في المعاهد التكنولوجية التي تمد ألمانيا بعلمائها ومهندسيها الى نسبة أكبر من ٢٠٤٧٤ طالباً الى ٩٥٥٤ طالباً وهبط المستوى الأكاديمي هبوطاً يصيب المرء بالدوار. فلم يقتصر الأمر في ١٩٣٧ على قلّة الشباب المطلوبين في شتى نواحي العلم والهندسة. بل تعداه الى مستوى هذه القلة المتدني علمياً. فقبل نشوب الحرب العالمية الثانية بزمن طويل كانت الصناعة الكيمائية المشغولة في توسيع برنامج إعادة التسلّح تتشكى في صحيفتها "الصناعة الكيمائية Die Chemische Industrie"من ان ألمانيا تفقد مركزها القيادي الطليعي في الكيمياء. ولم يعد الخطر يكتنف الإقتصاد القومي بل تعداه الى الدفاع القوميّ وعزت أسباب ذلك إلى قلة العلماء الشباب وكفاءاتهم المتدنيّة بسب المستوى العلمي المتردي في كليات العلوم.

وشاء أن يكون فقر ألمانيا النازية ربحاً للعالم الحُرّ. وبخاصة في السباق الى أولوية السلاح النوويّ. إن قصّة المجهودات الناجحة التي قام بها قادة النازي بقيادة هتلر، لعرقلة برنامج الطاقة الذرية هي طويلة جداً. وهي مما سوف نقصه هنا. لقد شاءت سخرية القدر أن يعود الفضل في تقدم القنبلة في الولايات المتحدة بالدرجة الأولى الى رجلين نُفيا عن موطنهما بسبب العرق من جانب الدكتاتوريتين النازية والفاشية: آينشتاين من ألمانيا. وفيرمي Fermi من إيطاليا.

لم يكن هتلر ليأبه كثيراً بالمدارس الحكومية التي تركها هو نفسه في أوائل سنيّ حياته. وانما كان كل إهتمامه منصباً على منظمات شبيبة هتلر التي عوّل عليها لتربية فتيان ألمانيا تحقيقاً للهدف الذي رسمه في ذهنه. لم تكن حركة شبيبة هتلر في أوائل سنيّ كفاح الحزب النازي بتلك الحركة الواسعة. وقد بلغ عدد أعضائها في ١٩٣٣ وهي آخر سنة من حياة الجمهورية ١٠٧,٩٥٦ عضواً مقابل عشرة ملايين فتىً ينقسمون الى مختلف المنظمات الفنية المتحدة في (لجنة منظمات الرايخ للشباب الألماني) ولم يكن في العالم حركة شبان واسعة منظمة كتلك التي كانت في ألمانيا الجمهورية ولقد أدرك هتلر ذلك وعزم على وضع يده عليها وصبغها بالنازية. وكان رئيس أعوانه لتحقيق هذا

١٤- وليام رويبكه: حل المشكلة الألمانية ص٦١.
١٥- إقتباس في فردريك ليلگه "Fredric Lilge" هتك حرمة العلم: فشل الجامعة الألمانية ص٢٦.

المطلب شابٌ وسيم خفيف العقل، لكنه ذو حيوية وإندفاع عظميين هو (بالدر ڤون شيراخ) وقع تحت سحر هتلر وإنضم الى الحزب في ١٩٢٥ وهو في سنّ السابعة عشرة. وفي ١٩٣١ سُمي قائد الشباب في الحزب النازي. وكان يبدو بين ذوي القمصان الرمادية الغلاظ المشوهي الوجوه بالندوب كأنه طالب جامعيّ أمريكي بريء غير ناضج. وربما كان ذلك يعود الى إتصال نسبه باسلاف أمريكيين كما رأينا [ومن ضمهم إثنان من الموقعين على تصريح الإستقلال الأمريكي(١٦)]. نصب (شيراخ) "زعيم شباب الرايخ الألماني" في حزيران ١٩٣٣ وراح يقلد تاكتيك قادته الكبار فكان باكورة أعماله أن أرسل حملة قوامها خمسون شاباً غليظاً شاكي السلاح لإحتلال المقر الوطني للجنة منظمات شباب الرايخ. فألجيء رئيس اللجنة (الجنرال ڤوغت Vogt) وهو ضابط پروسي قديم الى الفرار. ثمّ لاحق واحداً من أشهر أبطال البحر الألمان الأميرال ڤون تروثه Von Trotha رئيس هيئة أركان أسطول ما وراء البحار في الحرب العالمية الأولى الذي كان آنذاك رئيس إتحاد الشبيبة. فهرب الأميرال الشهير أيضاً وحُلّت منظمته ووضعت اليد على ممتلكات المنظمتين، ومعظمهما مئات من فنادق الشباب الخاصة منتشرة في أرجاء ألمانيا.

إن (الكونكوردات) المعقودة مع الڤاتيكان في ٢٠ تموز ١٩٣٣ اشترطت بنصّ صريح على إستمرار جمعية الشبيبة الكاثوليكية في مزاولة نشاطها دون أي عائق. لكن هتلر أصدر في ١ كانون الأول ١٩٣٦ قانوناً بحلها وحلّ كل منظمات الشباب الأخرى غير النازية.

"كل شباب الألمان في الرايخ يتم تنظيمهم داخل "شبيبة هتلر" الى جانب تربية الفتية الألمان داخل نطاق الأسرة وفي المدارس فيجب أن يتولىّ تربيتهم بدنياً وعقلياً وخلقياً على روح القومية الإشتراكية... عن طريق شبيبة هتلر(١٧)" وانتقلت تابعية شيراخ لوزارة التربية، ليغدو مسؤولاً أمام هتلر بصورة مباشرة.

واصبح هذا الشاب ذو التسعة والعشرين ربيعاً الذي لم يتمّ نضجه والذي يكتب قصائد غنائية بمدح هتلر ("هذا العبقري الذي يرعى في حقل النجوم ") وبتأثير خطى روزبزغ في وثنيته الشاذة وشترايخر في عدائه السّام للسامية أصبح دكتاتوراً للشباب في الرايخ الثالث حيث ينتظم الفتيان والفتيات من سن السادسة الى الثامنة عشرة (وهو سن التجنيد للعمل والجيش) في مختلف كوادر شبيبة هتلر. ويعاقب الآباء الذين يحاولون منع أولادهم من الإنضمام اليها بعقوبات سجن قاسية. حتى لو اقتصروا على إظهار إحتجاجهم في دخول بناتهم بعض الخدمات حيث بلغ عدد قضايا الحمل غير الشرعي حدّاً فاضحاً.

١٦- ذكر أسلاف شيراخ الأمريكان دوگلاس ك. كيلي وهو الطبيب النفساني المنتدب في سجن نورمبرگ أثناء محاكمة مجرمي الحرب الكبار في كتاب "زنزانات في نورمبرگ ص٨٦-٨٧.

١٧- Reichsgesetzblatt ١٩٣٦ القسم الأول ص٩٣٣. (مؤامرة النازيين ج٣ الص ٩٧٢-٩٧٣، الوثائق:١٣٩٢ PS).

من سن السادسة حتى العاشرة يدخل الصبي منظمات تمهيدية لشبيبة هتلر كمستجدّ Pimlf ويعطى كل صبيّ دفتر وقوعات يسجل فيه تقدمه طوال فترة بقائه في (شبيبة هتلر) ومما يدوّن عنه نموه الفكري. وفي سن العاشرة بعد مروره في إختبارات مناسبة في الرياضة البدنية والمخيمات والتاريخ النازي الصبغة. يتخرج ويصبح "فتى Jungvolk" ويقسم اليمين التالية:

"أمام هذا العلم الدمويّ الذي يمثل زعيمنا أقسم بأني سأوقف كل نشاطي وقولي لمنقذ بلادنا أدولف هتلر. إني مستعدّ وراضٍ ببذل حياتي فداء له. ألا فليكن الله في عوني".

وفي الرابعة عشرة يدخل الفتى منظمة (شبيبة هتلر) الأصلية ويبقى فيها حتى يبلغ الثامنة عشرة. لينتقل بعدها الى معسكرات العمل ثم الجيش. إنها لمنظمة جبارة وضعت نظمها على قواعد شبه عسكرية مثل الـ(إس. أي) فيها يتلقى الشباب الذين هم على عتبة الرجولة تدريباً منتظماً لا على أسلوب التخييم والمعسكرات والرياضة والايديولوجية النازية وانما في صناعة الحرب. وكثيراً ما اعترض سبيل المؤلف في أيام الآحاد وهو يقضي نزهته في ضواحي برلين، شبيبة هتلر وهي تزحف زحفاً في الغابات أو تتسلق الروابي تحمل البندقيات وعلى ظهورها تجهيزات الجندي الكاملة.

وأحياناً تتلهى الفتيات بلعبة الجندية أيضاً. لأن حركة شبيبة هتلر لاتهمل الفتيات. فالبنات الألمانيات من العاشرة حتى الرابعة عشرة ينضمون إلى "اليونگميدل Jungmaedel" وترجمها بالحرف "السيدات الصغيرات" ولهن أيضاً بزتهن الرسمية وتتألف من بلوز أبيض، وتنورة تامة زرقاء وجورب وحذاء سير ثقيل –غير أنثوي أبداً– وتدريب لايختلف كثيراً عن تدريب الصبيان في العمر المماثل. فيتضمن المسيرات الطويلة في أيام الآحاد بالتجهيزات الثقيلة والدروس المعتادة في الفلسفة النازية. لكن هناك تشديداً خاصاً وجد في الرايخ الثالث بخصوص دور المرأة. وهي ان تكون قبل كل شيء أمّاً موفورة الصحّة لأطفال موفوري الصحة. ويشدد في هذا أكثر، عندما تصبح الصبايا وهنّ في الرابعة عشرة – عضوات في BDM أي "عصبة الفتيات الألمانيات Bund Deutscher Maedel".

وفي سن الثامنة عشرة يقوم آلاف منهن (يبقين في العصبة حتى سن الحادية والعشرين) بالعمل سنةً واحدةً في المزارع أو ما يدعي "سنة الأرض Land Jahr" وهي موازية لسنة عمل الشباب ومهماتهن تنحصر في مساعدة الريفيين في البيت والحقل. ويعشن أحياناً في بيوت الفلاحين وأحياناً كثيرة في مخيمات تقام في المناطق الزراعية حيث يؤخذن باللوريات يومياً عند الفجر الى الحقول. وسرعان ما برزت المشكلة الخلقية. كان وجود البنت الجميلة المغرية يوقع أحياناً الإضطراب في بيت الفلاح. وسمعت إحتجاجات ساخطة من الآباء حول ظهور علائم الحبل على بناتهن في المزارع. إلا أن ذلك لم يكن المشكلة الوحيدة. فقد جرت العادة أن يكون مخيم الفتيات قريباً من مخيمات جبهة العمل للشباب. ويظهر أن لهذا الجوار دخلاً في كثير من حالات الحمل ايضاً. وشاع بيتٌ من الشعر في

ألمانيا من أقصاها الى أدناها. وهو تشطير لعبارة "القوة من خلال الفرح" شعار حركة جبهة العمل إلاّ أنه يطلق بصورة أخصّ على (سنة عمل) الفتيات:

فـي الحـــــــقـــــــــول وفـي المـروج

أفـــقـــد القـــوّةَ من خـــلال الفــــرح!

مشاكل خلقية مشابهة أيضاً أثناء سنة الخدمة الواحدة في الأسرة بالنسبة الى الفتيات. حيث كان يقضي نصف مليون فتاة من شبيبة هتلر عاماً واحداً في خدمة بيوت المدن. والواقع أن الألماني النازي الصادق النية لايجدها مشاكل خلقية أبداً. أصغيت أكثر من مرةٍ الى مرشدات لفتيات هتلر BDM ومعظمهن لسن بالجميلات وغير متزوجات عادة- وهن يعظن الفتيات اللاتي وضعن تحت إشرافهن، حول الواجب الأدبي والقوميّ لحمل الأطفال ووضعهم في سبيل رايخ هتلر- عن طريق الزواج إن كان ممكناً، أو بدون زواج عندما تقضي الضرورة.

في نهاية ١٩٣٨ بلغ عدد شبيبة هتلر (٧,٧٢٨,٢٥٩) ومع ضخامة العدد يبدو واضحاً أن حوالي أربعة ملايين قد إستطاعوا البقاء خارج المنظمة وفي ١٩٣٩ اصدرت الحكومة قانوناً يقضي بالزام جميع الشباب والشابات بالإنخراط في (شبيبة هتلر) على عين الأسس التي يقضي بها قانون التجنيد الإجباري وأنذر الأباء المترددون أن أطفالهم سينزعون منهم ويوضعون في ملاجيء الأيتام أو في بيوت أخرى ان لم يدخلوهم المنظمة.

وجاء الإنحراف الأخير في ثقافة الرايخ الثالث عند إنشاء ثلاثة أصناف من المدارس لتدريب الصفوة المنتخبة وهي مدارس أدولف هتلر، وتدار بإشراف (شبيبة هتلر) والمعاهد القومية السياسية للتربية. و(معاقل النظام) والصنفان الأخيران يديرهما الحزب. وتأخذ "مدارس أدولف هتلر" أنبغ الصبيان من منظمة الأحداث (يونكفولك) في سن الثانية عشرة وتخضعهم الى تدريب صارم للقيادة في الحزب وفي الوظائف العامة ويعيش الطلاب في المدرسة تحت ضبط صارمٍ وبتخرجهم يقبلون في الجامعات. لقد أسس عشر مدارس من هذا الصنف عقب ١٩٣٧ وكبراهن تدعى أكاديمي Akademie في برونزويك.

والغاية من إنشاء معاهد سياسية للتربية هو إحياء نمط التربية التي كان في الماضي يمارس في الاكاديميات العسكرية البروسيّة وهي كما عبّر عنه أحد المسؤولين تنمي "الروح العسكرية بشمائلها كالشجاعة والشعور بالواجب والبساطة". والى هذا أضيف تدريب خاص في المباديء النازية. وهذه المدارس وضعت تحت أشراف (الحرس الأسود) الذي زودها بالمدراء وبمعظم المعلمين. لقد انشئت ثلاث مدارس من هذا النوع في ١٩٣٣ وبلغ عددها الثلاثين قبل نشوب الحرب وخصص ثلاث منها للإناث.

وفي قمة الهرم يقوم ما يطلق عليه (معاقل النظام Ordensburgen) في هذه المدارس بجوها الشبيه

بأجواء قلاع أخوية فرسان التيوتون للقرنين الرابع عشر والخامس عشر، تدرب النخبة المختارة من صفوة النازيين. إن نظام الفرسان موضوع على أساس الطاعة العمياء للسيد Ordenmeiten وهووقفٌ على غاية فتح الألمان أراضي السلاڤيين في الشرق وإستعباد أهاليها. و"لمعاقل نظام النازيين" هذا نظام وغايات مشابهة ولايختار لها إلا أشد شباب القوميين الإشتراكيين تعصباً وتحمساً. ويؤتى بهم عادة من أوائل خريجي (مدارس أدولف هتلر) ومعاهد التربية السياسية وهنالك أربعة معاقل والطالب يؤمها جميعاً بالتعاقب. وأول ست سنوات يقضيها في واحدة منها للتخصص في (العلوم العنصرية) وغير ذلك من وجوه الفكر النازي. ويعطى الإهتمام الأول للتدريب الذهني والضبط مع التدريب البدني ملحقاً به. وتنعكس الآية في القلعة الثانية حيث تعطى الأولوية للرياضة والتدريب البدني كتسلق الجبال والقفز بالمظلة. وتقدم القلعة الثالثة وأمدها سنة ونصف سنة دروساً سياسية وعسكرية. وتأتي أخيراً المرحلة الرابعة والأخيرة من هذه الدراسة. فيرسل الطالب سنة ونصف سنة الى "القلعة المدرسة" الواقعة في مارينسنزبرغ Mariensburg في پروسيا الشرقية القريبة من الحدود اليولندية. فهناك وفي القلعة الأصلية التي كانت معقلاً حصيناً لفرسان التيوتون قبل خمسة قرون تتركز دراساته السياسية والعسكرية في المسألة الشرقية. وحاجة ألمانيا (وحقها!!) في التوسع على حساب أراضي السلاڤ في بحثها الأبدي عن "المجال الحيوي: ليبنزراوم Lebensraum– وهو لا أبالك تهيّؤ ممتازٌ (كما ظهر فيما بعد وكما كان مقدراً له بلاشك) لأحداث ١٩٣٩ وما تلاها.

بهذا الشكل كان الشباب يدربون على الحياة والعمل والموت في الرايخ الثالث. ومع أن عقولهم كانت تُسمم عمداً ودراستهم تُقطع وبيوتهم تتغير تبعاً لتقلبات تربيتهم وسرعتها. فيبدو أن الفتيان والفتيات والشابات والشبان كانوا سعداء ممتلئين رغبة في التمتع بالحياة التي تقدمها لهم شبيبة هتلر. وليس ثم شك في أن عملية جمع الأطفال من كل الطبقات والمراكز الإجتماعية وانماط الحياة. حيث يساهم الكل في واجبات واحدة ويعيشون حياةً واحدة سواء أولئك الذين جاؤوا من الفقر والخصاصة أو نشأوا في بحبوحة. من بيت عامل أو فلاح أو تاجر أو ارستقراطي. لاشك ان ذلك شيء جميل صحيحٌ نافعٌ بحد ذاته. وفي أغلب الأحوال لايكون هناك ضررٌ في ان يقضي فتى المدينة وفتاتها ستة أشهر في عمل إلزاميّ يعيشان في الخلاء ويتعلمان قيمة العمل اليدوي، ويتفهمان كيفية إنسجامها مع غيرهما ممن يختلفون عنهما مشرباً ومركزاً ومنبتاً. ولم يفت أي شخص دائم التنقل في أرجاء ألمانيا آنذاك. تحدث مع هؤلاء الفتيان في معسكراتهم وراقبهم وهم يشتغلون ويلعبون ويغنون. أن يرى حركة فتية مندفعة لاتصدق. رغم ما تلقّنه من التعاليم الخطرة السامّة.

كان فتيان الرايخ الثالث ينمون لتشتد سواعدهم وتصحّ أبدانهم وليقوى إيمانهم بمستقبل بلادهم وبأنفسهم وليكون لديهم شعورٌ بالزمالة والرفاقية تمحق كل الفروق الطبقية والإقتصادية وتزيل كل

الحدود الإجتماعية. فكرت في هذا فيما بعد - في أيار ١٩٤٠ عندما كنت أشاهد على طول الطريق بين (آخن) و(بروكسل) الإختلاف الشديد بين الجنود الألمان ذوي البشرة النحاسية والعضل المفتول بفضل أيام الشباب التي قضوها في الخلاء تحت الشمس يتناولون طعاماً صحياً، وبين أول قافلة من أسرى الحرب الانكليز بوجناتهم المعروقة ومناكبهم الشديدة الانحناء وسيمائهم الشاحبة وأسنانهم المتسوّسة - أمثلة مؤلمة للشباب الذين أهملتهم إنكلترا بعدم شعور بالمسؤولية في فترة ما بين الحربين.

-٦-

الفلاّح في الرايخ الثالث

عندما إستولى هتلر على الحكم كان الفلاح -كشأنه في أغلب الأقطار- يعاني ضائقة لا مخرج منها. يقول كاتب في صحيفة فرانكفورتر زايتُنگ ان وضع الفلاح كان أسوأ من أي وضع عاناه الفلاّح الألماني منذ حرب الفلاحين المدمرة ١٥٢٤-١٥٢٥ التي خرّبت الأراضي الألمانية. لقد سجل الدخل الزراعي للسنة ١٩٣٢-١٩٣٣ إنخفاضاً جديداً يزيد بأكثر من بليون مارك على أسوأ إنخفاضٍ عاناه بعد الحرب وهو للسنة ١٩٢٤-١٩٢٥ وبلغ مجموع ديون الفلاحين أكثر إثني عشر مليون مارك. تراكم معظمها تقريباً في السنوات الثماني الأخيرة. وكانت الفائدة على هذه الديون تمتصّ حوالي ١٤٪ من مجموع الدخل الزراعي الكليّ. ويضاف الى هذا عبء مشابه تمثله الضرائب والمشاركات في الخدمات الإجتماعية.

ولقد أنذر هتلر في أولى أيام مستشاريته "يا رفاق الحزب. كونوا على بيّنة من أمر واحد: هناك أمل أخير، فرصة واحدة أخيرة لطبقة الفلاحين الألمان". وفي تشرين الأول ١٩٣٣ صرح قائلاً "في خراب الفلاح الألماني سيكون خراب الشعب الألماني."

ظل الحزب النازي سنينا وهو يعمل على كسب الفلاحين الى صفه وقد تعهدت لهم الفقرة السابعة عشرة من برنامج الحزب الذي لايقبل أي تغيير أو تعديل "بالإصلاح الزراعي... وبقانون مصادرة الأراضي الزراعية دون تعويض للنفع العام وبإلغاء الفائدة على الديون الزراعية ومنع المضاربة بالأراضي الزراعية" وكمعظم الفقرات الأخرى من المنهاج لم يتحقق شيء من الوعود للفلاحين - بإستثناء العبارة الأخيرة التي منعت المضاربة بالأراضي. ففي ١٩٣٨ كان توزيع الأراضي على حالته السابقة، أكثر تفاوتاً مما هو في أي قطر آخر في أوروبا. والأرقام المنشورة في تلك السنة بكتاب الإحصاء السنوي الرسمي يوضح أن أصغر المليونين ونصف المليون مزرعة حجماً، تبلغ مساحتها أقل

من الواحد بالألف من أكبر مزرعة في ألمانيا. وان الديكتاتورية النازية كالحكومات البرجوازية الإشتراكية في النظام الجمهوري لم تتجرأ على تحطيم الإقطاعات الواسعة من الأراضي الزراعية التي يملكها اليونكرز، وهي التي تقع على ضفة (الألبه) الشرقية.

ومهما يكن فإن النازيين وضعوا برنامجاً زراعياً واسع النطاق صحبته دعاية عظيمة تهز المشاعر حول "الدم والتربة Blut und Boden" وان "الفلاحين هم ملح الأرض وأمل الرايخ الثالث الأعظم. ولأجل تطبيق البرنامج عيّن هتلر (فالتر داريه) وهو واحد من قادة الحزب القلائل الذين يعرفون أين يضعون أقدامهم حق المعرفة، رغم مشاركته في معظم أوهام النازيين وخرافاتهم. خبير زراعي قدير بارز نال قسطاً من التعليم الاكاديمي وخدم في وزارتي زراعة الرايخ وپروسيا واضطر الى ترك منصبيه لإختلافه مع رؤساه فعاد الى مدينته في حوض الراين ١٩٢٩ وألّف كتاباً عنوانه "الفلاحون عماد حياة العنصر النورديّ" وكان مقدراً له بعنوانه هذا أن يسترعي إهتمام النازيين فما لبث أن قام (هيس) بتقديمه الى (هتلر) فاعجب به كثيراً واسند اليه مهمة وضع برنامج زراعي مناسب للحزب.

وبخروج (هوگنبرگ) من الوزارة في حزيران ١٩٣٣ عين (داريه) وزيراً للغذاء والزراعة. وبحلول أيلول كان كل خططه جاهزة للتطبيق في الحقل الزراعي. وشرّع قانونان أصليان في ذلك الشهر اعيد بهما تنظيم بناء الإنتاج والتسويق بناءً جديداً يتجه الى ضمان أسعار اعلى لغلة الفلاحين. ويضع في الوقت عينه الفلاح الألماني في مرتبة جديدة بإعادته الى منزلته القديمة حيث كانت الأراضي الزراعية وقفاً حبساً كما في عهود الاقطاع والفلاح ووارث ارضه مرتبطين إرتباط قرار بتلك الأرض الى الأبد (شريطة ان يكونوا من العنصر الآري الألماني).

كان قانون "الأرض الزراعية المتوارثة" الصادر في ٢٩ أيلول ١٩٣٣ مزيجاً يتضمن من جهة إعادة الفلاحين الى العصور الوسطى، ومن جهة ضمان حمايتهم من غائلة عصر النقود الحديث. كلّ المزارع التي تبلغ مساحتها (٣٠٨ ايكر) وهو ما يعادل ١٢٥ هكتاراً والكفيلة بضمان مورد عيش محترم لأسرة ستكون وفق القانون أملاكاً متوارثة خاضعة لقوانين الوقف الغابرة فلا يمكن بيعها أو تقسيمها أو رهنها أو حجزها سداداً لدين. وهي تنتقل بموت المالك إلى الإبن البكر أو الأبن الأصغر كما جرى عليه العرف المحلّي أو إلى اقرب ذكرٍ من الأسرة. والوارث مجبر بحكم القانون على أن يؤمن العيش والتعليم لإخوانه وأخواته حتى يبلغوا سن الرشد. ولايملك مزرعة كهذه إلاّ المواطن الألماني الآري الذي يستطيع إثبات نقاء دمه حتى سنة ١٨٠٠ ولا يمكن لأحد غيره أن يلقب "باللقب الكريم" (باور Baur أو الفلاح) الذي سيجرد منه إن خرق "شريعة الفلاّح الشريفة" أو اعتزل عمله بسبب العجز وما اليه. وبهذا بسط القانون حمايته على الفلاح الألماني المثقل بالديون وأنقذه من خطر ضياع ملكه تسديداً للديون. أو من تقلصّ مساحتها [لم تعد تلجئه ضرورة إلى بيع جزءٍ منها تسديدا لدين] إلاّ أنه في

الوقت نفسه شُدَّ الى الأرض شداً وثيقاً لا فكاك منه كما كان حال الأقنان في أيام الإقطاع.

وكُلّ مظهر من حياته وعمله نظمت تنظيماً محكماً بمنظمة الرايخ للأغذية الزراعية. وهي دائرة أنشأها (داريه) بموجب القانون المؤرخ ١٣ أيلول ١٩٣٣ إتسعت وزُوِّدت بسلطانٍ على كُلّ ما يتصور من فروع المحاصيل الزراعية والتسويق والنقل. وقد رأسها هو بمنصب زعيم فلاّحي الرايخ. وأغراضها الأساسية إثنان: ضمان أسعار ثابتة مُربحة للفلاح وجعل ألمانيا بلداً ذا إكتفاء ذاتي من ناحية الغذاء.

ترى كم كانت درجة نجاحه؟ في مبدأ الأمر كان النجاح أكيداً. فالفلاح من قبل كان يشعر لمدة طويلة بأن الحكومة قد أهملته وانشغلت عنه على ما بدا له، بمصالح التجارة والعمل وإمتلأ خُيلاء لإعتباره بطلاً قومياً ومواطناً مكرماً. وزاد سروره بإرتفاع الأسعار وهو ما ضمنه له (داريه) بمجرد تثبيتها بشكل تعسفيّ في مستوى مربح. وفي العامين الأولين من حكم النازي إرتفعت أسعار الجملة للمنتجات الزراعية بنسبة ٢٠٪ [الإرتفاع في المخضرات ومنتجات الحليب، والماشية كان أكثر بقليل] إلاّ ان هذه الفائدة أبطلها بعض الشيء إرتفاع مشابه في الحاجات التي يتعين على الفلاح شراؤها – ولاسيما في الآلات الزراعية والسّماد.

اما عن الإكتفاء الذاتي بخصوص الطعام وهو ما يراه قادة النازي ضرورياً بعد ان سبق واختطوا للحرب كما سنرى، فلم يحققوه قط، ولم يكونوا قادرين على تحقيقه. نظراً الى طبيعة التربة ومساحة الأراضي نسبة الى عدد السكان. ولم تثمر أعظم الجهود التي بذلها النازي في الأرض رغم "معركة الإنتاج" التي طبّلت لها الدعاية وزمرت، غير الـ٨٣٪ من حَدّ الإكتفاء الذاتي ولم يحصل الألمان على غذاء كافٍ للإستمرار في الحرب العالمية على قدر ما إستطاعوا، الا بعد فتحهم بلاداً أجنبية.

-٧-

إقتصاد الرايخ الثالث

إن أسس نجاح هتلر في السنوات الأولى، لم تكن قاصرة على إنتصاراته في السياسة الخارجية التي أكسبته فتوحاتٍ لم تجرِ بها قطرة دم، إنما على إنتعاش ألمانيا الإقتصادي. هذا الإنتعاش الذي قوبل في أوساط الحزب وفي أوساط بعض الإقتصاديين الأجانب بما تقابل المعجزة. والحقيقة أنه قد يبدو كذلك لأناس كثيرين. فالبطالة لعنة العشرينات وأوائل الثلاثينات هبطت نسبتها كما رأينا من ستة ملايين ١٩٣٢ الى أقل من مليون بعد أربع سنوات. وارتفع الإنتاج القومي الى ١٠٢٪ من ١٩٣٢ حتى ١٩٣٧ وضوعف الدخل القومي. والمراقب يرى ألمانيا في أواسط الثلاثينات أشبه شيء بخلية نحل هائلة الجرم فعجلات الصناعة تدور هادرة وكل إنسان مشغول كالنحلة.

كانت سياسة النازي الإقتصادية في السنة الأولى [بتوجيه من الدكتور شاخت على الأكثر لأن هتلر كان يضبق ذرعاً بالإقتصاد، وهو أيضاً لايفهم منه شيئاً] مركزة على إيجاد الأعمال للعاطلين بتوسيع نطاق المشاريع العامة وتنشيط المشاريع الخاصّة. ودعم الثقة بالحكومة إستنان أنظمة خاصة لمكافحة البطالة. ومنح إعفاءات سخيّة عن الضرائب للمصانع والمؤسسات الى ترفع من رؤوس أموالها الموظّفة في المشروع وتزيد من عمالها.

إلاّ أن إنتعاش ألمانيا الحقيقي قام على إعادة التسلح. وهو البرنامج الذي وجّه النظام النازي اليه كل طاقات العمل والصناعة -فضلاً عن مجهودات القادة العسكريين- من العام ١٩٣٤ فصاعداً. وعرف كُلّ الإقتصاد الألماني بالتعبير النازي "إقتصاد الحرب Wehrwirtschaft" ورُسم له أن يطبق لا في زمن الحرب فحسب بل في وقت السلم المؤدي الى الحرب. في كتاب الجنرال لوندورف الموسوم "الحرب الجماعية Der Totale Krieg" [أسيء نقل عنوانه في الترجمة الانكليزية للكتاب، بحيث يفهم هكذا: الأمّة في الحرب] الذي نشر في ألمانيا عام ١٩٣٥ بيّن المؤلف ضرورة تعبئة إقتصاد الأمة على أسس جماعية مثل أيّ تعبئة أخرى حتى يكون الإستعداد للحرب الجماعية تاماً. ولم تكن هذه فكرة جديدة تماماً عند الألمان. ففي (پروسيا) كانت خمسة أسباع موارد الخزينة تنفق على الجيش في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كما رأينا. وكان إقتصاد البلاد ينظر اليه دائماً وبالدرجة الأولى ليس كأداة الرفاء الشعبي والرخاء، بل تنفيذاً لسياسة الحرب. ووقع على عاتق النظام النازي تطبيق نظام "إقتصاد الحرب" في العقد الثالث من القرن العشرين. وأجاد الجنرال (جورج توماس) رئيس أركان دائرة الإقتصاد العسكري في وصف نتائج ذلك إذ قال "لن يعرف التاريخ الاّ أمثلة قليلة عن مناسبات وجهت فيها بلادٌ حتى في زمن السلم- كل إقتصادها بعمدٍ وتصميم وتخطيط وفق متطلبات الحرب كما أرغمت ألمانيا عليه في فترة ما بين الحربين(١٨).

بالطبع لم "ترغم" ألمانيا على الإستعداد للحرب بهذا النطاق الواسع. وانما هو قرار مدروس اتخذه هتلر. ففي قانون الدفاع (السري) الصادر في ٢١ أيار ١٩٣٥ نُصب شاخت رئيساً عاماً مطلق الصلاحية للإقتصاد الحربي، وأمره "ان يبدأ عمله من الآن وفي زمن السلم" ومنحه صلاحيات مطلقة في "توجيه الإستعداد الإقتصادي نحو الحرب" ولم ينتظر فريدُ عصره وأوانه هذا مدة أطول من ربيع ١٩٣٥ ليبدأ في بناء الإقتصاد الألماني لأجل الحرب. وفي ٣٠ أيلول ١٩٣٤ بعد مرور أقل من شهرين على تعيينه، قدّم تقريراً للزعيم عنوانه "تقرير عن وضع العمل للتعبئة الإقتصادية الحربية كما هو في ٣٠ أيلول ١٩٣٤" وفيه أعلن متباهياً فخوراً بأن "وزارته قد عُهد اليها بالإستعدادات

١٨- من كتابه "حقائق أساسية لتاريخ إقتصاد الحرب والتسلح الألماني" أقتبس في [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج١ ص٣٥٠: الوثيقة ٢٣٥٣ PS).

الإقتصادية لأجل الحرب" وفي ٣٠ أيار ١٩٣٥ بعد أربعة أسابيع من نصبه وزيراً عاماً مطلق الصلاحية في شؤون إقتصاد الحرب قدم مذكرة شخصية لهتلر بدأها بالقول: "ان إنجاز برنامج التسلّح بالسرعة والكفاءة والكمية المطلوبة (هو) [وضع الضمير بين قوسين لإبرازه] مشكلة السياسة الألمانية وبناء على ذلك فكلّ شيء ماعداه يجب ان يكون تابعاً لهذه الغاية..." وشرح لهتلر "مادام يجب علينا تعمية التسلّح وتغطيته حتى ١٦ آذار ١٩٣٥ [وهو التاريخ الذي أعلن فيه هتلر التجنيد الإجباري وزيادة الجيش الى حدّ ٣٦ فرقة] فمن الضروري ان تستخدم مطبعة أوراق النقد" لتمويل المراحل الأولى. واشار أيضاً بشيء من المرح والدعابة الى ان الأموال التي صودرت من أعداء الدولة [وأغلبهم يهود] وتلك التي سحبت من الحسابات الأجنبية الموقوفة قد ساعدت على صنع أسلحة هتلر. وختم كلامه بنكتة "وهكذا تجد ان تسليحنا إستحق جانباً من تمويله من حسابات أعدائنا السياسين وأموالهم(١٩)".

ومع أنه دحض أثناء محكمته في نورمبرگ -بكل براءة- التهم التي وجهت اليه حول المساهمة في المؤامرة النازية لإثارة حرب عدوانية. زاعماً أنه فعل عكس ذلك تماماً، فالحقيقة ستبقى قائمة، إذ لم تبلغ مسؤولية فرد واحد، ما بلغته مسؤولية (شاخت) في إعداد الإقتصاد الألماني للحرب التي أثارها هتلر في ١٩٣٩. ولقد أقر الجيش بفضله هذا إقراراً علنياً ففي مناسبة عيد ميلاده الستين هنأته نشرة الجيش المسماة Militaer-Wochenblatt في عدد الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٩٣٧ ووصفته "بالرجل الذي جعل إعادة بناء الجيش (الڤيرماخت) ممكناً من الناحية الإقتصادية" ثم استطردت "ان القوات الدفاعية تدين بهذا إلى عبقرية شاخت وكفاءاته العظيمة، في تذليل كل صعاب التمويل مما نجم عنه الوصول الى قوتها الحالية، بعد أن كانت جيشاً لايزيد عن مائة ألف رجل".

وضع كل عبقرية شاخت وسحره المعترف به في الشؤون المالية، في مجال العمل لتهيئة الرايخ الثالث للحرب. ولم يكن تشغيل مطبعة الأوراق المالية إلاّ واحداً من مخترعاته. لقد عالج النقد معالجة الساحر الخفيف اليد. وقدر خبراء الإقتصاد الأجانب أن النقد الألماني كان له في فترة محددة من الزمن (٢٣٧) قيمة متفاوتة. وعقد صفقات تبادل مذهلة مربحة [لألمانيا] مع عشرات من الأقطار واثبت للإقتصاديين التقليديين المشدوهين أنه كلما كنت مديناً لقطر من الأقطار كلما زاد نطاق تعاملك التجاري معه. وان خَلْقَه الإئتمان في بلاد ليس لديها من رأس المال الدائر الاّ النزر اليسير ويكاد لايوجد لديها إحتياطي نقدي، انما هو عمل من أعمال العبقرية أو كما قال عنه بعضهم "عمل أستاذ في المناورة المالية" وإختراعه لما أطلق عليه سندات الميفو Mefo هو خير مثال. هذه السندات

١٩- تقرير الوزير في ٣٠ أيلول ١٩٣٤، في [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٧ الص٣٠٦-٣٠٩، وثيقة ١٢٨ EC] تقرير شاخت في ٣٠ أيار ١٩٣٥ [مؤامرة... ج٣ الص ٨٢٧-٨٣٠، وثيقة ١١٦٨ PS]. نص قانون مجلس دفاع الرايخ السري [مؤامرة... ج٤ الص ٩٣٤-٩٣٦، وثيقة ٢٢٦١ PS].

أصدرها بنك الرايخ وضمنتها الدولة واستخدمت لتسديد المستحق لأصحاب مصانع السلاح. وكانت تقبل في كل المصارف الألمانية وبالأخير تطفأ من قبل بنك الرايخ. ولما لم يظهر لها أثر في تقارير البنك المركزي المنشورة ولا في ميزانية الحكومة فقد ساعدت على إبقاء عملية التسليح في طيّ الكتمان وتعذر أن يقدّر مدى ذلك التسلح. لقد استخدمت من ١٩٣٥ حتى ١٩٣٨ لتمويل إعادة التسليح فقط وبلغت قيمتها الكلية إثني عشر مليون مارك: ومرة كان وزير المالية الكونت شفيرين ڤون كروسيك Schwerin Von Krosigk يشرح لهتلر عملها فقال ببعض ضيق، أنها مجرد طريقة من طرق "النقود المطبوعة"[٢٠].

دخلت ألمانيا عهد إقتصاد إجماعيّ في أيلول ١٩٣٦، بالشروع في تنفيذ خطة السنوات الأربع، تحت سيطرة گورنگ الحديدية الذي حلّ محل شاخت كدكتاتور إقتصادي وان كان جهله في الموضوع لايقل عن جهل سيده هتلر. وكان هدف الخطة أن تجعل ألمانيا مكتفية ذاتياً في غضون أربع سنوات حتى لايخنقها الحصار الإقتصادي وقت الحرب فقلصت الإستيرادات الى أدنى حد متصوّر، وحددت أسعار البضائع تحديداً صارماً وثبت للأجور مستوى معيّن ووضعت تحت رقابة دقيقة. وحددت حصص الأرباح بستة بالمائة. وبدأت المصانع الكبرى تنتج المطاط الصناعي والأقمشة والوقود وغير ذلك من البضائع، من مصادر المواد الخام في ألمانيا نفسها واقيمت مصانع (هرمان گورنگ) الجبارة لصنع الفولاذ من تبر الحديد ذي الدرجة الواطئة. ومجمل القول عبيء الإقتصاد الألماني للحرب، وأصبح رجال الأعمال رغم تعاظم أرباحهم مجرد (براغي) في ماكنة الحرب. وأحيطت أعمالهم بقيود عديدة وبكثير من الاستمارات التي يجب إملاؤها. وقد ألجأ ذلك الدكتور (فونك) الذي خلف (شاخت) ١٩٣٧ في وزارة الإقتصاد وفي رآسة بنك الرايخ سنة ١٩٣٩ الى أن يقر متحسراً: "ان المخابرات الرسمية تبلغ الآن أكثر من نصف المجموع العام لمراسلات صاحب المصنع الألماني. وان تجارة التصدير الألمانية تتضمن ٤٠٠٠٠ عملية تجارية يومياً. ولكل عملية تجارية يلزم إملاء أربعين استمارة مختلفة الأشكال."

ودفن رجال الأعمال تحت جبال من الشرايط الحمر. وسيطرت الدولة على كل ما يمكنهم إنتاجه مهما بلغ مقداره أو ثمنه. وحملوا عبء الضرائب المتفاقمة وأحتلبوا "بالاعانات الخاصة للحزب" والإكتتابات إحتلاباً غير منقطع. فخاب ظنهم بهتلر خيبة شديدة وبخاصة أولئك الذين رحبوا بنظامه ترحيباً حماسياً لأنهم كانوا يتوقعون تحطيم التنظيم العمالي والسماح للإدارة بممارسة مشروع خاص لايعرقله معرقل. ومن هؤلاء الخائبي الأمل (ڤريتز تيسّن) أحد المساهمين الكبار الأوائل في مساعدة الحزب. فقد هرب من ألمانيا في مطلع الحرب بعد ان أدرك "أن النظام النازي دمّر الصناعة الألمانية"

٢٠- مؤامرة النازيين وعدوانهم [ج٧ ص٤٧٤ وثيقة ٤١٩ EC].

وكان يقول لكل من يلقاه في الخارج "كم كنت أحمق! [Dummkopf] [٢١]".

على كلٍ، خادع رجال الأعمال أنفسَهم في البداية متوهمين أن الحكم النازي سيحققّ كلّ أمانيهم. وبدا لهم برنامج الحزب الذي لايقبل تغييراً نذير شؤم بوعده بتأميم الإحتكارات وتأمين توزيع الأرباح في التجارة بالجملة. "وتأميم المخازن الكبرى وتأجيرها للتجار الصغار بثمن بخس وبالاصلاح الزراعي وإلغاء الفائدة على الرهون العقارية". لكن سرعان ما علم رجال الصناعة والمال ان هتلر لم يكن لديه أقل نية في تحقيق وعد واحدٍ من الوعود التي وردت في البرنامج - ان الوعود المتطرفة لم تدسّ الاّ لإجتذاب الناخبين وقد حاولت قلة من متطرفي الحزب في الأشهر القليلة الأولى من ١٩٣٣، السيطرة على الشركات التجارية، والاستيلاء على المخازن الكبرى وإنشاء إدارات مختلفة على نحو ما حاول موسوليني عمله. لكن سرعان ما طردهم هتلر وجاء برجال صناعة وأعمال محافظين، وأسند الى (كوتفريد فيدر) أول معلمي هتلر في الإقتصاد والمشعوذ الدعي الذي أراد إلغاء "عبودية الفائدة" منصب وكيل وزارة الإقتصاد الاّ أن رئيسه الدكتور كارل شميت Karl Schmitt قطب (التأمين) الذي قضى حياته يقرض المال ويجمع الفوائد لم يعهد اليه بأي عمل. وعندما جاء (شاخت) استغنى عن خدماته.

أما رجال الأعمال الصغار وهم من أهم معاوني الحزب ومعتمديه فكانوا يترقبون أشياء عظيمة من المستشار هتلر. لكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم -الكثير منهم- قد قضي عليهم واجبروا الى العودة من حيث ارتفعوا، أجراء كما كانوا! ان القوانين التي صدرت في تشرين الأول ١٩٣٧حلت كل التعاونيات التجارية التي يقل رأسمالها عن أربعين ألف دولار ومنعت تأسيس تعاونيات جديدة برأسمالٍ يقلّ عن مليوني دولار. وقد عجّل هذا بإخراج خمس الشركات والبيوت التجارية الصغيرة. ومن الجهة الثانية فإن الاحتكارات والكارتلات الكبرى التي نالت رعاية في حمى الجمهورية عمد النازيون الى تقويتها. وقد جعلت في الحقيقة اجبارية بموجب القانون الصادر في ١٥ تموز ١٩٣٣ ومُنحت وزارة الصناعة صلاحيات لتأسيس كارتلات جديدة أو لإرغام الشركات على الدخول في الكارتلات الموجودة.

وابقى النازي على طريقة إدارة عشرات الألوف من شركات التجارة والأعمال المنشأة أيام الجمهورية وإن أعيد تنظيمها بموجب القانون بنظام صادر في ٢٧ شباط ١٩٣٤. وفق المبدأ الرئاسي السائد ووضعت تحت سيطرة الدولة وأرغم كل عمل تجاريّ على ان يصبح عضواً فيها. ويقوم على هذا البناء المعقد الى درجة لايصدقها العقل غرفة إقتصاد الرايخ التي تعين الدولة رئيسها وتسيطر على سبع مجموعات قومية إقتصادية وثلاث وعشرين غرفة إقتصادية ومائة غرفة صناعية وتجارية وسبعين

٢١- "دفعت لهتلر" تيسّن. الص ١٥، ١٥٧.

غرفة للأشغال اليدوية. في وسط هذا المتاه الأعظم لهذه المنظمة وما لايُحصى من الدوائر والوكالات في وزارة الإقتصاد ومشروع الأربع سنوات والشلالّ الهائل الذي لاينقطع مجراه من المراسيم الخاصة والقوانين والأنظمة، يضيع فيه أبرع رجال الأعمال ولايهتدي فيه الى أمر بالأخير لم يجدوا مناصاً من إستخدام محامين خصوصيين لتتمكن الإدارة من العمل. واستخدمت الرشاوى ليجد المرء سبيله الى الموظفين الاجرائيين الكبار ذوي الحل والعقد. أو لإختصار في ما لا نهاية له من القواعد والتعليمات التي تصدرها الحكومة والجمعيات حتى بلغت رقماً فلكياً في أواخر الثلاثينات. وقد وصف أحد رجال الأعمال هذه الرشاوى للمؤلف بانها "ضرورة إقتصادية".

ومع ان حياة رجل الأعمال مرهقة، فقد كان يجني أرباحاً طيبة جداً فالصناعات الثقيلة التي تنتفع إنتفاعاً أساسياً من برنامج التسلح رفعت أرباحها من ٢٪ في سنة ١٩٢٦ الوافرة الربح الى ٦,٥٪ في ١٩٣٨ وهي آخر سنة كاملة من سني السلم. حتى القانون الذي حدد الحصص بستة بالمائة لم يكن عبئاً على الشركات نفسها بل بالعكس، فنظرياً كل كمية تزيد عن هذا المقدار من الحصص يجب أن تستثمر في سندات القرض الحكومية بمقتضى القانون – وليس هناك فكرة عن المصادر. وعملياً تقوم أغلب الشركات بإعادة استثمار الباقي من حصص الأرباح في أعمالها الخاصة ولاتوزعها، وقد ارتفعت تلك الحصص من (١٧٥) مليون مارك في ١٩٣٢ الى خمسة بلايين مارك سنة ١٩٣٨ وهي السنة التي بلغ فيها مجموع الأموال المدخرة في بنوك التوفير بليوني مارك أو أقل من نصف الأرباح غير الموزعة. في حين بلغت الأرباح الموزعة على شكل حصص ما لم يزد عن (١٢٠٠٠٠٠٠٠) مارك. والى جانب أرباح رجل الأعمال الكبيرة فإنه كان شديد الارتياح لسلوك العمال وكبح جماحهم. فلم يعد هناك علاوات غير معقولة في الأجور ولا مطاليب عمالية باي شكل كان. وكانت أجورهم قد خفضت قليلاً رغم إرتفاع مستوى المعيشة بـ٢٥٪ والأهم من كُلّ هذا القضاء على الإضرابات. والواقع ان الإضراب أصبح أثراً من آثار الماضي. فتظاهرات وفوضى كهذه أصبحت محظورة Verboten في الرايخ الثالث.

-٨-

عبودية العمل

بعد ان جرد العامل الألماني من نقابته، ومن المفاوضة الجماعية وحق الإضراب. أصبح في الرايخ الثالث عبداً صناعياً فحسب مرتبطاً بسيده رب العمل، أقرب شيء بإرتباط القن الزراعي بسيده الاقطاعي في القرون الوسطى. ان "جبهة العمل" التي حلت نظرياً محلّ نقابات العمال لم تمثل العامل

قطّ. فبموجب القانون الصادر في ٢٤ تشرين الأول ١٩٣٤ الذي خلق هذا التنظيم وصف بأنه "تنظيم الألمان المبدعين للعقل والقبضة" وهي لاتضمّ ذوي الأجور والمرتبات وحدهم بل أصحاب العمل والحرفيين. إنها في الواقع وسيلة دعاية واسعة أو كما وصفها أحد العمال "عملية إحتيال جبارة"، وهدفها كما حدده القانون ليس حماية العامل بل "خلق مجتمع حقيقي منتج متماسك لكلّ الألمان. ومهمته أن يرى كل فرد من الأفراد قادراً على... إنجاز أكبر قدر من العمل" ليست جبهة العمل منظمة ذات ادراة مستقلة. لكنها كأيّ منظمة في ألمانيا النازية بإستثناء الجيش، جزءٌ متمم للحزب النازي. أو كما نعتها رئيسها الدكتور (لاي) "السكير الألكن" (حسب وصف تيسّن له) "أداة من أدوات الحزب". ويوجب القانون المؤرخ ٢٤ تشرين الأول أن يكون موظفوها من صفوف الحزب ونقابات النازيين القديمة والـ(إس. أي) والـ(إس. إس) وقد تمّ ذلك.

وقبلها صدر "قانون تنظيم العمل القومي" في ٢٠ كانون الثاني وعرف "بوثيقة العمل" بموجبه وضع العامل في "محله اللائق!" ورفع ربّ العمل الى مركزه الأول كسيد مطلق، خاضع بالطبع الى تدخل الحكومة المهيمنة على كل شيء وأصبح ربّ العمل "زعيم المشروع" والعمال الأجراء "أتباعاً: Go-folgschaft" وتنصّ المادة الثانية من القانون ان "زعيم المشروع هو الذي يصدر القرارات للأتباع والعمال في كُلّ ما يتعلق بالمشروع". وكما كان اللورد (السيد) في الأيام الغابرة مسؤولاً عن مصالح رعاياه كذلك الأمر في القانون النازي. فربّ العمل "مسؤول عن عيشة أجرائه وعماله" وبمقابل ذلك "يجب ان يكون الأجراء والعمال مدينين له بالإخلاص" أعني أن يعملوا بكلّ قواهم ولمدة طويلة دون كلام أو تأفف أو ضجر حتى حول الأجر. ويعين الأجور من يطلق عليهم "وكلاء العمل" تنصبهم في وظائفهم "جبهة العمل". وهم يحددون الأجور عادة وفق رغبات صاحب العمل – وليس هناك قيد، يحق به للعمال أن تؤخذ آراؤهم في هذه الأمور. ومع ان شحة العمال في صناعات الحرب بعد ١٩٣٦ ألجأت بعض أرباب العمل الى رفع الأجور لإجتذابهم. إلا أن نسب الأجور ظلت كما هي بناءً على أوامر من الدولة. فهتلر صريح جداً في مسألة إنخفاض الأجور: "لقد كان ذلك المبدأ الحديدي لزعامة القومية الأشتراكية أن لاتسمح بأي رفع في الأجور على عمل الساعة، بل برفع الدخل بزيادة الإنتاج فحسب[٢٢]".

قال ذلك في أول مجيئه للحكم. وفي بلاد وضعت أغلب الأجور على العمل بالقطعة أو الساعة على الأقل الى حدّ ما. لايعني هذا إلا أن زيادة أجور العامل تتوقف فحسب على اشتغاله ساعات أطول ورفع مقدار إنتاجه.

وبالمقارنة مع الولايات المتحدة بعد تعديل الفروق في تكاليف المعيشة واخذ الخدمات الإجتماعية

٢٢- اقتبسها نيومان "Behemoth" ص ٤٣٢.

بنظر الإعتبار. كانت الأجور في ألمانيا منخفضة أبداً وانخفض مستواها قليلاً في عهد النازي. وهبطت- كما جاء في منشورات دائرة إحصاء الرايخ -من ٢٠,٤ سنتاً في الساعة للعامل الماهر في العام ١٩٣٢ وهو ذروة الأزمة الإقتصادية الى ١٩,٥ سنتاً في أواسط ١٩٣٦ إذ هبطت مستويات العامل الإعتيادي من ١٦,١ الى ١٣ سنتاً للساعة الواحدة. وصرح الدكتور (لاي) في مؤتمر الحزب بنورمبرگ ١٩٣٦ أن معدل الدخل الأسبوعي للعامل الذي يشتغل وقتاً كاملاً، يبلغ ٦,٩٥ دولارات. أما دائرة إحصاء الرايخ فتضع المعدل ٦,٢٩ دولارات أسبوعياً بالنسبة الى جميع العمال الألمان.

ومع أن ملايين العاطلين حصلوا على عمل. فإن نصيب كل العمال الألمان من الدخل القومي قد يهبط من ٥٦,٩٪ في سنة الكساد ١٩٣٢ الى ٥٣,٦٪ في ١٩٣٨ الحافلة بالرخاء. وفي الوقت عينه ارتفع الدخل المتحصل من رأس المال والأعمال التجارية، من ١٧,٤٪ من الدخل القومي الى ٢٦,٦٪. والحق يقال أن الدخل العام من الأجور والرواتب قد ارتفع بسبب العمل الكثير جداً من (٢٥) بليون مارك الى (٤٢) بليوناً ونسبة الزيادة ٦٦٪ إلاّ أن الزيادة في الدخل المتأتي من رأس المال والمصالح التجارية ارتفع إرتفاعاً فجائياً هائلاً الى ١٤٦٪. لقد اعتاد كُلّ الدعاة في الرايخ الثالث من هتلر فنازلاً أن يقدحوا في خطبهم بالبرجوازين والرأسماليين ويعلنوا عضدهم للعامل، إلاّ أن الدراسة الواعية للإحصاءات، وهو عمل رُبّما لم يتكلف القيام به الاّ عدد قليل من الألمان. تكشف إن الرأسماليين المنتَقَدين بشدة لا العمال كانوا أكثر ربحاً من سياسات النازيين.

وأخيراً انكمش شغل القطعة في البيت، وهو أسلوب شائع في العمل الألماني. والى جانب هذا الدخل الضئيل فهنالك المساهمة الإجبارية في صناديق ضمان المرض والبطالة والعجز ورسوم جبهة العمل. وتأتي في الختام ملاحقة العامل الألماني بإستمرار [ككل الأفراد في ألمانيا النازية] بطلب هدايا وتبرعات كبيرة للعديد من الجمعيات الخيرية النازية، وفي مقدمتها "معونة الشتاء Wintenhilfe" وكثيراً ما فقد العامل عمله لأنه لم يتبرع بشيء لتلك المعونة، أو أن ما تبرع به قليل جداً. إن عملاً كهذا وصفته محكمة العمل التي صادقت على قرار ربّ العمل بفصل العامل المقصر دون إنذار "بسلوك معاد للمجتمع البشري... مما يستوجب لوماً شديداً". وفي أواسط الثلاثينات قُدر أن الضرائب والتبرعات تسلب ما بين ١٥٪ و٣٥٪ من مجموع أجور العامل الكلي. فمثل هذا الخصم من أجر أسبوعي قدره ٦,٩٥ دولارات لايبقي شيئاً كثيراً لدفع الإيجار وسّد الجوع والكسوة والترفيه. وكما هو الشأن مع أقنان العصور الوسطى وجد العمال في ألمانيا الهتلرية انهم يشدون أكثر فأكثر الى مراكز أعمالهم. وإن كان الذي يربطهم الدولةُ لا ربُّ العمل. ولقد رأينا كيف شدّ الفلاح في الرايخ الثالث الى أرضه بقانون وراثة الأرض، كذلك ربط العامل الزراعي بحكم القانون ومنع من ترك المزرعة التي يعمل فيها ليعمل في المدينة. وبالتطبيق يمكن القول أنه القانون الوحيد النازي الذي لم

يذعن له الجميع فقد إنتقل ما بين ١٩٣٣ و١٩٣٩ أكثر من مليون وثلاثمائة ألف عامل زراعي الى أعمال في الصناعة والتجارة. الاّ أن القانون طبق بحق العمال الصناعيين وصدرت مراسيم حكومية متعددة ابتداءً من قانون ١٥ أيار ١٩٣٤ تحدّ حرية إنتقال العامل من عمل الى آخر تحديداً شديداً، وأعطيت دوائر الإستخدام الرسمية بعد حزيران ١٩٣٥ إشرافاً تاماً على الإستخدام وهي التي صارت تقرّر من يستخدم؟ وأين؟ ولأي عمل؟

وصدر"دفتر العمل" في شباط ١٩٣٥ وبعده لم يعد في الإمكان إستخدام أي عامل لايحمل دفتر خدمة تسجل فيه مهارته ومحلات عمله هذا الدفتر لايقتصر على تزويد الدولة وربّ العمل بآخر المعلومات عن كّل عامل في البلاد، بل استعمل لربط العامل بمقعده. فإن رغب في ترك عمله الى آخر، حقّ لرب العمل أن يحبس عنه دفتره، وهذا يعني أنه لايمكن أن يشتغل في مَحلّ آخر قانوناً.

أخيراً صدر مرسوم خاص في ٢٢ حزيران ١٩٣٨ من مديرية برنامج السنوات الأربع نظم به العمل المجند. فألزم كل ألمانيّ أن يشتغل في أي مكان تعينه له الدولة. والعامل الذي يغيب عن عمله دون عذرٍ وجيهٍ جداً يكون عرضة للغرامة والسجن. على أن هنالك "وجهاً آخر للعملة" فالعامل المجّند لايمكن أن يطرده ربّ العمل دون موافقة دائرة الإستخدام الحكومية. ولذلك كان عمله مضموناً وهو أمرٌ لم يكن له وجود في عهد الجمهورية.

بعد تقييد العمال الألمان بهذه السلاسل الكثيرة وبأجور تكاد لاتسدّ الرمق قامت الحكومة النازية بتنظيم وسائل لهو وترفيه لهم طبق ما فعلت الدولة الرومانية للبروليتاريا الرومانية لتحويل أنظارهم عن أوضاعهم الشقية. وفسرّ الدكتور لاي ذلك بقوله "علينا أن نحول إهتمام الجماهير الشعبية عن القيم المادية الى القيم الروحية. فتغذية روح البشر أهم من ملء بطونهم".

وعلى هذا خرج بمنظمة جديدة أطلق عليها "القوة من خلال الفرح Knoft Durch Freude ". وهذه تمنح ما لايمكن تسميته بغير "الراحة المنظمة عسكرياً". في الدكتاتورية المطلقة الجماعية للقرن العشرين. أو ربما على غرار الدكتاتوريات التي سبقتها، وجد من الضروري ألاّ تقتصر السيطرة على ساعات عمل الفرد، بل على ساعات راحته أيضاً وهذا ما تولته "القوة من خلال الفرح". في العهد الذي سبق النازية كانت ألمانيا تفخر بعشرات الألوف من النوادي لكلّ مجالات اللهو والتسلية نوادي الشطرنج وSoccer الى نوادي مراقبة الطيور. وفي أيام النازي لم يسمح بأي منتدى أو جمعية أدبية أو رياضية أو ترفيهية إلا اذا كانت تحت سيطرة "القوة من خلال الفرح".

بالنسبة الى الألماني العادي في الرايخ الثالث لاشك ان هذه المنظمة الترفيهية الشاملة خيرٌ من لاشيء، مادام لايمكن أن يوثق بالمرء الى حدٍ يترك وشأنه. إنها تتحف أعضاءها من جبهة العمل مثلاً بسفرات برية أو بحرية بسعر التراب. وبنى الدكتور (لاي) بواخر حمولتها خمسة وعشرون ألف طن،

وأطلق إسمه على إحداها وخصص عشراً للقيام برحلات ترفيهية في البحر المحيط "للقوة من خلال الفرح" وقد شارك مؤلف الكتاب في إحدى هذه الرحلات مرة. ومع أن الحياة على ظهر تلك السفن نظمت بمعرفة القادة النازيين الى الحد الذي تجرع المؤلف فيها أشدّ العذاب فالذي ظهر له أن العمال الألمان يتمتعون بوقتهم فيها وبثمن بخس غير متصوّر؛ ان رحلةً الى (ماديرا) مثلاً لاتكلف العامل غير(٢٥) دولاراً بضمنها أجرة السفر بالقطار من محله الى الميناء وبالعكس. وهذا الرخص يشمل غيرها من وسائل الترفية. وتؤم السواحل على البحيرات والبحار الألوف المؤلفة من طلاب الراحة والاستجمام في موسم الصيف وكان واحد منها في (روگن Ruegen) على ساحل البلطيق لم يتم بناؤه عندما بدأت الحرب قد طلب ان يحجز له في الفنادق ما يكفي لعشرين ألف شخص. وفي الشتاء تنظم رحلات تزلج في ألب باڤاريا بسعر (١١) دولاراً في الأسبوع يدخل فيها أجور السيارة والغرفة والطعام وبدل إيجار ادوات التزلج ودروس المعلّم.

وسيطرت "القوة من خلال الفرح" على كل فرع من فروع الرياضة ونظمتها على نطاق شامل واسع. ويستفاد من الأرقام الرسمية أنها كانت تنظم ما يزيد عن سبعة ملايين عضو سنوياً. ووفرت المنظمة بطاقات لارتياد المسرح والأوپرا والموسيقى بأسعار رخيصة جداً وبهذا فتحت أبواب التسلية الارستقراطية في وجه الكادح. وهو ما كان يفخر الموظفون النازيون به كثيراً. وتملك "القوة من خلال الفرح" جوقها السمفوني المؤلف من تسعين عازفاً تتجول في أرجاء البلاد دون انقطاع وكثيراً ما تعزف في مجتمعات صغيرة منقطعة لاتتيسّر فيها الموسيقى الجيدة دائماً. وأخيراً تولت المنظمة الإشراف على ما يقارب مائتي معهدٍ دراسيٍ للبالغين التي نبه أمرها وازدهرت في عهد الجمهورية - حركة نظمت بالأصل في اسكندنافيا- وأدامتها بعد أن أضافت مزيجاً قوياً من التفكير النازي الى مواد التعليم.

وختاماً يدفع العمال بطبيعة الحال لقاء تمتعهم بالسركس والترفيه فقد بلغ الدخل السنوي من الرسوم المدفوعة لجبهة العمل مائة وستين مليون دولار في **١٩٣٧** وأناف على المائتي مليون عند بدء الحرب. كما إدّعى الدكتور (لاي). على أن الحساب غامض الى حد كبير لأن الدولة لاتتولاه، وانما تقوم به دائرة الحزب المالية التي لاتنشر حساباتها قط ومن هذه الايرادات يخصم ١٠٪ "للقوة من خلال الفرح".

إلا أن الأجور التي يدفعها الأفراد عن الرحلات والحفلات الترفيهية مع رخصها العظيم بلغت في السنة التي سبقت الحرب (١٢٥٠٠٠٠٠٠) دولار وهناك تكليف ثقيل آخر على الكادح، لما كانت (جبهة العمل) أعظم منظمة حزبية في البلاد تضم خمسة وعشرين مليون عضوٍ فقد أصبحت هيئة بوروقراطية ضخمة تستخدم عشرات الألوف من الموظفين بأوقات كاملة. وقدّر ما تستنزفه من الدخل

لتكاليف الإدارة والموظفين ما تتراوح نسبته بين ٢٠ و٢٥٪

تلك عملية نصب واحدة ارتكبها هتلر بحقّ الكادحين الألمان تستاهل ان نمرّ بها مروراً عابراً تتعلق (بالفولكس ڤاكن: سيارة الشعب) تلك عاصفة دماغية نبعت من رأس الفوهر نفسه، فقال: كل ألمانيّ أو على الأقل كل عامل ألماني يجب أن يملك سيّارة خاصة، كما هو الحال في الولايات المتحدة... (في هذه البلاد آنذاك كانت هناك سيارة واحدة لكلّ خمسين شخصاً يقابلها سيارة واحدة لكلّ خمسة أشخاص في الولايات المتحدة) وقد تعوّد العامل ركوب الدراجة أو الإنتقال بوسائط السير العامة. والآن يرسم هتلر أن تُصنع سيارة له يمكن بيعها للمستهلك بتسعمائة وتسعين ماركاً. أي ما يوازي ٣٩٦ دولاراً. بسعر السوق العالمي (البورصة). وقيل انه ساهم شخصياً في وضع تصميم السيارة، الذي تم بإشراف مهندس السيارات النمساوي الشهير الدكتور فرديناند بورشه Ferdinand Porsche.

ولما لم يكن بوسع المشاريع الصناعية الخاصة صنع سيارة لايزيد ثمنها عن ٣٩٦ دولاراً. فقد أمر هتلر أن تتولى الدولة بناءها وأناطت ذلك بجبهة العمل. واسرعت منظمة الدكتور (لاي) ببناء "أكبر مصنع للسيارات في العالم" في فالرسليبن Fallersleben قرب براونشڤايك Braunschweig ذي قدرة صنع مليون ونصف مليون سيارة سنوياً أي "أكثر من فورد" كما قالت الدعاية النازية. وقدمت (جبهة العمل) مساهمة في رأس المال قدرها خمسون مليون مارك. لكن هذا المبلغ لم يكن رأس المال الأساسيّ. وكانت خطة الدكتور (لاي) الماكرة أن يمدّ العمال أنفسهم ذلك المشروع برأس ماله عن طريق ما عرف فيما بعد: "ادفع قبل الحصول عليها" بأقساط قدرها، خمسة ماركات أسبوعياً أو عشرة أو خمسة عشر بحسب مقدرة العامل يجد في نفسه القدرة. وعندما تبلغ الأقساط المدفوعة (٧٥٠) ماركاً يتسلم الشاري رقماً بأمرٍ يجعله مستحقاً لسيارة حال تيسرها من المصنع في عهد الرايخ الثالث. ودفع العمال الألمان عشرات الملايين من الماركات لم يستعيدوا منها فلساً واحداً فيما بعد. فقد نشبت الحرب ووجه مصنع الفولكس ڤاكن إنتاج مهمات أكثر فائدة للجيش.

مع كل أفانين النصب التي ارتكبت بحق العامل الألماني خلاف هذه الحيلة، ومع صيرورته كما رأينا عبداً للصناعة وبأجور لاتكفي ضرورياته وأكثر تعرضاً الى ابتزاز النازية من أي قاطع آخر في المجتمع الألماني. وأسهل وقوعاً في شراك الدعاية المتواصلة. مع كل هذا- والحق يقال- لم يبد شديد النقمة والسخط على مركزه القانونيّ التافه في الرايخ الثالث. إن ماكنة الحرب الألمانية الجبارة التي وجهت الى الحدود البولندية في فجر الأول من أيلول ١٩٣٩ ما كان في الإمكان بناؤها دون المساهمة الكبرى التي قدمتها الطبقة العاملة الألمانية. فقد اخضعت لحياة عسكرية صارمة وسلط عليها سيف الإرهاب إلاّ أن غيرها ذاقت ذلك أيضاً. ان قروناً من حياة الضبط العسكرية عوّدت العامل كما عوّدت كُلّ الألمان على أن يفعل ما يؤمر به. ومع هذا فربما لايكون من الحكمة أن يعمد المرء الى التعميم في مثل

هذه الأمور. على أن إنطباعات المؤلف الخاصة عن العامل البرليني وعامل الروهر هي أنه في حين كان ناقماً على النظام، لم يكن يتوق الى الثورة أكثر من أيّ شخص آخر في الرايخ الثالث. انه غير منظّم، يفتقر الى الزعامة والقيادة. فماذا تراه يفعل؟ كثيراً ما يجابهك العامل الألماني بهذا السؤال نفسه. لكن السبب الأعظم لقبوله دوره هذا في ألمانيا النازية، يعود دون شكّ أو شبهة الى أنه وجد عملاً يرتزق منه وضماناً ببقائه فيه. إن المراقب الذي عرف طرفاً من محنته الكبرى خلال العهد الجمهوريّ يفهم لماذا لم يهتّم العامل كثيراً بضياع حريته السياسية أو يأبه لفقدانه منظماته النقابية مادام يشتغل باجرة كاملة. في الماضي كانت هذه الحقوق حقوق الناس الأحرار في ألمانيا مهددة عند الكثير... الكثير الذي يبلغ ستة ملايين بـ"الحرية مع الجوع" على حدّ تعبيره. وعندما أزال هتلر هذه الحرية الأخيرة، أمن لنفسه مساندة الطبقة العاملة التي قد تعدّ أمهر وأشدّ صبراً وجلداً وأحسن ضبطاً من كل عمال العالم الغربيّ. لقد كان دعماً لا لترهاته وسخافاته الايديولوجية أو لنواياه الشريرة فيهم بل لأمرٍ أهم من كل ذلك طراً: إنتاج مهماتٍ للحرب.

-٩-

العدالة في الرايخ الثالث

من أولى أسابيع ١٩٣٣ عندما بدأت الإعتقالات الجماعية الكيفية. والضرب والقتل والإغتيال، على يد أولئك الذين وثبوا الى الحكم، لم تعد ألمانيا في ظلّ القومية الإشتراكية مجتمعاً قائماً على القانون. "هتلر هو القانون!" هذا ما نادى به رسل القضاء في ألمانيا النازية باعتزاز وفخر. وشرحه (گورنگ) في كلمته التي وجهها الى المدعين العامين في پروسيا (١٢ تموز ١٩٣٤) "إن القانون وإرادة الفوهرر هما واحد". وكان هذا صواباً. فالقانون هو إياه وما يقوله الدكتاتور في ساعة الأزمات كما حصل أثناء التطهير الدموي وأوضحه هو في خطابه أمام الرايخشتاغ بعد الوقعة الدموية مباشرة. لقد أعلن انه "القاضي الأعلى" للشعب الألماني وله مطلق السلطات في قتل من يشاء.

في أيام الجمهورية كان معظم القضاة - شأنهم شأن معظم رجال الدين الپروتستانت- يكرهون نظام (ڤايمر) كرهاً عميقاً وقد دوّنت أحكامهم كما يرى الكثير من المعقبين- أسود صفحة في حياة الجمهورية الألمانية وبذلك ساهموا في إسقاطها. لكنّ القضاة كانوا بموجب دستور ڤايمر مستقلين على الأقل مصونين من العزل التعسفيّ وملزمين نظرياً على الأقل بموجب المادة (١٠٩) على تطبيق قاعدة المساواة أمام القانون. كان أغلبهم يعطف على القومية الإشتراكية إلا أنهم لم يكونوا ليتخيلوا ما سيلاقونه من معاملةٍ تحت حكمها الفعلّي. إن قانون الخدمة المدنيّة الصادر في ٧ نيسان ١٩٣٣ الذي

سرت أحكامه على كل القضاة سارع بتخليص السلطة القضائية من اليهود ومن كل أولئك الذين يشك في نازيتهم. أو كما نصّ عليه القانون كلّ "من يُظهر ما يدل على عدم إستعداده للعمل لمصلحة دولة القومية الإشتراكية في كلّ الظروف". ولتكن واثقاً أن عدد المعزولين بموجب هذه المادة لم يكن كثيراً إلاّ انّ الباقين انذروا بخصوص طبيعة الواجب الملقى عليهم. وللتأكد من أنهم استوعبوا ذلك وفهموه؛ وجه الدكتور (هانس فرانك) المندوب السامي للقضاء وزعيم القانون في الرايخ كلامه للقضاة في ١٩٣٦ "إن مبادىء القومية الإشتراكية هي أساس كل القوانين الوضعية الأصيلة لاسيّما كما اوضحها منهاج الحزب وخطب الفوهرر". ثم مضى الدكتور فرانك بتوضيح ما يعنيه قائلاً:

"ليس هناك إستقلال للقانون عن القومية الإشتراكية. سلوا أنفسكم قبل ان تتخذوا أي قرار في محاكمكم: "اي قرار سيتخذه الفوهرر لو كان في محلّي؟" سلوا أنفسكم في كل قرار: هل يأتلف هذا الحكم مع وجدان القومية الإشتراكية للشعب الألماني؟ وعندئذ سيكون لديكم أساس ثابت فولاذي بتحالفه مع وحدة دولة الشعب القومية الإشتراكية، وبإعترافكم بالطبيعة الأبدية لإرادة أدولف هتلر، يتعزّز مجال قراراتكم الخاصة بسلطة الرايخ الثالث. وليكن ذلك لكل زمن[٢٣]."

بدا كل هذا واضحاً كما بدا من قانون الخدمة المدنية الجديد الصادر في السنة التالية (٢٦ كانون الثاني ١٩٣٧) الذي أوجب فصل كل موظف (ومن ضمنهم القضاة) بعلة "فقدانه الثقة السياسية". وأكثر من هذا أنهم ألزموا جميعاً بالانضمام الى "عصبة القضاة الألمان القوميين الإشتراكيين" كثيراً ما ألقيت عليهم فيها دروس مشابهة لحديث فرانك. ولم يتجاوب بعض القضاة -رغم معاداتهم للنظام الجمهوري- مع خطّ الحزب تجاوباً شديداً. وفي الواقع حاولت قلة منهم أن تسند أحكامها الى نصوص القانون. وأسوأ مثل على ذلك (من وجهة النظر النازية) هو قرار محكمة جزاء الرايخ الكبرى Reichsgericht بتبرئة ثلاثة متهمين شيوعيين من أصل أربعة اتهموا بحرق الرايخشتاغ في آذار ١٩٣٤ لعدم كفاية الأدلة. (لم يثبت الجرم إلاّ على ڤان در لوبه الملتاث عقلياً الذي اعترف بجريمته) لقد أحفظ هذا هتلر وگورنگ وأسخطهما فبادرا بعد شهر فقط (في ٢٤ نيسان ١٩٣٤) الى سحب حق المحاكمة بالتهم المتعلقة بأمن الدولة وكانت من إختصاص المحاكم الكبرى مطلقاً وايداعها الى محاكم جديدة أطلق عليها أسم محاكم أمن الشعب Volksgerichtshof التي سرعان ما أصبحت شرَّ المحاكم في البلاد واشدها هولاً. وتتألف من قاضيين محترفين مدنيين وخمسة أعضاء آخرين يختارون من موظفي الحزب والـ(إس. إس) وضباط القوات المسلحة. وبهذا يكون للأخيرين أغلبية الأصوات. وأحكامها وعقوباتها قطعية لاتقبل إستينافاً. هذه المحاكم عادة تعقد جلساتها سراً. وأحياناً قليلة يدعى الصحفيون الأجانب لحضور جلساتها لغرض الدعاية عندما تُفرض أحكامٌ خفيفةٌ نوعاً ما.

٢٣- ايينشتاين المرجع السالف ص٨٤.

بهذه الوسيلة تتبع المؤلف قضية معروضة على هذه المحكمة في ١٩٣٥ ليجدها محاكمة عرفية عسكريّة غاشمة لا مرافعة محكمة مدنية. انتهى عرض الوقائع كلها في يومٍ واحد ولم يكن في الواقع فرصة لتقديم شهود دفاع (هذا إن جرؤ شاهد دفاع لمتهم "بالخيانة" على الحضور). أما النقاط التي أوردها محامو الدفاع الذين كانوا من أخلص النازيين فهي ضعيفة الى حدّ الفجاجة. والمرء ليظن من قراءته الصحف التي لاتنشر إلاّ الأحكام أن معظم المتهمين المساكين يحكم عليهم بالموت (ليس في اليوم الذي حضرت المحكمة). ولاتنشر إحصاءات أو أرقام وإن صرح رولاند فرايزلر ١٩٤٠ Roland Freisler – رئيس محكمة أمن الشعب الذي يلقي إسمه الرعب بين الناس (قتل أثناء الحرب عندما قصفت قاذفة قنابل أمريكية قاعة محكمة أثناء المرافعة): بأنه "لم يعدم من المتهمين الذين حوكموا غير أربعة بالمائة". محاكم الأمن المرعبة هذه المحكمة الخاصة Sonder gericht التي انتزعت من المحاكم الإعتيادية القضايا السياسية المتعلقة بأمن الدولة أو كما نصّ عليه قانون تشكيلها المؤرخ في ٢١ آذار ١٩٣٣ "القضايا التي تتعلق بالإنتقاد الغادر للحكومة". وتتألف هذه المحاكم الخاصة من ثلاثة قضاة يجب أن يكونوا محلّ ثقة تامة، وجميعهم من أعضاء الحزب. ولاتوجد هيئة محلفين وللمدعي العام النازي الخيار بإقامة الدعوى في هذه القضايا أمام محكمة عادية أو محكمة خاصة وهو دائماً يختار الثانية لأسباب لاتخفى، ومحامو الدفاع أمام المحكمة كما في صنوها المحكمة الأولى، يجب ان يحظوا بموافقة الموظفين النازيين وأحياناً لاتسير أمورهم على ما يرام حتى بالموافقة عليهم. وكان مصير المحامين الذين حاولوا تمثيل أرملة الدكتور كلاوسنر زعيم منظمة العمل الكاثوليكي الذي قتل في التطهير الدموي في دعوى التعويض التي رفعتها على الدولة أن أعتقلوا واودعوا معسكر إعتقال (ساخسنهاوزن) وبقوا فيه حتى سحبوا الدعوى رسمياً.

ولهتلر الحق كما لگورنگ أحياناً أن يوقف التعقيبات القانونية. وفي وثائق نورمبرگ[٢٤] ازيح النقاب عن قضية أوصى وزير العدل بإلحاح إحالة موظف كبير في الگشتاپو مع زمرة من رجال الـ(إس. أي) الى المحكمة لوجود دلائل كثيرة تثبت إرتكابهم أفظع جرائم التعذيب بحق نزلاء أحد معسكرات الإعتقال. فأرسل الأدلة الى هتلر، فامر الفوهرر أن توقف الإجراءات ولاترفع دعوى. وكان لگورنگ في مبدأ الأمر مثل هذه الصلاحية. ومرة في نيسان ١٩٣٤ اوقف التعقيبات الجنائية المتخذة ضد رجل أعمال معروف. وسرعان ما ذاع أن المتهم دفع لگورنگ زهاء ثلاثة ملايين مارك. وعلق على ذلك المحامي البرليني المعروف "گيرهارد ف. كرامر Gerhard F. Kramer" بقوله: "من المتعذر أن نثبت هل أن گورنگ ابتز المال من الصناعي أو أن الصناعي رشا رئيس الوزراء البروسي[٢٥]". ان ما ثبت

٢٤- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٣ الص ٥٦٨-٥٧٢ (الوثائق ٧٨٧و٧٨٨ PS).
٢٥- "الرايخ الثالث" نشره بومونت ورفاقه. ص٦٣٠.

هو أن گورنگ لف القضية لفاً، وبمقابل ذلك خوّل (رودلف هسّ) نائب الفوهرر باتخاذ "خطوة لا رحمة فيها" ضّد المتهمين الذين نجوا بأحكام خفيفة في رأيه. كان يقدم له سجل بكل الأحكام التي أصدرتها المحاكم قاطبة على أولئك المذنبين بجرائم "مهاجمة الحزب بالقول وإنتقاد الفوهرر أو الدولة" فاذا وجد الأحكام خفيفة جداً اتخذ من جانبه إجراءً "قاسياً" وهذا يعني عادة قذف الضحايا الى معسكر إعتقال أو الأمر بإغتيالهم بالرصاص. وينبغي القول أن قضاة "المحاكم الخاصة" يتمسكون بنص القانون أحياناً أو قد يظهرون روح إستقلالٍ. في حوادث مثل هذه إما يتدخل هسّ أو الگشتاپو كما رأينا في قضية القس (نيمويللر) الذي برأته المحكمة الخاصة من التهم الرئيسية وحكمت عليه بفترة سجن قصيرة كان قد قضاها موقوفاً، فبادرت شرطة الگشتاپو الى خطفه وهو يغادر قاعة المحكمة وقذفت به الى معسكر الإغتيال.

ذلك لأن الگشتاپو هو القانون أيضاً كالفوهرر. أنشاه گورنگ بالأصل لپروسيا في ٢٦ نيسان ١٩٣٣ ليحل محل دائرة شرطة (آلايا IA) وهي شرطة پروسيا السياسية. وكان ينوي في مبدأ الأمر أن يتخذه بمثابة (دائرة شرطة سرية Geheimes Polizei Amt) الا أن الحروف الأولى من العنوان الألماني GPA، تشبه في اللفظ كلمة GPU الروسية شبهاً شديداً. وإقترح موظف صغير في دائرة البريد كان قد عهد اليه بعمل ختم خاص للمكتب أن تسمى "شرطة الدولة السرية Geheime Staatspolizei" ومنها جاء مختصر گشتاپو Gestapo. وبهذا اخترع دون أن يدري إسماً كان مجرد ذكره يشيع الرعب والفزع أولاً في ألمانيا ثم خارجها.

في البداية كان الگشتاپو أكثر قليلاً من أداة شخصية لإشاعة الإرهاب يستخدمها گورنگ لإعتقال وإغتيال معارضي الحكم ولم يأت گورنگ بهملر نائب رئيس لشرطة پروسيا السرية الا في نيسان ١٩٣٤ وعندئذ بدأ الگشتاپو يتسع ليكون ذراعاً للـ(إس. إس) برعاية عبقرية رئيسه الجديد الرقيق الشمائل السادي مربي الدجاج السابق. وراينهارد هيدريخ Reinhard Heydrich الشاب وهو من طينة الشيطان نفسه[٢٦] رئيس دائرة الوقاية في الـ(إس. إس) المسماة Sicherheitsdienst [S.D اختصاراً] فأصبح الطامّة الكبرى والداهية الدهماء ذا السلطان المطلق على موت وحياة كل فرد ألماني.

قضت المحكمة الإدارية العليا الپروسية في ١٩٣٥ بضغط من النازيين أن لاتكون أعمال الگشتاپو وأوامره خاضعة للمراجعة القضائية. إن قانون تأليف الگشتاپو الذي شرعته الحكومة في ١٠ شباط ١٩٣٦ وضع الشرطة السرية فوق القانون. منع المحاكم من التدخل في أعمالها باي شكل كان. كما فسر ذلك الدكتور ڤرنر بست Werner Best وهو من سواعد هملر اليُمنى في الگشتاپو بقوله "مادام

٢٦- عبارة اوجين كوغون Eugen Kogon أنظر كتابه "Der SS Staat-das System der Deutschen Konzentoutionalager "لقد ظهرت نسخة مختصرة بالانگليزية لهذا الكتاب بعنوان "جهنم بين النظرية والتطبيق The Theory and Practic of Hell" وهي خير دراسة لمعسكرات الإعتقال النازية كتبت، وقد عاش الكاتب تجربتها سبع سنوات.

رجال الشرطة ينفذون إرادة الزعامة فهم يعملون بحدود القانون(٢٧)". ان عباءة "القانونية" غطّت الإعتقالات الاعتباطية وحبس الضحايا في معسكرات الإعتقال. ومصطلح "الحجز التحفظي Schutz hoft" وممارسته انما تستند الى قانون ٢٨ شباط ١٩٣٣ الذي عطل كما رأينا المواد التي تضمن الحريات المدنية من الدستور. لكن "الحجز التحفظي" لايحفظ المرء من أذى محتمل كما هو شأنه في البلاد الأكثر تمدناً بل يعاقبه بوضعه وراء الاسلاك الشائكة.

نبطت أولى معسكرات الإعتقال مثل نبتة الفطر في السنة الأولى من حكم هتلر. وفي نهاية ١٩٣٣ بلغ عددها زهاء الخمسين، أنشأ أغلبها الحرس الأسود ليعتدي على ضحاياه بالضرب المبرح ثم يفتديهم بمبالغ من المال يدفعها أقرباؤهم واصدقاؤهم حسب التساهيل والمقدرة المالية وكانت على الأغلب طريقة بدائية في ابتزاز الأموال. وقد يُقتل الضحايا أحياناً وفي العادة يكون ذلك محض سادية في القتلة وجنون حب التعذيب الوحشي. وكشف النقاب في محاكمات نورمبرگ عن أربع قضايا حدثت في ربيع عام ١٩٣٣ بمعسكر الإعتقال (داخاو) الذي يشرف عليه الحرس الأسود. كانت الضحية في كل قضية. تُقتل قتلاً متعمداً مقصوداً. ماتت ضحية من أثر الجلد وخنقت أخرى، وإحتجّ على هذا حتى مدعي عام مونيخ.

بعد التطهير الدموي في حزيران ١٩٣٤، لم يعد ثم مقاومة للنظام النازي وظن كثير من الألمان أن "الحجز التحفظي" الجماعي والإعتقالات وحبس الآلاف في معسكرات الإعتقال إنتهى أمره. وفي ليلة عيد الميلاد ١٩٣٣ أعلن هتلر عفواً عاماً عن سبعة وعشرين ألفاً من نزلاء هذه المعسكرات. الا أن (گورنگ وهملر) حاد عن أوامره ولم يطلق إلاّ بضعة أنفار. ثم حاول (فريك) البوروقراطي المصانع والآلة الذي كان وزيراً للداخلية أن يحد من إعتداءات أشقياء النازي في نيسان ١٩٣٤ بإصدار أوامر سرية يضع فيها القيود على إستخدام عملية إلقاء القبض الإجتماعي لغرض "الحجز التحفظي" وتقليص عدد معسكرات الإعتقال إلاّ أن (هملر) أقنعه بالعدول عما إنتواه. فقد رأى زعيم الـ(إس. إس) بوضوح أكثر من الوزير أن الغرض من وجود معسكرات الإعتقال لايقتصر على عقاب أعداء النظام، بل يتعلق بوجودها فعلاً لإشاعة الخوف والإرهاب في الناس وردعهم عن التفكير في أية مقاومة للحكم النازي.

بعد تطهير (روهم) بزمن وجيز أودع هتلر مهمة الإشراف على معسكرات الإعتقال الى الحرس الأسود. فبادر هذا بتنظيمها بروح من القسوة والنشاط اللتين تفوقت فيهما هذه الصفوة المختارة. وانيطت مهمة الحراسة كلها "بوحدات الجماجم Totenkopfen boende" ويتم إختيار هؤلاء من بين أعتى وأغلظ النازيين. ومدة تطوعهم لاتقل عن إثنتي عشرة سنة وهم يضعون إشارة الجمجمة والعظام

٢٧-اقتبست في "مؤامرة النازيين وعدوانهم ج١١ ص٢٥٨، وثيقة ١٨٥٢ PS".

المألوفة على بزاتهم السوداء ووضع ثيودور آيكه Theodor Eicke قائد فوج (وحدة الجماجم) الأول، وآمر معتقل (داخاو)، رئيساً مهيمناً على كل معسكرات الإعتقال. فأغلقت المعسكرات البعيدة الصغيرة غير المحصنة وبنيت معسكرات أكبر منها. وفي المقدمة معسكر داخاو قرب مونيخ [بعد نشوب الحرب انشئت معتقلات أخرى في البلاد المحتلة] وبوخنڤالد Buchenwald قرب (ڤايمر) وساخسنهاوزن الذي حل محل معسكر إعتقال اورانينبرغ Oranienburg ذي الشهرة المستفيضة قرب برلين. ومعسكر راڤنسبروغ Ravensbrueck للنساء في مكلنبورغ Mecklenburg ومعسكر إعتقال ماوتهاوزن Mauthausen قرب لينز- بعد إحتلال النمسا سنة ١٩٣٨. أما أسماء المعتقلات أوشويتز Auschuitz وبيلسين Belseen وتريبلنكا Treblinka التي انشئت بعدئذ في پولندا فقد استطارت شهرتها الى أرجاء العالم. كان ملايين التاعسين في هذه المعتقلات وقبل أن ترحمهم النهاية يقتلون وتزهق أنفاسهم. ويخضع ملايين آخرون الى إذلال وتعذيب بلغت شناعتهما حداً يعجز عن تصوره إلا قلّة من العقول. لكن في بداية الثلاثينات ربما لم يكن نزلاء معسكرات الإعتقال النازية في ألمانية يقل عن العشرين ألفاً أو يزيد عن الثلاثين في وقت من الأوقات وبعدها لم يعرف العدد عندما بلغ رجال هملر الغاية في التفنن باختراع صنوف التعذيب والفظائع. فمعتقلات الإبادة ومعسكرات تسخير العبيد والمعسكرات التي يتخذ نزلاؤها بمثابة خنازير عينة لإجراء "للأبحاث الطبية" النازية وإجراء التجارب عليها، كان ميلادها مرهوناً بمجيء الحرب. على ان المعتقلات الأولى لم تكن إنسانية بالضبط. وأمامي الآن نسخة من الأوامر التي نظمها ثيودور آيكه آمر معتقل (داخاو) لمعسكره بالذات، ثم طبقها على جميع المعتقلات عندما أصبح مشرفاً عليها.

"الفقرة (١١) المذنبون التالون- يعتبرون مهيِّجين ومحرِّضين ويجري إعدامهم الحياة شنقاً: كل من يتحدث في السياسة أو يعقد إجتماعات مهيجة أو يلقي خطاباً مثيراً أو يؤلف حلقةً أو يتسكع هنا وهناك أو يتصل بالآخرين أو من يجمع معلومات حقيقية أو زائفة حول معسكرات الإعتقال لغرض تزويد المعارضة أو الدعاية المضادة بقصص عن الفظائع. وكل من يتسلم هذه المعلومات ويدفنها ويتحدث بها مع الآخرين أو يهرّبها الى خارج المعتقل لوضعها في يد الزوار الأجانب الخ..."

"الفقرة (١٢) المذنبون التالون يعتبرون متمردين متعصبين ويعدمون رمياً بالرصاص حالاً أو يشنقون فيما بعد: كل من يهاجم بالقوة البدنية حارساً من الـ(إس. إس) أو من يرفض اطاعة الأمر، أو يمتنع عن العمل أثناء الشغل... أو يصيح، أو يعربد، أو يتحدث أو يخطب أثناء السير أو العمل.

ويعاقب بعقوبة أخفّ: [الحبس الإنفرادي لمدة أسبوعين، أو بخمس وعشرين جلدة] كل من أدرج عبارة تحقير أو إستخفاف في رسالة أو أيّ وثيقة تمسّ قائداً من القوميين الإشتراكيين أو رجال الدولة والحكومة [أو] يخطّ عبارة تمجيد بالقادة الماركسيين والأحرار لكل الأحزاب الديمقراطية القديمة."

ويشارك الگشتابو شرطة الأمن Sicherheitsdienst (S.D) ويؤلف طاقماً آخر من أعوان التنفيذ يشيع الهلع في أفئدة كل الألمان- وبعدها في أفئدة كل سكان البلاد المحتلة. بالأصل انشأه هملر سنة ١٩٣٢ كفرع استخبارات للـ(إس .إس) ووضعها تحت أمرة (راينهارد هيدريخ) الذي عرفه العالم فيما بعد بلقب "الجلاد هيدريخ" وكان عملها الرئيس مراقبة أعضاء الحزب وتقدم تقرير بكل نشاط مريب، وفي ١٩٣٤ أصبحت أيضاً وحدة استخبارات للشرطة السرية. وما جاء العام ١٩٣٨ حتى صدر بها قانون جديد ليشمل مجال عملها كل أنحاء الرايخ.

(هيدريخ) كان ضابط استخبارات في الأسطول. طرده الأميرال رايدر من الخدمة سنة ١٩٣١ وهو في سن السادسة والعشرين لرفضه الزواج من بنت صاحب مصنع للسفن كان قد أغواها فضمه هملر، وأصبحت شرطة الأمن تحت يده الخبيرة قوةً هائلة تنشر شباكها فوق ألمانيا وتستخدم زهاء مائة ألف مخبر من عامة الناس وبأجور اضافية يؤمرون ان يندسوا في المجتمعات ويتسقطوا كلمات كل مواطن في البلاد ويقدموا تقريراً بأصغر ملاحظة أو نشاط يشتبه في كونه معادياً للحكم النازي. لا أحد يتفوه بكلمة أو يقوم بعمل قد يمكن تفسيره "بالعداء للنازي" قبل ان يأخذ حذره من أنه لايسجل عن طريق الميكروفونات المخبأة أو أن أحداً من وكلاء شرطة الأمن يتسمع اليه- إلا اذا كان أحمق غبياً، إبنك أو أبوك، زوجتك أو إبن عمك، صديقك المخلص أو رئيسك أو سكرتيرك. كل واحد من هؤلاء قد يكون مخبراً لمنظمة (هيدريخ)، إنك لاتدري. ولو كنت من الحكمة وبعد النظر في شيء فعليك ألاّ تضمن أي شيء.

وشرطة الأمن ذوو الدوام الكامل ربما لم يتجاوز عددهم الثلاثة آلاف أثناء الثلاثينات ويختار أغلبهم من صفوف الشباب المتعلم العاطل ولاسيما خريجو الجامعات الذين لايجدون لأنفسهم عملاً مناسباً أو أي مركز مضمون في المجتمع الإعتيادي. ولذلك يطالعك بين هؤلاء الجواسيس المحترفين دائماً ابداً جو غريب تسوده الحذلقة العلمية. فتراهم يهتمون إهتماماً عجيباً بمواضيع جانبية لاتمت الى مهنتهم بصلة، كدراسة الآثار التيوتونية. أو فحص جماجم الأجناس البشرية المنحطة، أو وسائل تحسين نسل العنصر المختار. يجد المراقب الأجنبي بعض الصعوبة في إنشاء صلات بهذه الغرائب من البشر وان كان هيدريخ نفسه، وهو شخصية متعجرفة باردة برودة الجليد، قاسية للغاية، قد يشاهد أحياناً في أحد نوادي برلين الليلية محاطاً ببعض أعوانه الشباب الشقر الأشقياء. ولم يكن إختفاؤهم عن الانوار الساطعة بسبب طبيعة عملهم وحدها، بل لان بعضهم [على الأقل في سنتي ١٩٣٤ و١٩٣٥] ممن كان قد جرى إغتياله على يد عصابة إغتيال سرية تطلق على نفسها اسم "المنتقمون لروهم" لم تنس أن تضع علامتها الفارقة على ثياب جثث قتلاها. بسبب تجسسهم على روهم وأتباعه من الـ(إس. أي). ومن مهام شرطة الأمن الطريفة، وان كانت مهمة ثانوية. هو التأكد من هويات

أولئك الذين صوّتوا بكلمة (لا) في إستفتاءات هتلر العامة. ومن الوثائق العديدة التي عرضت في نورمبرگ تقرير سري لشرطة الأمن في كوخيم Kochem عن إستفتاء العاشر من نيسان ١٩٣٨:

"النسخة المربوطة طياً. تتضمن أسماء الأشخاص الذين صوتوا بـ(لا) أو تركوا الورقة بيضاء، في منطقة كاپيل Koppel: لقد جرت مراقبة ذلك بالطريقة الآتية: وضع بعض أعضاء لجنة الإنتخاب أرقاماً على كل البطائق. وفي أثناء الاقتراع بموجب ترقيم للأسماء بذلك أصبح ممكناً فيما بعد... التوصل الى هويات الأشخاص الذين صوتوا بكلمة (كلا) أو لم يدونوا شيئاً على بطاقتهم، وقد تم الترقيم على ظهر البطاقة بحليب خالٍ من الدهن. وارفق بهذا أيضاً بطاقة الإقتراع التي ألقاها القس البروتستانتي "ألفريد ڤولفرس Alfred Wolfers[٢٨]".

في ١٦ حزيران ١٩٣٦. أنشيء لأول مرة في تاريخ ألمانيا شرطة موحدة لكل الرايخ- وكان لكل دولة فيدرالية شرطتها الخاصة قبل ذلك- ونصب هملر رئيساً عاماً للشرطة الألمانية. وهذا ما يوازي وضع الشرطة عموماً بيد الـ(إس. إس) الذي كان يزيد من سلطانه منذ قمعه "ثورة" روهم سنة ١٩٣٤. وأصبح الآن يجمع في ذاته صفات الحرس البريتوري، والوحدة المسلحة المنفردة في الحزب والصفوة المختارة التي ينتقى من صفوفها قادة المستقبل لألمانيا الحديثة. فضلاً عن سيطرته على عموم الشرطة وهكذا أصبح الرايخ الثالث دولة پوليسية بحتة، كما هو محتوم ومقدر في سلّم تطور كلّ الدكتاتوريات المطلقة الجماعية.

-١٠-

الحكومة في الرايخ الثالث

لم يُلغَ دستور (ڤايمر) رسمّياً وان قضى هتلر على جمهورية ڤايمر في الواقع، وهذا من سخريات القدر- أن هتلر بنى "شرعية" حكمه كلها على هذا الدستور الجمهوري الكريه. ولهذا تجد آلافاً من المراسيم بقانون (ليس ثم غير ذلك في الرايخ الثالث) مستندة بصراحة على مرسوم الطواريء الرئاسي الذي وقّعه هندنبرگ في ٢٨ شباط ١٩٣٣ بمقتضى المادة (٤٨) من الدستور. ويذكر القاريء أن الرئيس الشيخ كان قد أرغم على توقيعه في اليوم الذي تلا حرق الرايخشتاغ بعد أن أكد له هتلر وجود خطر كبير من قيام ثورة شيوعية. إن هذا المرسوم الذي عطل كل الحقوق المدينة بقي ساري المفعول طوال عهد الرايخ الثالث، فأعان هتلر على الحكم بنوع من الأحكام العرفية متواصل ابداً.

وكان عمود حكم هتلر الثاني ايضاً "دستورياً" وهو قانون التمكين الذي صوّت عليه الرايخشتاغ

٢٨- مؤامرة النازيين... ج٨ الص٢٤٣-٢٤٤: الوثيقة LR.١٤٢.

في ٢٤ آذار ١٩٣٣ وسلم به سلطاته التشريعية كلها الى الحكومة النازية. وكان العمل يتجدد به كل أربع سنوات. بملء الرغبة والخضوع بجلسة من جلسات الرايخشتاغ الطائع. اذ لم يخطر ببال الفرهرر أن يلغي هذه المؤسسة الديمقراطية سابقاً، وأنما اكتفى بجعلها لاديمقراطية. ولم يجتمع أكثر من عشر مرات أو نحوها حتى نشوب الحرب. واصدر خلال هذه الفترة أربعة قوانين فقط[٢٩] ولم يعقد جلسات مناقشة أو يصوّت. أو يسمح بأي خطبة خلا خطب هتلر.

بعد الأشهر القلائل الأولى من ١٩٣٣ لم تعد هناك مناقشات جدية في جلسات الوزارة. وابتعدت الشقة ما بين إجتماع واجتماع بعد وفاة هندنبرگ في آب ١٩٣٤، ولم يحصل إجتماع قط بعد شباط ١٩٣٨، ومع كل ذلك كان الأفراد الوزراء يتمتعون بسلطات كبيرة حتى خولوا حق إصدار المراسيم التي تصبح قوانين بعد مصادقة هتلر عليها. وانشيء مجلس الوزراء السري Geheimer Kabinttsrat ورافق إنشاءَه تطبيلٌ وتزمير عظيمان في ١٩٣٨ ربما لاجتذاب إهتمام رئيس الوزراء(چمبرلين) مع أنه لم يوجد الاّ على الورق ولم يجتمع مرة واحدة. وألّف مجلس دفاع الرايخ Reich sverteidigungsrat في مبدأ الحكم النازي كهيئة تخطيط للحرب برآسة هتلر ولم تجتمع بكامل هيئتها إلاّ مرتين. وان كان بعض لجانها الفرعية نشط جداً. وندبت لجان خاصة لوظائف وزارات عديدة. كدائرة نيابة الفوهرر [هسّ، ثم مارتن بورمان] ودائرة المفوضين السامين المطلقي الصلاحية لإقتصاد الحرب [شاخت] والإدارة [فريك] والمندوب لمشروع السنوات الأربع [گورنگ] وبالإضافة الى ذلك أستحدث ما أطلق عليه "اللجان الحكومية العليا" و"اللجان الإدارية القومية". وكثير منها من مخلّفات الجمهورية. وتعدّ كلها بـ(٢٤) لجنة تنفيذية للحكومة القومية تخضع مباشرة للفوهرر. وتمّ -كما رأينا- إلغاء مجالس الأقاليم والحكومات المحلية للدول ذات الحكم الذاتي في ألمانيا، من السنة الأولى للنظام النازي بتوحيد البلاد، وجعلت الدول الفدرالية مجرد أقاليم يعيّن الفوهرر حكامها. وقضي قضاءً مبرماً على الحكم الذاتي المحليّ وهو الميدان الأوحد الذي بدا الألمان فيه يحرزون تقدماً حقيقياً في مضمار الديمقراطية. وصدرت سلسلة متعاقبة من القوانين بين ١٩٣٣ و١٩٣٥ جرّدت البلديات من إستقلالها المحلي وأخضعتها مباشرة لوزير داخلية الرايخ الذي كان يعيّن رؤساءها اذا كانت البلدية تشمل دائرة يزيد سكانها عن مائة ألف، وأعاد تنظيمها على مبدأ الزعامة. وفي الدوائر والبلدان التي يقل نفوسها عن مائة ألف، يجري تعيين رؤساء البلدية من قبل حكام الأقاليم وإحتفظ هتلر لنفسه بحق تعيين عُمَد مدن برلين وهامبورگ، وڤيينا (بعد إحتلال النمسا في ١٩٣٨). أما الدوائر التي يمارس هتلر صلاحياته الدكتاتورية عن طريقها، فتتألف من أربع مستشاريات: مستشارية الرئاسة (العنوان

٢٩- قانون الاصلاح الصادر في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤ والقوانين اللاسامية الثلاثة- في نورمبرگ في ١٥ أيلول ١٩٣٥.

ألغي بعد ١٩٣٤) ودائرة المستشار (نُبذ اللقب في ١٩٣٩) ودائرة الحزب، وأخيراً ما عرف بدائرة الفوهرر وهي التي تشرف على شؤونه الشخصية وتقوم بمهام خاصة.

والواقع إن هتلر كان قد سئم تفاصيل الحكم اليومية. فبعد أن ثبت مركزه عقب وفاة هندنبرگ ترك مسؤولياته التفصيلية لأعوانه. وأعطى رفاق الحزب القدامى أمثال (گورنگ وگوبلز وهملر ولي) وشيراخ مطلق الحرية وألقي حبلهم على غاربهم لبناء إمبراطوريتهم السلطانية الخاصة وما تأتي به من أرباح مادية في العادة. فمثلاً أعطى (شاخت) الحرية الكاملة من المبدأ بجمع المال للإنفاق على مصاريف الحكومة المتزايدة باي لعبة سيمائية أو خفة يد يريدها. وكلما تصادم هؤلاء الرجال حول توزيع السلطة أو الأسلاب تدخل هتلر للتسوية ولم يكن يكترث بهذه الخصومات لا بل كان يشجعها أحياناً لأنها تضيف الى شخصيته المزيد من المهابة والمكانة بوصفه الحَكَم الأعلى. وتحول دون توحيد الصف ضدّه. ولذلك كان يستمتع فيما يبدو- بمنظرثلاثة رجال يحتربون فيما بينهم على الشؤون الخارجية: نوراث وزير الخارجية. وروزنبرگ رئيس دائرة الحزب للشؤون الخارجية، و(ريبنتروب) الذي يرأس (مكتب ريبنتروب) لمزاولة السياسة الخارجية. هؤلاء الثلاثة يناطح أحدهم الآخر بعناد وغباء فيتركهم هتلر يتناحرون بالابقاء على دوائرهم، ثم إختار بالأخير الغبيّ الرقيع (ريبنتروب) ليصبح وزير خارجيته وينفذ أوامره في الشؤون الخارجية. تلك هي حكومة الرايخ الثالث. تدار من القمة الى الحضيض بما اطلق عليه مبدأ الزعامة وبنظام بيروقراطيّ ملوث ليس فيه من الكفاءة التي اشتهر بها الألمان الاّ القليل. نظام سممته الرشوة وحط منه الإضطراب المستمر والمنافسات الدموية وكاد يوصله الى العقم إرهاب گشتاپو الـ(إس. إس). وفي قمة هذا الكدس المصطخب المتلاطم يقف من كان يوماً أفّاقاً نمساوياً. وهو الآن- بإستثناء ستالين- أقوى دكتاتور في العالم. وعلى حَدّ ما قاله الدكتور هانز فرانك أمام مؤتمر المحامين في ربيع ١٩٣٦ "في ألمانيا اليوم لايوجد الاّ سلطة واحدة... هي سلطة الفوهرر"[٣٠]. بهذه السلطة سارع هتلر الى سحق أولئك الذين عارضوه وتوحيد الدولة وصبغها بالنازية وحوّل البلاد الى ثكنة عسكرية بمعاهدها ومؤسساتها وثقافتها ومصادرة حريات الفرد. ومحو البطالة، وإدارة عجلات الصناعة والتجارة بأقصى سرعتها- وهي ولا غرور ليست بالأعمال البسيطة بعد ثلاث أو أربع سنوات من الحكم. إنه الآن يستدير- في الواقع أنه إستدار منذ زمن - الى أمنيتين رئيستين في حياته: توجيه سياسة ألمانيا الخارجية الى الحرب والفتح. وخلق ماكنة عسكرية جبارة تساعده على تحقيق هدفه. لقد آن الأوان الآن للعودة الى القصة. وستصبح الآن مدعمة بالوثائق أكثر من اية قصة في التاريخ الحديث. قصة كيفية إنطلاق هذا الرجل غير العادي الحاكم لبلاد بهذه الدرجة العظيمة من القوة- الى تحقيق أغراضه.

٣٠- ڤولشكر بيوباختر ٢٠ أيار١٩٣٦.

الكتاب الثالث

الطريق الى الحرب

الفصل الأول

الخطوات الأولى

١٩٣٤ - ١٩٣٧

-١-

التحدث عن السلم، والتهيؤ سراً للحرب والسير بحذر كافٍ في السياسة الخارجية، والتسلّح في الخفاء إجتناباً لأيّ تدخل عسكري تقوم به دول ڤرساي ضدّ ألمانيا. ذلكم هو تاكتيك هتلر خلال السنتين الأوليين.

لقد كان عثاراً سيئاً إغتيال النازيين (دولفوس) مستشار النمسا في ٢٥ تموز ١٩٣٤ ففي ظهر ذلك اليوم إقتحم مائة وأربعة وخمسون فرداً من كتيبة الحرس الأسود S.S التاسعة والثمانين متنكرين ببزات الجيش النمساوي دارَ المستشارية الفيدرالي واطلقوا الرصاص على(دولفوس) على مسافة قدمين فقط فأصابوه في حنجرته. وعلى مبعدة شوارع قليلة، ضبط نازيون آخرون دار الإذاعة اللاسلكية وأعلنوا نبأ إستقالة (دولفوس). وبلغت الأخبار هتلر وهو يصغي الى أوپرا "داس راينگولد Das Rheingold" في مهرجان ڤاگنر السنوّي بمدينة (بايروث). فأثارته وهزته هزة عنيفة. وكان شاهداً للمنظر (فريديلند ڤاگنر Frudelind Wagnr) حفيدة الموسيقار العظيم الجالسة في مقصورة الأسرة القريبة وقالت فيما بعد ان المرافقين شاوب Schaub وبروكر Bruecker ظلاّ يستقبلان الأنباء من ڤيينا من تلفون الغرفة الخلفية القريبة من مقصورتها ثم يهمسان بها في أذن هتلر.

وبعد ختام الأوپرا ظهر هتلر متهيجاً للغاية. وقد تصاعد إهتياجه كلما مضى يحدثنا بالأخبار الفظيعة... ومع أنه لم يقوَ تماماً على إزالة امارات الغبطة عن وجهه فقد أمر بالعشاء في المطعم كالعادة وبكل دقة وقال "يجب أن أخرج للناس واظهر لهم نفسي مقدار ساعة من الزمن أو سيظنون أن لي ضلعاً فيما حدث[١]". ولو ظنوا، لما كانوا بعيدين عن الحقيقة. وليذكر أن هتلر كتب في أول فقرة من كفاحي أن جمع الشمل بين النمسا وألمانيا هو "مهمة يجب المضي فيها قدماً وتسخير كل وسيلة لها طوال حياتنا". وما أن أصبح مستشاراً حتى عيّن نائب الرايخشتاغ "ثيودور هابخت Theodor Ha-bicht" مفتشاً للحزب النازي النمساوي. وبعدها بقليل من الزمن أطلق ألفرد فراونفلد Alfred Frourn-

١ - فريديلند ڤاكر: "ميراث النار" ص ١٠٩.

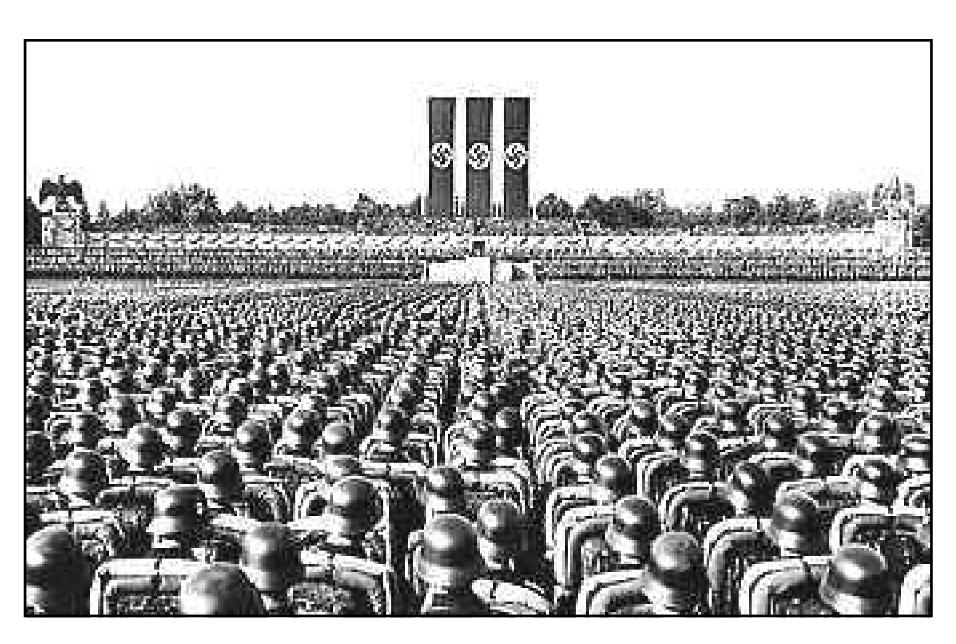
feld زعيم الحزب القطري النمساوي الذي آثر المنفى بإختياره يحرض من إذاعة (مونيخ) رفاق الحزب في ڤيينا على قتل (دولفوس) كل ليلة. وقبل تموز ١٩٣٤ بأشهر قلائل كان النازيون النمساويون بأسلحة ومتفجرات تردهم من ألمانيا، قد أشاعوا جواً من الإرهاب لم تألفه البلاد فنسفوا القطارات ومحطات توليد الكهرباء وبنايات الحكومة وراحوا يغتالون اتباع (دولفوس) واشياع نظامه الاكليريكي-الفاشي وأخيراً صادق هتلر على تشكيل فرقة نمساوية من عدة آلاف عسكرت على طول الحدود النمساوية الباڤارية وهي على أتم الأهبة لعبور الحدود وإحتلال البلاد عند الفرصة السانحة.

قضى (دولفوس) نحبه متأثراً بجراحه في حوالي السادسة مساءً الا أن الإنقلاب النازي فشل بسبب إرتباك المتآمرين الذين احتلوا المستشارية لعدم اتقانهم خطتهم. وسرعان ما عادت قوة الحكومة بقيادة (الدكتور كرت فون شوشنك) الى القبض على زمام السلطة. وبالرغم من وعد الحكومة بالعفو عن الثائرين وإبعادهم الى ألمانيا بناءً على تدخل الوزير المفوض الألماني إلا انهم اعتقلوا وشنق ثلاثة عشر منهم فيما بعد. وفي الوقت نفسه بادر موسوليني الذي كان هتلر قد وعده قبل شهر في إجتماعهما بالبندقية ان يترك النمسا وشأنها، الى تحشيد أربع فرق عسكرية في ممر برينر Brenner بغاية السرعة وهذا ما ولّد قلقاً في برلين.

ونكص هتلر على أعقابه فوراً وسحبت قصة النبأ التي أعدتها وكالة الأنباء الألمانية الرسمية (د.ن.ب DNB) حول إعلان الغبطة بسقوط دولفوس وقيام ألمانيا العظمى المحتوم نتجة لسقوطه، سحبت في متنصف الليل واستبدلت بإظهار شعور الاسف لحادثة "القتل البربرية" وأعلنت أن الحدث هو من شؤون النمسا الداخلية الخاصة. وعزل (هابخت) واستدعي الوزير الألماني من ڤيينا وعزل ليخلفه پاپن الذي نجا بأعجوبة من مصير مشابه لمصير دولفوس قبلها بشهر أثناء تطهير (روهم) وقذف به على جناح السرعة الى ڤيينا لإعادة "العلاقات الطبيعية الطيبة" كما أمره هتلر.

تلاشى أول إستبشار هتلر ليخلفه القلق والخوف. ويقول پاپن انه كان يصرخ عندما إجتمع به للتشاور في كيفية التغلب على الأزمة[٢] "نحن الآن نواجه سيراييڤو Sarajevo جديدة!" إلاّ أن الفوهرر تعلم درساً. ان الإنقلاب النازي في (ڤيينا) كإنقلاب مشرب البيرة في (مونيخ) ١٩٢٣ كان مبتسراً. فألمانيا لم تكن قوية عسكرياً بعد لتدعم مغامرة كهذه بالقوة. وهي في عزلة سياسية شديدة. حتى إيطاليا الفاشية فقد انضمت الى بريطانيا وفرنسا في الإصرار على بقاء النمسا مستقلة. زد على ذلك أن الإتحاد السوڤياتي بدأ يظهر إهتماماً لأول مرةٍ بعقد ميثاق لوكارنو شرقيّ مع الغرب وهو ما قد يحبط أية محاولة لألمانيا في الشرق. وكان قد إنضم الى عصبة الأمم في الخريف ولهذا بدا إنقسام القوى الكبرى أبعد احتمالاً خلال ١٩٣٤ الحرجة من أي وقت مضى. وكل ما بات في وسع هتلر أن

٢ - پاپن المراجع السالف ص ٣٣٨.



أحد الاستعراضات العسكرية النازية

يعمل، هو الدعوة الى السلام والإستمرار في تسلحه السري والانتظار إرتقاباً للفرص.

والى جانب الرايخشتاغ كان لهتلر وسيلة ثانية لإيصال دعاية السلام الى العالم الخارجي، ألا وهي الصحافة الأجنبية التي كان مراسلوها ومحرروها وناشروها لايبرحون يتكالبون على مواعيد مقابلات له. كان ثمّ "ورد پرايس Ward Price" الانگليزي ذو المونوكل وصحيفته اللندنية "الديلي ميل" المستعد دائماً ولأقل إشارة أو تلميحة لإرضاء الدكتاتور الألماني. وهكذا ففي آب ١٩٣٤- وبمقابلة من سلسلة مقابلات قدّر لها أن تستمر حتى بداية الحرب أبلغ هتلر پرايس وقراءه ان" الحرب لن تعود ثانية" وأن ألمانيا لديها "إنطباع قوي عن الشرور المتأتية من الحرب يفوق إنطباع أي قطر آخر[٣]"..وفي أواخر العام كرر هذه المشاعر المعسولة لـ(چان گوي Jean Goy)، أحد زعماء المحاربين القدماء الفرنسيين وعضو مجلس النواب فنقلها في مقال نشرته له صحيفة لوماتان Le Matin الپاريسية اليومية[٤].

٣ - الديلي ميل ٦آب ١٩٣٤.
٤ - لوماتان ١٨ تشرين الثاني ١٩٣٤.

-٢-

نقض معاهدة ڤرساي

كان هتلر في الوقت عينه يمضي بهمة لاتعرف الكلل في برنامج بناء القوات المسلحة وتجهيزها بالسلاح وأمر الجيش أن يزداد ضعفين [من مائة ألف الى ثلاثمائة ألف حتى الأول من تشرين الأول ١٩٣٤] وفي نيسان من تلك السنة أفهم الجنرال (لودڤيك بيك) رئيس هيئة الأركان أنه سيعلن التجنيد الإجباري في الأول من نيسان من السنة القادمة ورفض قيود معاهدة ڤرساي العسكرية[٥]. وأنه يجب أن يتوسل بأسباب الكتمان والسرية الشديدين حتى يحين ذلك الموعد. وحُذّر گوبلز بألاّ يدع كلمات "الأركان العامة" ونحوها تظهر في الصحف لأن (ڤرساي) تحظر مجرد وجود لهذه الهيئة. ولم يعد يطبع الثبت الرسمي السنوي بضباط الجيش الألماني بعد ١٩٣٢ حتى لاتفضح اللعبةَ قوائمُ الضباط المتعاظمة وتضعها في يد الاستخبارات الأجنبية. وقام الجنرال فون كايتل Von Keitel رئيس لجنة الأشغال التابعة لمجلس دفاع الرايخ بتحذير مساعديه في الوقت المبكر ٢٢ أيار ١٩٣٣ "يجب أن تحرصوا على كل وثيقة من الضياع. والا فان جهاز دعاية الأعداء سيفيد منها إلاّ تلك التي يجري إنتقالها شفاهاً فلايمكن إقامة الدليل عليها ويمكن انكارها[٦]".

وانذر الأسطول أيضاً بان يبقي فمه مغلقاً. وفي حزيران ١٩٣٤ جرى حديث طويل لرايدر مع هتلر وقد دوّن عنه: "تعليمات الفوهرر: تقضي بألاّ ينوه بشيء عن بناء ٢٥٠٠٠-٢٦٠٠٠ طن بل عن تجديد ١٠٠٠٠ طن من السفن يطالب الفوهرر بالسرية التامة بخصوص بناء الغواصات[٧].

ذلك لأن البحرية بدأت ببناء طرادين حربيين حمولتهما (٢٦٠٠٠) طن أي بزيادة ١٦٠٠٠ طن عن الحد المسموح به في المعاهدة عرفا فيما بعد بالطرادين شارنهورست وغنايزناو. أما الغواصات التي حظرتها المعاهدة على ألمانيا فقد كانت تبنى سراً في فنلندا وهولندا وإسپانيا على عهد الجمهورية. وقد اختزن (رايدر) هياكل وأجزاء أكثر من عشر غواصات في (كيل). وعندما قابل هتلر في تشرين الثاني ١٩٣٤ طلب السماح له بتجميع أجزاء ستٍ منها لتكون جاهزة "في أيام الوضع الحرج للربع الأول من ١٩٣٥" [الظاهر انه كان هو الآخر يعلم بما سيقوم هتلر بعمله في ذلك الزمن] لكن الفوهرر لم يجب بأكثر من "انه سيبلغه متى تتطلب الحالة البدء في التركيب"[٨].

٥ - ڤلفگانك فويرستر Wolfgang Foerster "Een General Kaempft gegen den Krieg" ص ٢٢ هذا الكتاب. موضوع على أوراق (بيك) الخاصة التي تركها.

٦ - مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٧ ص ٣٣٣ (الوثيقة ١٧٧ EC).

٧ -مؤامرة النازيين... ج١ ص ٤٣١(الوثيقة١٨٩ G)(الوثيقة ١٨٩ EC).

٨ - مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٦ ص ١٠١٨ (١٩٠ C).

وفي المقابلة ذاتها أشار (رايدر) الى ان برنامج بناء السفن الجديد (ولانذكر زيادة أفراد البحرية ضعفين آخرين) سيكلف مالاً يزيد عما هو متيسر لديه. الا ان هتلر طمأنه وطلب منه ألاّ يهتم فـ"عندما تدعو الحاجة، سيؤمر الدكتور (لاي) بصرف ما بين ١٢٠ و١٥٠ مليون مارك من جبهة العمل ووضعها تحت تصرف البحرية. مادام العمال سينتفعون بها أيضاً"[٩]. وهكذا رسم أن تقوم أموال العمال الألمان بتمويل برنامج البحرية. وكان گورنگ منشغلاً في هاتين السنتين أيضاً بإنشاء قوة جوية. فبوصفه وزير طيران (المفروض انه طيران مدني) حمل المنتجين الصناعيين على العمل في تصميم طائرات حربية. وبدأ تدريب الطيارين الحربيين حالاً تحت الستار الوارف الظلال "جمعية رياضة الطيران".

الزائر مناطق الروهر والراين الصناعية في تلك الأيام كان سيذهل من النشاط الهائل في صناعات المهمات الحربية. وبخاصة مصانع (كروپ) منتجة المدافع الألمانية الرئيسة لثلاثة أرباع القرن. واحتكارات (فاربن) للمصانع الكيمائية. ومع ان الحلفاء كانوا قد حظروا على كروپ إنتاج السلاح بعد ١٩١٩ إلا أن هذه الشركة في الحقيقة لم تبقَ عاطلة كما كان (كروپ) سيفخر في ١٩٤٢ عندما احتلت الجيوش الألمانية معظم أوروپا "أن المباديء الأساسية لتسليح وتدريع الدبابات قد تم تصميمه وتجريبه منذ ١٩٢٦... أما عن المدافع التي استخدمت في ١٩٣٩-١٩٤١ فأهمها كان قد كمل وفرغ منه سنة ١٩٣٣". وأنقذ علماء مؤسسات فاربن الكيميائية ألمانيا من كارثة محققة مسبقة في الحرب العالمية الأولى بإختراع طريقة لاستحصال النيترات الصناعية (ملح بارود شيلي) من الهواء بعد أن انقطع طريق الإمداد الإعتيادي من شيلي بفعل الحصار الإقتصادي. فراحت الآن في عهد هتلر تجاهد لتجعل ألمانيا مكتفية ذاتياً بمادتين أساسيتين لايمكن أن تخاض حرب عصرية دونها. وهما النفط والمطاط فكلاهما يجب على ألمانيا أن تستوردهما. إن مشكلة استخراج النفط الصناعي من الفحم، حلها فعلاً علماء الشركة في أواسط العشرينات. وبعد ١٩٣٣ اعطت حكومة النازي مؤسسة فاربن أمر المباشرة في تقطير ثلاثمائة ألف طن من نفط السيارات في السنة الواحدة حتى ١٩٣٧ وفي أثناء تلك الفترة اكتشفت الشركة طريقة صناعية لعمل المطاط من الفحم وغيره من المواد التي توجد في (سكوپاو Schkopou) لإنتاج المطاط الذي عرف باسم (بونا Buna) على أوسع نطاق. وفي مبتدأ ١٩٣٤ وافق مجلس دفاع الرايخ على الخطط التي وضعتها لجنة الاشغال الملحقة به على تعبئة (٢٤٠) ألف مصنع وتوجيهها الى متطلبات الحرب. وفي نهاية تلك السنة أصبح التسليح بشتىّ أوجهه، واضحاً للعيان وبدرجة ماعاد بالإمكان اخفاؤه عن قوى ڤرساي المرتابة القلقة.

هذه القوى التي كانت تتزعمها بريطانيا راحت تغازل فكرة القبول بالأمر الواقع fait accompli أعني

٩ - المرجع نفسه.

تسليح ألمانيا الذي لم يكن سراً خفياً تقريباً بالحد الذي توهمه هتلر. فهم سيرضون بتسلح هتلر المتساوي الكامل مقابل إنضمام ألمانيا الى تسوية أوروبية عامة تتضمن (لوكارنو) شرقية. وبهذا تعطي الأقطار الشرقية ولاسيما الإتحاد السوڤياتي وپولندا وچيكوسلوڤاكيا نفس الضمانة التي تتمتع بها الأقطار الغربية بمقتضى معاهدة لوكارنو- وبطبيعة الحال تزود ألمانيا بالضمانات نفسها.

وفي أيار ١٩٣٤ اقترح السرّ جون سيمون Sir John Simon وزير الخارجية البريطانية (كان خير سلف لنقيل چمبرلين في عجزه التام عن فهم ما يجول في رأس هتلر) فعلاً، المساواة في التسلحّ بالنسبة الى ألمانيا. الا أن الفرنسيين نبذوا الإقتراح بشدة على أن مقترحات التسوية العامة وبضمنها المساواة في التسلح ولوكارنو شرقية تجددت في أوائل شباط ١٩٣٥ من جانب الحكومتين الفرنسية والبريطانية معاً، وقبل ذلك بشهر في ١٣ كانون الثاني صوّت أهل منطقة السار Saar بأغلبية ساحقة (٤٧٧ ألف صوت مقابل ٤٨ ألف صوت) لعودة منطقتهم الصغيرة الغنية بالفحم الى حضن الرايخ. واهتبل هتلر المناسبة للإعلان للعالم بأن ألمانيا لم يعد لديها أي إدعاءٍ أقليمي تجاه فرنسا وهذا يعني التخلي عن إدعاء الألمان بالألزاس Alace واللورين Lorraine. ان جو التفاؤل والنية الطيبة اللذين خلفتهما عودة السار الهادئة وبيانات هتلر التي عقبتها، دفعت الى تقديم المقترحات الانكلو- فرنسية رسمياً لهتلر في أوائل شباط ١٩٣٥.

كان جواب هتلر في ١٤ شباط غامضاً بعض الشيء. وهذا الغموض مفهوم من وجهة نظره الخاصة. رحب بالخطة التي ستترك ألمانيا حرّةً لتتسلح بشكل علني إلاّ أنه كان مراوغاً في رغبة ألمانيا التوقيع على (لوكارنو) شرقية. فهذا ما كان يكبل يديه في المنطقة الرئيسة التي أعلن دائماً أنها مجال ألمانيا الحيوي. لو ان بريطانيا إنفصلت عن فرنسا في هذا الشأن. (إرتبطت فرنسا بمواثيق التعاون المتبادل التي عقدتها مع پولندا وچيكوسلوڤاكيا ورومانيا) ألا يكون ذلك الأمر الأدعى الى الأهتمام ميثاق ضمان شرقي؟ لاشك أن هتلر كان يفكر. بهذا إذ انه اقترح في ردّه الحذر أن تجري محادثات ثنائية تسبق المباحثات العامة ودعا البريطانيين للقدوم الى برلين لإجراءات مباحثات تمهيدية. فسارع السر جون سيمون بالموافقة وحدد موعد الزيارة بالسادس من آذار في برلين وقبل أن يحين الموعد بيومين، سبب نشر "الوثيقة البيضاء البريطانية" كثيراً من السخط المصطنع في (ڤلهلمشتراسّه). والحق يقال إن أغلب المراقبين الأجانب في برلين وجدوا في الوثيقة البيضاء ملاحظة رصينة حول تسليح ألمانيا السري، الذي أثار إحتثاثه زيادة بسيطة في قوات بريطانيا المسلحة إلاّ أن هتلر كان حانقاً بسبب ذلك على ما قيل. وأبلغ (نيوارث) نظيره (سيمون) قبيل مغادرته لندن الى برلين أن الفوهرر يشكو "برداً" ويجب أن ترجأ المحادثات.

وسواء أشكا هتلر البرد أم لا. فقد كان بالتأكيد يشكو من عاصفة دماغية. سيكون محرجاً له أن

قلب تلك العاصفة إلى عمل ظاهري بوجود (جون سيمون وإيدن Eden). ظن أنه وجد تعلّة لتوجيه ضربة مميتة الى "إرغام ڤرساي". فاذا بالحكومة الفرنسية تسن قانوناً بتمديد الخدمة العسكرية من ثمانية عشر شهراً الى سنتين نظراً لقلة الشباب المتأتية من الحرب العالمية الأولى. وفي ١٠ آذار اطلق هتلر (بالوناً) تجريبياً، لإمتحان أعصاب الحلفاء، واستدعي الصحافي (ورد پرايس) التابع الأمين واجريت له مقابلة مع (گورنگ) فأبلغه هذا بصورة رسمية ما كانت الدنيا قد علمت به. وهو أن ألمانيا تملك قوة جوية عسكرية. وانتظر هتلر بكل ثقة رد الفعل في لندن حول نقضه شروط ڤرساي من جانبه فقط. فكان كما توقع تماماً. أعلم السر جون سيمون مجلس العموم أنه ما زال يؤمل خيراً من السفر الى برلين.

-٣-

مفاجأة السّبت

في السادس عشر من آذار الموافق يوم السبت [معظم مفاجآت هتلر كانت تحفظ لأيام السبوت] اصدر المستشار قانون التجنيد العام. وقرر جيشاً للسلم يتألف من إثنتي عشرة قيادة وست وثلاثين فرقة- توازي نصف مليون مقاتل تقريباً. وكان في هذا نهاية القيود العسكرية لڤرساي الاّ إذا قامت فرنسا وانگلترا بعمل. لكنهما احتجتا فقط ولم تقوما بعمل طبق ما توقع هتلر. في الواقع ان بريطانيا أسرعت تسأل ألايزال هتلر مستعداً لمقابلة وزير الخارجية؟ سؤال أجاب الدكتاتور عليه بالموافقة ممتناً. كان (الأحد) الموافق ١٧ آذار يوم فرح وعيد في ألمانيا. فقد كسرت قيود ڤرساي رمز هزيمة ألمانيا وإذلالها. ليس مهماً كم كان الفرد الألماني يكره هتلر وحكم عصاباته، فعليه الإقرار بأنه حقق ما لم تجرأ حكومة الجمهورية على مجرد محاولته. ووجد معظم الألمان أن شرف الوطن قد أستُردّ. ووافق نهار الأحد هذا يوم ذكرى الأبطال Hel-dengedenktag فتوجهتُ الى موقع الاحتفال ظهراً وكان في دار أوپرا الدولة وهناك شاهدت منظراً لم تشهده



المارشال فون ماكنزن

ألمانيا منذ ١٩١٤. كان الطابق الأرضي بأسره بحراً خضماً من البزات العسكرية بذلة القتال الرمادية الفاقعة والخوذ الرمحية شعار الجيش الإمبراطوري القديم تختلط بحلة الجيش الجديدة وبضمنها زيّ رجال القوة الجوية (لوفتوافه Luftwoffe) بلونه الازرق السمائي الذي لم يره الاّ القليلون من قبل. والى جانب هتلر جلس الفيلدمارشال فون ماكنزن آخر فيلدمارشال حيّ من جيش القيصر. بحلته العسكرية المزركشة لخيّالة الهوسار (ورأس الموت) وانصبت أضواء ساطعة على المرسح حيث وقفت صفوف من الضباط الشبان كتماثيل من المرمر رافعين عالياً أعلام الحرب الوطنية. وخلفهم علق على الستار صليب حديدي جبار بلونيه الأسود والفضي. المفروض في هذا الاحتفال أن يكون تكريماً لقتلى الحرب الألمان إلاّ أنه انقلب الى مناسبة سعيدة للإحتفال بدفن ڤرساي وإعادة إحياء الجيش الألماني المجند. وكان المرء يتبين من وجوه الجنرالات ما يعمل في نفوسهم من غبطة عظيمة. اذهلتهم المفاجأة ككل أمريء. ولم يكترث هتلر الذي كان قد قضى الأيام القلائل الماضية في وكنه الجبلي ببرختسگادن بإعلامهم عن عزمه. وذكر الجنرال فون مانشتاين von Manstein في شهادته بنورمبرگ أنه سمع بالأمر لأول مرة من إذاعة الراديو في ١٦ آذار، هو والجنرال فون فتزليبن von Witzleben آمره الأعلى قائد المنطقة العسكرية الثالثة: Wehrkreis III وكانت هيئة الأركان العامة تفضل الإبتداء بجيش صغير.

"[من شهادة مانشتاين] لو طلب رأي الأركان العامة، لاقترحت واحدةً وعشرين فرقةً... إن رقم (٣٦) فرقة يعود الى قرار هتلر الشخصي التلقائي[١٠].

وعلى أثر ذلك بدت سلسلة من مظاهر إنذارات جوفاء لهتلر من جانب القوى الأخرى. فاجتمع البريطانيون والفرنسيون والطليان في ١١ نيسان بمدينة ستريزا Stresa وأدانوا عمل ألمانيا وأيّدوا دعمهم لإستقلال النمسا وتمسكهم بمعاهدة لوكارنو. وأعلن مجلس عصبة الأمم في جنيف عن إستنكاره لعمل هتلر المتهور وسارع بتعيين لجنة لتضع مقترحات بالخطى التي ستتخذ لكبح جماحه مرة أخرى. وفرنسا التي أدركت أن ألمانيا لن تنضم الى (لوكارنو) شرقية بادرت في الحال الى التوقيع على معاهدة الحلف المتبادل مع الإتحاد السوڤياتي. وعقد الإتحاد السوڤياتي حلفاً مماثلاً مع چيكوسلوڤاكيا.

في المظهر بدا هذا الإطباق على ألمانيا نذير شؤم لها وزعزع من ثقة عدد كبير من الشخصيات في وزارة خارجيتها وأوساط الجيش الا أنها لم تقلق هتلر كما يبدو. فهو على كل حال قد فاز بمقامرته على أنه لم يكن من المفيد ان ينام على اكاليل الغار، وقرر ان الوقت مناسب للعودة الى أغنية ثانية، حبه للسلم، ليتحقق هل أن القوى التي تألّبت ضدّه لن تتمزق وتتفرق أيدي سبأ؟

في مساء الحادي والعشرين من أيار[١١] ألقى خطبة "سلم" أخرى أمام الرايخشتاغ [قد تكون أحذق

١٠- محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج٢٢ ص٦٠٣.

١١- في ذلك اليوم وقبل الخطبة سن هتلر قانون دفاع الرايخ السري، ونصب (شاخت) كما رأينا مشرفاً عاماً على الإقتصاد الحربي. واعاد تنظيم القوات المسلحة تنظيماً شاملاً جديداً "وأستبدل الإسم جيش الرايخ Reichswehen لجمهورية ڤايمر بـ"ڤيرماخت" (القوات المسلحة) وأصبح هتلر بوصفه زعيماً ومستشاراً القائد الأعلى للقوات =

خطبة له. وبالتأكيد واحدة من أبرع خطبه أمام الرايخشتاغ، الذي لم تفته معظم خطبه هناك] كان هتلر في أطيب وأصفى حالاته المزاجية يظهر روح ثقة بل وأكثر- يظهر روح تسامح وتصاف مما كان موضع دهشة مستمعيه. لم يكن فيها سخط أو تحد لتلك الأقطار التي أدانت عمل محوه شروط ڤرساي العسكرية. بل كان ثم تأكيدات في أن كل ما يرمي اليه هو السلم والتفاهم المبني على العدالة للجميع. ونبذ أي فكرة للحرب. إنها جنون، عبث، فضلاً عن كونها شقاءً وفظاعة.

"إن الدم الذي سفك في القارة الأوروپية خلال السنوات الثلاثمائة الأخيرة لم يؤثر أي تأثير في المصائر القومية للحوادث التاريخية وفي النهاية ظلت فرنسا كما هي فرنسا وألمانيا بقيت ألمانيا وپولندا پولندا، وإيطاليا إيطاليا، إن ما حققته أنانية الأسر المالكة، والعواطف السياسية، والعمى الوطني. في سبيل ما هو في الظاهر تغييرات سياسية بعيدة المدى، بسفك أنهار من الدماء لم يفعل (بالنسبة الى الشعور القومي) أكثر من مسّه بشرة الشعوب مساً خفيفاً. إنه لم يغير تغييراً جوهرياً الطابع الأساسي فيها ولو وجهت هذه الدول جزءً ضئيلاً من تضحياتها الى أغراض أكثر حكمة وتعقلاً فلاشك أن النجاح سيكون أعظم وأكثر ثباتاً. وأعلن هتلرأن ألمانيا لاتنوي أبداً إخضاع شعوب أخرى.

"إن نظريتنا العرقية ترى في أي حرب هدفها إخضاع وإمتلاك أي شعب غريب، عملاً سيؤدي عاجلاً أم آجلاً الى تغيير وإضعاف الشعب المنتصر في الداخل، وستؤول النتيجة به الى الهزيمة... ولما لم يبقَ أي أرض في أوروپا خالية أو غير مأهولة. فكل نصر... لايحقق في أفضل الحالات أكثر من الزيادة الكمية في عدد سكان البلاد الفاتحة. لكن إن كانت الشعوب تعلق هذه الأهمية الكبيرة على ذلك فبإمكانها الوصول الى النتيجة دون دموع، وبطريقة أبسط وأكثر طبيعة [بـ] سياسة إجتماعية صائبة، بزيادة إستعداد الشعب لتكثير نسله وانجاب أطفاله."

كلا! إن ألمانيا القومية الإشتراكية تريد السلام بسبب من عقيدتها الأساسية. وهي تريد السلام أيضاً لإدراكها الحقيقية البسيطة الأولية وهي لايمكن لأي حرب أن تغير بصورة جوهرية ما تشكو أوروپا من آلام... إن الأثر الرئيس لكل حرب هو القضاء على زهرة الشعب... إن ألمانيا تحتاج الى السلم، وترغب في السلم!"

وظل يوالي طرقه على هذه النقطة. وفي الختام طرح ثلاثة عشر إقتراحاً متمايزاً لتثبيت قواعد السلم. بدت رائعة الجمال حتى انها خلقت إنطباعاً طيباً عميقاً ليس في ألمانيا وحدها بل في سائر

= المسلحة وبلومبرگ وزير الدفاع - وزيراً للحرب الى جانب لقبه الآخر القائد العام للقوات المسلحة (الجنرال الوحيد الذي شغل المنصب في ألمانيا). وجعل لكل صنف من أصناف الجيش الثلاثة قائده العام. وهيئة أركانه العامة. وأطّرح أسم التعمية "دائرة الجنود Truppen amt" من قاموس الجيش وأعيدت التسمية الحقيقية (هيئة الأركان العامة) التي يقوم على رأسها الجنرال بيك رئيس هيئة الأركان إلاّ ان هذه الوظيفة لاتشبه مثيلتها في أيام القيصر حيث كان رئيس هيئة الأركان الألماني وهو القائد العام للجيش الألماني تحت إمرة القيصر مباشرة.

أوروبا وقد قدم لها بتمهيد "لقد إعترفت ألمانيا وضمنت ضماناً ثابتاً الحدود الفرنسية كما تقررت بعد إستفتاء (السار)... نحن ننبذ هنا وأخيراً كل إدعاءتنا بالألزاس واللورين، الأرض التي حاربنا لأجلها حربين... ومسحنا كل أثر من آثار الماضي بتوقيعنا ميثاق عدم إعتداء مع پولندا... سوف نواصل التمسك به دون قيد أو شرط... أننا لنرى في پولندا موطناً لشعب عظيم واع قومياً."

أما بخصوص النمسا: "لا تنوي ألمانيا، ولا ترغب في أن تتدخل في شؤون النمسا الداخلية أو أن تضم النمسا اليها. أو أن تعقد ميثاق وحدة معها."

وكانت نقاط هتلر الثلاث عشرة واضحة تماماً: لايمكن أن تعود ألمانيا الى عصبة الأمم حتى تتجرد العصبة من روح معاهدة ڤرساي فاذا تم ذلك وتم الإعتراف بالمساواة التامة بين كل الدول، فإن ألمانيا ستعود الى العصبة. وعلى أية حال فإنها ستبقى تحترم "دون تحفظ"، "الشروط غير العسكرية" التي تتضمنها معاهدة ڤرساي ويدخل في ذلك "المواد الخاصة بالحدود "ولاسيما قيامها بإحترام وتأدية كل الواجبات الناشئة عن معاهدة لوكارنو" وكذلك تعهد هتلر أن تحافظ ألمانيا على بقاء منطقة الراين مجردة من السلاح. ومع رغبة ألمانيا "في أي وقت" للمساهمة في شكل المعاهدات الثنائية وهي أيضاً مستعدة للأخذ بالمقترحات الانكلو-فرنسية في وضع ملحق لمعاهدة لوكارنو خاص بالجو".

أما عن قضية نزع السلاح فقد سار هتلر الى أبعد الحدود، قال: "الحكومة الألمانية مستعدة للإتفاق على أي حد من التسلح يؤول الى إتلاف الأسلحة الثقيلة وبخاصة تلك التي تصلح للهجوم مثل المدافع من أثقل العيار، والدبابات الثقيلة جداً... ان ألمانيا تعلن إستعدادها للإتفاق على أي تحديد لعيار المدافع مهما كان مقداره، أو زنته من البوارج الحربية أو الطرادات أو قوارب الطوربيد. وعلى هذا المنوال تعلن ألمانيا إستعدادها للموافقة على تحديد زنة الغواصات بالأطنان أو حتى إتلافها التام."

وكان بهذا يقدم لبريطانيا العظمى طعماً خاصاً. إنه ليرغب في تحديد الأسطول الألماني الجديد الى ما نسبته ٣٥٪ من قوة الأسطول البريطاني. وهذا سيبقي أسطول ألمانيا (على حد قوله) أقل من الأسطول الفرنسي بـ١٥٪، وللاعتراض الذي قد يوجه اليه من الخارج بأن مطاليبه هذه ما هي الا مقدمة لإمتيازات أخرى، أجاب هتلر قائلاً "لألمانيا هذا المطلب هو كاف ونهائي" وبعد العاشرة مساءً بقليل بلغ هتلر خاتمة خطابه: "كل من يشعل الحروب في أوروپا، لايريد الا الفوضى والخراب. ونحن على اية حال نعيش ونحن مؤمنون إيماناً تاماً بأن زماننا هذا لن يرى خراب الغرب وإحتلاله بل إحياؤه وتقدمه. وأن ألمانيا تساهم مساهمة عظيمة خالدة في هذا العمل الجبار، بثقة فخورة بآمالنا وإيماننا الذي لايزعزع[١٢]."

١٢ -نظامي الجديد: نشرة روسي دي سال Roussy De Sales الص ٣٠٩-١٣٣ وتجد نص الخطبة ايضاً في (باينس) ج٢ الص ١٢١٨-١٢٤٧.

هذه كلمات معسولة عن السلم والصفاء والعقل. لَطَعَتها الديمقراطيات الغربية في أوروبا وإزدرتها حيث كانت شعوبها وحكوماتها تتشبث تشبث اليائس بإستمرار السلام على أي أسس معقولة... بل على أي أساس كان تقريباً. وبادرت الى الترحيب بها بفرح هيستيري جريدة (التايمس) اللندنية أكبر الصحف نفوذاً في الجزر البريطانية، حيث قالت: "... بدت الخطبة معقولة، وصريحة، وشاملة لايقرأها منصف حيادي فيشك أن النقاط السياسية التي وضعها هر هتلر إنما تؤلف أسس تسوية كاملة مع ألمانيا. ألمانيا حرة قوية متساوية عوضاً عن ألمانيا عاجزة فرض عليها السلم فرضاً قبل ست عشرة سنة. ومن المأمول أن تؤخذ هذه الخطبة في كل مكان كأقوال مخلصة جديرة بالإعتبار تعني تماماً ما تتضمنه[١٣]."

هذه الصحيفة وهي إحدى مفاخر الصحافة الانكليزية الكبرى، قدر لها أن تقوم بدورٍ ملتوٍ- مثل حكومة چمبرلين، في سياسة مصانعة هتلر الانكليزية جلابة الكوارث والمحن. ويرى المؤلف أن خطأها أكبر من خطأ الحكومة وعذرها أقل، إذ كان لديها من مراسلها في برلين نورمان إبوت Norman Ebbut منجم للمعلوات حول أفاعيل هتلر وغاياته أغنى بكثير جداً من أي مصدر آخر من المراسلين أو الدبلوماسيين الأجانب وبضمنهم الانكليز، حتى طرد من البلاد الألمانية في ١٦ آب ١٩٣٧ ومع أن معظم ما كتبه (للتايمس) من برلين في تلكم الأيام لم ينشر.[١٤] (كثيراً ما كان يشكو من ذلك للمؤلف وتأكد منه فيما بعد)، فلاشك أن رؤساء تحرير الجريدة كانوا يقرأون كل تقاريره، فهم والحالة هذه على معرفة تامة بما يجري حقاً في ألمانيا النازية، وكم هي جوفاء وعود هتلر الضخمة. ولم تكن الحكومة البريطانية بأقل إستعداداً من (التايمس) أو مبادرةً لقبول مقترحات هتلر بوصفها "مخلصة" و"جديرة بالإعتبار" وبخاصة الإقتراح الذي واقفت به على أن يكون حجم أسطولها بنسبة ٣٥٪ لحجم الأسطول البريطاني.

كان هتلر قد لمح تلميحة ماكرة مقصودة للسر جون سيمون وزير الخارجية عندما أتم مع (ايدن) مقابلته المؤجلة، في نهاية آذار، قال لهما أنه يسهل جداً التوصل الى عقد إتفاق بين الدولتين يتضمن التفوق البحري الانكليزي. وفي ٢١ أيار ألقي هذا العرض بشكل علني في خطبة نمقها ببعض عبارات الصداقة والتحبب لانگلترا وقال فيها أن أسطولاً ألمانياً نسبة حمولته لاتزيد عن ٣٥٪ من حمولة أسطول بريطانيا هو ما تريده ألمانيا "وليس لألمانيا نية أو ضرورة أو مقدرة للدخول في أيّ تسابق بحريّ أو منافسة". وهو وهم يظهر أنه لم يُقضَ عليه عند الانكليز بل مازالوا يؤمنون به منذ ما

١٣ - "نظامي الجديد" الص ٣٣٣-٣٣٤.

١٤ - كتب جيوفري داوسن Jeoffrey Dawson رئيس تحرير التايمس في ٢٣ أيار الى مراسله في جنيف اچ. جي. دانييل H. G. Daniel الذي خلف (إبوت) في برلين "لقد عملت اقصى ما في وسعي لأبعد عن الصحيفة كل ما يخدشهم (يقصد الألمان) ويستفزهم. واعتقد اني لم انشر شيئاً طوال هذه الأشهر العديدة الماضية مما يمكن أن يعتبروه تعليقاً غير منصف [جون ايڤلين رنچ John Evelyn Wrench: "جيوفري داوسن وجريدتنا (التايمس)"].

قبل ١٩١٤ عندما راح الأميرال تربيتز Tirpitz بتشجيع حماسي من القيصر ڤلهلم الثاني يبني أسطولاً لما وراء البحار يضاهي به أسطول انكلترا. واستطرد الى القول "إن الحكومة الألمانية تدرك الضرورة الماسّة الملجئة ومن ثم تدرك المبررات الناجمة عن وجوب حماية قوية للإمبراطورية البريطانية في ماوراء البحار... إن للحكومة الألمانية النية الصريحة الصميمة لإيجاد وتثبيت علاقة مع الشعب البريطاني والدولة البريطانية تمنع الى الأبد تكرار النزاع الوحيد الذي حصل بين الشعبين" وكان قد أظهر مشاعر مماثلة في كفاحي حين ذكر أن واحداً من أعظم أخطاء القيصر هو عداؤه لانكلترا ومحاولته السخيفة لمنافسة الإنكليز في المجال البحري.

وابتعلت الحكومة البريطانية طُعم هتلر بسذاجة وسرعة لاتصدق. فدعي ريبنتروب [وقد أصبح الآن صبي مراسلة هتلر للمهمات الخارجية] الى لندن في حزيران لإجراء محادثات بحرية. فأبلغ البريطانيين بغروره وعدم كياسته التي عرف بها. أن عرض هتلر لم يكن موضوع مفاوضة وعليهم إما ان يقبلوا به أو يرفضوه فقبله البريطانيون، دون استشارة حلفاء جبهة (ستريزا) الفرنسيين والطليان. والدولتان بحريتان أيضاً شديدتا الإهتمام بعودة ألمانيا الى التسلح وانتقاضها على الشروط العسكرية في معاهدة ڤرساي بل قبلوا دون تبليغ عصبة الأمم المفترض بها أن تكون حارسة على معاهدات السلم للعام ١٩١٩. الا أن الطرفين سارا قدماً في ما ظناه منفعة خاصة. لشطب القيود البحرية من معاهدة ڤرساي.

وقد بات واضحاً لأبسط عقلية في برلين أن موافقة لندن على قيام ألمانيا ببناء أسطول يبلغ حجمه ثلث حجم الأسطول البريطاني يعني إطلاق العنان لهتلر في بناء أسطول بأسرع مما تتحمله طاقة البشر. أسطول يستوعب قابلية كل أحواض سفنه ومصانع فولاذه لمدة عشر سنين على أقل تقدير. ولهذا لم يكن الإتفاق تحديداً للتسلح الألماني بل تشجيعاً لتوسعه من الناحية البحرية وبأعجل مما تستطيع ألمانيا تهيئة الوسائل للقيام به.

وفوق الصّغار الذي نالته فرنسا من الحكومة البريطانية، أضافت إهانةً أخرى برفضها إعلام أقرب حليف لها- بوعدٍ قطعته لهتلر- بموافقتها على أنواع وعدد السفن الذي قررت ألمانيا بناءه. ولم تخبرها إلا بأن حمولة الغواصات الألمانية سيكون بنسبة ٦٠٪ الى حمولة غواصات انكلترا وقد يبلغ ١٠٠٪ إن دعت الى ذلك ظروف استثنائية(١٥)

[حرّمت معاهدة ڤرساي على ألمانيا إقتناء هذا السلاح، بصورة باتة!] والحقيقة الواقعة هي أن الإتفاق الانكلو-ألماني خوّل الألمان حق بناء خمس بوارج حربية [تسليحها وحمولتها قدر ان تكون أعظم من أي سفينة حربية إنكليزية مخرتْ المياه وان زورت الأرقام الرسمية لخداع لندن]- وواحد وعشرين طراداً وأربع وستين مدمرة ولم تبنَ كلها أو تكمل عند نشوب الحرب. لكن ما بُني كان كافياً مع الغواصات، لإيقاع أفدح الخسائر بالبريطانيين في أولى سني الحرب.

١٥- پرتينار Pirtinor: "حفارو قبر فرنسا" ص ٣١٨.

وأخذ موسوليني حالاً عبرته من "غدر ألبيون Albion*" واثنان يستطيعان أن يلعبا لعبة مصانعة هتلر. زد على ذلك إن موقف الإزدراء الذي وقفته إنكلترا، في عدم إكتراثها بمعاهدة ڤرساي شجعته على الإيمان بأن لندن لن تقف موقفاً جدياً من خرق ميثاق عصبة الأمم. فقام في ٣ تشرين الأول ١٩٣٥ بسوق جيوشه نحو بلاد الحبشة القديمة الجبلية متحدياً الميثاق فسارعت العصبة بقيادة إنكلترا ومساعدة فرنسا غير الحماسية التي كانت ترى في ألمانيا الخطر الأكبر في الزمن البعيد -الى التصويت حالاً على فرض العقوبات. على أنها كانت عقوبات جزئية طبقت بشكل محدود لم تمنع (موسوليني) من فتح الحبشة. لكنها دمرت الصداقة بين إيطاليا الفاشية وفرنسا وإنكلترا. وأنهت جبهة (ستريزا) ضدّ ألمانيا النازية.



إستعراض الفرق النازية (ذوو القمصان الرمادية

ومن استفاد أكثر من غيره من هذه السلسلة المتعاقبة للأحداث غير هتلر؟ قضيت الرابع من تشرين الأول وهو اليوم التالي لبدء الغزو الإيطالي، في ڤلهلمشتراسّه احادث عدداً من موظفي الحزب والحكومة. وأجملت بملاحظة دوّنتها في دفتر يومياتي. الدقة والسرعة التي قدّر بهما الألمان الموقف.

"ڤلهلمشتراسّه جَذِل. إما سيتورط موسوليني ويقع في مأزق لا فكاك منه في أفريقيا فيضعف مركزه كثيراً في أوروپا وعندئذ يسهل على هتلر إبتلاع النمسا التي يحميها الدوتشي. وإما سينتصر متحدياً فرنسا وبريطانيا وعندئذ سيكون ميالاً الى التحالف مع هتلر ضد الديمقراطيات الغربية. والرابح من النتيجتين هو هتلر[١٦]."وهذا ما كان سيثبت صحته بعد زمن قليل.

* ألبيون: إسم آخر أثري لبريطانيا العظمى. إنكلترا.
١٦- "يوميات برلين" (كتبها المؤلف)، ص ٣٤.

-٤-

مؤامرة فـي أرض الراين

خطبة "السلام" التي ألقاها هتلر أمام الرايخشتاغ في ٢١ أيار ١٩٣٥ أدهشت العالم وبخاصة بريطانيا العظمى كما قدمنا. كان هتلر قد ذكر "أن عنصر تهديد شرعي" قد دخل ميثاق لوكارنو نتيجة لمعاهدة "التحالف والتعاون" المتبادل المبرمة بين الإتحاد السوڤياتي وفرنسا في باريس في الثاني من آذار وفي موسكو في الرابع منه ولم يصادق عليها البرلمان الفرنسي بعد، وقد بلغت السنة ختامها. وجلبت وزارة الخارجية الألمانية انتباه باريس الى هذا "العنصر" بمذكرة رسمية الى الحكومة الفرنسية. وفي ٢١ تشرين الثاني جرى حديث بين السفير الفرنسي (فرانسوا پونسيه) وهتلر، هاجم فيه المعاهدة السوڤياتية "بوابل من الشتائم" وكتب (فرانسوا پونسيه) الى باريس أنه مقتنع تماماً أن هتلر ينوي إتخاذ المعاهدة ذريعة وتعلة لإحتلال منطقة الراين المنزوعة من السلاح، واضاف يقول: "إن تردد هتلر الوحيد من إتخاذ هذه الخطوة متأت من ترقب اللحظة المناسبة للعمل(١٧)".

كان (فرانسوا پونسيه) أكثر السفراء وقوفاً على خفايا الأمور في برلين فهو يعلم بما يتحدث. وإن كان قد خفي عنه بالتأكيد ما أتى به الربيع الماضي وفي الثاني من آذار قبل تأكيد هتلر في الرايخشتاغ بأنه سيحترم ميثاق لوكارنو وشروط الحدود في معاهدة ڤرساي بتسعة عشر يوماً، كان الجنرال فون بلومبرگ قد أصدر أمره التوجيهي الأول الى قوات البحر والبر والجو الثلاثة لتهيئة الخطط الخاصة بإعادة إحتلال أرض الراين المجردة من السلاح وأطلق على العملية رمز "شولونگ Schulung" وقرر أن "تنفذ بضربة مفاجئة وبسرعة البرق" واوصى ان يكون إعدادها بغاية من السر بحيث "لايدري بها إلا أقل عدد ممكن من الضباط" والحق أن بلومبرگ كتب الأمر بخط يده زيادة في الكتمان(١٨).

وفي ١٦ حزيران جرى نقاش آخر حول الحركة الى أرض الراين في الإجتماع العاشر للجنة الأشغال التابعة لمجلس دفاع الرايخ وفيها قدّم ضابط يدعى الكولونيل (ألفرد يودل) الذي ترأس وشيكاً دائرة الدفاع الداخلي- الخطط المتعلقة بها وبين ضرورة إحاطة الموضوع بأقصى الكتمان وحذر بألاّ يكتب عنها شيء على الورق إلاّ عند الضرورة الماسة وأضاف يقول إن "هذه المواد يجب الاحتفاظ بها في خزائن حديدية(١٩) بدون إستثناء."

١٧- فرانسوا پونسيه المرجع السالف الص ١٨٨-١٨٩.

١٨- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٦ الص٩٥١-٩٥٢ (الوثائق C ١٣٥) وعن نص ألامر انظر ايضاً (محاكمات مجرمي الحرب الكبار) ج١٥ الص ٤٤٥-٤٤٨.

١٩- تفاصيل الإجتماع في (مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٧ الص ٤٥٤-٤٥٥ (الوثائق ٤٠٥ EC).

وظل هتلر طوال شتاء ١٩٣٥-١٩٣٦ ينتظر فرصته. كان يلاحظ أن فرنسا وإنگلترا منهمكتان في إيقاف عدوان إيطاليا على الحبشة وأن موسوليني يواصل نهجه دون مبالاة. وبدت عصبة الأمم- رغم عقوباتها التي أحاطتها بكثير من الدعاية - عاجزة على إيقاف المعتدي العنيد. وفي پاريس لاح له وكأن مجلس النواب الفرنسي غير مستعجل في المصادقة على المعاهدة مع الإتحاد السوڤياتي فقد كانت مشاعر اليمين كلها متألبة ضدّها. ويبدوأن هتلر كان يتخيل وجود أمل كبير في أن يرفض مجلس الشيوخ الفرنسي الحلف مع موسكو. وعندئذ يترتب عليه أن يجد له ذريعة أخرى لتنفيذ خطة (شولونگ). الاّ أن المعاهدة طرحت أمام المجلس في ١١ شباط وصودق عليها في السابع والعشرين منه بأكثرية ٣٥٣ مقابل ١٦٤ صوتاً وبعد يومين من ذلك، أي في ١ آذار، حزم هتلر أمره دون إعتبار لتبرّم الجنرالات الذين كان معظمهم مؤمناً بأن الجيش الفرنسي سيجعل من القوات الألمانية الصغيرة التي جمعت للحركة الى أرض الراين- شيئاً أشبه باللحم المفروم. مهما يكن أصدر الجنرال بلومبرگ في ٢ آذار ١٩٣٦ إطاعة لأمر سيده أوامر رسمية لإحتلال أرض الراين. واوصى الأمراء الأقدمين من قادة القوات بأن تكون "حركة مباغتة". كان بلومبرگ يتوقع "عملية هادئة" فإن ظهر أنها ليست كذلك -أعني إن خاض الفرنسيون حرباً- فالقائد العام يحتفظ لنفسه "بحق اتخاذ قرار عسكري لمواجهة الحالة".[٢٠]

والواقع كما علمتُ بعدها بستة أيام وتأكدتُ منه فيما بعد من شهادة الجنرال في نورمبرگ أنه كان قد توصل الى القرارات لمواجهة الحالة قبل البدء. وهي التراجع السريع عن أرض الراين! ولكن الفرنسيين- وقد شلّ بلادهم التناحر الداخلي وغرق الناس في لجّة الانحدارية. لم يعرفوا هذا، عندما قامت قوة صغيرة رمزية من الجنود الألمان. بمظاهرة عبور على جسور الراين في فجر ٧ آذار ودخلت المنطقة المجردة من السلاح[٢١].

وفي الساعة العاشرة صباحاً استدعى (نيوراث) وزير الخارجية الرقيق الخصال سفراء فرنسا وانگلترا وإيطاليا وابلغهم بالأنباء عن أرض الراين وسلمهم مذكرات رسمية تهاجم معاهدة لوكارنو (التي اتم هتلر خرقها في تلك الساعة) وتقترح خططاً جديدة لإحلال السلم! وعلق فرانسوا پونسيه على الأمر بتبرم "يكيل هتلر لطمة لخصمه وفي أثناء ذلك يقول له: أني أقدم لك مقترحات للتصافي"![٢٢]

٢٠- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٦ الص ٩٧٤-٩٧٦ (الوثائق C ١٥٩).

٢١- جاء في شهادة (يودل) في نورمبرگ. إن إحتلال الراين جرى بثلاثة أفواج فقط تحركت الى (آخن) و(ترير Trier) و(ساربروكن Saarbruecken) ولم تستخدم غير فرقة واحدة لوضع اليد على كل الأقليم. والإستخبارات الحليفة تزعم أن القوات أكبر بكثير(٣٥٠٠٠ رجل أو ما يعادل ثلاث فرق). وقد علق هتلر على ذلك فيما بعد "الواقع هو اني ما كنت أملك غير أربعة أفواج" (محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج١٥ ص٢٥٢) إفادة (يودل) [أحاديث هتلر السرية الص ٢١١- ٢١٢] حول الرقم الذي اورده هتلر.

٢٢- فرانسوا پونسيه المرجع السالف ص١٩٣.

وبعدها بساعتين كان الفوهرر واقفاً في منبر خطابة الرايخشتاغ أمام جمع اخرجه الفرح من وعيه، وانشأ يعبر عن رغبته في السلم ويشرح آخر فكرة عنت له في سبيل تحقيقه. أمّا أنا فقد سلكت سبيلي الى دار أوپرا (كرول) لأشهد المنظر الذي لم يغب عن ذاكرتي قط لأنه كان منظراً مدهشاً وبشعاً في الوقت نفسه. فبعد خطبة طويلة عن شرور ڤرساي وخطر الشيوعية. أعلن هتلر بهدوء تام أن معاهدة التعاون المتبادل بين فرنسا والإتحاد السوڤياتي قد جبّت لوكارنو التي كانت ألمانيا قد وقعتها طواعية بخلاف ڤرساي. وقد دوّنت وصفاً لما حصل بعد ذلك في مذكراتي مساء اليوم نفسه:

"[يقول هتلر] لاتشعر ألمانيا بعد، بأي رباط يشدها الى معاهدة لوكارنو. ولمصلحة الحقوق الأصلية لشعبها في ضمان حدوده والمحافظة على وسائل دفاعه اعادت الحكومة الألمانية من هذا اليوم السيادة المطلقة غير المقيدة للرايخ، في المنطقة المجردة عن السلاح!".

الآن أرى النواب الستمائة الذين عينهم هتلر بأشخاصهم. رجال صغار، ذوو أجسام كبيرة وأعناق غليظة نافرة وشعور مقصوصة قصاً قصيراً. وبطون منفوخة وقمصان رمادية وأحذية ثقيلة... ينطون على أقدامهم كالآلات المنصوبة وترتفع أذرعهم اليمنى بالتحية النازية ثم يزعقون "هايل... هايل..."

... يرفع هتلر يده طالباً الصمت ثم يقول بصوت عميق رنان "يا رجال الرايخشتاغ الألماني!" [السكون مطلق تام]

"في هذه الساعة التاريخية حين يزحف جنود ألمانيا في هذه اللحظة، وفي أقاليم الرايخ الغربية، الى ثكنات أيام السلم المقبلة، نتحد كلنا بعهدين مقدسين."

وتعذر عليه مواصلة الكلام فقد فوجئت الغوغاء البرلمانية بهذا النبأ، نبأ قيام الجنود الألمان بالتحرك الى أرض الراين. وصعدت كل عسكرية دمائهم الألمانية الى رؤوسهم. فاستووا قائمين على أقدامهم، زاعقين صائحين... وارتفعت اياديهم بتحية العبودية، وجوههم الآن منقلبة من فرط الهستيريا وافواههم منفرجة الى اقصاها. وهم يصرخون واحداقهم تشتعل تعصباً وهي شاخصة الى الإله الجديد... المسيح! المسيح يلعب دوره التمثيلي باتقان لا مزيد عليه. انه يخفض من رأسه كأنما اتضاعاً وصغاراً وينتظر صابراً ليسود الصمت. ثم ينطق صوته بالعهدين- ومازال منخفضاً لكنه مختنق بغلبة العاطفة عليه: "أولاً: اننا نقسم بألاّ نعنو لأي قوة ونحن نعمل لاستعادة شرف شعبنا... ثانياً اننا نتعاهد من الآن وأكثر من أي وقت مضى على النضال من أجل تفاهم بين الشعوب الأوروبية ولاسيما الى تفاهم مع جيراننا الشعوب الغربية... ليس لدينا مطاليب اقليمية في أوروپا!... وألمانيا لن تخل بالسلم!"

ومر زمن طويل قبل أن تتوقف الهتافات... وخرج عدد قليل من الجنرالات وخلف إبتساماتهم لايسعك إلاّ أن تتبيّن قلقاً عصبياً... والتقيت الجنرال فون بلومبرگ... كان وجهه ابيض كالقرطاس...

٢٣- يوميات برلين الص ٥١-٥٤.


الجنرال گاملان

وخداه يرفان رفاً[٢٣].

إن له الحق في ذلك. فوزير الدفاع الذي كتب بخط يده قبل خمسة أيام أمر الزحف بدأ يفقد السيطرة على أعصابه. وعلمت في اليوم التالي انه اعطى جنوده الأوامر بالانسحاب من منطقة الراين إن تحرك الفرنسيون للقائهم. لكن الفرنسيين لم يقدموا على عمل ولم تبدر منهم اية بادرة ويقول فرانسوا پونسيه. أن القيادة العليا الفرنسية- بُعيد تحذيره السالف في تشرين- سألت الحكومة ما عساها ان تفعل إن كان استنتاجه [اي السفير] صحيحاً. فكان الجواب -كما يقول- ان الحكومة سترفع الأمر الى عصبة الأمم[٢٤].

وبالفعل عندما وقعت الواقعة[٢٥]. كانت الحكومة هي التي تريد أن تباشر عملاً، والقيادة الفرنسية هي الناكصة. فذكر فرانسو پونسيه إن الجنرال (گاملان Gamlin) نصح "الحكومة بان أيّ عملية عسكرية مهما كانت صغيرة، قد تحمل في طيّاتها مخاطر لايمكن التكهن بها وأنّه لايمكن القيام بذلك إلاّ بإعلان التعبئة العامة[٢٦]".

وأقصى ما كان يريد الجنرال (گاملان) رئيس هيئة أركان الحرب الفرنسي فعله، وقد فعله هو حشد ثلاث عشرة فرقة قريباً من الحدود الألمانية تعزيزاً لخطّ ماجينو Maginot وحتى هذا كان كافياً لإشاعة الخوف في قلوب القيادة العليا الألمانية. واراد بلومبرگ سحب الأفواج الثلاثة التي عبرت الراين وسانده في ذلك (يودل) ومعظم القادة الآمرين. كما شهد (يودل) في نورمبرگ بقوله "تقديراً للموقف الذي كنا فيه، فان الجيش الفرنسي المعبأ كان يسهل عليه ان يطحننا طحناً[٢٧]".

يكاد يكون من الثابت اليقين أن حركة الجيش الفرنسي كان معناها القضاء على هتلر. ومن ثم تبدلُ مسرى التاريخ واتخاذه سبيلاً مختلفاً نيّراً، لأن الدكتاتور لايمكن أن يصمد أمام خيبة كهذه. وأقر هتلر نفسه بهذا القدر من التحليل بقوله فيما بعد "إن تقهقرنا يعني الانهيار التام"[٢٨]. فكانت

٢٤- فرانسوا پونسيه: المرجع السالف ص ١٩٠.
٢٥- رغم تحذير فرانسوا پونسيه في الخريف الفائت. جاء عمل ألمانيا مفاجأة تامة للحكومتين الفرنسية والبريطانية. ولهيئة أركانهما.
٢٦- المرجع السالف الص ١٩٤-١٩٥.
٢٧- محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج١٥ ص ٢٥٣.
٢٨- أحاديث هتلر السرية الص ٢١١-٢١٢، مذاكرات ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٢.

قوة أعصاب هتلر وحده التي أنقذت الموقف كما فعلت في أزمات أخرى عديدة سيتمخض بها المستقبل وحققت النجاح أمام الجنرالات المترددين المرتبكين. الا انها لم تكن لحظة سهلة بالنسبة له. فقد سمعه ترجمانه پول شميدت Paul Schmidt يقول فيما بعد "الساعات الثماني والأربعون التي تلت إحتلال منطقة الراين كانت أشق ساعات حياتي على أعصابي. لو أن الفرنسيين دخلوا الراين آنذاك لأضطررنا الى الانسحاب واذيالنا بين سيقاننا، لأن الإحتياطي العسكري المتيسّر لنا كان عاجزاً بالتمام حتى عن إبداء مقاومة معتدلة"[٢٩].

وبثقته هذه من إحجام الفرنسيين عن الزحف، راح يرفض بإباء كل المقترحات التي قدمها له الجنرال (بيك) رئيس هيئة الأركان بالتقهقر وسحب القطعات. كان رئيس الأركان يريد من هتلر على الأقل أن يخفف من وقع الضربة بإعلان عدم نيته في تحصين الأجزاء الغربية من الراين وهو إقتراح قال عنه (يودل) فيما بعد: "رفضه الفوهرر بكل إباءٍ" لسبب واضح كما سنرى[٣٠]. وعلق هتلر على إقتراح بلومبرگ، أمام الجنرال (ڤون روندشدت) فيما بعد بأنه لايتعدى حدود الجبن[٣١].

تساءل هتلر في جلسة ختامية مع أعوانه في مقر القيادة ليلة ٢٧ آذار ١٩٤٢ "ما الذي كان سيحصل في مفاجأة الراين" لو وجد شخص آخر غيري على رأس دولة الرايخ! أي شخص أخر يسمو اليه تفكيركم كان سيفقد أعصابه. كنت مضطراً الى الكذب والمين. وما أنقذنا هو تشبثي برأيي ومتانة أعصابي المذهلة"[٣٢].

كان ذلك صحيحاً، ولكن ينبغي لنا أن نذكر مساعدة الفرنسيين له بترددهم. فضلاً مساعدة حلفائهم البريطانيين بغفلتهم. طار وزير الخارجية الفرنسية پيير ايتيين فلاندان Pierre Etienne Flandan الى لندن في الحادي عشر من آذار وتوسل بالحكومة البريطانية ان تدعم عملاً عسكرياً مضاداً تقوم به القوات الفرنسية في منطقة الراين ولكن توسلاته ذهبت أدراج الرياح. فبريطانيا لاتخاطر بإثارة حرب وان كان التفوق الحليف على الألمان ساحقاً وكما علق اللورد لوثيان Lothian "الألمان على كُلّ حال، دخلوا حديقة منزلهم الخلفية فحسب". حتى قبل وصول الفرنسي الى لندن، كان (ايدن) الذي أصبح وزيراً للخارجية في كانون الثاني، قد أبلغ مجلس العموم البريطاني في التاسع من آذار ان قيام جيش الرايخ بإحتلال منطقة الراين يصيب مبدأ حرمة المعاهدات بضربة شديدة" ثم استطرد "ولحسن الحظ ليس لدينا أية أسباب تحملنا على الإفتراض بأن عمل ألمانيا الحالي انما يهدد بأعمال عدوانية[٣٣].

٢٩- پول شميدت "ترجمان هتلر" ص ٤١.
٣٠- محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج١٥ ص٣٥٢.
٣١- محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج٢١ ص٢٢٠.
٣٢- أحاديث هتلر السرية ص٢١١.
٣٣- إقتبسها فرانسوا پونسيه المرجع السالف ص ١٦٩.

مع ذلك فقد كان من واجب فرنسا بمقتضى شروط معاهدة لوكارنو أن تقوم بعمل عسكري ضّد وجود جيش ألماني في المنطقة المجردة من السلاح، وان بريطانيا ملزمة بالمعاهدة نفسها أن تدعم فرنسا بقواتها المسلحة. إن مباحثات لندن الفاشلة كانت تأكيداً لهتلر بأنه فاز في مغامرته الأخيرة.

ولم يكتف البريطانيون بالنكوص عن المخاطرة بالحرب. لكنهم عادوا ليأخذوا القسط الأخير من مقترحات هتلر "السلمية" مأخذاً جدياً، ففي مذكرات سلمت الى السفراء الثلاثة في ٧ آذار وفي خطابه أمام الرايخشتاغ عرض أن يوقع ميثاق عدم إعتداء لمدة خمس وعشرين سنة مع بلجيكا وفرنسا بضمانة من إيطاليا وبريطانيا وتوقيع مواثيق مشابهة مع جارات المشرق. والإتفاق على تجريد الجهتين من الحدود الفرانكو-ألمانية من السلاح. الأمر الذي سيضطر فرنسا الى تخريب خط (ماجينو) آخر درعٍ لها في وجه هجوم ألماني مباغت.

وفي الوقت الذي كانت جريدة (التايمس) الجليلة القدر تعلن عن أسفها لتهور هتلر في غزو أرض الراين. وضعت لمقالها الإفتتاحي عنوان "فرصة لإعادة البناء".

وبالرجوع الى الوراء قليلاً، يسهل على المرء أن يتبين أن مغامرة هتلر الناجحة في ارض الراين جاءته بنصر أعظم وابعد أثراً مما أمكن تقديره في حينه. ففي داخل ألمانيا أحكمت تحصين شهرته[٣٤] وزادته قوة على قوة، وارتفعت بهما الى مقام لم يصل اليه أو يتمتع به أي حاكم ألماني قبله. واخضعت له جنرالاته الذين تلكأوا وضعفوا في الساعة الحرجة بينما بقي هو كالطود الراسخ. ولقنوا درساً مؤداه أن حكمه أصح من أحكامهم لا في السياسة الخارجية وحدها بل في الشؤون العسكرية ايضاً. أدركهم الخوف من قتال مع الفرنسيين لكنه كان أخبر منهم. وأخيراً وفوق كل شيء، فان عملية إحتلال أرض الراين على صغرها من الناحية العسكرية فتح له طريقاً لاحباً لاغتنام فرص جديدة كبيرة في أوروپا وهو ما كان يدركه وحده (اذا إستثنينا الشخص الوحيد الآخر الذي أدرك ذلك وهو تشرشل في بريطانيا) وإن الأمر لم يقتصر على إهتزاز هذه القارة من مجرد إستعراض ثلاثة أفواج ألمانية في

٣٤- في ٧ آذار حل هتلر الرايخشتاغ وأمر بإنتخابات جديدة وإستفتاء عام عن حركة الراين وبالنظر الى الأرقام الرسمية للأصوات في ٢٩ آذار، إقترع ٩٩٪ من المجموع العام للأصوات البالغ (٦٩١, ٤٥٣, ٤٥) وأيّد ٩٨,٨٪ منهم عملية هتلر. ووجد المراسلون الأجانب الذين زاروا أماكن الاقتراع. بعض التجاوزات القانونية ولاسيما الاقتراع العلني، لا السري. ولاشك ان الخوف كان يساور بعض الألمان (وهو خوف له ما يبرره) من أن النازي وشرطته الگشتاپو كانوا سيكتشفون الأصوات السلبية (كما رأينا). لقد أخبر الدكتور هوگو ايكينز Hugo Eekenez مؤلف الكتاب ان گوبلز أمره بالتحليق بزبلينه Zeppelin "هندنبرگ" فوق اجواء ألمانيا ومدنها كأداة دعاية وإن الرقم (٤٢) الذي أذاعته الدعاية الذي يمثل مجموع أصوات المقترعين (بنعم) يزيد على عدد الركاب الفعليين الموجودين على ظهره بصوتين! مع ذلك فالمراقب هذا الذي تتبع "الإنتخاب" في سائر أرجاء ألمانيا وكل ركن منها لم يشك ان الأصوات التي وافقت على عملية هتلر كانت أغلبيه ساحقة. ولم لا؟ إن تحطم ڤرساي وظهور الجنود الألمان مرة أخرى في (أرض ألمانية) على كل حال هي مما يستحسنه كل ألماني تقريباً بطبيعة الحال. ونشر رقم الأصوات التي اقترعت بالسلب فكانت (٢١١, ٥٤٠).

منطقة الراين، بل انه ألجأها الى تغيير وضعها الستراتيجي تغييراً جذرياً مفاجئاً. وإعادة النظر فيه من تحت الى فوق.

واذا عكست الآية، فالمرء يرى بالسهولة نفسها أن تقاعس فرنسا عن صدّ أفواج الڤيرماخت الألمانية وتلكؤ بريطانيا في مساندة حليفتها في خطوة لاتزيد عن مجرد عملية شرطة. كان فاجعة إنبعثت منها كل الفواجع التالية الأعظم أثراً وخطراً. في آذار ١٩٣٦ اعطيت الديمقراطيتان الغربيتان فرصتهما الأخيرة لوضع حدّ لقيام ألمانيا عسكرية معتدية ديكتاتورية، والقضاء على الديكتاتور النازي ونظامه [كما أقرّ هتلر نفسه بذلك] دون المخاطرة منهما بحرب كبيرة الا انهما تركتا الفرصة تضيع منهما.

بالنسبة الى فرنسا، كانت هذه بداية النهاية. فحلفاؤها في الشرق: الإتحاد السوڤياتي وپولندا وچيكوسلوڤاكيا ورومانيا ويوغوسلافيا. راحوا فجأة يواجهون حقيقة واقعة وهي أن فرنسا لن تحارب عدواناً ألمانياً للمحافظة على نظام الضمان الجماعي الذي جاهدت حكومتها نفسها في بنائه وترؤسه بل وأكثر من ذلك، بدأت هاته الحليفات الشرقيات يدركن أن فرنسا حتى وإن نفضت عنها غفلتها ستكون بعد زمن وجيز عاجزة عن تقديم أي مساعدة كبيرة، بسب مسارعة ألمانيا في جهود محمومة خارقة الى بناء الجدار الغربي على الحدود الفرنسية الألمانية. فقد رأت الحليفات إن إقامة خط القلاع هذا لن يلبث أن يغير من خارطة ستراتيجية أوروپا، تغيراً ليس من صالحها. لم تكن تتصور أنّ فرنسا بفرقها المائة لاتجسر على صد ثلاثة أفواج ألمانية، لاتريد أن تدفع بزهرات شبابها يتساقطون أمام تحكميات ألمانية لايمكن اقتحامها بينما يندفع (الڤيرماخت) في مهاجمة الشرق، لكن حتى لو جرى فعلاً غير المتوقع فلن يغير عن اية نتيجة. إذ ان الفرنسيين لن يكونوا قادرين إلا على احتجاز جزءٍ صغير من الجيش الألماني المتنامي وسيكون سائره حراً في عملياته العسكرية ضد جيران الألمان في الشرق.

إن قيمة تحصينات الراين الستراتيجية بالنسبة الى هتلر شُرحت لوليم بوليت William C. Bullitt السفير الأمريكي في فرنسا. عند زيارته وزير الخارجية الألماني ببرلين في ١٨ أيار ١٩٣٦.

"قال فون نيوارث [من تقرير بوليت الى دائرة الخارجية الأمريكية] أن من سياسة الحكومة الألمانية أن لاتنشط بعمل ما في الشؤون الخارجية حتى يتم هضم قضية أرض الراين. واوضح أنه يعني بذلك إن الحكومة الألمانية ستعمل كل ما بوسعها على منع وعدم تشجيع أي حركة نازية في النمسا أن تنهج سياسة هادئة بخصوص چيكوسلوڤاكيا حتى تتم تحصينات ألمانيا على الحدود الفرنسية والبلجيكية وقال: "ما إن تبنى تحصيناتنا وتدرك دول وسط أوروپا أن فرنسا لاتستطيع الدخول الى أراضي ألمانيا متى تشاء، ستبدأ كل هذه الأقطار تشعر شعوراً مختلفاً بخصوص سياستها الخارجية

وستبحث عن مجموعة دولية جديدة"[٣٥]."

هذا التطور بدأت ملامحه تظهر للعيان. كتب الدكتور شوشنك في مذكراته: "كنت وأنا واقف أمام قبر سلفي [القتيل دولفوس] مدركاً تماماً. بأن المحافظة على إستقلال النمسا يتطلب مني السير في خطة مهادنة... يجب اجتناب كل ما من شأنه إعطاء ألمانيا حجة في التدخل. وأن يبذل كل جهد لضمان رضى هتلر بالواضع الراهن، بأيّ كيفية كانت"[٣٦].

تشجع المستشار النمساوي الشاب الجديد. بالتصريح الذي ألقاه هتلر في الرايخشتاغ في ٢١ أيار ١٩٣٥ "لاتنوي ألمانيا ولاتريد التدخل في شؤون النمسا الداخلية، ولا بإلحاق النمسا، ولا بضمّها في وحدة مع ألمانيا". وزاد ثقة بتأكيدات (ستريزا) الصادرة من إيطاليا وفرنسا وانكلترا، عن عزمها على حماية إستقلال النمسا. ثم غرق (موسوليني) حامي حمى النمسا الأول في حمأة حرب الحبشة وتقطعت الأسباب بينه وبين فرنسا وبريطانيا. وعندما دخلت ألمانيا منطقة الراين وبدأت في تحصينها أدرك الدكتور شوشنك أن الوقت قد حان لبذل شيء من الترضية لهتلر. فشرع يفاوض في معاهدة جديدة مع پاپن الماكر سفير ألمانيا في ڤيينا. ومع أن هذا الرجل كان على قاب قوسين من الموت على أيدي النازيين أثناء تطهير حزيران، فلم ير بأساً من الشروع حال وصوله النمسا في أواخر الصيف ١٩٣٤ بعد مقتل (دولفوس) بالعمل الدائب للقضاء على إستقلال النمسا وإستلاب موطن هتلر وتقديمه له. وقد كتب الى هتلر في ٢٧ تموز ١٩٣٥ ضمن تقريره عن السنة الأولى لوظيفته في ڤيينا "يجب أن تتغلب القومية الإشتراكية على الايدولوجية النمساوية الجديدة، وهي لاشك فاعلة"[٣٧].

واظهر هتلر كرماً غير إعتيادي وتسامحاً يفوق الخيال في النص المنشور للإتفاقية الألمانية النمساوية المبرمة في ١١ تموز ١٩٣٦. اكدت ألمانيا إعترافها بسيادة النمسا وتعهدت بألا تتدخل في شؤون جارتها الداخلية وبمقابل ذلك تعهدت النمسا أنها ستعتبر نفسها "دولة ألمانية" وستتقيّد بهذا الواجب وتعمل في هذا الحقل على أساس كونها كذلك.

لكن كان يوجد في المعاهدة ملاحق سرية[٣٨] فيها تنازل شوشنك عن إمتيازات، قدر لها فيما بعد أن تقوده وتقود بلاده الصغيرة الى مصيرها المحتوم. فقد وافق سراً على منح العفو العام للسجناء السياسيين النازيين في النمسا وتعيين ممثلين لما أطلق عليه المعارضة القومية- وهي كلمة مرادفة "للنازيين" أو لـ"مشايعي النازية" إلى مناصب "المسؤولية السياسية" وهذا يساوي تماماً السماح لهتلر بإقامة "حصان طرواده" داخل النمسا. والى احشائه كان سيزحف بعد زمن وجيز "سييس إنكورات

٣٥- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٧ ص٨٩١ [الوثائق L ١٥٠].

٣٦- كرت فون شوشنك "صلاة جناز Roguim النمسا" ص٥.

٣٧- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج١ ص٤٤٦ [الوثائق PS ٢٢٤٨].

٣٨- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية [سيرمز اليها باحرف DGFP] سلسلة (D ص ٢٧٨- ٢٨١ رقم ١٥٢).

"Seyess-Inquart" المحامي الڤيـيني يحتل مـركز صدارةٍ في حكايتنا. ومع ان پاپن كـان قـد حـصل على مـوافـقـة هتلر بخصوص نص المعاهدة وقام بزيارة شخصية لبرلين لهذه الغاية في أوائل تموز، فإن الفوهرر هاج هائجه على رسوله هذا عندما تلفن له في ١٦ تموز ليبلغه بإتمام التوقيع على المعاهدة:



الجنرال فرانكو

"أدهشني رد الفعل في هتلر، فعوضاً عن إظهار إمتنانه، أمطرني بوابل من التأنيب واللوم وقال: اني ضلّلته وخدعته في منح إمتيازات كثيرة... وأن المسألة كلها كانت فخاً..."(٣٩)

وقد ظهر فيما بعد انها كانت فخاً نصب لـ(شوشنك) لا لهتلر. إن التوقيع على المعاهدة النمساوية-الألمانية قام دليلاً على أن موسوليني فقد سلطانه على النمسا، وكان من المتوقع أنها ستسيء الى العلاقات التي تربط الدكتاتورين الفاشيين، الاّ ان العكس كان الصحيح- وهذا يعود الى الأحداث التي كان مسارها في ١٩٣٦ في مصلحة هتلر.

في الثاني من أيار ١٩٣٦ دخلت القوات الإيطالية (أديس أبابا) عاصمة الحبشة وفي ٤ تموز، استسلمت عصبة الأمم رسمياً للواقع وألغت العقوبات المفروضة على إيطاليا. وبعدها بأسبوعين (١٦ تموز) دبر (فرانكو Franko) إنقلاباً عسكرياً في إسپانيا ونشبت هناك حرب أهلية. كان هتلر كعادته في هذا الوقت من السنة منصرفاً بكليته الى الأوپرا بمناسبة مهرجان (ڤاگنر) في (بايروث). وفي ليلة الثاني والعشرين من تموز بعد عودته من الأوپرا. وصل (بايروث) من مراكش رجل أعمال ألماني بصحبة أحد القادة النازيين، حاملاً رسالة عاجلة من (فرانكو)، يطلب فيها طائرات وما إليها من المساعدات. فسارع هتلر فوراً باستدعاء (گورنگ) والجنرال فون بلومبرگ وتشاء الصدفة أن يكونا في (بايروث) وفي تلك الليلة بالذات اتخذت القرارات لإمداد الثورة الأسپانية بالمساعدات(٤٠).

ومع ان العون الألماني لفرانكو لايقاس بما قدمت إيطاليا التي ارسلت قوة تتراوح ما بين ستين الفاً وسبعين من الرجال فضلاً عن كميات كبيرة من السلاح والطائرات، الا أنه كان عوناً كبيراً. وقدر الألمان فيما بعد أنهم انفقوا على هذه المغامرة ما يوازي خمسمائة مليون مارك(٤١).

فضلاً عن إمدادها بالطائرات والدبابات والخبراء، وفرقة كوندور Condor وهي سرب قاذفات بنت

٣٩- پاپن: المراجع السالف ص٣٧٠.
٤٠- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٣ الص ١-٢.
٤١- المرجع السالف الص ٨٩٢-٩٨٤.

شهرتها على مسح بلدة (گويرنيكا Guernica) الأسپانية من خارطة البلاد مسحاً وأخذت معها كل سكانها المدنيين. وإذا قورنت المعونة بالتسليح الألماني الجبار فإنها لاتعد شيئاً مذكوراً. الا أنها اغتنمت لهتلر حصة طيبة جداً. وكسبت لفرنسا فوة معادية فاشية ثالثة على حدودها وزادت من حدة النزاع والتناحر داخل فرنسا بين اليمين واليسار وبها دبّ الضعف في خصم ألمانيا الرئيس في الغرب. فضلاً عن أنّها جعلت من أي تقارب rapprochement بين فرنسا وبريطانيا وبين إيطاليا أمراً مستحيلاً. وكانت الدولتان تأملان ذلك بعد إنتهاء الحرب الحبشية، لكنّها دفعت موسوليني الى ذراعي هتلر.

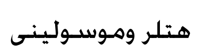
كانت سياسة الفوهرر في إسپانيا من البداية سياسة أريبة دقيقة بعيدة النظر. وبتعقيب الوثائق الألمانية يتضح أن واحداً من أهداف هتلر كان تطويل أمد الحرب الأهلية الأسپانية حتى يُبقي الديمقراطيتين الغربيتين وإيطاليا على خلاف وشنآن وليجتذب موسوليني اليه(٤٢)، فمنذ كانون الثاني ١٩٣٦ نجد السفير الألماني في إيطاليا (اولريخ فون هاسل Ulrich Von Hassell) الذي لم يصل بعد الى تفهم لأهداف النازيين وأساليبهم ثم انكشفت له حقيقتهما فيما بعد لتسبب خسرانه حياده أخيراً- يكتب لوزارة الخارجية، الآتي:

"ان الدور الذي يقوم به الصِّدام الإسپاني بخصوص علاقات إيطاليا مع فرنسا وانكلترا. قد يمكن ان يكون مشابهاً للدور الحبشي. مظهراً بوضوح المصالح المتضادة- لتلك القوى فعلاً، وبهذا يمنع إيطاليا من ان تندفع الى شبكة القوى الغربية وإستخدامها لحبك دسائسها. ان الكفاح في سبيل المكانة الأولى من النفوذ السياسي في إسپانيا، يكشف عن التعارض بين إيطاليا وفرنسا وفي الوقت نفسه فإن وضع إيطاليا بإعتبارها قوة بحرية في غربي الأبيض المتوسط يوؤل الى منافسة مع قوة بريطانيا. وتشير كل الدلائل بوضوح أن إيطاليا تدرك سداد فكرة التصدي الى القوى الغربية مع ألمانيا كتفاً لكتف(٤٣)".

هذه الظروف هي التي أدت الى ميلاد (محور روما- برلين). في ٢٤ تشرين الأول، قام الكونت غاليــزو تشيانــو Galeazzo Ciano ختن موسوليني ووزير خارجيته بعد مداولات مع نيوارث في برلين بأول زيارة حج من زيارات عديدة تالية لبرختسگادن ووجد الدكتاتور الألماني في أصفى حالات الود والرقة وأعلن قائلاً "ان موسوليني هو رجل السياسة الأول في العالم. لايمكن ان يقارن به أحد حتى عن بعد" وبإمكان إيطاليا وألمانيا معاً أن تقضيا لا على "البلشفية" وحدها بل على "الغرب" أيضاً ومعه انكلترا! وفكر أن البريطانيين قد يحاولون أخيراً الانضمام الى الركب الألماني الإيطالي الموحد. فإن لم يفعلوا فبإمكان البلدين القضاء عليهم بعمل موحدٍ. وذكّر هلترُ تشيانو "أن التسلح الإيطالي

٤٢- في ٥ تشرين الثاني ١٩٣٧ وبعد مرور أكثر من سنة عن هذا، اكد هتلر سياسته تجاه إسپانيا في حديث سري جرى له مع جنرالاته ووزير خارجيته فقال: "ان ألمانيا لاترغب في نصر لفرانكو نسبته مائة بالمائة فنحن نفضل دوام الحرب وبقاء التوتر قائماً في البحر المتوسط (وثائق سياسية ألمانيا الخارجية ج١ ص٣٧).
٤٣- المرجع السالف ج٣ ص١٧٢.

والألماني يتقدم بأسرع مما يتقدم التسلح في انكلترا، بكثير... وستكون ألمانيا بعد ثلاث سنوات على إستعداد..."(٤٤) والتاريخ هنا يسترعي الانتباه. ثلاث سنوات من ذلك التاريخ... توافق خريف عام ١٩٣٩!



هتلر وموسوليني

في الحادي والعشرين من تشرين الأول وقع (شيانو) و(نيوارث) في برلين پروتوكولاً سرياً فصلت فيه السياسة المشتركة لإيطاليا وألمانيا في الحقل الخارجي. واشار موسوليني اليه بصورة علنية في ميلان (الأول من تشرين الثاني) دون أن يكشف عن محتواه ووصفه بإتفاقية تتضمن (محوراً) قد "تعمل حوله معاً" القوى الأوروپية الأخرى. ولقد قدر لهذه الكلمة الشهيرة، ان تختم على مصير موسوليني.

بعد أن وضع هتلر موسوليني في جيبه، أولى إهتمامه ناحية أخرى. في آب ١٩٣٦، عيّن (ريبنتروب) سفيراً في لندن محاولة منه لاستطلاع إمكانية إجراء تسوية مع انكلترا بشروطه الخاصة طبعاً. كان ريبنتروب شخصاً كسلاناً فاقد الأهلية متعجرفاً مختالاً كالطاووس صارماً عبوساً جافاً. فهو أسوأ إختيار ممكن لهذه الوظيفة كما أدرك گورنگ ذلك. وقد صرح فيما بعد "عندما انتقدت مؤهلات ريبنتروب وعجزها عن الاضطلاع بالمشكلة البريطانية قال الزعيم لي، أن ريبنتروب يعرف فلاناً وفلاناً من اللوردات وفلاناً وفلاناً من الوزراء. فأجبته بقولي أجل، هذا حق ولكن المشكلة هي انهم يعرفون ريبنتروب(٤٥)".

والحق يقال أن ريبنتروب مع شخصيته المنفّرة، لم يكن يفتقر الى أصدقاء ذوي نفوذ في لندن وكان الإعتقاد في برلين أن (مسز سمبسون Mrs. Simpson) صديقة الملك كانت من هؤلاء. الا ان مجهوداته الأولى في منصبه الجديد لم تكن مشجعة. وفي تشرين الثاني طار عائداً الى برلين لإتمام مهمة لاعلاقة لها ببريطانيا، كان قد غمس يديه فيها. وفي ٢٥ تشرين الثاني وقع ميثاق مكافحة الكومنترن Anti-Comintron Pact مع اليابان وقال للصحفيين بهذه المناسبة دون ان ترف له عين (وكان المؤلف أحدهم). ان ألمانيا واليابان قد انتظمتا معاً للدفاع عن المدنية الغربية. وكانت واجهة الميثاق

٤٤- أوراق تشيانو السياسية نشرها ماكولم مكردج Malcolm Muggeridge الص ٤٣-٤٨.
٤٥- ملتن شولمان Milton Shulman "الهزيمة في الغرب" ص٧٦. اشار الى أن مصدره من استخبارات وزارة الحرب البريطانية كانون الثاني ١٩٤٥. ويبدو أنها من استجواب لگورنگ

الظاهرة لا أكثر من حيلة دعائية تمكن ألمانيا واليابان من كسب مساندة العالم بإستغلال كره الدول الرأسمالية للشيوعية والشك العام العالمي في نوايا الكومنترن. لكن المعاهدة كانت تتضمن أيضاً پروتوكولاً سرياً موجهاً ضد الإتحاد السوڤياتي بكل صراحة وبنوع خاص في حالة هجوم مباغت غير إستفزازي يقوم به الإتحاد السوڤياتي ضد ألمانيا أو اليابان فقد اتفقت الدولتان على التشاور في التدابير التي ستتخذانها "لحماية مصالحهما الخاصة المشتركة" وايضاً "أن لاتتخذا أي تدابير من شأنها أن تؤدي الى تعزيز موقف الإتحاد السوڤياتي السياسي". واتفق أيضاً أن لاتبرم أي الدولتين معاهدة سياسية ما مع روسيا تخالف روحاً هذه الإتفاقية دون الإتفاق المسبق المتبادل"[٤٦].

ولم يمر طويل زمن لتقوم ألمانيا بنقض المعاهدة وإتهام اليابان دون حق بعدم تطبيقها. على أن الإتفاق حقق فعلاً غرضاً دعائياً معيناً في عالم يسهل خداعه، وجمعت للمرة الأولى الدول الإعتدائية الثلاث بأنضمام إيطاليا الى الميثاق في السنة التالية.

في ٣٠ كانون الثاني خاطب هتلر الرايخشتاغ معلناً "سحب توقيع ألمانيا" من معاهدة ڤرساي. وهذا في حقيقته إجراء أجوف الاّ أنه ذو مدلول. لأن المعاهدة كانت آنذاك ميتة تثوي تحت اطباق الثرى. وراح يستعرض بفخر أعمال السنوات الأربع التي قضاها في الحكم. وان له عذراً في فخره لأن السجّل حافل في كل من الحقلين الداخلي والخارجي. فهو كما رأينا قضى على البطالة وخلق رواجاً في الأعمال التجارية وبنى جيشاً قوياً وأسطولاً وقوة جوية وجهزها بأسلحة كثيرة ووعد بأكثر على نطاق واسع وكسر بيده منفرداً، قيود معاهدة ڤرساي واحتال لشق طريقه الى الراين. وكان في البدء يشكو العزلة التامة، فوجد في موسوليني حليفاً مخلصاً ووجد حليفاً آخر في فرانكو وأبعد پولندا عن فرنسا. واهم من هذا كله أنّه أطلق ديناميـة الشعب الألماني وأيقظ ثقتهم في الوطن واحساسهم برسالته كقوة عظيمة عالمية موسعة.

كان كُلّ أمريء يرى الفرق العظيم بين هذه الزيجة الناجحة ذات الخير العميم تقود ألمانيا الجديدة بجسارة، بين الديمقراطيات المتداعية في الغرب التي بدا تخبطها وتأرجحها يتزايدان كلما مضى شهر من تقويم السنة. ومع أن فرنسا وانگلترا كانتا قلقتين الاّ أنهما لم ترفعا أصبعاً واحداً لمنع هتلر من الإعتداء على معاهدة السلم بإعادة تسليح ألمانيا وإحتلال الراين ولم تتمكنا من إيقاف موسوليني في الحبشة. وها هما في بدء العام ١٩٣٧. في موضع يثير الشفقة والرثاء بمحاولاتهما العقيمة في منع قيام الحرب الأهلية الإسپانية. كل الدنيا كانت تعلم بالمجهودات التي يبذلها الطليان والألمان لتحقيق إنتصار (فرانكو) في حين استمرت حكومتا لندن وپاريس طوال سنين في مفاوضات دبلوماسية فارغة مع برلين وروما لتحقيق "عدم التدخل!" في إسپانيا. كانت لعبة من ألعاب الرياضة البدنية راقت للدكتاتور الألماني على مايبدو وزادت بالتأكيد من إحتقاره القادة السياسيين الفرنسيين والبريطانيين

٤٦- نص الپروتوكول السرّي: وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج١ ص٧٣٤.

العاجزين "الدود الصغير" وهو الإسم الذي كان سيطلقه عليهم بعد قليل في مناسبة تاريخية اذل بها الديمقراطيتين الغربيتين مرة أخرى بأعظم ما يمكن من السهولة والبساطة.

لم تكن بريطانيا العظمى وفرنسا ولا حكومتاهما وشعباهما وكذلك معظم الشعب الألماني – لم يكونوا يدركون في مطلع ١٩٣٧ أن كُلّ ما فعله هتلر تقريباً، في السنوات الأربع من حكمه إنما كان الإستعداد للحرب ويمكن للمؤلف أن يشهد من ملاحظته الخاصة أن الشعب الألماني كان مقتنعاً حتى اليوم الأول من أيلول ١٩٣٩ أن هتلر سيحصل على ما يريده وما يريدونه هم دون اللجوء الى الحرب. لكن الرأي عند الصفوة المختارة التي تدير ألمانيا أو تشغل مناصب كبيرة كان واثقاً ثقة تامة من هدف هتلر. وعندما شارفت سنوات الامتحان الأربع من الحكم النازي [كما يسميها هتلر] على الإنتهاء قام گورنگ خطيباً في إجتماع سري للصناعيين والموظفين الكبار في برلين موضحاً بكل جرأة ما سيأتي به الزمن وكان ذلك في أيلول ١٩٣٦ إثر تعيينه مشرفاً على مشروع السنوات الأربع.

"[قال گورنگ] إن المعركة التي ندنو منها الآن تتطلب إنتاجاً ضخماً على أوسع نطاق تبلغه إمكاناتنا، لا حدود يمكن أن توضع للتسلح. والنهاية الوحيدة هي إما النصر أو الفناء... نحن الآن نعيش في زمن باتت المعركة على قاب قوسين منّا. نحن الآن على عتبة التعبئة العامة. بل ونحن في حرب عملاً وكلّ ما ينقص حربنا هذه هو القصف ولعلعة الرصاص"(٤٧). هذا التحذير ألقاه گورنگ في ١٧ كانون الثاني ١٩٣٦. وفي غضون أحد عشر شهراً من هذا التاريخ. وضع هتلر قراره الجازم الذي لا مرد له بالخروج الى الحرب.

–٥–

عام ١٩٣٧: "لا مفاجآت"!

أعلن هتلر أمام آلات الرايخشتاغ البشرية في ٣٠ كانون الثاني قائلاً "لقد مضى ما كان يطلق عليه زمن المفاجآت". والحق يقال إن ١٩٣٧ خلت من مفاجآت عطل الأسبوع(٤٨). وكانت عند الألمان سنة تعزيز وزيادة تأهب للأهداف التي قذف هتلر بملء كف منها الى كبار قادته في تشرين الثاني. كانت سنة مخصصة لسبك السلاّح وتدريب الجنود وتجربة القوة الجوية في إسپانيا(٤٩) وتطوير صناعة

٤٧– محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج١٢ الص ٤٦٠–٤٦٥ الوثائق ٨٥ NI.

٤٨– إعتاد موظفو ڤلهلمشتراسّه القول مازحين: عدل هتلر عن مفاجآته أيام السبوت، بعد ان أفهم أن الموظفين الإنگليز يقضون عطلة الأسبوع في الريف بعيداً عن محلات عملهم.

٤٩– تكلم گورنگ [في افادته بنورمبرگ المؤرخة ١٤ آذار ١٩٤٦] معتزاً مفاخراً بالفرص التي أتاحتها الحرب الإسپانية لإختبار "قوتي الجوية الصغيرة... بعد سماح الفوهرر أرسلت جزءً كبيراً من أسطولي للنقل وعدداً من الوحدات المقاتلة التجريبية وبعض القاذفات وبعض المدافع المضادة للجو وبهذه الطريقة أتيحت لي فرصة التأكد – في أجواء المعركة الفعلية. من كفاءة مادتي. ولكي يستفيد الأفراد تجربة ايضاً. رتبت الأمور حيث يتم الإستبدال دون إنقطاع. =

النفط غير الطبيعي والمطاط الصناعي. وتثبيت دعائم محور روما-برلين وترقّب نقاط ضعف أخرى من پاريس ولندن وڤيينا. ودأب في الأشهر الأولى من ذلك العام على إرسال البعثات المهمة الى روما لتثقيف موسوليني. كان الألمان قلقين بعض الشيء لمغازلة إيطاليا بريطانيا (في ٢ كانون الثاني وقع تشيانو "ميثاق السيد الماجد" مع الحكومة البريطانية، فيه اتفق على أن يحترم كل من الدولتين الموقعتين المصالح الحيوية للأخرى في البحر الأبيض المتوسط). وأدركوا أن موضوع النمسا مازال يثير غضب روما. وعندما زار (گورنگ) الدوتشي في ١٥ كانون الثاني وتكلم بصراحة عن حتمية ضمّ النمسا- ذكر پول شميدت الترجمان الألماني- أن الدكتاتور الإيطالي المهتاج هزّ رأسه هزات عنيفة. وكتب السفير (ڤون هاسل) تقريراً الى برلين ذكر فيه أن تصريح گورنگ عن النمسا "قوبل ببرود وجفاء". وفي حزيران سارع (ڤون نيوراث) يؤكد للدوتشي بأن ألمانيا ستحافظ على معاهدة ١١تموز التي عقدتها مع النمسا بإستثناء محاولة إعادة آل هابسبرگ الى الحكم، فإن ألمانيا ستتخذ عندئذ عملاً حدّياً.

وكان من أثر تهدئة موسوليني بخصوص النمسا وحنقه من تصدي فرنسا وبريطانيا لكل أطماعه تقريباً سواء في الحبشة أو إسپانيا أو البحر المتوسط، أنه سارع بقبول دعوة هتلر لزيارة ألمانيا في ٢٥ أيلول ١٩٣٧. وعبر (الألب) وهو مرتدٍ بزة صُمّمت وفصلت خصيصاً لهذه المناسبة ودخل الرايخ الثالث بكبكبة وحفاوة البطل الفاتح. يحف به هتلر وأعوانه. ولم يكن موسوليني يدري آنذاك كم ستجلب عليه هذه الزيارة من كوارث. أول رحلة من عدة رحلات ستتلو فتؤدي الى إضعاف مطّرد لموقفه إزاء هتلر، ثم الى النهاية الفاجعة. ولم تكن غاية هتلر الدخول في مفاوضات دبلوماسية أخرى مع ضيفه بل أراد ان يبهره بمظاهر قوة ألمانيا، ليمثّل دوراً ناجحاً من فكرته المستولية على ذهنه، وهي ضم حظوظه الى الفريق الغالب. وطافوا بموسوليني في ألمانيا طولاً وعرضاً ونظموا له إستعراضات للـ(إس.إس) والجيش. وأقيمت على شرفه مناورات عسكرية في (ملكنبرغ) وجالوا به في مصانع السلاح الهاردة في الروهر.

وبلغت زيارته ذروتها في ٢٨ أيلول حين أقيم له إحتفال في برلين أذهله حقاً. احتشد مليون شخص في مايلفد Maifeld ليتسمعوا الى الدكتاتورين الفاشيين ينفض كل منهما ما في جعبته. وكادت الدنيا لاتسع موسوليني فرحاً وهو يرى خطبته التي ألقاها بالألمانية تقاطع بهتافات حماسية شقت عنان السماء وانتعش كالديك بمعسول كلام هتلر وتملقه. ووصف الفوهرر الدوتشي بأنه "أحد أولئك الرجال فريدي عصرهم وأوانهم ممن لايصنعهم التاريخ، وانما هم الذين يصنعون التاريخ". ومما أذكر أن عاصفة رعديّة شديدة خيّمت على الميدان قبل ان يفرغ موسوليني من كلمته وفي الإضطراب

= يذهب أناس جدد الى المعركة بإستمرار ويستدعى آخرون وهكذا (محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج٩ ص ٢٢٨١).

المتـأتي من تراكض الغـوغـاء وقع الخلل في التـدابـيـر الوقـائـيـة التي اتخذها الـ(إس. إس) وانـهـارت السقوف فابتلّ الدوتشي الغطريس بالماء من قمة رأسه الى أخمص قدمه وإعتوره ضيق شديد واضطر الى العودة وحيداً بأفضل ما أمكنه. إلا أن هذه التجربة التي لم تكن في الحسبان لم تقلل من حماسته في أن يصبح شريكاً لألمانيـا القوية الجديدة. وفي اليـوم التالي بعد مشاهدته عرضـاً عسكرياً للقوات البرية والبحرية والجوية عاد الى روما مقتنعاً بأنّ المستقبل لهتلر.

ولم يكن أن يسـافـر (ريبنتـروب) الى رومـا بعـد شـهـر مـن زيارة الدوتشي ليـحـصـل عـلى توقـيـع الدكتاتور في ذيل ميثاق مكافحة الكومنترن. وفي حفل أقيم في ٦ تشرين الثاني أعلمه الدوتش عن فقدان إيطاليـا إهتمـامـهـا بإستقـلال النمسـا. وقال مـوسـوليني "فلتترك الأحداث [في النمسا] تأخذ سبيلها الطبيعي". وهذا معناه إشارة الانطلاق التي كان ينتظرها هتلر.

هنالك رئيس دولـة آخر بـهره تعـاظم قـوة ألمانيـا النازية هو الملك ليـوبولد البـلچيـكي. فـعندمـا نقض هتلر معاهدة لوكارنو واحتل منطقة الراين وجعل الجيش الألماني مشرفاً على الحدود البلچيكيـة بادر الملك بالإنـسـحـاب مـن لوكـارنو ومن حلفـه مع بريطانيـا وفـرنسـا وأعـلـن أن بلچيـكا سـتلتـزم من الآن فصـاعداً بسياسـة حياد دقـيق. كان وقع ذلك شديداً على الدفـاع الجماعي عن الغـرب، إلا أن بريطانيا وفرنسا رضيتا به في نيسان ١٩٣٧ وكان عملاً دفعتا له مع بلچيكا ثمناً باهضاً بعد فترة وجيزة.

في آخر آذار بدأ (ڤلهلمشـتراسّه) يرقب بإهتمـام اعتـزال (سـتـانلي بالدوين Stanley Baldwin) رآسة الوزارة البـريطانيـة وإسـتـخـلافـه بـ(نڤيـل چـمـبـرلين) وشـاع السـرور في الألمـان حين سـمـعـوا أن رئيس الحكومة البريطانية الجديد سيمارس في السياسة الخارجية دوراً أكثر من سلفه وانه عازم على التوصل إتفاق مع ألمانيا النازية إن أمكن. إن التفاهم الذي يرضى به هتلر، وضعت خطوطه الرئيـسـيـة سراً في تقرير العاشر من تشـرين الثاني الـذي كتبه البـارون (ڤـون ڤايسـيـكر Von Weizsaecker) رئيس الدائرة السياسية في وزارة الخارجية.

"من إنگلترا، نحن نريد مسـتـعـمـرات، وحرية في العـمل في الشـرق... إن حـاجة البريطانيين للهـدوء ماسّة. ومن المفيد أن نجد ما الذي تستطيع إنگلترا أن تدفع ثمناً لهذا الهدوء".

وسنحت فـرصة لمعرفة الثـمن الذي تقبل إنگلترا دفعـه للهدوء المنشـود عندمـا قـام اللورد هاليـفـاكس Halifax في تشرين الثـاني برضىً وإندفاع من (نڤـيل چمبرلين) بالحج الى (برختسگادن) لمقـابلة هتلر. وفي ١٩ تشرين الثاني جرى بينهـما حديث طويل وفي مذكرة سرية ألمانية أدرجت فيـها وزارة الخارجية الألمانيــة وقـائع تلك المقـابلة(٥٠)، برزت ثلاث نقـاط وهي: أن (چمـبـرلين) مـتلهف للغـايـة الى إيجاد تسـوية مع ألمانيا وإقـتراح إجراء محادثات بين البلدين على مستوى الحكومـات تريد بريطانيا تسـوية عـامـة لمشـاكل أوروپا وهي على إسـتـعـداد مـقـابل ذلك أن تـنزل عن إمـتـيـازات لـهـتلر بـالنسـبـة الى

٥٠- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج١ ص٤٠.

المستعمرات وشرقي أوروبا. وأخيراً إن هتلر ليس كثير الإهتمام في الوقت الحاضر بعقد إتفاق أنگلو ألماني.

ومن ناحية النتيجة السلبية التي اسفرت عنها المحادثات فقد أدهش الألمان أنهم وجدوا الإنگليز يعلقون عليها آمالاً طيبة(٥١). ولتكونن مفاجأة عظيمة جداً للحكومة الإنگليزية لو علمت عن إجتماع سريّ للغاية عقده هتلر في برلين مع كبار قادته العسكرين ووزير خارجيته قبل أربعة عشر يوماً بالضبط من حديثه مع اللورد هاليفاكس.

-٦-

القرار الحاسم في الخامس من تشرين الثاني ١٩٣٧

أشير الى الأمور التي سيأتي بها المستقبل والإستعدادات التي ينبغي إتخاذها لمواجهتها في أمر توجيهيّ لقواد القوات المسلحة الثلاثة العامين في ٢٤ حزيران أصدره الفيلد مارشال فون بلومبرگ ومُيّزت بعبارة "سرّي للغاية" ولم يعمل منها غير أربع نسخ(٥٢)، في هذا الأمر أبلغ وزير الحرب والقائد العام للقوات المسلحة قادة الصنوف الثلاثة "بان الموقف السياسيّ العام يبرر القول أن ألمانيا لاتتوقع هجوماً من أيّ جهة كانت." واستطرد الأمر يقول أن الرغبة في الحرب منتفية عند كل من الدول الغربية وروسيا وانها لاتتأهب لحرب ما.

ومضت النشرة السرية "... ومع ذلك فإن الوضع العالميّ المائع سياسياً لايحول دون وقوع أحداث مباغتة تطلّب من القوات الألمانية أن تقف على أهبة الإستعداد لإمكان إستثمار الفرص التي تعرضها السياسة إستثماراً عسكرياً حين سنوحها. إن إستعدادات القوات المسلحة لحرب محتملة في فترة تعبئة ١٩٣٧-١٩٣٨ يجب أن تتم على هذا الأساس". أي حرب هي محتملة الوقوع في وقتٍ لم تكن ألمانيا تخشى هجوماً "من اي جهة؟" كان بلومبرگ واضحاً تماماً. فهناك إحتمالان للحرب Kriegsfolle و"يجب أن يوضع لهما خطتان":

٥١- كتب چمبرلين في يومياته "إن زيارة [اللورد هاليفاكس ألمانيا كانت من وجهة نظري نجاحاً كبيراً لأنها حققت غرضها، أعني بخلق جو يمكن ان يبحث فيه مع ألمانيا المشكلة العملية التي تكتنف تسوية أوروبية" [كيث ڤيلينغ Keith Feiling: حياة نڤيل چمبرلين ص٣٣٢].
ويبدو ان هاليفاكس نفسه قد وقع تحت تأثير هتلر فذكر في تقرير كتابيّ لوزارة الخارجية "ظهر لي ان المستشار الألماني وغيره لاينوون القيام بمغامرة تتضمن إستخدام القوة أو الحرب على الأقل" وقال جارلس سي. تانسل Charles C. Tansill إن هاليفاكس أبلغ چمبرلين شفوياً ان هتلر "لاينوي القيام بمغامرة عاجلة وواحد من الأسباب هو انه منهمك في بناء ألمانيا داخلياً... ومنها انها قد لاتعود بطائل" وأن گورنگ أكّد أنه لن تسفك قطرة دم جندي ألماني في أوروبا الا اذا أضطرت ألمانيا تماماً. والإنطباع الذي تخلف عن الألمان انهم يريدون تحقيق أهدافهم بطريقة إعتيادية (تانسل: باب الحرب الخلفي، الص ٣٦٥-٣٦).

٥٢- المرجع السالف الص٥٥-٥٧ و[مؤامرة النازيين ج٦ الص ١٠٠١-١٠١١ الوثائق C ١٧٥].

١- حرب على جبهتين. الزخم الرئيس فيها من الجبهة الغربية (الخطة الستراتيجية "أحمر Rot")

٢- حرب في جبهتين الزخم الرئيس فيها في الجبهة الجنوبية الشرقية (الخطة الستراتيجية: "أخضر")

ومفصّل "الإفتراض" في القضية الأولى أن فرنسا قد تقوم بهجوم مباغت على ألمانيا. وفي هذه الحالة تستخدم القسم الأعظم من قواتها في الغرب وقد رمز لهذه العملية بإسم "أحمر"[٥٣] وللإحتمال الثاني:

الحرب في الشرق يمكن أن تبدأ بعملية ألمانية مباغتة ضدّ چيكوسلوڤاكيا تفادياً لهجوم سريع تقوم به قوات عدوّه مؤتلفة متفوقة. إن الشروط اللازمة لتبرير عمل كهذا تبريراً سياسياً أمام القانون الدولي يجب أن يستحدث قبل ذلك (الخطان على العبارة الأخيرة من يد بلومبرگ نفسه) وشدد الأمر التوجيهي بأن چيكوسلوڤاكيا "يجب ان يتم القضاء عليها من البداية" ويكمل إحتلالها فوراً.

وكان هناك أيضاً ثلاث قضايا يجب أن يتخذ لها "إستعدادات":

أولاً: التدخل المسلح ضدّ النمسا [القضية الخاصة بأوتو Otto].

ثانياً: التعقيدات شبه العسكرية مع إسپانيا الشيوعية [القضية الخاصة بريشارد Richard].

ثالثاً: إنگلترا وپولندا ولتوانيا تشاركان في حرب ضدّنا [توسيع في القضيتين: أحمر، وأخضر].

و"قضية أوتو" رمزٌ مصطلحٌ، سيكثر ترداده في الصحائف التالية. فكلمة (أوتو) تشير الى (أوتو هابسبرگ) المطالب الشابّ بالعرش النمساوي الذي كان يعيش في بلچيكا آنذاك. ولخصت (قضية أوتو) في الأمر التوجيهي الذي اصدره بلومبرگ في حزيران بما يأتي:

"إن الهدف من هذه العملية- عملية التدخل المسلّح في النمسا بحالة عودتها الى النظام الملكي- هو إجبار النمسا بالقوة على التخلي عن إعادة الملكية."

"بالإفادة من الإنقسام السياسيّ الداخلي سيكون ثم حركة عسكرية الى هذا الغرض والهدف الرئيس سيكون ڤيينا وسيقضى على كل مقاومة في وجه الزحف."

وتسلل إلى هذه الوثيقة الفاضحة في الختام نبرات حذر تكاد تكون يأساً. فهي تنذر قائلة ليس هناك مجال للتخمين في أمر بريطانيا "ستستخدم إنگلترا كل مواردها الإقتصادية والعسكرية المتيسرة، ضدّنا" فإذا انضمت الى پولندا وليتوانيا؟ إن الأمر التوجيهي يعترف: "سيكون وضعنا

٥٣- تلك هي أولى نماذج من عدة رموز للخطط العسكرية الألمانية. ستأتي في السياق ويستخدم الألمان لفظة Fall ومعناها الحرفي (قضية) ولهذا تترجم عبارة Fall Rot بالقضية الحمراء وFall Gruen بالقضية الخضراء وهما الرمزان لعمليات الغرب وعمليات چيكوسلوڤاكيا على التوالي. وزعم الجنرالات الألمان في نورمبرگ انها كانت في البدء مجرد مصطلح مما يستخدمه كل القيادات العسكرية للخطط المرسومة لمواقف الفرضيات العسكرية لكن الرمز أصبح كما سيتبين المرء مما يأتي -وكما إستخدمه الألمان بعد فترة قليلة من الزمن مصطلحاً لخطة مرسومة مبيتة لعدوان مسلّح وكلمة "عملية" قد تكون أقرب مما يقصد منه بلفظه Fall من لفظة "Case- قضية" ومهما يكن من أمر وتسهيلات للأمر فإن المؤلف يستخدم كلمة "قضية: Case" من الآن فصاعداً لما يقصد به لفظة Fall الألمانية.

العسكري سيئاً الى حَدّ لايطاق، بل يائساً. وسيعمل القادة السياسيون عندئذ كلّ ما يمكن عمله ليبقوا هذه الدول على الحياد، وبخاصة إنگلترا".

مع أن الأمر التوجيهي صادر بتوقيع بلومبرگ. فمن الواضح أنه جاء من سيّده مستشار الرايخ. واقبل الى مركز الرايخ الثالث العصبي (ڤلهلمشتراسّه ببرلين) ستة أشخاص في مساء يوم ٥ تشرين الثاني ١٩٣٧، ليتلقوا المزيد من الإيضاحات من الزعيم وهؤلاء الستة هم: الفيلد مارشال فون بلومبرگ وزير الحرب والقائد العام للقوات المسلحة، والكولونيل جنرال بارون فون فريتش القائد العام للجيش، وأمير البحر الدكتور رايدر القائد العام للأسطول، والكولونيل جنرال (گورنگ) القائد العام للقوة الجوية، والبارون فون نيوراث وزير الخارجية، والكولونيل (هوسباخ) المرافق العسكري للفوهرر. لن يتردد ذكر (هوسباخ) في هذا السفر ولم يذع له صيت. إلاّ انّ هذا الكولونيل الشاب مثّل دوراً هاماً في ساعات يوم تشرين الثاني السّود. فقد دوّن ملحوظات عن كل ما قاله الفوهرر وبعدها بخمسة أيام قام بكتابتها تفصيلاً في مذكرة سرية للغاية، وبهذا سجل للتاريخ نقطة التحول الحاسمة في حياة الرايخ الثالث وكانت مدوّنته واحدة من أهم الوثائق وأخطرها في نورمبرگ[٥٤].

بدأ الإجتماع في الرابعة والدقيقة الخامسة ودام حتى الثامنة والدقيقة الثلاثين. وكان هتلر أكثر المتكلمين. وبدأ بالقول أن ما سيطرحه هو ثمرة... "تفكير مضن ومداولات وتجارب أربع سنوات ونصف سنة من الحكم" وبيّن أنه يعتبر الملحوظات التي سيذكرها وشيكاً ذات أهمية بالغة، بحيث يجب أن تعتبر في حالة وفاته– بمثابة وصّية وإفادة أخيرة له. قال: "إن هدف السياسة الألمانية هو حفظ المجتمع العنصري وضمان حياته وتوسيع ذلك المجتمع. فالقضية اذن هي قضية مجال حيّوي Lebensroym، وبسط حديثه أن لألمانيا "الحق في مجال حيوي أكثر من غيرها من الشعوب... ولذلك فإن مستقبل ألمانيا يتوقف كله على حلّ مشكلة الحاجة الى المجال الحيوي[٥٥]". أين يكون المجال؟ ليس في

٥٤– ان ملحوظات (هوسباخ) مؤرخة في ١٠ تشرين الثاني. أثبت النصّ في [مؤامرة النازيين... ج٢٥ الص٤٠٢–٤١٣] وادق ترجمة إنگليزية في [وثائق عن سياسة... ج٣ الص ٢٩–٣٩] هنالك ترجمة إنگليزية سريعة عملت في نورمبرگ [مؤامرة النازيين... ج ٣الص ٢٩٥–٣٠٥ الوثائق ٣٨٦ PS] وكتب هوسباخ ايضاً عن وقائع الإجتماع في كتابه Zwischen Wehrmacht und Hitler الص١٨٦–١٩٤. شهادات گورنگ ورايدر ونيوراث المقتضبة حول الإجتماع طبعت في [محاكمات مجرمي الحرب الكبار]

٥٥– من الآن فصاعداً سيلاحظ القاريء إن ما يبدو حديثاً غير مباشر (بصيغة الغائب) قد وضع بين قوسين صغيرين أو بين قوسين كبيرين على شكل مقتبسات وقد اثبتت بضمير الغائب كل المدوّنات الألمانية وأحاديث هتلر وغيرها من الأحاديث الخاصة على طريقة الحديث غير المباشر. مع أنها قد تميل أحيانا لتصير الى الحديث المباشر فجأة وبالضمير المتكلم دون اللجوء الى تغيير وضع الإشارات والتنقيط، وهذا من شأنه أن يعرض مشكلة عند القاريء الأمريكي الإنگليزي. ولأني أردت الإبقاء على الوثائق كما هي دون التعرض لدقتها وللكلمات بالنص قررت أن الأفضل عدم التصرف بهذه المدوّنات وقلبها من الكلام غير المباشر الى المباشر مع ضمير المتكلم وإخراجها من القوسين. في القضية الأخيرة قد يبدو للقاريء كأني أتصرف في ترتيب العبارات بكل حرية في حين اني بقيت أميناً على النص. وهي في المدونات الألمانية على الأغلب مسألة قلب ضمائر الجملة الفعلية من المضارع الى الماضي. وقلب الضمير المتكلم الى الضمير الغائب. ولن يكون ثم تعقيد أو إشكال عند القاريء اذا حسب لهذا الأمر حسابه.

مستعمرات أفريقية أو آسيوية قصيّة، بل هنا في قلب أوروبا "في التخوم التي تحد الرايخ مباشرة" والمسألة عند ألمانيا هي أين يستطيع تحقيق أعظم الكسب بأقل الكلفة؟ "إن تاريخ كل العصور- الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البريطانية- يثبت أن التوسع لايمكن أن يتم إلاّ بسحق كل مقاومة تعترضه وبالمخاطرة، والنكسات أمور لا مفر منها لم يوجد مجال حيويّ بدون سيد، وفي يومنا هذا لاتوجد مجالات قطّ؛ والمهاجم يصطدم دائماً بمالك.

وبيّن هتلر أن قطرين "مكروهين" يقفان في طريق ألمانيا هما فرنسا وبريطانيا، فكلا القطرين يعارض "في أي تقوية لألمانيا وتثبيت مركزها" وهو لايظن أن الإمبراطورية البريطانية "لاتتزعزع".

والواقع أنه وجد كثيراً من مظاهر الضعف فيها. وهنا بدأ يجسّمها ويشرحها: المتاعب في ايرلندا والهند، المنافسة مع اليابان في الشرق الأقصى، ومع إيطاليا في البحر الأبيض المتوسط. وبيّن أن فرنسا "في وضع أفضل من وضع بريطانيا لكنها ستواجه مصاعب سياسية داخلية" وعلى كل حال "فعلينا أن نعتبر (بريطانيا وفرنسا والإتحاد السوڤياتي) قوى فعالة في حساباتنا السياسية".

وبناءً عليه: لايمكن أن تحلّ مشكلة ألمانيا إلاّ بوسائل القوة، وهذا ما لايمكن إلاّ بالتعرض الى المخاطرة، واذا قبل المرء كأساس للشرح التالي- اللجوء الى القوة بما تتضمنه من مخاطر، لايبقى إلاّ الإجابة على سؤالين "متى؟" و"أين؟" هنا ثلاث قضايا يجب التصدي لها بالشرح:

القضية الأولى: فترة ١٩٤٣-١٩٤٥

بعد هذا التاريخ لايتوقع بالنسبة الينا إلاّ سوء الحال وترديها. إن تسليح الجيش البري والأسطول والقوة الجوية... بلغ التمام أو كاد. التجهيزات والأسلحة كلها حديثة وفي التأخير خطر إبطال إستعمالها. ولاسيما سرية "الأسلحة الخاصة" التي لايمكن الإحتفاظ بها الى الأبد... إن قوتنا بالنسبة للآخرين قد تتناقص فيما يتعلق بالتسلح... والى جانب ذلك فالعالم يتوقع هجومنا وهو يزيد في تدابيره المضادة سنة بعد سنة. وفي الوقت الذي يزيد الآخرون قوى دفاعهم نجد أنفسنا مضطرين الى إتخاذ خطة الهجوم.

لا أحد يدري اليوم كيف سيكون الموقف في سنوات ١٩٤٣-١٩٤٥ والأمر الوحيد المؤكد اننا لانستطيع الإنتظار أكثر من الآن. إن ظل الفوهرر حياً فإن تصميمه الثابت على حلّ مشكلة مجال ألمانيا الحيويّ سيكون على أبعد تقدير في فترة ١٩٤٣-١٩٤٥ إن ضرورة البدء بالعمل قبل هذه الفترة متأتية من القضيتين الثانية والثالثة:

القضية الثانية

إذا تطور التناحر الداخلي في فرنسا الى قيام أزمة داخلية تقوض الجيش الفرنسي تماماً وتجعله عاجزاً عن مواجهة ألمانيا في حربٍ عندئذ يحين وقت العمل ضد الچيكيين.

القضية الثالثة

إن اشتبكت فرنسا في حرب ضروس مع بلاد أخرى بحيث لايعود في وسعها "مناجزة" ألمانيا...

هدفنا الأول... يجب ان يكون القضاء على چيكوسلوڤاكيا والنمسا في آن واحدٍ حتى نبعد أيّ تهديد لجناحنا، في أيّ عملية محتملة ضد الغرب... فأن قضي على الچيكيين، وتحققت حدود هنغاريّة-ألمانية فيمكن الإعتماد على سلوك پولندي حيادي في حالة قيام حرب بين فرنسا وألمانيا.

لكن ما الذي ستفعله كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا والإتحاد السوڤياتي؟ أجاب هتلر على هذا السؤال بإسهاب لامزيد عليه. يعتقد "إن بريطانيا على وجه التأكيد، وفرنسا على أقرب الإحتمال قد نفضتا أيديهما من الچيكيين. إن المصاعب التي تفرضها الإمبراطورية عليها وإحتمال توريط نفسها مرة أخرى في متاعب حرب أوروپية انما هي إعتبارات حاسمة تمنع إنگلترا في المساهمة في حرب ضدّ ألمانيا. وموقف بريطانيا هذا سيكون له تأثيره بالطبع على فرنسا وان هجوماً فرنسياً دون مساندة بريطانيا يرافقه إحتمال صد الهجوم أمام تحصيناتنا الغربية، صعب الإحتمال. ولايتوقع أيضاً زحف فرنسي من هولندا وبلچيكا دون مساندة بريطانيا... من الضروري بطبيعة الحال أن نؤمن دفاعاً قوياً لحدودنا الغربية أثناء تنفيذ عملية غزونا للچيك والنمسا".

ثم راح هتلر يعدد بعض "المنافع المتأتية من ضّم چيكوسلوڤاكيا، والنمسا": حدود ستراتيجية أفضل لألمانيا، تحررّ القوات العسكرية ودفعها "لأغراض أخرى"، ضّم حوالي إثني عشر مليوناً من "الألمان" مصادر قوتٍ إضافية لحوالي خمسة أو ستة ملايين ألماني في الرايخ ورجال لتأليف ما يناهز إثنتى عشرة فرقة عسكرية جديدة.

نسي أن يذكر ما قد تفعله إيطاليا وروسيا وهو الآن يعود اليهما. كان يشك في إحتمال تدخلّ الإتحاد السوڤياتي. وكذلك لن تعارض إيطاليا (نظراً الى موقف اليابان)- في القضاء على چيكوسلوڤاكيا ولكن الشك مازال قائماً حول موقفها من ضّم النمسا. إن ذلك يتوقف "بصورة جوهرية على بقاء الدوتشي في قيد الحياة".

ويسند هتلر (القضية الثالثة) الى أن فرنسا ستتورط في حربٍ مع إيطاليا. وهو صدامٌ يبني عليه آمالاً عراضاً- وأوضح أن هذا هو الذي أملى عليه سياسته في تطويل أمد الحرب الأهلية الإسپانية فقد أبقت إيطاليا مصطرعة مع فرنسا وبريطانيا وقدر أن الحرب فيما بينهما "لاشك تدنو" وقال أنه "عزم فعلاً على الإفادة منها" متى وقعت "في ١٩٣٨" ولم يبق غير مشهدين لها وأعلن ثقته في صمود إيطاليا أمام فرنسا وبريطانيا، بمساعدة ألمانية في شيء قليل من المواد الأولية.

"لو إستفادت ألمانيا من هذه الحرب لتسوية قضيتي چيكوسلوڤاكيا والنمسا فأغلب الظن أن بريطانيا [التي هي في حرب مع إيطاليا] ستقرر ألاّ تخاصم ألمانيا. ولايحتمل قط ان تقوم فرنسا

بعمل شبه حربي ضدّ ألمانيا دون مساعدة بريطانيا.

إن موعد هجومنا على الچيك والنمسا يجب أن يتقرر بقيام الحرب الانگلو فرنسية- الإيطالية... هذا الموقف الموآتي... لن يتاح لنا ثانية... إن الوثوب على الچيك يجب أن يتم "بسرعة البرق الخاطف".

وهكذا انفض الإجتماع في الثامنة والدقيقة الثلاثين. وخيم الليل مسدلاً ستاره الأسود على برلين في يوم الخريف الموافق ٥ تشرين الثاني ١٩٣٧. ألقي بزهر النرد وأبلغ هتلر قراره الذي لايقبل النقض بالنزول الى ميدان حرب وجب عليهم إدارة دفتها. إن الفوهرر قال هذا بنصه، وقصه في (كفاحي)، قال يجب ان يكون لألمانيا مجال حيوي في الشرق ويجب عليها أن تستعد لإستخدام القوة لتفوز به إلاّ انه كان وقتئذ داعية سياسياً مغموراً وأن كتابه كان كما قال عنه الفيلد مارشال فون بلومبرگ فيما بعد "يعتبر عند الجنود" قطعة دعاية تعود سعة إنتشارها الى بيعها بالإكراه" وهذا ما كان رأي الكثيرين فيه.

على أن قادة (الڤيرماخت) ووزير الخارجية زودوا الآن بمواعيد تفصيلية للعدوان الفعلي على قطرين جارين- عمل كانوا واثقين أنه سيجر أوروپا الى حربٍ وعليهم ان يكونوا على تمام الأهبة في سنة ١٩٣٨ القادمة أو على أبعد تقدير في ١٩٤٣-١٩٤٥.

لقد صدمتهم الحقيقة، لا بسبب انذهالهم من لا أخلاقية مقترحات زعميهم [بقدر ما تكشف عنه مدوّنة هوسباخ] بل لأسباب أكثر عملية إن ألمانيا غير مستعدة لحرب عظيمة. وإن إثارتها لها قد تنطوي على كارثةٍ.

وعلى هذه الأسس تجرأ بلومبرگ وفريتش وڤون نيوراث على الكلام وجادلوا في آراء الزعيم. فلم يمض على ذلك ثلاثة أشهر حتى أعفي ثلاثتهم عن مناصبهم وتخلص هتلر من معارضتهم تلك التي لاترقى الى حدّ المعارضة الحقيقية. [ولقد كانت آخر معارضة يجابهها طوال عهد الرايخ الثالث]. انطلق في طريق الفاتح، ليكمل رسالته فيما قدر له. وكان الطريق في مراحله الأولى أسهل مما تخيله هو أو أي شخص آخر.

الفصل الثاني

فصل غريبٌ حاسم!

سقوط بلومبرگ وفريتش ونيوراث وشاخت

-١-

كانت صدمة عنيفة للبارون فون نيوراث الرقيق الطبع المجامل، حين أدرك قرار هتلر بإستخدام القوة المسلحة ضدّ النمسا وچيكوسلوڤاكيا، حتى وان ورطت ألمانيا في حرب مع بريطانيا العظمى وفرنسا. ومع أنه عرف بضعف الخلق فقد قاسى جرّاها عدة نوبات قلبية(١).

ذكر بعدئذ في محاكمة نورمبرگ "لقد اضطربت نفسي إضطراباً شديداً لخطبة هتلر، لأنها نسفت من الأساس كل السياسة الخارجية التي إتبعتها بدأبٍ وحرصٍ"(٢). وبادر وهو في وضعه العقلي رغم نوباته القلبية بالإتصال بالجنرال (ڤون فريتش) والجنرال (بيك) رئيس هيئة الأركان، بعد مرور يومين على إجتماع ٥ تشرين الثاني. وتبادل معهما الرأي فيما يمكن عمله "لحمل هتلر على تبديل آرائه" ويقول (هوسباخ) الذي حمل الى (بيك) تفاصيل خطبة هتلر. أن الأثر الذي احدثته فيه كان "مدمراً حتى كاد يخرجه عن وعيه". وأتفق، أن يقوم (فريتش) بمقابلة هتلر ثانية ويبيّن إعتراضاته. مشيراً الى أنّ الإعتبارات العسكرية تجعل خططه غير ممكنة وسيعقبه (نيوراث) موضحاً للمرة الثانية المخاطر السياسية. أما (بيك) فقد أسرع يدوّن على الكاغد نقداً لاذعاً منطقياً لخطط الزعيم لم يطلع عليها أحد على ما يبدو- وكانت أولى علامات شقٍ فاصل في عقل وخلق هذا الجنرال النبيل الذي رحب بمجيء هتلر في البدء، وبذل حياته في الختام بمحاولة فاشلة في تدميره.

وقابل الجنرال (ڤون فريتش) هتلر في ٩ تشرين الثاني ولم يحفظ تسجيل لحديثهما. ولكن الدلائل تشير الى إن قائد الجيش العام كررّ حججه العسكرية الداحضة لخطط الزعيم، ولم يظفر بطائل. فالزعيم ليس مستعداً لإحتمال معارضةٍ لا من القادة ولا من وزير خارجيته. ورفض مقابلة (نيوراث) وترك برلين الى عشه الجبليّ برختسگادن لقضاء فترة راحة طويلة ولم يفلح نيوراث الذاهب اللبّ في مقابلته حتى أواسط كانون الثاني:

"في تلك المقابلة حاولت أن أبيّن له [من شهادة نيوراث في نورمبرگ] أن سياسته قد تؤدي الى

١- شهادة البارون فون ريتر Von Ritter وهو من اقرباء نيوراث [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج١٦ ص٦٤٠]
٢- المرجع السالف.

حرب عالمية. واني لا اريد أن يكون لي شأن فيها... وجلبت إنتباهه الى مخاطر الحرب وويلاتها. والى تحذيرات الجنرالات الجدية... ولما وجدته مصراً على رأيه رغم كل حججي أبلغته أن في إمكانه البحث عن وزير خارجية يخلفني"(٣).

وكان ذلك طبق ما قرره هتلر وإن خفي عن نيوراث في حينه. فبعد أسبوعين ستحل ذكرى السنة الخامسة لتبوّئه دست الحكم وهو ينوي أن يقرنها بعملية تنظيف منزلية لاتقصر على وزارة الخارجية بل تتعداها الى الجيش هاتان القلعتان المنيعتان اللتان احتكرتهما "رجعية" الطبقة العليا. وهي طبقة لايثق بها من أعماق نفسه. ويشعر أنها لم تقبل به قبولاً تاماً ولاتفهم أهدافه قط بل وتقف عقبة في سبيل طموحه كما ظهر له مساء الخامس من تشرين الثاني بوقوف (بلومبرگ وفريتش ونيوراث) موقف المعارض منه وبالأخص السيدان الأخيران، أو ربما حتى بلومبرگ الطائع الذي يدين هتلر له بالكثير. من الضروري أن يُتبِعهم بـ(شاخت) الفحل الذي لايبارى، فيحيلهم الى التقاعد. ذلك لأن المالي البارع، والتحمس السابق للنازية وسند هتلر القوي كان قد سقط من عين الحظوة.

رأينا (شاخت) يوقف كلّ طاقاته وفنونه السحرية لتمويل تسليح هتلر السريع فاستخدم بوصفه وزيراً للإقتصاد ومفوضاً عاماً مطلق الصلاحية لإقتصاد الحرب، ما لايحصى من الخطط والمشاريع الخيالية والبدع الإقتصادية وبضمنها آلة طبع الأوراق النقدية لتوفير المال اللازم للجيش والأسطول والقوة الجوية الجديدة، ولدفع قوائم المهمات والأسلحة. لكن للأمر حدوده، واذا تعدى شاخت الحد سقطت البلاد في وهدة الإفلاس. واعتقد في ١٩٣٦ أن ألمانيا اقتربت من هذا الحدّ فحذر هتلر وگورنگ وبلومبرگ عبثاً، وإن كان الأخير وقف الى جانبه حيناً من الزمن. وعيّن گورنگ في أيلول ١٩٣٦ مفوضاً أعلى مطلق الصلاحية لتنفيذ مشروع السنوات الأربع الذي يرمي الى الهدف المستحيل، الى جعل ألمانيا مكتفية اكتفاءً ذاتياً في غضون أربع سنوات. وهو هدف كان الدكتور شاخت يدرك إستحالته. وأصبح قائد (اللوفتوافه) بالفعل دكتاتور ألمانيا الإقتصادي. ولشخص معتد بنفسه، طموح(٤) كالدكتور شاخت محتقر جهلَ گورنگ الفاضح في أمور الإقتصاد، كان الوضع مما لايمكن أن يحتمله. وبعد أشهر من نزاع مرير بين هذين الرجلين العنيدين، طلب شاخت من الزعيم أن يضع إدارة السياسات الإقتصادية الباقية في يد خصمه وان يسمح له بالإستقالة من الوزارة. ومما زاد في خيبة أمله السلوك الذي سلكه عدد كبير من قادة الصناعة ورجال الأعمال الذين كانوا على حدّ قوله: "يتقاطرون حتى تكتظ بهم غرفة إنتظار گورنگ آملين الحصول على تعهدات حكومته في وقت كنت أحاول إسماع صوت العقل.

٣- المرجع السالف ص٦٤١.

٤- يقول السفير الفرنسي الذكيّ الذي يعرفه جيداً في كتابه (السنوات الحاسمة ص٢٢١). انه مرّ (بشاخت) زمن كان يحلم أن يخلف هندنبرغ في رآسة الجمهورية بل سما به الخيال الى حدّ توقعه ان يستخلف هتلر "إن ساءت الأمور بالنسبة الى الزعيم".

كانت محاولة شاخت إسماع صوت العقل في جو ألمانيا النازية الصاخب عام ١٩٣٧ أمراً مستحيلاً. وبعد تبادله عدة لكمات أخرى مع گورنگ خلال الصيف وادانته... "سياستك في التجارة الخارجية، سياستك في الانتاج، سياستك المالية كلها أخطاء في أخطاء" ثم أسرع الى (أوبرسالزبرگ) ليضع إستقالته الرسمية في يد هتلر. ورفض الزعيم قبولها بسبب رد الفعل السيء الأكيد الذي سيخلفه خروج شاخت، سواء في داخل ألمانيا أو خارجها. الاّ ان الوزير المخذول أصر على إستقالته وأخيراً وافق هتلر على اعفائه بعد شهرين. وفي ٥ أيلول ترك شاخت دائرة في اجازة وقبلت إستقالته رسمياً في الثامن من كانون الثاني.

وبإلحاح من هتلر بقي شاخت في الحكومة وزيراً بلا وزارة واحتفظ بمنصب محافظ بنك الرايخ. وبذلك بقيت المظاهر وخفف من شدة الصدمة على الرأي العام الألماني والعالمي. ومهما يكن فإن تأثيره على التسلح المجنوني ككابح سيارة (Brake) لم يعد له وجود. وان كان بقاؤه في الحكومة وفي بنك الرايخ يمنح غايات هتلر السمعة والثقة اللتين يوحي بهما إسمه وفي الواقع انه كان بعد قليل سيبارك علناً وبكل حماسة أول عملية قطع طريق عدوانية صارخة يقدم عليها الزعيم، لأنه كان ثقيل النوم بطيء اليقظة على واقع الحياة مثل غيره من قادة الجيش وأضرابهم المحافظين الذين مثّلوا أدواراً أساسية في تسليم ألمانيا الى النازيين.

وتولى (گورنگ) شؤون وزارة الإقتصاد مؤقتاً. لكن في ليلة يوم من أواسط كانون الثاني ١٩٣٨ إلتقى هتلر بمحض الصدفة بـ(والتر فونك) في دار أوپرا برلين وابلغه عرضاً بأنه سيكون خليفة شاخت، لكن لم يتم في حينه تعيين هذا الشخص النكرة والقزم البدين والعبد الطائع. ويذكر القاريء انه مثّل دوراً معيناً في توجيه إهتمام كبار رجال الأعمال نحو هتلر في أوائل العشرينات. وتأخر تعيينه لأن الأنظار توجهت فجأة الى أزمة ذات رأسين تفجرت حممها من قلب الجيش، ودفعتها الى الملأ أمور معينة تتعلق بالجنس (بشكليه الشاذ والإعتيادي) وموطن العجب في الأمر أن يدي هتلر لعبت بهما مباشرة وعاونته على توجيه ضربة الى الطغمة العسكرية الارستقراطية العتيقة لم تصح منها وانما خلقت آثاراً مرعبة تعدت الجيش الذي فقد بسببها آخر مظهر من مظاهر إستقلاله بعد ان ظل حريصاً عليها حرص الغيور أثناء عهدي هوهنزلون والجمهورية، تعدته الى ألمانيا والعالم أجمع.

سقوط الفيلد مارشال فون بلومبرگ

دوّن العميد (يودل) في يومياته بتاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٨ بصيغة من التعجب والانذهال: "أي أثر عظيم يمكن أن تخلف المرأة في تاريخ بلاد ما (وإن لم تدرك هي ذلك) وبالتالي في تاريخ العالم! إن المرء ليشعر كأنه يعيش في ساعة فاصلة في حياة الشعب الألماني"[٥]. والمرأة التي يشير اليها هذا الضابط الركن الشاب اللامع وهي الآنسة (إرنا گروهن Erna Gruhn) ربما وجدت نفسها أبعد

٥- يوميات (يودل) (محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج٢٨ ص٣٥٧).

وآخر إمراة في ألمانيا يمكن أن تبلغ بالشعب الألماني إلى أزمة حادة في ختام عام ١٩٣٧ وتخلف في تاريخهم أثراً عميقاً كما ذكر (العميد ألفريد يودل) وربما لم يكن ذلك ممكناً إلاّ في العالم المريض (السايكوپاثي) الشاذ الذي تدور فيه أضيق حلقات الرايخ الثالث في ذلك الزمن.

كانت الآنسة (گروهن) سكرتيرة بلومبرگ. وفي عام ١٩٣٧ شعر بما يكفي من الحب لها ليبني بها. وكانت زوجته الأولى بنت ضابط متقاعد تزوجها سنة ١٩٠٤، وتوفيت في ١٩٣٢. في تلك الأثناء كان أولاده الخمسة منها قد بلغوا أشدهم (بنته الصغرى تزوجت الإبن البكر للجنرال (كايتل Keitel) مساعده في ١٩٣٧ وقد ضاق ذرعاً بحياة الترمل والوحدة فقرر أن الوقت حان ليتزوج ثانية. وكان يدرك أن زواج أقدم الضباط في الجيش الألماني العامل، بامرأة من عامة الناس لن يقع موقعاً حسناً في نفوس هيئة الضباط المترفعة الارستوقراتية. لذلك لجأ الى (گورنگ) طالباً النصح. فلم يجد گورنگ أي إعتراض يمنع الزواج فهو نفسه، ألم يتزوج بعد وفاة زوجه الأولى بممثلة مطلقة؟ لامحل في الرايخ الثالث للتمايز الإجتماعي والكفاءة الطبقية التي تتمسك بها (هيئة الضباط). ولم يكتف گورنگ بتشجيع بلومبرگ بل أعلن إستعداده لتسهيل الأمور عند هتلر إن استدعى الأمر، وتطوع في مساعدته بأيّ شكل من الأشكال. ثم شاءت المقادير أن يكون عوناً بشكل آخر فقد أسرّ له الفيلد مارشال بأن ثم منافساً له على حبه ولم تكن هذه بمشكلة عند گورنگ، فمزعجات كهذه في قضايا أخرى تتم تسويتها بالنقل الى معسكر إعتقال، وربما أراد گورنگ مماشاة أخلاق الفيلدمارشال العتيقة، فعرض أن يرحِّل المنافس المزعج الى أمريكا الجنوبية وفعل ذلك.

مع ذلك ظل بلومبرگ يشعر بقلق. وفي ١٥ كانون الثاني ١٩٣٧ دوّن يودل ملحوظة غريبة في يومياته: "الجنرال فيلد مارشال (بلومبرگ) في أعلى درجة من التوتر العصبي. ذهب الى محل مجهول في إجازة أمدها ثمانية أيام"(٦). وفي ٢٢ كانون الثاني ظهر بلومبرگ ليلقي خطبة الوداع في جنازة (الجنرال لودندورف) في (فلدهرنهاله) بمونيخ. وكان هتلر بين المشيعين لكنه لم يخطب. كان بطل الحرب الراحل قد قطع كل صلة به منذ أن هرب لايلوي أمام (فلدهرنهاله) بعد وابل رصاص أثناء إنقلاب مشرب البيرة. وبعد ختام التشييع فاتح بلومبرگ هتلر بمشروع زيجته، وطابت نفسه حين باركها هتلر.

وتم القران في ١٢ كانون الثاني ١٩٣٨ وحضره هتلر وگورنگ شاهدي زواج. وما كان العريسان يطيران الى إيطاليا لقضاء شهر العسل حتى وقعت الواقعة وانقضت كالعصف المأكول لاتبقي ولا تذر. قد تتسامح هيئة الضباط الصارمة وتتحمل صدمة زواج فيلدمارشالها بكاتبة إختزاله، الاّ أنها غير مستعدة للرضى بزواجه من امرأة ذات ماضٍ كما انكشف ذلك بكل تفاصيله الشنعاء.

في البدء كانت إشاعات، مجرد نداءات تلفونية من مجهولات الى الجنرالات المتغطرسين ترافقها

٦- المرجع السالف ص ٣٦٥.

ضحكات الغواني، الظاهر أنهن كن يتصلن من مقاهي مشبوهة ونوادٍ ليلية سيئة السمعة فيقمن بتهنئة الجيش على سماحه بانضواء زميلة لهن الى صفوفه! وفيم كان أحد ضباط الشرطة الأخلاقية في دائرة شرطة برلين يحقق في تلك الإشاعات، وقع بمحض الصدفة على اضبارة كتب فوقها اسم "إرنا گروهن". فانتابه فزعٌ شديد وحملها على الفور الى رئيسه الكونت (ڤون هلدورف).

كان فون هلدورف من " المحاربين الأحرار" السابقين الغلاظ وأحد زبانية الـ(إس. أي) أيام عزها. ومع ذلك فقد هاله الأمر لأن الدوسيه تثبت أن عروس الفيلد مارشال والقائد العام للقوات المسلحة " قحبة رسمية مسجلة". كما أنها حكمت بعقوبة لإمتهانها حرفة الوقوف أمام عدسة المصورين بأوضاع منافية للأخلاق وخلاعية. وظهر أن السيدة الشابة "الفيلد مارشالة" كانت قد نشأت في صالون تدليك تديره أمها، وإتفق في برلين أحياناً أن كانت هذه الصالونات مواخير معروفة مختصة بتعاطي البغاء.

من الواضح أن واجب (هلدورف) كان يلزمه برفع هذا الملف الى رئيسه مدير شرطة ألمانيا العام (هملر) ولكن رغم كونه نازياً متحمساً. فقد كان سابقاً عضواً في هيئة الضباط العسكرية وقد تشرب بعض تقاليدها. كان يدري أن هملر غارق في نزاع دامٍ مع قيادة الجيش العامة منذ ما يزيد عن سنة، وأن هذه القيادة صارت تعتبره خطراً عظيماً يفوق خطر (روهم). فإذا وضع الملف بيده فسيقع الفيلد مارشال تحت رحمته ويستخدم الوثائق كوسيلة لابتزازه وجعله آلة له ضدّ قادة الجيش المحافظين. فما كان منه الاّ أن حمل أوراق الشرطة بشجاعة فائقة، الى الجنرال (كايتل) بدلاً من هملر ويظهر أن دوافعه الى هذا العمل هي اقتناعه بأن (كايتل) المدين لبلومبرگ برقيّه الأخير في الجيش وبصلات القربى سوف يتدبر الأمر بحيث تقوم هيئة الضباط نفسها بتسوية القضية وكذلك لتحذير رئيسه من الخطر الذي يتهدده. لكن (كايتل)، الطموح المتعجرف فضلاً عن ضعف عقليته وشخصيته الأخلاقية لم يكن ينوي المخاطرة بمستقبله بدخوله في متاعب مع الحزب والـ(إس. إس) فبدلاً من تسليمها الى قائد الجيش (فريتش) اعادها الى (هلدورف) مقترحاً عرضها على (گورنگ).

لايمكن أن يكون أيّ أحد أكثر سعادة من گورنگ بحيازته هذه الوثيقة فقد كان واضحاً تماماً أن إزاحة الفيلد مارشال الآن باتت أكيدة وكان من المنطقي أيضاً أن يخلفه هو في قيادة (الڤيرماخت) العامة. وهو الهدف الذي أضمره منذ أمد طويل. وقطع بلومبرگ شهر العسل في إيطاليا وعاد الى ألمانيا لحضور جنازة أمّه، وفي العشرين من كانون الثاني ظهر في مكتبه بوزارة الحرب لمزاولة عمله، وليس لديه أية فكرة عما تخبئه الأقدار.

ولم يطل به الأمر. في ٢٥ كانون الثاني وضع (گورنگ) الوثائق الدامغة أمام عيني هتلر الذي كان قد عاد من برختسگادن قبل بضعة أيام، وطارت نفس الزعيم شعاعاً وهاج هائجه. لقد خدعه فيلد مارشاله وألحق به عاراً وجعله مهزأة بتوقيعه كشاهد رسمي على وثيقة الزواج. وسارع (گورنگ) بالموافقة على الإستنتاج وذهب ظهر ذلك اليوم لمقابلة (بلومبرگ) شخصياً ومصارحته

بالأخبار. وبدا الفيلد مارشال مقتنعاً بالدلائل حول ماضي عروسه وأعلن إستعداده لطلاقها حالاً. لكن گورنگ أوضح بأدب أن الطلاق ليس بكافٍ فقيادات الجيش نفسها تطالب بإستقالته. وتكشف يوميات يودل بعدها بيومين أن الجنرال (بيك) رئيس هيئة الأركان أبلغ (كايتل): "المرء لايمكن ان يتسامح بزواج أرفع جنديّ في البلاد بقحبة". وفي ٢٥ كانون الثاني علم (يودل) من (كايتل) أن هتلر عزل فيلد مارشاله. وبعدها بيومين ترك الضابط المعزول ذو الستين عاماً برلين الى كاپري Capri لإستئناف شهر العسل.

ولحق به مرافقه البحري الى هذه الجزيرة النائية جزيرة الرعاة، ليكتب آخر فصل غريب لهذه الدراما الفريدة من نوعها. أرسل الأميرال (رايدر) هذا المرافق المدعو الملازم فون ڤانگنهايم Von Wangenheim ليطلب من بلومبرگ المسارعة بطلاق عروسه حفظاً لشرف الجيش وهيئة الضباط وكان الضابط البحري الشاب شديد التحمس والصلافة فعندما مثل في حضرة العريس الفيلد مارشال تخطى حدود التعليمات المعطاة له، وبدلاً من طلب الطلاق إقترح على رئيسه الأسبق عملاً يقتضيه الشرف العسكري، وحاول أن يدس بيد بلومبرگ مسدساً. والظاهر أن الفيلد مارشال رغم سقوطه كان متعلقاً بالحياة- والواضح أن حبّه لعروسه مازال يعتلج في نفسه بصرف النظر عن كل ما حصل. فأبى أن يأخذ السلاح المقدم له. معقباً على هذا برسالة كتبها لـ(كايتل) تواً وقال فيها انه والضابط البحري الشاب "على طرفي نقيض في وجهات النظر الى الحياة ومقاييسها[٧].

وعلى كل حال. راح (الزعيم) يواعده بمنصب من أرفع الدرجات حالما تمر العاصفة. وبحسب رواية (يودل) في يومياته أن هتلر قال لبلومبرگ ساعة اعفائه من منصبه "ما ان تحين ساعة ألمانيا سيكون محلك الى جانبي وكل ما حدث في الماضي سيضيع في زوايا النسيان[٨]. والواقع أن (بلومبرگ) كتب في مذكراته غير المطبوعة ان هتلر وعده في مقابلتهما الأخيرة "بأشد التأكيد" أنه سيعطى القيادة العليا لجميع القوات المسلحة عند وقوع الحرب[٩].

هذا الوعد لم ينجزه هتلر كغيره من وعود كثيرة جداً. وشطب إسم الفيلد مارشال فون بلومبرگ نهائياً من سجلّ الجيش. وعندما نشبت الحرب وعرض نفسه، لم يلتفت اليه أو يعطي له أي منصب وبعد عودته الى ألمانيا إستقر هو وزوجه في قرية "فيسّي" الباڤارية وعاشا منسيين تماماً حتى نهاية الحرب. وظل ملك إنگلترا السابق المعاصر له وفياً الى الأخير لزوجه التي سببت سقوطه من حالق. وادركته المنية في ١٣ آذار ١٩٤٦ في سجن نورمبرگ أثناء إنتظار دوره للشهادة في المحكمة... رجلاً محطماً عليلاً يثير الشفقة والأسى.

٧- المرجع السالف الص ٣٦٠-٣٦٢.
٨- المرجع السالف ص٣٥٧.
٩- تلفورد تايلر "السيف والصليب المعقوف الص ١٤٩-١٥٠" ان مذكرات بلومبرگ غير المطبوعة محفوظة في مكتبة الكونگرس.

– ٢ –

سقوط الجنرال فرايهر ڤرنر فون فريتش

كان الجنرال- كولونيل فرايهر ڤيرنر فون فريتش القائد العام للقوات البريّة والضابط اللامع العنيد من المدرسة القديمة [وصفه أمير البحر رايدر "بضابط ركن مثالي"] المرشح الأقرب ليخلف بلومبرگ وزيراً للحرب وقائداً عاماً للقوات المسلحة لكن (گورنگ) كان يطمع شخصياً كما رأينا بهذا المنصب الرفيع. وهناك بعض من يعتقد أنه دفع (بلومبرگ) عمداً للزواج بامرأة كان على علم مسبق بماضيها الأسود حتى يمهد الطريق لنفسه بإزاحته. وان كانت الحقيقة كذلك فلاشك أن (بلومبرگ) لم يكن يدري. إذ انه اقترح على هتلر في الزيارة الوداعية (٢٧ كانون الثاني) أن ينصب (گورنگ) خلفاً له كأول المرشحين. على ان هتلر كان أعرف بزميله النازي القديم من اي شخص آخر فقال أن گورنگ كثير الإهتمام بنفسه وشؤونه يفتقر إلى الصبر والدأب. كذلك لم يمل الى تعيين الجنرال فون فريتش الذي لم تعجبه معارضته المشوبة بروح العظمة لخططه في ٥ تشرين الثاني، ولم ينسها له، زد على ذلك فإن عداء (فريتش) للحزب النازي ولاسيما للحرس الأسود لم يكن موضع خفاء. وهي ظاهرة لم تثر إهتمام الزعيم وحده بل تعدّته الى (هاينريخ هملر) قائد الحرس الأسود ومدير الشرطة الألمانية الذي كان قد وطّد العزم على إزاحة هذا الخصم العنيد الذي يقود الجيش البري[١٠].

حانت فرصة هملر الآن، أو بكلمة أخرى فرصة خلق الفرصة فحرك خيوط مكيدة من الدناءة والشناعة حداً يصعب الإعتقاد بأنها ممكنة على الأقل في سنة ١٩٣٨ حتى في دولة العصابات ودنيا الحرس الأسود والحزب القومي الإشتراكي. والجيش؟ حتى الجيش الألماني الذي له تقاليده على كل حال- فقد كان الأمر يفوق إحتماله وبوروده في اعقاب فضيحة بلومبرگ، فجر قنبلة ثانية أعظم أثراً واشدّ دوياً زلزلت أركان "هيئة الضباط" وصرعت أسسها وختمت على مصيرها.

في ٢٥ كانون الثاني وهو اليوم الذي أطلع فيه گورنگ هتلر على سجل سوابق عروس بلومبرگ. وضع أمامه أيضاً وثيقة أخطر منها. هده الوثيقة قد تفرغ الى تدبيجها (هملر) ومساعده الأول (هيدريخ) رئيس شرطة الأمن ورئيس دائرة إستخبارات الحرس الأسود، والقصد منها أن يلصق بالجنرال فون فريتش تهمة إرتكابه جرائم الشذوذ الجنسي مما يدخل تحت طائلة المادة (١٧٥) من قانون العقوبات الألماني وإلصاق تهمة دفع مبالغ من المال لمجرم ذي سوابق منذ سنة ١٩٣٥ درءً للفضيحة

١٠- في ١ آذار ١٩٣٥ وهو يوم أخذ الألمان منطقة السار، وقفتُ الى جانب (فريتش) في منصة التحية في ساربروكن مدة من الزمن قبل بداية الإستعراض ومع أنه لايدري عني الا كوني مراسلاً من عدة مراسلين أمريكان في برلين فقد راح يصب ناراً سائلة وحمماً من النكات اللاذعة والتعليقات الساخرة على الحرس الأسود والحزب وعدد من قادة النازي من هتلر فنازلاً. ولم يكن يكتم إحتقاره لهم جميعاً. انظر "يوميات برلين" ص ٢٧.

وضماناً لسكوته. وبدت وثائق الگشتاپو مقنعة بحيث لم يسع هتلر الا أن يصدق بصحة التهمة لم يفعل بلومبرگ شيئاً لدرء التهمة عن فريتش ربما إطفاءً لنار حقده عليه للموقف الصارم الذي وقفه الجيش ازاءه بسبب زواجه. وعلّق على الأمر بقوله أن فريتش "لم يكن زير نساء" وأضاف يقول ان الجنرال العازب طول حياته لايستبعد أن "يستسلم الى ساعة من الضعف".

واستفظع الأمر العقيد (هوسباخ) مرافق الزعيم واستهوله، وكان حاضراً عندما عرضت اضبارة الگشتاپو وتحدى أوامر هتلر بكتمان الموضوع عن (فريتش)، وأسرع حالاً الى منزل قائد الجيش ليبلغه بنبأ التهمة ويحذره من الهوة التي حفرت له[١١].

صعق النبيل البروسي النزر الكلام برهة ثم انفجر صائحاً "مجموعة أكاذيب نتنة!" وبعد أن عاد اليه هدوءه أكد لرفيقه في السلاح بكلمة شرف أن التهم لا أساس لها البتة. وفي صبيحة اليوم التالي. تقدم (هوسباخ) دون وجل أو خوف من النتائج ليبلغ هتلر بزيارته لـ(فريتش). وليعلمه بإنكار الجنرال القاطع لهذه التهم وطلب من (الزعيم) أن يسمح بمقابلة له وبفرصة لإنكار التهمة بشخصه. ولدهشة (هوسباخ) وجد هتلر موافقاً واستدعي القائد العام للجيش الألماني الى دار المستشارية لمعاناة تجربة لم يهيئه لها تدريبه الطويل كارستوقراطي وضابط وسيد مهذب. وجرى الإجتماع في غرفة مكتبة المستشارية وفي هذه المرة كان كل من هملر وگورنگ موجودين. وبعد أن لخص (الزعيم) التهم أقسم فريتش بكلمة الشرف كضباط عسكري أنها غير صحيحة، لكن تأكيداً مثل هذا لم يعد له قيمة كبيرة في الرايخ الثالث. والآن جاء دور (هملر) الذي كان ينتظر هذه اللحظة طوال ثلاث سنين فقدم مخلوقاً مراوغاً ينم مظهره على التفسخ والفساد كان قد وضعه عند أحد الأبواب الجانبية. بل الأعجب إن لم نقل أحط مخلوقٍ سمح له بدخول مكتب مستشار ألمانيا. واسمه (هانس شميدت Hans Schmidt) له قائمة بسوابق سجن طويلة تبدأ بالحجز في إصلاحية الأحداث من زمن الصبا. وقد ظهر أن اختصاصه الاجرامي الأصلي كان التجسس على المنحرفين جنسياً وتعقيبهم ثم ابتزاز المال منهم. وها هو الآن يقر بأنه يرى الجنرال فون فريتش الضابط العسكري الذي كبسه بجرم جنسي في زقاق مظلم بالقرب من محطة قطار (پوستدام) في برلين مع أحد المتحللين من رجال العالم السفلي يعرف بإسم "جو الباڤاري"[١٢].

واصر (شيمدت) بشدة أمام أقوى ثلاثة رجال في ألمانيا أن هذا الضابط كان يدفع له مالاً لإسكاته عدة سنين ولم يتوقف عن الدفع. إلا عندما طالته يد القانون مرة أخرى وقذفت به داخل أسوار السجن. بلغ الغيظ والحنق بالجنرال (فرايهر فون فريتش) حداً ألجم لسانه وحبس جوابه في حلقه. إن

١١- هذا ما كلف (هوسباخ) وظيفته بعد يومين فقط لا حياته كما يخشى فقد اعيد الى هيئة أركان الجيش وارتفع شأنه أثناء الحرب حتى بلغ رتبة جنرال في صنف المشاة وقاد الجيش الرابع في الجبهة الروسية. ثم نحي فجأة بأمر تلفوني من هتلر في ٢٨ كانون الثاني ١٩٤٥. لسحبه قوات جيشه خلافاً لأوامر الزعيم.

١٢- الإسم اورده گزيفيوس في "الى النهاية المريرة" ص ٢٢٩.

منظر رئيس الدولة الألمانية، خليفة هندبرغ وآل هوهنزلرن وهو يقدم شخصاً مشبوهاً ومجرماً حقيراً في هذا المحل ولهذه الغاية كان أكثر مما يسعه إحتماله. وساعد سكوته على إقناع (الزعيم) بجرمه فطلب منه تقديم إستقالته. فرفض فريتش ذلك وطالب بدوره تقديمه الى محكمة شرف عسكرية. الا أن هتلر لم يكن يشعر بأيّ رغبة في إيداع القضية الى الطبقة العسكرية في تلك اللحظة على الأقل. فهي فرصة قلّ ان يجود الدهر بمثلها ولن يدعها تفلت من يده فرصة يسحق بها معارضة الجنرالات الذين لايحنون هاماتهم الى إرادته وعبقريته. فأمر (الجنرال) في التوّ أن يتمتع باجازة غير محدودة وهو ما يساوي إعفاءه من وظيفته: قيادة الجيش العامة. وفي اليوم التالي تداول هتلر مع (كايتل) حول تعيين خلف لا لبلومبرگ وحده بل لفريتش ايضاً. وراح (يودل) الذي كان مصدر معلوماته الرئيس (كايتل) يطرز يومياته بالخواطر والمذكرات وكلها تشير الى قرب حصول غربلة كبيرة لا في صفوف قيادات الجيش بل في كل تشكيلات القوات المسلحة. مما سيؤدي الى كسر شكيمة العسكريين.

هل سينزل الجنرالات الأقدمون عن سلطاتهم التي وان لم تكن بالمطلقة، فهي آخر سلطة بقيت خارج قبضة هتلر؟ بعد أن عاد (فريتش) من تجربته القاسية في مكتبة المستشارية الى شقته في بندلرشتراسّه Bendlerstrasse سارع يتصل بالجنرال (بيك) رئيس هيئة الأركان. ذكر بعض المؤرخين الإنكليز(١٣) أن (بيك) ألحّ عليه أن يقوم بإنقلاب عسكري ضد حكومة هتلر حالاً، فرفض (فريتش). إلاّ أن (ڤولفگانك فوريستر) كاتب سيرة حياة (بيك) الذي يحتفظ بأوراق الجنرال لايقول أكثر من أن (بيك) قابل هتلر في ذلك اليوم المشهود في مبدأ الأمر، فاطلعه هذا على التهم ثم قابل فريتش فأنكر ما نسب اليه، ثم أسرع في ساعة متأخرة من الليلة ذاتها الى هتلر ليعرض مطلباً واحداً فقط. وهو أن يمنح قائد الجيش فرصة لتبرئة نفسه أمام محكمة شرف عسكرية. وأوضح مؤرخ حياة (بيك) بشكل لايدع مجالاً للبس أن الجنرال لم يكن قد وصل بعد الى تفهم تام لطينة حكام الرايخ الثالث، وهو ما توصل اليه بعد زمن عندما فرط الأمر ولم يعد ممكناً القيام بشيء. وبعد بضعة أيام. عندما فرط الأمر أيضاً ولما لم يبقَ الأمر على إخراج بلومبرگ وفريتش بل تعداه الى إحالة ستة عشر جنرالاً أقدم على التقاعد ونقل أربعة وأربعين الى قيادات أقل أهمية، اذ ذاك طفق (فريتش) وزملاؤه الأقربون ومنهم (بيك) يفكرون في عمل عسكري مضاد تفكيراً جدياً. لكنهم سرعان ما نبذوا الفكرة الخطرة. يقول فوريستر "كان واضحاً لهؤلاء الرجال أن إنقلاباً عسكرياً إنّما يعني حرباً أهلية، ولم يكونوا واثقين من النجاح فيها" وهناك أيضاً تبرز كما برزت دائماً طبيعة الجنرالات الألمان ويرى هذا الكاتب الألماني أنهم خافوا لا من تصدي قوة گورنگ الجوية وقوة (رايدر) البحرية وحدهما (وكلا القائدين أطوع للزعيم من البنان) بل ان يحجم الجيش نفسه بعض الشيء عن مساندة قائد العام المعزول(١٤).

١٣- بوللوك المرجع السالف ص٣٨١ وهويلر بينيت: Nemesis ص٣٦٩.
١٤- ڤولفگانك فوريستر: "المرجع السالف الص ٧٠-٧٣.

على كلٍّ، أتيحت فرصة واحدة أخيرة لقادة ضباط الجيش فكالوا ضربة مقابلة لهتلر بدورهم. إذ قام الجيش بالتعاون مع وزارة العدل بتحقيق إبتدائي، سرعان ما أثبت بالدليل القاطع أن الجنرال فون فريتش كان الضحية البريئة لمكيدة الگشتاپو التي دبرها كل من (هملر وهيدريخ). لقد وجد أن المجرم السابق (شميدت) فاجأ ضابطاً من ضباط الجيش ملتبساً بعمل جنسي شاذ في خبايا محطة قطار پوتسدام. وراح يعتصر المال منه أعواماً. لكن إسمه كان (فريش Frisch) وليس (فريتش Fritsch) وهو ضابط خيّالة متقاعد طريح الفراش من مرضٍ عضال ورد إسمه في قائمة سجل الضباط هكذا "رتمايستر فون فريش Rittmeister Von Frisch) هذا ما كان الگشتاپو واقفاً عليه، لكنه أوقف (شميدت) وهدده بالموت إلاّ اذا رضي بإتهام القائد العام. واعتقلت شرطة الأمن (رتمايستر) العليل ايضاً، حتى تمنعه من الكلام. لكنه انتزع هو وشميدت أخيراً من مخالب الگشتاپو ووضعهما الجيش في مكان أمين حتى يتمكنا من الشهادة أمام محكمة الشرف العسكرية التي ستعقد لـ(فريتش).

وشاع الفرح في قادة الجيش القدماء لا بسبب ثأرهم لقائدهم العام وإعادته الى قيادة الجيش. بل لأن دسائس الحرس الأسود والگشتاپو ومكائد هذين المتحللين خلقياً هملر وهيدريخ اللذين يسيطران على البلاد دون رادع سيقضى عليها وسيذهبان مع الحرس الأسود في الطريق التي سلكهما من قبلهما (روهم) وحرسه الـ(إس. أي) قبل أربع سنوات. ستكون ايضاً ضربة للحزب ولهتلر نفسه. وستتصدع أسس الرايخ الثالث بقوة قد تقضي على الزعيم نفسه وتكون بها نهايته. واذا حاول التستر على الجريمة فسيقوم الجيش نفسه بضمير مرتاح وبعد ظهور الحقيقة جلية بإعادة الأمور الى نصابها. لكن الجنرالات عادوا ليقعوا في أحبولة نائب العريف النمساوي السابق مرة أخرى كما وقعوا مراراً خلال السنوات الخمس المنصرمة فهزموا هزيمة تامةً بحكم القدر الذي يعرف الزعيم كيف يستفيد منه ويستخدمه لأغراضه- وإن جهلوا.

كان توتر يسود برلين طوال الأسبوع الأخير من شهر كانون الثاني ١٩٣٨ يذكر المرء بالتوتر الذي سادها في أواخر حزيران عام ١٩٣٤. وعادت العاصمة تموج بالشائعات. [عزل هتلر رؤوس الجيش الكبار لأسباب مجهولة. الجنرالات يعلنون ثورة. إنهم يدبرون إنقلاباً عسكرياً.] وما الى ذلك وسمع السفير فرانسوا-پونسيه أن (فريتش) قد أعتقل، [وكان الجنرال قد دعاه الى عشاء في الثاني من شباط ثم ألغى الدعوة]. وانطلقت أنباء مفادها أن الجيش قد اختط لتطويق الرايخشتاغ عندما يلتئم لسماع خطبة هتلر بمناسبة الذكرى الخامسة لتوليه السلطة في ٣٠ كانون الثاني، وإلقاء القبض على كل أعضاء الحكومة النازية ونوابها المعينين، وزاد الإهتمام بأمثال هذه الشائعات عندما أعلن أن إجتماع مجلس الرايخشتاغ قد أرجيء الى أجل غير مسمى. لاشك أن الدكتاتور الألماني يعاني صعاباً. لقد لقي ندّاً أخيراً ممثلاً بجنرالات الجيش الألماني الأقدمين غير المتصاغرين. أو هكذا ظنوا هم بأنفسهم الاّ انهم كانوا مخطئين.

في الرابع من شباط ١٩٣٨ اجتمعت الوزارة في جلسة تبيَّن فيما بعد انها الأخيرة. ومهما عانى هتلر من مصاعب فهو الآن قد تغلب عليها بشكل ضمن القضاء على أولئك الذين وقفوا في سبيله لا في الجيش وحده بل في وزارة الخارجية أيضاً. أسرع بإمرار مرسوم من الحكومة في ذلك اليوم وأعلنه للبلاد والعالم على الأثير قبل نصف الليل بقليل واليك مطلعه:

"من الآن فصاعداً سأتسلم شخصياً قيادة كل القوات المسلحة"

كان هتلر بطبيعة الحال القائد الأعلى للقوات المسلحة بحكم منصبه كرئيس للدولة. لكنه الآن تولى وظيفة بلومبرگ أي القيادة العامة. وألغى وزارة الحرب التي كان العريس العاشق الولهان يشغلها ايضاً وإستحدث عوضاً عنها هيئة كتبت لها شهرة في العالم أثناء الحرب العامة الثانية وهي (القيادة العليا للقوات المسلحة Oberkommando der Wehrmacht) عُرفت بـOKW اختصاراً) تخضع لها القوات المحاربة الثلاثة البرية والبحرية والجوية. وهتلر قائدها الأعلى ويليه رئيس هيئة الأركان بالعنوان الفخم "رئيس هيئة القيادة العليا للقوات المسلحة" وهو المنصب الذي أسند إلى الإمّعة (كايتل) وقد ظل حريصاً عليه حتى النهاية.

ولكي يواسي هتلر مشاعر (گورنگ) الجريحة (لأنه كان واثقاً من إستخلافه بلومبرگ) رقاه الى رتبة فيلد مارشال. وبذلك جعله أعلى ضابط في الرايخ ويظهر أن ذلك سَرَّه جداً ولكي يهديء من قلق الجمهور أعلن هتلر ان (بلومبرگ وفريتش) قد إستقالا "لأسباب صحية" وهكذا تخلص من (فريتش) بصورة نهائية حتى قبل إجراء محاكمته أمام محكمة الشرف العسكرية التي كان واثقاً انها ستبريء ساحته. لقد بدا هذا أشبه بالفضيحة لدى القادة الأقدمين ولكن ما باليد حيلة فقد احيل الى التقاعد بالمرسوم نفسه ستة عشر جنرالاً. من بينهم (ڤون روندشدت) والجنرال فون ليب Von Leeb والجنرال (ڤون ڤتزليبن) والجنرال (ڤون كلوگه Von Kluge) والجنرال (ڤون كلايست Von Kleist) وأعفوا من قيادتهم، وهناك أربعة وأربعون جنرالاً آخرون عدوا أقل من متحمسين في إخلاصهم للنازية فنقلوا الى مناصب أخرى غير قيادية.

وبعد أن تردد هتلر قليلاً إختار الجنرال (فالتر فون براوختش Von Brouchitsch) خلفاً لفريتش في قيادة الجيش. وكان ذا سمعة طيبة عند الجنرالات لكن اتضح أنه لايقل عن بلومبرگ ضعفاً وتبصبصاً عندما كان الأمر يتطلب الوقوف بحزم أمام مزاج هتلر الحاد وإندفاعه. وبدا خلال أيام قليلة من الأزمة العامة أن مشكلة جنسية أخرى ستثبت لزوم الإستغناء عن (براوختش) كما جرى لبلومبرگ وفريتش من قبله لأن هذا الضابط كان على وشك ان يطلق زوجته وهو عمل تنكرت له الارستوقراطية العسكرية ودوّن (يودل) المتسقط للأنباء جوانب التعقيد في القضية فكتب في ٣٠ كانون الثاني ما يفيد أن (كايتل) قابل ابن (براوختش) "حتى يرسله الى أمه [ليحملها على القبول بالطلاق]" وبعد بيومين نوه بإجتماع جرى بين (كايتل) و(براوختش) وبين گورنگ "لبحث موقف الأسرة" ووعد

(گورنگ) الذي يبدو أنه نصب نفسه حلاّلاً لمشاكل الجنرالات الجنسية أن ينظر في الأمر وفي اليوم نفسه دوّن (يودل) في يوميته "ابن براوختش يعود برسالة كريمة جداً من أمّه" وفحواها أنها لن تقف في سبيل زوجها. ولم يكن في وسع گورنگ ولا هتلر إلا ان يوافقا على طلاق حصل قائد الجيش عليه فعلاً بعد أشهر قليلة من تسلمه مركزه الجديد ذلك لأن كليهما يعلمان أن السيدة شارلوت شميدت Frau Charlotte Schmidt التي يريد أن يتزوجها براوختش كانت كما قال عنها (أولريخ فون هاسل) "نازية مسعورة مائتين بالمائة!" وتم هذا الزواج في الخريف التالي. وبرهن على مصادفة أخرى لنفوذ المرأة في التاريخ. كما لايستبعد ان دوّن (يودل) ذلك في يومياته[15].

ولم يكن "التنظيف المنزلي" الذي أجراه هتلر في ٤ شباط قاصراً على الجنرالات فقد كنس أيضاً (نيوراث) من وزارة الخارجية ونصب في محله (ريبنتروب) الضحل المتبصبص[16] وأعفى دبلوماسيين قديمين عن منصبيهما وهما (اولريخ فون هاسل) السفير في روما، و(هربرت فون ديريكسن Herbert Von Dirksen) السفير في طوكيو، كذلك عزل (پاپن) من منصبه في ڤيينا. وعين الضعيف المذبذب (فونك) وزيراً للإقتصاد في محل (شاخت).

وفي اليوم التالي (٥ شباط) ظهر عنوان ضخم يجلب الإنتباه، في صدر صحيفة (ڤولكشر بيوباختر) هذا هو:

"أقوى تركيز لكل السلطات في يد الزعيم!"

وهذه هي المرة الوحيدة في حياة تلك الصحيفة لم تنطق فيها عن الهوى ولم تبالغ.

كان الرابع من شباط ١٩٣٨ نقطة تحول كبيرة في تاريخ الرايخ الثالث، ومرحلة من مراحل الطريق الى الحرب. في ذلك اليوم يمكن القول ان الثورة النازية بلغت خاتمتها. لقد تمّ كنس آخر وجبة من المحافظين الذين وقفوا في وجهه أثناء ما هو منطلق في سبيل كان قد عقد عزمه عليه ما ان تبلغ ألمانيا الكفاية من التسلح. كان (بلومبرگ وفريتش ونيوراث) ممن عينهم هندنبرغ ومحافظو المدرسة القديمة في مناصبهم حتى يقفوا سداً أمام إندفاعات النازي ثم ألحق بهم (شاخت). على انهم لم يثبوا

١٥- يرى ملتن شولمان (الانحدار في الغرب) ص١٠، ان هتلر نفسه تدخل لإقناع السيدة براوختش باعطاء موافقتها على الطلاق وساعد في تأمين تسوية مالية لها جعل قائد الجيش مديناً له بفضل ومنة. ويسند شولمان مصدر معلوماته الى تقرير لدائرة إستخبارات الجيش الكندي.

١٦- استحدث هتلر بإقتراح من گورنگ، ولأجل تحويل الإهتمام وصرف الأنظار عن الأزمة العسكرية القائمة، وحفظاً لماء وجه (نيوراث) وإبقاءً لمكانته في الداخل والخارج- ما دعي (بمجلس الوزراء السري) الذي مرّ الحديث عنه. وذكر مرسوم إنشائه المؤرخ ٤ شباط أن الغرض منه تقديم المشورة في السياسة الخارجية، وعيّن (نيوراث) رئيساً له. ومن أعضائه (كايتل) والقادة الثلاثة للقوات المسلحة. وأهم الوزراء في مجلس الوزراء الإعتيادي وعدد من كبار زعماء الحزب النازي. وقد طبلت له أجهزة دعاية گوبلز وزمرت كثيراً وأصعدته الى السماكين وجعلته يبدو وكأنه مجلس وزراء أعلى، وان نيوراث قد رقّي فعلاً. وشهد گورنگ في نورمبرگ محلفاً "في الواقع لم يكن لمثل هذا المجلس وجود قط، إلاّ ان المصطلح جميل جذاب جداً حتى ليتوهم المرء أن شيئاً حقيقياً يكمن تحته... اني اقر وقد حلفت يميناً- لم يكن لمجلس الوزراء السري وجود قط ولو لدقيقة واحدة". [محاكمة مجرمي الحرب الكبار: ج٩ ص٢٩٠].

أنداداً لهتلر في الكفاح للهيمنة على السياسة الخارجية والإقتصادية والسلطة العسكرية في ألمانيا. لم يكن يملكون لقراعه لا القوى الخلقية ولا ذلك المكر السياسي لقراعه، دعك من الغلبة عليه. إستقال (شاخت) ونحي (نيوراث) جانباً وطلب بلومبرگ بضغط من إخوانه الجنرالات إحالته الى التقاعد. وفريتش؟ مع انه وقع ضحية مكيدة دبرتها له زمرة من الأنذال، فقد رضي بما قسم له دون أن يظهر منه تحدٍّ. وقبل ستة عشر جنرالاً أقدم أوامر طردهم بخنوع مع أمر طرده. كان ثم حديث في هيئة الضباط عن إنقلاب عسكري لكنه مجرد كلام فحسب. إن احتقار هتلر لطبقة العسكريين البروسيين، الذي ظلّ يلازمه الى آخر نسمة من حياته، بررته له الأيام واثبتت مسوغاته. لقد برهن على هذا الاحتقار بقتله فون شلايخر وڤون بريدوف الذي تمّ علناً ورسمياً دون أن تند تلك الطبعة نأمة أو مشرجة إحتجاج، وهي الآن تزدرد بقلة اكتراث طرد ستة عشر جنرالاً أقدم من أعضائها. ألا تعج برلين بالجنرالات الصغار المتلهفين ليحلوا محلهم، المتشوقين الى خدمته؟ إين هو اذن التبجح بكتلة ضباط الجيش المتراصة؟ أوَلَم تكن حديث خرافة؟

ظل الجيش خمس سنوات حتى يوم الشتاء هذا الرابع من شباط ١٩٣٨، يجمع في يده القوة الطبيعية لإسقاط هتلر والرايخ الثالث وكانت بيده ايضاً في ٥ تشرين الثاني لما علم الى أين يقوده ويقود الوطن معه، فلماذا لم يفعل؟ زوّدنا (فريتش) نفسه بالجواب بعيد سقوطه. ففي نهار الأحد الموافق ١٨ كانون الثاني ١٩٣٨ دعا السفير المعزول (ڤون هاسل) الى القصر الذي وضعه الجيش تحت تصرفه بعد تقاعده في (آختربرگ Achterberg) بالقرب من (سولتا Soltau). ودوّن (هاسل) في يومياته "خلاصة وجهات نظره. هذا الرجل (هتلر) هو مصير ألمانيا شراً كان أو خيراً. فإن إنحدر الآن الى الهاوية- وهو ما يؤمن به فريتش- فيسجرنا معه اليها جميعاً. وما باليد حيلة تنفع"[١٧] بعد تركيز السياستين الإقتصادية والعسكرية في يده ووضع الجيش والقوات المسلحة تحت قيادته المباشرة إنطلق الآن في مسيرته لايلوي. لقد تخلص من فريتش دون إتاحة فرصة استنقاذ إسمه وتبرئة نفسه وبعد تأخير وتردد منحه الفرصة المنشودة بتشكيل محكمة شرف عسكرية للنظر في القضية. وجلس الفيلد مارشال (گورنگ) في مقعد الرآسة والى جانبه القائدان العامان للجيش والأسطول الجنرال فون (براوختش) وأمير البحر (رايدر) وقاضيان مدنيان من محكمة الحرب العليا.

وكانت المحاكمة سرية ومنع الناس ومراسلو الصحف من حضورها. وقد بدأت في ١٠ آذار ١٩٣٨ ثم أجلت على حين غرّة قبل أن ينتهي دوام اليوم. ففي ساعة متأخرة من ليلة أمس وردت أنباء من النمسا اسلمت (الزعيم) الى واحدة من أعظم نوبات هياجه[١٨]. واستدعي الفيلد مارشال (گورنگ) والجنرال فون براوختش على الفور للحاجة الماسة اليهما في محل آخر.

١٧- يوميات فون هاسل، ١٩٣٨-١٩٤٤ ص٢٣

١٨- عندما وصل پاپن الى المستشارية في برلين. بعد ست وثلاثين ساعة من هذا الوقت وجد هتلر مازال في "حالة قريبة من الهستريا" (پاپن: اليوميات ص ٤٢٨).

الفصل الثالث
الأنشلوس ANSCHLUSS (الوحدة)
إغتصاب النمسا
-١-

في أواخر عام ١٩٣٧ نُقل محل عملي الى برلين بسبب تغيير في وظيفتي، من مراسل صحيفة الى مراسل إذاعة. ولقد عرفت ڤيينا منذ كنت مراسلاً فنياً قبل عشر سنوات. ومع أني كنت سأمضي معظم السنوات الحرجة الثلاث التالية في ألمانيا فإن وظيفتي الجديدة التي اقتضتني تغطية كل القارة الأوروپية وزودتني بمعرفة عن الرايخ الثالث ووضعتني في تلك البلاد المتاخمة التي ستقع ضحية العدوان الهتلري، قبيل بدء ذلك العدوان أو في أثنائه. وكنت في تلك الأيام أتجول ذاهباً آيباً بين ألمانيا وتلك البلاد التي باتت هدفاً لسخط هتلر وثورته وبهذا جمعت تجاربَ ومعلوماتٍ أولية عن الأحداث التي سأصفها الآن، تلك الأحداث التي أدت بلا رحمة الى أعظم حرب دموية عاناها بنو البشر ومع أننا كنا واقعين على أوليات تلك الأحداث، الاّ ان ما يورثنا أعظم الدهشة والعجب تفاهة ما عرفناه عن كيفية وقوعها. إن الدسائس والمناورات وصنوف الغدر والقرارات الباتة ولحظات الحيرة وعدم الوصول الى قرار والمقابلات الروائية للمشاركين فيها صورت مجرى الأحداث ووقوعها في السر وراء الستار بعيداً عن عيون الدبلوماسيين والمراسلين والجواسيس الأجانب الدائمة التلصص والاستطلاع. كل ذلك بقي سنين بطولها غير معروف من أحدٍ خلا القلة التي ساهمت فيها.

كان ينبغي لنا أن ننتظر ركام الوثائق السرية وشهادات أبطال الرواية الباقين في قيد الحياة- ومعظمهم كانوا سجناء- وعدد كبير منهم كانوا نزلاء معسكرات الإعتقال النازية ليقصوا علينا قصتهم. اذن فما سيتلو من هذه الصفحات سيكون مستنداً غالباً على أكداس من الدلائل الثابتة التي تراكمت منذ العام ١٩٤٥ ولكن ربما كان الأفضل لراوية هذا التاريخ أن يكون موجوداً بشخصه وفي وسط أزماته العظمى ونقاط تحولاته، وهكذا وضعتني الصدفة في ڤيينا في ليلة ١٢/١١ من آذار ١٩٣٨ التي لاننسى، ليلة أزيلت بلاد النمسا من الوجود.

بقيت مدينة ڤيينا أكثر من شهر نهبة قلق محض- تلك العاصمة الجميلة على الدانوب بأهاليها الأكثر جاذبية ولطفاً وعبقرية في التمتع بالحياة من أيّ مجتمع بشريّ عرفته. وكان الدكتور (كرت فون شوشنك) المستشار النمساوي سيذكر فيما بعد الفترة المنحصرة ما بين ١٢ شباط و١١ آذار مطلقاً عليها "أربعة أسابيع آلام الإحتضار" ومنذ أن أبرمت المعاهدة الألمانية- النمساوية في ١١ تموز

١٩٣٦ بإمتيازات سخية جداً للنازين النمساويين[١] في ملحق سري للمعاهدة وفرانز فون پاپن سفير هتلر فوق العادة في ڤيينا، يواصل مجهوداته للقضاء على إستقلال النمسا وتحقيق الوحدة مع ألمانيا. وقد شرح مقدار تقدمه في هذا المجال، بتقرير طويل للزعيم في ختام ١٩٣٦، وكرر العمل عينه في السنة التالية وشدد القول هذه المرة "بدون ممارسة ضغط على المستشار الإتحادي [شوشنك] بأقوى ما يمكن لايمكن تحقيق تقدم آخر"[٢]. ومع أن نصيحته لم تكن ضرورية، الا أنها أخذت مأخذاً حرفياً بشكل فاق كل تصوراته.

كانت برلين تشجع النازين النمساويين وتزودهم بالمال طوال ١٩٣٧، وتجعلهم يتمادون في حملة إرهابهم. فكانت القنابل والمتفجرات تلقى في موضع ما من القطر كل يوم تقريباً. وفي الأقاليم الجبلية كثيراً ما كانت المظاهرات الجماهيرية العنيفة التي ينظمها النازيون تضعف موقف الحكومة وتقلل من هيبتها. وكشف عن مخططات دلت على أن النازين يتهيأون لإغتيال (شوشنك) كما فعلوا بسلفه. أخيراً قام رجال شرطة ڤيينا في ٢٥ كانون الثاني ١٩٣٨ بغارة على مقر عصبة تطلق على نفسها "لجنة السبعة" تألفت لغرض تحقيق السلام بين النازين والحكومة في الظاهر، إلاّ انها كانت في الحقيقة الدائرة المركزية للحزب النازي السري غير المجاز ووجدت السلطات في كبسها هذا الوكر وثائق موقعة بتواقيع (رودولف هس) نائب الزعيم وأيّدت ان النازين النمساويين في سبيل إشعال ثورة في ربيع ١٩٣٨، وعند محاولة (شوشنك) قمعها، يبادر الجيش الألماني بدخول النمسا لمنع "سفك الألمان دم الألمان" ويذكر پاپن أن بعض تلك الوثائق خططت لقتله أو قتل اللفتننت جنرال (موف Muff) ملحقه العسكري على يد النازين المحليين لإتخاذه حجة للتدخل الألماني[٣]. وإذا بات پاپن المتسامح أقل إرتياحاً من العادة بعد علمه أن النازين قرروا إغتياله مرة أخرى بناءً على أوامر قادة الحزب في برلين فكذلك كان مغتماً بسبب نداء تلفوني جاءه الى دار السفارة الألمانية في ڤيينا مساء يوم ٤ شباط وكان المتكلم وكيل وزارة الخارجية (هانز لامرز Hans Lammers) من دار المستشارية ليعلمه أن بعثته الخاصة في النمسا قد انتهت. وانه مقال من منصبه مع نيوراث وفريتش والآخرين.

ذكر پاپن فيما بعد "عقلت الدهشة لساني"[٤] ثم صفا ذهنه بالقدر الذي جعله يدرك أن هتلر قرر على ما يبدو- القيام بعمل أعنف وأشد في النمسا بعد ان تخلّص من (نيوراث وفريتش وبلومبرگ) في الواقع كان ذهن پاپن قد صفا الى حدٍ قرر معه القيام "بشيء غير مسبوق من دبلوماسيّ" كما عبر عنه بأسلوبه. عزم أن يحفظ نسخاً طبق الأصل من كلّ مراسلاته مع هتلر في "محل أمين" ولم يكن غير سويسرا كما ظهر فيما بعد. يقول پاپن "إن حملات القذف والتشهير التي يضطلع بها الرايخ

١- تقرير الى هتلر ٢١ كانون الثاني ١٩٣٧ [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج١ ص٨٦].
٢- انظر ما سبق.
٣- پاپن المرجع السالف ص٤٠٩.
٤- پاپن المرجع السالف ص ٤٠٦.

الثالث، أعرفها معرفة تامة" ولقد رأينا كيف أنها كادت تكلفه حياته في ١٩٣٤.

وعزلُ پاپن هو تحذير لشوشنك الذي لم يكن يثق ثقة تامة بضابط الخيالة السابق المخاتل، الاّ انه كان سريع الإدراك بأن هتلر لابد يبيّت أمراً أسوأ من ابتلائه بسفيره المخادع، الذي هو على الأقل كاثوليكي تقيّ مثله وسيد مهذب. لم يكن مجرى الدبلوماسية الأوروپية في صالح النمسا خلال الأشهر القلائل الماضية. فموسوليني اقترب كثيراً من هتلر منذ إقامة محور (روما-برلين) ولم يعد كثير الإهتمام بالمحافظة على إستقلال هذا القطر الصغير كما كان وقت مقتل دولفوس، حيث بادر الى تحشيد أربع فرق في ممر (برينر) لتخويف الزعيم. كذلك الأمر مع بريطانيا التي باشرت عند مجيء (چمبرلين) في سياسة مصانعة لهتلر. كذلك لم تظهر فرنسا مؤخراً شدة إهتمام بالدفاع عن النمسا، إن ضرب هتلر ضربته وهي مشغولة في تناحر سياسي خطير داخلي. والآن بعد ذهاب پاپن وزعماء الجيش ووزارة الخارجية الألمان المحافظين، من بقي في الميدان من هو قادر على كبح جماح طموح هتلر المتفاقم؟ إن (شوشنك) الذي كان ضيق التفكير ولكنه ذكي ضمن حدوده وعلى معرفة موثوقة بما يضمر لبلاده، لم يداخله شك كثير من موقفه السيء. لقد حان الوقت كما حان من قبل بعد أن صرع النازيون دولفوس- ليتقدم بتنازل آخر للدكتاتور الألماني.

ومع أن پاپن قد أعفي من الوظيفة فإنه قدم إقتراحاً فيه فرصة. ولما لم يكن من صنف الرجال الذين يحقدون على لطمة تأتيهم من المافوق فقد أسرع الى هتلر في ذات اليوم الذي تم عزله "ليكوّن له صورة عما يحدث"، وفي ٥ شباط وجد الزعيم في برختسگادن "مرهقاً ساهماً" من فرط كفاحه مع الجنرالات. لكن مقدرة هتلر على لَمّ شتات نفسه كانت عظيمة. إذ ما لبث أن وجد نفسه مهتماً بإقتراح عرضه عليه سفيره المعزول، وكان قد فاتحه به قبل أسبوعين عندما تقابلا في برلين: لم لاتبحث الأمور صراحة مع (شوشنك) بالذات؟ لم لايدعى الى زيارة برختسگادن لمحادثة شخصية؟ وجد هتلر الفكرة جيدة. فأمر پاپن- ناسياً قصة إقصائه من منصبه بالعودة حالاً الى ڤيينا وتدبير الإجتماع.

بادر (شوشنك) الى الموافقة في الحال لكنه وضع شروطاً معينة- إدراكاً منه لضعف مركزه، وهي يجب أن يبلغ مسبقاً بالنقاط التي سيدور البحث حولها وما يريده هتلر. ويجب أن يعطى تأكيداً مسبقاً بأن إتفاقية ١١ تموز ١٩٣٦ التي وعدت بها ألمانيا بإحترام إستقلال النمسا لن يطرأ عليها إلغاء أو تعديل. واشترط أيضاً أن البيان المشترك الذي سيصدر بعد ختام الإجتماع يجب أن يؤكد أن البلدين سيظلان متمسكين بنصوص معاهدة ١٩٣٦ لقد أراد (شوشنك) الاّ يغامر بشدّ لحية الأسد في عرينه. فأسرع پاپن الى (أوبرسالزبرگ) للتباحث مع هتلر وعاد بتأكيد من (الزعيم) على بقاء معاهدة ١٩٣٦ دون تبديل وأنه أراد أن يبحث في "مواضع سوء التفاهم ونقاط الإحتكاك، التي ظلّت باقية" منذ التوقيع على المعاهدة، ولا أكثر. ولم يكن هذا ما طلبه المستشار النمساوي بالضبط الاّ أنه

أعلن رضاه بالجواب. وعين للإجتماع صباح اليوم الثاني عشر من شباط[٥]. وفي مساء الحادي عشر منه إنطلق شوشنك برفقه وزير الخارجية (گويدو شميدت Guido Schmidt) بقطار خاص وبسرية تامة، الى سالزبرگ ومن هناك عبر الحدود بالسيارة الى مقر هتلر الجبلي صباح اليوم التالي. كانت رحلة ذات نتائج وخيمة.

– ٢ –

الإجتماع في برختسگادن:
١٢ شباط ١٩٣٨

كان پاپن منتظراً على الحدود لتحية زائريه النمساويين وبدا لشوشنك في هواء الشتاء الصباحي المنجمد "في أطيب مزاج" وأكد لضيوفه أن هتلر في أصفى حالة نفسية هذا اليوم. ثم جاء النذير الأول إذ قال پاپن أن (الزعيم) يأمل ألا يضايق شوشنك حضور ثلاثة جنرالات بمحض الصدفة، وهم كايتل رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة (ورايخناو Reichenau) الذي يقود الجيش على الحدود الباڤارية-النمساوية (وشپيرل Sperrle) قائد القوة الجوية في المنطقة.

وتذكر پاپن فيما بعد أن هذا النبأ "لم يكن يبدو متمشياً مع ذوق الضيوف"، ويقول (شوشنك) إنه لن يتضايق من ذلك مادام "لا حيلة له في الموضوع". مثقف ذو نشأة يسوعية، لاأبا لك! لابد وانه شعر بما وراء الأكمة فبدأ يلتزم جانب اليقظة والحذر.

ومع كل حذره، لم يكن مستعداً لما يوشك ان يحصل. خرج هتلر وهو مرتد قميصاً رمادياً لفرق العاصفة وسروالاً أسود يحف به الجنرالات الثلاثة ليستقبل المستشار النمساوي ومرافقه على درجات الڤيلا. وشعر (شوشنك) إنها تحية ودودة لكنها رسمية. وبعد دقائق قليلة وجد نفسه وحيداً مع الدكتاتور الألماني في حجرة واسعة في الطابق الثاني. تطل نوافذها الكبيرة على جبال الألب المشمخرة المتوجة بالثلج وعلى بلاد النمسا مسقط رأس الرجلين الجالسين.

كان (كرت فون شوشنك) البالغ من العمر إحدى وأربعين سنة، مثالاً كاملاً لأخلاق دنيا النمسا

٥- وافق الذكرى الرابعة لذبح الديمقراطيين الإشتراكين النمساويين على يد حكومة دولفوس الذي كان شوشنك عضواً في حزبه. ففي ١٢ شباط ١٩٣٤ وجهت وحدات الجيش بمساندة الحرس الأهلي الفاشي البالغين (١٧) ألفاً نار مدافعها على حيّ العمال في ڤيينا وقتلت منهم (ألفاً) مع النساء والأطفال وجرحت أربعة آلاف أو ثلاثة. وصودرت الحريات الديمقراطية السياسية، ومن ذلك الحين حكم البلاد دولفوس ثم شوشنك بدكتاتورية دينية فاشية. كان بلاشك نوعاً أخف من النازية. كما يمكن أن يشهد أولئك الذين عاشوا بين برلين وڤيينا في ذلك الوقت من أمثالي. لقد جردت النمساويين من حقوقهم السياسية واخضعتهم الى إرهاب اشد مما عانوه أيام هابسبرگ في آخر السنوات الأخيرة من الملكية. وقد بحث المؤلف هذا بكثير من التفصيل في (رحلة في أواسط القرن).

القديمة، ويتفق على هذا الوصف كل من عرفه. ولذلك ليس من الغريب عنه أن يبدأ الحديث بكلام رقيق لطيف عن المنظر الأخاذ وعن جمال طقس اليوم وعبارات مديح وإطراء عن هذه الحجرة التي شاهدت بلا ريب كثيراً من المؤتمرات الخطيرة. فقاطعه أدولف هتلر بقوله: "نحن لم نجتمع هنا للتحدث عن المنظر الجميل أو عن المناخ". ثم انفجرت العاصفة وكما شهد المستشار النمساوي فيما بعد كانت الساعتان التاليتان من المناقشة معظمها من جانب واحدٍ"(٦).

"[بدأ هتلر يصيح] لقد عملتم كل شيء لتفادي سياسة ودٍ وصداقة... إن تاريخ النمسا عمل خياني عظيم، غير منقطع، كان الأمر كذلك في الماضي وهو اشد وأنكى اليوم ويمكنني القول لك الآن يا هر شوشنك، إني عازم عزماً أكيداً على وضع حدّ نهائيّ لهذا. إن الرايخ الألمانيّ هو واحد من القوى العظمى في العالم. ولن يرفع أحد صوته إن قام بتسوية مشاكل حدوده."

اذهل انفجار هتلر المستشار النمساويَّ الهادىء الطبع فحاول أن يبقى متلطفاً. دون ان يتزحزح عن مكانه فقال أنه يعتنق وجهة نظر تخالف وجهة نظر ضيفه في مسألة دور النمسا في التاريخ الألماني وإرتأى ان "مساهمة النمسا في هذا المجال كبيرة".

"[هتلر] لا شيء بالمرة. وأقول لك صفرٌ. كل فكرة قومية حاربتها النمسا على مجرى التاريخ. والواقع إن هذه المقاطعة للحركة القومية كانت محور نشاط آل هابسبرگ والكنيسة الكاثوليكية(٧)."

[شوشنك]: ومع هذا ايها السيد مستشار الرايخ، فلا يمكن أن يفصل عدد كبير من المآثر النمساوية من إطار الصورة العامة للثقافة الألمانية خذ على سبيل المثال رجلاً كبيتهوڤن.

[هتلر]: آه- بيتهوڤن؟ إسمح لي أن اخبرك بأن بيتهوڤن انحدر من إقليم الراين الأسفل.

[شوشنك]: مع ذلك فإن النمسا كانت بلده المفضل، كما هي لكثير غيره...

[هتلر]: مهما يكن من أمر... إني أعلمك مرة أخرى إن الأمور لايمكن أن تستمر على هذا المنوال، إني اضطلع برسالة تاريخية، وسوف أكمل هذه الرسالة لأن العناية الإلهية قدرت عليّ أن أقوم بها... ومن لم يكن معي سيسحق سحقاً... لقد إخترتُ أصعب مسلك اختاره ألماني. وحققتُ أعظم مأثرة في تاريخ ألمانيا أعظم من أيّ ألماني آخر. حققتها لا بالقوة- وانتبه الى هذا- وانما يدفعني الى أمام الحب الذي يكنّ لي شعبي...

٦- كتبت الدكتور شوشنك فيما بعد من الذاكرة، ما اطلق عليه "مسالك ذات مدلول" للمناقشة ذات الجانب الواحد. ومع هذا -رغم عدم حرفيتها- فإن المرء يتحسس فيها لهجة الصدق، وبخاصة لكل من سمع هتلر وتدارس ما لايُعد من خطبه وكلماته. وقد اثبتت صحة محتوياتها الأحداث التي عقبتها كما أكّدها أولئك الذين كانوا موجودين في (برگهوف) يومذاك وبخاصة پاپن ويودل وكويد وشميدت. وقد تعقبت أقوال شوشنك في كتابه "صلاة جناز النمسا" وشهادته في نورمبرگ بخصوص الإجتماع "صلاة جناز... الص ١٢-١٩" ومؤامرة النازين وعدوانهم ج٥ الص٩٠٧-٧٢٢ [الوثائق PS ٢٩٩٥].

٧- من الواضح أن زعم هتلر الملتوي في التاريخ النمساوي الألماني قد بقي كما هو (مثلما شرحنا ذلك في الفصول الأولى من الكتاب) منذ أيام شبابه في لينز وكما لقنه وفسره لنفسه.

[شوشنك] إني يا سيدي مستشار الرايخ لعلى أتمّ الرغبة في الإيمان بما تقول...

وبعد ساعة من هذا الحديث طلب (شوشنك) من غريمه أن يعدد شكاواه وقال: "سنعمل كل شيء لإزالة العقبات والوصول إلى تفاهم أفضل قدر الإمكان".

[هتلر]: ذلك ما تقوله يا هر (شوشنك) لكني أقول: إني سأحل ما يدعى بالمشكلة النمساوية كيفما كان.

ثم أمطر النمسا بوابل من النقد والتأنيب لتحصينها حدودها المتاخمة لألمانيا. وهي شكوى أنكرها (شوشنك).

(هتلر): إصغ الي، أيخيل اليك إنك تستطيع نقل صخرة واحدةٍ في النمسا دون أن يبلغني ذلك عنها في اليوم الثاني؟ ... حسبي أن أصدر أمراً. وفي ليلة واحدة لا غير تغدو كلّ وسائلكم الدفاعية المضحكة أثراً بعد عين. أتعتقدون جدياً، أنكم قادرون على إيقافي نصف ساعة؟... إني لأود من صميم قلبي تجنيب النمسا هذا المصير لأن عملاً كهذا يعني سفك الدماء. وبعد هذا سيزحف الجيش والـ(إس. أي) والفرقة النمساوية ولن يستطيع أحد أن يحول بينهم وبين إنتقامهم العادل حتى ولا أنا.

بعد هذا الوعيد ذكّر هتلر (شوشنك) بالعزلة التي تعيشها النمسا وما يعني ذلك من وضع يائس. [وكان دائماً يوجه اليه حديثه مستخدماً إسمه المجرد لا عنوان منصبه كما تقضي به اللياقة والأدب الدبلوماسي]

[هتلر]: لاتظن للحظة واحدةٍ إن أحداً ما على وجه البسيطة، سيصدني عن عزمي. إيطاليا؟ أنا وموسوليني نرى بعين واحدة... إنكلترا؟ إنكلترا لن ترفع اصبعاً واحداً في سبيل النمسا... وفرنسا؟

قال أن فرنسا كانت فيما سلف قادرة على وقف ألمانيا في الراين "وكان علينا عندئذ أن نتراجع، لكن الوقت فات على فرنسا الآن". وأخيراً:

[هتلر]: أعرض عليك يا هر (شوشنك) للمرة الأخرى والأخيرة فرصة التوصل الى إتفاق معي. إما أن نجد حلاً الآن أو ستأخذ الأحداث مجراها... ألا فكر ملياً يا هر (شوشنك) فكر ملياً وأنعم النظر فلايمكنني الإنتظار أكثر من بعد ظهر اليوم...

ما هي شروط المستشار ألماني بالضبط؟ كان هذا سؤال شوشنك فأجابه هتلر "يمكن بحث ذلك بعد ظهر اليوم".

وبدا هتلر لدهشة شوشنك – عند الغداء في "حالة نفسية ممتازة وقصر حواره على الخيل والمنازل. قال انه سيبني أعظم ناطحات سحاب في العالم، وذكّر شوشنك "سيرى الأمريكان أن ألمانيا تبني

صروحاً أضخم وأفضل من بنايات الولايات المتحدة". أما عن المستشار النمساوي المحزون فقد لحظ پاپن أنه بدا "قلقاً مشغول البال". كان مدخناً لاتغادر السيكارة فمه ولم يسمح له بالتدخين في حضرة (الزعيم) لكن هتلر إستاذن بعد القهوة في الغرفة المجاورة وانسحب، فأتيح لشوشنك أول مجال لتدخين سيكارة. وتمكن أيضاً من إبلاغ وكيل خارجيته بأنباء السوء... التي لن تلبث أن تزداد سوءً.

بعد أن إنتظار النمساويين ساعتين في غرفة استراحة صغيرة طلب منهما أن يقابلا ريبنتروب وزير خارجية ألمانيا الجديد وپاپن، وقدم لهما الأول مشروع إتفاقية بصحيفتين مطبوع بالآلة الكاتبة وأبلغهما إنها مطالب هتلر النهائية وانه لن يسمح بمناقشتها. وعليهما أن يوقعاها فوراً. يقول (شوشنك) إنه شعر بالراحة أخيراً لنيله من هتلر شيئاً ملموساً. ولكن إرتياحه تبخر عندما أتى على الوثيقة قراءةً. فها هنا إنذار ألماني موجّه اليه يتضمن طلب تسليم الحكم في النمسا الى النازيين خلال أسبوع واحدٍ، يجب أن يرفع الحظر عن نشاط الحزب النازي في النمسا، يجب أن يصدر عفو عام عن كلّ السجناء النازيين ويطلق سراحهم، وان يعين المحامي الڤييني الموالي للنازيين الدكتور (سيس إنكوارت) وزيراً للداخلية ويمنح سلطة الإشراف على الشرطة والأمن. وان يعيّن صديق آخر للنازيين وهو گليزه هورشتيناو Glaise- Horstenou وزيراً للحرب، وأن توثّق العلاقات بين الجيش الألماني والنمساوي بإجراءات منها تبادل منظم لمائة ضابط بشكل متواصل بين الجيشين، وكان المطلب الأخير: "تتخذ التدابير لتنسيق النظام الإقتصادي على غرار النظام الإقتصادي الألماني. وتحقيقاً لهذا الغرض يعين الدكتور فيشبويك Fischboeck [من مشايعي النازية] وزيراً للمالية"[٨].

ادرك (شوشنك) في الحال إن قبول هذا الإنذار معناه نهاية إستقلال النمسا [هذا ما كتبه فيما بعد]

"نصحني ريبنتروب أن أقبل المطاليب حالاً. فاحتججت وأشرت الى إتفاقي السابق مع فون پاپن الذي تم قبل مجيئي الى (برختسگادن) وأوضحت له بشكل جازم بأني ما كنت مستعداً لمواجهة هذه المطالب غير المعقولة"[٩]...

لكن، هل كان شوشنك مستعداً لقبولها؟ ان عدم إستعداده لمواجهتها كان واضحاً حتى لغبيّ بليد كريبنتروب. والمسألة هي هل أنه سيوقعها؟ في هذه اللحظة العصيبة الحاسمة بدأ المستشار النمساوي الشاب يهن وترتخي مفاصله وسأل بذلة يائسة [كما روى هو نفسه] "عما اذا يمكننا الإعتماد على حسن نية ألمانيا. وعما اذا كانت حكومة الرايخ تنوي على الأقل أن تطبق إلتزاماتها من المعاهدة"[١٠].

٨- مسودة البرتوكول المقدمة لشوشنك [وثائق عن سياسة... ج١ ص٥١٣-٥١٥].
٩- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٥ ص٧١١ [الوثائق ٢٩٩٥ -PS].
١٠- شوشنك: صلاة جناز النمسا ص٢٣.

يقول انه تسلم جواباً "بالإيجاب".

وعندئذ شرع پاپن يعمل في نفس (شوشنك). يقرّ السفير المراوغ "لدهشته" عندما قرأ الإنذار، بأنه "تدخل غير جائز في سيادة النمسا". ويقول شوشنك أن پاپن اعتذر منه. واظهر "دهشته التامة" للشروط. لكنه مع ذلك نصحه بالتوقع عليها.

" وزاد فأعلمني بأن لي أن اكون واثقاً أن هتلر سيحرص عند التوقيع والقبول بالمطالب على أن تبقى ألمانيا مخلصة أمينة على الإتفاقية ولن تبقى ثم مصاعب أمام النمسا من الآن فصاعداً"(١١).

ويبدو جلياً من النصوص التي أوردناها وآخرها وردت في شهادته أمام محكمة نورمبرگ أن شوشنك لم يضعف فقط بل ابدى سذاجة غلبت على عقله.

بقيت لديه فرصة أخيرة للثبات. استدعي ثانية لمقابلة هتلر فوجده يذرع غرفة مكتبه غدوة ورواحاً وهو مهتاج.

[هتلر] هر شوشنك... ها هنا مسودة من الإتفاقية. وليس ثم ما يستوجب الحوار لأني لن أغير فقرة واحدة منها. فإما ان توقعها كما هي وتحقق شروطي خلال ثلاثة أيام، وإما أن اصدر الأوامر بالزحف على النمسا(١٢).

استسلم (شوشنك) وقال لهتلر أنه يرغب في التوقيع. لكنه ذكّره بأن الدستور النمساوي يعطي الصلاحية الشرعية للتوقيع على مثل هذا الإتفاق وتنفيذه لرئيس الجمهورية وحده. لذلك وفي الوقت الذي يرغب في السعي لدى الرئيس لقبولها، لايمكنه ضمان إبرامها.

فصاح هتلر: "يجب عليك أن تضمنها!"

ويقول (شوشنك) أنه ردّ على ذلك بقوله "ربما لا استطيع ذلك ايها السيد مستشار الرايخ"(١٣).

[يروي شوشنك فيما بعد] عندما وعى جوابي بدا لي وكأنه فقد سيطرته على نفسه فأسرع يعدو الى الأبواب وفتح أحدها وصرخ "يا جنرال كايتل"! ثم إلتفت إليّ وقال "سأطلب رؤيتك فيما بعد"(١٤).

كان ذلك محض خداع وحيلة لكن المستشار النمساوي الذاهل الذي أفهم طول اليوم بوجود القادة العسكريين، ربما لم يكن يدرك اللعبة. وروى پاپن بعدها أن الجنرال كايتل قصّ عليه كيف قابله هتلر بابتسامة عريضة عندما دخل عليه وسأله عن أوامره فأجابه هتلر ضاحكاً "لاتوجد ثم أوامر، أردت أن تكون معي هنا فحسب".

١١- الوثائق ٢٩٩٥- PS المرجع السالف.

١٢- هناك فرق طفيف بين ما ذكره شوشنك عن تهديد هتلر وبين ما جاء في كتابه (ص٢٤) وما ورد في شهادته أمام نورمبرگ [مؤامرة النازيين وعدوانهم: ج٥ ص٧١٢- وثائق نورمبرگ] وقد استخدمت الإثنين بشكل مختصر.

١٣- صلاة جناز النمسا ص٢٥.

١٤- المرجع السالف.

إلاّ ان (شوشنك) والدكتور شميدت اللذين كانا ينتظران في الخارج توجّسا أمراً. وهمس شميدت بأنه لن يعجب إن أعتقلا معاً خلال الدقائق الخمس القادمة. وبعد ثلاثين دقيقة أدخل شوشنك مرة أخرى على هتلر.

"(قال هتلر) لقد قررت العدول عن رأيي لأول مرة في حياتي. إلا اني انذرك بأن هذه هي آخر فرصة لك. سأعطيك ثلاثة أيام أخرى مهلة لإبرام الإتفاقية[١٥].

كان ذلك أقصى تساهل منحه الدكتاتور الألماني. ومع أن صيغة المسودة النهائية قد خففت ولانت عباراتها بعض الشيء. فإن التغييرات- حسبما جاء في شهادة شوشنك- لم تبدل شيئاً من الجوهر. فوقعها وكانت قرار موت النمسا.

ان سلوك البشر في وقت الملمات يختلف تبعاً لأخلاقهم. وهو كثيراً ما يُسلِم المرء الى الحيرة. قليل من الناس من يشك في شجاعة شوشنك. فهو مقاتل سياسي متمرس رغم صغر سنه، عجم السياسة وحلب أشطرها وذاق حلوها ومرها ورأى سلفه صريعاً تحت أقدام النازيين، على أن إستسلامه لهتلر في ١١ شباط ١٩٣٨ تحت التهديد المهول بالهجوم المسلح قد ترك في نفس أبناء وطنه والمراقبين ومؤرخي هذه الفترة الهوجاء، بقية من شكوك عالقة لم يتوصل الى جواب لها. هل كان إستسلامه ضرورة؟ ألم يكن هناك سبيل آخر؟ من الطيش والحمق أن يدفع امرءٌ بحجة تتضمن قيام بريطانيا وفرنسا الى مساعدة النمسا حال زحف هتلر عليها، اذا وضع نصب عينه موقفهما السالف من إعتداءاته الأولى. لكن هتلر لم يتعدّ حتى تلك اللحظة حدود ألمانيا. ولم يهيّء الشعب الألماني أو العالم لتقبل عمل عدواني أثيم كهذا. والجيش الألماني نفسه لم يكن إذ ذاك في وضع يؤهله خوض حرب لو تدخلت فرنسا وبريطانيا. في غضون أسابيع قليلة ستتلاشى مقاومة النمسا بأعمال النازيين المحليين ومكائد الحكومة الألمانية نتيجة "لإتفاق" برختسگادن الى درجة أمكن هتلر أن يضع عليها يده دون أن يخاطر كثيراً بإحتمال تدخل أجنبي كما كان الأمر في ١١ شباط. وكان (شوشنك) نفسه مدركاً أن قبول شروط هتلر "لايعني الاّ العفاء التام على إستقلال الحكومة النمساوية بالأمور كما كتب ذلك فيما بعد. وربما كان أصيب بالدوار من هذه التجربة القاسية ولم يعد يدري ماذا يصنع؟ فبعد أن وقع صك القضاء على إستقلال بلاده تحت التهديد بالسلاح، راح يتحدث مع هتلر حديثاً غريباً، سجله هو في كتابه، فقد سأله: "هل يعتقد السيد مستشار الرايخ أن مختلف الأزمات التي تجابه العالم اليوم يمكن حلها بشكل سلميّ؟" فأجابه هتلر بلهجة حازمة انه يمكن ذلك "لو اتبعت نصيحتي"، وعندها قال (شوشنك) ويظهر أن سؤاله كان جدياً دون أي علامة تهكم أو استخفاف "اعتقد أن الوضع العالمي في وقتنا الحاضر يبشر بالخير. ألا تظن ذلك؟[١٦]

١٥- المرجع السالف ص٢٤، وشهادة شوشنك في وثائق نورمبرگ-٢٩٩٥ PS.
١٦- المرجع السالف ص٢٥.

كلام مـثل هذا في لحظة مـثل هذه يبدو مما لايمكن تصديقه. أو يتـصـور وقـوعـه، لكن المسـتـشـار النمساوي المغلوب على أمره يزعم أنه قاله ولا حيلة لنا إلاّ تصديقه! كان هتلر يدخر إذلالاً آخر له، فعندما اقترح (شوشنك) أن البيان الذي سيعطى للصحف عن إجتماعهما يجب أن ينوّه فيه بأن مناقشتهما أيّدت إتفاقية تموز ١٩٣٦، صاح هتلر: "آه، كلاّ، يجب عليك أولاً أن تطبق الشروط التي نصت عليها إتفاقيتنا. أما ما ستكتبه الصحف فهو هذا: [اليوم تباحث كل من الزعيم ومستشار الرايخ ومستشار الإتحاد النمساوي في برگهوف] وهذا هو كلّ شيء". واعتذر عن قبول دعوة الزعيم للبقاء وتناول العشاء، وهبط الجبل هو وشميدت الى (سالزبرگ). وكانت ليلة مكفهرة كثيرة الضباب، وپاپن المحتال يرافقهما حتى الحدود مُظهراً قلقاً وانزعاجاً لما وصفه "بالصمت الثقيل على النفس" إلا انه لم يتقاعس عن محاولة ادخال السرور في نفس صديقيه النمساويين فقال "لقد رأيتما بنفسيكما كيف ينقلب هتلر أحياناً وكيف يصير! الاّ أني على يقين بانه سيكون غير ذلك في المرة القادمة. ولتعلما أن الزعيم يمكن أن يكون جذاباً للغاية"[١٧].

-٣-

أربعة أسابيع الآلام الأخيرة (١٢ شباط- ١١ آذار ١٩٣٨)

أمهل هتلر (شوشنك) أربعة أيام تنتهي في يوم الثلاثاء الموافق الخامس عشر من شباط- ليرسل اليه "جواباً موثقاً" بأنه سيطبق الإنذار، وثلاثة أيام أخرى من ١٥-١٨ شباط لتنفيذ شروطه الفورية. وعاد (شوشنك) الى ڤيينا في صبيحة يوم ١٢ شباط وذهب حالاً لمقابلة الرئيس (ڤلهلم ميكلاس Wilhelm Miklas). كان ميكلاس رجلاً محدود العقل متعباً يقول عنه الڤيينيون أن مأثرته الرئيسة في الحياة هي أبوّته لنسل كبير من الأطفال الاّ أن فيه بعض عناد الفلاح وإصراره. وفي هذه الأزمة وبعد إثنتين وخمسين سنة من تقلبه في وظائف الدولة، كان سيظهر شجاعة أكثر من أيّ نمساوي آخر. قال انه يرغب أن يتنازل عن بعض إمتيازات كإصدار عفو عن النازيين النمساويين إلا أنه يرفض تعيين (سييس إنكوارت) مشرفاً على الشرطة والجيش. وبادر پاپن حالاً الى إبلاغ برلين في مساء ١٤ شباط وقال ان شوشنك يأمل " التغلب على مقاومة رئيس الجمهورية غداً". وفي الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين من مساء اليوم نفسه، صادق هتلر على الأوامر التي وضعها الجنرال كايتل. لوضع النمسا تحت ضغط عسكري "فلتنشر أخبار مزيفة، لكنها معقولة جداً، من شأنها أن تودي الى الإستنتاج بوجود إستعدادات عسكرية ضدّ النمسا"[١٨].

وفي الواقع ما كاد (شوشنك) يترك (برختسگادن) حتى بدأ الفوهرر يهيّء عملاً عسكرياً صورياً.

١٧- رواية پاپن (انظر يومياته ص٤٢٠) فيها إختلاف عن رواية شوشنك إلا أن الأخيرة تميل الى الصدق.
١٨- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٤ ص٣٥٧ [وثائق نورمبرگ ١٧٧٥ PS].

لإحثاث المستشار الألماني على تطبيق ما أمر به. ودوّن (يودل) كل ذلك في يومياته:

١٣ شباط: بعد الظهر: الجنرال كا[يتل] يستدعيني ويستدعي الأميرال كا[ناريس Canaris][١٩] الى جناحه. يقول لنا: إن أمر الزعيم هو ضغط عسكري عن طريق عمل حربي صوري يبقى مستمراً حتى ١٥ منه. المقترحات لهذه الإجراءات تمت بمسودة وأنهيت الى الزعيم تلفونياً للمصادقة.

١٤ شباط: التأثير سريع ورد الفعل قوي. في النمسا الإعتقاد السائد ان ألمانيا تقوم بإستعدادات عسكرية خطيرة[٢٠].

ولم يكن (يودل) مبالغاً فقبل التهديد بالغزو المسلح إستسلم الرئيس (ميكلاس). وفي آخر يوم مبارك من المهلة (١٥ شباط) ابلغ شوشنك فون پاپن رسمياً بأن إتفاقية (برختسگادن) سيتم تطبيقها قبل الثامن عشر منه. وفي ١٦ شباط أعلنت الحكومة النمساوية عفواً عاماً عن النازيين وبضمنهم أولئك الذين حكموا في قضية مقتل (دولفوس) كما صدر التعديل الوزاري الذي عيّن فيه (سييس إنكوارت) وزيراً للأمن. وفي اليوم التالي طار الوزير النازي الجديد الى برلين لمقابلة هتلر وتلقّي الأوامر.

كان (سييس إنكوارت) أول (كويزلينگ) في العالم، محامياً ڤيينياً لطيف الأخلاق ذكياً، استولت على ذهنه منذ ١٩١٨ رغبة محرقة لرؤية النمسا موحدة مع ألمانيا. وكانت هذه الرغبة هي الغلابة السائدة في السنوات الأولى التي عقبت الحرب. والواقع أن الجمعية الوطنية المؤقتة في ڤيينا التي سبق لها أن ألغت ملكية آل هابسبرگ قبل قليل وأعلنت الجمهورية النمساوية، حاولت في ١٢ تشرين ١٩١٨ بعد عقد الهدنة بيوم واحد أن تعلن الوحدة بتأكيدها "أن النمسا الألمانية هي جزء لايتجزأ من الجمهورية الألمانية" ولم يسمح الحلفاء المنتصرون بهذه الوحدة. وفي الزمن الذي وصل هتلر الى الحكم ١٩٣٣ لم يبق شك بأن أغلبية النمساويين ضد إتحاد بلادهم الصغيرة بألمانيا النازية. لكن النازيين كما وجد (سييس إنكوارت) واقرّ بشهادته في محاكمات نورمبرگ- يقفون موقفاً ثابتاً لايتزعزع من قضية الوحدة ولهذا السبب ساندهم. ولم ينضم الى الحزب ولم يشارك في أعمال الإرهاب والإعتداء التي قاموا بها. ولمثل دور الموجّه المحترم للنازيين النمساويين وبعد معاهدة تموز ١٩٣٦ عندما عيّن عضواً في مجلس الدولة ركز مجهوداته، بدعم من پاپن وغيره من الموظفين الألمان وجواسيسهم، لنقض النظام القائم من الأسفل. والعجيب في الأمر أن كلاً من (ميكلاس) و(شوشنك) ظلاّ على ما يبدو يثقان به الى النهاية تقريباً. بالأخير اعترف ميكلاس (وكان كاثوليكياً ورعاً مثل شوشنك، بأنه مال كثيراً الى (سييس) لأنه كان "مواظباً على بيعته" ويبدو أن أساس الثقة التي وضعها المستشار النمساوي فيه تعود الى أمرين: كاثوليكية الرجل، وخدمته مثله في لواء

١٩- كان ڤلهلم كافاريس رئيس مكتب الإستخبارات (Abwehr) التابع للقيادة العليا.
٢٠- "مؤامرة النازيين وعدوانهم" ج٥ ص ٣١١ [وثائق نورمبرگ ١٧٨٠ PS].

كايسريايكر التيرولي Kaiserjaeger أثناء الحرب العامة الأولى وإصابته بجرح خطير في المعارك. ولسوء حظّ (شوشنك) انه كان فاقد القابلية للحكم على الرجال من نواحٍ جوهرية وإيجابية أكثر. ولعله كان يفكر في أنه قادر على ضبط الوزير النازي في حدود الخط العام ببعض الرشاوى البسيطة فهو نفسه يتحدث في كتابه عن الأثر السحريّ الذي خلفه مبلغ (٥٠٠) دولار في (سييس إنكوارت) قبل ذاك بعامٍ واحد عندما هدد بالإستقالة من عضوية مجلس الدولة ثم عاد فسحب طلبه عندما تسلم هذا المبلغ الزهيد. لكن هتلر كان يحتفظ لهذا المحامي الشاب الطموح بجوائز باهرة أعظم خطراً كما أدرك شوشنك بعد قليل.

في ٢٠ شباط ألقى هتلر خطبته المنتظرة طويلاً، أمام الرايخشتاغ وكان المجلس قد أجل منذ ٣٠ تشرين الثاني بسبب أزمة (بلومبرگ-فريتش) وبسبب المكائد ضدّ النمسا. ومع أنه تكلم بحرارة عن "حسن تفهم" شوشنك، وعن "رغبته الصميمة جداً" في تحقيق أوثق التفاهم بين النمسا وألمانيا. وهي كذبة صغيرة انطلت على رئيس الوزراء البريطاني (چمبرلين)- فقد أطلق إنذاراً ضاع صداه في لندن، إلاّ أنه لم يقع على أذن صماءٍ لا في ڤيينا ولا في پراغ.

"يعيش أكثر من عشرة ملايين ألماني في دولتين متاخمتين لحدودنا... وليس هناك أي شك في أمرٍ واحدٍ. إن الانفصال السياسي عن الرايخ ليس من شأنه ان يؤدي الى مصادرة الحقوق- اعني الحقوق العامة لتقرير المصير، فهو أمرٌ لاتتحمله دولة قوية في العالم حين تعلم بوجود رفاق لها من قوميتها وعلى مقربة منها يسامون سوء العذاب ويحاربون بإستمرار بسبب عطفهم ورغبتهم في الوحدة مع أبناء جلدتهم كافة. وبسبب مستقبلهم وحياتهم. إن مصلحة الرايخ الألماني وواجبه يقضيان بحماية هذا الجزء من الشعب الألماني الذي يقع على حدودنا- العاجز عن ضمان حرياته السياسية والروحية بقدرته الخاصة[٢١].

كانت ملاحظة صريحة عامة، وراح هتلر منذ هذه اللحظة يعتبر الملايين الألمان السبعة في النمسا والملايين الألمان الثلاثة في (السوديت Sudet) بچيكوسلوڤاكيا من شؤون الرايخ الثالث. وفي ٢٤ شباط بعدها بأربعة أيام أجاب (شوشنك) على هتلر في خطبة أمام (البندشتاغ Bundestag) النمساوي الذي عيّن أعضاؤه تعييناً كما كان الحال في الرايخشتاغ بإرادة النظام الدكتاتوري ذي الحزب الواحد. ومع انه كان لطيف اللهجة تجاه ألمانيا فقد أوضح أن النمسا وصلت أقصى حدود التنازل "حيث ينبغي لنا أن نقف ونقول: الى هدا الحد وكفى". وقال ان النمسا لن تنزل عن إستقلالها طائعة مختارة وأنهى خطابه بشعار حماسي "أحمر، أبيض، أحمر. حتى الموت! [كان هذا مجموعة ألوان العلم النمساوي، وهي ايضاً ذات جرسٍ ايقاعي باللفظ ألماني].

كتب (شوشنك) بعد الحرب "أن الرابع والعشرين من شباط كان عندي التاريخ الحاسم". وانتظر قلقاً

٢١- من ملاحظاتي الخاصة التي دوّنتها أثناء إذاعة الخطبة.

ردّ فعل الزعيم على خطبته المتحدية. وأبرق پاپن الى برلين في اليوم التالي ناصحاً ألاّ تأخذ وزارة الخارجية الخطبة مأخذاً جدياً. وقال أن (شوشنك) عبّر عن شعوره الوطني الغلاب في الواقع ليستعيد مركزه الداخلي. فهناك مؤامرات في ڤيينا للتطويح به للتنازلات التي قدمها في (برختسگادن) واعلم پاپن برلين أن "عمل سييس انكورات يسير وفق الخطة الموضوعة". في الوقت نفسه(٢٢)، وفي اليوم التالي- قام پاپن بزيارة وداعية للمستشار النمساوي وانطلق الى كيتسبهل Kitzbuehl للتزلج على الجليد، بعد أن أوشكت جهود السنين الطوال في النمسا تؤتي أُكُلها!

كان من أثر خطبة هتلر في العشرين من شباط التي نقلتها شبكة الإذاعة النمساوية. أن قامت مظاهرات واسعة النطاق للنازيين في شتى أنحاء النمسا. وفي الرابع والعشرين منه، أثناء ما كان (شوشنك) يذيع رده الخطابي اندفعت غوغاء نازية تبلغ زهاء عشرين ألفاً في مدينة (گراز Graz) مغيرة على ساحة المدينة فحطمت مكبرات الصوت وأنزلت العلم النمساوي ورفعت علم ألمانيا ذا الصليب المعقوف في محله. وبوجود (سييس إنكوارت) على رأس الشرطة لم يبذل أيّ مجهود لوقف النازيين وكبح جماحهم. كانت حكومة (شوشنك) تتهدم وتتصدع. ولم يتخللها الانحلال السياسي وحده بل دبت فيها الفوضى الإقتصادية، وهرع الناس لسحب مقادير كبيرة من الودائع في البنوك من الداخل والخارج. وانصبت على ڤيينا صبّاً الطلبات المستعجلة من الشركات الأجنبية بإلغاء الشحنات التجارية من صادرات البلاد ودبّ الذعر الشديد في نفوس السياح الأجانب [وهو مصدر رئيس من مصادر إقتصاد النمسا] وابرق (توسكانيني Toscaneni) من نيويورك بإلغاء حضوره الى مهرجان (سالزبرگ) الذي كان يجتذب عشرات الألوف من السياح في كل صيف "بسبب التطورات السياسية في النمسا" وبلغ الوضع حداً من الإضطراب واليأس بحيث ألجأ المطالب الشاب بعرش النمسا "أوتو هابسبرگ" الى أن يرسل رسالة خاصة من منفاه في بلجيكا ضارعاً الى شوشنك [كما كشف فيما بعد] أن يبقى متمسكا بيمين الولاء القديم. بوصفه ضابطاً في الجيش الإمبراطوري. وأن يعينه مستشاراً إن وجد أن خطوة كهذه قد تنقذ النمسا.

وفي غمرة من اليأس نزل (شوشنك) الى الطبقة العاملة التي ظلت نقاباتها وأحزابها مغلقة بعد أن سحقها (دولفوس) بقسوة بالغة في ١٩٣٤، ان العمال يكونون ٤٢٪ من مجموع الناخبين العام النمساويين. ولو كان المستشار في أيّ وقت خلال السنوات الأربع المنصرمة- قادراً على الرؤية الى أبعد من أفق دكتاتوريته الضيق، وفاشيته الأكليريكية فكسب مساندتهم باقامة حكومة إئتلاف معتدلة ديمقراطية معادية للنازية لكان من السهل جداً عليه أن يكبح جماح أقلية صغيرة من النازيين. لكن شوشنك كان يفتقر الى المقدرة على إتخاذ هذه الخطوة. فهو كإنسان رجل مستقيم أمين محتشم،

٢٢- تقرير الى وزارة الخارجية الألمانية في ٢٥ شباط ١٩٣٨. معلم بعبارة "سري جداً" وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج١ ص٤٢٥

إلاّ أنه أصبح متعلقاً بفكرة إزدراء الديمقراطية الغربية في أوروبا كغيره، ونما في نفسه حب الحكم المطلق ذي الحزب الواحد.

وخرج العمال من المصانع، ومن السجون حيث اطلق عدد كبير منهم مؤخراً مع النازيين، وتقدموا مع الديمقراطيين الإشتراكيين كتلة متراصة واحدة في ١٤ آذار إستجابة لنداء المستشار. قالوا انهم رغم كل ما حدث مستعدون لمساعدة الحكومة للدفاع عن إستقلال الوطن وكل ما طلبوه هو أن يسمح لهم المستشار بما سبق وسمح به للنازيين أعني الحق في تنظيم أحزابهم السياسية. والدعوة الى مبادئهم. فوافق (شوشنك) على ذلك... لكن بعد فوات الأوان.

في ٣ آذار دوّن كَعب الاخبار الجنرال (يودل) في يومياته "المسألة النمساوية أصبحت في غاية الخطورة. سيرسل الينا مائة ضابط. الزعيم يريد مقابلتهم شخصياً. سيعظهم بواجب الحرص على أن لاتقوم القوات المسلحة النمساوية بشن الحرب علينا، والأحسن أن لايحاربوا مطلقاً". في هذه اللحظة الحرجة قرر (شوشنك) أن يقف وقفة أخيرة عملية أوحى بها اليأس كانت فكرتها مستولية على جوارحه منذ أيام شباط الأخيرة عندما بدأ النازيون يستظهرون في الأقاليم وإعتزم أن يجري إستفتاءً عاماً، سيسأل الشعب النمساوي هل يحبذون "نمسا حرة مستقلة إشتراكية مسيحية إتحادية– الجواب نعم أو لا Ja oder Nein"[٢٣].

"(كتب يقول) شعرت ان ساعة القرار الواضح قد حانت وبدا لي من الحمق والطيش الإنتظار بيدين مغلولتين حتى تكمّ أفواهنا ايضاً بعد مرور أسابيع قليلة. ان المقامرة الآن تجرى على رهانٍ يتطلب مجهوداً خارقاً عظيماً."[٢٤]. بعد عودة (شوشنك) من (برختسگادن) بقليل، إستطلع رأي موسوليني حامي النمسا من تهديدات هتلر. فأبلغ فوراً عن (الدوتشي) أن موقف إيطاليا من النمسا باقٍ لم يتغير. وفي ٧ آذار بعث بملحقه العسكري في روما الى موسوليني ليبلغه أن التطورات التي طرأت على الأحداث قد تلجئه "الى الركون الى الإستفتاء العام" فأجاب الدكتاتور الإيطالي بالفرنسية "هذا خطأ! Ce un errore" ونصح شوشنك أن يسير على خطه الأول. كانت الأمور تتحسن، وهناك تقارب وشيك بين روما ولندن سيوثر تأثيراً كبيراً في تخفيف حدة الضغط وكان هذا آخر ما سمع عن موسوليني.

في مساء التاسع من آذار أعلن (شوشنك) في خطاب ألقاه في اينزبروك Innsbruck، أن الإستفتاء سيجري بعد أربعة أيام في نهار الأحد الموافق ١٣ آذار. هذه الأنباء غير المنتظرة أسلمت هتلر الى

٢٣– ذكر الرئيس ميكلاس في افادته أثناء محاكمة أحد النازيين النمساويين بعد الحرب ان فرنسا هي التي اقترحت على شوشنك إجراء الإستفتاء. ويزعم پاپن في مذكراته أن الوزير المفوض الفرنسي في ڤيينا مسيو پوو M. Puaux وهو صديق حميم للمستشار "أيّد فكرة الإستفتاء" ويرى على كل حال أن شوشنك اتخذ القرار على مسؤوليته الخاصة بدون شك. وعن شهادة ميكلاس. أنظر مؤامرة... ملحق ص٥٢٣ ورواية پاپن في مذكراته ص٤٢٥.

٢٤– "صلاة جناز النمسا" الص ٣٥–٣٦.

نوبة هياج. وتصف يومية (يودل) المؤرخة ١٠ آذار رد الفعل الأولي في برلين:

"...أمر شوشنك بإجراء إستفتاء في نهار الأحد ١٣ آذار، فجأة، ومن دون إستشارة وزرائه...

وقرر الفوهرر ألاّ يتسامح في هذا. في الليلة نفسها ٩/١٠ آذار. يطلب حضور (گورنگ). الجنرال فون (رايخناو) يستدعي من اللجنة الاولمپية بالقاهرة. والجنرال فون شوبرت Von Schobert [قائد منطقة مونيخ العسكرية على الحدود النمساوية] أمر بالقدوم فضلاً عن الوزير (النمساوي) كليزه هورشتيناو الذي... هو في الپالاتينات Palatinete... عوّق ريبنتروب في لندن، نيوراث يقوم بمهام وزيرالخارجية."(٢٥)

في اليوم التالي الموافق الخميس ١٠ آذار. شاع لغط عظيم في برلين. قرر هتلر أن يحتل النمسا إحتلالاً عسكرياً، ولم يكن ثم ريب أن جنرالات الجيش بوغتوا بالنبأ. لو حال الجيش بالقوة دون إستفتاء شوشنك نهار الأحد فعليه ان يدخل النمسا نهار السبت وليس هناك خطة ما للحركة. استدعى هتلر (كايتل) في العاشرة صباحاً، إلاّ انه تحدث الى يودل والجنرال ماكس فون ڤيبان Max Von Wiebahn مدير هيئة الحركات Fuehrungsstab للقيادة العليا. وتذكر (يودل) المرجع الثقة القضية الخاصة "أوتو" التي رسمت لإحباط محاولة نصب أوتو هابسبرگ على العرش النمساوي. ولما كانت الخطة الكاملة الوحيدة لعمل عسكري ضد النمسا فقد قرر هتلر إستخدامها وأمر، "هيئوا قضية أوتو".

أسرع (كايتل) عائداً الى القيادة العليا في بندلرشتراسّه وعندما سأل عن تفاصيل خطّة أوتو أجابه (بيك) "لم نهيّء شيئاً، لم يُعدّ أي شيء مطلقاً". واستدعي (بيك) بدوره الى دار مستشارية الرايخ والتقى الجنرال فون مانشتاين الذي كان على وشك مغادرة برلين لتسلم قيادة فرقة فركب معه لمقابلة هتلر. فأخبرهما هذا بوجوب إعداد الجيش للزحف على النمسا نهار السبت. ولم يُدل أي من الجنرالين بإعتراض على هذا الإقتراح بالعدوان المسلح. وكان إهتمامها قاصراً على انشغالهما مركّزاً على إعداد حركة عسكرية في وقت ضيق جداً. عاد (مانشتاين) الى (بندلرشتراسّه) وانهمك حالاً بكتابة مسودات الأوامر الضرورية. وأنهى عمله خلال خمس ساعات. وفي السادسة والدقيقة الثلاثين مساءً، صدرت أوامر التعبئة [حسب رواية يودل في يومياته] الى ثلاثة مقرات جيوش والى القوة الجوية رقم -١- لعملية (أوتو) وبلغت به العجلة أنه نسي تذييله بتوقيعه ولم يتم الحصول على إمضائه إلاّ في الساعة الواحدة بعد الظهر.

- سرّي للغاية -

أولاً: إن لم تنجح إجراءات أخرى. فأنا عازم على غزو النمسا بالقوات المسلحة لأثبت الاوضاع الدستورية ومنع المزيد من الإعتداءات على الأهلين الموالين الألمان.

٢٥- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٤ ص٣٦٢ [وثائق نورمبرگ PS-١٧٨٠].

ثانياً: كل العملية ستدار من قبلي...

رابعاً: إن قوات الجيش والقوة الجوية المخصصة لهذه العملية يجب ان تكون مستعدة للهجوم في ١٢ آذار ١٩٣٨. في الساعة ١٢٠٠ على أكثر تقدير...

خامساً: إن سلوك أفراد الجيش يجب أن يكون موحياً بأننا لانريد أن نشن حرباً على إخواننا النمساويين... لذلك يجب إجتناب كل إستفزاز... واذا بدرت مقاومة ما فيجب سحقها بلا رحمة بقوة السلاح...(٢٦)

وبعد سويعات أصدر (يودل) ملحقاً -سرياً للغاية- للأوامر الأولى صادراً من رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة.

"(١) إن وجدت قوات عسكرية نظامية أو غير نظامية (مليشيا) چيكوسلوڤاكية في النمسا، فيجب إعتبارها قوات عدوة.

(٢) يعامل الإيطاليون معاملة أصدقاء حيثما وجدوا ولاسيّما وأن موسوليني أعلن بأنه غير مهتم بموضوع حل المسألة النمساوية(٢٧)".

كان موسوليني يُقلق بال هتلر. فما أن قرر القيام بغزو عسكري، حتى وضع الأمير (ڤيليب فون هس) في طائرة خاصة وبعث به في العاشر من آذار الى موسوليني حاملاً رسالة شخصية منه (مؤرخة في ١١ آذار) يعلمه فيها بالعمل الذي قرر القيام به طالباً تفهم الدكتاتور الأيطالي له. كانت الأكاذيب سدى الرسالة ولحمتها فيما يتعلق بمعاملته لـ(شوشنك) والأوضاع في النمسا التي أكّد له أنها "قريبة من حالة الفوضى" واستهلها بمزاعم مخاتلة محتالة، بحيث لجأ هو نفسه الى حذفها من الرسالة عندما نشرت بعدئذ في ألمانيا(٢٨)...

زعم أن النمسا وچيكوسلوڤاكيا تعملان معاً خفية لإعادة هابسبرگ وتتهيئان "لقذف كتلة من البشر يبلغ تعدادها عشرين مليوناً على الأقل ضد ألمانيا" ثم لخّص طلباته من (شوشنك) واكد لموسوليني "أنها أكثر من معتدلة" واخبره بفشل المستشار النمساوي في تحقيقها وتكلم عن "مهزلة" ما "يدعي بالإستفتاء" .

"نظراً لمسؤوليتي كزعيم ومستشار للرايخ الألماني وكذلك بوصفي إبناً لهذه التربة، لم يعد في طوقي البقاء ساكناً في وجه هذه التطورات. اني الآن عازم على إعادة الأمن وسيادة القانون في مسقط رأسي ومساعدة الشعب على تقرير مصيره بنفسه وبمقتضى ميوله بشكل واضح صريح لا لبس فيه...

٢٦- "مؤامرة..." ج٦ الص ٩١١-٩١٢ [وثائق نورمبرگ -C ١٠٣].
٢٧- المرجع السالف ج٦ ص ٩١٣ [وثائق نورمبرگ- C ١٠٣].
٢٨- الفقرات المشطوبة وجدت بعد الحرب في أرشيف وزارة الخارجية الإيطالية.

ومهما كان الأسلوب الذي سيتبع في إجراء هذا الإستفتاء، فأنا أرغب أن أؤكد لفخامتكم من صميم قلبي بوصفكم زعيماً لإيطاليا الفاشية:

(١) ان تعتبروا هذه الخطوة مجرد عمل قومي للدفاع عن النفس، وعليه يكون من الأعمال التي لايتردد اي رجل ذي خلق كريم في الإقدام عليها- إنْ وجد نفسه في مثل موقفي. وانت أيضاً يا صاحب الفخامة لايمكنك أن تعمل خلاف هذا إن كان مصير الإيطاليان هو المهدد...

(٢) في الساعة الحرجة التي تعن لإيطاليا. سأبرهن لك صدق ودّي وإندفاعي. فلاتشك أبداً أنه سيطرأ في المستقبل اي تغيير على موقفي هذا.

(٣) مهما كانت نتائج الأحداث المقبلة. فقد رسمت حدوداً معينة بين فرنسا وألمانيا. وأنا الآن أرسم خطاً محدداً مثله بيننا وبين إيطاليا... انه برينر...[٢٩]

صديقك المخلص على الدوام
أدلوف هتلر[٣٠]

-٤-

سقوط شوشنك

آب الدكتور (شوشنك) الى فراشه، مساء العاشر من آذار- غير عالم بالإستعدادات المحمومة التي تجري على حدود الرايخ الثالث، وهو مقتنع - كما شهد في نورمبرگ- بأن الإستفتاء سيكون نجاحاً للنمسا وان النازيين لن "يقوموا عقبة خطيرة"[٣١]. في الواقع كان (سييس إنكوارت) قد أكد له قبل ساعات أنه سيساند الإستفتاء، وسيذيع خطبة بتحبيذه. في الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين من فجر الجمعة (١١) آذار أوقظ المستشار النمساوي برنين التلفون المحاذي لفراشه وكان المتحدث الدكتور سكوبله Dr. Skuble مدير الشرطة. قال، أن الألمان أقفلوا الحدود عند سالزبرگ. وتوقفت القطارات بين البلدين، هناك أنباء عن تحشدات عسكرية ألمانية على الحدود النمساوية.

٢٩- جعل الحدود في (برينر) كان طُعماً لموسوليني. فهو يعني أن هتلر لن يطالب بإعادة جنوب التيرول الذي أقتطع من النمسا وأعطي إيطاليا بمعاهدة ڤرساي.

٣٠- وثائق من سياسة ألمانيا الخارجية ج١ ص ٥٧٣-٥٧٦.

٣١- يقضي الإنصاف ان نذكر ان إستفتاء شوشنك ليس أكثر ديمقراطية أو حرية من الإستفتاء الذي يجريه هتلر في ألمانيا. ولما لم يجر إنتخاب حر في النمسا منذ ١٩٣٣ فلا يوجد قوائم للناخبين كاملة الى حد تاريخه. ثم أنه لايحق الأقتراع الا لمن بلَغ الرابعة والعشرين. ولم تعط مهلة للإستفتاء غير أربعة أيام لذلك لم يكن هناك وقت للقيام بالحملة السياسية حتى لو كان المعارضة: كالنازيين واليسار والديمقراطيين الإشتراكيين أحراراً في خوض الحملة. إن الإشتراكيين على إختلاف اجنحتهم سيصوّتون "بنعم" دون شك، لأن (شوشنك) أهون الشرّين كما انه وعد بإطلاق الحريات السياسية. وليس هناك أي شك في ان أصواتهم كانت ستكسب شوشنك نصراً.

في السادسة والدقيقة الخامسة عشرة كان (شوشنك) في طريقه الى مكتبه في بالهاوز پلاتز Ballhousplatz، على أنه قرر أولاً أن يتوقف في كاتدرائية القديس اسطيفان. وهناك جلس مع المصلين يستمع الى قداس الفجر في أولى خيوط ضياء الصبح، وهو على مصلاه نهب للقلق، لاتبارح فكره الرسالة المشؤومة التي تلقاها من مدير الشرطة. قال بعدئذ يصف حاله "لم أكن متأكداً تماماً من معناها، كل ما أدركت أنها ستحدث تغييراً" وحدّق في الشموع الملتهبة أمام صورة العذراء مريم ذات المعونة الأبدية. وتطلع فيما حوله مختلساً النظر ثم رسم علامة الصليب على وجهه كما يفعل ما لايحصى من الڤيينين أمام هذه الصورة في الماضي في وقت الضيق.

وفي المستشارية كان كل شيء ساكناً، لم تصل حتى رسالة مزعجة أثناء الليل من الدبلوماسيين النمساويين في الخارج. واتصل بمقر الشرطة العام وطلب أن يطوّق قلب المدينة بنطاق من الشرطة كتدبير وقائي وأن تشدد الحراسة على بنايات الحكومة. ثم استدعى أعضاء الوزارة لعقد إجتماع فحضروا بإستثناء (سيبس إنكوارت) ولم يستطع (شوشنك) العثور عليه في مكان ما في حين كان الوزير النازي في مطار ڤيينا. كان پاپن قد دعي فجأة من برلين يوم أمس وغادر البلاد على متن طائرة خاصة في الساعة السادسة من صباح اليوم وقد ودّعه (سيبس). الآن يقف (كويزلينگ) رقم (١) في إنتظار (گليزة هورشتيناو) الوزير رقم (٢) في حكومة شوشنك مثله، الغارق في الخيانة، الذي كان مقرراً وصوله من برلين حاملاً أوامر هتلر بما رسم لهما عمله بخصوص الإستفتاء.

كانت الأوامر: لا إستفتاء ثمة وقد نقل هذان السيدان ذلك الى (شوشنك) في العاشرة صباحاً، وأضافا لمعلوماته أن هتلر قد إستشاط غضباً. وبعد ساعات من المداولات مع الرئيس ميكلاس قرر أعضاء حكومته مع دكتور (سكوبله) و(شوشنك) إلغاء الإستفتاء. كان مدير الشرطة قد أخبره بعد تردد أن الپوليس الذي تسللت إليه العناصر النازية بكثرة، بعد إعادتهم الى مراكزهم تطبيقاً لإنذار (برختسگادن) لايمكن أن تعتمد عليه الحكومة. ومن الجهة الأخرى كان شعور شوشنك يؤكد له أن الجيش ومليشيا الجبهة الوطنية (وهو الحزب الرسمي الحاكم والوحيد في النمسا) سيخوضان الحرب. لكنه قرر [في الواقع كان هذا مستولياً على فكره منذ زمن طويل] أن لايتعرض لهتلر بأي مقاومة إن كان ذلك يعني سفك الدماء الألمانية. كان هتلر جدّ راغب في اصطدام الاّ أن شوشنك دار على عقبيه من مجرد الفكرة.

في الساعة الثانية بعد الظهر استدعى (سيبس إنكوارت) واعلمه بأنه أصدر الأوامر بإلغاء الإستفتاء. فأسرع (يهوذا) الرقيق الى التلفون ليخبر گورنگ في برلين. لكن قاموس خطط النازي يقول أن تنازلاً واحداً من خصم مغلوب يجب ان يعقبه تنازل آخر سريع. وأسرع گورنگ وهتلر حالاً الى رفع عقيرتيهما مطالبَين بالمزيد والمزيد من المغانم. إن وسائل التهديد والوعيد والنصب والإبتزاز التي استعملت، سجلتها كلمة كلمة وببالغ الدقة، دائرة انصات گورنگ الخاصة (معهد البحوث

Forschungsomt) التي أصغت وسجلت ونقّحت سبعاً وعشرين مكالمة تلفونية من مكتب الفيلد مارشال إبتداءً من الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والأربعين بعد الظهر (١١ آذار). وقد وجدت هذه الوثائق في وزارة الطيران الألمانية بعد الحرب. وألقت ضوءً باهراً عن كيفية إتمام القضاء على النمسا بواسطة التلفون من برلين في خلال الساعات القلائل الخطيرة التالية[٣٢].

عندما اتصل (سييس) بگورنگ لأول مرة في الساعة الثالثة إلا ربعاً بعد الظهر أجابه الفيلد مارشال أن إبطال الإستفتاء ليس بكافٍ وقال أنه سيطلبه مرة أخرى بعد ان يتحدث الى هتلر. وقد اتصل به في الثالثة والدقيقة الخامسة وأبلغه بألا مفر من إستقالة (شوشنك) ونصب (سييس إنكوارت) مستشاراً خلال ساعتين. واخبره أيضاً بـ"إرسال البرقية للزعيم كما أتُفق عليه" وكان هذا أول ذكر للبرقية التي برزت في المقدمة، وكان ذكرها يجلجل ويدوي في الأحداث المفزعة التي حصلت خلال الساعات القلائل القادمة. كانت هذه البرقية ستستخدم لإرتكاب جريمة الاحتيال التي برر بها هتلر عدوانه أمام الشعب الألماني ووزارات خارجية العالم.

وصل (ڤلهلم كپلر) ڤيينا مبعوث هتلر الخاص الى النمسا قادماً من برلين بعد الظهر ليتولى مهام السفارة في غياب پاپن، وأطلع (سييس إنكوارت) على نص برقية ورسم له أن يبرقها لهتلر. وفيها يرجو إرسال وحدات من الجيش الألماني الى النمسا للقضاء على الفوضى والشغب وزعم (سييس إنكوارت) في افادته أمام محكمة نورمبرگ أنه لم يرضَ بإرسال هذه البرقية حيث لا فوضى هناك. وألحّ (كپلر) بقوله أن إرسالها لابدّ منه ثم هرع الى دار المستشارية النمساوية حيث وجد في نفسه الصفاقة لتأليف (مكتب الطوارىء) مع سييس وگليزه هورشتناو. كيف سمح شوشنك لهؤلاء المتطفلين الخونة بنصب أنفسهم في محل الحكومة النمساوية وممارسة سلطاتها عنوة وإقتداراً في تلك الساعة العصيبة؟ إنه أمر يفوق التصور إلاّ أنه سمح به. وبعدها، تذكر أن دار المستشارية كانت تبدو "في هرج ومرج، اشبه شيء بخلية نحل دبت فيها الفوضى"، فهنا (سييس إنكوارت) و(گليزه هورشتناو) قد انتحيا زاوية "يتداولان"، و"حولهما حركة لاتنقطع من الذاهبين والآيبين، رجال ذوو سيماء غريبة". لكن يظهر أنه لم يخطر ببال المستشار الرقيق الشمائل الذاهل أن يقذف بهم الى الخارج.

صحّ عزمه على الرضوخ لهتلر والإستقالة. وإتصل بموسوليني وليس بينه وبين (سييس) غير خطوات. لكن الدوتشي لم يكن موجوداً، وبعد دقائق قليلة ألغى المكالمة معتقداً بأن "طلب العون من موسوليني هو مضيعة للوقت" حتى حامي النمسا المتباهي فقد تخلّى عنها في ساعة الضيق. وبعد دقائق قليلة وفي أثناء ما كان يحاول إقناع الرئيس ميكلاس بقبول إستقالته، وردت رسالة من وزارة الخارجية جاء فيها "أن الحكومة الإيطالية تعلن أنها لاتستطيع ان تتقدم بأي نصيحة إزاء هذه

٣٢- "مؤامرة ... ج٥ الص ٦٢٩-٦٥٤ [وثائق نورمبرگ ٢٩٤٩ PS].

الظروف في حالة ما لو طُلب منها إبداء المشورة"[٣٣]. لم يكن الرئيس ڤلهلم ميكلاس شخصية عظيمة الاّ انه صلب عنيد مستقيم الخلق. وافق على إستقالة (شوشنك) متردداً لكنه رفض أن يجعل (سييس إنكوارت) خلفاً له. وقال "هذا من رابع المستحيلات ولن نجبر على عمل شيء لانريده" وأمر (شوشنك) بإبلاغ الألمان أن إنذارهم مرفوض"[٣٤].

ابلغ هذا (سييس إنكوارت) لگورنگ في الخامسة والدقيقة الثلاثين ظهراً.

[سييس إنكوارت]: الرئيس قبل إستقالة [شوشنك]... فاقترحت أن يسند المستشارية إليَّ... لكنه لايرغب في وضع الثقة برجل مثل إندر... Ender.

[گورنگ] حسنٌ؛ هذا ما يجب ألاّ يكون مهما كلف الأمر؛ يجب أن يبلغ الرئيس بألاّ مفر له من إيداع سلطات المستشار الفيدرالي اليك. وأن يرضى بأعضاء الوزارة كما هم.

وعند هذه النقطة انقطع الحديث بينهما وسلم (سييس إنكوارت) التلفون الى دكتور موهلمان Muehlmann وهو نمساوي نازي مشبوه السمعة كان (شوشنك) قد لمحه يتسكع في زوايا برختسگادن وكان صديقاً لگورنگ.

[موهلمان] مازال الرئيس يرفض بإستمرار اعطاء موافقته. لقد ذهبنا نحن القوميين الإشتراكيين الثلاثة للحديث معه شخصياً... فلم يسمح حتى بمقابلته. والآن يبدو وكأنه لاينوي أن يرضخ.

[گورنگ] صلني (بسييس). [الى سييس] الآن تذكر ما سأقول: الآن: اذهب حالاً برفقة اللفتننت جنرال (مُفّ) [الملحق العسكري الألماني] وابلغ الرئيس ان لم يوافق على الشروط في الحال فإن الجيش الذي اتخذ مواقعه على الحدود سيزحف هذه الليلة على طول الخطوط وستختفي النمسا من عالم الوجود... قل له إن الوقت ليس وقت مزاح. والموقف الآن هو أن الغزو في هذه الليلة سيبدأ من كل زوايا النمسا ولن يوقف الغزو أو سيبقى الجيش ساكناً على الحدود الاّ اذا أُبلغنا في الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين أن ميكلاس قد اسند اليك في منصب المستشارية الإتحادية... ثم أدع القوميين الإشتراكيين في كل أنحاء البلاد. يجب ان يكونوا الآن في الشوارع. وتذكر التقرير يجب أن يبلغنا في السابعة والدقيقة الثلاثين. إن لم يفهم ميكلاس الموضوع في أربع ساعات فسنجعله يفهمه الآن في أربع دقائق.

لكن الرئيس الصلب ظل ثابتاً لايتزعزع.

في الساعة السادسة والدقيقة عاد گورنگ يتصل (بكپلر وسييس إنكوارت). فابلغاه أن الرئيس

٣٣- "صلاة جناز النمسا" ص٤٧.

٣٤- شهادة ميكلاس في ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٦ في مرافعة المتهم الدكتور رودلف نيوماير في احدى محاكم إزالة النازية ومع انه كان غير دقيق في ضبط الاوقات ونص العبارات والوقائع في ذلك اليوم المشهود فشهادته قيمة جداً ومهمة (مؤامرة...) ص ٥٣١-٥٣٤ [وثائق نورمبرگ ٢٤٦٥-٢٤٦٦ PS].

ميكلاس رفض التعاون معهم.

[گورنگ] حسن إذن فعلى عاتق (سييس انكورات) يقع أمر تنحيته! ما عليك الاّ أن تصعد اليه مرة أخرى وتصارحه أن (سييس) سيستدعي الحرس القومي الإشتراكي. وفي غضون خمس دقائق ستزحف الجنود بناء على أمري.

وبعد هذا الأمر قدم الجنرال (مُف) و(كپلر) الى الرئيس إنذاراً عسكرياً ثانياً يهدده بدخول الجيش الألماني النمسا إن لم يذعن خلال مرة أقصاها الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين. وشهد ميكلاس فيما بعد: "أبلغت السيدين أني أرفض الإنذار... وان النمسا وحدها هي التي تقرر من سيكون رئيس الحكومة".

في هذا الوقت حقق النازيون النمساويون السيطرة التامة على الشارع. فضلاً عن استيلائهم على دار المستشارية. في حوالي السادسة من مساء هذا اليوم عدتُ من المستشفى حيث كانت زوجي معلّقة بين الموت والحياة بعد مخاضٍ عسير إنتهى بإجراء العملية القيصرية لها. خرجتُ من محطة قطار تحت الأرض بالقرب من كارلسبلاتز Karlsplatz لأجد نفسي غارقاً في خضم من الغوغاء النازيين وهم يهتفون هتافات هستيرية ويندفعون كالموج الى قلب المدينة. هذه السحن المتقلبة رأيتها من قبل في إجتماع حزبي عام بنورمبرگ. كانوا يزعقون "سيگ هايل! (تحية من الاعماق! Sieg Heil) هايل هتلر! هايل هتلر! اشنقوا شوشنك! اشنقوا شوشنك!" والشرطة الذين رأيتهم قبل سويعات يفرقون عصابة صغيرة من النازين بكل سهولة، وجدتهم الآن واقفين على مبعدة يبتسمون.

سمع شوشنك وقع الخطى وخفق النعال وصياح الغوغاء فطاش صوابه وهرع الى الرئيس ليتقدم بالرجاء الأخير. لكنه يقول: ظل الرئيس ميكلاس مصراً. ورفض أن يعين نازياً في منصب المستشار. واجاب على إلحاحي بتعيين (سييس إنكوارت) كلكم تخليتم عني الآن، كلكم!" لكني لم أجد مخرجاً آخر إلاّ (سييس إنكوارت). تشبثت - بالأمل القليل الذي خلفته في نفسي وعوده لي. تشبثت بسمعته الشخصية ككاثوليكي مواظب ورجل مستقيم(٣٥)."

تشبث (شوشنك) بأوهامه حتى النهاية!!

عندئذ اقترح المستشار الساقط أن يوجه كلمة وداع من الإذاعة يفسر فيها أسباب إستقالته. ويقول أن ميكلاس وافق وإن نفى ميكلاس ذلك فيما بعد. كانت أشد كلمة اذاعية هزاً للمشاعر سمعتها في حياتي. لقد وضع الميكرفون على بعد زهاء خمس خطوات من الموضع الذي سقط دولفوس مضرجاً برصاص النازي.

"...[يقول شوشنك] سلمت الحكومة الألمانية الرئيس ميكلاس إنذاراً هذا اليوم، وهو محدد بوقتٍ يؤمر فيه أن يعين للمستشارية شخصاً اراده الحكومة الألمانية بالذات... والاّ قامت القوات الألمانية

٣٥- "صلاة جناز النمسا" ص٥١.

بغزو النمسا. إني أعلن للعالم أجمع أن الأنباء التي روجتها ألمانيا بخصوص وقوع حوادث فوضى قام بها العمال، وجريان انهار الدماء والجثث في الشوارع وتسبب حالة أعجزت الحكومة النمساوية عن السيطرة عليها، أعلن أن هذا كله أكاذيب من الألف الى الياء. لقد طلب مني الرئيس ميكلاس أن أقول للشعب النمساوي إننا أذعنّا للقوة الغاشمة، لكوننا نأبى حتى في هذه الساعة الرهيبة أن تسفك الدماء. لقد قررنا أن نأمر الجيش بعدم إبداء اي مقاومة[٣٦] لذلك أودع الشعب النمساوي بكلمة وداع ألمانية، أخرجها من أعماق قلبي: حفظ الله النمسا!"

قد يستأذن المستشار بالانصراف، لكن الرئيس الصلب لم يكن بعد مستعداً لذلك. وعلم (گورنگ) بذلك عندما خابر الجنرال (مُف) بالتلفون بعد أذاعة كلمة (شوشنك) بقليل وقال له:

- خير الحلول أن يستقيل ميكلاس

فأجابه (مُف): "أجل لكنه يأبى ذلك. شيء روائي من أطرف ما يمكن. لقد كلمته زهاء خمس عشرة دقيقة. فأعلن أنه لن يذعن للقوة مهما كانت الظروف."

لم يصدق گورنگ أذنيه ولا الكلمات فهتف: "هكذا إذن؟ إنه لن يذعن للقوة؟"

فكرر الجنرال: "إنه لايذعن للقوة".

- إذن فهو يريد ان يُركل؟

فقال (مُف): أجل إنه قعيد الدار لايريد ان يبرحها.

فضحك گورنگ وقال: "حسن! من كان أباً لأربعة عشر ولداً فلا مناص له من البقاء قعيد الدار. قل لـ(سييس) أن يتولى أمره.

ما زالت ثم مسألة البرقية التي يحتاجها هتلر لتبرير غزوه. كان الزعيم الآن- كما وصفه پاپن الذي لحق به في دار المستشارية ببرلين "على شفا الإنهيار العصبي" فالرئيس النمساوي العنيد يفسد عليه خططه مثل (سييس إنكوارت) بسبب إمتناعه عن إرسال البرقية التي تدعو هتلر الى إرسال جيش

٣٦- انكر ميكلاس في شهادته السالف ذكرها أنه طلب من (شوشنك) ان يقول شيئاً ما من هذا القبيل أو حتى موافقته على إذاعة كلمة للشعب النمساوي. وبعكس مـا زعمه المستشار المستقيل فإن الرئيس لم يكن مستعداً للإذعان بعد الى القوة. ويقول أنه قال لشوشنك "إن الأمور لم تصل بعد الى الحد الذي يحملنا على الإستسلام". وكان قد رفض قبل قليل الإنذار الألماني الثاني. وبقي واقفاً وقفة صلبة إلاّ ان إذاعة شوشنك ساعدت فعلاً على تقويض مركزه وغلت يده. إذ أننا سنرى كيف ظلّ الرئيس الشيخ العنيد مصراً على موقفه ساعات عديدة بعد ذلك، ثم استسلم. وفي الثالث عشر من آذار رفض التوقيع على قانون الوحدة (انشلوس) الذي أطفأ إستقلال النمسا ومحاها من الوجود. وهو القانون الذي اصدره هتلر بناءً على إلحاح من (سييس إنكوارت) وقال أنه لم يستقل إستقالة رسمية ابداً. وانه كان قد سلم وظائفه الى المستشار النازي. بقدر ما حيل بينه وبين ممارسته إياها. وأوضح فيما بعد أمام محكمة ڤيينا إن ذلك "سيكون جبناً عظيماً" على ان ذلك لم يمنع (سييس إنكوارت) من الإعلان رسمياً في ١٣ آذار بأن "رئيس الجمهورية بناءً على طلب من المستشار قد إستقال من منصبه" وان كل "أعماله" انتقلت الى المستشار [مؤامرة النازيين وعدوانهم: الملحق A الص ٥٢٥-٥٣٤ "الوثائق ٢٦٩٧ PS"، المرجع نفسه ج٥ ص٢٠٩ "الوثائق ٢٤٦٥ PS و٢٤٦٦ PS"].

الى داخل النمسا للقضاء على الفوضى. وضاقت به الدنيا ولم يطق صبراً على الحالة فطيّر أمر الغزو في الساعة التاسعة الاّ ربعاً من مساء الحادي عشر آذار[٣٧].

وبعدها بثلاث دقائق كان گورنگ يتصل تلفونياً بـ(كپلر) في ڤيينا.

"إصغ اليَّ جيداً. البرقية التالية يجب أن يرسلها (سييس إنكوارت). أكتبها: [ان الحكومة النمساوية المؤقتة، التي تجد من واجبها بعد إستقالة حكومة شوشنك، الاضطلاع بمهمة إعادة الأمن والنظام في النمسا تبعث الى الحكومة الألمانية برجاء عاجل لمساندتها في المهمة ومعونتها في حقن الدماء. وهي تطلب من الحكومة الألمانية إرسال جيشٍ ألماني بأسرع ما يمكن لهذا الغرض.]

واكد (كپلر) للفليد مارشال أنه سيعرض مسودة البرقية "في الحال" على (سييس إنكوارت).

فقال گورنگ: طيب. لا حاجة تدعوه حتى الى إبراقها وكل ما يطلب منه أن يقول: "موافق"

وبعد ساعة عاد كپلر يتصل ببرلين يقول "أبلغوا الفيلد مارشال ان (سييس إنكوارت) موافق[٣٨].

وهكذا، فعندما مررتُ ببرلين في اليوم التالي وقع نظري على عنوان صارخ في جريدة (ڤولكشتر بيوباختر):

"انقاذ النمسا الألمانية من الفوضى!"

وكان في الصحف قصص لاتصدق أخرجتها مطابخ گوبلز تصف بها الفظائع الفوضوية الحمراء القتال، قتل الناس بالرصاص، النهب والسلب في شوارع ڤيينا الكبرى. وكان ثم نص البرقية الذي نشرته وكالة (د.ن.ب) الرسمية الألمانية للأنباء، زاعمة ان (سييس إنكوارت) أبرقها الى هتلر ليلة أمس. وواقع الأمر هو أن نسختين منها كما أملاها گورنگ عثر عليها في أرشيف وزارة الخارجية الألمانية بنهاية الحرب. وأوضح پاپن كيفية وصولهما فيما بعد. قال أن وزير البرق والبريد الألماني قام بتزويرهما وحفظهما في ملفات الحكومة.

انتظر هتلر وقد مضّه القلق طوال عصر اليوم ومسائه المشحونين. لا لإستسلام الرئيس ميكلاس

٣٧- كتب عليها "سري للغاية" وعلمت بـ"الأمر التوجيهي رقم (٢) لعملية أوتو" ومما جاء فيها "ان مطاليب الإنذار الألماني من الحكومة النمساوية لم تنجز... ولأجل إجتناب سفك الدماء أكثر مما سفك في مدن النمسا، سيبدأ دخول القوات المسلحة الألمانية الى النمسا، بموجب الأمر التوجيهي رقم (١) في فجر يوم ١٢ آذار. اؤمل أن يتم بلوغ الهدف المعين ببذل أقصى الجهود من كل القوات بأسرع ما يمكن: "التوقيع: أدولف هتلر [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٦ ص ١٠١٧ الوثائق ١٨٢ C].

٣٨- في الواقع: حاول (سييس إنكوارت) الى ساعة متأخرة من بعد نصف الليل تحويل هتلر عن عزمه الغزو. وهناك وثيقة في وزارة الخارجية الألمانية تكشف أن الجنرال (مُف) اتصل ببرلين في الثانية بعد نصف الليل (١٢ آذار) يرجو "أن تبقى الوحدات الألمانية المستنفرة في موضعها- بناءً على تعليمات من المستشار سييس إنكوارت- وفي حالة إستنفارها لاتعبر الحدود" وجاء كپلر ايضاً الى التلفون ليعزز الطلب ويظهر ان الجنرال (مُف) الضابط المستقيم من المدرسة القديمة كان مشمئزاً من دوره في ڤيينا. وعندما أبلغ أن هتلر يأبى وقف الجيش أجاب "أنه يأسف للنبأ" [وثائق عن السياسة ج١ الص ٥٨٤-٥٨٦].

وحده بل لكلمة من موسوليني. بات صمت حامي حمى النمسا يبدو منذراً بشرٍّ. وفي العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين صباحاً إتصل الأمير فيليب هسّ بالمستشارية من روما. فأمسك هتلر التلفون بنفسه وسجل تكنيكيو گورنگ المحادثة التي نثبت نصها فيما يلي:

[الأمير] عدت لتوي من بالازو ڤينسيا Palazzo Venezia. ان الدوتشي قبل كل شيء وبمظهر من الود والصداقة الحميمة يقدم لك إحتراماته... شوشنك أبلغه بالنبأ... قال موسوليني أن أمر النمسا لايهمه في شيء.

وكاد هتلر يخرج عن وعيه من فرط السعادة والسرور.

[هتلر] إذن أرجوك قل لموسوليني إني لن أنساه بسبب هذا.

[الأمير] سأفعل ايها الزعيم.

[هتلر] أبداً، أبداً، أبداً. مهما حصل! إني مستعد لعقد إتفاقية أخرى معه مختلفة تماماً.

[الأمير] أجل يا سيدي سأخبره بذلك أيضاً.

[هتلر] حالما تنتهي تسوية مسألة النمسا سأكون على أتم إستعداد للسير معه في السراء والضراء في كل شيء!

[الأمير] أجل ايها الزعيم.

[هتلر] أصغ! إني سأوقع اي إتفاق. إني لم أعد بعد في خوف من الموقف الرهيب الذي كان سيحصل عسكرياً في حالة ما لو إشتبكنا في حربٍ. أبلغه عني أني لأشكرنه من أعماق قلبي لن أنسى ذلك أبداً، أبداً.

[الأمير] أجل ايها الزعيم.

[هتلر] لن أنساه على مأثرته هذه مهما حدث. إن كان بحاجة الى مساعدتي يوماً، إن كان في خطر، فليكن واثقاً بأني سألازم جانبه مهما حدث حتى وان أطبقت الدنيا كلها عليه.

[الأمير] أجل ايها الزعيم.

ما هو الموقف الذي إتخذته بريطانيا العظمى وفرنسا وعصبة الأمم في هذه اللحظة الفاصلة لإيقاف العدوان الألماني على بلادٍ مجاورة مسالمة؟ لا شيء، ففرنسا كانت حينذاك دون حكومة مرة أخرى. في يوم الخميس الموافق ١٠ آذار قدم رئيس الوزراء شوتامپ Chautemps إستقالته وأعضاء حكومته. ولم يكن في پاريس أحد قادر على العمل طوال يوم الجمعة (١١ آذار) العصيب حين كان (گورنگ) يرسل إنذاره الى ڤيينا تلفونياً. ولم تشكل حكومة فرنسية برآسة (ليون بلوم Leon Blum) إلا بعد إعلان الوحدة في الثالث عشر منه.

وبريطانيا؟ في العشرين من شباط، بعد أسبوع على إستسلام (شوشنك) في برختسگادن، إستقال



اللورد هاليفاكس

وزير الخارجية (أنطوني ايدن) وكان سبب إستقالته الرئيس هو معارضته لتنازلات أكثر يقدمها رئيس الوزراء چمبرلين الى موسوليني. فخلفه (اللورد هاليفاكس). وقد رحبت أوساط برلين بهذا التغيير. كذلك كان تصريح چمبرلين لمجلس العموم بعد إنذار برختسگادن. وقدمت السفارة الألمانية في لندن تقريراً كاملاً عن ذلك الى برلين في الرابع من آذار[٣٩] وذكرت عبارة وردت على لسان (چمبرلين): "إن ما حدث [في برختسگادن] لايزيد عن أن رجلي دولة إتفقا على تدابير معينة لتحسين العلاقات فيما بين قطريهما... يبدو من الصعب أن نحكم على دولة بأنها فقدت إستقلالها وتنازلت عنه للدولة الأخرى لأن رجلي دولة إتفقا على إجراء تغييرات داخلية معينة في تلك الدولة- تغييرات مرغوب فيها لمصلحة العلاقات الطيبة التي تربطهما معاً. بالعكس، فإن خطبة المستشار الفيدرالي بتاريخ ٢٤ شباط لاتتضمن شيئاً ما يحمل على الظن أن المستشار الفدرالي (شوشنك) نفسه يؤمن بالنزول عن إستقلال بلاده."

نظراً لأن السفارة البريطانية في ڤيينا قد زودت چمبرلين (كما علمت أنا نفسي في حينه) بتفاصيل إنذار (برختسگادن) الى (شوشنك)، فإن هذه الكلمة التي ألقاها في الثاني من آذار في مجلس العموم كانت والحق يقال تدعو الى الحيرة والدهشة[٤٠] إلا أنّها سرّت هتلر. وعلم منها أنه بات يستطيع إقتحام النمسا دون أن تتعقد أموره مع بريطانيا. ووصل ريبنتروب وزير الخارجية الألمانية الجديد الى لندن في ١٩ آذار لتصفية أعماله في السفارة حيث كان سفيراً، وعقد إجتماعات طويلة مع چمبرلين وهاليفاكس والملك ورئيس أساقفة كانتربري. وكانت إنطباعاته عن رئيس الحكومة البريطانية ووزير خارجيتها كما كتب الى برلين "جيدة جداً" وكتب تقريراً الى هتلر مباشرة، بعد إجتماع طويل مع اللورد هاليفاكس في ١٠ آذار يدور عما ستفصله بريطانيا "إن تعذر حلّ المسألة النمساوية سلمياً". وكان مؤمناً أساساً نتيجة المباحثات في لندن "أن إنكلترا لن تفعل شيئاً بخصوص النمسا"[٤١].

في الحادي عشر من آذار الموافق نهار الجمعة. كان (ريبنتروب) يتناول الغداء في (داوننگ ستريت)

٣٩- المرجع السالف الص ٥٥٣-٥٥٥.

٤٠- شهد (شميدت) محلفاً في نورمبرگ انه (كشوشنك) أبلغ بعثات الدول الكبرى الدبلوماسية بإنذار هتلر. والتفاصيل في [محاكمة مجرمي الكبار ج١٦ ص١٥٣]. فضلاً عن أن مراسلي صحيفتي التايمس والديلي تلغراف بعثا بمعرفتي أنا بتقارير كاملة صحيحة الى صحيفتيهما تلفونياً.

٤١- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج١ ص ٢٦٣.

مع رئيس الحكومة وزملائه عندما دخل موظف دبلوماسي فجأة يحمل تقارير عاجلة لچمبرلين تتضمن الأنباء المقلقة من ڤيينا. وقبل ذلك ببضع دقائق لا غير. طلب (چمبرلين) من ريبنتروب ان يبلغ (الزعيم) "رغبته الصميمة وعزمه الراسخ على تصفية جو العلاقات الأنگلو- ألمانية". والآن وبعد تسلّم هذه التقارير المزعجة انسحب الساسة الثلاثة الى مكتب رئيس الحكومة الخاص وهنا قرأ چمبرلين على الوزير الألماني المنزعج برقيتين صادرتين من السفارة الإنگليزية في ڤيينا بخصوص الإنذار الألماني. وكتب ريبنتروب لهتلر: "إن المناقشة دارت في جو متوتر مشحون، وكان اللورد هاليفاكس الهادىء عادة، أكثر عصبية وهياجاً من چمبرلين، الذي بدا من الخارج على الأقل- هادئاً بارداً". وأعلن ريبنتروب "شكوكه" في صحة التقارير ويلوح أن ملاحظته هذه هدّأت من ثورة مضيفَيه الإنگليزيَين. لأن "وداعنا" كان "ودياً تماماً. حتى هاليفاكس كان هادئاً" على حد ما ذكر في التقرير[٤٢].

وكان ردّ فعل چمبرلين على تقارير ڤيينا أن طلب من (هندرسن Henderson) السفير الإنگليزي في برلين بكتابة تنبيه لوكيل وزير الخارجية (نيوراث) يذكر فيه أنه لو ثبتت صحة التقرير حول الإنذار الألماني للنمسا. "فإن حكومة صاحب الجلالة تشعر من واجبها تسجيل إحتجاج بأشد لهجة"[٤٣].

لكن إحتجاجاً دبلوماسياً رسمياً في مثل هذه الساعة المتأخرة كان أقل المهمات التي تشغل (هندرسن) شأناً ففي اليوم التالي (١٢ آذار) وفيما كانت الوحدات العسكرية الألمانية تتدفق الى داخل النمسا بعث نيوراث بردٍّ مهين الى حد كبير[٤٤] مصرحاً فيه أن العلاقات الألمانية النمساوية هي من شؤون الشعب الألماني الخاصة بصورة مطلقة لا من شأن الحكومة البريطانية وبدأ يردد الأكاذيب بعدم وجود أي إنذار ألماني للنمسا وأنّ الجيش لم يرسل الاّ بناءً على طلب "مستعجل" من الحكومة النمساوية الجديدة وجلب إنتباه السفير البريطاني الى البرقية "التي سبق نشرها في الصحف الألمانية"[٤٥].

كان القلق الوحيد الذي ساور هتلر مساء ذلك اليوم الحادي عشر من آذار هو رد فعل موسوليني

٤٢- أورد تشرتشل وصفاً مضحكاً ممتعاً لهذا الغداء في كتابه "تجمع العاصفة الص ٢٧١-٢٧٨ (كذلك انظر المرجع السالف الص ٢٧٣-٢٧٥).

٤٣- المرجع نفسه ص ٥٧٨.

٤٤- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج١ الص ٥٠١-٥٠٢ [الوثائق ٣٣٨٧ PS].

٤٥- ضُمنت الأكاذيب برقية عامة عممها البارون فون ڤايسيكر من وزارة الخارجية في ١٢ آذار على جميع البعثات الدبلوماسية في الخارج "للمعلومات ولدعم مباحثاتكم بمحتوياتها" زعم (ڤايسيكر) ان تصريح شوشنك المتعلق بالإنذار الألماني هو "محض إختراع" ثم مضى ليقول لدبلوماسييه في الخارج "الحقيقة هي أن موضوع فكرة إرسال قوة عسكرية... قد نشأت اولاً من البرقية المعروفة جداً التي أرسلتها الحكومة النمساوية الجديدة. ونظراً للخطر المحدق بنشوب حرب أهلية قررت حكومة الرايخ أن تستجيب للنداء (نص البرقية في وثائق عن... ج١ الص ٥٨٦-٥٨٧). وبهذا كذبت وزارة الخارجية لا على الدبلوماسيين الأجانب وحدهم بل على دبلوماسييها أيضاً. وفي كتاب كبير تافه كتبه (ڤايسيكر) بعد الحرب نفى ككيثر غيره من الألمان الذين خدموا هتلر أن يكون نازياً. بل كان خصماً على طول الخطّ.

على عدوانه[٤٦]. على أنه كان يوجد بعض قلق في برلين حول الموقف الذي ستتخذه چيكوسلوڤاكيا وماذا ستفعل. ولم يطل الأمر فقد ازال گورنگ الجمّ النشاط غموض هذه النقطة. فبالرغم من إنهماكه في الإتصالات التلفونية للإشراف على تهيئة الإنقلاب في ڤيينا، استطاع أن يختلس فترة في تلك الأمسية ويقصد (دار فليگر Haus der Flieger) حيث كان المُضيف الرسمي لألف موظفٍ كبير ودبلوماسي دُعوا الى سهرة رائعة من موسيقى الأوركسترا والغناء ورقص الباليه لدار أوپرا الدولة. وعندما دخل الوزير المفوض الچيكوسلوڤاكي الدكتور (ماستني Mastny) هرع اليه الفيلد مارشال المحلّى بالأوسمة وإنتحى به جانباً. وأعلمه بكلمة شرفٍ أن چيكوسلوڤاكيا لن تخشى شيئاً من ألمانيا وأن دخول جنود الرايخ الى النمسا ليس الاّ "شأناً من شؤون الأسرة الداخلية" وان هتلر رغب دوماً في تحسين العلاقات مع (پراغ). وطلب مقابل ذلك تأكيداً من چيكوسلوڤاكيا بألا تقوم بتعبئة فترك الدكتور (ماستني) الحفل وتلفن لوزير خارجيته في پراغ ثم عاد الى القاعة ليخبر (گورنگ) أن بلاده لم تقم بتعبئة، وأن چيكوسلوڤاكيا لاتنوي محاولة للتدخل في شؤون النمسا. فإرتاح (گورنگ) وكرر للوزير المفوض تأكيداته مضيفاً اليها قوله أنه مخول بأن يعززها بكلمة هتلر أيضاً.

ويبدو أيضاً أنه لم يتوفر الوقت الكافي حتى للذكيّ الأريب رئيس الجمهورية الچيكوسلوڤاكية الدكتور بينيش Eduard Benes ليدرك في تلك الأمسية أن نهاية النمسا تعني نهاية چيكوسلوڤاكيا أيضاً. وجد بعض الناس في أوروپا ممن اعتبر الحكومة الچيكية قصيرة النظر، واعتقد أن إحتلال النمسا جعل الوضع الستراتيجي الچيكوسلوڤاكي محفوفاً بأعظم الأخطار حيث الجيش الألماني يحيط بها من ثلاث جهات وافترضا لو أنها تدخلت لإنقاذ النمسا لجرّت روسيا معها ولدخلت فرنسا وبريطانيا فضلاً عن عصبة الأمم جميعاً في صدام مع الرايخ الثالث وهو الصدام الذي ما كان يقوى النازيون على الصمود أمامه. واستنتجوا أن الواجب كان يقضي بالتدخل الچيكوسلوڤاكي في الحادي عشر من آذار. لكن الأحداث التالية التي ستدوّن هنا بعد قليل تدحض هذه المناظرة دحضاً تاماً. فبعد برهة وجيزة نكصت الديمقراطيات الغربية وعصبة الأمم عن إتخاذ مثل هذه الخطوة عندما أتيحت لها فرصة أفضل من هذه الفرصة لكبح جماح هتلر. ومهما يكن من أمرٍ فإن (شوشنك) لم يرسل في ذلك اليوم المشهود نداءً واحداً رسمياً الى لندن أو پاريس أو پراغ أو جنيف. ويفهم من مذكراته أنه كان يرى ذلك تبديداً للجهد ومضيعة للوقت. أما الرئيس (ميكلاس) فقد اتضح من إفادته فيما بعد، أنه كان معتقداً بأن الحكومة النمساوية، التي كانت قد أبلغت فوراً كلاً من لندن وپاريس بالإنذار الألماني. مازالت مستمرة "في مداولاتها" مع الحكومتين البريطانية والفرنسية طوال العصر حتى تتأكد من "وجهات نظرهما".

٤٦- أكّد الفيلد مارشال فون مانشتاين في شهادته بنورمبرگ (٩ آب ١٩٤٥) "في الوقت الذي سلمنا هتلر الأوامر المتعلقة بالنمسا كان قلقه الرئيس ليس التدخل الأجنبي من جهة الدول الغربية. لكن قلقه الوحيد كان موقف إيطاليا منه. اذ كان يظهر ان إيطاليا تنحاز دائماً الى النمسا وهابسبرگ [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج٢٠ ص ٦١٥].

وعندما أصبح جلياً أن "وجهات نظرهما" لم تكن غير ترديد إحتجاجات فارغة. أذعن الرئيس ميكلاس قبل نصف الليل بفترة قصيرة. وعيّن "سييس إنكوارت" مستشاراً وصادق على قائمة أسماء وزرائه. وعلق على ذلك بمرارة في ما بعد "لقد تركت وحيداً، سواء في بلادي أو خارجها".

وأصدر هتلر بياناً فخماً الى الشعب الألماني، برر فيه إعتداءه، بإحتقاره المعهود للحقيقة. ووعد أن يتاح للشعب النمساوي فرصة لإختيار مستقبله "بإستفتاء حقيقي" (وقد تلاه گوبلز من الإذاعتين الألمانية والنمساوية ظهر الثاني عشر من آذار) ثم توجه الى وطنه. وقوبل بحفاوة منقطعة النظير وكان في كل قرية- أزينّت بعجلة على شرفه حشود من المستقبلين المحيين. ووصل عصراً هدفه الأول "لينز" حيث قضى أيام دراسته. وكان الإستقبال حماسياً يدير الرأس، حتى مسّ شغاف قلبه. وفي اليوم التالي، بعد ان طيّر برقية لموسوليني "لن أنساك لهذا!" وضع إكليلاً من الزهر على قبري والديه في (ليودنك) ثم عاد الى (لينز) ليلقي خطبة: عندما خرجت من هذه المدينة قبل سنوات. حملت معي العقيدة التي تملأ اليوم جوانب قلبي. الا احكموا على عمق مشاعري. بعد ان تمكنت من تحقيق هذه العقيدة وايصالها الى حيز الوجود، بعد هذه السنين الطوال إن دعتني العناية الإلهية يوماً ما من هذه المدينة لأكون زعيماً للرايخ فلابد وانها حمّلتني رسالة بعملها هذا. وهذه الرسالة لن تكون إلاّ إعادة موطني العزيز الى أحضان الرايخ الألمانيّ. لقد آمنت بهذه الرسالة. وعشت أحارب لأجلها. واعتقد اني حققتها الآن".

وفي عصر ذلك اليوم طار (سييس إنكوارت وهملر) الى (لينز). لإستقبال هتلر. وأعلن أولهما بفخر أن المادة (٨٨) من معاهدة (سان جرمان) التي تنص على "أن إستقلال النمسا لايمكن النيل منه"، وجعلت عصبة الأمم ضامنة له- هذه المادة أصبحت لاغية. ولم يكن هذا بكافٍ لهتلر الذي دار رأسه بحماسة الجمهور النمساوي. فأمر الدكتور ڤلهلم شتوكارت Wilhelm Stuckart الوكيل في وزارة الداخلية (وكان وزيره فريك قد أرسله الى ڤيينا على جناح السرعة ليصنع مسودة قانون يجعل فيه هتلر رئيساً لجمهورية النمسا) أن يأتي حالاً الى لينز وقد أدركت هذا الخبير القانوني الدهشة عندما أمره (الزعيم) "بوضع مسودة قانون بالوحدة التامة" كما شهد هذا الرجل في نورمبرگ[٤٧].

قدم (شتوكارت) هذه المسودة للحكومة النمساوية الجديدة في ڤيينا في نهار الأحد ١٣ آذار وهو اليوم الذي كان قد تقرر لإجراء إستفتاء (شوشنك) فرفض الرئيس (ميكلاس) التوقيع عليها كما رأينا. إلاّ (سييس إنكوارت) الذي سيطر على سلطات الرئيس أسرع بتوقيعها وطار بها في مساء ذلك اليوم الى لينز ليقدمها الى هتلر وبها انتهى كيان النمسا كدولة. وابتدأت ديباجتها "النمسا هي أقليم من الرايخ الألماني" وذكر (سييس إنكوارت) أن هتلر ذرف دموع الفرح[٤٨].

٤٧- محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج٥ ص٦٣٢.
٤٨- مذكرة (سييس إنكوارت) في نورمبرگ: ٩ أيلول ١٩٤٥ [مؤامرة... ج٥ الص٩٦١-٩٦٢، الوثائق PS ٣٢٥٤].

ووقعت الحكومة الألمانية أيضاً هذا القانون الموسوم بـ"قانون الوحدة" في اليوم ذاته في لينز وصادق عليه هتلر وگورنگ وريبنتروب وفريك وهسّ. وقرر القانون إجراء "إستفتاء حر سرّي" في العاشر من نيسان ليقرر النمساويون فيه "مسألة التوحيد مع الرايخ الألماني". وأعلن هتلر في ١٨ آذار أن ألمان الرايخ سيجري إستفتاؤهم أيضاً على الوحدة. الى جانب إنتخابات الرايخشتاغ الجديدة.

ولم يدخل هتلر ڤيينا دخول الظافر (حيث عاش مدة طويلة عيشة أفّاق) إلاّ في عصر يوم الإثنين الموافق ١٤ آذار. فقد أخّره عائقان لم يكونا في الحسبان. مع الفرح العظيم الذي أظهره النمساويون لرؤية هتلر في العاصمة طلب (هملر) يوماً إضافياً لإحكام إجراءات الأمن وتشديدها. وكان قد باشر في توقيف آلاف ممن "لايوثق بهم" حتى بلغ العدد خلال الأسابيع القلائل التالية (٧٩٠٠٠) موقوفاً في ڤيينا وحدها. كذلك تعطلت وحدات البانزر Panzer الألمانية وهي مفخرة الجيش الألماني قبل وصولها مشارف ڤيينا بمسافة طويلة. ويذكر (يودل) أن ٧٠٪ من المصفحات جنحت على جانب الطريق من سالزبرگ وپاساو Passaw حتى ڤيينا. وإن زعم الجنرال غودريان Guderian قائد الوحدات الآلية. – ان ٣٠٪ من قواته فقط قد تعطلت. وعلى كل حال فإن التأخير أثار هتلر كثيراً ولم يبق في ڤيينا الاّ ليلة واحدة، ونزل في الفندق الإمبراطوري Hotel Imperial.

رغم ذلك فإن العودة الظافرة الى العاصمة الإمبراطورية السابقة التي نبذته واوصلته الى شفا الجوع في أيام صباه وقذفت به الى حياة الزقاق الشقية. وهي الآن تهتف له بفرح طاغ، لم تخفق في إشاعة الانتعاش في روحه. حتى أن پاپن المصانع الذي استقل الطائرة من برلين الى ڤيينا للمشاركة في المهرجانات، فوجد هتلر على منصة الإستعراض العسكري مقابل هوفبرگ Hofburg قصر آل هابسبرگ العتيق فكتب في وصفه "لايسعني وصفه إلاّ أنه كان في أقصى حالات الغبطة"(٤٩).

وبقي هكذا معظم الأسابيع الأربعة التالية، وهو يجوب أنحاء ألمانيا والنمسا طولاً وعرضاً، يثير

٤٩- على أنه كان يبطن تحت هذه الغبطة وهو مما أخطأه پاپن الضحل التفكير شعوراً محرقاً بالنقمة على مدينة وشعب لم يقدراه أيام شبابه. وهو يحتقرهما من أعماق قلبه. يدل على هذا، اقامته القصيرة في البلاد. وان كان سيقول بعد أسابيع قليلة لعمدة مدينة ڤيينا "كن على يقين ان هذه المدينة في عينيّ، جوهرة– وسأرصعها في رصيعة قمينة بها" وهذا القول هو دعاية إنتخابية أكثر منه تعبيراً عن مشاعر حقيقية. أما الأحاسيس الحقيقية فقد صارح بها (بالدر فون شيراخ) حاكم ڤيينا النازي، وگاولاتيرها، أثناء الحرب. في إجتماع صاخب جرى في برگهوف عام ١٩٤٣. وقد وصفه في افادته أمام محكمة نورمبرگ قال فون شيراخ:

"ثم بدأ (الفوهرر) بما يمكن نعته حقدٌ لايصدق ولا يمكن تحديده على أهالي ڤيينا... وفي الرابعة فجراً قال هتلر فجأة شيئاً أريد أن اسجله هنا لأسباب تاريخية قال كان يجب عدم إدخال ڤيينا في وحدة ألمانيا الكبرى. لم يحبّ هتلر ڤيينا وهو يكره أهلها" [محاكمة مجرمي الحرب الكبار: ج١ ص٤٢٩]

لقد قضت على غبطة پاپن في ١٤ آذار وافسدت طيب مزاجه حادثة في اليوم نفسه تتعلق باختفاء ڤلهلم فون كتلر Von Ketteler صديقة الحميم ومساعده في السفارة الألمانية تحت ظروف تشير الى مكيدة دبرها له الگشتاپو. وقبلها بثلاث سنين هرب الى إنگلترا صديقه ومعاونه في السفارة (تشيرسكي Tschirschky) لينقذ نفسه من موت محقق على يد الگشتاپو. وفي أواخر نيسان وجدت جثة (كتلر) وانتشلت من مياه الدانوب حيث قذفها شقاة الگشتاپو بعد قتله.

حماسة الجماهير ويدفعهم دفعاً الى "نعم! Ja" ضخمة، لجانب الوحدة. على أن خطبه الوافرة لم تضيّع فرصة واحدة في شتم (شوشنك) ومضغ الأكاذيب (التي أصبحت الآن غثة) عن كيفية تحقيق الوحدة. وأكد في خطابه للرايخشتاغ (١٨ آذار) أن (شوشنك) قد حنث بالوعد الذي قطعه بحيلته "الإنتخابية" واضاف يقول "لايفعل ذلك إلاّ المجنون الأعمى" وفي ٢٥ آذار أصبحت "الحيلة الإنتخابية"، "هذه المهزلة السخيفة" كما وصفها في كوينكسبرگ وأدعى العثور على رسائل تثبت ان (شوشنك) كان يتواطأ ضده ويخادعه بتباطئه في تنفيذ شروط برختسگادن حتى "تعن له الساعة المناسبة لإثارة القوى الأجنبية ضد ألمانيا".

وفي (كوينكسبرگ) ردّ هتلر أيضاً على هجمات الصحافة الأجنبية لإستخدامه القوة الغاشمة والحيلة في إعلان الوحدة دون إنتظار نتيجة الإستفتاء. "قالت صحف أجنبية معينة أننا وضعنا يدنا على النمسا بأساليب همجية، وليس لي إلاّ أن أقول: إنهم لايكفون عن الكذب حتى ساعة الموت. في مراحل كفاحي السياسي فزت بحب شعبي. ولكن عندما تخطّيت الحدود ([الى النمسا] قوبلت بسيل عرمٍ من الحب لم أصادفه في حياتي. أننا لم نأتِ كما يأتي الطغاة بل أتينا محررين... وبتأثير هذا الإنطباع القوي قررت ألاّ أنتظر العاشر من نيسان بل القيام بإنجاز الوحدة حالاً..."

ليس في هذا منطق ولا إستقامة خلق في أذن الأجنبي. ولكن لاشكّ أنه كان طيب الأثر في نفوس الألمان. وعندما توجه هتلر بندائه العاطفي وبصوت مختنق بالتأثر في خطبة بالرايخشتاغ "أيها الألمان أعطوني أربع سنوات أخرى حتى أتمكن من إستغلال عملية الوحدة لمنفعة الجميع!" قابلته عاصفة كاسحة من التهليل والهتاف جعلت كل إنتصاراته السابقة في هذا المجلس شيئاً تافهاً صغيراً.

وافتتح (الزعيم) حملة الإقتراع في ڤيينا في التاسع من نيسان. بخطبة في مساء اليوم السابق له. إن الرجل الذي كان يوماً يتسكع على أرصفة المدينة متشرداً قذراً خاوي البطن، الرجل الذي ظفر قبل أربع سنوات في ألمانيا بسلطات ملوك هوهنزلرن وهو الآن يتولى سلطات أباطرة هابسبرگ، بات الآن على يقين تامٍ برسالته الإلهية:

"إني موقن بأن إرادة الله هي التي قضت بإرسال شابٍ من هنا الى الرايخ وجعلته يشبّ وينمو ليصبح زعيم الشعب، حتى يكون قادراً على أن يعيد سقط رأسه الى حظيرة الرايخ.

هناك رسالات عليا ونحن لسنا إلا أمناء عليها. عندما حنث (هر شوشنك) بإتفاقيته في ٩ آذار. في تلك اللحظة بالذات ما شعرت إلا ووحي العناية الالهية قد نزل عليّ. وأن هذا الذي حصل في الأيام الثلاثة الماضية لايمكن تفسيره إلا بتحقيق رغبة وإرادة هذه العناية الإلهية.

في ثلاثة أيام محقهم الله القدير محقاً! وحلت فيّ بركتُه وآلاؤه في يوم الخيانة والغدر لأكون قادراً على توحيد موطني بالرايخ!

اني الآن ارفع الشكر له، ذلك الذي اعادني الى موطني حتى اقوده إلى رايخي الألماني! غداً

سيدرك كلّ ألماني الساعة والأهمية التي تستبطنها الساعة، وسينحني باتضاعٍ أمام الرب القدير الذي حقق لنا معجزة في غضون أسابيع قليلة!"

والإستنتاج المفروغ منه أن الأغلبية النمساوية التي كانت بلا ريب ستصوّت لشوشنك (بنعم) في ١٣ آذار، قالت الكلمة نفسها لهتلر في (١٠) نيسان. كان كثير منهم مخلصين في إعتقادهم بأنه لابد من وحدةٍ مع ألمانيا مهما كان شكلها. حتى مع ألمانيا نازية فهي محتومة كما هي مرغوب فيها. فبعد أن بترت النمسا عن أراضيها الواسعة السلافية والهنغارية ١٩١٨ باتت لاتستطيع في الزمن الطويل البقاء والعيش عيشه راضية بنفسها الاّ بصيرورتها جزءً من الرايخ الألماني يضاف الى هؤلاء النمساويين النازيون المتعصبون الذين كانوا يزدادون عدداً بسرعة الى جانب العاطلين والشغيلين الذين اجتذبهم النجاح. وكانوا متلهفين لتحسين اوضاعهم. ولاشك أن كثيراً من الكاثوليك في هذه البلاد الكاثوليكية تقريباً قد إستمالهم تصريح الكردينال "إينتزر Innitzer" مرحّباً بدخول النازي الى النمسا وحاثاً على التصويت بنعم[٥٠] في إنتخاب حر عادل يجد الديمقراطيون والإشتراكيون وجماعة (شوشنك) الإشتراكيون المسيحيون حريتهم في المشاركة بحملة الإستفتاء علناً. قد يكون الإستفتاء في إعتقادي مغلقاً أما في هذا الوضع فالنمساوي الذي يصوت (بلا) هو لاشك في غاية الشجاعة كما هو الحال في ألمانيا. والسبب لايخلو من وجاهة فالمقترعون يخشون أن تكتشف حقيقة الصوت الذي اعطوه بالنفي. ففي منطقة إنتخابية زرتها في ڤيينا نهار الأحد عصراً وجدت فرجة واسعة في زاوية غرف الصناديق مما يتيح للجنة الإنتخاب النازية الجالسة على خطوات قليلة، مجالاً حسناً لرؤية ما يقترع الناخب عليه. أما في المناطق الريفية فقليل من يكترث أو يجرأ على إلقاء أصواته بشكل سرّي في غرفة الصناديق فهم يقترعون علناً وأمام انظار الجميع. لقد إتفقت إذاعتي أنْ تبدأ في الساعة السابعة والدقيقة الثلاثين ذلك المساء. أي بعد نصف ساعة من قفل باب الإقتراع وعندما كانت تعد الأصوات القليلة الباقية. فأكد لي موظف نازي قبل الإذاعة أن النمساويين قد صوتوا (بنعم) بنسبة ٩٩٪ وكان الرقم الرسمي الذي أعطي فيما بعد: ٩٩,٨٪ في ألمانيا الكبرى و٩٩,٧٥٪ في النمسا.

وهكذا اختفت النمسا -كنمسا- من مسرح التاريخ لفترة معينة وشطب اسمها نفسه النمساويون الحاقدون الذين ألحقوها بألمانيا. ورمج اسم النمسا الألماني القديم (أويسترايخ Oesterreich) وأصبحت النمسا (اوستمارك Ostmark) ثم ما لبث هذا الأسم أن اسقط واهمل وراحت برلين تدير البلاد على شكل مناطق Gaue التي تقارب نوعاً ما الأقاليم (ليياندر Laender) التاريخية، كالتيرول وسالزبزگ وشتيريا Styria وكارنيثيا Carinttia. وأصبحت ڤيينا مجرد مدينة من مدن الرايخ، مركز منطقة اقلمية

٥٠- بعد أشهر قليلة (٨ تشرين الأول) نهب قصر الكردينال الذي يقع مقابل كاتدرائية القديس اسطيفان رجال العصابات النازية. أدرك (إينتزر) بعد وقت متأخر جداً ما هي حقيقة القومية الإشتراكية. وراح يتكلم في موعظة له عن اضطهاد النازين لكنيسته.

ادارية، وبدأت تذوى. إن المتشرد السابق والدكتاتور الحالي مسح موطنه من وجه خارطة العالم وجرد عاصمته الزاهرة من آخر خيط من خيوط المجد والشهرة. فكانت خيبة النمساويين أمراً لا مفر منه.

كان سلوك النازيين الڤينيين في الأسابيع القلائل الأولى أسوأ من كل ما عرفته ورأيته في ألمانيا. كان ثم موجة كاسحة من السادية. يمر اليوم أثر اليوم لترى أعداداً كبيرة من اليهود رجالاً ونساءً وهم يمسحون لافتات (شوشنك) من أركان الطرق والشوارع، ويقومون على تنظيف الأرصفة وتصريف مياهها القذرة. وفي أثناء عملهم وهم جاثون على ركبهم وأيديهم كان جنود العاصفة الواقفون يسخرون بهم ويهزأون ويتجمع المارّة عليهم يقذفونهم بالنكات اللاذعة والشتائم. وقبض على مئات من الرجال والنساء اليهود وهم سائرون في الشوارع واجبروا على العمل في تنظيف المراحيض العامة ودورات مياه الثكنات التي يسكنها حرس الـ(إس. أي) والـ(إس. إس). واودع التوقيف عشرات الألوف منهم. وصودرت ممتلكاتهم ومقتنياتهم أو سرقت. لقد راقبت أنا نفسي من شقتي في پلوسلكاس Plosslgasse زمر الحرس الأسود وهي تنقل السجاجيد واواني الفضة والصور الزيتية وغيرها من المنهوبات من قصر روتشيلد Rothchild المجاور. واستطاع البارون لويس دي روتشيلد نفسه أن يبتاع فيما بعد. خروجَه من ڤيينا بتسليم مصانع فولاذه الى مصانع هرمان گورنگ. ويغلب على الظن أن نصف سكان المدينة اليهود البالغ عددهم (١٨٠٠٠٠) أفلحوا في شراء حرياتهم قبل بداية الحرب والهجرة الى الخارج بالنزول عن مقتناهم للنازيين.

هذه التجارة الرابحة في حرية الإنسان، اشرف عليها مكتب للحرس الأسود أقامه (هيدريخ) وعرف باسم "مكتب الهجرة اليهودية" وقد أصبح الدائرة النازية الوحيدة المخولة حق إصدار جوازات سفر لليهود الى خارج البلا.د وقد رأسه من البداية الى النهاية نازي نمساوي ابن "لينز" مدينة هتلر واسمه (كارل أدولف آيخمان Karl Adolf Eichmann) وقدر للمكتب أن يصبح مكتباً للقضاء على البشر، وتنظيم قتل أكثر من أربعة ملايين من الأنفس معظمهم من اليهود.

وأفاد هملر وهيدريخ من فترة بقائهما في النمسا خلال الأسابيع القلائل التي عقبت، لاقامة معسكر إعتقال ضخم في ماوتهاوزن Mauthausen على الضفة الشمالية من الدانوب قرب (اينس Enns). لقد كان يصعب جداً نقل آلاف النمساويين الى معسكرات الإعتقال الألمانية. وارتأى هملر أن النمسا في حاجة الى معسكر إعتقال خاص بها. وقبيل التطويح بالرايخ الثالث وجد أن المعتقلين غير النمساويين فيه يزيدون عن نزلائه المحليين. وقدر لـ(ماوتهاوزن) أن يحطم الرقم القياسي بين معسكرات الإعتقال الألمانية [ذلك لان معسكرات الإفناء الشرقية كانت شيئاً آخر] فقد فخر بأعظم رقم رسمي لعدد من تم إعدامهم فيه وهو (٣٥٣١٨) في ظرف ست سنوات ونصف سنة من انشائه.

وبالرغم من إرهاب الگشتاپو الذي نظمه هملر وهيدريخ بعد ضمّ النمسا، تقاطر الألمان بمئات الألوف الى النمسا حيث كان يمكنهم أن يدفعوا بماركاتهم ثمن أكلات فخمة لاتتيسر لهم في ألمانيا

بين سنين وسنين. وحيث يقضون عطلاً بتكاليف زهيدة جداً في بحيرات النمسا وجبالها التي لاتضاهى. وتدفق رجال الصناعة والمال لشراء الشركات والبيوت التجارية المصادرة من اليهود وأعداء النازية بجزء تافه من أثمانها الحقيقية. وكان من بين الزائرين الباسمين الدكتور شاخت النادر المثال. فمع خصامه مع هتلر كان وزيراً (بلا وزارة). وقد جاء للإستيلاء على البنك الوطني النمساوي لمصلحة بنك الرايخ قبل الإستفتاء بوصفه رئيساً له وتكلم في موظفي البنك في (٢١) آذار متهكماً على الصحافة الأجنبية لانتقادها أساليب هتلر في تحقيق الوحدة. ودافع بشدة عن تلك الأساليب متحجّاً بأن الإتحاد تم "على أثر ما لايحصى من أعمال الغدر والوحشية والعنف التي مارستها الدول الأجنبية ضدنا ونحن نشكر الله... لأن أدولف هتلر خلق وحدة في إرادة الألمان وفي افكارهم. وسيّجها بالجيش الألماني المتقوّي ثم أعطى أخيراً الشكل الخارجي للوحدة الداخلية بين ألمانيا والنمسا...

"لن يجد شخص واحدٌ مستقبلاً له معنا إن لم يعمل لأدولف هتلر قلباً وقالباً وبإخلاص تام... لن يكون بنك الرايخ الاّ قومياً إشتراكياً. ولست أنا رئيسه إن لم يكن كذلك."

وبعدها سمع شاخت يمين الولاء من الموظفين النمساويين ليكونوا "مخلصين ومطيعين للزعيم" ثم هتف "من يحنث به نذل ساقط! ثم تقدم سامعيه بهتاف التحية لهتلر "تحية من الاعماق![٥١] زيگ هايل".

وفي الوقت نفسه ألقي القبض على (شوشنك) وتعرض لمعاملة مهينة الى حدّ يصعب أن يعتقد أنها لم تكن بإيعاز من هتلر نفسه. وضع تحت الحجز المنزلي من ١٢ آذار حتى ٢٨ أيار. وفي أثناء هذه الفترة تعمد الگشتاپو أن يحرمه من النوم مطلقاً، بأساليب وحيل شيطانية ثم أخذ الى مقرّ الگشتاپو في فندق متروپول بڤيينا وهناك حبس في غرفة صغيرة من غرف الطابق الخامس مدة سبعة عشر شهراً وأجبر على تنظيف الغرف والمغاسل واواني القاذورات والمراحيض الخاصة بحرس الـ(إس. إس) بالمناشف المخصصة لإستعماله الخاصّ. الى جانب اي أشغال يدوية مختلفة أخرى قد لاتخطر إلاّ ببال الگشتاپو. وبحلول ١١ آذار وهو الذكرى السنوية الأولى لسقوطه، كان قد فقد ثمانية وخمسين پاونداً من وزنه (حوالي ٢٩ كيلو) إلاّ أن طبيب الـ(إس. إس) كتب بتقريره أن حالته الصحية ممتازة. وعن سنوات الحبس الإنفرادي ثم عن الحياة "مع الموتى الاحياء" في بعض اشنع معسكرات الإعتقال الألمانية (كداخاو) و(ساخسنهاوزن) بعدها، فقد وصفها في كتابه[٥٢].

بعد توقيفه بقليل سمح له بالزواج عن طريق التوكيل. بالكونتيس ڤيرا كزرنين Vera Czernin التي كانت محكمة كنسية قد ألغت زواجها الأول[٥٣]. وسمح لها في آخر سنوات الحرب أن تساكن زوجها وتعاشره في معسكرات الإعتقال مع طفلهما الذي ولد لهما في ١٩٤١. كانت معجزة حقاً أن يبقوا

٥١- نص خطبة شاخت [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٧ الص٣٩٤-٤٠٢ الوثائق-A ٢٩٧EC].
٥٢- "صلاة جناز النمسا".
٥٣- في هذا الزمن كان شوشنك أرمل.

في قيد الحياة ويخرجوا من هذا الكابوس أحياء. وقبيل النهاية أنضم اليهم مشاهير الشخصيات من ضحايا سخط هتلر أمثال الدكتور (شاخت وليون بلوم) رئيس الحكومة الفرنسية وزوجته (السيدة بلوم). والقسّ الشهير (نيمويللر) وعدد كبير من الجنرالات والقادة العسكريين الكبار، والأمير (فيليب) أمير هسّ وزوجه الأميرة (مافالدا) بنت ملك إيطاليا التي قتلها حرس الـ(إس. إس) في معسكر بوخنڤالد ١٩٤٤، وكان قتلها جزءً من انتقام هتلر، لتخلي ابيها الملك ڤكتور امانوئيل عنه وإنضمامه الى الحلفاء.

في (١) أيار ١٩٤٥ وصل هؤلاء السجناء العظام- الذين نقلوا على وجه السرعة من (داخاو) وسيقوا جنوباً لإبقائهم بعيدين عن القوات الأمريكية المتقدمة من الغرب خشية تحريرهم- وصلوا قرية تقع في ذروة من جبال التيرول الجنوبية. وأطلَعَ ضباطُ الگشتاپو شوشنك على قائمة بأسماء الذين ينبغي قتلهم بناءً على أوامر هملر - قبل وقوعهم في يد الحلفاء. ولاحظ (شوشنك) اسمه واسم زوجه فيها "مطبوعة طبعاً أنيقاً" فوهى عزمه، بعد أن عاش هذه المشاق وخرج من الأهوال... متحملاً صابراً... يقتل في آخر لحظة!

ومهما يكن فقد استطاع شوشنك في ٤ أيار أن يكتب في يومياته:

"في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم. إنذار! الأمريكان!

فصيلة من الأمريكان تحتل الفندق.

نحن أحرار!"

تمكن هتلر دون أن يطلق طلقة واحدة ودونما تدخل من بريطانيا العظمى وفرنسا والإتحاد السوڤياتي، وكانت جيوشها كفيلة بالقضاء عليه، من إضافة سبعة ملايين من الرعايا الى الرايخ والحصول على مركز ستراتيجي ذي قيمة عظيمة جداً لخططه المقبلة. لقد أحاطت جيوشه بچيكوسلوڤاكيا من ثلاث جهات فضلاً عن سيطرته على منطلق الى جنوب شرقي أوروپا، بإمتلاكه مدينة ڤيينا فقد ظلت - بوصفها عاصمة للامپراطورية النمساوية-المجرية زمناً طويلاً مركزاً للمواصلات والخطوط التجارية لأوساط أوروپا وجنوبها الشرقي. هذا المركز العصبي هو الآن في قبضة الألمان.

ولعل أهم ما ناله هتلر هو تأكده للمرة الثانية أن فرنسا وبريطانيا لن ترفعا اصبعاً لوقفه. في ١٤ آذار تكلم چمبرلين في مجلس العموم البريطاني عن "الأمر الواقع" fait accompli في النمسا وراحت السفارة الألمانية في لندن تمطر برلين ببرقيات عاجلة متواصلة معقبة مجرى المناقشة. ولم يكن فيها ما يخشاه هتلر. صرح چمبرلين قائلاً "الحقيقة الراسخة هي لايمكن إيقاف ما سبق وحدث فعلاً [في النمسا] الاّ اذا كانت هذه البلاد وغيرها قد استعدت لإستخدام القوة".

بات واضحاً لهتلر أن رئيس الحكومة البريطاني لم تقصر رغبته على الإمتناع عن إستخدام القوة

بل تعداها الى نبذ فكرة التشاور مع القوى الكبرى الأخرى حول وقف اي حركة ألمانية في المستقبل. وفي ١٧ آذار اقترح الإتحاد السوفياتي مؤتمراً للقوى داخل نطاق عصبة الأمم أو خارجه لإيجاد الوسائل الرادعة الكفيلة بوقف عدوان ألماني آخر. فكان موقف چمبرلين بارداً من اي إجتماع كهذا. ثم مالبث أن رفضه علناً في جلسة مجلس العموم بتاريخ ٢٤ آذار بقوله: "إن النتيجة المحتومة لأي عمل كهذا هي إثارة الإتجاه الى إقامة مجموعات من الدول ستكون بلاشك... معادية لأي من مطامح إحلال السلم الأوروپي". والظاهر أنه غفل أو لم يأخذ مأخذاً جدياً؛ وجود محور برلين روما، والمعاهدة الثلاثية لمكافحة الكومنترن بين ألمانيا وإيطاليا واليابان.

وفي الخطاب نفسه أعلن چمبرلين قراراً لحكومته لابد وأنه زاد من سرور هتلر. فقد رفض رفضاً جازماً اقتراح قيام بريطانيا بضمان مساعدة چيكوسلوڤاكيا في حالة وقوع هجوم عليها، كذلك رفض فكرة مساندة فرنسا إن طلب من الفرنسيين تنفيذ عهودهم وواجباتهم بموجب المعاهدة الفرنسية الچيكوسلوڤاكية. هذا التصريح المباشر خفف من مشاكل هتلر تخفيفاً جماً. فقد أيقن الآن أن بريطانيا ستبقى على مبعدة عندما يثب على ضحيته الثانية. إن وقفت بريطانيا في نجوة أفلا تقف فرنسا أيضاً؟ كان متأكداً من ذلك كما تفضح أوراقه السرية للأشهر القلائل التي تلتها. كان يعرف أن نص المعاهدات الفرنسية الروسية الچيكوسلوڤاكية، لايُلزم الإتحاد السوڤياتي... بمعونة چيكوسلوڤاكيا حتى تتحرك فرنسا أولاً. وهذه المعرفة هي كل ما يحتاجه للإستمرار في تدبير خططه حالاً.

وبإمكان هتلر أن يثق أيضاً أن الجنرالات المترددين لن يعودوا عقبة في طريقه بعد ضم النمسا. وإن كان قد تبقى له ذرة من الشك في ذلك فقد زالت بفضيحة (فريتش).

رأينا في الفصل السابق أن محاكمة الجنرال فون فريتش أمام محكمة شرف عسكرية عن تهمة الشذوذ الجنسي قد قطعت فجأة يوم مباشرتها الموافق ١٠ آذار، عندما استدعي الفيلد مارشال (گورنگ) وقائدا الجيش والأسطول لمعالجة أمور عاجلة بخصوص النمسا. استؤنفت المحكمة في ١٧ آذار ولكن نظراً الى ما حصل خلال فترة التأجيل أصبحت ذات أهمية ثانوية. فقبل أسابيع قليلة كان الجنرالات الأقدمون واثقين أنه عندما ستكشف المحكمة عن المكائد المذهلة الشنعاء التي كادها (هملر وهيدريخ) لفريتش لن يقتصر الأمر على عودة قائدهم العام المعزول الى منصبه بل سيهتز كيان الحرس الأسود من أسسه وربما الرايخ الثالث أو حتى هتلر فيهوون معاً. يا للأمل العقيم الخلاب! في الرابع من شباط (كما يذكر القارىء) هشم هتلر أحلام أعضاء هيئة الضباط القدماء بتسلم قيادة القوات المسلحة وعزل فريتش والإستغناء عن خدمات أغلب الجنرالات الكبار الملتفين حوله. وهو الآن قد احتل النمسا دون ان يطلق رصاصة واحدة. وبعد هذا النصر المدهش لم يعد أحد في ألمانيا حتى الجنرالات الأقدمون يفكرون كثيراً في قضية الجنرال فون فريتش، الحق يقال انه بريّء من التهمة بسرعة بعد

صياح وانتهار من (گورنگ) الذي أثبت وتباهى بكونه أنزه القضاة. وانهار (شميدت) المجرم ذو السوابق المبتز في أثناء المرافعة وإعترف ان الگشتاپو هدده بالقتل إن لم يتهم الجنرال فون فريتش (وهو تهديد نفذوه فيه على كل حال بعد أيام قلائل من المحاكمة) وأن التقارب بين اسمي (فريتش) و(رتمايستر فون فريش) الذي كان يبتز المال منه فعلاً بتهديده بفضح شذوذه الجنسي هو الذي أدى الى حبك الدسيسة. ولم يحاول فريتش أو الجيش فضح دور الگشتاپو الفعلي، ولم يقوموا بالكشف عن إجرام (هملر وهيدريخ) في تزوير التهم الكاذبة. وفي اليوم التالي الموافق ١٨ آذار ختمت المحكمة جلستها بالقرار المتوقع "ثبت عدم إرتكابه الجريمة التي حوكم بها وبرئت ساحته".

كانت براءة لشخص الجنرال فون فريتش غير انها لم تُعده الى قيادته، كما لم تعد الى الجيش مركزه السابق ولا بعض إستقلاله في الرايخ الثالث. وكانت جلسات المحاكمة سرية فلم يعرف الرأي العام شيئاً عنها ولم يدر بالنتائج التي تمخضت بها. وبعث هتلر في ٢٥ آذار ببرقية الى فريتش يهنئه فيها على "عودة صحته اليه". وكان هذا كل شيء.

في حين أبى الجنرال المعزول أن يمد أصبع اتهام الى هملر في أثناء المحاكمة. نراه يأتي بعمل ختامي عقيم. فقد دعا رئيس الشرطة هملر الى المبارزة وكتب التحدي الجنرال (بيك) وفق أدق قواعد شرعة الشرف العسكري القديم وسلّم الجنرال فون روندشدت ليدفع به الى رئيس الإس إس بوصفه الجنرال الأقدم في الجيش. لكن (روندشدت) جبن وارتخت مفاصله وبقى التحدي في جيبه لايفارقه أسابيع وأخيراً نسيه.

وسرعان ما غاب الجنرال فون فريتش وكل ما يمثله عن أفق الحياة الألمانية. لكن ما الذي كان يمثله في النهاية؟ في كانون الثاني كتب الى صديقته البارونة مارغوت فون شوتزبار Margot Von Schutzbar رسالة تدل على مدى البلبلة والإضطراب الذي هوى اليه تفكيره ككثير من الجنرالات الآخرين:

"من الغريب حقاً أن يرقب عدد كبير جداً من الناس المستقبل بخوف متزايد. رغم النجاح المؤكد الذي حققه الزعيم خلال السنوات الماضية... لقد توصلت بعد الحرب بزمن وجيز بأن علينا تحقيق الإنتصار في ثلاث معارك إن أردنا ان نعيد لألمانيا عظمتها:

فأولاً: المعركة ضدّ الطبقة العاملة- هذه المعركة ربحها هتلر. وثانياً: المعركة ضد الكنيسة الكاثولوكية. وربما كان الأوفق أن نعبر عنها بالمعركة ضد Ultramontanism. وثالثاً: المعركة ضدّ اليهود.

ونحن في وسط هذه المعارك الثلاث. واصعبها طراً هي المعركة ضد اليهود وآمل أن يدرك كل شخص مدى التعقيدات فيها[٥٤]."

٥٤- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٤ ص٥٨٥ (الوثائق ١٩٤٧ PS).

وفي ٧ آب ١٩٣٩ عندما بدأت غيوم الحرب تكفهرّ، كتب للبارونة "ليس عندي أي دور لا في السلم ولا في الحرب، في ألمانيا هر هتلر. وسأرافق لوائي كهدف ليس الاّ، لأني لاأستطيع البقاء في منزلي".

وهذا ما فعله تماماً. كان في ١١ آب ١٩٣٨ قد أختير (كولونيلاً أعلى) للوائه التاريخي لواء المدفعية الثاني عشر، وهو لقب فخريّ صرف وفي ٢٢ أيلول ١٩٣٩ كان هدفاً لأحد هدافي المدافع الرشاشة البولنديين أمام وارشو المحاصرة وبعدها بأربعة أيام دفن بمظاهر الشرف العسكري الكاملة في برلين في صبيحة يوم قر مطير مظلم أفظع يومٍ عشته في تلك العاصمة، ودوّنت في مفكرتي.

"بإزاحة فريتش من القيادة العامة للقوات المسلحة البرية. قبل عشرين شهراً. حقق هتلر إنتصاراً كاملاً على آخر قلعة في ألمانيا قد تقف في وجهه. تلك هي طبقة الضباط العسكريين القديمة ذات التقاليد. وزاد من تحكيم قبضته على الجيش الآن في ربيع عام ١٩٣٨ بضربته البارعة في النمسا وابرز زعامته بتحدٍ موضحاً بأنه هو وحده الذي يصدر القرارات في السياسة الخارجية وان دور الجيش قاصر على إمداده بالقوة الضاربة أو بالتهديد بإستعمال القوة. زد على ذلك أنه منح الجيش دون ان يضحي رجلاً واحداً، موقفاً ستراتيجياً وجعل چيكوسلوڤاكيا عاجزة عن الدفاع عسكرياً. ليس هناك وقت يصح إضاعته، في سبيل الإستفادة من هذا الموقف.

في ٢١ نيسان، بعد أحد عشر يوماً من الإستفتاء النازي في النمسا استدعى هتلر الجنرال كايتل رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة ليبحث معه القضية الخضراء."

الفصل الرابع

الطريق الى مونيخ

-١-

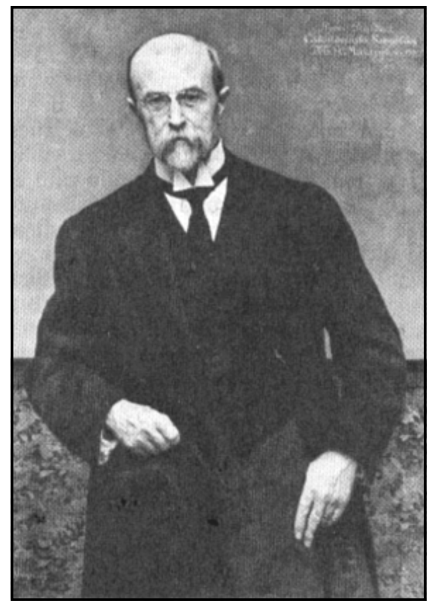
"القضية الخضراء" هو المصطلح الرمزي للخطة الخاصة بهجوم مباغت على چيكوسلوڤاكيا. وكما رأينا كان الفيلد مارشال ڤون بلومبرگ اول واضع لها في ٢٤ حزيران ١٩٣٧ ولقد أشاد بها هتلر وأفاض أثناء خطبته أمام الجنرالات في ٥ تشرين الثاني مؤكداً "بأن الإنحدار على الچيك" يجب أن يتم "بسرعة البرق الخاطف"، وقد يحصل ذلك في "مطالع ١٩٣٨"(١).

من الواضح ان الإنتصار السهل على النمسا، جعل "القضية الخضراء" أمراً عاجلاً بعض الشيء. فيجب والحالة هذه ان تنقح الخطة لتلائم الظروف الحاضرة. وبدأت الإستعدادات. ولهذا السبب إستدعى هتلر (كايتل) في ٢١ نيسان ١٩٣٨ وفي اليوم التالي قام الرائد (رودولف شموندت) مرافق هتلر الجديد بتهيئة خلاصة للحديث قسمت الى ثلاثة فصول "المظاهر السياسية، والإستنتاجات العسكرية والدعاية"(٢).

نبذ هتلر "فكرة هجوم ستراتيجي دون سابق إنذار أو سبب أو مبرر محتمل للرأي العام العالمي المعادي الذي قد يؤدي الى وضع خطير". وفكر أن البديل الثاني وهو "العمل بعد فترة مباحثات دبلوماسية تؤدي بالتدريج الى أزمة ثم الى حرب، غير ملائم لأن الچيك (الأخضر) سيبادرون الى إتخاذ إجراءات وقائية". وفضل الأخذ ببديل ثالث على الأقل في الوقت الحاضر وهو "عمل مباغت يستند الى حادث" مثلاً: (قتل الوزير المفوض الألماني في مظاهرة معادية للألمان)(٣).

"حادثة" مثل هذه- كانت كما يذكر القارىء قد أقرت في وقت ما لتبرير غزو ألماني للنمسا عندما كان پاپن هناك وقد أختير بالذات ليكون الضّحية المقصودة! حقاً ان البعثات الدبلوماسية الألمانية في عالم عصابات هتلر وشقاوته، هي أشياء لا قيمة لها في الخارج.

١- انظر ما سبق.
٢- حفظت القضية الخضراء في مقر هتلر وعثر الأمريكان عليها في قبو بأوبرسالزبرگ سالمة وكانت خلاصة حديث هتلر- كايتل، في الورقة الثانية من المجموعة. وقدم الملف كله دليلاً في نورمبرگ (الوثيقة ٣٨٨ PS). ولها ترجمة إنگليزية في (مؤامرة... ج٣ ص٧٠٦-٧٠٩) وهناك ترجمة أفضل في [وثائق عن السياسة الخارجية الألمانية ج٢ ص٢٣٩-٢٤٠].
٣- القوسان الكبيران وردا في الأصل.


مازاريك


بينيش

وبيَّن سيد الحرب النازي للجنرال كايتل (وهذا ما يصح إطلاقه عليه بعد توليه قيادة القوات المسلحة) ضرورة عامل السرعة فقال: "من الناحية السياسية ستكون الأيام الأربعة الأولى فترة حاسمة. وفي حالة عدم تحقيق نصر عسكريّ باهر، لا مفرّ من مواجهة أزمة أوروبية و(الأمر الواقع) وحده هو الذي سيقنع الدول الأجنبية بعبث التدخل العسكري.

أما الجانب الدعائي للحرب فليس الوقت مناسباً لاستدعاء الدكتور گوبلز ولم يتحدث هتلر إلاّ عن مناشير "لتوجيه الألمان في چيكوسلوڤاكيا" وأخرى تتضمن "تهديدات من شأنها إلقاء الفزع بالچيك".

إن جمهورية چيكوسلوڤاكيا التي قرر هتلر تحطيمها الآن كانت من خلق معاهدات الصلح التي مقتها الألمان عقيب الحرب العامة الأولى وهي أيضاً ثمرة مجهودات مفكرَين چيكيين شهيرَين هما (توماش كاريگ مازاريك Tomaos Garrigue Masaryk) وهو ابن حوذيّ ثقف نفسه وأصبح فيلسوفاً معروفاً وأول رئيس جمهورية للبلاد. والثاني هو (ادوارد بينيش) ابن فلاح شق بنفسه طريقه من جامعة پراغ وثلاثة معاهد علمية فرنسية أعلى منها علمياً. وبعد أن ظل بمنصب وزير خارجية بدون إنقطاع تقريباً تقلّد رئاسة الجمهورية عند إعتزال مازاريك في ١٩٣٥ ونحتت چيكوسلوڤاكيا من إمبراطورية آل هابسبرگ (كانت في القرن السادس عشر ما عرف بمملكة بوهيميا) وتطورت خلال السنوات التي تلت تكوينها في ١٩١٨ الى أفضل دولة ديمقراطية تقدمية وأعلاها ثقافة وأكثرها رخاء في أواسط أوروپا.

على ان تكوينها بالأصل من قوميات مختلفة. أوقعها من البداية في مشاكل داخلية لم تستطيع حلها حلاً نهائياً بعد عشرين سنة، تلك هي مشكلة أقلياتها. ففي البلاد يعيش مليون هنغاري ونصف مليون روثيني وثلاثة ملايين وربع مليون ألماني سوديتي، هذه القوميات كان تحنّ حنيناً الى بلادها "الأم" هنغاريا، وروسيا وألمانيا على التوالي. مع أنّ الألمان السوديت لم يكوّنوا قط جزءً من الرايخ الألماني بل من النمسا (خلا تأليفهم جزءً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة المفككة الأوصال). وجملة القول كانت هذه القوميات ترغب في إستقلال ذاتي أكثر مما منح لها.

حتى (السلوڤاك) أنفسهم، وهم يؤلفون ربع الملايين العشرة من سكان البلاد. فقد طمحوا الى مدى معين من الحكم الذاتي فمع انهم متقاربون من الچيك عنصرياً ولغوياً، الاّ أن تطورهم التاريخيّ والثقافي والإقتصادي كان مختلفاً، والسبب الأكبر لهذا يعزى الى خضوعهم عدة قرون للهنغار. وكانت قد عقدت إتفاقية بين الچيك والسلوڤاك في المهجر بأمريكا. تم التوقيع عليها في (پتسبرغ Pittsburgh) في ٣٠ أيار ,١٩١٨ أقرت للسلوڤاك حكومة خاصة وپرلماناً ومحاكم خاصة. الاّ ان حكومة (پراغ) لم تجد نفسها ملزمة بهذه الإتفاقية فلم تضعها موضع التطبيق.

والحق الذي لايمكن نكرانه إن الأقليات الچيكوسلوڤاكية كانت في أفضل وضع إذا ما قورنت بأقليات الدول في الغرب، أو حتى في أمريكا. فهي تتمتع الى جانب الحقوق المدنية الديمقراطية الكاملة بما فيها حق التصويت - بحقوق وإمتيازات أخرى بخصوص معاهدها الثقافية الخاصة، وتنظيم الأحزاب السياسية وكثيراً ما نصب زعماء هذه الأحزاب وزراء في الحكومة المركزية. وعلى كل حال فإن چيكوسلوڤاكيا التي لم تشفَ تماماً من آثار قرون الاضطهاد الذي صبه النمساويون عليها مازال أمامها طريق طويل لحل مشكلة الأقليات كما تصبو اليه وتطمح. بل كان الچيك أحياناً شوڤينيين، وكثير ما أظهروا فظاظة وقلة فطنة. أذكر من أولى زياراتي لتلك البلاد الحقد العميق الذي كان يعتمل في نفوس السلوڤاك لسجن الدكتور ڤوچيك توكا Dr. Vojteck Tuka في ذلك الحين. وهو استاذ محترم حكم عليه بالحبس خمسة عشر عاماً بتهمة "الخيانة" وان كان من المشكوك فيه أنه لم يقم بأكثر من الدعوة الى حكم ذاتي سلوڤاكي. وفوق كل ذلك كانت الأقليات تشعر ان الحكومة الچيكوسلوڤاكية لم تبرّ بالوعود التي قطعها (مازاريك وپينش) لمؤتمر الصلح في پاريس ١٩١٩ في اقامة نظام إتحادي لامركزي شبيه بالنظام السويسري.

ومن الغرابة بمكان -ونظراً الى ما سيذكر هنا بعد قليل- أن الألمان السوديت كان وضعهم طيباً جداً في إطار الدولة الچيكوسلوڤاكية- وبالتأكيد خير من وضع أي أقلية أخرى في البلاد، كالأقلية الألمانية في پولندا أو إيطاليا الفاشية. على أنّهم كانوا ساخطين على تحكم الموظفين المحليين الچيكيين الصغار وعلى التمييز العنصري الذي قد يحدث أحياناً في پراغ وصعب عليهم أن يتحملوا ضياع سلطانهم على بوهيميا وموراڤيا، أيام كانوا سادة عليها في عهد هابسبرگ. على أنهم كانوا يعيشون مجموعات متكتلة على طوار الأجزاء الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية من البلاد حيث

تركز أغلب الصناعات. فأصابوا حظاً كبيراً من الرخاء ومرّت السنون وهم يقتربون تدريجياً من حالة الانسجام مع الچيك، لاينقطعون ابداً عن طلب المزيد من الإستقلال الذاتي والمزيد من الإحترام للغتهم وتراثهم الثقافي. ولم تبرز حركة سياسية مطالبة بالأكثر من هذا حتى ظهور هتلر، وكان الديمقراطيون الإشتراكيون وغيرهم من الأحزاب الديمقراطية الأخرى تحوز معظم أصوات السوديت.

ثم وفي ١٩٣٣ عندما أصبح هتلر مستشاراً إنتشرت جرثومة مرض القومية الإشتراكية في السوديت الألمان. ففي تلك السنة تألف حزب السوديت الألمان (S.D.P) بزعامة معلم رياضة لطيف الطبع يدعى (كونراد هنلاين Konrad Henlein) وفي ١٩٣٥ بدأ هذا الحزب يتلقى إعانة سرية من وزارة الخارجية الألمانية قد تبلغ خمسة عشر ألف مارك شهرياً[٤]. وفي ظرف سنتين حاز الحزب المرتبة الأولى وإجتذب الأغلبية في أرض السوديت ولم يبق خارج نطاقه غير الشيوعيين والديمقراطيين الإشتراكيين. وفي الوقت الذي أنجز هتلر ضمّ النمسا كان حزب (هنلاين) مستعداً ليصدع بأمر أودلف هتلر- بعد أن ظلّ ثلاث سنين يتلقى توجيهاته من برلين.

وأسرع هنلاين الى برلين لتلقي الأوامر بعد مرور أسبوعين من الوحدة وفي ٢٨ آذار انفرد به هتلر ثلاث ساعات. بمحضر من ريبنتروب وهس. ومما كشفه تقرير في وزارة الخارجية أن تعليمات هتلر هي: "يجب علينا دائماً أن نطلب الكثير بحيث يتعذر إرضاؤنا"[٥].

ولهذا لم تكن محنة الأقلية الألمانية في چيكوسلوڤاكيا إلاّ هبة لهتلر. كما ستكون (دانزگ) لپولندا بعدها بسنة واحدة. مجرد حلة لطبخ عصيدة في البلاد التي يطمع فيها فيصدّع أركانها ويوقع الإضطراب والبلبلة في نفوس أصدقائها مخفياً تحتها أغراضه الحقيقية. وأوضح تلك الأغراض في خطبة الخامس من تشرين الثاني أمام قادة الجيش وفي الأوامر التوجيهية الأولية (للقضية الخضراء): إزالة الدولة الچيكوسلوڤاكية من الوجود وإزدراد أراضيها وسكانها لمنفعة الرايخ الثالث. ومع ما حدث للنمسا فإن قادة فرنسا وبريطانيا لم يستوعبوا المسألة والظاهر أن كلاً من چمبرلين والرئيس دالادييه Daladier ظلاّ طوال الربيع والصيف، بل حتى النهاية، يعتقدان -كما يعتقد معظم الناس تقريباً- أن كل ما يريده هتلر هو إنصاف أبناء جلدته في چيكوسلوڤاكيا.

وواقع الأمر إن الحكومتين البريطانية والفرنسية وأيام الصيف تدنو خرجتا عن طورهما في الضغط على الحكومة الچيكوسلوڤاكية كي تمنح إمتيازات كبيرة للسوديت الألمان. وفي الثالث من أيار كتب السفير الألماني في لندن (هربرت ڤون ديركسن) الى برلين يقول أن اللورد هاليفاكس أبلغه عن مسعى دبلوماسي demarche ستقدمه الحكومة البريطانية الى پراغ بعد قليل "يرمي الى إقناع بينيش لإظهار أكثر ما يمكن من المجاملة والمداراة للسوديت الألمان[٦]. وبعدها بأربعة أيام في ٧ أيار قدم السفيران

٤- المذكرات السرية لوزارة الخارجية الألمانية ١٩ آب ١٩٣٨ "مؤامرة... ج٦ص٨٥٥" [وثائق نورمبرگ ٣٠٥٩ PS].
٥- وثائق من سياسة ألمانيا الخارجية ج١١ الص١٩٧-١٩٨.
٦- المرجع السالف ص٢٥٥.

الفرنسي والبريطاني في پراغ Prague (ديمارشهما) فيه يلحان على الحكومة الچيكية "أن تتنازل أقصى ما يمكن" كما عبّر عنه الوزير الألماني في لندن بتقريره الى برلين. وذلك لتحقيق الطلبات التي قدمها السوديت. وبدا هتلر وريبنتروب جدّ مسرورين لأن الحكومتين البريطانية والفرنسية مهتمتان بمساعدتهما كثيراً.

ولم يعد مهماً بعد وصول الأمور الى هذه المرحلة أن تبقى النوايا مكتومة. وفي ١٢ أيار قام (هنلاين) بزيارة سرية الى ڤلهلم شتراسّه في برلين وتزوّد بتعليمات من ريبنتروب عن كيفية خطب ودّ الإنگليز عند وصوله لندن مساء ذلك اليوم لمقابلة السر روبرت ڤانسيتارت Sir Robert Vansittart رئيس المستشارين الدبلوماسيين في وزارة الخارجية وغيرهم من الشخصيات البريطانية. وقد دبّج (ڤايسيكر) مذكرة تتضمن الخط الأساسي الذي سيتبعه "سينكر هنلاين" في لندن. أنه يعمل بوحي من برلين... أخيراً يتكلم (هنلاين) عن التصدع المستمر في بناء الچيك السياسي حتى يثبط من عزيمة تلك الأوساط التي تعتبر أن تدخلها لمصلحة هذا البناء قد يكون ذا نفع(٧).

وفي اليوم نفسه ابرق الوزير الألماني من پراغ الى (ريبنتروب) حول ضرورة إتخاذ الحيطة لستر السفارة في عملية تسليم المال والأوامر لحزب السوديت الألمان.

وقابل السفير الأمريكي هيو ويلسن Hugh R. Wilson في برلين (ڤون ڤايسيكر) في ١٤ أيار ليبحث أزمة السوديت فصارحه هذا بمخاوف الألمان من تعمد السلطات الچيكية إثارة أزمة دولية بمحاولة منها لمنع تحلل چيكوسلوڤاكيا وبعدها بيومين (١٦ أيار) أرسل المرافق (شموندت) برقية مستعجلة "سرية للغاية" الى مقر القيادة العليا يسأل عن سيده الذي كان يرتاح في أوبرسالزبرگ كم عدد الفرق المعسكرة على الحدود الچيكية والمستعدة للزحف في غضون إثنتي عشرة ساعة بعد صدور الأوامر بالحركة". فأجاب المقدم الركن (زايتزلر Zeitzler) فوراً "إثنتا عشرة فرقة". فلم يُرضِ ذلك هتلر. وطلب ثانية "أرجو أن ترسلوا أرقام الفرق" وجاء الجواب يتضمن عشر فرق مشاة مع أرقامها، إضافة الى فرقة مدرعة واحدة وفرقة جبلية واحدة(٨).

كان هتلر يتوثب للعمل كالحصان الجامح. في اليوم التالي (١٧) سأل من القيادة العليا عن معلومات دقيقة للتحصينات التي أقامها الچيك في جبال السوديت على حدودهم. وقد عُرفت بخط ماجينو الچيكي. فأجاب (زايتزلر) من برلين في اليوم نفسه ببرقية مطوّلة (سرية جداً) يعلم بها الزعيم في إسهاب بوسائل الچيك الدفاعية ويوضح أنها منيعة لايستهان بها(٩).

٧- مذكرة ڤايسيكر ١٢ أيار ١٩٣٨ [وثائق من سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ الص٢٧٣-٢٧٤].
٨- نص البرقيات الأربع المتبادلة [مؤامرة... ج٣ الص٣٠٨-٣٠٩ الوثيقة ٣٨٨ PS].
٩- المرجع نفسه الص٣٠٩-٣١٠.

-٢-

الأزمة الأولى: أيار ١٩٣٨

ان عطلة الأسبوع التي بدأت بنهار الجمعة ٢٠ أيار آلت الى "أزمة خطيرة" عرفت فيما بعد "بأزمة أيار". وفي الثماني والأربعين ساعة التي تلت، كانت حكومات لندن وپاريس وپراغ وموسكو تتوجس خيفة من أن أوروپا قد اقتربت من شفا الحرب بالحدّ الذي لم تبلغه منذ صيف ١٩١٤، ولعل مردّ ذلك بالدرجة الأولى تسرب أخبار الى الخارج عن خطط جديدة لهجوم ألماني على چيكوسلوڤاكيا أعدتها لهتلر القيادة العليا ورفعتها اليه في يوم الجمعة. ومهما يكن من أمرٍ فان الإعتقاد السائد في پراغ ولندن هو أن هتلر يوشك أن يقوم بهجوم عدواني على چيكوسلوڤاكيا. فحمل الچيك على إعلان التعبئة وأظهرت بريطانيا وفرنسا والإتحاد السوڤياتي وحدة وثباتاً في وجه ما خشيت حكوماتها أن يكون تهديداً ألمانياً وشيكاً. ذلك الثبات الذي لم تظهره مرة أخرى حتى كادت حرب عالمية جديدة تقضي عليها جميعاً.

في يوم الجمعة ٢٠ أيار أرسل الجنرال كايتل الى هتلر في (أوبرسالزبرگ) مسودة جديدة (للقضية الخضراء) إنشغل في وضعها هو وأركانه منذ أن أوضح له خطوطها العامة في إجتماعهما في ٢١ نيسان. وشرح كايتل في رسالة حافلة بالتذلل والملق للزعيم مع الخطة أنها قد وضعت في الحسبان "الموقف الذي نجم عن ضم النمسا الى الرايخ الثالث" وانها لن تناقش مع القادة العاملين للقوات المسلحة الثلاثة حتى تصادق عليها "أنت يا زعيمي" وتذيلها بتوقيعك.

إن الأمر التوجيهي الجديد (للأخضر) المؤرخ في ٢٠ أيار ١٩٣٨ هو وثيقة مهمة لها مدلولاتها. فهي نموذج للتخطيط النازي للعدوان وكان العالم سيعرف عنه الكثير فيما بعد.

"[بدأت هكذا] ليس في نيتي أن أسحق چيكوسلوڤاكيا بعمل عسكري في المستقبل القريب جداً، دون إستفزاز، إلاّ إذا اضطرتنا تطورات فجائية لايمكن تفاديها... من داخل [الإهتمام بالعبارة الأخيرة ورد بالأصل] چيكوسلوڤاكيا الى إتخاذ هذا المسلك. أو أن تخلق الأحداث السياسية في أوروپا فرصة مناسبة جداً، قد يمكن أن لاتحدث ابداً"[١٠].

"هنالك إحتمالات سياسية ثلاثة لبدء العملية، يجب أن توضع قيد الدرس. الأول "هجوم مباغت دون ان يرافقه عذر ظاهري معقول"، هذا الإحتمال مرفوض.

يفضل أن يشرع بالعمليات بأحدى الفرضيتين التاليتين:

(أ) بعد فترة من نزاع سياسي وتوتر متزايد يرافقهما إستعدادات عسكرية تستغل حتى يُلقى وزر إثارة الحرب على العدوّ.

١٠- نص كتاب كايتل والامر التوجيهي [وثائق من سياسة... ج٢ الص٢٩٩].

(ب) بعملية مباغتة نتيجة حادثة خطيرة تؤدي الى وضع ألمانيا موضع إستفزاز لايمكن إحتماله في أعين جزءٍ من الرأي العام العالمي على الأقل، هذا يزودنا بالمبررات الأدبية لإتخاذ التدابير العسكرية.

إن الفقرة (ب) هي المستحسنة من وجهتي النظر العسكرية والسياسية."

"أما عن العملية العسكرية نفسها فيجب أن تحقق نصراً ساحقاً خلال أربعة أيام لتكشف للدولة العدوّة الراغبة في التدخل وضع الجيك العسكري اليائس وليكون باعثاً لتلك الدول التي تدعي بمطاليب إقليمية في چيكوسلوڤاكيا، على القيام ضدها حالاً" هذه الدول هي هنغاريا وپولندا والخطة تعتمد على تدخلهما، وأما عن ايفاء فرنسا بتعهداتها للجيك فقد اعتبر ذلك أمراً مشكوكاً فيه. ولكن "يحتمل أن تقوم روسيا بمحاولة تقديم المساعدة العسكرية".

وكانت القيادة العليا، أو على الأقل هتلر وكايتل، واثقين تماماً أن الفرنسيين لن يقاتلوا بحيث يكفي وضع "قوة صغيرة جداً" "لحماية المؤخرة في الجهة الغربية." واوضح أن "كل ثقل القوات يجب أن يتم إستخدامه ضدّ چيكوسلوڤاكيا" وان "مهمة القوات البرية كافة" بمساندة القوة الجوية (اللوفتوافّه) هي "سحق الجيش الچيكوسلوڤاكي وإحتلال بوهيميا ومورافيا بأسرع ما يمكن".

كانت حرباً جماعية. وللمرة الأولى تجد في التخطيط العسكري الألماني تقديراً لقيمة ما نعته الأمر التوجيهي "بحرب الدعاية" و"الحرب الإقتصادية" وقد حيك طرز إستخدامهما في كل ثنايا خطة الهجوم العسكرية حياكة متينة.

"حرب الدعاية" [وضعت العبارة بالاصل بين قوسين لجلب النظر] يجب من جهة أن تستهدف تحطيم معنوية الچيك بوسائل التهديد حتى تضحمل قوى المقاومة فيهم. ومن الجهة الثانية يجب أن تزوّد الأقليات القومية بتلميحات عن كيفية معاونة عملياتنا الحربية والتأثير على المحايدين منهم لضمهم الى صفوفنا.

"ولحرب الدعاية، مهمة إستخدام الموارد الإقتصادية الميسورة للتعجيل بإنهيار الچيك... ففي أثناء سير العمليات العسكرية من المهم دفع مجهود الإقتصاد الحربي العام دفعات الى أمام بجمع المعلومات بسرعة عن المصانع المهمة وتشغيلها بأسرع وقت ممكن ولهذا السبب فإن تحاشي تدمير المؤسسات الصناعية والآلية الچيكية -قدر ما تسمح العمليات العسكرية- قد يكون ذا أهمية عظيمة لنا.

هذا النموذج للعدوان النازي، سيبقى ثابتاً بالجوهر ليستخدم بنجاح هائل، حتى صحت عليه دنيا وسنانة هبت من رقدتها.

بعد ظهر اليوم العشرين من أيار بقليل أرسل الوزير المفوض الألماني الى برلين برقية "طارئة سرية للغاية" ذكر فيها أن وزير الخارجية الچيكي قد أبلغه قبل قليل بالتلفون أن حكومته "قلقة من الأنباء التي تشير الى وجود وحدات عسكرية [ألمانية] في سكونيا" وذكر أنه أجاب الوزير "لا داعي للقلق

مطلقاً" إلاّ أنه طلب من برلين إعلامه حالاً إن كان يوجد شيء ما.

كان هذا أول مراسلة من سلسلة مراسلات دبلوماسية محمومة في عطلة الأسبوع هزت كيان أوروبا وداهمتها بعاصفة خوفٍ من قرب قيام هتلر بحركة جديدة تؤدي هذه المرة الى حرب عامة. وأساس المعلومات التي تسلمتها الإستخبارات البريطانية والچيكية وهي أن الجيش الألماني يتحشد على الحدود الچيكية لم يكشف عنها حتى الآن قدر ما أعلم. فبالنسبة الى أوروپا التي مازالت تترنح تحت صدمة الإحتلال العسكري الألماني للنمسا، مازال يوجد في الجو ما ينذر بالشر المستطير. ففي ١٩ أيار نشرت صحيفة في (لايبزك) نبأً عن تحركات عسكرية ألمانية. وفي ٩ أيار أعلن زعيم السوديت هنلاين عن إنقطاع المفاوضات بين حزبه والحكومة الچيكية. وعُلم أنه توقف في برختسگادن لمقابلة هتلر في طريق عودته من لندن وأنه مازال هناك. وجرت حوادث إطلاق نار في أنحاء من أرض السوديت. وإستمرت حرب (گوبلز) الدعائية طوال شهر أيار تختلق حكايات مفزعة عن "الإرهاب الچيكي" ضد السوديت الألمان. وبدا وكأن التوتر قد بلغ ذروته.

ومع وجود بعض التحركات في الجنود الألمان بسبب مناورات الربيع ولاسيما في المناطق الشرقية، فإنّه لم يقم دليل قطّ مما ضبط من الوثائق الألمانية مايشير الى اي تحشيد جديدٍ فجائي من القوات المسلحة على الحدود الچيكية في هذا الوقت بالذات. بالعكس، فهناك وثيقتان من أوراق وزارة الخارجية الألمانية مؤرختان في ٢١ أيار تتضمنان تأكيدات سرية الى ڤلهلمشتراسّه من الكولونيل (يودل) التابع للقيادة العليا بعدم وجود اي تحشيدات لا في (سيليزيا) ولا في النمسا السفلى. أكد يودل في رسائل لن تستخدم لإقناع الجهات الأجنبية. أنه لايوجد شيء من هذا القبيل "خلا المناورات السنوية المعتادة وقت السلم"(١١). وليس معنى ذلك ان الحدود الچيكية خالية من الجنود الألمانية. فقد رأينا أن القيادة العليا أعلمت هتلر في ١٦ أيار رداً على سؤاله المستعجل، بوجود إثنتي عشرة فرقة ألمانية على الحدود الچيكية "مستعدة للزحف خلال إثنتي عشرة ساعة".

أيمكن أن يكون الچيكيون أو البريطانيون قد توصلوا عن طريق إستخباراتهم الى البرقيات التي تبودلت فيها هذه المعلومات؟ وانهم علموا بالأمر التوجيهي للقضية (الخضراء) التي أرسلها (كايتل) لمصادقة هتلر في ٢٠ أيار؟ ففي اليوم التالي أخبر الجنرال كريتشي Krejci رئيس هيئة أركان الجيش الچيكي، الملحقَ العسكري الألماني العقيد تاوسان Toussaint في پراغ بأن لديه "معلومات لايتطرق اليها الشك حول حصول تحشيد لعدد من الفرق يتراوح ما بين الثماني والعشر في مقاطعة سكسونيا"(١٢).

وعدد الفرق لايعدو الحقيقة كثيراً حتى وان كانت المعلومات عن مواقع تحشيداتها وتوزيعها غير دقيقة نوعاً ما. ومهما يكن من أمر ففي ٢٠ أيار عقدت الحكومة الچيكية إجتماعاً طارئاً في قصر (هرادشين Hradschin) في پراغ برآسة رئيس الجمهورية (بينيش) وقررت التعبئة الجزئية الفورية.

١١- المرجع السالف: الص ٣٠٧-٣٠٨.

١٢- تقرير الوزير المفوض الألماني وملحقه العسكري في پراغ ٢١ أيار ١٩٣٨، المرجع السالف الص ٣٠٩-٣١٠.

ودعيت وجبة واحدة للخدمة وجرت تعبئة وحدات إحتياطية من صنوف معينة. لم تكن الحكومة الچيكية تنوي الإستسلام دون حرب على الضد من الحكومة النمساوية قبل شهرين.

أسلمت التعبئة الچيكية -وان كانت جزئية- هتلر الى نوبة غضب جامح لم تخفف من غلوائه التقارير التي وردته في أوبرسالزبرگ من وزارة الخارجية الألمانية وكلها تنبئه بالمقابلات المتواصلة التي يقوم بها سفيرا فرنسا وبريطانيا فيها ينذران ألمانيا بأن الإعتداء على چيكوسلوڤاكيا يعني حرباً أوروپية.

لم يقع الألمان تحت ضغط دبلوماسي عنيف متواصل كما استخدمه البريطانيون خلال عطلة نهاية الأسبوع هذه. كان رئيس الحكومة البريطانية چمبرلين قد أرسل الى برلين السير نڤيل هندرسن Nevile Hinderson سفيراً لكي يستخدم حذقه بوصفه دبلوماسياً محترفاً، لتهدئة هتلر، فأستخدمه والحق يقال الى أقصى حدّ. راح هذا السفير يختلف الى وزارة الخارجية الألمانية بإستمرار للإستفسار عن تحركات الجنود الألمان وينصح بالحذر، وليس ثم شك من انه كان مدفوعاً من اللورد هاليفاكس ووزارة الخارجية البريطانية لأن هذا السفير الدمث المجامل لم يكنَّ عطفاً لچيكوسلوڤاكيا كما يعرف ذلك عنه كل من اتصل به. قابل ريبنتروب مرتين في ٢١ أيار. وفي اليوم التالي مع أنّه يوم أحد- قابل وكيل الوزارة (ڤايسيكر)- لأن ريبنتروب أستدعي للمثول بين يدي هتلر على جناح السرعة في أوبرسالزبرگ ليسلمه رسالة شخصية من هاليفاكس يؤكد فيها خطورة الوضع. وفي لندن إستدعى وزيرُ الخارجية السفيرَ الألماني مساء السبت وشرح له مدى خطورة الساعة.

كل هذه الإتصالات البريطانية لم تفت ملاحظة الألمان. كما ذكر السفير ڤون ديركسن في رسالته بعد رؤيته هاليفاكس قال إنّ الحكومة البريطانية الواثقة بأن فرنسا ستخف الى معونة چيكوسلوڤاكيا، قد لاتفعل هي فعل حليفتها كما يستطيع ان يؤكده. وأقصى مرحلة يبلغها البريطانيون في هذا المضمار هو أن ينذروا ويتوعدوا كما فعل هاليفاكس. يقول ديركسن "في حالة صدام أوروپي يتعذر التكهن بإنجرار ببريطانيا اليه؟(١٣)

وهذا هو الواقع الذي بلغته حكومة چمبرلين. هذا هو المدى الذي عالجت به أطماع هتلر الى أنْ فات الأوان لوقفها. وكان إعتقاد المؤلف وهو في برلين إبتداءً من تلك اللحظة حتى النهاية، لو أن چمبرلين أعلم هتلر بصراحة أن بريطانيا ستُقدم الى ما اقدمت عليه بالأخير. ووقفت في وجه العدوان النازي لما سدر الزعيم في مغامراته التي أدت الى الحرب العالمية الثانية. وقد قوي إعتقادي هذا بعد مدارستي الوثائق السرية الألمانية. تلكم هي غلطة رئيس الوزراء البريطاني العظمى القتالة.

كان هتلر فريسة الكآبة في مقره الجبلي في أعالي برختسگادن. وقد أحس إحساساً عميقاً بالمذلة والتحقير الذي أصابه من الچيك وبالمساندة التي ظفروا بها من لندن وپاريس، حتى موسكو وتلك

١٣- تقرير السفير ڤون ديريكسن المؤرخ ٢٢ أيار ١٩٣٨ المرجع السالف الص ٣٢٢-٣٢٣.

ثالثة الأثافي. تلك القارعة التي لايقدر غيرها على ايصاله الى هذه الحالة من السويداء وسوء المزاج. وكان معظم ثورته متأتياً من اتهامه مسبقاً بعدوان لم يرتكبه بعد في حين كان يعد له العدة بعد ان صحّ عزمه عليه. في نهار الأحد هذا قام بدراسة الخطة الجديدة (للقضية الخضراء) التي بعث بها (كايتل)، إلاّ أنها لم تكن قابلة التنفيذ حالاً وابتلع عنجهيّته وأمر وزارة الخارجية في برلين أن تبلغ المبعوث الدبلوماسي الچيكي في ٢٣ أيار (الإثنين) أن ألمانيا ليست لديها نيّات عدوانية تجاه چيكوسلوڤاكيا وأن الأنباء عن تحشدات عسكرية ألمانية على حدودها لا أساس لها من الصحة. وتنفس قادة الدول الصعداء في كل من پراغ ولندن وپاريس وموسكو. لقد تم التغلب على الأزمة. ولُقن هتلر درساً. وعليه الآن أن يعلم أنه لن يخرج من العدوان سالماً بالسهولة التي خرج منه بالنمسا.

فيا ما أقل ما عرف هؤلاء الساسة عن الدكتاتور النازي!

بعد فترة كآبته في أوبرسالزبرگ التي دامت بضعة أيام نما خلالهما في نفسه غيظ محرق للثأر من چيكوسلوڤاكيا وبوجه خاص من الرئيس بينيش الذي كان يعتقد أنه تعمّد إذلاله شخصياً. فظهر فجأة في برلين في ٢٨ أيار واستدعى الى المستشارية القادة الأقدمين للقوات المسلحة ليسمعهم قراراً خطيراً. أعلنه هو نفسه في خطبة له أمام الرايخشتاغ بعد ثمانية أشهر على الشكل التالي "لقد عزمت عزماً نهائياً لامرد له على حل مسألة السوديت بالقوة:

في الثامن والعشرين من أيار أمرت بما يلي.

اولاً: ان الإستعداد لعمل عسكري ضد هذه الدولة يجب ان يتم في الثاني من تشرين الأول.

ثانياً: أن يتوسع في بناء إستحكاماتنا الغربية توسعاً كبيراً ويستعجل فيها جداً...

ان تعبئة (٩٦) فرقة قد تم التخطيط لها وشرع فيه..."[١٤]

وجلجل صوته أمام أعوانه گورنگ وكايتل وبراوختش وبيك وأمير البحر رايدر وربينتروب ونيوراث "ان عزمي لايتزعزع قط في مسح چيكوسلوڤاكيا من الخارطة!"[١٥]

وهكذا جيء بالقضية الخضراء واعيد تنقيعها وتتابع يوميات (يودل) ما كان يجول برأس هتلر المحموم الحقود "إن نية الزعيم في التخلي عن تنشيط المسألة الچيكية قد تبدلت، بسبب التحشيد العسكري الچيكي في ٢١ أيار الذي حدث دون وجود أي تهديد ألماني ودون ان يستدعيه سبب مهما ضؤل شأنه وبسبب ضبط النفس الذي تحلت به ألمانيا آل الأمر الى أن يفقد الزعيم منزلته وهو ما لايقبل ان يذوق مرارته ثانية ولذلك نشر الأمر التوجيهي (للخضراء) في ٣٠ أيار[١٦]."

إن تفاصيل الأمر التوجيهي للقضية الخضراء الذي وقعه هتلر في ٣٠ أيار لايختلف في الجوهر عن

١٤- خطبة الرايخشتاغ في ٣٠ كانون الثاني ,١٩٣٩ في (نظامي الجديد) نشره: "روسي دي سال: ص.٥٦٣

١٥- روى فرتيز ويدمان: Fritz Wiedmann أحد مرافقي هتلر وكان موجوداً قال مقسماً ان هتلر كان "مضعضع الحواس لدن سمع بتصريح بينيش [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٥ الص ٧٤٣-٧٤٤: الوثيقة ٣٠٣٧ PS].

١٦- يومية (يودل) غفل عن التاريخ [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج٢٨ ص٣٧٢: الوثيقة ١٧٨٠ PS].

المسودة التي قدمت لهتلر قبل تسعة أيام الاّ انه يتضمن تغييرَين هامَّين. فقد شطبت عبارة واحدة من النسخة الأولى المؤرخة (٢١ أيار) وهي "لست انوي سحق چيكوسلوڤاكيا في المستقبل القريب" ووضع في ديباجة الأمر الجديد الافتتاحية التالية "إن قراري الجازم الذي لاسبيل للرجوع عنه هو سحق چيكوسلوڤاكيا بعمل عسكري في المستقبل القريب".



المارشال كايتل

ومعنى "المستقبل القريب" يفسره (كايتل) في رسالة ختامية. فقد أمر "إن تنفيذ (الخضراء) يجب ان يتأكد في ١ تشرين الأول على أكثر تقدير(١٧)". وكان تاريخاً سيلازم هتلر في أيام بؤسه ونعيمه. في أزمة بعد أخرى، وفي شفا الحرب دونما نكوص الى الخلف.

-٣-

تردد القادة

دوّن يودل في يومياته المؤرخة ٣٠ آذار ان هتلر وقّع الأمر التوجيهي الجديد "للخضراء" وبما أنه يتطلب "توغلاً فورياً في داخلية چيكوسلوڤاكيا في يوم (س)... فمن الضروري أن تغير أهداف الجيش السابقة تغييراً كبيراً" بعد أن دوّن هذا، أضاف الفقرة التالية:

"إنّ إختلاف وجهات النظر كله يغدو حاداً مرة أخرى بين إلحاح الزعيم على قيامنا بها هذه السنة، وبين رأي الجيش في اننا لانستطيع في الوقت الحاضر. لأن الإحتمال الغالب هو أن تتدخل الدول الغربية، ونحن لم نصل بعد الى نقطة التساوي(١٨)".

لقد وضع ضابط الأركان الدقيق الملاحظة أصبعه على شيء جديد بين هتلر وبين عدد من أرفع الجنرالات مناصبَ في الجيش. كانت معارضة خطط الزعيم المصابة بعدوى داء العظمة الهادفة الى

١٧- المبرز رقم (١١) من القضية الخضراء [مؤامرة... ج٣ ص٣١٥-٣٢٠،الوثيقة ٣٨٨ PS] كذلك [وثائق من سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ الص ٣٥٧-٣٦٢].

١٨- محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج٢٨ ص٣٧٣، يوجد ثم النص الألماني وهناك ترجمة إنگليزية لليومية نفسها عملها الخبراء في [مؤامرة... ج٤ الص٣٦٠-٣٧٠].

الإعتداء، يترأسها الجنرال (لودڤيك بيك) رئيس هيئة الأركان العامة للجيش، الذي سيتزعم من الآن ما اطلق عليه حركة مقاومة هتلر في الرايخ الثالث. وبعدها بزمن قدر لهذا الجنرال الذكي الحسّاس المستقيم الخلق لكن المتردد، أن يبني كفاحه على أسس واسعة. لقد كان حتى أواخر ربيع عام ١٩٣٨، بعد أكثر من أربع سنوات من الحكم القومي الإشتراكي، يعارض هتلر في النطاق المهني الضيق لا غير. ويبني معارضته على أن ألمانيا لم تبلغ بعد من القوة ما يمكنها أن تقف في وجه الدول الغربية وروسيا.

رأينا أن بيك يرحب بقدوم هتلر. ويشيد علناً بالزعيم لإعادة نظام التجنيد في الجيش الألماني متحدياً ڤرساي. وليذكر القاريء أيضاً أنه عندما كان آمر لواء مغمور سنة ١٩٣٠، تخطى حدود عمله مندفعاً في الدفاع عن ثلاثة من ضباطه اتهموا بالخيانة بوصفهم دعاة متحمسين للنازية في القوات المسلحة وشهد بالفعل لمصلحتهم أمام محكمة الجنايات بعد أن سبقه هتلر شاهداً منذراً بأن "رؤوساً ستتدحرج" عندما يصل الى الحكم. لم يكن عدوان هتلر على النمسا (وقد سانده بيك) وانما سقوط رأس الجنرال ڤون فريتش بعد مكيدة الگشتاپو الذي جعله يصحو على الواقع وانطلق فكره من قوقعته وبدأ يرى لأول مرة أن سياسة هتلر في المخاطرة عمداً بالحرب مع بريطانيا وفرنسا وروسيا، خلافاً لنصائح الجنرالات القادة ستؤول إنْ طبقت الى دمار ألمانيا.

علم بيك بإجتماع كايتل وهتلر في ٢١ نيسان. حيث أمرت القوات المسلحة بالتعجيل في وضع الخطط للهجوم على چيكوسلوڤاكيا. وكتب في ٥ أيار أول مذكرة من سلسلة متتابعة تالية، للجنرال ڤون (براوختش) القائد العام الجديد. معارضاً بشدة أي عمل من هذا القبيل[١٩].

وكانت مذكرات رائعة صريحة بما تضمنته من الوقائع السيئة وملأى بالمنطق الفعليّ الرصين والعلل التي لاتدحض ومع أن (بيك) بالغ في تخمين قوة بريطانيا وفرنسا وعزمهما وفي ذكاء زعمائهما السياسيين وقوة الجيش الفرنسي. وبدا بالأخير أنه كان مخطئاً في حسابه بعد النتائج التي تمخضت بها المسألة الچيكية لكن تكهناته البعيدة جداً كانت -قدر ما يتعلق الأمر بألمانيا- دقيقة دقة الموت!

كتب في ٥ أيار في مذكراته أنه على يقين من قيام حرب أوروپية إذا هاجمت ألمانيا چيكوسلوڤاكيا. وفي هذه الحرب ستواجه ألمانيا كلاً من بريطانيا وفرنسا وروسيا. كما ستكون الولايات المتحدة مستودع سلاح للديمقراطيات الغربية. ان ألمانيا لايمكن أن تربح مثل هذه الحرب بالطبع. وافتقارها الى المواد الأولية وحده كفيل بان يجعل النصر مستحيلاً. وبيَّن أن وضع ألمانيا العسكري-الإقتصادي "هو الآن أسوأ مما كان في ١٩١٧-١٩١٨" عندما دبّ الإنهيار في جيوش القيصر.

وكان (بيك) في ٢٨ أيار أحد الجنرالات الذين استدعوا الى دار المستشارية بعد "أزمة أيار"

١٩- نصوص المذكرات اوردها ڤلفكانك فوربستر في كتابه Ein Genasl Kasmpft gegen den Kreig الص ٨١-١١٩.

للإصغاء الى عاصفة هتلر ونيته في مسح چيكوسلوڤاكيا من الخارطة في الخريف القادم. ودوَّن ملاحظات دقيقة من خطبة هتلر. وبعدها بيومين كتب مذكرة أقوى وأحدّ لهجة من سابقتها في إنتقاد برنامج هتلر مادة مادة. وسلمها الى براوختش في اليوم الذي وقّع الأمر التوجيهي الجديد (للقضية الخضراء) الذي تعين فيه يوم ١ تشرين الأول للهجوم. واراد أن يتأكد من أن قائده العام الشديد الحذر سيتفهمها بدقة فلم يكتف بتقديمها بل تلاها عليه شخصياً كلمة كلمة. وبالأخير اوضح (لبراوختش) الحائر، الذي يشكو بعض الضحولة في التفكير، ان ثم أزمة في داخل "القادة العسكريين الكبار" نجم عنها فوضى. وان لم تتم السيطرة عليها الآن سيكون مصير الجيش وبالتالي مصير ألمانيا "أسود" وبعدها ببضعة أيام في ٣ حزيران دفع (بيك) بمذكرة أخرى الى براوختش صارحه فيها أن الأمر التوجيهي (للقضية الخضراء) هو "غير صحيح عسكرياً" وأن هيئة الأركان قد رفضته.

لكن هتلر كان مندفعاً في الأمر. ويكشف ملف "الخضراء" الذي وقع في قبضة الحلفاء كم بلغ به الهياج بتقدم الصيف. تراه يأمر بأن المناورات العسكرية الخريفية المعتادة يجب أن يستعجل بها حتى يكون الجيش أهلاً لدخول المعركة. وأن تجرى تمرينات خاصة "في إقتحام الإستحكامات بهجوم مباغت". وابلغ الجنرال كايتل "أن الزعيم يلح بإستمرار على ضرورة التعجيل بأقصى ما يمكن في انجاز أعمال الإستحكامات من جهة الغرب".

ويعود هتلر ليسأل في ٩ حزيران عن المزيد من المعلومات بخصوص التسليح الچيكي ويتسلم حالاً تقريراً مفصلاً عن كل سلاح متصوّر صغير وكبير، يستخدمه ذلك الجيش الچيكي. وفي اليوم نفسه تراه يسأل: "هل أن الإستحكامات الچيكية بما فيها من الجنود الآن قليلة المناعة؟" كانت معنوياته- وهو في قصره الخلوي الجبلي يقضي الصيف محاطاً بحاشيته المخلصة- ترتفع وتنخفض وهو يلهو بفكرة الحرب. وفي ١٨ حزيران تراه يصدر "أمراً توجيهياً عاماً" يتعلق "بالخضراء":

"ليس ثم خطر حرب وقائية على ألمانيا... سأقرر القيام بعمل ضدّ چيكوسلوڤاكيا عندما يتأكد لي بما لايقبل الشكّ... أن فرنسا لن تزحف وأن بريطانيا لن تتدخل".

على أنه في ٧ حزيران كان يقلب هذه "الإعتبارات" فيما يجب عمله إن تدخلت فرنسا وبريطانيا. يقول: "الإعتبار الأول، هو الثبات في الإستحكامات الغربية" حتى تسحق چيكوسلوڤاكيا، ويعود ممكناً نقل الجنود الى الجبهة الغربية. أما واقع عدم وجود جيش متيسر للصمود في الإستحكامات الغربية فلا يفرض نفسه أبداً على تفكيره المحموم، ويرتأي أن "روسيا ستتدخل على أقرب الإحتمالات" كما تجده الآن غير واثق تماماً من وقوف پولندا موقف المتفرج. هذه الإحتمالات يجب معالجتها. الاّ انه لايبين الوسيلة.

ويظهر أن هتلر المنعزل بعض الشيء في أوبرسالزبرگ لم يسمع بعد بالتذمر اللاغط الذي كان يشيع في أوساط أقطاب هيئة الأركان العامة. لقد ادرك رئيس الأركان في أواسط الصيف أن القائد العام المذبذب الأهواء لم يوصل رأيه الى (الزعيم) رغم ملاحقته بمذكراته. وبهذا قرر في أواسط تموز أن

يقوم بآخر محاولة يائسة لوضع حدّ للمسألة بايّ صورة كانت. فكتب في ١٦ تموز آخر مذكرة (لبراوختش). وطلب فيها أن يصارح الجيش هتلر بوجوب وقف الإستعداد للحرب.

"بإدراك تام بخطورة مثل هذه الخطوة ونظراً لما تتطلبه مسؤولياتي ايضاً، اشعر أن واجبي يحتم عليَّ الطلب بإلحاح أن يبادر القائد الأعلى للقوات المسلحة [هتلر] بإيقاف الإستعداد للحرب، ونبذ فكرة حلّ المسألة الچيكية بالقوة، حتى يتغير الموقف العسكري تغييراً جذرياً. وانا في هذه الساعة اعتبرها محاولة يائسة فاشلة حتماً. ويشاركني في هذه النظرة كل القادة الأقدمين في هيئة الأركان".

حمل (بيك) مذكرته الى (براوختش) شخصياً وفسّرها له شفوياً واشفعها بإقتراحات أخرى بعمل موحد يقوم به جنرالات الجيش إن ظلّ هتلر مصراً. اقترح بصورة صريحة أن يقوم الجنرالات القادة في هذه الحالة بتقديم إستقالة إجتماعية على الفور. وابرز للمرة الأولى في تاريخ الرايخ الثالث سؤالاً خيّم بكلكله على كل محاكمات نورمبرگ وهو: هل يدين الضابط بولاء أعلى من الولاء الذين يدين به للزعيم؟ في نورمبرگ اعتذر عشرات من الجنرالات عن جرائم الحرب التي اقترفوها ونفوا انهم مذنبون لأن واجبهم هو تنفيذ الأوامر. الاّ أن (بيك) في ١٦ تموز خالفهم في وجهة نظر كان سيبقى متمسكاً بها وعاملاً في سبيلها حتى النهاية دون أن يحالفه النجاح في أكثر الأحيان. قال: هناك "حدود" لولاء المرء للقائد الأعلى عندما يقوم الضمير والإدراك والمسؤولية حائلاً دون تنفيذ الأوامر وهو يشعر أن الجنرالات قد وصلوا هذا الحدّ فإن أصر هتلر على الحرب فعليهم أن يستقيلوا كافة وفي هذه الحالة يتعذرعلى هتلر شنّ الحرب. لعدم وجود من يقود الجيش.

كان رئيس هيئة أركان حرب الجيش ثائراً الآن بشكل لم يعهد فيه من قبل والمقاييس تتهاوى أمام عينيه. لقد تبين له في الأخير أن الخطر المحدق بالشعب الألماني، هو أكثر من مجرد معارضة رئيس دولة هستيري دفعه عامل استياء مفاجيء الى مهاجمة شعب صغير مجاور والمخاطرة باثارة حرب عظيمة.

كل حماقات الرايخ الثالث وطغيانه وإرهابه وفساده وإحتقاره للفضائل المسيحية العتيدة كلها اشرقت في وجه هذا الجنرال الذي كان بالأمس من الموالين للنازية. وبعدها بثلاثة أيام (١٩ تموز) ذهب مرة أخرى الى (براوختش) لينفث ما في صدره من الحقيقة التي المتجلية له.

اضاف الى إقتراحه الملحّ بوجوب إعلان الجنرالات الإضراب لمنع هتلر من إثارة حرب، إقتراحاً آخر وهو أن واجبهم يتطلب منهم تنظيف الرايخ الثالث. يجب أن يتحررّ الشعب الألماني والزعيم نفسه من إرهاب الحرس الأسود وقادة الحزب النازي، ويجب أن يقام مجتمع ودولة يحكمهما القانون. ولخّص برنامجه الإصلاحي بالآتي:

"بالنسبة الى الزعيم: ضدّ الحرب ضدّ الحكم الدكتاتوري، السلام مع الكنيسة، حرية الرأي. نهاية لإرهاب الشرطة السرية. إقامة العدل تخفيض مخصصات الحزب الى النصف، إيقاف بناء القصور، إنشاء بيوت سكنى للفقراء والناس العاديين. والمزيد من النزاهة والبساطة البروسية".

كان (بيك) على درجة من السذاجة السياسية بحيث خفي عنه أن هتلر هو المسؤول شخصياً أكثر من اي فردٍ آخر عن حالة ألمانيا التي ثار لها ضميره الآن على أنّ مهمة (بيك) العاجلة هي الإستمرار في حث (براوختش) المتردد، على تقديم تحذير من الجيش الى هتلر بطلب وقف إستعداده للحرب. ولدعم إقتراحه هذا رتبّ إجتماعاً سرياً لجميع الجنرالات القادة في ٤ آب. وأعد خطبة رنانة يلقيها عليهم القائد العام، لضمهم كتلة واحدة في الإلحاح بإيقاف اي مغامرة نازية اخرى قد تؤدي الى صدام مسلحّ. أسفاً على بيك! كانت الشجاعة تعوز براوختش، فلم يتلها. وكان على بيك أن يكتفي بتلاوة مذكرة السادس عشر من تموز لتخلّف إنطباعاً عميقاً في أغلبية الجنرالات. لكن لم يتخذ قرار حاسم وانفض إجتماع القادة الأعلين للجيش الألماني من دون ان يستجمعوا الشجاعة لمصارحة هتلر، كما فعل أسلافهم من قبل ازاء أباطرة هوهنزلرن ومستشاري الرايخ.

على أن براوختش لمَّ بعض اطراف شجاعته ليعرض على هتلر مذكرة بيك المؤرخة في ١٦ تموز. وكان جواب هتلر عليها، أنه لم يستدع قادة الجيش الكبار الذين يتفقون على ماجاء فيها. وانما دعا الضباط الذين يلونهم مرتبة وهم رؤساء أركان القيادات المختلفة للجيش والقوة الجوية ويؤلفون الصف الأصغر سناً وكان يعتقد أن بإمكانه الإعتماد عليهم بعد أن يسمعهم طرفاً من فنه الخطابي المقنع. وقد استقدموا فعلاً الى برگهوف في ١٠ آب (لازَمَ هتلر قصره الجبلي طوال الصيف تقريباً) وأسمعهم بعد العشاء خطبة دامت قرابة ثلاث ساعات كما روى (يودل) الذي كان من جملة الحاضرين ووصفها في يومياته الأمينة. لكن بلاغة هتلر في هذه المناسبة لم تكن مؤثرة كما أمل. وتحدث كل من (يودل) و(مانشتاين) الذي كان حاضراً ايضاً عن "اصطدام جدي سيء من اشد ما يمكن" بين الجنرال ڤون (ڤيترزهايم Von Wietersheim) وهملر وكان (ڤيترزهايم) أقدم جنرال بين المجتمعين. وقد تجرأ– بوصفه المرشح لرئاسة أركان جيش الغرب تحت أمرة الجنرال (ڤلهلم أدام Wilhelm Adam) على الكلام حول المشكلة الأساسية التي تشغل بال هتلر والقيادة العليا للقوات المسلحة: وهي انه بدفع كل القوات العسكرية تقريباً لتوجيه ضربة چيكوسلوڤاكيا ستبقى ألمانيا مكشوفة دون دفاع في الجبهة الغربية. وسيجتاحها الفرنسيون وبيَّن أن الجدار الغربي لايمكن أن يصمد أكثر من ثلاثة أسابيع.

"[كتب يودل في يومياته] الزعيم يثور ثائره. وينفجر قائلاً: في هذه الحالة لايكون الجيش صالحاً لأي شيء دعني اقل لك ايها السيد الجنرال [كان يصيح] إن المواضع ستبقى صامدة، ليس ثلاثة أسابيع بل ثلاثة أعوام(٢٠)!"

بماذا ستصمد؟ لم يقل. وفي ٤ آب كتب الجنرال أدام لإجتماع القادة الأقدمين أنه لن يحصل في الغرب على أكثر من خمس فرق عاملة. وهذه لاتصمد ابداً أمام الفرنسيين. ومن المحتمل أن (ڤيترزهايم) أعطى الرقم عينه في الإجتماع. الاّ ان (الزعيم) لم يصغ اليه. أما يودل مع كونه ضابط

٢٠– يوميات يودل [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج٢٨ ص٣٧٤] الترجمة الإنگليزية في [مؤامرة... ج٤ ص٣٦٤: وثيقة ١٧٨٠ PS].

ركن حاذق فكان واقعاً تحت سحر هتلر، وقد ترك الإجتماع مستاءً جداً لأن الجنرالات لم يفهموا عبقرية (الزعيم) على ما يبدو.

"إن السبب في هذا الرأي الواهن [رأي ڤيترزهايم] المنتشر لسوء الحظ في هيئات أركان الجيش إنتشاراً واسعاً، انما يرد الى عوامل مختلفة.

فأولاً إنها [أي هيئة الأركان] مازالت مقيدة بالذكريات القديمة وتشعر أنها مسؤولة أيضاً عن المقررات السياسية بدلاً من الطاعة وتنفيذ واجباتها العسكرية. ومما لاينكر أنها تنهض بالواجب الثاني بإخلاصها التقليدي الاّ أنها مفتقرة الى قوة الروح لأنها لاتؤمن في النهاية بعبقرية الزعيم. والمرء قد يندفع الى مقارنته بشارل الثاني عشر*.

وكحقيقة كون الماء ينحدر من فوق الى تحت، كذلك يخرج من هذه الروح الاندحارية بلجٌ بحريّ فيه ضرر سياسيّ فادح (فكل أمرءٍ يتكلم عن التناقض بين رأي الزعيم ورأي الجنرالات)، فضلاً عن خطر ذلك على معنويات الجنود. لكنني لاأشك في مقدرة الزعيم على رفع معنويات الشعب عندما تحين الساعة المناسبة(٢١)".

وكان حرياً (بيودل) أن يضيف الى ذلك مقدرة هتلر أيضاً على قمع الثورة التي تقوم بين الجنرالات. لقد أوضح (مانشتاين) أمام محكمة نورمبرگ سنة ١٩٤٦ أن هذا الإجتماع كان آخر إجتماع سمح فيه هتلر بمناقشة أو اسئلة من العسكريين(٢٢).

وفي عرض عسكري في (يوتربغ Jueterbog) في ١٥ آب، ردد هتلر للجنرالات عزمه على "حلّ المسألة الچيكية بالقوة" ولم يجرأ ضابط (أو يؤذن له) بقول كلمة واحدة في معارضته.

تبين (لبيك) أنه هُزم، ويعود ذلك بصورة رئيسة الى جبن اخوانه الضباط، وفي ١٨ آب إستقال من منصب رئيس هيئة أركان الجيش وحاول استمالة (براوختش) ليحذو حذوه الاّ أن قائد الجيش بات الآن واقعاً تحت سحر هتلر المغناطيسي، مدفوعاً لاشك بتأثير حماسة المرأة النازية التي ستغدو زوجه الثانية(٢٣). كما قال عنه هاسل Hassel: "براوختش يشبك ياقته بزرّ أعلى ويقول: أنا جندي والطاعة من واجبي"(٢٤).

من المألوف أن إستقالة رئيس هيئة أركان الجيش في عنفوان أزمة ولاسيما شخصية محترمة جداً كالجنرال (بيك)، كانت ستثير عاصفة في الاوساط العسكرية ويتردد صداها في الخارج لتخلّف ردّ فعل. لكن هتلر أظهر مكره هنا أيضاً. فقد قبل إستقالة (بيك) حالاً وبإرتياح كبير الاّ أنه منع ذكر

* شارل الثاني عشر (١٦٨٢-١٧١٨) ملك السويد صاحب الفتوحات الكبيرة في أوروپا، تغلّب عليه بطرس الأكبر في موقعة بولتاڤا. وبقي لاجئاً عند العثمانيين حتى أفتدي. وقتل في معركة مع النرويجيين.

٢١- المرجع نفسه.

٢٢- محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج٢٠ ص٦٠٦.

٢٣- حصل الجنرال براوختش على طلاقه في الصيف وتزوج السيدة شارلوت شموندت في ٢٤ أيلول.

٢٤- يوميات ڤون هاسل ص٦.

شيء عنها في الصحف أو حتى في جريدة الوقائع الرسمية الألمانية أو النشرة العسكرية. وأمر الجنرال المتقاعد وزملاءه الضباط أن يبقوها سراً. إذ ليس من المستحسن أن يتسرب النبأ الى الحكومتين الفرنسية والإنكليزية عن وجود إختلاف في وجهات النظر في أعلى مراتب الجيش الألماني وفي هذه اللحظة الخطيرة. ومن المحتمل أن باريس ولندن لم تسمعا بالأمر حتى نهاية تشرين الأول عندما أعلنت الإستقالة رسمياً في برلين والمرء لايسعه الاّ الإفتراض انهم لو سمعوا في حينه فربما سلك التاريخ منعطفاً مختلفاً وربما لم يستمرا بسياسة مهادنة هتلر الى هذا الحدّ.

ودفعت وطنية (بيك) وإخلاصه للجيش الى ألاّ يبذل مجهوداً يجذب إهتمام الرأي العام الى إستقالته. على كل حال كان يشعر بالخيبة المرة اذ لم يسنده أي جنرال من أولئك الذين وافقوه على رأيه واسندوه في معارضته الحرب، وكان يتوقع أن يحذوا حذوه ويستقيلوا. لم يحاول إقناعهم وكان- كما قال عنه (هاسل) فيما بعد. "(كلاوسڤيتز* Clausewitz) خالص، ليس فيه ألمعية (بلوخر Bluecher أو (يورك Yorck)"[٢٥]- رجل مبادىء وفكر لا رجل عمل. شعر أن (براوختش) قد خذله في اللحظة الحاسمة في التاريخ الألماني، بوصفه قائداً عاماً للجيش. وهذا ما حزَّ في نفسه. وقد نوّه كاتب سيرة حياته وصديقه بعدها بعدة سنين بـ"المرارة الشديدة" التي كانت تلوح في كلامه كلما تحدث عن قائده القديم. في هذه المناسبات كان يهز رأسه هزات أسى ويتمتم "براوختش خذلني!"[٢٦].

كان الجنرال (فرانز هالدر) خليفة (بيك) في رآسة هيئة أركان الجيش العامة (لم يعلن عن تعيينه وبقي سراً عدة أسابيع حتى إنتهاء الأزمة) في الرابعة والخمسين من العمر. انحدر من أسرة عسكرية باڤارية عريقة وأبوه جنرال. وقد نشأ في صنف المدفعية وخدم كضابط شاب في هيئة أركان ولي العهد الأمير (روپرخت) في الحرب العالمية الأولى. ومع صداقة لروهم ترجع الى أيام مونيخ الأولى لما بعد الحرب مما يجعله عرضة للشك في برلين، فقد ارتقى رقياً سريعاً في الجيش. حتى بلغ منصب نائب (بيك) في السنة الأخيرة. والواقع أن (بيك) هو الذي اقترحه على براوختش ليكون خلفاً له لأنه كان واثقاً من أنه يشاركه في وجهات النظر.

و(هالدر) يكون أول باڤاري وأول كاثوليكي يُولى منصب رآسة هيئة أركان حرب الجيش الألماني في سائر تاريخه. وهذا خرق شديد لتقاليد هيئة الضباط العامة الپروتستانيتة الپروسية. كان رجلاً ذا تتبعات فكرية واسعة بميل خاص الى الرياضيات وعلم النبات (كان أول أنطباعي عنه أنه بدا كأستاذ رياضيات أو علوم من أساتذة الجامعة). كما كان مسيحياً تقياً، وبهذه الصفات لاشك أنه كان يملك الذهن والروح اللذين يؤهلانه لإستخلاف (بيك) بجدارة واستحقاق. والمسألة هي هل يفتقر الى البراعة

* كارل فون كلاوسڤيتز (١٧٨٠-١٨٣١) جنرال پروسي وستراتيجي ومؤرخ عسكري. مؤلف كتاب (في الحرب) الذي أحدث ثورة في الفكر العسكري بعد موته. كان يرى الحرب إمتداداً للدبلوماسية. وعُدّت نظرياته بنوات للحروب الحديثة.

٢٥- المرجع السالف ص٣٤٧.

٢٦- فوريستر المرجع السالف ص١٢٢.

في إتخاذ قرار حاسم في الساعة المناسبة؟ وهل يتوفر فيه عنصر الإقدام (في حالة عدم افتقاره الى تلك الصفة) على الحنث بيمين ولائه للزعيم فيتحرك ضدّه في تلك الساعة؟ ذلك لأن (هالدر) وان لم يكن في مبدأ الأمر عضواً في المؤامرة المتنامية ضدّ هتلر (كان عالماً بها كما يبدو مثل بيك) وقد رغب في اسنادها، وأصبح بحكم منصبه اللولب الرئيس لأول مؤامرة استهدفت الاطاحة بدكتاتور الرايخ الثالث.

-٤-

ميلاد مؤامرة ضدّ هتلر

بعد خمس سنوات ونصف سنة من طغيان القومية الإشتراكية كان واضحاً لقلة من الألمان الذين عارضوا هتلر، أن الجيش وحده هو الذي يملك القوة المجردة للإطاحة به. فالعمال والطبقة المتوسطة، والعليا، لايملكون الوسائل، إن شاؤوا. لم يعد للعمال منظمة خارج الحزب النازي وتكتلاته وهم بالطبع لايملكون سلاحاً. ومع أنه كتب الكثير فيما بعد عن حركة "المقاومة" الألمانية فقد ظلت من البداية الى النهاية شيئاً صغيراً ضعيفاً يقوده والحق يقال حفنة من الشجعان المخلصين الذين لايملكون أتباعاً.

إن مجرد بقائها وإستمرارها ككيان، أمرٌ من الصعوبة بمكان في دولة پوليسية يحكمها الإرهاب والجاسوسية. زد على ذلك كيف تتمكن زمرة صغيرة (او حتى كبيرة إن وجدت) من إعلان ثورة بمواجهة رشاشات الحرس الأسود ودباباتهم وباصقات نارهم؟

في المبدأ انبثقت المعارضة بين المدنيين. فقد رأينا أن القادة العسكريين كانوا مسرورين جداً بهذا النظام الذي مزق بنود معاهدة ڤرساي ومنحهم فرصة الإستمرار في مهمتهم التقليدية وبناء جيش عظيم مرة أخرى. ومن مفارقات الدهر أن كبار المدنيين الذين برزوا لقيادة المعارضة كانوا قد خدموا (الزعيم) في مناصب مهمة ومعظمهم كان في المبدأ متحمساً للنازية لم يفقدوا حماستهم الاّ بعد أن اخذت الحقيقة تتكشف لهم في ١٩٣٧، وهي أن هتلر كان يقود ألمانيا الى حرب لاتتمحض بغير الهزيمة.

ومن أوائل هؤلاء الذين رأوا النور (كارل غويردلر Karl Goerdeler) عمدة مدينة (لايبزك). كان المستشار (برونك) قد عينه مراقباً عاماً للأسعار وإستمر في عمله هذا ثلاث سنوات أثناء حكم هتلر. كان محافظاً ملكياً من حيث المبدأ. وپروتستانتي المذهب، قديراً جم النشاط ذكياً الاّ أنه عنيد الرأي غير كتوم. انفصل عن النازيين في ١٩٣٦ بسبب معاداتهم للسامية وإنتهاج سبيل التسلح. وبعد أن إستقال من منصبه إندفع بعمل بكل قواه في معارضة هتلر ومن أولى أعماله: تجواله في فرنسا وانگلترا والولايات المتحدة في ١٩٣٧ منذراً بخطر ألمانيا النازية بشكل رزين وقور.

ورأى النور بعده بقليل متآمران آخران هما يوهانس پوپيتس Johannes Popitz وزير المال البروسي. والدكتور شاخت. كلاهما قلد أرفع وسام في الحزب النازي "شعار الشرف الذهبي" للخدمات التي قدماها في توجيه الإقتصاد الألماني للأغراض الحربية. وكلاهما بدءا يصحوان من غفلتهما على أهداف هتلر الحقيقية في ١٩٣٨ ولم يكونا موضع ثقة من الحلقة المتزعمة للمعارضة بسبب ماضيهما وأخلاقهما. فشاخت انتهازي الى أقصى حدٍ، وقد دوّن (هاسل) في يومياته أن شاخت قادرٌ على "الكلام بشكلٍ، والعمل بشكل آخر". ويقول أن فكرته هذه يشاركه بها الجنرالان (بيك) و(ڤون فريتش). أما (پوپيتش) فقد كان شخصية لامعة إلاّ أنه متقلب وهو إقتصادي شهير ومتبحر في المآثر اليونانية. وكان هو و(بيك) و(هاسل) أعضاء في "ندوة الأربعاء" وتتألف من ستة عشر مثقفاً يجتمعون مرة واحدة كل أسبوع يناقشون في الفلسفة والتاريخ والفن والعلوم والأدب، حتى أصبحوا بمرور الزمن –أو بنفاده– مركزاً من مراكز المعارضة.

وصار (اولريخ ڤون هاسل) بمثابة مستشار الشؤون الخارجية لقادة المقاومة. كانت تقاريره حين أرسل سفيراً الى روما أثناء الحرب الحبشية والحرب الأهلية الإسپانية –كما رأينا– مفعمة بالنصائح عن كيفية إبقاء إيطاليا في خصام مع فرنسا وبريطانيا وبالتالي الى جانب ألمانيا، وبعدها أدركه الخوف من أن حرباً مع فرنسا وبريطانيا قد تطوح بألمانيا شر مطوح. حتى التحالف مع إيطاليا فإنه لن يغير من النتيجة. لم تسمح ثقافته الواسعة ونشأته الخلقية الرفيعة لنفسه أن تحتفظ للقومية الإشتراكية المريضة بغير الزراية والاحتقار. على أنه لم يتخلّ عن خدمة النظام بمحض إختياره بل طرد من السلك الدبلوماسي طرداً في التصفية الواسعة العسكرية– السياسية –الدبلوماسية التي أمر بها هتلر في ٤ شباط ١٩٣٨، كان (هاسل) سليل أسرة نُبل هانوڤرية عريقة وزوجاً لبنت الأميرال الأعظم (ڤون تربيتز Von Tirpitz) مؤسس الأسطول الألماني. وسيداً من سادة المدرسة القديمة من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. كان لطبيعة تكوينه هذا يحتاج الى صدمة نبذ النازيين له –ككثير من أبناء طبقته، ليبدو متلهفاً الى الإقدام على أي عمل للتطويح بهم. فلما فعلوا به مافعلوا أوقف الرجل الحساس النبيه القلِق كل نشاطه على هذه الغاية حتى النهاية وضحى بنفسه في سبيلها كما سنرى ولقي ميتة بربرية شنعاء.

هناك آخرون أقل شهرة وأصغر سناً وقفوا في وجه النازيين من البداية وتقاربوا تدريجاً حتى اجتمعوا ليشكلوا حلقات مقاومة متعددة. ومن زعماء مثقفي احدى الكتل المزارع (إيڤالد ڤون كلايست Ewald von Kleist) وهو سيد مهذب وسليل الشاعر العظيم (كلايست). وقد وحّد عمله مع (ارنست نيكيش Ernst Niekisch) وهو ديمقراطي إشتراكي سابق ورئيس تحرير (المقاومة Widerstand). والإشتراكي (فابيان ڤون شلابرندورف Fabian von Schlabrendorff) وهو محام شاب وحفيد طبيب الملكة فكتوريا الخاص ومستشارها الشخصي الموثوق البارون (ڤون شتوكمار von Stokkmar). كما كان ثم زعماء نقابيون سابقون امثال يوليوس ليبر Juluis Leber وياكوب كايزر Jakob Kaiser و(ڤلهلم

ليـوشنر Wilhelm Leuschner) الموظفـان في شـرطة الگشـتـاپو (ارتور نيـبـه Artur Nebe) رئيس دائرة الشرطة الجنائيـة (وبيرند گيزفـيوس Bernd Gisevius) وهو ضابط شرطة شاب لامع، أصبحا مساعدَين ثمينين عندما قطعت المؤامرات شوطاً. كان ثانيهما موضع إعجاب وإكبار الإدعاء العام الأمريكي في محاكمات نورمبرگ. وقد كتب كتاباً ألقى ضوءً باهراً على المؤامرات التي حيكت ضدّ هتلر، وإن لم يمنحه أو يمنح كتابه معظم المؤرخين أي منزلة من التقدير أو الإهتمام.

هناك عدد من أبناء أسر عريقة في ألمانيا ومنهم الكونت هلموث ڤون مولتكه Helmuth von Moltke، وهو ابن حفيد لأخ الفيلد مارشال الشهير. وقد ألّف هذا فيما بعد كتلة من الشبان المثاليين عرفت باسم حلقة (كرايساو Kreisau)، والكونت ألبريخت برنشتورف Albrecht Bernstorff إبن أخ السفير الألماني في واشنطن أثناء الحرب العامـة الأولى، وفرايهر كارل لودڤيك ڤون گوتنبرغ Freiherr Karl Ludwig von Guttenberg رئيس تحرير مجلة شهرية كاثوليكية جريئة، وراعي الكنيسة (ديتريش بنهويفر Dietrich Benhoeffer) وهو سليل أسرة رجال دين پروتستانتية مشهورة من جهة أمه وأبيه كان يعتبر هتلر منكراً للمسيح ويؤمن بأن من واجب المسيحي "القضاء عليه".

ظل كل هؤلاء الرجال الشجعان تقريباً، يواصلون الكفاح حتى ألقي القبض عليهم وعذبوا تعذيباً همجياً ثم اعدموا الحياة شنقاً أو على النطع بالفاس، أو قتلوا برصاص الحرس الأسود.

ظلت هذه النواة الصغيرة من المدنيين ردحاً طويلاً لاتحقق نجاحاً يذكر في إجتذاب الجيش الى عملها. وكما شهد الفيلد مارشال ڤون بلومبرگ في نورمبرگ قال "قبل عام ١٩٣٨-١٩٣٩ لم يعارض الجنرالات الألمان هتلر. اذ لم يكن ثم سبب معقول لمقاومته، مادام حقق النتائج التي أرادوها". لقد وجد إتصال ما بين (گويردلر) والجنرال (ڤون هامرشتاين) إلاّ أن القائد العام الأسبق للجيش الألماني كان متقاعداً منذ ١٩٣٤ ونفوذه قليل على الجنرالات العاملين. كذلك كان شلابرندورف قد أتصل في أوائل حكم هتلر بالكولونيل (هانس اوشتر Hans Oster) رئيس مساعدي الأميرال (كاناريس) في مكتب الإستخبارات التابع للقيادة العليا للقوات المسلحة ووجده عدواً لدوداً للنازية راغباً في محاولة ربط البرزخ بين المدينين والعسكريين بجسر. على أن الأمر لم يتبلور حتى في شتاء ١٩٣٧-١٩٣٨ عندما تعرض الجنرالات الى صدمات متعاقبة أحدثها فيهم قرار هتلر بالخروج الى الحرب، وهزه القيادة العسكرية التي استولى عليها، ومعاملته المهينة للجنرال ڤون فريتش. بحيث باتوا يدركون خطر الدكتاتور النازي على ألمانيا. وزادت في صحوتهم إستقالة الجنرال (بيك) في أواخر آب ١٩٣٨ عندما تعاظم خطر الأزمة الچيكوسلوڤاكية وإن لم يحذ حذوه واحدٌ من زملائه الضباط فيستيقلوا كما أمل فقد اتضح حالاً أن رئيس هيئة الأركان المعتزل هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يلتف حوله الجنرالات الناقمون ورجال المقاومة المدنيون. فكلا الكتلتين تثقان به وتحترمانه.

هناك إعتبار آخر كان واضحاً للفريقين. العمل على كبح جماح هتلر يستلزم القوة الآن، ولايملك القوة الاّ الجيش. ولكن من في الجيش من يستطيع حشده؟ ليس (هامرشتاين) ولا(بيك) لأنهما متقاعدان،

وادركوا أن ما يحتاجونه هو ضم جنرالات يقودون في الوقت الحاضر قطعات عاملة تكون مقراتهم داخل برلين أو ضواحيها وبهذا يمكنهم القيام بعمل مؤثر حال صدور الإشارة. والجنرال (هالدر) رئيس الأركان الجديد لايملك قطعات تحت قيادته مباشرة والجنرال براوختش في يده الجيش كله الاّ أنه غير موثوق به تماماً. وقد تكون سلطته مفيدة لكن لايمكن أن يدخلوه الى صفهم الاّ في آخر لحظة.

وشاءت الصدف أن يكتشف بسرعة جنرالات ذوو قيادات هامة راغبون في المساعدة فضُمّوا الى صفوف المتآمرين. كان ثلاثة منهم على رأس قيادات حيوية لنجاح المغامرة: وهم الجنرال (ڤون ڤيتزليبن) قائد المنطقة العسكرية الثالثة Wehrkreis III المهمة جداً التي تشمل برلين والمناطق المجاورة والمحيطة بها. والجنرال الكونت إريخ ڤون بركدورف–آهلفلد Erich von Brockdorff Ahledeld قائد حامية پوتسدام التي تتكون من فرقة المشاة الثالثة والعشرين. والجنرال إريخ هوپنر Erick Hoepner الذي يقود فرقة آلية مصفحة في (ثورنجيا) بإمكانها عند الضرورة أن تصد اي تحشيد من الحرس الأسود يحاول الزحف من مونيخ على برلين لإستخلاصها.

وكانت خطة المؤتمرين كما آلت اليه في نهاية آب، إلقاء القبض على هتلر ساعة إصداره الأمر الأخير للهجوم على چيكوسلوڤاكيا. وجره الى واحدة من محاكم أمنه الشعبية بتهمة محاولته جر ألمانيا نزقاً وطيشاً الى حرب أوروپية ولهذا لايعود أهلاً للحكم. وفي الوقت نفسه يقام لفترة قصيرة حكم دكتاتوري عسكري، ثم تؤلف حكومة مؤقتة يرأسها شخصية مدنية معروفة، وبعدها تؤلف حكومة ديمقراطية محافظة.

هناك إعتباران يتوقف عليهما نجاح الإنقلاب، ويعتمدان على الجنرالين (هالدر) و(بيك) الأول منهما كان مؤقتاً للحركة فقد تفاهم مع القيادة العليا للقوات المسلحة أن يعطى له شخصياً اشارة قبل ثمان وأربعين ساعة من تعميم هتلر أمره الأخير بالهجوم على چيكوسلوڤاكيا. وهو ما كان سيتيح له الوقت الكافي لتنفيذ المؤامرة قبل أن تجتاز القطعات خط الحدود الچيكية. وبهذا يتم إلقاء القبض على هتلر وفي الوقت نفسه يحول دون خطوة قاضية قد تؤدي الى الحرب. والعامل الثاني أن يتمكن (بيك) من إقناع الجنرالات في زمن أسبق والشعب الألماني في زمن تالٍ (أثناء محاكمة هتلر المنتواة) بأن هجوماً على چيكوسلوڤاكيا قد يُقحم بريطانيا وفرنسا وبهذا تنشب حرب أوروپية ليست ألمانيا مستعدة لها وستخسرها حتماً. كان هذا عبء مذكراته طوال الصيف وهو الآن قاعدة كل ما تأهب الآن لعلمه: إبعاد ألمانيا عن حرب أوروپية ستؤدي بها حتماً الى الدمار بطريق التطويح بهتلر.

أسفاً على بيك! وأسفاً عن مستقبل معظم بلاد العالم كان هتلر، لا رئيس الأركان المستقيل، الأدق نظرة في إحتمالات نشوب حرب كبيرة. كان (بيك) المثقف الأوروپي الواقف على التاريخ يعجز عن تصور قيام بريطانيا وفرنسا بملء رغبتهما– بتضحية مصالحهما الذاتية عن طريق عدم التدخل في حالة هجوم ألمانيا على چيكوسلوڤاكيا. كان ملماً بالتاريخ واقفاً على أحداثه. الاّ أنه لايعرف شيئاً عن السياسة المعاصرة. أمّا هتلر فكان بها بصيراً. وقد تعزز إعتقاده منذ زمن طويل بصحة إستنتاجه

وهو أن رئيس الوزراء چمبرلين لن يتردد في تقريب چيكوسلوڤاكيا ذبيحةً في سبيل يفادي الحرب، وأن فرنسا لن تقوم في هذه الحالة بإيفاء بتعهداتها لبراغ بموجب المعاهدة.

كان ڤلهلمشتراسّه مطلعاً على تقارير نشرت في صحف نيويورك منذ ١٤ أيار، نقل فيها مراسلوها "أحاديث خاصة" جرت على مائدة غداء مع چمبرلين في منزل الليدي آستور Astor. كتب المراسلون أن الرئيس البريطاني قال لن تقوم بريطانيا ولا فرنسا ولا روسيا على أغلب الإحتمال بمعونة چيكوسلوڤاكيا في حالة هجوم ألماني. وأن بريطانيا تحبذ لمصلحة السلم أن تُقتطَع أرض السوديت وتُضَمّ الى ألمانيا. ورغم الأسئلة الساخطة في مجلس العموم لاحظ الألمان أن چمبرلين لم ينكر صحة التقارير الأمريكية.

وفي ١ حزيران تكلم رئيس الوزراء مع مراسلين بريطانيين كان حديثاً خاصاً في أجزاء منه. وبعدها بيومين نشرت (التايمس) أول إفتتاحياتها التي ساعدت في تصدّع الموقف الچيكي. حين دعت الحكومة الچيكية الى منح "حق تقرير المصير" لأقليات البلاد "وإن أدى الى إنفصالها عن چيكوسلوڤاكيا"، واقترحت لأول مرة اللجوء الى الإستفتاءات كوسيلة لمعرفة رغبة السوديت وغيرهم. وبعدها بأيام قليلة أعلمت السفارة الألمانية في لندن، برلين بأن افتتاحية (التايمس) مستوحاة من تعليقات چمبرلين الخاصة. فهي تعكس وجهات نظره. وفي ٨ حزيران أبلغ السفير (ڤون ديركسن) وزارة خارجيته أن حكومة چمبرلين راغبة في أن ترى مناطق السوديت مقتطعة من چيكوسلوڤاكيا شريطة ان يكون ذلك بعد إستفتاء "لاتعيقه إجراءات عنيفة قسرية من الطرف الألماني"[٢٧].

كل هذا كان مما يشتهيه هتلر ويرضيه ولم تكن الأنباء من روسيا سيئة أبداً. ففي أواخر حزيران كان السفير الألماني في موسكو فردريك ڤيرنر كونت ڤون در شولنبرگ Friedrich Werner Count von der Schulenberg) ينبيء برلين ليس هناك إحتمال لقيام الإتحاد السوڤيتي "بالدفاع عن دولة برجوازية"[٢٨] ويقصد چيكوسلوڤاكيا. وفي ٣ آب أبلغ ريبنتروب البعثات الدبلوماسية المهمة في الخارج "يكاد لايوجد خطر تدخل بريطانيا وفرنسا والإتحاد السوڤياتي في مسألة چيكوسلوڤاكيا"[٢٩].

وفي هذا اليوم بالذات (٣ آب) بعث چمبرلين باللورد رنسيمان Runciman الى چيكوسلوڤاكيا بمهمة غريبة: ليعمل "كوسيط" في أزمة السوديت. وإتفق أني كنت في پراغ يوم وصوله وبعد حضوري مؤتمره الصحفي وحديثي مع أعضاء حاشيته دوّنت في يومياتي ما يلي:

"تفوح من مهمة (رنسيمان) كلها رائحة خبيثة". وأشفع چمبرلين إعلانه عنها في مجلس العموم يوم ٢٦ تموز، بتعليق حافل بالمراوغة لعلّه الحديث الفريد الذي لم يسبقه مثيل في هذا المجلس. قال رئيس الحكومة أنه أرسل (رنسيمان) "تلبية لطلب تقدمت به الحكومة الچيكوسلوڤاكية" والحقيقة

٢٧- تقارير ٨ و٩ حزيران ٩٣٨ [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ الص ٣٩٥و٣٩٩-٤٠١].
٢٨- تقرير ٢٢ حزيران ١٩٣٨ المرجع السالف ص٤٢٦.
٢٩- المرجع نفسه الص٥٢٩-٥٣١.

الواقعة أن (رنسيمان) دفع دفعاً الى بلعوم چيكوسلوڤاكيا بيد چمبرلين. لكن هناك خديعة أكبر منها تختفي تحت هذا فالكل يعلم –وچمبرلين أيضاً– أن بعثة (رنيسمان) "للتوسط" بين الحكومة الچيكية وزعماء السوديت شيء سخيف مستحيل. فهم مدركون أن الزعيم السوديتي (هنلاين) ليس حراً ولايستطيع ان يفاوض، وان النزاع الآن محصور بين برلين وپراغ. وتسجل يومياتي لأول مرة ولما تلا من أيام ما يتضح منه أن الچيك كانوا يدرون تماماً أن (رنسيمان) ما أرسل إلاّ ليمهد سبيل إعطاء أرض السوديت (لهتلر). انها لحيلة دبلوماسية دنيئة!



الأميرال هورتي

والآن بدأت آخر أيام صيف ١٩٣٨ تنصرم و(رنسيمان) يتجول في أرجاء اقليم السوديت ويتنقّل في ربوع (پراغ) ملقياً بالتلميحات الودودة للسوديت الألمان ومكثراً الطلب على الحكومة الچيكية بأن تمنحهم ما يريدون. أمّا هتلر وجنرالاته فقد كانوا منهمكين في أعمالهم ووزارة خارجيته تطن مثل خلية النحل. وفي ٢٣ آب دعا الزعيمُ الوصيُّ الهنغاريُّ الأميرال هورتي Horthy وأعضاء الحكومة الهنغارية الى الإقامة على ظهر الباخرة (پاتريا Patria) الراسية في خليج (كيل) أثناء مناورات الأسطول. وأسرّ هتلر لضيوفه: إن كانوا يريدون أن يحضروا وليمة الچيك فعليهم أن يستعجلوا. وأجمل رأيه هكذا "من يريد الجلوس الى السماط، فعليه على الأقل أن يساعد في أعمال المطبخ" وكان السفير الإيطالي (برناردو آتوليكو Bernardo Attolico) ضيفاً في الباخرة أيضاً فألحّ على ريبنتروب ليخبره بموعد "الحركة الألمانية على چيكوسلوڤاكيا" حتى يكون موسوليني مستعداً. ردّ عليه الوزير الألماني بجواب غامض. كان واضحاً ان الألمان لايثقون تماماً بنوايا حليفهم الفاشي. أما من پولندا فهم الآن واثقون. فقد دأب ڤون مولتكه السفير الألماني في وارشو على الكتابة الى برلين إن پولندا لن تخف الى معونة چيكوسلوڤاكيا، ولن تسمح لروسيا بإرسال جيوشها عبر أراضيها ولا طائراتها ان تحلق في مجالها الجوي، بل أن وزير الخارجية (الكولونيل يوزف بيك Jozef Beck) يشخصُ بعينٍ نهمة الى قطعة من الأراضي الچيكية وهي اقليم (تيشين Teschen). كان الوزير (بيك) يظهر من الآن قصر النظر القتّال الذي غم على الأذهان في أوروپا في ذلك الصيف. هذه الرقاعة التي ستتكشّف له في النهاية عن كارثة تفوق حدود خياله.

كان النشاط المتواصل يسود جو القيادة العليا للقوات المسلحة والقيادة العليا للجيش. ونظمت الخطط الأخيرة لجعل القوات المسلحة على تمام الإستعداد للإندفاع الى چيكوسلوڤاكيا في ١ تشرين

الأول. وفي ٢٤ آب كتب الكولونيل (يودل) من القيادة العليا للقوات المسلحة (ق.ع.ق.م) مذكرة مستعجلة لهتلر يشدد على "ضرورة تعيين موعد دقيق" "للحادثة" التي ستبرر لألمانيا عامل الإستفزاز المؤدي الى التدخل العسكري لإن توقيت يوم (س) يعتمد عليها.

"[ومضى يقول] لايمكن إتخاذ إجراءات مسبقة قبل (س) ناقصاً (١) [يوماً واحداً] حيث لايمكن أن نتقدم بإيضاحات بريئة، وبخلافه سنبدو وكأننا إفتعلنا (الحادثة) إفتعالاً... ولأسباب فنية اذا اعتبرت ساعات العصر مناسبة (للحادثة) فلايمكن أن يكون اليوم التالي هو يوم (س) بل يجب أن يكون بعده... إن الغاية من هذه الملاحظات هو الاشارة الى الأهمية العظيمة التي توليها القوات المسلحة (للحادثة) ويجب أن تبلغ بنية الزعيم خلال وقت كافٍ -ذلك لأن دائرة إستخبارات القوات المسلحة لم تكلف هي الأخرى بتدبير الحادثة[٣٠].

كانت إستعدات الخبراء للهجوم على چيكوسلوڤاكيا فيما يظهر قد قطعت أشواطاً بعيدة بنهاية الصيف. ولكن ماذا عن الإستحكامات في الغرب إذا ما وفّى الفرنسيون بتعهداتهم للچيك وقاموا بهجوم؟ في ٢٦ آب باشر هتلر بجولة في الاستحكامات الغربية يصحبه (يودل) والدكتور (تود Todt) المهندس المشرف على بناء الجدار الغربي، و(هملر) وعدد من رجال الحزب. وفي ٢٧ آب إلتحق بالركب الجنرال ڤلهلم آدام قائد جبهة الغرب (وهو عسكري باڤاري صريح وقدير) وفي اليومين التاليين شاهد هذا الضابط كيف صار هتلر يترنّح ثملاً بالإستقبال الظافر الذي نظم له في أرض الراين. في حين لم تُحدث أثراً في الجنرال بل كان في الواقع شديد القلق، وفي اليوم التاسع والعشرين أحدث مفاجأة غريبة عند الحاضرين بطلبه التحدث مع (الزعيم) على إنفراد. فصرف هتلر كلاً من هملر وأعوانه الحزبيين ولم يضيع (آدام) وقته بالكلام الفارغ وصرّح أنه لايتمكن من الصمود في الجدار الغربي -رغم كل الدعاية عنه- بالقطعات التي هي الآن تحت إمرته. فهاج هائج (هتلر) وصب في أذنيه محاضرة طويلة حول كيفية بلوغه بألمانيا الى القوة التي تزيد على قوة بريطانيا وفرنسا مجتمعتين. وصاح به: "إن الرجل الذي لايصمد في هذه الاستحكامات هو جبان وغدٌ!"[٣١]

مهما يكن من أمرٍ، فقد زادت الشكوك حول هذه النقطة في عقول جنرالات آخرين خلاف (آدام). وفي ٣ أيلول استدعى هتلر رئيس (ق.ع.ق.م) والقيادة العليا للجيش (ق.ع.ج) (كايتل وبراوختش). واتفق على أن تحرك وحدات الميدان الى نقاطها على طول الحدود الچيكية في ٢٨ أيلول. ولكن يجب أن يعرف (ق.ع.ق.م) متى سيكون يوم (س)، في وقت لايتجاوز ظهر ٢٧ أيلول. ولم يكن هتلر راضياً عن مخطط العمليات (للقضية الخضراء) وأمر أن تجرى فيه تنقيحات من جوانب متعددة. ويتضح من الملحوظات التي دوّنها الرائد (شموندت) أن براوختش على الأقل. أثار

٣٠- المبرز رقم ١٧ من ملف (القضية الخضراء) [مؤامرة... ج٣ الص٣٣٢-٣٣٣ الوثيقة ٣٨٨ PS].

٣١- على ما جاء في يوميات يودل. ان هتلر استخدم كلمة Humdsfott وهي أقذع [محاكمات مجرمي الحرب الكبار: ج٢٨ ص٣٧٥] ويذكر تلفورد تايلر في كتابه "السيف والصليب المعقوف" تفاصيل أكثر مبنية على مذكرات الجنرال آدام غير المطبوعة.

مسألة كيفية الصمود في الغرب (ذلك لأن مصانعة كايتل أفقدته الجرأة على الكلام) فصرفه هتلر مؤكداً له أنه اصدر الأوامر بالتعجيل في بناء الإستحكامات الغربية(٣٢).

في ٨ أيلول قابل الجنرال (هاينريخ ڤون شتولبناگل Heinrich von Stuelpnagel) يودل ودوّن هذا في يومياته عن تشاؤم الجنرال من الموقف العسكري في الغرب. كان واضحاً لكليهما أن هتلر الذي إرتفعت معنوياته بحماسة مهرجان الحزب السنوي في نورمبرگ المفتتح وشيكاً، يسير بعزم ثابت في طريق الهجوم على چيكوسلوڤاكيا سواء أتدخلت فرنسا أم لم تتدخل. وكتب يودل المتفائل عادة "أعترفُ بأني قلق كذلك".

في اليوم التالي (٩ أيلول) استدعى هتلر (كايتل وبراوختش وهالدر) الى نورمبرگ لمؤتمر بدأ في العاشرة مساءً ولم ينته إلاّ في الرابعة صباحاً وكان مؤتمراً عاصفاً كما أسرّ كايتل ليودل، فأسرّها هذا بدوره الى يومياته. ووجد (هالدر) نفسه في وضع دقيق لإضطراره بحكم منصبه الى شرح خطة هيئة الأركان في معركة چيكوسلوڤاكيا بكل تفاصيلها (في حين كان هو مركز ثقل المؤامرة على التطويح بهتلر في الوقت الذي ينطق بأمر الهجوم)، ووجد نفسه في مركز غير مريح قط عندما رأى هتلر يمزق الخطة شر ممزق ويشرع في تأنيبه وتأنيب (براوختش) لجبنهما وعدم كفاءتهما من الناحية العسكرية(٣٣).

ونوّه (يودل) تلميحاً في الثالث عشر من الشهر بأنّ (كايتل) مازال "شديد الإضطراب" لفرط ما لقيه من عناءٍ في إجتماع نورمبرگ ولإنتشار روح "الإنهزامية" الواضحة بين قادة الجيش الألماني الكبار.

"رفعت (للزعيم) تُهمٌ بروح الإنهزامية التي تسود (ق.ع.ج)... كايتل يقول انه لن يتسامح مع أي ضابط في (ق.ع.ق.م) ينتقد أو يتبنى أفكاراً غير صحيحة أو يظهر إنهزامية... (الزعيم) يعرف أن قائد الجيش (براوختش) كان قد طلب من جنرالاته قادة القطعات مساندته في فتح عين هتلر على المخاطر التي تكتنف مغامرته المنتواة. وهو نفسه [براوختش] لم يبق له أي تأثير على الزعيم.

ولهذا خيّم على نورمبرگ جو صقيعي بارد ومن سوء الحظ الشديد أن (الزعيم) يتمتع بثقة جميع أبناء الأمة بإستثناء قادة الجيش الكبار."

كل هذا أحزن الشاب المستوفز (يودل) الذي ربط مصيره بهتلر.

"بالأعمال فحسب يمكن [لهؤلاء الجنرالات] أن يصلحوا الأضرار التي أحدثوها بسبب إفتقارهم الى القوى العقلية والطاعة. إنها مشكلة العام ١٩١٤ بعينها. هناك مثل واحد يضرب للعصيان داخل الجيش ألا وهو تمرد الجنرالات، وهو ينبع في النهاية من كبريائهم. انهم لايستطيعون بعد ان يؤمنوا أو

٣٢- وقائع إجتماع ٣ أيلول ١٩٣٨ [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٣ ص٣٣٤-٣٣٥ الوثيقة ٣٨٨ PS].

٣٣- ملحوظات شموندت عن إجتماع ٩ أيلول، المرجع السالف الص٣٣٥-٣٣٨ وهو المبرز رقم ١٩ في ملف (القضية الخضراء).

أن يطيعوا لأنهم لايدركون عبقرية هتلر. كثير منهم مايزال يرى فيه نائب عريف الحرب العامة ولايرى فيه أعظم سياسي منذ بسمارك(٣٤)."

في الحديث الذي جرى بين (يودل) وبين الجنرال ڤون شتولبناگل الذي كان يشغل منصب "مدير التسليح والميرة الأول Oberqurtiermeister 1" في قيادة الجيش العليا، أحد المشاركين في مؤامرة (هالدر) طلب تأكيدات خطية من (ق.ع.ق.م) بأن تحاط قيادة الجيش العليا علما بأمر هتلر بالهجوم قبل وقوعه بخمسة أيام. فأجاب يودل أن تقلبات الطقس لاتدع مجالاً لأكثر من يومين وعلى كلٍّ كانت المهلة كافية للمؤتمرين. الاّ انهم كانوا بحاجة الى تأكيدات من نوع آخر- هل هم مصيبون في إفتراضهم بأن بريطانيا وفرنسا ستدخلان الحرب ضد ألمانيا إن نفذ هتلر عزمه في غزو چيكوسلوڤاكيا. ولهذا السبب قرروا إرسال وكلاء يوثق بهم الى لندن ليكشفوا عما إنتوته بريطانيا، وليحاولوا أن يقوّوا من عزمها بإعلام الحكومة البريطانية أن هتلر قد قرر غزو چيكوسلوڤاكيا في يوم معين من الخريف القادم وان هيئة الأركان التي تعرف الموعد تعارض في الهجوم وهي على إستعداد لإتخاذ عمل حاسم جداً لوقفه إن إتخذت بريطانيا موقفاً حازماً من هتلر الى الأخير.



ونستون چرچل أيام الحرب

واختار الكولونيل (اوشتر) من دائرة الإستخبارات (إڤالد ڤون كلايست) مبعوثاً للمؤتمرين. فوصل لندن في ١٨ آب. كان السفير (هندرسن) في برلين الذي بات يلح في إعطاء هتلر كل ما يريده في چيكوسلوڤاكيا، ونصح وزارة الخارجية "ليس من الحكمة في شيء إستقباله [يعني كلايست] في الدوائر الرسمية" غير ان السر (روبرت ڤانسيتارت) رئيس المستشارين الدبلوماسيين في وزارة الخارجية(٣٥) وأحد

٣٤- يومية يودل- حاشية ١٣ أيلول: [محاكمات مجرمي الحرب... ج٢٨ الص٣٧٨-٣٧٩ الوثيقة: PS ١٧٨٠].

٣٥- جاء في مذكرة لوزارة الخارجية الألمانية مؤرخة ٦ آب. ان هندرسن قال في حفلة خاصة للمدعوين الألمان الحاضرين "ان بريطانيا العظمى لن تفكر في المخاطرة ولو ببحّار واحد أو طيار واحد في سبيل چيكوسلوڤاكيا وان كل حلّ معقول سيكتب له النجاح مادام لايفرض بالقوة" [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ ص٥٣٦].

قادة المعارضين لسياسة تهدئة هتلر في لندن، قابل كلايست بعد ظهر يوم وصوله، كذلك إستقبله في اليوم الثاني "ونستون تشرتشل" الذي كان آنذاك غارقاً في خضم سياسة بريطانيا. وكرر (كلايست) للرجلين الذين إهتمّا إهتماماً شديداً بأقوال زائرهما وأعجبا برزانته وإخلاصه وإبلاغهما كل ما أمر بقوله. وشدّد على أن هتلر حدد موعداً للعدوان على چيكوسلوڤاكيا وان الجنرالات ومعظمهم يعارضونه سيتحركون، إلاّ أن تنازلاً أكثر من بريطانيا لهتلر سيقطع عليهم الطريق ويجردهم من الحجة. ولو أن بريطانيا وفرنسا صرحتا للعالم بأنهما لن تقفا مكتوفتي اليدين بينما يدفع هتلر جيوشه الى چيكوسلوڤاكيا ولو أصدرت شخصية سياسية إنگليزية مسؤولة تحذيراً قوياً لألمانيا بعواقب العدوان النازي، فإن الجنرالات الألمان من جهتهم سيعملون على كبح جماح هتلر(٣٦).

وسلّم (چرچل) (كلايست) خطاباً رائعاً ليأخذه معه الى ألمانيا لتقوية معنويات إخوانه: "اني واثق بأن عبور الجيوش الألمانية حدود چيكوسلوڤاكيا، أو تحليق مجموعات من الطائرات في جوّها، سيؤدي الى حرب عالمية جديدة، إني واثق كما كنت في نهاية ١٩١٤ بأن إنگلترا ستتقدم مع فرنسا... أرجو ألا يداخلكم أي شك في هذه النقطة..."(٣٧) وأخذ (ڤانسيتارت) إنذار (كلايست) مأخذاً جدياً الى الحدّ الذي دفعه لكتابة تقرير فوري الى كل من رئيس الحكومة البريطانية ووزير خارجيتها.

ومع ان چمبرلين كتب للورد هاليفاكس بأنه يميل الى "إسقاط الكثير مما يقوله [كلايست]" فإنه أضاف قائلاً: "لست أشعر يقيناً بأن علينا ألاّ نفعل شيئاً ما"(٣٨).

على أن ما فعله هو قيامه بإستدعاء السفير (هندرسن) الى لندن في آب "لأجل المشاورة" مع بعض الإعلان عن هذا الإستدعاء. واشار على سفيره في برلين بأمرين: تقديم إنذار شديد اللهجة الى هتلر ثم التمهيد سراً "لإتصال شخصي" له مع هتلر. وبحسب رواية (هندرسن) نفسه أقنع رئيس الوزراء بنبذ الأمر الأول(٣٩). أمّا عن الثاني فقد كان جد متحمس ومسرور للقيام بالمسعى(٤٠). كانت هذه أول

٣٦- التقارير عن زيارة كلايست هي في الوثائق الخاصة بسياسة بريطانيا الخارجية [سيرمز اليها من الآن فصاعداً: و.س.ب.خ] السلسلة الثانية: ٢.

٣٧- عاد كلايست الى برلين في ٦ آب وأطلع بيك وهالدر وهامرشتاين وكاناريس وأوشتر على كتاب چرچل. ووقف عليه المؤتمرون الآخرون. يقول هويلر بينيت في كتابه (Nemisis) ص٤١٣ انه إستناداً الى معلومات خاصة إستقاها من (فابيان ڤون شلابرندورف) ان كاناريس عمل نسختين من الرسالة. واحدة له والأخرى لبيك. وأخفى كلايست الأصل في داره الريفية في شمينزين في پوميرانيا (Schmenzin). وإكتشفها الگشتاپو بعد مؤامرة، تموز ١٩٤٤ للقضاء على هتلر وكانت سبباً للحكم على كلايست بالموت من محكمة أمن الشعب وتنفيذه فيه في ١٥ نيسان ١٩٤٥. والواقع ان السلطات الألمانية علمت بمحتويات الخطاب قبل هذا التاريخ بزمن طويل. الأمر الذي ما كان يتصوره المؤتمرون. ولقد وجدتُ صورته بنفسي في وثائق وزارة الخارجية الألمانية مع مذكرة وان كانت غير مؤرخة والمعروف أنها عرضت في ٦ أيلول ١٩٣٨. وقد عنونت: مقتبسات من رسالة لونستن چرچل الى عميل ألماني (أغلب فقرات رسالة چرچل تجدها في [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج٢ ص٧٠٦].

٣٨- [و.س.ب.خ] السلسلة الثالثة: ٢، ص ٦٨٦-٦٨٧.

٣٩- نقيل هندرسن "إخفاق سفارة Failure of a Mission" الص١٤٧و ١٥٠.

٤٠- في ١٨ تموز كتب الى اللورد هاليفاكس من برلين "إني لواثق جداً بان الساعة قد حانت لپراغ لإدارة اللولب دورة حقيقية... إن لم يتمكن بينيش من إرضاء (هنلاين) فهو ليس بقادر على إرضاء أي زعيم سوديتي آخر. يجب =

خطرة نحو "مونيخ" ونحو أعظم نصر لهتلر لم تسفك فيه قطرة دم.

حاول المؤتمرون - وهم جاهلون بإنحراف سبيل چمبرلين ان يقوموا بالمزيد من المجهودات لإنذار الحكومة البريطانية. وفى ٢١ آب أرسل الكولونيل (أويشتر) مبعوثاً لإنذار الملحق العسكري البريطاني في برلين بأن هتلر ينوي القيام بغزو چيكوسلوڤاكيا في نهاية أيلول. وقال للبريطانيين "إن أجبر هتلر بعمل قوي من الخارج - على العدول عن نواياه الحالية، في الساعة الحادية عشرة، فسيعجز عن تحمل الضربة ويسقط من حالق سقطة شعناء. كما أن التدخل البريطاني الفرنسي الفوري في حالة الحرب سيؤدي الى تقويض النظام". وبادر السر (نڤيل هندرسن) إلى إرسال هذا التحذير الى لندن إلا انه وصفه "بوجود تحيز واضح فيه، ودعاية واسعة" كانت رقّات عينيّ السفير البريطاني الكيّس تبدو أسرع وأكبر، وخوفه يتصاعد كلما زادت الأزمة شدة وتعقيداً.

وشعر الجنرال (هالدر) أنهم لم ينجحوا في إبلاغ رسالتهم للبريطانيين بالشكل الفعال المؤثر فأرسل في ١٢ أيلول مبعوثه الخاص الضابط العسكري المتقاعد المقدم هانس بويم-تتلباخ-Hans Boehem Tettelbach الى لندن للإتصال بوزارة الحرب البريطانية والإستخبارات العسكرية. ومع أن مبعوثه كما روى - قابل عدداً من الشخصيات المهمة، فالظاهر أنه لم يخلف فيهم إنطباعاً كبيراً.

أخيراً لجأ المؤتمرون الى إستخدام وزارة الخارجية الألمانية وسفارتها في لندن كآخر محاولة يائسة لإستمالة البريطانيين وحثهم على الثبات. كان مستشار السفارة والقائم بأعمالها (ثيودور كوردت Theodor kordt) وأخوه الأصغر (اريخ) رئيس سكرتيري (ريبنتروب) في وزارة الخارجية وكلا الأخوين منسوبان إلى (البارون ڤون ڤايسيكر) وكيل وزارة الخارجية الألمانية الأول ودماغها المفكر بلا مماراة. وهو الرجل الذي أثار بعد الحرب العالمية الثانية ضجة عظيمة عن عدائه المزعوم للنازية في حين لم يمنعه ذلك من خدمة (هتلر وريبنتروب) خدمة جيدة حتى النهاية تقريباً. والواضح من الوثائق المضبوطة في وزارة الخارجية أنه على كل حال كان يعارض في العدوان على چيكوسلوڤاكيا، مستنداً الى تلك العلل التي إستند اليها القادة بالذات: أي أنه سيؤدي الى الحرب. واتفق بالتواطؤ معه وبعد إستشارة (بيك وهالدر وكويردلر) أن يدق (ثيودور كوردت) جرس الإنذار الأخير في (داوننگ ستريت) ولم تكن زياراته للسلطات البريطانية محل شبهة بحكم منصبه مستشاراً للسفارة.

إن المعلومات التي حملها (كوردت) في مساء ٥ أيلول للسر هوراس ولسن Sir Horace Wilson المستشار الخاص لچمبرلين، بدت بدرجة من الخطورة والأهمية لهذا الموظف بحيث لم يسعه إلاّ أن يأتي به من الباب الخلفي الى داوننگ ستريت ثم الى مكتب وزير الخارجية إستراقاً. وهناك أبلغ اللورد هاليفاكس بصراحة أن هتلر ينوي إصدار أمره بالتعبئة العامة في ١٦ أيلول وأن الهجوم على

= علينا أن نكون مكروهين من الچيك بضغطنا عليهم" (و.س.ب.خ السلسة الثالثة:١) ويبدو أمراً لايصدق أن يجهل حتى هندرسن أن هنلاين كان مجرد آلة بيد هتلر وقد تلقى منه أمراً بأن يستمر في زيادة طلباته الى حد يعجز معه بينيش عن إرضائه (انظر ما سبق) أعلاه.

چيكوسلوڤاكيا قد قُرر له يوم (١) تشرين الأول كأقصى موعد. وأن الجيش الألماني متأهب ليوقع ضربته بهتلر في اللحظة التي يصدر أمره النهائيّ بالهجوم وأن الضربة ستكون ناجحة اذا وقفت فرنسا وبريطانيا وقفة حازمة. وأنذر هاليفاكس أيضاً بأن خطبة هتلر الختامية لمؤتمر الحزب في نورمبرگ ١٢ أيلول ستنفجر كالقنبلة وقد يكون شأنها تصديع المعنويات في چيكوسلوڤاكيا وستحين عندئذ ساعة بريطانيا لتحدي الدكتاتور(٤١).

وكان (كوردت) أيضاً – رغم صلته الشخصية المستمرة بـ(داوننگ ستريت) وصراحته في هذه المناسبة مع وزير الخارجية – انه لايدري شيئاً عما في ريح لندن. لكنه أخذ فكرة حسنةً كما أخذ غيره بعد يومين من المقابلة، عندما ظهرت جريدة التايمس بإفتتاحية مشهورة: قد يكون من الأفضل للحكومة الچيكوسلوڤاكية أن لاترفض جملةً الإقتراح الذي وجد قبولاً في بعض المحافل بجعل چيكوسلوڤاكيا دولة أكثر تجانساً، بالتخلص من هذا السلخ الأجنبي ومن سكانه الذين ينتمون الى وطن تشدهم اليه رابطة القومية الواحدة... إن الفوائد التي تجنيها چيكوسلوڤاكيا من صيرورتها دولة متجانسة القوام لاشك ستزيد كثيراً عن الخسارة الواضحة التي ستصيبها من جراء إقتطاع منطقة السوديت الألمان الواقعة على الحدود".

وليس في المقال أي ذكر للحقيقة الواضحة وهي ان چيكوسلوڤاكيا بسلخ أرض السوديت وضمها ألمانيا ستفقد حصونها الجبلية الطبيعية في بوهيميا، وخط إستحكاماتها "خط ماجينو" هذا فتبقى بدون دفاع وتحت رحمة ألمانيا النازية.

ومع ان وزارة الخارجية البريطانية بادرت الى نفي كون إفتتاحية التايمس تمثل وجهة نظر الحكومة فأن (كوردت) أبرق الى برلين في اليوم التالي عنها مخمناً أنها "مستمدة من إقتراح وصل رآسة تحرير التايمس من الحاشية المحيطة برئيس الوزراء. من المحتمل جداً!"

في هذه السنين المثقلة بالأزمات التي عقبت الحرب العالمية الثانية يصعب على المرء ان لايتذكر ذلك التوتر الصعب الإحتمال الذي ساد العواصم الأوروپية عندما بلغ مؤتمر الحزب النازي المنعقد في نورمبرگ ذروته في ١٢ أيلول بحيث رُسم أن يُلقي هتلر خطاب الختام ويعلن الى العالم قراره النهائي بالسلم أو الحرب مع چيكوسلوڤاكيا.

يومذاك كنت في پراغ بؤرة الأزمة. وقد إستغربت إذ وجدت العاصمة الچيكية (رغم حوادث العنف التي أطلقها الألمان في أرض السوديت والتهديدات المنثالة من برلين وضغط الفرنسيين والبريطانيين عليها لكي تستسلم والخوف من تركهم چيكوسلوڤاكيا الى مصيرها، وجدتها أهدأ من الجميع، على الأقل ظاهرياً؟

أدرك الدكتور بينيش أن قراراً حاسماً لإنقاذ السّلم ضروري وأنه ملزم بإتخاذه. وبادر في ٥ أيلول الى إستدعاء الزعيمين السوديتيين كوندت Kandt وسيبيكوفسكي Sebekovsky الى قصر (هرادشين)

٤١- يورد اريخ كوردت التفاصيل التي ذكرها أخوه عن المقابلة في كتابه Nicht ous den Akten الص ٢٧٩-٢٨١.

وطلب منهما أن يكتبا له كل ما يريدانه وسيحققه لهما بالتمام والكمال!



دالادييه

وهتف زعيم نواب السوديت (كارل هرمان فرانك) عندما أبلغ بذلك في اليوم التالي "رحماك اللهم! لقد أعطونا كل شيء!" إلاّ أن هذا كان آخر ما يريده ساسة السوديت ورؤساهم في برلين. وفي ٧ أيلول قام (هنلاين) بناءً على توجيهات من ألمانيا يقطع المفاوضات بشكل تام مع الحكومة الچيكية متعللاً بحجة واهية تتعلق بإجراءات الشرطة الچيكية القاسية في (موراڤسكا-أوسترافا Moravska-Ostrava. وفي العاشر من أيلول ألقى گورنگ في مؤتمر الحزب بنورمبرگ خطبة إستفزازية فيها كثير من التهجم "فلذة صغيرة في أوروپا تقلق البشرية جمعاء... هذا الشعب البائس القزم [الچيك] يضطهد شعباً متمديناً، وتقف موسكو من ورائه ذلك القناع اليهودي الشيطاني الأبدي". على أنّ (بينيش) لم يتطرق في خطبته الإذاعية في اليوم نفسه الى شيء مماتقيأه (گورنگ) فقد كانت بمثابة مناشدة ودعوة الى الهدوء والتمسك بحس النية والثقة المتعاطفة، تشيع من جوانبها الوقار وتزينها الرزانة.

مع ذلك كان الچيكيون متوتري النفوس. وقد إلتقيت الدكتور (بينيش) في بهو دار الإذاعة الچيكية بعد فراغه من خطابه ولاحظت وجهاً متعباً منهوكاً. كان مدركاً تماماً الوضع الخطير الذي يحمل همّه على عاتقه. وكانت محطة قطار (ويلسن)، والمطار مكتظين باليهود يتدافعون لهفة ورهبة ليجدوا وسائط نقل تقلّهم الى مناطق أكثر أماناً. وفي عطلة ذلك الأسبوع وزعت أقنعة الغاز السام على السكان والكلمة التي وردت من پاريس تفيد أن الحكومة الفرنسية بدأت تفزع من شبح الحرب. وأشارت التقارير من لندن أن چمبرلين يقلّب الرأي في تدابير يائسة لإجابة مطالب هتلر- على حساب الچيك بطبيعة الحال.

وهكذا إنتظرت أوروپا كلها كلمة هتلر في ١٢ أيلول من نورمبرگ. وكانت خطبة وحشية طنانة تقطر سماً زعافاً على الدولة الچيكية ورئيسها بنوع خاص. ألقاها في تلك الكتل النشوانة من النازيين المتعصبين المجتمعين في الملعب الضخم في آخر يوم من أيام المؤتمر العام- ولكنها خلت من إعلان الحرب. لقد إحتفظ بقراره سراً عن الجمهور على الأقل كما علمنا من الوثائق الألمانية المضبوطة. حيث انه عيّن الأول من تشرين الأول موعداً للهجوم وإختراق الحدود الچيكية. ولم ينوّه في

خطابه إلاّ بالطلب من الحكومة الچيكية أن "تنصف" السوديت الألمان. وأن لم تفعل فإن ألمانيا ستضطر الى حملها على ذلك، كان ردّ فعل إنفجار هتلر شديداً. فقد أحدث في أرض السوديت ثورة قمعتها الحكومة الچيكية بعد يومين من القتال المرير بإرسال قطعات من الجيش وإعلان الأحكام العرفية. وتسلل (هنلاين) عبر الحدود الى ألمانيا وأعلن ان الحل الوحيد بات الآن ينحصر في ضم السوديت الى ألمانيا.

ذلك هو الحل الذي أخذ يلقى تحبيذاً في لندن. لكن يجب أن تؤخذ موافقة فرنسا قبل إتخاذه أساساً. عقدت الحكومة الفرنسية إجتماعاً في ١٣ أيلول بعد خطاب هتلر بيوم دام نهاراً كاملاً وظلّت منقسمة على نفسها إنقساماً شديداً بين الإيفاء بتعهداتها للچيك في حالة هجوم ألماني تعتقد أنه واقع لا محالة، وبين عدم الوفاء بالتعهد. في تلك الليلة أخذ السفير البريطاني السر (اريك فيبس Sir Eric Phipps) من دار (الأوپراكوميك) الى مقابلة عاجلة لرئيس الوزراء (دالادييه) وناشد الرئيس الفرنسي، چمبرلين ان يحاول فوراً عقد أفضل صفقة ممكنة مع الدكتاتور الألماني.

ولايصعب على المرء أن يخمّن بأن چمبرلين لم يكن بحاجة الى كثير من الإلحاح. ففي الساعة الحادية عشرة من تلك الأمسية طيّر برقية مستعجلة الى هتلر.

"نظراً إلى الوضع الخطير المتفاقم، أقترح أن أجيء حالاً لمقابلتك في محاولة مني لإيجاد حل سلمي. أقترح أن يكون سفري بالطائرة وأنا مستعد لذلك غداً.

أرجو أن تخطرني بالموعد الذي يتسنى لك مقابلتي بأسرع ما يمكنك وان تقترح محلاً للإجتماع. سأكون ممتناً لجواب عاجل جداً(٤٢)".

قبل ذلك بساعتين أبرق القائم بالأعمال الألماني في لندن (ثيودور كوردت) الى برلين أنّ سكرتير چمبرلين الصحفي أعلمه ان رئيس الوزراء "قد تهيأ لمناقشة مقترحات ألمانية بعيدة الأثر وبضمنها الإستفتاء، وإجراؤه لتحقيق تلك المقترحات، ولتبريرها أمام الرأي العام(٤٣) لها إن الإستسلام الذي كان بلغ ذروته في مونيخ يبدء الآن.

-٥-

چمبرلين في برختسگادن (١٥ أيلول ١٩٣٨)

"يا للسماء!" [Ich bin vom Himmel gefallen!] هتف هتلر بهذه العبارة عندما قرأ برقية چمبرلين(٤٤). لقد صعق، إلا انه كاد يطير فرحاً لأن رجلاً يتحكم في مصائر الإمبراطورية البريطانية

٤٢- وثائق من سياسة ألمانيا الخارجية ٢ ص ٧٥٢.
٤٣- المرجع نفسه ص ٧٥٤.
٤٤- ل. ب. ناميه L. B. Namier تمهيد دبلوماسي ص٣٥.

الجبارة سيأتي راجياً متضرعاً، وأصابه الغرور والتيه لأن رجلاً في التاسعة والستين من العمر لم يركب متن الطائرة من قبل، يضطر الى أن يقوم بسفرة أمدها سبع ساعات الى برختسگادن الواقعة في أقصى طرف من ألمانيا. لم يكن هتلر يجد في نفسه الكياسة ليقترح محل إجتماع في الراين، وفي ذلك إختصار الرحلة الى النصف.

مهما بلغ تحمس الإنگليز[٤٥] الذين إعتقدوا على ما يبدو أن رئيس الوزراء يقوم بهذه الرحلة الطويلة لينجز ماخاب فيه المستر أسكويث Asquith والسر ادورد گري Sir Eduard Grey في ١٩١٤- بإنذار ألمانيا أن كل عدوان على دولة صغيرة سيصطدم لا بفرنسا وحدها وانما بإنگلترا- فان هتلر أدرك كما تكشف عنه أوراق الألمان السرية والأحداث التالية أن خطوة چمبرلين سقطت عليه هبةً من السماء. كان هتلر يشعر بثقة كبيرة بأن زيارة چمبرلين هي تأكيد آخر لما حسبه وأمله من قبل وهو ان بريطانيا وفرنسا لن تتدخلا لنصرة چيكوسلوڤاكيا. كما كان قد نبه من قبل السفارة الألمانية في لندن بأن الزعيم البريطاني على إستعداد لضمان مقترحات ألمانية بعيدة المدى" ولم يقضِ مع رئيس الوزراء أكثر من ساعة واحدة أو نحوها، حتى تبين له أن تقديراته للموقف هي الصائبة فعلاً.

في مبدأ الأمر كان ثم تصادم دبلوماسي وإن كان هتلر كعادته أكثر المتكلمين[٤٦]. هبط چمبرلين في مطار ميونيخ ظهر الخامس عشر من أيلول وركب سيارة مكشوفة الى محطة القطار، ومن هناك ركب قطاراً خاصاً لرحلة الى برختسگادن أمدها ثلاث ساعات ولم تفته ملاحظة القطار بعد القطار من الجنود الألمان والمدفعية وهي تمر على السكة المضادة. ولم يستقبل هتلر قطاره في برختسگادن وانما انتظر زائره الكبير عليه رأس درج برگهوف وبدأ المطر يهطل. وتذكر الدكتور شميدت المترجم أن السماء إكفهرّت وأخفت الغيوم الطخياء الجبال. وبلغت الساعة الرابعة بعد الظهر عندما إنتهت رحلة چمبرلين التي إبتدأت منذ الفجر.

بعد الشاي إرتقى هتلر وچمبرلين الدرج الى مكتب هتلر في الطابق الثاني. تلك هي الغرفة التي تمّت فيها مقابلة هتلر و(شوشنك) قبل سبعة أشهر. وبناءً على إصرار السفير هندرسن لم يحضر ريبنتروب المقابلة وهذا ما أزعج وزير الخارجية المتعجرف وأحنقه حتى انه رفض في اليوم التالي أن يعطي رئيس الوزراء ملاحظات شميدت التي دوّنها عن وقائع الجلسة- وهو عمل غريب لايتفق

٤٥- حتى أشد منتقدي سياسة چمبرلين الخارجية في الصحافة البريطانية والبرلمان فقد رحّبوا بحرارة بذهاب چمبرلين الى برختسگادن. ونظم الشاعر لوريات Laureatt (جون فاسفلد) قصيدة مدح عنوانها (نفيل چمبرلين) نشرت في عدد التايمس المؤرخ ١٦ أيلول.

٤٦- هناك مقدار كبير من المواد حول المؤتمر. ان نص التقرير الرسمي الذي دوّنه پول شميدت المترجم وهو الوحيد الحاضر، مثبت في [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج ٢ الص ٧٨٦-٧٩٨] وأورد في كتابه "ترجمان هتلر الص ٩٠-٩٥" وصف شاهد عيان للإجتماع. إن ملاحظات چمبرلين هي في (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة الص ٣٣٨-٣٤١، رسالته الى شقيقه حول الإجتماع مثبتة في كتاب (كيث فايلينگ Keith Feiling) "حياة نفيل چمبرلين الص ٣٦٦-٣٦٨، أنظر ايضاً نيفل هندرسن (فشل بعثة الص ١٥٢-١٥٤).

والعرف الدبلوماسي مطلقاً. ولهذا كان چمبرلين مضطراً فيما بعد أن يعتمد على ذاكرته بخصوص ما الحديث الذي جرى بينه وبين هتلر.

إفتتح هتلر المناقشة، كالمألوف في خطبه، بمقدمة طويلة حول كل ما قدمه للشعب الألماني وما عمله لأجل السلم. والتقارب الأنگلو-ألماني. والآن هناك مشكلة واحدة ينوي حلها "بشكل ما" إن الملايين الثلاثة من الألمان في چيكوسلوڤاكيا يجب ان "يعودوا الى الرايخ"(٤٧).

"[جاء في نسخة شميدت الرسمية] أنه يريد أن يبدد أي شك في صحة عزمه المطلق بألاّ يسامح بعد الآن بهذه المعاملة التي يلقاها الرايخ الألماني العظيم الذى بلغ عمره ألف سنة على يد بلاد صغيرة ثانوية المركز، وكأنه شيء حقير... انه الآن في التاسعة والأربعين واذا إشتبك الألمان في حرب عالمية بسبب المسألة الچيكية، فهو يرغب أن يقود بلاده في مثار الأزمة وهو في عنفوان الرجولة... بالطبع سيكون آسفاً إن نجمت حرب عالمية عن هذه المشكلة. على ان هذا الخطر لايثنيه عن عزمه... وإنه سيجابه أي حرب في سبيلها. ولتعمل الدنيا ما تشاء. أنه لن يتزحزح قيد شعرة."

لم يستطع چمبرلين أن ينطق بكلمة واحدة. ولم يجد له مجالاً وكان رجلاً واسع الصدر، عظيم الصبر ولكن لكل شيء حداً فعند هذه العبارة قاطعه قائلاً "إن صحّ عزم (الزعيم) على تسوية هذه المشكلة بالقوة دون ان ينتظر حتى مناقشة بيننا، فلماذا وافق على مجيئي؟ لقد ضيعت وقتي".

لم يكن الدكتاتور الألماني معتاداً مثل هذه المقاطعة ولم يجرأ حتى هذا التاريخ أن فعل ذلك ألماني واحد- وبدا ان ردّ چمبرلين أحدث أثره. فهدأت نفس هتلر وقال انه يرى ان في وسعهما الدخول في مداولة "لعلهما يتمكنان من إيجاد تسوية سلمية للمشكلة على كل حال". ثم دفع بإقتراحه:

هل توافق بريطانيا على ضم اقليم السوديت أم لا؟ ضم يستند الى حق تقرير المصير؟

لم يفاجأ چمبرلين بالإقتراح. وفي الواقع راح يعبّر عن إرتياحه لأنهما الآن "وصلا الى لب المسألة". وبحسب رواية چمبرلين نفسه أجاب عن الإقتراح بقوله "أنه لايستطيع الإجابة إلا بعد إستشارة وزارته. والإتصال بالفرنسيين." أما رواية شميدت المنتزعة من ملاحظاته التي كان يدونها بطريقة الإختزال أثناء ما هو يترجم فتؤكد قوله هذا ولكنها تزيد عليه مايأتي: "... بإمكانه أن يصرح شخصياً أنه يقر مبدأ اقتطاع المنطقة السوديتية... وانه يرغب في العودة الى بريطانيا لأبلاغ الحكومة واستحصال موافقتها على موقفه الشخصي".

من هذا الإستسلام في برختسگادن حصل كل ما حصل فيما بعد. واضح انه لم يكن مفاجأة للألمان ففي الدقيقة التي بدأ بها إجتماع برختسگادن كان (هنلاين) يكتب رسالة سرية لهتلر من (إيگر Eger) قبل عبوره الحدود الى ألمانيا مؤرخة في ١٥أيلول:

٤٧- تبين من كلام چمبرلين في إجتماعه بهتلر. ومن حديثه في مجلس العموم أنه قبل تعبير (يعودون) كأمر حقيقي. مما يدل على ان معلوماته بالتاريخ الألماني كانت قليلة. لأن الألمان السوديت كانوا يعودون الى النمسا ولم يرتبطوا قط بألمانيا.

"يازعيمي!

لقد أبلغت الوفد البريطاني [رنسيمان] يوم أمس أن أسس أي مفاوضات مقبلة... لايمكن ان تبنى إلاّ على قاعدة الوحدة مع الرايخ. ومن المحتمل ان چمبرلين سيقترح الوحدة[٤٨].

في اليوم التالي (١٦ أيلول) طيرت وزارة الخارجية الألمانية برقيات سرية الى سفاراتها في واشنطن وغيرها من العواصم.

"أبلغ (الزعيم)(چمبرلين) يوم أمس أنه قرر نهائياً وضع حد بأي شكل كان للحالة التي لاتطاق في أرض السوديت بوقت جد قصير. الحكم الذاتي للسوديت الألماني لم يعد مجال بحث الآن وليس ثم الآن غير ضم الاقليم الى ألمانيا. چمبرلين أعلن موافقته شخصياً وهو الآن يتشاور مع الحكومة البريطانية وعلى إتصال بپاريس. لقد رتّب إجتماع آخر بين الزعيم وچمبرلين في المستقبل القريب جداً[٤٩]."

قبل نهاية الإجتماع انتزع چمبرلين وعداً من هتلر بألاّ يلجأ الى أي عمل عسكري حتى يجتمعا مرة أخرى. كان رئيس الوزراء البريطاني في هذه الفترة من الزمن يثق بكلمة هتلر ثقة كبيرة وقال لخاصته بعد الإجتماع بيوم أو إثنين "بالرغم من خشونة وقسوة صارمة رأيتها في وجهه. فقد وجدت فيه الرجل الذي يمكن الإعتماد عليه اذا ما قطع وعداً[٥٠]."

وفيم كان الزعيم البريطاني يحتضن تلك الأوهام المريحة، كان هتلر يمضي قدماً في إستعداداته العسكرية وخططه السياسية لإجتياح چيكوسلوڤاكيا. وراح الكولونيل(يودل) يعمل مع وزارة الدعاية منتدباً عن(ق.ع.ق.م) فيما وصفه بالإستعداد المشترك لتفنيد إدعاءات خرقنا قواعد القانون الدولي". انها ستكون حرباً محرجةً على الأقل من ناحية الألمان، ومهمة الدكتور گوبلز هي تبرير الإعتداء النازي وقد تم وضع خطة أكاذيبه بتفصيل كبير[٥١].

في ١٧ أيلول عين هتلرُ ضابطَ ركن من (ق.ع.ق.م) مساعداً لـ(هنلاين) الذي بات الآن يعمل من مقر قيادة جديد في قلعة بالقرب من (دوندروف Dondorf) خارج (بايروث) لتنظيم الجيش السوديتي الحر. وقد رسم أن يسلح بالسلاح النمساوي. وكانت الأوامر من هتلر أن يثير "القلاقل والإصطدامات" مع الچيكيين.

كان اليوم الثامن عشر من أيلول يوماً حافلاً لچمبرلين قضاه بإقناع أعضاء وزارته والفرنسيين بسياسة الإستسلام التي تبناها. كذلك كان يوماً حافلاً لهتلر وجنرالاته. اصدر أمراً تعبوياً لخمسة جيوش: الثاني والثامن والعاشر والثاني عشر والرابع عشر وتضم ستاً وثلاثين فرقة بينها ثلاث فرق

٤٨- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ ص٨٠١.
٤٩- المرجع نفسه ص٨١٠.
٥٠- (فايلنك) المرجع السالف ص ٣٦٧.
٥١- وثائق سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ ص٧٩٩ [وثيقة ٢-C].

مصفحة. وصادق هتلر أيضاً على إختيار قادة الجيوش العشرة وترك الجنرال آدام رغم وقفة التحدي التي وقفها - في قيادة الجبهة الغربية العامة. ومن الغرابة بمكان أن إثنين من المؤتمرين دُعيا الى الخدمة من الاستيداع لقيادة جيشين. فسلم الجنرال (بيك) قيادة الجيش الأول وأنيط بالجنرال (ڤون هامرشتاين) قيادة الجيش الرابع.

واستمرت الإستعدادات السياسية للضربة النهائية ضد چيكوسلوڤاكيا أيضاً. وقد حفلت وثائق وزارة الخارجية الألمانية المضبوطة بتقارير عن ضغط ألماني متزايد على هنغاريا وپولندا بدعوتها الى الغنيمة. حتى السلوڤاك فقد طولبو (بتحريك الشورباء) أيضاً. ففي ٢٠ أيلول ألح هنلاين عليهم بأن يقدموا مطالبهم و"يلحوا بشدة" على الحكم الذاتي. وفي اليوم نفسه إستقبل هتلر رئيس الوزراء الهنغاري ايمردي Imredy ووزير خارجيته (كانيا Kanya) وكال لهما ملء صاع من اللوم والتأنيب للتردد الذي تبديه (بوداپست). وتكشف مذكرة خارجية عن وقائع مفصلة لما جرى في هذا الإجتماع:

"في البدء لام (الزعيم) السيدين الهنغاريين (المجريين) على الموقف المتردد الذي تقفه (المجر). إنه [الزعيم] قد عزم على تسوية القضية الچيكية حتى بالمخاطرة بحرب عالمية... وهو [على كل] مقتنع بان بريطانيا وفرنسا لن تتدخلا. وتلك هي آخر فرصة للمجر للمساهمة. فإن لم تنضم فلن يكون قادراً على أن يتكلم بما فيه مصلحة المجر. وفي رأيه أن خير الأمور هو تدمير چيكوسلوڤاكيا... وقدم مطلبين للمجر: (١) أن يتقدم الهنغاريون بطلب إجراء إستفتاء في المناطق التي تدعي حكومتهم بها و(٢) ان لاتضمن أي حدود جديدة مقترحة مع چيكوسلوڤاكيا[٥٢].

وأوضح هتلر للمجريين أنه عازم عزماً أكيداً ألاّ يُبقي فلذة لحم من چيكوسلوڤاكيا سالمة مهما كانت نتائج مداولاته مع چمبرلين. أما عن هذا الأخير:

"فإن هتلر صرح لهما بأنه سيقدم المطالب الألمانية لچمبرلين بصراحة خشنة جداً. وفي رأيه أن عملاً عسكرياً سيؤمّن الحل المرضي الوحيد. على أنه يوجد خطر في قبول الچيك كل المطاليب".

كان خطراً سيطارد خيال الدكتاتور في كل الإجتماعات التالية مع الرئيس البريطاني الواثق السليم النية.

وبتحريض من برلين طلبت الحكومة الپولندية في ٢١ أيلول من الچيك إجراء إستفتاء في اقليم (تيشين) حيث توجد أغلبية من الپولنديين. ثم حركت قطعات عسكرية الى حدود الأقليم. وفي اليوم التالي حذت الحكومة المجرية حذوها. وفي اليوم نفسه (٢٢ أيلول) قام الجيش السوديتي الحر تسانده وحدات من الحرس الأسود بإحتلال بلدتي الحدود الچيكيتين (آش Asch وإيگر) وأدخلتا الى جسم ألمانيا.

في الواقع كان الثاني والعشرون من أيلول يوماً عصيباً على أوروپا كلها. ففي صباحه الباكر انطلق چمبرلين الى ألمانيا ثانية لمقابلة هتلر. ومن الضروري الآن أن نمر مروراً خاطفاً بما كان چمبرلين يعمله في لندن أثناء الفترة الواقعة بين زيارتيه للزعيم الألماني.

٥٢- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ الص ٨٦٣-٨٦٤.

دعا چمبرلين الى إجتماع وزاري بعد عودته الى لندن في مساء ١٦ أيلول لإحاطة وزارته علماً بمطاليب هتلر وأستدعي (اللورد رنسيمان) من پراغ لتقديم توصياته، فأدهشهم أمره! كان في إندفاعه لمصانعة هتلر قد سار مسافةً أكثر من هتلر نفسه! فإرتأى ان تضم مناطق السوديت الى ألمانيا دون الإهتمام بإجراء إستفتاء وأوصى بإلحاح ان يخنق كل أصوات انتقادٍ ضد ألمانيا في چيكوسلوڤاكيا سواء أصدرت من "أشخاص أو احزاب" بالوسائل القانونية. وطلب أن "تعيد چيكوسلوڤاكيا تنظيم علاقاتها الخارجية بحيث تعطي تأكيدات لجيرانها بانها لن تهاجمهم أو تدخل في عمل عدواني ضدهم نابع من تعهد أو إتفاق مع دولة أخرى" - كل هذا بعد تجريدها من موانعها الجبلية واستحكاماتها وتركها عاجزة عادمة الحيلة! شيء عجيب حتى من (رنسيمان) ان يكون شديد القلق في هذه الساعة من خطر عدوان تقوم به چيكوسلوڤاكيا المنهارة على ألمانيا النازية أمر لايصدق! والأغرب منه أن هذه التوصيات العجيبة وقعت موقعاً حسناً على مايبدو- في الوزارة البريطانية ودعمت نية چمبرلين في قبول مطالب هتلر(٥٣).

وصل رئيس الوزارة الفرنسية لندن مع وزير خارجيته (جورج بونيه Georges Bonnet) في ١٨ أيلول للتشاور مع الحكومة البريطانية. ولم يهتم أحد بإشراك الچيك في المشاورات. ولم يضيع البريطانيون والفرنسيون وقتاً وهم في لهفتهم الى إجتناب الحرب بأي ثمن كان، في موافقتهم على مقترحات مشتركة يُلزم الچيكيون بقبولها. كل المناطق التي يسكنها أكثر من ٥٠٪ من السوديت الألمان تضم الى ألمانيا لضمان "بقاء السلم وحماية مصالح چيكوسلوڤاكيا الحيوية". وبمقابل ذلك إتفقت الحكومتان الفرنسية والبريطانية على أن تقوما معاً "بضمانة دولية للحدود الجديدة... ضد أي عدوان لم يسبقه إستفزاز" وستكون هذه الضمانة ملحقاً لمعاهدات التعاون المتبادل التي كانت چيكوسلوڤاكيا قد أبرمتها مع فرنسا والإتحاد السوڤياتي. كان هذا مخرجاً سهلاً لضائقة الفرنسيين استقر الرأي عليه بتحبيذ من(بونيه) الذي كانت الأحداث التالية ستثبت أنه عزم أن يبذّ چمبرلين في مضمار التنازل لهتلر. ثم إليك هذا النفاق والرياء:

"[من مذكرة رسمية قدمتها الحكومتان الى الچيك] إن الحكومتين الفرنسية والإنگليزية تدركان معاً كم هي عظيمة تلك التضحية المتطلبة من الحكومة الچيكوسلوڤاكية في سبيل السلم. ولكن لما كان هذا السبيل مطمحاً لأوروپا عموماً ولچيكوسلوڤاكيا بنوع خاص، فإنهما يشعران بواجبهما في وضع الشروط الضرورية لضمانه".

٥٣- إن النقاط الاساسية لتوصيات (رونسيمان) قدمت للحكومة في مساء ١٦ أيلول. اما التقرير نفسه فقد قدم في ٢١ منه ولم ينشر إلاّ في ٢٨. عندما جعلته الأحداث ذا أهمية تاريخية فحسب. ويشير (هويلر بينيت) ان أجزاءً معينة من التقرير تعطي إنطباعاً بأنها كتبت بُعيد الواحد والعشرين. عندما ترك (رونسيمان) پراغ في صباح يوم (١٦) أيلول لم يكن قد إقترح أحد: لا هتلر ولا قادة السوديت أن تضم أرض السوديت الى ألمانيا دون ما إستفتاء [هويلر بينيت. مونيخ الص ١١١-١١٢. نص تقرير رونسيمان هو في الوثيقة البريطانية البيضاء(٥٨٤٧- cmd رقم١).

وكانتا أيضاً في عجلةٍ من أمرهما. فالدكتاتور النازي لايسعه الإنتظار. تستطرد المذكرة قائلة "من الواجب أن يستأنف رئيس الوزراء إتصالاته بهر هتلر بحيث لايتأخر ذلك عن نهار الأربعاء [٢٢ أيلول] أو قبله إن أمكن. ولذلك نشعر أن الواجب يحتم علينا حثكم على الإجابة بأسرع وقتٍ ممكن"(٥٤).

وهكذا كان. في ظهر اليوم التاسع عشر من أيلول قدّم الوزيران المفوضان الفرنسي والبريطاني معاً المقترحات الأنگلو-فرنسية الى الحكومة الچيكية في (پراغ). لتُفرفض في اليوم التالي بمذكرة بليغة حكيمة أفصحت - حتى لكأنها تنظر في الغيب بأن قبول هذه المقترحات سيضع چيكوسلوڤاكيا "عاجلاً أم آجلاً تحت سلطان ألمانيا التام" وبعد تذكير فرنسا بواجباتها بمقتضى المعاهدة، وبالآثار التي سيخلفها ذلك على مركز فرنسا في أوروپا إن إستسلم الجيكيون، عرضت المذكرة أن تحال كل القضية السوديتية الى التحكيم بموجب شروط المعاهدة الچيكية-الألمانية المؤرخة ١٦ تشرين ١٩٢٥(٥٥).

إلاّ أن البريطانين والفرنسيين لم يكونوا في حالةٍ يدعون أموراً مثل حُرمة المعاهدات، تعرقل الطريق الذى إختطوه. فلم تمر سويعات على وصول مذكرة الرفض هذه الى المبعوثين الدبلوماسيين الإنگليزي والفرنسي (في ٢٠ أيلول الساعة الخامسة بعد الظهر) حتى أنذر السفير البريطاني السر بازل نيوتن Basil Newton (الدكتور كاميل كروفتا Kamil Krofta) وزير خارجية چيكوسلوڤاكيا بأن الحكومة البريطانية سوف لاتعود تهتم بمصلحة بلاده أو بمصيرها إن لم توافق على المقترحات وأعلن مسيو دى لاكروا de Lacroix السفير الفرنسي تضامنه نيابة عن فرنسا.

في الوقت عينه كان وقع المذكرة الچيكية سيئاً في لندن وپاريس ودعا چمبرلين الى إجتماع وزاري لأعضاء الوزارة المهمّين. وفتح خط إتصال تلفوني دائم مع پاريس للتشاور مع (دالادييه) و(بونيه) طوال الليل. وتم الإتفاق أن تقوم الحكومتان بممارسة ضغط آخر على پراغ. يجب أن يبلغ الچيك بأنهم لن يتوقعوا مساعدة ما من بريطانيا أو فرنسا، إن أصروا على موقفهم.

في هذا الوقت أدرك الدكتور بينيش أن أولئك الذين اعتبرهم أصدقاءً قد تركوه وحيداً، وقام بمحاولة أخيرة ليضمن فرنسا الى صفّه على الأقل فأشار على الدكتور (كروفتا) بعد الثامنة مساءً بقليل أن يوجه السؤال المهم التالي الى السفير (لاكروا): هل ستفي فرنسا بعهدها المقطوع لچيكوسلوڤاكيا في حالة وقوع عدوان ألماني عليها. أم أنها ستستنكف؟ وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة عشر من صباح اليوم التالي (٢١ أيلول) أيقظ السفيران نيوتن ولاكروا، الدكتور بينيش من نومه وطلبا منه سحب مذكرة الرفض. وصارحاه إن لم يفعل ذلك ويقبل بالمقترحات الأنگلو-فرنسية فعلى چيكوسلوڤاكيا ان تحارب ألمانيا وحدها. وهنا طلب رئيس الجمهورية من السفير الفرنسي أن يسجل

٥٤- الوثيقة البريطانية البيضاء٥٨٤٧ cmd رقم-١- النص موجود في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ الص ٨٣١- ٨٣٢].

٥٥- من الجدير بالملاحظة هنا أن الحكومتين البريطانية، واختها الفرنسية لم تنشرا نص هذه المذكرة الچيكية عندما نشرتا فيما بعد الوثائق التي أرادتا بها تبرير سياساتهما التي أدَّت الى مونيخ.

ذلك كتابةً. ربما لأن اليأس أدركه فاستسلم، إلا إنه كان ينظر الى التاريخ[٥٦].

ومر اليوم التالي (٢١ أيلول) على بينيش وهو متعب من فرط الإرهاق وقلة النوم والتأمل في أفانين الغدر، والكارثة- وتشاور مع أعضاء حكومته وزعماء حزبه وقيادة الجيش العليا. وقد بدت عليهم جميعاً علائم الإنهيار بسبب خذلان أصدقائهم وحلفائهم لهم في حين أظهروا تحدياً وبسالة في وجه تهديدات العدو. ماذا عن الإتحاد السوڤياتي ؟ اتفق أن مفوض الشعب للخارجية (ليتڤينوف Lit-vinov) كان يلقي خطاباً في اليوم نفسه في جنيف مؤكداً أن الإتحاد السوڤياتي سيفي بتعهداته المتضمنة ومعاهدته مع چيكوسلوڤاكيا، فاتصل بينيش بالوزير الروسي في پراغ فأكد له هذا ما قاله وزير خارجيته. أسفاً على الچيك لقد أدركوا ان المعاهدة مع روسيا تلزمهم بمعونتهم شريطة أن تفعل فرنسا المثل وهذه فرنسا تنكص على أعقابها.

في ساعات عصر يوم ٢١ أيلول الأخيرة، إستسلمت الحكومة الچيكية وقبلت بالإقتراح الأنگلو- فرنسي. وكانت اللهجة المريرة تقطر من بيان الحكومة "لم يكن عندنا بديل. فقد تُركنا وحيدين". أما بينيش فقد صاغ القضية بأوجز عبارة وأبلغها "كنا ضحية غدرٍ سافل". وفي اليوم التالي إستقالت الوزارة وتولى الجنرال (يان سيروڤي Jan Sirovy) مفتش الجيش العام رآسة حكومة "التجمّع الوطني» الجديدة.

-٦-

چمبرلين في گودسبرگ
أيلول: ٢٢-٢٣

مع أن چمبرلين جاء الى إجتماع برختسگادن يحمل لهتلر كلّ ما طلبه فكلاهما كان متضايقاً قلقاً عند إجتماعهما في بلدة الراين الصغيرة گودسبرگ Godsberg في عصر ٢٢ أيلول. بعد أن قام القائم بالأعمال الألماني بواجب وداع الرئيس البريطاني في مطار لندن أسرع بالإبراق الى برلين: "سافر چمبرلين ورهطه وهم مثقلون بعبء من القلق... لاشك إن المعارضة لسياسة چمبرلين تتعاظم".

وكان هتلر في قمة هياجه العصبي. كنتُ في صباح الثاني والعشرين أتناول فطوري في شرفة فندق دريسن Dreesen وهو المحل الذي اتخذ للإجتماع عندما مرّ بي هتلر الى الخارج متوجهاً نحو ضفة النهر لتفتيش يخته. وبدا وكأنه يشكو إرهاصاً عصبياً غريباً. فكانت ساقه اليسرى ترتفع الى أعلى

٥٦- إن غدر (بونيه) في هذه المرحلة هو أكثر تعقيداً وإتساعاً مما يمكن إثباته في كتاب مقصور على تاريخ ألمانيا. فمن مواقف غدره أنه، دبر أن يقنع الوزراء الفرنسيين والبريطانيين بكذبةٍ وهي أن الحكومة الچيكية ارادت من الفرنسيين أن يصرحوا بأنهم لن يقاتلوا في سبيل چيكوسلوڤاكيا لتتخذ من ذلك حجة قوية للإستسلام. لهذه القصة انظر (هويلر بينيت) (مونيخ) وهربرت ريبكه: "مونيخ من قبلُ ومن بعدُ) وبرتيناكس"حفارو قبور فرنسا".


السرّ نفيل چمبرلين

كلما خطا بضع خطوات مع إنفراج ذراعه الأيمن بتشنجات لاإرادية. ورأيت تحت عينيه بقعتين سوداوين قاتمتين بشعتين. لقد بدا لي كما دوّنت في يومياتي ذلك المساء -في ذروة الإنهيار العصبي. وهمس زميلي الألماني وهو رئيس تحرير جريدة ويحتقر النازيين سراً:

"آكل الحصير! Teppichfresser" واوضح لي أن هتلر كان فريسة لنوبة جنون شديدة بسبب الچيك في الأيام القلائل الماضية وفي أكثر من مناسبة فقد السيطرة على نفسه تماماً، ومرة قذف بنفسه الى الأرض وأطبق باسنانه على حافة البساط وراح يلوكه. ومن هنا جاء إصطلاح "آكل الحصير". وقبلها بيومٍ كنت اتحدث مع بعض أقطاب الحزب في فندق (دريسن) مساءً حين سمعت هذا الإصطلاح يتردد همساً منسوباً الى الفوهر(٥٧).

ومع هواجس چمبرلين بسبب المعارضة المتزايدة التي تلقاها سياسته في بلاده فقد ظهر في أطيب مزاج عندما وصل (گودسبرگ) وسارت به سيارته في شوارع مزدانة بالصليب المعقوف والعلم البريطاني حتى بلغت به مقره في بيترزهوف Petershof وهو فندق أشبه بالحصن يقع على قمة (بيترزبيرغ) المشمخرة في الضفة المقابلة لنهر الراين. أقبل لإنجاز كل ما اراده منه هتلر في برختسگادن بل وأكثر. ولم يبق غير التفاصيل ولهذا الغرض صحب معه- فضلاً عن السر هوراس ولسن ووليم سترانغ William Strang (الخبير في شؤون شرقي أوروپا- من وزارة الخارجية) ورئيس اعداد الوثائق والمدير القانوني لوزارة الخارجية السر وليم مالكن Sir William Malkin.

في ساعة متأخرة من بعد الظهر عبر رئيس الوزراء نهر الراين بقارب الى فندق دريسن(٥٨) حيث كان هتلر في إنتظاره وفي هذه المرة كان چمبرلين مستأثراً بمعظم الحديث -في المبدأ على الأقل- واذا حكمنا بالملاحظات التي دوّنها الدكتور شميدت عن الإجتماع(٥٩).

٥٧- انظر "يوميات برلين" ص ١٣٧.

٥٨- من هذا الفندق الذي يديره (هر دريسن) احد رفاق هتلر النازين القدماء إنطلق الزعيم في ليلة ٢٩/ ٣٠ حزيران ١٩٣٤ لقتل روهم وإجراء التطهير الدموي. كثيراً ما إرتاد هتلر هذا الفندق للراحة والإستجمام واستجماع الأفكار والتغلب على تردده.

٥٩- المصادر الرئيسة لمؤتمر گودسبرگ هي الآتية: ملحوظات شميدت في إجتماعي گودسبرگ [وثائق عن سياسة... ج٢ الص ٨٧٠-٨٧٩ والص ٨٩٨- ٩٠٨]. وصف شميدت للأحاديث "ترجمان هتلر الص ٩٥-١٠٢"، نصوص =

وقد تكلم أكثر من ساعةٍ. بعد أن شرح كيفية تغلبه على كل معارضة في الوزارتين البريطانية والفرنسية فضلاً عن كسبه ثقة الحكومة الچيكية بعد "مفاوضات شاقة". وتم قبول مطالب هتلر، بدأ يعرض بكل تفصيلٍ الوسائلَ التي سيتوسّل بها الى تطبيقها. وهو الآن يوافق بناءً على نصيحة (رُنسيمان) على ضم أرض السوديت الى ألمانيا دون إجراء إستفتاء. أما عن المناطق المختلطة فيمكن تقرير مصيرها بلجنة مؤلفة من ثلاثة أعضاء: ألماني وچيكي وعضو محايد. وأكثر من هذا، أن يستعاض عن معاهدات التعاون المتبادل بين چيكوسلوڤاكيا من جهة وفرنسا وروسيا من الجهة الأخرى، وهي المعاهدات التي يكرهها الزعيم، بضمانة دولية لچيكوسلوڤاكيا "التى ستكون دولة محايدةً تماماً" ضد أي هجوم عدوانيّ عليها.

بدا هذا كلّه بسيطاً معقولاً منطقياً، لرجل الأعمال المسالم البريطاني الذى أصبح رئيساً للوزراء. وصمت صمت الراضي عن نفسه ليرى وقع كلامه في هتلر – كما ذكر شاهد عيان.

سأل هتلر[٦٠]:

"هل أفهم من هذا أن الحكومات البريطانية والفرنسية والچيكية قد اتفقت على تحويل اقليم السوديت من چيكوسلوڤاكيا الى ألمانيا؟"

كان مذهولاً –كما صارح چمبرلين فيما بعد– بأن التنازل له قد وصل الى هذا الحد وتم بمثل هذه السرعة.

فأجاب چمبرلين باسماً: "نعم!"

فقال هتلر: "إنني آسف جداً، فبعد الحوادث التي جرت خلال الأيام القلائل الماضية، لم يعد لهذا التدبير أيّ فائدة."

وذكر الدكتور شميدت فيما بعد أن چمبرلين أجفل وهو في معقده وتوتر جسمه وشاعت الدهشة والغضب في وجهه الشبيه بوجه البوم. لكن لم يشعر –على ما بدا– بغضب لأن هتلر خدعه. لأن هتلر كأي نصاب مبتز عادي رفع في مقدار ماطلبه في اللحظة التي تم قبول عرضه. ووصف الرئيس البريطاني ما أحسّ به تلك اللحظة في كلمة له بمجلس العموم بعد أيام قليلة:

"لاأريد من المجلس أن يظن أن هتلر كان يخدعني عامداً، لم افكر بذلك لحظة واحدة– لكنّي كنت

= المراسلات بين هتلر وچمبرلين في ٢٣ أيلول [وثائق عن سياسة...ج٢ الص ٨٨٧-٨٩٢] ملاحظات (كيركپاتريك) حول الإجتماع (و.س.ب.خ) السلسة الثالثة ج٢ الص ٤٦٣-٤٧٣ والص ٤٩٩-٥٠٨ ووصف هندرسن في "إخفاق بعثة الص ١٥٦-١٦٢".

٦٠- كان هتلر عالماً بأن الچيك قبلوا المقترحات الأنگلو-فرنسية. ودوّن (يودل) في يومياته انه في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثلاثين من صباح اليوم السابق لوصول چمبرلين الى گودسبرگ. اتصل به مرافق الزعيم تلفونياً وقال له: "ان أنباءً وصلت الزعيم قبل خمس دقائق تشير إلى أن پراغ قد إستسلمت بدون قيد أو شرط." ودوّن يودل في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين مايلي "أبلغ رؤساء الأقسام بالإستمرار في الإستعداد (للخضراء) وعلى كل حال ان يكونوا مستعدين لكل ما هو ضروري للزحف بصورة سلمية." (مؤامرة النازيين-ج٤ ص ٣٧٨ الوثيقة – ١٧٨٠ PS) ومن المحتمل ان هتلر لم يكن يدري بالشروط الأنگلو-فرنسية حتى شرحها له رئيس الوزراء البريطاني.

اتوقع شخصياً بأن مايترتب عليَّ عند وصولي گودسبرگ لن يزيد عن التباحث معه بهدوء حول المقترحات التي جئت بها، فكانت صدمة عميقة لي عندما أبلغت أن هذه المقترحات غير مقبولة".

رأى چمبرلين بيت السلام الذي بناه بهذا القدر من "المشقة" على حساب الچيكيين ينقض ويتهافت مثل بيت مبني من كاغد اللعب. وقال لهتلر : إنه يشعر بالخيبة والحيرة معاً وان له الحق في ان يقول أنّ هتلر حصل منه على كل ما طلبه".

"ولبلوغ هذه الغاية، قامر [اي چمبرلين] بكل مستقبله السياسي... انه الآن يتّهم من قبل أوساط معينة في بريطانيا العظمى ببيع چيكوسلوڤاكيا، وبالغدر بها والإستسلام الى الدكتاتورين. وفي أثناء تركه إنگلترا ذلك الصباح قوبل من الناس بصرخات الإستهجان: بو... بوو..."

إلا أن (الزعيم) لم يتزحزح ولم تؤثر فيه الورطة الخاصة التي وقع فيها رئيس الوزراء البريطاني. وقال أن أراضي السوديت يجب ان تحتل عسكرياً حالاً. وان المسألة "يجب أن تحل حلاً تاماً نهائياً في الأول من تشرين الأول كأقصى موعد" وكان بمتناول يده خريطة أشر عليها الأراضي التي يجب إقتطاعها حالاً.

وهكذا إنسحب چمبرلين الى الضفة الأخرى من الراين "وذهني منشغل بما أكره، لأفكر فيما ينبغي لي عمله" كما تحدث الى مجلس العموم بعدئذ. لم يكن يبدو بارقة أمل في تلك الأمسية. فبعد أن تشاور تلفونياً مع زملائه في الوزارة ومع أعضاء الحكومة الفرنسية اتفق أن تقوم لندن وپاريس بإبلاغ الحكومة الچيكية في اليوم التالي انهما لايستطيعان "أن يتحملا بعد الآن مسؤولية الطلب منها بالتوقف عن إعلان التعبئة العامة[٦١].

في الساعة السابعة والدقيقة العشرين من ذلك المساء اتصل الجنرال كايتل تلفونياً من (گودسبرگ) بمقر القيادة العامة. وأبلغ: "تاريخ يوم (س) لم يتعين بعد. أكملوا الإستعداد وفق الخطة. إن ظهرت (القضية الخضراء) فلن يكون ذلك قبل الثلاثين من أيلول. وإن ظهرت قبل ذلك فمن المحتمل أن يرتجل الموعد[٦٢] ارتجالاً".

ذلك لأن هتلر نفسه كان واقعاً في مأزق، وإن كان چمبرلين يجهل الأمر، إن هدف (الزعيم) الحقيقي كما أثبته في أمر (ق. ع.ق.م) التوجيهي بعد أزمة أيار، هو "سحق چيكوسلوڤاكيا بعمل عسكري"، وقبوله الإقتراح الأنگلو-فرنسي الذي وافق عليه الچيك بعد تردد، لن يقصر أثره مع فوز هتلر بألمانه السوديت بل سيؤدي حتماً الى تدمير الدولة الچيكية لأنها ستبقى مجردة من وسائل دفاعها، لكن ذلك لايتم بعمل عسكري في حين صحّ عزمه على إذلال الرئيس بينيش والحكومة الچيكية التي أهانته اهانة بالغة في أيار، فضلاً عن تعرية جبن الدول الغربية وفضحها، ولهذا يقتضي على الأقل (إحتلال عسكري) عساه يكون هادئاً خالياً من سفك الدم كما حدث في النمسا،

٦١- بدأ الچيكيون بالنفير العام في الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين مساء يوم ٢٨ أيلول.
٦٢- يوميات (يودل) المؤرخة ٢٦ أيلول ١٩٣٨. المرجع السالف.

ولكن من الضروري أن يتمّ كما رسم له. من الضروري أن يصيب هذا القدر من الانتقام على الأقل من الچيكيين المغرورين.

لم يجتمع الرجلان مرة أخرى في مساء ٢٢ أيلول. الا ان چمبرلين بعد ان قضى ليلته يقلب وجوه الرأي في المشكلة وصرف ساعات من الصباح الباكر بالمشي في شرفة غرفته المطلة على الراين، جلس الى مكتبه بعد الفطور وخط رسالة الى هتلر قال فيها انه سيعرض المطالب الألمانية الجديدة على الچيك إلا أنه لايرجّح قبولهم بها. في الواقع إنه لايشك في اقدام الچيكيين على مقاومة إحتلال عسكري ألماني فوري بقوة السلاح. إلا انه يرغب في أن يقترح على پراغ ان يقوم الألمان السوديت بالإشراف على حفظ الأمن والنظام في منطقتهم حتى يتم نقلها الى الرايخ مادام كل الفرقاء المعنيين قد اتفقوا على فصلها وضمّها الى ألمانيا.

ولم يُعر هتلر أذناً صاغية الى هذه التسوية. وبعد أن ترك رئيس الوزراء ينتظر معظم النهار أجاب رسالته أخيراً بسيل دافق مردداً كل الشرور التي إقترفها الچيك بحق الألمان ورفض تعديل موقفه وختم جوابه بقوله أنّ الحرب تبدو الآن الحل الوحيد. فكان رد چمبرلين مختصراً. طلب من هتلر أن يدوّن مطالبه على الورق "ويربط بها الخريطة" وتعهّد "كوسيط" بإرسالها الى پراغ: "فأنا لاأجد نفسي قادراً على تأدية أية خدمة أخرى هنا واقترح أن أعود الى إنكلترا".

وقبل أن يعود، ذهب الى (دريسّن) ليجتمع بهتلر آخر مرة وبدأ إجتماعهما في العاشرة والدقيقة الثلاثين من مساء ٢٣ أيلول وقدم هتلر مطالبه بشكل مذكرة مع الخريطة ووجد چمبرلين نفسه أمام فترة محددة جديدة: أن يبدأوا بإخلاء الأراضي المقتطعة في الساعة الثامنة من صباح يوم ٢٦ أيلول - أي بعد يومين من تاريخ المذكرة- وأن يكملوا إنسحابهم في ٢٨ أيلول.

فهتف چمبرلين مشدوهاً "لكن هذا إنذار ليس إلاّ!" فرد عليه هتلر "كلاّ انه ليس كذلك" وعندما احتج چمبرلين بأن كلمة "Dictat" الألمانية تنطبق عليه، اجابه هتلر: "كلا انه ليس (دكتاتاً) أبداً. أنظر إن كلمة (مذكرة) تحلّي صدر الوثيقة.

في تلك اللحظة دخل المرافق برسالة مستعجلة (للزعيم). فألقى نظرة عليها ثم سلمها الى شميدت الذي كان يترجم، وقال له: إقرأ هذه للمستر چمبرلين".

ففعل شميدت ما أُمر: "لقد أعلن بينيش الآن التعبئة العامة من الإذاعة الچيكوسلوڤاكية".

وروى شميدت أن سكوناً خيّم على الغرفة أشبه بسكون الموت ثم تكلم هتلر: "لقد تقرر الأمر الآن بطبيعة الحال. ان الچيكيين لن يفكروا بالتنازل عن شبر واحدٍ من الأرض لألمانيا". فلم يوافقه چمبرلين- حسب ما دوّن شميدت- وتبع ذلك مناقشة عنيفة.

"[قال هتلر] كان الچيك أول من بادر الى التعبية. فعارضه چمبرلين بقوله ان ألمانيا هي التي بادأتها... انكر الزعيم أن ألمانيا قد عبأت..."

وهكذا إستمر الكلام الى ساعات الفجر الأولى. وأخيراً بعد أن تساءل چمبرلين هل أن المذكرة

الألمانية "هي كلمته الأخيرة" واجاب هتلر أنها لكذلك، قال چمبرلين إذن لم يعد ثم ما يستوجب مواصلة الحديث، وأنه عمل كل ما بوسعه وقد أخفقت مساعيه وسيعود حزين القلب لأن الآمال التي حفت بقدومه إلى ألمانيا قضي عليها.

لم يشأ الدكتاتور الألماني أن يخرج من المصيدة سالماً. فبذل له "تنازلاً" واحداً قال برقة "إنك من الأفراد القلائل الذين قمت لهم بعمل كهذا. إني مستعد لتعيين تاريخ واحد لإنسحاب الچيك، هو الأول من تشرين الأول إن كان ذلك يسهل عليك مهمتك" قال هذا وامسك بقلم وغيّر التواريخ في المذكرة بيده. ولم يكن ذلك تنازلاً منه بطبيعة الحال ابداً. فالاول من تشرين الأول ذلك هو اليوم (س) الذى ظل ثابتاً من الأول.

لكن يظهر أن ذلك احدث تاثيراً في رئيس الوزراء وروى شميدت انه قال:" أنا أقدِّر حق تقدير تفهم الفوهرر للمسألة". وعلى كل فهو ليس في حال يستطيع معها أن يقبل أو يرفض المقترحات: وكل ما يستطيعه هو نقلها(٦٣).

وهكذا زال الجفاء وعندما انفض الإجتماع في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين صباحاً بدا الرجلان رغم كل ما حدث أقرب شخصياً مما كانا في أي وقت مضى منذ مقابلتهما الأولى وقد راقبتهما أنا نفسي من كوةٍ vantage تبعد عنهما خمسة وعشرين قدماً. في غرفة البواب حيث اقمتُ مركز إذاعة لاسلكية مؤقت راقبتُهُما وهما يتبادلان تحايا الوداع قرب باب الفندق فراعني الاحترام والاكبار المتبادل ودوّن شميدت الكلمات التي لم استطع سماعها:

"ودع چمبرلين الزعيم وداعاً حاراً وقال ان إحساساً يتملكه بأن علاقة من الثقة قد نشأت بينه وبين الزعيم نتيجة لأحاديثهما التي تبادلها في الأيام القلائل الماضية... إنه لن ينفك يأمل في التغلب على الأزمة العصيبة الحالية، وعندها سيكون مسروراً لبحث مشاكل أخرى، مازالت قائمة - بالروح نفسها مع الزعيم.

شكر (الزعيم) چمبرلين على كلماته الطيبة وابلغه بأنه يأمل كذلك. وكما صرح مراراً من قبل أن المسألة الچيكية هي آخر المطالب الاقليمية له في أوروبا.

ويبدو أن نكران طموحه إلى الإستيلاء على أراضٍ أخرى قد أحدث أثره في الرئيس الراحل ايضاً لأنه شدّ القول في تصريحه التالي لمجلس العموم بأن هتلر نطق به "بكل اخلاصٍ".

عندما وصل چمبرلين الى فندقه في حوالى الساعة الثانية صباحاً سأله صحفي: "هل الموقف

٦٣- طلبت المذكرة سحب جميع القوات المسلحة الچيكية وبضمنها الشرطة الخ... في مدة اقصاها (١) تشرين الأول من جميع المناطق الواسعة التي أشّر عليها في خارطة، بظل أحمر، وان يقرر إستفتاء تالٍ مصير مناطق أخرى اشير اليها بظل أخضر وان تترك جميع المنشآت العسكرية في المناطق المجلو عنها سالمةً. وان تسلم بحالة سالمة للألمان كل المواد التجارية ومنشآت النقل وخاصةً "ما يسير على عجلات في نظام السكك الحديد" وأخيراً يحظر رفع أو نقل الازراق والاطعمة والبضائع والماشية المواد الاولية الخ... نص المذكرة في [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج٢ الص ٩٠٨-٩١٠) ويمنع مئات الألوف من الچيك الساكنين في مناطق السوديت ان يصحبوا معهم اثاث بيوتهم أو بقرة الأسرة.

ميؤوس منه ياسيدي؟" فأجابه رئيس الوزراء "لاأرغب في ان أقول ذلك، الموضوع الآن رهن بمشيئة چيكوسلوڤاكيا"(٦٤).

من الجلي لم يخطر بباله ان الموضوع رهن أيضاً بمشيئة الألمان وبمطاليبهم الظالمة. في الواقع ما أن عاد رئيس الوزراء إلى لندن في ٢٤ أيلول حتى حاول أن يفعل الشيء الذي أعلم هتلر بأنه لن يفعله: وهو إقناع الحكومة البريطانية بقبول المطالب النازية الجديدة. على انه الآن اصطدم بمعارضة غير منتظرة فقد وقف ضده وزير البحرية (دف كوپر Duff Cooper) وقفة صارمة كذلك فعل اللورد هاليفاكس –وهنا موطن العجب– بكثير من التردد. لم يفلح چمبرلين مع حكومته ولم يستطع إقناع الحكومة الفرنسية التي رفضت مذكرة (گودسبرگ) في ٢٤ أيلول وأعلنت التعبئة الجزئية في اليوم نفسه.

وعندما وصل أعضاء الحكومة الفرنسية الى لندن وعلى رأسهم (دالادييه) في ٢٥أيلول، بُلِّغت الحكومتان هناك، برفض الحكومة الچيكوسلوڤاكية الرسمي لمقترحات گودسبرگ(٦٥).

فلم يعد للحكومة الفرنسية من سبيل الا التأكيد بأن فرنسا ستفي بتعهداتها وستخف الى معونة چيكوسلوڤاكيا اذا هوجمت. الاّ انهم ارادوا ان يعرفوا موقف بريطانيا في هذه الحالة. أخيراً، ولما أحرج چمبرلين –أو هذا ما بدا– وافق على إبلاغ هتلر أن بريطانيا ستكون مضطرة الى مساندة فرنسا ان إشتبكت في حرب مع ألمانيا تنفيذاً لإلتزاماتها ازاء چيكوسلوڤاكيا. على انه إرتأى القيام بآخر مسعى لدى الدكتاتور الألماني، وكان مقرراً أن يلقي خطبة في (سبورت بالاست) في ٢٦ أيلول، فلأجل ان يقنعه چمبرلين بألاّ "يحرق جسوره" ويقطع الأسباب بينهما أرسل اليه رسالة شخصية في ٢٦ أيلول مع مبعوثه الأمين (سر هوراس ويلسن) فطار بها بعد ظهر اليوم نفسه الى برلين بطائرة خاصة.

عندما غادر چمبرلين (دريسن) في ساعة مبكرة في يوم ٢٤ أيلول خيّمت الكآبة على الألمان. انهم الآن يواجهون حرباً لاتُعجب فريقاً منهم على الأقل. بقيتُ في بهو الفندق برهة من الزمن أتناول عشائي متباطئاً، وكان گورنگ وريبنتروب والجنرال كايتل ورجال أقل منهم شأناً مجتمعين يتحادثون بكل إهتمام وجدّ. الظاهر أن إحتمال نشوب الحرب أورثهم صدمة.

أما في برلين فقد وجدت الآمال منتعشة في ذلك اليوم وكان الشعور السائد في ڤلهلمشتراسه انه مادام چمبرلين ذو السلطان الكبير قد وافق على تقديم مطاليب هتلر الى پراغ، فمعناه أنه يساند المقترحات. ولقد تبين لنا كم كان هذا الإستنتاج صحيحاً قدر ما اثبتت لنا المظاهر والاستقراءات.

كان يوم ٢٥ أيلول يوماً جميلاً من أيام الصيف المنعشة في برلين يوم مشمس دافيء وهو بلا ريب

٦٤– (التايمس)– لندن ٢٤ أيلول ١٩٣٨.

٦٥– كان جواب الچيك مؤثراً. بل وثيقة حافلة بالنبوءات وجاء فيها ان مقترحات (گودسبرگ) "تجردنا من كل حماية لكياننا الطبيعي" نص الجواب الچيكي في الكتاب البريطاني الأبيض: ٥٨٤٧ رقم٧.

آخر عطلة يوم أحد من هذا النمط في ذلك الخريف، وانتهز سكان برلين الفرصة فخرج نصفهم وإلتأموا عقوداً وجماعات على سواحل البحيرات وفي الغابات المحيطة ببرلين ومع سماعهم بالأنباء التي تحدثت عن سخط هتلر لسماعه برفض إنذار گودسبرگ في پاريس ولندن وپراغ، لم يسد شعور ما بوجود أزمةٍ كبيرة، وليس ثم حمّى تشيعها إحتمالات حرب على وجه التأكيد. وقد دوّنت في مفكرتي "يصعب الإعتقاد بوقوع حربٍ"(٦٦).

في الإثنين التالي طرأ تدهور مفاجيء على الوضع. فقد ذهب السر هوراس ويلسن، مصحوباً بالسفير هندرسن وايفون كيركپاترك Ivone Kirkpatricrk السكرتير الأول للسفارة البريطانية الى دار المستشارية في الساعة الخامسة بعد الظهر، يحملون رسالة چمبرلين(٦٧).

فوجدوا هتلر في حالة نفسية سيئة جداً- ربما لأنه كان يريد أن يهيّء نفسه ليبلغ بها المستوى المناسب لخطبة (سبورت بالاست) بعيد ثلاث ساعات.

وفيم كان الدكتور شميدت يبدأ في ترجمة الرسالة التي ذكر فيها أن الحكومة الچيكية أبلغت رئيس الوزراء أن إنذار گودسبرگ "غير مقبول جملة وتفصيلاً" قفز هتلر فجأة (كما روى شميدت) وصرخ ليس هناك فائدة ما في مزيد من المفاوضات! وسار يقصد باب الغرفة(٦٨).

كان مشهداً مؤلماً (حسبما وصفه الترجمان الألماني) "للمرة الأولى والوحيدة أرى هتلر بمحضرٍ مني يفقد السيطرة على نفسه" واما بحسب راوية البريطانيين الحاضرين، فإن هتلر رجع حالاً وتهافت على كرسيّه وظل يقاطع القراءة بصراخه "إن ألمانيا تعامل معاملة الزنوج... في الأول من تشرين الأول سأضع چيكوسلوڤاكيا في المحل الذى اريده لها وان قررت بريطانيا وفرنسا أن تضربا فمرحباً إني لااهتم قلامة ظفر".

اقترح چمبرلين- التقاء بين ممثلين چيكيين وألمان- مادام الچيك موافقين على إعطاء هتلر ما يريد في أرض السوديت. والطلب منهم إيجاد تسوية فورية "بالإتفاق على الوسيلة التي يتم بها تسليم المنطقة" واضاف أنه يرغب في أن يجلس ممثلون بريطانيون معهم في الإجتماع. فأجاب هتلر أنه سيناقش التفاصيل مع الچيك إن قبلوا مسبقاً إنذار گودسبرگ (الذي رفضوه كما مر) ووافق على الإحتلال الألماني لأرض السوديت في (١) تشرين الأول. ويجب أن يتسلم جواباً بالموافقة على ذلك خلال ثماني وأربعين ساعة- في الساعة الثانية بعد الظهر من ٢٨ أيلول كآخر موعد.

في مساء ذلك اليوم احرق هتلر جسوره، او هذا ما بدا لنا نحن الذين أصغينا إلى إنفجاراته

٦٦- في ختام مباحثات (گودسبرگ) هرع مراسلو الصحف البريطانيون والفرنسيون، ورئيس مراسلي صحيفة نيويورك تايمس (وكان مواطناً بريطانياً) الى الحدود الفرنسية والبلجيكية والهولندية، خشية إعتقالهم في حالة نشوب الحرب.

٦٧- نص رسالة چمبرلين لهتلر بتاريخ ٢٦ أيلول في [وثائق عن سياسة... ج٢ الص ٩٩٤-٩٩٥].

٦٨- مع ضياع ملاحظات شميدت حول هذه المقابلة من وزارة الخارجية الألمانية فوصفه لها موجود في كتابه السالف: ص ٣٠٢-١٠٣. اما ملاحظات كيركپاتريك فهي في (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة رقم ٠١ ص ١١٨ وراوية هندرسن في كتابه السالف ذكره ص ١٦٣.

الجنونية ذاهلين في (سبورت بالاست) المكتظة، كان يزعق ويصرخ بنوبات هستيرية مريضة لم ألحظها فيه من قبل. وراح يصب الشتائم البذيئة الشخصية على (هر بينيش) وأعلن ان تبعة الحرب أو السلم تقع الآن على عاتق الرئيس الچيكي. وأنه سيستولي على أرض السوديت مهما كانت الظروف في (١) تشرين الأول. وواصل بحماسة كلماته الدفاقة الغاضبة وهتافات الجماهير الصاخبة، دون أن ينسى إلقاء طعم للرئيس البريطاني بأسلوبه الماكر المأثور بشكره لجهوداته التي بذلها في سبيل السلم وكرّر أن السوديت هي آخر مطلب أقليمي له في أوروپا: وهمس ساخراً "نحن لانريد چيكيين".

كنت جالساً في الشرفة فوق هتلر تماماً طوال الوقت، محاولاً إذاعة ترجمة سريعة مرتجلة لكلماته دون نجاح يذكر. وفي تلك الليلة دوّنت في مفكرتي مايلي:

"... للمرة الأولى في كل السنين التي راقبته، بدا في هذه الليلة وقد فقد سلطانه على نفسه. وعندما عاد الى مجلسه، نهض گوبلز وصرخ في الميكرفون: "شيء واحد أكيد: عام ١٩١٨ لن يتكرر ثانية! ونظر اليه هتلر نظرة زائغة متلهفة، كأنما هي الكلمات التي كان يبحث عنها طوال تلك الأمسية، ولم يعثر عليها. فهبَّ قائماً، وعيناه تلتظيان بشواظٍ من نار التعصب لن أنساها وأهوى بقبضته اليمنى على المائدة أمامه بعد تلويحة كبيرة بذراعه- وصرخ بملء رئتيه الواسعتين "Ja أجل!" ثم إرتمى على معقده متعباً مكدوداً.

كان قد عاد إلى هدوئه تماماً عندما استقبل السر هوراس ولسن مرة ثانية ظهر اليوم التالي (٢٧ أيلول) كان المبعوث الخاص رجلاً لا تجربة دبلوماسية له، إلا أنه متلهف كرئيس وزرائه بل لعله أكثر منه في إعطاء أرض السوديت للدكتاتور إن قبل ذلك بصورة سلمية، فإسترعى إنتباه هتلر إلى تصريح خاص صدر من رئيس الوزراء في لندن بعد نصف الليل بقليل جواباً على خطبة هتلر. قال چمبرلين: نظراً الى قلة ثقة المستشار الألماني بوعود الچيك فإن الحكومة البريطانية ستعتبر نفسها "مسؤولة أدبياً" في متابعة الموضوع عند الحكومة الچيكية حتى يتم انجازه "بعدل وكمالٍ وبكل سرعة معقولة" وأمِل أن لايرفض المستشار إقتراحه.

إلا أن هتلر لم يبد إهتماماً. وقال ليس هناك رسالة أخرى يريد إرسالها الى چمبرلين. والمسألة الآن بيد الچيك وبإمكانهم قبول طلباته او رفضها. وأن رفضوها فـ"سأدمر چيكوسلوڤاكيا" وظل يكرر هذا التهديد متلمضاً ملتذاً.

ويظهر أن هذا كان أكثر مما يسع (ويلسن) المجامل تحمله فنهض من مجلسه وقال "في هذه الحالة اني موصى من قبل الرئيس أن أقدم التصريح الآتي: إن قامت فرنسا بإيفاء تعهداتها فوجدت نفسها فعلاً في حالة أعمال عدوانية ضد ألمانيا فإن المملكة المتحدة تشعر ان الواجب يحتم عليها مساندة فرنسا.

فاجاب هتلر بشيء من الحرارة: "لقد فهمت الموقف تماماً. يعني إن اختارت فرنسا مهاجمة ألمانيا، فإن بريطانيا ستجد نفسها مضطرة إلى مهاجمتها أيضاً."

وعندما أجاب سر هوراس إنه لم يقل هذا، وأن المسألة تعود الى هتلر على كل حال هو الذي سيقرر الحرب أو السلم. راح (الزعيم) يصرخ - بعد أن عمل على إخراج زبدٍ الى شدقيه "إن ضربت بريطانيا وفرنسا ضربتهما فلتفعلا ما يحلو لهما! فهو أمر لااكترث به البتة اليوم هو الثلاثاء. وسنكون في حرب نهار الإثنين المقبل."

جاء في ملحوظات شميدت الرسمية عن المقابلة أن (ويلسن) كان يريد الإستمرار في الحديث كما يبدو إلا أن السفير هندرسن نصحه بألاّ يستمر. على أن ذلك لم يمنع المبعوث الخاص غير المجرب أن يختلس كلمات من هتلر على انفراد قبل إنفراط عقد الإجتماع، مؤكداً له "إني ساحاول أن أجعل هؤلاء الچيك معقولين"[٦٩].

فأجابه هتلر أنه سيرحب بذلك. ولعله كان يفكر بأن من الممكن إستمالة چمبرلين ودفعه إلى أن يقوم بدور المرشد للچيك ليجعلهم يصغون الى صوت العقل. وفي تلك الليلة بالذات جلس وأملى رسالة دقيقة التعابير الى رئيس الوزراء وكان ثم أسباب تدعو لكتابة الرسالة. فقد حدثت أمور كثيرة في برلين وغير برلين خلال ذلك اليوم ٢٧ أيلول.

في الساعة الواحدة بعد الظهر، بعد إنصراف (ويلسن) اصدر هتلر أمراً سرياً "للغاية" يقضي بنقل الوحدات المخصصة للهجوم وتبلغ زهاء الواحد والعشرين لواءً مجحفلاً أو سبع فرقٍ، والتقدم الى الأمام من معسكرات تدريبها الى نقاط الوثوب على الحدود الچيكية وذكر في الأمر "يجب أن تكون مستعدة للشروع في العمليات ضد (الخضراء) في ٣٠ أيلول. وان القرار تم قبل يومٍ واحد في الساعة الثانية عشرة ظهراً". وبعد ساعات قليلة صدر الأمر من الزعيم بتعبية سرية لخمس فرق جديدة للجبهة الغربية[٧٠].

ولكن مع مضي هتلر في تحركاته العسكرية، كان ثم تطورات أثناء اليوم حملته على التردد. وأمر باقامة عرض عسكري لفرقة آلية في العاصمة أثناء ساعات الغسق لإثارة بعض الحماسة العسكرية بين السكان. واختيرت ساعة العرض في الوقت الذي يخرج مئات الألوف من البرلينيين كالسيل العرم من دوائرهم الى الشوارع. إلا أنه اخفق في ذلك إخفاقاً ذريعاً (على الأقل للقيادة العليا) لم يكن أهل برلين الوادعون يريدون أن يشاهدوا ما يذكرهم بالحرب. وفي تلك الليلة دوّنت في يومياتي تفاصيل المشهد العجيب:

"خرجت إلى منعطف شارع (ليندن) حيث [الرتل العسكري] يستدير الى ڤلهلمشتراسه، متوقعاً أن اشاهد تجمهراً هائلاً. كنت قد صورت لنفسي مشهداً مماثلاً لما قرأت عنه للعام ١٩١٤ عندما كان المتفرجون الهاتفون في هذا الشارع نفسه يقذفون الجنود المستعرضين بالزهر والفتيات يخرجن من الصفوف ليقبلنهم أما اليوم فترى الناس يتوارون في دهاليز قطارات تحت الأرض ويرفضون أن

٦٩-تأكيدات ويلسن مثبتة بالعبارة الإنگليزية في أصل ملاحظات شميدت الألمانية.
٧٠- المبرزات ٣١-٣٣ من ملف (الخضراء) [مؤامرة النازيين... ج٣ الص ٣٥٠-٣٥٢، الوثيقة ٣٨٨ PS].

ينظروا، ولم يكن ثم غير حفنةٍ من الناس واقفة على الرصيف وهم صامتون صمتاً عميقاً... كان أغرب تظاهرة ضد الحرب شهدتها في حياتي".

وبإلحاح من رجل شرطة عبرت من ڤلهلمشتراسه إلى (قصر مستشارية الرايخ) حيث كان هتلر واقفاً في شرفة المستشارية يستعرض الجنود.

"... لم يكن يوجد مائتا شخص هناك. وبدا هتلر عبوساً متجهماً غاضباً ثم مالبث ان ترك الشرفة ودلف تاركاً جنوده يستعرضون أنفسهم. مارأيته تلك الليلة، أحيى فيَّ بعض الإيمان بالشعب الألماني. انهم ضد الحرب بصورة مطلقة.

كانت الأنباء التي وردت من الخارج الى المستشارية خطرة وسيئة فهناك تقرير من بودابست يقول أن يوغوسلافيا ورومانيا أبلغتا الحكومة المجرية انهما ستتحركان عسكرياً ضدّها إن هاجمت چيكوسلوڤاكيا وهذا ما سيوسع رقعة الحرب الى البلقان. وهو ما لايرغب فيه هتلر.

وكانت الأنباء من باريس أخطر. فقد وردت برقية من الملحق العسكري الألماني بعنوان "مستعجل جداً" معممة على وزارة الخارجية الألمانية والقيادة العليا، وهيئة الأركان العامة. تحذر من كون النفير الجزئي الفرنسي هو أشبه بالنفير العام "بحيث أقدر أن أول خمس وستين فرقة سيتم إكمالها ونقلها الى الجبهة خلال اليوم السادس من إعلان النفير". وكان للألمان مقابل هذا كما يعرف هتلر إثنتي عشرة فرقة لا غير، نصفها وحدات إحتياطية لايُعتمد كثيراً على قيمتها. وأضاف الملحق العسكري "يبدو محتملاً في حالة مباشرة ألمانيا بأعمالها الحربية... سيحصل هجوم فجائي يأتي على أغلب الإحتمالات من منطقة الالزاس واللورين السفلى بإتجاه (مينز Mainz).

وأخيراً أبلغ هذا الضابط الألماني برلين إن الإيطاليين لايفعلون شيئاً قط لتعويق القطعات الفرنسية على الحدود الإيطالية الفرنسية[٧١]. يبدو أن موسوليني الحليف الباسل ينوي أن يخذل هتلر في أحرج الساعات.

ثم دخل الميدان رئيس جمهورية الولايات المتحدة وملك السويد. ففي اليوم الذي سلف (٢٦ أيلول) وجه روزڤلت نداءً ناشد فيه هتلر التعاون لإحلال السلام. ورد هتلر عليه خلال أربع وعشرين ساعة قائلاً ان السلم يتوقف على الچيك وحدهم. ثم وردت رسالة أخرى من الرئيس الأمريكي أثناء ساعات نهار الخميس (٢٧) أيلول يقترح عقد مؤتمر عاجل لجميع الشعوب المعنيّة بالأمر مباشرة ومشدداً بأن هتلر سيكون مسؤولاً عن إثارة لحرب لو انها اندلعت[٧٢].

كان ملك السويد الصديق الصدوق لألمانيا كما برهن في ١٩١٤-١٩١٨، أكثر صراحة من الرئيس الأمريكي. فبعد ظهر اليوم نفسه ورد تقرير الى برلين من الوزير الألماني في (ستوكهولم) جاء فيه أن الملك ارسل يستدعيه فوراً وأخبره: إن لم يمد هتلر الوقت المحدد بالاول من تشرين الأول عشرة أيام

٧١- تقرير من پاريس وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ ص ٩٧٦.
٧٢- نص رسالتي روزفلت ورد هتلر على الأولى منهما في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج١١].

فأن حرباً عالمية ستنشب لا محالة وستكون ألمانيا هي الملومة وحدها وستخسرها حتماً "نظراً إلى وضع التكتل الدولي الحاضر" وتمكن الملك الذكي في جو ستوكهولم البارد المحايد أن يتعرض على الأقل للموقف العسكري بصراحة أكثر من الحكومة في برلين ولندن وپاريس.

واضطر الرئيس روزفلت نزولاً الى المشاعر الأمريكية، الى إن يضعف من ندائيه لأجل السلم بالتشديد في القول أن الولايات المتحدة لن تتدخل في الحرب ولا تتحمل أي واجب "في إجراء او توجيه المفاوضات الجارية حالياً". لذلك فكر هانس ديكهوف Hans Dieckhoff السفير الألماني في واشنطن، أن الضرورة تدفعه الى إرسال برقية "مستعجلة جداً" الى برلين في ذلك اليوم. منذراً بأن لجوء هتلر الى الحرب ووقوف بريطانيا موقفاً عدائياً منه لديه من الأسباب فإنه يعتقد أن كل ثقل الولايات المتحدة سيتحول إلى جانب بريطانيا". وأضاف السفير وهو في العادة خائر العزم عندما يتطلب الامر وقوفه بوجه هتلر "ارى من واجبي أن أشدّد على هذه النقطة بكل قوة". لم يكن يريد أن تقع الحكومة في الحساب الخاطيء الذي وقفت فيه بخصوص أمريكا في ١٩١٤.

وماذا عن پراغ؟ هل هناك أي دليل على الضعف هنا؟ في مساء ذلك اليوم وردت برقية من الكولونيل (توسان) الملحق العسكري الألماني الى(ق.ع.ق.م) "الهدوء يسود پراغ آخر عمليات النفير تمّ المجموع الكلي للوجبات مليون مقاتل. جيش الميدان (٨٠٠٠٠٠) مقاتل..."[٧٣]. وهذا يساوي ما لدى ألمانيا من الجنود المدربين في الجبهتين. وبإضافة مجموع المقاتلين الفرنسيين تكون النسبة واحداً لإثنين.

كان هتلر يواجه هذه الحقائق والتطورات كما ظلت ترن في أذنيه كلمات (ويلسن) الأخيرة. راح يفكر في شخصية چمبرلين، وخوف چمبرلين المميت من الحرب. فما لبث في أولى ساعات المساء (٢٧ أيلول) أن جلس ليملي خطاباً لرئيس الوزراء. وخيل للدكتور شميدت الذي استدعي لترجمته الى الإنگليزية ان (الزعيم) بدأ يتراجع عن "الخطوة المتطرفة". ولايدري أحد حتى الآن هل كان هتلر على علم بأن الأمر بالتعبئة قد صدر الى الأسطول البريطاني أم لا؟ كان من المقرر أن يقابله الأميرال (رايدر) في العاشرة مساءً، ومن المحتمل أن الأسطول الألماني قد علم بحركة بريطانيا التي تمت في الثامنة مساءً وأعلنت للعالم في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثامنة والثلاثين. وأبلغ (رايدر) هتلر بذلك تلفونياً، ومهما يكن من أمر فإن الأميرال وصل وناشد (الزعيم) ألاّ يعلن حرباً.

على أن ماكان هتلر يعلمه حق العلم أن (پراغ) تتحداه. وپاريس تعبيء للحرب بسرعة، ولندن تتشدد وشعبه غير متحمس. وجنرالاته القادة ضده على طول الخط. وأن إنذاره في مقترحات (گودسبرگ) سينتهي في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي.

كانت رسالته معدة اعداداً أنيقاً لمسايرة ذوق چمبرلين فهي معتدلة اللهجة. انكر فيها أن مقترحاته تؤدي الى "سلب چيكوسلوڤاكيا كل ضمان لكيانها" أو أن جنوده لن يقفوا عند الخط المرسوم وقال انه

٧٣- تقرير من پاريس، وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ ص٩٧٦.

مستعدّ للمفاوضة في التفاصيل مع الچيك، مستعد لإعطاء "ضمانة رسميّه لچيكوسلوڤاكيا الباقية". إن الچيك يعاندون لأنهم يأملون - بمساعدة فرنسا وإنگلترا - إثارة حرب أوروپية. على كلّ حال فانه لم يغلق الباب في وجه آخر الآمال بالسلم. وختم رسالته هكذا "فلأترك المسألة لرأيك. وأمام هذه الحقائق، هل تجد من الضروري الإستمرار في جهودك... لإحباط هذه المناورات وردّ حكومة پراغ الى صوابها في آخر ساعة(٧٤)؟"

-٧-

الساعة الحادية عشرة!

أرسل خطاب هتلر برقياً بصورة مستعجلة وتسلمه چمبرلين في الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين مساء ٢٧ أيلول. وصله في نهاية يوم حافل بالعمل. إنّ الأخبار المقلقة التي حملها (سر هوراس ويلسن) الى لندن عن مؤتمره الثاني مع هتلر في الساعات الأولى من بعد الظهر، دفعت چمبرلين وأعضاء وزراته الأصلاء إلى الحركة. فقررّ تعبئة الأسطول، وإستدعاء أفراد القوة الجويّة الإحتياط وإعلان حالة الطوراىء. وكان قد بوشر في حفر خنادق في الحدائق العامة والساحات للاحتماء من الغارات الجوية. وبدىء باخلاء طلاب مدارس لندن الأحداث.

وكذلك بادر رئيس الوزراء في الحال بإرسال رسالة الى الدكتور بينيش يحذره "بأن المعلومات المستقاة من برلين توضح دون شكّ ان الجيش الألماني سيبلغ بأوامر عبور الحدود الى چيكوسلوڤاكيا فوراً إن لم تقبل الحكومة الچيكوسلوڤاكية في موعد ينتهي في الساعة الثانية بعد متنصف ليل ٢٨ أيلول- بالشروط الألمانية" ولكن إنذاره الشهم للچيك لم يمنعه من تأنيبهم في الجزء الأخير من رسالته "أن بوهيميا سيجتاحها الألمان ولن يفلح ما تبذله دولة أو دول أخرى لإنقاذ بلادكم وشعبكم من هذا المصير. سيبقي هذا أمراً حقيقياً مهما كانت النتيجة التي ستسفر عنها حربٌ عالمية".

وبهذا وضع چمبرلين مسؤولية السلم أو الحرب على (بينيش) لا على (هتلر). وأعطى رأيا عسكرياً لم يجرأ حتى الجنرالات الألمان على التفكير في إمكان تحقيقه. على كل حال فقد ختم رسالته بتنصله من مسؤولية توجيه الچيكيين الى ما يترتب عليهم عمله الآن. فعليهم أن يتولوا جميع أمرهم.

ولكن أحقٌ هذا؟ ما همّ بينيش بالجواب إلاّ وهبطت عليه برقية أخرى فيها جهد چمبرلين أن يخبره ما يجب عليه عمله! إقترح أن يقبل الچيك بإحتلال عسكري ألمانيّ محدود في (١) تشرين الأول لكلّ من (إيكر) و(آش) خارج الإستحكامات الچيكية. ثم تقوم لجنة حدود ألمانية چيكية إنگليزية

٧٤- نص رسالة هتلر المؤرخة ٢٧ أيلول ١٩٣٨[وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٢ الص ٩٦٦-٩٦٨].

مؤلفة على جناح السرعة بتسليم باقي المنطقة الى الألمان[٧٥].

وزاد رئيس الوزراء تحذيراً آخر: "إن البديل الوحيد لهذه الخطة هو الغزو وتقطيع اوصال البلاد بالقوة. ولن تستطيع چيكوسلوڤاكيا - رغم إحتمال نشوء صدام قد يؤدي الى هلاك أنفس لاتحصى، أن تعيد تخطيط حدودها مهما أسفرت عنه الحرب من نتائج[٧٦].

وهكذا أنذر چيكوسلوڤاكيا أصدقاؤها (ضمت فرنسا صوتها الى هذه المقترحات الأخيرة) بأن أرض السوديت ستخرج من نطاق الدولة الچيكوسلوڤاكية وإن قهرت ألمانيا هي وحلفاؤها في الحرب. والمنطق بسيط: لماذا تورط أوروپا في حرب مادامت السوديت ستخرج من أيديكم كيفما كان؟

وبعد فراغه من هذا، أذاع چمبرلين خطاباً على الشعب البريطاني في الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين:

"شيء فظيع، مذهل، لايُصدق، أن نلجأ مضطرين الى حفر الخنادق هنا بسبب خصام في بلاد بعيدة لانعرف عن شعبها شيئاً!..."

حصل هتلر (على جوهر ما أراده) عرضت بريطانيا أن تضمن قبول چيكوسلوڤاكيا مطلبه وتنفيذه.

"لن أتردد في القيام حتى بزيارة ثالثة لألمانيا لو وجدت فيها أي خير...

مهما كنا نشعر بعطف على شعبٍ صغير يواجه دولة قوية ضخمة مجاورة، فنحن لانستطيع مهما كانت الظروف والأحوال أن نزجّ كل الإمبراطورية البريطانية في أتون الحرب بسببها لا غير. وإن وجب علينا القتال فليكن ذلك في أمر أكبر وأخطر من هذا."

"أنا شخصياً رجل سلم من صميم قلبي وروحي. إن الصدام المسلح بين الشعوب هو كابوس مخيف لي، لكن إن لو أُقنِعتُ بأن شعباً ماقد حزم أمره على حيازة العالم بالتهديد بالقوة، فأعتقد أن الواجب يقضي بمقاومته تحت سطوة كهذه لاتعود حياة الناس الذين يؤمنون بالحرية تسوى قلامة ظفر. لكن الحرب شيء مخيف وعلينا أن نتوثق قبل الدخول في خضمّها بأن هناك سبباً مصيريّاً عظيماً يدفعنا اليها."

ذكر (هويلر بينيت) أن معظم سكان بريطانيا ذهبوا الى فراشهم بعد سماعهم الخطبة وهم واثقون أن بريطانيا وألمانيا ستكونان في حالة حرب خلال أربع وعشرين ساعة[٧٧]. لكن هؤلاء الأفاضل لم يعرفوا ماكان يجري في (داوننگ ستريت) في ساعة متأخرة من تلك الليلة.

في العاشرة والدقيقة الثلاثين وصلت رسالة هتلر. وكانت القشة التي تعلق بها رئيس الوزراء متلهفاً. فأجاب الزعيم بمايلي:

٧٥- قدمت المقترحات الى وزارة الخارجية الألمانية ايضاً. قدمها السفير هندرسن في الساعة الحادية عشرة ليلاً راجياً ان تقدم حالاً الى هتلر.

٧٦- مشروع چمبرلين [وثائق عن... ج ٢ الص ٩٨٧-٩٨٨. وأورد (هويلر بينيت) الرسائل المتبادلة في كتابه (مونيخ) الص ١٥١-١٥٢ و١٥٥ من الملفات الچيكية.

٧٧- المرجع نفسه ص ١٥٨.

"بعد قراءة رسالتك اشعر شعور الواثق بانك تستطيع الحصول على كل المطالب الجوهرية دون حرب أو تأخير. وانا مستعد للمجيء الى برلين بنفسي حالاً للمداولة في إجراءات الضمّ معك وبحضور ممثلين عن الحكومة الچيكية والفرنسية والإيطالية إن رغبت في ذلك. واني لأشعر شعور الواثق بإمكان وصولنا الى إتفاق في بحر أسبوع. لأصدق انك ستأخذ على عاتقك مسؤولية إثارة حربٍ عالمية قد تقضي على الحضارة بسبب بضعة أيام من التأخير في تسوية مشكلة طال بها الأمد[٧٨].

وأرسل برقية أخرى الى موسوليني طلب فيها منه أن يستخدم نفوذه لإقناع (الزعيم) بقبول هذا الإقتراح والموافقة على أن تمثل بلاده في الإجتماع المقترح.

كانت فكرة المؤتمر تراود ذهن رئيس الوزراء قبل زمن. فمنذ تموز كان (السرّ نفيل هندرسن) قد إقترح ذلك في تقرير أرسله الى لندن. اقترح أن تقوم الدول الأربعة ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا بتسوية مشكلة السوديت لكن وزارة الخارجية البريطانية ذكّرت كلاً من رئيس الوزراء والسفراء بأنه يصعب إستثناء دول أخرى من المساهمة في مثل هذا المؤتمر[٧٩].

والدول الأخرى هي الإتحاد السوڤياتي التي ترتبط بمعاهدة التعاون المتبادل مع فرنسا وچيكوسلوڤاكيا. وكان چمبرلين قد عاد من (گودسبرگ) وهو مقتنع - وكان مصيباً أن هتلر لن يرضى قطّ بحضور أي إجتماع تكون روسيا طرفاً فيه. كما أنه هو نفسه لايرغب في حضور الرّوس. وإن كان واضحاً لأبسط الناس واصغرهم عقلاً في بريطانيا أن مساهمة السوفييت الى جانب الغرب في حالة نشوب حرب ستكون ذات قيمة هائلة لاتقدّر بثمن كما حاول چرچل مراراً وتكراراً تنبيه رئيس الحكومة البريطانية الى هذا. تلك فكرة يبدو أنها غابت عن دماغ رئيس الوزراء. وقد رأينا كيف رفض إقتراحاً روسياً لعقد مؤتمر بعد ضمّ النمسا لبحث الوسائل في مقاومة عدوان ألمانيّ آخر. وبالرغم من ضمان موسكو لچيكوسلوڤاكيا وإعلان (ليتفينوف) حتى الساعة بأن روسيا ستفي بتعهداتها، لم يكن چمبرلين ينوي السماح للسوفييت بالتدخل وعرقلة قراره بحفظ السلم عن طريق إعطاء هتلر أراضي السوديت.

ولكنه لم يبلغ به تفكيره حتى نهار الأربعاء (٢٨ أيلول) الى الحدّ الذي يعمد فيه إلى استبعاد الچيكيين من المؤتمر. في الواقع انه طلب في الخامس والعشرين وبعد رفض پراغ مقترحات گودسبرگ مقابلة (يان مازاريك) السفير الچيكي في لندن. واقترح أن توافق چيكوسلوڤاكيا على المفاوضات "في مؤتمر دوليّ تساهم فيه ألمانيا وچيكوسلوڤاكيا وغيرهما من الدول" وفي اليوم التالي قبلت الحكومة الچيكية الفكرة. ولهذا أوضح چمبرلين في رسالته الأخيرة الى هتلر التي بعثها في ساعة متأخرة من مساء السابع والعشرين. "أن يكون ممثلون چيكيون" في المؤتمر المقترح عقده من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا العظمى.

٧٨- النص في الوثيقة البيضاء البريطانية. (COMD ٥٨٤٨) رقم (١). قدم هندرسن الرسالة لهتلر ظهر اليوم التالي.
٧٩- هندرسن المرجع السالف ص١٤٤ (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة ج٢ ص٦١٤.

-٨-

نهار (الأربعاء الأسود) ومؤامرة (هالدر) على هتلر

خيمت الكآبة على برلين وپراغ ولندن وپاريس عندما إنبلج صبح "الأربعاء الأسود" الموافق ٢٨ أيلول. وبدت الحرب أمراً محتوماً. نقل (يودل) في يومياته عن گورنگ قوله في صباح ذلك اليوم: "يصعب إجتناب حرب عظيمة أكثر من هذا، أنها قد تمتدّ سبع سنين لكننا سنربحها"[٨٠].

وفي لندن كان حفر الخنادق وإخلاء الأطفال وصبيان المدارس وافراغ المستشفيات قائماً على قدمٍ وساق. وفي پاريس كان ثم تدافع بالمناكب في القطر المكتظة التي تترك المدينة. وحصل تزاحم في وسائل النقل في جميع الطرق الخارجة من المدينة. وكان ثم مشاهد مماثلة في غربي ألمانيا. ودوّن (يودل) في مفكرته صباح هذا اليوم أنباءً عن لاجئين ألمان فروا من مناطق الحدود الى الداخل. وفي الساعة الثانية بعد الظهر سينتهي موعد إنذار هتلر لچيكوسلوڤاكيا بخصوص مقترحات (گودسبرگ). ولم تبد إشارة قبول بها من پراغ، في حين كان يوجد علائم أخرى: نشاط كبير في (ڤلهلمشتراسه) وسفراء بريطانيا وفرنسا وإيطاليا يروحون ويغدون فزعين ولكن مجموع الشعب وجنرالات ألمانيا بقوا في جهل بما يحدث.

وبالنسبة لبعض القادة وبخاصة الجنرال (هالدر) رئيس هيئة الأركان العامة، كان الوقت قد ازف لتنفيذ خطة إزاحة هتلر وإنقاذ الوطن من عواقب حرب أوروپيّة اعتقدوا أنهم سيخسرونها لا محالة. كان المؤتمرون منهمكين في إحكام خطتهم طوال شهر أيلول، كما روى فيما بعد أولئك الذين كتبت لهم الحياة منهم[٨١].

كان الجنرال هالدر على صلة مستمرة بالكولونيل (أوشتر) برئيسه في دائرة الإستخبارات الأميرال (كاناريس) الذي حاول أن يحيطه علماً بنقلات هتلر السياسية حال وقوعها وبالإستخبارات الأجنبيّة. ذكرنا أن المؤتمرين حذّروا لندن من تصميم هتلر على غزو چيكوسلوڤاكيا في نهاية أيلول، ورجَوا من

٨٠- يومية يودل المؤرخة ٢٨ أيلول ١٩٣٨[مؤامرة ج٤ ص ٣٦٨- الوثيقة PS١٧٨٠].

٨١- وبضمن هذا، الافادات الأولى لهالدر وگزيڤيوس وشاخت. وواحدهما يناقض الآخر في مواضع كثيرة، فضلاً عن الغموض. كما تتداحض احياناً. من الضروري القول ان هؤلاء الثلاثة الذين بدأوا بخدمة النظام النازي، كانوا مندفعين بعد الحرب لإثبات معارضهتم لهتلر وحبهم السلم. كان (اريخ كوردت) من أقطاب المؤتمرين أيضاً وقد عاش حتى ما بعد الحرب. وكتب في نورمبرگ مذكرة مسهبة حول حوادث أيلول ١٩٣٨. وقف عليها المؤلف (المصادر: إستجواب هالدر من قبل سام هاريس في نورمبرگ [مؤامرة... ملحق (ب) الص ١٥٤٧-١٥٧١. كذلك مذكرات هالدر اعطيت لمراسلي الصحف في نورمبرگ لكنها لم تدخل في [مؤامرة النازيين ومحاكمات مجرمي الحرب] گزيڤيوس: الى النهاية المريرة الص ٢٨٣-٣٢٨ شهادته في [محاكمات مجرمي الحرب] ج١٢ الص ٢١٠-٢١٩ شاخت "تصفية الحساب" الص١١٤-١٢٥.

الحكومة البريطانية أن توضح مع فرنسا بأنها ستتصدّى للعدوان الألماني بالقوة المسلحة. ظل الجنرال (فيتزليبن) قائد منطقة برلين العسكريّة الذي كان سيمد المؤتمرين بالقوة الضاربة للإنقلاب – متردداً لأنه كان يشك في ان لندن وپاريس كانت قد أطلقت يد هتلر –بموحب إتفاق سرّي– في شرقي أوروپا ولذلك فلن تخوض حرباً بسبب چيكوسلوڤاكيا. وشاركه في رأيه عدد من الجنرالات، وهو الرأي الذي كان هتلر وريبنتروب يروّجان له ويشجعان. فإن كانت الحقيقة هذه، فالمؤامرة في رأي (هالدر وفيتنرليبن) عمل أخرق. لقد كانوا في هذه المرحلة من عهد الرايخ الثالث منشغلين بأمر واحد وهو التخلص من هتلر لإجتناب حرب أوروپيّة لا أمل قطّ لألمانيا في كسبها إن لم يكن هناك خطر حرب كبيرة وإن نوى چمبرلين إعطاء كل ما طلبه هتلر في چيكوسلوڤاكيا دون حرب. فليس ثم وجاهة أو مبرر لقيامهم بإشعال الثورة.

ولكيما يثبت الكولونيل (أوشتر) و(كيزيفيوس) للجنرالين هالدر وفيتزليبن ان بريطانيا وفرنسا مصممتان على مقارعة العدوان رتّبا لهما مقابلة مع (شاخت) وكان يعتبر عند قادة الجيش خبيراً في الشؤون البريطانية فضلاً عن مكانته لديهم بوصفه الرجل الذي موّل تسليح ألمانيا وهو مايزال عضواً في الوزارة فأكد لهما شاخت أن البريطانيين سيحاربون إن لجأ هتلر الى إستخدام القوة مع الچيك.

ووصلت (اريخ كوردت) أحد المؤتمرين في وزارة الخارجية أنباء في مساء ١٣ أيلول تفيد أن چمبرلين يقترح بإلحاح "القدوم جواً مرة ثانية" للبحث في حل سلمي لأزمة الچيك فأحدثت ذعراً في معسكر المؤتمرين وكانوا يعتمدون على عودة هتلر الى برلين بعد مؤتمر الحزب في نورمبرگ مباشرة في الرابع عشر من أيلول. ويذكر كوردت ان الخطة قضت بتنفيذ الإنقلاب في ذلك اليوم أو اليوم التالي الا أن الزعيم لم يعد الى العاصمة[٨٢]. بل سافر الى (مونيخ) ثم رحل الى (برختسگادن) إنتظاراً لقدوم رئيس الوزراء البريطاني في (١٥) أيلول.

كان هناك سببان للشعور بالخيبة التامة الذي إنتاب المؤتمرين. فخطتهم لايمكن تنفيذها إلا اذا كان هتلر في برلين. وكانوا على ثقة من عودته حالاً بعد أن زاد مؤتمر الحزب في نورمبرگ من حدة الأزمة الچيكية.

أما السبب الثاني، فمع أن بعض المؤتمرين ظنوا كما ظنّ أهالي برلين أن چمبرلين سيطير الى برختسگادن ليحذر هتلر من إرتكابه الخطأ الذي وقع فيه، ڤلهلم الثاني ١٩١٤ بخصوص موقف

٨٢– يختلف المؤرخون كثيراً، كذلك يختلف المؤتمرون أنفسهم حول مكان هتلر يوم ١٣ أيلول وبعده، ويذكر چرچل الذى يسند روايته الى مذكرات الجنرال هالدر ان هتلر وصل برلين من برختسگادن صباح ١٤ أيلول. وأن هالدر وفيتزليبن "قرّرا إنزال الضربة في الساعة ٨ من المساء نفسه عند سماعهما بذلك". لكنها أوقفا العملية عندما علما أن چمبرلين سيهبط في مونيخ الساعة ٤ ب.ظ (چرچل: تجمّع العاصفة) ص٣١٤– لكن ذاكرة هالدر وبالتالي حكاية چرچل خاطئتان. إن دفتر مواعيد هتلر المحفوظ الآن في مكتبة الكونگرس وفيه عدة مواعيد يظهر منها أنه قضى يوم ١٣ أيلول والذي يليه في مونيخ ومن جملة ما فعله انه تداول مع ريبنتروب في منزل (بورمان) وزار كاباريه سوننڤنكل Sonnenwinkel ثم انتقل الى أوبرسالزبرگ في نهاية اليوم الرابع عشر.

بريطانيا في حالة قيام عدوان ألماني، إلا أن (كوردت) كان أخبر منهم بغرض الزيارة. لقد رأى نصّ رسالة چمبرلين المستعجلة وفيها يقول لهتلر أنه يريد مقابلته "محاولة منه لإيجاد حلّ سلميّ" زد على هذا أنه إطلع على البرقية التي أرسلها اخوه (ثيودور كوردت) مستشار السفارة الألمانية في لندن ذلك اليوم نفسه وفيها أن رئيس الوزراء مستعدّ للقيام بتنازلات كبيرة لتحقيق مطالب هتلر في أرض السوديت[٨٣].

يقول (كوردت): "إن أثر ذلك على مشروعنا سيكون مدمراً بلاريب. فمن السخف القيام بإنقلاب لإزاحة هتلر في اللحظة التي يأتي چمبرلين الى ألمانيا ليبحث مع هتلر في (السلم العالمي). على كل حال يذكر (اريخ كوردت) أن الدكتور پول شميدت أحد المؤتمرين وترجمان مداولات هتلر-چمبرلين الوحيد كما رأينا - وشاهد العيان الوحيد الذي حضر المداولات، أبلغه في مساء يوم ١٥ أيلول "بجفرة خاصة" سبق تفاهمهما عليها. ان (الزعيم) مازال مصرّاً على إحتلال كل چيكوسلوڤاكيا وأنه قدم لچمبرلين مطالب مستحيلة "متوقعاً أن تُرفض". هذه المعلومات أحيت الأمل في نفوس المؤتمرين. وأبلغ كوردت، الكولونيل أوشتر بهذه الأنباء في مساء اليوم نفسه وتقرر الإستمرار في الخطة حالما يعود هتلر الى برلين. لكن أوشتر قال: "يجب علينا أولاً أن نعيد الطير الى قفصه في برلين".

طار الطير الى "قفصه" من (گودسبرگ) بعد المحادثات في عصر يوم ٢٤ أيلول. وفي صبيحة يوم "الأربعاء الأسود" يكون قد مكث في برلين أربعة أيام. في السادس والعشرين بدا وكأنه "أحرق جسوره" بإنفجاره في خطبة (سبورت بالاست). وفي السابع والعشرين بعث (بالسر هوراس ويلسن) الى لندن صفر اليدين، وكان ردّ الفعل في الحكومة البريطانية إعلان تعبية الأسطول وتحذير يراغ بأن تستعد لهجوم ألماني مباغت. وأمر هتلر في هذا اليوم كما ذكرنا أن تأخذ "وحدات الهجوم" مواضعها المتقدمة على الحدود الچيكوسلوڤاكية وتكون متأهبة "للعمل" في ٣٠ أيلول - أي بعد ثلاثة أيام.

ما الذي ينتظره المؤتمرون؟ كلّ الظروف التي أرادوها قد تحققت الآن. فهتلر في برلين. وهو عازم على إشعال نار الحرب وقد عيّن يوماً للهجوم على چيكوسلوڤاكيا هو (٣٠ أيلول) أي بعد يومين. فإمّا أن يشرعوا في الإنقلاب أو ستضيع فرصتهم في إزاحة الدكتاتور وإيقاف الحرب.

يصرح (كوردت) ان المؤتمرين عينوا لهم ٢٩ أيلول للقيام بالمؤامرة في إجتماعهم يوم ٢٧ أيلول. ويدعي (گزيفيوس) في شهادته المؤداة أمام محكمة نورمبرگ وكذلك في كتابه أن الجنرالين (هالدر) و(فيتزليبن) - قررا أن يعملا حالاً في ٢٨ أيلول بعد أن حصلا على نسخة من رسالة هتلر المتحدية مع "المطالب المهينة" الموجهة الى چمبرلين في الليلة الماضية.

"[يقول گزيفيوس] حصل أوشتر على نسخة من رسالة التحدّي في تلك الليلة [٢٧ أيلول] وفي صباح الثامن والعشرين اخذتُ النسخة إلى الجنرال (فيتزليبن). فحملها بدوره الى (هالدر).

٨٣- انظر المتن ص٥٢١.

الآن وأخيراً وضع رئيس هيئة الأركان يده على البرهان المنشود الذي لايتطرق اليه الشك في أن هتلر لايخادع وانه يريد الحرب." وانحدرت دموع السخط والغضب من عيني (هالدر) وبللت خدّيه... أصرّ فيتزليبن بأن الوقت قد أزف للقيام بعمل. وأقنع هالدر أن يذهب الى (براوختش) ففعل وبعد فترة رجع ليقول أن لديه أنباءً سارة: لقد ثار (براوختش) غضباً وربّما ساهم هو الآخر في المؤامرة(٨٤).

لكن، إما حصل تحوير ما في نصّ الرسالة أثناء إستنساخها أو ان الجنرالات أساؤا فهمها. إذ انها كما رأينا كانت معتدلة اللهجة ممتلئة بالوعود في "المداولة بالتفاصيل مع الچيك" و"إعطاء ضمانة رسميّة للجزء المبتقى من چيكوسلوڤاكيا". وبلغت منتهى الدماثة في الإقتراح على چمبرلين أن يواصل مجهوداته بحيث لم يتمالك نفسه من الإبراق حالاً لهتلر بإقتراح عقد مؤتمر للدول الكبيرة لتسوية التفاصيل وفي الوقت نفسه الإبراق الى موسوليني طالباً مساندته في هذا الإقتراح.

يظهر أن الجنرالات لم يعرفوا شيئاً عن هذه الساعات الأحدى عشرة التي انقضت بمجهودات للترضية. لكن ربما كان الجنرال فون براوختش القائد العام على شيء من العلم. ويروي (گزيفيوس) أن (فيتزليبن) أتصل ببراوختش تلفونياً من مكتب (هالدر) واخبره أن كل شيء مهيأ وتوسل اليه أن يقود الثورة بنفسه. إلاّ أن قائد الجيش ظل مؤرجحاً بين الإقدام والإحجام وأخبر (فيتزليبن وهالدر) أنه سيذهب أولاً الى دار المستشارية ليتحقق بنفسه هل أن الجنرالات قدّروا الوضع تقديراً صحيحاً؟ يقول (گزيفيوس): "وعندئذ أسرع فيتزليبن الى مقر قيادته العسكرية. لقد دنت الساعة!"

في الحادية عشرة من صبيحة يوم ٢٨ أيلول هذا، رنّ جرس التلفون في (مكتب) (كوردت) بوزارة الخارجية، وكان المتكلم (تشيانو) من روما، طالباً الإتصال بوزير الخارجيّة الألماني فوراً. لكن ريبنتروب كان في مستشارية الرايخ، فطلب الوزير الإيطالي وصله بسفيره (برناردو) وأصغى الألماني الى المكالمة وسجّلها. فظهر له ان المتكلم هو موسوليني وليس ختنه.

موسوليني: الدوتشي يتكلم. أتسمعني؟

اتوليكو: أجل إني أسمعك.

موسوليني: أُطلب مقابلة المستشار حالاً. وقُل له ان الحكومة البريطانية طلبت مني عن طريق اللورد پرث Perth أن أتوسط في المسألة السوديتيّة، ان نقطة الخلاف صغيرة جداً. بلّغ المستشار اني شخصياً وإيطاليا الفاشية ندعمه. عليه ان يتخذ قراراً لكن بلّغه أني أحبذ قبول الإقتراح البريطاني. أتسمعني؟

اتوليكو: أجل إني أسمعك.

موسوليني: اذن عجّل!(٨٥)

٨٤- (گزيفيوس): حتى النهاية المريرة، ص٣٢٥، كذلك شهادته في نورمبرگ ج١٢ ص٢١٩.

٨٥- مذكرة اريخ كوردت التي اطلع عليها المؤلف. آلان دالاس "الحركة السرية في ألمانيا" ص٤٦. يذكر تفاصيل هذه المكالمة.

وصل السفير (اتوليكو) دار المستشارية لاهثاً ووجهه محمرٌ من فرط الهياج (لاحظ ذلك الترجمان الدكتور شميدت) ليجد السفير الفرنسي مختلياً بهتلر. كان (مسيو بونسيه) قد تكبّد عناءً كبيراً في الوصول الى هتلر. ففي ساعة جدّ متأخرة من ليلة أمس اتصل به (بونيه) وزير الخارجية الفرنسي الذي كان يريد الآن أن يسبق چمبرلين في إرضاء هتلر، وأمره بمقابلة المستشار بأسرع ما يمكن وتقديم إقتراح فرنسيّ لتسليم السوديت مع تسهيلات لم يبلغها الإقتراح البريطاني. فبينما كان إقتراح چمبرلين المقدم في الحادية عشرة ليلاً يعرض إحتلال هتلر للمنطقة (رقم واحد) من السوديت في (١) تشرين الأول (مجرد إحتلال رمزيّ لبقعة صغيرة) إقترح الفرنسيون الآن تسليم المناطق الثلاث الواسعة التي تؤلف معظم الاقليم المنازع عليه، في (١) تشرين الأول.

موسوليني

لقد كان عرضاً مغرياً. لكن السفير الفرنسي عانى مشاقاً ليقدمه فقد خابر في الثامنة صباحاً (٢٨ أيلول) لتعيين موعد لزيارة المستشار، وعندما لم يصله جواب في العاشرة، هرع الى هيئة الأركان العامّة لإبلاغ الجنرالات الألمان بالعرض الذي لم يستطع تقديمه بعد. وطلب مساعدة السفير البريطاني هندرسن المستعد دائماً ومن صميم القلب لخدمة كلّ من يساعد على منع الحرب بأي ثمن كان!، فبادر في الحال الى الإتصال بگورنگ فقال الفيلد مارشال انه سيحاول تعيين موعد. والحقيقة هي ان (هندرسن) كان يحاول ايضاً أن يظفر لنفسه بموعدٍ لأنه أبلغ بتقديم "رسالة شخصية أخيرة من رئيس الوزراء". وهي التي خطّها چمبرلين في ساعة متأخرة من ليلة أمس (أنظر ماسبق) مؤكداً فيها لهتلر أنه قادر على الفوز بكلّ مايريده "دون حرب، ودون تأخير". مقترحاً عقد مؤتمر للدول لبحث التفاصيل[٨٦].

استقبل هتلر (فرانسوا بونسيه) في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة عشرة صباحاً، وكان السفير عصبياً متوتراً إذ ابرز خريطة رسم عليها بصورة مستعجلة المساحات الكبيرة من الأرض

٨٦- وقائع الإجتماع في المستشارية ظهر يوم ٢٨ أيلول. فصّلها بعض المساهمين: شميدت المرجع السالف ص ١٠٥-١٠٨، فرانسوا بونسيه المرجع السالف الص ٢٦٥-٢٦٨. هندرسن المرجع السالف الص ١٦٦-١٧١.

الچيكية التي تزمع حليفة چيكوسلوڤاكيا الأولى تقديمها الآن الى هتلر في طبق. وراح السفير يغري هتلر بقبول المقترحات الفرنسية ويجنّب أوروپا غائلة الحرب. وبدا هتلر مقتنعاً رغم تعليقات ريبنتروب السلبية، التي وصفها فرنسوا بونسيه (بالمراوغة) وخاصّة عندما قدم السفير الخريطة باشاراتها السخيّة. كما لحظ الدكتور شميدت.

وقطعت المحادثة فجأة في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعين بإعلان الحاجب وصول (اتوليكو) حاملاً رسالة عاجلة (للزعيم) من موسوليني. فترك هتلر الغرفة برفقة شميدت لتحية السفير الإيطالي المبهور الأنفاس.

وهتف السفير الإيطالي وهو على مبعدة من هتلر، بصوته الغليظ المعهود[٨٧] "لديَّ رسالة عاجلة لك من الدوتشي!"، وبعد أن قدمّها زاد قائلاً أن موسوليني يرجو من (الزعيم) العدول عن إعلان النفير.

يقول (شميدت) وهو الحيّ الوحيد الباقي الذي شهد هذه المحادثة أنّ قرار الجنوح الى السلم قد إتخذ هنا. كان الوقت ظهراً قبل نهاية موعد الإنذار بساعتين.

قال هتلر بإرتياح واضح "قل للدوتشي إني أقبل إقتراحه[٨٨]".

كانت بقية اليوم ساعات مابعد الذروة. لحق هندرسن بالسفيرين فرانسوا بونسيه واتوليكو لمقابلة (الزعيم): فقال له هذا "بناءً على رجاءٍ من صديقي وحليفي العظيم موسوليني. أرجأت إعلان النفير في جيشي لمدة أربع وعشرين ساعة[٨٩]. وزاد يقول انه سيعلن عن قراراته في الأمور الأخرى كالمؤتمر المقترح من الدول، بعد المداولة مع موسوليني[٩٠].

وجرى في أعقاب هذا ما لايُحصى من الإتصالات التلفونية بين برلين وروما وذكر شميدت أن الدكتاتورَين الفاشيين تكلّما مباشرةً مرة واحدة. وقبل نهاية الإنذار بدقائق قليلة (الساعة الثانية ظهراً في ٢٨ أيلول) اتخذ هتلر قراره وصدرت دعوات مستعجلة لرؤساء حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا لمقابلة الزعيم في مونيخ ظهر اليوم التالي لتسوية المسألة الچيكية. ولم ترسل دعوة الى پراغ ولا الى موسكو. لم يسمح لروسيا الضامنة الثانية لإستقلال چيكوسلوڤاكيا وكيانها في حالة هجوم ألماني عليها بالتدخل في الأمر. ولم يسمح للچيك بالحضور حتى لتلقي حكم الموت بحقهّم!

يعزو (السر نفيل هندرسن) في مذكراته معظم الفضل في إنقاذ السلم في تلك اللحظة الى موسوليني، ويعضده في هذا معظم المؤرخين الذين كتبوا في هذا الفصل من التاريخ الأوروپي[٩١].

٨٧- شميدت المرجع السالف ص١٠٧.

٨٨- المرجع السالف ص١٠٧.

٨٩- كان هتلر قد عبّأ كل ما تيسّر له من القطعات كما رأينا.

٩٠- هندرسن المرجع السالف الص ١٦٨-١٦٩ شميدت المرجع السالف الص ١٠٨.

٩١- آلان بوللوك "هتلر- دراسة في الطغيان" ص٤٢٨.

لكن هذا ليس إلاّ مبالغة في المديح. فإيطاليا هي أضعف الدول الكبرى في أوروپا وقوتها العسكرية تافهة الى الحدّ الذي كان الجنرالات الألمان كما كشفت عنه مذكراتهم – يرون في الحديث عنها دعابة ومزاحاً. كانت بريطانيا العظمى وفرنسا القوتين الوحيدتين اللتين يحسب لهما الألمان حساباً. كما وان رئيس الوزراء البريطاني نفسه كان من البداية يحاول إقناع هتلر أن بإمكانه الحصول على أراضي السوديت دونما حرب. إن چمبرلين وليس موسوليني، هو الذي جعل مؤتمر مونيخ ناجحاً وبهذا أنقذ السلم أحد عشر شهراً بالضبط والثمن الذي دفعته بلاده وحلفاؤها وأصدقاؤها لهذه (المأثرة) سيجري تقديره فيما بعد. إلاّ انه كان بأي مقياس يتخذ – ثمناً باهضاً ناءَ بحمله أصلب عود.

في الثالثة إلا خمس دقائق من بعد ظهر يوم (الأربعاء الأسود) الذي بدا الآن أقلّ سواداً مما كان في ساعات الصبح المكفهرة، شرع رئيس الوزراء البريطاني يتكلم في مجلس العموم البريطاني مقدماً تفاصيل المراحل التي مرت بها الأزمة الچيكية، ودوره ودور حكومته في محاولة حلّها، قال أن الموقف مازال غير مستقرّ إلاّ انه تحسّن. وذكر ان موسوليني نجح في إقناع هتلر بتأجيل النفير أربعاً وعشرين ساعة. والزمن الآن يشير الى الرابعة والدقيقة الخامسة عشرة وقد مرّ على چمبرلين وهو يتكلم زهاء ساعة واحدة وعشرين دقيقة وهو الآن يدنو من الخاتمة. في هذه الدقيقة قوطع. إذ دفع اليه السر جون سيمون وزير الخزانة بوريقة سلمها له اللورد هاليفاكس من مقعده الأمامي الخاص. وكان هاليفاكس جالساً في مقصورة اللوردات.

"[كان چمبرلين يقول" مهما كانت وجهات نظر الأعضاء المحترمين في السنيور موسوليني، فاعتقد أن كل واحد سيُكبِرُ فيه ميله... إلى السلم".

توقف رئيس الوزراء وتطلع الى الوريقة ثم ابتسم:

"ليس هذا كل شيء فلدي شيء آخر اقوله للمجلس. لقد أبلغت الآن بدعوة من هر هتلر لمقابلته في مونيخ غداً صباحاً وهو كذلك قد دعا السنيور (موسوليني) ومسيو (دالادييه). لقد قبل السنيور (موسوليني) الدعوة ولست اشكّ في ان مسيو دالادييه سيقبل أيضاً. ولست بحاجة إلى ان أقول ماذا سيكون جوابي عليها..."

لم يكن ثم حاجة. كان ردّ الفعل في هذا البيت الضيق أبي البرلمانات، هستيريا عامة غير مسبوقة في تاريخه المديد. كان ثم هتافات صاخبة وقذف أوراق الملاحظات في الهواء واخضلت عيون الكثيرين بالدموع. وطغى صوت جهوريّ واحدٌ على الضجّة العامة ليعبّر عن مشاعر الجميع: "نشكرالله، لأجل رئيس الوزراء"!

نظر (يان مازاريك) الوزير المفوض الچيكي، نجل الأب المؤسس للجمهورية الچيكوسلوڤاكية، من مقصورة الدبلوماسيين، غير مصدقٍ عينيه. وبعدها قابل رئيس الوزراء ووزير الخارجية في (داوننگ ستريت). يتثبت من مسألة: هل ان حكومة التي قامت بكلّ هذه التضحيات ستدعى الى المؤتمر في

مونيخ؟ فأجاب السياسيّان بالنفي، لأن هتلر لن يوافق على هذا قطّ فشخص (مازاريك) بأنظاره الى هذين الإنگليزيين التقيين الصادقين في مخافة الله. وتوسل بكلّ جهد لضبط نفسه. وأخيراً قال لهما:

- إن كنتما قد ضحيتما بوطني لحفظ السلم العالمي. سأكون اوّل من يهتف لكما ويشيد بكما. وإن لم يكن الأمر كذلك فليس لي إلاّ أن اطلب لروحيكما الرحمة من الله[٩٢].

وماذا عن المتآمرين؟ جنرالاتهم ومدنييهم؟ الجنرال (هالدر)، الجنرال فون فيتزليبن، شاخت، گزيڤيوس، كوردت، والآخرين الذين اعتقدوا أن ساعتهم حانت على حدّ قول (فيتزليبن)، قبل ظهر اليوم العصب؟ الجواب نثبته مختصراً عن لسانهم وبكلماتهم التي نطقوها بعد مرور زمن طويل حين إنتهى كلّ شيء، وكانوا متلهفين ليقيموا الدليل للعالم كم كانوا يعارضون هتلر وحماقاته المفجعة التي أدت بألمانيا إلى الدمار التام بعد حرب طويلة قتالة.

إدعى كلهم أن نفيل چمبرلين هو الغدّار! الذي أحبط محاولتهم بموافقته على إجتماع مونيخ وإجبارهم في آخر لحظة على توقيف خططهم للتطويح بهتلر والنظام النازي!

في الخامس والعشرين من شباط ١٩٤٦، في حين كانت محاكمة نورمبرگ الطويلة تشارف الخاتمة. قام الكابتن سام هاريس وهو محامٍ نيويوركي شاب من هيئة الإدّعاء العام الأمريكية بإستجواب الجنرال هالدر في خلوة.

"[قال هالدر] تقررّ ان تكون الخطة قيام قوة عسكرية بإحتلال مستشارية الرايخ وكل الدوائر الحكومية ولاسيّما الوزرات. التي يشغلها أعضاء من حزب النازي ومقربون من هتلر، بنيّة مشددة في تجنب إراقة الدماء. ثم محاكمة الجميع أمام الشعب الألماني بأسره... في ذلك اليوم (٢٨أيلول) جاءني فيتزليبن في مكتبي ظهراً. فبحثنا القضية وطلب منيّ أن أعطيه أمر التنفيذ. وبحثنا تفاصيل أخرى - كم من الوقت يلزمنا الخ... وخلال حديثنا وردتنا أنباء عن موافقة رئيس الوزراء البريطاني والفرنسي على مقابلة هتلر لإجراء مباحثات أخرى. حصل ذلك أثناء وجود (فيتزليبن) ولذلك استعدت منه الأمر بالتنفيذ، لأن السبب الذي بنينا عليه عملنا قضي عليه...

كان كلنّا واثقاً بالنجاح لكن چمبرلين جاء وبضربة واحدةٍ حرف الحرب عن مسراها... وتمّ إجتناب الساعة العصيبة لإستخدام القوّة... ولم يسعنا إلاّ الإنتظار والتربص بفرصة جديدة..."

فسأله الكابتن هاريس Sam Haris: "هل افهم من قولك أن خطتكم كانت ستنفذ عملياً وتتم إزاحة هتلر لو لم يأت چمبرلين الى مونيخ؟"

أجاب الجنرال هالدر: "كل ما يمكنني قوله أن الخطة كانت ستنفذ حرفياً ولست أدري هل كان سيكتب لها النجاح أو الفشل[٩٣].

٩٢- وصف مازاريك المشهد للمؤلف فيما بعد. كما وصفه لأصدقاء عديدين. إلا أن ما دوّنته عنه ضاع. ولهذا استخدمت وصف (هوبلر بينيت) المؤثر في كتابه (مونيخ الص ١٧٠-١٧١).

٩٣- من إستجواب هالدر ٢٥ شباط ١٩٤٦ [مؤامرة النازيين وعدوانهم: ملحق الص ١٥٥٣-١٥٥٨].

وكانت مبالغة الدكتور شاخت في تصوير اهمية دوره في مختلف المؤامرات ضدّ هتلر، واضحة في نورمبرگ وفي كتبه وهو أيضاً يضع تبعة العدول عن تنفيذ مؤامرة ٢٨ أيلول على عاتق چمبرلين قال:

"يتضح تماماً من المجرى الذي سلكه التاريخ فيما بعد أن المحاولة الأولى الإنقلابية التي دبرتها أنا وفيتزليبن كانت الوحيدة التي ستوثر تأثيراً حاسماً على مستقبل ألمانيا وتاريخها. كانت المحاولة الوحيدة التي خططناها وهيأناها في الوقت المناسب... في خريف عام ١٩٣٨ كان بالإمكان الإعتماد على إحالة هتلر الى المحاكمة أمام المحكمة الكبرى. إلاّ أن كل المحاولات التالية للخلاص منه كانت تقضي بالضرورة إغتياله... لقد قمت بإستعدادات لإنقلاب في ظروف ملائمة، وبلغت بها قيد شعرة من النجاح. إلاّ ان التاريخ قرر أن يعاكسني. ان التدخل الذي جرى من الساسة الأجانب لم يكن بالإمكان إدخاله في حسابي"(٩٤).

واضاف (گزيڤيوس) أعظم أبطال شاخت في شهادته أمام محكمة نورمبرگ:

"لقد وقع المستحيل. چمبرلين ودالاديه يطيران الى مونيخ. لقد قضي على ثورتنا. بقيتُ ساعات قليلة أفكر واتخيل أننا قادرون على الثورة كيفما كان، لكن فيتزليبن سارع ليثبت لي أن الجنود لن يثوروا ضدّ دكتاتور منتصر... چمبرلين هو الذي انقذ هتلر"(٩٥).

هل كان ذلك صواباً؟ أم مجرد حجّة تلمّسها المدنيون والعسكريون الألمان لتبرير عجزهم عن التطبيق؟

بيّن (هالدر) للرئيس هاريس أثناء التحقيق معه - أن هناك ثلاثة شروط يجب تحققها "العمل ثوريّ" ناجح.

"الأول: قيادة ظاهرة عاقدة العزم. الثاني: إستعداد الجماهير الشعبيّة للسير وراء فكرة الثورة. الثالث: إختيار الوقت المناسب. وقد رأينا نحن أن الشرط الأول بخصوص القيادة الحازمة متوفر. واعتقدنا أن الشرط الثاني متحقق ايضاً لأن... الشعب الألماني لايريد الحرب. لذلك فالشعب مستعد الى عمل ثوري تحت وطأة الخوف من الحرب. والشرط الثالث وهو التوقيت وكان ممتازاً لأننا كنا نتوقع أن الأمر بالسوق والعمل الحربي سيصدر خلال ثمانٍ وأربعين ساعة. لذلك كنا على أتّم الثقة من النجاح. لكن مستر چمبرلين دخل المشهد وبضربة واحدة ازاح خطر الحرب."

قد يشكّ المرء في ان الشرط الأول الذي وضعه الجنرال هالدر محقق كما زعم. إذ لو كان ثم "قيادة واضحة عاقدة العزم" لما ظل الجنرالات مترددين أربعة أيام كوامل. كان بيدهم القوة العسكرية القمينة بالتطويح بهتلر ونظامه بكلّ سهولة. فيتزليبن يقود جيشاً كاملاً (الجيش الثالث) داخل برلين وحواليها. وبركدورف-آهلفيلدت يقود فرقة مشاة بارعة في بوتسدام القريبة. (وهويپنر) يقود فرقة مصفحة في الجنوب. وهناك ضابطا بوليس كبيران في العاصمة: الكونت ڤون هلدورف، والكونت ڤون

٩٤- شاخت المرجع السالف ص١٢٥.
٩٥- گزيڤيوس المرجع ص٣٢٦.

در شولنبرگ. بإمرتهما قطعات كبيرة من الشرطة مسلحة تسليحاً جيداً. كل هؤلاء القادة كانوا كما أجمع عليه المؤتمرون، ينتظرون كلمة واحدة من هالدر ليهبوا الى العمل هبة رجل واحد بقوي عسكرية لاتضارع. وجماهير برلين الفزعة من الحرب فزعاً قتالاً -على مدى ما توصل اليه المؤلف في مبدأ الأمر- ستخفّ بدون تردد الى دعم الثورة.

أكان (هالدر وفيتزليبن) سيعملان لو لم يوافق چمبرلين على المجيء الى مونيخ؟ انه لسؤال لايمكن الاجابة عليه اجابة نهائية باتة لو وضعنا نصب أعيننا تصرف هؤلاء الجنرالات العجيب في ذلك الوقت ذلك التصرف الذي جعلهم يهتمون بإزاحة هتلر لا في سبيل إنهاء عهد الإرهاب والطغيان لنظامه الدكتاتوري، بل لإجتناب حرب خاسرة. فمن الممكن القول أنهم كانوا سينفذون خطتهم لو لم يعترضهم مؤتمر مونيخ. إن المعلومات لاتزال مفقودة عن مدى قوة المؤامرة وكيفية حبكها وكم كانت القوات المسلحة على إستعداد للزحف وكم كان هالدر وفيتزليبن قريبين من إصدار الأوامر، وليس لدينا غير شهادات حفنة من المساهمين الذين كانوا بعد الحرب متلهفين للإدلال على معارضتهم للقومية الإشتراكية. وما قالوه وكتبوه دفاعاً عن أنفسهم كثيراً ما تناقض وأسلم المرء إلى حيرةٍ وإضطراب[٩٦].

لو أن خطط المؤتمرين كانت على قيد خطوة من التنفيذ كما زعموا، فإن إعلان چمبرلين عن رحلته الى مونيخ لاشكّ ردّتهم على اعقابهم. إن الجنرالات لايستطيعون القاء القبض على هتلر ومحاكمته كمجرم حربٍ حين اتضح أنه يكاد يحقق نصراً عظيماً دون حرب.

وما هو مؤّكد بين كل هذه التخمينات (وهنا كان شاخت مصيباً للغاية في وجهة نظره) أن فرصة ذهبيّة مثل هذه لم تعنّ للمؤتمرين الألمان على اسقاط هتلر والاطاحة السريعة بالرايخ الثالث وإنقاذ ألمانيا والعالم من الحرب. وإن غامر المرء بالتعميم دون التخصيص - امكنه القول أن في الألمان نقطة ضعفٍ وهي القاء اللوم على الاجانب عند إخفاقهم. إن مسؤولية چمبرلين وهاليفاكس ودالاديه وبونيه عن (مونيخ) وعن كلّ النتائج الفاجعة المدمرة التي تلته - هي مسؤولية ضخمة لا عذر فيها. لكنهم قد يعذرون الى حدّ ما لعدم أخذهم بتحذيرات عن "ثورة" مأخذاً جدياً جاءتهم من جماعة من الألمان المدنيين والعسكريين الذين خدم معظمهم هتلر بإخلاص وكفاءة عظيمة حتى تلك اللحظة. ربّما تذكروا أو تذكر بعض مشاوريهم في لندن وپاريس الحقائق المحزنة من التاريخ الألماني القريب: كيف ساعد الجيش على وضع الحكم في يد نائب العريف النمساوي السابق وكيف طار فرحاً للفرص التي اتاحها له بإعادة التسلّح ولم يعترض كما يبدو على القضاء على الحريات الفردية في ظل القومية

٩٦- واليك مثلاً الايضاح الذى قدمه الجنرال جورج توماس الرئيس اللامع لفرع الميرة والتموين والسلاح في القيادة العليا وأحد المتآمرين - عن فشل الثورة قال "ان تنفيذ هذا المشروع نبذ جانباً مع الأسف الشديد لانه وجد ان صغار الضباط (كما بين القائد الاقدم الذي عهد اليه بالعمل) ويقصد فيتزليبن- لايمكن الإعتماد عليهم في عمل سياسي من هذا النوع". انظر أوراقه المطبوعة سنة ١٩٤٥ (كانون الثاني في Schwiezerisch Monatshefte بعنوان"Gedanken und Freignisse".

الإشتراكية. ولم يفعل شيئاً عند مقتل جنراله فون شلايخر ولم يحرك ساكناً لوقف المكيدة الشنعاء التي دبرت لعزل قائده العام الجنرال فون فريتش، وأخيراً انضمامه إلى الجوقّ في عملية اغتصاب النمسا وكان في الواقع القوة المسلحة التي اعتمدتها العملية. مهما أهيل على رؤوس هؤلاء زعماء الترضية من لومٍ وتأنيب سواء في لندن وپاريس وهو مقدار كبيرٌ بلاشكّ، فالحقيقة ستظلّ وهي ان الجنرالات الألمان وزملاءهم المدنيين المؤتمرين أحجموا في الإقدام على العملية التي اختطوها في اللحظة التي لايجود بمثلها الزمن دائماً.

-٩-

الإستسلام في مونيخ
٢٩-٣٠ أيلول: سنة ١٩٣٨

في هذه المدينة الباڤارية الجميلة. حيث بدأ السياسيّ الخامل كفاحه في غرف المقاهي الخلفية القاتمة، الحقيرة، وحيث ذاق في شوراعها مرارة خيبته في إنقلاب مشرب البيرة، أستقبل إستقبال الفاتح رؤساء حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا، في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين من ظهر يوم ٢٩ أيلول.

في الساعات المبكرة من الصباح خرج للقاء موسوليني الى كوفشتاين Kufstein على الحدود النمساوية الألمانية السابقة. ورتب أسس العمل المشترك في المؤتمر. وفي القطار الذي أقلّهما الى مونيخ راح هتلر يشرح للدوتشي بحالة من الهياج "خططه لتصفية" چيكوسلوڤاكيا ومسحها من عالم الوجود مستعيناً بالخرائط. وقال إما أن تنجح المحادثات التي ستبدأ اليوم حالاً أو انه سيلجأ الى الحرب. وذكر تشيانو الذي كان حاضراً تعقيباً لهتلر: "وفضلاً عن ذلك، فسيأتي اليوم الذي سنقف معاً جنباً الى جنب ضدّ فرنسا وإنگلترا".

ووافقه موسوليني على ذلك(٩٧).

لم يقم چمبرلين بمجهود مماثل لرؤية دالاديه قبل الإجتماع والإتفاق على خطة عملٍ واحدة للديمقراطيتين الغربيتين بمواجهة الدكتاتورَين الفاشيَّين. في الواقع ظهر جلياً لعدد كبير منّا بإتصالنا مع مبعوثي الوفدين الدبلوماسيين الفرنسيين والإنگليز في مونيخ، في ساعات متقدمة من النهار أن چمبرلين جاء الى مونيخ وقد عقد عزمه على ألاّ يقف أحد في طريقه لا الچيك بالطبع، ولا فرنسا، في سبيل الوصول إلى إتفاق سريع مع هتلر(٩٨).

٩٧- تشيانو :"اليوميات المخفيّة" ١٩٣٧-١٩٣٨ ص١٦٦. في برقية تاريخها ٢٦ حزيران ١٩٤٠. ذكّر موسوليني زميله هتلر بأنه وعد في مونيخ أن يشارك في هجوم على بريطانيا.

٩٨- بعث چمبرلين في مساء اليوم السابق في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والأربعين برقية الى الدكتور بينيش =

ولم يكن ثم ضرورة للإحتياطات بالنسبة الى دالادييه الذي كان يتجوّل طول اليوم وكأنه مسلوب اللبّ، إلاّ ان رئيس الوزراء البريطاني كان محتاطاً لكلّ شيء.

المباحثات التي بدأت في الساعة الواحدة الاّ ربعاً من بعد ظهر اليوم في ما أطلق عليه (دار الزعيم) في (كوينكسبلاتز) لم تكن مثيرة، وكانت مجرد شيء يزيد قليلاً عن الرسميّات المتعلقة بإعطاء هتلر كلّ ما أراد. ودعي الدكتور شميدت الذي لايُشَقُّ له غبار ليقوم بالترجمة باللغات الألمانية والإنكليزية والفرنسية. فلاحظ من البداية "جواً من النوايا الطيبة". وتذكر السفير هندرسن فيما بعد "لم ترتفع حرارة النقاش في أي مرحلة من مراحل المناقشات" ولم يترأس المؤتمر أحد. وجرت الوقائع بشكل خلا من الرسميّات، واذا حكمنا عليها من سجلات وقائع الإجتماع(٩٩) التي اميط عنها اللثام بعد الحرب. فإن رئيسي الحكومتين البريطانية والفرنسية كانا يتسابقان مثل فرسي رهان على اجابة مطالب هتلر حتى عندما ألقى كلمة الإفتتاح التالية: لقد صرّح في خطابه في سبورت بالاست بأنه سيزحف مهما كانت الظروف في (١) تشرين الأول، فتسلم جواباً بأن عمله سيكون فيه صفة العنف. لذلك برزت مهمة تجريد العمل من تلك الصفة، وعلى كل حال يجب إتخاذ قرار فوريّ".

وشرع المؤتمر في عمله عندما قال موسوليني (ثالث المتكلمين، وأعطي دالادييه الكلمة الأخيرة): "ضماناً للوصول إلي حلّ عملي للمشكلة" فقد حمل معه إقتراحات مكتوبة محددة. إن اصل تلك الإقتراحات طريف حقاً، وقد بقي چمبرلين يجهل ذلك الأصل حتى موته كما ارجح. كذلك كان يجهله كلّ من فرانسوا بونسيه وهندرسن، كما بدا من مذكراتهما. والحقيقة إن القصّة لم تعرف إلاّ بعد مقتل الدكتاتورين بزمن طويل.

إنّ ما فخر به الدوتشي وأبرزه بوصفه مشروعاً من بنات أفكاره كان قد تفرغ الى وضعه بعجلة كل من نيوراث وگورنگ وفون ڤايسيكر قبل يومٍ في وزارة الخارجية الألمانية دون علمٍ من وزير الخارجية ريبنتروب الذي لم يكن هؤلاء الثلاثة يقيمون وزناً لقابلياته العقلية ثم حملها گورنگ الى هتلر فأعلن رضاه عنها ثم دفعت الى (شميدت) فعجل بترجمتها الى الفرنسيّة واعطيت الى السفير الإيطالي. فتلفن هذا نصّها الى الدكتاتور الإيطالي في روما قبل أن يسافر الى مونيخ. تلك هي حقيقة المقترحات الإيطالية التي كانت أساساً للمؤتمر غير الرسميّ لا بجدول أعماله بل بالشروط الجوهرية التي أصبحت بالأخير مجمل إتفاقية مونيخ وهي في الحقيقة مقترحات ألمانية تمّ طبخها في برلين(١٠٠).

= يعلمه رسمياً بإجتماع مونيخ "سيظل يلازم فكري مصلحة چيكوسلوڤاكيا... إني اسافر الى هناك (مونيخ) عازماً على محاولة إيجاد تقارب بين موقفي الحكومتين الألمانية والچيكية" فاجاب بينيش حالاً "ارجو أن لايبرم شيء في مونيخ قبل ان يسمع صوت چيكوسلوڤاكيا" (نص رسالتي چمبرلين وبينيش في (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة ج٢ الص ٥٠٩ و٦٠٤.

٩٩- وقائع جلستي مؤتمر مونيخ في وثائق عن... ج١١ ص١٠٠٣-١٠٠٨ و١٠١١-١٠١٤.

١٠٠- تحدث اريخ كوردت عن الأصول الألمانية لمقترحات موسوليني في شهادته أمام المحكمة العسكرية الأمريكية الرابعة في نورمبرگ في ٤ حزيران ١٩٤٨ في القضية التي رفعتها الولايات المتحدة الأمريكية ضد ارنست =

ولاتخطيء العين ملاحظة النصّ الذي يشابه الى درجة كبيرة مطاليب هتلر المرفوضة في گودسبرگ إلاّ أنها لم تتضح لچمبرلين أو لدالادييه أو لسفيريهما في برلين اللذين كانا حاضرَيْن. تقول التقارير الألمانية أن رئيس الوزارة البريطاني "رحّب بالإقتراح الإيطالي وصرح أنه هو نفسه قد نظم إقتراحاً بالتسوية بني على خطوط هذا الإقتراح" ورحب رئيس الوزراء الفرنسي ايضاً "بالإقتراح الذي نظم بروح واقعيّة ايجابية" اما عن السفير هندرسن فقد كتب فيما بعد أن موسوليني "صاغ بمهارةٍ وبراعة مزيجاً من المقترحات الألمانية، والمقترحات الأنگلو-فرنسيّة واظهرها كأنها من بنات أفكاره بينما كان إنطباع (فرانسوا بونسيه) أن المجتمعين كانوا يتبادلون الرأي في مذكرة بريطانية "نظمها هوارس ويلسن"[١٠١].
الى هذه الدرجة من التساهل بلغ ساسة بريطانيا وفرنسا في تنازلهم بأيّ ثمن كان. لقد خدعوا!!

بعد أن رحّب الجميع بالمقترحات (الإيطالية) ترحيباً حاراً، لم يبق إلاّ تفاصيل بسيطة للتنظيف والكيّ! وكما هو متوقع من رجل أعمال سابق ووزير خزانة أسبق رغب چمبرلين أن يعلم، من سيعوّض الحكومة الچيكيّة عن الممتلكات العامّة التي ستنتقل الى ألمانيا في أرض السوديت فأجاب هتلر الذي كان كما روى فرانسوا بونسيه - يبدو مصفرّ الوجه مشغول البال ومتضايقاً لأنه خلافاً لموسوليني - كان عاجزاً عن متابعة الحديث باللغتين الفرنسية والإنگليزية - أجاب بحدة: لن يكون ثمّ تعويض. وعندما احتجّ رئيس الوزراء على الشرط الذي يقضي أن لايأخذ الچيك الذين سيخلون المناطق المنسلخة، شيئاً حتى بقراتهم (كانت واحدة من شروط إنذار گودسبرگ). وقال مندهشاً: "أيعني هذا أن الفلاحين سيطردون وأن ماشيتهم ستضبط؟" فانفجر هتلر صارخاً بچمبرلين:

"إن وقتنا أثمن من أن نضيعه بهذه التوافه"[١٠٢] فترك رئيس الوزراء الموضوع.

في الواقع، أصرّ أولاً على وجوب حضور ممثل چيكي، أو على الأقل، أن يكون "تحت اليد" كما عبّر عنه. لأن بلاده "لاتستطيع بطبيعة الحال أن تضمن الجلاء عن أرض السوديت حتى ١٠ تشرين الأول [حسب إقتراح موسوليني] إن لم يصدر تأكيد بذلك من الحكومة الچيكوسلوڤاكية". وكانت موافقة (دالادييه) على قوله بادية الفتور. قال أن الحكومة الفرنسية "لن تسمح قطّ بمماطلة أو تسويف في هذا الموضوع من جانب الحكومة الچيكوسلوڤاكية". إلاّ انه يرتأي "إستدعاء ممثل چيكي، قد يكون من إستشارته - عند الضرورة بعض نفع". إلاّ أن هتلر ظل مصراً على ألاّ يسمح بحضور

= ڤايسيكر. وتعطي "وثائق وزارة الخارجية الألمانية ج٢ ص١٠٠٥" ملحصاً عن وقائع جلسات المرافعة. يتحدث (كوردت) ايضاً عن المناسبة في كتابه Wahn und Wirklickkeit الص ١٢٩-١٣١. ويؤيد الدكتور شميدت (ترجمان هتلر ص١١١) رواية (كوردت). ويقول أن ترجمة مقترحات الدوتشي كان عملاً سهلاً، إذ سبق له أن ترجمها نهار أمس في برلين. واثبت تشيانو وزير الخارجية الإيطالية في يومية له مورخة ٢٩/ ٣٠ أيلول في مونيخ عن تقديم = = موسوليني وثيقته "التي كانت قد بُلّغت لنا في الواقع من سفارتنا ببرلين مساء أمس. معبرة عن رغبات الحكومة الألمانية" مذكرات تشيانو المخفية ١٩٣٧-١٩٣٨ ص١٦٧.

١٠١- هندرسن المرجع السالف ص١٧١. فرانسوا بونسيه المرجع السالف ص٢٧١.

١٠٢- شميدت المرجع السالف ص١١٠.

چيكيّ أمامه. فصرف دالادييه النظر عن رأيه خانعاً. إلاّ أن چمبرلين حصل بالأخير على امتياز صغير فاتفق أن يكون "تحت اليد" ممثل چيكي "في الغرفة المجاورة" كما اقترح رئيس الوزراء.

وبالفعل حضر محل الإجتماع أثناء جلسة العصر ممثلان چيكيان هما الدكتور (فوتشيك ماستني) الوزير المفوض الچيكي في برلين. والدكتور هيوبرت ماساريك Hubert Masarik من وزارة الخارجية في پراغ. واقتيدا بكلّ جفاء الى غرفة مجاورة. وبعد أن ظلاّ وحيدين هناك من الساعة الثانية بعد الظهر حتى السابعة، هوى عليهما سقف الغرفة فجأةً، ففي الساعة الأخيرة دخل عليهما فرانك آشتن-كواتكن Frank Ashton-Guatkin (وكان أحد أعضاء بعثة رونسيمان وهو الآن في معيّة چمبرلين) وأنهى اليهما بأخبار السوء. لقد تم التوصل الى إتفاقٍ عامٍ لايمكنه إعطاء تفاصيله لهما بعد، إلاّ انه أقسى كثيراً من المقترحات الأنگلو-فرنسيّة وعندما سأل (ماساريك) أليس بالأمكان أن تُسمع أقوالهما اجاب الإنگليزيّ (على حدّ ما كتبا لحكومتيها): "يبدو انكما تجهلان كم كان الموقف صعباً بالنسبة للدول الكبرى، واننا لانفهم كم هو شاق التفاوض مع هتلر".

وفي الساعة العاشرة ليلاً أخذ الرجلان التاعسان الى (السرّ هوارس ويلسن) مستشار رئيس الوزراء المخلص. فأبلغهما نيابة عن چمبرلين بالنقاط الرئيسة التي اتفقت عليها الدول الأربع وسلمهما خريطة لأراضي السوديت التي يجب أن يتم اجلاء الچيك عنها حالاً وعندما حاول المبعوثان الإحتجاج. قاطعهما الموظف الإنگليزي وافهمهما أن ليس لديه أكثر مما قاله وترك الغرفة حالاً واستمر الچيكيان يحتجان دون طائل لـ(فرانك آشتون-كواكتن) الذي بقي معهما في الغرفة. وحذّرهما وهو يهمّ بالانصراف قائلاً: "إن لم تقبلوا، فعليكم أن تتكفلوا بتسوية اموركم مع الألمان بمفردكم ربّما يصارحكم الفرنسيون بهذه الحقيقة بلهجة أرق لكن ثقوا أنهم يشاطرونا الرأي وهم لايعبأون بالمسألة".

تلك هي الحقيقة، وان كانت تبدو للمبعوثين الچيكيين بشعة. وبعد الساعة الواحدة صباحاً ليوم ٣٠ أيلول[١٠٣] وقع هتلر ثم چمبرلين، ثم موسوليني ثم دالادييه على إتفاقية مونيخ مُحدِّدة اليوم الأول

١٠٣- أرخت الإتفاقية في ٢٩ أيلول وإن تم التوقيع عليها فعلاً في ساعات الصباح الأولى من ٣٠ أيلول. نصّت على ان الإحتلال الألماني "للأراضي الألمانية القديمة" يجب ان يكون في ٧ تشرين الأول أما الأراضي الباقية، فبعد تمام تحديدها من قبل اللجنة الدولية يتم إحتلالها في (١٠ تشرين الأول) واللجنة تتألف من اعضاء يمثلون الدول الكبرى الأربعة وچيكوسلوفاكيا. وواقفت إنگلترا وفرنسا وإيطاليا: على ان "الجلاء عن الأرض يتم في ١٠ تشرين دون تدمير شيء من المنشآت. وأن الحكومة الچيكية ستكون مسؤولة عن أيّ تخريب يحصل أثناء عملية الجلاء المذكورة". ثم أن "اللجنة الدولية" تقوم بتدبير إجراءات الإستفتاء "بحيث لاتتأخر عن نهاية تشرين الثاني" في المناطق التي يحوم الشك حول طبيعتها الاثنوغرافية. والتي سيكون فيها التحديد النهائي للحدود الجديدة. وفي ملحق للبنود الأصلية صرّحت بريطانيا وفرنسا "انهما ستظلان باقيتين على وعدهما... بخصوص ضمانة دولية للحدود الدولة الچيكية الجديدة ضد أي عدوان لم يعقب إستفزازاً وعندما تتم تسوية مشكلة الأقليات الپولندية والمجرية، ستقوم إيطاليا وألمانيا بدورهما بإعطاء ضمانة لچيكوسلوفاكيا، النص في [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج١١ ص ١٠١٤-١٠١٦]، لم يتم إجراء الاستفتاء كما قرر. ولم تعط ألمانيا أو إيطاليا الضمان لچيكوسلوفاكيا ضد العدوان حتى بعد تسوية مشكلة الأقليات الپولندية والمجرية. كما أن بريطانيا وفرنسا تنصلتا عن الايفاء بعهدهما بالضمانة الدولية.

من تشرين الأول لبدء زحف الجيش الألماني الى داخل چيكوسلوڤاكيا كما قال (الزعيم) أنه سيفعل وأن يتمّ الإحتلال السوديتي في (١٠) تشرين الأول. وهكذا نال هتلر، ما حبس عنه في گودسبرگ.

ولم يبق إلاّ الشيء المؤلم – المؤلم للضحية على الأقل. وهو إبلاغ الچيك عمّاذا سيتخلّون ومتى. ولم يحفل هتلر وموسوليني بهذا الجزء من الحفلة وانسحبا تاركين المهمة لممثلي حلفاء چيكوسلوڤاكيا، أعني فرنسا وبريطانيا العظمى. وصف (ماساريك) المشهد وصفاً متقناً في تقريره الرسمي الى وزارة الخارجية الچيكية.

"في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين صباحاً أُخِذنا الى القاعة التي جرت فيها وقائع المؤتمر وكان الحاضرون مستر چمبرلين ومسيو دالادييه وسر هوراس ويلسن ومسيو ليجيه L`ger [السكرتير العام لوزارة الخارجية الفرنسية] ومستر فرانك آشتن-كواتكين والدكتور ماستني وأنا، كان الجوّ ثقيلاً على النفس، فالحكم سيصدر الآن والفرنسيون ظاهرو القلق شديدو العصبيّة يتشبثون جاهدين ليتخذوا هيئة الوقار الفرنسي أمام المحكمة. ونوّه مستر چمبرلين في خطبة طويلة تمهيدية بالإتفاق وسلّم النصّ الى الدكتور (ماستني).

بدأ الچيكيان يطرحان عدداً من الاسئلة لكن...

"مستر چمبرلين كان يتثاءب بإستمرار، دون أن يحاول إخفاء ثوبائه. سألت مسيو (دالادييه وليجيه) هل يتوقعان من حكومتنا تصريحاً أو جواباً حول الإتفاقية. كان مسيو دالادييه في غاية العصبيّة. واجاب (مسيو ليجيه) أن السادة الأربعة متعبون ولا وقت لديهم، واضاف بسرعة متظاهراً بعدم الإكتراث أن لا حاجة تدعو الى جواب منّا وانهم يعتبرون المشروع متفقاً عليه وأن على حكومتنا أن ترسل في هذا اليوم بالذات ممثلاً للحضور في اللجنة في برلين على أن لايتأخر حضوره عن الثالثة بعد الظهر، وأخيراً يجب ان يكون الضابط الچيكيّ في برلين نهار السبت لترتيب تفاصيل الجلاء عن المنطقة الأولى. وقال أن الجوّ بدأ يصبح خطراً على العالم أجمع.

كان يكلمنا بخشونة واضحة، ذلكم الفرنسي... ولم يُخف مستر چمبرلين ضيقه. وسلّمونا خريطة ثانية منقحة. لقد أنهَوا مهمتهم معنا وعلينا الآن أن ننصرف[١٠٤].

أذكر من تلك الليلة الليلاء نور النصر يومض في عيني هتلر وهو يهبط درج (دار الزعيم) العريضة بعد الإجتماع. وغطرسة موسوليني وزهوه في حلّته الخاصّة المقصّبة بزيّ الميليشا. واذكر ثوباء چمبرلين وعلامات الوسن والنعاس اللطيفة التي شاعت في وجهه عند عودته الى فندق (ريجنا بالاس).

"[كتبت في مفكرتي تلك الليلة] وبدا دالادييه خلافاً لهم رجلاً مكدوداً محطّماً تماماً ومقهوراً.

١٠٤- من تقرير رسمي ارسله الدكتور ماساريك الى وزارة الخارجية الچيكية. إن مصادر هذا الجزء من مؤتمر مونيخ في [وثائق عن...ج٢ ص٣١٠٠٣-١٠٠٨ و١٠١١- ١٠١٤. نص إتفاقية مونيخ المرجع السالف ١٠١٤-١٠١٦،(و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة رقم (١) ص٢٢٧. تشيانو شميدت هندرسن. فرانسوا بونسيه: مراجعهم السالفة].

أقبل الى فندق (ريجنا) لتوديع چمبرلين فسأله أحدهم، أو همَّ بالسّؤال: "ايها السيد الرئيس هل انت مرتاح للإتفاقية؟" فالتفت إلتفاتة من يريد قول شيء. إلاّ أنه كان اشدّ ارهاقاً وقهراً، ولم تخرج الكلمات من حلقه وبارح المكان مترنحاً دون أن ينبس بكلمة واحدة[١٠٥]."

لم يفرغ چمبرلين من المداولة مع هتلر حول السّلم العالميّ. ففي صبيحة اليوم الثاني الباكر (٣٠ أيلول) نهض منتعشاً بفضل ساعات نوم قليلة مسروراً بالمجهودات التي بذلها يوم أمس، وقصد هتلر في شقته الخاصّة في مونيخ ليبحث معه الوضع الأوروپيّ والحصول على تنازل صغير توهّم كما يبدو أنه سيعزز موقفه السياسيّ في بلاده.

يذكر الدكتور شميدت شاهد العيان الوحيد والترجمان الذي حضر بحكم مهنته هذه الزيارة غير المتوقعة، أن هتلر كان شاحب الوجه سيّء المزاج ساهماً، وكان يصغي غائب الذهن الى رئيس الحكومة البريطانية الغزير الكلام وهو يعبّر عن ثقته بأن ألمانيا "ستتبنى موقفاً كريماً في تطبيق بنود إتفاقية مونيخ" وجدد أمله في أن لايكون الچيكيون "غير معقولين بحيث يثيرون صعوبات وعراقيل" وان فعلوا فهو يرجو من هتلر أن لايقصف پراغ بالقنابل "للخسارة الفظيعة التي ستلحقها بالسكان المدنيين". كان هذا بداية فقط لحديث طويل شتيت، لايصدق خروجه من فم رئيس وزراء بريطاني حتى من رجل إستسلم ذلك الإستسلام الذليل للدكتاتور الألماني ليلة أمس لو لم يسجّله الدكتور شميدت في مذكرة رسمية لوزارة الخارجية. حتى في هذا اليوم عندما يقرأ المرء تلك الوثيقة التي ضبطت بعد الحرب. يصعب عليه أن يصدق ما يقرأ. لكن ملحوظات الزعيم البريطاني الإفتتاحية لم تكن إلاّ مقدمة لما سيتلوها. فبعد أن نفض چمبرلين للدكتاتور الألماني ما بدا ثرثرة لاتنتهي عن إقتراح بتعاون آخر لإنهاء الحرب الأهلية الاسبانية (التي يربحها الألمان والإيطاليون "المتطوعون") لفرانكو وفي نزع السلاح وشؤون الرخاء الإقتصادي الدولي والسلم السياسي في أوروپا بل حتى التعاون في حلّ المشكلة الروسية! أخرج من جيبه قصاصة من الكاغد كان قد كتب فيها شيئاً يمكن ان يذيلاه بتوقيعهما ويدفعاه الى النشر حالاً:

"اننا (الزعيم) الألماني والمستشار، ورئيس الوزراء البريطاني عقدنا إجتماعاً آخر في هذا اليوم واتفقنا على أن مسألة حسن العلاقات الإنگليزية-الألمانية هي أولى الضرورات للبلدين ولأوروپا.

ونحن نعتبر الإتفاقية الى وقعت ليلة أمس والمعاهدة البحرية الأنگلو-ألمانية، رمزاً لرغبة شعبينا في عدم خوض حرب أحدنا ضدّ الآخر.

وقد اتفقنا أن طريق المشاورة، ستكون الطريقة المتبعة لمعالجة أي مشاكل أخرى تهمّ بلدينا. كما صحّ عزمنا على الإستمرار في بذل الجهود لإزاحة كل مصدر من مصادر الخلافات جانباً. وبهذا نعمل على تثبيت أركان السلم في أوروپا".

١٠٥- يوميات برلين ص١٤٥.

قرأ هتلر التصريح وأسرع بالتوقيع عليه فوراً حتى كاد چمبرلين يطير فرحاً كما ذكر شميدت في تقريره الرسميّ. كان إنطباع الترجمان أن الزعيم وافق عليه "بشيء من التردد لا لشيء إلا ليسرّ چمبرلين" الذي "شكر الزعيم بكلّ حرارة" ووصف الأثر السيكولوجي العظيم "الذي يتوقعه من هذه الوثيقة".

لم يدر رئيس الوزراء المخدوع طبعاً وكما كشفت عنه الوثائق السرية الألمانية والإيطالية بعد ذلك بوقت طويل ان هتلر وموسوليني كانا قد إتفقا في ذلك المؤتمر نفسه في مونيخ أنهما سيحاربان "جنباً لجنب" بريطانيا العظمى عندما يأتي الوقت. ولم يستطيع أن يتكهن –كما سنرى بعد قليل– بأشياء كثيرة أخرى كانت تغلي غلياناً في ذهن هتلر Lugubious(١٠٦).

عاد چمبرلين الى لندن، كما عاد دالادييه الى پاريس، ظافراً يلوّح بالتصريح الذي وقّعه مع هتلر وواجه رئيس الوزراء المسرور جمهوراً غفيراً اكتظّ به (داوننگ ستريت) وبعد ان أصغى الى هتافات "عاش چمبرلين العجوز الطيّب!" والى النشيد الرائع: "فلأنه زميل طيّب جداً For He`s a Jolly Good Fellow" تكلم وهو يبتسم بعبارات قليلة من نافذة الطابق الثاني– رقم ١٠ قال: "أصدقائي الكرماء هذه هي المرة الثانية في تاريخنا يحدث أن يعود السلم بشرف من ألمانيا إلى داوننگ ستريت(١٠٧). واعتقد أن السلم سيسود عصرنا".

وقالت صحيفة التايمس: "لم يأت فاتح من معركة منتصراً ومتوجاً باكاليل الغار كما جاء" وبدت حركة تلقائية يدفعها الشعور "للقيام باكتتاب عام يعملون به شيئاً" فيه تعبير عن شكرهم لچمبرلين، إلا أنه رفض الأمر متلطفاً. إلاّ أن (دفّ كوپر) وزير البحر إستقال من الوزارة بمفرده وفي مناقشة مجلس العموم التالية عندما بدأ چرچل الذي مازال بعد "صوتاً صارخاً في البرية*" ينطق كلماته الخالدة "لقد حققنا فشلاً ذريعاً كاملاً لايمكن التلطيف منه" اضطر الى التوقف حتى تلاشت عاصفة الإحتجاج على هذه الملاحظة كما روي فيما بعد.

لاشك أن الحالة في پراغ كانت تختلف إختلافاً تاماً. في الساعة السادسة والدقيقة العشرين صباح الثلاثين من أيلول ايقظ القائم بالأعمال الألماني وزير الخارجية الدكتور (كروفتا) من نومه وسلّمه نصّ إتفاقية (مونيخ) مع الطلب من چيكوسلوڤاكيا أن ترسل ممثلَين إثنين الى أول إجتماع (للجنة الدولية) التي ستشرف على تنفيذ منطوق الشروط وذلك في برلين في الساعة الخامسة بعد الظهر.

وأمّا بالنسبة الى الرئيس (بينيش) الذي كان قد تباحث مع كل القادة العسكريين والزعماء السياسيين في قصر (هرادشين)، فلم يجد مندوحة إلاّ ان يسلّم بالواقع ويخضع، لم تخذل بريطانيا

١٠٦– مصادر إجتماع هتلر–تشمرلين هذا [وثائق عن... ج٢ ص١٠١٧. راجع عن نص التصريح المرجع نفسه ج٢ الص ٢٨٧–٢٩٣. عن مذكرة شميدت الرسمية حول الإجتماع كتاب شميدت السالف الص ١١٢–١١٣.(و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة ج٢ رقم ١٢٢٨. فيها راوية تختلف بعض الشيء لما جرى من حديث.

١٠٧– يشير بذلك إلى عودة دزرائيلي من مؤتمر برلين في ١٨٧٨.

* إقتباس من آيات الإنجيل.


ريبنتروب

وفرنسا بلاده وحدها وإنّما ستساند الآن هتلر بإستخدامه القوة إن رفضت چيكوسلوڤاكيا بنود إتفاقية (مونيخ). وفي الساعة الواحدة إلاّ عشر دقائق استسلمت چيكوسلوڤاكيا وصدر بيان رسمي مصدّراً بعبارة "اننا نحتجّ الى العالم".

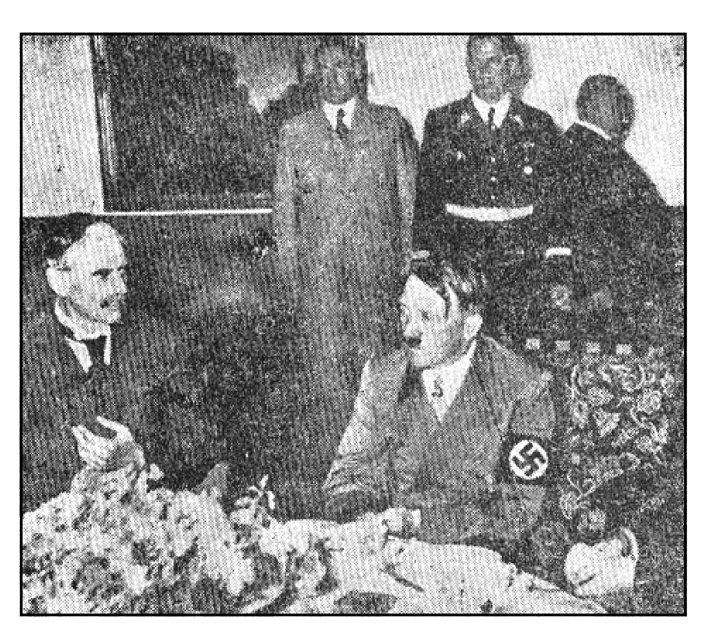
وفي إذاعة لرئيس الحكومة الجديدة على الشعب الچيكوسلوڤاكي قال الجنرال سيروفي في الساعة (٥ ب.ظ) لقد خذلنا وتركنا وحدنا.

ظلت فرنسا وبريطانيا الى النفس الأخير تمارسان ضغطهما على البلاد التي خانتاها وخدعتاها. وفي أثناء اليوم ذهب الوزراء المفوضون البريطاني والفرنسي والإيطالي لمقابلة الدكتور (كروفتا) ليتأكدوا من عدم وجود ثورة اللحظة الأخيرة ضدّ الإستسلام ووصف الوزير الألماني الدكتور (هِنكه) المشهد في تقرير الى برلين قال: "حاول السفير الفرنسي توجيه كلمات مؤاساة الى (كروفتا) فقاطعه وزير الخارجية الچيكي بقوله: "لقد أرغمنا على هذا الموقف إرغاماً. والآن إنتهى كل شيء. اليوم دورنا وغداً سيكون دور الآخرين". نجح الوزير البريطاني بصعوبة في القول أن چمبرلين قد بذل أقصى ما في وسعه، فردّ عليه بما ردّ على الوزير الفرنسي. كان وزير الخارجية الچيكي منهاراً تماماً وابدى رغبة واحدة وهي ان يترك الوزراء الثلاثة الغرفة حالاً(١٠٨).

إستقال الرئيس (بينيش) في ٥ تشرين الأول بإلحاح من برلين. وعندما إتضح أن حياته في خطر طار الى إنگلترا وبقي فيها منفياً. فحلّ محله الجنرال (سيروفي) بصورة موقتة. وفي ٣٠ تشرين الثاني اختارت الجمعيّة الوطنية (مجلس النواب) الدكتور أميل هاشا Dr. Emil Hasha وهو رئيس محكمة النقض والإبرام الچيكوسلوڤاكية، رجل طيب النوايا لكنه ضعيف، وشيخ في السادسة والستين من عمره، رئيس جمهوريّة لما بقي من چيكو-سلوڤاكيا (هكذا أصحبت تكتب رسميّاً بخط صغير يفصل بين الكلمتين المدغمتين قبلاً.

إن ما نسي چمبرلين ودالاديه إعطاءه ألمانيا من چيكوسلوڤاكيا في مونيخ: قامت اللجنة الدولية بتسليمه: هذه اللجنة التي عجل في تشكيلها بعضوية سفراء بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والوزير المفوض الچيكي في برلين والبارون (فون ڤايسيكر) وكيل وزارة الخارجية الألمانية سوّت كل منازعة على أراضٍ اضافية للألمان، لمصلحتهم. تحت التهديد بإستخدام القوة من جانب هتلر والقيادة العليا وأخيراً وفي ١٣ تشرين الأول صوتت اللجنة على نبذ اللجوء الى الإستفتاء الذي نصت إتفاقية (مونيخ) على إجرائه في المناطق المنازع عليها إذ لم يكن حاجة تدعو اليه.

١٠٨- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص٤-٥.



هتلر وچمبرلين
في مونيخ

وبعد أن هدّ البولنديون والمجريون بالأعمال العسكرية ضدّ الشعب الفاقد الحول، انقضوا الآن كالبواشق ليحصلوا على قطع من جسر چيكوسلوڤاكيا وحصلت پولندا بإصرارٍ من وزير خارجيتها (يوزف بيك) الذي سيبرز اسمه في الطليعة خلال الإثني عشر شهراً القادمة في هذا التاريخ - على أكثر من (٦٥٠) ميلاً مربعاً من الأراضي حول (تيشن) يسكنها أكثر من (٢٢٨٠٠٠) نسمة، منهم (١٣٣٠٠٠) چيكي. ونالت المجر قطعة أكبر، هدية من (تشيانو وريبنتروب) في ٢ تشرين الثاني: أرضاً تبلغ مساحتها ٧٥٠٠ ميل مربع يقطنها نصف مليون مجريّ و٢٧٢٠٠٠ سلوڤاكي.

والأنكى من هذا كله، ارغمت هذه البلاد المقطعة الأوصال بضغطٍ من برلين على اقامة حكومة موالية للألمان، ذات صفة فاشية واضحة المعالم ولم يعد أحدٌ يشك في أن وجود الشعب الچيكوسلوڤاكي أصبح مرتهناً برحمة زعيم الرايخ الثالث.

-١٠-

آثار إتفاقية مونيخ

بإتفاقية مونيخ حصل هتلر على كلّ ما طلبه في (گودسبرگ)، ثم منحته (اللجنة الدولية) التي خضعت لتهديداته أكثر مما طلب بكثير. وكانت نتيجة التسوية النهائية التي تمت في ٢٠ تشرين الثاني، أن أجبرت چيكوسلوڤاكيا على النزول لألمانيا عن (١١٠٠٠) ميل مربع من الأراضي يقطنه

(٢٨٠٠٠٠٠) ألماني و(٨٠٠٠٠٠) چيكي. وفي هذه المنطقة بالذات يقع كل الحصون والإستحكامات العسكرية الچيكية الواسعة التي كانت حتى ذلك التاريخ أمنع الخطوط الدفاعية في أوروپا وربما أمكن مضاهاتها بخط (ماجنيو) الفرنسي.

الاّ ان ذلك لم يكن كل الغنائم. فقد صودر من چيكوسلوڤاكيا كل ما تملكه في المنطقة من خطوط السكك الحديد ومنشآتها وكل طرقها المعبدة وخطوط التلفون والبرق. وبيّنت الأرقام الألمانية أن البلاد المجزأة خسرت ٦٦٪ من فحمها الحجريّ و٨٠٪ من لگنايتها* Lignite و٨٠٪ من معامل نسيجها و٧٠٪ من حديدها وفولاذها وقواها الكهربائية و٤٠٪ من أخشابها. وهكذا تمزق قطر صناعي غنيّ مرفَّه شر ممزق وأصبح مفلساً في عشية وضحاها.

فلاعجب ان رأينا (يودل) يكتب فرحاً ليلة مونيخ في يومياته: "لقد تم التوقيع على إتفاقية مونيخ ولم يعد لچيكوسلوڤاكيا كيان دولي... إن عبقرية الزعيم وتصميمه حتى بوجود خطر حرب عالمية، ربحت الجولة أيضاً دون اللجوء الى القوة، والأمل كبير أن يكون المترددون والمرتابون قد اهتدوا الى الحقيقة، وانهم سيبقون مؤمنين بها[١٠٩].

ولقد آمن كثير من المرتابين وذوي الشك، والقلة التي بقيت غير مؤمنة غرقت في لجة من اليأس. وبرهنت الأحداث ثانية على خطأ الجنرالات (بيك وهالدر وفيتزليبن) وصحبهم المدينيين. لقد فاز هتلر بما أراد، وحقق ظفراً عظيماً آخر دون ان يخسر طلقة واحدة وارتفعت مكانته الى مراقي أخرى من العظمة. وليس في إمكان أحد في ألمانيا عقب مونيخ أن ينسى الغبطة التي شاعت في نفوس الألمان كما لاحظت. لقد انفرجت كربتهم لخلاصهم من الحرب. وشمخوا بأنوفهم اعتزازاً وكبرياء لنصر هتلر الخالي من الدماء، لا على چيكوسلوڤاكيا وحدها بل على بريطانيا العظمى وفرنسا. وهم يقولون لك: ان هتلر تمكن في فترة لاتزيد عن ستة أشهر، من الإستيلاء على النمسا وارض السوديت فاضاف عشرة ملايين نسمة الى الرايخ الثالث وحصل على مواقع ستراتيجية عظيمة فتحت الطريق أمامه للسيطرة على جنوب شرق أوروپا وتم ذلك دون خسارة ألمانيّ واحد! لقد تنبأ بغريزة من غرائز العبقرية النادرة المثال في تاريخ ألمانيا بضعف الدول الصغرى في أواسط أوروپا، بل تنبأ أيضاً بضعف الديمقراطيتين الغربيتين الجبارتين بريطانيا العظمى وفرنسا فأرغمهما على الخضوع لإرادته. وإخترع ومارس بنجاح منقطع النظير، ستراتيجية وتكتيكاً جديداً (للحرب السياسية) جعلت حرب الجيوش غير ضرورية.

في غضون أربع سنين ونصف سنة لا غير إستطاع هذا الرجل الوضيع الأصل، أن يرفع ألمانيا مجردة من السلاح، مفلسة، تمزقها الفوضى، أضعف دولة كبيرة في أوروپا، الى منزلة أقوى دولة في العالم القديم. ترتجف أمامها كلّ الدول وبضمنها بريطانيا وفرنسا.

* اللگنايت هو الفحم الحجريّ الأسمر.
١٠٩- من يوميات (يودل) في [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٢ ص٣٦٨-الوثائق- ١٧٨٠ PS].

لم تجرأ دول ڤرساي المظفرة على ايقافها في أي خطوةٍ من خطوات هذا الإرتقاء المذهل حتى عندما كانت تملك القوة على ذلك. في الواقع وجدنا بريطانيا وفرنسا في مونيخ التي سجلت أعظم انتصار لها، تخرجان عن طريقهما لتمدا الى ألمانيا يد المساعدة كمن أصابتهما لوثة. وكان ما أصاب هتلر باشد الدهشة (وهو لاشك أصاب أيضاً الجنرال بيك وهاسل وغيرهم من أعضاء حلقة المعارضة الصغيرة) أن أولئك الذين كانت بيدهم مقاليد الحكم في بريطانيا وفرنسا (يسميهم هتلر في مجالسه الخاصة "بالدود الحقير" احتقاراً وإزدراء) لم يدركوا قطّ ما سينجم من عجزهم عن القيام بعمل مضادٍ قويّ في وجه حركات الزعيم النازي العدوانية التي أخذت تتوالى الواحدة إثر الأخرى.

ويبدو أن (ونستن چرچل) هو الوحيد الذي أدرك ذلك في إنگلترا.

لم يشرح أحد آثار تنازل مونيخ شرحاً دقيقاً مثلما جاء في خطبته المؤرخة في ٥ تشرين الأول أمام مجلس العموم.

"لقد مُنينا بهزيمة شنعاء تامة لايمكن التقليل من شأنها... نحن الآن وسط كارثة من الطراز الأول. الطريق الى الدانوب... الطريق الى البحر الأسود... فُتحا... كل الاقطار في وسط Mittel (لفظها بالألمانية) أوروپا وفي حوضي الدانوب الواحدة بعد الأخرى... ستجرّ جراً الى النظام النازي السياسيّ... الذي يشع من برلين... ولاتتوهموا إنها النهاية... انها البداية..."

لكن چرچل لم يكن في الحكم، ولم يقم وزن لكلماته.

هل كان الإستسلام الأنگلو-فرنسي في مونيخ لابدّ منه؟

هل كل هتلر جاداً؟

الجواب المزدوج على هذين السّؤالين كما نعلم اليوم هو (كلاّ). لقد اتفقت كلمة كل الجنرالات المقربين الى هتلر الذين ظلوا احياء بعد الحرب. أن هتلر كان سيهاجم چيكوسلوڤاكيا في (١) تشرين الأول ١٩٣٨ لولا (مونيخ). وافترضوا انه مهما بلغ من تردد لندن وپاريس وموسكو، فإن هذه الدول كانت في النهاية ستدخل الحرب.

وما كان مهمّاً للغاية لهذا التاريخ وفي هذه المرحلة بالذات هو أن هؤلاء القادة متفقون بالإجماع بأن ألمانيا ستخسر حرباً كهذه وفي مدة وجيزة. أما تعليل مشايعي چمبرلين ودالاييه -وكانوا كثيرين- فهو أن (مونيخ) انقذت الغرب من حرب ومن هزيمة حرب معاً. وبهذا حفظت لندن وپاريس من الفناء بقصفٍ مهلك يقوم به سلاح الطيران الألماني. هذه الحجج يدحضها جملة وتفصيلاً أولئك الذين كانوا على إطلاع تام وفي مركز يتوصلون به الى الحقائق كالجنرالات الألمان ولاسيما من كان مقرباً من هتلر وساعده من البداية الى النهاية وبكثير من الحماسة والتعصب.

كان النور الكاشف الطلائعي بين هؤلاء القادة الجنرال كايتل رئيس (ق.ع.ق.م) المتبصبص الذي يكاد لايفارق هتلر. عندما سئل في محاكمة نورمبرگ ماذا كان ردّ فعل (مونيخ) في الجنرالات الألمان اجاب قائلاً:

"كنّا مغتبطين جداً لأن المسألة لم تؤدِّ الى أعمال عسكرية... إذ كان رأينا دائماً أن وسائل هجومنا على الاستحكامات الچيكية في الحدود لم تكن كافية. فمن الناحية العسكرية الصرفة كان يعوزنا وسائل هجومٍ تستخدم لإختراق الإستحكامات على الحدود"(١١٠).

لقد توهم الخبراء العسكريون في الدول الحليفة دائماً، أن الجيش الألماني كان سيجتاح چيكوسلوڤاكيا. إلاّ ان شهادة كايتل بأن القضية لم تكن كذلك يجب أن تضاف الى شهادة الفيلد مارشال (فون مانشتاين) الذي أصبح واحداً من ألمع قادة الميدان الألمان أثناء الحرب. شهد في نورمبرگ (ولم يكن متهماً مثل يودل وكايتل) عندما سئل عن الوضع العسكري الألماني زمن مونيخ فاوضح يقول:

"لونشبت حرب، لما أمكن قطّ الصمود في حببهتينا اليولندية أو الغربية، ولعجزنا عن الدفاع عنهما. ولم يكن هناك شكّ في ان الإستحكامات الچيكية ستوقفنا وتسمرنا لاننا كنا نفتقر الى الأسلحة اللازمة لخرق الجبهة"(١١١).

يودل (دماغ) القيادة العليا المفكر صوّر الأمر عندما وقف في نورمبرگ للدفاع عن نفسه، بمايلي:

"لا مراء في ان وقوف خمس فرق وسبع أخرى احتياطية في إستحكامات الغرب التي هي ليست في الحقيقة أكثر من موقع واسع مبنيّ، بمواجهة مائة فرقة فرنسية هو أمر لا جدوى منه. ان هذا مستحيل عسكرياً"(١١٢).

واذا كان جيش هتلر -كما أقرّ الجنرالات- يفتقر الى أسلحة خرق لإستحكامات الچيك، واذا كان وضع ألمانيا (مستحيلاً عسكرياً) في الغرب أمام قوات عسكرية متفوقة، وأكثر من كل هذا، اذا كان يوجد كما رأينا انشقاق خطير في الرأي بين القادة، بحيث تهيأ رئيس الأركان العامة لإزاحة هتلر في سبيل إجتناب حرب خاسرة. إذن لماذا كانت هيئتا أركان القوات البريطانية والفرنسية تجهلان تلك الحقائق؟ وان جهلتاها فكيف أقدم رئيسا حكومتي بريطانيا وفرنسا على تضحية هذا الكثير من مصالح بلديهما الحيوية في مونيخ؟ في محاولتنا الجواب على أمثال هذه الاسئلة، نواجه سراً مغلقاً من اسرار أيام (مونيخ) لم يمط اللثام عنه بعد. حتى چرچل نفسه الكثير الإهتمام بطبيعته بالمسائل العسكرية لم يتصدّ لهذه النقطة في مذكراته الضخمة.

مما يمكن إدراكه أن هيئتي الأركان البريطانية والفرنسية وحكومتيهما لم تكن على علم بمعارضة

١١٠- شهادة كايتل في ٤ نيسان ١٩٤٦ [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج١٠ ص٥٠٩].

١١١- حتى هتلر نفسه، اقتنع بعض الشيء على الأقل بهذه الحقيقة بعد أن فتش خطّ حصون الچيك. واخبر بعدئذ الدكتور كارل بركهاردت Carl Burchardt المندوب فوق العادة لعصبة الأمم في الدانزگ. "عندما تمكنا بعد مونيخ من فحص القوة العسكرية الچيكية في الداخل اقلقنا ما رايناه. كنا سنقع في خطرٍ جدي. إن الخطة التي رسمها الجنرالات الچيك كانت عظيمة وقد أدركت الآن لماذا كان جنرالاتي يلحون في التريث [برتياكس: حفارو قبو فرنسا ص:٥]

١١٢- شهادة يودل ٤ حزيران ١٩٤٦ [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج٢٠ ص٥٠٩].

هيئة الأركان الألمانية القيام بحرب أوروبيّة. ذلك لأن المؤتمرين في برلين انذروا البريطانيين بذلك عن طريق أربعة مصادر على الأقل في شهري آب وأيلول كما رأينا. حتى وصلت الأنباء الى چمبرلين نفسه. لاشك أن پاريس ولندن علمتا في أوائل أيلول بإستقالة الجنرال (بيك) وبالآثار التي خلفتها في الجيش معارضة ألمع قائد وأشهر جنرال فيه.

كان الإعتقاد العام في برلين تلك الأيام أن الإستخبارات الفرنسية والبريطانية جيدة الى حدٍّ ما. ومن الصعب جداً الإعتقاد أن القادة العسكريّن في لندن وپاريس لايعرفون شيئاً عن جوانب ضعف الجيش الألماني وسلاحه الجوّي، وعجزهما عن مواصلة الحرب على جبهتين. أي شكّ ساور الجنرال (گاملان) رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي رغم حذره الغريزي الذي أصبح مضرب المثل في أنه لايتمكن بمائة فرقة تقريباً من اكتساح الفرق العاملة الخمسة والفرق الإحتياطية السبعة الألمانية في الغرب والتوغل بيسر وسرعة في قلب ألمانيا؟

يذكر گاملان فيما بعد[١١٣] أنه شخصياً وعلى وجه العموم لم يكن يشكّ كثيراً في هذه النتيجة. ففي اليوم الثاني عشر من أيلول، اليوم الذي كان هتلر يبرق ويرعد مرسلاً تهديده ضدّ چيكوسلوڤاكيا في ختام إجتماع الحزب بنورمبرگ اكد الجنرال الأكبر للرئيس دالادييه أن "الشعوب الديمقراطية ستملي شروط الصلح إملاءً" في حالة نشوب حربٍ ويقول أيضاً انه دعم تأكيده هذا بتقرير يوضح فيه أسباب تفاؤله وفي ٢٦ أيلول عند بلوغ الأزمة الچيكية ذروتها على أثر إجتماع (گودسبرگ). كررّ (گاملان) الذي كان برفقة زعماء الحكومة الفرنسية الى لندن - تأكيداته الأولى لچمبرلين وحاول ترسيخها بتحليل للموقف العسكريّ وكان يرمي بها تقوية معنوية رئيس الوزارة البريطاني ورئيس حكومته المتردد أيضاً، ولكنه فشل في محاولته كما هو ظاهر. أخيراً، وقبل أن يطير دالادييه الى مونيخ رسم له (گاملان) أقصى حدّ يمكن التنازل فيه من أرض السوديت، بحيث لايعرّض أمن فرنسا الى الخطر. وشددّ عليه بأن لايعطي ألمانيا إستحكامات الچيكيين الرئيسة. فضلاً عن السكك الحديد الرئيسة وخطوط فرعية ستراتيجية معينة، ومناطق مصانع الأسلحة الكبرى وزاد يقول: ان أخطر شيء هو أن يعطى الألمان فرصة قطع (الفتحة المراڤية). انها لنصيحة ثمينة إن بقيت چيكوسلوڤاكيا مفيدة لفرنسا في حرب مع ألمانيا لكن (دالادييه) لم يكن بالرجل الذي يقدم على ذلك كما تبيّن.

قيل الكثير -زمن مونيخ- عن أسباب إستسلام چمبرلين وهو خوفه من ان تمحى لندن من وجه الأرض بقصف جوي ألماني. وليس ثم شك في أن الفزع كان يقبض نفوس الفرنسيين بإحتمال تدمير مدينتهم الجميلة پاريس من الجوّ، ولكن ما علم الآن عن حالة سلاح الجو الألماني ومدى قوته، لم يكن يستدعي من اللندنيين والپاريسيين هذا القلق، ولا من رئيس الوزارتين هذا الخوف. كانت القوة الجوية الألمانية، كالجيش الألماني قد حشدت كلها ضد چيكوسلوڤاكيا. ولذلك كانت كالجيش، أعجز عن

١١٣- گاملان: "Servir" الص ٣٤٤-٣٤٦ وهو كتاب غث خائب. پرتيناكس "حفارو قبو فرنسا" ص٣. يؤيد الجنرال في هذا. وهذه هي ايضاً مصادر نصيحة گاملان في ٢٦ أيلول و٢٨ أيلول.

القيام بعمل فعّال في الغرب. حتى لو أمكن الإستغناء عن عدد قليل من القاذفات الألمانية وتوجيهها لقصف لندن وباريس، فمما يشك فيه كثيراً إمكان وصولها الى أهدافها. فالألمان لم يكونوا قادرين على حماية قاذفاتهم بالطائرات المقاتلة لأنهم يشكون عين الضعف الذي يشكوه البريطانيون والفرنسيون. ولو ملكوا الطائرات المقاتلة فإن قواعدها بعيدة لاتؤمن الحماية المنشودة.

وقيل أيضاً -وهذا ماظل ينادي به السفيران فرانسوا بونسيه وهندرسن- أن (مونيخ). منحت الديمقراطيات الغربية فترة سنة كاملة تقريباً للحاق بالألمان في ميدان التسلح. إن الحقائق تدحض هذه الإفتراضات دحضاً شنيعاً. كتب چرچل ورأيه مدعم بأرزن آراء المؤرخين العسكريين من الحلفاء "إن السنة التي قيل أنها كانت مجال تنفس، وغُنمت بمؤتمر مونيخ، خلّفت بريطانيا وفرنسا في حالة أسوء مما كانتا عليه أيام أزمة مونيخ"(١١٤).

وسنرى أن كلّ الحسابات العسكرية الألمانية بعد سنة واحدة من هذا التاريخ كانت تدور حول تأكيد هذه النقطة. والحوادث التي تلت محت أيّ شكّ في هذه الحقيقة مهما كان.

وبالرجوع الى الوراء، مستخدمين ما زودتنا الوثائق الألمانية السرّية به من معلومات، وشهادات الألمان أنفسهم في محاكمات ما بعد الحرب. يمكننا التوصل الى الأمور التالية التي كان يتعذر الوصول اليها في أيام مونيخ: لم تكن ألمانيا في وضع يسمح لها بإثارة حرب في (١) تشرين الأول ١٩٣٨ ضدّ چيكوسلوڤاكيا وفرنسا وبريطانيا دعك من روسيا. ولو أقدمت على ذلك لسُحقت وهُزمت بسرعة ولكان في ذلك نهاية هتلر والرايخ الثالث. لو تمّ إجتناب حرب في آخر لحظة، بتدخل الجيش الألماني، فعلى أغلب الإحتمال كان سيُقضى على هتلر، بمجهود هالدر وفيتزليبن وشركائهما، بتنفيذ خطتهم في توقيفه حال إعطائه الأمر النهائي بالهجوم على چيكوسلوڤاكيا.

وضع هتلر نفسه في مركز حرج للغاية عندما فخر علناً بأنه سيتوغل في أرض السوديت يوم (١) تشرين الأول (مهما كانت النتائج) وبهذا وجد نفسه في موقف يتعذر التراجع منه كما تكهن به الجنرال (بيك). فلو حاول بعد كل تهديداته وتصريحاته المطّردة الشدة، إن ينكص على رجليه ويديه زحفاً الى الوراء، أو أن ينسحب من الزنقة التي وضع نفسه فيها، فلن يبقى في الحكم طويلاً نظراً لطبيعة الدكتاتورية وبخاصة دكتاتوريته. وسيكون من الصعب جداً عليه أن يتراجع إن لم نقل مستحيل. ولو حاول فعلاً فخسارته في هيبته ومقامه في أوروپا وفي ألمانيا عند شعبه وبالأخص عند الجنرالات ستختم على مصيره على أرجح الإحتمالات.

إن إصرار چمبرلين العنيد المتعصّب على إعطاء هتلر كل ما أراد ورحلاته إلى برختسگادن وگودسبرگ وأخيراً رحلته المشؤومة الى (مونيخ) أنقذت هتلر من مأزق وقوّت مركزه في أوروپا وألمانيا والجيش بشكل فاق كل ما يسمو اليه الخيال قبلها بأسابيع قلائل. كذلك زادت من هيبة الرايخ الثالث بما لايحدّ بإزاء الديمقراطيات الغربية والإتحاد السوفييتي.

١١٤- چرچل "تجمع العاصفة" ص٣٣٩.

كانت (مونيخ) كارثة لفرنسا. ولايفهم قطّ كيف ظلّت هذه الحقيقة غامضة على المسؤولين في باريس. لقد قضي قضاءً مبرماً على مركز فرنسا العسكريّ في أوروپا. لأن جيشها في حالة تعبئة عامة ألمانية لن يزيد كثيراً عن نصف الجيش الألماني وسكان الرايخ يبلغون ضعف سكان فرنسا تقريباً كذلك مقدرتها على إنتاج الأسلحة فإنه يقل عن ألمانيا. لقد عانت فرنسا جهداً كبيراً في بناء أحلافها مع الدول الصغرى في الشرق. على الجهة الأخرى من ألمانيا وإيطاليا. كچيكوسلوڤاكيا وپولندا ويوگوسلاڤيا ورومانيا، فإذا جمعت قواها كانت وحدة عسكرية يخشى جانبها. إن خمساً وثلاثين فرقة على الأقل من الجيش الچيكي المدرب خير تدريب والمسلّح خير تسليح التي كانت صامدة خلف إستحكاماتها الجبلية المنيعة شاغلةً قوة ألمانية. تزيد عليها عدداً، أصبحت قوة لاتنفع ولايعتدّ بها بالنسبة الى الجيش الفرنسيّ. لكن ليس هذا كل شيء، فبعد كارثة (مونيخ) كم سيبقى لحلفاء فرنسا الباقين في شرق أوروپا من ثقة في وعود فرنسا المكتوبة على الورق؟ الجواب تجده في وارشو وبخارست وبلغراد: لم يبق كثير من الثقة. وظهر إندفاع في هذه العواصم لعقد خير صفقات ممكنة مع الفاتح النازي - قبل فوات الوقت.

وان لم يكن في الإتحاد السوڤياتي إندفاعٌ فهناك حركة ويقظة، فمع أنه كان حليفاً عسكرياً لكلّ من فرنسا وچيكوسلوڤاكيا. فإن الحكومة الفرنسية وافقت ألمانيا وبريطانيا دون إحتجاج - على استبعادها من مؤتمر مونيخ. لقد كان تجاهلاً وترفعاً لم ينسه (ستالين) قط، قدر له أن يكلّف الديمقراطيتين الغربيتين ثمناً غالياً في الأشهر التالية. ففي الثالث من تشرين الأول أي بعد مونيخ بأربعة أيام كتب فيرنر فون تبلسكيرك Verner Von Tipplskirck مستشار السفارة الألمانية بموسكو الى برلين عن (آثار) مونيخ في السياسة السوڤيتية. مرجحاً أن ستالين "سيتعظ بذلك" وكان متأكداً أن الإتحاد السوڤياتي سوف يعيد النظر في سياسته الخارجية ويصبح أقل ميلاً الى حليفته فرنسا و"أكثر ايجابية" تجاه ألمانيا. والواقع ان الدبلوماسيّ الألماني كان يرى "أن الظروف الحاليّة ذات فرص مواتية لعقد إتفاق إقتصادي جديد أوسع مع الإتحاد السوڤياتي"(١١٥).

كان هذا اولّ تنويه وجدته في الوثائق السرية الألمانية عن تبدل مسرى الريح التي بدأت الآن تتحرك على بطئها، فوق كل من برلين وموسكو حتى قُدر لها خلال سنة واحدة أن تخلق آثاراً بعيدة المدى.

كان هتلر - رغم نصره المذهل والإذلال الذي ألحقه لا بچيكوسلوڤاكيا وحدها بل بالديمقراطيات الغربيّة - يرى (مونيخ) خيبة له. فلقد سمعه شاخت يقول للملتفين حوله من الحرس الأسود عند عودته الى برلين "هذا الرجل [يعني چمبرلين] أفسد عليَّ دخولي الى پراغ!"(١١٦)

كان هذا ما أراده فعلاً وطول الوقت كما دأب على قوله لجنرالاته منذ المحاضرة التي ألقاها عليهم في الخامس من تشرين الثاني قبل عام واحد فقد أوضح حينذاك أن الإستيلاء على النمسا

١١٥- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص ٦٠٢-٦٠٤.
١١٦- شاخت "في شهادته بنورمبرگ [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج١٢ ص٥٦١].

وچيكوسلوڤاكيا سيكون الخطوة الأولى الى الإندفاع نحو (المجال الحيوي) في الشرق وتصفية الحساب مع فرنسا في الغرب عسكرياً. وكما أسرّ لرئيس الوزراء المجري في ٢٠ أيلول أن خير الأمور هو "القضاء على چيكوسلوڤاكيا" فهذا من شأنه "ان يكون الحل المرضي الوحيد". ولم يكن خائفاً إلاّ من أمرٍ واحدٍ: ان يستجيب الچيك لكل مايطلب (انظر ما سبق).

أقبل چمبرلين الى (مونيخ) قابضاً على شمسيّته المشهورة جداً، وأرغم الچيك على الإستجابة لكلّ ما طلب وبهذا حرمه من الفتح العسكري. وهذا ما كان يعذب هتلر ويمضّه كما دلّت المدوّنات. وقد صارح قادته بعد زمن "كان واضحاً لديَّ من الدقيقة الأولى أني لن اكتفي بارض السوديت الألمان. كان ذلك حلاً جزئياً ليس غير"(١١٧). وبعد بضعة أيام من (مونيخ) باشر الدكتاتور الألماني في إعمال خططه لتحقيق الحلّ التام.

١١٧- خطبة في القوّاد العامين ٢٣ تشرين الثاني ١٩٣٩ [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٣ ص٥٧٣- الوثيقة PS٦٨٩].

الفصل الخامس

چيكوسلوڤاكيا تقضي نحبها

-١-

لم تمرّ عشرة أيام من وضع أدولف هتلر توقيعه على إتفاقية (مونيخ)، وقبل تمام الإحتلال العسكري السلمي لأرض السوديت، خطّ رسالة مستعجلة سريّة جداً للجنرال كايتل رئيس (ق.ع.ق.م):

١- ماذا يحتاج من التعزيزات العسكريّة في الموقف الراهن لسحق كل مقاومة چيكية في بوهيميا وموراڤيا؟

٢- كم يتطلب من الزمن لإعادة تجميع ثم سوق قوات جديدة؟

٣- كم يتطلب من الزمن - للغرض نفسه إذا ما تمّ تنفيذه بعد التسريح المعنويّ، والإجراءات المضادة؟

٤- كم يتطلب من الزمن لانجاز حالة الإستعداد التي كنّا عليها في يوم (١) تشرين الأول؟[١]

فأجاب (كايتل) على إستخبارات (الزعيم) ببرقية مؤرخة في ١١ تشرين الأول تتضمن أجوبة تفصيلية: لن يتطلب كثير من الزمن أو مقدار كبير من التعزيزات. فالموجود حالياً (٢٤) فرقة بضمنها ثلاث فرق مصفحة وأربع فرق آلية في أرض السوديت. واضاف كايتل "إن (ق.ع.ق.م) تعتقد أن بإمكانها القيام بالعمليات دون اللجوء الى تعزيزات نظراً الى علائم الضعف الحالية في المقاومة الچيكية"[٢]. وبعد ان تأكد هتلر من ذلك، أبلغ أفكاره هذه إلى قواده العامين بعد عشرة أيام.

برلين ٢١ تشرين الأول ١٩٣٨

(سرّيّ للغاية)

إن المهام المستقبلة للقوات المسلّحة، والإستعدادات للدخول في حرب تنجم عن هذه المهّام سوف ابسطها انا بالذات في أمر توجيهيّ آخر:

والى أن تنفذ مطالب هذا الأمر يجب على القوات المسلحة أن تكون متأهبة في كلّ وقت للإحتمالات الفجائية التالية:

١- ملف "الخضراء" المبرز رقم٤٨ [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٣ الص ٣٧٢-٣٧٤ - الوثائق ٣٨٨ PS].
٢- المرجع نفسه.

اولاً: حماية حدود ألمانيا.
ثانياً: تصفية ما تبقى من بلاد چيكوسلوڤاكيا.
ثالثاً: إحتلال منطقة (ممل Memel)

(ممل) هي مرفأ على البلطيق يقطنه أربعون ألفاً من الأنفس فقدته ألمانيا وضم الى (ليتوانيا) بعد ڤرساي. وما دامت ليتوانيا أصغر وأضعف من النمسا وچيكوسلوڤاكيا فإن الإستيلاء على البلدة لن يقوم صحوبة في وجه (الڤيرماخت). وقد ذكر هتلر في أمره أنها ستضمّ ليس إلاّ، كما هو الأمر مع چيكوسلوڤاكيا: يجب ان يكون بالإستطاعة إخضاع ماتبقى من چيكوسلوڤاكيا في أي وقت إن باتت سياستها معادية لألمانيا".

إن الإستعدادات التي تتخذها القوات المسلحة لهذا الإحتمال ستكون أضيق نطاقاً بكثيرٍ مما أتخذ (للخضراء)، على انها يجب أن تضمن تأهباً أعلى وأدقّ على كل حال، بعد أن تم التخليّ عن التعبئة المخططة. إن التنظيم وأمر المعركة، وحالة التأهب الخاصّة بالوحدات المعدّة لتلك الغاية يجب أن توضع في حالة السلم على قدم الإستعداد للقيام بهجوم مباغت بحيث تشلّ چيكوسلوڤاكيا وتجردها من قابليّة المقاومة المنظمة تماماً. الهدف هو إحتلال سريع (لبوهيميا وموراڤيا) وقطع سلوڤاكيا[٣] عنها.

يمكن قطع سلوڤاكيا طبعاً بالوسائل السياسيّة. بحيث لاتعود حاجة الى إستخدام القطعات العسكرية الألمانية ولأجل هذه الغاية صدر الأمر الى وزارة الخارجية بالعمل لهذه الغاية. فراح ريبنتروب ومساعدوه طوال الأيام الأولى من تشرين الأول يضغطون على المجريين للإلحاح بطلب حصتهم من الأسلاب في سلوڤاكيا لكن عندما اخذت الحكومة المجريّة تتكلم عن الإستيلاء على سلوڤاكيا كلّها (لم تكن بحاجة الى إلحاح الألمان عليها فقد تحلّب فمها وسال لعاب طمعها الشديد) وقف فلهلمشتراسه حائلاً بينها وبين هذا. لأن لديه رأياً آخر في مستقبل هذا الأقليم. سبقت حكومة پراغ بعد (مونيخ) بقليل فمنحت السلوڤاكيين حكما ذاتياً واسع النطاق. ونصحت وزارة الخارجية الألمانية أن "يُتسامح" في هذا الحلّ مؤقتاً. اما للمستقبل فقد كانت فكرة الألمان هي تلك التي أجملها الدكتور (ارنست ڤويرمانErnst Woermann) مدير الدائرة السياسية في وزارة الخارجية الألمانية إذ كتب يقول: في ٧ تشرين الأول: "ان سلوڤاكيا المستقلّة، قد تكون دولة ضعيفة من الناحية الدستورية ولذلك كان من الأفضل أن تكفى منها حاجة ألمانيا للتوسع والإستقرار في الشرق"[٤].

هاهنا نقطة تحول جديدة للرايخ الثالث. فللمرة الأولى نرى هتلر يهمّ بالإنطلاق الى إحتلال أراضٍ غير ألمانية. لقد ظل أكثر من ستة أسابيع يؤكد لچمبرلين سراً وعلناً أن أرض السوديت هي آخر مطلب أقليمي له في أوروپا ومع أن رئيس الوزراء البريطاني كان قد خُدع بسذاجةٍ يحار المرء في فهمها ووثق بكلمة هتلر حالاً. إلاّ أن هناك بعض الأسباب قد تحمله على الإعتقاد أن الدكتاتور

٣- أمر هتلر التوجيهي المؤرخ ٢١ تشرين ١٩٣٨[مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٤ الص ٩٤٧-٩٤٨ - الوثائق C١٣٦].
٤- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص٤٦.

النازي سيقف بعد هضمه الألمان الذين كانوا خارج حدود الرايخ في الماضي وأصبحوا الآن داخله. ألم يبد هتلر ويعيد بأنه لايريد چيكياً واحداً في الرايخ الثالث؟ ألم يشرح في (كفاحي) ويردد شرحه في عدد كبير من خطبه تلك النظرية النازية: أن النقاء العنصري هو عامل القوّة الأوحد ولذلك يجب ألا يضم شعب اجنبيّ الى الألمان ولاسيّما الشعوب السلافية؟ أجل لقد أكد ذلك. لكنه بشَّر ايضاً في عدد كبير من صحائف كفاحي -ولعل أهل لندن نسوا ذلك- بأن مستقبل ألمانيا يتوقف على إحتلال "المجال الحيويّ = ليتبرزاوم" في الشرق وهي الرقعة من الأرض التي عاش فيها السلاڤ أكثر من ألف سنة.

-٢-

أسبوع الزجاج المحطم

في خريف ١٩٣٨ بلغت ألمانيا النازية نقطة تحول أخرى وحدث ذلك في غضون الفترة التي أطلق عليها في أوساط الصحافة أسبوع الزجاج المحطّم.

في السابع من تشرين الثاني أطلق شاب ألماني يهودي لاجيء يبلغ السابعة عشرة ويدعى هرشل غراينشبان Herchel Grynspan النار على السكرتير الثالث للسفارة الألمانية بپاريس في دائرته فأرداه قتيلاً. كان والد القاتل أحد الآلاف العشرة من اليهود الذي طُردوا الى پولندا منذ فترة وجيزة، ونقلوا بلوريّات حمل كتلاً كتلاً. فإنتقاماً من هذا وللإضطهاد العام الذي شنّ في ألمانيا النازية ضد أبناء جلدته، قصد السفارة الألمانية عازماً على قتل السفير الكونت يوهانس فون فلچيك Johannes von Welczeck، لكن السكرتير الثالث الفتي (ارنست فون راث Ernest von Rath) إستقبله للاستفسار عمّا يريد، فأرداه قتيلاً. ولعب القدر لعبته في مقتل (راث) لأن هذا الفتى كان ممن يشتبه بهم الگشتاپو وقد وضعه تحت المراقبة بسبب معاداته للنازية. كما وثمّ حقيقة لايرقى اليها أي شك، وهو انه لم يسهم مطلقاً في أعمال الاضطهاد الساميّ الذي مارسه حكام بلاده.

في ليلة ٩/ ١٠ من تشرين الثاني، وبُعيد ان ختم زعماء النازي برآسة هتلر وگورنگ الاحتفال بالذكرى السنوية لإنقلاب مشرب البيرة في مونيخ. مثلت على مرسح الرايخ الثالث افظع مذبحة شهدتها البلاد حتى ذلك التاريخ. وزعم الدكتور گوبلز ومعه الصحافة الألمانية الخاضعة لرقابته أنها كانت (تظاهرة تلقائية عبرت عن رد فعل الشعب الألماني المستاء لأنباء الإغتيال في پاريس) الاّ ان الوثائق التي انكشفت لنا بعد الحرب اوضحت لنا كم كانت تلك (التظاهرة) تلقائية! وكم كانت المذبحة التي تلتها عفوية[٥] تلكم الوثائق كانت من أدعى الأوراق السرية للعهد النازي قبل الحرب

٥- أوامر (هيدريخ) الى الشرطة لتنظيم المذبحة [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٥ الص ٧٩٨-٨٠١، وثيقة ٣٠٥١ PS] تقرير هيدريخ المرفوع الى گورنگ عن الأضرار وعدد القتلى والجرحى [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٥ ص٨٥٤ =

خزياً يتضح من التقرير السرّي الذي دوّنه قاضي الحزب (الرائد فالتر بوخ) أن الدكتور گوبلز أصدر في مساء اليوم التاسع من تشرين الثاني تعليمات عن وجوب "تنظيم وخروج"، "مظاهرات عفوية" في ساعات الليل. إلا ان المنظم الحقيقي هو (راينهاردت هيدريخ) المكروه البالغ (٣٤) سنة من العمر، والذي يلي (هملر) مباشرة في قيادة الحرس الأسود، ويتزعم شرطة الأمن والگشتاپو. وان أوامره الحرفية بالتلفون البرقي في أثناء ساعات الليل كانت من بين الوثائق الألمانية المستولى عليها.

في الساعة الواحدة والدقيقة العشرين بعد نصف الليل وهو العاشر من تشرين الثاني طيّر هيدريخ رسالة برقية عاجلة الى كل مقرات ومخافر شرطة الدولة في سائر أنحاء ألمانيا مدناً وقرى والى شرطة الأمن يأمرهم فيها أن يتعاونوا تعاوناً وثيقاً مع زعماء الحزب وقادة الحرس الأسود. "للمداولة في تنظيم المظاهرات".

(أ) يجب أن تتخذ الإحتياطات الخاصّة بحماية حياة الألمان وممتلكاتهم فقط وان تكون خارج نطاق الخطر (فمثلاً تحرق كنائس اليهود عندما لايكون ثم خطر من انتشار النار إلى المحلات المجاورة)[٦].

(ب) يسمح بتدمير مساكن اليهود ودوائر أعمالهم، لكن يمنع السلّب والنهب...

(ج)... ٢- إن التظاهرات التي ستقام يجب أن تتركها الشرطة ولاتتعرض لها...

٥- لما كان سيجري إعتقال عدد كبير من اليهود وبخاصّة أغنياؤهم بحيث لاتتسع السجون الحالية لهم... فيجب الإتصال حالاً بمعسكرات الإعتقال الميسورة فور إعتقالهم، لإرسالهم اليها حال ماتسمح الظروف وبأسرع مايمكن.

كان ليلاً مرعباً لكلّ ألمانيا. أحرقت فيه معابد اليهود ومنازلهم وحوانيتهم والتهمتها النار وقتل رمياً بالرصاص عدد كبير منهم رجالاً ونساءً وأطفالاً، أو ذبحوا ذبحاً أثناء محاولتهم الخلاص من النار وهم أحياء. وقدّم (هيدريخ) تقريراً أوليّاً سرّياً الى گورنگ في اليوم التالي ١١ تشرين الثاني.

"إن مقدار التدمير الذي حصل لمنازل اليهود وحوانيتهم لايمكن الآن حصره بالأرقام... (١٧١) منزلاً للسكنى تمّ إحراقه أو تدميره، و(٨١٥) دكاناً لقيت دماراً كاملاً، وهو جزءٌ فقط يعطي فكرة عن الدمار الحاصل، وهذا بالنسبة الى إحراق المساكن فقط... (١١٩) معبداً اشعلت فيها النار... و(٧٦) معبداً آخر دمرّت تدميراً كاملاً... ألقي القبض على (٢٠٠٠٠) يهودي، وهناك إخبار عن ستة وثلاثين قتيلاً. والذين اصيبوا بجراح خطيرة بلغ عددهم ستة وثلاثين أيضاً. والقتلى والجرحي، هم يهود..."

= وثيقة PS ٣٠٥٨ تقرير (ڤالتر بوخ) عن المجزرة [مؤامرة النازيين... ج٥ الص ٨٦٨-٨٧٦] يورد الرائد بوخ تفاصيل بشعة عن القتول الكثيرة ويلوم گوبلز لمواصلة إرتكاب الجرائم: سجلّ إختزالي عن إجتماع گورنگ (١٢ تشرين الثاني) بأعضاء الحكومة وموظفيها الكبار وممثلي شركات التأمين [مؤامرة النازيين... ج٤ الص ٤٢٥-٤٥٧] إن التقرير غير كامل على أن البقية تتألف من عشرة آلاف كلمة.

٦- القوسان وردا في الأصيل.

ويعتقد أن عدد قتلى اليهود في تلك الليلة يزيد أضعافاً مضاعفة عن الأرقام الأولية. (فهيدريخ) نفسه أعلن بعد تقريره السالف بيوم واحد أن عدد الحوانيت اليهودية المنهوبة بلغ سبعة آلاف وخمسمائة. وكان ثمة عدد من حالات هتك العرض. إعتبرها تقرير قاضي الحزب (ڤالتر بوخ) أشدّ من القتل وأنكى، لأنها خرق لقوانين نورمبرگ العنصرية التي تمنع الإتصال الجنسيّ بين السّادة واليهود. هؤلاء المجرمون طُردوا من الحزب وأُحيلوا الى المحاكم المدنية. وذكر (الرائد بوخ) أن أعضاء الحزب الذي قاموا بأعمال القتل (لايمكن محاسبتهم) لأنهم نفذوا الأوامر ليس إلاّ. وكان في هذه النقطة صريحاً للغاية: إذ كتب يقول "تدرك جماهير الشعب الى آخر رجل، ان الإندفاعات السياسية التي حصلت في التاسع من تشرين الثاني. انما نظمها الحزب ووجهها بنفسه سواء أنكرنا أم إعترفنا(٧)".

لم يكن القتل والحرق والسلب، الكوارث الوحيدة التي حلت باليهود الأبرياء الألمان، بسبب مقتل (فون راث) في پاريس، فقد وجب عليهم أن يدفعوا أيضاً ثمن تدمير ممتلكاتهم نفسها، وبناءً على ذلك صادرت الدولة مبالغ التأمين المستحقة لهم على الممتلكات المدمّرة. كما أنهم أجبروا على دفع غرامة قدرها (بليون مارك!) "عقوبة لهم على جرائمهم الشنعاء الخ..." كما قال گورنگ. وتم فرض هذه العقوبات التبعيّة في أغرب إجتماع عقده بضعة عشر وزيراً في الحكومة وموظفاً كبيراً، برآسة الفيلد مارشال البدين في ١٢ تشرين الثاني. وقد وصلنا جزء من محضر هذا الإجتماع مدوّناً بطريقة الإختزال.

وواجه عدد من شركات التأمين الألمانية الإفلاس. في حالة قيامهم بدفع مبالغ بوليصات التأمين المستحقة على البنايات المتقوّضة والمحترقة (وأغلبها ملك حلال للسادة الألمان وإن كان يشغلها اليهود) والبضائع التي دمرت أو تلفت. لقد بلغ مجموع التعويضات الكليّة عن زجاج النوافذ وحده، خمسة ملايين مارك (مليون وربع مليون دولار)، كما قال هر هيلگارد Hilgard ممثل شركات التأمين لگورنگ عندما أنتدب لمراجعة السلطات، وزاد على ذلك بقوله أن معظم قطع الزجاج التي يجب التعويض بمثلها، هي بضاعة أجنبية ينبغي إستيرادها من الخارج بالعملة الصعبة التي لاتملك ألمانيا منها إلاّ النزر اليسير.

فصرخ گورنگ غاضباً: (لايغيب عن الذهن أنه كان قيصر الإقتصاد الألماني الى جانب أمور أخرى):

– لايمكن أن يستمر في هذا! لن تبقى لنا ريح إن ظلت الأمور سائرة بهذا الشكل! مستحيل!

٧- يقدم تقرير(الرائد بوخ) صورة صادقة للعدالة في الرايخ الثالث فقد جاء فيه: "في القضايا التالية الخاصة بقتل اليهود. اوقفت التعقيبات القانونية بحق المتهمين أو فرض عليهم عقاب خفيف"، ثم يثبت عدداً كبيراً من أمثال هذه "القضايا" يذكر فيها أسماء القتلى والقتلة "عضوا الحزب فرولينك Fruelling وأوگست August بسبب قتلهما "گولدبرگ Goldberg الزوجين. وبسبب قتلهما اليهودي سيناسون Sinashn... أعضاء الحزب بيرنگ Behring وويلي Willi وهايكة Heike ويوزف Josef لقتلهما اليهودي روزنهايم Rosenheim واليهودية زفنيسكي Zwienicki أعضاء الحزب شميدت وهيندريخ وارنست ومكلر Meckler لإغراقهم اليهودي إلسوفر Ilsoffer الخ..."

ثم التفت الى (هيدريخ) وصرخ:

- وددتُ لو قتلتَ مائتي يهودي بدلاً من إتلاف هذه الأشياء الثمينة(٨).

أجاب هيدريخ مدافعاً عن نفسه "القتلى خمسة وثلاثون".

لم يكن كل الحديث الذي إحتواه التقرير الإختزالي الناقص (ذو العشرة آلاف كلمة) جدّي اللهجة. فقد إستمتع گورنگ وگوبلز بمزاحٍ كثيرٍ حين كانا يتبادلان الرأي في إخضاع اليهود الى إضطهادات أخرى. قال وزير الدعاية بضرورة إستخدام اليهود لتسوية معابدهم بالأرض ورفع الأنقاض عن المواقع، لجعلها ساحات لوقوف السيارات وأمر ان يطرد اليهود من كل مؤسسةٍ: من المدارس، والمسارح والسينمات، والمصايف العامة والحدائق العامة، حتى من الغابات الألمانية.

واقترح أن تُبنى عربات قطار خاصّة لليهود بممراتٍ خاصّة على أن لايشغلوها إلاّ بعد أن يجد كلّ المسافرين الآريين مقاعد لهم.

فضحك گورنگ وقال:

- طيب، واذا كان القطار مكتظاً، فسنركل اليهودي الى الخارج وندعه يجلس وحيداً في ممر دورة المياه.

وعندما اقترح گوبلز بكلّ جد أن يحظر على اليهود غشيان الغابات أجاب (گورنگ):

- سنخصص لليهود أجزاء معينة من الغابات وعلينا أن نهتم بإدخال أنواع معينة من الحيوانات التي تشبههم –وللوعل أنف مقوّس شبيه بأنوفهم– ليصحبوا متآخين.

بأمثال هذه الأحاديث وأنكى منها بكثير كان قادة الرايخ الثالث يمضون أوقاتهم في ١٩٣٨ العصيبة.

إلاّ أن مسألة من سيدفع تعويضاً عن الممتلكات المخرّبة البالغة (٢٥) مليون مارك والتي تسببت عن مجزرة أمرت بها ونظمتها الدولة كانت مسألة خطيرة، وبخاصّة لگورنگ المسؤول عن سلامة إقتصاد ألمانيا النازية. أشار (هيلگارد) ممثلاً عن شركات التأمين– بأن عدم إيفاء الشركات ببوليصات التأمين لليهود ستهوي بالثقة العامة في التأمين الألماني الى الحضيض في الداخل وفي الخارج. ومن الجهة الثانية، فهو لايدري كيف ستتمكن شركات التأمين الصغيرة من الدفع دون أن تفلس.

قام (گورنگ) بحلّ المشكلة حلاً سريعاً. ستقوم الشركات بدفع بوليصاتها لليهود بالتمام والكمال لكن الدولة ستصادر المبالغ المدفوعة ثم تعوّض الشركات عن خسائرها. إلا أن ذلك لم يقنع السيّد (هيلگارد) الذي ظهر من وقائع الحديث أنه كان يشعر شعور الذي وقع على عصبة من المجانين.

گورنگ: سيتسلمّ اليهود مبالغ التأمين من الشركات، الاّ انها ستصادر. وسيبقى شيء من الفائدة

٨- عندما سأل القاضي جاكسن في نورمبرگ، گورنگ أثناء إستجوابه هل قال هذا حقاً؟ أجاب "اجل قلت هذا في حالة هياج عصبي وثورة سخط ولم أكن أعنيها جدياً" [محاكمات مجرمي الحرب الكبار] ج٩ ص٥٣٨.

لتلك الشركات لأنها لن تعوّض عن كل الأضرار. هر هيلگارد!، يجب أن تعّد نفسك سعيد الخطّ جداً.

هيلكارد: ليس من سبب يجعلني سعيد الخطّ. فالواقع إنك تعتبر عدم دفعنا تعويضاً عن كل الأضرار! فائدةً لنا

لم يعتد الفيلد مارشال مثل هذا القول، فبادر بإخماد أنفاس رجل الأعمال الحائر.

گورنگ: لحظة واحدة! إن كنت ملزماً قانوناً بدفع خمسة ملايين، وعلى حين غرّة يظهر لك مَلاكٌ شبيه نوعاً ما بشكلي هذا البدين ويقول لك احتفظ لنفسك بمليون في سبيل الله، أفلا تعتبر ذلك فائدة؟ كنت أودّ لو تناصفنا خمسين بالمائة لي وخمسين بالمائة لك! أو ما يحلو لك أن تسميّه. حسبي أن انظر اليك لأرى كيانك كلّه يهتزّ فرحاً وإرتياحاً. إنك فزت بغنيمة طيبة!

كان مدير التأمين بطيئاً في فهم الحلّ.

هيلگارد: سيكون كل شركات التأمين الطرف الخاسر. تلك هي الحقيقة. وستظلّ كذلك. وليس ثم من يقنعني بخلاف ذلك.

گورنگ: إذن لماذا لم تحتاطوا لذلك حتى يقلّ عدد النوافذ المهشمّة!

ضاق الفيلد مارشال ذرعاً بهذا الرجل ذي العقلية التجارية فصرفه، واختفى السيد هيلگارد في زوايا التاريخ ولم يعد له أثر.

وإجترأ ممثل لوزارة الخارجية أن يقترح لزوم مراعاة شعور الرأي العام الأمريكي عند إتخاذ إجراءات لاساميّة أخرى مماثلة[٩]. فأثار هذا عاصفة هياج لدى گورنگ فصاح: "قبّحها الله! بلاد الأنذال... دولة رجال العصابات!".

وبعد نقاش طويل آخر أتفق أن يتمّ حلّ المشكلة اليهودية بالشكل التالي: نقل مكليات اليهود كلها ومصالحهم التجارية برمتها، وبضمنها الجواهر والحلي والتحف الفنية - الى أيدٍ آرية، وتعويضهم عنها جزئياً بسندات حكوميّة إسميّة غير قابلة للتداول أو البيع، يمكنهم التصرف بفائدتها دون قيمتها الكلية. وترك للجنة خاصة تشكّل فيما بعد، دراسة مسألة عزل اليهود ومنعهم من دخول المدارس والمصايف والحدائق العامة والغابات الخ... والبحث في إتخاذ أحد حلين: إما طردهم خارج البلاد بعد تجريدهم التام من ممتلكاتهم أو حصرهم في أحياء حقيرة خاصة (گيتو Ghettos) حيث

٩- بعد مقابلة السفير في برلين هيو ويلسن Hugh Wilson ، لگورنگ بيومين، إستدعاه الرئيس روزفلت في ١٤ تشرين الثاني "لإجراء مشاورات" ولم يعُد بعدها الى منصبه. وكتب السفير الألماني في واشنطن (هانس ديكهوف) الى برلين في ذلك اليوم نفسه "إن اعصاراً شديداً قد ثار هنا" نتيجة للمذبحة في ألمانيا"، وقد استدعي ايضاً في اليوم نفسه ولم يعُد بعدها أيضاً، وفي تشرين الثاني. نصح القائم بالأعمال الألماني في واشنطن حكومته برسالة جفرية "انه بالنظر الى العلاقات المتوترة وعجزنا عن ضمان حفظ المواد السرية في السفارة، فهو يرى أن تنقل الأضابير السرية الى برلين" وقال "إن الأضابير ضخمة ومقدارها كبير وليس في الإمكان إتلافها بسرعةٍ كافية اذا اقتضت الحاجة." [وثائق من سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص ٦٣٩-٦٤٩".

يصبحون مصدراً لعمل السخرة.

وصوّر (هيدريخ) المسألة قبيل ارفضاض الإجتماع: "رغم إقصاء اليهود عن الحياة الإقتصادية فقد بقيت المشكلة كما هي وحلّها الوحيد هو إخراج اليهود من ألمانيا"، فما كان من الكونت (شڤيرين فون كروسيك) وزير المال والباحث الرودسي Rhodis السابق الذي يفخر بأنه يمثل "ألمانيا الطاهرة التقليدية". في الحكومة النازية، ان وافقه بقوله "علينا ان نفعل كلّ شيء لدفع اليهود الى البلاد الأخرى" وأما عن الحيّ الخاصّ فقد قال هذا النبيل الألماني بخنوع (لاأتصور مشروع الحي الخاص شيئاً لطيفاً جداً. إن فكرة الحيّ الخاص ليست مقبولة ذوقاً".

وفي الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين عصراً ختم گورنگ الإجتماع بعد إنعقاد دام زهاء أربع ساعات: سأختم الإجتماع بهذه الكلمات: إن اليهود الألمان سيكتتبون بمبلغ بليون مارك عقاباً لهم على جرائمهم الشنعاء وغير ذلك. وهو أنجع دواء. ولن يرتكب (الخنزير) بعد هذا أي جريمة قتل. وأنتهز الفرصة للقول بأني لاأرغب أن أكون يهوديّاً في ألمانيا".

وكان ما سيصب هذا الرجل ودولته وزعيمها في المستقبل القريب على رؤوس اليهود أدهى وأمرّ. في ليلة التاسع من تشرين الثاني ١٩٣٨، الملتهبة بالنيران أدار الرايخ الثالث وجهه عمداً وإنعطف الى درب بربريّ مظلم لا رجوع عنه قطّ. قتل كثيرٌ من اليهود وعذّبوا وسرقوا من قبل، إلا ان تلك الحوادث -عدا ما أرتكب منها في معسكرات الإعتقال- كانت فردية معظمها من عمل أوباش ذوي القمصان الرمادية دفعتهم اليها ساديّتهم وإيغالهم في الإجرام المتأصل في حين بقيت سلطات الدولة تتفرج أو تغضّ الطرف عنها. أما الآن فالحكومة الألمانية هي التي نظمت المجرزة الواسعة واشرفت على تنفيذها. ان القتل والنهب وحرق المعابد والدور والحوانيت في تلك الليلة كان من عملها. كذلك جاءت البيانات الرسمية الثلاثة المنشورة في الجريدة الرسمية Reichsgesetzblatt -نتيجة إجتماع گورنگ- بفرض (بليون مارك) غرامةً على المجتمع اليهودي. بإقصائهم عن عالم الإقتصاد. سلبهم ما تبقى من مقتناهم ودفعهم الى الأحياء الحقيرة الخاصة- بل الى ما هو أسوأ.

ثار ضمير العالم وإشمأز من هذه البربرية في بلاد فخرت قروناً ما أطولها بالثقافة المسيحية والإنسانية وثارت ثائرة هتلر للموقف العالمي واقنع نفسه إن ذلك لايبرهن إلاّ على مدى قوة "المؤامرة اليهودية العالمية".

وبالرجوع الى الوراء يسهل علينا أن نرى أن الفظائع التي أرتكبت بحقّ يهود ألمانيا في ٩ تشرين الثاني والإجراءات الوحشية البربرية التي اتخذت ضدهم مباشرةً بعد المجزرة. انما كانت نذير شؤم وعلامة ضعف قتّالة أدّت بالدكتاتور ونظامه وشعبه الى الدمار التام بالأخير. إن الادّلة على جنون هتلر تبرز بين مئات من صفحات هذا التاريخ إلاّ أنه كان حتى هذا اليوم قادراً على كبح نوباته عادةً في المواقف الحرجة من فترة صعود نجمه وإرتفاع حظ بلاده. في مثل هذه المواقف، كانت عبقريته في الإقدام على العمل الجريء بعد حساب دقيق للنتائج عادةً، قد أنالته نجاحاً هائلاً إثر نجاح هائل لكنه

الآن كما تبيّن من التاسع من تشرين الثاني وما تلاه من أحداث بدأ يفقد ضبط النفس وتغلّبت عليه لوثته. في التقرير الإختزالي عن إجتماع (گورنگ) في ١٢ تشرين الثاني يكشف أن هتلر كان المرجع الأخير المسؤول عن محرقة ليلة تشرين. فهو الذي صادق على تنفيذها، وما كانت ستجري لولا موافقته، وهو الذي ألحّ على (گورنگ) بالمضيّ قدماً في تطهير الحياة الألمانية من اليهود. من هذا التاريخ فصاعداً لن يعود يبدو على سيد الرايخ الثالث إلاّ القليل من ضبط النفس الذي طالما أنقذه من مآزق في الماضي. ومع أن عبقريته... وعبقرية بلاده كانت ستؤدي به الى فتوحات أخرى مذهلة فإن البذور السامة لتدمير النفس الأخير بذرت الآن لتقضي فيما بعد على الدكتاتور وعلى بلاده.

كان مرض هتلر معدياً. وقد راحت عدواه تسري في الوطن كأنها جرثومة داء. والمؤلف يشهد شخصياً من تجاربه الخاصة أن عدداً كبيراً من الألمان لم يقل سخطهم وإستنكارهم لفاجعة ٩ تشرين عن إخوانهم الأمريكيين والإنگليز والأجانب الآخرين. ولم يفتح أحد فمه محتجاً بصورة علنية لا رؤساء الكنائس المسيحية المختلفة، ولا الجنرالات ولا ايّ (معبّر) عن وجهة نظر الألمان الطيبين. لقد انحنوا لما نعته الجنرال فون فريتش "بالقدر المحتوم" أو "مصير ألمانيا".

وسرعان ما تكهرب جوّ "مونيخ" وتشقق. إذ راح هتلر ينشر خطباً حادة لاذعة في (سار بروكن وڤايمر ومونيخ) في ذلك الخريف ينذر بها العالم الخارجي وبخاصّة الإنگليز، بألاّ يتدخلوا في شؤون غيرهم ويقصروا إهتمامهم في أمورهم الخاصّة. ويتركوا التدخل في "مصائر الألمان، داخل حدود الرايخ". وزعق بأعلى صوته إن هذا المصير هو من شأن ألمانيا وحدها. ولم يمر بچمبرلين زمن طويل ليصحو على حقيقة الطينة التي جبلت بها الحكومة الألمانية بعد أن حاول ما حاول في ترضيتها وبذل في ذلك ما بذل. وفيم كانت السنة ١٩٣٨ الخاملة تخلي السبيل للسنة ١٩٣٩ المشؤومة بدأ رئيس الوزراء يتفهم ماذا يدبّر هتلر وراء الستار[١٠]، بعد أن حاول جاهداً وبصورة شخصيّة إرضاءه لمصلحة السلم الأوروپي.

لم يمرّ زمن طويل على (مونيخ) إلاّ وكان ريبنتروب في (روما). وقد ذكر (تشيانو) في يومياته المؤرخة في ٢٨ تشرين الأول[١١]، أن فكره قد "إستقرّ" على الحرب: [أبلغ وزير الخارجية موسوليني وتشيانو]، إن الزعيم مقتنع بألاّ مفر لنا من الإعتماد على الحرب ضدّ الديمقراطيات الغربية في غضون ثلاث سنوات أو أربع على أغلب الإحتمال... إن الأزمة الچيكية أظهرت مدى قوّتنا! إننا نمتاز عليها بالمبادأة ونحن سادة الموقف. ولايمكن أن نتعرض لهجوم قطّ. والموقف العسكري ممتاز: حيث أننا نتمكن إبتداءً بأيلول [١٩٣٩] من مواجهة أي حرب مع الديمقراطيات الكبرى[١٢]."

١٠- حذر اللورد هاليفاكس الرئيس زوزفلت سراً في ٢٨ كانون الثاني ١٩٣٩ بقوله: "منذ تشرين الثاني ١٩٣٨ والدلائل تشير الى أن هتلر يخطط لعدوان آخر في ربيع ١٩٣٩، وإن هذه الدلائل تتضح تدريجياً". واضاف يقول "ان التقارير تشير ايضاً إلى أن هتلر بتشجيع من ريبنتروب وهملر وآخرين يفكر في هجومٍ على دول الغرب، كعمل مبدئي، يتلوه عمل آخر في الشرق. (و.س،ب،خ) السلسلة الثالثة ج٤ رقم ٥).

١١- يوميات تشيانو المخفية: الجزء المؤرخ ٢٨ تشرين الأول ص١٨٥. أوراق تشيانو الدبلوماسية الص ٢٤٢-٢٤٦.

١٢- هناك نص ألماني لمباحثات ريبنتروب-تشيانو في روما دوّنها شميدت، تؤيد إتجاه ريبنتروب الى الحرب. وتورد =

كان ريبنتروب "متعجرفاً، سخيفاً، ثرثاراً" بنظر وزير الخارجية الإيطالي الشاب. وبعد وصفه في يومياته بهذا، أضاف يقول: "يقول الدوتشي ما عليك إلاّ أن تلقي نظرةً على رأسه لترى أنه صغير الدماغ". جاء وزير الخارجية الألماني الى روما ليقنع موسوليني بتوقيع حلف عسكري ثلاثيّ بين ألمانيا وإيطاليا واليابان. وكان الطليان قد زودوا بمسودة له في مونيخ. إلاّ أن موسوليني إستمهل، لأنه لم يكن مستعداً بعد لإغلاق الباب على فرنسا وبريطانيا - كما ذكر (تشيانو).

وكان هتلر طوال ذلك الخريف يقلّب الفكر في أمل محاولة فصل فرنسا عن حليفتها عبر القنال. وعندما إستقبل في ١٨ تشرين الأول السفير فرانسوا پونسيه بزيارة وداعية في مقره الخلوي "عش النسّر" على خانق الجبل فوق برختسگادن[١٣]. طفق يهاجم بريطانيا العظمى هجوماً عنيفاً. ووجده السفير شاحب الوجه تعلوه الغضون من فرط الإرهاق، إلا أنه لم يكن مكدوداً الى الحدّ الذي يمنعه من شتم (ألبيون). ان بريطانيا تتجاوب بأصداء "التهديد والدعوة الى السلاّح" إنها أنانية "تتخذ مظهر المتعالي". إن بريطانيا هي التي تقضي على روح (مونيخ)، وما الى ذلك... أما فرنسا فتختلف عنها، وهو يرغب في تقوية عرى الصداقة والعلاقات الوديّة معها. وإثباتاً لنيّته هذه يعرب الآن عن إستعداده لتوقيع معاهدة صداقة تضمن لها حدودها الحالية. (وبهذا يؤكد ثانية تخلّي ألمانيا عن كلّ مطلب في الألزاس واللورين) واللجوء الى تسوية أي خلافات مقبلة بالتشاور.

ولم يطل الأمر وابرمت المعاهدة في پاريس في ٦ كانون الأول ١٩٣٨. من قبل وزيري خارجية ألمانيا وفرنسا. في تلك الفترة كانت قد صحت بعض الشيء من الخوف الإندحاري الذي سادها أيام (مونيخ). وإتفق أن كان المؤلف في پاريس عندما وقّعت الوثيقة ولاحظ الجوّ الصقيعيّ الذي خيّم على مختلف الأوساط. وعندما إجتاز بريبنتروب بسيارته، كانت الشوارع خاليةً تماماً. ورفض حضور المراسيم الرسميّة وحفلات الإستقبال التي اقيمت للزائر النازي، عددٌ من أعضاء الوزارة وآخرون من أبرز الشخصيات في عالمي السياسية والأدب الفرنسيَيْن ومنهم رئيسا مجلسي النواب والشيوخ الشخصيتان الشهيرتان: مسيو جانيني Jeanneney ومسيو هريو Herriot.

من هذا الإجتماع بين (بونيه وريبنتروب) نجم سوء تفاهم قدّر له دورٌ خاصّ في الأحداث المقبلة. إدعى الوزير الألماني أن (بونيه) أكد له ان فرنسا ما عادت تهتمّ- بعد مونيخ- بشرق أوروپا. فترجم

= عبارة قالها "ان على ألمانيا وإيطاليا ان تتهيأ للحرب مع الديمقراطيات الغربية... بين ساعة وساعة" وقال لتشيانو ايضاً ان مونيخ كشفت عن قوة أنصار العزلة في الولايات المتحدة" لذلك ليس ثَمّ ما يخشى من أمريكا (وثائق سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص ٥١٥-٥٢٠).

١٣- هذا المقر الخلوي العجيب كلّف مبالغ ضخمة وبني في ثلاث سنين وهو صعب المرتقى. لقد شق له طريق في صخور الجبال طوله عشرة أميال، طرق شديدة الإنحدار مخيفة، تنتهي بنفق تحت الأرض نقر في الصخر نقراً. وبعد إجتيازه يؤخذ القادم الى مصعد كهربائي بارتفاع (٣٧٠ قدماً) حتى يصل إلى مسكن بني في قمة الجبل. والمرء يشاهد منه منظراً يأسر الألباب حقاً. فجبل الألب وسالزبرگ تبدو منه على مبعدة. وصفه فرانسوا پونسيه فيما بعد وتساءل "هل كان هذا المنسك من عمل بشر سوّي العقل أو لشخص يعذبه الجنون وتطارده رؤى السلطة، والوحدة؟

هذا بما معناه أن فرنسا ستطلق يد ألمانيا حرة في تلك الأصقاع ولاسيما فيما فضُل من چيكوسلوڤاكيا وفي پولندا. وأنكر (بونيه) ذلك. وبالرجوع الى ما سجله شميدت في الإجتماع: صرح (بونيه) جواباً على طلب ريبنتروب في أن يعترف بمجال نفوذ ألماني في الشرق. بأن "الأحوال قد تغيرت تغيراً أساسياً منذ (مونيخ)"(١٤).

هذه الملاحظة الغامضة مطّها الوزير المرواغ مطاً فجعلها بياناً ذا مدلول واضح أبلغه لهتلر بالشكل التالي: "في پاريس صرح (بونيه) انه ما عاد مهتماً في المسائل المتعلقة بالشرق". إن إستسلام فرنسا السريع في (مونيخ) أقنع هتلر بهذا بينما لم يكن الأمر كذلك.

-٣-

سلوڤاكيا "تنال" "إستقلالها"!

ماذا تمّ من الضمانة التي تعهد هتلر في (مونيخ) بإعطائها للبقية الباقية من چيكوسلوڤاكيا؟ عندما إستفسر (روبرت كولوندر Robert Coulondre) السفير الفرنسي الجديد في برلين من (ڤايسيكر) في ٢١ كانون الثاني، أجابه أن مصير چيكوسلوڤاكيا أصبح بيديّ ألمانيا. وانه يرفض فكرة ضمانة أنگلو-فرنسيّة. وقبلها في ١٤ تشرين الثاني جاء وزير الخارجية الچيكي الجديد (فرانتيشيك شفالكوفسكي Frantisek Chvalkovsky) يستجدي بذلّة بعض الفتات من يد هتلر في مونيخ، واستفسر عما اذا كانت ألمانيا ستنضم الى فرنسا وإنگلترا في الضمانة التي ستعطى لحدود بلاده المنكمشة، فأجابه هتلر متهكماً ان "الضمان الأنگلو-فرنسي لايسوي شروى نقير... وأن الضمان الفعالّ الوحيد هو الضمان الألماني"(١٥).

ومع هذا، أقبل عام ١٩٣٩ ولم تعط ألمانيا الضمان. والسبب بسيط، إن (الزعيم) لاينوي إعطاءه لأن ضماناً كهذا يعرقل خططه التي بدأ برسمها حال إنتهائه (من مونيخ). فعمّا قريب لن يكون لچيكوسلوڤاكيا وجود أصلاً ليتم ضمانها، وكبداية لهذا يجب حمل سلوڤاكيا على الإنفصال.

بعد مونيخ ببضعة أيام استقبل گورنگ في ١٧ تشرين الأول الزعيمين السلوڤاكيين فرديناند دوركانسكي Ferdinand Durckansky و(ماش Mach) وزعيم الأقلية الألمانية في سلوڤاكيا (فرانز كارماشين Franz Karmasin) الذي كان نائب رئيس وزارة سلوڤاكيا ذات الحكم الذاتي الجديدة. وأكدوا للفيلد مارشال بأن مايطمح اليه السلوڤاك في الحقيقة هو "الإستقلال التام مع روابط متينة جداً، إقتصادية وسياسية وعسكرية مع ألمانيا". وفي مذكرة سرية بالتاريخ نفسه في وزارة الخارجية الألمانية

١٤- شميدت المرجع السالف ص١١٨. رؤوس أقلامه عن الإجتماع في وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ ص٤٧١.
١٥- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص ٦٩-٧٢.

ما يشير الى ان (گورنگ) قرر أن من الضروري دعم طلب إستقلال سلوڤاكيا "ان دولة چيكية ناقصةً سلوڤاكيا ستكون تحت رحمتنا أكثر من قبل وبصورة تامّة. وقاعدة جويّة في سلوڤاكيا للعمليات في الشرق، هو شيء جدّ مهمّ". تلك كانت آراء گورنگ في القضية في متنصّف تشرين الأول[١٦].

علينا هنا أن نتتبع خيطين مزدوجين في الخطة الألمانية: فصل سلوڤاكيا عن پراغ، والتهيؤ لإبتلاع ما تبقى من الدولة بالإحتلال العسكري للأراضي الچيكية: بوهيميا ومورافيا. رأينا أن هتلر أمر (الڤيرماخت) في ٢١ تشرين الأول ١٩٣٨ أن يكون مستعداً للقيام بتلك التصفية[١٧]. وفي ١٧ كانون الاول أصدر الجنرال كايتل ما أطلق عليه (ملحق بالأمر التوجيهي المؤرخ في ٢١ تشرين الأول):

-سرّي جداً-

إلحاقاً بـ"تصفية ما تبقّى من الدولة الچيكية" أصدر الزعيم الأوامر التالية:

- تهيّأ العملية على إفتراض عدم قيام مقاومة تذكر.

- للعالم الخارجي يجب أن تبدو وبشكل واضح، عملاً سلميّاً محضاً ليس فيه أي صفة حربيّة.

لذلك يجب أن تقوم بالعملية القوات المسلحة الموجودة زمن السلّم (فقط). دون تعزيز يجري لها عن طريق النفير[١٨].

راحت الحكومة الجديدة الچيكوسلوڤاكية الموالية الألمان التي تحاول جاهدة إرضاء هتلر تدرك في بداية ١٩٣٩ أن اوزّة البلاد قد طبخت. وقبل عيد الميلاد قامت الحكومة الچيكية زيادةً في خطب ودّه بحلّ الحزب الشيوعي وفصل جميع المعلمين اليهود من المدارس الألمانية. وفي ١٢ كانون الثاني بعث وزير الخارجية (شفالكوفسكي) برسالة الى وزارة الخارجية الألمانية يؤكد فيها ان "حكومته ستعمل جاهدةً على إثبات ولائها وحسن نيتها. بتحقيق أبعد رغبات ألمانيا" وفي اليوم ذاته نوّه للقائم بالأعمال الألماني في پراغ بالإشاعات المتزايدة "حول قرب دمج چيكوسلوڤاكيا بالرايخ[١٩]".

ولكي يتأكد (شفالكوفسكي) من إمكان إنقاذ هذه الأجزاء أقنع هتلر بان يقابله في برلين في ٢١ كانون الثاني. فكان مشهداً أليماً يرثى له، لكنه لا شيء اذا قورن بالذي حلّ بالشعب الچيكي بعده بقليل. راح وزير الخارجية الچيكي يتذلل متمسحاً بأذيال الدكتاتور الألماني الطاغية الذي كان يعاني نوبة من نوبات هياجه العاصف. وقال هتلر إن چيكوسلوڤاكيا "سلمت من الكارثة بإعتدال ألمانيا" ومع هذا فإن لم يظهر الچيك روحاً جديدة فسوف "يمحقهم محقاً". عليهم أن ينسوا "تاريخهم" الذي كان "عبث اطفال المدرسة". وأن يفعلوا ما يريده الألمان. ففي هذا وحده نجاتهم. وبعبارة صريحة على

١٦- المرجع السالف الص ٨٢-٨٣.

١٧- في ٢٤ تشرين الثاني أصدر هتلر أمراً توجيهياً سرياً آخر، يطلب فيه من (الڤيرماخت) أن يكون على تمام الأهبة ليحتل الدانزگ إحتلالاً عسكرياً وأن ذلك سيتم فيما بعد. لقد كان الزعيم يفكر بهذا الموضوع قبل الإستيلاء النهائيّ على چيكوسلوڤاكيا.

١٨- المرجع السالف الص ١٨٥-١٨٦، كذلك [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٤ الص ٩٥٠-٩٥١، الوثائقC١٣٨].

١٩-تقرير القائم بالأعمال، وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص ١٨٨-١٨٩.

چيكوسلوڤاكيا أن تخرج من عصبة الأمم وأن تخفض حجم جيشها الى أدنى حدّ "لأنه ليس ذا قيمة باي حال" وان تنضم الى ميثاق مكافحة الكومنترن. وتقبل ان تدير ألمانيا سياستها الخارجية وان تكون الأفضلية التجارية لألمانيا عند عقد معاهدات إقتصادية ومن شروطها ان لاتقوم اية صناعة چيكية الاّ بموافقة ألمانيا[٢٠]. وان تستغني عن خدمات كل الموظفين والصحفيين المعادين للرايخ وأخيراً ان تجرد اليهود من الشخصية القانونية كما فعلت ألمانيا بموجب قوانين نورمبرگ (قال هتلر لزائره: "عندنا سيقضى على اليهود قضاءً تاماً") وفي اليوم نفسه أُثقِل كاهلُ (شفالكوفسكي) بأعباء أخرى، هذه المرة جاءت من ريبنتروب الذي "هدد بسوء العقبى" إن لم يصلح الچيك أساليبهم ويفعلوا ما يؤمرون به وطلب وزير الخارجية الألماني منه ألاّ يذكر الطلبات الألمانية الجديدة، وحسبه ان يعود الى بلاده ويقوم بتنفيذها[٢١]، ولم يكن ذلك من ريبنتروب بمستغرب فبقدر ما هو ذليل خانع أمام هتلر تجده صلفاً فظاً غطريساً إزاء أي شخص أقل منه نفوذاً ومنزلة.

جرى ذلك كلّه دونما إكتراث بمسألة أي ضمانة ألمانية للحدود الچيكوسلوڤاكية! ويظهر أن لندن وپاريس لم تقلقا كثيراً حول هذه المسألة. ها قد مرّت أشهر أربعة على (مونيخ) ولم يبرّ هتلر بعهده في اضافة اسم ألمانيا الى اسمي الضامنتين بريطانيا وفرنسا. وأخيراً في ٨ شباط قدمت مذكرة شفوية Note Verbale أنگلو فرنسية الى حكومة برلين جاء فيها أن الحكومتين "سيسرهما ان تعلما وجهة نظر الحكومة الألمانية حول الوسيلة المثلى للإيفاء بالتعهد الذي تم الإتفاق عليه في مونيخ بخصوص ضمانة چيكوسلوڤاكيا"[٢٢].

قام هتلر بنفسه بكتابه مسودة الرد - كما اثبتت الوثائق الألمانية المستولى عليها من وزارة الخارجية الألمانية، ولم يقدم إلاّ في ٢٨ شباط. وقد ورد فيه ان الوقت لم يحن بعد لاعطاء الضمانة الألمانية إذ يجب على ألمانيا ان "تنتظر أولاً انجلاء معالم التطورات الداخلية في چيكوسلوڤاكيا"[٢٣].

وأسرع هتلر لصياغة تلك "التطورات الداخلية" وتوجيهها الى غاية واضحة. فاستقبل في ١٢ شباط الدكتور (فوچيك توكا) احد زعماء السلوڤاك المملوء حقداً على الچيك لسنوات الحبس الطوال (انظر ص٤٨٧) ورجا من الدكتاتور الألماني (وكان يناديه بيا زعيمي كما كشفته مذكرة سرية ألمانية

٢٠- كذلك طلب هتلر أن يسلم البنك الوطني الچيكوسلوڤاكي جزءً من إحتياطي الذهب الى بنك الرايخ. وكان المبلغ المطلوب ٣٩١,٢ مليون كروان چيكي ذهباً. وفي ١٨ شباط كتب گورنگ لوزارة الخارجية :"نظراً لتفاقم الصعوبات في تأمين نقد يتحتم عليّ ان اطلب بكل إلحاح أن يوضع تحت تصرفنا حالاً مبلغ يتراوح بين ٣٠-٤٠ مليون مارك ألماني ذهباً [من البنك الوطني الچيكي] فنحن في أمسّ الحاجة اليها لتنفيذ مطالب هامة جداً صادرة من الزعيم مباشرة [وثائق من سياسة بريطانيا الخارجية ج٤ ص٢١٥].

٢١- وقائع إجتماعي شفالكوفسكي مع كل من هتلر وريبنتروب بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩٣٩ [وثائق عن سياسة بريطانيا الخارجية ج٤ الص ١٩٠-٢٠٢] تقرير شفالكوفسكي الى حكومته في ٢٣ كانون الثاني، سجلات الحكومة الچيكية أوردها (هوبلر بينيت) في [مونيخ] الص ٣١٦-٣١٧. انظر الكتاب الفرنسي الأصفر الص ٥٥-٥٦.

٢٢- النص في وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص ٢٠٧- ٢٠٨.

٢٣- النص في المرجع السالف، الص ٢١٨- ٢٢٠.

سجل فيها محضر الإجتماع) أن يحرّر سلوڤاكيا ويمحنها الإستقلال وقال "إني أضع مصير شعبي بين يديك يازعيمي وان وطني ينتظر منك التحرير الناجز الكامل."

فكان جواب هتلر مشوباً ببعض الغموض. قال أنه لم يتفهم لسوء الحظ مشكلة السلوڤاك. ولو علم انهم يتوقون الى الإستقلال لكان رتب ذلك في مونيخ "وسيكون مدعاة لإرتياحه ان يرى سلوڤاكيا مستقلّة... وبإمكانه أن يضمن دولة سلوڤاكية ذات سيادة في أي وقت... من هذا اليوم..." كانت هذه عبارات مريحة للاستاذ (توكا)[٢٤] ووصفها بأنها "أعظم أقوال سمعتها في حياتي".

في وسعنا الآن أن نزيح الستار عن الفصل الثاني من مأساة الچيكو-سلوڤاك. ومن سخريات القدر وألاعيبه الغريبة التي يحفل بها تاريخنا هذا وقوع الإختيار على الچيك لرفع الستار قبل أوانه بقليل. فقد وجدوا أنفسهم في بداية آذار ١٩٣٩ في ورطة أليمة إذ أن الحركتين الانفصاليتين في سلوڤاكيا وروثينيا وصلتا مرحلة الإنفجار. وقد رأينا انهما كانتا من تحريض الحكومة الألمانية. على ان المجر ساهمت بقسطٍ في تحريض روثينيا لانها كانت تطمع بهما. فإن لم تعمل الحكومة الچيكية على وأد الفتنتين في المهد تمزقت چيكوسلوڤاكيا وزالت، وسيحتل هتلر پراغ على وجه التأكيد. ولن يختلف الأمر أيضاً إن تمّ لها سحق الحركتين لأن هتلر سينتهز الفرصة الناجمة عن الفوضى والبلبلة ويزحف على العاصمة!

بعد كثير من التردد والإحجام اختارت الحكومة الچيكية الحل الثاني وبعد أن تعذر إحتمال الإستفزاز. قام الدكتور هاشا رئيس الجمهورية باقصاء مجلس وزراء روثينيا ذات الحكم الذاتي في ٦ آذار. وأشفعه في ليلة ٩/١٠ بعزل مجلس وزراء سلوڤاكيا ذات الحكم الذاتي، وفي اليوم التالي اصدر أمراً بالقبض على المونسنيور تيسو Tiso رئيس الوزراء السلوڤاكي. وعلى الدكتور (توكا) و(دوركانسكي) وأعلن الاحكام العرفية في سلوڤاكيا. وكان العمل الجريء الوحيد للحكومة التي صارت خادمة طائعة لبرلين سرعان ما انقلب سبباً للقضاء عليها.

هذا العمل السريع الذي اقدمت عليه حكومة پراغ المتصدعة أخذ برلين على حين غرة. كان (گورنگ) قد رحل الى (سان ريمو) المشمسة لقضاء عطلته. وهتلر يستعد للسفر الى ڤيينّا بمناسبة الذكرى السنوية الأولى للوحدة. لكن سيّد المفاجآت راح يعمل بسرعة وقرر في ١١ آذار الاستيلاء على بوهيميا وموراڤيا بإنذار. وفي اليوم نفسه قام الجنرال كايتل بإيعاز من هتلر بتنظيم النص وارسل الى وزارة الخارجية الألمانية. وقد طلب فيه من الچيك أن يخضعوا للإحتلال العسكري دون مقاومة[٢٥]. وكان في وقتها "من أشد الأوامر العسكرية سرّية".

حان الآن وقت تحرير هتلر (السلوڤاكيا). وعينت حكومة پراغ (كارول سيدور Karol Sidor) الذي كان يمثل سلوڤاكيا ذات الحكم الذاتي في العاصمة، رئيساً جديداً للوزارة بدل (القس تيسو)، فسافر

٢٤- محاضر الإجتماع: المرجع السالف ٢٠٩-٢١٣.
٢٥- النص. المرجع السالف ٢٣٤-٢٣٥.

الى براتيسلافا Bratislava حاضرة سلوڤاكيا في ١١ آذار الموافق نهار السبت وعقد إجتماعاً للوزارة الجديدة. وفي الساعة العاشرة مساءً قطعت جلسة لها بزيارة غريبة غير متوقعة. دخل عليهم (سييس إنكوارت) حاكم النمسا النازي الكويزلنگي* يصحبه (يوزف بوركل Jozef Buerckel) گولايتر النازي في النمسا، وخمسة جنرالات. اندفعوا داخل غرفة الإجتماع وطلبوا من أعضاء الوزارة إعلان إستقلال سلوڤاكيا حالاً، وان لم يفعلوا فان هتلر الذي قرر تسوية مسألة سلوڤاكيا بشكل نهائي فوريّ سوف لايهتم بمصير سلوڤاكيا[٢٦].

فطلب (سيدور) مهلة، وكان من معارضي قطع كل الصلات بالچيك لكن (القس تيسو) وكان قد هرب من الدير الذي اعتقل فيه، طلب في اليوم التالي عقد إجتماع وزراي وإن كان الآن خارج الحكومة. ولأجل أن يعيق (سيدور) تدخلاً آخر يحتمل أن يقوم به الموظفون الألمان الكبار والجنرالات عقد إجتماعه الوزراي في بيته. وعندما أصبح المحل غير مأمون (لأن جنود العاصفة الألمان كانوا يحتلون المدينة) انتقل بالإجتماع الى مكتب جريدة محليّة. وهناك أبلغه (تيسو) أنه تسلّم برقية من (بركل) يدعوه الى مقابلة (الزعيم) فوراً في برلين وقد هدد (بركل) في حالة رفضه ذلك - بزحف فرقتين ألمانيتين على طول الدانوب تدخل سلوڤاكيا من (براتيسلافا) وتقسم البلاد بين ألمانيا والمجر. ووصل القسّ القصير السمين[٢٧] الى ڤيينا صبيحة اليوم التالي (الإثنين ١٣ آذار) قاصداً مواصلة السفر الى برلين بالقطار، إلاّ انه حشر في طائرة ألمانية وجيء به الى هتلر، إذ لم يكن (للزعيم) وقت يضيعه.

عندما وصل (تيسو ودوركانسكي) الى دار المستشارية في برلين، في الساعة السابعة والدقيقة الأربعين من مساء ١٣ آذار، وجدا هتلر يحفّ به ريبنتروب وكبيرا جنرالاته (براوختش) قائد الجيش العام وكايتل رئيس (ق.ع.ق.م) كذلك وجدا (الزعيم) في حالته النفسيّة المألوفة (وربما لم يلاحظا ذلك). والفضل يعود حقاً للوقائع السرية المضبوطة التي مكنتنا من النفوذ الى اعماق عقل هذا الدكتاتور الألماني الشاذّ وهو يفسح المجال لثورة جنونية خاطفة، ومراقبة لسانه ينسج أكاذيبه الغريبة وينطق بتهديداته المريعة التي كان يعلم جيداً انها لن تصل الى الخارج ويعلم بها الناس[٢٨].

قال: "چيكوسلوڤاكيا مدينة لألمانيا وحدها ببقائها وعدم تجزئتها". وان الرايخ أبدى "أعظم ضبط

* ڤيدكون كويزلينگ ١٨٨٧-١٩٤٥ الفاشيستيّ النرويجيّ الذي عاون الألمان على غزو بلاده في ١٩٤٠ وكما سيأتي بيانه قام هتلر بتعيينه رئيس وزراء فيها وأعدم فيما بعد. وأصبح إسمه عنواناً للخيانة.

٢٦- اعتمدت من رواية السفير البريطاني في پراغ. [مؤامرة النازين وعدوانهم- الوثائق D٥٧١].

٢٧- كان القس (تيسو) كما يذكره المؤلف - يبلغ طوله بقدر عرضه. وكان أكولاً نهماً. قال يوماً للدكتور شميدت "عندما يرهقني العمل. آكل نصف پاوند من لحم الخزير فيزول عني الإنهاك وارتاح". وكان مصيره الموت شنقاً. ألقى الجيش الأمريكاني القبض عليه في ٨ حزيران ١٩٤٥ وسلّم الى حكومة چيكوسلوڤاكيا الجديدة وحكم عليه بالموت في ١٥ نيسان ١٩٤٧ بعد محاكمة دامت أربعة أشهر. واعدم الحياة، في ١٨ نيسان.

٢٨- محضر إجتماع هتلر-تيسو السري وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص٢٤٣-٢٤٥.

لأعصابه" ومع ذلك لم يقدّر الچيك ذلك. وزاد يقول وهو يرفع من هياجه درجةً "إن الحالة لاتطاق الآن. إنها روح (بينيش) القديمة تدبّ فيها الحياة ثانية".

والسلوڤاك خيبوا أمله أيضاً. فبعد مونيخ حلّ الجفاء بينه وبين أصدقائه المجريين لأنه منعهم من الاستحواذ على سلوڤاكيا، لأنه ظن أن سلوڤاكيا تطمح الى الإستقلال.

"انه الآن إستدعى (تيسو) لحلّ هذه القضية في (وقت قصير جداً)... والقضية هي هل تريد سلوڤاكيا أن يكون لها كيان مستقلّ أم لا؟... إن المسألة ليست مسألة أيام بل مسألة ساعات. بل إنّه يقدم ضمانة بإستقلالها... واذا ترددت أو رفضت الانفصال عن پراغ فسيترك مصيرها الى الاحداث التي لن يكون مسؤولاً عنها بعد.

وتكشف الوقائع المدوّنة أن ريبنتروب عند هذه النقطة "سلّم الزعيم تقريراً وصل فوراً يعلن عن تحركات عسكرية مجرية على الحدود السلوڤاكية فتلاه الزعيم واعلم (تيسو) بفحواه واعرب عن أمله في أن تتوصل سلوڤاكيا إلى قرار سريع."

لم يعلن (تيسو) عن قراره حالاً وطلب من الزعيم "أن يقبل اعتذاره إن عجز عن إتخاذ قرار فوري صريح بسبب كلمات هتلر المفاجئة له". ثم اضاف يقول بسرعة "إلاّ أن السلوڤاك سيبرهنون على جدارتهم بالنعم التي يحبوهم بها الزعيم".

ولقد فعلوا ذلك في مؤتمر استمر ساعات متأخرة من الليل في وزارة الخارجية. ويستفاد من إفادة (كپلر) في نورمبرگ وكان هذا جاسوس هتلر في (براتيسلافا) كما كان في (ڤيينا) قبل سنة قبيل الوحدة أن الألمان عاونوا (تيسو) في تدبيج برقية الى هتلر، سيرسلها حال وصوله (براتيسلافا) وإعلان الإستقلال يطلب فيها من (الزعيم) أن يضع الدولة الجديدة تحت حمايته[٢٩].

هذه البرقية شبيهة بأختها التي أملاها (گورنگ) قبل سنة واحدة وفيها يطلب (سييس إنكوارت) من هتلر ارسال الجنود الألمان الى النمسا. في هذا الزمن وصل "تنظيم البرقية" النازية الى حدّ الكمال. فكان في غاية الاختصار، وأرسلها (تيسو) في ١٦آذار، فأجاب هتلر حالاً معرباً عن سروره "إذ يأخذ على عاتقه حماية الدولة السلوڤاكية".

وفي وزارة الخارجية كتب ريبنتروب في تلك الليبة أيضاً مسودة إعلان "إستقلال السلوڤاك" وترجمت الى السلوڤاكية حالاً ليحملها (تيسو) الى براتيسلافا، وهناك قرأها رئيس الوزراء (بعد تحوير طفيف فيها كما ذكر عميل ألماني هناك في تقرير له) أمام البرلمان في اليوم التالي (١٤ آذار الموافق الثلاثاء). وحاول بعض النواب السلوڤاك المناقشة على الأقل، إلاّ أن (كارماسين) زعيم الاقلية الألمانية قطع دابر ذلك بانذراهم أن الجيش الألماني سيحتل البلاد إن تأخر إعلان الإستقلال فاضطر النواب ازاء ذلك الى السكون والإستسلام.

وهكذا ولدت سلوڤاكيا "المستقلة " في ١٤ آذار سنة ١٩٣٩. ومع أن البعثة الدبلوماسية

٢٩- انظر وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ ص ٢٥٠.

ألبريطانية لم تتأخر في إبلاغ لندن بالظروف التي احاطت (بولادتها)، فان چمبرلين كما سنرى - كان أسرع منها بإستخدام "إنفصال" سلوڤاكيا بمثابة عذرٍ لبريطانيا لتقاعسها عن الايفاء بضمانتها لچيكوسلوڤاكيا، بعد قيام هتلر في مساء ذلك اليوم نفسه بانهاء ما لم يتم انهاؤه في مونيخ.

إن حياة الجمهورية الچيكوسلوڤاكية التي خلقها (مازاريك وبينيش) لفظت الآن انفاسها الأخيرة. وعاد زعماء پراغ الحائرين مرة أخرى ليكونوا ألعوبة في يد هتلر عادوا لكتابة المشهد الختامي من مأساة بلادهم. طلب الشيخ الهرم الرئيس هاشا، أن يسمح له بمقابلة مع هتلر[٣٠] فرضي (الزعيم) بطيبة خاطر. فهي تتيح له الفرصة لإعداد المرسح لأوقح دورٍ مثله في حياته السياسية.

ألا تخيّل الإتقان الذي أعدّ به الدكتاتور مرسحه وهو ينتظر مقدم رئيس جمهورية چيكوسلوڤاكيا بعد ظهر يوم ١٤ آذار. إن إعلان إستقلال كل من سلوڤاكيا وروثينيا الذي أبدع في خلقه لم يترك لپراغ غير النواة الچيكية بوهيميا ومورافيا. أولَم تكن چيكوسلوڤاكيا قد قضي عليها فعلاً - بعد أن ضمنت لها فرنسا وبريطانيا حدودها ضدّ العدوان الغاشم؟ إن شريكيه چمبرلين ودالادييه في طبخة (مونيخ) حلاّ نفسيهما من الضمانة التي أصرّا على اعطائها. ولاشك في أنهما سينكلان عن ايفائهما بالعهد - ولقد كان في هذا مصيباً. ولذلك فهو بمنجى عن كل خطر تدخل دوليّ. لكنه رغب زيادةً في التحفّظ في أن تبدو حركته التالية شرعية لا غبار عليها أمام مقاييس قواعد القانون الدولي الغامضة شرعيةٌ على الورق على أقل تقدير. لذلك فهو سيرغم الشيخ الضعيف (هاشا) الذي طلب مقابلته متوسلاً، سيرغمه على قبول ذلك الحلّ الذي أراد فرضه بإستخدام القوة العسكرية. ولمّا كان دون إراقة دماء، كما دلّ عليه في النمسا ومونيخ، فانه سيجعل عمله هذا يبدو وكأنه إقتراح رسميّ طلبه رئيس جمهورية چيكوسلوڤاكيا فعلاً. إن الحيل "الشرعية" التي بلغ بها أعلى حدّ من الإبداع في تسلمه الحكم في ألمانيا، ستعود الآن لتكون وقفاً على عمليات فتح أراضٍ غير ألمانية.

كذلك أعد المرسح ليخدع الألمان وغيرهم من السذّج في أوروپا. كانت المحاولات منذ عدة أيام تبذل من جانب مثيري القلاقل الألمان وإستفزازييهم لخلق الفتن في مختلف المدن الچيكية، كپراغ وبرون Bruenn وإيگلاو Iglaw إلا ان النجاح اخطأهم كما جاء في تقرير السفارة الألمانية في پراغ. فقد "تلقى البوليس الچيكي أوامر قاطعة بعدم التعرض الى الألمان حتى في حالات الإستفزاز[٣١].

الاّ أن إخفاقهم هذا لم يمنع الدكتور گوبلز من دفع الصحافة الألمانية الى شن حملة حول أعمال الإرهاب (الكاذبة) التي يقوم بها الچيك ضدّ الألمان المساكين. وأعلم السفير الفرنسي (مسيو

٣٠- في هذه النقطة خلاف. فبعض المؤرخين يرون ان الألمان اجبروا هاشا على السفر الى برلين. وربما بنوا روايتهم هذه على تقرير السفير الفرنسي في برلين الذي ذكر "انه علم بذلك من مصدر موثوق" إلا ان ما كشف مؤخراً من الوثائق السرية لوزارة الخارجية الألمانية يثبت بما لايقبل الشك بأن طلب المقابلة بدر من (هاشا). وقد حاول ان يقابل هتلر أولاً في ١٣ آذار عن طريق السفارة الألمانية في پراغ وكرر الرجاء في صبيحة الرابع عشر ووافق هتلر عصر اليوم نفسه (المرجع نفسه الص ٢٤٩ و٢٥٥. عن تقرير السفير (كولوندر) انظر الكتاب الفرنسي الأصفر ص ٩٦ رقم (٧٧).
٣١- تقرير من پراغ ١٣ آذار ١٩٣٩، [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج٤ ص٢٤٦].

كولوندر) مرجعه في باريس بأنها عين القصص وبالعناوين ذاتها التي اخترعها گوبلز أثناء أزمة السوديت من أولها الى قصة المرأة الألمانية الحبلى التي قتلها وحوش الچيك، الى "حمامات الدمّ Blutbad" التي ذاقها الألمان العزّل على يد البرابرة الجيكيين. لقد أكد هتلر للشعب الألماني الفخور أن أبناء جلدتهم لن يبقوا دون حماية وقتاً طويلاً.

هذ هو الموقف، وتلك هي خطط هتلر، (ولقد عرفناها من السجلات الرسمية الألمانية الآن) في حين كان القطار الذي يقل الرئيس هاشا ووزير خارجيته (شفالكوفسكي) يدخل محطة (انهالت Anhalt) في برلين في الساعة ١٠,٤٠ ليلاً (١٤ آذار) لأن الرئيس لايستطيع السفر في الطائرة بسبب مرض قلبه.

-٤-

محنة الدكتور هاشا

بلغت قواعد البروتكول الألمانية حدّ الكمال. فقد جرى للرئيس الچيكي كل تفاصيل الإستقبال الرسمي المفروض لكل رئيس دولة، فإستقبله حرس شرف في محطة القطار وتقدم وزير الخارجية الألمانية بنفسه لتحية الزائر الكبير وقدم لإبنته باقة زهر أنيقة جداً وأفرد للوفد جناح كامل في فندق (آدلون) الفخم ووجدت الآنسة هاشا هدية شخصية من هتلر تنتظرها، مقدار من الشوكولاته التي كان يعتقد ان كلّ الناس يشاطرونه ولعه بها. واستقبل الدكتور هاشا بثلّة من حرس شرف الـ(إس. إس) عند وصوله دار المستشارية برفقة وزير خارجيته.

ولم يتم إدخالهما على هتلر إلاّ في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة عشرة بعد نصف الليل. لابدّ وان (هاشا) كان يعرف مقدّما ما أدخر له. فقبل ان يترك قطاره الحدود البلجيكية اعلمته پراغ ان الجنود الألمان إحتلوا (موارڤسكا-أوستراڤا) البلدة الچيكية الصناعية الهامّة وهم يتوغلون في بوهيميا وموراڤيا لتوجيه الضربة الأخيرة. ورأى وهو يدخل مكتب الزعيم في هذه الساعة المتأخرة من الليل، كلاً من ريبنتروب وڤايسيكر والفيلد مارشال گورنگ الذي استدعي على جناح السرعة من اجازته في (سان ريمو) ورأى الجنرال كايتل يقف الى جانب هتلر. وأغلب الإحتمال انه لم يلحظ حين دخوله عرين الأسد، وجود طبيب هتلر الخاص الدكتور الدجال تيودور موريل Dr. Theodor Morell جالساً على مبعدة. على ان وجوده كان ضرورياً.

إن الوثائق السريّة المستولى عليها تكشف عن مشهد أليم بدأ حال دخول الرئيس هاشا. هذا الشيخ المسكين بماضيه المحترم كقاضٍ جليل في أعلى محكمة من محاكم بلاده يخلع وقاره البشري ويروح يتذلل أمام الزعيم الألماني المنتفش الريش كالديك. ولعل الرئيس الچيكي ظنّ أن الطريق الوحيد الذي

بقي له هو مناشدة هتلر وإثارة عاطفته إنقاذا لما يمكن إنقاذه لشعبه. ومهما كان الدافع الى التذلل نبيلاً فإن العبارات التي استخدمها والحق يقال تصيب سامعها بالقيء، وتشمئز لها النفس بالصيغة التي دونت في محضر الإجتماع الرسمي المحفوظ. اكدّ هاشا لهتلر انه شخصياً لايتدخل في السياسة، وهو نادراً ما اجتمع بمؤسسي الجمهورية الچيكوسلوڤاكية (مازاريك وبينيش) ومن هذا القليل النادر، لم تكن الفكرة التي اخذها عنهما طيبة. وقال ان نظامهما السياسيّ غريب عن ذوقه الى الحدّ الذي راح يسأل نفسه [بعد مونيخ] هل كان من الخير لچيكوسلوڤاكيا ان تنال إستقلالاً ما؟

"... وهو واثق الآن ان مصير چيكوسلوڤاكيا بات الآن بين ايدي الزعيم ويعتقد أن يده يد أمانة وحرص..." ثم انتقل الى الأمر الذي يهمه في المنزلة الأولى، الى مستقبل شعبه وهو يشعر شعوراً أكيداً ان الزعيم مدرك بالضبط هدف وجهة نظره في ان لچيكوسلوڤاكيا الحق أن تعيش عيشة قومية... تلام چيكوسلوڤاكيا لوجود عدد كبيرٍ من اشياع بينيش ونظامه... ان الحكومة تحاول بكلّ وسيلةٍ اسكاتهم وهذا كل ما يريد قوله".

وعندئذ بدأ أدولف هتلر يقول كل ما يريد قوله. فبعد أن ردد كلّ الأخطاء المزعومة التي اقترفتها چيكوسلوڤاكيا مازاريك وبينيش بحق الألمان وألمانيا، وكرر عبارته الأثيرة وهي ان الچيك لم يتغيروا منذ (مونيخ) لسوء الحظ. دخل الموضوع الأساسي:

"أنه استنتج من تجشم الرئيس عناء سفرته هذه رغم تقدمه في السنّ أن الزيارة قد تكون ذات فائدة عظيمة لبلاده، ذلك لانه لم يعد باقيا لتدخل ألمانيا إلا ساعات معدودة... إن بقاء دولة چيكوسلوڤاكيا الممزقة الاوصال يتوقف على ولائه فحسب وإنه لايكنّ عداءً لأيّ شعب... في الخريف الماضي لم يرغب في استخلاص رأي نهائي لأنه كان يظن بإمكان التعايش، إلاّ انه لن يترك أي شكّ لأحدٍ في نيته القضاء على الدولة الچيكوسلوڤاكية ان لم تختف الميول (البينيشية) تماماً."

إنها لم تختف وها هو يقدم "الأمثلة": ولهذا فقد قذف بزهر النرد في يوم الاحد الماضي الموافق ١٢ آذار "لقد اصدر الأمر بأن تغزو الجيوش الألمانية البلاد الچيكوسلوڤاكية وضمها الى الرايخ الألماني".

قال (شميدت): "جلس هاشا وشفالكوفسكي كأنهما إستحالا تمثالين من الحجر. ولم يكن فيهما ما يميزهما عن الموتى إلاّ أعينهما" إلاّ ان هتلر لم يفرغ منهما بعد. عليه ان يذلّ ضيفيه اذلالاً بالرهبة التيوتونية. [واصل هتلر] لقد توغل الجيش الألماني في داخل البلاد الآن. وفي الثكنات حيث لاحت مقاومة، تم سحقها بقسوة.

غداً صباحاً في الساعة السادسة، تقرر أن يدخل الجيش الألماني في بلاد الچيك من جميع الجهات وأن تحتل القوة الجوية الألمانية مطارات الچيك. وهناك إحتمالان الأول منهما أن يتطور الزحف الألماني الى قتال وفي هذه الحالة ستسحق المقاومة بقسوةٍ بالغة. وثاني الإحتمالين ان توغل الجيش الألماني سيتمّ بهدوء وفي هذه الحالة سيكون من السهل على (الزعيم) أن يهب چيكوسلوڤاكيا نوعاً من الحياة الكريمة الخاصّة بها: حكما ذاتياً ومقداراً معينا من الحرية الوطنيّة.

لم يدفعه الحقد الى هذا وانما هو واجب حماية ألمانيا الذي يحدوه. لو لم تسلّم چيكوسلوڤاكيا في الخريف الماضي لأباد الشعب الچيكي برمّته ولن تستطيع قوة ان تمنعه عن ذلك إذا جدّ الجد وثار النقع... كان الجيش الچيكي سيصبح أثراً بعد عين في يومين فقط. سيموت عدد من الألمان بطبيعة الحال. وهذا ما كان سيولد حقداً يمنعه حتى من إعطاء الحكم الذاتي حفظاً للنفس فحسب. ولن يهتم العالم بهذا قلامة ظفر. إنه عطف على الشعب الچيكي عندما قرأ الصحف الأجنبيّة فقد خلّفت فيه إنطباعاً ينطبق على المثل الألماني المشهر "المغربي أدّى واجبه، للمغربّي أن ينصرف"... ولهذا طلب من (هاشا) الحضور وتلك هي الحسنة الأخيرة التي يمكن أن يمنحها للجيك... ربّما حالت زيارة هاشا دون ما هو انكى وأدهى... ان الساعات تمرّ. وفي السادسة سيدخل الجنود. إنه ليكاد يخجل حين يقول: هناك فرقة ألمانية واحدة مقابل كل فوج چيكيّ، وهو يرغب الآن ان يسدي اليه نصحاً [الى هاشا]، ان ينسحب مع شفالكوفسكي في خلوةٍ ويتداول معه فيما يجب عمله.

ما العمل؟ لم يكن الرئيس الشيخ المحطم بحاجة الى خلوة ليقرّر ما يجب عمله فقد قال لهتلر للتوّ: "الموقف واضح جداً والمقاومة عبث وحمق" ثم تساءل كيف يمكنه في ظرف أربع ساعات (والساعة الآن قد تعدّت الثانية صباحاً). أن يدبرّ أمر إيقاف الچيك عن ابداء مقاومة؟ فأجاب (الزعيم) بأن من الأفضل له ان يشاور رفاقه. ان ماكنة الحرب الألمانية، قد بدت فيها الحركة ولايمكن وقفها ومن واجب (هاشا) أن يتصل حالاً ببراغ". ويضيف المحضر الألماني ان هتلر قال "انه لقرار خطير، إلاّ انه يجد انبلاج فجر إحتمال حلول فترة طويلة من السلم بين الشعبين. اما اذا كان القرار بخلاف ذلك فهو يرى فناء چيكوسلوڤاكيا". بعد هذه العبارة صرف ضيفيه مؤقتاً وكانت الساعة تشير الى الثانية والدقيقة الخامسة عشرة صباحاً. وفي الغرفة المجاورة راح گورنگ وريبنتروب يشدان الضغط على الضحيتين. وبحسب رواية السفير الفرنسي الذي صورّ المشهد في تقرير له الى پاريس قال انه اعتمده من مصدرٍ لايرقى اليه الشكّ. ان هاشا وشفالكوفسكي باتا يحتجان على هتك حرمة شعبهما وقالا انهما لايوقعان وثيقة الإستسلام ولو فعلا ذلك فستلعنهما أمتهما الى أبد الآبدين.

"[كتب ميسو كولوندر في تقريره] كان الوزيران الألمانيان [گورنگ وريبنتروب] لايعرفان للرحمة معنى. واستمرا يطاردان الدكتور هاشا والسيد شفالكوفسكي كما يطارد الصياد فريسته بالضبط ويلاحقانهما على مدار المنضدة حيث وضعت الوثيقة، وهما يدفعانها بإستمرارٍ أمامهما ويحشران الأقلام في ايديهما، ويرددان بدون انقطاع: إن ظلاّ مصرين على الرفض، فستصبح نصف براغ انقاضاً من جراء القصف في غضون ساعتين وهي البداية فحسب. وإن مئات من القاصفات تنتظر الأمر بالتحليق. وانها ستبلغ بالأمر في الساعة السادسة صباحاً إن لم يبادرا بالتوقيع[٣٢]."

٣٢- اعترف گورنگ في محكمة نورمبرگ انه قال (لهاشا): "يؤسفني ان أضطر لقصف براغ الجميلة" وهو في الواقع لم يكن يقصد التهديد بهذا "إذ لم يكن ذلك ضرورياً"، وقال مفسراً "إلا أني ظننت ذلك وسيلة ناجعة للتعجيل بالأمر". [محاكمات مجرمي الحرب الكبار: ج٩ الص ٣٠٣-٣٠٤].

في تلك اللحظة سمع الدكتور شميدت صوت گورنگ ينادي الدكتور (موريل) (يبدو أن الرجل حاضرٌ كلّما تصل دراما ذروتها في حياة الرايخ الثالث، واين ما كانت تمثل).

صاح گورنگ: "لقد غاب هاشا عن وعيه".

ودبّ الخوف في قلوب العيّارين النازيين لحظتئذ فالحال لو أن الرئيس الچيكي المغمى عليه قد يموت بين يديهم "سيقول العالم أجمع غداً أنه قتل في دار المستشارية" كما عبرّ عنه شميدت. كان اختصاص الدكتور موريل زرق الحقن. (كاد بعد زمنٍ ان يقتل هتلر بها) وهو الآن يدخل الأبرة جسم الدكتور هاشا فيعيد اليه رشده. وعادت الى الرئيس ضبابة امكنه بها من مسك التلفون الذي وضعه الألمان في يده والإتصال بحكومته في پراغ بوساطة خط خاص وصل رأساً بناءً على أوامر ريبنتروب. واعلم زملاءه بكل ما جرى واقترح الإستسلام ثم حقن بحقنة أخرى من ابر الدكتور موريل وأقتيد هو وجمهوريته المحتضرة متعثرين الى مجلس أدولف هتلر ليوقع وثيقة موت بلاده. وكانت الساعة الرابعة إلاّ خمس دقائق من صباح الخامس عشر من آذار ١٩٣٩.

كان النصّ معداً من قبل. وذكر الدكتور ان "هتلر هو الذي كتبه". وكان المترجم الألماني منهمكاً في استنساخ البيان الرسمي الذي أعدّ ايضاً من قبل أثناء اغماء هاشا. وقد أرغم هاشا وشفالكوفسكي على توقيعه أيضاً. واليك هو: "برلين: ١٥ آذار ١٩٢٩ "بناءً على القبول الواقع. استقبل (الزعيم) اليوم الرئيس الچيكوسلوڤاكي الدكتور هاشا ووزير الخارجية الچيكوسلوڤاكية الدكتور شفالكوفسكي في برلين بحضور وزير الخارجية فون ريبنتروب وقد بحث في الإجتماع الوضع الخطير الذي نجم عن أحداث الأسابيع الأخيرة على الحدود الچيكوسلوڤاكية الحالية، وتمت مناقشها بكل صراحة.

وكان الإعتقاد الذي توصل اليه الجانبان بالإجماع ان الغاية من كل الجهود المبذولة هي المحافظة على الهدوء والأمن والسلام في هذا الجزء من أواسط أوروپا. ويصرح الرئيس الچيكوسلوڤاكي أنه في سبيل تحقيق هذا الغرض والوصول الى إستقرار نهائي، يضع بكلّ ثقة مصير الشعب الچيكي والبلاد بين يدي (زعيم) الرايخ الألماني. وقد قبل (الزعيم) هذا التصريح وأعرب عن نيّته بوضع الشعب الچيكي تحت حماية الرايخ الألماني، وضمان تطور ذاتي مستقل لحياة الشعب وعنعناته مما يتفق وطبيعته."

ولعل خفة روح هتلر في تلك اللحظة بلغت غايتها القصوى، فقد روت إحدى السكرتيرات انه اندفع بعد التوقيع، الى مكتبه وراح يعانق كل إمرأة موجودة فيه ويهتف من أعماق قلبه: أولادي! هذا اسعد يومٍ من أيام حياتي! سأدخل التاريخ من اوسع أبوابه، فأنا أعظم شخصية في ألمانيا!

ولم يفطن، ولم يعنّ له (كيف يتسنّى له ذلك؟) أن نهاية چيكوسلوڤاكيا ستكون بداية النهاية لألمانيا. من فجر الخامس عشر من شهر آذار ١٩٣٩ وجد الطريق أمامه واسعاً ممتداً الى الحرب ثم الى الهزيمة ثم الى الدمّار – طريق قصير مستقيم جداً مثل الصراط وجد هتلر نفسه يغذ فيه السير قدما

لايلوي على شيء مثلما فعل الاسكندر ونابوليون قبله. ما أن بدأ السير حتى عز عليه الوقوف[٣٣].

في السادسة من صبح يوم ١٥ آذار تدفقت الجحافل الألمانية الى (بوهيميا وموراڤيا) ولم تلق اية مقاومة وبحلول العصر كان هتلر يدخل پراغ دخول الظافر. تلك المدينة التي شعر أن چمبرلين غشه فيها وانتزعها منه بالحيلة في مونيخ. وقبل ان يغادر برلين لم ينس إذاعة بيانٍ طنانٍ رنّان موجه الى الشعب الألماني ردد فيه تلك الأكاذيب المملّة عن "المدّ الفوضوي" والفظائع التي ارتكبها الچيك بحيث أرغم على التدخل لوضع حدّ لها، وأعلن متباهيا: "ان چيكوسلوڤاكيا قضت نحبها!"

وفي تلك الليلة نزل قلعة (هرادشين) وهي بلاط ملوك بوهيميا العتيق القائمة في أعالي نهر المولداڤ Moldaw وحيث سكنها منذ فترة وجيزة كل من مازاريك وبينيش اللذين يبغضهما. يكدّان ويدأبان في سبيل أول ديمقراطية عرفتها أوروپا الوسطى. ها هو هتلر ينال ثأره كاملاً، يسيل حلاوة من جوانب سلسلة البيانات والمراسيم التي اصدرها. لقد شفى في نفسه كل الغلّ المحرق الذي حفظه للچيك واستولى على فكره منذ أيام تشرده في ڤيينا قبل ثلاثين عاماً. ثم تأججت ناره عندما اجترأ (بينيش) على تحديه في العام الماضي وهو ذلك الدكتاتور الألماني المطلق السلطان.

وأعلن من قلعة (هرادشين) في اليوم التالي انشاء محميّة (بوهيميا وموراڤيا). ومع أن البيان كان يعترف للچيك "بالحكم الذاتي والإدارة المستقلة" إلا أن حكم البيان الصريح جعلهما تحت موطيء نعال الألمان إذ اودعت كل السلطة الى ثالوث (حامي الرايخ وسكرتير الدولة ورئيس الإدارة المدنية) وهؤلاء يعينهم (الزعيم) رأساً. ولكي يهديء من سورة هياج الرأي العام العالمي والاستياء الشديد في فرنسا وإنگلترا أخرج (فون نيوراث) المعتدل من الثلاّجة ونصبه حامياً[٣٤].

وعين الزعيمين النازيين السوديتيين (كونراد هنلاين) والعصاباتي (كارل هرمان فرانك) أولهما رئيسا للإدارة المدنية وثانيهما سكرتيراً للدولة ليتيح لهما فرصة نيل ثأرهما من الچيك. ولم يطل الأمر بهملر حتى فاز بموطيء قدم له في المحمّية، إذ اناط بـ(فرانك) المذكور رآسة شرطة المحميّة وقيادة حرسها الأسود[٣٥].

٣٣- مصادرنا عن "محنة هاشا": محضر الإجتماع السري لهتلر وهاشا، وثائق عن سياسة بريطانيا الخارجية ج٤ الص ٢٦٣-٢٦٩، وهي ايضاً في وثائق نورمبرگ [مؤامرة النازيين وعداوانهم ج٥ الص ٤٣٣-٤٤٠، الوثائق PS ٢٧٩٨]نص البيان المشترك الچيكي-الألماني في ١٥ آذار ١٩٣٩ في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص ٢٧٠-٢٧١. القسم الاول الذي كتب فعلاً في وزارة الخارجية (١٤ آذار). بيان هتلر الى الشعب الألماني في ١٥ آذار [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج ٨ الص ٤٠٢ وما بعدها، الوثائق TC٥٠] تقرير (كولوندر) في الكتاب الفرنسي الأصفر ص٩٦ رقم ٧٧. وصف شميدت الإجتماع: كتابه الفصل التاسع عن المشهد مع السكرتيرات [أ. زوللر A. Zoller خصوصيات هتلر :ص ٨٤].

٣٤- قال نيوراث لقضاة نورمبرگ انه فوجيء تماماً بتعيين هتلر وانه "كره" المنصب وتردد في قبوله. ثم رضي عندما قال له هتلر انه يرمي بتعيينه الى التأكيد لبريطانيا وفرنسا بعدم رغبته في ممارسة سياسة معادية لچيكوسلوڤاكيا [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج١٦ الص ٦٥٤-٦٥٥].

٣٥- قد يكون واجباً ان نحيد هنا عن موضوعنا قليلاً لتعقيب مصائر ممثلي ادوار هذه الرواية: حَكَمت محكمة چيكوسلوڤاكية بالموت شنقاً على (فرانك) بعد الحرب ونفذ به علنا في ٢٢ أيار ١٩٤٦ قرب پراغ، اما (هنلاين) =

[جاء في بيان إعلان هتلر عن قيام المحمية] ظلّت مقاطعتا بوهيميا زهاء الف سنة وهي جزء من (المجال الحيوي) للشعب الألماني... وقد اظهرت چيكوسلوڤاكيا الدولة عجزاً موروثاً في قدرتها على البقاء ولهذا هوت الآن فريسة للتمزق الفعلي والانحلال الواقع. إن الرايخ الألماني لايمكنه الوقوف مكتوف اليدين ازاء الفوضى المستمرة في المنطقة... ولذلك وتطبيقا لقانون حفظ النوع عزم الرايخ الألماني على التدخل الحاسم لإعادة بناء اسس نظام مناسب في أواسط أوروپا. لقد برهن الشعب الألماني خلال السنوات الألف من تاريخه بفضل مزاياه وصفاته الخاصة بأنه الوحيد القادر على هذا العمل". وبهذا خيم ليل طويل من البربرية الألمانية على پراغ وبلاد الچيك.

في ١٦ آذار عاد هتلر ليضع (سلوڤاكيا) أيضاً تحت حمايته الكريمة بإستجابته الى "برقية" ارسلها رئيس وزرائها (تيسو) والواقع ان مسودتها كتبت في برلين. فسارعت القطعات العسكرية الألمانية بدخول سلوڤاكيا لتولي "الحماية". وفي ١٨ آذار وصل هتلر الى ڤيينا ليضع توقيعه على "معاهدة الحماية" ووقعها في برلين بتاريخ ٢٣ آذار كل من ريبنتروب والدكتور (توكا) وتتضمن برتوكولا سريا يمنح ألمانيا حق استغلال إقتصاد سلوڤاكيا[٣٦].

اما بالنسبة الى (روثينيا) وهي الرأس الشرقي من چيكوسلوڤاكيا فقد أعلن إستقلالها في ١٤ آذار. وسميت بجمهورية (الكاربات-الاوكرينية Carpatho-Ukraine). ولم يدم إستقلالها غير أربع وعشرين ساعة، ناشدت هتلر بنداء طلب "الحماية" وعبثاً طلبت لأن هتلر كان قد منحها للمجر. فقد عثر بين أوراق وزارة الخارجية المستولى عليها على رسالة بخط يد (مكلوس هورتي Miklos Horthy) الوصي على العرش المجري موجهة الى أدولف هتلر بتاريخ ١٣ آذار. وهذا نصّها

يا صاحب الفخامة: أقدم شكراً من صميم الفؤاد! لاأستطيع التعبير عن سعادتي، فهذا الأقليم رأس الماء (روثينيا) مسألة حيوية -وانا اكره إستخدام الكلمات الضخمة- بالنسبة لهنغاريا [المجر]. إننا نتهيأ للأمر بحماسة، وقد انجزنا وضع الخطط لتطبيقها يوم السبت باندفاعٍ عسكريّ كبير[٣٧].

وتبين فيما بعد ألاّ حاجة تدعو الى تدبير "حادثة". فقد تحرك الجيش المجري ودخل روثينيا بكلّ بساطة في الساعة السادسة صباحاً (١٥ آذار) مؤقتاً دخوله، بدخول الألمان اقاليم الغرب. وأعلن في اليوم التالي ضمّ الاقليم الى المجر رسميّاً. وهكذا قضت چيكوسلوڤاكيا نحبها في نهاية اليوم الخامس عشر من آذار، الذي بدأ في برلين في الساعة ١,١٥ بعد نصف الليل عند وصول الدكتور هاشا الى دار المستشارية. لم تقدم فرنسا أو بريطانيا على حركة واحدة لإنقاذها وان قطعتا عهداً على ضمانهما ضدّ الإعتداء الغاشم.

= فقد قتل نفسه على اثر القاء قوات المقاومة الچيكية القبض عليه سنة ١٩٤٥. اما شفالكوفسكي الذي أصبح ممثل المحبة في برلين فقد قتل نتيجة القصف الجوي الحليف في ٩٤٤. والقى الچيك القبض على هاشا في ١٥ أيار الاانه توفي قبل إجراء محاكمته.

٣٦- النص في وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ٢٤-٤٥.

٣٧- النص في وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ ص٢٤١.

منذ ذلك الإجتماع توصل هتلر وموسوليني إلى حقيقة معيّنة وهي أن بريطانيا باتت جدّ ضعيفة ولهذا كان رئيس وزرائها متنازلاً متغاضياً، لذلك لم تعد بهما حاجة إلى الإهتمام الكثير بلندن. وفي ١١ كانون الثاني ١٩٣٩ قام چمبرلين يرافقه لورد هاليفاكس بزيارة روما ليحاول تحسين العلاقات الأنگلو-إيطالية. واتفق أن كان المؤلف في محطة القطار في روما عندما وصل الإنگليزيان ودوّن في مفكرته "سيماء الاستخفاف" التي لاحت على وجه موسوليني عندما حيّا ضيفيه "عندما مرّ بي موسوليني" وجدته أثناء مغادرة المحطة "يتضاحك مع ختنه تشيانو ويلقي الدعابات اللاذعة"(٣٨)، لم اتمكن بطبيعة الحال من سماع اقواله ولكن (تشيانو) كشف فيما بعد عن بواعث تلك الأضاحيك في يومياته: "[اليومية المؤرخة ١٢ كانون الثاني] وصول چمبرلين... ما أبعد الشقّة بيننا وبين هؤلاء القوم! إنه عالم آخر. كنا نتكلم عنها بعد العشاء، مع الدوتشي فقال هؤلاء الرجال ليسوا من طينة (فرنسيس دريك*) Francis Drake وغيره من المغامرين العظماء الذين خلقوا الإمبراطورية، أنهم في الواقع الاولاد المنهكون لسلالة طويلة من الاغنياء وسوف يفقدون إمبرطوريتهم".

لايريد البريطانيون الحرب. وهم يحاولون التقهقر الى الوراء بأبطأ ما يمكن، لكنهم لايحاربون... لقد انتهت محادثاتنا مع البريطانيين، ولم تسفر عن نتيجة. اتصلت بريبنتروب تلفونياً واعلمته ان الزيارة كانت ليمونة كبيرة...[يقصد مهزلة كبيرة]..."

رافقت الدوتشي الى المحطة عند مغادرة چمبرلين (يومية ١٤ كانون الثاني)... اخضلت عينا چمبرلين بالدموع عندما بدأ القطار يتحرك. وراح أبناء جلدته ينشدون له اغنية (فلأنه رجل طيب جداً، فسأل الدوتشي ما هذه الاغنيّة الصغيرة؟".(٣٩)

مع أن هتلر كان كثير الإهتمام بوجهات نظر چمبرلين أثناء أزمة السوديت، فأنه لم يعثر بين الأوراق الألمانية المضبوطة على ما يشير الى أقل إكتراث بآراء رئيس الوزراء منذ ذلك الحين، بخصوص القضاء على البقية الباقية من چيكوسلوڤاكيا رغم ضمانات بريطانيا ورغم إتفاقية مونيخ. في ١٤ آذار كان هتلر في برلين ينتظر (هاشا) لإذلاله، بينما كانت الاسئلة الغاضبة توجه في مجلس العموم في لندن حول قيام ألمانيا بهندسة عمليّة انفصال سلوڤاكيا وعن آثار ذلك في ضمانة بريطانيا لپراغ من العدوان الغاشم. أجاب چمبرلين بشدّة: "لم يحصل عدوان كهذا".

لكن عندما حصل هذا العدوان في اليوم التالي. استخدم رئيس الوزراء بيان "إستقلال سلوڤاكيا" حجة وعذراً لتقاعس بلاده عن الوفاء بعهدها وقال مفسراً "إن آثار هذا البيان هو نهاية للدولة التي تعهدنا بضمان حدودها، بعامل التمزق الداخلي. ان حكومة صاحب الجلالة لايسعها والحالة هذه أن

٣٨- يوميات برلين ص١٥٦.

* سر فرانسيس دريك (١٥٤٣-١٥٩٦) أميرال إنگليزي ومكتشف. أول إنگليزي طاف العالم بحراً. كان أحد القائدَيْن اللذين أدارا موقعة الأرمادا وحطّما الغزو الإسپاني في ١٥٨٨.

٣٩- يوميات تشيانو ١٩٣٩-١٩٤٣ الص٩-١٢.

تعتبر نفسها مرتبطة بهذا العهد بعد الآن". وبهذا اعطت ستراتيجية هتلر ثمارها كاملة فقد أوجد لجمبرلين مخرجاً، فسارع إليه رئيس الوزراء.

والجدير بالذكر هنا ان چمبرلين ما كان يرغب حتى في اتهام هتلر بحنثه بكلمته، قال: "كثيرا ما سمعت تهما عن النكث بالعهد تتناثر هنا وهناك لاأراها تستند الى أي أساس من الواقع حتى اني لااراني راغباً اليوم في التصديّ لأي تهمة من هذا القبيل" لم يجد في نفسه كلمة لوم واحدة (للزعيم)، حتى للأسلوب المهين الذي عومل به هاشا. والحيلة القذرة التي حيكت كما دلت الظواهر آنذاك –حتى وان كانت التفاصيل مجهولة في حينه– في مستشارية الرايخ في ساعات الفجر الأولى لهذا اليوم الخامس عشر من آذار.

ولاعجب أن كان الإحتجاج البريطاني في ذلك اليوم ان امكن تسميته بالإحتجاج(٤٠) – فاتراً ماسخاً وأن الألمان عاملوه بكثير من الاحتقار والصلافة، كما وقفوا من الشكاوى الأنگلو-فرنسية التالية: (لاترغب حكومة صاحب الجلالة في التدخل تدخلاً لا موجب له في مسائل تهمّ الحكومات الأخرى بصورة مباشرة أكثر... إلاّ انها على كل حال مهتمة إهتماماً عميقاً –والحكومة الألمانية تقدر منها ذلك دون شك– بنجاح كل المجهودات الرامية الى احلال الثقة، وتخفيف حدّة التوتر في أوروپا. وانها لتكره أي عمل في أواسط أوروپا من شأنه ان يؤدي الى نكسة في نموّ الثقة العامة..(٤١)".

لم يكن في هذه المذكرة التي قدمها السفير هندرسن الى ريبنتروب كرسالة رسمية من لورد هاليفاكس – كلمة واحدة صريحة عن الحوادث التي وقعت يوم تقديمها.

كان الفرنسيون أكثر صراحة من البريطانيين على الأقل. فالسفير الفرنسي الجديد (كولوندر) لايشارك زميله البريطاني وهمه في النازية ولا احتقاره للچيك. في صبيحة الخامس عشر من آذار طلب مواجهة ريبنتروب، لكن الوزير الألماني الغطريس الحقود كان آنذاك في طريقه الى پراغ يريد مشاركة هتلر في إذلاله الشعب المغلوب. فاستقبل وكيل الوزارة (ڤايسيكر) ظهراً. ولم يضع السفير وقته وقال ما لم يكن مستعداً لقوله بعد كلٌ من چمبرلين وهندرسن: ان ألمانيا بتدخلها العسكري في بوهيميا وموراڤيا، خرقت بنود إتفاقية مونيخ والبيان الفرنسي-الألماني المشترك للسادس من كانون الأول، إلاّ ان (ڤايسيكر) الذي أصرّ فيما بعد على انه كان خصماً لدوداً للنازي طول الوقت، أبدى صلافة وغطرسة فاق بهما (ريبنتروب) نفسه، كما يكشف عنه تقريره للمقابلة:

"تكلمت مع السفير بشيء من الحدّة، وطلبت منه ألا ينوّه بذكر إتفاقية مونيخ التي زعم انها خرقت، وان لايلقي علينا أي محاضرات... وقلت له بالنظر الى الإتفاق الذي أبرم ليلة امس مع الحكومة الچيكية لاأجد أي سبب يدعو الى (ديمارش: إحتجاج) من جانب السفير الفرنسيّ... وانا واثق بأنه سيجد بإنتظاره تعليمات جديدة عند عودته الى السفارة وان هذه التعليمات ستجعل ذهنه

٤٠– أبلغ چمبرلين مجلس العموم في ١٦ آذار بـ"إلى الآن" لم يقدم إحتجاج الى الحكومة الألمانية.
٤١– النص في وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص ٢٧٤–٢٧٥.

مرتاحاً[٤٢]. وبعدها بثلاثة أيام عندما تحاملت الحكومتان البريطانية والفرنسية على نفسيهما تحت ضغط الرأي العام المستنكر في الداخل. وتقدمتا بإحتجاج رسميّ للرايخ[٤٣]. تفوق ڤايسيكر على سيّده ريبنتروب في الخشونة والصلافة بشهادته نفسه أيضاً. فهو يتحدث بإرتياح ظاهر في إحدى المذكرات التي عثر عليها بين الوثائق كيف انه رفض حتى ان يقبل مذكرة الإحتجاج الفرنسية الرسمية: "أسرعت في الحال فأعدتُ المذكرة الى غلافها ودفعت بها الى السفير قائلاً له إني أرفض مبدئياً قبول أي إحتجاج منه يتعلق بقضية الچيكو-سلوڤاك. ولن أشعر بالإتصال الواقع رسمياً. واطلب من مسيو (كولوندر) أن يلحّ على حكومته بإعادة النظر في فحوى المذكرة"[٤٤].

لم يكن (كولوندر) -كهندرسن في هذه الفترة- بالمبعوث الذي يسكته ألماني. فأجاب ان حكومته كتبت المذكرة بعد طول تأمل وهو لاينوي الطلب من حكومته إجراء أي تنقيح فيها. وعندما راح وكيل الوزارة يكرر رفضه قبول المذكرة، جلب السفير انتباهه الى العرف الدبلوماسي المألوف وأصرّ أن لفرنسا الحق الكامل في ان تبدي وجهة نظرها للحكومة الألمانية. أخيراً ترك ڤايسيكر المذكرة ملقاة على مكتبه (كما روى) واوضح بانه "سيتعبرها واصلة عن طريق البريد الينا". الاّ انه قبل قيامه بهذه الملاحظة الوقحة، قذف من رأسه العبارات التالية: "من الناحية القانونية يوجد بيان مشترك تم الإتفاق على صيغته بين (الزعيم) وبين رئيس جمهورية چيكو-سلوڤاكيا. لقد جاء الرئيس الچيكي بمحض رغبته الى برلين وأعلن حالاً انه يرغب في وضع مصير بلاده بين يدي (الزعيم). لااستطيع ان اتصور كيف يمكن ان تكون فرنسا كاثوليكية أكثر من البابا. فتعمد الى التدخل في امور تمت تسويتها تماماً بين برلين وپراغ"[٤٥].

وكان سلوك (ڤايسيكر) مختلفاً تمام الإختلاف مع السفير البريطاني المتعاون الذي أبلغ الوزارة بمذكرة حكومته الإحتجاجية بعد ظهر الثامن عشر من آذار. إن بريطانيا العظمى الآن لاتجد مندوحة من ان ترى في الأحداث التي حفلت بها الأيام القلائل الماضية، نقضاً لإتفاقية "مونيخ" وان "العمليات العسكرية الألمانية" قد "خلت من أي مبرر شرعي" وقد لاحظ (ڤايسيكر) أثناء تسجيلها انها لم تبلغ ما بلغته المذكرة الفرنسية شدة في هذا الصدد، إذ جاء في الأولى: ان فرنسا "لن تعد الإحتلال الألماني عملاً شرعياً".

كان هندرسن قد ذهب لزيارة (ڤايسيكر) في ١٧ آذار ليعلمه بإستدعائه الى لندن "للمشاورة"

٤٢- المرجع السالف ٢٧٣-٢٧٤.
٤٣- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ٢٠-٢١.
٤٤-المرجع السالف الص١٦-١٧.
٤٥-رواية (كولوندر) عن المقابلة وردت في الكتاب الفرنسي الأصفر (رقم ٧٨) الص ١٠٢-١٠٣- في الطبعة الفرنسية. وهو رواية (ڤايسيكر). وقد برر هذا الأخير تقريره عندما سئل عنه في محكمة نورمبرگ، بانه تعمد المبالغة في إظهار حماسته النازية حتى تكون بمثابة تغطية لنشاطه المعادي للنازية إلا أن رواية كولوندر عن المقابلة هي دليل واحد من أدلة أخرى، على ان ڤايسيكر لم يبالغ في الأمر قط.

ويقول (ڤايسيكر) انه استوضح منه عن (بعض التعاليل التي يمكن ان يقدمها لچمبرلين لإستخدامها ضد معارضيه السياسيين.. واوضح هندرسن انه لايوجد ثم إهتمام بريطاني مباشر بالاقليم الچيكوسلوڤاكي، وان قلقه الأكبر هو على المستقبل"[٤٦].

حتى تدمير هتلر چيكوسلوڤاكيا لم يوقظ السفير البريطاني من غفوته على مايبدو أو ينبهه الى طبيعة الحكومة التي يتعامل معها. بل وكأنه ظلّ غافلاً عما كان يحدث ذلك اليوم للحكومة التي يمثلها.

فجأة صحا (نفيل چمبرلين) صحوة عظيمة غير منتظرة في ١٧ آذار، أي بعد يومين من موت چيكوسلوڤاكيا. إلاّ انها لم تأت دون بعض الخضّات والهزات. فقد وجد مشدوهاً أن معظم الصحف البريطانية (حتى صحيفة التايمس، لكن ليس الديلي مَيل) ومجلس العموم، لم يسعهم السكوت عن آخر عدوان لهتلر وكان ردّ الفعل فيهم عنيفاً. ومما زاد في الطين بلّة ان عدداً كبيراً من اشياعه في البرلمان ونصف أعضاء وزارته ثاروا ضدّ أي تنازل أو لترضية هتلر. ولاسيما لورد هاليفاكس فقد اصرّ: (وهذا ما أبلغ السفير الألماني برلين) على ان يتفهم رئيس الوزراء ما حصل في الماضي وان يقوم بتغيير نهجه تغييراً معاكساً[٤٧]. وإنكشف لـ(چمبرلين) ان الأخطار يحفّ بوضعه بوصفه رئيساً للحكومة ورئيس حزب المحافظين. وجاء إنقلابه الفكري المضادّ مفاجئاً. ففي الساعات الأخيرة من مساء ١٦ آذار، ألقى سر جون سيمون عن الحكومة خطبة في مجلس العموم البريطاني كانت فظة جداً بالنسبة الى محنة الچيك، ومتمشية تماماً مع (روح مونيخ). وصفتها الصحف بأنها اقامت قيامة المجلس وبلغت به حداً من السخط ندر ان اظهره أعضاؤه. وفي اليوم التالي وافق عيد ميلاد چمبرلين السبعين وكان في النية ان يلقي خطاباً بالمناسبة في مسقط رأسه (برمنگهام Birmingham) فكتب كلمة تدور حول الأمور الداخلية مع تخصيص جانب لموضوع الخدمات الإجتماعية. روت لي مصادر دبلوماسية فرنسية ان چمبرلين توصل الى قراره الأخير وهو في عربة القطار الذي كان يقلّه عصر اليوم الى مدينة برمنگهام فمزق خطابه المهيّأ وراح يدون رؤوس اقلام لخطبة أخرى مغايرة للأولى مبنى ومعنى. وأذيعت الخطبة على موجات الأثير ووصلت الى اجزاء كبيرة من ارجاء العالم. فيها إعتذر چمبرلين "عن تصريحه الكثير التحفظ، الشديد الحذر... البارد بعض الشيء، والايجابيّ" (الذي شعر أن واجبه يحتم عليه القاءه في مجلس العموم قبل يومين وقال "اني لآمل تصحيح ذلك التصريح في هذه الليلة".

أخيراً، اكتشف رئيس الوزراء ان أدولف هتلر قد غرّر به. ولخصّ تأكيدات (الزعيم) المختلفة في ان أرض السوديت هي آخر مطلب اقليمي له في أوروپا وانه "لايريد الچيك"، وها هو الآن يطبق عليهم وينشب فيهم براثنه "لقد تسلّم القانون بيده وصار الآمر الناهي".

٤٦- المرجع السالف ١٦-١٧ و٤٠.
٤٧-تقرير (ديركسن) المؤرخ ١٨ آذار ١٩٣٩ المرجع السالف ٢٤-٢٥ و٣٦-٣٩.

"والآن قيل لنا ان الاستيلاء على الاقليم كان قد حتمته ضرورات معالجة الفوضى والقلاقل في چيكوسلوڤاكيا... إن كان هناك إضطرابات أفلم تستثرها جهات خارجية؟..."

"وفي هذا، لايسع المرء إلاّ ان يتساءل أهو نهاية مغامرة قديمة أو بداية لأخرى جديدة؟ أهو آخر إعتداء على دولة صغيرة أم ستعقبها إعتداءات أخرى؟ أهو خطوة ولا مندوحة لنا من القول الى محاولة السيطرة على العالم بالقوة؟..."

"في الوقت الذي لاأجد في نفسي إستعداداً لزج هذه البلاد في ورطات لايمكن تحديد إطارها، تعمل تحت اوضاع لايمكن التكهن بها الآن، فليس ثم خطأ أعظم من الافتراض ان هذا الشعب فقد صفاته الكفاحية، لأنه يرى في الحرب جنوناً ووحشية بحيث يتقاعس عن المساهمة بكلّ طاقاته في مقاومة تحدٍ كهذا إن وجد."

كان هذا نقطة تحول فجائية حاسمة لچمبرلين وبريطانيا. وانذر هتلر في اليوم التالي بذلك. إذ بعث السفير الألماني الذكيّ (هربرت فون ديركسن) بتقرير طويل الى وزارة الخارجية بتاريخ ١٨ آذار: "من الخطل ان نتشبث بأي وهم في ان تغييراً جوهرياً لم يطرأ على موقف بريطانيا من ألمانيا[٤٨].

كل من قرأ (كفاحي) وألقى نظره على خريطة أوروپا وتأمل الموقع الجديد الذي احتله الجيش الألماني في سلوڤاكيا، كلّ مَنْ كان ملماً بحركات دبلوماسية ألمانية معينة منذ (مونيخ) أو من اطال التفكير في دينامية فتوح هتلر السلمية في النمسا وچيكوسلوڤاكيا خلال الأشهر الإثني عشر الماضية، سيعيّن له أي دولة "من تلك الدول الصغيرة" ستكون التالية في قائمة (الزعيم). وچمبرلين كأي شخص آخر تقريباً يعرف تماماً من ستكون تلك الدولة التالية.

في ٣١ آذار – وبعد ستة عشر يوماً من دخول هتلر پراغ، أبلغ رئيس الوزراء مجلس العموم بقوله.

(في حالة وقوع أي عمل من شأنه ان يهدد إستقلال پولندا تهديداً واضحاً لما تجده پولندا حريّاً بالتصدي له ومقاومته بقواتها المسلحة فان حكومة صاحب الجلالة تشعر بواجبها في اسداء كل ما في طاقتها من معونة للحكومة الپولندية في الحال. ولقد قدمت الحكومة تأكيداتها للحكومة الپولندية بهذا المآل. ويمكنني ان أضيف الى هذا ان الحكومة الفرنسية خولتني بأنْ أوضح عنها أنّ موقفها في هذه الحالة سيكون مثل موقفنا."

ها قد جاء دور پولندا!

٤٨- المرجع نفسه ص٣٩.

الفصل السادس

الدائرة تدور على پولندا

-١-

قبل ان ينصرم شهر واحد على (مونيخ)، دعا (ريبنتروب) السفير الپولندي (يوزف ليپسكي) في ٢٤ تشرين الأول ١٩٣٨ الى غداء في الفندق الكبير Hotel Grand في برختسگادن دام ثلاث ساعات. كانت پولندا مثل ألمانيا وبالتفاهم معها طبعاً، قد ابتلعت قطعة من أراضي الچيك. واستمر حديث الغداء "في جو ودّي للغاية" كما وصفها تقرير دائرة الخارجية الألمانية[1].

ومهما يكن، لم يضيع وزير الخارجيّة النازي وقتاً في الدخول الى صلب الموضوع قال: ان الزمن قد حان لإجراء تسوية عامة بين پولندا وألمانيا وزاد يقول من الضروري في مبدأ الأمر "الكلام مع پولندا حول الدانزگ" فمن اللازم ان "تعاد" الى ألمانيا. كذلك يريد الرايخ ان يبني طريق سيارات واسع (أوتوبان) وسكة حديد مزدوجة عبر الممر الپولندي لربط ألمانيا بالدانزگ وپروسيا الشرقية. وان يستمتع الطريقان بحقوق الاقليم الخارج عن الحدود extraterritorial وأخيراً يرغب هتلر ان تنضمّ پولندا الى ميثاق مكافحة الكومنترن ضدّ روسيا وبمقابل ذلك تمدد المعاهدة الألمانية الپولندية من عشر سنوات الى عشرين وتقوم ألمانيا بتقديم ضمانة لحدود پولندا.

وشدّد ريبنتروب بأنه يصارحه بهذه المسائل "بغاية السرّية" واقترح ان يكون تقريره عنها لوزير الخارجية (بيك)، "شفوياً"، وإلاّ يكون هناك خطر عظيم من تسرب أنبائها الى الخارج ولاسيما الى الصحف". ووعد (ليپسكي) بالإتصال (بوارشو) إلاّ انه حذره بانه لايرى شخصيّاً أي "إحتمال" لإعادة الدانزگ الى ألمانيا، ثم ذكره بمناسبتين وقعتا وشيكاً (في ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٧ و١٤ كانون الثاني ١٩٣٨) حين اكد هتلر شخصياً لپولندا أنه لن يساند أي تغيير في وضع (الدانزگ) الدولي[2]. فأجاب ريبنتروب انه لايرغب في الاجابة على هذا الآن. إلاّ انه ينصح الپولنديين ان يفكروا في الأمر ملياً.

لم تكن الحكومة الپولندية في حاجة الى زمن طويل لاستجماع أفكارها فبعد الحديث بأسبوع بعث

١- الوقائع الألمانية للجلسة: وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص ١٠٤-١٠٧ من ليپسكي الى بيك (الكتاب الپولندي الأبيض) رقم ٤٤. ورد في [مؤامرة...ج٧ ص٤٨٣ (وثائق.TC٧٧).

٢-تأكيد هتلر لليپسكي في ١٥ تشرين الثاني ١٩٣٧ وثائق عن...ج٥ الص ٢٦-٢٧] تأكيد لبيك ١٤ كانون الثاني ١٩٣٨، المرجع السالف ص٣٩.

وزير الخارجية (بيك) في ٣١ تشرين الأول بتعليمات مفصلة لسفيره في برلين عن كيفية اجابته الألمان. الاّ ان السفير لم يتمكن من ضرب موعد لمقابلته الاّ في ١٩ تشرين الثاني - الظاهر ان النازيين كانوا يريدون أن يزن البولنديون جوابهم جيداً وكان سلبياً: إن بولندا، راغبة كدليل على حسن النوايا أن تستبدل ضمانة عصبة الأمم للدانزگ بإتفاقية ألمانية بولندية حول الشكل القانوني للمدينة الحرة.

وكتب (بيك) في المذكرة التي قرأها (ليسكي) على مسامع ريبنتروب "... وكل حلّ آخر، وبخاصّة أي محاولة لضمّ المدينة الحرة الى الرايخ ستؤدي الى صدامٍ مسلح لا محالة". واضاف يقول ان المارشال بلسودسكي Pilsudski دكتاتور بولندا الراحل انذر الألمان في ١٩٣٤ أثناء المفاوضات على ميثاق عدم الإعتداء بأنّ "مسألة الدانزگ هي المرآة cirterion الأكيدة لمقياس نوايا الألمان تجاه بولندا".

لم يكن هذا الردّ يتفق مع ذوق ريبنتروب "فأسف على الموقف الذي اتخذه (بيك)" ونصح البولنديين بأن المقترحات الألمانية "تستأهل منهم المزيد من التأمل وإنعام النظر"[٣]. وكان جواب هتلر على الرفض البولندي أشدّ وأنكى. ففي ٢٤ تشرين الثاني. بعد حديث (ريبنتروب-ليسكي) أصدر أمراً إنذارياً الى القادة العامين للقوات المسلحة.

سرّي للغاية

هذا هو أمر (الزعيم): بغضّ النظر عن الإحتمالات الثلاثة المنوه بها في الأوامر ٣٨/٢١/١٠[٤] يجب ان تتخذ الإستعدادات أيضاً لمعاونة (الدولة الحرة) الدانزگ على إحتلال القوات الألمانية لها بعملية مباغتة.

يجب ان تتمّ الإستعدادات على الأسس التالية: الهدف هو إحتلال للدانزگ شبه ثوريّ. Quosi revolutionary بإستغلال وضع سياسيّ موآتٍ، ولا حرب مع بولندا[٥].

القوات التي ستستخدم لهذا الغرض يجب ألا تخصص في الوقت عينه لإحتلال منطقة (ممل). حتى يمكن أن تتم العمليتان عند الضرورة في آن واحد. سيقوم الاسطول بمساندة العمليات البَريّة بالهجوم من البحر. إن خطط صنوف القوات المسلحة يجب ان يتمّ ارسالها في موعد آخره ١٠ كانون الثاني ١٩٣٩.

مع أن (بيك) انذر حصراً بأن كل محاولة ألمانية لأخذ الدانزگ ستؤدي إلى صدام مسلح "لا محالة"، فإن هتلر كان قد أقنع نفسه أن بإمكانه الظفر بغايته دون وقوع حرب. فالنازيون المحليون يسيطرون على (الدانزگ) وهم يتلقون تعليماتهم من برلين كما كان السوديت من قبلهم وليس من

٣- تعليمات بيك للسفير بتاريخ ٣١ تشرين الأول ١٩٣٨ (الكتاب البولندي الأبيض) رقم (٤٥) مؤامرة... ج٧ الص٤٨٤-٤٨٦]. محضر ريبنتروب عن الإجتماع مع لپنسكي ١٩ تشرين الثاني. "وثائق سياسة ألمانيا الخارجية ج٥ الص ١٢٧-١٢٩.

٤- أنظر كذلك (ص٥٧٨) "العوارض" الثلاثة هي تصفية بقية چيكوسلوڤاكيا. وأخذ ممِل وحماية حدود الرايخ.

٥- الخط ورد بالأصل.

العسير إثارة "شبه ثورة" هناك.

ولهذا كان هتلر مشغولاً في ختام ١٩٣٨ (وهو العام الذي شهد إحتلال النمسا والسوديت دون قتال) بفتوح جديدة، هي بقية چيكوسلوڤاكيا. وممل والدانزگ. كان سهلاً عليه إذلال (شوشنك وبينيش) والآن جاء دور (يوزف بيك).

غير ان هتلر لم يكن في موقف يستطيع فيه ان يعامل الوزير الپولندي معاملة شوشنك ومن بعده بقليل الرئيس هاشا عندما استقبله في برختسگادن بعد عيد رأس السنة ببضعة أيام (٥ كانون الثاني ١٩٣٩) إذ ينبغي أولاً ابتلاع البقية الباقية من چيكوسلوڤاكيا. ولذلك كان في حالة نفسية راضية كما اتفقت عليه المحاضر الألمانية والپولندية للإجتماع. وبدأ بالقول انه "على أتم إستعداد ليكون في خدمة بيك" وسأله "أهناك شيء خاص يجول في مخيلة وزير الخارجية؟" فأجاب (بيك) ان الدانزگ تشغل فكره. وقد اتضح انها كانت تشغل بال هتلر أيضاً.

ذكّر هتلر ضيفه بقوله "الدانزگ هي ألمانية، وستبقى الى الأبد ألمانية، وستصبح جزءً من ألمانيا عاجلاً أم آجلاً، على أنه يستطيع ان يتعهد "بألاّ يخلق حالة الأمر الواقع Fait accompli في الدانزگ".

اراد الدانزگ ورغب في ان يشق أوتوبان وسكة حديد بمران عبر الممر الپولندي، فان تخلى هو (وبيك) عن "الاصول القديم وشرعا في محاولة إيجاد حلّ على اسس جديدة تماماً" فهو متاكد من وصولهما الى إتفاق يكون فيه نفع وعدل للبلدين.

لكن (بيك) لم يكن واثقاً من هذا. على انه لم يشأ التصلب في موقفه مع الزعيم (كما قال لريبنتروب في اليوم التالي)، ولذلك أجابه "إن مشكلة الدانزگ صعبة جداً". واضاف يقول "انه لايجد في إقتراح هتلر أي معاوضة من جهة پولندا" فراح هتلر يلوّح "بالمنفعة الكبرى" التي تجنيها پولندا، حين تصبح حدودها الألمانية وبضمنها الممر - مضمونة "بمعاهدة". والظاهر ان هذا القول لم يحدث تأثيره المنشود في (بيك) إلاّ انه وافق أخيراً على ان يديم التفكير في المسألة(٦).

بعد ان قلّب وزير الخارجية الپولندية وجوه الرأي في المسألة طوال الليل، اجتمع بالوزير ريبنتروب في (مونيخ) صبيحة اليوم التالي ورجا منه إبلاغ (الزعيم) انه وبعد ان ملأته كل أحاديثهما السالفة تفاؤلاً وآمالاً طيبة، وجد نفسه يوم أمس بعد مقابلة هتلر "متشائماً لأول مرة، وبخاصّة في مسألة الدانزگ. فهي كما عرضها له المستشار "مجردة عن أي إحتمال للإتفاق(٧)."

اقتضى وقت طويل للعقيد (بيك) ليستفيق من غفلته ويتبنى نظرة التشاؤم تلك، ككثير ممن ورد ذكرهم في الصحائف السالفة. لقد كان خصماً عنيداً لروسيا مثل معظم رجال الحكم في پولندا ومما

٦- المحضر الألماني للإجتماع. كتبه الدكتور شميدت [وثائق عن سياسة..ج٥ ص١٥٢-١٥٨. الملحوظات الپولندية (الكتاب الپولندي الأبيض) رقم ٤٨ [مؤامرة... ج٨ الص ٤٨٦-٤٨٨ [الوثائق، TC ٧٣٠).

٧- محضر ريبنتروب للإجتماع [وثائق... ج٥ الص ١٥٩-١٦١. الملحوظات الپولندية (الكتاب الأبيض) رقم ٤٩ [مؤامرة... ج٨ ص٤٨٨ (الوثائق TC ٧٣)].

زاد في الطين بلة انه كان يكره الفرنسيين أيضاً ويحمل في قلبه لهم ضغنا وحقداً منذ ١٩٢٣. أيام كان ملحقاً عسكرياً في باريس، وطرد من البلاد بسبب قيامه ببيع وثائق تتعلق بالجيش الفرنسي على ما قيل. أو لربما كان الميل الى ألمانيا طبعاً في هذا الرجل الذي أصبح وزير خارجية بلاده منذ ١٩٣٢. لقد شعر بعطف شديد على الدكتاتورية النازية منذ البداية وكافح طوال السنوات الست الماضية لتوثيق علاقات بلاده مع الرايخ الثالث وإضعاف روابطها التقليدية مع فرنسا.

كانت پولندا الدولة الأولى بين جميع الدول التي تتاخم الحدود الألمانية، التي يحق لها أكثر من غيرها التوجس خيفة من جارتها في الزمن البعيد. فإذا بها أشدّ عماءً من سائر الدول عن الخطر الألماني وليس في معاهدة ڤرساي شرط يثير الحفيظة الألمانية كالشرط الذي أوجد (الممر الپولندي) ومَنَحَ البلاد منفذاً الى البحر وفصل پروسيا الشرقيّة عن بقية الرايخ. ولم يكن سخط الرأي العام الألماني بأقل ثورةٍ لفصل مرفأ الدانزگ الهانسيتي Hanseatie العتيق، عن جسم ألمانيا وجعله (مدينة حرّة) تدار بإشراف عصبة الأمم ويسيطر عليها الإقتصاد الپولندي. حتى جمهورية ڤايمر الضعيفة المسالمة – لم ترض بما اعتبرته تشويهاً پولندياً للرايخ الألماني. وقد مرّ بنا كيف حدد الجنرال (فون سيكت) مهمّة الجيش الألماني منذ ١٩٢٢ (انظر ما سبق):

"إن الكيان الپولندي لايمكن إحتمال وجوده، وهو يناقض شروط الوجود الألماني الأساسية. يجب القضاء على پولندا، وسيقضى عليها نتيجة الضعف الداخلي الذي ينخر فيها، وبعمل يباشره الروس، باسناد منّا... إن القضاء پولندا يجب ان يكون أحد أهداف السياسة الألمانية والوصول اليه [يجب]... ان يكون بمبادأة روسيا، ومساندتها. انها لبنوءة وايم الله!

نسي الألمان أو لعلّهم تناسوا ان كل الأرض الألمانية التي ضمتها ڤرساي الى پولندا ومنها اقليم بوزن واقليم پوميرانيا الپولندية Pomorze، وهي الأراضي التي تؤلف (الممر)، كانت پروسيا قد نهبتها عنوة زمن التقسيم عندما قضى الحلف الپروسي–النمساوي–الروسي على إستقلال البلاد. هذه البقاع كانت موطن الپولنديين منذ أكثر ألف عام وقد ظلت حتى الآن على مدى واسع.

لم يمر بلد اعيد خلقه في ڤرساي مثلما مرت به پولندا من مصاعب وأهوال، ففي السنوات الأولى المضطربة من ميلادها شنت حربا عدوانية على روسيا وليتوانيا وألمانيا حتى چيكوسلوڤاكيا (اقتتلت معها حول منطقة تيشن الغنيّة بالفحم). وبسبب حرمان الپولنديين من حريتهم السياسية زهاء قرن ونصف قرن، وافتقارهم التام الى التجربة في الحكم الذاتي، تعذر عليهم ان ينشئوا حكومة مستقرة أو ان يباشروا حلّ مشاكلهم الزراعيّة والإقتصادية. وفي ١٩٢٦ زحف المريشال (پلسودسكي) بطل ثورة ١٩١٨ وقبض على زمام السلطة في وارشو ومع انه كان من الإشتراكيين السابقين الا انه استبدل النظام الديمقراطي المضطرب بدكتاتوريته. ومن آخر أعماله قبل وفاته في ١٩٣٥ توقيع معاهدة عدم إعتداء مع هتلر. في ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٤. وهي كما مرّ بنا أول خطوةٍ لنسف سلسلة الأحلاف الفرنسية مع جيران ألمانيا الشرقيين وإضعاف عصبة الأمم وميثاقها في الضّمان الجماعي. وبعد وفاة

(پلسودسكي) حكمت پولندا معظم الوقت عصبة صغيرة من "العقداء"، وهم أمراء الوحدات الذين حاربوا الإتحاد السوڤياتي تحت أمرة پلسودسكي. وكان يقوم على رأسهم الآن المريشال سمگلي-ريدز Smigly-Rydz جندي كفؤ الاّ انه جاهل في امور السياسة، ووُضِعت السياسة الخارجية في يد العقيد (بيك) فأصحبت منذ ١٩٣٤ فصاعداً موالية للألمان.

كانت سياسة انتحارية لاشكّ فيها. ولايسع المرء المتأمل في وضع پولندا في عالم أوروپا عقب ڤرساي الا الاستنتاج بأن الپولنديين في العقد الثالث من القرن التاسع عشر كانوا يندفعون الى إلحاق الدمار بانفسهم كما فعلوا احيانا خلال القرون الماضية، حتى لكأن نقصاً في طباعهم القومية يحتثهم غريزيًا الى الكارثة أو انهم في هذه الفترة من الزمن بَدَوا كما كانوا احيانا في الماضي اعدى اعداء أنفسهم! فبدوام وجود الدانزگ والمر الپولندي لن يكون ثمّ سلم دائم بين ألمانيا النازية وبين پولندا، ولم تكن پولندا قوية الى درجة تسمح لها بمعاداة جارتيها الجبارتين روسيا وألمانيا في وقت واحدٍ. لقد ظلت علاقاتها مع الإتحاد السوڤياتي منذ عام ١٩٢٠ سيئة لم يطرأ عليها أي تغيير الى الأحسن عندما هاجمتها مستغلّة ضعفها بسبب الحرب العالمية الأولى والحروب الأهلية فنتج عن هذا صدام وحشيّ عنيف[٨].

انتهز هتلر فرصة الفوز بصداقة دولة شديدة العداء للاتحاد السوڤياتي وفي عين الوقت أخرج تلك الدولة من نطاق (جنيف) وأحلاف پاريس فنسف نظام ڤرساي بالنتيجة. فكان السبّاق الى إقتراح عقدالمعاهدة الألمانية الپولندية في ١٩٣٤ ولم تتمشّ مع ذوق الرأي العام الألماني وحقد عليها الجيش الذي كان يميل الى روسيا ويعادي پولندا منذ أيام (فون سيكت) الاّ انها خدمت هتلر خدمة ممتازة في حينه. إذ ساعدته صداقة پولندا الحميمة على إنجاز ما يجب إنجازه أولاً، فإحتل الراين، وقضى على إستقلال النمسا وچيكوسلوڤاكيا. وفي كلّ هذه الخطوات التي قوّت ألمانيا وأضعفت الغرب وهددت الشرق كان (بيك) وزملاؤه العقداء في وارشو ينظرون نظرة السمح الاريحي وهم في عماهم المطلق الذي لايمكن تفسيره، سادرون.

إن كانت نزعة التشاؤم غلبت على وزير الخارجيّة الپولندي في مستهل السنة الجديدة بسبب مطالب هتلر فإن معنوياته أصابها تدهور كبير بقدوم الربيع. ومع ان هتلر في الخطاب الذي ألقاه يوم ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٩ على الرايخشتاغ أشاد "بالصداقة بين ألمانيا وپولندا" وصرح أنها "واحدة من عوامل الثبات والاستقرار في حياة أوروپا السياسية" فان ريبنتروب زاد في صراحته عندما قام بزيارة رسمية لوارشو قبل ذلك بأربعة أيام. مثيراً مع (بيك) مرة أخرى مسألة مطاليب هتلر بخصوص

٨- كانت نيجة الحرب ان دفعت حدودها الشرقية بمقدار (١٥٠) ميلاً وراء خط (كرزن) الاثنوغرافي على حساب الإتحاد السوڤياتي وبذلك ضمت اليها (٥, ٤) مليون أوكراني. و(٥, ١) مليون روسي أبيض لذلك لم تكن حدود پولندا الشرقية والغربية مقبولة لا من ألمانيا ولا من الإتحاد السوڤياتي. تلك حقيقة يظهر ان الديمقراطيات الغربية غفلت عنها عندما بدأت موسكو وبرلين تتقاربان في صيف ١٩٣٩.

(الدانزگ) وانشاء خطوط مواصلات عبر (الممر) مؤكدا انها مطاليب "معتدلة للغاية". الاّ انه لم يحصل من وزير الخارجية البولندية على جواب مرض لا فيما يتعلق بهذه المسائل، ولا فيما يخصّ الانضمام الى ميثاق مكافحة الكومنترن(٩).

وبدأ الحذر يداخل (بيك) من أصدقائه هؤلاء، في الواقع ركبه القلق وتناهبته الشكوك. وفي ٢٦ شباط أنبأ السفيرُ الألماني في وارشو مرجعَه في برلين ان (بيك) فاتح لندن لدعوته الى زيارة رسمية في نهاية آذار، وانه قد يمر بباريس فيما بعد وكما عبّر عنه السفير مولتكه "ان پولندا ترغب في الإتصال بالديمقراطيات الغربية... [خوفاً] من إحتمال نشوب نزاع مسلح بينها وبين ألمانيا على الدانزگ"(١٠) وان جاء الأمر متأخراً...

وإنتبه (بيك) كغيره ممن حاول إرضاء هتلر وإشباع شهوته العظيمة، من غفلته وشعر بعقم مجهوداته الاولى كما شعر الكثيرون قبله. وهبطت مقاييسه تماماً والى الابد. في ١٥ آذار عندما احتل هتلر (بوهيميا ومورافيا) وارسل جنده لحماية سلوفاكيا "المستقلة". صحت پولندا في صبيحة ذلك اليوم لتجد نفسها والجيش الألماني محدق بها من الجنوب على طول حدود سلوفاكيا. كما كان الحال في الشمال على حدود پوميرانيا وپروسيا الشرقية. في عشية وضحاها أصبح موقعها الاستراتيجي مما لايمكن الدفاع عنه عسكرياً.

٢١ آذار ١٩٣٩، هو يوم سيذكر في قصّة انحدار أوروپا الى هاوية الحرب.

كان ثم نشاط دبلوماسيّ محموم في برلين ووارشو ولندن، يومئذ وصل رئيس جمهورية فرنسا يرافقه وزير الخارجية (بونيه) بزيارة رسمية للعاصمة البريطانية واقترح چمبرلين على الفرنسيين ان تنضم بلادهما الى پولندا والإتحاد السوڤياتي في تصريح رسميّ يؤكد عزم الدول الأربعة على التشاور فيما بينها حالاً حول الخطوات المقتضية لوقف أي عدوان آخر في أوروپا. وقبلها بثلاثة أيّام كان (ليتفينوف) قد اقترح -كما اقترح قبل سنة واحدة بعد ضم النمسا- عقد مؤتمر أوروپي يكون مؤلفا هذه المرة من فرنسا وبريطانيا وپولندا وروسيا ورومانيا وتركيا، تتحد معاً لكبح جماح هتلر، إلا ان رئيس الوزراء البريطاني وجد الفكرة في حينها "سابقة لأوانها" وكان كثير التوجس والشكّ من موسكو، ورجح ان "تصريحاً" لأربع دول يكون الإتحاد السوڤياتي طرفاً فيه، هو أكثر مما يطيقه(١١).

٩- محضر ريبنتروب للإجتماع مع بيك في وارشو ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٩ [وثائق عن... ج٥ الص ١٦٧-١٦٨. رواية بيك مثبتة في (الكتاب الابيض) رقم ٥٢.

١٠- تقرير مولتكه ٢٦ شباط ١٩٣٩، وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ ص١٧٢.

١١- كتب چمبرلين في رسالة خاصة مؤرخة ٢٦ آذار "عليّ ان أقر بشكي العميق في روسيا. اني لا أثق مثقال ذرة بمقدرتها على القيام بهجوم فعال حتى إن كان لديها الرغبة في ذلك. وأنا لاأثق بنواياها ايضاً... زد على ذلك أن عدداً كبيراً من الدول الصغيرة يكرهها ولايثق بها واخص بالذكر پولندا ورومانيا وفنلندا!" (فيلينك - حياة نيفيل چمبرلين ص٦٠٣).

وقدم السفير البريطاني في وارشو إقتراحه للوزير (بيك) في اليوم نفسه (٢١ آذار) فلقي قبولاً بارداً نوعاً ما لوجود روسيا فيه. كان وزير الخارجية الپولندي أكثر شكاً وتوجساً من چمبرلين فيما يتعلق بالإتحاد السوڤياتي، زد على ذلك انه كان يتفق في الرأي مع چمبرلين حول تفاهة قيمة المساعدة العسكرية السوڤيتية وقد ظلّ مصراً على وجهة نظره هذه إصراراً عنيداً حتى وقعت الواقعة. وحلّت ببلاده الكارثة.

الاّ ان الحدث الأبلغ اثراً على مصير پولندا، في هذا اليوم (٢١ آذار) وقع في برلين. دعا ريبنتروب السفير الپولندي لمقابلته عند الظهر وذكر (لپسكي) في تقرير تالٍ ان وزير الخارجية لم يكتف باظهار الجفاء بل كان خشناً فظاً. وأنذره ان (الزعيم) "يزداد دهشة لموقف پولندا" وان ألمانيا تريد جواباً مرضياً على طلباتها للدانزگ وللطريق والسكة الحديد عبر الممر. وتلك هي شروط دوام علاقات الصداقة الپولندية الألمانية. وقال ريبنتروب بصراحة "على پولندا ان تدرك انها لاتستطيع ان تسلك سبيلاً وسطاً بين روسيا وألمانيا". وخلاصها الوحيد هو "الابقاء على علاقات معقولة مع ألمانيا (والزعيم)" وهذا يشمل سياسة مشتركة "معادية للسوڤيت" فضلاً عن ان (الزعيم) يرغب في ان يقوم (بيك) "بزيارة مستعجلة لبرلين" ونصح السفير الپولندي بشدة ان يقوم في الوقت نفسه بالاسراع الى وارشو وشرح حقيقة الموقف شخصياً لوزير الخارجية الپولندي وان يبلغه "ان الحديث [مع هتلر] يجب ألاّ يتأخر لئلا يستنتج المستشار ان پولندا ترفض كل عروضه"(١٢).

-٢-

عدوان صغير بَيْنَ بَيْنٍ

سأل لپسكي ريبنتروب، قبل تركه ڤلهلمشتراسه، هل يستطيع ان يعلمه بشيء عمّا دار بينه وبين وزير ليتوانيا من حديث؟ فأجاب ريبنتروب إنهما بحثا مسألة (ممِل) التي "تستدعي الحل" حضراً. والحقيقة هي ان ريبنتروب استقبل وزير الخارجية الليتواني (يوساز اوربايس Juozas Urbays) الذي كان ماراً ببرلين من رحلته الى روما، قبلها بيوم وطلب ان تسلم ليتوانيا منطقة (ممِل) الى ألمانيا في الحال، وإلاّ "فإن الزعيم سيعمل بسرعة البرق". وانذره بان على الليتوانيين الاّ يخدعوا أنفسهم حين يتوقعون "نوعاً من المعونة الخارجية"(١٣). والواقع ان السفير الفرنسي قبلها ببضعة أشهر قام هو والقائم بالأعمال البريطاني في ١٢ كانون الأول ١٩٣٨ بجلب انتباه الحكومة الألمانية الى التقارير التي تشير الى أنّ السكان الألمان في (ممِل) يدبرون ثورة وطلبا منها إستخدام نفوذها لإحترام الحالة

١٢- تقرير لپسكي الى وارشو عن الإجتماع. (الكتاب الابيض) رقم ٦١، [المؤامرة... ج٨ الص ٤٨٩-٤٩٢ (الوثائق TC ٧٣) رقم ٦١). محضر ريبنتروب للإجتماع: وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ٧٠-٧٢.
١٣- تقرير وزارة الخارجية عن الإجتماع، وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٥ الص ٥٢٤-٥٢٦.

القانونية في (ممل) التي ضمنتها كل من بريطانيا وفرنسا. فأعربت وزارة الخارجية في ردها عن "دهشتها واستغرابها" للتدخل الدبلوماسي الفرنسي-البريطاني. وامر ريبنتروب، في حالة إتخاذ السفارتين خطوات أخرى مثل هذه، ان تبّلغا "باننا في الحقيقة كنّا نتوقع ان التعب قد أصاب البريطانيين والفرنسيين من جراء كثرة تدخلهم في شؤون ألمانيا[١٤].

مضت برهة من الوقت على الحكومة الألمانية وبخاصة الحزب وقادة الحرس الأسود وهم ينظمون ألمان (ممل) على الخط الذي أصبح الآن مألوفاً لدينا من حادثتي النمسا والسوديت. فقد طلبت القوات المسلّحة الألمانية للتعاون. ومر بنا (انظر ما سبق) كيف أمر هتلر - بعد ثلاثة أسابيع من مونيخ، قادة القوات المسلّحة باعداد خطة إحتلال (ممل) جنباً الى جنبٍ مع خطة تصفية چيكوسلوڤاكيا. ولما لم تتح الفرصة للاسطول لينال مجداً في السوديت والنمسا التي تحيط بها اليابسة لذلك قرر هتلر ان تؤخذ (ممل) من البحر. وفي شهر تشرين الأول وضعت الخطط البحرية تحت الإسم الجفري "تمرين نقل شتيتن Stattin" وكان هتلر والاميرال (رايدر) شديدتَيْ الإهتمام باظهار جبروت الأسطول حتى انهما استقلاّ البحر من سڤينموندي Swinemuende على ظهر بارجة الجيب (دويچلاند) الى (ممل) في ٢٢ آذار بعد أسبوع واحد بالضبط من دخول الزعيم دخول الظافر الى (پراغ)، قبل ان يتاح الوقت لليتوانيا المعدومة الدفاع للإستسلام الى الإنذار الألماني.

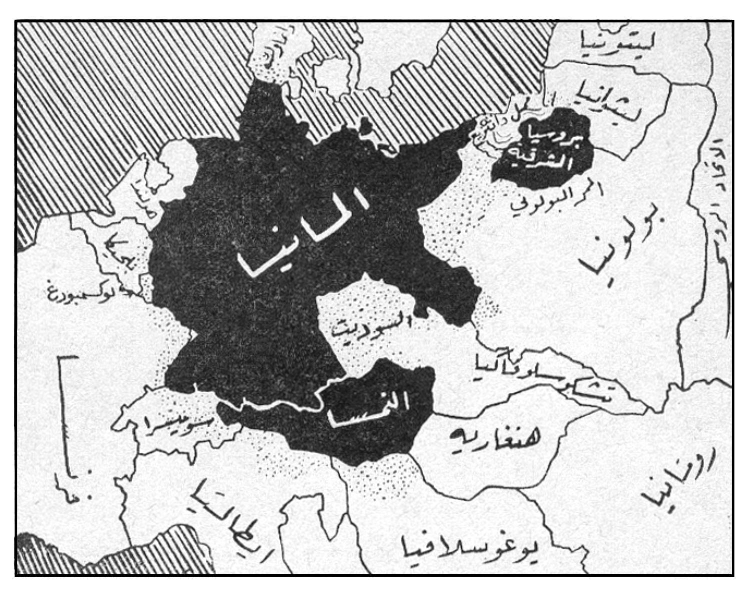
في ٢١ آذار أبلغ ڤايسيكر (أعلن بعد زمن طويل اشمئزازه من وحشية الاساليب النازية) الحكومة الليتوانية انه "لايوجد وقت يمكن اضاعته" وان مندوبيها فوق العادة المطلقي الصلاحية يجب ان يصلوا الى برلين "بطائرة خاصة غداً" لتوقيع وثيقة تسليم (ممل) الى ألمانيا.

ووصل الليتوانيون بكل طاعة وخضوع عصر الثاني والعشرين من آذار، لكن رغم الضغط الألماني الذي مارسه ريبنتروب شخصياً بدفع من هتلر المصاب بداور البحر وهو على ظهر البارجة في عرض البحر فقد طال أمد تسليمهم. وكشفت الوثائق السرية المستولى عليها ان هتلر اتصل مرتين بالراديو من (دويچلاند) وسأل ريبنتروب. هل استسلم الليتوانيون كما أُمروا؟ كان على الدكتاتور واميراله ان يعلما هل سيشقان طريقهما الى (ممل) بالقوة؟ وأخيراً إستطاع ريبنتروب في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين من صباح ٢٣ آذار ان يرسل برقية راديو الى مولاه تحمل نبأ توقيع الليتوانيين على وثيقة التنازل[١٥].

في الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين من عصر ٢٣ آذار، حقق هتلر دخولاً ظافراً آخر الى المدينة المحتلة. وفي دار أوپرا الدولة في (ممل) ألقى خطاباً في حشد (متحمس من الألمان "المحرَّرين"). وبهذا شطب على بند آخر من شروط معاهدة ڤرساي وحقق نصراً آخر دون إراقة قطرة دمٍ ان كان آخر نصرٍ من نوعه، فهو ما جهله هتلر.

١٤- المرجع السالف الص٥٠٢-٥٠٤.

١٥- مصدر هذه العبارة: وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٥ الص ٥٢٨-٥٣٠.



خريطة الحرب - پولندا وممر الدانزگ

-٣-

الشدّ على پولندا

إلحاق منطقة (ممل) الفجائي بالرايخ الألماني "كان وقعه أليماً" على الحكومة الپولندية كما وصفه السفير الألماني هانس أدولف فون مولتكه في تقرير له الى برلين من وارشو في اليوم التالي. واضاف قائلاً "والسبب الأساسي لهذا هو الخوف السائد من ان الدائرة ستدور الآن على الدانزگ والممر[١٦]".

كذلك اعلم وزارة الخارجية ان دعوة الإحتياط قد صدرت. وفي اليوم الثاني (٢٥ آذار) استخبر الاميرال (كاناريس) رئيس المخابرات في القوات المسلحة ان پولندا إستدعت للخدمة ثلاث طبقات من المكلفين. وانها تحشد جيوشاً حول الدانزگ. ولم ير الجنرال كايتل في هذا أي مظهر "النيّة عدوانية پولندية" الاّ ان هيئة الأركان العامة "اخذت الأمر ماخذاً جديا نوعاً ما" كما لاحظ هو[١٧].

عاد هتلر الى برلين من (ممل) في ٢٤ آذار. وفي اليوم التالي جرى حديث طويل بينه وبين الجنرال براوختش القائد العام. ومن مفكرة هذا الأخير السرية علمنا ان (الزعيم) لم يستقرّ رأيه بعد على الطريقة التي سيستخدمها مع الپولنديين[١٨]. واقع الحال دماغه المصطخب الفائر كان يبدو مفعماً

١٦- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ ص٩٧.
١٧- المرجع نفسه، الص ١١٠-١١١.
١٨- مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٧ الص ٨٣-٨٦ الوثائق R ١٠٠].

مصطخباً بأمواج من الأفكار المتناقضة. وكان موعد عودة السفير (لپسكي) الى برلين في اليوم التالي ٢٦ آذار. إلاّ أنّ (الزعيم) لم يشأ رؤيته.

"[كتب براوختش] سيعود لپسكي من وارشو نهار الأحد ٢٦ آذار. والسؤال الذي سيلقى عليه هو هل ان پولندا ستكون على إستعداد للوصول الى بعض التفاهم حول الدانزگ؟ رحل (الفوهرر) مساء ٢٥ آذار انه لايريد ان يكون هنا عند عودة لپسكي. سيفاوض ريبنتروب أولاً. وعلى كل فان الزعيم لايريد حلّ مشكلة الدانزگ بالقوة. لأنه لايريد ان يدفع پولندا الى احضان بريطانيا العظمى بعمله هذا. لن يوضع إحتلال الدانزگ عسكرياً موضع بحثٍ الاّ اذا نوّه لپسكي بأن الحكومة الپولندية لايمكن ان تأخذ على عاتقها مسؤولية اقتطاع الدانزگ طوعاً أمام الشعب الپولندي، وان الحلّ سيكون أسهل عليهم فيما لو تم ذلك بالقوة والرضوخ للأمر الواقع."

هذا استقراء جدير بالإهتمام لذهنية هتلر وسلوكه الشخصي في ذلك الحين. فقبل ثلاثة أشهر اكد (لبيك) شخصياً أنه لن تستخدم القوة وسياسة الأمر الواقع في الدانزگ. على أنه لم ينس ان وزيرالخارجية الپولندي شدد القول على ان الشعب الپولندي لن يقف مكتوف اليدين ازاء عملية الإستيلاء على (الدانزگ). فإن احتلها الألمان أفلا يسهّل هذا "الأمر الواقع" على الحكومة الپولندية قبول الأمر؟ الى هذا الوقت كان هتلر عبقرياً في تقدير درجة ضعف خصومه الأجانب، وعبقرياً في الاستفادة من هذا النقص فيهم استفادة كاملة. لكن احكامه هنا بدأ يظهر عليها التذبذب للمرة الأولى تقريباً. "العقداء" الذين يحكمون پولندا، زمرة من الرّقعاء المشوشي العقول. إلاّ ان آخر شيء يفكرون فيه أو يعملونه أو يقبلون به انما هو "الأمر الواقع" في الدانزگ.

كانت "المدينة الحرّة" تحتلّ قمّة تفكير هتلر، إلاّ انه كان ايضا يفكر في مايتلوها، مثلما فعل بخصوص چيكوسلوڤاكيا بعد ان منحته (مونيخ) أرض السوديت.

[كتب براوختش] "في الوقت الحاضر، لاينوي (الزعيم) حلّ المسألة الپولندية. على انه يجب العمل فيها. إن حلاً في المستقبل القريب يجب ان يكون مستنداً الى ظروف سياسية مواتية جداً. وفي هذه الحالة ستصحى پولندا بضربة قاضية فلايعود يحسب لها أي حساب كعامل سياسي للسنوات العشرين التالية. و(الزعيم) يحبذ حلاً كهذا، خط حدود متقدم من الحدود الشرقية لپروسيا الشرقية الى النهاية القصوى لسيليزيا العليا."

وبرواختش يعلم حق العلم ما هو القصود بتلك الحدود. انها حدود ألمانيا ما قبل الحرب العالمية، أزالتها ڤرساي. والوصول اليها لايتمّ إلاّ بالقضاء على پولندا.

لو كان في نفس هتلر ايّ شكّ عما سيكون الردّ الپولندي فقد تبدّد عند عودة السفير (لپسكي) الى برلين في ٢١ آذار وقدم جواب بلاده بشكل مذكرة مكتوبة[١٩] قرأها ريبنتروب حالاً ورفضها

١٩-النص [وثائق عن... ج٦ الص ١٢٢-١٢٤] تقرير ريبنتروب عن إجتماع ٢٦ آذار مع لپسكي، المرجع السالف الص ١٢١-١٢٢. النسخة الپولندية (الكتاب الابيض) رقم٦٣.

وراح يندد بإجراءات النفير التي اتخذتها پولندا وانذر المبعوث "بالآثار المحتملة". وصرح قائلاً ايضاً، ان أي خرق لحدود (الدانزگ) تقوم به القوات الپولندية سيعتبر عدواناً على الرايخ.

تضمنّ الردّ الپولندي ذو اللهجة الهادئة المؤدبة رفضاً حازماً لمطالب الألمان. واعرب عن الرغبة في إجراء مباحثات حول وسائل تسهيل الانتقال الألماني بطرق وسكك حديد عبر الممر، ورفض قبول تدويل هذه المواصلات. اما بخصوص الدانزگ فإن الحكومة الپولندية يسرّها الاستعاضة عن إشراف عصبة الأمم بشخصيتها القانونية. بضمانة پولندية-ألمانية، إلاّ انها لاتقبل بضم المدينة الحرّة الى ألمانيا لتكون جزءً منها.

نصّت معاهدة ڤرساي على إعطاء پولندا ممراً في منطقة پروسيا الغربية يضمّ ضفتي نهر الڤيستولا الأسفل. وجُعلت مدينة الدانزگ (نفوسها ٣٠٠ ألف معظمهم ألمان) مدينةً حرة تحت حماية عصبة الأمم. على أنْ تقوم پولندا بإدارة علاقاتها الخارجية وأن تعيّن عصبة الأمم مندوباً سامياً للإشراف على إدارة المدينة. وفي پروسيا الشرقية جرى إستفتاء تمّ بموجبه تقسيم سيليزيا العليا بين پولندا وألمانيا.

في تلك الفترة لم تكن ألمانيا النازية متعودة على قيام بلاد صغيرة برفض مطالبها واوضح ريبنتروب (لليپسكي). ان ذلك "يذكره بخطوات محفوفة بالأخطار اقدمت عليها دولة أخرى" وتلك اشارة بيّنة الى مصير چيكوسلوڤاكيا التي قامت پولندا بمعاونة هتلر على تقطيع أوصالها. وأصبح واضحاً كذلك لليپسكي عندما استدعي ثانية الى وزارة الخارجية ثاني يوم، ان الرايخ الثالث سيلجأ الآن مع پولندا الى تاكتيك يماثل تماماً التاكتيك الذي حقق أعظم النجاح في النمسا وچيكوسلوڤاكيا وراح وزير الخارجية النازي يرغي ويزبد حول إضطهاد مزعوم للأقلية الألمانية في پولندا الذي خلق "إنطباعاً جدّ سيء في ألمانيا" على حدّ تعبيره.

"وختاماً، بين وزير الخارجية [الألماني] انه ما عاد يفهم بعد الآن الحكومة الپولندية... فالمقترحات التي قدمها السفير الپولندي يوم أمس لايمكن ان تتخذ أساساً للتسوية. إن العلاقات بين البلدين والحالة هذه تتدهور وتزداد سوءً بسرعة"[٢٠].

لم يدبّ الخوف في وارشو بسرعة كما دبّ في ڤيينا وپراغ. وفي اليوم التالي (٢٨ آذار) استدعى (بيك) السفير الألماني وأبلغه جوابه على تصريح ريبنتروب بأن عملاً عسكرياً پولندياً ضد الدانزگ يتطلب ذريعةً للتدخل Casus belli، فهو بدوره مضطر الى أن يصرح بان أي محاولة من ألمانيا أو مجلس شيوخ المدينة النازي لتغيير الكيان السياسي في المدينة الحرة ستعتبره پولندا (ذريعة للتدخل Casus belli) أيضاً. فهتف السفير: "أتريدون المفاوضة على سنان الحراب؟"

فأجاب الوزير: "تلك هي طريقتكم الخاصّة"[٢١].

٢٠- ملاحظات الدكتور شميدت عن الإجتماع وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية، ج٦ ١٣٥-١٣٦.
٢١- تقرير مولتكه، المرجع السالف الص ١٤٧-١٤٨. الرواية الپولندية له. (الكتاب الأبيض) رقم٦٤.

كان وزير الخارجية البولندي الصاحي من النوم قادراً على تحدّي برلين بأشدّ مما امكن بينيش. ذلك لأنه علم جيداً ان بريطانيا التي كانت قبل سنة تتهالك على معونة هتلر في الحصول على مايرغب من چيكوسلوڤاكيا، راحت الآن تسلك طريقاً مختلفاً تماماً بالنسبة الى پولندا. وبيك هو نفسه الذي نسف إقتراحاً بريطانياً بإعلان تصريح الدول الأربع لأن پولندا رفضت المساهمة مع الإتحاد السوڤياتي في ايّ شيء وباي شكلٍ. وبدلاً من هذا اقترح في ٢٢ آذار على السر هوارد كينارد Sir Haward Kennard السفير البريطاني في وارشو. ابرام إتفاق سريّ أنگلو-پولندي فوراً لإجراء المشاورات بينهما في حالة وقوع تهديد بالهجوم من دولة ثالثة. إلاّ ان چمبرلين وهاليفاكس أرادا ان يذهبا الى أبعد من مجرد "المشاورة" بعد ان اقلقتهما تحركات القوات الألمانية بالقرب من الدانزگ والممر. تقارير الإستخبارات البريطانية بخصوص المطالب الألمانية من پولندا (وهي الأمور التي انكر بيك المحتال فضلاً عن وقوعها أمام البريطانيين).

في مساء الثلاثين من آذار قدم (كينارد) (لبيك) إقتراحاً بريطانياً فرنسياً لإبرام ميثاقَيْ تعاون متبادل في حالة الإعتداء الألماني(٢٢)، لكن هذه الخطوة سبقتها أحداث. فقد وردت تقارير جديدة عن إحتمال هجوم قريب على پولندا. مما حمل الحكومة البريطانية في مساء ذلك اليوم ان تسأل (بيك) هل يوجد لديه اعتراض على ضمانة بريطانية مؤقتة من جانبٍ واحدٍ لإستقلال پولندا؟ وألحّ چمبرلين ألاّ يتأخر الجواب عن يوم الغد لأنه يريد الاجابة على سؤال برلماني حول الموضوع. فرد (بيك) بألاّ اعتراض لديه على ذلك (ويمكن للمرء ان يتصور مدى إرتياحه). في الواقع قال للسفير كينارد انه يوافق على ذلك بلا تردد".(٢٣)

وفي اليوم التالي (٣١ آذار) أدلى چمبرلين كما مرّ بنا - بتصريحه التاريخي في مجلس العموم. قائلاً ان بريطانيا وفرنسا "ستبذلان للحكومة الپولندية كل عونٍ ممكنٍ الى أقصى طاقتيهما" إن هوجمت بلادها وإستعدّت لمقاومة الهجوم (انظر ما سبق).

بدا الضمان البريطاني المنفرد في نهاية آذار ١٩٣٩، لكلّ شخصٍ في برلين، بما فيهم المؤلف الذي كان فيها، أمراً مفاجئاً يصعب تصديقه بكلّ وقعه الحسن في بلاد الغرب، وفي شرقي ألمانيا. كان بوسع بريطانيا وفرنسا، بدعم الإتحاد السوڤياتي ان تقوما بعمل حازم لايقاف هتلر بأقل التكاليف وأزهدها مرّة بعد أخرى كما رأينا منذ ١٩٣٦ عندما زحف الألمان الى منطقة الراين المنزوعة السلاح ثم

٢٢- في برقية التعليمات المرسلة الى كينارد (و.س.ب.خ: ج٤ رقم ٥٣٨) كان واضحاً أن روسيا ستكون في نجوة عن الموضوع: جاء فيها "لقد بات واضحاً أن محاولتنا في تثبيت الموقف قد تخفق إن احيط الإتحاد السوڤياتي علماً بصورة رسمية بمباديء المشروع. ان البرقيات الأخيرة الواردة من عدة بعثات دبلوماسية لحكومة صاحب الجلالة حذّرتنا بأن إدخال روسيا ليس قاصراً على تهديد مجهوداتنا البناءة بالإخفاق، بل ستؤدي الى تقوية العلاقات الدولية مع ميثاق مكافحة الكومنترن. فضلاً عن الشعور بالقلق الذي يستحوذ على عدد من الحكومات الصديقة.

٢٣- انظر (و.س.ب.خ) ج٤ رقم ٤٨٥ و٥١٨ و٥٣٨ (نص الإقتراح الأنگلو-فرنسي) ٥٦١ و٥٦٣ و٥٦٦ و٥٧١ و٥٧٣.

في ١٩٣٨ عندما استولوا على النمسا وعندما لوّحوا بشبح الحرب الأوروبيّة فأخذوا السوديت، حتى قبل أسبوعين لما ابتلعوا چيكوسلوڤاكيا. الاّ ان چمبرلين الجائع الى السلم إستنكف، ولم يكتف بهذا بل خرج عن سبيله، وخاطر كما قال – بمستقبله السياسيّ وسمعته، ليعاون هتلر على الفوز بما يريد من الأراضي المجاورة لم يفعل شيئا لإنقاذ إستقلال النمسا. ونسق جهوده مع الدكتاتور الألماني لتدمير إستقلال چيكوسلوڤاكيا وهي البلاد ذات النظام الديمقراطي الحقيقي الوحيد بين جيران ألمانيا الشرقيين. والصديقة الوحيدة للغرب التي ساندت عصبة الأمم وفكرة الضمان الجماعيّ. لم يفكّر حتى في القيمة العسكرية التي يجنيها الغرب من وجود خمس وثلاثين فرقة چيكوسلوڤاكية حسنة التدريب جيدة السلاح محصنة وراء جبالها المنيعة بإستحكاماتها التي لاتقتحم. في الوقت الذي تعجز بريطانيا عن إنزال أكثر من فرقتين الى فرنسا وعندما كان الجيش الألماني غير قادر على الحرب في جبهتين. أو حتى غير قادر على إختراق خطوط الدفاع الچيكية كما إعترف القادة الألمان أنفسهم.

والآن، في عشية وضحاها، يقف چمبرلين في ذروة ردّ فعله المفهوم جيداً على اثر إحتلال هتلر چيكوسلوڤاكيا، وبعد ان ضيّع عمداً بسفاهة وسوء تقدير ما ضيع من فرص كثيرة يقف الآن ليضمن ضماناً منفرداً بلاداً شرقية تسوسها حفنة بل عصابة من "العقداء" العابثين في السياسة كانوا الى ما قبل ساعة من الزمن يتعاونون مع هتلر تعاوناً وثيقاً، لحقوا كالضباع بألمانيا لإقتطاع فلذة من چيكوسلوڤاكيا. أولئك الذين باتت بلادهم مكشوفة عسكرياً، يتعذر الدفاع عنها بتلك المقترحات التي ساعدت الرايخ فيها كل من بريطانيا وپولندا[٢٤]. ولقد حمل وحده مخاطر "الساعة الحادية عشرة" هذه، دون ان يهتمّ بطلب العون من روسيا، بعد ان رفض مرتين خلال سنة واحدة مقترحاتها في القيام بعمل موحد إجماعيّ إزاء أي إعتداء نازي آخر. أخيراً عمل بالضبط الشيء الذي ظلّ أكثر من سنة يؤكد لبريطانيا بقوّة انه لن يقدم عليه: ترك لدولة أخرى القرار في دخول بلاده الحرب من عدمه.

ومهما يكن من أمر فإن خطوة رئيس الوزراء المفاجئة، وإن جاءت متأخرة. خلقت لهتلر وضعاً جديداً

٢٤- لايمكن ان يكون چمبرلين جاهلاً ضعف پولندا العسكريّ. فقد ارسل العقيد (سوورد Sword) الملحق العسكري البريطاني في وارشو بتاريخ ٢٢ آذار (قبل التاريخ أعلاه بأسبوع) بتقرير مطول الى لندن حول الوضع الستراتيجي السيء جداً جاء فيه إنها "محاطة بألمانيا من ثلاث جهات" وأوضح قلة كفاءة القوات المسلحة الپولندية وبخاصة العجز الذي تشكو منه في الأسلحة والتجهيزات الحديثة (المرجع السالف: رقم ٤٩٨). في ٦نيسان، أثناء ما كان العقيد بيك في لندن يبحث في ميثاق المعونة المتبادلة، قام العقيد (سوورد) والملحق الجوي البريطاني قائد السرّب ڤاچيل vachell بإرسال تقارير جديدة أبعث من الأولى على الخيبة واليأس وبيّن (ڤاچيل) أن سلاح الجو الپولندي سيبلغ عدد طائراته خلال الإثني عشر شهراً القادمة (٦٠٠) طائرة كثير منها لايمكن مقارنته بطائرات الألمان" وبيّن (سوورد) أن السلاح الجوي الپولندي والجيش الپولندي يعانيان نقصاً عظيماً في الأسلحة الحديثة، حتى أنهما لايتمكنان إلاّ من إبداء مقاومة ضعيفة أمام هجوم عام ألماني على جميع الجبهات ولخص السفير كينارد تقرير ملحقه العسكري بإبلاغ لندن ان الپولنديين عاجزون عن الدفاع عن الممر والحدود الغربية أمام الألمان وان عليهم التقهقر الى ماوراء (الڤتسولا) في قلب پولندا وأضاف يقول "ان روسيا صديقة ذات أهمية عظيمة" لپولندا. (و.س.ب.خ) ج٥ رقم١٢.

تماماً. يظهر ان بريطانيا ستقف من الآن فصاعداً حائلاً بينه وبين قيامه بعدوانٍ جديد. لم يعد بإستطاعته إستخدام أسلوبه في الإستيلاء على بلاد واحدة في وقت واحد، في حين تقف الديمقراطيات الغربية على مبعدة تتباحث فيما ينبغي عمله. زد على هذا إن خطوة چمبرلين الجديدة تبدو أولى الخطوات الجدية نحو تأليف حلف دوليّ ضدّ ألمانيا ان لم تنجح في تفاديه، فسيؤدي بها الى حالة التطويق نفسها التي كانت كابوس الرايخ الجاثم منذ عهد بسمارك.

-٤-

القضية البيضاء

أسلمت أنباء ضمان چمبرلين لپولندا، الدكتاتور الألماني الى واحدة من نوبات جنونه المألوفة وإتفق ان كان معه الأميرال (كاناريس) رئيس الإستخبارات في القوات المسلحة. وروى هذا، انه راح يتوثب في أرجاء الغرفة ويضرب بقبضته سطح المنضدة المرمرية، وقد قلب الغضب سحنته وهو يصيح متوعداً البريطانيين "سأطبخ لهم عصيده تخنقهم خنقاً!"[٢٥]

في اليوم التالي (١) نيسان. ألقى خطاباً في ڤلهلمسهافن Wilhelmshaven بمناسبة إنزال البارجة (تريبتز). وكان حانقاً الى الحدّ الذي فقد ثقته بما يجري على لسانه، فأمر في آخر لحظة أن يلغى نقل خطبته الى الإذاعة اللاسلكية أثناء الخطاب. وان يعاد بثها فيما بعد من تسجيل صوتي يمكن إجراء تنقيح فيه[٢٦]. حتى النسخة المذاعة بعد التنقيح كانت ملأى بالتهديد لبريطانيا وپولندا.

"إن كانوا يتوقعون [حلفاء الغرب] ان تجلس ألمانيا اليوم صابرة الى آخر يوم بينما يقومون هم بخلق الدول التابعة وإطلاقها على ألمانيا، فهم يتوهمون ويخطئون في إعتبار ألمانيا اليوم هي ألمانيا ما قبل الحرب. وعلى من يعلن إستعداده لإلتقاط الكستناء من النار لتأكلها تلك الدول التابعة، عليه ان يدرك بأنه سيحرق أصابعه... وعندما يقولون في البلاد الأخرى انهم سيتسلحون ويتسلحون بالمزيد، فبوسعي ان اقول لهؤلاء الساسة مايلي: "إنكم لن يتصيبوني بالإرهاق والعجز!" إني مصمم على السير قدماً في هذا الدرب."

٢٥- اقتبسها گيزيڤيوس المرجع السالف ص٣٦٣.

٢٦- في الواقع قطع الإتصال الإذاعي بشبكات إذاعات الراديو الأمريكية بعد بدء هتلر بخطابه فراحت التكهنات في نيويورك تقول انه اغتيل. وكنت في الغرفة المركزية لقسم الموجة القصيرة في دار الإذاعة اللاسلكية ببرلين أشرف على الإتصال بشركة شبكات إذاعة (كولومبيا) في نيويورك عندما قطع البث على حين غرّة. وردّ الموظفون الألمان على إحتجاجاتي بأن أمر القطع صدر من هتلر نفسه. وبعد مرور ١٥ دقيقة إتصلت بي شركة (CBS) تلفونياً من نيويورك للتأكد من إشاعة الإغتيال وكان يمكنني نفيها بسهولة لأني كنت أسمع أثناء المكالمة صوت هتلر يلعلع من خلال إتصال تلفوني مفتوح الى ڤلهلمشتراسّه. في ذلك اليوم كان يصعب جداً إطلاق النار على هتلر لأنه كان يقف وراء صندوق زجاجيّ لايخترقه الرصاص.

كان هتلر حريصاً – كما دلّ عليه إلغاء إذاعة خطابه بصورة مباشرة على ألاّ يستفزّ الرأي العام الخارجي بدرجة كبيرة. وكان قد تردد في برلين ذلك اليوم انه سيلغي المعاهدة البحرية الأنكلو-ألمانية، كأول ردّ على چمبرلين إلاّ انه لم يزد في خطابه عن التصريح بأنه ان لم تشأ بريطانيا الإستمرار في المعاهدة فإن ألمانيا "ستتقبل الأمر بكل هدوء".

وإنتهى هتلر كما إنتهى من أكثر خطبه بترديد نغمة السلم القديمة المألوفة، ليس لألمانيا نية مهاجمة الآخرين... "وإنطلاقاً من هذا الإيمان قررت قبل ثلاثة أسابيع تسمية مؤتمر الحزب السنوي القادم "بمؤتمر الحزب للسلم" وهو شعار أصبح بقدوم صيف ١٩٣٩، مدعاة للسخرية والدعابة أكثر فأكثر.

كان ذلك للإستهلاك المحلّي. أمّا جواب هتلر الحقيقي فقد أعطاه بأتمّ ما يمكن من السرّية لكلّ من (چمبرلين وبيك) بعد يومين (في ٣ نيسان). وكان على شكل أمر سري للغاية موجّه الى القوات المسلّحة. لم يعمل منه غير خمس نسخ وأختير له عنوان "القضية البيضاء" وهو اسم جفري، رنّ صداه الواسع في تاريخ العالم الآتي.

سريّ للغاية

القضية البيضاء

الموقف البولندي الجديد يتطلب... الشروع بالإستعدادات العسكرية لإزالة أيّ تهديد من هذه الجهة والى الأبد عند الضرورة.

أولاً: المتطلبات السياسية والأهداف:

...الهدف تحطيم القوة العسكرية البولندية وخلق حالة في الشرق، ترفض متطلبات الدفاع الوطني. إن مدينة دانزگ الحرة، ستعلن جزءً لايتجزأ من أرض الرايخ حال بدء الأعمال الحربية، كآخر موعد.

يرى القادة السياسيون أنّ من واجبهم في هذه الحالة، عزل پولندا إن أمكن ذلك، أعني قصر رقعة الحرب على پولندا فقط.

إن تطور الازمات المتزايدة الداخلية في فرنسا والحذر الذي سببته في بريطانيا قد ينجم عنها الموقف المنشود الذي نريد في المستقيل غير البعيد جداً.

تدخلّ الإتحاد السوڤياتي... لاينتظر أن يكون له أية فائدة لپولندا... موقف إيطاليا قررّه محور برلين روما.

ثانياً: النتائج العسكرية:

إن الاهداف العظمى لتحشيد القرات المسلحة الألمانية ستظلّ مرتهنة بالموقف العدائي الذي تقفه الديمقراطيات الغربية. و"القضية البيضاء" هي بمثابة تتمة لهذه الإستعدادات يمليها الحذر.

ان عزل پولندا سيتحقق بأسهل وأسرع ما يمكن، حتى بعد بدء الأعمال العسكرية. إن نجحنا في افتتاح الحرب بضربات قاصمة مباغتة والحصول على نصر سريع...

ثالثاً: مهام القوات المسلحة:

إن المهام الملقاة على عاتق (الڤيرماخت) هي تحطيم القوات المسلحة الپولنديّة. ولتحقيق هذا المطلب يجب ان يهيّأ هجوم مباغت، وينفذ.

اما عن الدانزگ:

"إحتلال مباغت للدانزگ يمكن ان يتحقق بمعزل عن "القضية البيضاء" بإستثمار موقف سياسيّ مناسب... الإحتلال يقوم به الجيش منطلقاً من پروسيا الشرقية. سيقوم الأسطول بمساندة عملية الجيش بالتعرضّ من جهة البحر."

"القضية البيضاء" وثيقة طويلة فيها عدة "تعقيبات" و"ملاحق واستطرادات". و"أوامر خاصّة"، ومعظمها أعيدت كتابته منقحاً في ١١ نيسان. واضيف اليه أيضاً موادّ فيما بعد بدنوّ موعد العمليات الحربيّة. الاّ ان (هتلر) ألحق بها في ٣ نيسان الأوامر التالية:

(أ) يجب ان تتم الإستعدادات بشكل يمكن البدء بالعملية في أيّ وقت إبتداءً من أيلول ١٩٣٩ وما بعده. أما بخصوص التاريخ فهو كالموعد الذي عينه هتلر لغزو السوديت (١ تشرين الأول ١٩٣٨) ثبته قبل زمن طويل من بدء العملية وكان أميناً على هذا التاريخ المهم جداً (١ أيلول ١٩٣٩) وبرّ به.

(ب) إن القيادة العليا للقوات المسلحة (ق.ع.ق.م) مكلّفة بوضع جدول توقيت مضبوط "للقضية البيضاء" وان تنظم تنسيق التوقيت بين الفروع الثلاثة (للڤيرماخت).

(ج) إن خطط صنوف الڤيرماخت وجدول الأوقات المفصلة، يجب ان تكون في حوزة (ق.ع.ق.م) في موعد آخره ١ أيار ١٩٣٩[٢٧].

والقضية الآن هي: هل يتمكن هتلر من تحطيم معنوية الپولنديين الى الحدّ الذي يقبلون بمطالبه كما فعل في النمساويين وبالچيك (بمعاونة چمبرلين) أو أن تصمد پولندا وتقاوم العدوان النازي إن جاءها يسعى. واذا اختارت السبيل الثاني فبأي شيء؟ قضى المؤلف الأسبوع الأول من نيسان في پولندا بحثاً عن الأجوبة. فتوصل الى أن الپولنديين لن يرضخوا لتهديد هتلر وسيقاتلون إن تعرضت بلادهم للغزو. ألاّ ان وضعهم السياسيّ والعسكري كان يُرثى له. فقوتهم الجويّة عتيقة غير صالحة للإستعمال، وجيشهم مختلّ النظام ووضعهم السوقيّ (كان الألمان يطوقونهم من جهات ثلاث) ميئوس منه تقريباً. زد على ذلك ان تقوية الألمان جدارهم الغربيّ يجعل من الصعب جداً القيام بهجوم أنگلو-فرنسي على ألمانيا في حالة الهجوم على پولندا، وأخيراً فإن (العقداء) الپولنديين العنيدين لايقبلون بأي عون روسيّ، حتّى ولو وصل الألمان أبواب وارشو!

٢٧- نص القضية البيضاء في [مؤامرة النازيين... ج٦ الص ٩١٦-٩٢٨] ترجمة جزئية لها في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ١٨٦-١٨٧و٢٢٣-٢٢٨ (الوثائق C١٢٠] نص الأصل الألماني في [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج٤ الص ٣٨٠-٤٢٢]

وتلاحقت الأحداث بسرعة. في ٦ نيسان وقع (العقيد بيك) إتفاقية مع بريطانيا العظمى في لندن، محوّلاً الضمانة من جانب واحد الى معاهدة تعاون متبادل مع بريطانيا. وأعلن ان معاهدة دائمية ستوقع حالما تتمّ التفاصيل.

في اليوم التالي (٧ نيسان) أرسل موسوليني جيشه الى ألبانيا. وأضاف هذه الدويلة الجبلية الى فتوحه الحبشي. وبهذا حصل على نقطة وثوب الى اليونان ويوغوسلافيا. وزاد هذا من رعب الدول الصغيرة التي قد تجرؤ على تحدّي المحور في جوّ أوروپا المتوتر هذا. وقد كشفت أوراق وزارة الخارجية الألمانية بأنّها كانت على علمٍ مسبق بهذه الخطوة. وفي ١٣ نيسان أجابت فرنسا وبريطانيا بضمان لليونان ورومانيا. وبات الطرفان يجمعان الصفوف وفي أواسط نيسان وصل گورنگ الى روما، وجرت له مقابلتان طويلتان مع موسوليني (مما أسخط روبنتروب) في السادس عشر والخامس عشر. وتمّ الإتفاق بأنهما "يحتاجان الى سنتين أو ثلاث"[٢٨]. حتى يتمّ إستعدادهما لـ"لحرب عامّة" إلاّ أن گورنگ قال "لو سبقت الحرب هذا الموعد فالمحور في مركز قويّ جداً". و"بإمكانه إلحاق الهزيمة بأي خصم".

ذكر ان نداءً وجهه الرئيس روزفلت بلغ روما وبرلين في ١٥ نيسان وزعم تشيانو ان (الدوتشي) رفض قراءته في مبدأ الأمر، وصرح گورنگ أنه لايستأهل الرّد. ووجده موسوليني أنّه "من اعراض كساح الأطفال*" الاّ ان گورنگ قدّر ان "روزفلت يعاني مباديء مرض عقليّ". وضمن روزفلت برقيته لموسوليني وهتلر سؤالاً صريحاً: أأنتما على إستعداد لإعطاء تأكيد بأن قواتكما المسلحة لن تهاجم أو تغزو أراضي البلاد المستقلّة التالية؟

وعقب هذا قائمة بأسماء واحد وثلاثين قطراً من بينها پولندا ودول البلطيق والإتحاد السوڤياتي والدانمرك وبلجيكا، وهولندا، وفرنسا وبريطانيا. وأعرب روزفلت عن أمله بإعطائها ضمان عدم إعتداء "لمدة عشر سنين على الأقل" أو "ربع قرن إن جرؤنا على النظر البعيد والأمل الكبير" إن اجيب طلبه فهو يعد بمساهمة أمريكا في "مباحثات" على النطاق الدولي. لإراحة العالم من "عبء التسلّح الثقيل" وفتح طرق واسعة للتجارة العالمية. وذكرّ هتلر: "إنكّ اكدت مراراً وتكراراً. عدم رغبتك ورغبة الشعب الألماني في الحرب فان كان الأمر كذلك فلا حرب ثمّ".

ويبدو هذا على ضوء ما هو معلوم أشبه بنداء ساذج إلاّ ان هتلر وجده محرجاً له بحيث لم يخف نيّته في الردّ عليه – لا بشكل مباشر وإنما بخطبة يلقيها في إجتماع فوق العادة للرايخشتاغ في ٢٨ نيسان. وفي الوقت نفسه كشفت أوراق وزارة الخارجية الألمانية المستولى عليها ان ڤلهلمشتراسه في برقية دورية معممة على جميع الدول التي وردت أسماؤها في قائمة روزفلت. ماعدا پولندا وروسيا

٢٨- محاضر الألمان السرية عن محادثات گورنگ-موسوليني في [وثائق عن سياسة... ج٤ الص ٢٤٨-٢٥٧ انظر كذلك يوميات تشيانو الص ٦٦-٦٧.

* معرّضاً بالمرض الذي أُبتلي به روزفلت الذي منعه من السّير.

وبريطانيا وفرنسا، وضعت السؤالين التاليين قيد الإجابة:

هل تشعر تلك الدول بتهديد ألمانيّ لها بأي شكل من الأشكال؟ وهل انها خولت روزفلت طرح هذا الإقتراح؟ وعلق ريبنتروب على هذه البرقية (المرسلة الى مبعوثيه الدبلوماسيين بتاريخ ١٧ نيسان) بمايلي "نحن لانشك في أن الدول المعنية ستجيب على السؤالين معاً بالنفي، لكن مع هذا ولأسباب خاصّة نرغب في الحصول على دليل حقيقيّ فوراً" وقد انكشفت (الأسباب الخاصة) عندما تكلم هتلر في ٢٨ نيسان.

وفي ٢٢ نيسان كانت وزارة الخارجية الألمانية قادرة على رفع تقرير (للزعيم) جاء فيه أن معظم الدول أجابت (بالنفي على السؤالين) ومن بينها يوغوسلاڤيا وبلجيكا والدانمرك، والنرويج، وهولندا ولكسمبورگ، وهو جواب سيوضح كم كان نظر تلك الدول قصيراً ساذجاً في نوايا الرايخ الثالث. على أن الجواب من (رومانيا) كان لاذعاً حريفاً. "إن الحكومة الألمانية هي أعرف من غيرها بقيام التهديد من عدمه". أمّا دولة (لاتڤيا) الصغيرة على البلطيق فلم تدر في أول الأمر ماذا ينتظر منها ان تجيب لكن سرعان ما وجهتها وزارة الخارجية الألمانية الى الوجهة المطلوبة. ففي ١٨ نيسان اتصل (ڤايسيكر) بوزيره المفوض في (ريگا Riga):

... "ليخبره، بأننا لم نفهم جواب وزير الخارجية اللاتيڤي عن سؤالنا حول برقية (روزفلت)، ففي حين أجابت كل الدول، بالنفي طبعاً، نجد السيد (مونترز Munters) يعالج هذه الدعاية الأمريكية السخيفة بشكل كأنما يتطلب القضية مشاورة مع أعضاء حكومته. فإن لم يجب السيد (مونترز) بالنفي على جوابنا فوراً، فلايسعنا إلاّ ان نضيف (لاتڤيا) الى مجموعة البلاد التي تريد أن تجعل نفسها من بين شركاء (روزفلت) المتبرعين وقلت أني أعتقد أن كلمة واحدة بهذا المآل من فم هر (فون كوتزه Von Kotze) [الوزير المفوض الألماني] كافية للحصول على الجواب البديهي منه[٢٩]" . وهكذا كان.

-٥-

ردّ (هتلر) على (روزفلت)

كانت إجابات الدول بمثابة عتادٍ فعّال لهتلر، وقد استخدمه إستخداماً بارعاً وهو ماضٍ في خطبة أمام الرايخشتاغ في اليوم الثامن والعشرين من نيسان الجميل الربيعيّ. وفي إعتقادي إنها كانت أطول خطبة هامة جماهيريّة ألقاها، فقد استنفذت منه أكثر من ساعتين، وربما كانت من عدة نواح وبخاصّة في ندائها الألمان وأصدقاء ألمانيا النازية في الخارج، أروع خطبة جرى بها لسانه، ومن المؤكد انها أعظم ماسمعه المؤلف منه. ولو اقتصر الأمر على بلاغتها وبراعتها وسخريتها وتهكمها وريائها

٢٩- برقية ١٧ نيسان ١٩٣٩[وثائق عن سياسة ألمانيا... ج٦ الص ٢٦٤. ملف وزارة الخارجية عن الأجوبة المرجع السالف الص ٣٠٩-٣١٠. نداء ڤايسيكر التلفوني الى الوزير الألماني في (ريگا) ١٨ نيسان المرجع السالف ٢٨٣-٢٨٤.

فقط فهي والحق يقال قد بلغت حداً لم يبلغه هو مرّة ثانية. ومع أنها كانت قد اعدت للأذن الألمانية إلا ان إذاعتها لم تكن وقفاً على كل محطات الراديو الألمانية وحدها بل تعدتها الى مئات من المحطات العالمية الأخرى، ففي الولايات المتحدة نقلتها الشبكات الإذاعيّة الكبرى. ولم يحظ أحد بهذا العدد من المستمعين في شتّى أرجاء العالم كما حظي به الخطيب من قبل ومن بعد[٣٠].

استهلت الخطبة بمقدمة من المشهيّات المعتادة عن مظالم معاهدة ڤرساي وشتّى صنوف الإجحاف والشقاء الطويل الذي صبّ على رؤوس الشعب الألماني بسببها ثم انتقل الى الردّ أولاً على بريطانيا العظمى وپولندا ردّاً هزّ أوروپا القلقة.

وبعد أن أعرب عن مشاعر الإعجاب والصداقة لإنكلترا، راح يهاجمها لعدم ثقتها به ولسياستها الجديدة "سياسة تطويق" ألمانيا، معلناً إلغاء المعاهدة الأنكلو-ألمانية البحرية المعقودة في ١٩٣٥ قائلاً "إن الأسس التي بنيت عليها قد تقوضت".

فرانكلين د. روزفلت

كذلك مع پولندا، فقد كشف عن إقتراحه لها بخصوص الدانزگ والممر (وكان هذا سراً حوفظ عليه حتى الآن) ووصفه "بأنه أعظم إمتياز يمكن تصوّره، لمصلحة السلم الأوروپي" وأبلغ الرايخشتاغ ان الحكومة الپولندية رفضت هذا "العرض الوحيد الذي لا ثاني له".

"أسفتُ لهذا المسلك غير المفهوم والموقف المحير الذي وقفته حكومة پولندا... والأنكى من هذا أن پولندا إرتأت كما إرتأت چيكوسلوڤاكيا قبل عام وبضغط من حملة دولّية كاذبة - ان الموقف يحتم عليها دعوة مكلفيها من الإحتياط، رغمّ ان ألمانيا لم تدع للخدمة رجلاً واحداً ولم تفكرّ في اتخاذ أي إجراء مهما كان نوعه إزاء پولندا. وهذا بحد ذاته أمر مؤسف جداً وسوف تقرر الأجيال القادمة يوماً ما هل كان من الصواب حقاً رفض هذا الإقتراح الذي تقدمت به. مرّة واحدة... تسوية فريدة مخلصة..."

ومضى هتلر يقول عن الأخبار التي تشير الى نية ألمانيا في مهاجمة پولندا: "انها مجرّد اكاذيب اختلقتها الصحافة العالمية" (لم يكن ثم فرد واحد من عشرات الملايين الذي استمعوا اليه، يدري انه أصدر قبل ثلاثة أسابيع فقط أوامر كتابية الى قواته المسلحة يطلب فيها التأهب لسحق پولندا في

٣٠- في يوم إلقاء الخطاب ابرق ڤايسيكر الى هانس تومسن Hans Thomson القائم بالأعمال الألماني في واشنطن يأمره بأن يؤمن لخطاب الزعيم - أوسع إعلان ممكن في الولايات المتحدة، ويؤكد له أن اعتمادات مالية ستصرف له لهذا الغرض. وفي ١ أيار أرسل تومسن جوابه "الاهتمام بالخطاب، يفوق أي شيء عرف من هذا القبيل. لذلك أمرت أن يرسل النص الإنكليزي الذي طبع هنا... الى عشرات الالوف من العناوين من كل الطوائف والطبقات وبناء على الطلب طبق الخطة المتفق عليها. وسنرسل اليكم قوائم التكاليف فيما بعد" المرجع السالف الص ٣٥٥ و٣٩٩.

أيلول على "أبعد تقدير"). واستمر يقول "ان مختلقات الصحافة حملت پولندا على ابرام إتفاقها مع بريطانيا العظمى الذي سيرغمها "تحت ظروف معينة" على الإقدام على عمل عسكريّ ضدّ ألمانيا". لذلك فإن پولندا خرقت ميثاق عدم الإعتداء الألماني الپولندي؛ وهذا مايجعلني أرى ان الإتفاق قد خرق من جانب واحد هو الجانب الپولندي، فلم يعد له الآن وجود.

وهكذا بعد ان مزق هتلر من جانبه معاهدتين رسميتين قال للرايخشتاغ، انه راغب في التفاوض على بديلَين لهما! وهتف: "اني لأرحب من صميم قلبي بمثل هذه الفكرة. لن يكون ثم أسعد مني لو حققت هذا المطمح". وهذه حيلة قديمة من حيله لطالما أخرجها من جعبته في الماضي كلّما مزق معاهدةً كما مرّ بنا، إلاّ انها لم تعد تنطلي ولعلّه لم يدرك.

بعد ذلك انتقل الى الرئيس روزفلت. وهنا بلغ الدكتاتور الألماني ذروة سحره الخطابي وبلاغته وهو للأذن السويّة ينضح رياءً ونفاقاً وختلاً. لآذان أعضاء الرايخشتاغ المعينين تعييناً وللملايين الألمان من بعدهم، فسخريته البارعة وتهكمه اللاذع، فقد كان اللّذة والمتعة التي ما بعدها متعة. واهتزّ النواب ذوو الكروش بالقهقهات الراعدة وهو يحثو ما كان يبدو لا نهاية له من التهكم والسخر على رأس الرئيس الأمريكي وبتأثير متصاعد متناولاً نقاطه واحدة بعد الأخرى. توقف عن الكلام، وارتسم على شفية ظلّ ابتسامة ثم نطق بصوت منخفض مثل معلم المدرسة بكلمة واحدة: "الجواب" ثم أدلى به. (مازالت صورة هتلر ماثلة لخيال المؤلف وهو يتوقف بين فترة وأخرى لينطق بهدوء كلمة جواب: Ant-wort بينما كان گورنگ الجالس في اعلى المنصّة على كرسي الرآسة يحاول عبثاً كتم ضحكة فيغصّ، بها وأعضاء الرايخشتاغ متهيئون لتفجير قهقهاتهم وزئيرهم حال نطقه بلفظة: جواب Antwort).

يصرح مستر روزفلت أن كلّ المشاكل الدولية يمكن ان تحلّ على مائدة المؤتمر.

الجواب:... سأكون جدّ سعيد لو وجدتْ هذه المشاكل حقاً طريقَ حلّ على مائدة مؤتمر. إن شكي على كل حال – متأت من حقيقة وهي أن أمريكا نفسها هي التي اعربت اعراباً واضحاً لا لبس فيه عن قلّة ثقتها في جدوى المؤتمرات. ذلك لأن أعظم مؤتمر عرفه تاريخ العالم كان عصبة الأمم... وهو مجلس يمثل كل شعوب الأرض خلق تمشياً مع إرادة رئيس جمهورية أمريكيّ. ومع ذلك فإن الولايات المتحدة كانت أول دولة إنسحبت منه ونفضت يديها من اعماله... ولم أقررّ أنا إحتذاء حذو أمريكا إلاّ بعد سنوات من مساهمة غير مثمرة فيه... لم تتحقق في مؤتمر حرية شمالي أمريكا، كما لم تتحقق عليه تسوية الصدام بين الشمال والجنوب. ولن أذكر شيئاً عن ما لايحصى من الحروب والنزاعات التي أدت بالأخير الى اخضاع القارة الأمريكية الشمالية ككلّ.

اني أذكر هذا كلّه، لأبرهن لك يا مستر روزفلت بأنّ وجهة نظرك هذه التي تستأهل بلاشك كل تكريم، لاتجد لها سنداً يدعمها في تاريخ بلادك، أو تاريخ بقية العالم". وراح هتلر يذكرّ الرئيس ان ألمانيا قد دخلت مرة، مؤتمراً هو ڤرساي لا لإجراء مباحثة، بل ليملى عليها ما

يجب أن تفعله: واخضع ممثلوها (الى اذلال أعظم من أيّ إذلال لقيه زعماء قبائل السيوكس Sioux.

أخيراً، وصل هتلر الى لبّ جوابه على إقتراح الرئيس الأمريكي باعطائه تأكيدات بعدم مهاجمة أي دولة من الدول الإحدى والثلاثين.

الجواب: من اين عرف مستر روزفلت، الدول التي تجد نفسها مهددة بالسياسة الألمانية، والدول التي لاتجد نفسها كذلك؟ أو هل ان مستر روزفلت في مركز يسمح له ومن تلقاء ذاته ان يتحسسّ بالانطباعات الروحية والعقليّة للشعوب الأخرى وحكوماتها رغم الأعمال الكبيرة والتبعات الضخمة التي يحملها في بلاده؟

وأخيراً يطلب مستر روزفلت ان يُعطى تأكيداً بأن القوات المسلحة الألمانية لن تهاجم، ولن تغزو وبنوع خاص أراضي وممتلكات الدول المستقلة التالية...

ثم قرأ ببطءٍ اسم كلّ بلد وفيم هو يرخّم الأسماء، كان الضحك في الرايخشتاغ يتعالى ويزداد، ولم يشعر أحد من الأعضاء ولا أحد من سكان برلين ومنهم المؤلف نفسه انه اسقط عمداً وبحيلة إسم بولندا.

وسحب هتلر الآن (ورقة الآس) من كاغد اللعب، أو هذا ما كان قد توهم.

الجواب: لقد تكبدت عناء التثبّت من الدول التي اوردتَ أسماءها فسألتُها أولاً هل تشعر انها مهددة؟ وثانياً وبالاخص هل ان الاستفسار الذي وجهه الرئيس الأمريكي كان بطلب منها أو على الأقل بعد أخذ موافقتها؟

كان الجواب بالنفي في كل حالة... حقّا انه تعذر عليَّ ان استفسر من بعض الدول والشعوب التي نوّه بها. لانها هي نفسها -كما هو الأمر في سورية- لاتملك حريتها، مسلوبة الحقوق تحتلها الدول الديمقراطية إحتلالاً عسكرياً.

وبالإغضاء عن هذه الحقيقة فكلّ الدول المتاخمة لألمانيا قد اعطيت تأكيدات اشدّ وأقوى بكثير...

عليَّ ان اجلب انتباه مستر روزفلت الى غلطة أو اثنتين من امثال هذه الغلطات التاريخية. لقد ذكر ايرلندا مثلاً وهو يطلب تصريحاً من ألمانيا بأنها لاتنوي مهاجمة ايرلندا لقد قرأت قبل أيام خطبة (لدي فاليرا De Valera)، الطاويسيج Taoiseach الايرلندي[٣١]. أنّه لم يتهم فيها ألمانيا وهنا وجه الغرابة خلافاً لرأي مستر روزفلت بمهاجمة ايرلندا، وانمّا كان يندد بإنگلترا ويلومها على تعرضها لايرلندا بالعدوان المستمرّ...

وبعين الطريقة، أخطأ مستر روزفلت الحقيقة كما يبدو وهي ان فلسطين الآن خاضعة للإحتلال العسكريّ الإنگليزي لا الألماني وهكذا قيدت حرية تلك البلاد بالقوّة الوحشية الغاشمة...

٣١- كان هتلر دقيقاً في إستخدام الفظة الگالية Gaelic الدالة على رئيس الوزراء.

قال هتلر... ومع ذلك كلّه فهو على إستعداد "لإعطاء كلّ دولة من الدول المثبتة بالأسماء التأكيد الذي يرغب فيه مستر روزفلت بل وأكثر من هذا! [وهنا اخذت عيناه تلمعان].

"لااريد ان تمرّ هذه الفرصة دون ان اقدم لرئيس الولايات المتحدة فوق كل شيء تأكيداً بخصوص تلك الأصقاع التي يشغل أمرها باله أكثر من أي شيء آخر واعني بها الولايات المتحدة نفسها وغيرها من دول القارة الأمريكيّة قاطبةً.

أنا أصرح هنا بكلّ صدق. إن كل ما تواتر وانتشر من شائعات حول نية ألمانيا في القيام بهجوم أو غزو هنا أو في القارة الأمريكية انما هو محض اكذوبة ضخمة مختلقة بصرف النظر عن كون المتواترات لاتجد لها منبتاً إلاّ في عقول السذّج بقدر ما يتعلق الأمر بالإمكانات العسكريّة المطلوبة لتحقيق كل هذا.

فاهتزّ الرايخشتاغ بالقهقهة، ولم تنفرج شفتا هتلر عن بسمة وتوسل بمجهود منه كبير الى ابقاء التأثير الكبير باتخاذه سيماء الوقار.

"يا مستر روزفلت! إني لأفهم حق الفهم أن بلادك والثروة الهائلة التي توجد فيها هما اللذان يدفعانك الى الشعور بالمسؤولية إزاء العالم أجمع وإزاء تاريخ الشعوب قاطبة. أمّا أنا يا سيّدي فقد وُضعت في مجال أصغر وأكثر خصاصة بكثير...

إنّي تسلمت الحكم مرّة في دولة كان يواجهها الخراب التام والفضل في حالتها هذه يعود الى ثقتها بمواعيد الآخرين والى نظام الحكومات الديمقراطيّة المهتريء السيء... فتغلبت على الفوضى في ألمانيا. واعدت الأمن والاستقرار الى نصابهما وزدت في الإنتاج زيادة جبّارة... واصلحت وسائل المواصلات وشققت طرقاً عظيمة وترعاً وقنوات واقمت مصانع جديدة هائلة الجرم وفي الوقت نفسه بذلت جهوداً في التطوير العلمي والثقافي لشعبنا.

نجحت في ايجاد عمل مفيد مرة أخرى لسبعة ملايين عاطل... ولم اكتف بتوحيد الشعب الألماني سياسياً بل سلحته. كذلك جاهدت في تمزيق معاهدة ڤرساي صحيفةً صحيفةً. تلك المعاهدة ببنودها الأربعمائة والثمانية والأربعين التي تحوي أشنع وأقذر ما أخضع له شعب أو طائفة من أبناء البشر من الظلم والاضطهاد.

أعدت الى الرايخ الأقاليم التي سرقت منا في ١٩١٩. أعدت ملايين من الألمان الى بلادهم الأم وكانوا قد قُطعوا عنا، وعاشوا في بؤس وشقاء أعدتهم بدون اراقة قطر دم يا مستر روزفلت وبدون ايصال شعبي والشعوب الأخرى الى شقاء الحرب واهوالها...

وعملك يامستر روزفلت سهل جداً ان قورن بعملي. أصبحتَ رئيساً للولايات المتحدة في ١٩٣٣ عندما أصبحتُ مستشاراً للرايخ ومن المبدأ وجدت نفسك على رأس واحدة من أكبر وأغنى دول العالم... الظروف الملائمة في بلادك مؤاتية الى حدّ كبير، بحيث يمكنك أن تجد لك وقتاً وفراغاً لصرف جانب من اهتمامك الى المشاكل الدولية... إن اهتمامك وإقتراحاتك تشمل منطقة أوسع وارحب من

منطقتي، لأن عالمي الذي شاءت الإرادة الالهية ان تضعني فيه يا مستر روزفلت وحتمت عليَّ ان أعمل له وفي سبيله هو مع الأسف أصغر من عالمك بكثير. وإن كان عندي أغلى واثمن من أي شيء آخر لأنه مقصور على شعبي!

وفي إعتقادي إن هذا هو السبيل الأمثل لأكون ذا نفع كبير لما نهتمّ به جميعاً وأعني بذلك العدالة، والرفاء والتقدم والسلم لكلّ شعوب العالم.

كانت هذه الخطبة للشعب الألماني المعصوب العيون أعظم مأثرة خطابية لهتلر. ولكن المتنقل في أرجاء أوروبا خلال الأيام التي تلتها كان يسهل عليه أن يجد أنها لم تخدع الشعوب ولا الحكومات في الخارج خلافاً لعدد من خطب هتلر السابقة. فقد وضح لديهم خلافاً للألمان، أفانين الخداع التي استبطنتها. وادركوا، رغم تغلب الدكتاتور الألماني على روزفلت بفصاحته الخطابية، انه لم يجب على اسئلة الرئيس الأمريكي الأصيلة: هل شبع من العدوان؟ هل سيهاجم پولندا؟

واثبتت الأيام انها آخر خطبة عظيمة في حياة هتلر ألقاها في عهد السلم. وقد بلغ المتشرد النمساوي السابق بعبقريته الخطابيّة مبلغاً من السؤدد في الحياة ما ليس بعده مزيد. وبات واجباً عليه من الآن ان يحاول بناء محرابه في التاريخ، كمقاتل.

وانزوى في مقرّة الخلوي الجبلي برختسگادن لقضاء موسم الصيف ولم يجب على الردّ الپولندي الذي جاء في سياق خطاب العقيد بيك في ٥ أيار أمام البرلمان. وورد في مذكرة رسميّة قدمت الى ألمانيا في اليوم نفسه. وتضمن الردّ الپولندي مع خطاب (بيك) جواباً رزيناً رقيقاً، إلاّ انه صلب.

"[جاء فيه] واضح ان المفاوضات التي تجري على أساس قيام دولة بوضع مطاليب وان تجبر الدولة الأخرى على قبولها دون تغيير لايمكن أن تسمّى مفاوضات."

-٦-

التدخّل الروسي: المرحلة الأولى

أغفل هتلر في خطابه أمام الرايخشتاغ (٢٨ نيسان) هجومه المعتاد على الإتحاد السوڤياتي ولم يتطرق اليه بحرف ونوّه (العقيد بيك) في ردّه، بـ"تلميحات أخرى مختلفة" قامت بها ألمانيا "تعدّت حدود موضوعات المناقشة بكثير" وانه يحتفظ بحق "العودة الى هذه القضية عند الضرورة". وهو تنويه مقنّع لكن واضح - بمجهودات ألمانيا السابقة لإقناع پولندا بالانضمام الى ميثاق مكافحة الكومنترن الموجه ضد روسيا. هذه المجهودات نبذت الآن وبدأت افكار جديدة تنمو وتترعرع في تُربتي برلين وموسكو وإن كان (بيك) و(چمبرلين) يجهلان الأمر.

من الصعب التحقق عن الزمن الذي نجمت فيه أولى بوادر التفاهم بين ألمانيا النازية والإتحاد

السوفياتي وفي أي العاصمتين؟ ذلك التفاهم الذي كان سيخلّف آثاراً عظيمة على العالم. ومن أولى بوادر تغيّر الريح الطفيف كما مرّ ما حصل في ٣ تشرين الأول ١٩٣٨ بعد مونيخ باربعة أيام، عندما ابلغ مستشار السفارة الألمانية في موسكو، أن ستالين قد يستنتج اموراً معينةً من مسألة تسوية موضوع السوديت التي استشني من المشاركة فيها، ومن المحتمل جداً ان يكون "أكثر ايجابيّة" تجاه ألمانيا. وحبّذ الدبلوماسي بقوة، تعاوناً اقتصادياً "أوسع" بين البلدين وجدد إقتراحه هذا في تقرير آخر بعثه الى برلين بعد أسبوع(٣٢).

وفي أواخر شهر تشرين الأول أعلم الكونت فون در شولنبرگ السفير الألماني في موسكو، وزارة الخارجية "انه ينوي في المستقبل القريب جداً مفاتحة مولوتوف رئيس مجلس مفوضي الشعب في محاولة للوصول الى تسوية المشاكل التي تعكر صفو العلاقات السوفيتية-الألمانية"(٣٣). من الصعب جداً أن يتكون عند السفير هذه النية من تلقاء نفسه وبالنظر الى الموقف العدائي الشديد الماضي الذي وقفه هتلر من موسكو لابد وان الاشارة كان مصدرها برلين.

وقد اتضح هذا من دراسة وثائق وزارة الخارجية المستولى عليها وكانت أول خطوة في رأي ألمانيا هي تحسين التجارة بين البلدين وتكشف مذكرة لوزارة الخارجية مؤرخة ٤ تشرين الثاني ١٩٣٨ "عن طلب واضح من دائرة الفيلد مارشال گورنگ، ان تبذل محاولات على الأقل لاعادة النشاط الى تجارتنا مع روسيا وبخاصة في المواد الأولية"(٣٤).

كانت الإتفاقات الروسية الألمانية الاقتصادية قد إنتهى مفعولها في نهاية الحول. وامتلأت ملفات ڤلهلمشتراسه بمعلومات توضح الارتفاعات والانخفاضات التي عانتها المفاوضات لتجديد تكلم الإتفاقات.

والطرفان يشكان شكاً عميقاً احدهما في نوايا الآخر إلاّ انهما رغم هذا حققا تقدّما يكاد لايلمس. وجرت في ٢٢ تشرين الأول محادثات طويلة في موسكو بين الموظفين التجاريين السوڤيت وبين (يوليوس شنوره Julius Schnurre) بطل الاقتصاد الألماني وحلاّل مشاكله البارع.

بعد عطلة رأس السنة بايّام قام السفير السوڤيتي (إلكساي ميركالوف Alexei Merekalov) بواحدة من زياراته النادرة جداً لوزارة الخاجيّة الألمانية لإبلاغها برغبة الإتحاد السوڤياتي في فتح عهد جديد للعلاقات الاقتصادية الروسية الألمانية وظلّت المحادثات تسير سيراً مرضياً بضعة أسابيع ولكنها كادت تنقطع في ١٢ شباط وسبب الخلاف كما أشيع هو هل يتم إجراء المحادثات الرئيسية في موسكو أم في برلين؟ إلاّ ان العلّة الحقيقية كشفتها مذكرة مدير دائرة السياسة الإقتصادية في وزارة الخارجية الألمانية المؤرخة ١١ آذار ١٩٣٩.

٣٢- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ ص٦٠٢-٦٠٧.
٣٣- المرجع السالف الص ٦٠٧-٦٠٨ (تقرير ٢٦ تشرين اول ١٩٣٨).
٣٤- المرجع السالف الص٦٠٨-٦٠٩.

فمع ان ألمانيا كانت بحاجة ماسّة الى المواد الأولية الروسية وگورنگ يطلبها باستمرار، إلاّ ان الرايخ كان عاجزاً عن مقايضة الإتحاد السوڤياتي ببضائع مقابل ما يستورد. ووجد مدير الدائرة (أن انقطاع المفاوضات أمر مؤسف للغاية بسبب حاجة ألمانيا الى المواد الأوليّة[٣٥].

لكن، إن كان الاخفاق نصيب المحاولة الأولى للتقارب في علاقة القطرين الاقتصادية في ذلك الحين، فهناك تعلاّت أخرى عنت فيما بعد. في ١٠ آذار ١٩٣٩، ألقى (ستالين) خطبة طويلة في جلسة افتتاح مؤتمر الحزب الشيوعي الثامن عشر في موسكو وبعدها بايّام ثلاثة كتب (شولنبرگ) الشديد الإنتباه تقريراً مسهباً عن الخطاب الى برلين. ورأى "ان ما هو جدير بالاهتمام فيه هو ان تهكم ستالين ونقده كانا موجهين ضدّ بريطانيا، يفوق حدّة وعنفاً على وجهه الى ما أطلق عليه [دول العدوان] ولاسيما ألمانيا". وجلب السفير أكثر الاهتمام الى ملاحظات ستالين: "إن ضعف العالم الديمقراطيّ... يتضح من واقع تخليه عن مبدأ الضمان الجماعي واتباع دوله سياسة عدم التدخل والحياد. هذه السياسة تستبطن الرّغبة في تحويل اهتمام دول العدوان الى فرائس اخرى" وإقتبس أيضاً اتهامات الدكتاتور السوڤيتي للحلفاء الغربيين:

"انهم يدفعون الألمان الى الشرق أبعد فأبعد، ويعدونهم بالفريسة السهلة المنقادة ويقولون لهم: ما عليكم إلاّ ان تثيروا على البولشفيك حرباً، وكل شيء آخر سيكون على هواكم. هذا هو الحثّ والتشجيع بعينه... يبدو وكأن الغرض منه... إثارة الغلّ والغضب في نفس الإتحاد السوڤياتي ضدّ ألمانيا... وشن حرب على ألمانيا دون أسباب واضحة... وفي الختام لخّص ستالين المبادىء المرشدة:

١ - الاستمرار في اتباع سياسة سلم وبناء وتدعيم العلاقات الاقتصادية مع كل الدول.

٢ -... ألاّ ندع بلادنا تدخل حرباً أو صداماً مسلحاً يسعى اليه تجار الحروب، أولئك الذين كان من عادتهم ان يدفعوا الآخرين الى إلتقاط الكستناء من النار لهم[٣٦].

هذا انذار صريح من الرجل الذي يرجع اليه القرار النهائي في كل الأمور في روسيا. وهو يقصد ان الإتحاد السوڤياتي لاينوي ان يندفع الى حرب مع النازية نتيجة لمناورات تستهدف تخليص بريطانيا وفرنسا منها ان لم يفهم هذا التحذير في لندن أو أعير اذناً صماء فقد تنبهت اليه برلين على أقل تقدير[٣٧].

٣٥- المرجع نفسه ص٦٣٦.

٣٦- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ١-٣.

٣٧- مع أن رسالة لوكالة أنباء الاسوشييدت پريس من موسكو (نشرت في جريدة نيويورك تايمس في ١٢ آذار تشير الى ان تنديد (ستالين) بالمجهودات التى تبذل لتوريط روسيا في حرب مع ألمانيا أدت ألى انتشار الاحاديث في الاوساط الدبلوماسية في موسكو عن إحتمال حصول تقارب بين الإتحاد السوڤياتي وألمانيا، فالظاهر أن السر ويليم سيدز William Seeds السفير البريطاني في موسكو لم يسهم في أي حديث كهذا. ففي التقرير الذي ارسله عن خطاب ستالين، لم ينوه باي إحتمال مثل هذا، هناك دبلوماسيٌ غربي واحد هو جوزيف ديڤيز Joseph Davies السفير الأمريكي السابق في موسكو (كان سفيراً في بلجيكا في ذلك الحين) توصل الى الإستنتاج الصائب فعلاً من خطاب ستالين فدوّن الخاطرة التالية في يوميته المؤرخة ١١ آذار: "إنه تصريح ذو مدلول واضح. إنه يحمل بوادر إنذار صريح =

كذلك كان واضحاً من خطاب ستالين. ومن مختلف الاستقراءات الدبلوماسية التي تم تبادلها بعدها بقليل ان السياسة الخارجية السوڤيتية مازالت واضحة جداً وان إتسمت بالحذر. بعد الإحتلال النازي لچيكوسلوڤاكيا بثلاثة أيام اقترحت الحكومة الروسية كما مرّ بنا مؤتمر الدول الستّ لبحث الوسائل التي تحول دون إعتداءات جديدة. ورفضه چمبرلين محتجاً بانه "سابق لأوانه"(٣٨).

كان ذلك في ١٨ آذار. وبعده بثلاثة أيام صدر بيان رسميّ أسرع السفير الألماني بابراقه الى برلين. أنكرت الحكومة فيه ان الإتحاد السوڤياتي قد عرض على كل من رومانيا وپولندا مساعدته "في حالة وقوعهما ضحيّة عدوان". والسبب هو "أنه لم يقع طلب على الحكومة السوڤيتية بالمعونة لا من پولندا ولا من رومانيا، ولم تبلغاها باي خطر بات يتهددهما(٣٩).

وربّما كان ضمان بريطانيا من جانب واحد، لپولندا (٣١ آذار) عاملاً على إقناع (ستالين) بأن بريطانيا العظمى تفضل حلفاً مع پولندا على حلف مع روسيا. وان چمبرلين عازم -كما كان أيام مونيخ- على إبعاد الإتحاد السوڤياتي من الدخول في جمعية الدول الأوروپيّة(٤٠).

من هذا الوضع، بدأ الألمان والطليان يتحينون بعض الفرص. فأسرع (گورنگ) الذي كان له تأثير كبير على هتلر في الشؤون الخارجية، الى مقابلة (موسوليني) في روما في ١٦ نيسان وجلب انتباه الدوتشي الى خطاب ستالين الأخير في مؤتمر الحزب الشيوعي. وصارحه بمدى التأثير الذي خلفه فيه قوله "ان السوڤيت لن يسمحوا لأنفسهم ان يكونوا حرثاً وطعاماً لمدافع الدول الرأسمالية". وقال أنه سيسأل الزعيم (هل بالامكان ان يجسّ نبض روسيا بحذر... لغرض التقارب rapprochement وذكر موسوليني "ان الزعيم في خطبه الأخيرة لم يورد ذكر روسيا مطلقاً" وتشير الوثائق السرّية الألمانية عن الإجتماع ان موسوليني رحب بفكرة التقارب بين دول المحور وبين الإتحاد السوڤياتي ترحيباً حاراً، وقال انه أحسّ ايضاً بتغيير في موسكو ورأى ان التقارب قد يمكن "تحقيقه بسهولة".

"[قال موسوليني] الهدف سيكون إستمالة روسيا لمقابلة مجهودات بريطانيا في عملية التطويق

= للحكومتين البريطانية والفرنسيين بأن السوڤيت بدأوا يملّون من وقوفهما من المعتدين موقفاً متخاذلاً "غير واقعيّ"... انه على كل حال بادرة شؤم للمفاوضات... بين بريطانيا والإتحاد السوڤياتي هي والحق يقال اول اشارة خطر واضحة رأيتها" وفي ٢١ آذار كتب للشيخ كي پيتمان Key Pittman "...هتلر يبذل محاولات يائسة لفصل ستالين عن فرنسا وإنگلترا. فان لم يستفق الفرنسيون والبريطانيون من غفوتهم فأخشى انه سينجح" (ديڤيز: بعثة الى موسكو Mission to Moscow) الص ٤٣٧-٤٣٩. تقرير السفير سيدز (و.س.ب.خ) ج٤ رقم٤١٩.

٣٨- سأل السفير الروسي إيڤان مايسكي Ivan Maisky لورد هاليفاكس في ١٩ آذار، لماذا لم يقبل الإقتراح الروسي لعقد مؤتمر (يفضل عقده في بوخارست). فأجابه "لايمكن لوزير من وزراء التاج أن يضيع وقتاً الآن للسفر الى بوخارست". والواضح أن هذا الإهمال قد أحنق الروس وألهم في المفاوضات التالية مع الإنگليز والفرنسيين. قال مايسكي فيما بعد للنائب المحافظ (روبرت بوثبي) إن رفض الإقتراح السوڤيتي كان ضربة صاعقة أخرى على سياسة الضمان الجماعي الفعالة" وإنها ختمت على مصير ليتفينوف. (بوثبي: أقاتل لأعيش، ص١٨٩) تصريح هاليفاكس لمايسكي (و.س.ب.خ) ج٤ ص٤٣٣.

٣٩- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٤ الص٨٨-٨٩.

٤٠- المرجع نفسه ص١٣٩.

ببرود وجفاء بشكل يتمشى والخطوط التي رسمتها خطبة (ستالين)... زد على ذلك ان دولتي المحور بكفاحهما المشترك للبلوتوقراطية والرأسمالية، ترميان الى حدٍّ ما، الى الغايات التي يعمل لها النظام السوڤيتي"[٤١].

كان تحولاً عنيفاً في سياسة المحور لاشك سيصيب چمبرلين بالدهشة لو وقف عليه. وربما ادهش (ليتفينوف) ايضاً. في اليوم الذي جرى هذا البحث بين (گورنگ) و(موسوليني) وهو السادس عشر من نيسان إستقبل مفوض الشعب للشؤون الخارجية السوڤيتية السفير البريطاني في موسكو وعرض عليه إقتراحاً رسمياً لحلف ثلاثي بالتعاون المتبادل بين فرنسا وبريطانيا العظمى والإتحاد السوڤياتي. يعزز بميثاق عسكريّ بينهما لتقوية الحلف بضمانة الموقعين عليه، وفتح باب دخول لپولندا إن شاءت، كدولة رابعة في الحلف. ولكلّ الشعوب في شرق أوروپا التي تشعر انها مهددة بعدوان ألمانيا النازية. كان هذا آخر عرض يقدمه (ليتفينوف) لإنشاء حلف ضدّ الرايخ الثالث وان هذا الوزير الروسي الذي ربط سمعته السياسيّة بسياسة ايقاف هتلر عند حدّه عن طريق عمل إجماعيّ كان يفكر على الأقلّ بنجاحه في توحيد الديمقراطيات الغربية والإتحاد السوڤياتي لهذا الهدف. ولقد قال چرچل شاكيا في خطبة له (٤ أيار) من عدم قبول لندن بالعرض السوڤيتي حتى ذلك الحين "ليس ثم وسيلة لتحقيق جبهة شرقية تقف في وجه العدوان النازي دون مساعدة روسيا الفعّالة". ليس ثم دولة أخرى غيرها في شرق أوروپا حتى پولندا نفسها - لها ما لروسيا من القوة العسكريّة ما يؤهلها الى اقامة جبهة في ذلك الصقع، ومع هذا فقد احدث الإقتراح الروسيّ فزعاً في كل من لندن وپاريس.

وقبل رفضه قام ستالين باول بادرة جدية للتحول الى الرصيف الآخر من الطريق.

في اليوم الذي تلا قيام (ليتفينوف) ببسط إقتراحه الكريم البعيد الأثر للسفير البريطاني في موسكو (١٧ نيسان) قام السفير السوڤيتي في برلين بزيارة (ڤايسيكر) في وزارة الخارجية. وكانت اوّل زورة يقوم بها السفير له كما ذكر في تقريره منذ ان تولى منصبه قبل عام تقريباً.

وبعد عبارات تمهيدية حول العلاقات الاقتصادية الروسية الألمانية تحول السفير الى امور السياسة و...

"[كتب ڤايسيكر] سألني دون مقدمات ما هو رأيي في العلاقات الألمانية الروسية... وقد تكلم السفير بما يأتي على وجه التقريب: "ان السياسة الروسية تكاد دائماً تتبع خطاً مستقيماً. والخلافات العقائدية يكاد لايكون لها أي تأثير معاكس على العلاقات بين روسيا وإيطاليا. ولايمكنها ان تخلّ بعلاقتها مع ألمانيا كذلك. إن روسيا لم تستغلّ الاحتكاك الحاليّ بين ألمانيا وديمقراطيات الغرب ضدّنا وهي ايضاً لاترغب فيه وبقدر ما يتعلق الأمر بروسيا فانها لاتجد سبباً يمنعها من العيش معنا بوضع اعتيادي ولاتجد مبرراً يحول دون انبثاق علاقات حسنة متزايدة، من ذلك التعايش الاعتيادي".

٤١- المحضر الألماني لإجتماع گورنگ-موسوليني ١٦ نيسان ١٩٣٩، المرجع نفسه ٢٥٩-٢٦٠.

"وانهى السيد (ميريكالوف) حديثه بهذه العبارة الأخيرة: انه ينوي العودة الى موسكو خلال يوم أو إثنين[٤٢]."

وفي موسكو التي آب اليها السفير السوڤيتي حصل جديد في الثالث من أيار. في هذا اليوم ظهر في الصحف السوڤيتية على واجهاتها الأخيرة وتحت عمود منزوٍ بعنوان "أنباء صغيرة"، الخبر التالي: "أعفي الرفيق ليتفينوف من منصب مفوض الشعب (قوميسار) الشؤون الخارجية بناء على طلبه". وحلّ محله (فياجيسلاف مولوتوف Vyacheslav Molotov) رئيس مجلس مفوضي الشعب.

وأبلغ القائم بالأعمال الألماني برلين بهذا التغيير في اليوم التالي:

"ان التغيير المفاجيء أحدث اعظم الدهشة هنا. كان ليتفينوف في وسط المفاوضات مع المندوبين البريطانيين. كما ظهر قريباً جداً من ستالين على المنصة في استعراض اوّل أيار..."

"ولما كان ليتفينوف قد استقبل السفير البريطاني في موعد قريب وهو الثاني من أيار، بل حتى ذكر في الصحف امس بأنه كان ضيف الشرف في الاستعراض العمالي فيبدو ان عزله كان بقرار فجائي اتخذه ستالين... وفي مؤتمر الحزب الشيوعي الأخير حضّ ستالين على الأخذ بأسباب الحذر لئلا يجرّ الإتحاد السوڤياتي جراً الى صدام. أمّا مولوتوف الذي لم يكن يهودياً، ومعروف بانه اصدق أصدقاء ستالين، واقرب اعوانه اليه. فيكون تعيينه إشارة ضمان واضحة بأن السياسة الخارجية ستكون مرسومة من قبل ستالين وموجهة توجيها مباشراً دقيقاً منه[٤٣].

ان مغزى عزل (لتفينوف) المفاجيء كان واضحاً للجميع. فهو يعني تحولاً حاداً عنيفاً في السياسة الخارجية السوڤيتية. فقد كان (لتفينوف) رأس المرسلين وأمام المبشرين بالضمان الجماعي وتقوية سلطان عصبة الأمم. وتحقيق الأمن الروسي ضد عدوان ألمانيا النازية بحلف عسكري مع بريطانيا العظمى وفرنسا. فقضى تردد چمبرلين في عقد مثل هذا الحلف على مستقبل وزير الخارجية السوڤيتي وحكم ستالين وحكمه الوحيد النافذ في موسكو - بأن سياسة (ليتفينوف) قد اخفقت. والأنكى من ذلك انها كانت تتهدد الإتحاد السوڤياتي بزجّه في حرب مع ألمانيا، تحاول الديمقراطيات الغربية بجدع الأنف ان تظلّ بعيدة عنها وإستنتج (ستالين) ان الوقت قد ازف لمحاولة سلوك سبيل جديدة[٤٤]، ان

٤٢- المرجع نفسه الص ٢٦٦-٢٦٧.

٤٣- المرجع نفسه الص ٤١٩-٤٢٠.

٤٤- لو أمكننا أن نثق بعض الثقة الحذرة بيوميات ليتفينوف: Notes for A Journal فإن ستالين كان يفكر بتبديل كهذا منذ (مونيخ) حيث أنكر على الإتحاد السوڤياتي حق حضوره. وتقول احدى يوميات هذا الكتاب ان ستالين اعلم ليتفينوف في نهاية ١٩٣٨ "إننا على إستعداد للتوصل الى إتفاق مع ألمانيا... ونجعل پولندا غير مؤذية أيضاً" وكتب ليتفينوف في كانون الثاني ١٩٣٩ "الدلائل تشير الى انهم قرروا تنحيتي" وفي الخاطرة نفسها بين أن كل المراسلات من السفارة السوڤيتية في برلين أصبحت تمّر الآن على ستالين أولاً وان السفير (ميريكالوف) بناء على أوامر ستالين يهم الآن بمفاوضة ڤايسيكر كيما يعلم هتلر أن في امكاننا الآن عقد إتفاق: بينما لم يكن ذلك ممكنا قبل الآن". هذه المذكرات يغلب عليها الغموض. والشك فيها كثير. ولقد قام الأستاذ هاليت كارّ وهو مرجع بريطاني في الشؤون السوڤيتية بتدقيقها ومع أنه وجد بعضها قد عدّل ونقّح الى الحد الذي بدا خيالاً محضاً. على ان جانبا كبيراً منها يمثل نظرات ليتفينوف الى حدٍ ما.

كان بوسع چمبرلين ان يهديء هتلر وينزل الى رغباته أفلا يستطيع الدكتاتور الروسي ذلك؟ ان عزل ليتفينوف (اليهودي) واحلال (مولوتوف) الذي لم يكن يهودياً. كما ابرزت مذكرة السفارة الألمانية. كان ينتظر له ان يحدث في اوساط النازيين العليا رجّة معينة لها مدلولها.

ولكي يتمّ التأكد من أن مدلول التغيير لم يفت ملاحظة الألمان. تعرض القائم بالأعمال السوڤيتي (جيورجي أستاخوف Georgi Astakhov) للموضوع في ٥ أيار عند محادثته مع الدكتور (يوليوس شنوره) الخبير الأقتصادي لشؤون شرق أوروپا في وزارة الخارجية الألمانية. [قال شنوره] "طرق استاخوف باب موضوع تنحية ليتفينوف، وحاول... ان يعرف هل سيؤدي هذا الى تغيير موقفنا من الإتحاد السوڤياتي؟ وكان يعلق أهمية كبيرة على شخصية مولوتوف، الذي لم يكن اختصاصياً في السياسة الخارجية واقفاً على دقائقها، الاّ انه سيكون له شأن كبير في توجيه السياسة الخارجية السوڤيتية المقبلة(٤٥).

كذلك دعا القائم بالأعمال الألمان الى استئناف المفاوضات التجارية التي قطعت في شباط. لم تردّ الحكومة البريطانية على مقترحات الإتحاد السوڤياتي المقدمة في ١٦ نيسان، الاّ في ٨ أيار. وكان الرفض البات الجواب على إقتراح الحلف العسكري. وزادت من الشك في موسكو بأن چمبرلين لايريد اقامة حلف عسكريّ مع روسيا لمنع هتلر من الإستيلاء على پولندا.

ولذلك لم يكن بمستغرب ان يشتدّ الروس في التقرب الى الألمان. وفي ١٧ أيار زار (استاخوف) (شنوره) في وزارة الخارجية مرة ثانية وبعد الحديث في مشاكل التجارة، إنجرّ الى شؤون أوسع:

(جاء في تقرير شنوره) بيّن استاخوف انه لايوجد تعارض في السياسة الخارجية بين ألمانيا والإتحاد السوڤياتي. ولذلك فلا مبرر ثم لقيام أيّ عداء أو خصومة بين البلدين. صحيح انه يوجد في الإتحاد السوڤياتي شعور سائد حول الخطر الألماني المحدق ومما لاشك فيه ان القضاء على هذا الشعور ممكن، وان تصير عوامل عدم الثقة الى زوال، وقال رداً على سؤالي المشابه (انّ المفاوضات الأنگلو سوڤيتية لن تصل الى نتائج ما كما يرغب فيها البريطانيون وحسبما يبدو في الوقت الحاضر(٤٦).

بعد هذا بثلاثة أيام. تبادل السفير (فون در شولنبرگ) حديثاً طويلاً مع مولوتوف في موسكو، ووجد وزير الخارجية الجديد (كثير الودّ) وابلغ المبعوث الألماني ان المفاوضات الاقتصادية بين البلدين يمكن استئنافها ان تم خلق "الأسس السياسية الضرورية لها". وكان هذا تقرباً جديداً للكرملين. الاّ انه عُرض بحذر من قبل (مولوتوف) الأريب وعندما سأله (شولنبرگ) ماذا يقصد بالأسس السياسية اجاب الروسي انه شيء ينبغي على كلتا الحكومتين ان تفكرا فيه. وضاعت محاولات السفير كلّها في حمل القوميسار الماكر على التصريح. وذكّر شولنبرگ برلين "بأن مولوتوف معروف بصفة العناد". وفي طريقه الى الخارج بعد ختام الزيارة عرج على وكيل الوزارة (فلاديمير بوتمكين Vladimir Potemkin)

٤٥- المرجع السالف ص٤٢٩.
٤٦- المرجع السالف الص ٤٣٥-٣٤٦.

وصارحه بانه لم يفهم ماذا اراد (مولوتوف) بالأسس السياسية. وذكر في تقريره "لقد طلبت من السيد بوتمكين، ان يحدّد لي المعنى"(٤٧).

لم تفت عيني السفير الفرنسي اليقظتين تجدد الإتصالات بين برلين وموسكو في العاصمة الألمانية. ونحن نجد (موسيو كولوندر) يبلغ وزارة الخارجية الفرنسية في ٧ أيار بعد عزل ليتفينوف باربعة أيام بأن المعلومات التي ابلغه بها أحد المقربين جداً من (الزعيم) تشير الى ان ألمانيا تنشد تفاهماً مع روسيا ستكون نتيجته (بين نتائج أخرى) تقسيماً رابعاً لپولندا. وبعدها بيومين ابرق السفير الفرنسي الى پاريس، متحدثاً عن اشاعات جديدة ترددت في برلين مفادها ان ألمانيا قد تقدمت الى روسيا او انها ستتقدم بمقترحات، تستهدف تقسيم پولندا(٤٨).

-٧-

الميثاق الفولاذي

مع ان كبار قادة (الڤيرماخت) كانوا يستخفون بقوة إيطاليا العسكرية فنحن نجد هتلر الآن يلحّ في ابرام حلف عسكري مع إيطاليا لم يكن موسوليني مستعجلاً في عقده. وبدأت محادثات بين أركان القيادتين العامتين في نيسان وقدم الجنرال كايتل تقريراً لـ(ق.ع.ق.م) معرباً فيه عن إعتقاده ان كلا من القوات المسلحة الإيطالية، والتسليح الإيطالي لايمتازان بالجودة، وأوضح يقول: من الضروري اتخاذ قرار بالحرب فوراً والاّ لن يكون من الطليان بذوي نفع فيها(٤٩). وكشفت يوميات تشيانو. في أواسط نيسان(٥٠): انه كان شديد القلق لازدياد الدلائل في إحتمال هجوم ألمانيا على پولندا في لحظة واندلاع حرب أوروپية لم تستعدّ لها إيطاليا. وعندما ابرق السفير (أتوليكو) من برلين الى روما بأن غزو الألمان پولندا "وشيك" شدّ عليه تشيانو بالتعجيل في تدبير إجتماعه المقرر بريبنتروب لئلا تؤخذ إيطاليا على حين غرة.

وتقابل وزيرا الخارجية في (ميلان) في ٦ أيار. وصل تشيانو وفي جعبته تعليمات مكتوبة من الدوتشي توضح للألمان رغبة إيطاليا في اجتناب حرب لمدة ثلاثة اعوام على الاقل. ودهش الجانب الإيطالي عندما وافقهم ريبنتروب وابلغهم ان ألمانيا تريد ان تحافظ على السلام طوال هذه المدة ايضاً. والواقع ان تشيانو وجد وزير الخارجية الألماني "لأول مرّة" في "وضع فكري هادىء مريح" واستعرضا

٤٧-العلاقات النازية السوڤيتية [١٩٣٩-١٩٤١] سيرمز اليها من الآن فصاعداً بـ(ع.ن.س) الص ٥-٧ و٨-٩.

٤٨ -الكتاب الفرنسي الأصفر. التقارير المرقمة ١٢٣ و١٢٥. استخدمت طبعة اللغة الفرنسية. واعتقد ان الترجمة الإنگليزية لاتختلف بارقام التقارير.

٤٩-[وثائق عن... ج٤ الص ١ و١١١ الملحق الأول من هذا المجلد يحوي عدداً من رؤوس اقلام الأركان عن المحادثات. اخذت من ملفات البحرية الألمانية.

٥٠- يوميات تشيانو، الص ٦٧-٦٨.

الوضع في أوروبا واتفقا على تحسين علاقات المحور بالإتحاد السوڤياتي وأجّلا جلستهما لحضور عشاء إستقبال.

وعندما أتصل موسوليني تلفونيا بعد العشاء ليطلع على مجرى المحادثات وأجابه تشيانو انها تسير سيراً حسناً اصيب الدوتشي بإعصار دماغي مفاجيء وأمر ختنه باصدار بيان للنشر يتضمن عزم ألمانيا وإيطاليا على ابرام حلف عسكري. وتردد ريبنتروب في مبدأ الأمر ثم وافق أخيراً على ترك المسألة (للزعيم)، ولما إتصل به تلفونيا وافق حالاً على إقتراح موسوليني[٥١].

وهكذا وبحافز فجائي بعد تردد دام أكثر من سنة، ربط موسوليني مصيره بمصير هتلر رباطاً لا إنفصام له. وكان هذا من أولى العلائم التي اظهرت الدكتاتور الإيطالي كصنوه الألماني بمظهر من بدأ يفقد ضبط نفسه الحديديّ الذي أعانهما حتى هذه السنة التاسعة والثلاثين بعد المائة التاسعة عشرة، على تحقيق مصالحهما القوميّة بوضوح الجليد البارد. وكانت النتائج المدمّرة اسرع ظهوراً عند موسوليني.

ووقع "الميثاق الفولاذي" (كما اشتهر فيما بعد) حالاً وبمظاهر من الابهة والفخفخة في دار المستشارية ببرلين في ٢٢ أيار. وخلع تشيانو على ريبنتروب قلادة الأنونزياتا Annunziata مما اثار ثائرة گورنگ و"ارسل الدمع في عينيه قهراً" كما لحظ السفير الإيطالي. الحق يقال ان الفيلد مارشال البدين خلق مشكلة وراح يشكو ان القلادة يجب ان تخلع عليه لأن الحلف إنما تم بمسعاه وحده.

وكتب تشيانو في تقريره "وعدتُ ماكنزن [السفير الألماني في روما] ان ابذل قصارى جهدي لأفوز بقلادة أخرى لگورنگ".

ووجد هتلر "في احسن حال وأتمّ هدوء وأقل عصبيّة" وان ظهر اكبر سناً، وقد ازدادت التجاعيد حول عينيه عمقاً ربما بسبب قلّة النوم[٥٢]. وكان في اطيب حالاته النفسية عندما راقب وزيري الخارجيّة أثناء توقيعهما على الوثيقة.

كان حلفاً عسكرياً واضح العبارات جريئها. وطبيعته العدوانية تجلوها عبارة الافتتاح التي أصرّ هتلر على ادراجها في صدر التصريح بأن الدولتين "المتحدتين بالمشابهة الجوهريّة لعقائدهما... اتفقتا على ان تعملا جنباً لجنب وبقوى موحدة لضمان مجاليهما الحيويين". وصلب المعاهدة وعمودها الفقريّ

٥١- المحضر الألماني عن إجتماعات ميلان [وثائق عن... ج٦ الص ٤٥٠-٤٥٢ وملحوظات تشيانو، أوراق تشيانو الدبلوماسية الص ٢٨٢-٢٨٧.

٥٢- إمتلأت يومية تشيانو المؤرخة ٢٢ أيار بالخصوصيات حول هتلر وحول حاشيته الغريبة. واشتكت السيدة گوبلز ان (الفوهرر) يبقي أصدقاءه جالسين معه طوال الليل وقالت "وهو لايدع احداً غيره يتكلم فيبدي ويعيد اقواله مراراً وتكراراً حتى يسئم ضيوفه" وسمع تشيانو ايضاً تلميحات عن "مشاعر هتلر الرقيقة تجاه فتاة جميلة" في العشرين من عمرها ذات عينين جميلتين هادئتين وقسمات متناسقة وجسم فاتن اسمها سيگريد فون لاپوس Sigrid von Lappus وهما يتقابلان كثيراً في إجتماعات خاصة. (يوميات تشيانو ص٨٥). لاشك أن تشيانو قد خدع بها - وهو فارس نساء نفسه. والظاهر انه لم يسمع بعد (بإيڤا براون) عشيقة هتلر التي نادراً ما كان يسمح لها بالقدوم الى برلين في ذلك الحين.

هو بندها الثالث: "إن حدث، خلافا لرغبات وأماني الفريقين الساميين المتعاقدين، ان اشتبك احدهما في خلاف ذي طابع حربيّ مع دولة ثالثة أو دول أخرى، فعلى الفريق السامي المتعاقد الآخر ان يبادر فوراً الى مساعدته بوصفه حليفاً وان يسانده بكلّ قواته العسكرية في البرّ والبحر والجوّ".

ويشترط البند الخامس في حالة وقوع حرب، الاّ يبرم أي طرف صلحاً منفرداً أو هدنة[٥٣]. في مبدأ الأمر -كما سنرى- لم يف موسوليني بالبند الأول وفي الأخير، لم تف إيطاليا بالبند الثاني.

-٨-

هتلر يحرق سفنه
٢٣ أيار ١٩٣٩

في ٢٣ أيار، بعد توقيع الميثاق الفولاذي بيوم واحد. جمع هتلر قادته العسكريين في مكتب المستشارية ببرلين وأبلغهم بصراحة ان أيّ نجاح آخر لايمكن الوصول اليه بعد الآن الاّ باراقة الدماء، ولذلك كانت الحرب أمراً محتوماً.

كان هذا الإجتماع على نطاق أوسع من مثيله الذي وقع في ٥ تشرين الثاني ١٩٣٧، عندما أعلن هتلر قراره بالخروج الى الحرب أمام القواد العامين لأصناف القوات المسلحة الثلاثة. بلغ عدد الحاضرين منهم اربعة عشر ومن بينهم الفيلد مارشال گورنگ واميرالبحر الأكبر رايدر (بعد ترقيته). والجنرال فون براوختش والجنرال هالدر والجنرال كايتل، والجنرال ايرهارد ميلش Erhard Milch المفتش العام لسلاح الجوّ ونائب الأميرال رئيس هيئة أركان الأسطول اوتو شنڤيند Otto Schenvind وكان المرافق الخاص لهتلر المقدّم (رودولف شموندت) بين الحاضرين يدوّن الملاحظات لحسن حظ التاريخ. وقد وجدت ملحوظاته هذه بين الوثائق المستولى عليها. ويظهر ان اقوال هتلر في هذه المناسبة كانت تعدّ سريّة للغاية بحيث لم يعمل نسخة أخرى لتلك الملحوظات وبقيت حتى وصلتنا بخط يد (شموندت)[٥٤].

انها وثيقة من أهم وأوضح الوثائق السرّية التي ترسم طريق هتلر الى الحرب. فهنا وأمام حفنة من الرجال قادوا فيما بعد القوات العسكرية في ذلك النزال المسلح وُجّهت الى دعايته وخداعه السياسي طعنة نجلاء بنطقه بالحقيقة عن الأسباب التي تحمله على غزو پولندا وعند الضرورة مهاجمة بريطانيا العظمى وفرنسا أيضاً.

٥٣- نص معاهدة التحالف [وثائق عن... ج٦ الص ٥٦١-٥٦٤. هناك بروتكول سرى لايحوي شيئاً مهما.

٥٤- ملحوظات شموندت ٢٣ أيار ١٩٣٩ [مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٧ الص ٨٤٧-٨٥٤ الوثائق L:٧٩] هناك ايضاً ترجمة إنگليزية في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ٥٧٤-٥٨٠] النص الألماني في [محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج٣٧ الص ٥٤٦-٥٥٦].

انه يتكهّن بدقةً لا مزيد عليها بالسبيل الذي ستسلكه الحرب على الاقل في السنة الاولى ومع كل تلك الصراحة فان حديثه (وكان هو المتكلم الوحيد) يفصح عن اضطراب عقلي وتذبذب أكثر مما أظهر قبلاً حول هذه النقطة. وبخاصة لأن بريطانيا والبريطانيين ظلّوا كما كانوا مصدر حيرة له، كما ظلوا الى آخر لحظة من حياته.

لكنه كان واضحاً دقيقاً في خروجه الى الحرب وفي الغايات التي يتوخاها منها. ولم يترك جنرال أو اميرال دار المستشارية في ذلك اليوم إلاّ وهو مدرك تماماً ماذا ستأتي به نهاية ذلك الصيف.

بدأ يقول ان مشاكل ألمانيا الاقتصادية لايمكن حلّها إلاّ بالحصول على المزيد من "المجال الحيوي في أوروبا وهو أمر متعذّر إلاّ بغزو بلاد أخرى، ومهاجمة ممتلكات شعوب أخرى".

"نجاح آخر لايمكن الوصول اليه دون اراقة الدماء".

والدانزگ لسيت موضوع النزاع أبداً. إن المسألة هي توسيع رقعة عيشنا في الشرق وضمان موارد رزقنا، وكذلك حلّ مشكلة دول البلطيق... ليس هناك أي إحتمال آخر في أوروبا... وإن اضطرتنا الاقدار الى نزال مع الغرب فليس ثّم قيمة تضاهي حيازة منطقة أرض واسعة في الشرق. وفي أيام الحرب سنكون اقل قدرة على الاعتماد على حصاد غلتنا المقدّر مما كنّا وقت السلم.

ويستدرك ليقول: وفضلاً عن ذلك فان السكان من غير الألمان في الأراضي غير الألمانية سيفيدوننا كمصدر من مصادر العمل (اول تلميح لعمل السخرة وهو البرنامج الذي طبق فيما بعد رسميا)."

اختيار الفريسة الأولى كان مقرراً وواضحاً.

"ليس هناك بدّ من مهاجمة پولندا، وعلينا تنفيذ قرارنا:

"الهجوم على پولندا عند اول فرصة سانحة ".

"لايمكن ان نتوقع تكراراً لعملية الچيك وستكون حرباً ومهمتنا عزل پولندا والنجاح في عزلها هو العامل الحاسم."

واذن فسيكون ثمّ حرب تشنّ على پولندا "المعزولة" وحدها؟ هنا لم يكن (الزعيم) واضح الفكر تماماً في الحقيقة أنه كان مشوشاً متناقضاً. وقال انه سحيتفظ بالأمر النهائي بالحرب لنفسه.

"يجب أن لايؤدي الى نزال مزدوج وفي آن واحد مع الغرب، فرنسا وإنگلترا."

إن لم يكن مؤكداً أن لايؤدي الصدام الألماني الپولندي الى حرب في الغرب.

فالقتال اذن يجب أن يكون ضد إنگلترا وفرنسا.

إذن، وفي الجوهر، لاينجح صدام مع پولندا ومبدأه هجوم عليها الاّ اذا كان الغرب بعيداً عن الحرب.

وإن لم يكن ذلك ميسوراً فالأحسن ان نلقي بأنفسنا مع الغرب، وأن نقضي على پولندا في آن واحد.

أمام هذا التناقض السريع المتلاحق كطلقات النار، لابدّ وان الجنرالات جفلوا جفولاً ووضعوا

مونوكولاتهم على أعينهم يتفرسون في قائلها مبهوتين إلاّ انه لم يكن ثم دليل على ذلك في ملحوظات (شموندت) ولم يذكر ان أحداً من المجتمعين المختارين تجرأ على القاء سؤال واحد لوضع الأمور في نصابها.

ثم التفت هتلر الى روسيا. وقال "لايستبعد ان تبدي روسيا عدم اهتمام بالقضاء على پولندا" ومن الناحية الثانية لو ان الإتحاد السوڤياتي تحالف مع فرنسا وبريطانيا فإن ذلك "سيؤدي بي الى مهاجمة إنگلترا وفرنسا بضربات قليلة قاصمة" وهذا يعني ارتكاب الخطأ الذي اقدم عليه ڤلهلم الثاني في ١٩١٤، ولكن مع ان هتلر استخلص عدداً من العبر والدروس من الحرب العالمية في محاضرته هذه، فإنه لم يستخلص هذا الدرس. إن افكاره الآن تتجه نحو بريطانيا العظمى "إن الزعيم يشك في إحتمال إجراء تسوية سلمية مع إنگلترا والضرورة تدعو الى نزال. وإنگلترا ترى في تطويرنا السيادة المطلقة Hegemony يضعفها. لذلك كانت عدوتنا، وكفاحنا معها مسألة حياة أو موت ولكن كيف سيكون هذا الكفاح؟

لاتستطيع إنگلترا القضاء على ألمانيا بضربات معدودات وتخضعنا بالقوة. واعظم ضرورة لإنگلترا هي ان تنقل الحرب الى نقطة اقرب ما يمكن من الروهر وستسيل دماء الفرنسيين. (الجدار الغربي!). إن بقاء كياننا مرهون بمحافظتنا على الروهر.

وبعد ان قرر هتلر اتباع غلطة القيصر (مهاجمة فرنسا وإنگلترا إن تحالفت مع روسيا) اعلن الآن انه سيتبع خطى القيصر في مسألة أخرى كانت فيما بعد سبباً لخراب ألمانيا.

"يجب إحتلال القواعد الجوية الهولندية والبلجيكية إحتلالاً عسكرياً ان إعلان الحياد يمكن تجاهله واذا شاءت إنگلترا التدخل في حرب پولندا فعلينا ان نقوم بهجوم مباغت على هولندا. علينا ان نبني خط دفاع جديد في الأراضي الهولندية يمتد حتى (زويدر زي Zuyder Zee) إن الحرب مع إنگلترا وفرنسا ستكون حرب حياة أو موت.

(ن فكرة نجاحنا بثمن رخيص هي فكرة خطرة. ليس هناك أي إحتمال لهذا. اذن فعلينا ان نحرق سفننا ولن يعود الأمر بعد مسألة خطأ أو صواب بل موضوع وجود أو عدم وجود ثمانين مليوناً من البشر".

ومع أنه اعلن قبل لحظة ان ألمانيا ستهاجم پولندا (في اول فرصة سانحة) ومع ان مستمعيه كانوا يعرفون ان كل قوة ألمانيا الحربية تقريباً قد حشدت لهذا الهدف، الاّ ان هتلر وهو ماضٍ في سياحته الفكرية، لم يكن قادراً عن تحويل أفكاره عن بريطانيا العظمى.

قال موضحاً: "إنگلترا هي القوّة الاندفاعية الكبرى ضدّ ألمانيا". ثم راح يبحث في مواطن قوتها وضعفها.

ان البريطاني بشخصيته، منظّم عبقري فخور، باسل، صلب العود، دؤوب، يعرف كيف يستغل كلّ حدث جديد، وهو محبّ للمغامرات وفيه شجاعة العنصر النورديّ...

إنكلترا دولة معظمة بنفسها. ظلّت كذلك ثلاثمائة عام وكبرت واتسعت عن طريق التحالف. هذه الدولة ليست شيئاً مكينا فقط بل يجب إعتبارها قوة بيولوجية (حية) تشمل العالم كله.

اضف الى هذا، ثروتها التي لاتقدّر ومقدرتها على الايفاء بتعهداتها وديونها تبعاً لذلك.

والحماية الجغراسياسية والأمن اللذين تضمنهما لها قوة بحرية عظيمة وسلاح جويّ مقدام."

لكن هتلر ذكرّ مستميعه ايضاً بمواطن ضعفها. وراح يعددها:

"لو كان لدينا في الحرب الماضية بوارج حربية أكثر وطرادان ازيد، وبدأنا معركة جوتلاند Jutland صباحاً. لهزم الأسطول البريطاني وخرت إنكلترا على ركبيتها[٥٥] ومعنى ذلك نهاية الحرب العالمية. كان قهر إنكلترا في الأيام الماضية يتطلب غزوها في عقر دارها اذ كان بامكانها اذ ذاك أن تقيت نفسها أما اليوم فلا تقدر.

في اللحظة التي تنقطع إنكلترا عن امداداتها يمكن ارغامها على الاستسلام واستيراد الطعام والنفط يعتمد على الحماية البحرية لن ترغمها هجمات السلاح الجويّ الألماني على الاستسلام. لكن إن قضي على الأسطول فالاستسلام سيكون آنياً. لاشك أن هجوماً مباغتا قد يؤدي الى قرار سريع.

هجوم مباغت؟ بأي شيء؟ لاشك أن الاميرال رايدر كان يظنّ ان هتلر يتكلم كالحواة من بطنه. فبموجب المشروع المسمى (Z) الذي رسم في ١٩٣٨ لن تبدأ قوة ألمانيا البحرية بالاقتراب من مستوى قوة بريطانيا الاّ في ١٩٤٥ أمّا في الوقت الحاضر وفي ربيع ١٩٣٩ فلم يكن لدى ألمانيا البوارج الثقيلة القادرة على اغراق الأسطول البريطاني حتى بهجوم مباغت.

ربما امكن إخضاع بريطانيا بوسائل أخرى. نزل هتلر الى الارض مرة ثانية ليوضح خطة ستراتيجية قدر لها بعد سنة واحدة ان تطبق بنجاح مدهش.

الهدف هو أن نكيل للعدو ضربة قاصمة أو ضربة نهائية حاسمة في المطلع. إعتبارات الخطأ والصواب أو احترام المعاهدات لايدخل في الحساب. لايمكن أن يكون هذا ممكناً إلاّ اذا تفادينا "الانزلاق" في حرب مع بريطانيا بسبب پولندا.

يجب ان تتخذ "الاهبة" لحرب طويلة الامد، فضلاً عن الإستعداد لحرب خاطفة وكلّ تدخل محتمل من بريطانيا في القارة الأوروپية يجب القضاء عليه.

يجب أن يحتل الجيش البري المواضع المهمة للأسطول ولسلاح الجوّ ولو أفلحنا في إحتلال هولندا وبلجيكا والبقاء فيها فضلاً عن دحر فرنسا نكون قد أوجدنا قاعدة لحرب ناجحة ضد إنكلترا.

في امكان (اللوفتوافّه) القاء حصار حول إنكلترا من جهة فرنسا الغربية ويقوم الأسطول بمهمة الحصار الاوسع بسلاح غواصاته."

هذا ما كان سيقوم به بالضبط بعد سنة ونيّف كما قدر لخطّة ستراتيجية حاسمة أخرى شرحها في إجتماع ٢٣ أيار أن تطبق ايضاً. قال: لو أن الجيش الألماني في بداية الحرب العالمية الماضية نفذ خطة

٥٥- إن معلومات هتلر عن معركة جوتلاند خاطئة على ما يظهر.

حركة الاستدارة بمرافيء القنال عوضاً عن الاتجاه الى باريس، لكانت النهاية مختلفةً. وربما كان الأمر كذلك، وعلى كلّ حال فقد طبقها هو نفسه عام ١٩٤٠.

وانتهى من كلمته بقوله: "الهدف سيكون دائماً اخضاع إنكلترا" ولعلّه نسي في تلك اللحظة كل شيء عن پولندا.

هناك إعتبار واحد أخير.

"السريّة والكتمان هما عاملان حاسمان من عوامل النجاح. يجب ان تبقى اهدافنا سراً مطوياً عن إيطاليا واليابان".

حتى هيئة أركان حرب هتلر نفسها، التي تمثلت برئيسها الجنرال هالدر في الإجتماع يجب أن لايوثق بها كل الثقة. قال هتلر بصراحة "يجب الاّ تترك دراساتنا لهيئة الأركان والاّ لايعود ثم ثقة بالسرّ". وأمر ان يختار عدد صغير من ضباط الخطط في الأركان التابعة لـ(ق.ع.ق.م) ليقوموا برسم الخطط العسكرية.

إذن فيوم ٢٣ أيار ١٩٣٩ هو اليوم الذي اتمّ هتلر احراق سفنه كما قال، وستنشب الحرب. فألمانيا بحاجة الى مجال عيش في الشرق وللفوز به يتحتمّ مهاجمة پولندا في اول فرصة ممكنة. ولا علاقة للدانزگ بالموضوع. وانما هي مجرد حجة. وبريطانيا تقف عقبة في الطريق وهي حقا أعظم قوة تجابهها ألمانيا. حسن جداً، اذن ستغزى هي ايضاً ومعها فرنسا. ستكون معركة حياة أو موت.

عندما أوضح هتلر معالم خططه العدوانية للقادة العسكريين في ٥ تشرين الثاني ١٩٣٧، اعترض عليه كلّ من الفيلد مارشال فون بلومبرگ والجنرال فون فريتش – على الأقل متحجّين بأن ألمانيا أضعف من ان تقدر على خوض حرب أوروپية واستقال الجنرال بيك رئيس هيئة الأركان في الصيف التالي للسبب عينه. لكن في ٢٣ أيار ١٩٣٩ لم يرتفع صوت جنرال أو اميرال واحد من المجتمعين لمناقشة سلامة سبيل هتلر أو هذا ما اظهرته وقائع الإجتماع الملخصة على الأقل.

وجدوا ان واجبهم الطاعة العمياء لا المناقشة. ولقد سبق لهم ان وضعوا المعيتّهم وخبراتهم الكبيرة لرسم خطط عديدة للعدوان. ففي ٧ أيار إنتهى العقيد (كونتر بلومنتريت Guenther Blumentritt) من هيئة أركان الجيش، بالتعاون الوثيق مع الجنرال فون روندشدت والجنرال فون مانشتاين الذين الفوا (هيئة ركن عاملة) صغيرة، من وضع ملخصّ للموقف (للقضية البيضاء) وهو في الواقع خطة كاملة لفتح پولندا. وكانت خطة جسورة خيالية طرأت عليها تعديلات قليلة جداً فما بعد[٥٦]. وقدم اميرالبحر (رايدر) الخطط البحرية الخاصة (بالقضية البيضاء) بأمر توجيهي سريّ للغاية وقع في ١٦ أيار[٥٧].

٥٦- تجد تفاصيل الخطة في وثائق نورمبرگ [وثائق نورمبرگ الخاصة بالقيادة العليا الألمانية. وهي مما تم عرضه من وثائق أمام محكمة نورمبرگ العسكرية لمجرمي الحرب.

٥٧- [مؤامرة... ج٦ الص ٩٢٦-٩٢٧ (الوثائق ١٢٠-C).

لما كانت پولندا لاتملك الاّ اميالاً قلائل من السواحل البحريّة على البلطيق غربي الدانزگ. وأسطولها صغير جداً فلايتوقع ان تقوم صعوبة تذكر في وجه الأسطول الألماني. على ان فرنسا وبريطانيا كانتا أهم ما يشغل بال امير البحر بصورة رئيسة. يجب ان يسد مدخل البلطيق بالغواصات. وان تتهيأ بارجتا الجيب والبارجتان الأخريان مع الغواصات الباقية الى خوض "حرب في الاطلسي." وبناء على تعليمات (الزعيم) وجب على الأسطول ان يستعدّ ليقوم بقسطه من الواجب في (القضية البيضاء) في ١ أيلول. الاّ ان (الاميرال رايدر) احتّث قوّاده على التعجيل في الخطط لانه "نظراً لآخر التطورات السياسيّة" قد يباشر بالعملية في وقت أقرب[٥٨].

في ختام شهر أيار ١٩٣٩ كانت إستعدادات ألمانيا للحرب القادمة في نهاية الصيف قد قطعت شوطاً بعيداً. وكانت المصانع الحربية الجبارة تعمل ليل نهار، وتقذف من جوفها بالمدافع والدبابات والطائرات والبوارج والسفن الحربية. لقد وصلت هيئات أركان الجيش والأسطول والطيران القديرة آخر مرحلة من خططها. وتضخمت الفرق والوحدات بالمكلفين الجدد الذين دعوا "للتدريب الصيفي". وكان من الطبيعّي ان يسرّ هتلر بما انجز.

في اليوم الذي تلا محاضرة الزعيم لقادة العسكر. لخص الجنرال جورج توماس رئيس قسم الاقتصاد والتسليح في (ق.ع.ق.م) تلك المنجزات في خطبة سرّية القاها على موظفي وزارة الخارجية الكبار. وذكّر مستمعيه بانه في الوقت الذي اقتضى للجيش الامبراطوري ستة عشر عاماً (١٨٩٨-١٩١٤) لزيادة قوته من (٤٢) فرقة الى (٥٠) فرقة، قفز جيش الرايخ الثالث من سبع فرق الى (٥١) فرقة في اربع سنوات لا غير ومن بين هذا العدد خمس فرق مصفحة ثقيلة واربع فرق خفيفة. "وخيالة ميدان عصرية" لايملك مثلها أي جيش من جيوش العالم. لقد بنى الأسطول من اللاشيء قوة بحرية تتألف من بارجتين كلّ منهما ذات حمولة (٢٦٠٠٠ طن)[٥٩] و طرادين ثقيلين وسبع عشرة مدمرة وسبع واربعين غواصة وقد انزلت قبل قليل بارجتين بحمولة ٢٥٠٠٠ طن لكل منهما وحاملة طائرات واحدة. ورسم إنزال عدد كبير جداً من مختلف السفن الحربية الأخرى. ومن العدم انشأ سلاح الجوّ (اللوفتوافه) قوة طيران تتألف من واحد وعشرين سرباً، وبلغ عدد افرادها ٢٦٠ ألف رجل. أمّا عن الانتاج الحربي للسلاح والذخيرة فزعم الجنرال توماس ان ألمانيا تنتج أكثر بكثير مما كانت تنتجه في ذروة العمل أثناء الحرب الماضية. وان الكمية المنتجة في معظم القطاعات تفوق بكثير انتاج أي دولة. في الواقع

٥٨-محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج٢٤ الص ٤٢٨-٢٤٢[الوثائق C١٢٦] الترجمة الإنگليزية لهذه الوثيقة مختصرة جداً ليست بذات فائدة في [مؤامرة النازيين وعدوانهم الص ٩٣٧-٩٣٨.

٥٩- كان الجنرال توماس باعطائه هذه الارقام عن حمولة السفن يخدع حتى وزارة الخارجية. هناك وثيقة بحرية ألمانية هامة (مؤامرة... ج٦ ص٨٢٧- الوثائق C٢٣) يرجع تاريخها الى أكثر من سنة (شباط ١٩٣٨) تشير الى ان ارقاماً مخالفة للحقيقة عن السفن الحربية اعطيت للحكومة البريطانية بمقتضى الإتفاقيةً البحرية الأنگلو-ألمانية. وتوضح أن الحمولة للحقيقة للبوارج ذات ٢٦٠٠٠ طن هي في الواقع ٣١ الف طن. وأن حمولة البارجة ذات ٣٥ الف طن (وهو اثقل حمولة في اي سفينة حربية في الأسطولين الإنگليزي والأمريكي) انما هو ٤١,٧٠٠ طن مثال عجيب للخداع النازي!

ان انتاج السلاح العام في ألمانيا ربّما كان "فريد عصره في العالم".

أصبحت قوة ألمانيا العسكرية قوة جبارة في بداية صيف عام ١٩٣٩، وبات إحتمال النجاح في الحرب التي اختطها هتلر في اول الخريف يعتمد على الشكل الذي ستتخذه. مازالت ألمانيا غير قوية بالدرجة التي اريد لها وربما لن تصل الى تلك الدرجة التي تؤهلها للوثوب على فرنسا وبريطانيا وروسيا إضافة الى پولندا. وبمجيء الصيف كان كلّ شيء يعتمد على مقدرة (الزعيم) في تضييق نطاق الحرب - واهم من كل شيء الحيلولة بين روسيا وبين تأليف حلف عسكري مع الغرب، ذلك الحلف الذي اقترحه ليتفينوف قبل سقوطه، وبدا چمبرلين في اول الأمر كانما يريد ان يرفضه فاذا به في نهاية شهر أيار يعود فيطغى بخياله، على الموقف السياسي.

-٩-

التدخل الروسي: المرحلة الثانية

في مناقشة جرت يوم ١٩ أيار في مجلس العموم، عاد رئيس الوزراء البريطاني ايضاً ينظر الى المقترحات الروسية نظرة برود وازدراء كما لاحظ (چرچل)، وأوضح ببعض سأم لمجلس العموم "ان هناك نوعاً من الحجاب، نوعاً من الجدار بين الحكومتين من الصعب جداً إختراقه" وقال چرچل يدعمه (لويد جورج) من الجهة الأخرى ان موسكو قدمت "عرضاً عادلاً معقولاً... أكثر بساطة، واستقامة، وفعالية" من مقترحات چمبرلين ورجا "حكومة صاحب الجلالة، ان تضع في أدمغتها بعض الحقائق الخشنة البربريّة. فبدون وجود جبهة شرقية فعالة، لايمكن ان يوجد دفاع مجدٍ في الغرب. وبدون روسيا لايمكن ان يوجد جبهة شرقية فعّالة".

ولم يكن من چمبرلين الاّ ان ينحني الى عاصفة الانتقاد التي هبت عليه من جميع الجهات. فأوعز في ٢٧ أيار الى السفير البريطاني في موسكو ان يوافق على فتح باب المفاوضات لعقد ميثاق المعونة المتبادل. ومع وفاق عسكري وضمانة للدول التي يتهددها عدوان هتلر[٦٠].

واشار السفير فون ديركسن في لندن في تقريره الى وزارة الخارجية بان الحكومة البريطانية اقدمت على الخطوة "بأعظم ما يمكن من التردد". وراح ديركسن يزيح الستر عمّا قد يمكن ان يكون السبب الأولي لمبادرة چمبرلين. قال ان وزارة الخارجية البريطانية تحسست "بمجسّات الألمان في موسكو" وهي "تخشى ان تنجح ألمانيا في ابقاء روسيا على الحياد أو ربّما حملها على اتخاذ موقف حياد ودود. وان هذا يعني الانهيار التام لعملية التطويق"[٦١].

٦٠- في ٢٧ أيار قدم السفير البريطاني والقائم بالاعمال الفرنسي في موسكو، مسودة المعاهدة المقترحة منهما لمولوتوف. ولدهشة المبعوثين الدبلوماسيين وجدا أن مولوتوف قد تلقّاها بكلّ برود ولم ينظر اليها باهتمام: (نص المسودة في:و.س.ب.خ. ج٥ رقم ٦٢٤ رواية السفير البريطاني عن رد فعل مولوتوف في المجلد نفسه رقم ٦٤٨و ٦٥٧.

٦١- الرسالة المستعجلة المؤرخة ٣١ أيار. وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ٦١٦-٩١٧.

في آخر يوم من شهر أيار ألقى مولوتوف اوّل خطاب عام له بوصفه مفوض الشؤون الخارجية أمام المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوڤيتية. فيه أشبع الديمقراطيات الغربية لوماً وتأنيباً لترددها وقال ان كانت هذه الدول جادّة في ايقاف العدوان فعليها ان تنزل من عليائها وتشمر عن ساعدها وتبرم إتفاقيات على ثلاث أسس.

أولاً: عقد ميثاق ثلاثي بالتعاون المتبادل ذي صفة دفاعية بحتة.

ثانياً: إعطاء ضمانة لدول أواسط أوروپا وشرقها وبضمنها كل الدول المتاخمة للاتحاد السوڤياتي.

ثالثاً: عقد إتفاقية ذات مآل صريح، على المدى والشكل اللذين من شأنهما تقديم العون الفوري الفعّال واحدتها للأخرى وللدول الصغرى التي يتهددها العدوان.

وصرح مولوتوف ايضاً ان المحادثات مع الغرب لاتعني ان روسيا سوف تهمل "علاقاتها التجارية على الصعيد العملي" مع ألمانيا وإيطاليا، بل في الواقع "ان المفاوضات التجارية مع ألمانيا يمكن ان تستأنف على أيّ مدى"، وأشار السفير فون در شولنبرگ في تقديمه الخطاب الى برلين الى ان مولوتوف لمح بأن روسيا مازالت مستعدةً لابرام معاهدة مع بريطانيا وفرنسا "شريطة ان يُقبل كل طلباتها" ولكن بات واضحاً الآن من الخطبة انه سيمر وقت طويل قبل ان يتم التوصل الى إتفاق حقيقي واشار الى ان مولوتوف "تجنبّ مهاجمة ألمانيا، واظهر إستعداداً لاستئناف المحادثات التي بدأت في برلين وموسكو"(٦٢).

هذا الإستعداد لقي الآن وعلى حين غرة ترحيبا من هتلر في برلين.

كان هتلر ومستشاروه خلال الأيام الأخيرة العشرة من أيار يعصرون اذهانهم ويكدّونها كداً في ايجاد وسيلة لاحباط المفاوضات الأنگلو روسية، بالتقرب من موسكو، وشعرت الاوساط المسؤولة في برلين ان حديث مولوتوف مع السفير ڤون در شولنبرگ في ٢٠ أيار قد ألقى ماءً بارداً على التقرب الألماني، وفي اليوم التالي (٢١ أيار) وجّه (ڤايسيكر) الى السفير برقية قال فيها: بالنظر الى ما اعلنه وزير الخارجية السوڤيتي "علينا الآن ان نجلس في موضعنا هادئين وننتظر لنرى هل سيتكلم الروس بصراحة أكثر من هذا؟"(٦٣)

الاّ ان هتلر الذي حدد يوم (١) أيلول لهجومه على پولندا لم يكن يسعه الجلوس هادئاً. ففي ٢٥ أيار أو نحوه استدعى (ڤايسيكر) و(فريدريخ گاوس Friedrich Gaus) مدير الدائرة القانونية في وزارة الخارجية الألمانية. الى بيت ريبنتروب الريفي في سوننبرگ Sonnenberg وكما جاء في محضر الاستجواب المؤيد باليمين الذي دون لگاوس في نورمبرگ(٦٤)، أن ريبنتروب أنهى اليهما برغبة

٦٢- رسالة (١) حزيران المرجع السالف الص ٦٢٤-٦٢٦.

٦٣- المرجع نفسه ص٥٤٧.

٦٤- رفضت المحكمة الأخذ بافادته كدليل. ولم تنشر في أجزاء (مؤامرة النازيين وعدوانهم أو محاكمة مجرمي الكبار) الذي جمعت فيه كل ادلة نورمبرگ إلا ان ذلك لايقلل من قوتها كحقيقة. فكل المواد الخاصة بالتعاون النازي-السوڤيتي خلال تلك الفترة لفت لفاً في محكمة تألفت من اربعة قضاة احدهم روسي.

(الزعيم) في "انشاء علاقات أكثر تسامحاً بين ألمانيا والإتحاد السوڤياتي". وعمل ريبنتروب مسودة بالتعليمات لـ(شولنبرگ) رسمت فيها بتفاصيل مسهبة الأصول الجديدة التي يجب ان يتبعها للتقرب من مولوتوف الذي طلب مقابلته "باقرب وقت ممكن" وهذه المسودة هي من بين وثائق وزارة الخارجية الألمانية المستولى عليها(٦٥).

وتدل ملحوظة دوّنت عليها انها عرضت على هتلر في ٢٦ أيار وكانت وثيقة كاشفة هامّة أوضحت ان وزارة الخارجية الألمانية في هذا الوقت كانت مقتنعة بأنّ المفاوضات الأنگلو روسية ستختم بالنجاح إلاّ اذا تدخلت ألمانيا تدخلاً جدياً. لذلك اقترح ريبنتروب على شولنبرگ ان يقول لمولوتوڤ مايلي: "ليس هناك تعارض حقيقي في المصالح بين ألمانيا والإتحاد السوڤياتي في الشؤون الخارجية... لقد حان الوقت لإنشاء روابط طيبة سلميّة للعلاقات الخارجية الألمانية السوڤيتية... وان الملف الألماني الطلياني ليس موجها ضدّ الإتحاد السوڤياتي، انما هو موجه بصورة مطلقة الى الثنائي الأنگلو فرنسي...

إن آل الأمر الى نزاع مسلح بيننا وبين پولندا ضدّ رغبتنا. فنحن واثقون ثقة تامة ان ذلك لن يؤدي الى تصادم المصالح بيننا وبين الإتحاد السوڤياتي. في امكاننا المسير ابعد من هذا وعندما تتم تسوية النزاع الألماني الپولندي بأي وسيلة كانت التسوية فسنضع المصالح السوڤيتية نصب أعيننا بقدر الإمكان".

وكان ينبغي الإشارة الى المخاطر التي تتأتى من حلف أنگلو روسي من الجهة الثانية:

"نحن لاندري ما الذي يغري الإتحاد السوڤياتي في ان يسهم بدور فعال في لعبة التطويق التي تستهدفها السياسة البريطانية... وهذا يعني ان روسيا ستنهض بتبعة من جانب واحد دون تعويض بريطانيّ قيمّ لقاء ذلك... ليست بريطانيا في وضع تتمكن من تقديم معاوضة quid pro quo قيّمة حقاً لروسيا، بايّ شكل سترد صيغة المعاهدة. (فالجدار الغربي) سيجعل كل مساعدة غربية أمراً مستحيلاً... لذلك نحن مقتنعون ان بريطانيا ستبقى مرة أخرى أمينة على سياستها التقليدية بترك الدول الأخرى تلتقط لها كستناءها من النار.

ووجب على (شولنبرگ) ايضاً ان يوضح ان ألمانيا "لاتضمر نوايا عدوانية لروسيا" وأخيراً أمر بإبلاغ مولوتوڤ ان ألمانيا مستعدة للمباحثات مع روسيا "للعودة الى العلاقات الطبيعّية السياسية علاوة على الشؤون الاقتصادية".

رأى هتلر ان هذه المسودّة قد راحت مسافة بعيدة فأمر بوقفها. وبحسب ما روى (كاوس) ان هتلر صدم صدمة عنيفة بتفاؤل چمبرلين قبل يومين (٢٤ أيار) عندما ابلغ مجلس العموم انه نتيجة للمقترحات البريطانية الجديدة يأمل التوصل الى إتفاق تام مع روسيا "في وقت قريب جداً" وكان خوف هتلر هو الرفض وخيبة المسعى. لم ينبذ فكرة التقارب مع موسكو إلاّ انه قررّ ان الجسّ الحذر جداً

٦٥- المرجع السالف الص ٥٨٩-٥٩٣.

للنبض هو خير الأمور في الوقت الحاضر.

ان الطيّ والنشر اللذين عملا عملهما في رأس هتلر خلال الأسبوع الأخير من شهر أيار مدوّنان في الوثائق المستولى عليها من وزارة الخارجية الألمانية. في ٢٥ أو نحوه -التاريخ غير معلوم بالضبط- خرج فجأة بفكرة دفع المحادثات مع الإتحاد السوڤياتي الى الأمام لإحباط المفاوضات الأنگلو-روسية. وامر (شولنبرگ) بمقابلة مولوتوڤ حالاً لهذا الغرض. الاّ ان تعليمات ريبنتروب له التي عرضت على هتلر، لم ترسل قط، فقد الغاها هتلر في السادس والعشرين من أيار. وفي ذلك المساء ابرق ڤايسيكر الى شولنبرگ طالبا منه ان يتخذ (موقف تحفظ تام) "ولن تقوم انت شخصياً بأي بادرة حتى إشعار آخر"(٦٦).

وأشفعت هذه البرقية برسالة من دائرة الخارجية للسفير بتاريخ ٢٧ أيار. إلاّ انها لم ترسل اليه حتى الثلاثين من أيار، بعد إضافة حاشية مهمّة اليها، بلغت حداً انها راحت تفسّر سرّ التردد في برلين(٦٧).

كتب (ڤايسيكر) يعلم شولنبرگ (٢٧ أيار) ان رأي برلين يرجح صعوبة الحيلولة دون إتفاق إنگليزي روسيّ وان ألمانيا ترددت في التدخل تدخلاً حاسماً ضدّه خوفاً من اثارة "قهقهات تتريّة" في موسكو وأوضح وكيل الوزارة ايضاً ان اليابان وإيطاليا تنظران ببرود الى العروض الألمانية في موسكو وان تحفظ حلفائها دفع اوساط برلين الى تفضيل الجلوس بعيداً. وانهى الرسالة بقوله "ولذلك نحن الآن نميل الى الانتظار ومراقبة المدى الذي تبلغ الصلات بين لندن پاريس وروسيا".

ولسبب ما لم يرسل (ڤايسيكر) رسالة حالاً: لعله أحسّ بأنّ هتلر لم يستقرّ رأيه بعد على شيء استقراراً نهائياً. وعندما ارسله يوم ٣٠ أيار أضاف اليه الحاشية التالية:

ملاحظة هامة: ازيد على سطوري السالفة ان تقرباً سيتم على كلّ من روسيا بموافقة (الزعيم) وان كان تقرّبا معدّلاً الى حد كبير سيتم ذلك بحديث سيجري بيني وبين القائم بالأعمال الروسي في هذا اليوم".

لم يقطع هذا الحديث مع (جيورجي استاخوف) مرحلةً بعيدة الاّ انه مثل للألمان بداية "جديدةً". وكان الزعيم الذي تعللّ به (ڤايسيكر) للقاء القائم بالأعمال هو البحث في مستقبل الوفد التجاري السوڤيتي في پراغ. الذي كان الروس يحرصون على بقائه. وبتحويمهما حول موضوع اللقاء كان الدبلوماسيان يحاولان جاهدين ان يكتشفا كل واحد منهما ما في ذهن الآخر. قال (ڤايسيكر) انه يتفق مع مولوتوڤ ان المشاكل السياسية والاقتصادية يمكن الفصل بينهما فصلاً تاماً واعرب عن اهتمامه بـ"اعادة العلاقات الطبيعية بين الإتحاد السوڤياتي وألمانيا" وأكد (أستاخوف) ان مولوتوڤ "لاينوي سدّ الباب بوجه أي محادثات روسية ألمانية".

٦٦- المرجع السالف ص٥٩٣.
٦٧- رسالة ڤايسيكر الى شولنبرگ ٢٧ أيار مع حاشية بتاريخ ٣٠ أيار - المرجع السالف الص ٥٩٧-٥٩٨.

ومع الحذر الذي ابداه كلا الرجلين نرى الألمان قد تشجعوا. وفي الساعة العاشرة والدقيقة الأربعين من مساء الثلاثين من أيار بعث ڤايسيكر "برقيّة مستعجلة جداً[٦٨]" لشولنبرگ في موسكو:

"خلافاً للتاكتيك الذي رسم حتى الآن، قررنا الآن على كلّ ان نحقق درجة معينة من الإتصال بالإتحاد السوڤياتي[٦٩].

وربما كان السبب في تقوية عزم (هتلر) على التحول الى الإتحاد السوڤياتي مهما كان التقرب مشوباً بالحذر، المذكرة الطويلة السرية التي كتبها موسوليني لهتلر في ٣٠ أيار... ففي مبدأ الصيف أخذت مخاوف الدوتشي تزداد من صدام مسلح سابق للأوان وتعاظمت شكوكه في حسن ختامه فكتب يقول انه مقتنع "انه لامفرّ من وقوع حرب بين المحور وبين الدول البلوتوقراطية المصلحيّة الانانية المحافظة"، لكن "إيطاليا تحتاج الى فترة تاهب ربّما قد تمتد حتى ١٩٤٢... ولن يؤتي مجهود حربيّ ما، اعظم ثمار نجاحه الاّ بحلول ذلك العام... وما بعده" وبعد ان عدد الدوتشي أسباباً "لحاجة إيطاليا الى فترة سلم" ختم كلامه بقوله "لهذه الأسباب كلها لاترغب إيطاليا في استحثاث حرب أوروپيّة. وان كانت مقتنعة بحتيمة وقوع مثل هذه الحرب"[٧٠].

فأجاب هتلر الذي لم يفض لحليفه وصديقه بسر الموعد المضروب لغزو پولندا في (١ أيلول)، انه قرأ المذكرة السريّة "باهتمام عظيم جداً" وهو يقترح ان يلتقي الزعيمان للمشاورة في المستقبل.

في الوقت نفسه قرر الزعيم ان يتبين هل يمكن احداث شقّ في حائط الكرملين. وتواصلت طوال حزيران مباحثات تمهيدية في موسكو تتعلق بعقد إتفاقية تجارية جديدة بين السفارة الألمانية وانستاس ميگويان Anastas Mikoyan مفوض الشعب للتجارة الخارجية.

مازالت الحكومة السوڤيتية شديدة الشكّ في برلين. وذكر السفير شولنبرگ في تقرير له في أواخر حزيران (٢٧ منه) ان الكرملين يعتقد ان الألمان باهتمامهم بعقد إتفاق تجاريّ، يريدون ان ينسفوا المفاوضات الروسية مع الفرنسيين والبريطانيين. ابرق يقول "هم خائفون (يقصد الروس) من قيامنا بسحب انفسنا من المفاوضات حالما نجني هذه الفائدة"[٧١].

في ٢٨ حزيران جرى حديث طويل بين (شولنبرگ) و(مولوتوف) قال السفير عنه لبرلين انه بدأ

٦٨- المرجع السالف الص ٦٠٨-٦٠٩.

٦٩- في "العلاقات النازية-السوڤيتية" وهو مجلد يتضمن وثائق الخارجية الألمانية الخاصة بهذا الموضوع طبعتها وزارة الخارجية الأمريكية في ١٩٤٩. كانت الترجمة الإنگليزية للبرقية أقوى من الأصل. ان العبارة الرئيسة الواردة فيه ترجمت كالاتي:
"قررنا الآن القيام بمفاوضات صريحة مع الإتحاد السوڤياتي" وهذا ما ادى بكثير من المؤرخين ومنهم چرچل الى الاستنتاج بأن هذه البرقية ترسم حدّ انعطاف فاصل في مجهودات هتلر لعقد صفقة مع موسكو. نقطة التحول هذه جاءت فيما بعد كما بين ڤايسيكر في حاشيته المؤرخة (٣٠ أيار) على رسالته الى شولنبرگ: "ان التقرب الألماني الذي وافق عليه هتلر يجب ان يكون "تقرباً معدلاً جداً".

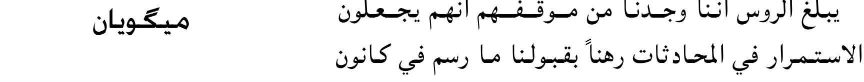
٧٠- المرجع السالف الص ٦١٨-٦٢٠.

٧١- المرجع السالف: الص ٧٩٠-٧٩١.

"بشكل ودّي" ولكن عندما نوّه السفير الألماني مؤكداً حسن نيّة ألمانيا في معاهدات عدم الإعتداء التي ابرمتها مع دول البلطيق[٧٢] ردّ وزير الخارجية السوفيتي بحدّة: "انه ليشكّ حقاً في ثبات امثال هذه المعاهدات وجدواها بعد التجربة القاسية التي عانتها پولندا" واستنتج شولنبرگ مايلي:

"انطباعي هو ان الإتحاد السوفياتي يهتمّ اهتماماً شديداً بمعرفة وجهات نظرنا السياسية وان يبقى على إتصال بنا. وان لم يكن ثم أي شكّ في عدم الثقة الشديد الذي يفصح عنه حديث (مولوتوف) الاّ انه وصف اعادة صفو العلاقات مع ألمانيا، بأنه مستحبّ وممكن[٧٣]."

لقد ارسل تقريره السريّ المستعجل هذا الى برلين راجيا إرسال تعلميات برقية حول خطوته التالية. كان شولنبرگ آخر حاملي فكرة (سيكت ومالتزان Maltzan وبروكدورف - رانتزاو Brockdorff-Rantzau) وهي المدرسة التي كانت تصّر على التقارب من الإتحاد السوفياتي منذ ١٩١٩، وحققت ذلك في راپاللو* Rapallo.


ميگويان

ففي كلّ تقاريره التي بعث بها خلال ١٩٣٩ كان مخلص النيّة في اعادة العلاقات الوثقى التي كانت موجودة أيام جمهوريّة ڤايمر. الاّ انه كان قليل الفهم (بهتلر) ككثير من الدبلوماسيين الألمان المحترفين من المدرسة القديمة.

وعلى حين غرّة أصدر هتلر في (٢٩) حزيران من مقره الجبلي في برختسگادن أمراً بوقف المحادثات مع السوفيت:

برختسگادن ٢٩ حزيران ١٩٣٩

... قررّ (الزعيم) مايلي:

يبلغ الروس اننا وجدنا من موقفهم انهم يجعلون الاستمرار في المحادثات رهناً بقبولنا ما رسم في كانون الثاني الماضي كقاعدة لمباحثاتنا الاقتصادية ولما لم يكن هذا الأساس مقبولاً منّا فاننا لن نهتمّ

٧٢- حاولت ألمانيا عرقلة ضمانة أنگلو فرنسية روسية لدولتي (لاتڤيا واستونيا) اللتين تتاخمان الحدود السوڤيتية، فسارعت بعقد معاهدة عدم إعتداء مع كل من هاتين الدولتين البلطيقيتين في ٧ حزيران. حتى قبل هذا (في ٣١ أيار) فرضت ألمانيا معاهدة مشابهة على الدانمرك. ويظهر أن هذه المعاهدة كما برهنت الاحداث التالية أشاعت في الدانمركيين شعوراً بالأمن يستغرب له المرء.

٧٣- المرجع السالف الص ٨٠٥-٨٠٧.

* معاهدة راپاللو هي في الواقع معاهدتان منفصلتان واحدة بين إيطاليا ويوغوسلاڤيا في ١٩٢٠ التي جعلت فيومي دولة حرة مؤقتة. والأخرى بين ألمانيا والإتحاد السوڤياتي في نيسان ١٩٢٢ فيها أنشئت علاقات دبلوماسية، وسحبت ديون الحرب والإدعاءات المتقابلة ووافقا على التعاون الإقتصادي.

باستئناف المباحثات الاقتصادية مع روسيا في الوقت الحاضر.

قررّ (الزعيم) ايضاً ان يتأخر إرسال هذا الجواب بضعة أيام[٧٤].

على ان محتوى القرار ابرق الى السفارة الألمانية في موسكو في اليوم التالي. ابرقه (ڤايسيكر) كمايلي: "يرى وزير الخارجية... انه قد قيل ما فيه الكفاية في الحقل السياسيّ. فلا يستمر في الوقت الحاضر بالمحادثات من جانبنا حتى وصول تعليمات أخرى".

"وفيما يتعلق بامكان إجراء مفاوضات اقتصادية مع الحكومة الروسيّة فأن المداولات هنا لم تنته بعد. وفي هذا الحقل ايضاً يرجى ألاّ تتخذوا خطوة أخرى في الوقت الحاضر، وانتظروا التعليمات[٧٥].

ليس ثمّ دليل في الوثائق السرية الألمانية يفسّر لنا تبدل رأي هتلر الفجائي. فقد بدأ الروس قبل ذلك يتزحزحون عن موقفهم ويتنازلون في مقترحات كانون الثاني وشباط. وحذّر (شنوره) في ١٥ حزيران ان قطع المفاوضات الاقتصادية سيؤثر تاثيراً سيئاً على ألمانيا من الناحيتين الاقتصادية والسياسية.

ولايمكن ايضاً ان يكون الطريق الصخري الوعر الذي تسير فيه المفاوضات الأنكلو-فرنسية-السوڤيتية قد ثبطت من عزيمة هتلر بحيث ادت به الى هذا القرار. فقد علم من التقارير التي تبعث بها السفارة الألمانية في موسكو ان محادثات الإتحاد السوڤياتي ودول الغرب بلغت مأزقاً لايمكن اجتيازه وهو ضمانة پولندا ورومانيا ودول البلطيق. فپولندا ورومانيا يسعدهما ان تكونا بضمان بريطانيا وفرنسا وهو الضمان الذي لاينفعهما في حالة عدوان ألماني عليهما - الاّ بصورة غير مباشرة وهي فتح جبهة غربية، على انهما ترفضان قبول ضمانة روسيّة أو حتى ان تسمحا للجيوش السوڤيتية بالمرور من أراضيها لصدّ الهجوم الألماني! كذلك رفض كل من (لاتڤيا واستونيا وفنلندا) رفضاً حازماً قبول أي ضمانة روسية. وقد كشفت الوثائق الخارجية الألمانية المستولى عليها ان ألمانيا كانت تشجع هذه المواقف من الدول الصغيرة بإرسالها التهديدات المرعبة لها في حالة استجابتها.

بوصول المفاوضات الى هذا المأزق. اقترح مولوتوف في اوائل حزيران ان ترسل بريطانيا العظمى وزير خارجيتها الى موسكو للمساهمة في المباحثات. ويظهر ان روسيا كان ترى في هذا العمل ما يساعد على التغلب على العقبات، ويجعل بريطانيا تبدو مهمةً ومخلصة في مساعيها للوصول الى إتفاق مع روسيا فرفض (لورد هاليفاكس) السفر[٧٦]، وعرض (انتوني ايدن) الذي كان وزير الخارجية

٧٤- المرجع السالف ص٨١٠.

٧٥- المرجع السالف ص٨١٣.

٧٦- يستفاد من وثائق وزارة الخارجية البريطانية ان هاليفاكس أخبر السفير (مايسكي) في ٨ حزيران أنه كان قد فكر في ان يقترح على رئيس الوزراء بوجوب ذهابه الى موسكو "لكن لم يكن ممكنا الذهاب وترك الأمور هنا حقاً". وإقتراح مايسكي على هاليفاكس في ١٢حزيران. بعد سفر (سترانگ) ان فكرة ذهاب وزير الخارجية الى موسكو فكرة طيبة "عندما تصبح الأمور أهدأ." فعاد هاليفاكس يبين استحالة تركه لندن "في الوقت الحاضر" (و.س.خ.ج٥ رقم و ٣٨).



ستالين   مولوتوف

السابق، ان يسافر بدلاً عنه على الأقل. الاّ ان چمبرلين لم يسمح له. وقررّ ان يرسل بدل ذلك (وليم سترانگ) وهو موظف محترف قدير في وزارة الخارجية، كان قد خدم ردحاً من الوقت في السفارة البريطانية بموسكو ويتكلم اللغة الروسية. الاّ انه لم يكن معروفاً بصورة واسعة لا في بلاده ولا في الخارج. كان تعيين هذا الموظف التابع الصغير الشأن ليرأس بعثة مهمة جداً كهذه ويفاوض ستالين ومولوتوف مباشرةً بمثابة اشارة للروس حتى قالوا فيما بعد: ان چمبرلين مايزال غير جاد في مسألة اقامة حلف لايقاف هتلر.

وصل (سترانگ) الى موسكو في ١٤ حزيران. ومع انه ساهم في احد عشر إجتماعاً أنگلو-فرنسي مع (مولوتوف) الاّ ان وجوده لم يكن له تأثير كبير على مجرى المفاوضات الأنگلو-سوڤيتية. وبعد أسبوعين (٢٩ حزيران) ظهر شكّ الروس وانزعاجهم بشكل علني في مقال بقلم (اندراي زدانوف An-drei Zhdanof) في جريدة پرافدا Pravda بالعنوان التالي: "البريطانيون والفرنسيون لايريدون معاهدة تقوم على أسس من المساواة مع الإتحاد السوڤياتي" ومع انه أوضح بانه يكتب "كشخص عادي، ولايعبر عن رأي الحكومة السوڤيتية" فالمعروف انه عضو في الكتب السياسي للحزب ورئيس لجنة الشؤون الخارجيّة في مجلس السوڤيت الأعلى (البرلمان). بل وأكثر من هذا كما اكدّ شولنبرگ لبرلين في تقريره عن المقال "انه احد المقربين من ستالين وموضع ثقته والمفروض انه كتب مقاله بناء على أوامر عليا صدرت له".

"[كتب زدانوف] يبدو لي ان الحكومتين البريطانية والفرنسية لاتريدان إتفاقاً حقيقياً مقبولاً من الإتحاد السوڤياتي بل ترميان فقط الى محادثات لإتفاقية. لتثبتا أمام الرأي العام في بلديهما

الموقف المتصدع المزعوم للاتحاد السوڤياتي وبهذا تسهلان الطريق لنفسهما للتوصل الى إتفاق مع المعتدين. وستثبت الأيام القلائل القادمة صحة هذا القول أو بطلانه"(٧٧).

وهكذا عرف العالم اجمع شكّ (ستالين) في بريطانيا وفرنسا وعدم ثقته وبأنّ الحلفاء الغربيين قد يعقدون في النهاية صفقة مع هتلر كما فعلوا قبل سنة في (مونيخ). وبعد طول تفكير شولنبرگ، اقترح على برلين ان من غايات المقال الأخرى "إلقاء اللوم على بريطانيا وفرنسا عند انقطاع المفاوضات المحتمل"(٧٨).

-١٠-

خطط لحرب جامعة

بقي هتلر يأبى التقاط الطُعم الروسي. وربما عاد سبب ذلك الى انشغاله طوال حزيران في برختسگادن بالإشراف على اكمال الخطط العسكرية لغزو پولندا في نهاية الصيف.

في الخامس عشر من حزيران وجد بين يديه خطة الجنرال فون براوختش السرية للغاية، الخاصة بالعمليات البريّة ضدّ پولندا(٧٩).

قال القائد العام للجيش مردداً صدى صوت سيده "ان هدف العمليّة هو سحق القوات المسلّحة الپولندية. ان الزعامة السياسية تتطلب ان تبدأ الحرب بإنزال ضربات ماحقة خاطفة تؤدي الى نصر سريع. ان النية التي اتجهت اليها القيادة العامة للجيش هي الحيلولة دون تعبئة منتظمة أو تحشيد للجيش الپولندي بغارة مباغتة على الأراضي الپولندية وتحطيم الجيش الپولندي دفعة واحدةً في موضع يتوقع ان يكون غربي خط ڤيستولا-ناريو Vistula-Narew. بفضل هجوم مركز من سيليزيا من جهة ومن پوميرانيا وشرق پروسيا من الجانب الآخر".

ولاجل تنفيذ الجنرال براوختش خطته هذه الف مجموعتي جيوش - مجموعة الجيوش الجنوبية وتتضمن الجيش الثامن والعاشر والرابع عشر. ومجموعة الجيوش الشمالية وتتضمن الجيشين الثالث والرابع. ورسم للمجموعة الجنوبية بقيادة الجنرال فون (روندشدت) ان تهاجم من (سيليزيا) "بالاتجاه العام نحو وارشو، وتشتّت وهي في زحفها - القوات الپولندية المتصدية لها حتى تحتل ضفاف الڤستولا من جهتي وارشو باسرع وقت ممكن وبقوات من أقوى ما يتيسر. والهدف هو القضاء على القوات الپولندية التي مازالت صامدة في غرب پولندا بالتعاون مع مجموعة جيوش الشمال". ان

٧٧- پرافدا عدد ٢٩ حزيران ١٩٣٩.
٧٨- تقرير ٢٩ حزيران [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ٨٠٨- ٨٠٩].
٧٩- وثائق محاكمات مجرمي الحرب الكبار: TMWC: ج٢٤ الص ٤٩٣-٥٠٠.

الهدف الأول لمجموعة الجيوش الأخيرة كان "تحقيق الإتصال بين الرايخ وپروسيا الشرقية" بالتوغل في الممر الپولندي. أمّا الأهداف التفصيلية لكل من المجموعتين باختلاف جيوشهما فقد رسمت كلها فضلاً عن اهداف السلاح الجوي والأسطول. وقال (براوختش) ان الدانزگ ستعلن جزءً من أرض الرايخ في اليوم الذي تبدأ العمليات العسكرية وسيسيطر عليها بقوات محلية تحت القيادة الألمانية.

وصدر في الوقت نفسه ملحق بالأمر التوجيهي، يشير الى انّ أمر النشر (للقضية البيضاء) سيوضع موضع التنفيذ في ٢٠ آب، مؤكداً التنبيه على "وجوب اكمال جميع الإستعدادات في موعد لايتعدى هذا التاريخ".[٨٠]

بعد هذا بأسبوع (٢٢ حزيران) قدم الجنرال كايتل لهتلر "جدول مواعيد مبدأية للقضية البيضاء"[٨١]. وبعد ان درسها وافق عليها (بصورة عامة) الاّ انه أمر: "توخياً لعدم اثارة ضجة أو تساؤل بين السكان بسبب دعوة الاحتياط بنطاق اوسع من المعتاد يجب على السلطات ان تخبر المدينيين من اصحاب المؤسسات الخاصة وارباب العمل، وغيرهم من الاشخاص المتسائلين بأن الغرض من دعوة الاحتياط هو مناورات الخريف". وامر ايضاً "ان اخلاء المستشفيات القريبة من منطقة الحدود وهو العمل الذي اقترحته القيادة العليا يجب الاّ يشرع فيه من أواسط تموز كما رسم مبالغة (في الكتمان) - ستكون الحرب التي اختط لها هتلر حرباً جامعة ولن تكون قاصرة على التبعئات العسكرية، بل التعبئة العامة لكل موارد البلاد. ولأجل ضمان التنسيق بين كل المجهودات، عقد (مجلس دفاع الرايخ) اول جلسة له في ٢٣ حزيران برآسة گورنگ. وحضره حوالى خمسة وثلاثين قائداً كبيراً وموظفاً مدنياً عالياً ومن بينهم وزراء الداخلية والاقتصاد والمال والمواصلات فضلاً عن هملر. لقد كان الإجتماع الثاني للمجلس منذ تأليفه. لكن گورنگ قال انه لم يجتمع الآن الاّ لاتخاذ اخطر القرارات واهمهما وبدد كل شكّ يساور عقول السامعين -كما افصحت وقائع الإجتماع السرية المستولى عليها- بأنّ الحرب قريبة وان ثم الكثير مما يجب عمله بخصوص القوى البشرية لادارة المصانع والزراعة وبخصوص امور عديدة أخرى تتعلق بالتعبئة العامة[٨٢].

ابلغ (گورنگ) المجلس ان هتلر قررّ دعوة سبعة ملايين رجل للخدمة العسكرية. ووضع على عاتق الدكتور فونك وزير الاقتصاد مهمة سدّ النقص في الايدي العاملة بتنظيم "انواع الأعمال التي ستعطى لأسرى الحرب والمسجونين والمعتقلين في معسكرات الاعتقال" وعقب هملر القول "ستكون معسكرات الاعتقال ذات فائدة كبيرة أثناء الحرب". وأضاف گورنگ "ان مئات الألوف من العمال الچيك سيتم إستخدامهم باشراف دقيق في ألمانيا ولاسيما في الأعمال الزراعية وسيسكنون في

٨٠- (مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٦ الص ١٠٣٥- ١٠٣٦) الوثائق PS٢٣٢٧].

٨١- المرجع نفسه الص ٩٣٤:[الوثائق C١٢٦].

٨٢- المحضر السري لإجتماع مجلس دفاع الرايخ في ٢٣ حزيران ١٩٣٩(مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٦ الص -٧١٨ الوثائق: PS ٣٧٨٧).

اكواخ." كاد برنامج النازي في عمل السخرة يتخذ شكله الواقعي بعد ان اختمر في الرؤوس زمناً.

ووعد الدكتور فريك وزير الداخلية "بتوفير العمل في المؤسسات العامة" وانعش جوّ الإجتماع باقراره ان عدد البوروقراط في الحكم النازي قد ازداد من عشرين ضعفاً الى اربعين وهي ظاهرة لاتحتمل ولاتطاق. وقرر تشكيل لجنة لتصحيح هذا الوضع المزري.

وتقدم العقيد رودولف كيركه Rudolf Gercke رئيس قسم النقل في هيئة أركان الجيش بتقرير تشاؤميّ. اذ ذكر بصراحة "في ميدان المواصلات والنقل، ارى ان ألمانيا غير مستعدة للحرب في الوقت الحاضر".

لاشكّ ان كفاية وسائل النقل الألمانية للقيام بمهمتها تتوقف على اقتصار الحرب على پولندا. فإن انتقلت الى الغرب ايضاً ضد بريطانيا وفرنسا فيخشى ان لاتقوم المواصلات بما يتطلب منها. وعقد في تموز إجتماعان طارئان "لبحث مسألة ايصال الجدار الغربي في ٢٥ آب الى احسن حالة من الإستعداد ممكنة بتجهيزه بالمواد التي يمكن الحصول عليها بعد بذل اشق مجهود". وطلب من مديري مصانع كروب الأعلين وكارتيل الفولاذ ان يبذلوا أقصى مجهود لتأمين المعدن الضروري لإنجاز تصفيح الإستحكامات الغربيّة فعلى صنعها يتوقف سلوك الجيوش الأنگلو فرنسية، في قيامها بحملة صادقة على ألمانيا الغربية بينما يكون (الڤيرماخت) مشغولاً في پولندا وهذا ماكان يعرفه الألمان حق المعرفة.

مع ان هتلر صارح جنرالاته في ٢٣ أيار، بصدق غير معهود منه ان الدانزگ ليست سبب النزاع مع پولندا ابداً. فقد ظلّت المدينة الحرّة تبدو خلال الاسابيع القلائل التالية من أواسط الصيف كإنها برميل بارود قد ينفجر عن حرب طاحنةً في أي يوم ومنذ برهة من الزمن راح الألمان يهرّبون الى الدانزگ ضباط جيش نظاميين لتدريب حرس الدفاع المحلي(٨٣) لإستخدامه الى جانب الاعتدة والسلاح. وكان الرجال والذخيرة يعبران من بروسيا الشرقية وللحيلولة دون التهريب وزيادة الرقابة ضاعف الپولنديون موظفي گماركهم وحرس حدودهم وباتت سلطات الدانزگ المحلية الآن تعمل بايعاز تام من برلين لذلك قابلت الإجراءاتُ الپولندية محاولات لمنع الموظفين الپولنديين من تأدية واجباتهم.

وبلغ النزاع حدّ التأزم في ٤ آب، عندما ابلغ الممثلُ الدبلوماسي الپولندي في الدانزگ، السلطات المحلية ان مفتشي الكمارك الپولنديين قد اعطوا الأوامر لتنفيذ واجباتهم (بقوة السلاح) وان كل محاولة من أهالي الدانزاغ لعرقلة اعمالهم ستعتبر "عملاً من اعمال العنف" ضدّ الموظفين الپولنديين.

٨٣- في ١٩ حزيران ابلغت قيادة الجيش العليا وزارة الخارجية ان ١٦٨ ضابطاً ألمانيا قد "منحوا اجازة بالسفر والتنقل في المدينة الحرة (الدانزگ) بثياب مدنية في جولة لاغراض الدراسة" وفي اوائل حزيران استفسر(كايتل) من وزارة الخارجية "هل هناك مانع سياسي من عرض اثنى عشر مدفعاً خفيفاً واربعة مدافع ثقيلة موجودة في الدانزگ وان يسمح بإجراء التمرينات بها هناك. أم الأفضل اخفاؤها وعدم اذاعتها [وثائق عن سياسة...ج٦ الص٧٥٠ و٩٢٠-٩٢١). كيف تمكن الألمان من تهريب مدفعية ثقيلة عن اعين الپولنديين المفتشين؟ هذا ما لاتفصح عنه الوثائق الألمانية.

وفي هذه الحالة ستقوم الحكومة البولندية "بمقابلة المدينة الحرة بالمثل دون أي تأخير".

كان هذا دليلاً آخر لهتلر بان البولنديين لن يحنوا هاماتهم وقد عزز هذا الدليل برأي السفير الألماني في (وارشو) الذي ابرق في ٦ تموز الى برلين بانه (لم يبق أي شكّ) في ان بولندا ستقاتل (إن حصل خرق واضح) لحقوقها في الدانزگ. واننا لنعرف من حاشية كتبها ريبنتروب بخط يده على البرقية انها عرضت على هتلر(٨٤).

ثار الغضب (بالزعيم). وفي اليوم التالي (٧ آب) استدعي (البرت فورستر Albert Forster) الگاولايتر النازي في الدانزگ الى برختسگادن واعلمه ان صبره الى آخر حدوده مع البولنديين. وتبودلت مذكرات غاضبة بين وارشو وبرلين - عنيفة اللهجة بحيث لم يجرأ احدهما على إعلانها وفي التاسع منه انذرت حكومة الرايخ بولندا ان تكرارها الانذار للدانزگ "سيؤدي الى تحرّج العلاقات بين ألمانيا وبولندا... ولن تكون الحكومة الألمانية مسؤولة عن شيء". وفي اليوم التالي ردت الحكومة البولندية رداً حاداً.

"انهم سيستمرون في مقابلة العمل بمثله والتصدي لأي محاولة تقوم بها السلطات في المدينة الحرة لغمط الحقوق والمصالح التي يتمتع بها البولنديون في الدانزگ وسينفذون ذلك بالوسائل والحدود التي يرونها مناسبةً وانهم سيعتبرون أي تدخل من حكومة الرايخ عملاً عدوانياً"(٨٥).

لم تستخدم دولة صغيرة اعترضت سبيل هتلر مثل هذه اللغة. وعندما دخل كارل بوركهارت Carl Burckhardt السويسري الجنسيّة ومندوب عصبة الأمم السامي في الدانزگ على هتلر في ١١ آب، وكان قد تنازل كثيراً في تحقيق مطالب الألمان، وجد (الزعيم) في أسوأ مزاج وابتدر زائره قائلاً "إن بدرت من البولنديين أقل بادرة فسينقض عليهم كالبرق الخاطف بكلّ الأسلحة الجبارة التي يملكها مما لايخطر ببال البولنديين".

[وذكر المندوب السامي أنه أجاب هتلر]: سيؤدي ذلك الى حرب عامة. فأجاب هتلر: لو وجبت الحرب، فالأفضل له أن يشنهّا اليوم لا غداً. وأنه لن يدير رحاها كما ادارها ڤلهلم الثاني الذي ظلّ دائماً لايدري كيف يستخدم كل سلاح بين يديه إستخداماً كاملاً. وانه سيحارب بلا رحمة ولا هوادة الى النهاية القصوى"(٨٦).

ضدّ من؟ ضد بولندا بلا ريب. ضد فرنسا وإنكلترا عند الحاجة. أضدّ روسيا أيضاً؟ بالنسبة الى الإتحاد السوڤياتي، لم يعتم هتلر إلاّ وأن وصل الى رأي.

٨٤- المرجع نفسه الص ٨٦٤-٨٦٥.
٨٥- نص الملاحظات [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ الص ٤-٥ و٩-١٠].
٨٦- تقرير بركهارت الى عصبة الأمم ١٣ آذار ١٩٤٠. النص في (وثائق الشؤون الدولية) ١٩٣٩-١٩٤٦ ج١ الص ٣٤٦-٣٤٧.

١١

التدخل الروسي: المرحلة الثالثة

مبادرة جديدة، بدرت من الروّس.

في ١٨ تموز. قام (بابارين Babarin) الممثل التجاري السوڤيتي ببرلين يرافقه إثنان من مساعديه بزيارة (يوليوس شنوره) في وزارة الخارجية الألمانية ليبلغه أن روسيا ترغب في توسيع نطاق العلاقات الألمانية الروسية وتقوية اواصرها. وحمل معه اليه لائحة مفصّلة لإتفاقية تجارية تدعو الى زيادة عظيمة في التبادل التجاري بين البلدين وأضاف يقول لو امكن التغلب على خلافات قليلة بين الطرفين فانه مخوّل بالتوقيع على معاهدة تجارية في برلين. وغلب السرور على الألمان، كما ذكر (الدكتور شنوره) في تقريره السري عن الإجتماع وذكر شنوره:

"إن معاهدة كهذه ستحدث بالتأكيد أثرها في پولندا وبريطانيا على الاقل"[٨٧] وبعد اربعة أيام من ذلك (٢٢ تموز) اعلن في صحف موسكو أن المفاوضات التجارية الروسية الألمانية قد استؤنفت في برلين.

وفي اليوم نفسه راح (ڤايسيكر) يبرق باسهاب للسفير الألماني (شولنبرگ)، ببعض تعليمات هامة جديدة. فبالنسبة الى المفاوضات التجارية أبلغ السفير "سنعمل هنا على أساس ما ستتمخض به الأيام. حيث إن ابرامهما مرغوب فيه هنا لأسباب أعمّ. أما بخصوص الجانب السياسي الصرف من مباحثاتنا مع الروس فنحن نعتبر فترة الانتظار التي حددت لك في برقيتنا (المؤرخة ٣٠ حزيران)، قد انتهت وانت الآن مخوّل باستئناف المداولة لكن دون إلحاح[٨٨].

واستونفت فعلاً بعد بضعة أيام. وفي ٢٦ تموز أشار رينتروب على الدكتور شنوره أن يدعو كلاً من (استاخوف) القائم بالاعمال السوڤيتي و(بابارين) الى عشاء في مطعم (برلين) الفخم ويقوم بجس النبض. على أن الروسيين لم يكونا بحاجة الى جس كثير. فقد ذكر (شنوره) في تقريره السّري عن العشاء أن الضيفين بقيا حتى الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين بعد نصف الليل. وانطلقا على رسلهما يتحدثان حديثاً رائعاً طلياً حول المشاكل السياسية والاقتصادية التي تهمنا".

وأعلن (أستاخوف) بموافقة (بابارين) المتحمسة أن تقارباً سياسياً ألمانياً-سوفيتياً هو مما يماشي مصالح البلدين الحيوية. لايفهم الناس في موسكو ابداً لماذا كانت ألمانيا النازية تشنؤ الإتحاد السوڤياتي بالعداوة. فرد الدبلوماسي الألماني موضحاً "أن السياسة الألمانية في الشرق اخذت الآن تسلك سبيلاً مختلفاً تمام الاختلاف".

٨٧- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ٩٣٦-٩٣٨.
٨٨- المرجع نفسه الص ٩٥٥-٩٥٦.

"لايوجد من جانبنا أي إحتمال لتهديد الإتحاد السوڤياتي واهدافنا متجهة الى ناحية معاكسة تماماً... سياسة ألمانيا تستهدف بريطانيا... وبأمكاني أن أتصور تدبيراً مقبلاً للتعاون المتبادل مع الأخذ بنظر الإعتبار المشاكل الروسية الحيوية".

ومهما يكن من أمر فهذا الإحتمال سيقضى عليه ساعة ترتبط روسيا السوڤيتية مع بريطانيا بحلف ضدّ ألمانيا. إن الزمن موآت الآن للوصول الى تفاهم بين ألمانيا والإتحاد السوڤياتي. ولن يكون الأمر كذلك بعد ابرام ميثاق مع لندن.

ماذا بوسع بريطانيا ان تقدم لروسيا؟ في احسن الاحوال المساهمة في حرب أوروبية وعداوة ألمانيا. ماذا بوسعنا تقديمه مقابل هذا؟ الحياد والإبتعاد عن حرب أوروبية محتملة الوقوع - وان رغبت موسكو فتفاهم روسي-ألمانيّ على المصالح المتبادلة، قد يعود بالنفع على البلدين، كما كان الأمر في الماضي... ليس هناك أيّ مشكلة جدلية (بين روسيا وألمانيا) مهما كانت وفي أي مكان إبتداء من البلطيق حتى البحر الأسود حتى الشرق الأقصى. زد على هذا فبالرغم من كل الخلافات في وجهات نظرها في الحياة فهناك شيء واحد عقائدي يربط بين ألمانيا وإيطاليا والإتحاد السوڤياتي: الا وهو عداؤهم للديمقراطيات الرأسمالية في الغرب(٨٩).

وهكذا في ساعة متأخرة من ليلة ٢٦ تموز وفي مطعم صغير برليني أمام مائدة حفلت بأطيب الاكال وانفس الخمر ساهم فيها دبلوماسيون من الدرجة الثانية. جرى اول عرض ألماني جدّي لصفقة سياسية مع روسيا السوڤيتية. ان الخط الجديد الذي سلكه (شنوره) كان بايعاز من ريبنتروب نفسه. وقد سرّ (استاخوف) بما سمع ووعد (شنوره) بانه سوف يقدمه بتقرير الى موسكو فوراً.

في ڤلهلمشتراسه كان الألمان ينتظرون بفارغ الصبر ليروا ماذا سيكون ردّ الفعل في العاصمة السوڤيتية وبعد ثلاثة أيام (٢٩ تموز) أرسل (ڤايسيكر) رسالة سرية مع ساع دبلوماسي الى (شولنبرگ) في موسكو:

من المهمّ ان تعرف هل ان التلميحات التي جرت على لسان (استاخوف وبابارين) قد لاقت أي انعكاس لها في موسكو؟ وان سنحت لك فرصة في تدبير مقابلة مع مولوتوف، فنرجو ان تجسّ نبضه من هذه الجهة. فإن ادى ذلك بمولوتوف الى طرح جانب التحفظ الذي إلتزمه حتى الآن فبامكانك ان تتقدم الى الأمام خطوة... وهذا ينطبق بصورة خاصّة على مشكلة پولندا. إننا على إستعداد مهما كانت التطورات التي ستؤول اليها المسألة الپولندية... للحرص على سلامة المصالح السوڤيتية والوصول الى تفاهم مع الحكومة في موسكو وايضا في مسألة البلطيق ان اتخذ الحديث مجرى ايجابياً، فيمكنك بسط الفكرة في تعديل موقفنا إزاء دول البلطيق بحيث تحترم المصالح السوڤيتية في بحر البلطيق(٩٠).

٨٩- تقرير (شنوره) المرجع السالف الص ١١٠٦- ١١٠٩.
٩٠- المرجع السالف الص ١٠١٥-١٠١٦.

بعد ذلك بيومين (٢١ تموز) ابرق وكيل الوزارة الى شولنبرگ برقية "طارئة سرية": اشارة الى رسالتنا المؤرخة ٢٩ تموز الواصلة مع ساع دبلوماسي في هذا اليوم: نرجو الجواب برقياً عن موعد وتاريخ مقابلتك التالية لمولوتوف حالما يتحدد. اننا مهتمون جداً بمقابلة عاجلة(٩١)". وللمرة الأولى تزحف نغمة الاستعجال الى مراسلات برلين-موسكو.

هناك سبب وجيه لميل برلين الى الاستعجال. ففي ٢٣ تموز وافقت فرنسا وإنكلترا أخيراً على ان تبدأ محادثات عسكريّة للقيادات العامة الثلاثة حالاً لتوقيع ميثاق عسكريّ يرسم فيه كيفية مقابلة جيوش هتلر من قبل الدول الثلاث. ومع ان چمبرلين لم يعلن هذا الإتفاق الاّ في ٣١ تموز حينما أفضى به الى مجلس العموم فقد وصل الى علم الألمان. في ٢٨ تموز ابرق السفير الألماني في پاريس فون فلجيك Von Welcjeck الى برلين بانه علم من مصدر موثوق به غير اعتيادي ان فرنسا وبريطانيا سترسلان وفدين عسكريين الى موسكو وان الوفد الفرنسي سيكون برآسة الجنرال دومان Doumane الذي وصفه "بضابط ذي كفاءة ممتازة". ونائب رئيس هيئة الأركان السابق الجنرال ويگان Weygand Maxime(٩٢).

وكان من رأي السفير الألماني (ضمنه رسالة ألحقها ببرقيته بعد يومين) ان پاريس ولندن لم توافقا على إجراء محادثات عسكرية الاّ كآخر وسيلة للحيلولة دون تأجيل مفاوضات موسكو(٩٣).

ولم يكن رأيه بعيداً عن الاصابة. فوثائق وزارة الخارجية البريطانية توضح ان المحادثات السياسية في موسكو بلغت مرحلة حرجة في آخر أسبوع من تموز لتعذر الوصول الى تعريف محدد "للعدوان غير المباشر" فالبريطانيون والفرنسيون يرون ان التعريف الروسي للاصطلاح واسع الى الحدّ الذي يبرر تدخلاً سوڤيتيا في فنلندا ودول البلطيق، وان لم يكن هناك تهديد نازيّ جديّ. وكان التشددّ من لندن بصورة خاصة أمّا الفرنسيون فكانوا أكثر تساهلاً. وكذلك اصرّ الروس في ٢ حزيران على ان تبرم الى جانب ميثاق التعاون المتبادل، معاهدة عسكرية تفصّل شروطها "وسائل وطرق ومدى" المساعدة العسكرية التي ينبغي لأي دولة من الدول الثلاث تقديمها للأخرى. فحاولت الدولتان الغربيّتان اللتان ما كانتا تقيمان وزناً كبيراً لفعالية القوى العسكرية الروسية(٩٤) حاولنا حمل مولوتوف على نبذ رأيه ولم

٩١- المرجع السالف الص ١٠٢٢-١٠٢٣.

٩٢- المرجع السالف ١٠١٠-١٠١١.

٩٣- المرجع السالف ١٠٢١.

٩٤- قللت القيادة البريطانية العليا من شأن القوة والكفاءة التى يتمتع بها الجيش الأحمر (هذا ما توهمه الألمان بعدهم) وربما كان يعود أغلبه الى التقارير التى تصلها من ملحقيها العسكريين في موسكو. فمثلاً ارسل العقيد فايربريس Firebrace الملحق العسكري والملحق الجوي قائد الجناح هلويل Hallawell في ٦ اذار تقريرين مطولين الى لندن جاء فيهما أن المقدرة الدفاعية للجيش الأحمر وطيرانه كبيرة جداً، الاّ أن امكاناته قليلة في تعبئة هجوم كبير ويرى هلويل "إن القوة الجوية الروسية كالجيش الأحمر من المحتمل أن تشل حركتها بانهيار الصنوف التلقائي، بقدر إحتمال انهيارها باعمال العدو" ورأى (فايربريس) أن عملية تطهير قادة الجيش الأحمر قد اضعف الجيش كثيراً. إلا أنه ذكر للندن "ان الجيش الأحمر يرى الحرب لا مفر منها ولاتشك انه قد اتخذ لها الأهبة بافضل ما يمكن (و.س.ب.خ: رقم ١٨٣ ج٤).

توافقا إلاّ على الشروع في محادثات الأركان بعد التوقيع على المعاهدة السياسيّة. لكن الروس لم يتزحزحوا ورفض مولوتوف رفضاً صريحاً محاولة البريطانيين إجراء مساومة توفيق في ١٧ تموز بالشروع في مباحثات أركان حالاً إذا نزل الإتحاد السوڤياتي عن إصراره على توقيع معاهدتين سياسية وعسكرية في آن واحد، واذا قبل ايضاً الى مدى كبير التعريف البريطاني "للعدوان غيرالمباشر". وقال مولوتوف إن لم يوافق الأنگلو فرنسيون على ابرام معاهدتين سياسية وعسكرية صفقة واحدة فليس هناك أيّ موجب لاستمرار المفاوضات. واحدث تهديد الروس بقطع المفاوضات خيبة كبيرة في پاريس التي كان يبدو أنها أشد أحساساً ومعرفة من لندن بمغازلة النازيين للاتحاد السوڤياتي. وكان الفضل الأكبر للفرنسيين بالضغط على الحكومة البريطانية وحملها على الموافقة. وفي ٢٣ آب رضيت مترددّة – بالمفاوضات العسكريّة بينما ظلّت ترفض قبول المقترحات الروسية في تفسير "العدوان غيرالمباشر"[٩٥]. كان چمبرلين بارداً الى أقصى حدّ بخصوص المباحثات العسكرية[٩٦].

وفي ١ آب اعلم السفير الألماني (فون ديركسن) برلين، ان المباحثات العسكرية مع الروس "ينظر اليها نظرة شكّ" في اوساط الحكومة البريطانية، وكتب يقول:

"لقد قوي الشكّ عند تأليف الوفد العسكري البريطاني[٩٧] فالأميرال محال الى التقاعد فعلاً. والجنرال هو ضابط ميدان صرف ومارشال الجوّ بارز كطيّار ومعلّم، لا كستراتيجيّ وقد يشير هذا الى أنّ مهمة البعثة العسكرية هي بالدرجة الأولى التأكد من قيمة القوات السوڤيتية الحربيّة أكثر منه لعقد إتفاقيات عمليّة... واتفق الملحقون العسكريون للڤيرماخت في تقاريرهم على ان الاوساط العسكرية البريطانية تشكّ شكاً (استغربوا هم منه) حول نتائج المباحثات المقبلة مع القوات المسلحة السوڤيتية[٩٨]. والحق يقال ان الحكومة البريطانية كانت على درجة من الشكّ حتى انها اهملت تزويد الأميرال (دراكس) بتخويل وأوراق اعتماد للتفاوض – سهوٌ (إن كان كذلك حقاً) شكا منه المارشال ڤورشيلوڤ Voroshilov عندما التقى القادة المتفاوضون. ولم تصل أوراق اعتماده حتى ٢١ آب عندما لم يبق منها فائدة.

لكن ان كان الاميرال دراكس لايملك أوراق اعتماد فقد زود على وجه التأكيد بتعليمات خطيّة سرية

٩٥- انظر (و.س.ب.خ) ج٤ رقم ٣٢٩ و٣٣٨ و٣٤٦ و٣٥٧ و٣٧٦ و٣٩٩.

٩٦- كان (سترانگ) الذي يتفاوض مع مولوتوف أكثر بروداً. فقد كتب الى وزارة الخارجية في ٢٠ تموز "من الغريب جداً ن ينتظر منا افشاء الاسرار العسكرية للاتحاد السوڤياتي قبل التأكيد من انهم يسكونون حلفاء لنا". أمّا وجهة النظر الروسية فكانت مختلفة تماماً وقد أوضحها مولوتوف في المفاوضات الأنگلو فرنسية" قال: النقطة المهمة هي كم عدد الفرق سيساهم بها كل فريق للقضية المشتركة واين سيكون موقعها". (المرجع السالف رقم ٣٧٦ و٤٧٣). كان الروس يريدون ان يعرفوا مقدار المعونة العسكرية التى يتوقعونها من الغرب.

٩٧- تالفت البعثة العسكرية من الأميرال سر رجنالد بلنكيت-إنلي دراكسRaginald Plinkett- Enle Drax الذي كان قائداً عاماً لبليموث ١٩٣٥-١٩٣٨.ومارشال الجّو سر جارلس يورنيت Charles Burnett الميجر جنرال هيوود Heywood.

٩٨- تقريران بتاريخ ١ آب: [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج١ ص ١٠٣٣- ١٠٣٤].

تحدد له معالم الطريق التي سيسلكها في المحادثات العسكرية بموسكو. فقد كشفت أوراق وزارة الخارجية البريطانية بعد مرور زمن طويل ان الأميرال نبّه "بالسير سيراً جدّ بطيء في المباحثات (العسكرية) ومراقبة سير المباحثات السياسية في الوقت نفسه" حتى تنتهي بالإتفاق السياسي ويتم التوقيع عليها[٩٩]. وأوضح له الاّ يبوح للروس بأي معلومات عسكرية سرية حتى توقع المعاهدة السياسية.

لكن لما كانت المباحثات السياسية قد انقطعت في ٢ آب. وجزم مولوتوف انه لن يرضى باستئنافها الاّ اذا حصل تقدم في المباحثات العسكرية. فمن السهل ان يستنتج المرء ان حكومة چمبرلين كانت متأهبة لاضاعة وقت طويل في تدقيق الواجبات التي وضعتها مسودة معاهدة التعاون المتبادل على كل دولة من الدول المتفاوضة[١٠٠].

والحق يقال ان وثائق وزارة الخارجية البريطانية السرية لاتدع كثير شك في ان چمبرلين وهاليفاكس كادا في ٢ آب، يفقدان كل امل في الوصول الى إتفاق مع الإتحاد السوڤياتي لوقف هتلر. الاّ انهما ارادا تمديد اجل المفاوضات العسكرية في موسكو كسب الوقت لردع هتلر عن اتخاذ خطوته الجازمة نحو الحرب. أو على الاقل تأخيرها بضعة أسابيع[١٠١].

وبخلاف البريطانيين والفرنسيين ألف السوڤيت وفدهم العسكري من ارفع شخصيات قيادات القوات المسلحة. فالجنرال شابوشنكوف Shaposhnikov هو رئيس هيئة الأركان العامة في الجيش الأحمر. والمارشال ڤورشيلوف وزير الدفاع. وهناك ايضاً قائد الأسطول العام وقائد القوة الجوية العام. ولم يتغاض الروس قط عن واقع ترفع البريطانيين عن إرسال الجنرال السر ادموند آيرونسايد Ironside Edmond رئيس هيئة أركان حرب الامبراطورية الى موسكو في حين ارسلوه الى وارشو!

ولايمكننا القول ان البعثة العسكرية الانكلو- فرنسية ارسلت على بساطٍ من الريح الى موسكو. ان الطائرة تبلغ بهم العاصمة في يوم واحد، لكنهم ارسلوا بباخرة شحن بطيئة يقتضي لها لبلوغ روسيا قدر ما يقتضي للباخرة (كوين ميري) لايصالهم الى أمريكا. وهكذا ابحروا قاصدين لينينگراد في ٥

٩٩- (و.س.ب.خ) الملحق الخامس ص ٧٦٣.

١٠٠- توصل (ارنولد توينبي) وزملاؤه في كتابهم "حافة الحرب: ١٩٣٩" الى هذه النتيجة وهي في الغالب مستندة الى وثائق وزارة الخارجية البريطانية.

١٠١- كتب مارشال الجو بورنيت الى لندن في ١٦ آب: "ادركت ان سياسة الحكومة ترمي الى تطويل امد المفاوضات الى اقصى فترة ممكنة، إن لم يكن التوصل الى ابرام معاهدة ممكنا وابرق السفير البريطاني (سيدز) الى لندن (في ٢٤ تموز) بعد موافقة حكومته على المفاوضات العسكرية بيوم واحدٍ "اني غير متفائل بنجاح اية مفاوضات عسكرية. ولااراها ستنتهي يإتفاق قريب، لكن الشروع فيها سيصدم المحورَ صدمة عنيفة وينعش معنوية أصدقائنا. كما يمكن المد فيها الى الحد الذي نستفيد فيه الاشهر التالية الخطيرة جداً. (رسالة بورنيت في: و.س.ب.خ ملحق ٢ ص٦٠٠، برقية (سيدز) المرجع نفسه ج٦ رقم ٤١٦.) أمّا عن معلومات الإستخبارات البريطانية والفرنسية عن إجتماعات مولوتوف بالسفير الألماني وهي التى حذر (كولوندر) پاريس منها في ٧ أيار. وأمّا عن المجهودات التى بذلتها ألمانيا لاغراء روسيا بتقسيم پولندا، وعن تحشيدات الجيوش الألمانية على الحدود الپولندية ونوايا هتلر، فإن جهل شبكة الإستخبارات البريطانية بها في موسكو كان أمراً يُذهب اللّب ويحيّر العقل!

آب. الاّ انهم لم يصلوا موسكو حتى الحادي عشر منه.

ووصلوا متأخرين. واحرز هتلر قصب السبق. ففيم كانوا ينتظرون اقلاع السفينة بهم الى لينينگراد راح الألمان يعملون بسرعة وكان الثالث من آب يوماً حاسماً لكل من برلين وموسكو. في الساعة ١٢/٥٨ ظهراً، خط ريبنتروب بيده برقية الى سفيره في موسكو شولنبرگ (سريّة ومستعجلة جداً). وكان قد دأب على ان يترك مهمة إرسال البرقيات الى وكيل وزارته فون ڤايسيكر.

"كان لي امس حديث طويل متشعب مع أستاخوف وسيصلك ببرقية تالية".

"اعربت عن رغبة ألمانيا، بإجراء تغيير تام في العلاقات الروسية الألمانية وذكرت انه لايوجد مشكلة من البلطيق حتى البحر الأسود الا ويمكن حلّها برضى من الطرفين. وجواباً على رغبة استاخوف في مباحثات أكثر رسوخاً في مسائل الساعة... اعلنت عن إستعدادي لإجراء مباحثات على هذا المستوى اذا اعلمتني الحكومة السوڤيتية عن طريقه انها ترغب هي ايضاً في وضع العلاقات الروسية الألمانية على أسس جديدة واضحة"[١٠٢].

وكانت وزارة الخارجية تعلم ان شولنبرگ سيقابل مولوتوف في ساعة متأخرة من ذلك اليوم واسرع (ڤايسيكر) بإرسال برقية سرية ومستعجلة جداً الى (فون شولنبرگ) بعد ساعة من البرقية الأولى "نظرا الى الموقف السياسيّ. وتوخياً للسرعة نحن على رغبة شديدة في ان نستمرّ هنا في برلين بالمباحثات لتنسيق المطالب الألمانية السوڤيتية على مستوى ارسخ، دون تدخلّ ما بمباحثاتك مع مولوتوف التي ستجري اليوم. ولهذه الغاية سيستقبل (شنوره) (استاخوف) اليوم وسيعلمه عن إستعدادنا لاستئناف المفاوضات على اسس أكثر ثباتاً وجديّة"[١٠٣].

ومع ان رغبة ريبنتروب المفاجئة في مباحثات (معيّنة) في كل شيء من البلطيق حتى البحر الأسود قد ادهشت الروّس من ناحية. كما ابلغ شولنبرگ في برقيته التالية التي أبرقها في ٣,٤٧ عصراً بتلميحه "تلميحة خفيفة [لأستاخوف] حول التوصل الى تفاهم مع روسيا حول مصير پولندا" ومع كل هذا فان وزير الخارجية أوضح لسفيره انه قال للقائم بالأعمال الروسي "نحن لسنا مستعجلين"[١٠٤].

كانت هذه خدعة. ولم تفت القائم بالاعمال السوڤيتي الحادّ الذكاء، فعندما قابل (شنوره) في وزارة الخارجية في الساعة ١٢,٤٥ ظهراً تساءل قائلاً: في الوقت الذي بدا (شنوره) مستعجلاً يجد وزير الخارجية االألماني يوم أمس "لا يبدي مثل هذه العجلة فانتهز شنوره الفرصة: [وكتب في تقرير سري][١٠٥]: قلت للسيد أستاخوف، مع أن وزير الخارجية لم يظهر مساء أمس استعجالاً تجاه الحكومة السوڤيتية، فنحن نرى من المناسب الاستفادة من الأيام التالية القليلة، لاستئناف الحديث كيما يتم بناء الأسس بأسرع ما يمكن."

١٠٢- وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ ص١٠٤٧.
١٠٣- المرجع نفسه الص ١٠٤٨-١٠٤٩.
١٠٤- المرجع نفسه الص ١٠٤٩-١٠٥٠.
١٠٥- المرجع نفسه الص ١٠٥٠- ١٠٥١.

اذن فالمسألة عند الألمان أصحبت مسألة "الأيام التالية القليلة". قال استاخوف لشنوره انه تسلّم "جواباً مبدئياً" من مولوتوف حول المقترحات الألمانية ويغلب عليه السّلب. وقال له ان مولوتوف خبرّه "في الوقت الذي ترغب موسكو ايضاً من تحسين العلاقات، فإلى حدّ الآن لم يظهر شيء ثابت من موقف ألمانيا". وصارح وزير الخارجية السوڤيتي السفير شولنبرگ بمجمل آرائه مباشرة في تلك الليلة. وكتب تقريراً مطولاً ارسله بعد نصف الليل بقليل(١٠٦). قال فيه ان مولوتوف في الحديث الذي دام ساعة وربع ساعة انطلق على سجيته "وترك تحفظه المعتاد وبدا منفتح النفس على غير المألوف" ولم يخالج السفير شكّ في ذلك. فبعد ان بسط شولنبرگ وجهة نظر ألمانيا في عدم وجود أي خلاف بين البلدين "من البلطيق حتى البحر الأسود" وأكد ان الألمان يرغبون في "الوصول الى تفاهم" راح الوزير السوڤيتي الصلب يعدد بعض الأعمال ذات الصيغة العدائية التي ارتكبها الرايخ بحق الإتحاد السوڤياتي: ميثاق مكافحة الكومنترن، مساندة اليابان ضدّ الإتحاد السوڤياتي، استبعاد السوڤيت من (مونيخ).

وتساءل مولوتوف: "كيف يمكن التوفيق بين قول الألمان وبين هذه النقاط الثلاث؟ ان الدليل على تغيير موقف الحكومة مازال في الوقت الحاضر غير موجود".

ويبدو ان شولنبرگ شعر ببعض الخيبة. [وابرق الى برلين بمايلي] انطباعي العام هو ان الحكومة السوڤيتية قد قررت في الوقت الحاضر ابرام إتفاقية مع بريطانيا وفرنسا ان حققتا رغبتها... واعتقد ان اقوالي خلفت انطباعاً في مولوتوف، لاشكّ اننا بحاجة الى بذل جهد كبير لإحداث تبديل في مجرى سياسة الحكومة السوڤيتية. وعلى سعة معرفة الدبلوماسيّ الألماني القديم بالشؤون الروسيّة، فقد بالغ من تقدير التقدم الذي حققته المفاوضات الأنگلو-فرنسيّة- السوڤيتية. ولم يدرك الأبعاد التي استعدت برلين الآن للسير فيها "لبذل مجهود كبير" رأته ضرورياً لتبديل مجرى سياسة الإتحاد السوڤياتي. وازدادت في ڤلهلمشتراسه الثقة بامكان بلوغ هذه الغاية.

فببقاء روسيا على الحياد، إما تعاف بريطانيا وفرنسا القتال في سبيل پولندا أو إن قاتلتا فسيكون الصمود أمامها سهلاً بفضل الاستحكامات حتى يُقضى على پولندا بسرعة فيتحول الجيش الألماني برمّته الى الغرب.

ولاحظ جاك تاربيه دي سان هاردوان Jacque Tarbede st-Hardouin القائم بالأعمال الفرنسي الأريب في برلين تبدلاً في جوّ العاصمة الألمانية، ففي ذلك اليوم نفسه (٣ آب) حيث كان نشاط غير عاديّ (ألماني-سوڤيتي) دبلوماسي في كل من برلين وموسكو كتب الى پاريس يقول: "في غضون الأسبوع الماضي لوحظ تغيير واضح جداً في الجوّ السياسيّ في برلين... ان فترة التحرّج، والتردد، والميل مع الظروف أو حتى التهدئة، قدّ مرت بزعماء النازي وخلّفها مظهر جديد(١٠٧).

١٠٦- المرجع نفسه الص ١٠٥٩-١٠٦٢.
١٠٧- الكتاب الأصفر الفرنسي الص ٢٥٠-٢٥٤.

-١٢-

تردّ حلفاء ألمانيا

كان الأمر مختلفاً لدى حليفتي ألمانيا، إيطاليا والمجر. فقد راح الخوف يتعاظم بحكومتي بودابست وروما كلما تقدم الصيف بهما، خشية تورطهما في حرب هتلرية الى جانب ألمانيا.

في ٢٤ تموز وجّه الكونت تيليكي Count Teleki رئيس وزراء المجر رسالتين متشابهتين الى هتلر وموسوليني، يعلمها فيهما انه "عند نشوب صدام عام فستجعل المجر سياستها متضامنة مع سياسة المحور" وبعد ان ابتعد هذا الشوط الكبير، عاد فنكص على مؤخرتيه. فكتب في اليوم نفسه الى الدكتاتورين رسالتين اخريين قال فيهما لئلا يساء تفسير رسالتي المؤرخة ٢٤ تموز اكرر... انّ المجر لاتستطيع لأسباب أدبيّة ان تقوم بعمل حربيّ ضدّ پولندا"(١٠٨).

ثارت ثائرة هتلر لرسالة بودابست الثانية، وانتابته واحدة هياج من نوبات هياجه المألوفة. وعندما إستقبل الكونت كزاكي Csaky وزير الخارجية المجري في اوبرسالزبرگ في ٨ آب بحضور (ريبنتروب) افتتح الحديث بإعلان ألمه من رسالة رئيس الوزراء المجري. ويوضح محضر سرّي للحديث ضبط لوزراء الخارجية انه اعرب عن استغرابه لأنه لم يتوقع قط أي معونة من المجرّ أو من أي دولة أخرى "في حالة نشوب نزاع مسلح پولنديّ ألماني" وزاد يقول "ان رسالة الكونت (تيليكي) "لاتحتمل" وذكرّ ضيفه المجري ان كرم ألمانيا وسماحها هو الذي أضاف الى بلاده أراضي جديدة على حساب چيكوسلوڤاكيا. وان هزمت ألمانيا في الحرب "فسيقضى على المجر تلقائياً أيضاً".

يكشف المحضر الألماني لهذا الحديث الذي كان من جملة وثائق الوزارة الخارجية المستولى عليها، عن الحالة الفكرية التي لازمت رأس هتلر في ذلك الشهر الحاسم، شهر آب. قال انّ پولندا ليست مشكلة عسكرية عند كلّ الألمان. وعلى كلّ حال فهو قد حسب حسابه منذ وقت طويل لحرب على جبهتين. وفخر قائلاً "ليس هناك قوة في العالم تستطيع انه تخرق إستحكامات ألمانيا في الغرب. وليس هناك كائن إستطاع انه يلقي الرعب في نفسي طوال حياتي وهذا ينطبق على إنگلترا ايضاً. ولن اقع ضحيّة انهيار عصبي طالما منّوا أنفسهم به" أمّا عن روسيا:

(ان الحكومة السوڤيتية لن تحاربنا... لن يكرر السوڤيت غلطة القيصر وينزفوا حتى الموت بسبب بريطانيا وربما حاولوا الاستفادة على حساب دول البلطيق أو پولندا دون ان يشاركوا في أي عمل حربي".

وكانت خطبته شديدة الوقع والتأثير بحيث لم ينته من حديثه الثاني في اليوم نفسه حتى رجا منه الكونت (كزاكي) "ان يعتبر الرسالتين اللتين كتبهما الكونت تيليكي كأنما لم تكتبا" وقال انه سيتقدم

١٠٨- النّصان في [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج٦ الص ٩٧٣-٩٧٤].

بالرجاء نفسه الى موسوليني.

قضى الدوتشي عدة أسابيع قلقاً تنتابه الهواجس حول خطر جرّ هتلر إيطاليا الى الحرب. وكان (أتوليكو) سفيره في برلين يرسل اليه التقرير تلو التقرير وفي كلها ما ينذر بسوء العاقبة ويثير القلق حول عزم هتلر على مهاجمة پولندا[١٠٩].

ومنذ أوائل حزيران راح يلح على إجتماع بهتلر وفي تموز تعيّن للإجتماع الرابع من آب في (برينر) وفي ٢٤ تموز قدم اليه عن طريق (أتوليكو) "مبادىء أساسية معيّنة" لمباحثاتهما ان وجد (الزعيم) الحرب "لا مفرّ منها" فإن إيطاليا ستقف الى جانبه لكنه ذكّره ان حرباً مع پولندا لايمكن ان تبقى حرباً موضعيّة بل ستصبح صداما أوروپياً. وموسوليني لايرى الوقت مناسباً لشنّ المحور مثل هذه الحرب. واقترح بدل ذلك "سياسة سلمية بناءة بضع سنوات" تقوم ألمانيا خلالها بتسوية خلافاتها مع پولندا، وتنهي إيطاليا مشاكلها مع فرنسا بالمفاوضات الدبلوماسية. ثم ذهب الى أكثر من هذا فاقترح مؤتمراً دوليا آخر للدول الكبرى[١١٠].

كان ردّ فعل (الزعيم) سيئاً كما ذكر تشيانو في يوميّته المؤرخة ٢٦ تموز ورجّح موسوليني ان الأفضل هو تأجيل الإجتماع[١١١]، واقترح في السابع من آب عوضاً عنه إجتماعاً فورياً يعقده وزيرا خارجية الدولتين. وتشير ملاحظات تشيانو المدونة في يومياته الى القلق المتزايد في تلك الأيام. فكتب في ٦ آب: "علينا ان نجد مخرجاً بشكل ما. ان تبعنا الألمان فعلينا الدخول في الحرب ظروف الدخول فيها غير ملائمة لنا بالمرة ولاسيما إيطاليا، رصيدنا الذهبي اصبح صفراً وإحتياطينا من المعادن ناضب ايضاً. يجب علينا ان نجتنب الحرب. لقد اقترحت على الدوتشي فكرة إجتماعي بريبنتروب... وسأحاول خلال الإجتماع مناقشة مشروع موسوليني لعقد مؤتمر دولي.

١٠٩- ومما يطابق ذلك. تقرير دقيق محكم للمحادثات التي اجراها أتوليكو مع ريبنتروب في ٦ تموز وارسله الى روما. قال له الوزير النازي. لو جرؤت پولندا على مهاجمة الدانزگ فان ألمانيا ستسوّي قضية الدانزگ في (٤٨) ساعة وفي وارشو! وان تدخلت فرنسا في المسألة وسببت بذلك حرباً عامة، فهي وشأنها. فليس أحبّ لألمانيا من هذا "وستباد" فرنسا إبادة تامة. وبريطانيا؟ ان بدرت منها بادرة فستسبب الدمار للإمبراطورية البريطانية. وروسيا؟ ستعقد معاهدة ألمانية روسية ولن تشترك بحرب. وأمريكا؟ خطبة واحدة ألقاها الزعيم، كانت كافية لهزيمة روزفلت من الحلبة. لن يبرز الأمريكان الى الميدان قط. فالخوف من اليابان سيجعلهم هادئين.
"[كتب أتوليكو يقول] أصغيت الى كلامه بصمت المذهول، هو يرسم هذه الصورة للحرب التي (تستفيد ألمانيا فقط ad usum Germaniae) وقد ركزتها أوهامه في رأسه الآن بصورة راسخة لايمكن قلعها. لايمكن أن يرى إلا بصورته التي رسمها (وهي صورة تسلم المرء الى الدهشة) عن إنتصار ألمانيا في كل ميدان ورغم كل شيء... وبالأخير توصلت على قدر فهمي بان هناك إتفاقاً كاملاً بين الزعيم والدوتشي عن تهيؤ إيطاليا وألمانيا لحرب ليست قريبة (تقرير أتوليكو عن إجتماعه طبع في الوثائق الدبلوماسية الإيطالية: السلسلة ٧ ج١٢ رقم ٥٠٣ لقد استخدمت المقتبسات من (كتاب حافة الحرب). نشره ارنولد توينبي وڤيرونيكا.م. توينبي. إلاّ ان أتوليكو الذكي لم يؤمن بهذا قط وكل تقاريره لشهر تموز كانت تنذر بقرب الهجوم الألماني على پولندا.
١١٠- محضر ڤايسيكر [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٦ الص ٩٧١- ٩٧٢].
١١١- يوميات تشيانو الص ١١٣-١١٤.

٩ آب: وافق ريبنتروب على فكرة إجتماعنا. قررت السفر غداً ليلاً، لمواجهته في سالزبرگ. الدوتشي مهتمّ في ان ابرهن للألمان بالوثائق، ان نشوب الحرب في هذا الوقت هو تهوّر وطيش.

١٠ آب: الدوتشي مقتنع أكثر من أي وقت مضى بضرورة تأجيل الحرب. فهو نفسه نظم الخطوط الرئيسة للتقرير المتعلق بإجتماع (سالزبرگ) الذي ختم بإشارة الى إجراء مفاوضات دولية لتسوية المشكلات التي تقلق الحياة الأوروبية اقلاقاً خطيراً.

قبل ان أرحل اوصاني ان أصارح الألمان بضرورة اجتنابنا حرباً مع پولندا مادام يتعذرّ حصرها في نطاق ضيق ومادامت أي حرب عامة ستكون كارثة للجميع[١١٢]."

انطلق وزير الخارجية الإيطالي الشاب مسلحاً بهذه التوصيات، التي جعلتها الظروف الراهنة أفكارا ساذجة، ووصل ألمانيا حيث صكّه هتلر وريبنتروب في الأيام الثلاثة ١١، ١٢، ١٣ آب، صكاً وصدماه صدمة لم ير مثلها في حياته.

-١٣-

تشيانو في سالزبرگ وأوبرسالزبرگ

١٢،١١ ، ١٣ آب

قضى تشيانو زهاء عشر ساعات من يومه الأول يباحث ريبنتروب في مزرعة بـ(فوشل Fuschl) خارج سالزبرگ، وكان قد انتزعها وزير الخارجية عنوة من احد الملكيين النمساويين الذي اودع معسكر إعتقال ليخلي له الجوّ. ووجد الإيطالي الحارّ الدم الجوّ بارداً كئيباً كما ذكر، ولم يتبادل مع زميله كلمة واحدة أثناء عشائهما في حانة (الجواد الأبيض) القريبة من سانت ولفگانگ St Wallgang ولم يكن ثم ضرورة لهذا لقد ابلغ ريبنتروب زميله في الساعات الأولى من اليوم ان قرار الإغارة على پولندا، لا محيص عنه. وروى تشيانو انه سأل زميله: "حسناً يا ريبنتروب، ماذا تريد؟ الممرّ أو الدانزگ؟" فأجاب ريبنتروب وهو يحدجه بعينيه الباردتين برودة الحديد: "نحن نريد حرباً!"

ونبذت تعاليل تشيانو جانباً، ولم يلتفت الى قوله ان الحرب الپولندية لايمكن حصرها وان الديمقراطيات الغربية لن تقف مكتوفة اليدين ان هوجمت پولندا في اليوم الذي سبق عيد الميلاد، وبعد أربع سنوات من هذا الإجتماع أي ١٩٤٣ وجد تشيانو نفسه مستلقياً في الزنزانة رقم (٢٧) في سجن فيرونا Virona ينتظر إعدامه الحياة على يد الألمان، فتذكر اليوم القرير الحادي عشر من آب في (فوشل) وسالزبرگ. وكتب في آخر يوميّة له (٢٣ كانون الأول ١٩٤٣) انه تراهن مع ريبنتروب "أثناء وجبة طعام من تلك الوجبات الكئيبة في اويستررايشر Oesterreichischer في سالزبرگ" على

١١٢- المرجع نفسه الص ١١٦-١١٨.

شكة سلاح ودروع ألمانية قديمة، مقابل لوحة زيتية إيطالية يعطيها له ان بقي البريطانيون والفرنسيون على الحياد -وهو رهان لم يوف به ريبنتروب- كما ذكر ذلك بمرارة وحسرة[١١٣].

فإنتقل تشيانو الى أوبرسالزبرگ. حيث ردّد هتلر خلال إجتماعيْ ١٢ و١٣ آب مؤكداً ان فرنسا وبريطانيا لن تحاربا. وكان (الزعيم) خلافاً لوزير الخارجيّة لطيفاً مجاملاً الاّ انه كان مثله مصراً على الحرب وهذا واضح لا من تقرير تشيانو وحده، بل من محاضر الإجتماع السريّة الألمانية التي كانت بين الوثائق المستولى عليها[١١٤]. وجد وزير الخارجية الإيطالي هتلر واقفاً أمام منضدة واسعة تغطيها خرائط أركان عسكريّة. وبدأ يشرح قوة جدار ألمانيا الغربيّ. قائلاً انه منيع جداً يستحيل إختراقه وزاد يقول متهكماً ان بريطانيا لاتستطيع المساهمة بأكثر من ثلاث فرق في فرنسا. ستنزل فرنسا فرقاً أكثر بكثير لكن لما كانت هزيمة پولندا ستتم في "وقت جدّ قصير". فبإمكان ألمانيا ان تحشدّ مائة فرقة في الغرب "لكفاح موت أو حياة سيبدأ حالاً". أيكون له هذا؟ بعد مضي دقائق قليلة، وبعد ان ازعجه ردّ الفعل الأولي في تشيانو بدأ يناقض نفسه. وراح الوزير الإيطالي يفصح عمّا في ذهنه كما عاهد نفسه. ويقول محضر الإجتماع الألماني انه أعرب "عن دهشة إيطاليا العظيمة لخطورة الموقف غير المنتظرة". وزاد يقول "... وبعكس ذلك أوضح له وزير الخارجية [في ميلان وبرلين أثناء شهر أيار] ان مسألة الدانزگ ستحلّ بالطرق الاعتيادية).

وعندما أوضح تشيانو ان أي حرب مع پولندا قد تمتد وتشمل أوروپا. قاطعه مضيفه بقوله انه يختلف معه في هذه النقطة وأجابه: "انا شخصياً مقتنع قناعة مطلقة ان الديمقراطيات الغربية ستنكص في آخر لحظة عن إطلاق حرب جامعة". فردّ تشيانو على ذلك (من المحضر الألماني) "انه يأمل ان يكون هتلر مصيباً الاّ انه لايرى هذا الرأي". وانثنى يفصّل بإسهاب مواطن ضعف إيطاليا. ومن شكواه هذه تبين لهتلر أخيراً ان إيطاليا لن تكون عوناً كبيراً له في الحرب القادمة[١١٥]. قال (تشيانو) من الأسباب التي تحمل الدوتشي على إرجاء الحرب انه "يعلق أهمية كبيرة، على إقامة

١١٣- يوميات تشيانو الص ١١٨-١١٩ و٥٨٢-٥٨٣. ملحوظات تشيانو عن إجتماعه بريبنتروب هي في "أوراق تشيانو الدبلوماسية" الص ٢٩٧- ٢٩٨ وكذلك في (الوثائق الدبلوماسية الإيطالية السلسلة الثامنة ج١٣ رقم (١). على انه لم يوجد محضر ألماني لهذا الإجتماع.

١١٤- إن المحاضر الألمانية للإجتماعين ١٢ و١٣ آب، المستولى عليها. قدمت الى محكمة نورمبرگ كأحد الادلة (PS-١٨٧١ وTC-٧٧). والمحضر الأخير منهما اكمل. وقد طبعت ترجمته الإنگليزية في (مؤامرة النازيين وعدوانهم ج٧ الص ٥١٦-٥٢٩) لقد اعتمدت النسخة التي تحمل توقيع الدكتور شميدت في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ الص ٣٩-٤٩ و٥٣-٥٦] وتسجيل إجتماعي تشيانو بهتلر هما في (أوراق تشيانو الدبلوماسية: الص ٣٠٣-٣٠٤) وفي (الوثائق الدبلوماسية الإيطالية ج٨ رقم ٤ و٢١. وكذلك في يوميات ١٢ و١٣ آب ١٩٣٩ و٢٣ كانون الاول ١٩٤٣ من يومياته الص ١١٩- ١٢٠ و٥٨٢-٥٨٣.

١١٥- قال ريبنتروب لتشيانو في لحظة نفاذ صبر "نحن لسنا بحاجة اليكم" فأجابه تشيانو "المستقبل كشاف" (من يوميات (هالدر) غير المطبوعة بتاريخ ١٤ آب (مقتبسات من يوميات هالدر طبعت في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ ص٥٥٦] يقول هالدر انه حصل على المعلومات من ڤايسيكر.

(المعرض الدولي) العام ١٩٤٣ في إيطاليا كما تقرر، وهذا ما استغرب له هتلر تماماً وهو المنهمك في دراسة الخرائط العسكرية وفي حساباته الحربية. ولعله لم يقلّ إستغرابه عندما عرض عليه تشيانو بكلّ سذاجة مشروع بيان مشترك راجياً نشره: انّ وزيري المحور "يعودان ليؤكدا نوايا حكومتيهما السلميّة" وإيمانها بإمكانية تثبيت السلم عن طريق المفاوضات الدبلوماسية الاعتيادية" وأوضح تشيانو، ان الدوتشي يحبذ عقد مؤتمر سلم تساهم فيه كل الدول الأوروپية الكبرى. الاّ انه "اكراماً للفوهرر وغبة في ألاّ يسيء اليه" يرضى بحدود المفاوضات الدبلوماسية المعتادة. لم يرفض هتلر الفكرة بتمامها في اليوم الأول الاّ انه ذكّر (تشيانو) ان روسيا لايمكن بعد الآن إستبعادها من إجتماعات الدول المقبلة". وكان هذا أول تنويه بالإتحاد السوڤياتي ولم يكن الأخير.

أخيراً عندما حاول تشيانو اعتصار التاريخ المقرر للإغارة على پولندا من فم هتلر أجابه ان "تسوية الأمر مع پولندا ستتم كيفما كان في نهاية آب" بسبب امطار الخريف التي قد تشلّ حركة الفرق الآلية والمصفحة في بلاد ليس فيها كثير من الطرق المعبّدة. وهكذا فاز تشيانو بمعرفة الموعد في نهاية الأمر. أو على الأقل بآخر موعد محتمل، حيث ان صوت هتلر إرتفع بعد لحظة ملعلعاً لو ان البولنديين قاموا بحركة إستفزاز جديدة فهو عازم على "غزو پولندا خلال ثماني وأربعين ساعة". ولذلك "فالحركة على پولندا يجب ان تكون متوقعة في أي لحظة". بهذا الإنفجار انتهى إجتماع اليوم الأول خلا وعد هتلر انه سيفكر بالمقترحات الإيطالية وبعد ان تأمل فيها أربعاً وعشرين ساعة. أخبر تشيانو في اليوم التالي بألاّ حاجة تدعو الى (بيان مشترك) مهما كانت صيغته حول مباحثاتهما[١١٦]. وبسبب الطقس السيء في الخريف... "فمن الضروري للغاية اولاً: ان تظهر پولندا نواياها واضحة في اقصر فترة ممكنة. وثانياً: لن تتسامح ألمانيا بعد الآن باي عمل من اعمال الإستفزاز مهما كان نوعه."

وعندما استفسر تشيانو عما يقصد بـ"بأقصر فترة ممكنة" أجاب هتلر "الى آخر يوم من آب على ابعد تقدير". وأوضح يقول: "في حين لايقتضي أكثر من أسبوعين للتغلّب على پولندا، فإن (التصفية النهائية) ستتطلّب أسبوعين أو أربعة أسابيع أخرى - وكان كمَنْ ينطق بنبوءة فقد تحقق ذلك بالحرف.

١١٦- مع أن المحاضر الألمانية تظهر بجلاء ان تشيانو قد وافق هتلر على ان لايصدر بيان مشترك بالمحادثات بعد انتهائها "فان الألمان اسرعوا حالاً الى التحايل على حليفهم الإيطالي. فنشرت وكالة (د.ن.ب) الألمانية الرسمية بعد ساعتين من مغادرة تشيانو، وبدون أي استشارة ما للإيطاليين، بياناً ذكرت فيه ان المحادثات تناولت جميع مشاكل الساعة- وعلى الخصوص مشكلة الدانزگ- واسفرت عن إتفاق تام في وجهات النظر (مائة بالمائة) وزاد البيان يقول انه لم تترك مشكلة واحدة معلقة ولذلك لم يبق هناك داعٍ لإجتماعٍ آخر حيث لم يعد حاجة اليه. فثارت ثائرة (أتوليكو) واحتجّ للألمان واتهمهم بعدم الأمانة. ولمّح (لهندرسن) بأن الحرب وشيكة ووصف في تقرير غاضب الى روما البيان الألماني "بالميكافيلية". وأشار ان هذه الخطوة اتخذت عمداً لشدّ وثاق إيطاليا الى ألمانيا بعد هجوم الأخيرة على پولندا ورجا ان يكون موسوليني صلبا في معاملة هتلر بطلب تطبيق نصوص (الميثاق الفولاذي) حول وجوب "المشاورة" وان يصر بمقتضى ذلك على مهلة شهرٍ لتسوية النزاع على الدانزگ بالطرق الدبلوماسية (انظر الوثائق الدبلوماسية الإيطالية) السلسلة ٧ ج١٣ رقم ٢٨ و(و. س.ب.خ: ج٦ رقم ٦٦٢).



الإجتياح الألماني لبولندا

أخيراً راح هتلر في الختام يثني على موسوليني كالعادة، وهو ما كان يستطيع تشيانو ان يؤكد له انه لن يؤثر بعد تأثيره المنشود قال هتلر انه يشعر بانه سعيد شخصياً "ليعيش في زمن وجد فيه خلافه رجل دولة سيبرز في التاريخ شخصيةً عظيمة فريدة. وان من دواعي غبطته ان يكون صديقاً لهذا الرجل وعندما تدق الساعة للقتال المشترك فسيكون دائماً الى جانب الدوتشي باي حال من الأحوال." مهما بلغ الزهو بموسوليني الفخور لهذه الأقوال، فإنها لم تؤثر قط على (ختنه) وكتب في يومياته بتاريخ ١٣ آب بعد الإجتماع الثاني بهتلر: "عدت الى روما وانا مفعم بالاشمئزاز من الألمان وزعيمهم، ومن أساليبهم في معالجة الامور. لقد خانونا وكذبوا علينا. وهم الآن يدفعونا الى مغامرة لانرغب فيها وربّما قضت على النظام والبلاد ككلّ".

الاّ ان إيطاليا كانت آخر ما يهتم به هتلر. فأفكاره قد انحصرت في روسيا. وفي نهاية إجتماع تشيانو يوم ١٢ آب. كشفت المحاضر الألمانية ان "برقية من موسكو" سلمت للزعيم. فقطعت المناقشة بضع دقائق أثناء ماكان هتلر وريبنتروب يطالعانها، ثم ابلغا تشيانو بمحتوياتها. وقال هتلر "لقد وافق الروس على إرسال مفاوض دبلوماسيّ من لدنّا الى موسكو".

الفصل السابع

الميثاق النازي السوڤيتي

-١-

ان (برقية موسكو) التي كشف هتلر محتوياتها لتشيانو في أوبرسالزبرگ في عصر يوم ١٢ آب لم تكن على ما يبدو الاّ مثل (برقيات) سالفة أخرى ورد ذكرها في هذا التاريخ: مشكوكة المصدر. اذ لم يعثر في الوثائق الألمانية على برقية بهذا المآل وردت من العاصمة الروسيّة. و(شولنبرگ) لم يرسل شيئاً من موسكو الى برلين في ١٢ آب خلا تقريراً عن وصول البعثتين العسكريتين الإنكليزية والفرنسية. وعن الأنخاب الوديّة التي تبودلت بين الروس وضيوفهم.

على ان هناك أساساً ما للبرقية التي اراد هتلر وريبنتروب ان يخلبا بها لبّ تشيانو كما هو ظاهر. في ١٢ آب ارسل من ڤلهلمشتراسّه الى (أوبرسالزبرگ) شريط برقيّ، ورد فيه ذكر النتائج التي تمخضت بها زيارة القائم بالأعمال الروسيّ (إستاخوف) (لشنوره) في برلين، في ذلك اليوم نفسه. ابلغ إستاخوف الموظف الألماني ان مولوتوڤ على إستعداد الآن لبحث المسائل التي يثيرها الألمان ومنها پولندا وغيرها من الأمور السياسية. واقترحت الحكومة السوڤيتية ان تكون موسكو محلّ المفاوضات. لكن إستاخوف أوضح بكلّ جلاء انها يجب ان تكون متباطئة غير متسمة بطابع العجلة. وشددّ القول (كما ذكر شنورة في التقرير الذي ارسل الى أوبرسالزبرگ على الأرجح) ان تعليمات مولوتوڤ تقضي ان يكون التفاوض (على مراحل) وإلاّ فلا[١]. الاّ ان أدولف هتلر لايستطيع الإنتظار للمفاوضات (المتدرجّة) كما كشف لتشيانو الذاهل بانه حدد آخر موعد ممكن للاغارة على پولندا باليوم الأول من أيلول. وهذا شهر آب قد بلغ وسطه فإذا افلح في تهديم المفاوضات الأنگلو-فرنسية مع الروس وإبرام صفقته الخاصة مع ستالين فيجب ان يتمّ الامر بسرعة - لا بمراحل بل بقفزة واسعة واحدة.

كان نهار الإثنين الموافق ١٤ آب يوماً حرجاً آخر ففي الوقت الذي كان السفير شولنبرگ الذي لايتمتع في الظاهر بثقة هتلر التامة ولا بثقة ريبنتروب، يكتب لڤايسيكر من موسكو ان مولوتوڤ "رجل غريب وشخصية صعبة الفهم..." و"اني مازلت أرى ان كل إجراءات سريعة في علاقاتنا مع الإتحاد السوڤياتي لاتفيد ويجب اجتنابها" تراه يتسلم "برقية في غاية الأهمية والسريّة"[٢] من

١- تقرير شنورة عن الإجتماع. من رسالة الى السفارة في موسكو ١٤ آب ١٩٣٩ [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ الص ٥٨-٥٩].

٢- نص رسالة شولنبرگ المرجع السالف الص ٦٧-٦٨.

ريبنتروب صادرة عن ڤلهلمشتراسّه (مازال وزير الخارجية في فوشل) في الساعة ٥٣ , ١٠ ب.ظ. يوم ١٤ آب. تشير على السفير الألماني بأن يلتقي بمولوتوف ويقرأ عليه مذكرة "بالحرف". [يقول في برقيته] "هذا هو عرض هتلر الكبير أخيراً. ان العلاقات الألمانية-الروسية قد تأثرت بالسياسة الإنگليزية... وليس ثم تصادم حقيقي في مصالح كل من روسيا وألمانيا... لقد كانت الأمور طيّبة بين البلدين في الماضي عندما كانا صديقين. وساءت عندما باتا عدوين". "ان الأزمة التي حصلت بين الپولنديين والألمان بفعل السياسة البريطانية والمحاولات التي تبذل لقيام حلف يدعم هذه السياسة ويشدّ أزرها يجعلان من موضوع تنقية العلاقات الروسية الألمانية ضرورة آنية، وإلاّ فإن... الأمور ستسلك سبيلاً لايدع مجالاً لكلتا الحكومتين في إعادة الصداقة الروسية الألمانية الى وضعها السابق أو... إتخاذ الوسائل المناسبة لتسوية مسائل الحدود في أوروپا الشرقية بالإتفاق. ان زعامة البلدين يجب اذن الاّ تترك الموقف يتدهور بل ان تبادرا الى العمل في الوقت المناسب. وستكون العاقبة وخيمة ان انفصل الشعبان بعضهما عن بعض أخيراً بسبب الجهل المتبادل بوجهات النظر والنيّات."

ووزير الخارجية الألمانية (بإسم الزعيم) يعلن والحالة هذه عن إستعداده للمبادرة في الوقت المناسب.

"فكما علمنا، ان الحكومة السوڤيتية تشعر ايضاً برغبتها في تنقية جوّ العلاقات الروسية الألمانية. ولما كانت هذه التنقية لايمكن إنجازها إلاّ ببطء وبالطرق الدبلوماسية المعتادة كما دلت التجارب السابقة. فانا مستعد للقيام بزيارة قصيرة الى موسكو باسم الزعيم، لأوضح وجهات نظره، للسيد ستالين. وفي رأيي ان محادثة مثل هذه هي وحدها قادرة على إحداث التغيير المنشود ولن يكون متعذراً والحالة هذه، وضع الأسس لتسوية نهائية في العلاقات الألمانية-الروسية).

لم يكن وزير الخارجية البريطاني راغباً في السفر الى موسكو، وها هو وزير الخارجية الألماني الآن لايرغب في السفر بل يتلهف اليه – وتلك مناظرة حسب النازيون حسابها بدقة، فأصابوا، بكسب ثقة ستالين الكثير الشكّ. لقد وجد الألمان من الأهمية بمكان كبير ان يوصلوا رسالتهم الى الدكتاتور الروسيّ بشخصه ولذلك اضاف ريبنتروب "حاشية" الى برقيته المستعجلة، "[اشار ريبنتروب على شولنبرگ] ارجو ان لاتقدم لمولوتوف هذه التوصيات كتابة، بل اعمل على ان تصل الى السيد ستالين بالشكل الدقيق على قدر ما يمكن وانا أخوّلك ان استدعى الأمر ان ترجو من السيد مولوتوف عن لساني تهيئة مقابلة لك مع ستالين لتكون قادراً على إنجاز هذا الاتصال المهم معه مباشرة ايضا فضلاً عن مباحثات مع مولوتوف. ان حديثاً تفصيلياً مع ستالين سيكون تمهيداً لقيامي بالرحلة"[٣].

لم يكن هناك طعم مقنّع أو ملتبس في إقتراح وزارة الخارجية الألمانية. وبهذا كان لديها أسبابها في ان تظن ان الكرملين سيستجيب لها. وبتأكيد ريبنتروب على "انه لايوجد مشكلة بين بحر البلطيق والبحر الأسود مستعصية على الحلّ، أو غير قابلة التسوية لمصلحة الطرفين" فهو يقصد "دول البلطيق وپولندا ومشاكل الجنوب الشرقي الخ..." وهو ايضا لم ينس قضية "تسوية مشاكل الحدود الأوروپية

٣- نص برقية ريبنتروب المرجع السالف الص ٦٢-٦٤.

الشرقية".

كانت ألمانيا على إستعداد لتقتسم شرق أوروبا ومن ضمنه پولندا مع الإتحاد السوڤياتي. وهو عرض لاتستطيع فرنسا وبريطانيا الإقدام عليه وان استطاعتا فهما لاتريدانه طبعاً وكان هتلر الذي اقترحه - متأكداً كما يبدو بأنه لن يرفض، ولهذا إستدعى في اليوم نفسه (١٤ آب) القادة العامين لقواته المسلحة ليستمعوا اليه وهو يحاضرهم في خطط الحرب وأهدافها.

- ٢ -

المؤتمر العسكري في أوبرسالزبرگ
١٤ آب[٤]

قال هتلر لمستمعيه وهم صفوة القادة "ان الدراما العظيمة تدنو الآن من الذروة". ففي الوقت الذي لايمكن احراز الإنتصارات السياسية والعسكرية إلاّ بركوب الصعاب والمخاطرة فإنه واثق من ان بريطانيا وفرنسا لن تحاربا. ومن الأسباب ان "بريطانيا لاتملك قادة من العيار الحقيقي. نالرجال الذين عرفتهم في مونيخ ليسوا من الصنف الذي يثيرون حرباً عالمية جديدة". وكشأنه في الإجتماعات السابقة بقادة عسكره، لم يقدر على تحويل أفكاره عن إنگلترا فراح يتكلم بتفاصيل شتى على قوتها وضعفها، وبالأخص الناحية الثانية. [دوّن هالدر هذه العبارات:

"لن تعمل إنگلترا ما عملته في ١٩١٤، ولن تتورط في حرب تدوم سنوات... تلك هي حالة البلاد الغنية... حتى إنگلترا لاتملك المال الكافي اليوم، لتخوض به حرباً عالمية. لأيّ شيء تحارب إنگلترا؟ انك لاتضحي بحياتك في سبيل حليف. ثم تساءل: ماهي الإجراءات العسكرية التي يمكن لبريطانيا وفرنسا الاضطلاع بها؟

"[أجاب عن السؤال] الإندفاع نحو الجدار الغربي غير محتمل. توغل شمالي في بلجيكا وهولندا لن يسفر عن نصر سريع وكلا الأمرين لن يعينا پولندا."

"كل هذه العوامل تقف ضدّ دخول بريطانيا وفرنسا الحرب... ليس هناك شيء يرغمهما على الدخول

٤- المصدر الوحيد الميسور لما جرى في هذا الإجتماع هو يوميات (هالدر) غير المطبوعة. وهي أولى خواطر اليوميات المؤرخة ١٤ آب ١٩٣٩. دوّن الجنرال يومياته على طريقة گابلزبرگر Gabelsberger الإختزالية. وهي سجلّ قيّم للغاية لأهم ما كان يجري من الفعاليات السرية العسكرية والسياسية في ألمانيا النازية إبتداءً من الرابع عشر من آب ١٩٣٩ حتى الرابع والعشرين من أيلول ١٩٤٢ وهو تاريخ عزله من منصبه. وتشتمل سجلات أوبرسالزبرگ ملاحظات هالدر بالإختزال. كان يدوّنها أثناء كلام هتلر. ثم خلاصة أضافها هو بالأخير ومن الغريب ان لايقوم أي ناشر إنگليزي أو أمريكي بنشر هذه اليوميات. لقد وفق المؤلف الى نسخة مكتوبة باللغة العادية قام (هالدر) نفسه بعلمها أثناء كتابة هذا الكتاب. ويؤكد دفتر مواعيد هتلر هذا التاريخ. ويضيف الى ان الدكتور تودت Todt المهندس الذي بنى الجدار الغربي كان بين الحاضرين أمثال گورنگ ورايدر وبراوختش.

فيها. ولن يخاطر رجال مونيخ بهذا... ان هيئتي الأركان الفرنسية والإنكليزية تنظران نظرة رصينة جداً إزاء إحتمالات حصول صدام مسلح وتنصح بخلافه وكل هذا يدعم الإعتقاد ان إنكلترا ستثير النقع في حدود الكلام فحسب، وقد يبلغ بها الأمر الى سحب سفيرها أو ربما ألقت حصاراً إقتصادياً وتجارياً. إلا أنها مصممة على ألاّ تلجأ الى التدخل المسلح في هذا النزاع."

وهكذا ربما امكن الهجوم على پولندا وحدها ولكن يجب [على حد تعبير هتلر] ان تهزم خلال أسبوع أو إثنين" حتى يمكن إقناع العام بإنهيارها وعدم محاولة إنقاذها."

لم يكن هتلر مستعداً ليخبر جنرالاته بالساعة التي سيسعى قدماً في ذلك اليوم لعقد صفقة مع روسيا وان كانت ستشيع في انفسهم اعظم السرور لوثوقهم ان ألمانيا لاتستطيع خوض حرب عظيمة على جبهتين الا انه اخبرهم بما يكفي لاثارة شهوتهم الى المزيد.

قال: "ليست روسيا مستعدة قطّ لاستخراج الكستناء من النار للغير"، ثم نوّه بـ"الاتصالات المتقطعة" مع موسكو التي بدأت بمفاوضات تجارية. وهو الآن يقلب وجوه الرأي في هل "ان يذهب مفاوض الى موسكو وهل يكون هذا المفاوض شخصية كبيرة" وصرّح يقول "الإتحاد السوڤياتي لايشعر بايّ تبعة أو واجب للغرب. والروس يتفهمون القضاء على پولندا وهم مهمتون بـ"بتحديد مجال المصالح" والزعيم يميل "الى مقابلتهم في نصف الطريق".

في كلّ كتابة (هالدر) الإختزالية الكثيرة حول وقائع الإجتماع لاتجده وهو رئيس هيئة أركان الجيش لا هو ولا الجنرال فون براوختش قائده العام ولا گورنگ، يناقشون مسألة إقحام هتلر بلادهم في نزاع مسلح أوروپي. اذ رغم ثقة هتلر، فليس ثم ما يؤكد ان فرنسا وإنگلترا لن تحاربا، أو ان الإتحاد السوڤياتي سيبقى خارج قوس. في الواقع تسلّم گورنگ قبل أسبوع بالضبط تحذيراً يتضمن إصرار البريطانيين على الدخول في الحرب ان هاجمت ألمانيا پولندا.

في أوائل تموز حاول احد اصدقائه السويديين (برگر دالروس Berger Dalrus) إقناعه بأن الرأي العام البريطاني لن يسكت بعد هذا عن عدوان نازي آخر. فأبدى قائد السلاح الجوي شكه فما كان من صديقه الاّ ان هيّأ له مقابلة خاصّة مع سبعة من رجال الأعمال البريطانيين في ٧ آب على ارض شلزڤيك-هولشتاين قرب الحدود الدانمركية حيث كان يملك منزلاً. وبذل رجال الأعمال ما في وسعهم، كتابةً وشفاهاً لإقناع گورنگ ان بريطانيا العظمى ستحترم الواجبات التي ألقتها عليها معاهدتها مع پولندا في حالة وقوع هجوم ألماني عليها.

ومن المشكوك فيه أن گورنگ اقنع بذلك الاّ ان (دالروس) نفسه ظن انهم نجحوا[٥] في مسعاهم.

٥- قال (دالروس) لقضاة نورمبرگ في ١٩ آذار ١٩٤٦ عندما وقف شاهداً لگورنگ. إن الفيلد مارشال أكّد لرجال الأعمال البريطانيين "بكلمة شرف" أنه سيفعل كل ما بوسعه لإجتناب الحرب. إلاّ أن حالة گورنگ الفكرية في تلك الفترة يمكن أن يعرب عنها بدقة أكثر تصريح أدلى به بعد يومين من مقابلته رجال الأعمال. قال متباهياً باللوفتوافه ودفاعها الجوي "لن يتعرض الروهر لقنبلة واحدة. وإن وصلت قاصفة عدوّة الى الروهر فلن يكون إسمي هرمان گورنگ، ويمكنكم تسميتي (ماير)!" وهو الفخر الذي مالبث أن أسِفَ عليه.

هذا السويدي العجيب الذي قدر له دور معين كوسيط للسلم بين ألمانيا وبريطانيا خلال الأسابيع المحمومة التالية، كان ذا علاقة بشخصيات عالية في برلين ولندن وكان قادراً على دخول داوننگ ستريت، ففي ٢٠ تموز استقبله (لورد هاليفاكس) وبحث معه المقابلة المقبلة بين گورنگ ورجال الأعمال البريطانيين. ومالبث هتلر ان استدعاه وكذلك فعل تشمبرلين. ومع انه كان صادق النية في مطلبه وهو إنقاذ السلم، لكنه ساذج. اما كسياسيّ فهو مبتدىء وهاوٍ فاشل الى درجة مريعة. وبعد سنوات من ذلك، إضطره السر ديفيد ماكسويل-فايف Sir David Maxwell-Fyfe أثناء إستجوابه على مقعد الشهادة في محاكمة نورمبرگ الى ان يقرّ آسفاً محزوناً بان گورنگ وهتلر ضلّلاه واستغلّا حسن نيته استغلالاً سيئاً[٦].

والجنرال هالدر رأس مؤامرة ماقبل احد عشر شهراً التي استهدفت الاطاحة بهتلر، لماذا لم يفتح فمه في الرابع عشر من آب ليعارض في قرار هتلر بالحرب؟ وان لم يجد فائدة من ذلك فلماذا لم يبعث الحياة في خططه للتخلص من الدكتاتور لعين العلل التي بعثت فكرة المؤامرة قبيل (مونيخ): وهي ان الحرب ستكون كارثة على ألمانيا. بعد زمن طويل كان (هالدر) سيوضح أثناء إستجوابه في نورمبرگ انه لم يكن يعتقد حتى في أواسط آب ١٩٣٩ ان هتلر سيخاطر في الأخير بحرب بصرف النظر عما قال[٧]، كذلك لم يكن يعتقد ان فرنسا وبريطانيا ستخاطران ايضاً بحرب كما ظهر ذلك في يوميته المؤرخة في ١٥ آب أي بعد الإجتماع بيوم واحد عندما كان في (برگهوف).

اما عن (براوختش) فلم يكن بالرجل الذي يناقش ما رسمه هتلر. وهاسّل الذي علم في ١٥ آب بالمؤتمر العسكري في أوبرسالزبرگ من فم (گزيفيوس). أفهم قائد الجيش العام بانه "واثق تمام الثقة" من تدخل بريطانيا وفرنسا ان غزت ألمانيا بلاد پولندا ورجع الى يوميته ليدوّن لواعج آلامه "لايمكن ان نفلح معه، اما انه خائف أو انه لايفهم شيئاً عن حقيقة الوضع... لاامل يرجى من الجنرالات... قليل منهم يدرك الحقيقة ويتمتع بصفاء ذهن: مثل هالدر وكاناريس وتوماس...[٨]."

لم يجرأ على تحدي (الزعيم) بشكل صريح غير الجنرال توماس الرئيس الألمعي لدائرة التسليح والإقتصاد في القيادة العليا للقوات المسلحة. فبعد الرابع من آب بأيام قلائل وعلى اثر مناقشة له مع المتآمرين العاطلين في ذلك الزمن وهم (گويردلر وبيك وشاخت) نظم مذكرة وقدمها شخصياً للجنرال كايتل رئيس (ق.ع.ق.م) وتلاها عليه بنفسه قال فيها ان حرباً خاطفة وسلماً سريعاً وهمٌ في وهمٍ. ان

٦-وجد محضر الإجتماع في مكتب گورنگ ونشر في [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج٦ الص ١٠٨٨-١٠٩٣] هناك شطب كثير في الوثيقة بخط يد گورنگ. وكتب لفظة التعجب"أوهو!" عدة مرات أمام تصريحات لم يصدقها كما يبدو. ان قصة (داليروس) العجيبة والمضحكة بعض الشيء التي وصلت به الى وسط مرسح الأحداث الكبرى فترة وجيزة من الزمن، قد دوّنها في كتابه (المحاولة الأخيرة)، كما افاد عنها في نورمبرگ [محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج٩ الص ٤٥٧-٤٥٩] وورد عنها في كتاب (السر لويس ناميير) الموسوم [فاصل دبلوماسي تمهيدي: الص ٤١٧-٤٣٣] وعنوان الفصل "متطفل على الدبلوماسية".

٧- محضر إستجواب هالدر في ٢٦ شباط ١٩٤٦ [مؤامرة النازيين وعدوانهم: الملحقات P وB ص١٥٦٢.]

٨- هاسّل المرجع السالف الص ٥٣ و٦٣-٦٤.

الهجوم على پولندا سيطلق حرباً عالمية من عقالها. وألمانيا تفتقر الى المواد الأولية والطعام لتضمن مواصلة خوضها. الاّ ان كايتل الذي لم يكن في رأسه من آراء غير تلك التي يستمدّها من هتلر - استخف بفكرة الحرب الكبرى. وقال ان بريطانيا ضعيفة جداً وفرنسا متفسخة جداً وأمريكا لاتهتم بالأمر قط، فلايسعها جميعاً الدخول في حرب من أجل پولندا(٩).

وهكذا وجدنا قادة العسكر الألمان بعد أواسط آب يندفعون في إكمال خططهم للقضاء على پولندا وحماية ألمانيا الغربية ان تدخلت الديمقراطيات - رغم كل الدلائل التي تشير الى عكس هذا. وفي ١٥ آب صدر أمر سري بالغاء موتمر الحزب السنوي في نورمبرگ (كان هتلر قد سماه في ١ نيسان "مؤتمر الحزب للسلام") المزمع عقده في اول أسبوع من أيلول ودعي ربع مليون للخدمة في جيوش الغرب ونشرت أوامر تعبوية مسبقة للسكك الحديد واتخذت التدابير لنقل مقر قيادة الجيش الى (زوسن) وفي اليوم نفسه (١٥ آب) ابلغ الأسطول ان بارجتي الجيب (گراف شپي Graf Spee ودويچلاند وواحدة وعشرين غواصّة متهيئة للإقلاع الى مواضعها في المحيط الأَطلسي.

في ١٧ آب دوّن الجنرال هالدر خاطرة غريبة في يومياته: "اتصل كاناريس بالقسم الأول [دائرة العمليات] هملر، هيدريخ، أوبرسالزبرگ، ١٥٠ بذلة عسكرية پولندية مع كامل تجهيزاتها لسيليزيا العليا."

ما معنى ذلك؟ لم تنكشف القضية الا بعد إنتهاء الحرب. وتتعلق بأغرب الحوادث التي دبّرها النازيون. والقارىء لاشك يذكر ان هتلر وقادته العسكريين كانوا يفكرون بطبخ "حادثة" لتبرير إغارتهم على النمسا وچيكوسلوڤاكيا كإغتيال وزير مفوض ألماني. وها هم الآن والوقت مدركهم يعمدون الى حبك حادثة سياسية قد تبرر لهم أمام العالم (على الأقل في رأيهم) عدوانهم المخطط على پولندا. والاسم الجفري كان (العملية - هملر). والفكرة بسيطة للغاية غبيّة - يقوم حرس الگشتاپو الأسود بتدبير هجوم مزيف على محطة راديو گلايڤيتز Gleiwitz الألمانية القريبة من الحدود الپولندية، مستخدمين لذلك الهجوم نزلاء معسكرات الإعتقال المحكومين بعد إلباسهم الزي العسكريّ الپولنديّ. وبذلك يمكن إتهام پولندا بإغارتها على ألمانيا. في أوائل آب تسلم الأميرال كاناريس رئيس الإستخبارات في (ق.ع.ق.م) امراً من هتلر نفسه بلزوم تزويد هملر وهيدريخ بمائة وخمسين بزة عسكرية پولندية وبعض قطع من السلاح الخفيف الپولندي. فاستغرب الأمر كثيراً وسأل الجنرال كايتل في ١٧ آب حول القضية. فأجابه رئيس (ق.ع.ق.م) الضعيف انه لايشغل نفسه كثيراً بمثل هذه "الاعمال" التافهة من هذا النوع، الاّ انه زاد على قوله "لايمكن ان نعمل شيئاً الا ان ننفذ مادام الأمر صادراً من (الزعيم)"(١٠) . فقام (كاناريس) بتنفيذ تعليماته وسلّم التجهيزات لهيدريخ، دون أن

٩- الجنرال توماس: من مقال عنوانه Gldanken und Ereignisse نشره في مجلة Schweizerische Monatshefte.

١٠- مذكرة كاناريس عن حديثه مع كايتل ١٧ آب ١٩٣٩.(مؤامرة النازيين وعدوانهم) ج٣ ص ٥٨٠ (الوثيقة: ٧٩٥-PS).

يدري من الموضوع شيئاً.

واختار مدير شرطة الأمن منفذاً للعملية. فكان أحد وكلاء الأمن من الحرس الأسود يُدعى (ألفرد هلموت ناويوكس Alfred Helmut Naujocks) ولم تكن تلك المهمة بالأولى التي كلف بها الشاب العجيب ولا بالأخيرة. ففي أوائل آذار ١٩٣٩ بعد إستيلاء الألمان على چيكوسلوڤاكيا بقليل انهمك (ناويوكس) بأمر من (هيدريخ) في تهريب المتفجرات الى (سلوڤاكيا) لتستخدم كما اعترف فيما بعد في "إختلاق الحوادث".

(ألفرد ناويوكس) مثال نتاج حرس الگشتاپو الأسود، رجل عصابات مثقف. درس الهندسة في جامعة (كيل) حيث ذاق طعم العراك مع خصوم النازية. وفي إحدى المناسبات كسر الشيوعيون قصبة أنفه. وإلتحق بالحرس الأسود في ١٩٣١ وعين في القسم السرّي منذ تأسيسه ١٩٣٤ واشتهر في أوساط الحرس مثل كثير من الشباب الآخرين الذين يحيطون بهيدريخ بـ"تتبعاته الفكرية" الخاصة في التاريخ والفلسفة. وراح يصعد نجمه صعوداً سريعاً وعرف بصلابة العود وقوة الشكيمة مثل زميله (سكورزيني Skorzeny)، وبانه أهل للإعتماد في مشاريع سريّة هامة مشبوهة مما ينسجه هملر وهيدريخ(١١).

في ١٩ كانون الأول ١٩٤٤ التجأ (ناويوكس) الى القوات الأمريكية. وبعد إستسلامه بسنة واحدة أدلى في نورمبرگ بعدد من الاعترافات وكانت واحدة منها تتعلق "بالحادثة" التي إستخدمها هتلر لتبرير هجومه على پولندا. وقد دخلت افادته بطون التاريخ وسجلاّته حقاً. قال: "في العاشر من آب أو نحوه ١٩٣٩ أمرني رئيس الـ(إس. إس) هيدريخ بالذات ان اقوم بتنظيم هجوم مزيف على محطة راديو في (گلايڤيتز) القريبة من الحدود الپولندية بحيث أجعله يبدو كأنه إعتداء قامت به قوات پولندية. وقال لي هيدريخ: نحتاج الى ترك أدلة محسوسة فعلية لهذا الهجوم الپولندي لتزويد الصحافة الاجنبية فضلاً من حاجتنا إليها لغرض الدعاية في داخل ألمانيا..."

"[يواصل ناويوكس هذه الافادة المؤرخة ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٥]... كانت التعليمات التي تلقيتها تقضي عليّ بإحتلال محطة الإذاعة وإبقائها تحت سيطرتي فترة تكفي ليقوم احد الألمان الذين وضعوا تحت تصرفي بإذاعة خطبة باللغة الپولندية واعلمني هيدريخ ان مضمون الخطبة سيكون

١١- كان (الناويوكس) ضلع في حادثة ڤينلو Venlo التي سنأتي الى ذكرها فيما بعد. كما كلف في المساهمة بعملية تنكر الجنود الألمان ببزات حرس الحدود الهولندي والبلجيكي في أيام غزو الغرب (أيار ١٩٤٠). وكان في أوائل الحرب مديراً لقسم من اقسام الشرطة السرية تخصصت في تزوير جوازات السفر وفي غضون إدارته القسم اقترح "عملية برنهارد" وهي خطة غريبة تقضي بإلقاء أوراق مالية مزيّفة على إنگلترا. وأخيراً زهق منه هيدريخ واجبره على العمل في ١٩٤٤ كموظف إقتصاديّ إلاّ ان مهمته الحقيقة كما ظهر كانت تنفيذ عمليات قتل وإغتيال رجال المقاومة السرية في الدانمرك وربما أراد إنقاذ رقبته بالالتجاء الى الجيش الأمريكي في بلجيكا. والواقع ان حياته كانت حياة روائية. فقد اعتقل في ألمانيا ١٩٤٦ الا انه نجح من تدبير فرار خياليّ من معسكر إعتقال خاص ولم يعثر عليه أو يسمع عنه حتى كتابة هذه السطور. انظر قصة هروبه في (Zwinschen Krone und Kerker) بقلم [شاومبرغ ليپّ Scheumberg Lippe].

تحريضاً وإستفزازاً وتحدياً للألمان بان وقت القتال قد حان بين الپولنديين والألمان كما أبلغني بانه يتوقع هجوماً ألمانياً على پولندا خلال الأيام القلائل القادمة".

"وانتقلت الى (گلايڤيتز) ومكثت فيها أربعة عشر يوماً... وعدت وبقيت غائبا عنها مابين ٢٥ و٣١ آب، للقاء رئيس الگشتاپو هاينريخ موللر Heinrich Mueller الذي كان في اوپلن Oppeln القريبة. وبحضوري بدأ يبحث مع شخص اسمه ملهورن Mehlhorn خطة أخرى "لحادث" حدود ثان يصوّر فيه قيام الجنود الپولنديين بمهاجمة الوحدات الألمانية. وأوضح موللر ان لديه اثني أو ثلاثة عشر مجرماً عادياً محكوماً سيلبسهم بزات الجيش الپولندي ويتركهم قتلى في ميدان "الحادث" كأنما قتلوا عند الاشتباك ولهذا السبب سيقوم طبيب تابع لدائرة هيدريخ بحقنهم بسمّ قتال ثم يطلق عليهم الرصاص لتظهر ثقوب الإطلاقات فيهم وبعد إتمام اخراج "الحادث" يحضر محلّ الحادث عدد من الصحفيين واشخاص آخرون. واعلمني (موللر) ان (هيدريخ) زوّده بأمر يقضي باعطائي واحداً من هؤلاء المحكومين لإستخدامه في عملية (گلايڤيتز) وان الأسم الرمزي الذي سيستخدم للإشارة الى هؤلاء المحكومين سيكون "المعلبات"[١٣]".

وفيم كان هملر وهيدريخ وموللر يقومون بتنظيم إستخدام هذه "المعلبات" بأمر من هتلر لتزييف حجة تساعد في تبرير العدوان النازي في پولندا، قام هتلر بأول حركة واسعة لإستخدام قواته المسلحة في حرب قد تتعدى پولندا باصداره في ١٩ آب التعليمات لاقلاع الأسطول الألماني من قواعده، فتوجهت (٢١) غواصة الى نقاطها المعيّنة في شمال الجزر البريطانية وشمالها الغربي واقلعت بارجة الجيب (گراف شپي) الى المياه المجاورة للبرازيل واتخذت زميلتها (دويچلاند) موضعاً خارجا عن خط سير سفن بريطانيا في شمال الأطلسي[١٤]. ان تاريخ أمر الاقلاع الفوري توقعاً لعمل حربي ضد بريطانيا يستوقف النظر، ففي ١٩ آب وبعد أسبوع مصطخب بالرجاءات والطلبات العاجلة: أعطى السوڤيت هتلر الجواب المنشود.

-٣-

المباحثات النازية السوڤيتية (١٥-٢١ آب ١٩٣٩)

قابل السفير (ڤون دير شولنبرگ) مولوتوف في الساعة الثامنة من مساء ١٥ آب. وتطبيقاً للتعليمات التي زوّد بها تلا عليه برقية ريبنتروب المستعجلة وقال له ان وزير خارجية الرايخ مستعد للقدوم الى موسكو لتسوية العلاقات الروسية الألمانية وكما جاء في برقية "سرية مستعجلة جداً". بعثها شولنبرگ الى برلين في ساعة متأخرة من اليوم ان مولوتوف تلقى هذه المعلومات بأعظم "مايمكن

١٣- شهادة ناويوكس "مؤامرة النازيين وعدوانهم" ج٦ الص ٣٩٠-٣٩٢، وثائق نورمبرگ PS٢٧٥١.
١٤- اقلعت الغواصات في مابين ١٩-٢٣ آب واقلعت (گراف شپي) في ٢١ ودويچلاند في ٢٤ منه.

من الإهتمام" و"ورحب بحرارة بالنيات الألمانية لتحسين العلاقات مع الإتحاد السوڤياتي". ومع ذلك فإن مولوتوف الخبير الدبلوماسي الذي يلعب بها بمهارة لاعب البوكر الحازق، لم يظهر أي علامة تدل على اللهفة والعجلة. وعلق على رحلة ريبنتروب المقترحة بقوله انها "تتطلب إستعدادات متقابلة متكافئة حتى يؤدي تبادل الآراء إلى نتائج".

أي نتائج؟ أسقط الروسي الأريب بعض تلميحات. وتساءل: هل أن الحكومة الألمانية مهتمة بعقد ميثاق عدم إعتداء بين البلدين؟ هل هي مستعدة لإستخدام نفوذها في اليابان لتحسين العلا قات اليابانية-الروسية وانهاء نزاعات الحدود؟(كان هذا تنويهاً بالحرب غير المعلنة التي استعر اوارها طول الصيف على الحدود المنشورية-المنغولية) وأخيراً سأله مولوتوف ما رأي ألمانيا بضمانة مشتركة لدول البلطيق؟"

ثم انتهى الى القول: إن كل هذه الأمور "يجب ان تبحث على أسس رصينة ثابتة، حتى اذا جاء وزير الخارجية الألماني الى موسكو فلن يكون قدومه لغرض تبادل وجهات النظر، بل للبت في أمور معينة وحسمها" وكرر ثانية" أن تهيئة دقيقة للمشاكل بين الطرفين سابقة للمباحثات، هو مما لايمكن الاستغناء عنه[١٥].

إذن فأول إقتراح لميثاق عدم إعتداء نازي-سوڤيتي جاء من الروس في اللحظة التي كانوا يفاوضون الفرنسيين والبريطانيين على دخول الحرب الى جانبهم اذا دعت الحاجة لايقاف المزيد من العدوان الألماني[١٦]. كان هتلر أكثر من راغبٍ للمداولة في إبرام ميثاق كهذا مُقامٍ "على دعائم مكينة". مادام إبرامه سيؤدي الى اخراج روسيا من دائرة المعركة والى اعانته على مهاجمة پولندا دون ما خوف من تدخل سوڤيتي وهو واثق أن بريطانيا وفرنسا ستنكفئان على عقبيهما وتوليان الأدبار بغياب روسيا عن الميدان.

إن مقترحات (مولوتوف) كانت وفق ما أمله تماماً. وهي واضحة كثيراً وقد راحت أبعد مما كان يجرأ على إقتراحه هو نفسه. هناك عقبة واحدة فقط فهو -وآب يكاد ينصرم- لايسعه الإنتظار أو الرقص على الإيقاع السوڤيتي الذي اشار اليه مولوتوف بعبارة "إستعدادات كافية" لزيارة وزير الخارجية موسكو. بعث شولنبرگ بنتيجة مقابلته مع مولوتوف فأُنهيتْ الى ريبنتروب تلفونياً في

١٥- تقرير شولنبرگ: الساعة ٢,٤٨ صباحاً ١٦ آب [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج٧ الص ٧٦-٧٧] كتب السفير التفاصيل كاملة بمحضر ارسله مع ساع دبلوماسي. واضاف تفاصيل في رسالة لڤايسيكر - المرجع السالف الص ٨٧-٩٠ و٩٩- ١٠٠.

١٦- مالثبت الحكومة البريطانية أن علمت بهذا. في ١٧ آب أعلم (صمنر ويلز) Sumner Welles وكيل وزارة الخارجية الأمريكي، السفير البريطاني في واشنطن بإقتراح مولوتوف شولنبرگ. وكان السفير الأمريكي في موسكو قد ابرق بالأنباء الى واشنطن قبل أن يتحقق من دقتها بيومٍ واحد (د.س.ب.خ السلسلة الثالثة ج٧ الص ٤١-٤٢. عن تقرير السفير شتاينهاردت Steinhardt انظر (أوراق الولايات المتحدة الدبلوماسية) ١٩٣٩ ج١ الص ٢٩٦-٢٩٩ و٣٣٤. قابل شتاينهاردت مولوتوف في ١٦ آب.

الساعة ٦,٤٠ صباحاً في (فوشل). وفي ١٦ آب توقل الجبل ليتلقى المزيد من التعليمات من هتلر في أوبرسالزبرگ وفي ساعات العصر الأولى توصّلا الى ردّ لمولوتوف وأرسل حالاً بالشريط البرقي الى (ڤايسيكر) ببرلين مع تأكيد بابراقه على وجه الاستعجال الى موسكو فوراً(١٧).

وافق الدكتاتور النازي على المقترحات السوڤيتية دون قيد أو شرط وطلب ريبنتروب من شولنبرگ أن يقابل مولوتوف مرة أخرى ويبلغه ذلك.

"أن ألمانيا مستعدة لإبرام ميثاق عدم إعتداء مع الإتحاد السوڤياتي، واذا رغب السوڤيت فلا مانع أن تكون مدته خمسة وعشرين عاماً. وان ألمانيا مستعدة لاعطاء ضمانة لدول البلطيق بالمشاركة مع الإتحاد السوڤياتي وأخيراً تبدي ألمانيا كامل إستعدادها لإستخدام نفوذها لتحسين العلاقات الروسية اليابانية وتمكينها.

الآن رفع القناع عن الادعاء والتظاهر الكاذب بأن حكومة الرايخ ليست مستعجلة لعقد اتفاق مع موسكو.

"[واستمرت البرقية...] ونظراً للموقف الراهن ولإحتمال حدوث أمر خطير في أي يومٍ يمر (نرجو عند هذه النقطة أن تشرحوا للسيد مولوتوف أن ألمانيا عازمة على ألا تتحمل الإستفزاز الپولندي بلانهاية) فمن رأي (الزعيم) انه يستحسن تسوية سريعة أساسية للعلاقات الألمانية الروسية وتوضيح موقف كل حكومة من مشاكل الساعة.

لهذه الأسباب أعلن إستعدادي للمجيء الى موسكو بالطائرة وفي أي وقتٍ بعد يوم الجمعة الموافق ١٨ آب للتفاوض بتخويل مطلق الصلاحية من (الزعيم)، في كل المشاكل ذات المساس بالعلاقات الألمانية الروسية ولتوقيع المعاهدات المناسبة إن سنحت الفرصة".

وعاد ريبنتروب يضيف حاشية إلى التعليمات الشخصية لسفيره. "أرجو أن تتلو ايضاً هذه التوصيات كلمة كلمة على مولوتوف وتسأل عن رأي الحكومة الروسية والسيد ستالين حالاً. وأصارحك شخصياً وبكل سرية تنويراً لك أنه من ألزم الضرورات عندنا أن تتم رحلتي الى موسكو في نهاية هذا الأسبوع أو بداية الأسبوع الثاني.

في اليوم التالي كان هتلر وريبنتروب في قمة الجبل ينتظران بلهفة إجابة من برلين. ولم تكن الاتصالات البرقية بين برلين وموسكو فورية وهي حالة لم يُنتبه اليها فيما يبدو في جو الألب الباڤاري النادر المثال وعند ظهر السابع عشر كان ريبنتروب يبرق برقية مستعجلة جداً (الشولنبرگ) يطلب منه إعلامه برقياً عن الوقت الذي طلب فيه تحديد موعد مقابلة له مع مولوتوف وعن التاريخ الذي حدد للمداولة(١٨).

وفي موعد العشاء رد السفير المحتث ببرقية "مستعجلة جداً" أيضاً بأنه لم يتسلم برقية وزير

١٧- رسالة ريبنتروب الى شولنبرگ ١٦آب.
١٨- المرجع السالف ص١٠٠.

الخارجية إلا في الساعة الحادية عشرة (أمس) فكان الوقت متأخراً للقيام بأي عمل دبلوماسي، واول ما فعل هذا اليوم ١٧ آب أنه حدد مقابلة مع مولوتوف في الساعة الثامنة مساءً[١٩].

وكانت لقادة النازيين المستعجلين مقابلة مخيبة. فمولوتوف كان واقفاً على لهفة هتلر وهو لاشك يدرك سببها، ولهذا أخذ يداعب الألمان ويناورهم بل راح يؤنبهم. فبعد أن تلا (شولنبرگ) عليه برقية ريبنتروب وأخذ مولوتوف ملاحظاتٍ منها، قدم للسفير جواب الحكومة السوڤيتية مكتوباً، وهو الرد على أول اتصال لوزير الخارجية الألمانية بتاريخ ١٥ آب.

كانت فاتحة الجواب جافيةً، تذكّر الحكومة النازية بعدائها الماضي للإتحاد السوڤياتي وتوضح: "ان الحكومة السوڤيتية لجأت في سياستها حتى ما قبل زمن قصير جداً الى اتخاذ مواقف افترضت فيها أن الحكومة الألمانية تتحيّن المناسبات للاصطدام بالإتحاد السوڤياتي... دعك من ذكر الجهود التي تبذلها عن طريق ما اطلق عليه ميثاق مكافحة الكومنترن لخلق جبهة متحدة مكونة من عدد من الدول ضد الإتحاد السوڤياتي وقد خلقتها. فعلاً ولهذا السبب أوضحت المذكرة ان روسيا "اضطرت إلى المساهمة في تنظيم جبهة ضد العدوان [الألماني]".

"[واستمرت المذكرة] فإذا كانت الحكومة الألمانية تنوي الآن التحول عن السياسة الماضية الى جهة تحسين جدي للعلاقات السياسية مع الإتحاد السوڤياتي. فليس بوسع الحكومة السوڤيتية إلاّ أن ترحب بهذا التحوّل وهي مستعدة من جهتها لتعديل سياستها الى حد تحسين العلاقات جدياً مع ألمانيا".

إلا ان المذكرة أصرت على ان يكون ذلك "بخطوات عملية جدية" لا بقفزة واسعة واحدة كما اقترح ريبنتروب. فاي خطوات تلك؟

الخطوة الأولى: إبرام اتفاقية التجارة والإئتمان.

الخطوة الثانية: (وهذه تتخذ بعد زمن قصير من الأولى) إبرام معاهدة عدم إعتداء.

وطلب السوڤيت أن يبرم مع الخطوة الأولى وفي اللحظة نفسها پروتوكولٌ يحدد مصالح الطرفين المتعاقدين في هذه المشكلة أو تلك – في مجال السياسة الخارجية". وهذا هو أكثر من تلميح حول تقسيم شرقي أوروپا على الأقل وموسكو ترى رأي ألمانيا في أن إتفاقاً على هذه المسألة ممكن.

أما عن زيارة ريبنتروب المقترحة. فقد قال مولوتوف أن الحكومة السوڤيتية "ممتنة للغاية" ومسرورة للفكرة "لان إرسال سياسي كبير ورجل دولة كبير يُشعر بجدية نوايا الحكومة الألمانية". ثم عقب يقول "إن هذه البادرة تفهم تماماً بمقارنتها بموقف إنگلترا التي ارسلت بشخص (سترانگ) موظفاً من الدرجة الثانية الى موسكو وعلى كلٍّ فإن رحلة وزير الخارجية الألماني تتطلب إستعداداً كاملاً... إن الحكومة السوڤيتية لاتستحب الاعلان الذي يقترن بمثل هذه الرحلة وهي تفضل الامور العملية على الضوضاء الكبيرة[٢٠]."

١٩- المرجع السالف ص١٠٢.
٢٠- تقرير شولنبرگ ٥٨، ٥ صباحاً.

ولم ينوّه مولوتوڤ بكلمة حول مقترحات ريبنتروب المستعجلة المحددة التي وصلت موسكو نهار الأحد. ولم يلح في الإستفسار ربما لكونه أخذ على حين غرة بالسبيل الذي سلكته المقابلة.

في اليوم التالي، وصلت برقية السفير الجوابية الى ريبنتروب، وبات هتلر الأن على شفا اليأس واطلق من مقره الصيفي بأوبرسالزبرگ برقية اخرى "مستعجلة جداً" في مساء ١٨ آب. الى (شولنبرگ) وقّعها ريبنتروب. ووصلت السفارة الألمانية في موسكو الساعة السادسة إلاّ ربعاً صباحاً. وامرت السفير أن "يطلب فوراً مقابلة أخرى مع مولوتوڤ وأن يفعل المستحيل لاجرائها دون تأخير فليس هناك وقت يصح إضاعته. قال ريبنتروب "اطلب منك أن تكلم السيد مولوتوڤ بما يأتي:

... نحن أيضاً -تحت الظروف الاعتيادية- نرغب طبعاً في أن نسعى الى تطوير العلاقات الروسية الألمانية بالطرق الدبلوماسية والقيام بها بالسبل المألوفة. إلا أن الموقف الراهن غير الاعتيادي يحتم كما يرى الزعيم إستخدام وسيلة وسيلة أخرى تؤدي الى نتائج سريعة.

إن العلاقات الألمانية الپولندية تتأزم وتشتد توتراً بين يوم وآخر وعلينا أن نضع في حسابنا وقوع أحداث طارئة في أي يومٍ تجعل من نشوب صدام علني أمراً لايمكن تحاشيه. إن الزعيم يجد من الضرورة بمكان أن لانؤخذ على حين غرة بالصدام العنيف الألماني الپولندي المتوقع في الوقت الذى نحاول تنقية جو العلاقات الروسية الألمانية ولذلك يرى التنقية المسبقة ضروريةً. إن لم يكن ذلك إلا لمجرد أن يضع في حسابه المصالح الروسية عند حصول الصدام المنوّه به آنفاً. وسيكون ذلك صعباً إن لم تتم مثل هذه التنقية الآن."

وعلى السفير أن يقول له أن "المرحلة الأولى في المشاورات التي نوه بها مولوتوڤ، أعني إبرام الإتفاقية التجارية، قد تم بالتوقيع عليها في هذا اليوم الثامن عشر من آب في برلين. الآن حان الوقت "للإيغال" في المرحلة الثانية. ولتنفيذ ذلك يقترح وزير الخارجية الألماني "السفر حالاً الى موسكو" وسوف يأتي "مزوداً بكل الصلاحيات المطلقة من (الزعيم) مخوّلاً لتسوية أعقد المشاكل تسويةً تامةً نهائية" وأضاف ريبنتروب يقول أنه في موسكو "سيكون في وضع... يستطيع أن يضع رغبات الإتحاد السوڤياتي نصب عينيه".

ما هي تلكم الرغبات؟ إن الألمان لايحومون الآن حول الموضوع ولايلمّحون؛ [واصل ريبنتروب القول]:

"وسأكون ايضاً في وضع، أوقع به پروتوكولاً خاصاً لتنظيم مصالح الطرفين في مسألة السياسة الخارجية، هذه أو تلك، فمثلاً:

تسوية منطقة المصالح في البلطيق. إن تسوية مثل هذه ليست ممكنة إلا بالتفاهم الشفاهي.

على السفير هذه المرة ألاّ يأتي من الروس بلفظة "لا".

"أرجو أن توضح ان سياسة ألمانيا الخارجية، قد وصلت اليوم نقطة تحول تاريخي... أرجو أن تؤكد على وجوب ادراك أهمية زيارتي وعارضْ بلباقة أي اعتراض روسي جديد. في مقابلتك هذه يجب أن

تضع نصب عينك الحقيقة الحاسمة وهي إن اندلاع حرب ألمانية بولندية وشيكة، انما هو أمر محتمل. لذلك فنحن مهتمون جداً بأن تتمّ زيارتي لموسكو حالاً(٢١).

التاسع عشر من آب كان يوماً فاصلاً. اوقفت الأوامر الصادرة للغواصات وبارجتي الجيب الإبحار الى المياه البريطانية حتى يصل نبأ من موسكو. كان قد رُسم للبارجتين أن تبحرا حالاً أن أريد أن تصلا الى مركزيهما المخصصين لهما في يوم الصفر الذى عينه هتلر لبدء الحرب (الاول من أيلول) ولم يبق الا ثلاثة عشر يوماً للموعد وإن مجموعتي الجيوش التي خصصت للهجوم على پولندا يجب أن تتخذ نقاط وثوبها حالاً.

كاد التوتر يكون غير محتمل في برلين وبخاصّة في أوبرسالزبرگ حيث هتلر وريبنتروب ينتظران بقلق قرار موسكو. وأوضحت وسائل وزارة الخارجية ومحاضرها في ذلك اليوم شعور القلق الذي كان يسيطر على ڤلهلمشتراسّه. ارسل الدكتور (شنوره) تقريره عن ختام المباحثات مع الروس حول الإتفاقية التجارية مساء أمس "بإتفاقٍ تامٍ" إلا أنهم يتلكأون في توقيعها وقال: أن التوقيع كان سيتمّ ظهر هذا اليوم التاسع عشر من آب. إلا أن الروس تلفنوا له ظهراً بأنهم ينتظرون تعليمات من موسكو. واستطرد يقول "من الواضح انهم بُلّغوا بتعليمات من موسكو تقضي بتأخير إبرام الإتفاقية لأسباب سياسية(٢٢)."

ومن سالزبرگ أبرق (ريبنتروب) إلى (شولنبرگ) "برقية مستعجلة جداً" يذكره بوجوب إرسال تقرير برقيّ بأي شيء يقوله مولوتوف أو اي اشارة تبدر "عن نوايا الروس". الا أن البرقية الوحيدة التي تسلمها من السفير خلال اليوم. هو نص نبأ وكالة (تاس Tass) السوڤيتية للأنباء حول انكار أي تعقد في المفاوضات الأنگلو فرنسية السوڤيتية العسكرية بخصوص الشرق الأقصى. على أن تكذيب تاس أيد وجود خلافات أخرى بين المتفاوضين حول "امور أخرى مختلفة تماماً" وكان هذا اشارة لهتلر بأنه مايزال ثم وقتّ – وأمل، ثم وفي الساعة ٧,١٠ مساءً من ١٩ آب وردت البرقية التي طال إنتظارها:

سرية مستعجلة للغاية

"وافقت الحكومة السوڤيتية على قدوم وزير خارجية الرايخ الى موسكو بعد مرور أسبوع كاملٍ على اعلان التوقيع على المعاهدة الإقتصادية."

وصرح مولوتوف: إن أعلن إبرام الإتفاقية الإقتصادية غداً، فيمكن لوزير خارجية الرايخ أن يحلّ بموسكو في ٢٦ أو ٢٧ آب.

سلمني مولوتوف مشروع ميثاق عدم إعتداء.

سأبرق اليكم حالاً بوقائع مفصلة عن محادثتيّ الإثنتين مع مولوتوف اليوم، فضلاً عن نصّ مشروع

٢١- رسالة ريبنتروب المؤرخة ١٨ آب الساعة ١٠,٤٨ مساءً المرجع السالف الص ١٢١-١٢٣.
٢٢- تقرير شنورة المؤرخ ١٩ آب المرجع السالف الص١٣٢-١٣٣.

المعاهدة السوڤيتي.

شولنبرگ[٢٣]

إن المحادثة الأولى في الكرملين التي بدأت في الساعة الثانية ب.ظ (١٩ آب) واستمرت ساعةً لم تسر سيراً حسناً، فوفق ما جاء في تقرير السفير يظهر أن الروس لم يُغرِهِم استقبال وزير خارجية هتلر. ويقول شولنبرگ في التقرير "ان مولوتوف ظلّ مصراً على رأيه بعدم إمكان تحديد وقت للرحلة في الوقت الحاضر، حتى ولو بصورة تقريبية مادام الإستعداد الدقيق لم يتم لها بعد... فرددت على حجته مكرراً بالحاح دواعي الضرورة الى الاستعجال، فرد مولوتوف يقول: الى الآن لم تتحقق بعد الخطوة الأولى ويعني الإتفاقية التجارية. يجب أولاً ان توقع الإتفاقية التجارية وتنشر وتُحدِث تأثيرها في الخارج. وبعدها يأتي دور ميثاق عدم الإعتداء مع البروتوكول.

"بقي مولوتوف غير متأثر أبداً باحتجاجي، وهكذا انتهت المقابلة الأولى بتصريح مولوتوف أنه أبلغني وجهات نظر الحكومة السوڤيتية وليس لديه ما يضيف اليها".

إلا أنه أضاف شيئاً ما بعد فترة وجيزة. "[إستطرد شولنبرگ في تقريره] ما كادت تنقضي ثلاثون دقيقة على ختام مقابلتنا الأولى. إلا وبعث مولوتوف يطلب مني الحضور الى الكرملين ثانية في الساعة ٤,٣٠ عصراً، واعتذر لي عن ازعاجه لي وأوضح أنه إتصل بالحكومة السوڤيتية".

ثم قام وزير الخارجية السوڤيتي بتسليم السفير المشدوه السعيد مشروع ميثاق عدم إعتداء واعلمه أن ريبنتروب يمكن أن يأتي الى موسكو في ٢٦ أو ٢٧ آب إذا ما وقعت الإتفاقية التجارية ونشرت غداً. واستطرد السفير: "لم يقدم الوزير مولوتوف أسباباً لتبديل رأيه المفاجيء ويغلب على ظني أن ستالين قد تدخل في الامر[٢٤]". وهذا التخمين بلا شكّ صائب. فحسب رواية چرچل أن نية السوڤيت في عقد ميثاق عدم إعتداء مع ألمانيا قد اعلنها ستالين للمكتب السياسيّ في مساء يوم ١٩ آب[٢٥]. وكان قد أنهى بقراره الذي لا مردّ له الى مولوتوف ما بين الثالثة عصراً والرابعة والدقيقة الثلاثين عصراً كما يتضح من تقرير شولنبرگ. وبعد ثلاث سنين بالضبط (آب ١٩٤٢) "في أولى ساعات الفجر" كما وصفها چرچل، أدلى الدكتاتور السوڤيتي لرئيس الوزراء البريطاني الذى كان موفداً الى موسكو. ببعض الأسباب لهذه الحركة الجريئة[٢٦].

[قال ستالين] "كوّنا انطباعاً في اذهاننا أن الحكومتين الفرنسية والبريطانية لاتعتزمان دخول الحرب إن أغير على پولندا. بل انهما كانت تأملان أن يكون التحالف الدبلوماسي البريطاني الفرنسي الروسي كافياً لردع هتلر. وكنّا على ثقة أن هذا ليس بكافٍ. وسأل ستالين "كم عدد الفرق التي

٢٣- تقرير شولنبرگ الساعة ٦,٢٢ مساءً ١٩ آب المرجع السالف ص١٣٤.
٢٤- تقرير شولنبرگ ١٢,٠٨ بعد نصف الليل (٢٠آب) المرجع السالف الص ١٤٩-١٥٠.
٢٥- چرچل "تجمع العاصفة" ص٣٩٢: لم يثبت المصدر الذي استقى ذلك منه.
٢٦- المرجع نفسه ص٣٩١.

ستجردها فرنسا بوجه ألمانيا في حالة التعبئة؟" فكان الجواب "حوالى مائة فرقة" ثم سأل: "كم فرقة سترسل إنگلترا؟" فكان الجواب "فرقتان، وبعدها فرقتان أخريان" فردد ستالين الجواب "آه! فرقتان، وبعدها فرقتان آخريان؟ أتعرفون كم كان يجب علينا أن نجرّد من الفرق ونضعها في الجبهة الروسية؟" وهنا سادت فترة صمت قطعها ستالين بقوله "أكثر من ثلاثمائة فرقة!".

ذكر شولنبرگ في تقريره عن نتائج حديثه مع مولوتوف في ١٩ آب أن محاولته في إقناع الوزير السوڤيتي بتحديد موعدٍ أقرب لسفر ريبنتروب الى موسكو "قد باءت بالاخفاق مع الأسف".

لكن الألمان يجب أن يجعلوها ناجحة لأنهم وضعوا جدول توقيت غزو پولندا. في الواقع إن مسألة قيام الهجوم من عدم قيامه ابداً في الفترة القصيرة التي بقيت قبل هطول امطار الخريف إنما تعتمد على ذلك ومن الواجب أن يسافر ريبنتروب إلى موسكو قبل ٢٦ أو ٢٧ آب، فاذا تلكأ الروس قليلاً وهو ما كان يخشاه الألمان- فليس بالإمكان البر بموعد يوم الهجوم (١ أيلول). في هذه المرحلة الحرجة تدخل أدولف هتلر بنفسه وإتصل رأساً بستالين ضاغطاً على كبريائه وكتب له رسالة شخصية يطلب فيها من الدكتاتور السوڤيتي الذي طالما حقد عليه وكرهه في الماضي وحتى اللحظة، راجياً استقبال وزير خارجيته في موسكو حالاً وابرقت رسالته إلى موسكو في السابعة إلاّ ربعاً من مساء يوم الاحد ٢٠ آب بعد اثنتي عشرة ساعة من وصول تقرير شولنبرگ. وطلب (الزعيم) أن تسلم لمولوتوف "حالاً".

السيّد ستالين- موسكو

اني ارحب من صميم القلب بالتوقيع على إتفاقية تجارية سوڤيتية جديدة كأول خطوة لأعادة وضع العلاقات السوڤيتية الألمانية في إطار جديد إن إبرام ميثاق عدم إعتداء مع الإتحاد السوڤياتي يعني لي إقامة صرح سياسة ألمانية لمدة طويلة ستكون ألمانيا قادرة بها على مواصلة السير في نهج سياسي ينطوي على كثير من الفائدة للدولتين على مرور القرون... إني راضٍ بمشروع ميثاق عدم الإعتداء الذي سلّمه لنا وزير خارجيتك السيد مولوتوف إلاّ اني أرى من الضرورة القصوى تسوية المسائل المتعلقة به بأسرع ما يمكن.

إن مواد البروتوكول الملحق بالميثاق التي يرغب فيها الإتحاد السوڤياتي يمكن تسويتها -وانا واثق من ذلك- بأقصر وقت ممكن إن تمكن رجل الدولة الألماني المسؤول من القدوم الى موسكو بنفسه للتفاوض وإلاّ فإن الحكومة الألمانية لاترى بوضوح كيف يمكن تسوية أمر البروتوكول الملحق بالبحث في مواده خلال فترة وجيزة. إن التوتر بين ألمانيا وپولندا بلغ حدّاً لايطاق... وقد تنشب أزمة بين يوم وآخر. وألمانيا عازمة عزماً اكيداً من الآن فصاعداً على أن تسهر لحفظ مصالح الرايخ بكل الوسائل التي تملكها.

بالنظر الى نوايا الدولتين في انشاء علاقة جديدة بينهما، فانا أرى من الأوفق عدم اضاعة الوقت. ولذلك اعود لاقترح مرة ثانية ان تتفضلوا باستقبال وزير خارجيتي نهار الثلاثاء ٢٢ آب. أو كآخر

تاريخ ممكن- ٢٣ آب الموافق الأربعاء. إن وزير خارجية الرايخ مزوّد بالصلاحيات التامّة لإبرام ميثاق عدم إعتداء والتوقيع عليه فضلاً عن البروتوكول. إنه ليتعذر علينا ابقاء وزير الخارجية في موسكو أكثر من يومٍ أو يومين نظراً للحالة الدولية. سأكون سعيداً بتسلّم ردّك.

أدولف هتلر[٢٧]

كان (الزعيم) على حافة إنهيار عصبيّ طوال الساعات الأربع العشرين من مساء الأحد (٢٠ آب) حتى مساء اليوم التالي (عندما حمل الأثير الى موسكو رجاءه). وأرق وعزّ عليه النوم واتصل في نصف الليل بگورنگ وأنهى اليه بمخاوفه وقلقه من ردّ الفعل الذي أحدثته رسالته في ستالين. وانحى باللوم وصبّ جام غضبه على تلكؤ موسكو. وفي الساعة الثالثة من فجر يوم فيها ٢١ آب تسلم وزير الخارجية برقية مستعجلة جداً من شولنبرگ يقول فيها أن برقية هتلر التي نوّه بوصولها (ڤايسيكر) لم تبلغه حتى الآن. وذكّر وزارة الخارجية "ان البرقيات الرسمية من برلين الى موسكو" تتأخر بين أربع ساعات وخمس، اضافة الى فرق التوقيت المحلي وقدره ساعتان. ويجب أن يضاف الى ذلك، الزمنُ الذي يصرف في حّل الرموز الجفرية[٢٨].

وفي الساعة ١٥ , ١٠ صباحاً (الإثنين ٢١ آب) طيّر ريبنتروب الشديد القلق برقية مستعجلة (الشولنبرگ). "ارجو ان تبذل جهدك الأقصى، لتضمن تحقق السفرة. التاريخ كما بينّاه في البرقية"[٢٩]. وبعد الظهر بقليل ابلغ السفير برلين: "ساقابل مولوتوف في الساعة ٣ عصر اليوم"[٣٠].

أخيراً وفي الساعة ٣٥ , ٩ من مساء اليوم الحادي والعشرين من آب وصل جواب (ستالين) على متن الأثير الى برلين.

الى مستشار الرايخ الألماني

أدولف هتلر

أنهي اليك شكري على رسالتك. وأؤمل أن يكون ميثاق عدم الإعتداء السوڤيتي الألماني فاتحة تحول جديد حاسم إلى الأفضل في العلاقات السياسية بين بلدينا.

إن شعوب بلدينا في حاجة إلى علاقات سلم بعضها مع بعض. ان قبول الحكومة الألمانية بإبرام ميثاق عدم إعتداء يضع الأسس لإزالة التوتر السياسي ويثبت دعائم السلم والتعاون بين بلدينا.

إن الحكومة السوڤيتية قد طلبت مني ابلاغكم بأنها موافقة على قدوم هر ڤون ريبنتروب الى موسكو في ٢٣ آب.

ج. ستالين[٣١]

٢٧- برقية هتلر الى ستالين في ٢٠ آب.
٢٨- تقرير شولنبرگ في الساعة ١٩ , ١ صباحاً (٢١ آب) المرجع السالف الص ١٦١-١٦٢.
٢٩- رسالة ريبنتروب ٢١ آب المرجع السالف ص١٦٢.
٣٠- رسالة شولنبرگ الساعة ٤٣ , ١ ب.ظ ٢١ آب المرجع السالف ص١٦٤.
٣١- رسالة ستالين لهتلر ٢١ آب المرجع نفسه ص ١٦٨.

من مفارقات الأقدار المحضة، أن الدكتاتور النازي لقي بالأخير ندّه في المارد السوفيتي الجبار. والطريق أصبح الآن مفتوحاً للسير معاً لوضع النقاط على الحروف وتنفيذ أقسى صفقة في هذا العصر البائس.

ارسل ردّ ستالين الى الزعيم في برگهوف ووصله في الساعة ١٠,٣٠ ليلاً. وبعدها بدقائق، (كما يتذكر المؤلف) قُطع البرنامج الموسيقي فجأة في الساعة الحادية عشرة أو بعدها بدقائق وتقدم المذيع ليعلن: "ان الحكومة السوفيتية وحكومة الرايخ اتفقتا على إبرام ميثاق عدم إعتداء فيما بينهما. إن وزير الرايخ للشؤون الخارجية سيصل الى موسكو نهار الأربعاء الموافق ٢٣ آب للتوقيع على الميثاق بعد انهاء المفاوضات". بعد أن أيقن هتلر -بتأكيدات من ستالين-أن روسيا ستكون صديقةً محايدة أمر هتلر- في اليوم التالي (٢٢ آب ١٩٣٩) بإجتماع ثانٍ لكبار قادة القوات المسلحة في أوبرسالزبرگ وألقى عليهم محاضرة حول عظمته وحول وجوب ادارتهم الحرب بدون رحمة وبكّل قسوةٍ، واعلمهم بأنه قد يأمر بالهجوم على پولندا بعد أربعة أيام من هذا التاريخ (السبت ٢٦ آب) أي قبل ستة أيام من الموعد المقرر. فستالين عدّو هتلر الألد هو الذي جعل ذلك ممكناً.

-٤-

المؤتمر العسكري في ٢٢ آب ١٩٣٩

وجد الجنرالات هتلر في إحدى لوثاته الجنونية الجائحة الكبرى[٣٢] قال لهم "لقد دعوتكم جميعاً، لأعطيكم صورةً للموقف السياسيّ حتى تتكون لديكم فكرة ما في معالجة العوامل المنفردة التي بنيت

٣٢- تم العثور على نصّ خطبة هتلر الرسمية إلاّ ان هناك تسجيلات غير رسمية منها قد ازيح عنها الستار اثنتان منها كتبها قادة كبار عن الملاحظات التي دوّنوها أثناء الإجتماع. واحدة منها بقلم الأميرال (هرمان بويم Hermann Boehm) أميرال أسطول ماوراء البحار. وقد عرضت في نورمبرگ أثناء دفاع الأميرال (رايدر) وطبعت بنصها الألماني في (TMWC ج٤١ الص ١٦-٢٥) وقام الجنرال هالدر بتدوين ملحوظات مستفيضة بطريقة إختزاله الفريدة وطبعت ترجمة لليومية المؤرخة ٢٢ آب بالإنگليزية في DGFP ج٧ الص ٥٥٧-٥٥٩. ان الوثيقة الرئيسة من هذا الإجتماع التي استخدمها الادعاء العام في محكمة نورمبرگ. هي تقرير غير موقع بقسمين، صادر عن (ق.ع.ق.م) وجد في ملفاتها واستولت عليه القوات الأمريكية في شتالفلدن Staulfelden في التيرول النمساوي. طبعت ترجمتها الإنگليزية في (مؤامرة النازيين وعدوانهم) ج٣ الص ٥٨١-٥٨٦ (وثائق نورمبرگ PS ٧٩٨ ND) و٦٦٥-٦٦٦ (وثائق نورمبرگ) PS ١٠١٤ [وثائق عن سياسة... ج٧ الص ٢٠٠-٢٠٦. والنص الألماني بقسميه هو بالطبع في مجلدات (محاكمات مجرمي الحرب الكبار). ولغتها أدق من لغتيْ الأميرال (بويم) و(هالدر) واقوى. الاّ ان محتويات كل هذه النسخ متشابهة ولايتطرق الى صحتها الشك. حام في نورمبرگ شك حول القسم الرابع من خطبة هتلر (رقمت في مؤامرة النازيين ج٧ الص ٧٥٢-٧٥٤) وثائق نورمبرگ (٣ C). ومع انها ذكرت أثناء المرافعة الا ان الادعاء لم يبرزها كدليل. ومع أنّها حقيقية فمن المحتمل ان تحويراً اجري عليها من لم يحضر الإجتماع في برگهوف. استخدمت نسختيْ (بويم وهالد) والمذكرة غير الموقعة المبرزة في محاكمات نورمبرگ. لتنسيق أقوال هتلر في هذا الفصل.

عليها قراري الجازم في العمل. ولكي أقوّي ثقتكم وبعد ذلك سنبحث في التفاصيل العسكرية".
واستطرد يقول في المبدأ هناك اعتباران شخصيان: "شخصيتي أنا، وشخصية موسوليني. بالأصل كل شيء يعتمد عليّ وعلى وجودي، بسبب عبقريتي السياسيّة. يضاف الى ذلك أنه لن يوجد ولن يأتي رجل حاز ثقة الشعب الألماني بأجمعه كما حزتها أنا. وربما لن يأتي المستقبل برجلٍ أكثر سلطاناً منّي. فوجودي اذن عامل عظيم القيمة. لكن من الممكن أن ازال من الوجود على يد مجرم أو مجنون. العامل الشخصّي الثاني هو (الدوتشي) فوجوده أيضاً عامل حاسم. إن حدث له أمر فإخلاص إيطاليا للحلف لايعود أمراً ثابتاً. إن البلاط الإيطالي خصم للدوتشي بالجوهر. وفرانكو، هو الآخر عون. فسيضمن "حياد اسبانيا الايجابي" أما عن (الجانب الآخر) فقد اكد لمستميعه "انه لايوجد في فرنسا أو إنكلترا شخصية بارزة".

وظلّ الدكتاتور الملتاث فترة امتدت عدة ساعات –قطعتها وجبة طعام الغداء– يهرف ويثرثر ولم تُشِر المحاضر المدونة للإجتماع ان جنرالاً واحداً أو أميرالاً أو قائداً جوياً إجترأ على مقاطعته والاستيضاح منه عن صحة آرائه، أو حتى تحدي اكاذيبه. لقد صاغ قراراته في الربيع وفحواها كما قال لهم، أن الصدام مع پولندا أمر مفروغ منه، إلاّ انه إرتأى أولاً أن يتحول الى الغرب. وفي هذه الحالة ستقوم پولندا بمهاجمة ألمانيا، كان ذلك واضحاً له. ولذلك يجب ان تتم تصفيتها الآن.

ومهما يكن من أمرٍ فقد حان وقت القتال، وخوض حرب. "انه ليسهل علينا القرار. فليس لدينا ما نفقده وانما هناك ما نربحه. لقد وصل وضعنا الإقتصادي الى حّد لا يسعنا بعد أن نصمد أكثر من سنوات قليلة. ويمكن لـگورنگ ان يؤكد لكم ذلك، ليس لدينا مجال للاختيار وعلينا أن نعمل... الى جانب العامل الشخصي، يوجد الموقف السياسّي المواتي لنا ففي البحر المتوسط هناك صراع بين إيطاليا وفرنسا وإنگلترا وفي الشرق توتّر... وإنگلترا تحيق بها الأخطار العظيمة، وفرنسا تعاني نقصاً مطّرداً في نسبة المواليد... ويوگوسلاڤيا تحمل جرثومة الإنهيار في جسمها... ورومانيا أضعف من السابق، ومنذ موت مصطفى كمال وتركيا تحكمها عقول صغيرة، رجال ضعفاء مترددون.

كل هذه الظروف المواتية لن تسنح في سنتين أو ثلاث. ولا أحد يدري كم سأعيش ولذلك يجب أن نباشر دورنا الآن، ذلك الدور الذي قد لايكون من المأمون أن نؤجله أربع سنين أو خمساً.

كان هذا منطق الزعيم النازي الأفلج. كان يرى "من المحتمل جداً" أن لايدخل الغرب الحرب. إلاّ أن الخطر مازال على كل حال كامناً ويجب التسليم به. ألم يخاطر في الماضي– باحتلال الراين عندما اراد الجنرالات النكوص على الأعقاب، ثم بالإستيلاء على النمسا والسوديت وچيكوسلوڤاكيا؟ وقال معقباً "إن هانيبال* Hannibal جربّ حظّه في كانّ Cannae. وكذلك فرديك الأكبر في ليوتن Leuthen

* هانيبال (٢٧٤–١٨٣ ق.م) قائد قرطاجني لامع كاد يهزم روما في الحرب البونية الثانية. كان قائداً للجيش القرطاجني في إسپانيا عندما أعلنت روما الحرب في ٢١٨ ق.م فإنطلق بجيشٍ قوامه أربعون ألفاً عابراً جبال البرينيه مع فيلة ثم إخترق بهم جبال الألب وإنحدر على إيطاليا وراح يهزم جيشاً رومانياً إثر الآخر إلاّ أنه أصيب بهزيمة حاسمة.

ولودندورف في (تاننبرگ)، وعلينا نحن أن نخاطر ونجرب حظنا وهذا لايأتي إمتلاك ناصيته الاّ بالارادة الحديدية" لا محل للضعف هنا.

"لقد ألحق بنا ضرراً بليغاً قيام عدد كبير من الألمان المترددين من ذوي المراكز الرفيعة بالحديث والكتابة لرجال إنگليز بعد حّل المشكلة الچيكية. إلاّ ان الزعيم مضى في تحقيق وجهة نظره عندما خانتكم اعصابكم واستسلمتم بسرعة."

لابدّ وأن هالدر وفيتزليبن وتوماس وربما عدد آخر من الجنرالات الذين ساهموا في مؤامرة مونيخ أفزعتهم هذه الإيماءة يبدو أن هتلر يعرف أكثر مما يتوهمون.

وعلى اية حال فان الوقت حان ليظهروا جميعاً كفاءاتهم الحربية. إن هتلر خلق ألمانيا الكبرى "بالخداع السياسي" ولقد اصبح الآن ضروريا "لاختبار ماكنة الحرب، يجب أن يتمرس الجيش في المعارك الفعلية قبل النزال الختامي العظيم في الغرب" وفي پولندا فرص لهذا.

ثم عاد الى فرنسا وإنگلترا:

أمام الغرب إحتمالان لا ثالث لهما للحرب ضدنا:

الأول: الحصار، ولكن لن يكون ذا تأثير علينا. لأننا مكتفون اكتفاءً ذاتياً ولوجود مصادر المعونة في الشرق.

الثاني: الهجوم غرباً من خط ماجينو. وانا ارى ذلك محالاً.

هناك إحتمال ضعيف في خرق حياد هولندا وبلجيكا وسويسرا. إن إنگلترا وفرنسا لن تخرقا حياد هذه الدول. انهما لاتستطيعان مساعدة پولندا فعلاً.

هل ستكون حرباً طويلة الأمد؟

لا أحد يتمكن من الإعتماد على حربٍ طويلة. لو أخبرني هر فون براوختش بأنه يلزمني أربع سنوات للتغلب على پولندا لأجبت لايمكن أن نخوض الحرب. من السخف القول ان إنگلترا تريد اثارة حرب طويلة الأمد.

بعدأن فرغ بكّل سهولة –حسبما تصور على الأقل– من پولندا وإنگلترا وفرنسا، سحب ورقة آسه باستدارته الى روسيا: "يتعلل العدو بأمل آخر، وهو أن تكون روسيا عدوةً لنا بعد الإستيلاء على پولندا. لم يحسب العدو حساباً لقوة عزماتي العظيمة. اعداؤنا ديدان صغيرة ولقد رأيتهم في (مونيخ).

كنت مؤقنا ان ستالين لن يقبل العرض الإنگليزي. والمتفائل الأعمى وحده يعتقد أن ستالين سيبلغ من الجنون حداً بحيث لايتبيّن نوايا الإنگليز. ليس لروسيا مصلحة في الابقاء على پولندا... وتنحية (لتفينوف) كانت العامل الحاسم، لقد انقضت عليّ كقذيفة مدفع، ولمحت فيها اشارة تحول موسكو عن دول الغرب.

أحدثتُ التغيير نحو روسّيا بالتدرّج. فعن طريق علاقاتنا بخصوص المعاهدة التجارية دخلنا في

مباحثات سياسية وأخيراً ورد إقتراح من الروس لإبرام معاهدة عدم إعتداء. وبعد أربعة أيام اتخذت خطوة خاصّة كانت نتيجتها أن اعلن الروس يوم أمس عن إستعدادهم للتوقيع عليها. لقد انشأت صلة شخصية بستالين وبعد غدٍ سيسافر ريبنتروب لإبرام إتفاقية، واصبحت پولندا الآن في الموضع الذي شئته لها... حققت البداية لتحطيم السيطرة الإنگليزية والآن بات الطريق مفتوحاً أمام العسكري، بعد أن تم كّل التدابير السياسية. سيكون الطريق مفتوحاً أمام العسكري، أعني إن لم يلعب چمبرلين (مونيخاً) ثانيةً وقال لمحاربيه "إني لا أخشى إلاّ أن يقدم كلب قذر Schueinehund إقتراحاً بالوساطة".

عند هذه النقطة توقف الإجتماع لتناول طعام الغذاء، لكن لم يتم ذلك إلاّ بعد أن أعرب (گورنگ) عن الشكر العميم (للزعيم) لإرشاده الى الطريق واكدّ له أن القوات المسلحة ستؤدي واجبها(٣٣).

وخصص هتلر محاضرة بعد الظهر بالدرجة الأولى لاستنهاض همم قادته العسكريين ومحاولة توجيههم الى المهمة التي تنتظرهم. إن الملاحظات غير المعقولة الثلاث التي سجلت للكلمة تشير الى طبيعتها.

"من جانبنا العزم الحديديّ الذي لايقّل، عدم النكوص عن أي شيء. يجب على كل واحد أن يتبنّى فكرة إحتمال قتال دول الغرب من البداية... في معركة حياة أو موت... إن فترة سلم طويلة لن تفيدنا شيئاً... مظهر للرجولة... لدينا رجال أفضل، في المعسكر المقابل رجال ضعفاء... في ١٩١٨ انهارت مقاومة البلاد لأن المقومات الروحية كانت مفقودة او ضعيفة. ولم يثبت (فردريك الأكبر) إلاّ بقوة روحه وثبات جنانه.

إن لتحطيم (پولندا) الأسبقية. والهدف هو القضاء على القوات العاملة لا الوصول الى خطّ معين سيبقى تحطيم پولندا الهدف الأولي وإن نشبت الحرب في الغرب، قرار سريع نظراً للموسم.

سأقدم حجة دعائية لتبرير إعلان الحرب - وليس مهماً أن تكون معقولة أو غير معقولة. المنتصر لن يسأل فيما بعد هل صدق أم كذب. عندما تفجر حرباً وتشنها فالمهم ليس الخطأ والصواب وانما النصر هو الأصل. أوصدوا أبواب قلوبكم بوجه الرحمة! إعملوا بوحشية! ثمانون مليونا يجب ان يحصلوا على ما هو حّق لهم... كلما كان الرجل قوياً، كان مصيباً... كونوا قساة عتاة ولاتشعروا بتأنيب الضمير! كونوا كالفولاذ أمام العاطفة! كل متأملٍ في نظام هذا العالم يدرك أن معناه كامن في نجاح الصفوة الممتازة، بإستخدام القوة...

٣٣- ورد في وثائق نورمبرگ (٣-C- انظر الحاشية السالفة ص٥-٧) أن گورنگ اعتلى ظهر المائدة وتقدم "بشكر متعطش للدم، وبوعود دموية. ورقص في القاعة مثل الهمج. وبقي المتشككون القلائل صامتين". هذا الوصف اغضب گورنگ كثيراً أثناء الإستجواب في ٢٨ و٢٩ آب ١٩٤٥ في نورمبرگ. وقال: "إني انكر وقوفي على المائدة. وارغب ان تعلموا أن الخطبة القيت في قاعة بيت هتلر الكبرى. ولست معتاداً القفز فوق المؤائد في البيوت الخاصّة إن ذلك سلوك لايتفق ابداً مع شخصية الضابط الألماني. فأجاب العقيد جون. هـ. آمين المستنطق الأمريكي على هذه النقطة: "على اية حال فقد كنت في مقدمة الهاتفين بعد الخطبة اليس كذلك؟" فأجاب گورنگ "أجل ولكن ليس من فوق المائدة". (مؤامرة النازيين وعدوانهم ملحق.ب الص ١١٠٣-١١٠٥).

بعد أن أرعد وأزبد بهذه التحريضات ذات الطابع (النيتشي*)، ووصل بنفسه الى قمّة الهياج (التيوتوني)، هدأ وسكن وأبدى توجيهات قليلة حول المعركة القادمة. قال أن السرعة ضرورية. وأن إيمانه "لايتزعزع" بالجندي الألماني، وإن نجمت اية أزمة، فسببها يعود إلى فقدان الضباط والقادة سيطرتهم على أنفسهم ولا شيء غير ذلك. الهدف الأول هو دق إسفين من الجنوب الشرقي حتى الڤستولا ومن الشمال حتى ناريف Narew والڤستولا.

وشددّ القول بأن العمليات العسكرية يجب ألاّ تتأثر بما سيفعله بپولندا بعد هزيمتها. لأنه لم يقرر شيئاً. وقال أن الحدود الألمانية الجديدة ستثبت "على مباديء رصينة" وربمّا أقام دويلة پولندية عازلة بين ألمانيا وروسيا. وختم كلامه قائلاً أن الأمر ببدء العمليات الحربية سيعطى فيما بعد، وربما سيكون صباح السبت ٢٦ آب.

في اليوم التالي لإجتماع قادة (ق.ع.ق.م) كتب الجنرال (هالدر) في يومياته: "يوم الهجوم تعيّن نهائياً بالسادس والعشرين من آب (السبت)".

–٥–

إهمال الحلفاء في موسكو

المفاوضات العسكرية في موسكو بين الديمقراطيات الغربية والإتحاد السوڤياتي وصلت مرحلة توقفٍ تام في منتصف شهر آب وسببه عناد الپولنديين بالدرجة الأولى. ويذكر أن البعثتين العسكريتين الإنگليزية والفرنسية استقلتا باخرة شحن بطيئة حتى لينينگراد ووصلت موسكو في ١١ آب بعد أسبوع واحدٍ من مغادرة مستر(سترانگ) الساخط العاصمة الروسية مرتاحاً كما يبدو لتسليمه مهمة مفاوضته الروس الصعبة المزعجة للجنرالات والاميرالات[٣٤].

وكانت المهمة التي يجب الإسراع في إنجازها، إبرام ميثاق عسكري يرسم فيه بالتفصيل، كيف وأين وبماذا يمكن ان توجه القوات المسلحة النازية... على أن محاضر وقائع جلسات الإجتماعات اليومية للجانب الأنگلو-فرنسي والتقارير المرسلة إلى لندن عن سيرها تكشف[٣٥] أن الوفد الأنگلو

* نسبة الى نيتشه.

٣٤- وصفها (سترانگ) في تقرير ارسله الى وزارة الخارجية بقوله "انها لتجربة مؤلمة للنفس" تقريره المؤرخ ٢٠ تموز [و.س.ب.خ: ج ٦ رقم ٣٧٦]

٣٥- انظر (و.س.ب.خ) السلسلة ٣ ج٧ ملحق٢ الص ٥٥٨-٦١٤. الملحق يتضمن تفاصيل يومية للمباحثات العسكرية. وهي أوفى مصدر رأيته عند الحلفاء لها. ويتضمن تقارير الى لندن أثناء المفاوضات. بقلم العسكريين الثلاثة. والتقرير الأخير للأميرال (دراكس). كذلك الوقائع الحرفية للجلسة الختامية الروائية والحديث المتبادل بين (ڤورشيلوف) و(دومان) عندما حاول رئيس البعثة الفرنسية إنقاذ الموقف رغم اعلان قدوم ريبنتروب. تقرير عن مقابلة (ڤورشيلوف) الأخيرة المؤلمة لاعضاء البعثة في ٢٦ آب. ويتضمن الجزء السابع عدداً من التقارير المتبادلة بين وزارة الخارجية البريطانية وبين سفارتها في موسكو وهي تلقي ضوءً جديداً على الموضوع وقد اعتمدناها لكتابة =

فرنسي لم يرسل الى موسكو للبحث في التفاصيل بل في "المباديء العامة". إلاّ أن الروس أصرّوا على الدخول حالاً في الوقائع والتفاصيل المحددة "المزعجة" كما وصفها الحلفاء ووصف ڤورشيلوڤ التصريحات الحليفة حول المباديء التي تولاها (الجنرال دومان) في اوّل إجتماع، بأنها "عمومية، موهومة" الى درجة كبيرة، ولاتحمل أي طرف على الاتيان بعملٍ ما. وقال ببرود "نحن لم نجتمع هنا لاعلان تصريحات تجريدية، بل لإبرام ميثاق عسكريّ".

وطرح المارشال السوڤيتي بعض الاسئلة المنطقية جداً: هل يوجد ثم معاهدة تحدد العمل الذي ستتخذه پولندا؟ كم فرقة بريطانية سترسل لتعزيز الجيش الفرنسي عند نشوب الحرب؟ ماذا سيكون موقف بلجيكا؟ ولم تكن الاجوبة التي تلقاها مشجعة. وقال (دومان) ليس لديه أي فكرة عن خطط الپولنديين وأجاب الجنرال (هيوود) "إن البريطانيين قد خصصوا ست عشرة فرقة مهيأة للخدمة في اولى مراحل الحرب يتبعها فيما بعد مجموعة أخرى تتألف من ست عشرة فرقة" وألحّ (فورشليوف) لمعرفة عدد الفرق الموجود لدى بريطانيا حال اعلان الحرب فأجاب (هيوود) "في الوقت الحالي يوجد خمس فرق معبأة من المشاة وفرقة ألية واحدة في الجزر البريطانية". هذا الرقم التافه كان مفاجأة غير سارة للروس الذين كانوا مستعدين كما قالوا لانزال مائة وعشرين فرقة مشاة الى ساحة القتال ضد المعتدي في الغرب. وعن السؤال الروسي حول بلجيكا أجاب الجنرال (دومان) "إن الجيش الفرنسي لايتمكن من خرق حيادها الا اذا طلب منه ذلك. الاّ ان فرنسا مستعدة لتلبية أي طلب من هذا القبيل.

وأدى هذا الجواب الى سؤال آخر اشد حراجة للمفاوضات العسكرية في موسكو وهو السؤال الذى ودّ الأنگلو-فرنسيون اجتنابه بايّ ثمن. ففى اول الإجتماعات وفي الجلسة الحرجة للرابع عشر من آب، الحّ الفليدمارشال (ڤورشيلوڤ) بأن المسألة الجوهرية هي، هل ترغب پولندا في السماح للجيوش السوڤيتية بدخول أراضيها ومنازلة الألمان وان لم تسمح بذلك فكيف يتسنى للحلفاء ايقاف التوغل الألماني في پولندا بسرعة؟ ثم طرح سؤالاً صريحاً في الرابع عشر من آب: "هل تضمن هيئتا أركان الجيش الفرنسي والإنگليزي ان الجيش الأحمر يستطيع المرور عبر أراضي پولندا ولاسيما من خانق (فيلنا Vilna) والدخول الى گاليسيا Galicia للالتحام بالعدو؟

ذلكم هو جوهر القضية. وكما ابرق السفير (سيدز) الى لندن... ان الروس... "... آثاروا النقطة الأساسية التي يتوقف عليها نجاح المفاوضات العسكرية او فشلها، وهذه في الواقع خالقة كل المشاكل والعقبات منذ بدء المفاوضات السياسية حتى الآن، وأعني بها كيف يمكن التوصل الى إتفاق مفيد مع الإتحاد السوڤياتي في الوقت الذي يقف جيرانه موقف مقاطعة وإباء منه لايمكن التغلب عليه إلاّ... عندما يفدح الخطب ولات حين مندم".

قامت الحكومة البريطانية بتنبيه امير البحر (دراكس) الى كيفية معالجة الأمر إن اثير هذا السؤال. والى الوسائل المؤدية الى عدم إثارته. وظهرت التعليمات المعطاة له بهذا الشأن كما كشفت عنها

= الفصل. ولسوء الحظ لم ينشر الإتحاد السوڤياتي وثائقه حول الإجتماع الاّ ان رواية سوڤيتية لها مثبتة في كتاب نيكينوف Nikinov الموسوم (اصول الحرب العظمى الثانية). وقد استخدم المؤلف الوثائق البريطانية بكثرةٍ وهناك رواية سوڤيتية أخرى في كتاب "تاريخ الدبلوماسية" نشره (پوتمكين).

الوثائق السرية البريطانية أنها كانت بمنتهى السذاجة حتى يكاد المرء لايصدّق صدورها من الحكومة البريطانية حين تُقرأ اليوم. قالت ان خطّ الأجابة "الذي يجب اتباعه في حالة رفض كل من پولندا او رومانيا حتى الرضا بإمكان قيام تعاون محتمل" هو كمايلي: ان غارة على پولندا أو رومانيا ستغير من نظرتها الى المسألة تغييراً كبيراً، زد على هذا سيكون من غير صالح روسيا ان تقوم ألمانيا باحتلال مواقع متاخمة للحدود السوڤيتية مباشرةً... لذلك كان من مصلحة روسيا الخاصّة وحدها أن تهيء الخطط لمساعدة كل من پولندا ورومانيا إن هوجمتا. وإن اقترح الروس أن يتصل الإنگليز والفرنسيون بالپولنديين والرومانيين ودول البلطيق ليقترحوا على هذه الدول التعاون مع الحكومة السوڤيتية أو قيادتها العليا. فعلى الوفدين ألاّ يجيبا بشيء بل يتصلا بالحكومتين"، وهذا ما فعلاه.

في جلسة ١٤ آب طلب (ڤورشيلوڤ) "أجوبة صريحة" على أسئلته وقال: "من دون أن تعطى أجابات دقيقة خالية من الابهام، يكون من العبث الإستمرار في المباحثات العسكرية" واستطرد يقول: "إن الوفد العسكري السوڤيتي لايمكنه ان يوصي بمساعدة حكومته في خطّة كتب لها الإخفاق الواضح من البداية".

أشار الجنرال (گاملان) من پاريس على الجنرال (دومان) ان يحاول حرف الروس عن الموضوع. إلاّ أنهم لم يكونوا ممن يسهل حرفهم[٣٦]. وكانت جلسة ١٤ آب جلسة روائية على ما وصفها الجنرال (دومان). فقد أحرج اعضاء الوفدين الفرنسي والإنگليزيّ احراجاً، وحُصرا في زاويةٍ لا منفذ لها وكانوا يشعرون بذلك. فحاولوا التملّص من السؤال بخير ما امكنهم. بأنْ أكد (دراكس) و(دومان) انهما واثقان من مبادرة پولندا ورومانيا بطلب العون من روسيا ساعة الهجوم عليهما. وكان(دومان) واثقاً انهما "سيتوسلان بالمرشال ليساعدهما" ورأى دراكس إنه "مما لايمكن تصديقه" عدم طلبهما مساندة السوڤيت. واضاف يقول (بشكل غير دبلوماسي على مايظهر): "إن لم يطلبا العون عند الضرورة، واستسلما للقوة، فالمتوقع أن يكونا أقاليم ألمانيّة" وهذا آخر ما يرغب فيه الروس لأنه يعني وجود الجيوش النازية على الحدود الروسيّة: فامتدت يد ڤورشيلوڤ الى هذه الملاحظة التاعسة فجعل منها إحدى النقاط الجوهرية. أخيراً تعللّت هيئة الوفد الأنگلو-فرنسي البائسة بأن (ڤورشيلوڤ) أثار مسائل دبلوماسّية هم غير مخولين بالبحث فيها. وصرح دراكس انه مادامت پولندا دولة ذات سيادة فعلى حكومتها أن توافق أولاً على دخول القوات الروسية. ولكن لما كان ذلك مسألة دبلوماسية فيجب تسويتها عن طريق الحكومات. واقترح أن تلقي الحكومة السوڤيتية بسؤالها هذا على الحكومة الپولندية. وافق الوفد السوڤيتي على أن هذا الموضوع هو دبلوماسي الصفة. على أنه بقي مصراً على وجوب قيام الحكومتين الإنگليزية والفرنسية بالقاء هذا السؤال على الپولنديين والضغط عليهم ليثوبوا الى رشدهم.

٣٦- پول رينو: (في زخم القتال) ص٢١٢. يقدم رينو (الص ٢١٠-٢٣٣) الرواية الفرنسية للمفاوضات في موسكو (آب ١٩٣٩) ويثبت مصدره (ص٢١١). ويقدم (بونيه) روايته في كتابه (نهاية لأوروپا EuropeFin Dine).


ڤورشيلوڤ

هل كـان الروس، نظراً الى صـلاتهم بالألمان في تلك الفتـرة- يفـاوضـون باخـلاص وسلامـة نيّـة مع الممـثلين العسكريين الأنگلو-فرنسيين؟ أو انهم تمسكوا بحق ادخال جيـو شـهم الى پولندا، لا لشيء إلاّ لعـرقلة المحـادثات وتطويلهـا حتى يتأكدوا من إمكان عقد إتفـاق مع هتلر كما استنتج مكتبا وزارة خارجيتي فرنسا وبريطانيا فيما بعد، ولانذكر الأميرال (دراكس) بالذات.(٣٧)

في البداية كان الحلفاء الغربيون يعتقدون أن الوفد العسكري السوڤيتي يفاوض باخلاصٍ - كما اوضحت المصادر البريطانية والفرنسية الوثيقة. والواقع ان الأمر كان كذلك وقد طفق يفاوض بشكلٍ جدّي للغاية. وفي ١٣ آب بعد اجتماعين أبرق السفير (سيدز) الى لندن يقول: يظهر أن السوڤيت العسكريين "مخلصون في نيتهم" وبنتيجة ذلك تغيرت تعليمات الأميرال دراكس من "سر ببطء شديد" ففي ١٥ آب اعلمته الحكومة البريطانية بأن يدعم الجنرال (دومان) للوصول بالمحادثات الى نتيجة ايجابية "بأسرع وقت ممكن" ورفعت عنه قيود الامتناع عن البوح بالأمور العسكرية الدقيقة للروس الى حدّ ما.

كانت التعليمات التي اعطاها الرئيس دالاديبه للجنرال دومان، تخالف تعليمات الأميرال (دراكس) الأولى فقد اوصاه شخصياً بأن يحاول جهده إبرام ميثاق عسكري مع روسيا بأقصر وقت ممكن. وعلى الرغم من خوف البريطانيين من تسرب الأسرار الى ألمانيا استودع (دومان) في الجلسة الثانية "ارقاماً سريةً للغاية" للروس عن قوة الجيش الفرنسي ووعده اعضاء الوفد السوڤيتي "أن ينسوها" بعد ختام الإجتماع مباشرة. وفي ١٧ آب، وبعد أن انتظر الجنرال دومان والأميرال دراكس التعليمات من حكومتيهما ثلاثة أيام دون جدوى حول صيغة الجواب الذي سيقدم للروس عن مشكلة پولندا، أبرق الأول منهما إلى پاريس "الإتحاد السوڤياتي يريد ميثاقاً عسكرياً... انه لايريد منّا أن نعطيه قصاصة ورقٍ لاتحوي تعهدات ومهمات كبيرة. أكد الماريشال ڤورشيلوڤ أن كلّ المشاكل... ستتم معالجتها دون صعوبة تذكر حال ما يسوى (المشكل العصيب) كما دعاه" وألح الجنرال (دومان)

٣٧- التوقيت مهمّ: لم يتسلّم مولوتوڤ إقتراح النازي بسفر ريبنتروب الى موسكو الاّ في مساء ١٥ آب ومع انه لم يقبل بشكل صريح إلاّ انه لمح بأن روسيا مهتمة بعقد ميثاق عدم إعتداء مع ألمانيا. الأمر الذي يجعل المفاوضات العسكرية لعقد حلف عسكري مع فرنسا وبريطانيا، شيئاً لا قيمة له. وخير نتيجة يمكن للمؤلف أن يتوصل اليها هي أنه في ١٤ آب عندما طلب ڤورشيلوڤ "جواباً دقيقاً" لقضية السماح للقوات السوڤيتية بالالتحام مع القوات الألمانية في پولندا، مازال الكرملين واضح الفكر عن الجانب الذي سينحاز اليه. ولسوء الحظ لم تنشر الوثائق الروسية التي يمكن أن تبدد الغموض في هذا المشكل العسير. وعلى اية حال، فلايبدو ان ستالين حزم أمره النهائي حتى ١٩ آب كما ذكرنا آنفاً.

على باريس الحاحاً شديداً ان تحمل (وارشو) على قبول المعونة الروسية. وخلافاً للاعتقاد الواسع الانتشار حينذاك لا في موسكو وحدها بل في عواصم الغرب، إن البريطانيين في الحقيقة لم يفعلوا شيئاً لإقناع البولنديين بالموافقة على مواجهة الجيوش السوفيتية للقوات الألمانية على الأرض البولندية، شأنهم في ذلك شأن الفرنسيين. فمن الوثائق التي نشرت مؤخراً اتضح إن لندن وباريس ذهبتا مسافة أبعد- ولكن ليس بالمسافة الكافية في هذا الدرب. وكان واضحاً ايضاً أن البولنديين تصرفوا تصرفاً أخرق فيه من الغباوة ما لايسع المرء تصديقه[٣٨]. في ١٨ آب بعد أن قام الأنكلو- فرنسيون بمحاولتهم الأولى في وارشو ليفتحوا عيون البولنديين قال وزير الخارجية (بيك) للسفير الفرنسي (ليون نويل Leon Noel) أن "الروس لا قيمة لهم عسكرياً". وأيد وجهة نظره هذه (الجنرال شتاسيڤيچ Stachiewicz) رئيس هيئة أركان حرب الجيش البولندي اذ قال انه لايرى "فائدة ترجى من فعاليات الجيش الأحمر في پولندا". في اليوم التالي قام السفيران البريطاني والفرنسي معاً بزيارة (بيك) وطلبا منه ثانيةً ان يوافق على الإقتراح السوڤيتي. فتلكأ (بيك) إلاّ انه وعدهما بردّ رسميّ في اليوم التالي. وكان الطلب الدبلوماسي الأنكلو فرنسي المتشدد نتيجة لمحادثة سابقة في پاريس جرت بتاريخ ١٩ آب بين وزير الخارجية الفرنسي بونيه والقائم بالأعمال البريطاني الذي كان مندهشاً بعض الشيء لرؤية رئيس مهادني هتلر، ثائراً لإحتمال خسران روسيا كحليفٍ بسبب عناد پولندا.

"[قال له بونيه] ستكون كارثة فاجعة لو اخفقت المفاوضات الروسيّة بسبب الرفض البولندي... وأنه لموقف أخرق من البولنديين لايمكن الدفاع عنه يقفونه برفضهم المساعدة المباشرة الوحيدة التي يمكن ايصالها اليهم في حالة هجوم ألماني على أراضيهم. إن ذلك سيضع الحكومتين الفرنسية والإنگليزية في مركز حرجٍ تقريباً لو طلبنا من حكومتينا الدخول في الحرب دفاعاً عن پولندا التي تأبى قبول هذه المعونة".

إن كان الأمر كذلك وهو مما لاشكّ فيه- فلِمَ لم تباشر الحكومتان الفرنسية والإنگليزية في هذه اللحظة العصيبة بالضغط تحت التهديد على (وارشو) ما لم توافق الحكومة البولندية على قبول المساعدة الروسيّة فإن بريطانيا وفرنسا لاتجدان فائدة من دخول الحرب لمعاونة پولندا. لم توقع معاهدة الضمانة المتبادلة بين بريطانيا وپولندا بصورة رسمية بعد أفلا يمكن ان تجعل قبول پولندا بالمعونة العسكرية الروسية- شرطاً لإبرام المعاهدة؟[٣٩] اقترح (بونيه) هذه الفكرة على القائم بالأعمال

٣٨- ان وثائق (و.س.ب.خ) ج٧. مبهمة من ناحية عدم نشرها سطراً واحداً عن المجهودات الأنكلو-فرنسية الدبلوماسية التي بذلت في وارشو لحمل البولنديين على قبول المعونة الروسية أو مجرى المباحثات العسكرية في موسكو. ولم تنشر حتى في كتاب بريطانيا الازرق وكتاب فرنسا الاصفر.

٣٩- في ٣ نيسان بعد اعلان چمبرلين ضمانة الجانب الواحد لپولندا بأربعة أيام خطب (لويد جورج) في مجلس العموم ملحاً على الحكومة البريطانية ان تضع مثل هذا الشرط "إن دخلناها دون مساعدة روسيا فكأننا ندخل في فخّ. فروسيا هي الدولة الوحيدة التي يمكن ان تصل جيوشها اليها [الى پولندا]، ولست ادري لماذا لا نضمن تحالفاً مع روسيا قبل أن نورط انفسنا في هذه التبعة الهائلة... إن لم تجذب روسيا الى الموضوع بسبب مشاعر معينة عند البولنديين ككرههم بالروس ولأنها لاتريدهم هناك فمن حقنا نحن ان نضع الشروط. وإن لم يكن البولنديون مستعدين لقبول الشروط الوحيدة التي تمكننا من معاونتهم فالمسؤولية تقع عليهم".

البريطاني خلال حديثهما في ١٩ آب. إلاّ أن الحكومة البريطانية تنكرّت لمثل هذه "المناورة" كما دعاها (دواننگ ستريت)، فچمبرلين وهاليفاكس لايصلان إلى مثل هذا التطرف.

وفي صبيحة العشرين من آب. أبلغ رئيس هيئة الأركان الپولندي الملحق العسكري البريطاني في (وارشو) بأنه "لايسمح بدخول القوات السوڤيتية الى پولندا مهما كانت الظروف" وفي مساء ذلك اليوم رفض بيك رسمياً الطلب الأنگلو-فرنسي. وفي الليلة نفسها ألحَّ هاليفاكس عن طريق سفيره في (وارشو) على وزير الخارجية الپولندي ان يعيد النظر في قراره مؤكداً بلهجة قويّة إن موقف پولندا "يحطم" المحادثات العسكرية "لاأقرّ أبداً بإمكان فتح باب أي حديث حول السماح لقوات أجنبيّة بإستخدام أي جزءٍ من أراضينا. ليس بيننا وبين الإتحاد السوڤياتي معاهدة عسكرية، ونحن لانريد أي معاهدة معها". وانتاب اليأس الرئيس (دالادييه) من هذا العناد الأعمى الذي أبدته الحكومة الپولندية، وكما أوضح للجمعية الوطنية التأسيسية في ١٨ تموز ١٩٤٦، أضطرّ إلى تولي الأمر بنفسه. فبعد أن ناشد الپولنديين ان يكونوا واقعيين أبرق للجنرال (دومان) في صبيحة الحادي والعشرين من آب وخوّله التوقيع على ميثاق عسكريّ مع روسيا بخير مايمكن نيله من الشروط مقيّداً مصادقة الحكومة الفرنسية عليه طبعاً. وفي الوقت نفسه أعلم (بونيه) (پول إميل ناغيارPaul-Emil Naggiar) سفيره في موسكو بأن يعلن لمولوتوف عن موافقة فرنسا "من حيث المبدأ" على مرور القوات السوڤيتية في أراضي پولندا إن هاجمها الألمان. إلا إن ذلك كان مبادرة لافائدة منها مادام الپولنديون لايوافقون- وكانت كما بتنا نعرف الآن، مبادرة حاسمة نظراً الى حالة المداولات الروسية الألمانية. ولم تصل الجنرال (دومان) برقية دالادييه إلا في ساعة متأخرة من مساء ٢١ آب. وعندما عرضها مساء اليوم التالي على ڤورشيلوف (وقتما كان ريبنتروب يتهيأ للسفر الى موسكو) وجد المريشال السوڤيتي شديد الريبة. وطلب من الجنرال الفرنسي اطلاعه على التفويض الذي يخوله -كما قال- التوقيع على معاهدة يسمح منها بمرور القوات الروسية عبر پولندا. فعجز (دومان) بالطبع ثم اراد (ڤورشيلوڤ) أن يعرف الجواب البريطاني وهل تم الحصول على موافقة پولندا. وكانت أسئلة محرجة لم يجب عنها (دومان) بأكثر من انه لايملك أية معلومات حولها.

لكن لم يعد بعدُ قيمة لا لأسئلة ولا لأجوبة في هذه الفترة من الزمن. فقد بات طرحها متأخراً جداً لأن ريبنتروب في طريقه الى موسكو والرحلة أعلن عنها أمس كما اصبح غرضها معلوماً: إبرام ميثاق عدم إعتداء بين ألمانيا النازية والإتحاد السوڤياتي وحاول ڤورشيلوف الذي مال كما يبدو الى الجنرال دومان وخصّه بودّه، أن يفهمه بأن صلتهما بلغت نهايتها: [قال ڤورشيلوڤ] إني أخشى أمراً واحداً وهو ان الطرفين الفرنسي والإنگليزي قد مدّا في المباحثات العسكرية والسياسية وقتاً طويلاً، ولهذا فلانستبعد إحتمال وقوع أحداث سياسية معينة خلال هذه الفترة التي امتدت اليها مباحثاتنا(٤٠).

٤٠- في جلسة للوفد العسكري بتاريخ ٢١ آب صباحاً. طلب ڤورشيلوڤ تأجيل الإجتماع الى زمن غير محدد بسبب إنشغاله وإنشغال زملائه بمناورات الخريف. وعندما اثيرت الاحتجاجات من جانب الوفدين الإنگليزي والفرنسي على هذا التأخير قال الماريشال: "ان نوايا الوفد السوڤيتي، كانت ومازالت الإتفاق على نظام تعاون عسكري للقوات المسلحة التابعة للدول الثلاث... ولما لم يكن للإتحاد السوڤياتي حدود مباشرة مع ألمانيا، فالطريقة الوحيدة التي =

-٦-

ريبنتروب في موسكو (٢٣ آب ١٩٣٩)

تلك "الأحداث السياسية المعينة" وقعت آنذاك.

انطلق ريبنتروب في ٢٢ آب على متن طائرة الى موسكو مسلحاً بتفويض كتابي مطلق من هتلر يخوله حق إبرام ميثاق عدم إعتداء "وغير ذلك من الإتفاقات" مع الإتحاد السوڤياتي، تصبح نافذة المفعول حال التوقيع عليها. وقضى الوفد الألماني الكبير العدد الليلة في (كوينكسبرگ) من اعمال پروسيا الشرقية. حيث ظلّ وزير الخارجية النازي -على ماروى الدكتور شميدت- منشغلاً طول الليل بالمكالمات التلفونية مع برلين وبرختسگادن. مدوّناً ملحوظات غزيرة لمحادثاته مع ستالين ومولوتوف. ووصلت طائرتا النقل الكبيرتان من نوع كوندور condor تحملان الوفد الألماني، الى موسكو ظهر الثالث والعشرين وبعد وجبة طعام مستعجلة في السفارة خفّ ريبنتروب الى الكرملين مسرعاً لمقابلة الدكتاتور الروسي ومفوض خارجيته. وامتد هذا الإجتماع ثلاث ساعات بنتائج جيدة، كما وصفها ريبنتروب لهتلر ببرقية "مستعجلة للغاية"[٤١].

وإن أسندنا حكمنا على تقرير وزير الخارجية، فلم يكن ثمّ أي عقبة تحول دون التوصل الى إتفاق حول شروط ميثاق عدم الإعتداء الذي سيخرج الإتحاد السوڤياتي من دائرة حروب هتلر. والواقع إن الصعوبة الوحيدة التي واجهت الطرفين -كما جاء في التقرير- هي عقبة صغيرة جداً حول توزيع الأسلاب. قال ان الروس طلبوا إعتراف ألمانيا بأن الميناءين الصغيرين ليباو Libau وڤينداو windau في لاتڤيا "من ضمن مجال نفوذهم" ولما كانت لاتڤيا، ستجعل في الجانب الروسي للخط الذي يفصل بين مصالح الدولتين، فلم يكن هذا الطلب مشكلة واسرع هتلر بالموافقة. كذلك أبلغه بعد الإجتماع الأول أن "التوقيع على پروتوكول لإعادة تحديد مجالي النفوذ والمصالح لكلّ الأصقاع الشرقية قد جرى البحث بشأنه".

وقّع كل الإتفاقيات (معاهدة عدم الإعتداء والپروتوكول الخاص) في جلسة ثانية بالكرملين في ساعة متأخرة من المساء وتوصل الألمان والروس الى الإتفاق بغاية من اليسر والسهولة حتى أن هذه

= يمكنها بها مساعدة فرنسا وبريطانيا وپولندا ورومانيا هي أن يسمح لقواته بحق المرور عبر الأراضي الپولندية والرومانية... ولايمكن للوفد العسكري السوڤيتي أن يصوّر لنفسه كيف أرسلت الحكومتان البريطانية والفرنسية مع هيئتي أركانهما وفديهما العسكريين الى الإتحاد السوڤياتي... دون ان تزودهما ببعض التوجيهات في هذا الأمر الواضح الأولي... وهذا مايبرّر لنا الشكّ في أن انهما ليستا راغبتين في التوصل الى تعاون جدّي مثمر مع الإتحاد السوڤياتي. ان منطق الماريشال العسكري صائب. وان فشل الفرنسيين ولاسيما البريطانيين في اعطاء جواب كان سبب الكارثة. إلاّ أن (ڤورشيلوف) لم يكن آنذاك جاهلاً بقرار ستالين في ١٩ آب، على اغلب الظن، ولذلك فإن كلامه -وبعد اخذنا بنظر الاعتبار التصريحات الأخرى- في يومنا هذا لايمكن اعتباره خالص النية.

٤١- رسالة ريبنتروب الساعة ٩,٠٥ مساء (٢٣ آب) من موسكو [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية: ج٧ ص ٢٢].

الجلسة البهيجة التي دامت إلى ساعات الصباح الأولى انقضى معظمها لا في المساومة الشاقة المتعبة بل في الحديث الودّي اللطيف في الاوضاع العالمية بلداً بلداً. وبالأنخاب الدّهاق المألوفة التي لا مفّر منها في حفلات الكرملين وإجتماعاته. وقد سجلت المشهد العجيب يد أحد الموفدين الألمان في تقرير سرّي(٤٢).

سأل ستالين عدة اسئلة عما تطمح إليه إيطاليا واليابان شريكتا ألمانيا. فأجابه ريبنتروب اجوبة لطيفة مطمئنة. اما عن إنگلترا فقد وجد الدكتاتور السوڤيتي ووزير الخارجية النازي الذي كان الآن في ألطف حالاته النفسية- آراءهما متفقة وأسّر ستالين لضيفه أن الوفد العسكري الإنگليزي في موسكو "لم يخبر الحكومة السوڤيتية منذ مجيئه ماذا يريد فعلاً. وردّ ريبنتروب مؤكداً أن بريطانيا كانت تحاول دائماً إفساد علاقات الودّ بين ألمانيا والإتحاد السوڤياتي. وفخر بقوله... إنگلترا ضعيفة وهي تريد من الآخرين أن يحاربوا في سبيل دعواها الفارغة للسيطرة على العالم".

ويقول المحضر الألماني السرّي ان "ستالين وافقه بكلّ حماسة على قوله، وأردف: "إن سيطرت بريطانيا على العالم، فسيكون سببه غباوة البلاد الأخرى التي تسمح لنفسها أن تخدع ويغرّر بها دائماً". في هذه المرحلة بلغ الزعيم السوڤيتي ووزير خارجية هتلر درجة من الإنسجام والودّ، بحيث ما عاد ذكر "ميثاق مكافحة الكومنترن" يحرج أحداً منها أو يخجله. وعاد ريبنتروب يشرح ثانية أن الميثاق في الحقيقة كان موجهاً ضد الديمقراطيات الغربية لا ضد الإتحاد السوڤياتي وقاطعه (ستالين) ليقول"ان ميثاق محافحة الكومنترن، أفزع في الواقع مدينة لندن بالدرجة الأولى [رجال المال البريطانين] واصحاب الحوانيت الإنگليز".

في هذه المرحلة يكشف المحضر السرّي الألماني أنّ ريبنتروب شعر بالخفة والمرح للمجاملات التي أغدقها عليه (ستالين) حتى أنه حاول إلقاء نكتة أو إثنتين- وهي مأثرة عظيمة لرجل ثقيل الروح جافي الطبع.

"[واصل المحضر القول] قال وزير الخارجية الألماني على سبيل الدعابة: من المؤكد ان السيّد ستالين كان أقلّ خوفاً من مدينة لندن واصحاب الحوانيت الإنگليز بسبب (مكافحة الكومنترن). وما كان يفكر فيه الألمان عن هذا الأمر واضح من نكتة أصلها من مبتدعات البرلينيين المعروفين بخفة الروح وسرعة الخاطر وهي أن ستالين نفسه سينضم الى ميثاق مكافحة الكومنترن".

أخيراً راح وزير الخارجية النازية يصف الحرارة التي رحب بها الألمان بالتفاهم مع روسيا "فأجاب السيد ستالين: إنه مقتنع بهذا حقاً. وان الألمان يرغبون في السلم" وتحدّرت الأمور عندما وصلت عند الأنخاب واقترح ستالين من تلقاء نفسه شرب نخب في صّحة (الزعيم) قائلاً "إني اعرف معرفة جيدة كم يحب الشعب الألماني زعيمه. ولذلك أرغب في أن اشرب نخب صحته".

٤٢- المحضر السري الألماني ٢٤ آب. المرجع السالف الص ٢٢٥-٢٢٩.

وشرب مولوتوف نخب صحة وزير خارجية الرايخ... وشرب مولوتوف وستالين معاً نخب ميثاق عدم الإعتداء مرات عديدة ونخب العهد الجديد الذي دخلته العلاقات الروسية الألمانية، ونخب الشعب الألماني. واقترح وزير خارجية الرايخ بدوره نخباً في صحة السيد ستالين، وأنخاباً للحكومة السوڤيتية وللتطور الطيب في العلاقات بين ألمانيا والإتحاد السوڤيتي.

مع كّل تبادل العواطف الحار بين هؤلاء الذين كانوا قبل ساعاتٍ من ألد الأعداء واشدّ الخصوم بعضاً لبعض. ظلّ ستالين متوجساً يساور ذهنه شك عميق في صدق الألمان ومحافظتهم على نصوص الميثاق. ولذلك فقبيل إنصراف ريبنتروب إنتحى به جانبا وقال له: "إن الحكومة السوڤيتية تنظر الى الميثاق نظرة جديّة للغاية وانه ضامن بكلمة شرفٍ منه أن الإتحاد السوڤياتي لن يخون شريكه".

إن المعاهدة المعلنة. تتضمن تعهداً متقابلاً بألاّ تهاجم أي من الدولتين الأخرى. واذا باتت واحدة منهما "هدف عمل عدواني" صادر من دولة ثالثة فإن الجانب الآخر لايقدم لهذه الدولة الثالثة أي عونٍ باي صورة كانت. "وليس لألمانيا أو الإتحاد السوڤياتي ان ينضما الى تكتلات دولية مهما كانت صفتها، إن كانت موجهة بصورة مباشرة أو غير مباشرة الى الطرف المتعاقد الثاني[٤٣].

وهكذا نال هتلر كان مايريد بالذات: إتفاق فوريّ مع الإتحاد السوڤياتي على أن لاينضم الى فرنسا وبريطانيا إن اوفيتا بشروط معاهدتهما وقامتا بمدّ يد العون الى پولندا في حالة الهجوم عليها[٤٤].

أما الثمن الذي دفعه فهو مسطر في "الپروتوكول السري الملحق" بالمعاهدة:

"عندما تمّ التوقيع على معاهدة عدم الإعتداء بين الإتحاد السوڤياتي وألمانيا. بحث المندوبان المفوضان المطلقا الصلاحية الموقعان أدناه، بكل السرية والكتمان المتطلبين، مسألة تحديد مجالي نفوذهما ومصالحهما في شرق أوروپا:

(١) في حالة حصول أي تغييرّ اقليميّ وسياسيّ في الأراضي التي تخصّ دول البلطيق (فنلندا واستونيا ولاتفيا وليتوانيا) فإن حدود ليتوانيا الشمالية ستمثل الحدّ الفاصل بين مجالي المصالح لكلّ من ألمانيا والإتحاد السوڤياتي.

(٢) في حالة حصول أي تغيير اقليمي وسياسي في الأراضي الداخلة الآن ضمن حدود دولة پولندا

٤٣- إن الصيغة التي وقع بها الميثاق تكاد تكون متطابقة مع المسودّة التي كتبها السوڤيت وسلمها مولوتوف الى شولونبرگ لاسيّما في المواد الرئيسة. أوضحت المسودة السوڤيتية ان ميثاق عدم الإعتداء لن يكون ساري المفعول إلاّ اذا وقع معه "الپروتوكول الخاص" وجعل جزءً لايتجزأ من المعاهدة (نص المسودة السوڤيتية في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ الص ١٥٠-١٥١] وبحسب رواية (فردريك غاوس) الذي ساهم في إجتماعات الليل. كان ريبنتروب يريد أن يضع تهيداً طناناً للمعاهدة وديباجة يؤكد فيها اواصر الصداقة الألمانية-السوڤيتية، إلا أنها حذفت باصرار من ستالين وكان ستالين يتعلل بأن الحكومة السوڤيتية لايسعها أن تقدم للجمهور فجأة تأكيدات على الصداقة بعد أن اغرقوا بسيول من تهجمات الحكومة النازية خلال ستّ سنوات (إفادة غاوس في نورمبرگ - محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج١٠ ص٣١٢).

٤٤- البند السابع من المعاهدة يقرر نفاذها ساعة التوقيع عليها. إن المصادقة الرسمية في دولتين لاتتبعان الخطوات الديمقراطية المألوفة في الغرب انما هو امر شكلي. الا انها تتطلب أياماً قلائل. وقد أصرّ هتلر على هذه الصيغة.

فإن مجال المصالح لكل من ألمانيا والإتحاد السوفياتي سيكون محدداً تقريباً بخطّ الأنهار ناريف وفستولا وسان san.

أماّ بخصوص مصلحة الطرفين في الإبقاء على دولة پولندية مستقلّة وكيف سيتمّ تحديد تخوم هذه الدولة، فلا يمكن تقرير ذلك بصورة واضحة إلاّ على ضوء التطورات السياسية المقبلة.

ومهما يكن من أمرٍ فإن الحكومتين ستقومان بحلّ هذه المشكلة بطرق التفاهم الودّي.

للمرة الثانية اتفقت ألمانيا وروسيا، كما اتفقتا أيام ملوك الألمان وأباطرة الروس على اقتسام پولندا. واعطى هتلر ستالين يداً حرةً في شرقي البلطيق.

أخيراً أوضح الروس (بخصوص جنوب شرق أوروپا) اهتمامهم بمقاطعة بسّارابيا Bessarabia التي خسرتها روسيا وتنازلت عنها لرومانيا في ١٩١٩ فأعلن الألمان عدم إهتماهم بهذه المقاطعة – وكان تنازلاً ندم عليه ريبنتروب فيما بعد.

وختمت الوثيقة بعبارة "يعتبر هذا البروتوكول من قبل الطرفين سرّياً للغاية. وتكتم محتوياته"(٤٥). والحق يقال. لم تعرف محتوياته إلاّ بعد نهاية الحرب عند الإستيلاء على وثائق الألمان السرية.

في اليوم التالي (٢٤ آب) وبينما كان ريبنتروب طائرا في طريق العودة الى برلين والدنيا تكاد لاتسعه غبطةً. طلبت البعثة العسكرية الحليفة في موسكو مقابلة (ڤورشيلوڤ). وبالفعل أرسل الأميرال (دراكس) رسالة مستعجلة للمريشال يرجو تبيان رأيه في استمرار المباحثات، وبيّن ڤورشيلوڤ رأيه للعسكريين الأنگلو-فرنسين في الساعة ١ ب.ظ ٢٥ آب. قال "نظراً الى التغيير الذي طرأ على الوضع السياسيّ، لم يعد استمرار المباحثات يخدم أي غرض مفيد".

★★★

بعد أن مرّ عامان وفي أثناء ما كانت الجيوش الألمانية تتوغل في روسيا ضاربة بالميثاق عرض الحائط وجدنا ستالين يبرز إتفاقه الكريه مع هتلر الذي عقد من وراء ظهر الوفد العسكري الإنگليزي-الفرنسي المفاوض في موسكو، في إذاعة له على الشعب السوفيتي بتاريخ ٣ تموز ١٩٤١. قال مفاخراً "لقد ضمنّا السلم لبلادنا سنةً ونصف سنة فضلاً عن الفرصة التي اتاحتها لنا هذه المدة لتهيئة قواتنا للدفاع إن غامرت ألمانيا الفاشية بالهجوم على بلادنا خارقة الميثاق. إن هذا كسب ماديّ واضح لبلادنا وخسارة لألمانيا الفاشية".

أكان ذلك كسبا؟ إن المسألة ظلتّ ميداناً للنقاش منذ ذلك الحين. الحق يقال إن هذه الصفقة السرّية المقيتة، منحت ستالين مجال التنفّس peredjshka الذي ضمنه القيصر الاسكندر الأول من نابوليون في معاهدة (تلسيت Tilsit) ١٨٠٧، والذي غنمه (لينين) من الألمان في (برست ليتوفسك في ١٩١٧. بمنحها الإتحاد السوفياتي بعد فترة قصيرة من الزمن مواضع دفاعيّة متقدمة في وجه ألمانيا ماوراء

٤٥- إن نص ميثاق عدم الإعتداء الروسي الألماني والپروتوكول الملحق السري الموقعين في موسكو بتاريخ ٢٣ آب ١٩٣٩ موجودان في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ الص ٢٤٥-٢٤٧].

الحدود الروسيّة الدولية ومعها قواعد عسكرية في دول البلطيق وفنلندا -على حساب البولنديين واللاتفيين والاستونيين والفلنديين واهم من هذا كلّه- ضمن الكرملين لنفسه في حالة هجوم الألمان على روسيا أنه لن يكون وحده في الميدان، وان تخوض الدول الغربية الحرب قبلها. ولن يبقى الإتحاد السوڤياتي وحده أمام قوات الرايخ الثالث كما كان ستالين يخشى طوال صيف ١٩٣٩. وهذا ما أوضحه الكتاب الرسميّ السوڤيتي "تاريخ الدبلوماسية".

كل هذا لاشك صحيح منطقيّ، ولكن ثم جانباً آخر من المسألة. ففي الوقت الذي اطلق هتلر آلة حربه على روسيا كانت جيوش پولندا وفرنسا والحملة البريطانية الى القارة قد تحطمت تماماً وباتت ألمانيا تضع يدها على كل موارد أوروپا وتستمد منها كلّ حاجاتها، ولم يعد هناك جبهة غربية تعرقل امورها وتشغلها. وكان على ستالين أن يشكو ويتظلم بمرارة من عدم وجود جبهة غربية في أوروپا ضّد ألمانيا طوال الأعوام ١٩٤١و١٩٤٢و١٩٤٣، ومن تحمّل روسيا ثقل الحرب التي يفرضها زخم كّل الجيش الألماني تقريباً. في فترة ١٩٣٩-١٩٤٠ كان ثم جبهة غربية تشغل القوات الألمانية، ولم يكن بالإمكان القضاء على پولندا في أسبوعين لو ساندها السوڤيت بدلاً من طعنها في الظهر. وفضلاً عن ذلك فربما لم تنشب أي حرب، عندما يعلم هتلر أن عليه مهاجمة روسيا مع پولندا وفرنسا وإنگلترا مجتمعةً. ولو أمكن المرء أن يحكم من افادات الجنرالات المترددين- التي ادلوا بها في نورمبرگ فيما بعد فحتى هؤلاء كانوا سيصرّون على الاحجام عن شنّ حربٍ ضّد هذا الحلف الضخم. وروى السفير الفرنسي في برلين أن كلاً من كايتل وبراوختش حذرا هتلر في أواخر أيار ١٩٣٩ من حظّ ألمانيا القليل في ربح حربٍ تساهم فيها روسيا الى جانب العدو.

لايستطيع أي سياسيّ حتى الدكتاتور، أن يتكهن بمجرى الحوادث في الزمن البعيد. وفي رأي چرچل إن العملية القاسية الباردة الدّم التي أقدم عليها ستالين بعقد صفقة مع هتلر، وإن كانت تتحمل وجوه رأي مختلفة، إلا انها في وقتها وظروفها "خطوة واقعيّة، بل على اعلى درجة من الواقعية"[٤٦]. كان اعتبار ستالين الأول والرئيس، هو المحافظة على بلاده، وهو هدف كل رئيس دولةٍ حريص. وفي صيف ١٩٣٩ كان ستالين موقناً -كما روى لچرچل فيما بعد- أنّ هتلر ينوي الخروج الى الحرب، فعزم ألاّ تورط بلاده روسيا في الموقف السيء، موقف مواجهة الجيش الألماني وحيدةً. فإن تعذّر عليه عقد حلفٍ مخلص النية مع الغرب فلماذا لايميل الى هتلر الذي راح فجأة يطرق بابه؟

في نهاية تموز ١٩٣٩ اصبح (ستالين) موقناً أن فرنسا وبريطانيا لاتريدان حلفاً محكماً حقيقياً، كما وثق بأن هدف حكومة چمبرلين في لندن هو إقناع هتلر بادارة ماكنة حربه الى شرق أوروپا... وكان يبدو شديد الريبة في أن تقوم بريطانيا بايفاء تعهداتها لپولندا كفرنسا حليفتها هي الأخرى في قضية چيكوسلوڤاكيا. وان كل ما حدث في الغرب خلال العامين الماضيين عزّز وجهة نظره وزاد من شكه: رفض چمبرلين مقترحات السوڤيت بعد ضمّ النمسا وبعد احتلال النازي چيكوسلوڤاكيا بعقد مؤتمر

٤٦- چرچل "تجمع العاصفة" ص٣٩٤.



التوقيع على الميثاق النازي السوڤيتي ٢٣ آب ١٩٣٩ (مولوتوف جالساً. ووراءه ستالين عن اليمين وريبنتروب عن اليسار)

يضع خططاً لوقف عدوان نازيّ آخر. وتلاها مسكنات چمبرلين لهتلر في (مونيخ) الذي أستبعدت منه روسيا. وأخيراً التردد والتطويل والتلكؤ الذي اتّسمت به مفاوضات چمبرلين لإقامة حلف دفاعي ضّد ألمانيا في أيام صيف ١٩٣٩ المتصرّمة عبثاً.

هناك أمر واحد مؤكد - مؤكد لدى كل شخص بإستثناء چمبرلين ألا وهو ان إفلاس السياسة الإنگليزية-الفرنسية، التي كانت تتعثّر ويدب فيها الاضطراب والتناقض كلما قام هتلر بعملية، أصبح الآن تاماً. راحت ديمقراطيات الغرب تتراجع خطوة خطوة. تحداها هتلر باعلان التجنيد الاجباري في ١٩٣٥، ثم تحداها عندما احتّل الراين في ١٩٣٦، ثم تحداها حين استولى على النمسا في ١٩٣٨. وفي العام نفسه طالب بأراضي السوديت وغنمها. وجلست الدولتان ترتعشان ضعفاً عندما إحتل البقية الباقية من چيكوسلوڤاكيا في ١٩٣٩[٤٧] وكانتا قادرتين على كبح جماح هتلر وردّه عن مغامرته الحربية عندما كانت روسيا الى جانبهما، فإن اخفقتا فمجرد وجودها معهما كفيل بتحقيق النصر عليه في ميدان المعركة بسرعة. إلاّ انهما تركتا هذه الفرصة الأخيرة تفلت من ايديهما[٤٨].

٤٧- كذلك ينطبق الامر على الدبلوماسية الپولندية. وصف السفير (نوئيل) ردّ فعل ميثاق عدم الإعتداء الروسي الألماني في (بيك)، بتقرير له الى پاريس "لم يبد على بيك أي قلق، ولم يكترث بالامر إطلاقاً وهو يعتقد أن الأمور لم تتغير كثيراً في الجوهر!".

٤٨- رغم كثير من التحذيرات من قيام هتلر بمغازلة الكرملين كما رأينا. كتب في (١) حزيران سفير فرنسا (كولوندر) الى وزير خارجيته (بونيه) أن روسيا تحتل مخيلة هتلر أكثر فأكثر وقال "إن هتلر سيغامر بحرب إن لم يضطر الى حرب روسيا. كما انه إذا أدرك أن لا مفر من منازلتها فسينكفيء على اعقابه مفضلاً ألاّ يعرض بلاده وحزبه وشخصه للدمار" وألحّ السفير بوجوب انهاء المفاوضات الأنگلو-فرنسية حالاً بالإتفاق واشار الى ان السفير البريطاني في برلين نصح حكومته في لندن بإتخاذ هذه الخطوة (الكتاب الفرنسي الأصفر: الطبعة الفرنسية الص ١٨٠-١٨١). وفي ١٥ آب قابل ڤايسيكر كل من (هندرسن وكولوندر) وابلغ السفير مرجعه ان ڤايسيكر واثق ان الإتحاد السوڤياتي "سينضم في الأخير الى المساهمين في الأسلاب الپولندية" (الكتاب الازرق البريطاني ص٩١) وابرق كولوندر بعد الزيارة: "من الضروري الوصول الى حلّ ما في المحادثات الروسية باي ثمن كان وباسرع ما يمكن =

والآن تجدان نفسيهما في أسوء زمنٍ ممكن لأسوأ ظروف ممكنة. اذ وجب عليهما أن تسديا العون الى پولندا عند مهاجمتها.


لتفينوف

كان الهجوم في لندن وپاريس على سياسة الوجهين الستالينية قد وصل الى اقصى ما يمكن من التهاتر والحدة. من ذلك: ظلّ الزعيم السوڤيتي سنواتٍ وهو يندد "بالبرابرة الفاشيست" ويناشد كل الدول المحبة للسلام ان تتحد معاً في سبيل ايقاف العدوان النازي وها هو الآن يجعل من نفسه شريكاً لهم. وكان يسهل على الكرملين دحض هذه الإدعاءات- بأن الإتحاد السوڤياتي لم يفعل أكثر مما فعلت فرنسا وإنگلترا قبل سنةٍ واحدة في (مونيخ): حيث أنها إشترت سلماً ووقتاً للتسلح ضدّ ألمانيا على حساب دولة صغيرة. إن كانت حكومة چمبرلين مصيبة وشريفة في ترضية هتلر في أيلول ١٩٣٨ بتضحيتها چيكوسلوڤاكيا. فهل كانت حكومة ستالين مخطئة وغير شريفة في ترضية (الزعيم) بعد مونيخ بسنةٍ على حساب پولندا؟ تلك الدّولة التي رفضت قبول مساعدة السوڤيت رفضاً قاطعاً على كل حال؟

لم يعرف شيء خارج موسكو وبرلين عن صفقة هتلر السريّة المرّة المذاق لاقتسام پولندا وإطلاق يد روسيا حرّة في الإستيلاء على لاتفيا واستونيا وفنلندا وبيسارابيا. إلاّ أنها مالبثت أن انكشفت من الإجراءات السوڤيتية التالية كانت ستصدم معظم العالم حتى في هذا التأريخ البعيد عن أيامها. قد يتعلل الروس ولطالما تعللّوا، بأنهم لايقومون إلاّ بإعادة ضمّ الأقاليم التي انتزعت منهم عنوةً في نهاية الحرب العامة الأولى. إلاّ ان شعوب هذه البلاد ليست روسيّة ولم تظهر رغبة في العودة الى

= (الكتاب الاصفر الفرنسي ص٢٨٢). وأرسل لورنس شتاينهاردت السفير الأمريكي في موسكو خلال شهري حزيران وتموز تحذيرات مماثلة عن قرب إتفاق نازي-سوڤيتي، فأحالها روزفلت الى السفارات الفرنسية والبريطانية والپولندية. في الخامس من تموز غادر السفير السوڤيتي (قسطنطين أومانسكي) أمريكا في اجازة حاملاً معه رسالة شخصية من روزفلت الى ستالين يقول فيها لو أن حكومته إلتحقت بركب هتلر، فهو متأكد مثلما يعرف أن الليل يمحوه النهار- ان الدائرة ستدور على روسيا حالما يفرغ من فتح فرنسا" جوزف ديفيز: بعثة الى موسكو ص٤٥٠). أبرق تحذير روزفلت الى السفير شتاينهاردت مع تعليمات تقضي بمقابلة مولوتوف. ففعل ذلك في ١٦ آب (أوراق الولايات المتحدة الدبلوماسية ج١ ١٩٣٩ الص ٢٩٦-٢٩٩).

روسيا. إن القوة وحدها التي حاذر السوڤيت من إستخدامها أيامّ عزّ ليتفينوف، هي التي تجعلهم يعودون اليها.

منذ أن انضم الإتحاد السوڤياتي الى عصبة الأمم، وهو يبني قوة أدبية واخلاقيّة جعلته بطل السّلام والخصم الطليعي للعدوان الغاشيّ. والآن نجد هذا الرأسمال الأدبي قد زال تماماً.

وفوق هذا كلّه ففي الإتفاق المشبوه الذي عمله ستالين مع ألمانيا النازية أعطى اشارة الانطلاق لحرب كانت ستتطور الى صراع عالميّ محتوم. وهذا ما كان يعرفه جيداً[٤٩] وكما برهنت الأحداث كانت هذه أعظم كبوة في حياته.

٤٩- كتب هتلر قبل سنين متكهناً في (كفاحي): "إن عقد تحالف مع روسيا يتضمن بحدّ ذاته خطة لحرب ثانية. واندلاعها يعني نهاية ألمانيا" (انظر ص٦٦٠ من طبعة هاوتن مفلين سنة ١٩٤٣).

الفصل الثامن

آخر أيام السلام

-١-

لم تبق الحكومة البريطانية مكتوفة اليدين منتظرة الإبرام الرسّمي للميثاق الروسي-الألماني في موسكو. إن إعلان إذاعة برلين في مساء ٢١ آب عن طيران ريبنتروب الى موسكو لإبرام إتفاقٍ روسي ألماني أشاع النشاط في الحكومة البريطانية. فإجتمعت في الساعة ٣ عصر يوم ٢١ آب وأصدرت بياناً أعلنت فيه بلهجة جازمة ان ميثاق عدم الإعتداء النازي-السوڤيتي "لن يؤثر بأي حالٍ من الأحوال على تعهداتها لپولندا التي ردّدتها دائماً على الصعيد العام، وهي عازمة على الايفاء بها" وفي الوقت نفسه دعي مجلس البرلمان الى الإجتماع في ٢٤ آب لاقرار قانون السلطات الاستثنائية (قانون الدفاع) واتخذ بعض الإجراءات التعبوية الإحتياطية.

ومع أن بيان الوزارة كان أوضح ما يمكن أن تتضمنه العبارة، فقد رغب چمبرلين أن يبدد أي شك عند هتلر في الأمر فعمد حال إنتهاء الإجتماع الوزاري الى كتابة رسالة لهتلر:

"... يظهر أن إعلان المشاق الألماني السوڤيتي قد أتخذ في بعض أوساط برلين دليلاً على أن تدخل بريطانيا العظمى الى جانب پولندا لم يعد من الإحتمالات التي يمكن أن تتحقق. ليس ثم خطأ أكبر من هذا. ومهما سيكون من تأثير الميثاق السوڤيتي الألماني أو طابعه، فلن يغير من موقف بريطانيا العظمى إزاء پولندا، أو من واجبها نحوها... ولقد زعموا... لو كانت حكومة جلالته قد جعلت موقفها أكثر وضوحاً في ١٩١٤، لأمكن تفادي الكارثة العظمى. سواء في الأمر أكان هذا الزعم صائباً أو باطلاً فإن حكومة جلالته قد صمّمت في هذه المناسبة ألاّ يكون سوء فهم أليم كهذا.

إن استدعت الحاجة، فالحكومة مصممة ومستعدة دون أي تأخير لإستخدام كلّ القوى التي تملكها، ومن المستحيل التكهّن بنهايةٍ للحرب ما أن تبدأ[١]..."

عاد رئيس الوزراء يناشد هتلر باللجوء الى الحلّ السلميّ لكلّ خلافاته مع پولندا وعرض مرة أخرى تعاون الحكومة البريطاني للوصول اليه "بعد أن أوضحنا موقفنا إيضاحاً تاماً" وكما ورد في رسالته.

وطار السفير هندرسن بالرسالة من برلين، وسلمّها الى هتلر في ٢٣ آب بعد الساعة ١ ب.ظ بقليل في برختسگادن (٢٣ آب). فاثارت عاصفة شديدة من الغضب في الدكتاتور الألماني. وابرق هندرسن

١- الكتاب الازرق البريطاني الص ٩٦-٩٨.

للورد هاليفاكس: "هاج هائج هتلر ولم يعد التفاهم معه ممكناً وكانت لغته عنيفة جداً بالنسبة الى بريطانيا وپولندا"[٢]. ويتفق على حالة هتلر وهجائه المقذع كل من تقرير هندرسن عن الإجتماع، ومحضر وزارة الخارجية الألمانية به (وهو من الأوراق النازية المستولى عليها).

وراح يصرخ أن إنگلترا مسؤولة عن عناد پولندا كما كانت مسؤولة عن مسلك چيكوسلوڤاكيا اللامعقول (المتهور) قبل عام. عشرات الالوف من ابناء الشعب الألماني Volksdeutsche في پولندا يضطهدون. وأدعىّ أنّه جرى ستّ عمليات إخصاء على الألمان وهو أمر أشغل منه البال. انه لن يحتمل أكثر من هذا، وسيؤدي أي اضطهاد پولندي آخر للألمان إلى حركة فورية.

"[أبرق هندرسن لهاليفاكس] طعنت بصحة كل نقطةٍ أوردها وظللت اردد أن بياناته غير صحيحة الاّ أن الأثر الوحيد كان انطلاقه في هذيان آخر جديد".

أخيراً وافق هتلر على كتابة ردٍ لرسالة رئيس الوزراء خلال ساعتين من الزمن. وآب هندرسن الى سالزبرگ ليصيب بعض راحة[٣] وفي ساعة متأخرة من العصر أرسل هتلر بطلبه وسلّمه جوابه. ولاحظ هندرسن في تقريره الى لندن أن (الزعيم) خلافاً للمقابلة الأولى "كان هادئاً ولم يرفع صوته".

"[كتب هندرسن] قال هتلر أنه يبلغ من العمر خمسين عاماً وهو يفضل أن تقع الحرب الآن، لا عندما يكون في الخامسة والخمسين أو الستين".

برزت لوثة جنون الدكتاتور الألماني وهو يلقي عظته المؤثرة على قمة جبله، أكثر وضوحاً وعنفاً في المحضر الألماني لوقائع المقابلة، فبعد أن دونت اقواله عن تفضيله الخروج الى الحرب في سنّ الخمسين لا بعدها، أضاف:

"[قال هتلر] تفعل إنگلترا حسناً لو ادركتْ أنه بوصفه أحد جنود الجبهة الأمامية- يعرف ماذا تعني الحرب وستنتفع من كلّ وسيلة متيسّرة. من الواضح الأكيد لكّل شخص أن الحرب العالمية [اي حرب ١٩١٤-١٩١٨] كانت ستنتهي بالنصر لألمانيا لو كان هو مستشاراً في ذلك الحين.

كان جواب هتلر لچمبرلين خليطاً من كل الأكاذيب المبتذلة والمفتريات المبالغ فيها التي صبّت في اذهان الأجانب وشعبه منذ أن جرؤ الپولنديون على الوقوف بوجهه وقال ان ألمانيا لاتريد حرباً مع بريطانيا العظمى. ولقد كان مستعداً دائماً الى بحث مشكلتي الدانزگ والممر مع الپولنديين "على أسس إقتراح لا نظير له من الكرم والشهامة". الاّ أن الضمان غير المشروط الذي أعطته بريطانيا لپولندا، شجع هؤلاء على "إطلاق موجة من الإرهاب شنيعة ضد المليون ونصف المليون من السكان

٢- رسالة هندرسن المؤرخة ٢٣ آب ١٩٣٩. المرجع السالف الص ٩٨-١٠٠. محضر وزارة الخارجية الألمانية [وثائق عن سياسة ألمانيا... ج٧ الص ٢١٠-٢١٥] رسالة هندرسن عن المقابلة الثانية في ٢٤ آب (الكتاب الأزرق الإنگليزي الص ١٠٠-١٠٢).

٣- روى ڤايسيكر الذي كان حاضراً: "ماكاد ينصفق الباب خلف السفير حتى ضرب هتلر كفة على فخذه وضحك وقال: "لن يبقى چمبرلين في الحكم بعد هذه المحادثة. إن وزارته ستسقط حتما في مساء هذا اليوم".(من مذكرات ڤايسيكر ص٢٠٣).

الألمان الذين يعيشون في پولندا" وقال: "هذه الأعمال الوحشية، هي فظيعة بالنسبة للضحايا الاّ انها لاتحتمل بالنسبة إلى دولة عظيمة كالرايخ الألماني". إن ألمانيا لن تتسامح فيها بعد الآن.

أخيراً إنه فهم جيداً نقطة رئيس الوزراء بتأكيده أن بريطانيا العظمى ستفي بتعهداتها لپولندا. واكد له "أن هذا لن يغير شيئاً في اعتزام حكومة الرايخ... حماية مصلحة الرايخ... إن هاجمت إنگلترا ألمانيا فستجدها مستعدة مصممّة"(٤).

ما الذي حققّه تبادل الرسائل هذا؟ أصبح لدى هتلر الآن تأكيد لا شبهة فيه من چمبرلين بأن بريطانيا ستدخل الحرب إن هاجمت ألمانيا پولندا. ولدى رئيس الوزراء الآن كلمة هتلر بأنّ ما إعتزمه چمبرلين لن يغيّر من الأمر شيئاً. لكن احداث الأيام الثمانية المضطربة التالية ستُري بأنْ لاأحد منهما صدّق بأنه بالكلمة النهائية من الآخر.

ويصدق هذا على هتلر بصورة خاصّة. أنعشته الأخبار الطيبة من موسكو ونفشت ريشه وبات موقناً (رغم رسالة چمبرلين التي تسلمها) أن بريطانيا ووراءها فرنسا لن تفكّرا قطّ في الوفاء بعهودهما لپولندا بعد النكسة التي أصيب بها في روسيا، فما كان منه إلاّ أن عيّن في مساء ٢٣ آب (حين كان هندرسن يعود الى برلين بالطائرة) موعد الهجوم على پولندا وهو السبت الموافق ٢٦ آب الساعة ٣٠, ٤ فجراً. ودوّن الجنرال هالدر في يوميته: "لن يكون ثم أوامر بعد بخصوص يوم الهجوم وساعة الصفر" كل شيّء سيسير سيراً أوتوماتياً". على أن رئيس هيئة أركان الجيش كان واهماً. ففي ٢٥ آب حدث أمران جعلا هتلر يتراجع عن الهاوية قبل أقل من أربع وعشرين لموعد دخول جيوشه الحدود الپولندية. الحدث الأول نجم في لندن والثاني في روما.

في صبيحة الخامس والعشرين كان هتلر في برلين للترحيب بمقدم ريبنتروب من موسكو وليستمع إلى أول تقرير عن الروس. وهنا كتب رسالة الى موسوليني. تتضمن إيضاحاً متأخراً، يعتذر فيها عن عدم إبلاغه بمفاوضاته مع الإتحاد السوڤياتي (قال إنه "ماكان يتصور" بأنهما سيقطعان هذا الشوط بهذه السرعة) وأوضح أن الميثاق الروسي الألماني "يجب أن يعتبر أعظم كسبٍ ممكن للمحور".

إلاّ أن غرض الرسالة الحقيقي -ونصّها بين الوثائق المستولى عليها- انما كان لتحذير الدوتشي بأن الهجوم الألماني على پولندا متوقع حصوله في أي لحظة، إلاّ أنه لم يذكر لصديقه وحليفه الموعد المضبوط الذي عينه بل قال "في حالة وقوع احداث لايمكن السكوت عنها في پولندا سأتحرك حالاً... في تلك الظروف لا أحد سيستطيع ان يتكهن بما ستأتي به الساعة التالية". ولم يطلب هتلر معونة إيطاليا بصراحة. وهي نظراً لنصوص معاهدة التحالف الألمانية-الإيطالية تلقائية. بل اقنع نفسه بالإعراب عن أمله بفهم إيطاليا وجهة نظره(٥). على أنه كان مشوقاً الى جواب ٍفوريّ. وقد ارسل

٤- نص رسالة هتلر المؤرخة ٢٣ آب - الى چمبرلين: (المرجع السالف الص ١٠٢-١٠٤ كذلك مثبت في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ الص ٢١٦-٢١٩].

٥- نص رسالة هتلر الى موسوليني بتاريخ ٢٥،[وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ الص ٢٨١-٢٨٣].

ريبنتروب نصّ الرسالة بالتليفون الى السفير الألماني في روما وتسلمها الدوتشي في الساعة ٣,٢٠ عصراً. وفي الوقت نفسه استقبل (الزعيم) السفير هندرسن في الساعة ١,٣٠ ب.ظ في دار المستشارية. ولم يضعف عزمه على تحطيم پولندا، بل كان أكثر لهفةً مما وجد نفسه قبل يومين عندما قابل (هندرسن) في برختسگادن، حيث قام بآخر محاولة لإبقاء بريطانيا خارج دائرة الحرب[٦]. وجد السفير هتلر "هادئاً هدوءً تاماً وعادياً في تصرفاته وكان يتكلم باخلاص وصدقٍ ظاهرين" ظلّ السفير هندرسن، رغم كلّ تجاربه خلال السنة الماضية عاجزاً عن إستكناه ما يختفي تحت هذا "الإخلاص والصدق" الذي يبديه الدكتاتور الألماني، ظلّ عاجزاً حتى هذا التأريخ المتأخر وكلّ ما أدلى به هتلر كان مما لايقبله عقل سويّ. قال للسفير أنه "يرضى" بقيام الإمبراطورية البريطانية وهو مستعدّ للتعهد شخصياً باستمرار كيانها وان يضع قوة الرايخ الألماني في هذا السبيل".

"[وأوضح هتلر] انه يرغب أن يقترب نحو إنگلترا بخطى حاسمة تشبه تلك التي خطاها نحو روسيا... (الزعيم) مستعدّ لإبرام إتفاقات مع إنگلترا تضمن كيان الإمبراطورية البريطانية في كل الظروف وبقدر ما يتعلق الأمر بألمانيا فضلاً عن إتفاقات تضمن عند الحاجة المساعدة الألمانية للإمبراطورية البريطانية بصرف النظر عن المكان الذي تدعو اليه هذه المساعدة". واستطرد: وهو ايضاً مستعد "لقبول تحديد التسلح على اسس معقولة" واعتبار حدود الرايخ الغربية حدوداً نهائية. ويذكر هندرسن أن هتلر استرسل في نقطة من النقاط في نجوى عاطفية وبانطلاقة نفسيّة، لم يصفها هندرسن هكذا عندما نوّه بها في تقريره المرسل الى لندن.

قال الزعيم: "إنه بطبيعته فنان وليس سياسياً وسينهي حياته بعد تسوية المشكلة الپولندية في مجالات الفن فناناً لا تاجر حرب" الاّ انه ختم حديثه بنبرةٍ أخرى: [جاء هذا في التصريح الحرفيّ الذي دوّنه الألمان لهندرسن] كرر (الزعيم) أنه رجل القرارات الكبرى... وان هذا هو عرضه الأخير. فإن رفضت [يقصد الحكومة البريطانية] هذه المقترحات فستقع الحرب. ولم ينفك هتلر -طوال الحديث- يشير الى أن "عروضه الواسعة الكريمة" لبريطانيا - كما وصفها، مرهونة بشرط واحدٍ، إنها لن تكون سارية المفعول إلاّ "بعد حلّ هذا النزاع الألماني الپولندي". وعندما أصر (هندرسن) ان هذا العرض غير مقبول إلاّ اذا كان يعني في الوقت نفسه التسوية السلمية مع پولندا أجاب هتلر "إن لم تجد في عروضي نفعاً فلا ترسلها أبداً".

ومهما يكن، فما كاد السفير يصل الى السفارة التي لاتبعد إلاّ خطوات عن المستشارية في ڤلهلمشتراسّه، إلاّ وكان الدكتور شميدت يطرق بابه حاملاً نسخة مكتوبة من ملاحظات هتلر -بعد

٦- روى اريخ كوردت في "كتابه Wahn und Wirklichkein" ص١٩٢: بلغ الطرب والنشوة بهتلر لإنتصاره في موسكو حداً انه سأل مكتبه الصحفي قي صبيحة يوم ٢٥ آب، عن أنباء تشير الى أزمات وزارية في پاريس ولندن. وكان يظن أن الحكومتين ستسقطان لا محالة. إلاّ أنه هبط الى الواقع من خياله، عندما ابلغ عن خطبتي چمبرلين وهاليفاكس القويتين في مجلس العموم، قبل يومٍ واحد.

تنقيح كثير– ومعها رسالة من (الزعيم) الى (هندرسن) يرجوه فيها أن يبين للحكومة البريطانية "أن تأخذ هذا العرض مأخذاً جدياً للغاية".(٧)

مما يصعب جداً أن يتفهم المرء إرهاصات دماغ هتلر المحموم العجيبة المذهلة– وقد أصبح القراء الذين وصلوا الى هذا المدى في الكتاب يدركون ذلك. ولاشك أن عرضه المضحك السخيف في ٢٥ آب ضمان الإمبراطورية البريطانية ناجم عن إعصار دماغي آني لأنه لم يذكره قط قبل يومين عندما ناقش رسالة چمبرلين مع هندرسن ونظم جواباً عليها. حتى لو تسامحنا بشذوذ الدكتاتور فغاية ما يمكن الاعتذار له أنه يصعب على المتأمل أن يعتقد بأنه هو نفسه لايأخذها مأخذ الجد كما شرطها للسفير البريطاني. ثم كيف يمكن ان يطلب من الحكومة البريطانية – كما رجاه أن يأخذها مأخذها جدياً للغاية" عندما لم يجد چمبرلين الوقت الكافي لقراءتها قبل أن تجتاح جيوش النازي پولندا في فجر الغد – يوم الصفر الذي مازال هو المعول عليه؟

لكن لاشك ان "العرض" يستبطن غاية خطيرة. الظاهر أن هتلر كان يعتقد أن چمبرلين – كستالين يبحث له عن مخرج يستطيع به ان يجنب بلاده آفات الحرب(٨) لقد إبتاع حياد ستالين الكريم قبل يومين حين عرض إطلاق يد روسيا في شرق أوروپا "من بحر البلطيق حتى البحر الأسود". أو ليس بإمكان شراء عدم التدخل البريطاني، بالتأكيد لرئيس الوزراء أن الرايخ الثالث لن يكون كألمانيا آل هوهنزلرن، مصدر تهديد للإمبراطورية البريطانية؟ إن ما لم يدركه لا هتلر ولا ستالين (الذي دفع الثمن غالياً فيما بعد) هو أن الأمر مختلف جداً عند چمبرلين بعد أن صحا من غفلته وفتح عينه متأخراً جداً. فعنده أن سيطرة ألمانيا على القارة الأوروپية هو بحد ذاته أعظم تهديد يتعرض له كيان الإمبراطورية البريطانية – وكذلك هو الأمر بالنسبة الى الإتحاد السوڤياتي. وها هو هتلر يذكره في كفاحي: "لقد ظلت السياسة الخارجية البريطانية تحصر همها قروناً عديدة في منع شعبٍ واحدٍ من السيطرة على القارة الأوروپية".

في الساعة ٥,٣٠ عصراً استقبل هتلر السفير الفرنسي، إلا أن ماقاله له لاينطوي على اهمية كبيرة. فقد كرره "أن الإستفزاز الپولندي للرايخ" لايمكن إحتماله بعد الآن قط وانه لن يهاجم فرنسا إلا أنه سيقاتلها إن تدخلت في النزال وسيقاتلها الى النهاية. وبعدها حاول صرف السفير الفرنسي بنهوضه من مجلسه إلا أن (كولوندر) كان لديه ما يقوله لزعيم الرايخ الثالث وهو مصمم على قوله. قال له كلمة الشرف كجندي بأن الشك لايساوره في أن فرنسا ستكون الى جانب پولندا بكل قواتها

٧– نص التصريح الحرفي من هتلر الى هندرسن في ٢٥ آب. كتبه ريبنتروب ودكتور شميدت [وثائق عن سياسة... ج٧ الص ٢٧٩–٢٨٤] كذلك في الكتاب الأزرق الإنكليزي الص ١٢٠–١٢٢، تقرير هندرسن في ٢٥ آب يصف الإجتماع. الكتاب الأزرق الإنگليزي الص ١٢٢–١٢٣. انظر ايضاً كتاب هندرسن "إخفاق بعثة" ص٢٧٠.

٨– أو إن لم يكن خارج نطاق الحرب. فبعيداً عن مساهمة فعالة فيه هذا ما عناه الجنرال هالدر في مجمل "لتوالي الأحداث" مؤرخ ٢٥ آب. في يومية كتبها فيما بعد (٢٨ آب) ذاكراً ان هتلر قابل هندرسن في ١,٣٠ ب.ظ وقال "ان الزعيم لن يستبعد قيام إنگلترا بحرب تمويه ذراً للرماد على العيون".

إذا ما هوجمت". فأجاب هتلر "مما يؤلمني أن افكر بأني مضطر الى مقاتلة بلادكم إلا أن ذلك لايتوقف علي. أرجو أن تبلغ مسيو دالادييه بذلك[٩]. الآن بلغت الساعة في برلين السادسة مساءً والقلق في العاصمة يزداد طوال اليوم (٢٥ آب). منذ ساعات بعد الظهر الأولى قطع كل الإتصالات الاذاعية والبرقية والتلفونية عن العالم الخارجي بأوامر صادرة من ڤلهلمشتراسه. وفي الليلة التي سبقت، وصل الى أقرب الحدود آخر المراسلين الفرنسيين والإنكليز والمدنيين غير الموظفين بأسرع ما امكنهم. وفي ساعات يوم ٢٥ الموافق الجمعة أصبح معلوماً أن وزارة الخارجية الألمانية قد ابرقت لكل السفارات والقنصليات الألمانية في پولندا وفرنسا وإنگلترا تطلب منها إبلاغ الرعايا الألمان بترك البلاد بأقرب طريق. وتنوّه ملاحظاتي ليومي ٢٤ و٢٥ في مذكراتي بالجو المكفهر المتوتر في برلين: كان الجو دافئاً خانقاً وبدا كل أمرءٍ في أقصى حالات الضيق، وكانت المدفعية المضادة للطائرات تنصب في أرجاء المدينة، والقاصفات تحلق بإستمرار في أجوائها باتجاه پولندا. فدونت مساء الرابع والعشرين "انه لما يشبه الحرب" وفي اليوم التالي كتبت "الحرب قادمة" وعن كلتا الأمسيتين أذكر أن الألمان في ڤلهلمشتراسه كانوا يتهامسون فيما بينهم أن هتلر اصدر الأمر للجنود بالزحف على پولندا فجراً.

نعرف الآن أن أوامرهم كانت تقضي بالقيام بالهجوم في فجر السبت الساعة ٤,٣٠ من صباح ٢٦ آب[١٠] ولم يحدث شيء في (٢٥) حتى الساعة السادسة مساءً. لاشك أن تأكيدات السفيرين كولوندر وهندرسن على إعتزام حكومتها الإيفاء بتعهداتهما لپولندا، لم تثن هتلر عن قراره في تنفيذ عمله العدواني في الموعد المحدد. لكن في حدود الساعة السادسة مساءً أو بعدها بقليل وصلت أنباء من لندن وروما جعلت إرادة هذا الرجل الصامدة، تتردد قليلاً على مايبدو.

إن السجلات السرية الألمانية وشهادات موظفي ڤلهلمشتراسه بعد الحرب لم توضح تماماً الزمن الذي علم به هتلر نبأ التوقيع الرسمي على المعاهدة الأنگلو-پولندية التي حولت الضمان البريطاني من جانب واحدٍ الى ميثاق تعاون متبادل[١١].

هنالك بعض الدلائل في يوميات (هالدر) وفي سجل وقوعات الأسطول الألماني تشير الى الأمر نفسه. ويذكر رئيس هيئة الأركان أنه تلقى في الساعة ١٢ ظهراً نداءً تلفونياً من (ق.ع.ق.م) يسأل

٩- تقرير كولوندر المؤرخ ٢٥ آب. الكتاب الأصفر الفرنسي (الطبعة الفرنسية) الص ٣١٢-٣١٤.

١٠- مع أن أوامر هتلر السابقة الثابتة التي لم تبلغ تعين يوم الهجوم في هذا اليوم وتلك الساعة، وهي اتوماتية كما وصفها هالدر. فإن عدداً من الكتاب الألمان كتبوا أن الزعيم أعطى أوامر صريحة بعد الثالثة ظهراً ببضع دقائق للهجوم فجر اليوم الثاني بمقتضى القضية البيضاء. انظر ڤايسيكر: المذكرات. كوردت: مرجعه السالف. ووالتر هوفر Walther Hover: الحرب التي رسمت عمداً" ١٩٣٩. يقول هوفر أن الأمر صدر في الثالثة والدقيقة الثلاثين عصراً. وذكر في مصدره أن الجنرال فون فورمان Von Vormann كان موجوداً في المستشارية عند صدور الأمر. ولم يوجد دليل رسمي على ذلك في الوثائق الألمانية.

١١- يوجد برتوكول سري لهذه المعاهدة جاء فيه "ان الدولة الأوروپية" المنوه بها في البند الأول التي سينجم عن عدوانها المساعدة العسكرية - انما هي ألمانيا. هذه انقذت الحكومة البريطانية من خطوة فاجعة، وهي إعلان الحرب على الإتحاد السوڤياتي عندما قام الجيش الأحمر بإتفاق مع الألمان بالتوغل في شرق پولندا.

عن آخر أمر بتأجيل قرار الهجوم فأجاب، الثالثة بعد الظهر. ويذكر سجلّ الوقائع البحري أنباء عن وصول معلومات من الدوتشي"[١٢] والميثاق الأنگلو-پولندي. في ساعة الظهر إلا أن ذلك غير ممكن اذ لم يصل شيء من موسوليني للألمان كما دلت حاشيتهم المدونة على الوثيقة - إلا في "حدود السادسة بعد الظهر" كما لايمكن أن يعلم هتلر بتوقيع الميثاق في لندن إلا في حدود ذلك الزمن لأن التوقيع جرى في الساعة ٣٥ , ٥ عصراً. اي بعد خمس عشرة دقيقة من وصول التخويل التلفوني من وزارة الخارجية في وارشو بتوقيع السفير الپولندي في لندن الكونت ادوارد راچنسكيCount Edward Raczynski على المعاهدة[١٣].

ومهما كان من أمر الوقت الذي تبلغ بالنبأ (والسادسة مساء هو الإحتمال المضبوط). فإنه تأثر لأنباء لندن. وربما يكون هذا جواباً صريحاً على "عرضه" الشروط التي وصلت لندن آنذاك ومعناه أنه اخفق في مسعاه لشراء بريطانيا كما فعل مع روسيا. ويذكر الدكتور شميدت الذي كان في مكتب هتلر عند وصول الأنباء[١٤] أن (الزعيم) قرأها وجلس الى مكتبه مهموماً تتنازعه الهواجس.

-٢-

موسوليني ينكص على عقبيه

وقطعت عليه هواجسه بعد قليل بأنباء لاتقل سوءً من روما. كان الدكتاتور الألماني ينتظر طوال ساعات العصر "بنفاذ صبر واضح" (كما وصفه شميدت) جواب موسوليني على رسالته. وإستدعى السفير الإيطالي (أتوليكو) الى المستشارية في الساعة ٣ ظهراً، بعد إنصراف هندرسن بقليل. إلا أنه لم ينبئه بوصول جواب بعد وفي هذا الوقت بلغت أعصاب هتلر حداً من التوتر بحيث أرسل ريبنتروب ليتصل تلفونياً بـ(تشيانو) فلم يتمكن من الإتصال به. ويقول شميدت ان (أتوكيلو) صُرف من حضرة هتلر بقليل من المجاملة واللطف.[١٥]

ظل هتلر أياماً يتسلم تحذيرات من روما، تدور حول إحتمال إنصراف شريك المحور عنه في اللحظة الحرجة لحظة غزو پولندا. ولم تكن هذه الأنباء خالية من أساس إذ ما أن عاد تشيانو من إجتماعيه في ١١و١٣ آب اللذين أزالا أوهامه في هتلر وريبنتروب حتى بدأ يعمل في حرف موسوليني وتشجيعه على الوقوف ضد الألمان وسجلت يوميات وزير الخارجية الفاشي مراحل نجاحه وفشله في

١٢- مؤامرة النازين وعدوانهم، ج٦ الص ٩٧٧-٩٩٨. من ملف حول العلاقات الروسية الألمانية وجد في احدى أضابير قيادة الأسطول العليا.

١٣-لم تتبع ألمانيا التوقيت الصيفي كما تفعل بريطانيا. لذلك يمكن صرف النظر عن فرق الساعة الواحدة بين توقيتي برلين ولندن.

١٤- شميدت المرجع السالف الص ١٤٤.

١٥- المرجع السالف الص ١٤٣-١٤٤.

جهوده المبذولة لفتح عيني الدكتاتور الإيطالي ووجوب انفصاله عن هتلر في الوقت المناسب وعدم التورط معه في حرب[١٦] وفي مساء يوم عودته من برختسگادن (١٣آب)، سارع لمقابلة الدوتشي وبعد أن وصف له أحاديثه مع هتلر وريبنتروب، حاول إقناعه أن الألمان "قد خدعونا وكذبوا علينا"وهم "يريدون توريطنا في مغامرة".

"[كتب تشيانو في يوميته] اختلفت ردود فعل الدوتشي. في مبدأ الأمر كان يعارضني. ثم رجع ليقول لي أن الشرف يحتم عليه السير مع ألمانيا. وأخيراً وجدته يقول انه يريد نصيبه من الغنيمة في كرواتيا Croatia ودلماتيا Dalmatia.

١٤ آب: أجد موسوليني مهموماً. لم اتردد في إثارة كل رد فعلٍ معادٍ للألمان بكل وسيلةٍ أتفنها. حدثته عن تصاغر مقامه وعن تمثيله دور التابع لا المتبوع. وأخيراً عرضت عليه وثائق تثبت مَين الألمان وختلهم في مشكلة پولندا. إن التحالف كان مبنياً على علل هي الآن غير موجودة. إنهم خونة وعلينا ألا نتردد قط في تركهم. إلا أن موسوليني مازال كثير الشك. في اليوم التالي تحدث تشيانو الى موسوليني ست ساعات.

١٥ آب: الدوتشي... مقتنع بأن علينا ألا نسير مع الألمان معصوبي الأعين... وهو على كل يحتاج الى وقت ليكون متهيئاً للإنتقاض على ألمانيا... انه يزداد اقتناعاً بأن الديمقراطيات ستدخل الحرب... هذه المرة معناها الحرب... وليس في مقدورنا أن ندخلها لأن وضعنا الصعب لايسمح لنا بذلك.

١٨ آب: حديث مع الدوتشي في هذا الصباح. احاسيسه المتقلبة المعتادة. مازال يتوهم أن الديمقراطيات لن تخوض الحرب وأن ألمانيا ستحصل على مغانم لقاء ثمن رخيص أيضاً، وهو لايريد أن يخرج صفر اليدين. ثم يعود ليقول أنه يخشى سخط هتلر. يعتقد أن إلغاء الميثاق أو ما يجري مجراه قد يحمل هتلر على صرف النظر عن پولندا مؤقتاً ليصفي الحساب مع إيطاليا. وكل هذا يجعله عصبياً مضطرب البال.

٢٠ آب: الدوتشي يريد أن يعزز مكانته. يريد مساعدة ألمانيا باي ثمن كان في صراعها الوشيك... مؤتمر بين موسوليني وأنا وأتوليكو [عاد أتوليكو من برلين الى روما للتشاور].

هذا هو جوهر المسألة: لقد تأخر الوقت جداً للإنسحاب من خندق الألمان... كل صحافة العالم ستصم إيطاليا بالجبن... أحاول المناقشة في الأمر عبثاً. موسوليني مصر على فكرته اصراراً عنيداً.

٢١ آب: اليوم تكلمت بكل صراحة... عندما دخلت الغرفة، أيد موسوليني قراره بالسير مع الألمان قلتُ: "ايها الدوتشي، إنك لن تفعل ذلك ولاتتمكن من فعله... ذهبت الى سالزبرگ لتثبيت خط سير مشترك في اعمالنا، فوجدت نفسي وجهاً لوجهٍ أمام أوامر لا مرد لها. الألمان هم الذين نقضوا التحالف لا نحن... ألا مزق الميثاق... واقذفه في وجه هتلر!..."

١٦- يوميات تشيانو الص ١٢٠-١٢٩.

كانت حصيلة المؤتمر أن يدبر تشيانو إجتماعاً بريبنتروب في اليوم التالي في برينر لإبلاغه أن إيطاليا ستبقى خارج دائرة العمليات العسكرية الألمانية في پولندا. إلا انه لم يتمكن من الإتصال بريبنتروب لعدة ساعات عندما طلبه تلفونياً وقت الظهر. وفي الساعة ٥,٣٠ عصراً افلح في الإتصال به. ولم يستطع الوزير الألماني أنه يعطيه جواباً قاطعاً فورياً حول الإجتماع في (برينر) في فترة الإخطار القصيرة هذه إلا أنه "ينتظر رسالة هامة من موسكو"، ووعد انه سيتصل فيما بعد. وقد فعل ذلك في الساعة ١٠,٣٠ ليلاً. [وكتب تشيانو في يومياته]

٢٢ آب: مساء أمس في الساعة ١٠,٣٠، بدأ فصل تمثيلي جديد. تلفن ريبنتروب قائلاً انه يفضل مقابلتي في إنزبروك على الحدود. لأنه معتزم السفر حالاً الى موسكو للتوقيع على ميثاق سياسي مع الإتحاد السوڤياتي.

كان ذلك اعجب نبأ توقعه تشيانو وموسوليني. وقررا أن إجتماع وزيري الخارجية "لم يعد له محل". لقد خدعهما الألمان مرة أخرى واظهروا لشركائهم إزدراءهم بكتم أنباء صفقتهم مع موسكو.

إن كثرة تردد موسوليني، وشعور تشيانو بالعداء للألمان وإحتمال تسلل إيطاليا وتملصها من واجبها بمقتضى البند الثالث من الميثاق الفولاذي الذي يحتم عليها المساهمة التلقائية في حرب أحد الطرفين إن دخل هذا الطرف في اي عملٍ عسكري مع اية دولة أخرى، كل هذا اصبح معلوماً في برلين قبل أن يرحل ريبنتروب الى موسكو في ٢٢ آب.

في ٢٠ آب قام الكونت ماسيمو ماجستراتي Massimo Magistrati القائم بالأعمال الإيطالي بزيارة (ڤايسيكر) في مكتبه بوزارة الخارجية وأطلعه على "الوضع الذهني الإيطالي" الذي لم يدهشني إلا أنه يجب أن يحسب حسابه لا محالة في رأيي" [هذا قول ڤايسيكر في تقرير سري له الى ريبنتروب][١٧] ومما ذكّر القائم بالأعمال ڤايسيكر هو أن ألمانيا لم تتمسك بنصوص ميثاق الحلف التي تقضي بوجوب الإتصال الوثيق والتشاور في القضايا الهامة، وانها تعالج مشكلتها مع پولندا كأنها مشكلة ألمانية بحتة "وان ألمانيا بعملها هذا تستغني عن المساعدة العسكرية الإيطالية" واذا أدى النزاع الپولندي – خلافاً لوجهة نظر الألمان – الى حرب كبيرة فإن إيطاليا لاتعتبر "قيام المبررات" للحلف موجودة. وبالإختصار فإن إيطاليا تريد أن تجد لها مخرجاً.

وبعد يومين (٢٣ آب) وصل برلين تحذير جديد من "هانس جورج فون ماكنزن" سفيرها في روما كتب لڤايسيكر عما يجري "خلف الستار" فعرضت الرسالة على (الفوهرر) كما دلت الحاشية التي كتبها ڤايسيكر "تقدم الى الزعيم" بخط يده ولعلها فتحت عينيه. قال (ماكنزن) بعد سلسلة من الإجتماعات بين موسوليني وتشيانو وأتوليكو بدا الموقف الإيطالي كما يأتي: إن غزت ألمانيا پولندا، فهي تخرق بذلك نصوص (الميثاق الفولاذي) الذي وضع بالأساس على إفتراض عدم اللجوء الى الحرب حتى عام ١٩٤٢. وكان موسوليني متأكداً (خلافاً لرأي هتلر) من تدخل فرنسا وإنگلترا إن

١٧- مذكرة ڤايسيكر (٢٠ آب) [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ ص ١٦٠].

هاجمت ألمانيا الأراضي الپولندية. وستتبعهما "الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً بعد اشهر قليلة". وفيم تكون ألمانيا متخذة خطة الدفاع في الغرب يرى الدوتشي أن فرنسا وإنگلترا: "ستزحفان على إيطاليا بكل القوات التي تملكانها. وهذا ما سيجعل إيطاليا تنوء بكل ثقل الحرب حتى تفسح للرايخ فرصة تصفية العمل في الشرق"...[١٨].

كانت هذه التحذيرات تدور ببال هتلر حين خط رسالة لموسوليني في صبيحة الخامس والعشرين وجلس ينتظر طول اليوم بقلق متزايد.

رد الدوتشي عقب منتصف ليل أمس بقليل. فبعد أن فرغ ريبنتروب من نفض كل ما في جعبته من أحاديث حول موسكو (للزعيم) راح بطلب من هتلر يتصل تلفونياً بتشيانو لينذره "بخطورة الموقف الشديدة بسبب الإستفزاز الپولندي"[١٩]. وتكشفُ ملاحظةٌ لڤايسيكر أن المكالمة كانت لأجل "الحيلولة دون امكان الطليان المناقشة في تطورات غير متوقعة".

في الوقت الذي سلم السفير ماكنزن موسوليني، رسالة هتلر في (قصر فينيزيا) بروما في الساعة ٣,٢٠ عصر يوم (٢٥ آب)، كان الدوتشي على علم بأن الهجوم الألماني على پولندا وشيك جداً، وكان خلافاً لهتلر- مؤمناً بدخول فرنسا وإنگلترا الحرب رأساً، والنتيجة هي الكارثة العظمى لإيطاليا التي لم يكن أسطولها قادراً على الصمود أمام أسطول البحر المتوسط البريطاني. ولا جيشها قادراً على وقف الزحف الفرنسي المتفوق[٢٠]. ووصف ماكنزن تفاصيل المقابلة بتقرير أرسله الى برلين في ١٠,٢٥ ليلاً. قال أن موسوليني قرأ الرسالة مرتين بحضوره وقال إنه "يوافق تماماً على" الميثاق الروسي-الألماني وهو الآن يدرك أنه "لم يعد بالإمكان إجتناب صدام مسلح مع پولندا بعد الآن" وأخيراً (وهذا ما جلب الإنتباه اليه بنوع خاص) صرح أنه"يقف الى جانبنا دون قيد أو شرط، وبكل مايملك من موارد[٢١]. لكن هذا لم يكن بالشيء الذي كتبه الدوتشي (للزعيم) دون علم من السفير الألماني، فقد عجل تشيانو باملاء النص تلفونياً على اتوليكو الذي كان قد عاد الى برلين. فوصل في

١٨- رسالة ماكنزن الى ڤايسيكر(٢٣ آب) المرجع السالف الص ٢٤٠-٢٤٣.

١٩- لايعزب على البال ان (الإستفزاز الپولندي) الذي دأب هتلر وريبنتروب الضرب على وتره في إجتماعاتهما ومراسلاتهما الدبلوماسية مع الفرنسيين والإنگليز والروس والطليان في تلك الأيام، والأنباء التي كانت تنشر عنه بعناوين نارية في الصحف النازية الخاضعة للرقابة. انما هو محض اكاذيب اختلقها الألمان من ألفها الى يائها. وكل الإستفزازات التي حصلت في پولندا انما كانت بايعاز من برلين والقائمون بها ألمان. والوثائق الألمانية المستولى عليها مفعمة بالأدلة على ذلك.

٢٠- قام تشيانو قبل هذا التاريخ بيومٍ واحد (٢٤ آب) بزيارة الملك في (بيدمونت) مصيفه. فراح الملك الشيخ الذي وضعه الدوتشي في الزاوية وجرده من كل سلطة يتحدث بإزدراء عن قوات البلاد المسلحة. وروى تشيانو عنه قوله "إن الجيش في حال يرثى لها. حتى الدفاع عن حدود بلادنا فهو غير كافٍ. لقد قام بإثنتين وثلاثين جولة تفتيشية اقتنع بعدها أن الفرنسيين يستطيعون التوغل في داخل البلاد بكل سهولة. وان الضباط في الجيش الإيطالي تنقصهم الكفاءة والقدرة على معالجة الأعمال التي أنيطت بهم. وتجهيزاتنا واسلحتنا قديمة بطل إستعمالها (يوميات تشيانو ص ١٢٧).

٢١- تقرير ماكنزن ٢٥ آب المرجع السالف الص ٢٩١-٢٩٣.

الساعة ٦ مساءً الى المستشارية ليسلم الرد شخصياً لأدولف هتلر. فسقط كالقنبلة على هتلر، كما ذكر شميدت الحاضر. فبعد أن اعرب موسوليني "عن موافقتة التامة" على الميثاق السوفيتي النازي و"إدراكه قضية پولندا" جاء الى النقطة الأصلية.

"[كتب موسوليني] أما عن موقف إيطاليا الفعلي، ازاء الأعمال الحربية فوجهة نظري هي: إن هاجمت ألمانيا پولندا وبقيت الحرب موضعية، فإن إيطاليا ستقدم لألمانيا كل ما في طاقتها من العون السياسي والاقتصادي الذي يطلب منها. واذا هاجمت ألمانيا پولندا[٢٢]. فقامت حليفتا الأخيرة بشن هجوم معاكس على ألمانيا فأنا أبلغك مقدماً بأنه ليس من المستحسن لي أن أبادر في عمليات عسكرية نظراً الى وضع الإستعدادات الحربية الإيطالية الحالي الذي دأبنا على إعلامكما به باخلاص وحسن نية انت ايها الزعيم والهر فون ريبنتروب. إن تدخلنا قد يكون ممكناً -على اية حال- وبشكل فوري إن قدمت لنا ألمانيا حالاً المهمات الحربية والمواد الأولية لصد هجوم قد يبادئُنا به الفرنسيون والإنگليز، بصورة مفاجئة. في أثناء إجتماعنا كنا نتكلم عن وقوع الحرب في ١٩٤٢، وفي ذلك الوقت سأكون مستعداً في البر والبحر والجو. حسب الخطط التي رسمت. وأضيف الى هذا رأيي في أن إجراءات عسكرية صرفةً كنتم قد اتخذتموها قبلاً مع تدابير اخرى غيرها ستتخذونها فيما بعد، سيقابلها تعبئة واسعة للقوات الفرنسية والإنگليزية، في أوروپا وافريقيا. وأرى أن واجبي العظيم كصديق مخلص يدفعني إلى مصارحتك بالحقيقة كلها. أن اعلمك مسبقاً عن الوضع الحقيقي وإن تقاعستُ فالآثار ستكون سيئة لكلينا وهذا هو رأيي والواجب يحتم علي أن أدعو في فترة قصيرة أعلى الهيئات الحكومية لأخذ رأيها. وآمل أن تعلمني بوجهة نظرك. (التوقيع) موسوليني[٢٣]

٢٢- في الترجمة الألمانية لرسالة موسوليني التي عثر عليها بعد الحرب في اضابير وزارة الخارجية، وهي التي اعتمدتها هنا. وجدت ان كلمة (ألمانيا) قد شطبت هنا وطبعت لفظة (پولندا) فوقها بالآلة الكاتبة. فصارت تقرأ كالآتي "إن هاجمت پولندا..."، أما النص الإيطالي الذي طبع بعد الحرب من قبل الحكومة الإيطالية فالفقرة تُقرأ هكذا "اذا هاجمت ألمانيا پولندا Se la Germania Attaco la Polonia" من الغريب أن يعمد النازي حتى الى التزوير في الوثائق السرية المحفوظة في سجلاتهم الحكومية. (أنظر وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية، حاشية ص٢٨٥).

٢٣- وكأنما لم يكف هتلر رسالة موسوليني دواءً مراً. فقد قام عدد من كتاب الألمان ومعظمهم مراقبون هواة للاحداث الروائية التي تتابعت في آخر أيام السلام بطبع نص خيالي لهذه الرسالة التي بعثها الدوتشي للزعيم وكان أول من فعل ذلك (اريخ كوردت) أحد المتآمرين على النازيين الذي يشغل منصب رئيس سكرتيرية وزارة الخارجية. فقد ضمّن هذه الرسالة المصنعة كتابه Wahn und Wirklichkeit المطبوع في شتوتكارت عام ١٩٤٧. إلا انه أغفلها في الطبعة الثانية. غير أن كتاباً آخرين استمروا في اقتباسها من الطبعة الأولى. ظهرت في كتاب (بيتر كلايست) الموسوم Zwischen Hitler und Stalin المطبوع عام ١٩٥٠ بل ظهرت حتى في الترجمة الإنگليزية لمذكرات الدكتور شميدت المطبوعة في نيويورك ولندن في ١٩٥١. ومع ذلك فإن النص الاصلي لم ينشر الا في ١٩٤٦ في إيطاليا وفي ترجمة إنگليزية لكتاب وزارة الخارجية البريطانية (العلاقات النازية السوفيتية في ١٩٤٨). كان الدكتور شميدت عند هتلر عندما تسلم الرسالة من أتوليكو. وهو يروي أن الرسالة تقول: "في اشد لحظات حياتي إيلاماً. ارى من واجبي مصارحتك بأن إيطاليا غير مستعدة لحرب. فحسبما اعلمتني قيادات القوات المسلحة المختلفة ان البنزين الاحتياطي للطائرات لايكفي غير (٣) أسابيع لدوام السلاح الجوي. والوضع مماثل بالنسبة الى تجهيزات الجيش والمواد الأولية... ارجو ان تدرك موقفي". هذا وفي كتاب ناميير (مصر النازية) ص ٥: حاشية طريفة عن تزوير هذه الرسالة. (رسالة موسوليني الى هتلر ٢٥ آب المرجع السالف الص ٢٨٥-٢٨٦).

وهكذا فبعد ضمان روسيا دولةً صديقةً محايدة واخراجها من قائمة الاعداء نجد حليفة ألمانيا في الميثاق الفولاذي، تبحث الآن عن طريق للنجاة. حدث هذا في اليوم الذي بدا وكأن بريطانيا قد نذرت نفسها لخوض المعركة نذراً لا رجعة فيه بتوقيعها ميثاق التعاون المتبادل مع پولندا ضد العدوان الألماني. قرأ هتلر رسالة الدوتشي وقال لـ(أتوليكو) انه سيجيب عليها حالاً ثم صرف السفير الإيطالي بجفاء.

وسمع دكتور شميدت هتلر يقول بمرارة بعد إنصراف أتوليكو: "إن الطليان يتصرفون كما تصرفوا في ١٩١٤". ورددت المستشارية في ذلك المساء صدى كلمات قاسية عنيفة حول "الشريك المحوري الغادر". إلا أن الكلمات ليست كافية. والجيش الألماني متهيء للوثوب على پولندا في ظرف تسع ساعات. فالوقت الآن هو الساعة ٦,٣٠ عصر اليوم (٢٥ آب) والموعد المحدد للغزو هو ٤,٣٠ صباحاً (٢٦ آب) وعلى الدكتاتور النازي أن يقرر في الحال هل يمضي في الخطة أم يؤجلها أم يلغيها بناء على الاخبار التي وصلته من لندن وروما.

واصطدم شميدت وهو في طريقه لوداع أتوليكو من مكتب هتلر، بالجنرال كايتل وهو يصيح بمرافقه قائلاً "الأمر بالزحف يجب أن يؤجل ثانيةً!"

لقد حُصر هتلر حصراً ببادريتي چمبرلين وموسوليني، واتخذ قراره بسرعة. ودون (هالدر) في يومياته "الزعيم مضطرب كثيراً" ثم استمر يكتب:

"الساعة ٧,٣٠ مساءً: وُقّعت المعاهدة بين پولندا وإنگلترا. لا بدء ثم في الأعمال العدوانية. توقف كل تحركات القطعات العسكرية. حتى تلك القريبة من الحدود. إن امكن ذلك.

الساعة ٨,٣٥ مساءً: كايتل يؤكد ذلك. كاناريس: نداء تلفوني، القيود رفعت عن إنگلترا وفرنسا. مما يؤكد تسارع الأحداث. "

أما سجل وقوعات البحرية الألمانية فمعلوماته عن التأجيل أوضح، وهي معللة ايضاً بالأسباب:

٢٥ آب: القضية البيضاء التي شرع بها، ستوقف في الثامنة والدقيقة الثلاثين مساءً لحدوث تغيرات في الوضع السياسي، التعاون المتبادل، بين إنگلترا وپولندا في ٢٥ آب ظهراً، ومعلومات من الدوتشي. سيفي بوعده إلا أنه مضطر الى طلب الكثير من المواد الأولية"[٢٤].

أدلى ثلاثة من رؤوس المتهمين في نورمبرگ أثناء الإستجواب بأقوالهم عن موضوع تأجيل الهجوم[٢٥].

زعم ريبنتروب: أنه عندما أبلغ بالميثاق الأنگلو-پولندي و"سمع بأن" إجراءات عسكرية قد اتخذت

٢٤- مؤامرة النازيين وعدوانهم، ج٦، الص ٩٧٧ (وثائق نورمبرگ - C١٧٠).

٢٥- إستجواب ريبنتروب في ٢٩ آب ١٩٤٥.(مؤامرة النازيين...) ج٧ الص ٥٣٥- ٥٣٦، إستجواب گورنگ في ٢٩ آب ١٩٤٥ المرجع السالف، الص ٥٣٤-٥٣٥؛ إفادة كايتل أمام محكمة نورمبرگ ٤ نيسان ١٩٤٦(محاكمة مجرمي الحرب الكبار ج١٠ الص ٥١٤-٥١٧).

ضد پولندا (كأنما لايدري شيئاً عن الهجوم المدبر) ذهب "حالاً" الى الزعيم وناشده أن يوقف غزو پولندا "فوافق الزعيم في الحال". وهذا القول غير صحيح بالمرة.

لكن كان في إفادة كايتل وگورنگ، على الأقل مسحة من الصدق. أفاد كايتل وهو بمعقد الشهادة بنورمبرگ: "استدعيت فجأة لمقابلة هتلر في المستشارية فابتدرني قائلاً: أوقفوا كل شيء حالاً. اتصل ببراوختش فوراً. أريد وقتاً للتفاوض".

واكدت إفادة گورنگ أن هتلر كان يعتقد بمقدرته حتى في تلك الساعة المتأخرة على ان يجد له مخرجاً بطريق التفاوض. فقد أفاد في محضر تحقيق قبل محاكمته: "في اليوم الذي اعلنت إنگلترا ضمانتها رسمياً لپولندا استدعاني (الزعيم) تلفونياً وأبلغني أنه اوقف الغزو المعد لپولندا. فسألته هل إن الإيقاف مؤقت أو نهائي فقال: كلا سأرى هل اتمكن من ابعاد بريطانيا عن التدخل".

ومع أن خَذْلة موسوليني في آخر لحظة كانت ضربة شديدة على هتلر فمن الواضح من الشهادة السالفة أن عمل بريطانيا في ابرام ميثاق التعاون المتبادل كان أقوى تأثيراً عليه في نكوصه عن قراره وتأجيل الهجوم. والغريب في الأمر انه ظل يتوهم في نفسه القدرة (كما ابلغ گورنگ) في حمل بريطانيا على عدم التدخل بعد أن انذره السفير هندرسن في هذا اليوم بالذات ان بريطانيا ستقاتل إن هوجمت پولندا بعد أن اعطت حكومتها كلمة الشرف في هذا بمعاهدة رسمية. ومن المحتمل أن تجربته في مونيخ مع چمبرلين أوهمته أن رئيس الوزراء سيستسلم له ثانية لو أوجد له مخرجاً يحفظ ماء الوجه. لكن الأغرب من هذا أن يجهل شخص، أظهر في السابق حنكة عظيمة في السياسة الخارجية، التغيرات التي طرأت على چمبرلين وعلى الموقف البريطاني. وعلى كلٍ فهو الذي كان سبب هذا التغيير.

كان ينبغي بذل بعض الجهد لإيقاف الجيش الألماني في مساء (٢٥ آب) لأن عدة وحدات بدأت في الحركة. في شرق پروسيا وصل أمر تأجيل الهجوم الى الجنرال پتزل Petzel قائد الجيش الأول في ٩,٣٧ ليلاً ولم يفلح في وقف الطلائع المتقدمة الزاحفة إلا بإسراع عدد من الضباط اليها بسرعة جنونية. وكانت الأرتال الآلية التابعة لجيش الجنرال فون كلايست في الجنوب قد شرعت في الحركة وقت الغسق الى نقطة الوثوب في الحدود الپولندية فأوقفهم على خط الحدود، ضابطُ ركن استقل طائرة استكشاف صغيرة وهبط بها عند الحدود هبوطاً سريعاً. ولم يصل الأمر إلى قطاعات قليلة، حتى بدأ الرمي، لكن لما كان الألمان يريدون افتعال حوادث، وقد ظلوا يتحرشون على طول الحدود بضعة أيام، فيظهر أن هيئة الأركان الپولندية لم يداخلها شك فيما يحدث وابلغت في ٢٦ آب أن ما لايحصى "من العصابات الألمانية قد تعدت خط الحدود وهاجمت مجموعات بيوت سكنى، ونقاط كمارك بالمدافع الرشاشة والرمانات وأن احدى العصابات كانت "وحدة من الجيش النظامي".

-٣-

سرور واضطراب في نفوس "المؤتمرين"

أحدثت أنباء إيقاف هتلر الهجوم على پولندا سروراً عظيماً في نفوس المؤتمرين من أعضاء قسم الإستخبارات. وأبلغ العقيد (أوشتر) الخبر كلا من گزيفيوس وشاخت، هاتفاً "لقد إنتهى أمر الزعيم" وفي اليوم التالي كان (كاناريس) أبعد خيالاً وتفاؤلاً حين صرح "إن هتلر لن يظل بعد هذه الضربة. لقد تم إنقاذ السلم للسنوات العشرين التالية" وتوهم كلا الرجلين الا ضرورة تدعو بعد الى الإهتمام باسقاط الدكتاتور النازي فقد إنتهى أمره.

كان المؤتمرون مشغولين في آخر أسابيع الصيف. وعاودوا نشاطهم أو هكذا اعتبروا أنفسهم، وإن صعب على المرء أن يفهم الهدف من نشاطهم. كان گويردلر، وآدم فون تروت، وهلموث فون مولتكه، وفابيان فون شلابرندورف، ورودلف بيشيل، يقومون بفريضة الحج كلٌ بدوره الى لندن ولم يقصروا صلتهم على چمبرلين وهاليفاكس، بل اتصلوا أيضاً بچرچل وغيره من الزعماء وابلغوهم أن هتلر ينوي غزو پولندا في نهاية آب. تبيّن لهؤلاء الألمان أعداء هتلر، أن البريطانيين كلهم حتى حامل المظلة چمبرلين قد تغيروا تغيراً تاماً منذ أيام مونيخ. وأن الشرط الوحيد الذي اشترطوه أنفسهم قبل سنة لتنفيذ عزمهم على التخلص من هتلر قد تحقق الآن واعني به إعلان فرنسا وإنگلترا انهما ستقفان ضد اي عدوان نازي آخر وتستخدمان القوة. فماذا كانوا يريدون بعد هذا؟ لم يتضح ذلك من الوثائق التي خلفوها، والمرء ليخمن أنهم ماكانوا يعرفون هم أنفسهم. فمع اخلاصهم وسمو غايتهم كان الإضطراب والشلل بسبب الشعور بالعجز يقبض على نفوسهم ويملك عليهم مذاهبهم. هتلر يسيطر سيطرة تامة على ألمانيا. على الجيش، على الشرطة، على الحكومة، على الشعب، سيطرة يتعذر إرخاؤها أو نسفها بأي وسيلة يسمو اليها تفكيرهم.

في ١٥ آب قام هاسل بزيارة الدكتور شاخت في منزل عزوبته الجديد في برلين. كان وزير الاقتصاد المعزول قد عاد لتوه من رحلة الى الهند وبورما دامت ستة أشهر. وكتب (هاسل) في يومياته "يرى شاخت اننا لانستطيع أن نفعل شيئاً إلا الانتظار والترقب بأعين مفتوحة لتأخذ الأمور سبيلها المحتوم" وابلغ هاسل (گزيفيوس) شخصياً بأنه "يفضل هو ايضاً تأجيل القيام بحركة مباشرة في الوقت الحاضر" كما دون في يومياته:

"لكن اي حركة مباشرة تلك التي ستؤجل؟ لم يكن الجنرال هالدر مهتماً في الوقت الحاضر بالتخلص من الدكتاتور فهو الآن متلهف كهتلر لسحق پولندا. والجنرال فون (فيتزليبن) الذي وقع عليه الإختيار قبل سنة لقيادة العسكر في عملية إزاحة الزعيم، يقود الآن مجموعة جيوش الغرب، ولذلك لم يعد بحالة يستطيع العمل في برلين لو رغب في العمل حقاً. لكن هل كان راغباً؟ زاره (گزيفيوس) في

مقر قيادته فوجده ينصت الى أنباء الإذاعة البريطانية من لندن وادرك حالاً أن الجنرال لم يكن مهتماً إلا بماجريات حوادث الساعة.

أما الجنرال (هالدر) فكان منهمكاً في رسم آخر الخطط للهجوم على پولندا الى حد طرد آخر فكرة خيانية ترمي الى التخلص من هتلر. وعندما استجوب بعد الحرب (في نورمبرگ: ٢٦ شباط ١٩٤٦) كان مشوشاً للغاية في تعليل عدم قيامه وشركائه خصوم هتلر ونظامه النازي، بعمل ما في أواخر أيام آب لإزاحة هتلر وإنقاذ ألمانيا من التورط في الحرب. قال "لم يكن هناك أمل" لماذا؟ لأن الجنرال فون فيتزليبن نقل الى الغرب والجيش لايستطيع أن يتحرك دون فيتزليبن.

وماذا عن الشعب الألماني؟ عندما ذكّر المحقق الأمريكي الأول سام هاريس، الجنرال هالدر بأنه قال: الشعب الألماني ضد الحرب. وسأله "إن كان هتلر قد صمم نهائياً على الحرب، فلماذا لم تعتمدوا على مساندة الشعب لكم قبل غزوه پولندا؟" فأجاب هالدر "أرجو أن تعذرني إن ابتسمت إن أسمعْ لفظة "تصميم" مرتبطة بهتلر فعلي ان اقول لم يكن ثم شيء لايمكن أن ينقض". واستطرد رئيس هيئة الأركان ليشرح انه منذ ٢٢ آب بعد أن كشف هتلر لجنرالاته عن عزمه الذي "لايُنقض" على غزو پولندا وقتال الغرب عند الحاجة[٢٦] في إجتماع أوبرسالزبرگ، لم يكن هو نفسه يؤمن بأن هتلر سينفذ قوله. وفي ضوء يوميات (هالدر) نفسها لهذه الفترة، يبدو هذا تصريحاً غريباً حقاً. إلا انه الرأي الذي يشارك (هالدر) فيه معظم المؤتمرين الآخرين.

واين كان الجنرال (بيك) سلف هالدر في رآسة هيئة الأركان والزعيم المعترف به للمؤتمرين؟ يروي (گزيفيوس) ان (بيك) كتب رسالة الى الجنرال فون براختش. الا أن قائد الجيش العام لم يكلف نفسه بالرد. وبعدها (والراوية لگزيفيوس) تحدث طويلاً مع خلفه (هالدر) الذي وافقه على أن حرباً كبرى قد يكون فيها دمار ألمانيا لكنه يرى: "إن هتلر لن يسمح بحرب عالمية" ولذلك فلا حاجة تدعو في الوقت الحاضر الى ازاحته[٢٧].

في ١٤ آب تناول (هاسل) عشاءه مع (بيك) وحدهما. ودون شعورهما بالخيبة في يومياته:

"إن (بيك) رجل في غاية من الثقافة، والذكاء والجاذبية لسوء الحظ أمله ضعيف جداً بقادة الجيش الكبار. ولهذا السبب لايستطيع أن يرى لنا موطيء هناك. وهو على أتم الثقة من الطابع الوحشي العنيف الذي يدفع سياسات الرايخ الثالث[٢٨]".

إن عقيدة (بيك)، والآخرين الذين يحفون به، هي عقيدة نبيلة سامية. إلا أنه لم يتقدم واحد من هؤلاء الألمان الأجلاء ليعمل شيئاً في سبيل إيقاف هتلر وهو يتهيأ لقذف ألمانيا في أتون الحرب. الحق يقال أن المهمة صعبة ولعلها كانت في هذه الساعة المتأخرة مستحيلة الإنجاز. لكنهم لم يحاولوا.

٢٦- "مؤامرة النازيين وعدوانهم "الملحق (ب) الص ١٥٦١-١٥٦٣".
٢٧- گزيفيوس: المرجع السالف الص ٣٥٨-٣٥٩.
٢٨- هاسل: المرجع السالف ص ٥٩.

وربما جاز اعتبار الجنرال (توماس) ممن حاول فبعد مذكرته لكايتل التي تلاها شخصياً عليه في أواسط آب (انظر ما سبق) قابله ثانيةً نهار الأحد الموافق ٢٧ آب، وروى فيما بعد أنه "سلمه جداول احصائية مصورة وخطوطاً بيانية... دلائل توضح التفوق العسكري الاقتصادي الهائل الذي تتمتع به الدول الغربية. والدرب العسير الذي نواجهه" فبادر كايتل بشجاعة منه غير مألوفة الى عرض المواد على هتلر فأجاب أنه لايشارك الجنرال توماس "هواجسه عن مخاطر حرب عالمية وبخاصة بعدما إنحاز الإتحاد السوڤياتي الآن الى صفّه[٢٩]".

في هذا كان ختام محاولات "المؤتمرين" لمنع هتلر من إثارة حرب عالمية ثانية باستثناء محاولة ضعيفة في آخر لحظة قام بها دكتور شاخت وبنى عليها هذا الصيرفي الماكر دفاعه في نورمبرگ. فعند عودته من الهند في آب، كتب ثلاث رسائل لهتلر واحدة ولگورنگ واحدة ولريبنتروب واحدة (في هذه اللحظة العصيبة يبدو أن لا أحد من المؤتمرين راح في معارضته الى ابعد من كتابة الرسائل) ولكن "لدهشته الكبيرة" لم يتسلم رداً من احدٍ كما كتب بعدئذ. ثم قرر السفر الى (زوسن) وهي على بعد اميال قليلة جنوب شرق برلين حيث كان مقر قيادة الجيش قد انتقل اليها لإدارة العمليات الحربية في پولندا، وحاول مقابلة الجنرال فون براوختش شخصياً. لأجل أن يقول له ماذا ؟ اوضح شاخت في شهادته أمام محكمة نورمبرگ أنه كان يريد أن يُعلم قائد الجيش أن إعلان ألمانيا الحرب ليس دستورياً ولايمكن إلا بمصادقة الرايخشتاغ! لذلك كان من واجب قائد الجيش العام أن يحترم يمين الولاء للدستور!

لم ينجح دكتور شاخت في مقابلة براوختش مع الأسف. فقد انذره (كاناريس) أنه لوجاء الى (زوسن) فمن المحتمل "أن يأمر القائد العام باعتقالنا حالاً" وهو مصير ليس يبدو جذاباً لهذا المشايع السابق لهتلر[٣٠]. ولم يكن أسهل على هتلر من قيادة الرايخشتاغ الطائع الذليل الى المصادقة على الحرب لو أهتم بمثل هذه الرسميات. إلا أن السبب الحقيقي الذي جعل (شاخت) يحجم عن السفر الى (زوسن) في مهمته المضحكة هذه، ذكرها (گزيفيوس) عندما وقف في محكمة نورمبرگ شاهد دفاع لشاخت. يبدو أن شاخت قرر الذهاب الى (زوسن) في ٢٥ آب ثم عدل عندما ألغى هتلر موعد الهجوم. وبحسب شهادة (گزيفيوس) إن (شاخت) قرر أن يواصل السعي برسالته هذه في ٢٨ آب اي بعد ثلاثة أيام. إلا أن (كاناريس) نصحه بالعدول وأبلغه بأن الأمر قد فرط ولاجدوى من محاولته[٣١].
وكل هذا لايعني أن القطار فات المؤتمرين بل يعني ان المؤتمرين لم يبلغوا المحطة لمحاولة ركوبه.

وكمثل هذه الحفنة من اعداء النازي في ألمانيا، اخفق عدد كبير من زعماء العالم المحايد في وقف مسيرة هتلر الرعناء. فقد راحوا الآن يناشدون (الزعيم) العدول عن الحرب وأرسل الرئيس روزفلت في

٢٩- توماس: Gedanken und Ereignisse المرجع السالف.
٣٠- إفادة شاخت في ٢ أيار ١٩٤٦ في نورمبرگ "محاكمة مجرمي الحرب الكبار" ج١٢ الص ٥٤٥- ٥٤٦.
٣١- شهادة گزيفيوس: ٢٥ نيسان ٩٤٦ في نورمبرگ المرجع السالف الص ٢٢٤- ٢٢٥.

٢٤ آب رسالة مستعجلة له ولرئيس جمهورية پولندا يحثهما فيها على تسوية الخلافات بصورة سلمية دون اللجوء الى السلاح. وكان رد الرئيس البولندي (موزيكي) في اليوم التالي رداً رزيناً هادئاً مذكراً الرئيس الأمريكي ان الذي يملي المطالب ويفرض التنازلات فرضاً "ليس پولندا وان پولندا مع هذا راغبة في حسم النزاع مع ألمانيا بالمفاوضات المباشرة أو بالتوفيق بين وجهات النظر كما اقترح الرئيس الأمريكي". إلا ان هتلر لم يرسل رداً (كان الرئيس روزفلت قد ذكّره بإهماله الرد على ندائه الذي ارسله اليه في الأول من نيسان المنصرم) فاشفع رسالته الأولى باخرى في ٢٥ آب يعلم فيها هتلر بالرد الذي تلقاه من الرئيس البولندي وقبوله مبدأ التوفيق ويناشده "قبول هذه الوسائل السلمية التي رضيت بها حكومة پولندا".

وفي ٢٤ آب اذاع البابا خطاباً من راديو الفاتيكان يناشد فيه المحافظة على السلم ومتوسلاً "بالأقوياء... بحق دم المسيح... بأن يصغوا الينا حتى لايكونوا ضعفاء بما يقدمون عليه من مظالم، ولئلاً تكون قوة هؤلاء الاقوياء سبباً في الخراب والدمار". وارسل بعد ظهر اليوم نفسه رسالتين مماثلتين لكل من حكومتي ألمانيا وپولندا جاء فيها "انه يستحلفهما بالله أن يجتنبا اي حادث..."، وبعث بثلاث رسائل مشابهة لكل من حكومات فرنسا وبريطانيا وإيطاليا راجياً ان تدعم نداءه واضاف يقول: "إن البابا لايريد ان يقطع الأمل وهو مازال يرجو أن تؤدي المفاوضات المعلقة الى حل سلمي عادل. كان (قداسته) كاي شخص في العالم تقريباً يجهل ان "المفاوضات المعلقة" انما هي حيلة من حيل الدعاية التي اتخذها هتلر لتبرير اعتداءه والواقع كما سيبدو بعد قليل – انه لم تكن هناك مفاوضات طيبة النوايا`Bona fide معلقة أو خلافها في آخر عصر يوم سلمٍ.

هذا وقبيل ذلك ببضعة أيام، أذاع ملك البلجيك باسم ملوك ورؤساء دول رابطة (أوسلو) (بلجيكا وهولندا ولكسمبرگ وفنلندا والدول الاسكندناوية الثلاث: الدانمرك والسويد والنرويج) خطاباً مؤثراً مناشداً المحافظة على السلم، راجياً "أولئك الرجال المسؤولين عن مجرى أحداث العالم أن يسووا خلافاتهم ومطالبهم عن طريق المفاوضات العلنية". وفي ٢٨ آب عرض ملك البلجيك وملكة هولندا معاً "مساعيهما الطيبة" على أمل اجتناب الحرب[٣٢].

هذه النداءات المحايدة النبيلة في الشكل والقصد، يجد فيها قاريء اليوم شيئاً عاطفياً صرفاً ونبرة غير صميمة بعيدة عن الواقع. حتى لكأن الرئيس روزفلت والپاپا وملوك ورؤساء دول شمال أوروپا الديمقراطية يعيشون في كوكب آخر غير الكوكب الذي يقع فيه الرايخ الثالث. وليس لديهم اي علم عما يحدث في برلين قدر جهلهم بما يحدث في المريخ. هذا الجهل الفاضح بعقلية أدولف هتلر واخلاقه وغاياته، والجهل ايضاً بالطبع الألماني الذي جعل الألمان مستعدين (باستثناء القلة) للسير خلفه باعين معصوبة غير مهتمين بالغاية أو الوسيلة وبصرف النظر عن القيم الخلقية والأدبية والشرف، ودون اكتراث لمفاهيم الانسانية في الدين المسيحي الذي يعبدون، هذا الجهل كان سيكلف ثمناً غالياً تلك

٣٢– نصوص الخطب والنداءات تجدها في الكتاب البريطاني الأزرق الص ١٢٢– ١٤٢.

الشعوب التي يتزعمها روزفلت وملوك بلجيكا وهولندا ولكسمبرگ والنرويج والدانمرك في الاشهر القادمة.

ومن كان منا في برلين خلال الأيام القلائل العصيبة الباقية من حياة السلم يحاولون إرسال الأخبار الى العالم الخارجي، فلايعرفون إلا القليل عما يجري في ڤلهلمشتراسه حيث تقوم المستشارية ووزارة الخارجية أو في (بندلشتراسه) حيث اجتمعت المكاتب العسكرية الألمانية ودوائرها.

كنا نتعقب بأفضل مانتمكن حركة الذهاب والإياب المفزعة في ڤلهلمشتراسه وكنا نغربل اكداساً من الإشاعات والأنباء الخصوصية و"الطبخات" يومياً. ونستطلع أمزجة الناس في الشوارع والموظفين في الدوائر وقادة الحزب والدبلوماسيين والعسكريين، ممن تربطنا بهم صلات صداقة أو معرفة. ولكننا لم نعرف شيئاً عما جرى من أحاديث خلال زيارات السفير هندرسن الكثيرة المحمومة لهتلر ولريبنتروب ولا ماتبودل من رسائل بين چمبرلين وهتلر، وبين موسوليني وهتلر، وبين هتلر وستالين. ماذا كانت طبيعة الحديث بين مولوتوف وريبنتروب وبين ريبنتروب وتشيانو؟ ماذا كانت محتويات تلك التقارير السرية الجفرية التي تئز بها أسلاك البرق أزيزاً بين الدبلوماسيين المضطربين المستعجلين وبين موظفي وزارات الخارجية؟ كل الحركات والتنقلات التي اختطها القادة العسكريون واجروها؟ كل هذا بقينا نجهل أمره في ذلك الحين نحن والجمهور كافةً.

بالطبع كنا والجمهور نعلم أموراً قليلة. منها أن الألمان طفقوا يطبلون ويزمرون للميثاق النازي السوڤيتي وسائر أوروپا الشرقية حتى انكشف امره بعد الحرب. وعرفنا أن هندرسن –قبل تمام التوقيع على الميثاق– قد طار الى برختسگادن ليوضح لهتلر ان الميثاق لن يمنع بريطانيا من الايفاء بضماناتها لپولندا. وشعرنا في برلين في بدء الأسبوع الأخير من آب أن الحرب واقعة لامحالة إلا اذا حدثت (مونيخ) ثانية. وانها ستندلع خلال الأيام القلائل القادمة. لكن ماجاء ٢٥ آب حتى كان آخر المدنيين الفرنسيين والبريطانيين قد نزحوا عن ألمانيا وفي اليوم التالي ٢٧ آب ألغي مهرجان الحزب الكبير المقرر عقده في تاننبرگ والذي كان سيخطب فيه هتلر، مثلما الغي مؤتمر الحزب السنوي في نورمبرگ (مؤتمر الحزب لأجل السلام) إلغاءً رسمياً وكان مقرراً عقده في أول يوم من أيلول. وفي ٢٧ آب أعلنت الحكومة نظام التقنين في الطعام والصابون والأحذية والثياب والفحم على ان يبدأ العمل به في اليوم التالي، وأذكر أن هذا الإعلان كان أعظم منبه للشعب الألماني عن دنو شبح الحرب. وكان تذمرهم وسخطهم مسموعاً جداً. وراح سكان برلين في ٢٨ آب يشخصون بابصارهم إلى الوحدات العسكرية وهي تتدفق الى المدينة متجهة الى الشرق. لقد عُبئوا في ناقلات ولوريات حمل وكل مايخطر بالبال من وسائط النقل التي تم وضع اليد عليها.

وهذا أيضاً من الظواهر التي نبهت رجل الشارع عما يجري. أذكر أن عطلة الأسبوع (الأحد) كانت حارة قائضة مزهقة للأنفاس وخرج معظم سكان برلين غير مكترثين بدنوّ الحرب منهم – الى شواطيء البحيرات والغابات المحيطة بالعاصمة. وعند عودتهم مساء الأحد الى منازلهم علموا من الراديو

بوجود جلسة سرية غير رسمية للرايخشتاغ معقودة في دار المستشارية. واصدرت وكالة الأنباء الرسمية (د.ن.ب) نشرة اخبار جاء فيها "أن الزعيم شرح خطورة الموقف". وكان هذا أول نبأ يدلي به هتلر الى الشعب عن خطورة الساعة. ولم تذع اية تفاصيل عن الإجتماع ولم يعرف أحد من غير أعضاء الرايخشتاغ وحاشية هتلر عن حالته النفسية في ذلك اليوم. وتقدم لنا يومية هالدر المؤرخة ٢٨ آب نبأ وحيداً أعلمه به العقيد (اوشتر) من موظفي الإستخبارات العسكرية: "مؤتمر في مستشارية الرايخ الساعة ٣٠, ٥ عصراً. الرايخشاغ وعدد من اقطاب الحزب... الوضع متأزم للغاية. عَزمٌ على حل المسألة الشرقية كيفما كان: أصغر المطاليب: إعادة الدانزگ، تسوية مشكلة الممر. أعظم المطاليب: "تعتمد على الموقف العسكري". إن لم تتحقق أصغر المطاليب، فالحرب واقعة! يا للبربرية! سيكون هو نفسه في الخطوط الأمامية، موقف الدوتشي يخدم اهدافنا أفضل خدمة".

"الحرب صعبة جداً، وربما كانت صفقة بائرة "مادمتُ في قيد الحياة، فلا حديث عن الاستسلام هناك". أسيء فهم الميثاق السوڤيتي في اوساط الحزب بشكل عامٍ ووصف بأنه ميثاق مع الشيطان لطرد أبليس... "هتاف واستحسان في المواقف المناسبة... ولكنها ضعيفة".

"انطباعات شخصية عن الزعيم: منهوك القوى، شاحب الوجه. بصوت ابح كنعيق الغراب. مشغول البال". "أبقى نفسه محاطاً بمشاورين من الحرس الأسود ولا أحد غيرهم".

والمراقب الاجنبي في برلين يستطيع متابعة الطريقة التي تتبعها الصحافة باشراف الخبير گوبلز لخداع الشعب الألماني الساذج. فهذه ست سنوات منذ عملية "تنسيق" النازيين الجرائد اليومية الذي يعني القضاء على الصحافة الحرة والموطنون الألمان بعيدون عن حقيقة مايحدث في العالم. وكان يمكن الى حين أن تبتاع الجرائد السويسرية الألمانية اللغة من (زوريخ وبازل) من دكاكين بيع الجرائد الرئيسة في ألمانيا. وهذه تقدم انباءً موضوعية. لكن بيعها في السنوات الأخيرة إما مُنع في أنحاء الرايخ أو حدد بنسخ قليلة. أما الألمان الذين يقرأون اللغة الفرنسية أو الإنگليزية فقد تقع بايديهم جرائد لندنية أو پاريسية بين آن وآخر إلا انها لم تكن كافية للوصول الى اكثر من حفنة من الاشخاص.

دونت في مفكرتي بتاريخ ١٠ آب ١٩٣٩ "ما أتم العزلة التي يعيش فيها الألمان. نظرة واحدة الى صحف أمس واليوم تذكرك بالوحدة التامة للعالم الذي يعيشون فيه" كنت قد عدت الى ألمانيا بعد اجازة قضيتها في واشنطن ونيويورك وپاريس، وجئت من منزلي بسويسرا بالقطار وابتعت قبلها بيومين رزمة من الجرائد الصادرة في برلين والراين. فاذا بها تنقلني بسرعة خاطفة الى عالم النازية ذي النظرة الواحدة (الديكية cockeyed)، الذي لايشبه العالم الذي تركته حتى لكأنه في كوكبٍ آخر غير كوكب الأرض وعدت لأدون في يومية العاشر من آب حال وصولي برلين: "في الوقت الذي يرى سائر العالم أن ألمانيا ستنقض السلم وشيكاً وانها هي التي تهدد پولندا بالهجوم الكاسح تجد الأمر في ألمانيا في دنيا الصحف المحلية التي خلقتها على العكس تماماً... إن ماتعلنه الصحف النازية هو هذا: پولندا هي التي تخل بسلام أوروپا، پولندا هي التي تهدد ألمانيا بالغزو المسلح. هاهي جريدة

(برلينر زايتنگ) تنذر بعنوان كبير "پولندا تتربص!" ثم تضيف: "الجواب الى پولندا : Amoklauffer The Runner- Amok ضد السلم والحق في أوروپا".

وفي صدر الصحيفة اليومية (ديرفوهور) التي تصدر في كارلسروه Karlsruhe وهي مما ابتعته في القطار قرأتُ العنوان البارز التالي «وارشو تهدد بقصف الدانزگ، ثورة لاتصدق في جنون پولندا المطبق [Polnischen Grossenwahsen!].

وقد تتساءل: ليس من المعقول أن يؤمن الشعب الألماني بهذه الأكاذيب. ثم تتكلم معهم فتجد الكثير منهم مصدقين.

في نهار السبت ٢٦ آب وهو اليوم الذي حدده هتلر بالأصل لغزو پولندا، وصلت حملة گوبلز الصحفية ذروتها الغوغائية. وقد دونت في مفكرتي عدداً من العناوين البارزة التي خرجت بها الصحف:

"البرلينر زايتنگ:" فوضى شاملة في پولندا - الأسر الألمانية تفرّ هاربة - الجنود الپولنديون يتقدمون الى خط الحدود الألمانية!" "جريدة الساعة ١٢ 12-Uhr Blatt" اللعب بالنار يصل حداً بعيداً - أطلق الپولنديون قذائفهم على ثلاث طائرات ركاب ألمانية. في الممر عدد كبير من بيوت المزارعين الألمان تلتهمها النار!" وابتعت وأنا في طريقي الى دار الإذاعة في متنصف ليلة (٢٧ آب) طبعة نهار الأحد من صحيفة (فولكشر بيوباختر) فوجدت على طول الجبهة العليا من الصحيفة الأولى عنواناً باحرف ضخمة ارتفاعها إنج واحد: "پولندا كلها! تشيع فيها حمى الحرب! تعبئة مليون ونصف مليون جندي! نقل متواصل للجنود الى الحدود! الفوضى تعم سليزيا العليا!

بالطبع ليس ثم ذكر لأي تعبئة ألمانية. وإن كانت ألمانيا كما مر قد باشرت في النفير قبل أسبوعين.

- ٤ -

أيام السلم الستة الأخيرة

بعد افاقة هتلر من رعشة الماء البارد التي اصابه بها خطاب موسوليني (وصله في ساعات مساء يوم ٢٥ الأولى) وألجأه مع نبأ الميثاق الأنگلو-پولندي الى تأجيل الهجوم على پولندا المقرر يوم الغد، بعث برسالة مقتضبة لموسوليني يسأله فيها: "اية تجهيزات حربية ومهمات ومواد اولية انت بحاجة اليها وفي اي وقت تريدها؟" كيما تتمكن إيطاليا "من دخول حرب أوروپية كبيرة". وتلفن ريبنتروب الرسالة شخصياً للسفير الألماني في روما في الساعة ٧,٤٠ مساءً وسلمت للدكتاتور الإيطالي في الساعة ٩,٣٠ مساءً.(٣٣)

٣٣- من هتلر الى موسوليني (٢٥ آب) الساعة ٧,٤٠ صباحاً [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٧ ص ٢٨٩].

"وفي صباح اليوم التالي عقد موسوليني إجتماعاً في روما حضره كل قادة القوات المسلحة لتنظيم قائمة بالحد الأدنى من حاجاته لحربٍ تمتد اثني عشر شهراً. واذا استخدمنا عبارة تشيانو في وصف تلك القائمة التي ساعد هو في تنظيمها "فقد كانت كافية لقتل ثور لو استطاع قراءتها"(٣٤).

ومما إحتوته سبعة ملايين طن من البترول وستة ملايين طن من الفحم ومليوني طن من الفولاذ ومليون طن من الخشب وقائمة طويلة بمواد أخرى بلغت الى حد طلب ٦٠٠ طن من عنصر المولیبدنوم Molybdenum و ٤٠٠ طن من عنصر التيتانيوم و ٢٠ طناً من عنصر الزركونيوم Zirconium. كما طلب موسوليني فضلاً عن ذلك (١٥٠) بطرية مدفعية ضد الجو لحماية مناطق إيطاليا الصناعية في الشمال التي تبعد بضع دقائق فقط عن القواعد الجوية الفرنسية بالجو. وقد ذكر تلك الحقيقة لهتلر في الرسالة التي كتبها له الآن وتلفن تشيانو المذكرة لأتوليكو بعد ظهر يوم ٢٦ آب بقليل فقدمت لهتلر حالاً(٣٥).

وكانت اكثر من من قائمة ضخمة للمواد الضرورية. والواضح منها أن الزعيم الفاشي الناكص قد صمم على التملص من إلتزاماته ازاء الرايخ الثالث والزعيم لم يعد لديه أي شك في ذلك بعد قراءته هذه الرسالة الثانية:

"[كتب موسوليني لصاحبه] أيها الزعيم. ما كنت سأرسل اليك هذه القائمة أو ربما كانت ستتضمن مواد أقل وارقاماً أقل بكثير، بقي الموعد الذي تمت الموافقة عليه في الماضي كما كان، لتخزين الاحتياطي منها وللاسراع في الانتاج الحرب على النطاق الواسع. ومن واجبي مصارحتك بأني ان لم اكن على ثقة من وصول هذه المواد إلي، فإن التضحيات التي سأطلبها من الشعب الإيطالي... ستذهب هدراً وستطوح بقضيتكم كما ستطوح بقضيتي."

ماكان من (أتوليكو) المعارض لفكرة الحرب، وبخاصةٍ مساهمة إيطاليا في حرب ألمانية، إلا أن أوضح من تلقاء نفسه أثناء تسليمه الرسالة لهتلر: "بأن المواد يجب ان تكون في إيطاليا قبل بدء العمليات العسكرية"، وان هذا المطلب نهائي لايمكن تعديله(٣٦).

كان موسوليني يأمل (مونيخ) أخرى. فأضاف عبارة الى رسالته عبارة مؤداها ان الزعيم لو فكر بوجود اي "إحتمال ما لتسويةٍ بالطرق السياسية" فهو مستعد كالسابق لمنح زملائه الألمان مساندته التامة. ولايسع المرء إلا ان لايلاحظ رغم علاقاتهما الشخصية الوثيقة وميثاقهما الفولاذي وكل

٣٤- يوميات تشيانو، ص ١٢٩.

٣٥- من موسوليني الى هتلر (٢٦ آب) الساعة ١٢,١٠ ظهراً [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج ٧ الص ٣٠٩ - ٣١٠].

٣٦- سبب هذا سخطاً اكثر في برلين وبعض اضطراب في روما. وكان على تشيانو ان يعمل لإزالته. أخبر أتوليكو فيما بعد بأنه تعمد الإصرار على التسليم الكامل للمواد قبل العمليات العسكرية "كي اثبط عديمة الألمان من تحقيق طلباتنا" إن نقل ١٣ مليون طن من المواد في بضعة أيام أمر مستحيل بالطبع. وقد اعتذر موسوليني للسفير ماكنزن" لسوء الفهم" وعقب قائلاً "حتى الله تعالى نفسه لايتمكن من نقل هذه الكميات الينا في بضعة أيام. ولم يخطر ببالي أن اطلب هذا الطلب السخيف". يوميات تشيانو ص ١٢٩. تقرير ماكنزن.

الضجيج والتظاهر الذي احيط به تحالفهما خلال السنوات الماضية، أن هتلر لم يصارح موسوليني بغرضه الحقيقي وهو تحيطم پولندا حتى في هذه الساعة السابقة لساعة الصفر وأن الشريك الإيطالي ظل يجهلها جهلاً تاماً. هذا البرزخ القائم بينهما لم يلتحم بجسر إلا في نهاية هذا اليوم السادس والعشرين من آب.

لم يمر على الرسالة اكثر من ثلاث ساعات حتى كان رد هتلر المسهب في طريقه الى الدوتشي. ففي الساعة ٣,٠٨ عصراً تلفن ريبنتروب لسفيره ماكنزن بروما بالردّ فأسرع به الى موسوليني بعيد الخامسة مساءً بقليل.

قال هتلر ان بعض متطلبات إيطاليا يمكن سدها برمتها كالفحم والفولاذ إلا أن كثيراً غيرها لايمكن توفيره. وعلى اية حال فإن اصرار (أتوليكو) على أن تكون المواد في إيطاليا قبل بدء العمليات العدوانية انما هو من رابع المستحيلات والآن فقط نجد هتلر يشارك حليفه وصديقه سره بخصوص هدفه الحقيقي الآني: "بما أن فرنسا وبريطانيا تعجزان عن تحقيق أي نصر حاسم في الغرب وبما أن ألمانيا- ستكون حرة في إستخدام كل قواتها بعد هزيمة پولندا في الشرق نتيجةً للإتفاق مع روسيا... فلن انكص عن تسوية المشكلة الشرقية وإن خاطرت باسوأ الإحتمالات في الغرب.

ايها الدوتشي، إني افهم موقفك ولن اطلب منك إلا ان تحاول تثبيت قوات بريطانية وفرنسية عن طريق دعاية فعالة، وتحركات عسكرية مناسبة كما اقترحت في السابق علي[٣٧].

كان هذا اول دليل وثائقي ألماني كشف لنا أن هتلر استعاد ثقته بنفسه بعد مرور أربع وعشرين ساعة على اصدار أوامره بإيقاف الهجوم على پولندا، وانه راح يمضي في خططه قدماً "حتى وان خاطر" بالحرب في المغرب.

في مساء اليوم عينه (٢٦ آب) أقدم موسوليني على محاولة أخرى لإقناعه فكتب له رسالة نقلها تشيانو تلفونياً الى أتوليكو ووصلت دار المستشارية قبيل السابعة مساءً بدقائق:

أيها الزعيم:

اعتقد أن سوء التفاهم الذي وقع فيه أتوليكو دون قصدٍ منه قد ازيل حالاً... إن ماطلبته منك مواد، باستثناء بطريات المدفعية المضادة للطائرات - يمكن إرسالها تدريجاً خلال إثني عشر شهراً. لكن مع ازالة سوء التفاهم هذا. فالواضح أن من المستحيل عليك مساعدتي مادياً بامـلاء الفجوات التي احدثتها الحربان الحبشية والإسبانية في السلاح الإيطالي.

لذلك فسأتخذ الموقف الذي اشرت به على الأقل خلال المراحل الأولى من الصراع. سأقوم بتعطيل أقصى مايمكن من القوات الأنگلو-فرنسية كما هو واقع الآن، وفي الوقت نفسه سأعجل بالإستعدادات العسكرية بأنشط مايمكن.

٣٧- من هتلر الى موسوليني الساعة الثالثة والدقيقة الثامنة عصراً [وثائق عن سياسة... ج ٧، الص ٣١٣- ٣١٤].

لكن الدوتشي المحزون- المحزون لاضطراره الى الوقوف هذا الموقف الذليل في الساعة العصيبة، ظلت تراوده إحتمالات ايجاد مونيخ ثانية.

...[استطرد يقول] واسمحوا لي أن اعرب مرة أخرى ليس بدافع إندحاري وهو خلق بعيد عن طبعي، بل بسبب مصلحة شعبينا ولفائدة نظامينا عن أملي في فرصة حل سياسي مازلت أراه ممكناً. حل يرضي ألمانيا ارضاءً تاماً من الناحيتين الأدبية والمادية[٣٨].

كان الدكتاتور الإيطالي كما تبين المدونات متلهفاً الى السلم لأنه لم يكن مستعداً لحرب. إلا أن دوره أمضه كثيراً واورثه الأسى. قال لهتلر في آخر رسالاته هذه (٢٦ آب) "اترك لك المجال لتتصور حالتي الفكرية وانا أجد نفسي مضطراً بعوامل وقوى لايمكنني التحكم فيها الى عجزي عن منحك الدعم الحقيقي في ساعة الشدة". وكتب تشيانو في يومياته بعد نهاية يومه المرهق "الدوتشي يكاد يخرج عن وعيه حقاً. غريزته العسكرية، وشعوره بالشرف يقودانه الى الحرب. والعقل وحده يوقفه الآن. إلا أن هذا اورثه ألماً شديداً... الآن عليه مواجهة الحقيقة القاسية... وتلك ضربة موجعة للدوتشي".

بعد تبادل الكثير من الرسائل آمن هتلر بحكم القدر وسلم بترك موسوليني جانبه. وفي ساعة متأخرة من الليل (٢٦ آب) بعث برسالة أخيرة لشريك المحور ابرقت من برلين في الساعة ١٢,١٠ من صباح يوم ٢٧ آب، ووصلت موسوليني في التاسعة مساءً:

ايها الدوتشي:

تسلمت رسالتك بخصوص موقفك النهائي. وانا احترم الأسباب والدواعي التي أدت بك الى اتخاد هذا القرار إلا أنه على كل حال يمكن الإفادة من تلك الأسباب في ظروف معينة.

في رأيي أن مايتطلبه الأمر. على الأقل حتى نشوب الحرب - هو الا يكون للعالم اي فكرة حول الموقف الذي انتوت إيطاليا أن تتخذه. ولذلك أطلب منك بكل احترامٍ أن تدعم كفاحي سيكولوجياً بصحافتك أو بأي وسيلة أخرى. وكذلك ارجو منك ايها الدوتشي -إن استطعت- أن تقوم بتظاهرات عسكرية وتحشيدات على الأقل لتضطر فرنسا وبريطانيا على ابقاء جانب من قواتهما أو على أية حال لوضعهما في حيرةٍ من الأمر.

ولكن الأمر الأهم من هذا ايها الدوتشي: هو إذا تطورت الأمور إلى حرب كبرى كما قلتَ. فإن النتيجة في الشرق ستحسم قبل أن تستطيع دول الغرب أن تسجل اي نجاح. ثم سأقوم في هذا الشتاء أو في الربيع على الأكثر بالهجوم في الغرب بقوات تعادل على أقل تقدير قوات فرنسا وبريطانيا...

وعليَ الآن أن أطلب منك ايها الدوتشي منةً كبيرة. في هذا الكفاح العسير بامكانك انت وشعبك أن تساعدني أجلّ مساعدةٍ بإرسال عمال إيطاليين لاغراض صناعية وزراعية... اني اتقدم برجائي هذا لك بصورة خاصة إعتماداً مني على كرمك. اشكرك على كل الجهود التي بذلتها في سبيل قضيتنا

٣٨- من موسوليني الى هتلر (٢٦ آب) الساعة ٦,٢٤ ب.ظ المرجع السالف ص٣٢٣.

المشتركة.

أدولف هتلر[٣٩]

واجاب الدوتشي في آخر ساعات المساء، متذللاً متزلفاً "إن العالم لن يعرف قبل بدء العمليات الحربية ما هو الموقف الذي ستتخذه إيطاليا". إنه سيحفظ السر جيداً. وسيقوم باعاقة اكثر مايمكنه من القوات البرية والبحرية الأنگلو-فرنسية، وسيرسل لهتلر العمال الإيطاليان الذين طلبهم[٤٠] وكان قد ردد في ساعة متقدمة من ذلك اليوم على مسامع السفير فون ماكنزن "بلهجة صادقة" كما وصفها الأخير في تقرير الى برلين: قائلاً "انه مازال يعتقد بامكان الوصول الى كل اهدافنا دون اللجوء الى الحرب" واضاف انه سيذكر هذا الإحتمال في رسالته للزعيم[٤١]، إلا انه لم يفعل. فقد بدا الآن أوهى عزماً من التنويه بها ثانيةً.

بدا هتلر وشهر آب يلفظ آخر أنفاسه، غير مكترث بما سيفعله الفرنسيون رغم أن هذه البلاد ستقدم كل جيوش الحلفاء تقريباً في حدود ألمانيا الغربية إن اندلعت الحرب فجأة ورغم أنها ستكون متفوقةً تفوقاً ساحقاً على القوات الألمانية هناك، في اولى أسابيع الحرب وفي (٢٦ آب) أرسل اليه الرئيس دالادييه خطاباً بليغاً مؤثراً مذكراً اياه بما ستفعله فرنسا إنها ستقاتل إن هوجمت پولندا.

"[كتب دالادييه] كن على ثقة تامة بأن فرنسا ستظل مقيمة على إلتزاماتها للشعوب الأخرى كپولندا... إلا إذا كنتم تعرفون للشعب لفرنسي مفهوماً للشرف الوطني أقل سمواً مما أجده أنا في الشعب الألماني..."

واضاف دالادييه بعد أن ناشد هتلر اللجوء الى الحل السلمي في نزاعه مع پولندا:

"ان أريق الدم الفرنسي والألماني ثانية" كما أريق قبل خمسة وعشرين عاماً وفي حرب أطول واشد وحشية، فكلا الشعبين سيحاوب وهو واثق من نصره، إلا أن أشد المنتصرين ثقة إنما هي قوى التدمير والبربرية[٤٢]".

وعقب السفير (كولوندر) عند تسليمه الرسالة، بمناشدة عاطفية شخصية مؤثرة من تلقاء نفسه مستحلفاً هتلر "باسم الانسانية، وإراحة لضميره ألا يدع هذه الفرصة تمر، الفرصة الأخيرة لحل سلمي". إلا أن السفير كان متأسفاً لأن رسالة دالادييه لم تحرك عاطفةً في هتلر. وذكر في تقريره الى پاريس بل "كان يقف موقف غير العابىء".

وكان جواب هتلر للرئيس الفرنسي في اليوم التالي دقيق الصيغة ليلعب في أعصاب الفرنسيين المترددين ويضرب على نغمة "موتهم في سبيل الدانزگ". ومع انه لم يستخدم العبارة، فقد تركها

٣٩- من هتلر الى موسوليني الساعة ١٠, ١٢ صباحاً (٢٧ آب) المرجع السالف ٣٤٦- ٣٤٧.
٤٠- من موسوليني الى هتلر الساعة ٣٠, ٤ ب.ظ (٢٧ آب) المرجع السالف ٣٥٣- ٣٥٤.
٤١- تقرير فون ماكنزن (٢٧ آب) المرجع السالف الص ٣٥١- ٣٥٣.
٤٢- من دالادييه الى هتلر ٢٦ آب المرجع السالف الص ٣٣٠- ٣٣١ كذلك في الكتاب الأصفر الفرنسي الطبعة الفرنسية الص ٣٢١-٣٢٢.

لدعاة المهادنة الفرنسيين. قال هتلر إن ألمانيا قد تخلت عن كل مطالب الحدود من الفرنسيين بعد عودة السار، ولذلك ليس هنالك من سبب لاحترابهما. وإن اشتبكا في حرب فليس الذنب ذنبه، وسيكون ذلك "مؤلماً جداً" له.

كان هذا أقصى ماوصل اليه التراسل بين فرنسا وألمانيا خلال الأسبوع الأخير من السلم. ولم ير (كولوندر) هتلر بعد مقابلة السادس والعشرين من آب حتى إنتهى كل شيء. إن البلاد التي كانت محور إهتمام الدكتاتور الألماني في هذه الساعة هي بريطانيا العظمى. كان يريد أن يتأكد هل يستطيع "أن يبعد بريطانيا عن التدخل" كما قال هتلر لگورنگ في مساء ٢٥ آب.

ألمانيا وبريطانيا العظمى في الساعة الحادية عشرة

كتب (هالدر) في يومياته بتاريخ ٢٥ آب "الزعيم مضعضع القوى الى حدٍّ كبير" بعد أن ارغمته أنباء روما ولندن على الابتعاد عن شفا الحرب. إلا ان رئيس الأركان لاحظ عليه تغييراً مفاجئاً في عصر اليوم التالي. فدون في يوميته (الساعة ٣,٢٢ عصراً) الزعيم هادىء تماماً وصافي المزاج "وكان ثم سبب لذلك وقد ذكرته.

يوميات الجنرال "كل شيء مهيأ في اليوم السابع من التعبئة. الهجوم يبدأ في الأول من أيلول" وقد اصدر هتلر الأمر الى قيادة الجيش العليا تلفونياً.

إذن فسيشتبك هتلر مع پولندا في حرب. لقد اصبح الأمر مفروغاً منه وفي الوقت نفسه سيبذل كل مافي وسعه لإبعاد بريطانيا. وتسجل يوميات (هالدر) الاتجاهات الفكرية للزعيم وحاشيته خلال يوم ٢٦ آب الحاسم.

"الأقاويل تدور أن إنگلترا تقوم على دراسة مقترحات هامة[٤٣]. التفاصيل عند عودة هندرسن. اشاعة أخرى تقول أن إنگلترا هي التي تقرر فيما اذا كانت مصالح پولندا الحيوية مهددة. في فرنسا مظاهر من الحكومة متزايدة ضد فكرة الحرب".

الخطة: نطالب بالدانزگ، وبمر ضمن ممر. وإستفتاء مثلما جرى في السار. ربما رضيت إنگلترا. ربما رفضت پولندا. إسفين بينهما[٤٤].

ويلاحظ أنه كتب العبارة الأخيرة (إسفين بينهما) بالحرف المائل دليل الإهتمام. وليس ثم شك في أن الفكرة تعكس بالضبط مايجول في ذهن هتلر. أنه سيجاهد في دق اسفين بين پولندا وبريطانيا واعطاء چمبرلين تبريراً للتخلص من إلتزاماته لوارشو. فبعد أن أمر الجيش بالاستعداد للزحف في (١) أيلول، راح ينتظر من لندن آثار (عرضه) الفخم لضمانة الإمبراطورية البريطانية.

٤٣- يعني بذلك إقتراح هتلر في ٢٥ آب لضمان الإمبراطورية البريطانية.

٤٤- يومية هالدر بتاريخ ٢٨ بعنوان "ملحض الأحداث" للأيام الخمسة السالفة هذا الجزء هو في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ الص ٥٦٤- ٥٦٦].

لديه الآن صلتـان بالحكومـة البـريطانيـة خارج نطاق السـفارة الألمانيـة في لندن التي كـان سـفـيـرها (ديركسن) يقضي اجازته فلم يسـهم في مفـاوضـات السـاعـة الحادية عشـرة الجنوبية. واحدة من هاتين الصلتين كانت رسمية إضطلع بها السفير هندرسن الذي طار الى لندن بطائرة ألمانيـة خاصة في صباح السبت (٢٦ آب) حاملاً مقترحات (الزعيم)، أما الصلة الثـانية فغير رسـمية مخادعة، قـام بها هاوٍ لايفقـه من الدبلوماسية شيئاً كما ظهر في ما بعد، وهو (برگير داليـروس) صديق گورنگ السويدي الجنسـيـة الذي طار من برلين الى لندن حـامـلاً رسـالـة الى الحكومـة البـريطانيـة من رئيس سـلاح الجـو الألماني في اليوم السابق.

ذكـر گورنگ أثنـاء إستـجوابه في نورمبـرگ "كنت في ذلك الحين على إتصال بلورد هاليـفاكس عن طريق رسـول خاص خارج الدائرة الدبلومـاسيـة المعتـادة[٤٥]. في يوم الجمعـة الموافق ٢٥ آب إنطلق هذا "الرسـول" السـويدي في السـاعـة ٦,١٠ مسـاءً قـاصـداً وزير الخـارجيـة في لـندن، وكـان قـد اسـتـدعـاه گـورنگ من ستكهـولم الى برلين قبلها بيـوم واحدٍ وأعـلمه أن ألمانيـا راغبـة في "التـفاهم" مع بريطانيـا رغم توقيعهـا الميثاق النازي-السوڤيتي. ووضع تحت تصرف السويدي طائرة تقله الى لندن على جناح السـرعة ليـبلغ لورد هـاليـفاكس بهذه الحـقيـقـة الهـامـة. فـشكـر الوزير (كـان قـد وقـع قبـل سـاعـة مـيـثـاق التعـاون المتبادل مع پولندا)، الرسـول (داليروس) على جهـوده واعلمه أن هندرسن قـابل هتلر قبل زمن قـصـيـر في بـرلين وهو الآن في طريقـه الى لندن حـامـلاً آخـر مـقـتـرحـاتـه. ولما كـانت طرق الإتـصـالات الرسـمـيـة بين برلـين ولندن قـد اعـيـد فـتـحـهـا الآن فـهـو لايجـد حـاجـة تدعـو بـعـد الى خدمـات الوسـيط السويدي. لكن سرعان ما إتضح أن خدماته مطلوبة.

فعندما اتصل تلفونياً بگورنگ في ساعة متأخرة من الليل ليبلغه بحديثه مع هاليفاكس قال له هذا أن الوضع يتدهور باطراد نتيجة لتوقيع المعاهدة الأنگلو-پولندية وربما لايعـود ممكنا إنقـاذ السلم إلا بمؤتمر بين ممثلين ألمان وإنگليز. وكـان گـورنگ كـمـا افـاد فـيـمـا بعـد في نورمبـرگ يأمل بمونـيـخ ثانيـة كـمـوسـوليـني. وفي سـاعـة مـتـأخـرة مـن الليلة نفـسـهـا أبلغ السـويدي الجلد الكدود وزراة الخـارجـيـة البـريطانيـة بمكالمتـه التلفونية مـع گورنگ. وفي اليـوم التـالي دعي للمداولة مع هاليـفـاكس. وفي هذه المرة اقنع الوزير بكتـابة رسالـة الى گورنگ الذي وصـفه بالألماني الـذي قد يسـتطيع منع الحرب. كـانت الرسـالـة عـامـة اللهـجـة مـقـتـضـبـة لا ممسك فـيـهـا، كـررت رغـبـة بـريطانيـا في الـتـوصـل الى تسـوية سلمـيـة واكدت الحاجة "الى بضعة أيام" لتحقيق ذلك[٤٦].

٤٥- من إستـجواب گورنگ ٢٩ آب ١٩٤٥ بنورمبرگ (مؤامرة النازين وعدوانهم ج ٨، ص٥٣٤)- وثائق نـورمبرگ، ٩٠ TC). "لم يعلم ريبنتروب شيئاً عن بعثة (داليروس) ولم ابحث قضيته مع ريبنتروب الذي بقي جاهلاً بروحاته وغدواته بيني وبين الحكومة البريطانيـة" - قـول گورنگ في منصـة الشـهـادة بنورمبـرگ (محاكـمة مـجرمي الحـرب الكبار: ج٩ ص ٤٩٨). إلا أنه أبقى هتلر على معرفة بالأمر.

٤٦- طبع النص في "وثـائق عن سياسـة بريطانيـا الخارجيـة Documents on British foreign policy: الحلقة الثالثة المجلد٧ ص٢٨٣. كان قد اغفل طبعه في كل المنشورات البريطانية المطبوعة حتى ظهر المجلد المنوه به في عام ١٩٥٤ وهو =

ومهما يكن من أمرٍ فقد خيل للفيلدمارشال البدين أن ما جاءه به (داليروس) في ذلك اليوم (٢٦ آب) ينطوي على "أعظم مايمكن من الأهمية"، وكان مستقلاً قطاره الخاص الى مقر (اللوفتوافه) العام في أورانبيرگ Oranienburg خارج برلين. اوقف القطار في المحطة التالية وجيء اليه بسيارة واسرع الرجلان الى دار المستشارية وكان الوقت يوذن بنصف الليل والظلام يلف القصر وهتلر قد آوى الى فراشه. الا ان گورنگ أصر على ايقاظه. كان (داليروس) الى تلك الساعة مثل كثيرين غيره يعتقد أن هتلر شخص معقول، وأنه يرضى بتسوية سلمية كما فعل في (مونيخ) قبل عام. وهو الآن يواجه للمرة الأولى في حياته نزوات الدكتاتور الشاذة ومزاجه المخيف(٤٧).كانت تجربة محطمة لكل افكاره.

لم يهتم هتلر بالرسالة التي حملها داليروس من هاليفاكس، وكان گورنگ يراها ذات اهمية خاصة إلى الحد الذى تستأهل إيقاظ (الفوهور) من نومه في هدأة الليل. بل راح الزعيم يلقي على السويدي خطبة دامت حوالى عشرين دقيقة حول كفاحه الأول وانجازاته العظيمة وكل المحاولات التي بذلها للتفاهم مع بريطانيا. ثم بعد أن استطاع (داليروس) أن يذكر عن حياته في إنگلترا واشتغاله عاملاً، راح (الزعيم) يسأله عن الجزيرة الغريبة وشعبها الغريب الذي حاول أن يفهمه عبثاً. ثم اشفع ذلك بمحاضرة طويلة ذات طابع تكنولوجي عن قوة ألمانيا العسكرية الجبارة. قال (داليروس) أنه اعتقد بعقم مسعاه وزيارته في تلك الفترة، إلا انه تمكن بالأخير من فرصةٍ عنت ليخبر مضيفه بشيء عن البريطانيين كما عرفهم شخصياً.

"أصغى هتلر دون أن يقاطعني... ثم نهض فجأة، وركبه الهياج واشتدت عصبيته وطفق يسير غدوة ورواحاً ويتمتم كأنما يتحدث لنفسه: "إن الألمان لايقف أمامهم شيء". ثم وقف فجأة في وسط الغرفة وشخص ببصره وهو واقف دون حراك واحتبس صوته. وكان سلوكه سلوك رجل فقد عقله تماماً. واخذ

= إغفال علق عليه المؤرخون البريطانيون كثيراً. ولم يذكر (داليروس) في الكتاب البريطاني الأزرق حول الوثائق المتعلقة باندلاع الحرب، ولا في كتاب هندرسن (التقرير الأخير) Final Report ولا في كتابه الأخير(إخفاق بعثة) وإن نوه بالوسيط السويدي بوصفه "مصدراً متصلاً بگورنگ" وفي تقارير هندرسن وغيرها من الخطابات الصادرة من أعضاء السفارة البريطانية والتى طبعت الآن كنت تجد اسم (داليروس) ظاهراً وفعالياته تحتل جانباً بارزاً فيها، كما احتلت في مختلف المحاضر المحفوظة في وزارة الخارجية البريطانية، كان دور هذا السويدي الفريد رجل الأعمال - في محاولته إنقاذ السلم، سراً مكتوماً للغاية وقد بذل كل من ثلهلمشتراسه وداوننگ ستريت جهداً خاصاً لابقاء حركاته مخفية عن المراسلين ودبلوماسيي الدول المحايدة الذين بقوا -على قدر معلوماتي- في جهل تامٍ ولم يعرفوا مطلقاً اي شيء عنها حتى ادلى (داليروس) بشهادته في نورمبرگ في ١٩ آذار ١٩٤٦. وطبع كتابه (المحاولة الأخيرة) في السويد عام ١٩٤٥ في نهاية الحرب الا أن الطبعة الإنگليزية لم تظهر الا في ١٩٤٨. ثم مرت فترة ست سنوات أخرى قبل أن يثبت دوره رسمياً ان جاز لنا التعبير - في المجلد السابع من (وثائق وزراة الخارجية البريطانية) المسلسلة. ان وثائق وزارة الخارجية الألمانية لشهر آب ١٩٣٩ لاتنوه بداليروس إلا تنويهاً روتينيا في مفكرة تنبيء بتسلم رسالة من شركة خطوط لوفتهانزا الجوية "أن داليروس وهو شخص بارز من وزارة الخارجية" سيصل الى برلين في ٢٦ آب باحدى الطائرات العائدة لها. وعلى كل فقد ظهر اسمه في تلك الوثائق فيما بعد.

٤٧- ان مراحل المساعي التي بذلها داليروس. مبنية على كتابه (المرجع السالف) وعلى شهادته في نورمبرگ. وهناك فقط ادرك كم كان ساذجاً في صداقته للألمان. انظر (الفصل ١٥- حاشية ٤) وقد عززناها بمواد كثيرة من وثائق وزارة الخارجية البريطانية المطبوعة (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة ج٧.

يردد جملاً متقطعة غير كاملة: "إن لم يكن من الحرب مناص، فسأبني غواصات، أبني غواصات، غواصات، غواصات، غواصات" ولم يعد كلامه مفهوماً تماماً، وأخيراً لم اتبين منه حرفاً. ثم جمع اطراف نفسه ورفع من صوته كأنما يخطب في الجم الغفير وصاح بصوت جهير "لأبنين طائرات، لأبنين طائرات، طائرات، طائرات وسأبيد أعدائي إبادة" كان يبدو شبحاً من اشباح القصص الخرافية اكثر منه انساناً سوياً. بحلقت فيه مذهولاً ذاهب اللب ثم التفتُّ الى گورنگ لأتبين الأثر فيه، فما وجدت منه شعرة تتحرك".

بعد ذلك تقدم المستشار الهائج من ضيفه وقال "هر داليروس، أنت الذي تعرف إنگلترا معرفة جيدة. أتستطيع أن تقدم لي سبباً واحداً لإخفاقي المتواصل في الوصول الى إتفاق معها؟" واقر داليروس انه تردد في باديء الامر" وآثر ألا يجيب، إلا أنه رد يقول إنه "عدم ثقة البريطانيين به وبحكومته" كما يرى شخصياً.

فصاح هتلر (كما روى داليروس) "مجاذيب!" ورفع ذراعه الأيمن، وأهوى بضربة من يده اليسرى على صدره وصرخ "هل كذبتُ كذبةً واحدة في حياتي؟"

بعد هذا هدأ الدكتاتور النازي وجرت مناقشة حول مقترحات هتلر التي حملها هندرسن وقرّ الرأي النهائي أن يطير (داليروس) عائداً الى لندن بعرض آخر للحكومة البريطانية. واعترض گورنگ على ما دوّنه وطلب من السويدي المجامل أن يحفظه في ذاكرته. وهو يتألف من ست نقاط:

أولاً: ألمانيا ترغب في عقد ميثاق او تحالف مع بريطانيا.

ثانياً: على بريطانيا ان تساعد ألمانيا في الحصول على الدانزگ والممر، الا أن پولندا ستحصل على مرفأ حر في الدانزگ وعلى ميناء (گدينيا Gdynia) في البلطيق وممر اليه.

ثالثاً: ستضمن ألمانيا الحدود البولندية الجديدة.

رابعاً: تستعيد ألمانيا مستعمراتها أو ما يوازيها.

خامساً: تعطى ضمانة للأقلية الألمانية في پولندا.

سادساً: تتعهد ألمانيا بالدفاع عن الإمبراطورية البريطانية.

وطار (داليروس) الى لندن بالمقترحات مطبوعةً في ذاكرته ووصلها صباح الأحد (٢٧ آب) وبعد الظهر بقليل هُرِّب عن طريق متعرج اجتناباً لعيون مراسلي ويلسن وسر الكساندر كادوگان Sir Alexander Cadogan من الواضح أن الحكومة البريطانية أخذت تنظر الى الرسول السويدي نظرة جد.

جلب معه بعض الملحوظات التي دونها على وجه الاستعجال في الطائرة يشرح فيها مقابلته هتلر وگورنگ ليلة أمسٍ. في هذه الملاحظات أكد لعضوي الحكومة البريطانية الكبيرين اللذين كانا يدققان ما كتبه، أن هتلر كان أثناء المقابلة "هادئاً رصيناً". ومع أنه لم يسجل محضر بهذا الإجتماع غير الاعتيادي الأحدي لوزارة الخارجية البريطانية الا أن هاليفاكس اعاد تدوينه من الذاكرة بمعاونة السر كادوگان. والملحوظات التي قدمها المبعوث لتطبع في (المجلد السابع – السلسلة الثالثة – من أوراق

وزارة الخارجية) تختلف نسختها الإنگليزية بعض الشيء عن الرواية التي أثبتها داليروس في كتابه وعن افادته في نورمبرگ ولكن بأخذنا الروايات المختلفة معاً فإن ما سبق تدوينه يبدو تقريراً دقيقاً أفضل منه.

وجدچمبرلين وهاليفاكس حالاً انهما يواجهان مجموعتين مختلفتين من المقترحات صدرتا عن هتلر، واحدة سلمت الى هندرسن والأخرى جاء بها الآن (داليروس). فبينما اقترح في الأولى اعطاء ضمان للإمبراطورية البريطانية بعد أن يسوي هتلر حسابه مع پولندا يبدو أن المجموعة الثانية تظهر إستعداد هتلر للتفاوض عن طريق بريطانيا لإعادة الدانزگ والممر وبعد ذلك يقوم (بضمان) الحدود الپولندية الجديدة. كانت هذه نغمة قديمة مُرجّعة لچمبرلين بعد تجاربه القاسية مع هتلر في چيكوسلوڤاكيا التي ازالت كل اوهامه وإنتابه الشك في عرض هتلر، كما ذكر (داليروس) وقال للسويدي انه لايرى "اي إحتمال للتسوية في هذه الشروط، ربما تنازل الپولنديون عن الدانزگ إلا انهم يفضلون القتال على تسليم الممر".

أخيراً اتفق أن يعود داليروس الى برلين حالاً بجواب مبدئي غير رسمي لهتلر وأن يأتي الى لندن عند قبول هتلر له قبل أن يكتب رد رسمي ويرسل الى برلين صحبة هندرسن مساء اليوم التالي. وعلل هاليفاكس الأمر (كما جاء في النسخة البريطانية) "قد تكون النتائج متباينة بعض الشيء، بسبب هذه الإتصالات السرية غير الرسمية عن طريق مستر داليروس. [ولذلك] أستُحسن أن يوضح الأمر بأن (داليروس) إذ يعود الى برلين تلك الليلة، فهو لايعود حاملاً معه رد حكومة جلالته، بل لكي يمهد السبيل للإتصالات الرئيسة" التي سيضطلع بها هندرسن[٤٨].

أصبح هذا السويدي، رجل الأعمال المجهول، مهماً بوصفه وسيطاً في المفاوضات بين حكومتي أقوى دولتين في أوروپا حتى أنه (كما روى هو نفسه) أوصى رئيس الوزراء ووزير الخارجية في هذه الفترة الحرجة "بوجوب إعاقة هندرسن في لندن حتى نهار الإثنين [اليوم التالي] حتى يمكن اعطاء الجواب بعد إبلاغهما بوجهة نظر هتلر في الموقف الإنگليزي[٤٩].

ماذا كان الموقف الإنگليزي الذي سيعرضه داليروس على هتلر؟ هناك بعضُ غموض. فمن المسودة التي كتبها هاليفاكس للتعليمات الشفوية. نجد الموقف الإنگليزي كان على الوجه التالي:

(١) "التأكيد الشديد على الرغبة في التفاهم الطيب بين بريطانيا العظمى وألمانيا وليس ثم عضو واحد في الحكومة لايحبذ هذا الرأي"

(٢) "الحكومة البريطانية مضطرة الى الوفاء بإلتزاماتها نحو پولندا"

(٣) "الخلافات الألمانية الپولندية يجب حسمها سلمياً"[٥٠].

٤٨- (و.س.ب.خ) ج٧، ص٢٨٧.
٤٩- شهادة داليروس في نورمبرگ (محاكمات مجرمي الحرب الكبار) ج ٩، ص٤٦٥.
٥٠- (و.س.ب.خ) ج٧، ص ٣١٩.

أما داليروس فروايته تزعم أن الرد البريطاني غير الرسمي الذي أوكل اليه كان أوسع من هذا:

"بطبيعة الحال رفضت النقطة السادسة الخاصة بعرض هتلر الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية. وكذلك هم لايريدون بحث أي موضوعٍ عن المستعمرات مادامت ألمانيا في حالة النفير العام. أما عن الحدود البولندية فهم يريدونها مضمونة من قبل الدول الخمس الكبرى. وبخصوص الممر فهم يقترحون أن يشرع بالمفاوضات حالاً مع پولندا. أما عن النقطة الأولى [من مقترحات هتلر] فإنگلترا راغبة مبدئياً للوصول الى إتفاق مع ألمانيا[٥١].

وطار (داليروس) الى برلين مساء الأحد وواجه گورنگ قبل نصف الليل بقليل. ولم يعتبر الفليد مارشال الرد البريطاني "جد مناسب" إلا انه بعد أن قابل هتلر في نصف الليل، اتصل بداليروس تلفونيا في فندقه في الساعة الواحدة صباحاً وقال له أن المستشار "يقبل الموقف الإنگليزي" شريطة أن تصله المقترحات عن طريق هندرسن مساء الإثنين وتكون متفقة مع رسالته.

وسر گورنگ وفاقه داليروس سروراً. وايقظ في الساعة الثانية صباحاً مستشار السفارة البريطانية (سر جورج أوگليڤي فوربس Sir George Ogilvie Forbes) ليزف إليه الأنباء السارة. ليس لهذا وحده بل لينصح الحكومة البريطانية ويشير عليها بما ستقول في الرد الرسمي (أصبح مقامه بهذه الدرجة من الرفعة، على الأقل في عين نفسه) وأوضح يقول للمستشار فوربس أن المذكرة التي سيحملها هندرسن نهار الإثنين (٢٨ آب) يجب ان تتضمن تعهداً من بريطانيا باقناع پولندا على المفاوضة مع ألمانيا حالاً ومباشرةً.

[جاء في رسالة متأخرة من فوربس في ٢٨آب] تلفن داليروس قبل قليل من مكتب گورنگ. وفيما يلي مقترحات يعتبرها في غاية الأهمية:

أولاً: يجب الا يحوي الجواب اي تنويه بمشروع روزفلت[٥٢].

ثانياً: يشك هتلر في أن الپولنديين سيحاولون التملص من المفاوضات لذلك يجب أن يتضمن الجواب تصريحاً واضحاً بأن الپولنديين قد نصحوا بشدة الإتصال حالاً بألمانيا للتفاوض[٥٣].

واستمر السويدي الواثق طوال اليوم التالي يغرق (فوربس) بالنصائح فيقوم هذا بطيبة خاطر بابراقها الى لندن، بل راح يتصل هو نفسه بوزارة الخارجية مبلغاً رسالة الى هاليفاكس تتضمن إقتراحات جديدة.

٥١- (محاكمة مجرمي الحرب الكبار) ج٩، ص ٤٦٦.

٥٢- أساسه رسالة الرئيس روزفلت الى هتلر في ٢٤ و٢٥ آب. يقترح فيهما مفاوضات مباشرة بين ألمانيا وپولندا.

٥٣- (و.س.ب.خ) الجزء ٧ الص ٣٢١- ٣٢٢. يجب أن نذكر انصافاً لـ(داليروس) أنه لم يكن من الموالين للألمان، كما كانت بعض رسائله توهم القاريء. في ليلة هذا اليوم نفسه (الإثنين) وبعد مكوثه ساعتين مع گورنگ في مقر قيادته للسلاح الجوي الألماني في أورانبرگ إتصل تلفونيا (بفوربس) ليقول له: "ان الجيش الألماني سيكون في مواضع وثوبه الأخيرة على پولندا خلال ليلة الأربعاء-الخميس ٣٠/٣١ آب". فأرسل(فوربس) الخبر الى لندن بأسرع ما أمكنه.

في الواقع أصبح هذا السويدي الدبلوماسي الهاوي في تلك اللحظة الحرجة من تاريخ العالم محور الإتصال بين برلين ولندن. فبعد أن أخطر (هاليفاكس) من سفارته ببرلين ومن نداء (داليروس التلفوني لوزارة الخارجية بنصائح هذا السويدي العاجلة، بادر في الساعة الثانية صباحاً بالابراق الى سفيره في وارشو (سير هوارد كينارد) طالباً منه مقابلة الوزير بيك "في الحال" وحمله على تخويل الحكومة البريطانية، إبلاغ هتلر "بأن پولندا مستعدة للدخول حالاً في مفاوضات مباشرة مع ألمانيا". كان وزير الخارجية مستعجلاً وهو يرغب أن يضمن التخويل رده الرسمي لهتلر الذي كان هندرسن ينتظره ليحمله الى برلين في ذلك اليوم. وطلب من سفيره أن يبلغه بجواب (بيك) تلفونياً. وفي ساعة متأخرة من العصر[٥٤].

أعطى (بيك) التخويل المطلوب واستعجل بحشره في الرد الإنگليزي وعاد هندرسن الى برلين به، في مساء ٢٨ آب. وبعد أن حيته في المستشارية ثلة من الحرس الاسود تحية رسمية بتقديم العلم وقرع الطبوع (ظلت المظاهر الرسمية الدبلوماسية ساريةً الى الأخير) أدخل على هتلر فسلم له ترجمة ألمانية للمذكرة في ٣٠ . ١٠ ليلاً. فقرأها المستشار حالاً. جاء في المذكرة ان الحكومة البريطانية "تتفق معه تماماً" بأنه يجب أن تتم أولاً تسوية الخلافات بين ألمانيا وپولندا "إلا أن كل شيء يتوقف على طبيعة التسوية والوسيلة التي ستتخذ للوصول اليها". ونوه هندرسن في تقريره عن المقابلة أن المستشار كان في هذا الأمر "صامتاً" واعتذرت السفارة بلطف عن قبول عرض هتلر بضمان الإمبراطورية البريطانية: لإن الحكومة البريطانية "لاتتمكن لقاء اي منفعة تعرض على بريطانيا العظمى أن تذعن لتسوية قد تضع إستقلال دولة في موضع الخطر، بعد ان سبق وقدمت لها ضماناً".

هذه الضمانة يجب أن توفي بها. لكن ينبغي ألا يفهم هتلر من "حرص" الحكومة البريطانية على الوفاء بإلتزاماتها تجاه پولندا، أنها غير متلهفة الى تسوية عادلة.

ويستتبع ذلك أن تكون الخطوة الثانية البدء في المباحثات المباشرة بين الپولنديين والألمان على أسس: ... المحافظة على مصالح پولندا الحيوية وضمان التسوية بتصريح دولي...

وأنها [أي الحكومة البريطانية] قد سبق وتسلمت تأكيداً صريحاً من حكومة پولندا بأنها مستعدة للدخول في مفاوضات على هذا الأساس. ولذلك تأمل حكومة جلالته أن تكون الحكومة الألمانية راغبة أيضاً في السير على هذا النهج.

... تسوية عادلة... بين ألمانيا وپولندا قد تفتح الطريق الى سلم عالمي، إن الفشل في بلوغ هذه الغاية يحطم الأمال في التفاهم بين ألمانيا وبريطانيا العظمى. ويؤدي بالدولتين الى صراعٍ دامٍ ومن المحتمل جداً أن يقذف العالم كله في أتون الحرب. إن هذه النتيجة هي الكارثة، التي لاتوازيها كارثة في التاريخ[٥٥].

٥٤- الكتاب البريطاني الأزرق، ص ١٢٥. و(و.س.ب.خ) ج٧، ص ٣١٨.
٥٥- نص المذكرة البريطانية الى ألمانيا (٢٨ آب): الكتاب الأزرق البريطاني الص ١٢٦- ١٢٨.

بعد أن فرغ هتلر من قراءة الرد بدأ هندرسن بشرحه لها من ملحوظات كان قد دوّنها في أثناء مباحثاته مع چمبرلين وهاليفاكس. وروى السفير هندرسن فيما بعد ان هذه المقابلة كانت الوحيدة بين مقابلاته مع هتلر التي وجد فيها نفسه اكثر المتكلمين. وجوهر ملحوظاته ان بريطانيا ترغب في صداقة ألمانيا وهي ايضاً تريد السلام. إلا انها ستقاتل إن هاجم هتلر پولندا. فأجاب هتلر ولم يكن صامتاً قبلها مبالغاً في وصف جرائم پولندا ومسهباً في وصف "كرم" عروضه في سبيل تسوية سلمية معها وهو ما لن يكرره بعد الآن. في الواقع لن يرضيه اليوم تسوية أقل من إعادة الدانزگ وكل الممر، مع إجراء إستفتاء في سيليزيا حيث صوت تسعون بالمائة من أهلها في إستفتاء مابعد الحرب الى جانب ألمانيا". لم يكن هذا صحيحاً ولم يكن زعم هتلر قبلها بقليل أن مليون ألماني طردوا من الممر بعد ١٩١٨. وليس ثم اكثر من ٣٨٥٠٠٠ ألماني حسب الاحصاءات الألمانية للسنة ١٩١٠، لكن في ذلك الوقت كان الدكتاتور النازي يتوقع من كل شخص أن يزدرد أكاذيبه دون اعتراض. وللمرة الأخيرة في بعثة السفير المؤرجحة في برلين إبتلع مقداراً كبيراً من هذه المفتريات. فقد صرح في (التقرير الأخير): "أن هر هتلر في تلك المقابلة كان ودوداً ومعقولاً وظهر أنه لم يكن غير راضٍ بالجواب الذي جئته به".

ابرق (هندرسن) الى لندن في ٢,٣٥ صباحاً تقريراً مطولاً يصف فيه المقابلة[٥٦]: في الأخير سألته سؤالين صريحين: هل هو راغب في التفاوض رأساً مع الپولنديين وهل هو مستعد لبحث مسألة تبادل السكان؟ فأجاب بالإيجاب عن السؤال الثاني (وإن كنت لاأشك قط في أنه يفكر في الوقت نفسه بتعديل الحدود).

فأما بالنسبة الى النقطة الأولى. فهو يريد مبدئياً" أن يتأمل ملياً" في المذكرة البريطانية برمتها. وفي هذه النقطة توقف هتلر والتفت الى ريبنتروب وقال "يجب استدعاء گورنگ لبحثها معه" ووعد هتلر بجواب خطي على المذكرة البريطانية في اليوم التالي الثلاثاء ٢٩ آب.

ذكر هندرسن لهاليفاكس "جرت المحادثة في جو ودي رغم الاصرار المطلق الذي ابداه الجانبان". وربما لم يقدر هندرسن السبب الذي حدا بهتلر الى جعل جو المحادثات ودياً للغاية رغم كل تجاربه الشخصية مع مضيفه. مازال (الزعيم) مصمماً على غزو پولندا في ذلك اليوم نفسه إلا أنه مازال يأمل في اخراج بريطانيا عن دائرة الصراع رغم ماقال هندرسن وصرحت به حكومته. من الواضح أن هتلر وبتشجيع من الجاهل الإمعة ريبنتروب، لم يكن يعتقد أن البريطانيين يعنون مايقولون في حين كان هو مصمماً. وفي اليوم التالي اضاف هندرسن حاشية لتقريره المطول: "يؤكد هتلر أنه صادق النية لايخادع، وإن الناس سيرتكبون خطا شنيعاً لو توهموا أنه يخادع. فأجبت إني على بينة تامة من كوننا مخلصين صادقي النية ايضاً. فقال هر هتلر أنه يدرك ذلك إدراكاً تاماً[٥٧]".

٥٦- تقرير هندرسن الى هاليفاكس: الساعة ٢,٣٥، ٢٩ آب المرجع السالف الص ١٢٨- ٩٣١.
٥٧- تقرير هندرسن الى هاليفاكس ٢٩ آب المرجع السالف ص١٣١.

قال هذا ولكن هل أدركه حقاً؟ في رده المؤرخ ٢٩ آب حاول عامداً أن يخدع الحكومة البريطانية بشكل ظن أنه سيساعده على أكل كعكته والاحتفاظ بها سالمةً في الوقت نفسه.

إن الرد البريطاني، ورد فعل هتلر المبدئي، خلق موجةً من التفاؤل العام في برلين وبخاصة في معسكر (گورنگ) حيث كان (داليروس) الذي لايبارى يقضي جل أوقاته. وفي الساعة ١,٣٠ بعد نصف الليل (٢٩ آب) وصل السويدي نداء تلفوني من گورنگ في دار المستشارية حيث كان الفليدمارشال وهتلر وريبنتروب يطيلون الفكر في المذكرة البريطانية بعد انصراف (هندرسن) وكانت كلمة (داليروس) من صديقه الألماني أن الرد الإنكليزي "مقبول للغاية، وهناك اكبر أمل في أن يكون خطر الحرب قد مر".

فأبلغ داليروس الأنباء السارة الى وزارة الخارجية البريطانية بنداء تلفوني صباح يوم ٢٩ آب وقال لهاليفاكس "ان هتلر وگورنگ يريان الآن وجود إحتمال اكيد لتسوية سلمية" وفي ١٠,٥٠ صباحاً واجه (داليروس) گورنگ فحياه هذا بحرارة وضغط يده بشدة وصاح "سيكون هناك سلم! لقد ضمنا السلم!"، فهرع الرسول السويدي مسلحاً بهذة الأنباء السارة الى السفارة البريطانية لينهيها الى(هندرسن) الذي لم يقابله من قبل.

ووصف السفير هذه المقابلة في تقريره الى لندن. أبلغه داليروس أن الألمان متفائلون جداً. وهم "موافقون" على"النقطة الأساسية" في الرد الإنگليزي. وقال داليروس إن هتلر لايريد "إلا" الدانزگ والممر- وليس الممر بأسره بل ممر صغير على طول خط السكة الحديد المنتهية بالدانزگ. والواقع أن هتلر مستعد ليكون "متساهلاً الى أبعد حد" وسيقطع شوطاً بعيداً للوصول الى تسوية مع البولنديين[٥٨]".

لم يكن السير نفيل هندرسن متأكداً الى هذا الحد. فقد أشرقت عليه شمس الحقيقة أخيراً، وأصابه شيء من نورها، وقال لزائره (كما روى داليروس) إن المرء لايمكن ان يثق بكلمة واحدة ينطقها هتلر، وقوله هذا ينطبق على صديق داليروس هرمان گورنگ الذي كذب على السفير "بما لايُعد أو يحصى". وفي رأي هندرسن أن هتلر يلعب لعبة غادرةً قبيحةً.

إلا أن السويدي مركز القضية ومحورها الآن لم يقنع بهذا القول، وقدر لصحوته أن تأتي بعد صحوة هندرسن. فخوفاً منه على مساعيه المبذولة من أن يعرقلها تشاؤم السفير الذي لامحل له في نظره. عاد يتصل تلفونياً بوزارة الخارجية في الساعة ٧,١٠ مساءً وترك رسالة لهاليفاكس قال فيها "لايتضمن الرد الألماني اي عقبة" إلا انه نصح الحكومة البريطانية أن تبلغ البولنديين "بأن يسلكوا سلوكاً حسناً"[٥٩].

بعد خمس دقائق (٧,١٥ مساءً) وصل هندرسن دار المستشارية ليتسلم من (الزعيم) الرد الفعلي.

٥٨- تقرير هندرسن (٢٩ آب) المرجع (و.س.ب.خ) ج٧، ص ٣٦٠.
٥٩- المرجع السالف ص٣٦١.

وسرعان ما إتضح له كم كان تفاؤل گورنگ وصديقه السويدي أجوف لا أساس له. ووصف السفير الإجتماع لهاليفاكس بعد انتهائه مباشرة "بانه ذو طابع عاصف، وان هر هتلر كان أقل تساهلاً بكثير من يوم أمسٍ".

ردد الجواب الألماني الرسمي: رغبة الرايخ بصداقة بريطانيا العظمى لكنه أوضح "انها لن تشرى بثمن التضحية بمصالح ألمانيا الحيوية". وبعد تعداد طويلٍ لجرائم البولنديين وإستفزازهم و"اعمالهم البربرية وإضطهاداتهم التي بلغت عنان السماء" ادرجت مطاليب هتلر رسمياً وكتابةً للمرة الأولى، وهي إعادة الدانزگ والممر وحماية الألمان في پولندا. واضاف الرد "ولإزالة الوضع الراهن، لم يعد من الوقت لا أيام ولا أسابيع بل ساعات". واستطردت المذكرة الألمانية ان ألمانيا لاتتفق ووجهة النظر البريطانية في امكان التوصل الى حلٍ بالمفاوضات المباشرة مع پولندا. وعلى كل وارضاءً لبريطانيا "ليس الا" وفي سبيل الصداقة الأنگلو-ألمانية، تعلن ألمانيا إستعدادها "لقبول الإقتراح البريطاني في الدخول بمفاوضات مباشرة" مع پولندا "وفي حالة إعادة تنظيم الحدود في پولندا" لاتتمكن ألمانيا من إعطاء ضمانة دون موافقة الإتحاد السوڤياتي (الحكومة البريطانية لاتدري بالطبع بوجود پروتوكول سري يقضي بتقسيم پولندا ضمن الميثاق السوڤيتي النازي) أما بالنسبة الى الباقي فالحكومة الألمانية بعرضها هذه المقترحات لا نوايا لديها في مس أي شيء من مصالح پولندا الحيوية، ولا إعتراض لها على وجود دولة پولندية كاملة السيادة".

ثم وفي الختام يأتي الفخ المنصوب: "وبناء على ذلك فإن الحكومة الألمانية توافق على قبول عرض الحكومة البريطانية على مسعاها الطيب بضمان إرسال مبعوث پولندي الى برلين ذي صلاحية مطلقة وانها ترقب وصول هذا المبعوث في يوم الأربعاء ٣٠ آب ١٩٣٩."

"ستقوم الحكومة الألمانية حالاً بوضع المقترحات للحل الذي سترتضيه. وستضع هذه المقترحات حسب الإمكان تحت تصرف الحكومة البريطانية قبل وصول المفاوض الپولندي[٦٠]."

راح هندرسن يقرأ المذكرة وهتلر وريبنتروب يتابعانه بانظارهما ولم يقل شيئاً حتى بلغ الفقرة التي تتكلم عن توقع الألمان وصول المبعوث الپولندي المطلق الصلاحيات في اليوم التالي. فعلق على ذلك قائلاً "إن هذا اشبه بإنذار" فأسرع هتلر وريبنتروب ينفيان ذلك بشدة. وقالا "إنهما يرغبان في بيان خطورة الموقف ليس إلا، حيث يقف جيشان كاملا التحشيد أحدهما مقابل الأخر".

ولاشك أن السفير كان على علم بالإستقبال الذي أعده هتلر لـ(شوشنك) و(هاشا) فقد قال أنه سألهما هل أن المفاوض الپولندي المطلق الصلاحية الذي سيأتي "سيحسن إستقباله" وهل أن المباحثات "ستجري على قدم المساواة التامة" فاجاب هتلر "طبيعي".

وتبع ذلك مناقشة لاذعة فظة، أثارها هتلر بملاحظة "لا مسوغ لها" (كما وصفها هندرسن) حيث قال أن السفير "لن يهتم قلامة ظفر" بعدد الألمان يذبحون الآن ذبحاً في پولندا".

٦٠- نص الرد الألماني ٢٩ آب الكتاب البريطاني الأزرق. الص ١٣٥- ١٣٧.

ذكر هندرسن إنه اجاب على الملاحظة "جواباً قاسياً.[٦١]

ودوّن في مذكراته غداة إنصرافه، "تركت مستشارية الرايخ ونفسي مترعة بأقتم نذر الشر" إلا أنه لم يذكر شيئاً عن حالته النفسية هذه في تلكم الليلة في اي من تقاريره الى لندن على مايبدو. قال له هتلر "يسألني جنودي: نعم؟ أو لا؟"، لقد اضاعوا أسبوعاً، وليس بوسعكم اضاعة أسبوع آخر "لئلا يضاف موسم الأمطار في پولندا إلى قائمة اعدائهم".

وعلى أية حال فما يستفاد من تقارير السفير الرسمية ومن كتابه أنه لم يدرك تماماً طبيعة الفخ الذي نصبه هتلر إلا في اليوم التالي عندما نُصب فخ آخر وظهر خداع (الزعيم) جلياً. بدت لعبة الدكتاتور جلية من نص مذكرته الرسمية فقد طلب في مساء ٢٩ آب أن يصل مبعوث پولندي مطلق الصلاحية الى برلين يوم الغد. ولاشك انه كان معتزماً معاملته بالشكل المهين الذي ادخره للمستشار النمساوي ورئيس الجمهورية الچيكوسلوڤاكي. لما أعتقد بأنه ظرف مشابه. وكان متأكداً تماماً من حسابه: إن لم يرسل الپولنديون المبعوث الى برلين، أو حتى إن أرسلوه ورفض المفاوض قبول شروط هتلر فعندئذ ستلام پولندا على رفضها "التسوية السلمية" ومن المحتمل جداً أن لاتهب[٦٢] فرنسا وبريطانيا لمعونتها اذا هوجمت. مسألة واضحة قدرما هي بسيطة. إلا (هندرسن) لم يرها بهذا الجلاء في مساء يوم ٢٩ آب. وفيم هو منشغل في إرسال تقاريره الى لندن لم يفته أن يدعو السفير الپولندي للحضور الى السفارة البريطانية. ليحيطه علماً بفحوى المذكرة الألمانية وبحديثه مع هتلر. "وبينت له الحاجة إلى عمل سريع" (على حد تعبيره) وتوسلت به، لمصلحة پولندا، أن يلح على حكومته بتعيين شخص ما دون تأخير لتمثيلها في المفاوضات المقترحة[٦٣].

وفي لندن كانت رؤوس وزارة الخارجية أكثر برودة. فبعد أن أطال هاليفاكس التأمل في الرد الألماني وتقرير هندرسن عن الإجتماع بهتلر. ابرق في الساعة ٢ صباحاً (٢٩ آب) الى السفير قائلاً، في الوقت الذي ستعطى المذكرة الألمانية ماتستحق من عناية واعتبار فليس بالطبع "معقولاً أن يتوقع منا إرسال ممثل پولندي الى برلين في هذا اليوم ولاشك ان الحكومة الألمانية لاتتوقع منا ذلك[٦٤]".

بات الدبلوماسيون وموظفو وزارة الخارجية الآن وقد ركبتهم حمى العجلة القتالة يسابقون الزمن سباقاً عنيداً، وبعث هندرسن هذه الرسالة الى ڤلهلمشتراسه في الساعة ٤,٣٠ فجراً.

٦١- ابرق هندرسن لهاليفاكس في اليوم التالي"بدأ صوتي يعلو صوت هتلر... واضفت كلاما كثيراً آخر وانا أصرخ باعلى صوتي" (و.س.ب.خ) السلسلة الثالثة ج٧ ص٣٩٣. لم ينوه من قبل بهذه الحالة من الهياج العصبي في الوثائق البريطانية السابقة على هذا.

٦٢- صور الجنرال هالدر مجملاً للعبة هتلر في يوميته المؤرخة ٢٩ آب: "الزعيم يأمل ان يدق اسفيناً بين الفرنسيين والإنگليز والپولنديين.

الخطة: اقامة سد من المطاليب الديموگرافية والأثنوغرافية... الپولنديون سيأتون الى برلين في ٣٠ آب وفي ٣١ آب ستفشل المفاوضات. في ١ أيلول البدء بإستخدام القوة.

٦٣- هندرسن "إخفاق بعثة" ص ٢٨١.

٦٤- الكتاب الأزرق البريطاني ص١٣٩.

واشفعها بأربع رسائل أخرى وردت من لندن خلال النهار (٣٠ آب). احداها مذكرة شخصية من چمبرلين الى هتلر يخطره فيها ان الرد الألماني يحظى "بأشد الإهتمام" وستتم الإجابة عنه بعد الظهر. في الوقت نفسه رجا رئيس الوزراء من الحكومة الألمانية - كما سبق ان رجا من الحكومة البولندية، اجتناب حوادث الحدود. أما عن باقيها فقد "رحب بالدليل على تبادل وجهات النظر الذي يجري الآن بباعث الرغبة للتفاهم الأنگلو-ألماني"[٦٥]. والرسالة الثانية من هاليفاكس على الوتيرة نفسها. والثالثة من الوزير نفسه تتحدث عن أنباء تخريبات ألمانية في پولندا وتطلب من الألمان الامتناع عن مزاولة امثال هذا النشاط. والرابعة من هاليفاكس ايضاً بعث بها في الساعة ٦,٥٠ مساءً، تعكس تصلب كل من وزير الخارجية البريطانية وسفيره في برلين.

بعد تأمل آخر، ابرق (هندرسن) في اولى ساعات النهار بالتالي، الى لندن:

"في الوقت الذي مازلت أوصي أن تقوم الحكومة البولندية بانهاء هذا المجهود المرهق بالإتصال المباشر مع هتلر حتى وان كان الهدف اقناع العالم بإستعداد پولندا للتضحية من جانبها في المحافظة على السلم، فالمرء لايسعه إلا ان يستنتج من الرد الألماني أن هتلر عازم على تحقيق اغراضه بما يطلق عليه "الوسائل السلمية العادلة" إن استطاع اليها سبيلاً، وإن لم يستطع فبالقوة[٦٦].

في هذا الوقت لم يعد أحد حتى (هندرسن) قادراً على هضم (مونيخ) ثانية. ولم يكن البولنديون مستعدين لواحدة أيضاً. في الساعة العاشرة من صباح الثلاثين ابرق السفير البريطاني الى هاليفاكس بأن شعوره يؤكد له "استحاله اقناع الحكومة البولندية بإرسال العقيد (بيك) أو اي ممثل آخر الى برلين حالاً لإجراء مباحثات حول تسوية مبنية على مقترحات هتلر. وانهم ليفضلون القتال والموت على الإستسلام والخضوع لهذا الإذلال لاسيما بعد الأمثلة المضروبة من چيكوسلوڤاكيا وليتوانيا والنمسا" واقترح في حالة كون المفاوضات ستجري "بين اكفاء" فيجب عقدها في بلاد محايدة[٦٧].

وازدادت صلابة هاليفاكس بموقف سفيريه في برلين ووارشو فأبرق الى هندرسن أن الحكومة البريطانية لاتستطيع أن (تنصح) البولنديين بالموافقة على مطلب هتلر في إرسال مبعوث مطلق الصلاحية الى برلين لأن ذلك "غير معقول بالمرة" على حد تعبير وزير الخارجية!

"[أضاف هاليفاكس يقول لسفيره] ألا يمكنك أن تقترح على الحكومة الألمانية، بتبني الاسلوب الاعتيادي عندما تكون مقترحاتهم مهيأة، فتدعو السفير البولندي وتسلمه المقترحات لإرسالها الى وارشو مشفوعة بإقتراحات في الشروع بالمفاوضات؟[٦٨]"

قام هندرسن بتسليم الرد البريطاني الموعود على آخر مذكرات هتلر- الى ريبنتروب في متنصف

٦٥- نص مذكرة چمبرلين الى هتلر ٣٠ آب:[وثائق سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ ص٤٤١].
٦٦- الكتاب البريطاني الأزرق الص ١٣٩-١٤٠.
٦٧- المرجع السالف ص ١٤٠.
٦٨- المرجع السالف ص١٤٢.

ليلة ٣١/٣٠ آب. وهنا جرى مشهد روائي بلغ القمة في الطرافة وصفه فيما بعد الدكتور شميدت وهو الشخص الوحيد الذي حضره قال "انه اعنف مشهد رأته عيناي خلال سنواتي الثلاث والعشرين في مهنتي بالترجمة[٦٩].

ابرق السفير لوزير الخارجية بعد المقابلة مباشرة: "ينبغي لي إعلامك بأن سلوك ريبنتروب أثناء المقابلة المزعجة كان كله تقليداً لتصرفات هتلر في أسوأ حالاته النفسية." وفي "تقريره الأخير" بعد ذلك بثلاثة أسابيع ذكر "عداء" وزير الخارجية الألماني "الحاقد" الذي ازداد عنفاً كلما تابعت أقوالي. وظل يقفز من فوق مقعده بحالة من الهياج الشديد ويسأل هل لدي ما اقول بعد؟ فأظل اجيبه: أجل لدي ما اقوله. "ويروي شميدت أن هندرسن كان أيضاً يقفز من مقعده. ويقول أن الرجلين نطّا معاً من كرسيهما في مناسبة واحدة وكشر احدهما في وجه الآخر واخذا يتراشقان بالجمل الحادة، حتى ظن المترجم أنهما سيتضاربان بالأيدي. لكن ما يهم التاريخ ليس هذه المقابلة العجيبة بين وزير الخارجية الألماني وسفير حكومة صاحب الجلالة في برلين ليلة ٣١/٣٠ آب بل تطورٌ حصل خلال هذه المقابلة لأقبح آخر عملية خداع هتلرية وبها تم تثقيف السير نثيل هندرسن -بعد فوات الأوان- بحقيقة حال الرايخ الثالث. ماكاد ريبنتروب يختلس نظرة الى الرد البريطاني أو يصغي الى محاولة ايضاحه من هندرسن[٧٠]. حتى خطر ببال السفير أن يسأل عن مقترحات ألمانيا لتسوية پولندية كانت مذكرة هتلر الأخيرة قد وعدت بها الحكومة البريطانية. فرد ريبنتروب متهكماً، لقد فات الأوان لذلك، لأن المبعوث الپولندي لم يصل في نصف الليل. ومهما يكن فإن الألمان كانوا قد اعدوا تلك المقترحات وشرع ريبنتروب الآن يتلوها.

قال (هندرسن): كان ريبنتروب يتلوها باللغة الألمانية "وبسرعة خاطفة أو بالأحرى كان يتمتم لي بها بأسرع مايطبق، وبنبرة مزعجة حقاً. تمكنت من الإلمام بجوهر ست أو سبع فقرات من أصل ست عشرة ولكن من الصعب علي جداً أن أضمن الدقة التامة حتى لهذه الفقرات إلا بعد دراسةٍ ملية للنص ذاته. وبعد فراغه منها طلبتُ منه إلقاء نظرة عليها. فرفض رفضاً قاطعاً ورمى الوثيقة بحركة إزدراء فوق المنضدة وقال انها ليست بذات قيمة مادام المبعوث الپولندي لم يصل في نصف الليل[٧١]."

٦٩- شميدت المرجع السالف الص ١٥٠- ١٥٥، شهادة كذلك شهادة شميدت في (محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ١٠ الص ١٩٦-٢٢٢).

٧٠- كانت المذكرة البريطانية قوية اللهجة رغم صيغتها التوفيقية. قالت "إن حكومة جلالته تبادل الحكومة الألمانية الرغبة في تحسين العلاقات لكنها" لايسعها التضحية بمصالح الاصدقاء الآخرين للحصول على هذا التحسين في العلاقة "وهي" تفهم تماماً ان الحكومة الپولندية في موقف مماثل. لامناص للحكومة البريطانية من ان "تعلن تحفظاً" بخصوص شروط هتلر. وهي في الوقت الذي تحبذ إجراء مفاوضات مباشرة بين برلين ووارشو، تجد ان "احداث الإتصال في هذا الوقت القريب: أي اليوم، هو غير عملي" (النص في الكتاب البريطاني الأزرق الص ١٤٣-١٤٣).

٧١- وجد المؤلف ريبنتروب أثناء محاكمات نورمبرگ في موقف أدعى الى الرثاء من سائر الآخرين المتهمين الرئيسيين، حتى دفاعه فقد كان أضعفهم. إدعى أثناء إستجوابه ان هتلر أملى "النقاط الست عشرة" شخصياً وهو الذي "حذرني بصورة خاصة ألا ادع هذه المقترحات تخرج من يدي." ولم يُسأل أثناء الإستجواب عن السبب. ولم يقل هو، وانما استطرد يقول "ان هتلر سمح لي ان أنوِّر السفير البريطاني بمحتوياتها فقط اذا وجدت ذلك مفيداً ففعلت اكثر من =

ربما كانت لا قيمة لها، مادام آثر الألمان أن يسقطوا قيمتها لكن المهم في الأمر أن هذه المقترحات الألمانية لم يكن يقصد بها غرض جدي بل ولم تؤخذ مأخذاً جدياً قط. والواقع انها كانت "دعاية". كانت حيلة يقصد بها خداع الشعب الألماني وان امكن خداع الرأي العام العالمي لإظهار هتلر بمظهر من حاول في آخر دقيقة الوصول إلى تسوية معقولة لمطالبه من پولندا وقد اعترف (الزعيم) بالذات إذ روى الدكتور شميدت أنه سمعه يقول مرةً: "كنت في حاجة زعمٍ وتبرير، وبخاصة أمام الشعب الألماني. لأظهر لهم أني حاولت كل شيء للمحافظة على السلم. وهذا مايفسر عرضي الكريم حول تسوية مشكلتي الدانزگ والممر(٧٢)."

إن قورنت هذه المطاليب، بمطاليبه السابقة فهي والحق يقال كريمة، وكريمة الى حد مدهش، لم يرد هتلر الا عودة الدانزگ الى ألمانيا وان يقرر مستقبل الممر استفتاء لايتم الا بعد فترة اثني عشر شهراً عندما تطيب النفوس وتنام الأحقاد. وتحتفظ پولندا بميناء (گدينيا). ومن يكون الممر نصيبه نتيجة الإستفتاء يمنح الطرف الآخر طريقاً دولياً وسكة حديد خلاله - وهذا تعديل لعرضه السابق في الربيع الماضي. وأخيراً يتم تبادل السكان وتمنح حقوق كاملة للقوميتين في البلدين.

وقد يخال للمرء أن هذه المقترحات تصلح أن تكون قاعدة للمفاوضات بين ألمانيا وپولندا، وربما أمكن للعالم بها من تفادي حربٍ عالمية ثانية الى جيل آخر، لو كان عارِضُها جادا لا هازلاً. لقد أذيعت بالراديو على الشعب الألماني في الساعة ٩ من مساء ٣١ آب. اي بعد ثماني ساعات وثلاثين دقيقة من اصدار هتلر اوامره النهائية للهجوم على پولندا. وبقدر ما وصل اليه حكمي من إصابة، فقد نجحت هذه المناورة في غرضها وخدعت الشعب الألماني. وخدعت المؤلف في الواقع اذ أدهشه إعتدالها عندما سمعها من الراديو وردد رأيه هذا في اذاعته لأمريكا في آخر ليلة من ليالي السلم.

عاد هندرسن الى سفارة جلالته ليلة ٣١/٣٠ آب موقناً -كما قال بعدئذ- "بأن آخر أمل للسلم قد تلاشى" إلا أنه ظل يحاول جهده. أيقظ السفير الپولندي من فراشه في الساعة الثانية صباحاً وطلب منه القدوم الى السفارة، وهناك أدلى اليه "بوقائع محادثته مع ريبنتروب بشكل موضوعي معتدلٍ للغاية" وذكرفيها. إعادة الدانزگ والإستفتاء في الممر بوصفهما أهم نقطتين في المقترحات الألمانية وقال أنهما كما يراهما "ليستا بخارجتين عن حدود المعقول" وإقترح على ليپسكي، ان يوصي

= ذلك وقرأتها عليه من البداية الى النهاية" (محاكمات مجرمي الحرب الكبار ج ١٠ ص ٢٧٥). وانكر الدكتور شميدت شكل قراءة المقترحات على السفير البريطاني بنصها الألماني وبسرعة خاطفة بحيث لم يفهمها. مبيّناً ان هندرسن "لم يكن ضليعاً باللغة الألمانية" وان وزير الخارجية "لم يكن مستعجلاً جداً في قراءتها" وربما كان من الافضل في هذه المحادثات الدقيقة لو استخدم لغة بلاده. كانت لغة ريبنتروب الإنگليزية جد ممتازة. لكنه لم يتكلمها خلال تلك الأحاديث (شميدت المرجع السالف ص ١٥٢).

٧٢- أبرق نص المقترحات الستة عشر الى القائم بالأعمال الألماني في لندن في الساعة ٩,١٥ مساء ٣٠ آب، قبل أربع ساعات من تلاوتها على هندرسن في برلين. إلا ان القائم بالاعمال أوصي بالاحتفاظ بها (سراً مغلقاً وألا يطلع عليها حتى وصول تعليمات أخرى) [وثائق عن سياسة ج٧ الص ٤٤٧- ٤٥٠]. وكما يذكر القارئ مما سبق، ان هتلر وعد أن يضع تلك المقترحات تحت تصرف الحكومة البريطانية. قبل وصول المفاوض الپولندي الى برلين.

حكومتـه بأن تقترح إجتماعـاً فورياً بين المارشال (سميگلي ريدز وگورنگ). واستأنف قوله "أراني مضطراً الى القول بأني لاأجد اي أمل في نجاح مفاوضات اذا كان هر فون ريبنتروب طرفاً فيها"(٧٣).

وفي الوقت نفسه لم يكن (داليروس) النشيط، عـاطلاً. ففي الساعـة العاشرة ليـلاً (٢٩ آب) استدعاه گورنگ في منزله وابلغه "بالسير غير المرضي" للإجتماع الذي جرى قبل قليل بين هتلر وريبنتروب وهندرسن، وكان الفليدرماشال البدين يعاني نوبة من نوباته العصبية فصار يصرخ بمحضر من صديقه السويدي شاتماً لاعناً اليولنديين والبريطانيين. ثم هدأ روعه وأخذ يؤكد للزائر أن (الزعيم) منهمك الآن في رسم عروضٍ هائلة Grosszuegig لپولندا، ليس فيها من فصلٍ غير إعادة الدانزگ، وسيترك مستقبل الممر ليتقرر بإستفتاء "تحت اشراف دولي" فاستوضح (داليروس) عن مساحة منطقة الإستفتاء لا غير، فمزق گورنگ صحيفة من أطلس قديم وطفق يظلل بقلم ملون الأقسام "اليولندية" و"الألمانية" وأدخل في القسم الأخير پروسيا الپولندية لما قبل الحرب والمدينة الصناعية (لودز Lodz) التي تبعد ستين ميلاً عن حدود ١٩١٤ الشرقية. ولم يسع السويدي الفضولي التغاضي عن "السرعة والاستهتار" التى يتم بها اتخاذ القرارات الخطيرة في الرايخ الثالث. على أنّه حقق رجاء گورنگ في العودة الى لندن بالطائرة فوراً وبيان رغبة هتلر في السلام الى الحكومة البريطانية مع التلميح الى أن الزعيم يقوم بإعداد أكرم مشروع لپولندا واكثره تساهلاً برهاناً على تمسكه بالسلام.

فطار (داليروس) الذي لايعرف الكلل الى لندن في الساعة ٤ عصراً (٣٠ آب) وبدل السيارات التي أقلّته عدة مرات وهو في طريقه الى المدينة من هستن Heston حتى يضلل ملاحقيه الصحفيين (الظاهر لم يكن ثم صحفي واحد يشعر بوجوده) حتى وصل دواننگ ستريت في ١٠,٣٠ ليلاً. فقابل چمبرلين حالاً وكان ثم (هاليفاكس وويلسن وكادوگان) هؤلاء مهندسو (مونيخ) البريطانيون (باستثناء كادوگان الموظف الدائمي في وزارة الخارجية الذي كان دائماً محصناً من سحر النازي وشعوذتهم) ماعادوا الآن ينخدعون بهتلر وگورنگ. ولاتؤثر فيهم مجهودات (داليروس). هذا السويدي المخلص وجدهم "كثيري الشك" في الزعيمين النازيين. ويميلون الى الاعتقاد بألا شيء يحول بعد الآن دون إعلان هتلر الحرب على پولندا. زد على ذلك أن الحكومة البريطانية افهمت الوسيط السويدي أنها ادركت حيلة هتلر بطلب حضور ممثل پولندي مطلق الصلاحية الى برلين خلال أربع وعشرين ساعة.

إلا أن (داليروس) واصل محاولاته كما ظل هندرسن يواصلها في برلين. فاتصل بگورنگ تلفونياً واقترح أن يجتمع الوفدان الألماني والپولندي "خارج ألمانيا". فجاءه الجواب الحازم: "إن هتلر في برلين"

٧٣- ذكر هندرسن في تقرير لهاليفاكس (٣١ آب الساعة ٥,١٥ صباحاً) انه نصح ليپسكي أيضاً بكل شدة" ان يتصل تلفونياً بريبنتروب ويطلب منه المقترحات الألمانية لإرسالها الى الحكومة الپولندية. ففضل ليپسكي ان يتصل أولاً بوارشو واضاف هندرسن "ووعد السفير الپولندي ان يتصل حالاً. لكنه إما كان خاملاً وإما مقيداً بتعليمات حكومته، بحيث لايمكنني الإعتماد على جدوى اعماله". هندرسن: التقرير النهائي. سجل ٦١١٥ ص١٧. كذلك كتابه المرجع السالف ٢٨٧) - (و.س.ب.خ) ج٧ رقم ٥٧٥.

والإجتماع يجب أن يتم هناك.

وهكذا لم يحقق الوسيط السويدي شيئاً من رحلاته الجوية. ووصل برلين في نصف الليل حيث اتيحت له آخر فرصة ليكون سبيل عونٍ على الأقل. بلغ مقر قيادة گورنگ في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين ليلاً ليجد رئيس (اللوفتوافه) في ثورة عصبية أخرى. قال گورنگ ان (الزعيم) سلم عن طريق ريبنتروب مقترحات ديمقراطية عادلة معقولة لپولندا. فماكان من(داليروس) الذي صحا من غفوته على مايبدو اثر إجتماعه في داوننگ ستريت - إلا أن هرع الى (فوربس) في السفارة البريطانية ليتأكد من النبأ فعلم أن (ريبنتروب) "قرأ" الشروط بسرعة لم تدع مجالاً لهندرسن ليفهم شيئاً منها وأنهم رفضوا تزويده بنسخة من النص. ويقول (داليروس) انه أبلغ گورنگ باستنكاره هذا السلوك "في معاملة سفير إمبراطورية بريطانيا العظمى" واقترح أن يدفع اليه گورنگ بنسخة المقترحات التي هي في حيازته وان يسمح له بإبلاغها تلفونياً للسفارة البريطانية فقبل گورنگ بعد شيء من التردد(٧٤).

وبهذه الوسيلة أبلغت الحكومة البريطانية بالمقترحات الألمانية لپولندا! بتوسط رجل اعمال سويدي غير معروف له علاقة صداقة بقائد سلاح الجو من حيث امتنع هتلر وريبنتروب عن ذلك. ربما وجد الفليدمارشال في ذلك الوقت فائدةً معينة قد يمكن نيلها من كشف السر للبريطانيين أخيراً ولم يكن گورنگ غبياً أو قليل التجربة في معالجة الشؤون الخارجية.

ولزيادة التأكد من وصول المقترحات الى هندرسن بصورة مضبوطة بعث (داليروس) الى السفارة البريطانية في الساعة ١٠ مساءً (الخميس: ٣١ آب) بنسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة من المقترحات الستة عشر. وكان السفير اذ ذلك يعمل على اقناع السفير الپولندي القيام "بالإتصال المنشود" مع الألمان. وفي الساعة الثامنة صباحاً كرر له تحذيره تلفونياً بأن الحرب واقعة لامحالة إن لم تتحرك پولندا في موعد اقصاه ظهر اليوم(٧٥). وبعد وصول (داليروس) السفارة بقليل أرسله صحبة (فوربس) الى السفارة الپولندية وشاع بعض الإضطراب في ليپسكي عند مقابلة السويدي الذي لم يسمح به من قبل. وكان اذ ذاك مرهقاً منهوك القوى كمنظم اقطاب الدبلوماسيين في برلين، واشتد انزعاجه عندما أشار عليه (داليروس) بالإسراع حالاً الى گورنگ وقبول عرض هتلر.

ورجا (السويدي) ان يسمح له بالغياب ليملي المقترحات على سكرتير في الغرفة المجاورة وبذلك تم

٧٤- ادعى گورنگ أثناء محاكمته في نورمبرگ انه خاطر مخاطرة عظيمة بإرسال نسخة من المقترحات الستة عشر الى السفارة البريطانية "لان الزعيم لم يسمح باذاعتها مهما كانت الظروف. واستطرد يقول للمحكمة "كنت الوحيد الذي يستطيع ان يخاطر بهذا" (محاكمة مجرمي الحرب الكبار) ج٩ ص ٤٩٣.

٧٥- وشاركه في هذا المجهود زميله السفير الفرنسي الراجح العقل. وكان هندرسن قد خابره في الساعة التاسعة صباحاً وقال له: إن لم يقبل الپولنديون عند حلول الظهر بإرسال مندوب مطلق الصلاحية الى برلين فسيبدأ الجيش الألماني هجومه. فأسرع كولوندر حالاً الى السفارة الپولندية وناشد (ليپسكي) ان يخابر حكومته طالبا تخويلاً للقيام بالإتصال الفوري مع الألمان "كمندوب مطلق الصلاحية" (الكتاب الفرنسي الاصفر الطبعة الفرنسية الص ٤٦٦-٤٦٧.

له الانفراد (بفوربس) فراح يفضي اليه بتضايقه من اقتحام "غريب" في مثل هذا التاريخ المتأخر بقضية بالغة الخطورة. لاشك ان السفير البولندي المنزعج كان متألماً ايضاً من الضغط الذي يمارسه هندرسن عليه وعلى حكومته لإجراء التفاوض الفوري على أسس المقترحات التي تسلمها الآن بشكل غير رسمي وبالحيلة. وهي كما قال له عنها المبعوث البريطاني "ليست بالمطاليب الخارجة عن حدود المعقول"(٧٦). ولم يكن يعلم أن رأي هندرسن لم يحظ بمصادقة دواننگ ستريت وكل ماكان يدركه، هو أنه لايريد أن يأخذ بنصيحة (سويدي) نكرة وإن ارسله اليه السفير البريطاني، وانه لايرغب في الذهاب الى گورنگ ليعلن قبوله بعرض هتلر حتى لو كان مخولاً بذلك. ولم يكن مخولاً في الواقع(٧٧).

٧٦- في ذلك الحين -أعني قبل يوم ٣١ آب- كان هندرسن (مدفوعاً لإنقاذ السلم باي ثمن كان) قد استطاع اقناع نفسه بأن العروض الألمانية معقولة جداً بل معتدلة. ومع ان ريبنتروب صارحه ليلة أمس ان المقترحات الألمانية "قد فات وقتها لعدم وصول مبعوث پولندي" ومع ان الحكومة البولندية لم تكتحل عيناها بمرأى تلك المقترحات بعد، ومع انها كانت في مجموعها لاتخرج عن (مهزلة)، مع ذلك كله ظل هندرسن يلح طول اليوم على هاليفاكس ليزداد ضغطاً على البولنديين حتى يقبلوا بإرسال مندوب مطلق الصلاحية تلبية لمطلب هتلر وظل يؤكد له إعتدال ومعقولية نقاط الدكتاتور الست عشرة.
في الساعة ١٢,٣٠ ليلاً (٣١ آب) ابرق هندرسن الى هاليفاكس يطلب منه أن"يلح على پولندا أن توعز الى سفيرها ليپسكي "بطلب المقترحات الألمانية من حكومة ألمانيا". والإتصال العاجل بحكومته "بطلب إرسال مندوب مطلق الصلاحية" فالشروط تبدو معتدلة في رأيي" واستطرد هندرسن يقول "هذه ليست مونيخ... لن تحصل پولندا على مثل هذه الشروط الحسنة مرة أخرى". وفي الوقت نفسه كتب هندرسن رسالة مطولة الى هاليفاكس "إن المقترحات الألمانية لاتهدد الإستقلال البولندي... ومن المحتمل جداً أن تلقى حظاً أسوء فيما بعد" وظل يضرب على هذه الوتيرة دون كلل. فأبرق الى هاليفاكس في الساعة ١٢,٣٠ ب.ظ (١) أيلول قبل الموعد المقرر لبدء الهجوم الألماني باربع ساعات (ولم يكن يعرف ذلك) "المقترحات الألمانية... معقولة... وفي اعتقادي إن الحرب إن وقعت رغم وجود هذا العرض الألماني فلا يمكن ابداً تبريرها" وألح ثانية ان تمارس الحكومة البريطانية ضغطها على البولنديين "بلغة واضحة لاتقبل تأويلاً" لتعلن عن رغبتها في إرسال مندوب مفوض الى برلين.
إلا أن السفير البريطاني في وارشو سلك سبيلاً آخر. فأبرق الى هاليفاكس في ٣١ آب: "يبدو أن سفير صاحب الجلالة في برلين يعتبر المقترحات الألمانية معقولة واني اخشى الا اكون قادراً على الإتفاق معه. من وجهة نظر وارشو" (برقية هندرسن الى هاليفاكس (١٢,٣٠ ب.ظ) ٣١ آب. (و.س.ب.خ - ج٧ ص٤٤٠. رسالة الى هاليفاكس، المرجع السالف الص ٤٦٥ - ٤٦٧. برقية (١٢,٣٠ ليلاً ١ أيلول، المرجع السالف الص ٤٦٨- ٢٦٩. برقية كينارد الى هاليفاكس ٣١ آب، المرجع السالف ص٦١٨.
٧٧- وقعت حادثة أخرى فيها بعض الغرابة في هذا اليوم الأخير من أيام السلم تستأهل حاشيةً. عاد (داليروس) من زيارته ليپسكي الى السفارة البريطانية. ومن مكتب هندرسن إتصل ظهراً بالسير هوراس ويلسن في وزارة الخارجية البريطانية بلندن وأبلغه أن المقترحات الألمانية "سمحاء للغاية" إلا ان السفير البولندي رفضها قبل قليل. واستطرد يقول له "من الواضح أن البولنديين يضعون العراقيل في إحتمالات قيام المفاوضات".
في هذه اللحظة سمع(ويلسن) اصوات واضحة في الخط التلفوني الخارجي. جعلته يرجح ان الألمان ينصتون الى المكالمة. فحاول انهاء الحديث الا ان (داليروس) ظل منطلقاً في ثرثرته عن خروج البولنديين على حدود المعقولات غير آبه بشيء. وقد ذكر هوراس ويلسن في محضر المكالمة الذي دونه فيما بعد للحفظ في وزارة الخارجية. "عدت اكرر على داليروس، ان يقطع حديثه. ولما لم يفعل أغلقت الخط". وأبلغ ويلسن رؤساءه أن عدم التبصر هذا قد حصل في مكتب سفير جلالته ببرلين. وفي الساعة الواحدة ظهراً ابرق هاليفاكس الى هندرسن بالجفرة: "ينبغي لك ان تكون حذراً في إستخدام التلفون إن مكالمة (د) (كان يشا رالى داليروس في الرسائل المتبادلة بين وزارة الخارجية وسفارة برلين. قد سمعها الألمان دون شك" (و.س.ب.خ) ج٧ الص ٤٤١-٤٤٣.

-٥-

اليوم الأخير من السلم

بعد أن خيل للحكومتين الفرنسية والبريطانية، أنهما نجحتا في حمل الألمان والپولنديين على الرضى بالتفاوض المباشر، راحتا الآن تركزان جهودهما -وهما في ريبة عظيمة من هتلر- في تحقيق المفاوضات فعلاً. وفي هذا كان للبريطانيين السهم الأوفر. تساعدهم فرنسا دبلوماسياً في برلين وبخاصة في وارشو. ومع أن البريطانيين لم ينصحوا الپولنديين بقبول إنذار هتلر والعمل على إرسال مبعوث بصلاحيات مطلقة الى برلين في ٣٠ آب متعللين بأن هذا مطلب "غير معقول بالمرة" كما وصفه هاليفاكس لهندرسن، إلا أنهم طلبوا من العقيد (بيك) أن يعلن عن إستعداده للتفاوض مع برلين "بدون تأخير". وكان هذا فحوى الرسالة التي بعث بها هاليفاكس الى سفيره في وارشو في ساعة متأخرة من ٣٠ آب. كان على (كينارد) إبلاغ (بيك) بمحتوى المذكرة البريطانية لألمانيا التي قدمها هندرسن الى ريبنتروب مؤكداً له إصرار بريطانيا على الوفاء بإلتزاماتها لپولندا الا انه أوضح اهمية موافقة پولندا على الشروع بمفاوضات مع ألمانيا على الفور.

"[جاء في برقية هاليفاكس] من وجهة نظر الموقف الداخلي في ألمانيا والرأي العام العالمي نحن نجدها على اعظم درجة من الأهمية ومادامت الحكومة الألمانية تعلن إستعدادها للتفاوض فلن يعطى لها فرصة لإلقاء اللوم على پولندا عند وقوع الحرب(٧٨)."

قابل كينارد الوزير بيك في نصف الليل ووعده هذا باطلاع حكومته على الأمر واعطائه "الجواب اللائق" في ظهر يوم ٣١ آب. ووصلت رسالة كينارد في وصف المقابلة الى وزارة الخارجية في الثامنة صباحاً ولم يكن هاليفاكس مرتاحاً منها تماماً. وفي الحال -كان هذا آخر يوم من شهر آب- أبرق الى كينارد بأن يتفق مع السفير الفرنسي في وارشو (ليون نوئيل) بأن يقترحا على الپولنديين "إبلاغ الحكومة الألمانية، ويستحسن أن يكون مباشرة - أو بواسطتنا بأنهم احيطوا علماً بآخر رد لنا على الحكومة الألمانية وانهم يؤكدون قبولهم بمبدأ المباحثات المباشرة. تخشى الحكومة الفرنسية أن تستفيد الحكومة الألمانية من صمت الحكومة الپولندية(٧٩)".

مازال لورد هاليفاكس قلقاً بخصوص موقف حلفائه الپولنديين. وبعد أقل من ساعتين (١,٤٥) ظهراً عاد يبرق الى كينارد: "أرجو الإتصال حالاً بالحكومة الپولندية والنصح لها - بعد قبولها مبدأ المفاوضات المباشرة، أن تصدر حالاً تعليمات الى سفيرها في برلين للإتصال بالحكومة الألمانية والسؤال منها إذا كان لديها اية مقترحات فهو مستعد لايصالها الى حكومته حتى تتفرغ الى

٧٨- الكتاب البريطاني الأزرق ص ١٤٤.
٧٩- المرجع السالف ص ١٤٧.

دراستها لتقابلها بإقتراحات للتفاوض العاجل".[٨٠]

لكن – وقبل إرسال برقيته بقليل، كان (بيك) قد ابلغ السفير البريطاني بمذكرة خطية ان الحكومة البولندية "تؤكد إستعدادها... لتتبادل فوراً وجهات النظر مع الحكومة الألمانية" على أثر المذكرة التي قدّمها السفيران البريطاني والفرنسي في متنصف ليلة أمس. واعلم السفير شفوياً أنه اصدر تعليماته الى سفيره ليپسكي بضرب موعد مع ريبنتروب ليبلغه "ان پولندا وافقت على الإقتراحات البريطانية" وعندما سأله كينارد ماذا سيكون موقف ليپسكي ان قدم له (ريبنتروب) المقترحات الألمانية؟ أجابه الوزير أن سفيره في برلين غير مخول في قبولها "فالتجارب السابقة تحمل على الاعتقاد أنها قد تكون مرفقةً بإنذارٍ ما" وقال (بيك) إن المهم هو إعادة ربط الصلة "وبعدها يشرع بالبحث في الأسس التي ستقوم عليها المفاوضات واين ستبدأ ومع من؟" ولم تكن وجهة نظر وزير الخارجية على ضوء "التجارب الماضية" غير معقولة أو لا محل لها وهو المعروف بموالاته للنازيين. وابرق كينارد الى لندن أن (بيك) قال ايضاً "إنه لن يذهب بالطبع الى برلين إن طلب منه ذلك، لأنه لايرغب أن يعامل معاملة الدكتور هاشا"[٨١].

والذي حدث فعلاً أن (بيك) لم يرسل الى ليپسكي هذه التعليمات بالضبط. فبدلاً من قوله "پولندا وافقت" على الإقتراحات البريطانية، أبلغ (ليپسكي) أن ينقل للألمان أن پولندا ""تميل للأخذ" بالمقترحات البريطانية وستبعث بجواب رسمي "خلال الساعات القلائل التالية على اكثر تقدير".

وكان في تعليمات (بيك) للسفير اكثر من هذا، وقد وصلت الى علم الألمان لأنهم وُفّقوا الى حل الجفرة البولندية.

لسبب معقول بسيط سيكشف عنه بعد قليل، لم يكن الألمان متلهفين إلى إستقبال السفير البولندي في برلين فقد فات الوقت!، في الساعة الواحدة بعد الظهر (عقب وصول تعليمات السفير من پولندا بدقائق) طلب ليپسكي مقابلة مع ريبنتروب لغرض تقديم رسالة من حكومته وانتظر ساعتين وبعدها إتصل به ڤايسيكر تلفونيا وسأله نيابةً عن وزير الخارجية هل سيأتي بوصفه مبعوثاً مطلق الصلاحية "أو بصفة أخرى؟"

ذكر ليپسكي في تقريره الأخير فيما بعد[٨٢]: "فأجبته اني طلبت مقابلة" بوصفي سفيراً لأقدم تصريحاً صادراً من حكومتي".

ومرت فترة انتظار طويلة أخرى. وفي الساعة ٥ عصراً زار (أتوليكو) الوزير ريبنتروب وأعلمه "برغبة الدوتشي الملحة" في أن يسمح (الزعيم) بمقابلة ليپسكي لينشيء على الأقل الحد الأدنى من

٨٠ – المرجع السالف ص ١٤٧.

٨١ – نص الرد البولندي الموجه الى بريطانيا في ٣١ آب. المرجع السالف ١٤٨-١٤٩ تقرير كينارد المؤرخ ٣١ آب (لم يصل لندن حتى الساعة ٧,١٥ مساء) المرجع نفسه ١٤٨.

٨٢– تجد تقرير (ليپسكي) الأخير في الكتاب البولندي الابيض، طبعت مقتبسات منه في [مؤامرة النازيين وعدوانهم: ج٨ الص ٤٩٩– ٥١٢]

الصلة الضرورية "اجتناباً لقطع العلاقة النهائي" فوعد الوزير الألماني "بنقل" رغبات الدوتشي الى (الزعيم)[٨٣].

ولم تكن هذه اولى زورات السفير الإيطالي لڤلهلمشتراسه في هذا اليوم الأخير من شهر آب في محاولة منه لإنقاذ السلم. في الساعة التاسعة صباحاً أبلغ أتوليكو روما أن الموقف "ميئوس" منه. وان لم "يظهر شيء الى الوجود فستدور رحى الحرب خلال بضع ساعات" وفي روما وضع تشيانو وموسوليني رأسيهما معاً ليجدا شيئاً جديداً. وكانت النتيجة الأولى أن اتصل تشيانو بهاليفاكس ليقول له أن موسوليني لايمكنه التدخل إلا إذا كان قادراً على تقديم "هدية سمينة اي الدانزگ" ولم يتحمس الوزير البريطاني للفكرة وابلغ تشيانو إن أول ما يجب عمله هو ايجاد صلة مباشرة بين الألمان والپولنديين عن طريق (ليپسكي).

و بناء على ذلك زار أتوليكو (ڤايسيكر) في وزارة الخارجية في الساعة ١١,٣٠ صباحاً وانهى اليه إتصال موسوليني بلندن وإقتراحه عليهم إعادة الدانزگ كخطوة اولية لحسم النزاع الألماني الپولندي وان الدوتشي بحاجة الى "وقتٍ معين" لإحكام خطته لأجل السلم. وفي الوقت نفسه ألا يمكن الحكومة الألمانية إستقبال (ليپسكي)؟

استقبل ريبنتروب (ليپسكي) في االساعة ٦,١٥ عصراً، بعد مرور اكثر من خمس ساعات على طلب المقابلة ولم تدم طويلاً، تصرف السفير الپولندي رغم ارهاقه وتوتره العصبي بحكمة ووقارٍ، فتلا على وزير الخارجية النازي المذكرة الخطية: "أبلغت الحكومة الپولندية ليلة أمس، من طرف الحكومة البريطانية بوجوب تبادل وجهات نظر مع حكومة الرايخ حول امكان المفاوضات المباشرة بين الحكومتين الپولندية والألمانية. إن الحكومة الپولندية تميل إلى الأخذ بالمقترح البريطاني، وستجيب اجابة خطية رسمية على الموضوع خلال الساعات القلائل التالية".

وروى (ليپسكي) بعدئذ "واضفت قائلاً إني حاولت تقديم هذا التصريح منذ الساعة الواحدة ظهراً" وعندما سأله ريبنتروب هل جاء بوصفه مبعوثاً مخولاً بالمفاوضات، اجابه السفير أنه "في الوقت الحاضر لم يخول إلا بتقديم المذكرة التي تلاها على مسامعه الآن. قال هذا وسلمها لوزير الخارجية. قال له ريبنتروب انه كان يتوقع قدوم (ليپسكي) بوصفه مندوباً مفوضاً مطلق الصلاحية وعندما كرر السفير أنه ليس مخولاً بهذا الدور، صرفه وزير الخارجية بقوله أنه سيُعلم الزعيم[٨٤]. روى ليپسكي بعدئذ: "عند عودتي، وجدت نفسي عاجزاً عن الإتصال بوارشو لأن الألمان قطعوا تلفوني".

كان سؤال ڤايسيكر وريبنتروب عن صفة السفير وهل هو مفاوض سؤالاً شكلياً بحتاً، ولتثبيت ذلك في المحاضر الرسمية لا غير. لأن الألمان كانوا يعلمون منذ منتصف النهار بأنه لن يأتي اليهم بوصفه

٨٣ – وثائق سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ ص ٤٦٢.

٨٤ – رواية ليپسكي في تقريره الأخير (المصدر السابق). رواية الدكتور شميدت بنصها الألماني عن المقابلة [وثائق عن السياسة الألمانيا الخارجية ج ٧ ص ٤٦٣].

مندوباً مطلق الصلاحية كما ارادوا. عرفوا ذلك منذ تسلم (ليپسكي) المذكرة برقياً في الحال. وارسلت نسخة منها الى گورنگ الذي أطلع (داليروس) عليها وطلب منه أن يأخذها حالاً الى هندرسن حتى "تتبين الحكومة البريطانية بأسرع مايمكن كم كان سلوك الپولنديين يتسم بالمراوغة" هذا ما أفاد به گورنگ أثناء محاكمته في نورمبرگ. وزاد فقرأ على المحكمة نص التعليمات السرية التي ارسلت الى السفير. ومجملها أن السفير يجب ان يرفض الشروع بمفاوضات رسمية "مهما كانت الظروف" وان يصر على انه لايملك قط "صلاحية موفدٍ مفاوض" وانما خول بتقديم مذكرة حكومته الرسمية فقط. واستند الفيلدمارشال على هذا استناداً كلياً في مجهوده العقيم لإقناع قضاة نورمبرگ أن پولندا "قوضت" عروض هتلر الأخيرة للسلام، وانه هو شخصياً لم يرد الحرب وقد فعل كل شيء في طاقته لمنعها. لكن ادعاء گورنگ ومدى صحته لم يكن إلا ظلاً خفيفاً لإدعاء ريبنتروب. وكمثال على ذلك، هو تأكيده للمحكمة ثانيةً إن هتلر لم يقرر "الغزو في اليوم التالي" إلا بعد زيارة (ليپسكي) لڤلهلمشتراسه في الساعة ٦,١٥ من عصر الحادي والثلاثين من آب.

و الحقيقة هي بعكس ذلك تماماً. والواقع هو أن كل الحركات المستعجلة التي قام بها الدبلوماسيون المرهقون في (الساعة الحادية عشرة) باشراف من رجال أضناهم العمل في عصر ومساء وليل آخر يوم من شهر آب ١٩٣٩، لم تكن إلا شيئاً أشبه بطحن الهواء وقبض الريح وعبثاً باطلاً وصرخاتٍ في وادٍ. أما عند الألمان فهي مقصودةٌ تستهدف الخداع والتغطية.

ففي الساعة ١٢,٣٠ من ظهر (٣١ آب) وقبل إلحاح هاليفاكس على الپولنديين أن يتحلّوا باللين والمرونة، بل وقبل مقابلة ليپسكي الوزير ريبنتروب وقبل أن ينشر الألمان على الملأ مقترحاتهم "الكريمة" لپولندا بل وقبل محاولة موسوليني التدخل، كان هتلر قد اتخذ قراره الأخير واصدر أمره البات الذي قدر له أن يقذف كوكبنا هذا إلى اتون افظع حربٍ دموية.

من القائد الأعلى للقوات المسلحة

سري للغاية

برلين: ٣١ آب ١٩٣٩

الأمر التوجيهي رقم (١) لإدارة الحرب

١: الآن وبعد أن [استنفدت] كُل [الإحتمالات السياسية] لاصلاح الموقف في الحدود الشرقية الذي لاتتحمله ألمانيا – واحبطت الوسائل السلمية. فقد إعتزمت [الحَل بالقوة][٨٥].

٢: إن [الهجوم على پولندا] يجب ان يتم طبقاً للإستعدادات التي اتخذت (للقضية البيضاء) مع التغييرات التي قد تنجم بصورة طارئة بقدر مايتعلق الأمر بالجيش، وإن كان قد اكمل تقريباً كل تدابيره في الوقت نفسه.

توزيع الواجبات واهداف العمليات. يبقى على حاله.

٨٥ – الكلمات والعبارات المحصورة بالاقواس وردت في الاصل بالاحرف المائلة دليل الإهتمام بها.

تاريخ الهجوم: اليوم الأول من أيلول **١٩٣٩**.
ساعة الهجوم: الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين فجراً (كتب التاريخ بالمداد الأحمر).
هذا التاريخ والتوقيت ينطبق أيضاً على العمليات في "گدينيا" وخليج الدانزگ وجسر ديرتشاو Dirschau

٣- في [الغرب] من المهم أن تقع كل مسؤولية بدء الأعمال العدوانية على عاتق إنكلترا وفرنسا. في الوقت الحاضر كل الإشتباكات الصغيرة التي تقع على الحدود يجب أن تقابل بعمل موضعي بحت. إن حياد كل من بلجيكا وهولندا ولكسمبرگ وسويسرا الذي ضمناه يجب المحافظة عليه بصورة دقيقة.
[في البر] لاتعبر الحدود الألمانية الغربية إلا بموافقتي الصريحة.
[في البحر] يطبق الأمر السابق على العمل والأعمال شبه الحربية التي يمكن إعتبارها كذلك(٨٦).

٤- [اذا بدأت بريطانيا وفرنسا بالأعمال العدائية] ضد ألمانيا فمن واجب تشكيلات (الفيرماخت) العاملة في الغرب ان تحافظ على قواتها بأقصى مايمكنها وبذلك تصل إلى حالة تتحقق بها نتائج ظافرة من العمليات في پولندا. وبهذه الحدود فقط يعمد الى إلحاق الضرر بقوات العدو واقتصادهم العسكري ومواردهم بأقصى مايمكن. وأنا احتفظ لنفسي، مهما كانت الظروف باصدار الأوامر للشروع بالهجوم. * يبقى الجيش صامداً في الجدار الغربي ويتخذ الأهبة لئلا يجري تطويقه من الشمال في حالة خرق حياد الأراضي البلجيكية والهولندية، بهجوم الدول الغربية. * يقوم الأسطول بشن الحرب على السفن التجارية المتجهة إلى إنكلترا بصورة خاصة... ومهمة القوة الجوية بالدرجة الأولى هي ان تمنع القوة الجوية البريطانية والفرنسية من مهاجمة الجيش الألماني والمجال الحيوي الألماني (ليبنزراوم). * في ادارة دفة الحرب ضد إنگلترا. يجب اتخاذ الأهبة لإستخدام اللوفتوافه في تدمير التموين البريطاني من البحر ومصانع السلاح ومواصلات النقل العسكرية في فرنسا. لاتضيع اية فرصة لهجوم فعال على تجمع من الوحدات البحرية البريطانية وبخاصة ضد البوارج وحاملات الطائرات وانا احتفظ لنفسي بأوامر الهجوم على لندن.
تتخذ الأهبة للهجوم على الجزر البريطانية نفسها. مع الحرص على اجتناب اي نجاح جزئي بقوات غير كافية مهما كانت الظروف.

أدولف هتلر(٨٧)

٨٦ - ان الحاشية التي وردت في أصل الأمر التوجيهي توضح الغموض في هذه النقطة وهذه هي "وعليه فإن قوات الأطلنطي ستبقى في الوقت الحاضر في حالة الترقب والإنتظار."
٨٧- النص الألماني لأمر هتلر في (محاكمات مجرمي الحرب الكبار: ج٣٤ الص ٤٥٦- ٤٥٩. وثائق نورمبرگ – C١٢٦) ترجمة إنگليزية في (مؤامرة النازيين وعدوانهم الص ٩٣٥- ٩٣٩، ج٦ و[وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية ج٧ الص ٤٧٧ – ٤٧٩].

بعد ظهر يوم ٣١ آب بقليل، كان هتلر قد فرغ من اصدار امره بالهجوم على پولندا في فجر يوم الغد، رسمياً وخطياً وهو كما يشير أمره التوجيهي الأول مازال غير متأكدٍ ماذا سيكون موقف فرنسا وإنكلترا. سيمتنع عن مهاجمتهما ولن يكون البادىء، وإن قامتا بعمل حربي فسيقابله. وربما قام البريطانيون بايفاء عهودهم لپولندا وشنوا حرباً "زائفة" غير جدية، كما ذكر الجنرال هالدر في يوميته المؤرخة ٢٨ آب، وإن فعلا ذلك، فلن "تضيع" عند الزعيم وسيفهمها.

ولعل الدكتاتور النازي اصدر أمره الحاسم قبل الساعة ١٢,٣٠ ظهراً بقليل وقبل يوم من هذا وفي الساعة ٦,٤٠ مساءً خط الجنرال هالدر في يومياته رسالة من المقدم (كرت سيڤرت Curt Siewert) مرافق (الجنرال ڤون براواختش): "اتخذ كل التدابير بحيث يمكن البدء في الساعة ٤,٣٠ من فجر يوم ١ أيلول. واذا تطلبت المفاوضات في لندن تأجيلاً، فليكن في ٢ أيلول، وفي هذه الحالة ستخطر في الساعة ٣ من مساء الغد... (الزعيم): إما الأول من أيلول وإما الثاني، كل شيء سينطلق بعد الثاني من أيلول. بسبب امطار الخريف، يجب ان يشرع في الهجوم حالاً أو يلغى نهائياً. وفي ساعات الصباح الأولى من ٣١ آب وفيم ظل هتلر يدعي انه ينتظر المبعوث الپولندي، تسلم الجيش الألماني أوامره. وفي الساعة ٦,٣٠ صباحاً دون هالدر: "نبأ من مستشارية الرايخ":

"إن الأمر بالوثوب قد عين يوم (١) أيلول". وفي الساعة ١١,٣٠ "الجنرال شتولبناگل Stuelpnagel يبلغ بتحديد ساعة الهجوم [٤,٤٥ صباحاً]. يقال ان التدخل الغربي لامناص منه. رغم ذلك قرر (الزعيم) الهجوم" وبعد ذلك بساعة نشر الأمر الأول رسمياً. أذكر أن برلين كانت تعيش ذلك اليوم في جو مكفهر صامت، وكان كل أمرءٍ يروح ويجيء كالمصروع أو المأخوذ. في الساعة ٧,٢٥ صباحاً اتصل (ڤايسيكر) تلفونياً باولريخ ڤون هاسل (أحد المؤتمرين) وطلب منه الإسراع بالقدوم. لم يجد وكيل وزارة الخارجية غير أمل أخير واحدٍ: إن يقوم هندرسن بإقناع (ليپسكي) وحكومته بإرسال مبعوث مفوض پولندي حالاً. أو على الأقل إعلان العزم عن إرسال مبعوث. هل يستطيع المتقاعد (هاسل) أن يلتقي بصديقه (هندرسن) حالاً، وكذلك يزور گورنگ لهذه الغاية؟ ففعل (هاسل)، قابل هندرسن مرتين وگورنگ مرة واحدة إلا أن الدبلوماسي القديم والخصم اللدود للنازي الآن، لم يكن فيما يبدو يدرك ان الأحداث جردت هذه المجهودات التافهة من اي نفع ولم يتفهم أبعاد تشوشه وحيرته، وحيرة كل من (ڤايسيكر) وسائر الألمان الطيبين الذين ارادوا السلم - بالشروط الألمانية. فقد اتضح لهم في ٣١ آب ان الحرب واقعة لامحالة ان لم يتراجع هتلر أو الپولنديون. وانه لايلوح أقلّ إحتمال في تنازل أحدهما للآخر. ومع هذا فقد اوضحت يومية هاسل في هذا التاريخ أن الرجل كان يتوقع تراجع الپولنديين، وسلوكهم السبيل المهلكة التي سبقهم اليها النمساويون والچيك.

لما حاول (هندرسن) أن يثبت لهاسل أن "العقبة الكبرى" هي اساليب الألمان في محاولة إملاء رغباتهم على الپولنديين والتحكم بهم "كأنهم أطفال صغار حمقى"، رد عليه (هاسل) "إن صمت الپولنديين المتواصل مما يؤاخذ عليه أيضاً" واستطرد يقول "كل شيء يتوقف الآن على اظهار ليپسكي

نفسه لا لإلقاء اسئلة بل ليعلن عن رغبته في التفاوض" حتى (هاسل) نفسه يرى ألا يفترض في البولنديين إلقاء اسئلة، ها هم الآن مهددون بهجوم وشيك، بسبب تهمٍ نازية كاذبة من نسج الخيال. وعندما لخص السفير السابق "إستنتاجاته الأخيرة" حول اندلاع الحرب وأنحى باللوم على هتلر وريبنتروب لتعمدهما المغامرة بحربٍ ضد الدول الغربية "لم يبخل بصب قدر كبير من المسؤولية على رؤوس البولنديين، بل حتى على الفرنسيين والإنكليز. فكتب يقول "والبولنديون من جهتهم بغرورهم البولندي ونزقهم السلافي، وثقتهم بالعون الفرنسي-الإنكليزي، أضاعوا كل ماتبقّى من فرص لاجتناب الحرب" (لايسع المرء إلا ان يتساءل اي فرصة اضاعوا غير فرصة الإستسلام لمطاليب هتلر الكاملة). واستطرد هاسل "لقد خرجت الحكومة البريطانية من حلبة السباق في آخر الأيام وتبنت موقف (بأسُهم بينهم والى سقر!) وسارت فرنسا على النهج نفسه لكن بشيء من التردد كثير حاول موسوليني كل ما في وسعه لإجتناب الحرب"[٨٨]. شخص مثقف واسع الاطلاع كثير التجارب مثل هاسل ان كان تفكيره يبلغ هذه الدرجة من الضحولة وضيق الأفق فلاعجب أن سهل على هتلر خداع جماهير الشعب الألماني.

ثم كان فاصل غريب، إستغرق ساعات يوم السلم الأخير. على ضوء ماعلم الآن عن قرارات هذا اليوم، المفترض أن يكون بالنسبة الى القائد العام للسلاح الجوي الألماني يوماً مرهقاً حافلاً بالمهام الثقيلة التي تحتها عمليات جوية بعيدة المدى في اجواء پولندا فجر اليوم التالي إلاّ أنّ الأمر كان مختلفاً فقد دعاه داليروس الى الغداء في فندق إسپلاندا Esplanda وتحفه بأطايب الآكال ومعتق الخمر. وكان الكونياك في غاية النفاسة حتى أن گورنگ أصر على أخذ قنينتين منه عند إنصرافه، وبعد أن بلغ الفليدمارشال درجة الإنشراح وطيب النفس المناسبة اقترح (داليروس) دعوة (هندرسن) لحديث ففعل گورنگ بعد الاستئذان من هتلر، ودعاه هو (وفوربس) الى عصرونية شاي في منزله في الساعة الخامسة مساءً ويقول داليروس (لم يذكر هندرسن حضوره الدعوة لا في كتابه ولا في تقريره الأخير) انه إقترح قيام گورنگ ممثلاً عن ألمانيا بمقابلة موفدٍ پولندي في هولندا، ووعد هندرسن بتقديم الإقتراح الأخير: وذكر عن الزيارة ان گورنگ "تكلم زهاء ساعتين حول إعتداءات البولنديين ورغبة هر هتلر وإهتمامه بالصداقة البريطانية. وكان حديثاً لايؤدي الى غاية... وانطباعي العام أنه يتضمن محاولة أخيرة يائسة من جانبه لفصل بريطانيا عن البولنديين... وازددت عنفاً في حديثي منطلقاً من زاوية معرفتي انه في وضع يستطيع معه أن يخصص لي هذا الكثير من وقته في مثل هذا الموقف... إنه ما كان بقادر على تبديد وقت في هذه اللحظة بتبادل الحديث لو لم يقصد إفهامي بأن كل شيء قد تم إعداده للعمل الى أصغر التفاصيل".

واطرف الروايات الثلاث لحفلة الشاي تلك، سردها (فوربس) اجابة على سؤال موجه من محامي گورنگ في نورمبرگ. قال: "كان الجو سلبياً، لايلوح فيه بارقة أمل بل يخيم عليه القنوط، وإن ساده

٨٨ - هاسل: المرجع السالف ٦٨- ٧٣.

شعور الصداقة... وكان تصريح گورنگ للسفير البريطاني: لو بقي البولنديون معاندين ولم يخضعوا فسوف تسحقهم ألمانيا كما تسحق القملة. وإن قررت بريطانيا إعلان الحرب فسيأسف لذلك أسفاً عظيماً، وسيكون ذلك قلة فطنةٍ وطيشاً كبيراً من جانب بريطانيا[٨٩]. ويذكر هندرسن في تقريره الذي كتبه في ساعة متأخرة من تلك الليلة وارسله إلى لندن "لا فائدة قط في أن أقدم اي مقترحات أخرى. مادامت الأحداث قد سبقتها وان السبيل الوحيدة الباقية لنا هو إظهار عزماتنا الصلبة في مجابهة القوة بالقوة"[٩٠].

يبدو أن انقشاع الغمامة عن أبصار السر نڤيل هندرسن كان كاملاً. فرغم جهوده المرهقة طوال السنوات الماضية لتهدئة الدكتاتور النازي النهم الذي لايشبع، أقرّ أن بعثته في ألمانيا (كما دعاها) قد اخفقت. ففي آخر ساعات اليوم الأخير من شهر آب حاول هذا الإنگليزي الضحل الفكر المجامل الذي كانت دبلوماسيته الشخصية تمتاز بالعمى التام، حاول أن يواجه الانهيار الفظيع الذي أصاب آماله الخلابة ومشاريعه الفاشلة. ومع أن القدر إدخر له معاناة خيبة نموذجية لاتصدق، في اليوم التالي وهو أول أيام الحرب، فقد بدأت الحقيقة الأزلية تبزغ له: ألا وهي هناك اوقات وظروف يجب أن تقابل القوة بالقوة... كما قال[٩١].

عندما خيم ليل ٣١ آب ١٩٣٩ على أوروبا. وشرع مليون ونصف مليون جندي ألماني بالحركة الى الأمام لإحتلال مواقعهم الأخيرة على الحدود البولندية والوثوب عند الفجر، لم يبق لهتلر من عملٍ غير أن يقترف جريمة نصب دعائية، ليهيء الشعب الألماني لصدمة حربٍ عدوانية.

كان الشعب الألماني في حاجةٍ إلى واحدة من الحيل التي بات هتلر حاذقاً في حبكها بمساعدة گوبلز وهملر. كنت اتنقل في شوارع برلين أتحدث مع الناس العاديين فكتبت في مفكرتي صبيحة ذلك اليوم

٨٩ - شهادة داليروس في نورمبورگ (محاكمات مجرمي الحرب الكبار، ج٩، الص ٤٧٠- ٤٧١) إجابة فوربس على سؤال محامي دفاع گورنگ إقتبسه ناميييه (تمهيد دبلوماسي: الص ٣٧٦-٣٧٧). رواية هندرسن: في تقريره الأخير ص١٩.

٩٠- ربما كتبه في تلك الليلة إلا انه لم يدفع به الى لندن حتى الساعة ٣,٤٥ عصر اليوم التالي بعد إثنتي عشرة ساعة تقريباً من بدء الهجوم الألماني على پولندا وقد بعث به بعد عدد من البرقيات أمليت مثله بالتلفون. فكان وصول الجميع في آن واحدٍ. وكانت البرقيات تتحدث عن نشوب الحرب. وقد جاء فيه "عدم الثقة المتبادل بين الألمان والپولنديين. بلغ حده الأقصى، حتى اصبحت لاأشعر بامكاني الإنصياع [هكذا] لتقبل اي مقترحات أخرى بصورة مفيدة من هنا حيث انها ستتأخر عن الأحداث. أو لاتؤدي الى شيء كنتيجة للاساليب التي تلت أو لاعتبارات تتعلق بالشرف والمكانة. "الأمل الأخير هو في العزم الذي لاينثلم بمقابلتنا القوة بالقوة" (و.س.ب.خ) ج٧، ص٤٨٣. حديث هندرسن في تقريره هذا الأخير (ص١٩) وفي كتابه المرجع السالف الص ٢٩١-٢٩٢.

٩١- لما كان الاصدقاء الذين قرأوا هذا الجزء من كتابي، وابدوا شكاً في موضوعية الكاتب بحكمه على هندرسن. فمن الخير أن اثبت هنا رأياً آخر في السفير البريطاني في برلين. لقد وصفه المؤرخ البريطاني السر ل.ب. ناميير Sir L. B. Namier بمايلي: "معجب بنفسه مغرور معتز بفكرته متمسك بآرائه الشخصية تمسكاً مشوباً بالجمود والعناد يصب البرقيات والتقارير والرسائل صبا باعدادٍ لاتصدق وباسهاب واطناب مابعده زيادة لمستزيد ويكرر مائة مرة وجهة نظره وآراءه الفجة الخطلة نفسها. بليد الى الحدِّ الذي يجعله مصدر خطر. وليس غبياً الى الحد الذي يجعله غير مؤذ (لقد برهن على أنه رجلٌ منحوسan homne nefaste). ناميير في عصر النازي ص١٦٢.

"الكل ضد الحرب. الناس يصرحون بآرائهم هذه علانية. كيف يمكن لبلاد الدخول في حرب كبرى ومواطنوها يكرهون ذلك كرهاً مميتاً؟" رغم كل تجاربي في الرايخ الثالث سألت هذا السؤال الساذج! وهتلر يعرف الجواب معرفة جيدة. ألم يَعِدْ جنرالاته قبل أسبوع في مقره الباڤاري على قمة الجبل بأنه "سيؤمن الأسباب الإعلامية، لإثارة الحرب" ونبههم إلى "أن لايهتموا بقوة حجج تلك الأسباب أو ضعفها" وقال لهم "أن المنتصر لن يُسأل فيما بعد هل تكلم حقاً أو باطلاً في مباشرة حربٍ أو اثارتها، ليس المهم الصواب والحق، بل النصر".

في التاسعة مساءً. سمع الكل مقترحات الزعيم الپولندية السلمية تذاع من كل محطات الراديو الألمانية فبدت معتدلة جداً لهذا المراسل المخدوع [يقصد نفسه] وكانت الحقيقة أن هتلر لم يقدمها للپولنديين. ولم يقدمها للبريطانيين إلا بشكلٍ ملتو غامضٍ غير رسمي، ثم طرحها جانباً بعد اقل من أربع وعشرين ساعة على إذاعتها. واظهر المستشار بمساعدة گوبلز بأنه لم يفقد شيئاً من براعته في الخداع والمراوغة بتصريحه المطول الذي شرح فيه للشعب الألماني كيف ان حكومته استنفذت كل الوسائل الدبلوماسية للمحافظة على السلم. قال البيان: بعد أن عرضت الحكومة البريطانية في ٢٨ آب وساطتها بين ألمانيا وپولندا، أجابت الحكومة الألمانية في اليوم التالي بما يلي:

"رغم أنها ترتاب في وجود رغبة للحكومة الپولندية للتوصل الى تفاهم فقد ابدت إستعدادها لقبول الوساطة البريطانية أو المقترحات التي ترتأيها حفظاً للسلم... وقد إعتبرت العمل بسرعة ضرورياً جداً... إن كان المراد اجتناب الكارثة. واعلنت الحكومة [الألمانية] إستعدادها لإستقبال شخصية تعينها الحكومة الپولندية حتى موعد أقصاه ٣٠ آب مزودٍ بتخويل ينص على تمتعه لا بصلاحيات المباحثات وحدها، بل للسير في المفاوضات وعقد إتفاق. وبدلاً من تسلم الحكومة الألمانية تصريحاً حول وصول شخصية مخولة. كان الجواب الذي وصلها مقابل إستعدادها للتفاهم، أنباء عن التعبئة في پولندا... لاينتظر من حكومة الرايخ أن تظل مبدية إستعدادها لفتح باب المفاوضات الى ما شاء الله، بل وان تكون فعلاً مستعدة لذلك. بينما لاتجد من الجانب الپولندي غير التسويف والمماطلة بتعاليل جوفاء وتصريحات لا معنى لها.

ولقد اتضح ذلك مرة أخرى بنتيجة (التنبيه) الذي قام به السفير الپولندي في هذه الآونة، فهو نفسه لم يكن يملك تخويلاً او تفويضاً لا بالدخول في اي مباحثات ولا بالتفاوض.

وهكذا بقي الزعيم والحكومة الألمانية في إنتظار مفاوض پولنديّ يومين كاملين دون جدوى.

في هذه الظروف، تجد الحكومة الألمانية أن مقترحاتها في هذه المرة أيضاً... قد رُفضت، إنها تعتبر هذه المقترحات بالشكل الذي أوضحت للحكومة البريطانية أيضاً - أكثر من مخلصة وعادلة وعملية.

تعلم هتلر وگوبلز بالتجربة أن الدعاية الحسنة، تحتاج الى اكثر من الكلمات لتكون ذات تأثير في النفس. انها تحتاج أيضاً الى وقائع مهما بالغ اصحابها في اختراعها. فبعد أن اقنعا الشعب الألماني بأن الپولنديين رفضوا عروض هتلر السلمية (وهذا ما لايتردد المؤلف في الشهادة به من تجربته الشخصية)

بقي عليهما تدبير واقعة تزودهما بـ"الدليل" على أن البولنديين لا الألمان هم الذين هاجموا اولاً.

ويذكر القاريء أن الألمان قد استعدوا لهذا العمل المشبوه إستعداداً دقيقاً باشراف من هتلر نفسه.

كان ألفريد ناويوكس رجل الحرس الأسود المثقف الشقي ينتظر منذ ستة أيام في (گلايڤيتز) القريبة من الحدود البولندية للقيام بالغارة البولندية المزيفة على محطة الراديو فيها. لقد جرى تعديل في الخطة وانيط برجال من الحرس الأسود يرتدون الزي العسكري البولندي واجب الإغارة عليها وإطلاق النار، وان يترك في الميدان بعض نزلاء معسكرات الإعتقال المحقونين بالسم موتى "كاصابات" في المعركة الخيالية، وهذا الجزء الممتع الأخير من العملية أعطي كما رأينا المصطلح الرمزي المعبر "المعلبات" ورسم أن تقوم عدة هجمات پولندية مزيفة في أنحاء أخرى. إلا ان الهجوم الرئيس كان سيتم على محطة الراديو في (گلايڤيتز).

[ذكر ناويوكس في افادته المؤيدة بالقسم في نورمبرگ] في ظهر يوم ٣١ آب قال: وصلتني من (هيدريخ) كلمة السر للبدء بالهجوم الذي تقرر توقيته بالساعة الثامنة من مساء اليوم نفسه. قال هيدريخ "بالنظر للشروع بالهجوم، أطلبْ من (موللر) "البضاعة المعلبة" فصدعتُ بما أمرت واعلمت (موللر) بوجوب جلب الشخص الى محل قريب من محطة الإذاعة. تسلمت الشخص وامرت بإلقائه في مدخل المحطة. وكان حياً إلا أنه فاقد الوعي تماماً وحاولت فتح عينيه ولم استطع التأكد من بقية حياة فيه من عينيه أو من أنفاسه. ولم أرَ جراح الرصاص لكن دماً كثيراً لطخ وجهه. وكان بثياب مدنية.

احتللنا دار الإذاعة حسب الأوامر وأذعنا كلمة امتدت ثلاث أو أربع دقائق من محوِّل خارجي(٩٢). واطلقنا عدة طلقات مسدسات وتركنا الموضع(٩٣).

كانت برلين في مساء هذا اليوم منقطعة عن العالم الخارجي تقريباً. الا ما صدر عنها من اخبار المراسلين الصحفية والإذاعات التي نقلت بيان عروض الزعيم لپولندا. وحاولتُ الإتصال تلفونياً بوارشو ولندن وپاريس فقيل لي ان الخطوط مقطوعة عنها. أما برلين نفسها فبدت عادية المظهر ولم يجرِ فيها عملية إخلاء النساء والأطفال كما كان يجري في لندن وپاريس ولم تعبأ اكياس الرمل أو تحشى نوافد البيوت بالأثاث كما تواترت به الأنباء عن العواصم الأخرى. شارفت الساعة الرابعة صباحاً عندما عدت من دار الإذاعة الى فندق آدلون بالسيارة ولم أجد في طريقي وسائط نقل وكان

٩٢- املى هيدريخ الخطبة بالپولندية على (ناويوكس) وتتضمن شتائم مهيجة للألمان وألمانيا وتصرح ان الپولنديين يباشرون الآن الإغارة.

٩٣- استخدم هتلر "غارة الپولنديين" على گلايڤيتز في خطبة أمام الرايخشتاغ في اليوم التالي كدليل. واتخذها ريبنتروب مبرراً لعدوان النازي وجرى على نهجه (ڤايسيكر) وآخرون من مسؤولي وزارة الخارجية في دعاياتهم وقد نشرت خبرها واخبار عدد من مثيلاتها جريدة نيويورك تايمس في طبعات ١ أيلول ويقتضي السياق ايراد الشهادة التي ادلى بها الجنرال لاهوزن Lahousen التابع لقسم الإستخبارات. فقد اوضحت ان كل رجال الحرس الأسود الذين قاموا بالهجوم المفتعل وكانوا متنكرين بالزي العسكري الپولندي "تمت تصفيتهم وغابت آثارهم تماماً" (مراجع الحاشية: محاكمات مجرمي الحرب الكبار) مراجع المتن: (إفادة ناويوكس المصدر السابق).

الظلام يخيم عن المنازل والناس يغطون في سباتهم ويخيل لي انهم آووا الى مضاجعهم وهم يمنون النفس بالخير والسلم.

في ذلك اليوم كان هتلر في أصفى حالاته النفسية وفي الساعة السادسة من مساء اليوم دون الجنرال هالدر في في يوميته "الزعيم هادىء النفس... نام نوماً جيداً. رفضه إجراء عملية الاخلاء [في الغرب] دليل على انه لايتوقع من فرنسا وإنكلترا القيام بأي عمل حربي[٩٤].

اما الاميرال كاناريس رئيس قسم الإستخبارات العسكرية (ق.ع.ق.م) وأحد زعماء المتآمرين على النازية، فقد كانت حالته النفسية مختلفة. كان الدكتاتور الألماني في هذا الوقت يدفع ألمانيا الى الحرب دفعاً، وهو عملٌ كانت حلقة تآمر كاناريس قد اقسمت الأيمان على الحيلولة دونه بالقضاء على هتلر. ها هي مناسبة المؤامرة قد حلت، ولا مؤامرة هناك. لم يسبق حتى التفكير فيها.

استدعى العقيد (اوشتر)، كزيڤيوس بعد ظهر اليوم الى مقر القيادة العليا للقوات المسلحة، المركز العصبي لجبروت ألمانيا العسكري الذي كان آنذاك يغلي غلياناً ويعج بالحركة. وانتحى كاناريس بگزيڤيوس في ممر قليل النور وقال له بصوت خنقته العبرة "هذا يعني نهاية ألمانيا!"[٩٥].

٩٤- وجد هتلر فسحة من وقت فراغ في هذا اليوم ليرسل برقية الى دوق ويندسور الذي كان يعيش في جزر الأنتيب بفرنسا، وهذا نصها:

برلين في ٣١ آب ١٩٣٩

"اشكرك على برقيتك المؤرخة في ٢٧ آب. ولتكن على ثقة بأن موقفي من بريطانيا ورغبتي في تجنب حرب أخرى بين شعبينا لم تتغير. والأمر في التوصل الى علاقات طيبة مقبلة بين بريطانيا وألمانيا كما هي رغبتي، يتوقف على بريطانيا على كل حال"

توقيع: أدولف هتلر

[وثائق عن سياسة... ج ٧ ص ٤٧٢]. هذا هو اول ذكر لملك بريطانيا السابق ولن يكون الأخير في الوثائق الألمانية المستولى عليها. ظل دوق وندسور لفترة معينة من الوقت -كما سنذكر فيما بعد- يحتل جانباً كبيراً من افكار ريبنتروب وهتلر في حسابات معينة.

٩٥- گزيفيوس المرجع السالف الص٣٧٤- ٣٧٥.

الفصل التاسع

نشوب الحرب العظمى الثانية

-١-

في التاريخ الذي ضربه هتلر في أمره التوجيهي الأول (للقضية البيضاء) منذ ٣ نيسان وبانبلاج فجر اليوم الأول من أيلول ١٩٣٩ تدفقت الجيوش الألمانية عبر الحدود البولندية واطبقت على وارشو من الشمال والجنوب والغرب.

وكان هدير الطائرات الحربية الألمانية فوق الرؤوس يملأ الأجواء، وهي منطلقة الى أهدافها: وراحت تقصف أرتال العساكر البولندية وكدس العتاد، والجسور، والسكك الحديد، والمدن المفتوحة. في دقائق معدودات طفقت تذيق البولنديين جنوداً ومدنيين. أول طعم لموت الفجاءة والدمار المتحدر من السماء تعانيه البشرية وبأوسع نطاق جرى على ظهر هذا الكوكب في الماضي. وبهذا اشاعت فزعاً وهولاً كان سيصبح القضاء الرهيب المألوف لمئات الملايين في أوروپا وآسيا وافريقيا، رجالاً ونساءً واطفالاً خلال السنوات الست القادمة. والذي كان شبحها (بعد مجيء القنبلة النووية) سيظل يطارد كل اذهان أبناء البشرية مهدداً بالإبادة المطلقة.

كان يوماً عبوساً، وصباحاً قائظاً بعض الشيء في برلين. بغيوم طخياء تهمين على برلين فتمنحها بعض حماية من القاصفات المعادية التي كان يخشى منها. الا انها لم تأت.

لاحظت أن البلادة والخمول كانتا تسودان حركة الناس في الشارع، رغم كثرة الأنباء التي طالعتهم من اجهزة راديواتهم ومن طبعات الصحف الصباحية الخاصة[١] ورأيت عبر الشارع وانا في فندق (آدلون) وجبة العمال الصباحية متفرغة الى عملها في بناية شركة (فاربن) الجديدة كأنما لم يحصل شيء وعندما كان باعة الصحف الصبيان يمرون بهم منادين على بضاعتهم من الطبعات الخاصة، لم يلق أحد منهم أداة عمله ليبتاع نسخة وعللت ذلك لنفسي بان الشعب الألماني ربما لم يستفق بعد من صدمة النبأ الصباحي الأول حين استيقظوا ليجدوا أنفسهم في غمار حرب كانوا واثقين أن (الزعيم) سيتجنبها. لم يصدقوا تماماً، والآن هاهي ماثلة أمامهم حقيقة واقعة.

وأي تباين؟ المرء لايسعه الا أن يقارن بين هذا التبلد الأغبر وبين الحماسة التي رافقت الألمان في

١- أذيع بيان هتلر الى الجيش معلناً فيه بدء العمليات العدوانية من الراديو الألماني في الساعة ٥,٤٠ صباحاً. وكانت طبعات الصحف الخاصة قد نزلت للشوارع بعد ذلك بقليل.

١٩١٤. كان دخولهم تلك الحرب مشوباً بحماسة ونشوة هائلة. فقد نظم الأهالي وقتذاك تظاهرات صاخبة جنونية في الشوارع ونثروا الأزهار على الجنود وهم يسيرون الى الجبهة، وهتفوا هتافاً يشق عنان السماء للقيصر ڤلهلم الثاني رب الحرب الأعلى.

في هذه المرة لم يكن ثم تظاهرات كـهـذه للعسـاكـر أو لرب الحـرب النازي الذي انطلق من دار المستشارية قبيل العاشرة صباحاً الى الرايخشتاغ يشق طرقاً خالية كئيبة ليلقي كلمته أمام الشعب حول أحداث الساعة. بعد أن قام هو متعمداً وبكل برودة دم بتفجيرها الآن حتى آلات الرايخشتاغ المتحركة، أولئك الناس الذين عينهم بنفسه وانتقى معظمهم من رجال حزبه لم يستجيبوا بحماسةٍ كبيرة حين مضى الدكتاتور قدماً في توضيح الأسباب التي أدت بألمانيا الى ان تجد نفسها في صبيحة هذا اليوم - مشتبكة بحرب. كان الهتاف أقل بكثيرٍ من السابق، وفي المناسبات التي تقل عنها اهمية أثناء ماراح الزعيم يلقي خطابه من المنبر الكثير الزخرف في دار أوپرا (كرول).

ومع قسوة وشدةٍ كانت تظهر في مواضع من خطبته، إلا أن موقف الدفاع كان يغلب عليها. وتكون عندي اعتقاد وأنا اصغي الى أقواله أنه يعاني وطأة هم غريب، وخيل لي أنه ذاهل اللب هو نفسه للمأزق الذي تورط فيه. وهو الآن يظهر شيئاً من التحرج ويبدو أن تفسيراته لتقاعس إيطاليا الحليفة عن الوفاء بإلتزاماتها العفوية في الإسراع الى معونة لم يقنع بها حتى الحاضرون الذين انتقاهم بنفسه.

"[قال] ارغب هنا أن أخص باعظم الشكر إيطاليا التي عاونتنا دائماً ابداً. ولكنكم تدركون أننا في خوض غمار هذا الكفاح لاننوي طلب المعونة من الخارج ولسوف ننهض به وحدنا".

ولما كان قد اعتمد كثيراً على الأكاذيب وهو طريقه الى الحكم وفي نهجه الى تركيز السلطان بيده، فهو لايتعفف في هذه الساعة التاريخية الخطيرة من نشر عدد آخر منها على اسماع الشعب الألماني السهل الخداع، تبريراً لعمله الشرير.

"انكم لاتجهلون المحاولات المستمرة التي بذلها للتوصل الى تفاهم وحسم سلمي لمشكلة النمسا ثم ارض السوديت وبوهيميا ومورافيا... وكانت كلها عبثاً... في محادثاتي مع ساسة پولندا... بلورت بالأخير المقترحات الألمانية... وكانت في غاية الاعتدال والإخلاص. واني لأرغب في ايضاح ذلك للعالم أجمع. كنت أنا وحدي في موقف القادر على عرض مثل هذه المقترحات لأني كنت مدركاً إدراكاً تاماً بأني سأصطدم بمعارضة ملايين في اقدامي على هذا العمل... لقد رُفضت تلك المقترحات.

"إنتظرت أنا وحكومتي يومين كاملين. لنرى هل توافق الحكومة الپولندية على إرسال مندوب مفوض ام لا؟... لكن يساء الحكم علي إن اعتبروا حبي بالسلم وطول صبري ضعفاً أو جبناً.. لايمكنني أن أجد بعد الآن اي رغبة من جانب الحكومة الپولندية في إجراء مفاوضات جدية معنا... ولذلك قررت أن أكلم پولندا باللغة التي دأبت على استعمالها ضدنا خلال الأشهر المنصرمة..."

في هذه الليلة الماضية أطلق الجيش النظامي الپولندي لأول مرة النار على حدودنا ودخلوا أراضينا.

ومنذ الساعة ٤٫٤٥ صباحاً ونحن نرد عليهم بالنار ومن هذه الساعة فصاعداً سنرد القنبرة بالقنبرة.

وهكذا استخدم مستشار ألمانيا الهجوم الألماني المفتعل على محطة (گلايڤيتر) سبباً لتبرير اعتدائه الغاشم على پولندا، ويذكر القاريء أن الغارة قام بها رجال الحرس الأسود المتنكرين بالزي العسكري البولندي تحت اشراف (ناويوكس). والواقع أن أول نشرة حربية صدرت عن القيادة العليا الألمانية وصفت عملياتها العسكرية "بالهجمات المضادة". حتى (ڤايسيكر) نفسه بذل جهداً كبيراً في ترويج هذه الخدعة الغادرة المفضوحة فقد عمم برقية في ذلك اليوم الى كل البعثات الدبلوماسية الألمانية عن وزارة الخارجية يشير عليها بالسبيل الذي تتبعه:

"صداً للهجمات البولندية، تحركت القوات الألمانية للعمل ضد پولندا فجر هذا اليوم. هذا العمل لاينعت في الوقت الحاضر بالحرب. بل مجرد إشتباكات نجمت عن الهجمات البولندية"[٢].

حتى جنود الألمان الذين كانوا في موقف يتبينون منه اي الطرفين بادأ الآخر بالهجوم من الحدود البولندية، قصفت كذبة هتلر اذهانهم قصفاً. فقد جاء في بيان طنان وجهه الزعيم الى الجيش الألماني في ١ أيلول: "رفضت الحكومة البولندية تسوية سلمية للخلافات لطالما رغبت فيها، ولجأت الى حكم السلاح... سلسلة من اعتداءات على الحدود لايمكن ان تصبر عليها دولة معظمة، دلت على ان پولندا ليست راغبة بعد في إحترام حدود الرايخ. ولأجل وضع حد لهذا الجنون، لم يكن لي بد من مجابهة القوة بالقوة من الآن فصاعداً.

في ذلك اليوم لم يتكلم هتلر بالحق إلا مرة واحدة: "[قال للرايخشتاغ] إني لاأطلب من أي فرد شيئاً اكثر مما اعددت نفسي لبذله وعمله خلال أربع سنوات... إني من هذه اللحظة والى الأخير الجندي الأول للرايخ الألماني فحسب. لقد عدت مرة أخرى فلبست تلك السترة التي هي أعز واقدس شيء عندي ولن أنزعها أبداً حتى نحرز النصر، أو سأقضي على حياتي بخلاف ذلك".

وقد صدق والحق يقال في وعده عند مجيء النهاية. ولكن لا أحد ممن قابلتهم من الألمان في برلين يومذاك، لاحظ أن ماقاله الزعيم بكل صراحة هو الشيء الذي لايستطيع مواجهته أو إحتماله، إن كانت النتيجة الهزيمة والإندحار.

وفي خطبته هذه، عين گورنگ خلفاً له إن حصل أي شيء. واضاف يقول أن (هس) سيليه في التسلسل. "فاذا حصل (لهس) شيء، فعندئذ يدعى مجلس الشيوخ بحكم القانون وينتخب من بين اعضائه الأليق -واعني بذلك الأشجع- ليكون خلفاً". اي قانون؟ اي مجلس شيوخ؟ كلاهما لا وجود لهما!

أفسح خلق هتلر المكبوت بعض الشيء في الرايخشتاغ، السبيل لهياج نفسي أقبح حال عودته. ووجده (داليروس) المتزلّف الذي دأب السير في اعقاب گورنگ - هناك في أقصى حالة "من الهياج

٢- [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية... ج٧، ص ٤٩١.

العصبي والثورة النفسية".

"[شهد الوسيط السويدي فيما بعد] قال: "كان يشك دائماً في أن بريطانيا تريد الحرب. وقال لي ايضاً أنه سيسحق پولندا ويضم كل أراضيها..."

"وزاد هياجه زيادة مطردة وبدأ يلوح بذراعيه ويصرخ في وجهي قائلاً: إن شاءت بريطانيا ان تقاتل عاماً فسأقاتل عاماً. إن ارادت إنگلترا القتال عامين فسأقاتل عامين..." وسكت ثم صاح فجأة بصوتٍ حادّ ليغدو صراخاً وذراعاه تتحركان في الهواء حركات عنيفة "إن ارادت إنگلترا الحرب ثلاثة اعوام فسأقاتل ثلاثة أعوام".

وراحت تثنيات جسمه الآن تتبع تلويحات ذراعيه، وعندما صرخ أخيراً Und wenn ederforderlich ist, will Ich zuhn Jehre kaempfen (وعند الضرورة سأقاتل عشرة اعوام)، لوح بقبضة يده وانحنى الى الأسفل حتى كاد يلمس رأسه(٣) الأرضية.

مع كل هذه الهستيريا لم يكن هتلر مقتنعاً قطّ بأنه سيحارب بريطانيا العظمى. الآن مضت ساعات الظهر وأرتال الجيش الألماني المصفحة قد قطعت اميالاً عديدة متوغلة داخل الأراضي الپولندية وهي تتقدم بسرعة ومعظم مدن پولندا وبضمنها وارشو ذاقت طعم القصف الجوي وسقطت ضحايا كثيرة. ولكن لم يصدر شيء من لندن أو پاريس يشير الى أن بريطانيا وفرنسا في عجلة من امرهما للوفاء بإلتزاماتهما لپولندا.

كان سبيل الدولتين واضحاً. إلا ان (داليروس) و(هندرسن) كانا يحاولان بذل أقصى مجهوداتها كما يبدو لإيقاع الخلل فيه.

في الساعة ١٠,٣٠ صباحاً تلفن البريطاني رسالة لهاليفاكس. "[قال فيها] علمت أن الپولنديين نسفوا جسر (درشاو) أثناء الليل(٤) والحرب ناشبة بين الپولنديين واهالي الدانزگ. فلما بلغت الأنباء هتلر أمر أن يطرد الپولنديون من خط الحدود، وأن يقوم گورنگ بتحطيم القوة الجوية الپولندية على طول الحدود.

وفي ختام الرسالة فقط نوه هندرسن بأن...

"هذه المعلومات مستقاة من گورنگ نفسه" وقد يطلب هتلر مواجهتي بعد الرايخشتاغ للقيام بآخر مجهود لإنقاذ السلم(٥)."

٣- من كتاب داليروس (المرجع السالف الص ١١٩-١٢٠) ومن شهادته في (محاكمات مجرمي الحرب الكبار، ج٩، ص٤٧١).

٤- كانت عملية الألمان للإستيلاء على جسر درشاو فوق الفستولا قبل أن ينسفه الپولنديون قد تم وضع خطتها في الصيف. وتردد ذكرها بإستمرار في أوراق (القضية البيضاء). وقد أمر بتنفيذها بشكل واضح في أمر هتلر التوجيهي رقم (١) المؤرخ ٣١ آب. وقد فشلت العملية فعلاً، بسبب ضباب الفجر الذي حال دون إسقاط المظليين الذين كلفوا بإحتلاله. وقد نجح الپولنديون في نسفه في الوقت المناسب.

٥- [و.س.ب.خ، ج٧ الص ٤٦٦-٤٦٧].

أي سلم هذا؟ أسلم لبريطانيا؟ ست ساعات مرت وألمانيا تخوض حرباً - وبكل جبروتها العسكري- ضد حليفة بريطانيا.

لم يرسل هتلر بطلب (هندرسن) بعد خطابه في الرايخشتاغ. فادركته الخيبة بعد أن تبرع بنقل أكاذيب گورنگ الى مرجعه في لندن حول مبادأة اليولنديين بالهجوم. إلا انه لم يخب أمله تماماً.

وفي الساعة ١٠,٥٠ صباحاً تلفن رسالة أخرى لهاليفاكس، يكاشفه بفكرة جديدة نبطت في ذهنه الخصب، المشوش:

"[قال] أشعر من واجبي الاعراب عن اعتقادي -مهما كانت إحتمالات النجاح ضعيفة- أن الأمل الممكن الوحيد لحفظ السلم في الوقت الحاضر، هو قيام المارشال (سميگلي ريدز) بالإعلان عن إستعداده للقدوم حالاً الى ألمانيا كعسكري ومفوض مطلق الصلاحية ولبحث المشكلة كلها مع الفيلدرماشال گورنگ[٦].

ولم يخطر ببال هذا السفير البريطاني العجيب، أن المارشال (سميگلي-ريدز) في هذا الوقت بالذات ربما كان متفرغاً لمحاولة صد الهجوم الألماني الجبار المباغت وإن استطاع أن يتخلص من ذلك العمل، ليأتي برلين "مندوباً مطلق الصلاحية" فسيكون قدومه موازياً للإستسلام تحت هذه الظروف. وقد تلحق باليولنديين الهزيمة السريعة لكنهم لن يستسلموا. وكان (داليروس) أشد نشاطاً من رفيقه هندرسن خلال اول يوم لهجوم ألمانيا على پولندا. في الساعة ٨ صباحاً كان في طريقه الى گورنگ. فإبتدره الأخير قائلاً "لقد نشبت الحرب لان اليولنديين أغاروا على محطة الراديو في گلايڤيتر ونسفوا الجسر القريب من (درشاو)" فبادر السويدي في الحال إلى تلفنة الأنباء لوزارة الخارجية في لندن.

وشهد فيما بعد عند إستجوابه في محكمة نورمبرگ: "أبلغت أحد الموجودين بأنه وصلتني معلومات تفيد أن اليولنديين قد بادأوا الألمان الهجوم. وهم بالطبع كانوا مستغربين مما حصل عندما أنبأتهم بهذه المعلومات[٧]."

وكان هذا على كل ما سيتلفنه سفير جلالته في برلين بعد ذلك بساعتين. وتسجل مذكرة سرية لوزارة الخارجية البريطانية ان نداء الوسيط السويدي وصل في الساعة ٩,٠٥ صباحاً. وقد أصر هذا على لندن - مقلداً گورنگ "بأن اليولنديين يفسدون كل شيء" وأن لديه "دلائل على أنهم لايريدون التفاوض"[٨].

وفي الساعة ١٢,٣٠ ظهراً عاد يتصل بوزارة الخارجية ثانية. وفي هذه المرة كان محدثه (كادوگان) فراح ينحي مرة أخرى باللائمة على اليولنديين بافساد مشاريع السلم بنسفهم (جسر

٦- المرجع السالف.
٧- (محاكمات مجرمي الحرب الكبار: ج٩، ص٤٣٦). ان شهادة داليروس كما طبعت هنا تحوي خطأ طبوغرافياً. يجعل كلامه يبدو وكأن اليولنديين "هم الذين هوجموا" وبهذا يغمض الأمر تماماً.
٨ - (و.س.ب.خ) ج٧ الص ٤٧٤- ٤٧٥.

درشاو) واقترح ان يطير الى لندن بصحبة (فوربس). لكن (كادوگان) الصلب غير المؤمن بسياسة المسكّنات، ضاق الآن ذرعاً بـ(داليروس) وبخاصة بعد ان اندلعت الحرب التي كان يحاول منعها، فقال للسويدي "لايمكن الآن عمل اي شيء". إلا ان (كادوگان) لم يكن إلا مجرد وكيل الوزارة الدائم، وهو موظف لايتمتع بعضوية البرلمان. ولذلك أصر داليروس ان يعرض طلبه على مجلس الوزراء نفسه مبلغاً (كادوگان) بلهجة متغطرسة بأنه سيتصل به بعد ساعة. وقد فعل ذلك ونال الجواب الذي ينشده:

"[قال كادوگان] لاتقبل أصلاً أية فكرة في التوسط، مادامت القوات الألمانية في حالة غزو پولندا. والسبيل الوحيد الذي يمكن سلوكه لتجنيب العالم كارثة حرب عالمية هو (اولاً) إيقاف الأعمال العدوانية و(ثانيا) انسحاب القوات الألمانية حالاً من الأراضي البولندية"[٩].

في الساعة العاشرة صباحاً قابل السفير البولندي (زاتجنسكي) في لندن، لورد هاليفاكس وابلغه رسمياً بنبأ العدوان الألماني وزاد يقول: "ان القضية واضحة كما نصت عليه المعاهدة". فأجاب وزير الخارجية: إنه لايشك قط في الوقائع. وفي الساعة ١٠,٥٠ صباحاً استدعى الوزير القائم بالأعمال الألماني (ثيودور كوردت) وسأله عما اذا تسلم معلومات ما. فأجاب (كوردت) ليست لديه أية معلومات عن الهجوم الألماني على پولندا. ولا تعليمات ما من حكومته وهنا صارحه هاليفاكس بأن التقارير التي وصلته "تخلق وضعاً خطيراً للغاية" وإنه لن يمضي أبعد من هذا. فقام (كوردت) بنقل المقابلة الى برلين تلفونياً في الساعة ١١,٤٥ صباحاً. إذن فهتلر كان وقت الظهر يأمل أن لاتدخل بريطانيا الحرب على كلٍ وان كانت تعتبر الموقف خطيراً. ولكن سرعان ما تلاشى امله هذا.

في الساعة ٧,١٥ مساءً حين إتصل احد أعضاء السفارة البريطانية في برلين بوزارة الخارجية تلفونياً وطلب أن يعين وزير الخارجية موعداً لمقابلة (هندرسن) و(كولوندر) "في قضية هامةٍ جداً وعاجلة باسرع وقت ممكن" وقامت السفارة الفرنسية بإجراء مماثل بعد دقائق قليلة فرفض ريبنتروب مقابلة السفيرين معاً. واستقبل (هندرسن) في التاسعة ليلاً واستقبل (كولوندر) في العاشرة. وتسلم من السفير البريطاني مذكرة رسمية للحكومة البريطانية:

"[تقول المذكرة] .. إن لم تكن الحكومة الألمانية على إستعداد لإعطاء حكومة جلالته تأكيدات مقنعة بأن الحكومة الألمانية قد أوقفت كل عملٍ عدواني ضد پولندا، وهي مستعدة فوراً لسحب قواتها من الأراضي البولندية فان حكومة جلالته ستقوم بدون تردد بالوفاء بإلتزاماتها تجاه پولندا[١٠]"

ولم تختلف المذكرة الفرنسية عن اختها الإنگليزية حتى في الصيغة وكان جواب ريبنتروب

٩- المرجع السالف: الارقام ٦٥١ و٦٥٢. الص ٤٧٩-٤٨٠.

١٠- النص هو في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية، ج٧، ص٤٩٢] وفي الكتاب البريطاني الأزرق (ص١٦٨). ملاحظات الدكتور شميدت على تعليمات ريبنتروب لهندرسن وكولوندر هي في (وثائق وزارة الخارجية الألمانية، ج٧، الص ٤٩٣ و٤٩٥.

للسفيرين بأنه سيعرض مذكرتيها على هتلر. ثم بدأ حديثاً طويلاً قال فيه انه "لايوجد مشكلة عدوان ألماني" بل مشكلة عدوان پولندي وردد الكذبة التي أصبحت الآن مفضوحة ممجوجة: وهي أن جنوداً "نظاميين" پولنديين هاجموا التربة الألمانية في اليوم السابق. مازالت الأصول الدبلوماسية الدقيقة محافظاً عليها ولم يفت السفير هندرسن ذكر هذه الظاهرة في تقريره لتلك الليلة واصفاً ريبنتروب بأنه "كان مجاملاً ومؤدباً" وفيم كان يهم بالإنصراف وقع نقاش بينهما حول هل كان وزير الخارجية يقرأ النص الألماني للمقترحات الپولندية قراءة استعجال في إجتماعهما العاصف قبل ليلتين. قال (هندرسن) إن وزير الخارجية كان مستعجلاً. وادعى ريبنتروب أنه قرأها ببطء ووضوحٍ، بل زاد على ذلك بتفسيرها له شفوياً وشرح النقاط الأساسية. وكان مقتنعاً ان هندرسن فهم كل شيء فيها" ولم تحسم نقطة النقاش فيما بينه.ا أبداً لكن ماهو أثرها في الوقت الحاضر؟[١١].

في مساء يوم (١) أيلول، فيم كانت الجيوش الألمانية تتوغل في پولندا (واللوفتوافه) تقصف وتقصف دون انقطاع ادرك هتلر من المذكرتين الفرنسية والبريطانية أنه سيواجه حرباً عالمية، إن لم يوقف جيوشه ويسحبها فوراً وهو ما لايمكن التفكير فيه. أو هل ظل يأمل تلك الليلة أن حظَه، حظه في مونيخ. سيقترن بالسعد ايضاً؟ ذلك لان صديقه موسوليني، وقد أفزعه دنو الحرب وارعبته فكرة قيام قوات أنگلو-فرنسية برية وبحرية متفوقة بالوثوب على إيطاليا، راح يحاول بجهد اليائس تدبير مونيخ أخرى.

-٢-

تدخل موسوليني في آخر لحظة

يذكر القاريء أن الدوتشي في رسالته المؤرخة ٢٦ آب التي تملص فيها من إلتزامات إيطاليا بموجب الميثاق الفولاذي، كان قد ألح على (الزعيم) بفسح السبيل لإحتمال "ايجاد حل سياسي" يكسب ألمانيا "منفعة مادية وادبية كاملتين"، فلم يتعب هتلر نفسه في مناقشة الأمر مع صديقه وحليفه، وهذا ماخيب أمل شريكه الأصغر في المحور. مع ذلك قام موسوليني وتشيانو في ٣١ آب، كما رأينا، بالطلب من هتلر مقابلة السفير الپولندي على الأقل، وابلغاه أنهما يحاولان حمل الحكومة البريطانية على الرضى بإعادة الدانزگ "كخطوة أولى" في مفاوضات السلم وقد فعلا ذلك بعد أن أنذرهما سفيرهما في برلين بخطورة الموقف.

ولكن الوقت ماعاد يسمح لهتلر بأن تغريه وجبة طعام صغيرة. ولم تكن الدانزگ إلا حجة وذريعة كما قال لجنرالاته. ولم يكن يريد إلا سحق پولندا وإن جهل موسوليني الحقيقة. وفي الأول من أيلول

١١- رواية شميدت عن المناقشة في (وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية، ج٧، ص ٤٩٣) ادلى هندرسن برواية مختصرة في تقريره مساء يوم ١ أيلول ١٩٣٩ (الكتاب البريطاني الأزرق ص١٦٩).

كان موسوليني نفسه يواجه أمرين عليه ان يختار بينهما. إما ان يعلن فوراً حياد إيطاليا أو يغامر بإحتمال هجوم أنگلو-فرنسي على بلاده. توضح يوميات ختنه المرعوب تشيانو اي كابوس كان يجثم على صدره.(١٢)

في الصباح الباكر من ١ أيلول اتصل الدكتاتور الإيطالي التاعس شخصياً بسفيره الإيطالي في برلين ويقول تشيانو بالحرف "إنه اشار عليه باقناع هتلر بأن يوجّه اليه [اي الدوتشي] برقية يحله فيها من إلتزامات الحلف وواجباته(١٣).

فأسرع هتلر بطيبة خاطر إلى تلبية طلبه. وقبل أن يترك المستشارية إلى الرايخشتاغ في الساعة ٩,٤٠ صباحاً أرسل برقية لصديقه وتلفنت إلى السفارة الألمانية في روما إختصاراً للوقت:

ايها الدوتشي:

اشكرك شكراً لامزيد عليه للعون الدبلوماسي والسياسي اللذين تدعم بهما ألمانيا وتساند قضيتها العادلة في الآونة الأخيرة، اني لمقتنع بأننا قادرون على انجاز مهمتنا التي فرضت علينا بالقوات العسكرية الألمانية. لذلك فأنا لااتوقع ان تدعو الحاجة إلى العون العسكري الإيطالي في هذه الاحوال. واني لأشكرك ايها الدوتشي ايضاً على كل ماستفعله في المستقبل للقضية المشتركة، قضية الفاشية والقومية الإشتراكية.

أدولف هتلر(١٤)

في الساعة ١٢,٤٥ ظهراً بعد إلقاء هتلر خطابه في الرايخشتاغ وبعد أن تخلص من تأثير انفجاره العصبي بمحضر من داليروس (على مايبدو) مالت نفسه الى كتابة رسالة أخرى لموسوليني مصرحاً فيها أنه مستعد لحل المشكلة البولندية بطريق التفاوض "وإني بقيت انتظر عبثاً يومين بطولهما مَقْدَم المفاوض البولندي" وفي "اللية الأخيرة وحدها جرى اكثر من أربع عشرة حادثة خرق للحدود الألمانية" وانه لهذا السبب قرر "الآن مجابهة القوة بالقوة". واعرب مرة أخرى عن امتنانه لشريكه المخلص. و...

"أنا اشكرك ايها الدوتشي على كل مجهوداتك. واشكرك بصورة خاصة على عرضك التوسط. إلا اني كنت من البدء مرتاباً في نجاح مثل هذه المحاولات اذ لو كان للحكومة البولندية اية نية في حسم

١٢- قرار موسوليني وصل بريطانيا فعلاً الليلة السابقة. في الساعة ١١,١٥ من صباح يوم ٣١ آب تسلمت وزارة الخارجية رسالة من سفيرها في روما السر پرسي لورين "اتخذت الحكومة الإيطالية قرارها. إيطاليا لن تخوض حرباً ضد فرنسا أو إنگلترا... ابلغني تشيانو بذلك في الساعة ٢١,١٥ [٩,١٥ مساءً] بكل سرية" (و.س.ب.خ: ج٧، رقم ٦٢١، ص٤٥٩). في تلك الليلة أرعب البريطانيون الطليان بقطعهم كل الإتصالات التلفونية مع روما بعيد الساعة الثامنة مساءً وخشي تشيانو ان تكون مقدمة لهجوم أنگلو-فرنسي.

١٣- يوميات تشيانو، ص١٣٥.

١٤- "وثائق وزارة الخارجية الألمانية، ج٧، ص٤٨٣". بعد إجتماع مجلس الوزراء في روما اعلن الراديو الإيطالي في الساعة ٤,٣٠ ب.ظ بيان الحكومة "الى الشعب الإيطالي بان إيطاليا لن تتخذ اية خطوة في اي عملية عسكرية". وتلت ذلك حالاً رسالة هتلر لموسوليني يحل بها إيطاليا من إلتزاماتها، أذيعت مباشرة.

النزاع بصورة حُبية لفعلت ذلك في اي وقت. إلا انها رفضت... ولهذا السبب لااريد ايها الدوتشي تعريضك لخطر اضطلاعك بدور الوسيط الذي يبدو مضيعةً للوقت نظراً الى الموقف المتعنت الذي تقفه الحكومة البولندية[١٥]."

التوقيع: أدولف هتلر

لكن موسوليني - باغراءٍ من تشيانو- قام بآخر محاولة يائسة لتعريض نفسه الى مخاطر مهمة الوسيط. كان تشيانو قبل يوم واحد قد اقترح على السفيرين الإنگليزي والفرنسي في روما أن يقوم الدوتشي في حالة موافقة حكومتيها - بدعوة ألمانيا الى مؤتمر في الخامس من أيلول لغرض "إعادة النظر في بنود معاهدة ڤرساي التي كانت علة المشاكل الحاضرة".

ربما ظن أن أنباء الغزو الألماني لپولندا صباح اليوم التالي للإقتراح الإيطالي جعلت إقتراحه عديم القيمة، ولدهشة الإيطاليين وجدوا أن (جورج بونيه) رئيس المهادنين يتلفن لسفيره في روما (فرانسو بونسيه) في الساعة ١١,٤٥ صباح الاول من أيلول ويطلب منه ان يخبر تشيانو أن الحكومة الفرنسية رحبت بمؤتمر كهذا، شريطة ألا يتدخل في مشاكل بلادٍ غير ممثلة فيه والا يحدد عمله بايجاد "حلول جزئية أو مؤقتة لمشاكل فورية ومحدودة النطاق" ولم يذكر بونيه شيئاً عن إنسحاب القوات الألمانية أو حتى وقف زحفها كشرط لاقامة هذا المؤتمر[١٦].

إلا ان البريطانيين ظلوا مصرين على هذا الشرط حتى نجحوا في حمل الحكومة الفرنسية المنشقة على نفسها بأن تنتهج نهجهم ليصبح ممكنا توجيه مذكرتين تحذيريتين متشابهتين الى برلين في مساء الأول من أيلول. ولما كانت نصوص هاتين المذكرتين قد اعلنت للملأ واصبح معلوماً أن الحكومتين البريطانية والفرنسية ستدخلان الحرب إلا اذا إنسحبت القوات الألمانية من پولندا، فما يسترعي الإهتمام أن نرى موسوليني يتشبث تشبث اليائس بكل قشةٍ - حتى بالقش الذي ليس يملكه لنجده في صبيحة اليوم التالي يرسل نداءً آخر لهتلر كأنما لم يأخذ التحذير الأنگلو-فرنسي مأخذ الجد!

كان الثاني من أيلول كما وصفه هندرسن في تقريره الأخير. يوم قمة التوتر النفسي[١٧]. انتظر هو

١٥- المرجع السالف الص ٤٨٥- ٤٨٦.

١٦-"بونيه: الى فرنسوا بونسيه الساعة ١١,٤٥ صباحاً (١) أيلول (الكتاب الفرنسي الأصفر) الطبعة الفرنسية الص ٣٧٧- ٣٧٨. فصل مشروع موسوليني لمؤتمر ٥ أيلول في تقرير من فرانسوا بونسيه الى بونيه في ٣١ آب. المرجع السالف الص ٣٦٠-٣٦١:

طلب (بونيه) من سفيره (نوئيل) في وارشو مرتين في عصر يوم (١) أيلول أن يسأل (بيك) هل توافق پولندا على إقتراح إيطاليا بعقد مؤتمر. وتسلم الجواب في ساعة متأخرة من الليل "نحن الآن نخوض غمار حرب بسبب عدوان لا مبرر له والمسألة لم تعد مسألة مؤتمر وانما قضية عمل اجماعي يقوم به الحلفاء لمقاومته" رسالة بونيه وجواب بيك مثبتان في (الكتاب الفرنسي الأصفر). لم تشارك الحكومة البريطانية في جهود بونيه. وهناك محضر في وزارة الخارجية البريطانية مذيل بتوقيع (ر.م.ماكينز R. M. Makins) ذكر فيه ان الحكومة البريطانية لم تستشر (بالإقتراح) ولم تبلغ به (و.س.ب.خ: ج٧، الص ٥٣٠-٥٣١.

١٧- في الليلة التي سبقت هذا التاريخ. وبناءً على تعليمات لورد هاليفاكس قام هندرسن باتلاف الجفرة الخاصة =

(وكولوندر) بقلق جواب هتلر على مذكرتيهما ولكن لم يرد شيء. وبعد الظهيرة بقليل وصل (أتوليكو) السفارة البريطانية وعليه علائم العجلة واعلم هندرسن أنه يريد أن يفهم منه شيئاً واحداً. هل أن المذكرة البريطانية المقدمة ليلة أمس إنذاراً أم لا؟

وكتب هندرسن فيما بعد "قلت له أني مخول ان أجيب وزير الخارجية الألماني عند سؤاله – أنه ليس إنذاراً نهائياً بل تحذير، ولكنه لم يسألني."[18]

بعد أن حصل السفير الإيطالي على جوابه أسرع الى ڤلهلمشتراسه. كان أتوليكو في العاشرة من صباح هذا اليوم قد جاء وزارة الخارجية حاملاً رسالة من موسوليني. ولما قيل له أن ريبنتروب يشكو وعكةً، سلمها الى ڤايسيكر.

"٢ أيلول ١٩٣٩

للمعلومات، ترغب إيطاليا أن يكون واضحاً (والأمر كله يالطبع مرهون بالزعيم) أنها مازالت تأمل في حمل بريطانيا وفرنسا وپولندا على الرضى بعقد مؤتمر على الأسس التالية:

١- هدنة تترك الجيوش حيث هي الآن.

٢- عقد المؤتمر خلال يومين أو ثلاثة.

٣- حسم الخلاف الپولندي الألماني. بشكل يكون فيه نفع لألمانيا. نظراً لطبيعة الموقف الحالي.

إن الفكرة التي كانت بالأصل من بدع الدوتشي. تعضدها فرنسا بصورة خاصة.[19]

الدانزگ اصبحت الآن ألمانية. وقد بات في يد ألمانيا الآن وعود تضمن لها اعظم جانب من إدعاءاتها. واكثر من هذا أنها نالت "ثأرها الأدبي" وان قبلت بإقتراح عقد المؤتمر فستحقق كل اهدافها وتجتنب الحرب في الوقت ذاته تلك الحرب التي تبدو حتى في الوقت الحاضر حرباً عامة طويلة الأمد جداً.

إن الدوتشي لايقصد الإلحاح، لكن عرض المقترحات المدرجة اعلاه على (الزعيم) وريبنتروب هو أعظم سعادة له[20].

فلا عجب أن نرى ريبنتروب الذي أبلّ فوراً من وعكته يقابل أتوليكو في الساعة ١٢,٣٠ ظهراً ويقول له أن إقتراح الدوتشي لايمكن "التوفيق" بينه وبين المذكرتين الأنگلو- فرنسية اللتين تسلمهما ليلة أمس، "وفيهما صفة إنذار نهائي".

فما كان من السفير الإيطالي (وحرصه على اجتناب حرب عالمية لايقل عن حرص رئيسه بل يفوقه

= بالسفارة والوثائق السرية وطلب رسمياً من القائم بالأعمال الأمريكي "أن يتكرم ليرعى المصالح البريطانية في حالة نشوب الحرب" (الكتاب البريطاني الأزرق، ص٢٢١).

١٨- تقرير هندرسن الأخير ص ٢٢.

١٩- يدعي تشيانو ان المذكرة ارسلت بناءً على "شدة إلحاح الفرنسيين" إلا ان هذا تضليل اكيد (يوميات تشيانو، ص١٣٦). ومع أن بونيه كان يبذل اقصى ما في طوقه لعقد مؤتمر إلا ان موسوليني كان يفوقه في جهوده المستميتة.

٢٠- النص في (وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية) ج٧، الص ٥٠٩-٥١٠.

اخلاصاً) إلا ان قاطع ريبنتروب قائلاً ان التصريح الأنگلو فرنسي "قد بطل أثره بآخر رسالة للدوتشي" ولم يكن (أتوليكو) مخولاً بالطبع ليدلي بتصريح غير صحيح كهذا لكنه ظن في هذه الساعة المتأخرة أنه لن يخسر شيئاً إن قصر في مهام وظيفة وظل ثابتاً على وجهة نظره عندما أعرب وزير الخارجية الألماني عن شكه.

"[قال] إن تصريحَيْ البريطانيين والفرنسيين ماعادا الآن محل اعتبار فقد تلفن الكونت تشيانو في الساعة ٨,٣٠ من صباح هذا اليوم، أعني في الوقت الذي أذيع التصريحان من راديو إيطاليا. ويترتب على ذلك أنهما باتا في حكم الملغيين. وبين الكونت تشيانو أيضاً أن فرنسا تحبذ بصورة خاصة إقتراح الدوتشي. إن الضغط يأتي الآن من فرنسا، لكن إنگلترا ستتبعها"[٢١].

بقي ريبنتروب شاكاً. وقال أنه بحث قبل هنيهة مع هتلر، مقترحات موسوليني. وما يريد الزعيم معرفته هو: هل أن المذكرتين الأنگلو فرنسية إنذار؟ وأخيراً وافق على إقتراح المبعوث الإيطالي بأن يستفسر من (هندرسن وكولوندر) عن صفة المذكرتين.

وهذا هو السبب الذي حدا بأتوليكو الى زيارة السفارة البريطانية. كتب شميدت الذي كان يقوم بالترجمة فيما بعد. "مازال يراود مخيلتي شخص (أتوليكو) الذي لم يبق فيه عرق من عروق الشباب، وهو يركض ركضاً من غرفة ريبنتروب ويهبط الدرج مهطعاً للاستفسار من هندرسن وكولوندر... ثم يعود بعد نصف ساعة راكضاً كما خرج متقطع الانفاس لاهثاً"[٢٢].

وبعد ان التقط انفاسه أبلغ ريبنتروب بما قاله هندرسن حول المذكرة البريطانية مؤكداً انها ليست إنذاراً. فأجاب الوزير "في الوقت الذي لايمكن أن يكون الجواب الألماني عن المذكرتين الأنگلو فرنسية إلا بالسلب، فان الزعيم يدرس مقترحات الدوتشي وإن أيدت روما بأن المذكرتين الأنگلو- فرنسية لاتتضمنان إنذاراً ما فسوف يكتب جواباً له خلال يوم أو إثنين". فألح (أتوليكو) بالرد في وقت أقصر وأخيراً وافق ريبنتروب على أن يتم اعداد الرد ظهر اليوم التالي. الموافق الأحد ٣ أيلول.

في هذا الوقت تحطمت آمال موسوليني في روما. ففي الساعة الثانية بعد الظهر استقبل تشيانو سفيري بريطانيا وفرنسا وفي أثناء وجودهما اتصل تلفونياً بكل من لورد هاليفاكس وبونيه وابلغهما بمحادثات (أتوليكو) مع وزير الخارجية الألماني. وكان بونيه مجاملاً كالعادة. (وكما ذكر هو نفسه في الكتاب الفرنسي الأصفر) شكر تشيانو بحرارة على جهوده في سبيل السلم، أما هاليفاكس فكان اشد صلابة. أكد أن التصريح الأنگلو- فرنسي ليس إنذاراً (ان المرء ليدركه العجب من اختصام الساسة الشديد حول كلمة واحدة حيث أن التصريحين الأنگلو- فرنسي واضحان كل الوضوح. وعباراتها دقيقة لاتقبل تأويلاً). إلا أنه زاد يقول ان رأيه الشخصي في إقتراح موسوليني هو أن الحكومة البريطانية لايسعها قبوله الا اذا إنسحبت الجيوش الألمانية من پولندا.

٢١- من ملاحظات شميدت الرسمية التي بني عليها هذا الجزء من الفصل. المرجع السالف، الص ٥١٢-٥١٣.
٢٢- شميدت، المرجع السالف ص١٥٦.

وهو ما سكت عنه (بونيه) مرة أخرى. ثم وعد هاليفاكس أن يبلغ تشيانو قرار الحكومة البريطانية في الموضوع تلفونياً.

وصدر القرار بعيد السابعة مساء. الحكومة البريطانية تقبل عرض موسوليني شريطة ان يسحب هتلر قواته الى ماوراء الحدود البولندية. وادرك وزير الخارجية الإيطالية أن هتلر لن يقبل قط بهذا "وألاّ شيء يمكن عمله بعد الآن" كما ذكر في يومياته.

"[قال تشيانو] ليس من واجبي الجواب عن هتلر بأنه سيرفض ذلك رفضاً قاطعاً وربما بإزدراء. قلت ذلك لهاليفاكس وللسفيرين وللدوتشي، وأخيراً اتصلت تلفونياً ببرلين واخبرتهم إننا سنتخلى عن المداولات إلا اذا نصحونا بعكس ذلك. إن نغمة السلام الأخيرة قد ماتت[٢٣].

وهكذا نجد أتوليكو المرهق المحطم في الساعة ٨,٥٠ من مساء يوم ٢ أيلول يجر قدميه مرة أخرى جراً الى ڤلهلمشتراسه. وفي هذه المرة استقبله ريبنتروب في المستشارية حيث كان يتبادل الحديث مع هتلر وتسجل وثيقة ألمانية مستولى عليها المشهد:

"حمل السفير الإيطالي رسالة وزير الخارجية التي تضمنت أن البريطانيين غير مستعدين للدخول في مفاوضات على الأسس التي وردت في إقتراح الوساطة الإيطالي. ان البريطانيين يطلبون قبل البدء بالمفاوضات الانسحاب الفوري لكل القوات الألمانية من أراضي پولندا التي إحتلتها ومن الدانزگ...

وفي الختام ذكر السفير الإيطالي أن الدوتشي يعتبر إقتراح وساطته لا وجود له الآن وتسلم وزير الخارجية الرسالة من السفير دون تعليق[٢٤].

لم توجه كلمة شكرٍ واحدة لأتوليكو الكادح على كل ما بذله من مجهود! إلا إزدراء الصمت تجاه حليف يحاول حرمان ألمانيا من اسلابها الپولندية.

تلاشى الآن الإحتمال الطفيف باجتناب حرب عالمية ثانية. وكان ذلك واضحاً للجميع ماعدا ممثلاً واحداً في هذه الدراما. في الساعة التاسعة مساءً تلفن (بونيه) ذلك الوضيع النفس، لتشيانو حتى يؤكد له مرة أخرى بأن المذكرة الفرنسية لألمانيا ليس فيها "صفة الإنذار". وكرر قائلاً أن الحكومة الفرنسية مستعدة للانتظار حتى ظهر يوم ٣ أيلول لتسلم الجواب الألماني. ومهما يكن، "ولأجل أن يحقق المؤتمر نتائج طيبة" فان الحكومة الفرنسية تتفق مع البريطانيين على وجوب قيام القوات الألمانية "بإخلاء" پولندا وكانت أول مرة يذكر (بونيه) ذلك، نزولاً عند اصرار البريطانيين. فأجاب تشيانو أنه لايظن إمكان قبول الحكومة الألمانية بهذا الشرط إلاّ أن (بونيه) لم ييأس وجرّب أثناء الليل محاولة التملص الأخيرة من إلتزامات فرنسا لپولندا المثخنة بالجراح. واثبت تشيانو هذه المحاولة الشاذة في اولى فقرات يوميته المؤرخة ٣ أيلول.

٢٣- يوميات تشيانو، الص ١٣٦-١٣٧.
٢٤- "وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية" ج٧، الص ٥٢٤-٥٢٥.

"في أثناء الليل ايقظتني الوزارة من نومي. لأن (بونيه) كان قد سأل گواريليا Guariglia [السفير الإيطالي في پاريس] هل نستطيع أن نحصل على انسحاب رمزي للقوات الألمانية من پولندا ؟... القيت الإقتراح في سلة المهملات دون ان أكلف نفسي عناء إبلاغه للدوتشي. لكن هذا يوضح أن فرنسا تتحرك نحو الإمتحان الأعظم بتردد تام وبدون اي حماسة[٢٥].

-٣-

الحرب الپولندية تنقلب الى: الحرب العالمية الثانية

نهار الأحد الموافق ٣ أيلول ١٩٣٩، كان يوماً من أيام نهاية الصيف الرائعة في برلين. الشمس مشرقة لاتحجبها الغيوم والهواء منعش. كتبتُ في مفكرتي عنه "أنه من الأيام التي يهوى البرلينيون قضاءها في الغابات أو على ضفاف البحيرات القريبة". وفيم كان فجره ينفلق وصلت السفارة البريطانية برقية لورد هاليفاكس الى السر نڤيل هندرسن يوصيه ان يطلب مقابلة وزير الخارجية الألمانية في الساعة ٩ صباحاً ويقدم له رسالة" أملي عليه نصها.

لقد بلغت حكومة چمبرلين خاتمة الطريق. وقبل حوالي إثنتين وثلاثين ساعة أبلغت هتلر ان إنگلترا ستدخل الحرب إلا اذا سحبت ألمانيا جيوشها من پولندا فلم تتسلم جواباً. والآن باتت الحكومة البريطانية مصممة على الوفاء بعهدها. في يوم أمس كان يخشى ان يعتمد هتلر التأخير في رده لإبتلاع اكبر قدر ممكن من أراضي پولندا اضافة الى اخذه الدانزگ والمم ومناطق أخرى وحينئذ يقوم بإقتراح سلم الرجل "الشهم الكريم" المستند الى نقاطه الست عشرة[٢٦].

وهذا ما ابلغه شارك كوربان Charles corbin السفير الفرنسي في لندن لبونيه المتردد في الساعة ٢,٣٠ ظهراً.

واحباطاً لهذا الفخ إقترح هاليفاكس على الفرنسيين انه إن لم تُدلِ الحكومة الألمانية بجواب مرضٍ خلال الساعات القليلة القادمة على المذكرتين الأنگلو- فرنسية المؤرختين (١) أيلول، فالدولتان الغربيتان ستعلنان أنهما في حالة حرب مع ألمانيا. وعلى اثر اجتماع الوزارة البريطانية في عصر الثاني من أيلول حيث توصل الى قرارٍ واضحٍ، اقترح هاليفاكس بصورة خاصة أن يقدم الحليفان إنذاراً الى برلين في منتصف تلك الليلة بالذات. ينتهي أجله في السادسة من صباح الثالث من أيلول[٢٧] إلا

٢٥- يوميات تشيانو، ص١٣٧. ان دي مونزي de Monzie وهو شيخ فرنسي اندحاري النزعة يؤيد القصة في كتابه Ci-Devont الص ١٤٦-١٤٧.

٢٦- تقرير (كوربان): (الكتاب الفرنسي الأصفر) الطبعة الفرنسية ص٣٩٥.

٢٧- هذا القسم مبني على (و.س.ب.خ) ج٧. حول يومي ٢-٣ أيلول. هناك ملخص ممتاز جداً في كتاب "حافة الحرب" سنة ١٩٣٩ نشره ارنولد وڤيرونيكا توينبي مبني على وثائق وزارة الخارجية البريطانية السرية والمراجع الفرنسية الزهيدة الميسورة. وكتاب نامير "تمهيد دبلوماسي" هو ايضاً مفيد. لقد استغنيت عمداً عن اثبات المراجع في =

أن (بونيه) صم اذنيه عن سماع أي نصح بهذا العمل الأهوج. والواقع أن الوزارة الفرنسية المنشقة على نفسها انشقاقاً شديداً كانت تعاني فترة عصبية خلال الأسبوع المنصرم في محاولاتها التوصل الى قرار يحقق الوفاء بإلتزامات فرنسا ازاء پولندا، وبريطانيا بالدرجة الأولى. وفي اليوم الثالث والعشرين النحس من شهر آب قرعتها أنباء وصول ريبنتروب الى موسكو لابرام ميثاق عدم اعتداء سوڤيتي- نازي فاقنع بونيه رئيس الوزراء دالادييه بعقد جلسة لمجلس الدفاع الوطني للبت فيما ستفعله فرنسا[٢٨] .وقد حضره خلاف بونيه ودالادييه وزراء القوات المسلحة الثلاثة. والجنرال گاملان وقادة الجيش والأسطول والطيران العامّون، وأربعة جنرالات آخرون- فكان عددهم إثنى عشر. وتوضح المحاضر أن دالادييه طرح اسئلةً ثلاثة:

اولاً: هل يمكن أن تبقى فرنسا ساكتة في حين تمحى پولندا ورومانيا (او احداهما) من خارطة أوروپا؟

ثانياً: ماهي الوسائل التي تملكها للحيلولة دون هذا؟

ثالثاً: ماهي الإجراءات التي يجب اتخاذها الآن؟

بعد أن شرح (بونيه) خطورة الأحداث طرح سؤالاً بقي يحتل طليعة افكاره الى الأخير: "بعد تأمل مليّ في الموقف أيكون الأفضل لنا أن نظل مخلصين لتعهداتنا وندخل الحرب حالاً. أو أن نعيد النظر في موقفنا وننتفع بالمهلة التي سنحصل عليها جراء ذلك؟... ان الجواب على هذا السؤال هو بالجوهر عسكري الطابع.

وعندما اتجهت الانظار الى (گاملان) والأميرال دارلان Darlan أجابا بمايلي: "ان الجيش والأسطول على إستعداد. وفي اولى مراحل الحرب لن يكون تأثيرهما كبيراً على ألمانيا. إلا أن النفير العام الفرنسي سيؤدي بحد ذاته إلى تخفيف الضغط عن پولندا نوعاً ما باحتجاز جانبٍ كبيرٍ من الوحدات الألمانية على حدودنا.

"... وسُئل الجنرال گاملان، كم من الوقت يخمن أن پولندا ورومانيا ستصمدان فاجاب يعتقد أن پولندا ستصمد صموداً مشرفاً، مما سيمنع مجموع القوات الألمانية من التحول نحو فرنسا قبل الربيع القادم. وعندئذ ستكون، بريطانيا العظمى الى جانبها[٢٩].

= مواضعها وهي عشرات من وثائق (و.س.ب.خ) لئلا أملأ الصحائف بالارقام.

٢٨- وقائع الجلسة الى دونها الجنرال دكامب Decamp. رئيس مجلس دالادييه العسكري ظهرت في محاكمة ريوم Riom. ولم يعرض المحضر لأحد من أعضاء المجلس للتنقيح في وقتها. ويدعي الجنرال گاملان في كتابه Servie انها مقتضبة الى الحد الذي اصبحت مضللة. الا ان الجنرال الأكبر يؤكد خطواتها الرئيسة.

٢٩- أيد گاملان في كتابه انه تردد في توجيه الإهتمام الى بعض مواطن الضعف العسكري الفرنسية لأنه لم يثق ببونيه. واورد ماقاله له دالادييه فيما بعد "لقد اصبت بعملك. ولوأنك كشفت عن مواطن الضعف لوصلت الى علم الألمان في اليوم التالي". وادعى گاملان ايضاً (في كتابه) انه اشار فعلاً الى ضعف موقف فرنسا العسكري في المؤتمر. ويقول انه شرح الأمر: "لو ان ألمانيا قضت على پولندا، ثم ألقت بكل ثقلها على فرنسا فستكون فرنسا في وضع عسير". وقال "وفي هذه الحالة لايعود بامكان فرنسا الدخول في المعركة... وعند مجيء الربيع وبمساعدة بريطانيا والامدادات الامريكية أؤمل ان نكون في مركز نستطيع معه خوض معركة دفاعية (اذا ألجأتنا الضرورة طبعاً). واضفت الى =

وبعد حديث طويل، وصل الفرنسيون أخيراً الى قرار وثبت حالاً في محضر الجلسة:

"بنتيجة المداولة. وجد أننا لو زدنا قوةً في غضون أشهر قلائل تالية فإن ألمانيا ستحصل من هذه الفترة على اكثر مما وصلنا اليه لأنها ستسيطر على موارد پولندا ورومانيا بلا منازع.

لذلك ليس لفرنسا مجال اختيار.

"الحل الوحيد... التمسك بعهودنا لپولندا قبل المفاوضات التي بدأت مع الإتحاد السوڤياتي."

بعد أن صح عزم الحكومة الفرنسية على هذا، شرعت في العمل واعلنت حالة الاستنفار عقب الإجتماع مباشرة (٢٣ آب). الأمر الذي وضع كل قوات الحدود في مواقعها الحربية. وفي اليوم التالي دعي الى الخدمة (٣٦٠٠٠٠) مقاتل من الاحتياط. وفي ٣١ آب أصدرت الوزارة بياناً رسمياً اعلنت فيه أن فرنسا "ستفي وفاءاً تاماً" بإلتزاماتها. وفي اليوم التالي – يوم الهجوم الألماني على پولندا أقنع هاليفاكس (بونيه) بتوحيد إنذاري الدولتين وتقديمه معاً الى حكومة برلين. وفيه أن بريطانيا وفرنسا ستكونان امينتين على عهدهما مع حليفتهما.

لكن الجنرال گاملان وهيئة أركان الحرب العامة الفرنسية أحجما عندما ألح البريطانيون على توجيه إنذار نهائي إلى هتلر في (٢) أيلول. لامراء في أن الفرنسيين هم وحدهم سيتحملون عبء القتال إن اختار الألمان الهجوم في الغرب حالاً ولن يجدوا الى جانبهم جندياً بريطانياً واحدا. وأصرت دائرة الأركان العامة على مهلة ثمان وأربعين ساعة أخرى لإنجاز التعبئة العامة دون عائق.

في الساعة السادسة مساءً تلفن هاليفاكس للسير اريك فيبس Sir Eric Phipps السفير البريطاني في پاريس: "ثمان وأربعون ساعة أمر مستحيل لاتطيقه الحكومة البريطانية. ان الموقف الفرنسي يحرج حكومة جلالته للغاية".

وفعلاً وصل الإحراج حد الخطورة بعد ساعتين فقط عندما نهض چمبرلين ليخاطب مجلس عموم باتت اغلبية أعضائه بصرف النظر عن الاحزاب التي تنتمي اليها، ساخطة على تلكؤ الحكومة في البر بعهودها. ولم يعد في قوس صبرهم منزع بعدما تكلم رئيس الوزراء فأبلغ المجلس المستاء انه لم يرد جواب من برلين حتى الآن فإن لم يرد حاوياً تأكيدات الألمان بالانسحاب من پولندا، فإن الحكومة "لا سبيل لها إلا اتخاذ الإجراءات" وإن وافق الألمان على الإنسحاب. فإن الحكومة البريطانية ستكون راغبة في "أن تنظر الى الوضع مثلما كان قبل عبور القوات الألمانية الحدود الپولندية". وقال ايضاً، إن الحكومة في الوقت نفسه على إتصال دائمي بفرنسا لتعيين الوقت المحدد للإنذار الذي سيوجه الى ألمانيا.

بعد الثلاثين والتسع ساعات من الحرب في پولندا، لم يكن المجلس في مزاج يتمكن معه من تقبل هذه المناورات التعويقية. وبدا له أن ريحاً مونيخية خبيثة تهب عليهم من مقاعد الحكومة فصاح

= هذا قولي: انه لايمكن لنا أن نأمل بالنصر إلا بعد حرب طويلة الأمد. لقد كان من رأيي دائماً أننا لانستطيع قط ان ننقلب إلى حالة الهجوم بأقل من سنتين تقريباً... اعنيَ في ١٩٤١-١٩٤٢". إن نظرات الجنرال الاكبر الفرنسي المترددة الحذرة تفسر كثيراً احداث التاريخ القادمة.


الأميـرال دارلان

(ليـــوپـولد ايمري Leopold Amery) من مـــقـــاعـــد المحـــافظين: "تـكلم من أجل إنكلتـــرا!" بينمـــا وقف للكلام وكيل زعيم المعارضة العمالي (آرثر گرينوود Arther Greenwood) فقال: "إن العجب ليدركني، إلى كم نحن نتذبذب ونتأرجح في وقت باتت بريطانيـا وكل ما ترعاه بريطانيا والحضارة البشرية في خطر... يجب علينا أن نتقدم مع الفرنسيين..."

تلك هي الورطة. لقـــد تبين في هذه اللحظة أنه يصعب حمل الفرنسيين أنفسهم على التقدم. إلا ان چمبرلين كـان مضطرب النفس للغـاية بسـبب مـزاج مجلس العـموم الغـاضب بحيث تدخل في المناقشة الحادة ليقول: انه يتطلب وقت لإقران "العلم بالعمل مع پاريس وتنسـيق الافكار مع التطبـيق عن طريق التلفون". واضاف يقول: "إني لأستنكر واستفظع أن يظن المجلس لحظةً واحدةً بأن البيـان الذي أدليت بـه أمامـهم ينم عن أقل ضعفٍ سـواء من جانب هذه الحكومة أو من جانب الحكومة الفرنسية" وسيصلنا نبأ عنها في "الساعات القلائل التالية". وعلى كل حاول التأكيد لأعضاء المجلس الثائرين "أومل ألا يكون هناك إلا جواب واحد سأقدمه للمجلس غداً... واثقاً ان المجلس... سيصدقني ويؤمن اني أتحدث باخلاص تامٍ."

إن معالجة أقسى محنة واعظمها في تاريخ بريطانيا تم الإفصاح عنه كما قال (ناميبه) بتلكؤٍ فريد في بابه".

كان چمبرلين يدرك إدراكاً جيداً (كما توضحه الوثائق السرية البريطانية) بأنه على خلاف عميق مع شعبه وأن حكومته في هذه اللحظة الحرجة من حياة بلاده - معرضة الى خطر التنحية.

ما أن غادر مجلس العموم حتى اتصل بدالاديه. وكان زمن المكالمة المسجل ٩,٥٠ مساء. وقد دون المنصت الى الحديث صورة له للحفظ:

چمبرلين: الوضع هنا خطير جداً... حدث مشهد ساخط في مجلس العموم... وإن اصرت فرنسا على مهلة ثمان وأربعين ساعة تبتديء من منتصف يوم الغد، فمن المستحيل على حكومتي ان تمسك بزمام الموقف هنا.

وقال رئيس الوزراء انه يدرك تماماً ان فرنسا هي التي ستحمل عبء الهجوم الألماني. الا انه واثق بوجوب اتخاذ خطوة ما في هذا المساء.

واقترح حلا وسطاً؛ إنذار يقدم في الساعة الثامنة من صباح الغد... وينتهي أمده ظهر اليوم نفسه.

اجاب دالادييه: إن لم تكن القاصفات الإنكليزية مستعدة للعمل فوراً فمن الأفضل لفرنسا أن تؤخر إنْ امكن، الهجمات على الجيوش الألمانية بضع ساعات.

وبعد أقل من ساعة، (١٠,٣٠ ليلاً) اتصل هاليفاكس تلفونياً (ببونيه). وألح بالفرنسيين للموافقة على الحل الوسط البريطاني أي ان يُقدم إنذار نهائي الى برلين في الثامنة من صباح الغد (٣ أيلول) ينتهي اجله ظهر اليوم نفسه. ولم يوافق وزير الخارجية الفرنسي واحتج لهاليفاكس بأن الالحاح البريطاني على هذا الإسراع قد يخلق "إنطباعاً غير مستحب" وطلب من لندن التريث حتى الظهر على الأقل، قبل تقديم اي إنذار لهتلر.

"هاليفاكس: هذا مستحيل! يتعذر عل حكومة جلالته الانتظار حتى تلك الساعة... من المشكوك فيه جداً أن تستطيع الحكومة [البريطانية] السيطرة على زمام الموقف هنا".

كان موعد الجلسة التالية لمجلس العموم ظهر يوم الأحد الثالث من أيلول وكان واضحاً لچمبرلين وهاليفاكس من الجو الذي ساد جلسة السبت مساءً أن بقاء الحكومة مرهون باعطاء البرلمان الجواب الذي طلبه. وفي الساعة الثانية بعد إنتصاف الليل أنذر السفير الفرنسي في لندن، وزيرَ خارجيته بأنّ وزارة چمبرلين تخاطر بوجودها إن لم تقدم للبرلمان كلمة جازمة قاطعة. ولذلك اقترح هاليفاكس في ختام حديثه التلفوني مع بونيه أن تعمل "بريطانيا وحدها".

وصلت برقية هاليفاكس الى هندرسن في حوالى الرابعة فجراً.(٣٠)

إن الرسالة التي كان سيبلغها الى الحكومة الألمانية نهار الأحد الساعة ٩ صباحاً (٣ ايلول)، تشير الى المذكرة البريطانية المؤرخة (١) أيلول التي صرحت الحكومة البريطانية فيها بعزمها على الوفاء بالتزاماتها الى پولندا إلا اذا سحبت القوات الألمانية من پولندا فوراً.

"[واستطردت المذكرة] ومع أن هذه المذكرة قد سلمت منذ أربع وعشرين ساعة فلم يصل اي رد عليها، إلا ان هجمات الألمان على الپولنديين استمرت وبصورة عنيفة، ولذلك لي الشرف لأبلغكم: إن لم تقدم الحكومة الألمانية في زمن لايتعدى الساعة ١١ صباحاً بتوقيت بريطانيا الصيفي من هذا اليوم الثالث من أيلول – تأكيدات مقنعة الى حكومة صاحب الجلالة في لندن بإنجازها ماذكر اعلاه،

٣٠- أرسل وزير الخارجية الى هندرسن برقيتين تحذيريتين أثناء الليل. الأولى في ١١,٥٠ ليلاً. وهذا نصها: "ربما ارسلت اليك تعليمات هذه الليلة للإتصال الفوري بالحكومة الألمانية. ارجو ان تكون على إستعداد للعمل. ومن الأفضل ان تخطر مقدماً وزير الخارجية بأنك قد تطلب مواجهته في اية لحظة".
وقد يبدو من هذه البرقية أن الحكومة البريطانية، لم تحزم أمرها بعد على قرار معين تقوم به بمفردها رغم موقف الفرنسيين. لكن هاليفاكس ابرق الى هندرسن ثانية في الساعة ١٢,٢٥ بعد نصف الليل (٣ أيلول): "عليك ان تطلب موعداً لمقابلة وزير الخارجية في الساعة التاسعة من صباح يوم ٣ أيلول الموافق الأحد. التعليمات آتية اليك"؛ (برقيتا هاليفاكس الى هندرسن في الساعة ١١,٥٠ ليلاً (٢ أيلول) و.س.ب.خ: ج٧، رقم ٧٤٦، ص٥٢٨، وفي الساعة ١٢,٢٥ ليلاً (٣ أيلول) المرجع نفسه ص٥٣٣. ان البرقية الحاسمة من هاليفاكس هي المؤرخة (صباح يوم ٣ أيلول بتوقيت لندن ويقول هندرسن انه تسلمها في الساعة ٤ صباحاً (تقريره الأخير).

فإن حالة حربٍ ستقوم بين البلدين اعتباراً من تلك الساعة(٣١).

في اولى ساعات فجر الأحد وجد هندرسن الإتصال بڤلهلمشتراسه أمراً صعباً. وأعلم أن ريبنتروب لن يكون ميسوراً في الساعة التاسعة صباح الأحد، ألا أن بامكانه ترك رسالته لدى الترجمان الرسمي الدكتور شميدت.

في هذا اليوم التاريخي إستيقظ الدكتور شميدت متأخراً. فبادر مسرعاً الى وزارة الخارجية بالتاكسي. ولمح السفير البريطاني وهو يصعد درج الوزارة، فاسرع بالدخول من باب جانبي وتمكن من التسلل الى مكتب ريبنتروب حالما ارسلت الساعة دقاتها التسع وفي الوقت الذي دخل هندرسن. كتب شميدت فيما بعد"دخل وعليه علائم الجد الخطير وصافحني إلا أنه أبى الجلوس وظل واقفاً في وسط الغرفة"(٣٢) وقرأ الإنذار البريطاني وسلمه لشميدت ثم ودعه وانصرف. وأسرع الترجمان الرسمي ينهب درجات الڤلهلمشتراسه نهباً الى دار المستشارية حاملاً الإنذار. ووجد خارج مكتب (الزعيم) معظم أعضاء الوزارة وعدداً من كبار رجال الحزب وموظفيه مجتمعين منتظرين بقلق" أنباءه.

"[كتب شميدت بعدئذ] عند دخولي الغرفة الثانية وجدت هتلر جالساً وراء مكتبه وريبنتروب واقفاً قرب الشباك فنظرا الي معاً مستطلعين عند دخولي. وقفت على مسافة يسيرة من مكتب هتلر ثم بدأت أترجم الإنذار البريطاني ببطءٍ. وكان الصمت عاماً عندما فرغت.

ظل هتلر جالساً بلا حراك وابصاره شاخصة الى أمام... وبعد هنيهة خيل لي انها دهر التفت إلى ريبنتروب الذي بقي في وقفته قرب الشباك وسأله "ماذا الآن؟" ورشقه بنظرة وحشية كأنما يريد ان يشير الى أن وزير خارجيته ضلله بخصوص رد الفعل البريطاني المحتمل."

فأجاب ريبنتروب بهدوء: "أعتقد أن الفرنسيين سيسلمونا إنذاراً مشابهاً خلال ساعةٍ"(٣٣).

إنسحب شميدت بعد انجاز واجبه. وتوقف قليلاً في الغرفة الخارجية لإخبار الآخرين بما حصل. فران الصمت عليهم أيضاً ثم: "التفت إلى گورنگ وقال: إن خسرنا هذه الحرب، فالله يرحمنا!".

ووقف گوبلز في زاوية وحيداً مشغول البال، كسير الخاطر وكان كل من في الغرفة مغموماً قلقاً(٣٤).

في الوقت نفسه كان (داليروس) فريد عصره وأوانه، يقوم بآخر مجهود في هوايته الجديدة، في

٣١- (النص موجود في الكتاب البريطاني الأزرق ص١٧٥، وفي "وثائق وزارة الخارجية الألمانية، ج٧، ص٥٢٩) ارسل هاليفاكس برقية اضافية في الساعة ٥ صباحاً يعلم السفير أن كولوندر لن يقدم رسالة مماثلة الى الحكومة الألمانية حتى ظهر اليوم (الأحد)" وهو لايدري بتوقيت الإنذار الفرنسي لكنه يرجح أن يصدر في اي ساعة بين (السادسة والتاسعة)- وثائق وزارة الخارجية البريطانية، ج٧، رقم ٧٥٨، ص٥٣٥.

٣٢- رواية شميدت في كتابه (المرجع السالف، ص١٥٧) انظر ايضا شهادته في نورمبرگ (محاكمات مجرمي الحرب الكبار، ج١٠، ص٢٠٠.

٣٣- شميدت (المرجع السالف، الص ١٥٧-١٥٨) ايضاً شهادته في نورمبرگ (محاكمات مجرمي الحرب الكبار) ج١٠، الص ٢٠٠-٢٠١.

٣٤- المرجع نفسه.

سبيل الحيلولة دون ما لا مفر منه. في الساعة الثامنة صباحاً أعلمه فوربس بالإنذار البريطاني الذي قدم رسمياً بعدها بساعةٍ. فأسرع الى مقر قيادة اللوفتوافه العامة لمواجهة گورنگ وكما ورد في آخر رواية له في نورمبرگ، ناشده أن يعمل على أن يكون جواب ألمانيا على الإنذار البريطاني "معتدلاً" ثم اقترح علي أن يعلن الفيلدمارشال بنفسه قبل الساعة الحادية عشرة، عن إستعداده للسفر الى لندن بالطائرة "للتفاوض" وادعى السويدي في كتابه أن گورنگ وافق على ذلك. ولم يذكر عن ذلك شيء في الوثائق الألمانية. واوضح الدكتور شميدت بأن گورنگ لم يكن في مقره بعد التاسعة بدقائق وانما كان في غرفة انتظار (الزعيم) بدار المستشارية.

وعلى اية حال، ليس هناك شك بأن الوسيط السويدي تلفن الى وزارة الخارجية البريطانية -ليس مرة واحدة بل مرتين- وفي المكالمة الاولى (الساعة ١٥ , ١٠ صباحاً) تعهد من تلقاء نفسه أن يعلم الحكومة البريطانية بأن الرد الألماني على الإنذار البريطاني هو الآن في الطريق وأن الألمان مازالوا "مهتمين جداً بارضاء الحكومة البريطانية وتقديم تأكيدات مقنعة بألا يعتدوا على إستقلال پولندا"!! وهو يأمل أن تدرس لندن رد هتلر "درساً على اساس من حسن الظن"[٣٥].

بعد ذلك بنصف ساعة (٥٠ , ١٠ صباحاً) قبل أن تنتهي المدة المحددة بالإنذار، بعشر دقائق. كان داليروس متصلاً بالتلفون الخارجي بوزارة الخارجية البريطانية، ليتقدم هذه المرة بإقتراح قيام گورنگ -بموافقة هتلر- بالسفر حالاً الى العاصمة البريطانية، ولم يدرك أن الوقت قد فات على هذه الفرائد "الدبلوماسية إلا أن الوقت لم يطل به ليصحو على الحقيقة. فكان الجواب الذي تسلمه من هاليفاكس جازماً. قال له ان إقتراحه لايمكن الأخذ به "لقد سئلت الحكومة الألمانية سؤالاً واضحاً محدداً، والمفروض فيها ان ترسل جواباً واضحاً محدداً". إن حكومة صاحب الجلالة لايمكنها الانتظار لمباحثات أخرى مع گورنگ"[٣٦].

فاقفل (داليروس) التلفون واختفى في زوايا التاريخ ليظهر مرة أخرى ولفترة قصيرة في محاكمات نورمبرگ بعد انتهاء الحرب - وقد روى في كتابه محاولته العجيبة لإنقاذ السلم العالمي[٣٧].

كان نبيل القصد، ناضل في سبيل السلم ووجد نفسه خلال لحظات في وسط اضواء مسرح تاريخ العالم الباهرة، لكنه كما جرى لكل امرءٍ آخر تقريباً، غرق في لجة من الإضطراب كانت اقوى من أن تدعه يرى الأمور على حقيقتها وأقر في نورمبرگ أنه لم يكن يدرك كم خدعه الألمان.

بعد الحادية عشرة صباحاً بقليل وبإنقضاء اجل الإنذار، أرسل ريبنتروب بطلب السفير البريطاني

٣٥- وثائق وزارة الخارجية البريطانية، ج٧، رقم ٧٦٢، ص٥٣٧- ن:١.

٣٦- المرجع السالف.

٣٧- ظهر ظهوراً خاطفاً في ٢٤ أيلول. حين التقى بفوربس في (اوسلو). "ليتأكد فيما اذا كان يوجد امل في اجتناب حرب عالمية" على ماروى في محاكمة نورمبرگ قبل ان يؤمر بالسكوت. (محاكمات مجرمي الحرب الكبار، ج٩، ص٤٧٣).

ليسلمه الرد الألماني (بعد ان رفض مقابلته قبل ساعتين!): ويقول الرد أن الحكومة الألمانية ترفض "ان تتسلم أو تقبل، بل أن تطبق" ماجاء في الإنذار البريطاني. واورد بعدئذ تصريحات دعاية رخيصة مبتذلة قام بتدبيجها بسرعة -على ما يبدو- كل من هتلر وريبنتروب في غضون الساعتين المنصرمتين. وهي بالأصل مما دبج ونظم لخداع الشعب الألماني السهل الخداع. ترددت فيه كل الاكاذيب المألوفة لدينا الآن ومنها كذبة "الغارات" البولندية على الأراضي الألمانية. والقي اللوم على بريطانيا بكل ماحصل ورفض كل محاولة "لإرغام ألمانيا على سحب قواتها التي انما جردت وعبئت دفاعاً عن الرايخ" وصرح زيفاً وبهتاناً أن ألمانيا، رضيت بآخر المقترحات التي اعلنها موسوليني لإنقاذ السلم. مدعياً أن بريطانيا رفضتها. واتهم حكومة بريطانيا (بعد كل تنازلات چمبرلين) "بالدعوة الى القضاء التام على الشعب الألماني وابادته".

قرأ (هندرسن) الوثيقة (لقد وصفها فيما بعد: بالوثيقة التي زيفت فيها الوقائع تزييفاً تاماً) ثم عقب يقول "التاريخ هو الذي سيحكم اي جانب هو الملوم" فأجاب ريبنتروب أن "التاريخ سبق وأصدر حكمه على الوقائع"(٣٨).

كنت واقفاً في شارع ڤلهلمشتراسه أمام المستشارية في ساعات الظهر، عندما اعلنت مكبرات الصوت بصورة مفاجئة أن بريطانيا العظمى، قد اعلنت انها في حالة حرب مع ألمانيا(٣٩).

ولم يكن حولي من الناس مايزيد عن مائتين وخمسين واقفين يتشمسون وراحوا ينصتون بإهتمام إلى الإذاعة. وبعد أن انتهت لم أسمع همسةً واحدة أو لفظاً. ظلوا مسمّرين في أمكنتهم ذاهلين مصدومين وكان يصعب عليهم أن يتفهموا أن هتلر دفع بهم الى هاوية الحرب. ومالبث باعة الطبعات الخاصة من الصبيان أن نزلوا الى الشوارع برزمهم رغم ان اليوم أحد. في الواقع اني لاحظت انهم يوزعونها ولايبيعونها فاخذت واحدة وكانت صحيفة "دويتشه الگماينه تزايتنگ." وعناوينها الضخمة تكاد تحتل صدرها من جانب الى جانب:

[الإنذار البريطاني يرفض]، [بريطانيا تعلن انها في حالة حرب مع ألمانيا]، [المذكرة البريطانية، تطلب سحب قواتنا من پولندا]، [الزعيم يرحل الى الجبهة هذا اليوم]

٣٨- كانت العجلة الشديدة تبدو في صياغة هذه المذكرة الركيكة الى حد انها ختمت بالعبارة المضحكة التالية؟ "لقد أحطنا علما بنية الحكومة البريطانية الواضحة في مذكرتها. وهي بالأصل نية السيد (كنگ هول) التي قضت على الشعب الألماني بحكم الفناء وبمصير اسوء مما ادخرته له معاهدة ڤرساي. ونحن بناءً على هذا، سنرد على كل عمل عدواني يصدر من إنگلترا بالسلاح نفسه والاسلوب نفسه". لاشك وان الحكومة البريطانية لم تتبن اي نية من نوايا سيتفن كنگ هول Stephen King Hall وهو ضابط بحري متقاعد كان يكتب روايات خيالية عن مغامرات شخصية روائية بحتة، وكان هندرسن قد إحتج لدى وزارة الخارجية البريطانية على نشر مطبوعاته في ألمانيا. فرجت الحكومة البريطانية الناشر ان يكف.

٣٩- في الساعة الحادية عشرة صباحاً سلم (هاليفاكس) القائم بالأعمال الألماني مذكرة رسمية ورد فيها "لما لم تصل من الحكومة الألمانية تأكيد ما في الساعة ١٧٠، فلي عظيم الشرف بإبلاغكم ان حالة الحرب قد وجدت فعلاً بين البلدين من الساعة ١١ من صباح هذا اليوم الثالث من أيلول".

أما العنوان الذي وضع في صدر النص الرسمي، فقد بدا وكأن ريبنتروب أملاه بنفسه:

[المذكرة الألمانية تثبت جيمة بريطانيا]

وربما "صدق" بذلك الشعب الألماني السهل القياد والإنخداع. إلا أن التأليب الصحافي لم يولد اي شعور بالسخط على الإنكليز خلال ذلك اليوم. وعندما مررت بالسفارة البريطانية، وكانت حركة الانتقال منها جارية الى فندق (آدلون) القريب في المنعطف لم اجد غير شرطي Schupo واحد يسير جيئة وذهاباً أمام البناية ولايفعل شيئاً إلا هذا.

وتلكأ الفرنسيون قليلاً. وظل (بونيه) يتشبث بالوقت الى آخر لحظة متعلقاً تعلقاً عنيداً بأمل قيام موسوليني بإطلاق عملية تسوية مع هتلر قد تحل فرنسا من إلتزاماتها. بل راح يناشد السفير البلجيكي لحمل الملك ليوپولد على إستخدام نفوذه مع نفوذ موسوليني للتأثير على هتلر. وظل طوال السبت ٢ أيلول يتناقش مع أعضاء الوزارة ومع البريطانيين زاعماً أنه وعد تشيانو بانتظار الجواب الألماني (حتى ظهر الثالث من أيلول) على مذكرتي التحذير الأنگلو فرنسية المؤرخة ١ أيلول وأنه لايسعه الإخلال بوعده. والحق يقال أنه أعطى تأكيدات لوزير الخارجية الإيطالي. ولكن أجل الموعد لم يكن يتعدى التاسعة من مساء ٢ أيلول في ذلك الوقت كان إقتراح الدوتشي بعقد مؤتمر قد اصبح ميتاً كالحجر الأصم وكما حاول تشيانو أن يفهم (بونيه). وفي تلك الساعة - ايضاً كان البريطانيون يناشدونه تقديم إنذار نهائي الى برلين في متنصف الليل.

قبل منتصف ليل ٢ أيلول بقليل حزمت الحكومة الفرنسية أخيراً أمرها وابرق بونيه الى كولوندر في برلين بأن يقدم صباح الغد شروط "التحذير الثاني" الى ڤلهلمشتراسه في الساعة ١٢ ظهراً[٤٠]. فنفذ الأمر في الساعة ١٠,٢٠ صباح الأحد ٣ أيلول، قبل انتهاء أجل الإنذار البريطاني بأربعين دقيقة. وكان الإنذار الفرنسي مشابهاً في الصيغة بإستثناء موضوع واحد أن الحكومة الفرنسية تصرح في حالة الأجابة السلبية - بأنها ستعنى بإلتزاماتها لپولندا "وهي الإلتزامات التي تعرفها الحكومة الألمانية" حتى في هذه المرحلة الختامية. أبى بونيه أن يتخذ الصيغة المألوفة لإعلان الحرب.

يذكر الكتاب الأصفر الفرنسي الرسمي أن نص الإنذار الفرنسي الذي أبرق الى (كولوندر) جعل الساعة الخامسة فجراً نهاية مدة الإنذار - إلاّ أن هذا الموعد لم يكن الساعة التي ثبتت في البرقية الأصلية. ففي الساعة ٨,٤٥ صباحاً أبلغ السفير (فيبس) هاليفاكس من پاريس:

"يقول لي بونيه أن التوقيت الفرنسي للإنذار سينتهي في الساعة الخامسة من فجر يوم الإثنين [٤ أيلول]". وهذا هو الوقت الذي ذكر في برقية بونيه.

ومع أن الأجل المضروب للإنذار كان فيه امتياز انتزعه دالادييه انتزاعاً من هيئة الأركان العامة الفرنسية - في يوم الأحد صباحاً، بعد أن ظلت مصرة على ثمان وأربعين ساعةً كاملة تبدأ من وقت

٤٠- بل حتى بعد هذا قام بونيه (انظر ما سبق) بمحاولة الدقيقة الأخيرة لإبعاد فرنسا عن الحرب، بإقتراحه على الإيطاليين أثناء الليل أن يحملوا هتلر على تدبير إنسحاب "رمزي" من پولندا.

تقديم الإنذار الى برلين ظهراً، إلاّ أنّه ضايق الحكومة البريطانية وأزعجها حتى أنها صارحت باريس باستيائها بصيغة فاضحة قبل ظهر اليوم. ولذلك بادر دالاديبه ببذل مجهود أخير مع العسكريين فزار الجنرال كولستون Colston في هيئة الأركان في الساعة ١١,٣٠ صباحاً والح ان يختصر الوقت المحدد. فوافق الجنرال متردداً على خصم إثنتي عشرة ساعة أي جعله في الساعة ٥ فجراً.

وهكذا فما كاد (كولوندر) يهم بترك السفارة الفرنسية في برلين قاصداً ڤلهلمشتراسه حتى اتصل به (بونيه) تلفونياً واشار عليه أن يقوم بإجراء التعديل الضروري على ساعة الصفر[٤١].

ولم يكن ريبنتروب موجوداً في الوزارة ظهر اليوم. فقد كان يشارك في حفلة صغيرة اقيمت بدار المستشارية احتفاء بالسفير السوڤيتي الجديد الكساندر شكفارزيف Alexander Shkvarzev، حيث استقبله (الزعيم) بحرارة - وكانت مناسبة أضفت على يوم الأحد التاريخي هذا في برلين لوناً شاذاً. وأصر(كولوندر) على تطبيق تعليماته حرفياً بالحضور الى ڤلهلمشتراسه في الساعة الثانية عشرة ظهراً بالضبط، فاستقبله (ڤايسيكر) وعندما سأله السفير هل أن وكيل الوزارة مخول باعطاء "جواب مقنع" للفرنسيين أجاب ڤايسيكر أنه ليس في موقف يتمكن من اعطاء "أي جواب كان" وتبع ذلك هزلية دبلوماسية صغيرة في هذه الساعة الخطيرة. فعندما حاول (كولوندر) اعتبار جواب (ڤايسيكر) رداً ألمانياً سلبياً توقعه فعلاً وان يسلمه إنذار فرنسا الرسمي، رفض ڤايسيكر قبوله ورجا السفير "أن يتكرم بالإنتظار فترة قصيرة أخرى ليقابل وزير الخارجية شخصياً" فخاب - ولم تكن الخيبة الأولى وبقي ينتظر حوالي نصف ساعة. حتى اذا ازفت الساعة ١٢,٣٠ ظهراً طلب منه الذهاب الى المستشارية لمقابلة ريبنتروب[٤٢].

ومع ان وزير الخارجية النازي كان يعرف مهمة السفير، فانه لم يدع الفرصة تمر وهي آخر فرصة تعن، دون أن يتحف المبعوث الفرنسي بنموذج من مراوغاته المألوفة في عالم التاريخ. فبعد أن نوّه بأن موسوليني أثناء تقديم مقترحاته السلمية قد أوضح ان فرنسا وافقت عليها وان ألمانيا "أبلغت الدوتشي يوم أمس أنها أيضاً مستعدة" للموافقة على الإقتراح. ولكن بعد مرور ساعات من اليوم نفسه أبلغنا الدوتشي أن إقتراحه قد أفسده التدخل البريطاني". إلاّ أن (كولوندر) كان قد سمع الكفاية من اكاذيب ريبنتروب وتزييفه طوال الاشهر الماضية. وبعد أنه أصغى فترة أخرى اليه وهو يعرب عن أسفه لسير فرنسا على نهج بريطانيا وأن ألمانيا ليس لديها نية في مهاجمة فرنسا. وصل إلى السؤال الذي جاء ليطرحه: هل تعني ملاحظات وزير الخارجية أن رد الحكومة الألمانية على المذكرة الفرنسية المؤرخة (١) أيلول هو السلب؟ فأجاب ريبنتروب "نعم!" وهنا قام السفير بتسليم وزير الخارجية الإنذار الفرنسي مصدّراً اياه بالمقدمة: "للمرة الأخيرة" يجب عليه أن يبين "مسؤولية حكومة

٤١- هذا ماوراه بونيه بالذات: المرجع السالف، الص ٣٦٥- ٣٦٨.
٤٢- تقرير ڤايسيكر عن الإجتماع "وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية، ج٧، ص ٣٥٢.

الرايخ الضخمة" في الاغارة على پولندا "دون إعلان الحرب عليها"، وفي رفض الطلب الأنگلو- فرنسي بسحب القوات الألمانية فقال ريبنتروب "اذن فستكون فرنسا الدولة المعتدية".

فأجاب كولوندر "الحكم في هذه القضية للتاريخ وحده".

في نهار الأحد هذا، يظهر أن كل المشاركين في الفصل الأخير من هذه التمثيلية في برلين راحوا يحتكمون الى التاريخ.

* * *

مع أن فرنسا في الوقت الراهن كانت تحشد جيوشاً تحقق التفوق الساحق، على القوات الألمانية في المغرب، فإن بريطانيا العظمى؟ بجيشها الحاضر الذي لايعد شيئاً مذكوراً؟ كانت تحتل الحيز الأكبر من رأس هتلر المتلاطم المصطخب بوصفها العدو الأساسي والخصم المسؤول وحده تقريباً عن المفازة الصعبة التي وجد نفسه فيها، هذا ما كان يشعر به ويوم ٣ أيلول ١٩٣٩ يتلاشى ويدخل بطون التاريخ. وقد كشف عن ذلك في بيانين اصدرهما بعد ظهر اليوم الى الشعب الألماني والى جيش الغرب. فجر فيهما حقده المرير وغيظه الهستيري على البريطانيين:

ففي: "نداء الى الشعب الألماني" قال: ظلت بريطانيا العظمى قروناً تتابع هدف إخضاع الشعوب الأوروپية وجعلها عديمة الحيلة ازاء السياسة البريطانية الهادفة الى السيطرة على العالم... [و] ادعت حق الهجوم على تلك الدولة الأوروپية وتحطيمها متذرعة بحجج واهية لأن تلك الدولة في الوقت الحاضر تمثل أعظم خطر عليها... لقد كنا نحن أنفسنا شهوداً عدولاً لسياسة التطويق... انتهجتها بريطانيا العظمى ضد ألمانيا منذ ماقبل الحرب... إن مثيري الحروب البريطانيين.. اضطهدوا الشعب الألماني بمعاهدة ڤرساي المفروضة فرضاً..."

وفي النداء الذي وجهه الى الجنود الذين ظلوا عدة أسابيع لايواجهون إلا الجيش الفرنسي، قال: ياجنود جيش الغرب!... إن بريطانيا العظمى قد سلكت سياسة تطويق ألمانيا... إن الحكومة البريطانية بتحريض من تجار الحروب الذين عرفناهم في الحرب الأخيرة قد قرروا اماطة اللثام عن أوجههم وتمزيق اقنعتهم بإعلان الحرب متعللين بحجج واهية..."

ولم يذكر فرنسا بكلمة واحدة.

وفي لندن واجه وچمبرلين مجلس العموم في الدقيقة السادسة بعد الساعة الثانية عشرة وأبلغه أن بريطانيا هي الآن في حالة حرب مع ألمانيا. ومع أن هتلر اصدر بتاريخ ١ أيلول أمراً بمنع الاستماع الى الإذاعات الاجنبية وفرض عقوبة الموت على المخالفين. فقد التقطنا في برلين كلمات چمبرلين كما نقلتها دار الإذاعة البريطانية. وقد وجدنا نحن الذين رأيناه يقامر بحياته السياسية في كودسبرغ ومونيخ لإسكات هتلر، ان كلماته كانت حادة لاذعة.

"يومنا هذا يوم كئيب للجميع وليس ثم كائن يفوقني شعوراً بالكآبة فيه. كل ما جاهدت لأجله، كل

ما ماآمنت به طوال حياتي السياسية تحطم وتقوض. ولم يتبق لي من عمل إلاّ أن اوقف ماتخلف في كياني من قوة ونشاط لتحقيق النصر. نصر القضية التي يجب علينا أن نضحي من أجلها الكثير... واتمنى ان اعيش لتكتحل عيني باليوم الذي أرى فيه الهتلرية تتحطم، وأن يعاد إنشاء أوروپا حرة".

ولم يشأ القدر أن يعيش چمبرلين ليرى ذلك اليوم فقد قضى نحبه رجلاً محطماً يائساً -وان ظل عضواً في الوزارة حتى التاسع من تشرين الثاني ١٩٤٠ ولانجد بعد كل ماورد عنه في هذه الصفحات إلا أن نثبت هنا ما قال چرچل في رثائه. وهو الذي كان قد حرمه من معالجة شؤون الشعب البريطاني أمداً طويلاً فما لبث أن خلفه في رآسة الوزارة في ١٠ أيار ١٩٤٠. قال چرچل في تأبينه في مجلس العموم بتاريخ ١٢ تشرين الثاني ١٩٤٠:

"... في واحدة من أعظم الأزمات التي عاناها عالمنا، قضت الأقدار على نقيل چمبرلين أن تتجاذبه الأحداث ويصاب بخيبة الآمال ويقع ضحية غش وخداع رجل شرير. لكن ما هي آماله التي آلت الى الخيبة؟ ماهي رغباته التي أخفق في تحقيقها؟ ماهو ذلك الإيمان الذي لحقته الإهانة؟ لاشك انها من أسمى وأنبل وأفضل عواطف القلب البشري. انها حب السلم والعمل في سبيل السلم، الجهاد في سبيل السلم الى حد التعرض الأعظم المهالك، والإزدراء التام بالشهرة والمجد".

بعد أن فشلت دبلوماسية هتلر في إبعاد بريطانيا عن ميدان القتال. أولى إهتمامه الشؤون العسكرية في ساعات العصر. فأصدر الأمر السري للغاية المرقم (٢) لادارة الحرب. جاء فيه: رغم إعلان فرنسا وبريطانيا الحرب "فأن الهدف العسكري الألماني يبقى في الوقت الحاضر، انهاء العمليات سريعاً في پولندا بتحقيق الظفر... في الغرب تترك المبادأة بالأعمال العدوانية للعدو... ضد إنگلترا يسمح بالهجوم البحري" ولايهاجم سلاح الجو الألماني اي هدف حتى القوات البحرية إلا اذا بادأ البريطانيون باعمال مماثلة على اهداف ألمانية- وعندئذ يرد عليها في حالة كون إحتمالات النجاح كبيرة بنوع خاص" وصدر الأمر بتوجيه كل الصناعة الألمانية الى الاقتصاد الحربي"[٤٣].

وفي الساعة التاسعة مساء غادر برلين كل من هتلر وريبنتروب في قطارين خاصين منفصلين متجهين الى مقر القيادة العامة في الشرق لم يسافرا إلاّ بعد أن أقدما على عمليتين دبلوماسيتين. إن فرنسا وإنگلترا هما الآن في حرب مع ألمانيا لكن هناك دولتين معظمتين أخريين في أوروپا شجعته مساندتهما على تنفيذ مغامرته، وعليه الآن أن يتولى أمر الإهتمام بها: إيطاليا حليفته التي ألوت برأسها عنه في آخر لحظة وروسيا السوڤيتية التي (وإن كان الدكتاتور النازي يشك في نواياها) طوقته بفضلها اذ جعلته يقامر في حربٍ تسوى المقامرة.

وقبل مغادرته العاصمة بعث برسالة الى موسوليني. أرسلها برقياً في الساعة ٨,٥١ مساءً قبل حركة قطاره الخاص بتسع دقائق. هذه الرسالة رغم شائبة عدم الصراحة ووجود الكذب فيها، تعرض أفضل صورة يمكن أن نتحف بها مخيلتنا لأدولف هتلر في اول رحلة له من عاصمة الرايخ الثالث

٤٣- النص في (وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية، ج ٧، الص ٥٤٨- ٥٤٩).

المكفهـرة، لتسلم دوره بوصفه رب الحرب الألماني الأعلى. وقد عثر عليها بين الأوراق النازية المضبوطة.

أيها الدوتشي: "وجب علي ان اشكرك أولاً لمحاولتك الأخيرة في الوساطة. لقد كنت على إستعداد للقبول لو وجدت إحتمالاً صغيراً يعطيني نوعاً من الضمان بنجاح المؤتمر. ذلك لأن القوات الألمانية مشتبكة منذ يومين وهي تتقدم متوغلةً داخل پولندا بسرعة مدهشة غير اعتيادية. وقد يكون من المستحيل ان يضحى بالدم المهراق هناك على مذبح المكائد الدبلوماسية.

وعلى كل حال فأنا أعتقد أنه كان يمكن التوصل الى مخرج لو لم تحزم بريطانيا أمرها من البداية على إبلاغ الأمور إلى حالة الحرب لامحالة. ولم أخضع لتهديد بريطانيا إني ايها الدوتشي، لم أعد أومن بأن السلم يمكن الابقاء عليه اكثر من ستة اشهر أو عام واحد على اكثر تقدير. في هذه الظروف، رأيت اللحظة الراهنة هي رغم كل شيء أنسب لخطة النزال.

... سيتصدع الجيش الپولندي ويخر متقوضاً في فترة قصيرة جداً ولاأدري هل كان يمكن تحقيق هذا النجاح السريع في عام مقبل أو عامين. اراني مضطراً الى القول إني اشك جداً في ذلك. فسوف تمضي فرنسا وإنگلترا قدماً في تسليح حلفائها إلى درجة لايعود يمكن ملاحظة وجود التفوق التكني الساحق للڤيرماخت الألماني كما يلاحظ اليوم. واني لمدرك ايها الدوتشي بأن الكفاح الذي اخوضه اليوم هو كفاح حياة او موت... إلاّ أني مدرك ايضاً ان كفاحاً كهذا لايمكن اجتنابه في النهاية وأن وقت القتال يجب أن يتم اختياره بتأمل متزن هاديء بحيث تزداد إحتمالات الثقة بالنصر وتتأكد. وايماني بهذا النجاح يا ايها الدوتشي ثابت ثبات الصخرة".

بعد هذا تأتي عبارات تحذير لموسوليني: "لقد تلطفت فأكدت لي إنك قد تستطيع مساعدتي في بعض الميادين. إنّي اقبل ذلك منك مع سبق الشكر، الا اني اعتقد أيضاً - وان كانت سبلنا الآن مختلفة، فإن القدر سيربط مصائرنا معاً. لو قدر لألمانيا القومية الإشتراكية أن تتحطم على يد الديمقراطيات الغربية، فستواجه إيطاليا الفاشية أيضاً مستقبلاً مظلماً. ولقد كنت شخصياً مدركاً على الدوام بأن مستقبل نظامينا مترابطان. واني عالم ايها الدوتشي بأنك تشاركني الرأي تماماً "،وختم هتلر رسالته بعد تعداده انتصارات الألمان الأولى في پولندا - بالعبارة التالية:

......في الغرب، سأبقى متخذا وضع الدفاع. وبامكان فرنسا أن تريق دمها هناك اولاً. وبعد ذلك ستحين الساعة عندما نستطيع أن نلقي بانفسنا هناك أيضاً على العدو بكل قوى الأمة.

أرجو أن تقبل شكري مرة أخرى ايها الدوتشي لكل ماقدمته لي من عون في الماضي، وأنا أسأل ألاّ تأباه عليَّ في المستقبل كذلك. أدولف هتلر(٤٤)

أفلح هتلر في اخفاء ألمه لعدم قيام إيطاليا بالوفاء بعهدها، تحت اطباق عميقة من ضبط النفس - حتى بعد أن وفت بريطانيا وفرنسا بإلتزاماتهما وأعلنتا الحرب في هذا اليوم. إن إيطاليا الصديقة وإن

٤٤- النص في (المرجع السالف) ج٧، الص ٥٣٨-٥٣٩.

لم تكن حليفة نزال، هي مصدر عون، بطبيعة الحال.

إلاّ أن روسيا قد تكون اكثر عوناً.

أوضحت أوراق النازي السرية التي استولي عليها فيما بعد ان الحكومة السوڤيتية قدمت لسلاح الجو الألماني في اول يوم من الهجوم الألماني على پولندا، خدمة فريدة في بابها. ففي ساعات فجر ذلك اليوم الأولى إتصل الجنرال هانس يشونيك Hans Jeschonneck رئيس أركان القوة الجوية، بالسفارة الألمانية في موسكو ليقول إنه يكون ممتناً لو أن محطة الراديو الروسية في (منسك)، تقوم بالإفصاح عن هويتها بإستمرار عبر الأثير، وبذلك تقدم لطياريه مساعدة ملاحية في قصف پولندا عبّر عنها بعبارة "اختبارات ملاحة ضرورية". واستطاع السفير فون شولنبرگ أن يُعلم برلين عصر اليوم نفسه بأن الحكومة السوڤيتية "كانت مستعدة لتلبية رغبتكم" ووافق الروس على إعلان هوية المحطة بأكثر مايمكن خلال برنامجهم الاذاعي وأن يمددوا فترة اذاعة راديو منسك ساعتين حتى تمتد مساعدة الطيارين الألمان الى وقت متأخر من الليل(٤٥).

لكن هتلر وريبنتروب كانا قبل مغادرتهما برلين مساء ٣ أيلول يفكران في مساعدة جوهرية عسكرية روسية اكبر بكثير من هذه في اتمام إحتلال پولندا. في الساعة ٥٠, ٦ مساءً بعث ريبنتروب إلى السفارة الألمانية في موسكو ببرقية "مهمة للغاية" صدّرت بعبارة "سري جداً" وبدأت هكذا: "للسفير وحده او لرئيس البعثة الدبلوماسية أو ممثله شخصاً. يُعنى جداً بالكتمان. تفك رموزها بيده. سري للغاية".

باعظم مايمكن من الكتمان دعا الألمان الإتحاد السوڤياتي إلى مشاركتهم في الهجوم على پولندا. [وجاء في البرقية].

"نحن نتوقع جزماً أن نهزم الجيش الپولندي هزيمة ساحقة خلال أسابيع قلائل. وعندئذ سنخضع الأقاليم التي ثبتت في موسكو بوصفها مجال النفوذ والمصالح الألمانية للإحتلال العسكري. ولأسباب عسكرية سيترتب علينا بطبيعة الحال الإستمرار في عملياتنا ضد القوات العسكرية الپولندية التي ستكون في ذلك الوقت معسكرة في المناطق الپولندية التي ستعود الى المجال الروسي. نرجو ان تبحث في الأمر حالاً مع مولوتوف، وأن ترى ألاّ يحبذ الإتحاد السوڤياتي أن تقوم القوات الروسية في الوقت المناسب بالحركة ضد القوات الپولندية في الجزء الروسي وتحتل من جانبها المنطقة الخاصة بها. وفي تقديرنا أن ذلك سيكون نجدة لنا، كذلك سيكون في مصلحة السوڤييت أيضاً بمقتضى إتفاقية موسكو(٤٦).

من الواضح ان حركة كهذه يقوم بها الإتحاد السوڤياتي ستكون نجدةً لهتلر وريبنتروب. لانها ستقضي على اي خلاف أو احتكاك بين الألمان والروس في اقتسام الأراضي، وكذلك سترفع بعض

٤٥- ذلك موضح في [وثائق عن سياسة ألمانيا الخارجية المرجع السالف ص٤٨٠].

٤٦- نص البرقية في المرجع السالف الص٥٤٠- ٥٤١.

الوزر عن كاهل ألمانيا لعدوانها على پولندا. وتضعه على عاتق الإتحاد السوڤياتي. إن كانتا شريكتين في الغنم، فلم لاتكونان شريكتين في الغرم؟

كان أشد الألمان البارزين في الحكم غماً (في برلين بعد أن إنتشر نبأ دخول بريطانيا الحرب) هو الأميرال الأعظم (رايدر) القائد العام للأسطول الألماني. فقد سبقته الحرب بأربع سنوات أو خمس. ذلك لأن برنامج (Z) البحري لن يتم إلاّ في ١٩٤٤-١٩٤٥ ليؤمن لألمانيا أسطولاً كبيراً تطاول به الأسطول البريطاني. لكن اليوم هو الثالث من أيلول عام ١٩٣٩. و(رايدر) يعلم وإن خالفه هتلر بأنه لايملك من القطع البحرية العائمة ولا الغائصة ايضاً مايكفي لشن حرب فعالة على بريطانيا العظمى.

ولجأ الى يومياته ليكتب مايلي:

"اليوم إندلعت الحرب بيننا وبين فرنسا وإنكلترا، الحرب التي أكد (الزعيم) في الماضي بأنها لن تحصل قبل ١٩٤٤. لقد اعتقد الزعيم الى آخر دقيقة ان بالامكان اجتنابها حتى ولو أدى ذلك الى تأجيل التسوية النهائية للمشكلة الپولندية...

وبقدر مايتعلق الأمر بالأسطول. فلاشك أنه غير مجهز تجهيزاً جيداً لخوض حرب كبيرة مع بريطانيا... إن سلاح الغواصات ضعيف جداً، بحيث لن يكون له تأثير حاسم في الحرب. والسلاح العائم فضلاً عن ذلك أقل عدداً وعدة من الأسطول البريطاني، بحيث لايستطيع وهو في أقصى منعته أن يفعل اكثر من ان يظهر بأنه يعرف كيف يموت ميتة الأبطال..."[٤٧]

ومهما يكن، ففي الساعة التاسعة من مساء ٣ أيلول ١٩٣٩ وفي اللحظة التي كان هتلر يترك برلين ضرب الأسطول الألماني ضربته.

اطلقت الغواصة (و-٣٠) طوربيداً على باخرة الركاب البريطانية آثينيا Athenia في نقطة تبعد زهاء مائتي ميل غرب (هيبرايدس Hebrides) وهي في طريقها الى مونتريال من ليفربول فأغرقتها. وكانت تقل (١٤٠٠) راكب وفقد ١١٢ منهم حياتهم وبين هؤلاء الموتى ثمانية وعشرون أمريكياً.

ها قد بدأت الحرب العالمية الثانية.

٤٧- "مؤمرات الزعيم في الشؤون البحرية - ١٩٣٩" النص ١٣-١٤.

الفهرست

الجزء الأول

الكتاب الأول

ظهور "أدولف هتلر"

(٤) الفصل الرابع - عقلية هتلر وجذور الرايخ الثالث

الكتاب الثاني

النصر وإستثمار الفوز

(٥) الفصل الأول - الطريق الى السلطة (١٩٢٥-١٩٣١)

(٦) الفصل الثاني - آخر أيام الجمهورية (١٩٣١-١٩٣٣)

(٧) الفصل الثالث - النازية تعم ألمانيا (١٩٣٣-١٩٣٤)

(٨) الفصل الرابع - الحياة في الرايخ الثالث (١٩٣٣-١٩٣٧)

الكتاب الثالث

الطريق الى الحرب

(٩) الفصل الأول - الخطوات الأولى (١٩٣٤-١٩٣٧)

(١٠) الفصل الثاني - فصل غريب حاسم!

سقوط بلومبرگ وفريتش ونيوارث وشاخت

(١١) الفصل الثالث - إغتصاب النمسا (آنشلوس)

(١٢) الفصل الرابع - الطريق الى مونيخ

(١٣) الفصل الخامس - چيكوسلوڤاكيا تقضي نحبها

(١٤) الفصل السادس - الدائرة تدور على پولندا

الجزء الثاني

الكتاب الرابع

الحرب: الإنتصارات الأولى ونقطة التحول

(١٨) الفصل الأول: سقوط پولندا

(١٩) الفصل الثاني: حرب القِعدة في الغرب "Sitzkrieg"

(٢٠) الفصل الثالث: فتح الدانمرك والنرويج

(٢١) الفصل الرابع: النصر في الجبهة الغربية

(٢٢) الفصل الخامس: عملية "أسد البحر": غزوة بريطانيا الفاشلة

(٢٣) الفصل السادس: "بربروسا" والتحول الى روسيا

(٢٤) الفصل السابع: تحوّل المدّ

الكتاب الخامس

بداية النهاية

(٢٩) الفصل الثالث: غزو الحلفاء غرب أوروبا ومحاولة قتل هتلر

الكتاب السادس

سقوط الرايخ الثالث

(٣٠) الفصل الأول: فتح ألمانيا

(٣١) الفصل الثاني: آخر أيام الرايخ الثالث: "Goetterdaemmerung"